



عبد الوهاب المسيري

رحلاتي الفكرية

في البذور والجذور والتمر

سيرة غير ذاتية غير موضوعية

دار الشروق

- رحلتى الفكرية
- فى البذور والجذور والثمار .
- سيرة فكرية .
- د. عبد الوهاب السيرى .
- الطبعة الأولى :
- الهيئة العامة لتصوير النكتة .
- سلسلة مطبوعات الهيئة (٧١)
- القاهرة - ٢٠٠٠
- لوحة الخلف إهدام من الفنان .
- حلمى التوفى
- رقم الإيداع ، ٢٧٨٦ / ٢٠٠١
- المراسلات :
- باسم مدير التحرير
- على العنوان التالى :
- ١٦ شارع أمين ساسى - القصر المينى
- القاهرة - رقم جريدتى ١١٥٦١
- ت ٢٩١٧٨٩١ (داخلى ، ١٨٠)
- الطباعة والتنضيد :
- شركة الأمل للطباعة والنشر .
- ت ٢٩٠٤٠٩٦

١١٥٦١ / ٢٩١٧٨٩١ - ٢٩٠٤٠٩٦ - ٢٧٨٦ / ٢٠٠١

الأراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبرها الضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول

مقدمة

حينما أنتهي من أحد أعمالي الفكرية ، عادة ما أتأمل وأتأمل القضايا المنهجية والفكرية التي يثيرها حتى أبلورها لنفسي لتتضح الرؤية ، وأرى علاقات بين التفاصيل والأفكار المختلفة لم أكن قد رأيتها من قبل ، وأدرك جوانب في الموضوع الذي أناول. لم يكن قد سبق لي إدراكها ، كما أتعرف على بنية العمل الداخلي . وفي معظم الأحيان ، إن لم يكن فيها جميعاً ، تنتهي هذه العملية بإعادة كتابة العمل عدة مرات ، إلى أن يستقر العمل تماماً ولا يفضي التأمل إلى جديد . وهذا ما فعلته في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد (يشار إليها في هذا الكتاب بكلمة الموسوعة) ، وقد أدى التأمل هذه المرة إلى كتابتها عدة مرات عبر عدة سنوات .

وحينما لاحظت مشارف ما تصورت أنه اكتمال أهم أعمالي ، وجدت أنه قد يكون من المفيد أن أضع بين أيدي القراء ، وبخاصة الشباب ، بعض خبراتي الفكرية والمنهجية . وبالفعل ، كتبت بضع صفحات عن حياتي وأفكاري كنت أنوي ضمها إلى الموسوعة . ولكن اتسع نطاق التأمل وزاد حجم الصفحات وترابطت الأفكار (الشر) بعذورها (حياتي الثقافية بأسرها) وببذورها (تكريني في دمنهور) ، بحيث وجدت أنها تشمل كل حياتي الفكرية ، وهذا ليس بغريب ، لأن الموسوعة ، بمعنى من المعاني ، هي نتاج حياتي كلها . فاتفصلت التأملات والكلمات عن الموسوعة حتى أصبحت عملاً مستقلاً يحمل ولا شك بصمات ماضيه ، ولكنه مع هذا يتجاوزه في نفس الوقت . وكانت النتيجة هي هذه الصفحات : رحلتي الفكرية - في البذور والجلود والثمر : سيرة غير ذاتية غير موضوعية .

والصفحات التالية هي قصة حياتي أو رحلتي الفكرية كمثقف عربي مصري ، وليست قصة حياتي الخاصة زوجاً وأباً وإبناً وصديقاً وعدواً . وهي ترصد تحولاتي الفردية في الفكر والنهج ولكنها تزخر ، في الوقت نفسه ، لجلي ، أو لقطاع منه ؛ فتحولاتي ليست بأي حال منته الصلة بما يحدث حولي . كما أن الجزء الثاني هو محاولة لعرض بعض أفكارتي الأساسية كما تتمثل في معظم أعمالي ، بطريقة أعتقد أنها مبسطة ، كما أنها تبين كيف تشكلت هذه الأفكار ومدى ترابطها وبعض تطبيقاتها .

ومن هذا المنظور ، تصبح أحداث حياتي لا أهمية لها في حد ذاتها ، وإنما تكمن أهميتها في مدى ما تلقينه من ضوء على تطوري الفكري . ويمكنني القول بأنني فهمت كثيراً من أحداث حياتي الخاصة (الذاتية) من خلال نفس الموضوعات الأساسية الكامنة والمقولات التحليلية التي استخدمتها في دراساتي وأبحاثي (الموضوعية) ، وليس العكس . ولعل هذا ما دعاني إلى استبعاد بعض تفاصيل حياتي الخاصة (الفرقة في الخصوصية) ، وهي تفاصيل قد تكون مهمة من منظور شخصي ، وقد تهتم أعضاء أسرتي وأصدقائي ، ولكنها لا تهتم قارئ هذه الصفحات . ولعل هذه الواقعة توضح تماماً ما أود قوله . فقد حضرت احتفالاً رسمياً بمناسبة افتتاح كوبري في مديرية البحيرة وانهالت الخطب الواحدة تلو الأخرى . ثم قام أحد خيرة النفاذ وأخذ يعدد مناقب سمادة الوزير الذي جاء لافتتاح الكوبري ، فسعدته طيب جداً وعلى خلق متين للغاية وقيم الصلاة في موافقتها "وما يغوي بشي فرض" ... إلخ . فقام أحد المستمعين محتجاً ، قائلاً : "إن هذه صفات إيجابية إن كان الحديث عن زوج ابنتي ، لكن إن كان الحديث عن وزير [أي شخصية عامة] فالأمر جد مختلف" . وهذا هو ما فعلته في هذه الرحلة ، أي استبعدت كل الوقائع والتفاصيل التي ليس لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتطوري الفكري (ما لوني المفضل ؟ وما نوعية قماش بدلتني ؟ ومن خالتي ؟ ... إلخ) ، فهي وقائع لا تهتم من يريد أن يتعرف على تطوري الفكري . وحينما كنت أذكر إحدى الوقائع في حياتي كثيراً ما كنت أستبعد الأسماء الحقيقية لأبطالها حتى لا أسبب حرجاً لأحد منهم ، وحتى يركز القارئ على مغزى الواقعة (لا على تفاصيلها) . وقد يقول قائل إن كل الأمور مترابطة ، وإنني قد استبعد بعض التفاصيل المهمة دون أن أدري ، وهو محق . ولكن لا مناص من الاختيار ، ولا مناص من أن يتم الاختيار والإبقاء والاستبعاد والتهميش والتركيز حسب نموذج محدد ، فالبدل هو أن أحاول أن أعطي القارئ كل تفاصيل حياتي ، دون تفسير أو ترتيب ، ولعله قد يغرق فيها فلا يعرف أين يبدأ وكيف ينتهي ، وما معنى كل تفصيلة (أو معلومة) كما يقولون هذه الأيام ؟ .

لكل هذا ابتعدت عن السرد المباشر لأحداث حياتي المتعاقبة ومراحلها المتتالية ، وحاولت بدلاً من ذلك أن أعرض لها من خلال بعض الأنماط والقضايا والمقولات التحليلية والموضوعات الفكرية الكامنة المتواترة في كتاباتي وحياتي ، دون التقيد بمرحلة زمنية محددة . فهذه رحلة فكرية يتم سردها من خلال موضوعات (نماذج ، كما سأبين فيما بعد) لا من خلال مراحل متتابعة .

وقد سهّلت عليّ هذه الطريقة في الكتابة عملية الانتقال بين أحداث حياتي المختلفة ، أختار منها ما يتلاءم مع الموضوع الذي أتناوله . فحين أتناول موضوعاً ما ، أتناول كثيراً من جوانبه دون التقيد بمرحلة زمنية محددة . فكنت أبدأ ، على سبيل المثال ، بواقعة ما في حياتي وقراءاتي لهذه الواقعة ، وما استخلصته منها من نتائج ، ثم أنتقل إلى واقعة أخرى يتطلب منطق الفصل أن

تليها ، مع أن منطق السرد التاريخي يتطلب أن تأتي قبلها . كما أنني قد أورد أحياناً قرأت عنها أو جوانب من الموضوع الذي أتناوله تكشف لي فيما بعد ، متجاهلاً منطق التسالي الزمني ، متبعاً منطق بنية الفصل . وقد يسّرت لي هذه الطريقة في الكتابة عقد المقارنات المختلفة بين المواقف المتباينة (وفي تصوري أن المعرفة الإنسانية أساساً معرفة مقارنة) . وحتى حينما تناولت إحدى مراحل حياتي بشكل مستقل داخل إطار زمني (كما هو الحال في الجزء الأول من الرحلة) ، كنت أقوم دائماً بوضعها داخل غط فكري أو موضوع أساسي أكثر اتساعاً وعمومية من المرحلة ذاتها .

ولكن هذه الرحلة الفكرية ، مع هذا ، هي رحلتي أنا ، فأنا الذي عشت ما عشت من تجارب وطرحت ما طرحت من أسئلة ، وأدركت ما أدركت من أفراح وأتراح ، واستوعبت ما استوعبت من دروس ومفاهيم ! أنا الذي تفاعلت مع ما حولي من تجارب منذ أن ولدت في دمنهور ونشأت فيها إلى أن انتقلت إلى الإسكندرية ومنها إلى نيويورك ثم أخيراً إلى القاهرة حيث استقر بي المقام . وهي رحلة إنسان فرد له خصوصيته وذاتيته ، ولذا فالإشارة إلى الأحداث التاريخية العامة التي حدثت في حياتي (مثل ثورة ١٩٥٢) هي إشارة سريعة مقتضبة ، فهذا جزء من تاريخ مصر العام . بل إن الصراع العربي الإسرائيلي ، هذا الحدث المهم في حياتنا جميعاً ، يظهر في هذه الرحلة في طي حديثي عن رؤيتي له وعن التحولات التي خضتها في أثناء كتابتي الموسوعة .

فإذا كانت هذه الرحلة الفكرية ، سيرة غير ذاتية ، فهي أيضاً سيرة غير موضوعية ، سيرة إنسان يلتقي في فضاء حياته الخاص بالعام ، ولهذا لا أذكر القضايا الفكرية المجردة وحسب وإنما أشفعها دائماً بأحداث من حياتي أو اقتباسات من كتاباتي تبين كيف ترجمت القضية الفكرية (العامة) نفسها إلى أحداث ووقائع محددة في حياتي الشخصية (الخاصة) . (حينما طلبت من الرسام كمال بلاطة أن يرسم لي صورة [بورتريه] بمناسبة وصولي سن الأربعين ، قال إن من الأفضل رسم أعمالي ، فأخذ بعض مؤلفاتي ورسمها ، فكان البورتريه الذي رسمه صورة غير ذاتية غير موضوعية) . من هنا جاءت الاستطرادات الكثيرة ، التي عادة ما تتناول إحدى وقائع حياتي الخاصة التي أرى أن لها علاقة بالموضوع الذي أطرحه ، ومن هنا أيضاً نجد أن الرحلة لا تتسم بما يسمى الوحدة العضوية (أي أن تكون في تماسك النبات وتلاحم أعضائه) ، فوحدها وحدة فضفاضة تسمح بالانتقال من الذات إلى الموضوع ، ومن الخاص إلى العام ، ومن الفردي إلى الاجتماعي ، ومن الحدث الشخصي إلى الدلالة العامة ، ومن الماضي إلى الحاضر ، وبالعكس ! (اكتشفت ، في أثناء سنوات عملي بالتدريس ، أن ضرب الأمثلة ورواية القصص ينقلان للمتلقي الأفكار المجردة الصعبة بسهولة ويسر) . وقد حاولت في أثناء سرد رحلتي الفكرية أن أخلص الأطروحات الأساسية في بعض أعمالي (خصوصاً الموسوعة) بأسلوب سهل يسير وأن أقتبس منها بعض الصفحات المخروية . وحاولت ، قدر استطاعتي ، أن تحوي الصفحات إشارات

إلى تجاربي الشخصية وبعض أحداث حياتي ، أو أمثلة طريقة توضيح الفكرة النظرية . كما أوردت في هذه المرحلة بعض قصائد الشعيرة ، رغم معرفتي أنها لا تتمتع بمستوى جمالي عالٍ ، لأنها تعبر بشكل جيد ، من وجهة نظري ، عن نقطة التقاء الخاص بالعام وتقاطعهما . ويمكن التمييز بين بنية النموذج (الثمر) وعناصر تكوينه (البذور والجذور) . فالبنية سكونية وثابتة تكاد تكون خالية من الزمان . أما عناصر التكوين فمتحركة وعنصر الزمن والتاريخ أساسي فيها ، ولا يمكن فهم حياة أي إنسان أو أي ظاهرة إنسانية أو طبيعية ، إلا بمعرفة العلاقة بين الواحد والآخر .

وهذه الرحلة الفكرية ، بمعنى من المعاني ، هي محاولة لتكشف الفلق الشخصي الذي نحول إلى قلق فكري أدى بدوره لبلورة مجموعة من الأسئلة ، وهي كذلك دراسة لوقائع حياتي وأحداثها وتجاربي الشخصية وقراءاتي المتنوعة والمواجهات الفكرية التي خضتها ، وهي أخيراً قصة بحثي كمثقف عربي عن أداة بحثية جديدة تتفق مع رؤيته وإدراكه وتُسر عليه تحليل النصوص والظواهر التي يتعرض لها بالبحث والتحليل ، كما تُسر له توصيل فكره لقرائه . وثمرة المحاولة والتساؤلات والبحث هي الموضوعات الفكرية الأساسية في حياتي التي تبلورت في نهاية الأمر في عدة نماذج تحليلية . فهذه الرحلة / السيرة هي في واقع الأمر دراسة في عناصر تكوين النموذج .

والنموذج هو رؤية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان (بشكل واع أو غير واع) من الوقائع والأحداث التي تقع له ، والظواهر التي يرصدها ، والدراسات التي يقرأها . وبما أن المرء يتصور أن العناصر المختلفة التي تكون هذه الخريطة والعلاقات القائمة بينها تشكل عناصر الواقع والعلاقات القائمة بينهما ، فإنه يرصد الواقع ويفسره من خلالها . ولعل أبسط مثل للنموذج فكرة «الإنسان العادي» أو «الإنسان الغربي» ، فهذا الإنسان هو مجموعة من الصفات التي تحولت إلى صورة متماسكة تكونت من خلال عمليات الرصد المباشر والقراءات المتكررة واختبار قدرتها التفسيرية على معك الواقع ، ثم ترسخ هذه الصورة تدريجياً في ذهن الإنسان ووجدانه ووعيه ولاوعيه بحيث لا يمكنه أن يرى الواقع إلا من خلالها . والعملية التحليلية في تصوري هي في جوهرها عملية رصد للنماذج الإدراكية (الكامنة في أقرال الآخرين) ، وعملية صياغة للنماذج التحليلية (كما سأتبين بالتفصيل فيما بعد) .

وبرغم ترابط البذور بالجذور بالثمر ، وأحداث حياتي بأفكاري الأساسية ، فإنه يمكن القول بأنه بينما يتناول الجزء الأول من هذه الرحلة كثيراً من الأحداث التي أدت إلى تكوين الأفكار والنماذج ، يشمل الجزء الثاني في معظمه الأفكار والنماذج التي تكونت . بل إنه يمكن رؤية حقب زمنية فيه ، فالجزء الأول يسمى «التكوين» ، أي جذور التكوين الفكري لصاحب الرحلة . ويتناول الفصل الأول «البذور الأولى» ، وهو أساساً عن أحداث حياتي في دمنهور خلال طفولتي

وصباي وجزء من شبابي . أما الفصل الثاني ، «بدايات الهوية» فيتناول تلك الأحداث في حياتي التي أصبحت من خلالها واعياً بذاتي (وهي أحداث تنتمي لنفس الفترة تقريباً وإن كانت تغطي جزءاً أكبر من مرحلة الشباب) . ويغطي الفصل الثالث «في الولايات المتحدة» فترة الشباب المتأخر . ويؤرخ الفصل الرابع «من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية» لعملية انتقالي من المادية إلى عالم أرى أنه أرحب .

بعد هذا الجزء الذي يغطي أساساً «بذور وجذور» النماذج ، يتناول الجزء الثاني عالم الفكر ، والتي أشير إليها بـ «التمر» . وبطبيعة الحال يبدأ الفصل الأول ، «النماذج الإدراكية والتحليلية» بعرض بعض التحولات المنهجية التي راكبت التحولات الفكرية ، كما يتناول هذا الفصل بعض الكتابات الأولى . أما الفصل الثاني «الصهيونية» فيتناول إشكالية الصهيونية وعلاقتي بها وجوانب حياتي الفكرية . أما الفصل الثالث «الموسوعة» فيتناول أهم أعمالي على الإطلاق . وأختم بالفصل الرابع والأخير «خارج عالم السياسة» الذي أعالج فيه كتاباتي التي لا علاقة مباشرة لها بالصهيونية ، رغم أنها في معظمها تطبيق لنفس النماذج التحليلية . وكما قلت ، يوجد في الجزء الأول إشارة إلى بعض الأفكار والنماذج ، تماماً كما يحتوي الجزء الثاني على بعض أحداث التكوين . وسيلحظ القارئ أن الدراسة الأدبية ، من حيث إنها جزء أساسي ، ومن حيث أنها تركت أثرها العميق على التمر ولونته بلونها ، تشغل مساحة كبيرة في هذه الرحلة / السيرة .

وبرغم أن هذه السيرة كُتبت من خلال موضوعات ، فإنني وجدت أنه قد يكون من المفيد أن أقدم للقارئ خريطة هيكلية لمراحل حياتي الزمنية :

١٩٣٨ الميلاد في دمنهور (٨ من أكتوبر) .

١٩٤٤ الالتحاق بمدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم مدرسة دمنهور الثانوية (حصلت على الابتدائية عام ١٩٤٩ ، ثم حصلت على الثقافة [وهي شهادة نهائية ألغيت بعد حصولي عليها] عام ١٩٥٤ ، ثم حصلت على التوجيهية ، أدبي فلسفة ، عام ١٩٥٥) .

١٩٥٥ الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

١٩٥٩ التخرج من الكلية والتعيين فيها معيداً في العام الذي يليه .

١٩٦٣ السفر إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة كولومبيا Columbia في نيويورك حيث حصلت على الماجستير عام ١٩٦٤ .

١٩٦٤ الالتحاق بجامعة رنجرز Rutgers في مدينة نيو برونزويك New Brunswick في ولاية نيو جيرسي حيث حصلت على الدكتوراه عام ١٩٦٩ .

١٩٦٩ العودة إلى مصر للتدريس في قسم اللغة الإنجليزية في كلية البنات جامعة عين شمس .

١٩٧٠ التعيين لفترة قصيرة مستشاراً لوزير الإرشاد (الأستاذ هيكل) .

- ١٩٧١ التعيين خبيراً للشئون الصهيونية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام .
- ١٩٧٢ صدور أول مؤلفاتي الحقيقية نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (كانت مؤلفات أخرى قد صدرت لي سأذكرها في طي الرحلة) .
- ١٩٧٥ صدور موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية (يُشار إليها في هذه الرحلة بموسوعة ١٩٧٥) . ثم العودة إلى الولايات المتحدة لأنضم لأسرتي بعد أن ذهبت زوجتي إلى هناك للحصول على الدكتوراه . وقد عملت في هذه الفترة مستشاراً ثقافياً للموفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك .
- ١٩٧٩ العودة إلى مصر للتدريس في كلية البنات .
- ١٩٨٣ الانتقال للرياض للتدريس في جامعة الملك سعود .
- ١٩٨٩ الانتقال للكويت للتدريس في جامعة الكويت .
- ١٩٩٠ العودة لمصر والاستقالة من الجامعة حتى أتفرغ تماماً لكتابة الموسوعة .
- ١٩٩٢ صدور الطبعة الأولى من كتاب إشكالية التحيز : رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد .
- ١٩٩٦ صدور كتاب الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ : رؤية حصارية جديدة ، وتبعته المؤلفات الأخرى .
- ١٩٩٩ صدور الموسوعة .
- ٢٠٠٠ صدور بعض قصص الأطفال .
- ٢٠٠١ صدور كتاب في التحيزات الأمريكية واليهودية والكتاب الذي بين يدي القارئ .
- ولكن - كما أسلفت - فبرغم وجود هذا الهيكل التاريخي العام ، فإن الرحلة الفكرية تم استكشافها أساساً من خلال إشكاليات وموضوعات وقضايا .
- ولا أدري هل هذه السيرة غير الذاتية غير الموضوعية «نوع أدبي جديد» أو «نوع أدبي قديم» أو «نوع أدبي قديم / جديد» أو «خليط من أنواع أدبية وغير أدبية» . فلنترك هذا للقراء والنقاد ، ولتكن هذه السيرة دعوة للمفكرين العرب إلى أن يكتبوا سيرهم غير الذاتية غير الموضوعية التي تحتوي على تلخيص لأفكارهم وبذورها وكيفية تشكلها ليضعوا خبرتهم تحت تصرف الأجيال الجديدة . وما يجعل المسألة أكثر إلحاحاً تعاضم الفجوة بين الأجيال مما يؤدي إلى عدم توارث الحكمة والمعرفة ، وأخشى ما أخشاه أن تبدأ الأجيال القادمة من نقطة الصفر .
- وبعد - فلم يبق سوى أن أترك صفحات هذا الكتاب بكل ما يحويه من أحداث وتأملات وتجارب تتحدث للقارئ مباشرة ، عسى أن يكون في ذلك شيء من الفائدة وقدر من المتعة . والله أعلم .

دمهور - القاهرة

١٩٣٨ - ٢٠٠٠

الفصل الأول ، البذور الأولى

دمنهور ، المجتمع التقليدي والإحساس بالتاريخ

وُلدت في دمنهور ، عاصمة البحيرة ، وهي مدينة صغيرة في دلتا مصر تقع بالقرب من الإسكندرية . وحينما نشأت فيها طفلاً ، فإنها كانت تتميز (من منظور رحلتي الفكرية) بوجود عبق التاريخ فيها برغم أنها لا توجد فيها آثار فرعونية أو قبطية أو إسلامية . وقد عرفت ، ممن هم أعلم مني بالآثار ، أن هذه هي الحال دائماً مع المدن الصغيرة التي تستمر فيها الحياة عبر العصور (على عكس المدن التي يتوقف فيها التاريخ وتدفنها الرمال) . إبّان نشأتنا في دمنهور كانوا يخبروننا أن اسمها هو «دم نهور» ، لأن الدماء ، كما قالوا لنا حينذاك ، سالت فيها أنهاراً ، في أثناء إحدى المعارك الحربية في الماضي ، ربما عندما فتحها عمرو بن العاص . ثم عرفنا فيما بعد أن هذه التسمية للكلورية ، وأن دمنهور هي «دمن حورس» ، أي «مدينة الإله حورس» . فكان الوجدان الشعبي يريد أن ينسب المدينة إلى ماضيه العربي الإسلامي الحي بدلاً من ماضيه الفرعوني المتحفي . عرفنا أن دمنهور من أقدم مدن العالم ، وأنها كانت عاصمة الوجه البحري قبل توحيد القطرين (يُقال إنها هي ودمشق المدينتان الوحيدتان اللتان استمرت فيهما الحياة بدون انقطاع مع احتفاظهما باسميهما اللذين عُرفا بهما في الماضي) . كان يُقال لنا إن مسجد النبوة ، الذي يقع بالقرب من المحطة ومن شارع خيرى ، أسسه عمرو بن العاص ، وأن معركة كبيرة وقعت بين نابليون والمماليك قرب دمنهور (في شبراخيت على ما أذكر) .

وحينما شجبت عن الطوق ، بحثت عن أصل عائليتي . وبطبيعة الحال ، قبل لنا إننا من الشرفاء ، أي من أهل البيت . وكان أحد أعضاء العائلة يحتفظ بشجرة تبدأ فروعها من دمنهور في القرن العشرين وتنتهي عند مكة في أيام البعثة الحميدية (ولعله لو زاد البحث قليلاً لأوصلها لآدم وأدرك أننا مسواسية كآسان المشط) ، وكانت إحدى علامات الأصالة أن يعرف الإنسان أسماء جدوده ، ولذا كنت أعرف أن اسمي هو : عبد الوهاب محمد أحمد علي غنيم سالم عز المسيري (ولكن يبدو أن هذه عادة كانت في طريقها إلى الاندثار [مثل كثير من العادات المشابهة

الأخرى] ، ولذلك لا أعتقد أن إخوتي الأصغر مني سأعرفون أسماء جدودهم . وهم ، على كل ، مثل كثير من أبناء بورجوازية دمنهور الريفية ، نشأوا في الإسكندرية لا في دمنهور . أما أولادي وبعض أحفادي فقد نشأوا في الولايات المتحدة . ومع هذا في محاولة ، ربما تكون بائسة ، أحاول أن أعلم حفيدي أن اسمه هو نديم ياسر عبد الوهاب محمد أحمد . . إلخ . ومن خلال بعض القراءات ، عرفت أن أول مسيري مصري كان عالماً فقيهاً جاء من المغرب إلى مصر في القرن السادس عشر ، وأن أحد أفراد أسرة المسيري كان حاكماً للإسكندرية عند احتلال نابليون لها ، وأن ابنه استشهد (أو قُبض عليه) في إحدى المظاهرات ضد الفرنسيين . (وقد أورد الجبرتي بعض هذه الوقائع ونقلها عنه الراجحي) . وقد أخبرني أحد علماء الإنسانيات السودانيين أنه مهتم بما يُعرف باسم قبائل المسيرية . وهي قبائل توجد في السودان ، ولا يُعرف هل جاءت من المغرب واستقرت في السودان ، أو أنها جاءت من الجزيرة العربية مع تغريبة بني هلال . وقد أرسل لي مقالة تبين أن ثمة تشابهاً بين أهل تهامة وعرب المسيرية . ويقول أحد المستشرقين الألمان إن قبيلة المسيرية بالسودان أصلها "المصرية" صُغرت إلى "المصرية" ثم خُففت إلى "المسيرية" .

ولا يهم هل بعض هذه الوقائع حقيقة أو من نسج الخيال ، فالمهم أنني كنت أشعر بنض التاريخ حولي ، مما ترك أثراً عميقاً فيّ وجعلني مشغولاً به منذ نعومة أظفاري . والانشغال بالتاريخ يعني ألا ينظر الإنسان إلى واقعه بشكل مباشر ، ولا يستجيب له بجهازه العصبي أو بصفحة عقله البيضاء ، ولا يرى اللحظة الراهنة بحُسنها البداية والنهاية وإنما بحُسنها نقطة يلتقي فيها الماضي بالمستقبل ، ولا يتصور أنه عالم بسيط يمكن اختزاله في قانون أو قانونين ، وإنما يراه من خلال عدسات وبؤر وذكريات وثقائيد ورموز ، أي أن الإنسان يواجه العالم من خلال إنسانيته لا من خلال ماديته ، وأنه كفرد ليس هو البداية والنهاية ، وإنما هو امتداد للماضي في الحاضر ومن ثم في المستقبل . وبطبيعة الحال ، لم أكن أدرك كل هذا حينذاك ، ولكن الإدراك الواعي ليس هو السبيل الوحيد الذي يتشكل من خلاله وجدان الإنسان !

أشرت من قبل إلى أن أسرتي كانت تنتمي إلى ما يمكن تسميته «البورجوازية الريفية» ، وهي بورجوازية في دخلها وفي فريديتها ، ولكنها كانت تعيش خارج الإسكندرية والقاهرة ، أي تعيش في الريف ، فلم تتأثر بعناصر التخريب التي كانت تضرب بأطنابها في البورجوازية الحضرية وفيما كان يسمى بالأرستقراطية الإقطاعية (ذات الجذور غير المصرية وغير العربية) . ولذا ظلت هذه البورجوازية الريفية محتفظة بالقيم المصرية والعربية والإسلامية ، ولم تبحث عن الجاه والأبهة . (حينما كان أحد الأثرياء "يشترى" لقب البكوية أو الباشوية من جلالة الملك ، كانوا يتمجبون في دمنهور من هذا السفه) . ومعظم أعضاء هذه البورجوازية كانوا أعضاء في حزب الوفد أو على الأقل متعاطفين معه (لم يكن والدي يشارك هذه الطبقة توجهاتها ، فقد كان متعاطفاً للغاية مع الحزب السعودي) .

ولابد أن أذكر أنني أنتمي لجيل كان ينضج سياسياً بسرعة مقارناً بأجيال هذه الأيام ، فقد كان لي "مواقف" سياسية وأنا مازلت بعد في السابعة . وفي الأربعينيات ، على سبيل المثال ، كنا لا نكف عن التفكير في مسألة الحرب ضد الإنجليز وتحرير مصر . فكنا عند خروجنا من مدرسة قرطاس الابتدائية (وكنت لا أتجاوز السابعة) نلوح للجنود الإنجليز الذين تنقلهم القطارات من مصر إلى الإسكندرية (أو العكس) ونشير لهم بعلامة النصر V فيخرجون لتحييتنا فنقدفهم بالحجارة ونجري لنخفي في شوارع دمنهور وحواريها التي كنا نعرفها تمام المعرفة (ولعل ذكرياتي هذه هي التي جعلتني أتنبأ بالانتفاضة الفلسطينية قبل وقوعها) . وقد كوننا أنا وأصدقائي ، في شارع الأبنباري بدمنهور ، جمعية "سرية" لمحاربة الإنجليز ، وكانت "سرية" حتى لا يكتشف الإنجليز أمرنا في حالة دخولهم دمنهور مرة أخرى . ومن المحتمل أن الأمر كله لم يكن سوى "لعب عيال" ، ولكن مما له دلالة أن "لعب العيال" كان يأخذ هذا الشكل السياسي الوطني . وكنت . أصدر وأنا في السنة الأولى من المرحلة الثانوية ، حينما كان عمري لا يتجاوز الحادية عشرة ، مجلة مكتوبة بخط اليد يتناولها أقراني ، هذا غير مجلات الحائط ومجلة دمنهور الثانوية المطبوعة والتي قمت بتحريرها وشهدت أول مقال منشور لي ، وكان عن السلام وضرورته . ولم أكن فريداً في هذا ، فعمرات غيري من أقراني كانوا يفعلون ذلك .

وقد اشتركت بحماسة بالغة في مظاهرات الطلبة ضد الملك فاروق في أوائل الخمسينيات عندما أقال وزارة الوفد التي ألغت معاهدة سنة ١٩٣٦ ثم عين حافظ عفيفي رئيساً للديوان الملكي ، وهو شخصية كانت مكروهة من الشعب ، إذ كان معروفاً بولائه للإنجليز واحتقاره للشعب المصري والقوى التي تمثله . (أنا هنا أعتمد على ذاكرتي وأرجو ألا تكون قد حانتني) . وحينما بدأت مقاطعة البضائع الإنجليزية ، سارعت إلى المشاركة فيها . وكنت قد بدأت هواية جمع الطوابع ، فكنت أشتري شمعاً لاصقاً للجراح من الصيدلية وألصق به الطوابع (الأمر الذي دمر كل مجموعتي في نهاية المطاف بسبب جهلي) ، وكان هذا الشمع مصنوعاً في إنجلترا . فذهبت إلى الصيدلية لإرجاعه . وحينما سألتني الصيدلي (الدكتور رفة) عن السبب أخبرته أنه مصرع في إنجلترا . ففرح كثيراً من موقفي هذا وقرر إعطائه هدية لي ، فرفضت وأخبرته أن المقاطعة لا تتجزأ ، فاتصل بالذي ليخبره بما فعلت ، وليجبر عن مزيد من فرحه . وكنا نقوم بحرق البضائع الإنجليزية في ميدان الساعة . وكأي تلاميذ في العالم ، كنا ننتهز الفرصة ونحرق كتب اللغة الإنجليزية أيضاً ، عسى الله أن يمن علينا وعلى الأمة العربية بالجلاء الكامل . وجلاء القوات الإنجليزية عن مصر الخروسة ، وجلاء اللغة الإنجليزية الكريهة عن كاهلنا .

أذكر مرة أن أستاذ اللغة العربية (الأستاذ عوف) طلب مني وأنا في السنة الثانية من المرحلة الثانوية أن أكتب موضوع إنشاء عن "حديقة منزلكم" . والإنشاء لم تكن مادة نتعلم فيها كيف نرتب أفكارنا ونحولها إلى كلمات مكتوبة وبنية منطقية متماسكة ، وإنما كانت قوالب لفظية

جاهزة نحفظها عن ظهر قلب ثم نرصها رصاً حين تحين المناسبة . ومن هذه القوالب التي مازلت أذكرها مجموعة من الكلمات تعبر عن "موقفي" من الطبيعة : فهي تغلب القلب ، وتشرح الصدر ، وغلاً القلب روعة وجلالاً . وبالطبع كان هناك الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والأمثلة التي نرص بها ما نكتب أو ما ننشئ . ضقت ذرعاً بكل هذا ، فكتبت موضوع إنشاء أقول فيه ما أحس به . بدأ الموضوع بتأكيد أن منازل الفقراء ليس لها حديقة ، وأن أطفالهم لا يعرفون معنى الخداق ويعيشون بين أكولم القمامة ، وهاجمت الظلم الاجتماعي بشكل عام . فأعطاني الأستاذ صفراً على هذا الموضوع وأبلغ أهلي عن كتاباتي "الشيوعية" . وبطبيعة الحال لم يكن لها أي علاقة بالشيوعية (التي لم أكن أعرف عنها شيئاً آنذاك) أو أي مذهب سياسي ، وإنما كانت تعبيراً عن رفض فتى يافع للظلم الواقع على أعضاء المجتمع .

وكنيت أقرأ الصحيفة التي يصدرها حزب مصر الفتاة في أوائل الخمسينيات ، وكان من بين كتابها آنذاك سيد قطب . وأتذكر بطبيعة الحال هذا المقال الذي نشره الأستاذ أحمد حسين في جريدة مصر الفتاة ، وكان المقال عبارة عن عدة صور لبعض التسولين ، وكتب فوقه عبارة "رعايك يا مولاي" (وكانت إشارة خفية لمحاولات وزارة الوفد غلق الملك الذي كان يصفاف في كابري ١) . وانضمت للحزب بضعة أيام ، وانتقلت بعدها إلى الإخوان المسلمين . ثم حينما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وجدت أنه من المنطقي أن انضم إلى الحرس الوطني وهيئة التحرير ، فالثورة - حسب تصوري حينذاك - ألقت الأحزاب مصدر الفساد . وفي منتصف الخمسينيات انضمت إلى الحزب الشيوعي ، وبقيت فيه حتى عام ١٩٥٩ .

وبرغم أنني أتحدث عن جيلي واهتمامه بالسياسة ، فإنني يجب أن أذكر أيضاً أنني كنت مختلفاً إلى حد ما عن أقراني . فلم أكن أحب لعبة الكرة الشراب ، وبرغم أنني مارست لعبتي كرة السلة والبنج بوج بعض الوقت ، فإنني فعلت ذلك بدون حماس واضح وثوقلت عنهما في سن مبكرة . وكنيت أكره الألعاب التي تعتمد على الحسابات الرياضية مثل الشطرنج ، أو على خليط من الحسابات والصدفة مثل الطاولة والكوتشينة ، أو على خليط من الرياضة والمهارة البلياردية مثل البلياردو . (ولذا كنت أمقت لعبة البيسبول الأمريكية ، أولاً لعنفها ، ثانياً لحساباتها المعقدة) .

وحينما أقارن بين الاهتمام بالسياسة الذي كان أبناء جيلي يبدونه وعدم الاكتراث بالشئون العامة الذي يبدية أبناء هذا الجيل ، أتعجب وأتساءل عن السبب في ذلك : هل هو انتشار التلفزيون وسيطرة وسائل الإعلام ، أو غياب الأحزاب السياسية ، أو تصاعد معدلات العلمنة (أي البحث عن اللذة والمتعة الشخصيتين) والعولمة (أي الإحساس بعدم الانتماء لوطن محدد وتقبل الأشكال شبه الحضارية العامة) ؟ وعدم النضج السياسي هذا ليس ظاهرة مقصورة على مصر ، بل هو أمر عام منتشر في كل أنحاء العالم . وإن كانت حركة الجماهير في مصر ، بما في

ذلك أطفال المدارس ، والعالم العربي يعد انتفاضة الأقصى المباركة ، جعلني أعذل من رؤيتي بعض الشيء .

ومع هذا ، يمكن القول بأنهم يصلون في الغرب إلى سن الإنتاج الفكري وهم بعد في العشرينيات ، فلا يضيعون وقتهم في المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يزدادون علماً ويكتسبون خبرة . ومستوى التعليم الجامعي مرتفع مما يعني أن الطالب يتم إعداده للحياة الفكرية المثمرة في هذه المرحلة . وبعد إتمام المرحلة الجامعية ينتقل المتفوق منهم مباشرة إلى الدراسات العليا ، دون تعقيدات لا نهاية لها ودون هموم مالية (فاللح الدراسية في كثير من الأحيان تتكفل بهذا) . ولكن الأهم من هذا أن الدارس في الغرب ليس عليه إعادة صياغة المقولات التحليلية السائدة ، فهي مقولات تحليلية نابعة من التشكيل الحضاري والاجتماعي الغربي ، ومن ثم يمكن تطبيقها على الواقع الغربي . ويمكن الإبداع في تطوير هذه المقولات وتطبيقها بطريقة خلاقة ، إلا في حالة المتطرفين الذين يهتمون أنفسهم من خلال رفض هذه المقولات .

كل هذا يقف على طرف النقيض من الوضع عندنا ، إذ علينا أن نكافح ضد نظام تعليمي معوق (ازداد سوءاً وشراسة في الآونة الأخيرة) . وحين نصل إلى الجامعة فهناك الأساتذة الذين يبذلون قصارى جهدهم لأن يفرضوا على الطالب آراءهم (التي "اقتبسوها" من كتب أجنبية) ، وهناك المذكرات الحتمية والدروس الخصوصية التي جعلت من التعليم الجامعي نكتة باهظة التكاليف . ثم نصل إلى الدراسات العليا ، فإن حل الطالب مشكلة التمويل فهناك الفقر في المكتبات وهناك الأساتذة الذين يشرفون على عدد لا يحصى من الرسائل ، بالإضافة إلى تفاصيل الحياة التي لا نهاية لها في مصر . وإلى جانب كل هذا هناك ضرورة أن يصوغ الباحث مقولاته الفكرية ونماذج التحليلية حتى لا يتبنى مقولات ونماذج لا علاقة لها بواقعه الحضاري والاجتماعي ، وبالتالي غير قادرة على دراسة هذا الواقع .

حضر إلى مصر مرة أحد زملاء ابنتي من جامعة كمبودج ، وكان متخصصاً في الأدب الروسي وحصل على الدكتوراه وهو دون الخامسة والعشرين ، وبطبيعة الحال كان يجيد عدداً من اللغات الأجنبية . وتصادف أنني كنت مهتماً آنذاك ببعض جوانب تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا وجماعات الفوزاق بسبب الدور الذي لعبه في تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا وأوكرانيا ، فوجدته ملماً بهذه الأمور بشكل أذهلني إلى جانب معرفته بالأدب الغربي . إن تأخير تكوين المثقف في العالم العربي أمر يؤثر في التنمية ، فهذا يعني أن الكثيرين يتساقطون في أثناء العملية التربوية ، وأن من يخرج سليماً منها فإن سني العطاء عنده تكون محدودة للغاية .

دمنهور، المدينة/القرية

كان هناك في دمنهور مجموعة من المباني على الطراز العربي ، وواحد من أهم المسارح في مصر ، يُقال إنه لم يكن يضاهيه في روعته إلا دار الأوبرا القديمة ، إذ إن محافظ (مدير) البحيرة في الأربعينيات ، الشاذلي باشا ، قرر أن يترك بصمته على المدينة فأسس هذه المباني . وكان المنزل الذي أقطن فيه على طراز «الآر نوفو» Art Nouveau (أي الفن الجديد) . والآر نوفو من وطراز معماري ظهر بين عامي ١٨٩٠ - ١٩١٠ في أوروبا كجزء من ثورة الإنسان الغربي الرومانسية ضد مجتمع الصناعة والآلة الذي كان يحاول أن ينظر إلى كل شيء في إطار المنفعة المادية . وكنسجة لهذا حاول فنانون الآر نوفو التحرر من الطرز التقليدية من خلال محاكاة خطوط الطبيعة (لا تقليدها بشكل واقعي أو فوتوغرافي) . ولذا نجد أن خطوط الآر نوفو طويلة متعرجة متموجة ، عادة ما تأخذ شكل زهور وبراعم وأجنحة وخمائل عنب وأشياء رقيقة أخرى في الطبيعة . وكان للخط أولوية على كل العناصر المعمارية الأخرى التي كان عليها أن تتبع الخط في قوامه وتعرجاته . ويحاول معمار الآر نوفو المزج بين الزخرفة والبنية المعمارية والمواد الأخرى المستخدمة مثل الحديد والزجاج والسيراميك ، كما يهدف إلى الوصول إلى ديكور داخلي موحد بحيث تتحول الأعمدة والألواح الخشبية إلى ما يشبه خميلة العنب . وبشكل عام ، يميل الآر نوفو نحو عدم التناسق الدقيق (وكان المنزل يحوي أيضاً عناصر من الآر ديكو art deco . وهو طراز يميل إلى التناسق الزائد وخطوطه مستقيمة ولم يخلب لبي مثل الآر نوفو) .

ويبدو أن بعض كبار المهندسين من أتباع مدرسة الآر نوفو كانوا في مصر . فطلب منهم بعض باشاوات دمنهور أن يبنا لهم بيوتهم ويزخرفوا لهم منازلهم . وقد اشترى جدي عمارة في شارع الأنصاري كان فيها عناصر كثيرة من الآر نوفو . أما شقتنا التي كنا نقطن فيها ، فقد أخذناها بعد أن أحلاها المغازي باشا . وكانت حوائطها منقوشة بطريقة جميلة مذهلة ، وكان هناك شبابك من الزجاج الملون في غرفة نومي ، إذ يبدو أن الباشا قد طلب من أحد أتباع هذه المدرسة أن يعيد صياغة المعمار الداخلي للشقة .

أذكر هذه التفاصيل لولمي الشديد بالمعمار العربي الإسلامي وبالآر نوفو . والأول أمر عادي ومفهوم ، أما الثاني فلم أفهم سر ارتباطي المحموم به إلا بعد أن درست ودرست منزلنا في دمنهور . كما أن معمار مدرسة دمنهور الثانوية هو الآخر قد ترك أعماق الأثر في . وهو لا يختلف كثيراً عما يسمى «الطراز الكولونيالي» . كانت واجهة المدرسة عبارة عن حديقة يسير فيها المرء بصح خطوات ، ثم يبدأ يصعد عدداً كبيراً من السلالم الرخامية (لعل عيدها يبلغ الخمسين) ، وفي القمة يوجد عدة أعمدة ذات تيجان كورنثية يتوجها فرتون روماني . ولعل الهدف من هذا الطراز هو إدخال الرهبة في قلب المصريين من قوة الإمبراطورية وهيبة الحضارة الغربية . وحينما عدت من الولايات المتحدة عشت في مصر الجديدة بالقرب من منطقة الكرية التي بنتها الشركة

البلجيكية ، صاحبة امتياز مصر الجديدة ، على النظام العربي بعد تطهيره ، ثم بنت بعض الفيلات حسب طرز مختلفة ، ثم يتوسط كل هذا قصر البارون إيمان (مؤسس مصر الجديدة) على النمط الهندي ، وفي مواجهته يوجد مسجد السلطان حسين . وقد عمق كل هذا إحساسي بالعمار وبأبعاده الجمالية . والعمار هو الشكل الجمالي الذي يعيش فيه الإنسان حياته اليومية ، وهو أيضاً انتصار للإنساني المركب على المادي المباشر ، وللإنسان الذي يعيش في عالم متعدد الأبعاد على الإنسان الذي يعيش في عالم الآلة الرشيدة التي لا تكف عن الحركة الرتيبة .

كانت دمنهور مدينة حديثة ، بها كثير من سمات المدن الحديثة : طرقات معدة مستقيمة فسيحة - متنزعات عامة (كانت موسيقى الشرطة تعزف مرة كل أسبوع في حديقة النزهة التي ازدادت "تحضراً" وأصبحت مدينة ملاء والعياذ بالله) - وجود ملحوظ للدولة (تبدى في مباني الدولة العديدة المصنفة وفي استعراض الشرطة كل يوم سبت صباحاً والذي كان يدخل البهجة على قلبي إذ كان يتقدم الطابور فريق الموسيقى ويتقدم الجميع جندي يمسك بعصا كبيرة يقوم بقذفها إلى أعلى ثم يلتقطها ويديرها ، كما تبدى وجود الدولة في نادي البلدية الجميل الذي كان سعادة الباشا ، مدير المديرية يجلس فيه ، وهو أهم شخصية في مديرية البحيرة ، ويجلس معه كبار الموظفين) . ومن سمات الحدائق الأخرى الطرق التي أسسها الاستعمار الإنجليزي لربط مدن مصر بعضها ببعض ليسر عملية الانتشار السريع لقواته .

كما كانت دمنهور مدينة تجارية ، توجد فيها عائلات تجارية عريقة ، وكان نشاطها التجاري يمتد إلى كل أنحاء مصر من الشلالات إلى الواحات . وكانت ، إلى جانب هذا ، من أكثر المدن تصنيفاً في العالم (بالنسبة لعدد السكان) في النصف الأول من القرن العشرين (حسبما قرأت في إحدى الدراسات) بسبب وجود عدد كبير من محال القطن فيها .

ولكن دمنهور ، مع هذا ، كانت على مستوى من المستويات قرية كبيرة . يوجد في وسطها ، على سبيل المثال ، مثل دمنهور الضخم الذي كان يحوي كثيراً من النباتات ، أذكر منها الكامكوات ، وهي ثمرة في حجم البلعة ولكنها تنتمي إلى عائلة الحمضيات ، كما كان يوجد عدد لا بأس به من الحدائق . ولا أفري هل اكتشفت في هذه الفترة شجرة المشمش ، أو لا ؟ براعمها البيضاء ، التي تنمو لفترة قصيرة ، لا تزال تسحروني ، ولذلك أזור قرية العمار بجوار القاهرة مرة كل عام ، أقضي يوماً تحت الأشجار ، أشاهد براعم المشمش البيضاء التي تشبه الثلج وهي تتماوج مع الأوراق الخضراء . وحينما يهب النسيم تتساقط بعض البراعم علينا أنا وروجتي . ومع القهوة التي أرتشفها والسيجار الذي أدخنه ، أترك الزمان والمكان وأندوق طعم الأبدية ، ولو للحظات ! . وفي طريقنا إلى مدرسة دمنهور الثانوية ، كنا نمر على حقول يزرعها فلاحون نشترى منهم الطماطم أو الخس ، والمدرسة ذاتها كانت توجد في وسط الأراضي الزراعية وكانت دمنهور مركزاً للقرى المجاورة يأتيها الفلاحون يوم الاثنين (يوم السوق)

والمجتمع الدنمهورى - شأنه شأن المجتمعات التقليدية - يرفض التبديد ويقدر "نعمة الله". كنا إذا سرنا ووجدنا قطعة من الخبز كان علينا أن نلتقطها ، وبعضنا كان يقبلها ثلاث مرات ثم يضعها إلى جوار الحائط حتى لا يطاها أحد بقدميه . وكانت خبرات التدوير (بالإنجليزية recycling) قوية للغاية في المجتمع ، فكان لا يُلقى إلا بأقل القليل في صفيحة القمامة . أما بقية الأشياء فكان يتم تدويرها : أوراق الجرائد - علب الأكل المحفوظ - قشر البطيخ ولبه - بقايا الطعام . كل شيء كان يمكن إعادة توظيفه (علمت أن المجتمع المصري لا يزال من أكثر المجتمعات مقدرة على التدوير ، مما يعنى مقدرة على الاحتفاظ بتوازنه مع الطبيعة ومع هذا يلاحظ أنه مع زيادة التقدم بتآكل نموذج التدوير ليحل محله نموذج التبديد) . وكانت أمي متطرفة في حكاية التدوير هذه . فعلى سبيل المثال ، تعلمت في أثناء الحرب العالمية الثانية ، مع أزمة الكهرباء ، أن تحتفظ بلمبة سهارى وبحوارها قطع من الكرتون هي في واقع الأمر علب سجائر تم قصها . وكنا حينما نود إشعال البابور البريغوس ، نضع قطعة الكرتون في اللمبة لنشعلها ، فنستخدم الشعلة بدلاً للكبريت . وقد أعجبتنا الفكرة فظلت نمارسها إلى يوم وفاتها في منتصف السبعينيات وإن كان البوتاجاز قد حل محل محل البريغوس . كما أن علب البودرة كانت تحول ، بعد غسلها جيداً ، إلى أوانٍ للملح والفلفل ! ولم يكن الهدف هو "التوفير" ، إذ لم يكن هناك توفير في العملية وإنما هو الالتزام بالتدوير ، فكل شيء نعمة من الله سبحانه وتعالى .

ويبدو أنني قد ورثت شيئاً من هذا ، سواء أكان حبي للأشياء القديمة ، أم استخدامي للورق الذي سبق استخدامه (الورق الدشت) لأكتب على ظهره ، أم ارتدائي الملابس حتى تبلى تماماً . وتشكو زوجتي من أن بعض الفقراء ممن تعطيهم ملابسهم القديمة يقولون : "بلاش والنبي حاجات البيه" ، لأنهم لا يتفعون بها على الإطلاق . وزوجتي توافقهم بطبيعة الحال ، إذ ترى أن ملابسهم القديمة تصلح بالكاد لأعمال النظافة . وابني لا يختلف عني كثيراً في هذا ، فهو لا يمتلك كثيراً من الملابس . وحينما ذهبنا إلى السعودية ، لبس الثوب السعودي (شأنه شأن أقرانه السعوديين) وسعد كثيراً به ، ولم يكلفنا هذا الشاب طيلة فترة ثلاث سنوات من سن الرابعة عشرة حتى سن الثامنة عشرة ، سوى ثمن ثلاثة أثواب سعودية تكلفت كلها حوالي ٢٠٠ جنيه مصري . وهذا درس للطبقة المتوسطة التي تدلل أبناءها وتشترى لهم الملابس المكلفة ، فتفسد كل شيء من حولها : الأبناء - الطبيعة - الدخل ... إلخ .

أذكر مرة أننا كنا في الإسكندرية نصطاف ، وقررت أن أبني مع أولادي غشلاً من الرمل ، فأخذ شكل دوائر متداخلة ، وزيناه ببعض أعشاب البحر ، وغطيان زجاجات المياه الغازية ثم أسميناه "نحية للتوازن البيئي وعقل الإنسان" ، وهو اسم فلسفي ضخم بطبيعة الحال ، كان يبدو مضحكاً حينما ينطق به أطفالى ، ولكنني أفعل أشياء من هذا القبيل أحياناً ، من قبيل المزاج ومن

قبيل توسيع الأفق . فقد علمت ابنتي ، على سبيل المثال ، مصطلحي : أحادي البعد ومتعدد العناصر (بالإنجليزية : مونو فاكטوريال وملتي فاكטوريال mono factorial and multi factori- al) ، وحينما كانت تنطق بهما كانت تثير الدهشة في نفس من يتحدث معها .

هذا لا يعني أن أولادي أصبحوا مختلفين تماماً عن أقرانهم ، فهم أبناء عصرهم ولحظتهم ، خاصة وأن المجتمع المصري (الذي تعيش فيه الملايين دون خط الفقر) قد نسي هذه الخبرات تماماً . ولذا نجد أن أعياد الميلاد تحولت إلى هجمة سلبية حقيقية ، وكذا عيد الأمهات ، وبدأ المسوقون يخلقون مناسبات سلبية جديدة . ولذا نجد أنهم - شأنهم شأن بقية أطفال مصر - فقدوا كثيراً من الخبرات البينية التي تضمن الاستمرار دون استهلاك الموارد الطبيعية . فحينما كنت طفلاً كان لا يأتيني لعبة إلا كل سنة أو ربما عدة سنوات . وحينما كان يعود والذي من السفر ، كان لا يحضر معه لعباً وأشياء كما يفعل الآباء هذه الأيام ، بل كان يحضر معه أبو فروة ، فنجلس في الشقاء بجوار الواور ونبدأ في تحميمه . وحتى الآن حينما أكون في استانبول أو برلين ، حيث يُباع أبو فروة المشوي ، أتوقف لأشتري بعضها وأجلس في إحدى الحدائق لأأكلها ساخنة ، واستعيد بعض ذكريات الطفولة وأشعر ببعض الدفء العائلي . كما كنا عندنا خبرات يدوية كثيرة ، فنصنع مراكب من الورق وأراجوز ونستخدم الزرابي وأشياء أخرى كثيرة لصنع اللعب . أما أطفالي فعند اللعب التي يتلقونها كبير ، مما أفقدهم القدرة على تدوير الأشياء القديمة وتصنع لعب خاصة بهم ، ذات طابع فردي . وقد تدهور الأمر تماماً مع حفيدي ، الذي وقع ضحية الجريمة المنظمة التي تسمى أعياد الميلاد (أهم الطقوس العلمانية في مجتمعنا) فإذا كان عدد زملائه في الفصل ٢٥ ، هذا يعني أنه يحضر ٢٥ عيد ميلاد ويحضر ٢٥ لعبة لزملائه ، وهم بدورهم يفعلون الشيء نفسه . وفي يوم عيد ميلاده يصله عدد مخيف من اللعب ، يفرق فيها تماماً . (الطريف أن أحد تلاميذي أحضر له أراجوز مصنوع من الورق ، فأنصرف حفيدي عن بحر البلاستيك واتجه بكل جوارحه نحو الأراجوز الشعبي ، وهذا يعني أن الدنيا بخير ، وأن النفس البشرية قادرة على المقاومة وأن الفطرة الإنسانية ، في نهاية الأمر ، ورغم كل شيء ، سليمة) .

ويظهر هذا التدهور الجملي أيضاً في طريقة أكل الدجاج . كانت أمي - رحمها الله - تعامل بكفاءة عالية مع كل أجزاء الدجاجة : تأكل لحمها ، وتغص عظمها ، وترمي ما تبقى للمقطط . وقد أكون أقل كفاءة من أمي في التعامل مع الدجاجة المطبوخة ، ولكنني يمكنني أن أأكلها بيدي فأعرف كيف أقطعها ، وكيف أأكل كل أجزائها ، وأحياناً يروق لي أن أتعامل مع العظم بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة أمي ، وإن كانت كفاءتي أقل بكثير من كفاءتها . ولكن أولادي ، الذين يستخدمون الشوكة والسكين ، يشكلون أزمة بيئية حقيقية ، إذ يتركون أجزاء كثيرة من الدجاجة لأن الشوكة والسكين غير قادرتين على الوصول إليها . أما بخصوص العظام ، فقد أصبحت فضلات تُلقى في صندوق القمامة ، التي تتزايد على مر الأيام ، حتى أصبح حرقها من

أكبر مصادر التلوث في مدينتنا : القاهرة المقهورة . ولا أدري كيف سيكون الأمر مع حفيدي
ومن أكبر مظاهر عدم التبديد ما يسمى «الزيارة» . فحينما كان بعض الأقارب يأتون من
الريف للإقامة معنا بعض الوقت ، أو حينما كان أحد الحُطَّاب ياتي لزيارة عروس المستقبل ،
فإنهم كانوا يحضرون معهم «الزيارة» التي تتكون أساساً من مأكولات مثل السمن البلدي
والبطاطس والبرتقال وربما دجاجة أو بطة مذبوحة أو حية ، وهكذا . فالهدية هنا يمكن
«تدويرها» فوراً ، بدلاً من أن تتحول إلى «شيء» آخر يُضاف إلى الأشياء الأخرى التي لا لزوم لها
يكتظ بها المنزل .

حينما عقدت حفل زفاف ابني ، كنت أعرف أنه سيتبقى كثير من الطعام . فذهبت للسيد
المدير المسئول في الفندق ومأثته عما سيحدث لبقايا مادية العشاء ، فأجابني بعجرفة غير عادية
وباللغة الإنجليزية «جاربج» أي «قمامة» . فقلت له بهدوء شديد إنني ضد التبديد ،
وطلبت منه ألا يلقي بشيء ، وسأحضر كراتين وأواني وحللاً لأأخذ ما تبقى لتوزيعه على المحتاجين
في المنطقة التي أسكن فيها . فنظر لي بامتناع شديد ، بحسباني شخصاً غير متحضر ،
ولكنني أصبرت على موقف . غير أنه قرب نهاية السهرة ، جاء كبير الجرسونات ، وأخبرني أن
ما قاله المدير لا أساس له من الصحة ، فالعاملون يأخذون البقايا ليوزعوها على أسرهم . وهنا
أصبح للمسألة بُعد بيني إنساني مختلف ، فاتفقنا على اقتسام «القمامة» ، يأخذون هم النصف ،
ونحن النصف الآخر لتوزيعه على المحتاجين في مكان سكننا ، وقد كان . وتحول حفل الزفاف من
لحظة تبديد وقّع إلى لحظة تدوير ورخاء ومشاركة .

وقد حدث الشيء نفسه حينما دخلت المستشفى لإجراء عملية جراحية في عمودي الفقري
، فقد فوجئت بالقدر الكبير من الورد والشيكولاته ، والذي يعبر عن حب أصدقائي ، ولكن
حسي البيئي الدمنهوري استيقظ مرة أخرى ، وطلبت من مساعدي أن يتصل بأصدقائي ليخبرهم
بمواعيد الزيارة وشروطها : ألا يحضر أحد ورداً أو شيكولاته وأن يعطي لأحد المساكين مالاً
ويطلب منه أن يدعو لي بالشفاء . وقد امتثل بعض الأصدقاء لطلبي . كما كانت زوجتي تقوم
بتوزيع الورد والشيكولاته التي جاءت إلي على الجميع خارج غرفتي .

وكان إيقاع الحياة في دمنهور هادئاً ، فكان عندنا دائماً متسع من الوقت . كان اليوم
ينقسم إلى قسمين : الصباح حين يعمل الناس ، ثم بعد الظهر حينما يتزاورون ، أو يذهبون إلى
المنتزهات أو الحقول المجاورة ، ويفصل بين القسمين القيلولة . ولم يكن يُبدد الوقت في الانتقال
بطراً لصغر حجم دمنهور . كنا على سبيل المثال نصل إلى مدرسة دمنهور الثانوية (التي كانت
تقع في أطراف المدينة آنذاك) في بضع دقائق . ولنقارن هذا بيوم العمل الأمريكي [والمصري
الآن] إذ يذهب كل عامل إلى محل عمله في الساعة الثامنة والنصف صباحاً على سبيل المثال ولا
يغادره إلا في حوالي الثالثة أو الرابعة . وعادة ما يستغرق حوالي ساعة ونصف الساعة في عملية

الانتقال . وإذا أضفنا إلى كل هذا تزايد التفاصيل بشكل مذهل ، نجد أن يوم الإنسان الحديث يُبدد تماماً ويحرد من أي إيقاع إنساني ، بل إنه يهدد الحياة الأسرية ذاتها .

كما أن الإيقاع البطيء يعني أن الأفراد لا يتنقلون كثيراً ، فالأب موجود والأم موجودة والأخوال والأعمام والحالات والعصام موجودون . وهذا يخفف إلى حد كبير من عبء تنشئة الأطفال . فالأب يوجد على مقربة من المنزل يمكن استدعاؤه في أي وقت إن نشأت حاجة لذلك . وإذا أرادت الأم عون أحد من الكبار ، عند غياب الأب ، فهناك دائماً من يحل محله . (ولذا أزعج أن المطلوب ليس "تحرير المرأة" وإنما "تقييد الرجل" . فالذي حدث أن حركية الرجل في العصر الحديث قد زادت بشكل غير إنساني ، مما يعني بعده أو غيابه عن المنزل ، فيقع عبء تنشئة الأطفال على كاهل الأم وحدها إلى جانب أعيانها الأخرى) .

وإيقاع الحياة السريع أمر يحدد سلوك كثير من الأفراد ، إذ إنه في غياب منسج من الوقت يدوس الناس بعضهم بعضاً . كنت أسهر مرة بسيارتي في شارع ضيق بالقاهرة وكان هناك رجل عجوز يعبر الشارع ، فوقفت له حتى أعطيه الفرصة ، وكان ورائي سيارة ظل صاحبها يضغط على الكلاكس . فنزلت من سيارتي حائفاً وأخبرته أن رجلاً عجوزاً يعبر الشارع ، ثم سأله سؤالا خطابياً : "لو كان هذا والدك ، أفكنت فعلت الشيء نفسه؟" فقال بوجهه المتجههم : "نعم" . فضحكت لصدقه وصراخه وإحساسه بعث مقاومة الإيقاع الحديث اللعين . هذا على عكس ذلك السائق الذي كان يقف ورائي بسيارته في الساعة الثالثة ظهراً أمام جامع ابن طولون في أحد اختناقات المرور الشهيرة في الأسبوع الأخير من رمضان . وظل هو الآخر يضغط على الكلاكس ويطلب أن أتقدم "عجلة قدام والبي" ، أي مسافة صغيرة جداً تعادل مدار عجلة واحدة . فقلت له : "كلنا واقفون ، فلم تحرك هذه المسافة الصغيرة؟" ، فأجاب : "علشان تديني شوية أمل" . ويبدو أن هذا السائق قد قرر عن وعي ألا يستسلم لليأس الذي يولده الإيقاع اللعين .

كانت الأجيال في دمنهور متقاربة . كنا كلنا نسمع الأغاني نفسها تقريباً ، ونلبس الملابس نفسها ، ونتحرك في الحيز نفسه ، ونشارك في المناسبات نفسها ، إذ كانت هناك مجموعة من القيم الأخلاقية والمعرفية والجمالية نؤمن بها جميعاً ، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير أو بين الكبير والصغير . لم يكن هناك رداء شبابي أو أغاني شبابية أو أماكن يرتادها الشباب وحدهم ، لكل الأجيال كانت متقاربة .

ويقف هذا على طرف النقيض مما يحدث الآن ؛ فالفجوة بين الأجيال آخذة في الاتساع ، والصراع بينها يزداد حدة ، ولم تعد أحلام الكبار تشبه أحلام الشباب ، ولم تعد الأحزان هي نفس الأحزان . وقد شاهدت هذه الظاهرة بشكل أكثر حدة في الولايات المتحدة حين ذهبت إلى جامعة وتجمرز ، فقد تصادف أنني بلفت سن الخامسة والعشرين بعد وصولي بأسابيع . وأنا لا أحتمل البنة بعيد ميلادي ، باعتبار أنني غير مسئول عنه ، ومع هذا استخدمنا هذا اليوم نكأة

لنخرج أنا وزوجتي ونكتشف المكان الجديد . وكان هناك في مدينة نيو برونزويك كافتيريا صغيرة للطلبة تطل على نهر الرايتان فذهبنا إليها . وبعد دقائق لاحظنا أن كل من حولنا يصغرنّا سنّاً ففكرنا المكان . وبعد ما علمنا أن هذه الكافتيريا مخصصة لطلبة مرحلة الليسانس وحسب ، وأن الخريجين يذهبون لأماكن أخرى . لم تكن هناك قواعد مكتوبة وإنما كان هذا هو المهرم .

وأذكر واقعة أخرى حدثت لي في الولايات المتحدة . كنت في سن الأربعين تقريباً ، وكانت إحدى عاداتي أن أحرى في الحدائق في المدينة الجامعية لأخفف من حدة التوتر الذهني ولأزيد من لياقتي البدنية . وبينما كنت أعدو ، وجدت بعض الشباب في سيارة يقولون بسخرية : "أذهب واحرق نفسك" . فلم أفهم ما يقولون ، خاصة وأن الشباب الأمريكي ، على الأقل في المنطقة التي كنا نعيش فيها ، كانوا مهذبين للغاية . وحينما استفسرت من أصدقائي ، أخبروني أنني في مثل هذه السن لابد أن أعاني مما يسمى أزمة منتصف العمر (بالإنجليزية : ميديايف كرايسيس midlife crisis) والتي تعني أن ما تبقى من عمري أقل مما فات ، وأنه لا يوجد مجال للتجريب والخطأ . فذهمت كثيراً لأنني لم أكن قد بدأت حياتي الفكرية بعد ، وأعرف كثيراً من المفكرين والأدباء في الشرق والغرب والشمال والجنوب ممن بدعوا حياتهم بعد سن الأربعين !

لم يعد هناك في الغرب مجرد فجوة أو صراع بين الأجيال ، وإنما تطاحن وحشي ، وفردية مطلقة لدرجة أن الشاب الذي يصل إلى سن ١٦ عاماً عليه أن يجد منزلاً مستقلاً لنفسه ، إذ إن عائلته ترفض الاستمرار في الإنفاق عليه . وعلى الإنسان الذي يصل إلى سن الستين أن يجد ملجأ للعجزة لأن أبنائه لن يسألوا عنه إلا مرة واحدة كل سنة ، عادة في الكريسماس . وأحياناً أتساءل : هل سنصل إلى هذه الدرجة من التقدم في يوم من الأيام؟ وحينما أفكر في الإجابة يصيبني الهلع . (وتعود ظاهرة صراع الأجيال هذه لمركب من الأسباب من بينها تآكل الأسرة كمؤسسة اجتماعية ، وتراجع الإحساس بالهوية القومية المشتركة وتزايد معدلات الفردية وما يصاحبها من نفعية وتزايد الحس البراجماتي) .

ودمنهور - بحسبانها مدينة / قرية - كانت تعيش داخل إطار صارم من القيم والشعائر الدينية والعرفية التي تضبط حركة كل شيء : من يقبل يد من ؟ من يفسح الطريق لمن ؟ وما واجبات كبار العائلات ؟ وما حقوقها ؟ وما واجبات الأهالي وحقوقهم ؟ أذكر مرة أن بواب إحدى عمارات جدي أمسك يدي ليَقْبِلها فتركتها له ليفعل ما يريد . ولكن والدي نهرني بعدها ، وأخبرني بأنه كان من المفروض ألا أترك له يدي ، بل كان عليّ أن أمسحها وأقول "أستعفر الله" فأخبرته أنني رأيت كثيرين يقبلون يد جدي ، فكان رده أن جدي أمر مختلف تماماً عنه وعني . ولم أمارس هذه التجربة مرة أخرى إلا في قونيه في تركيا . فحين قمت بزيارتها عام ١٩٩٧ ، وبدأ الناس يخاطبونني بلقب "فضيلة الشيخ" أو "الأستاذ" قلت : لا بأس ، فانا الآن من المفكرين

الذين يُقال لهم "إسلاميون". ولكن حينما بدأ بعضهم في تقبيل يدي كان وجهي يحمر خجلاً . ورداً على ذلك وإخفاء إحساسي بالحرج ، كنت أنحني بطريقة مُبالغ فيها على الطريقة اليابانية . وقد لاحظ أحد المرافقين حيرتي وحرجي ، فأخبرني أن على صفار السن أن يُقبلوا دائماً أيدي من هم أكبر منهم سناً ، وأنها عادة عثمانية استمرت في تركيا العلمانية .

كان المجتمع في دمنهور يحدد كثيراً من حركات المرء وسكناته ، ففي أمر نتصور أنه خاص وفردى جداً مثل الملابس ، كان المجتمع (وليس مصمم الأزياء في باريس) يقرر للأفراد ، وخاصة للنساء ، ماذا يلبسون . وحينما أطلقت الحداثة برأسها أصبح غطاء الرأس من أهم الرموز التي تبتدى الصراع بين التقاليد والحداثة من خلالها . حينما كنت طفلاً في مدرسة العريان الابتدائية عام ١٩٤٣ كان عليّ أن أرتدي طربوشاً ، نلعب به أحياناً وننظفه ونكويه أحياناً أخرى . ولكن كان علينا ارتداؤه في طابور الصباح مهما كانت الظروف . وحين دخلت مدرسة دمنهور الابتدائية الأميرية كنت أرتديه عدة سنوات ، ولا أذكر متى توقفت عن ارتدائه . وظل الرجال يرتدون الطربوش حتى عام ١٩٥٢ ، حين اختفى تماماً ، إلا من بعض المسنين ممن أصرّوا على الاحتفاظ به رمزاً للهوية . وفي المدرسة الابتدائية كنت أرتدي بنطلوناً قصيراً (الشورت) ، ولكن حين دخلت السنة الأولى من المرحلة الثانوية (نظام قديم) وكان عمري أحد عشر عاماً تقريباً لبست البنطلون الطويل .

أما بالنسبة للمرأة فأمرها كان أكثر تركباً . فالفتيات في سن الزواج كان من المصرح لهن أن يكشفن رءوسهن وأن تتدلى شعورهن الجميلة والقبیحة (بل كن يلبسن الفساتين التي لا أكجام لها [الجابونيز] التي صُممت لرؤيتها لأول مرة في دمنهور) . وكن في الأفراح يرتدين أزياء مكشوفة ، حتى يمكن للأمهات وعروسان المستقبل معاينة كل شيء دون حرّج ! أما المتزوجات ، فنقسمن إلى قسمين : الصغيرات منهن كن يرتدين الإيشارب ، أما الكبيرات فكن يرتدين البرقع والبشمك والملس (وأنا هنا مازلت أتحدث عن البورجوازية الريفية في الأربعينيات ، فسيّدات البورجوازية الحضرية المقيّسات في دمنهور والأرستقراطيات كن يرتدين الملابس الغربية والمعاطف المحلاة بالفرو ثم تبعن مبدات وآناس البورجوازية الريفية بعد الحرب العالمية الثانية ١) . وكان على الخادِمات (والفلاحات) تغطية رءوسهن أيضاً ولكن بالمديل الفلاحي "بأوبة" ، وهو عطاء للرأس ملون مزین بالترشُر يدخل البهجة على القلب ، ولكنه مع هذا كان رمز الانتماء لطبقة الفلاحين والخدم . (هذا على عكس السعودية ، فهنا كانت السيدة السعودية تسير إما محجبة تماماً وإما منقبة ، ويجوارها خادمتها الفلبينية تلبس الجينز وتدلي شعرها ولله في خلقه شئون) .

كما كان لبس "الصيغة" أو المصوغات (أي الأساور والعقود والقروط والخواتم الذهبية) مسألة جوهرية لأنها كانت هي أفضل طريقة للادخار (لا ينافسها سوى المشاركة على البهائم ،

وهو أن يشتري المرء بقرة أو جاموسة أو نصف بقرة ونصف جاموسة يرميها له أحد الفلاحين بظير اقتسام الأرباح ١). فلم يكن أحد يعرف طريقه إلى "البنك"، ولم يكن يثق به، ولذا كانت المرأة تؤمن "مستقبلها" عن طريق ما تلبسه من مصوغات (كما أن زوجها كان يحقق قدراً من التراكم الرأسمالي بنفس الطريقة). كانت زوجات الأثرياء يلبسن العقود والأساور (كان أحدها يأخذ شكل ثعبان، فكانت النسوة يلبسن أساور على هيئة ثعابين ذهبية لها عيون من الياقوت الأحمر أو الأزرق، ورعوسها مرصعة بالماس الأبيض، وكنت أخافها وأكرهها بعمق، ولعل هذا سر كرمي للذهب حتى الآن). أما زوجات الفلاحين فكان يرتدين العقود الكبيرة التي تسمى «الكردان»، كما كن يرتدين القروط التي تأخذ شكل مخروطية والتي كانت تباع، مع غيرها، في مصوغات الجمل. كان كلما فتح الله على الزوج اشترى لزوجه المزيد من المصوغات، وخصوصاً الأساور، التي كانت تباع بعضها في أثناء أي خالقة مالية. ويبدو أنه وقع الاختيار على الأساور لأنها من السهل حملها ومن الصعب سرقتها. كما أن ثمنها معقول ومن الصعب ملاحظة اختفاء "جوز إسورة" من مجموع دسنة على سبيل المثال. فالأساور كانت تحقق سيولة نقدية، لا يمكن للعقود أو القروط أن تحققها. وبطبيعة الحال كان ثمن الذهب ثابتاً، على عكس النقود. (لا يزال هذا التقليد قائماً حتى الآن، وقد سمعت أن ثمن الذهب في الآونة الأخيرة قد انخفض لأن كثيراً من الأمهات المصريات يبعن أساورهن لتغطية تكاليف الدروس الخصوصية التي تكلف الشعب المصري سبعة بلايين جنيه كل عام ١). ومع هذا يمكن القول بأن المصوغات الذهبية لم تكن وسيلة تهدف إلى الادخار وتحقيق التراكم وحسب، فهي كانت أيضاً علامة من علامات الثراء وتأكيد المكانة الاجتماعية، وهو أمر مهم للغاية في مجتمع ديموري التقليدي.

كان المجتمع يحدد كيف تُقام الأفراح والجنائز، كما كان يحدد المدة المسموح بها للفرح والحزن، كل شيء يتبع إيقاعاً صارماً لا يلحظه أحد لأنه تم استبطانه تماماً، وتوحد به الجميع. كان الفرع في ديموري مناسبة اجتماعية، فإن كان الفرع من أفراح الأثرياء فهذه كانت مناسبة بفرح فيها الجميع، إذ كانت الولائم تُقام للجميع ليأكلوا ويشربوا، فيما يشبه موائد الرحمن، وتوزع على الخلوى على الجميع. على عكس أفراح هذا الزمان التي تتطلب استيراد الطعام من الخارج (نعم النعام والغزال والجرجير السويسري، على سبيل المثال) ليهنأ به الضيوف في الداخل، ومن هنا يتطلب الأمر استدعاء قوات الأمن المركزي، لتفريق المتظاهرين الفقراء في الخارج. فالفرح أصبح هو اللحظة غير الإنسانية التي يتم فيها استعراض الثروة والتباهي بها وترداد فيها حدة الصراع الطبقي، بعد أن كان اللحظة الإنسانية التي يتم فيها إسقاط الحدود الاجتماعية مؤقتاً، ويتم تقليل حدة الصراع الطبقي ليعبر الجميع عن إنسانيتهم المشتركة. بلغت تكاليف أحد الأفراح مليوني جنيه. وبعد شهرين بلغت تكاليف فرح آخر سبعة

ملايين جنيه (أزهار من إندونيسيا - ألف كيلو من السالمون المدخن - ومظاهر أخرى من السفه) ، في الوقت الذي لا نعرف أن هؤلاء الرأسماليون الجدد (القطط السمان) قد تبرع بمثل هذه المبالغ لإنشاء مستشفى أو لدعم إحدى الجامعات ... إلخ . وقد ظهرت مؤخراً ظاهرة «مخرج الأفراح» ، وهو شخص مهمته تحويل الفرح (الخاص) إلى ما يشبه الاستعراض العام . ففي فرح أحد الأثرياء في الإسكندرية قام بتوزيع فيلم فيديو على المدعوين عن حياته الرومانسية مع عروسه قبل الزواج وكانت بعض المناظر slow motion . وفي فرح آخر ، قاموا بإحصاء مخرج كندي لإحراج الفرح تقاضى حسبما سمعت ٢٠ ألف دولار . وكان الفرح يتكون من عدة "مناظر" أو حلقات ، لعل أكثرها غريبة (ومن منظوري أسوأها) هو النظر التالي . تدخل أم العروسة طويلة للعناية وتسير وكأنها عربية (فهي تقف على رافعة بأربع عجلات وموتور) . وتحرك الأم شفتيها بأغنية «حبيبة أمها» التي كانت قد تم تسجيلها من قبل في أحد الاستوديوهات . وحين تنتهي الأغنية تفتح الأم فستانها فتخرج ابنتها /العروسة منه ، لأن حبيبة أمها كانت تقف تحتها طيلة الوقت على الرافعة /السيارة ، ثم تذهب العروسة بعد ذلك وتعود على مونتوسيكل مع زوجها وقد ارتديا زياً يلينق براكبي المونتوسيكلات . وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . هذا بخصوص أفراح الأثرياء ، أما أعضاء الطبقة المتوسطة فهم يكتفون بإحضار فرق غنائية ورقص ، وتشغيل الميكرفونات بصوت عالٍ يصعب معها الحديث مع من بجوارك بل وحتى الاستماع إلى الغناء والموسيقى .

كنا في مجتمعنا التقليدي هذا نذهب لأداء صلاة الجمعة في مسجد الحبشي (أو مسجد التوبة) ، أما الصلوات الأخرى فكانا نؤديها في أي مسجد (أو زاوية) على مقربة من محل العمل . كانت الصلاة والزكاة جزءاً من الحياة ، وليست مجرد "فروض" يؤديها الإنسان أو شعائر يقيمها . فالحياة بدون الصلاة والزكاة كانت لا معنى لها . ومثل كثير من أقراني كنت أجود قراءة القرآن ، وحاولت حفظ القرآن الكريم دون جدوى ، على عكس صديق الطفولة (الدكتور عطية حامد) الذي كان يحفظ كل شيء عن ظهر قلب وبسرعة .

ولعل استمرار المعايير والأوضاع التقليدية في مجتمع دمنهور هو الذي جعل أمي غير قادرة على استيعاب الحساسية الجديدة التي بدأت تظهر : الرغبة في المتعة في حد ذاتها بدون هدف أخلاقي أو عملي . ولذا كانت تحب شجرة الخوخ الكبيرة لأنها تعطينا ثمراتها . أما الورد فكان يسبب لها مشكلة ، إذ كنا نحاول تزيين المنزل به وكانت لا تمنع ، ولكنها كانت تطالب أن نصنع من بعضه مربى الورد ! وكانت ترى أن ذهابنا للسینما مضیعة للوقت . فكانا نخلق الحجح "التقليدية" حتى يمكننا الإفلات من قبضة هذه الرؤية . فعلى سبيل المثال ، أذكر أنني عشقت مسلسل زورو . (كانت أفلام المغامرات تعرض على هيئة مسلسلات وتوقف الحلقة في لحظة حرجة يكون فيها البطل [الولد] أو "شجاع السیما" كما كنا نسميه [أو البطلة] البت)

أو كلاهما مهتدين بالخطر . وبطبيعة الحال كان البطل ، بما عُرف عنه من مقدرات جسمية وعقلية خارقة ، يستطيع الإقلاّت) . ولتبرير ذهابنا لنشاهده كنا نؤكد لأمي أنه "يحض على الأخلاق الحميدة" ، نقولها بالفصحى حتى تقتنع وتعطينا القروش اللازمة للانطلاق لسينما البلدية . (كانت الأفلام الأجنبية تعرض على الشاشة ، وكان هناك شاشة أخرى صغيرة بجوارها تظهر عليها الترجمة) .

ولعل كون دمنهور مدينة/ قرية ، حديثة/ قديمة يتبدى من خلال ظاهرة مثل التطبيب ، إذ كان الطب العلمي (الذي نمارسه الآن) معروفاً ، والأطباء خريجو كلية الطب كانوا يمارسون مهنتهم ، والتمرجية الذين يعطون الحقن المؤلمة (تحتوى عادةً على زيوت مقوية) كانوا يمارسون حرفتهم بكل ما أوتوا من قوة وصداقة . وحينما كنت طفلاً ذهبت إلى الإسكندرية لإزالة "حمية" لي أنفي كانت تسبب لي ضيقاً في التنفس . ولكن إلى جانب ذلك كان هناك العلاج بالأعشاب ، وكان المهرباتي شخصية أساسية ، وكان هناك "الحكيم" الذي يعرف العائلات وتاريخها الطبي ، ويعرف معظم الأفراد في مجتمعه ، وكان هذا يساعده كثيراً في تشخيص الداء ووصف الدواء . وإلى جانب هذا كان هناك الزار الذي كان خليطاً من الحفلة وجلسة العلاج النفسي . (حينما كنت طفلاً دخلت مرة حفلة زار أقامتها خالتي أم صلاح فوجدت امرأة جالسة تلبس ملابس بيضاء ورجلاً يقرع على الدف ، ففزعت مما رأيته وخرجت ، ومن يومها لم أر أي حفلة زار ولو في فيلم فيديو) .

ويبدو أنهم كانوا لا يعرفون كثيراً عن مرض الحساسية ، الذي كنت مصاباً به . كنت أصاب دائماً بنزلة شعبية . فكانت تُعالج بما يسمى برطمانات الهواء الساخن . فكنت أستلقي على بطني وأكشف ظهري ثم يأتون بشمعة صغيرة يضعونها على ظهري (ويا وبلي لو سقطت نقطة من الشمع الساخن على جلدي) ثم يضعون فوقها كوباً صغيراً يشبه البرطمان فتنتفخ الشمعة بطبيعة الحال . ولكن يبدو أن الهواء كان يُفرغ داخل البرطمان فيمتص لحمي ، وتكرر العملية إلى أن يصل عدد البرطمانات الملتصقة بظهري من ٦ - ١٠ . وأظن مستلقياً على بطني وقتاً قد يصل إلى الساعة تُنزع بعدها البرطمانات . وقد شاهدت فيلماً فرنسياً عن فرنسا في القرن الخامس عشر ، وقد عُولج الملك في هذا الفيلم بهذه الطريقة ، مما يبين أنها جزء من التطبيب في المجتمع التقليدي .

ولعل اختلاط الطب العلمي والطب التقليدي يظهر في هذا الطبيب الذي جاء مرة إلى منزلنا وكشف علي ، وحينما عجز عن التشخيص ، قال : "قل لأملك تبخرك" . فكان بذلك نموذجاً حياً لاختلاط الحداثة والتراث ! ومع هذا يجب أن أشير إلى شيء طريف ، وهو أنه مع ظهور أشكال بديلة من التطبيب أخيراً ، ومع اكتشاف الأعشاب والإبر الصينية أصبح الطب العلمي الآن يسمى "الطب التقليدي" ! وسبحان مغير الأحوال .

ونفس الازدواجية تظهر في المدارس ، فعلى سبيل المثال ، كنا نحمل في المدرسة الأولية (التي تسبق المرحلة الابتدائية) لوحاً أسود نكتب عليه بالإردواز ، وهو حجر أبيض كان يمكن الكتابة به على اللوح ومسحه دون آثار جانبية ، على عكس الطباشير الذي كان يشير الغبار وتنسخ يد من يستعمله . وإلى جانب اللوح كانت هناك الريشة وكان على الطالب أن يحضر زجاجة الحبر من المنزل يوم السبت للمكثا ، كما كان عليه أن يتأكد من أن سن الريشة على ما يرام . ولكن تطورت الأحوال وظهر القلم الحبر وبعده ظهر القلم الجاف الذي غير الأمور بشكل جوهري .

وكان الطلبة يحترمون أساتذتهم احتراماً جماً ، ويخافون من حضرة الباطر (كم كانت فرحتنا عندما يحينا الأستاذ خارج صفوف الدراسة) . وكان طابور الصباح هو المناسبة اليومية التي يعبر فيها الطلبة عن ولائهم للنظام . وكان هناك ما يسمى بـ (التفتيش) ، (أعتقد أنه كان دائماً يوم السبت ، أول أيام الأسبوع) . فيقوم الطلبة بفرد أيديهم إلى الأمام ، ويمر المشرف ليتأكد من أن أطرافهم قد قصت وأن أحذيتهم لأمعة . ومع هذا ، وبرغم كل هذا الانضباط ، كان هناك مناسبات تسقط فيها الفروق ، مثل الحفلة المدرسية السنوية ، حيث كان الطلبة يقلدون أساتذتهم بطريقة ساخرة ، أو يقدمون المسرحيات التي تسخر مما هو قائم . وكان هناك تلك الأيام التي يضرب فيها الطلبة عن الدراسة ويلقون بالخطب النارية ضد الحكومة أو الملك (كان الشاعر فتحي سعيد - رحمه الله - من زعماء الطلبة في دمنهور الثانوية ، وكثيراً ما كان يلقي بقصائده المتهبة علينا) . ثم يخرجون بعد ذلك ليظفروا بدمنهور معلنين عن موقفهم السياسي . فكان هناك مثلاً يوم الشهداء وذكرى وعد بلفور وذكرى حادثة كوبري عباس . ولكن شهد عاماً ١٩٥٠ و ١٩٥١ مظاهرات دائمة ضد الملك . وبرغم أن مجتمع دمنهور التقليدي مبني على النظام ، فإن المظاهرات كانت تندلع باستمرار ، ربما لأن "الأهالي" كانوا متعاطفين مع أبنائهم من الطلبة .

رمضان في دمنهور

قصبت معظم طفولتي في دمنهور ، وأكثر ما أتذكره منها هو شهر رمضان والاحتفالات التي كانت تصاحبه . كان الاستعداد له يسبقه بعدة أسابيع ، إذ كنا نشترى الباميش والمكسرات ومستلزمات الخشاف وقمر الدين . كان الإفطار لحظة يجتمع فيها أعضاء الأسرة ، فتصمت المدينة تماماً انتظاراً لدفع الإفطار ، ثم يدوي في جلال وتطلق معه صيحات الأطفال المرحلة لمدة نوان ، ثم يخيم الصمت مرة أخرى ، ثم تبدأ الأسرة في تناول طعام الإفطار . فلم يكن هذا الوحش الخفيف ، التلفيزيون ، قد اقتحم حياتنا بعد ، ولم تكن الفوايز وما شابه من برامج قد انتشرت كالبكتيريا بعد . كان طعام الإفطار يتكون من كل ما لذ وطاب : يبدأ بالخشاف أو قمر

الدين (الذين لم أحبهما قط منذ طفولتي لسبب لا أعرفه) ، ثم يستمر إلى أن نصل إلى الكنافة والقطائف الحتميين . ومع هذا ، كان هناك بعض الأتقياء ممن كانوا يعطرون بتناول بعض التمر باللبن ثم يصلون ، وبعد ذلك يتناولون إفطاراً متواضعاً .

وكان الشهر يتسم بدرجة عالية من التراحم . ولم تكن مواعيد الرحمن قد أصبحت تقليداً سائداً بعد ، ولذا كانت الصدقات ، التي كانت تزداد بشكل ملحوظ في ذلك الشهر ، تورع على المقراء بشكل فردي ومباشر . وكنت ألاحظ أن أثرياء التجار ، مهما كانت طباعهم الشخصية طوال العام ، يتبارون في إعطاء الصدقات في ذلك الشهر . وكنا أعضاء شلة شارع الأنصاري نذهب لإداء فريضة العشاء سوية ، وكان الأتقياء منا يصلون التراويح .

ولم يكن النمط الاقتصادي السائد في المجتمع محدداً متلبوراً ، إذ كانت هناك أشكال من الاقتصاد العائلي . ويتبدى هذا في عدة مظاهر من أهمها عدم وجود ساعات عمل محددة . ولكن عدم التحدد كان يظهر بشكل أوضح في رمضان ، فكان الجميع يعمل من الظهر إلى قرب السحور . وكنا طلاب المدارس نتخلى عن هويتنا هذه ، وينضم كل منا إلى أبيه ، يمارس معه مهنته . ولذا كنت أجد نفسي أعمل في محل أبي أبيع نارة أو أجلس على الخزينة نارة أخرى ، آخذ فرائير الزبائن وأحاسبهم على القيمة الواردة فيها ، ثم أختتمها بختم «خالص» . وكان هذا مصدر فخر كبير ، إذ كان يضعني في مصاف الكبار . ولكني ، للأسف ، لم أكن كفأً في أي من هذه الأعمال ، خصوصاً أعمال الخزينة ، لسبب بسيط وهو أنني لا أجيد الحساب (كنت أرسب في هذه المادة دائماً) . ولذا كان والدي يلجأ إليّ حين لا يكون أمامه خيار آخر . وكان يطلب مني في معظم الوقت أن "أراقب" حركة البيع لأضبط النشائيل واللصوص ، الذين يندسون بين الزبائن في مثل هذه المناسبات . ومع اقتراب العيد كنا نتمكث معظم الوقت في المحل ، لأن هذا هو موسم البيع الحقيقي (خاصة إذا تزامن مع موسم بيع القطن) . وكانت أم يوسف أو الحاجة (والدتي) ترسل الطعام لنا ولعمال المحل ، أو نقوم نحن بإعداده في السوق (كانت ورقة اللحم من أكثر الأصناف شيوعاً ، وهي عبارة عن ورقة سمكية ، توضع داخلها كمية من اللحم والخضار والبطاطس ويتم تبجيلها بإضافة بعض الملح والفلفل والكرفس ثم توضع في الفرن بعض الوقت ليتم طهوها) .

وكانت هناك أشكال من الاحتفال برمضان تضرب بجذورها في عصور سابقة ، تسبق العصر الحديث . كان هناك محمد الأعور بائع الجرائد طوال العام ، والمسحراتي في رمضان الذي كان يعني أغاني شعبية دينية . حكى لي مرة قصة الجمل الذي هرب من الجزائر ، وفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة . وطلب منه الأمان ، فمتحه إياه . ومن ساعتها أصبح الجمل إحدى الصور الراسخة في وجداني ، كنت أرى وجهه الخائف وهو مختف وراء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أرى وجهه المطمئن بعد أن حصل على الأمان (أصبح هذا الجمل هو

الجميل ظريف ، البطل الأسامي لقصص الأطفال التي أكتبها) . وفي عشرة الأيام الأخيرة من رمضان كان محمد الأعور يغني عن الوداع - لم يبق إلا الوداع - لم يبق إلا الجميل كنت طفلاً صغيراً فكانت أمي ترقطني قبل السحور لأتظر من النافذة فأراه واقفاً وبحواره مساعده بمسك بالفانوس ويقرأ من كتاب يحوي أسماء نا التي كان يذكرها اسماً اسماً . أسمع اسمي ثم أعود لفراشي لأنام وأحلم .

كنا في طفولتنا نعمل الفوانيس ونغمر على المنازل نطلب ما يسمى «العادة» ، وهي منحة من أصحاب المنازل يعطونها للأطفال الذين «يغفرون» لهم ، أي يشدون لهم أنشودة قصيرة كلماتها كانت على النحو التالي : «لولا فلان ما جينا / يلا الغفار [يشكل هذا عجز كل الأبيات ، ومن هنا تسمية الأغنية] ولا تعبنا رجلينا / إدونا ما تدونا / إدونا ميتين وريال / نسا فروا بهم بر الشام» . ثم نتوقف عن الغناء ونقول بسرعة : «هاتوا العادة / ليه وزيادة / والفانوس طفا / والعيال ناموا / الله خليه / هما وأهاليهم» . وقد أخبرني أحد أصدقائي من أهل القاهرة أن أبناء الفقراء وحدهم هم الذين يجمعون «العادة» في القاهرة ، ولكنني أذكر في دمهور أن هذا التقليد لم يكن له مضمون طيفي إذ كنا نخرج كلنا بالفوانيس . وطبعاً كان هناك أغنية «وحوي يا وحوي» الشهيرة التي لا تزال أصداؤها تتردد في بعض الأغاني الرمضانية . وحينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ علمت ابنتي نور بعض هذه الأغاني ، وكنا نغمر على أعضاء الأسرة «نغفر» لهم ، في محاولة يائسة للحفاظ على التراث .

وكان هناك أيضاً موكب الرؤية ، وهو موكب كان الحرفيون يقومون به في يوم الرؤية ، أي اليوم الذي يسبق رمضان (بعد أن تثبت رؤية الهلال) . كانت كل حرفة تجهز عربة خاصة بها تسير في شوارع دمهور تحمل على ظهرها بعض أفرادها يقومون بتمثيل حرفتهم . فكانت تظهر عربة الحدادين ثم عربة النجارين ، وكنا ننتظر يوم الرؤية بفارغ الصبر .

أما في العيد ، فكاننا نلبس الملابس الجديدة ، ونسقط الحدود مؤقتاً من المجتمع كله . وكان الصراع الطبقي يخف إلى حد كبير ، إذ كان يعم جو من المساواة الجميلة . فكانت عبارة «كل سنة وأنت طيب» هي العبارة التي يجدها الناس من خلالها علاقتهم بمفهوم «الإنسانية المشتركة» وبالعناصر الكونية في وجودهم . وكان جيراننا الأقباط يأتون لتهنئتنا بالعيد ، تماماً مثلما كنا نفعل في أعيادهم .

الأنشيد والألعاب

كنا في دمهور نتعلم عشرات الأغاني والألعاب والفوازير . فكان هناك ، على سبيل المثال ، العبارات التي لا معنى لها ، والتي تتشابه مفرداتها ، ومع هذا يُمَرّن الطفل أو الصبي على ترديدها فترداد كفاءته على نطق مخارج الحروف (تُسمى بالإنجليزية : تونج تويستر tongue

twister) . وكانت المسابقة تدور حول مقدرة اللاعب على أن يقول مثل هذه العبارات بسرعة ، وعدد المرات التي يفعل فيها ذلك . ومن أشهر هذه العبارات : "خشب مين / خشبة حبشة / حبشة مين / صاحب الخشب" ، وعبارة "بربرينا بنى منبر / بربري البندر بنى منبر / يعرف بربري البندر يبنى منبر / زي ما بربرينا بنى منبر" . ولا يتوقف اللاعب إلا بعد أن تختلط مقاطع الحروف المتشابهة ، وكان اللاعبون المهرة يستمرون إلى ما لا نهاية .

وكنا أيضاً نردد ما يشبه القصائد الزجلية التي لا معنى لها والتي كانت تهدف هي الأخرى لتنمية قدرات الصبية العقلية والتخيلية ، مثل قصيدة : "كان فيه ثلاث رجاله / اتنين عمي وواحد مابيشوفش / لقوا تلاته تعريفة / اتنين تمسوحين وواحد مابيسروحش / اشتروا بيهم تلات فرحات / اتنين ماتوا وواحدة ماعاشتش / حطوهم في الفرن / اتنين اتحرقوا وواحدة ماطلعتش" وهكذا . ومن الأغاني الأخرى التي تأخذ شكل لعبة . إذ يقول أحد الأطفال : "عمك شطح / جالك ينطح / تدبلة إيه" . فيختار أحد الأطفال أي كلمة مثل "أدبلة كرسي" . فيقول الطفل الأول : "كر كر فيك / وفي كلاويك / عمك شطح / جالك ينطح / تدبلة إيه" . فيقول الطفل الثاني : "أدبلة ترابيزة" . وهنا يقفز المغني الأول على هذه الكلمة وبدلاً من أن يقول : "رز رز فيك" ، يقول : "تر تر فيك" . فيضحك كل الأطفال وتظهر مهارة اللاعب الأول في تحويل الكلمات ، وتظهر مهارة الثاني في اختيار كلمات يصعب تحويلها .

وكان هناك النشيد المشهور لاختبار فرد ما من بين مجموعة من الصبية : "حادي بادي / كرنب زيادي / سيدي محمد البغدادي / شاله وحطه / كله على دي" . ونشيد آخر يقول : "بين بين / زاتو بين / كب الفلح الياسمين / يا كنتكوت روح السوق / جيب البيضة من الصندوق / أوعى تاكلها ألا تموت" . وكان هناك الأناشيد التي تبين تداخل الأشياء واستحالتها : "البواب عايز نجار / والنجار عايز سلم / والسلم عايز مسمار / والمسمار عند الحداد / والحداد عايز بيضة / والبيضة في بطن الفرخة" . وكان هناك نشيد جميل نشده عن عودة الأب للمنزل : "بابا جاي إمتي ؟ / جاي الساعة ستة / راكب ولا ماشي ؟ / راكب بسككته / بيضة واللا حمرة ؟ / بيضة زي القشطة / وسعوا له السكة / واضربوا له سلام / والمسكري ورا / والطباطب قدام" . ونشيد آخر نقوله في المدرسة ، خاصة عند بداية العام الدراسي : "يا مدارس يا مدارس / ياما كلنا ملبس خالص / والملبس في الكباية / والتلامذة تجري ورايا" .

وكانت هناك أناشيد خاصة "بمنطق" الكرة (أي ضربها باليد إلى الأرض فترتطم بها وتعود ليضربها اللاعب مرة أخرى) . وسأورد النشيد التالي حتى لا يختفي مثل آلاف الأناشيد الأخرى التي طراها النسيان لأنه لم يسجلها أحد : "أبليه أبلتجي / يا جلوس ، عيش أفرجي / بالفلوس ، بنت الأفندي / باتت عندي ، خفت منها لتضربني / جبت عليه واحد" . وكان هناك نشيد ثانٍ للعبة نفسها سأورده هو الآخر حتى يسجله من يهتم بمثل هذه الأمور : "خدي من إيدي / يا مراة

سيدي / إيدي وحعتني / الشمس كلتي / خدي من إيدي يا زميلتي . ومع البيت الأخير من الأغنية كانت الكرة تنتقل من لاعب لآخر .

وكانت هناك أغان عديدة لبط الحبل أذكر إحداها لأنها حزينة وغريبة : "حار عليك يا بريتانيا / لما نجي المصريين / هما كانوا في ألمانيا / ولا كانوا عدوين / هي شارع فاروق الأول / العساكر مرصوصين / ديك واقف اللومان / عمال يقرأ فرنساوي / آن / دي / تروا / سورتي un, deux, trois, sortez" وكنا نط الحبل مع إيقاع الأغنية ونخرج مع نهايتها . ولا أعرف أصل هذه الأغنية ومن ألفها ، ولم تنته بالفرنسية ، وكيف وصلت دمنهور . ومع هذا يجب أن أذكر بعض الأغاني الفرنسية التي كان يغنيها أبناء البورجوازية الريفية وأبناء الموظفين مثل "فريرو جاكو" و"سير لي بونت دا اقبون" والتي وصلت دمنهور ولا شك من خلال مدارس الإرساليات ، مما يدل على أن عمليات التغريب كانت قد بدأت تحرف إلى كل مكان ، والتي انتهت بالهولة ، أي انتشار النمط الأمريكي في الاستهلاك والحلم والتفكير .

وكانت هناك لعبة "برلا برلا برللا" (لا أعرف مصدر هذه الكلمات) حيث يقسم اللاعبون أنفسهم إلى فريقين . ويبدأ الفريق الأول بالتقدم صفًا واحدًا نحو الفريق الثاني إلى أن يصل قبائله ويردده بيتًا من الأنشودة ، ثم يعود بظهره مرددًا "برلا برلا برللا" . وحينما يصل إلى أرضه ("بيته" كما كان يسمى) يتقدم الفريق الثاني نحوه بنفس الطريقة ، أي صفًا واحدًا مرددًا بيتًا آخر من نفس الأنشودة ، ثم يعود بظهره إلى أرضه مرددًا : "برلا برلا برللا" . وكانت اللعبة حوارية فكان الفريق الأول يتقدم ويقول : "المرسال جابلكم" ثم يعود بظهره مرددًا : "برلا برلا برللا" ، فيتقدم الفريق الثاني قائلاً : "عايزين مين" . ويترجع مرددًا : "برلا برلا برللا" . عايزين فلان" . "تجبلوا إيه" . "تجبلوا غسل" (مثلاً) . "ما يقضيهاش" ، وحين يقول الفريق الأول : "كل الدنيا له" ، يرد الفريق الثاني : "انفضلوا خدوه" فيزيد أعضاء الفريق الأول فردًا ، والفريق الغالب هو الذي يزيد عدد أفرادَه عن الفريق الآخر وهكذا . ولا أنذكر كيف كانت تنتهي اللعبة ، وهل كان هناك غالب أو مغلوب ، أم أنها كانت مجرد حوار غنائي . وكان هناك عشرات اللعب الأخرى مثل "هرونوس" وه "كلو بامية" وه "البوكسي" ، وهذه اللعبة تسمى أيضًا «الحجلة» . والغريب في كل الأناشيد والألعاب السابقة أنها كانت أسما للنبات ، ومع هذا ، كان يشارك فيها الصبيان حتى سن الحادية عشر ، حتى يتم الفصل بينهم . وكان الصبيان ينفردون بلعب بعض الألعاب مثل كرة القدم والسبع طويات (يوضع سبع بلاطات ، الواحدة فوق الأخرى ، ويُقسَّم المشاركون إلى فريقين . ويمسك ممثل الفريق الأول بالكرة ، ويقذف بها ، ويحاول أن يوقع أقل عدد ممكن من الطوب [لأن على فريقه أن يعيد ترتيب البلاطات الواحدة فوق الأخرى] ثم يفر أعضاء هذا الفريق لأن من تلمسه الكرة عليه مغادرة الملعب . وموضع التنافس بين الفريقين : هو هل ينجح الفريق الأول في إعادة ترتيب البلاطات قبل أن تصيب

الكرة كل أعضائه أو لا ؟) . ومع هذا، إن لم تحتي الدائرة ، كانت البتات يلعبن لعبة السبع طوبات بمفردهن .

وطبعاً كان تراث الأغاني والألعاب للأطفال ثرياً لأقصى حد . فكان الكبير يصع الصغير على حجره ثم يمسك بأصابعه إصبعاً إصبعاً ، قائلاً : "آدي البيضة ، آدي إللي سلقها ، آدي إللي قشرها . آدي إللي أكلها" . وعند الإصبع الخامسة يكون الطفل متحفزاً إذ يقول الكبير "وآدي إللي قال إديني حنة" ثم يبدأ في زعزعة الطفل . وهناك أغنية أخرى تُغنى أثناء أرجحة الطفل وهو يجلس على حجر المغني : "حج حجيجة بيت الله / والكعبة ورسول الله / حلفت أمك يا ولد / لتغديك اليوم لبن / هشك هشك هشوكة / ياللي تحب المفروكة" .

وغني عن القول أن كل هذه الألعاب يمكن القيام بها بدون حاجة لشراء أي لعبة أو أداة . فاللعبة كانت تعتمد على اللاعبين ومهارتهم وحسب ، ولذا فهي كانت تضيّق الهوة الاجتماعية بين اللاعبين . كما أنها كلها ألعاب جماعية لا يمكن لفرد أن يلعبها بمفرده (على عكس الألعاب الحديثة الغالية الثمن التي يمكن أن يلعب بها المرء بمفرده ، إلى أن نصل إلى "القمة" وهو الكمبيوتر الذي يمكن أن نلعب معه شطرنج بمفردنا !) .

وحينما كنا ننتقم قليلاً في السن ونترك مرحلة الطفولة ، كنا نلعب ألعاباً مثل السجعة والشطرنج والطاولو والكوكتشينة ، وبالطبع كرة القدم (الكرة الشراب ، كما كانت تسمى ، التي تحولت تدريجياً إلى الفوتبول أو الكرة "المنفوخة" ، وهي الكرة التي تستخدم الآن في لعب كرة القدم) . كما شاهدت في بداية طفولتي صندوق الدنيا إذ كان رجل يأتي وهو يحمل صندوقاً به أربع فتحات عليها عدسات ووراءها شريط ورقي عليه صور أبو زيد الهلالي وعنتر وعبله ، وكنا نجلس على أريكة خشبية يحملها الرجل ونضع وجوهنا على العدسات ثم يبدأ الرجل في لف الشريط ويحكى بعض الحكايات .

وكان هناك ما يُسمى بالآفية (القافية) . وتبدأ بجملة إخبارية أو كلمة أو سؤال يطرحه المتنافس (أ) فيرد عليه المتنافس (ب) بكلمة «إشمعني» فيرد عليه (أ) بتعليق من مجال يتم اختياره مسبقاً ، على أن يكون التعليق كوميدياً لاذعاً . ثم تُعكس الآية فيقول (ب) جملة إخبارية ويقول (أ) «إشمعني» . وتستمر المنافسة إلى أن ينفد وقود أحد المتنافسين . فمثلاً يمكن أن تكون المنافسة داخل آفية الأفلام على النحو التالي :

(أ) تمشي في الشارع أنت وعيلتك فالناس تقول :

(ب) إشمعني .

(أ) طيور الظلام .

ثم تُعكس الآية على النحو التالي :

(ب) والدتك تمشي في الشارع الناس تقول عليها :

(أ) إشمعنى .

(ب) جودزيلا .

ثم تُعكس الآية مرةً أخرى :

(أ) والدك يمشي في الشارع تقول عليه الناس :

(ب) إشمعنى .

(أ) سارق الفرح .

(الأمثلة الثلاثة السابقة مجرد أمثلة ، ولذا فأسماء الأفلام المستخدمة حديثة) . ومع هذا

مازلت أذكر آفة واحدة عن اسم فيلم "مشهور" لتحية كاريوكا (على ما أذكر) ، وكانت الآفة كما يلي :

(أ) أمك تصرب أبوك فيقول :

(ب) إشمعنى .

(أ) الصبر طيب !

ويمكن أن تكون الآفة عن كعك العيد . على النحو التالي :

(أ) كعككم :

(ب) إشمعنى .

(أ) يخطوه يرد في الحيط .

(ب) كعككم :

(أ) إشمعنى .

(ب) يقدموه للضيف يقول بلاش النوبادي .

(أ) كعككم :

(ب) إشمعنى .

(أ) أمك تبحثوا للجيران بصوتوا .

وكانت اللعبة تتطلب الحفظ ومزعة الذاكرة ، وهما من سمات المجمع التقليدي الشفاهي . ولكنني كنت أذهب للمنزل وأعد قوائم بالأفانيات المختلفة الخاصة بمجالات مختلفة ، ولذا زادت قدرتي على منازلة الخصوم بشكل مذهل . ولذا حينما كان فريق من حي آخر يأتي لينازلنا ، كان دائماً يقع عليّ الاختيار ، فالقوائم الكتابية كانت جاهزة في ذهني في مجتمع شفوي لا يعرف مثل هذه القوائم ، وكان جهابذة الآفة يحارون في أمري إذ أحسوا أن هناك شيئاً جديداً مختلفاً عما ألفوه . ولم يكتشف أحد أمري بطبيعة الحال . ولا تزال بقايا هذه الألعاب والأغاني موجودة في بعض أحياء القاهرة الفقيرة ، وفي بعض الأماكن في دمنهور . وأعتقد - والله أعلم - أنها في طريقها للاختفاء مع ظهور الأتاري واللعب الكهربائية المختلفة .

وقد ظل حب النكتة داخلي لا يبرحني ، وقد أخبرت أصدقائي أنني إذا أطلقت النكات على أحدهم ، فعذري أنني كمصري أحب القفشة السريعة ، فحينما تحكم "الآفة" فلا يمكن مقاومة ذلك . وولائي ينصرف إلى النكتة بشكل يكاد يكون مبدئياً ، يجب كثيراً من الولاءات الأخرى ، لبعض الوقت . واعتقد أن حب النكتة مسألة مرتبطة بتصميم الإنسان المصري ، فقلبه يفتح إن اكتشف أن من أمامه قادر على إطلاق النكت . قررت الحكومة مرة أن تحول المرور من أمام منزلنا مساءً لإجراء بعض الإصلاحات ، فأقامت بعض الحواجز ، مما كان يضطرنا إلى الدخول في شوارع جانبية لنصل إليه . فكنت ألبأ لسلح النكتة لإقناع الحارس المسائي بأن يفتح لي الحاجز كي أمر منه . فكنت مرة أقول للحارس بصوت خطابي : "نحن الشعب المصري ، نريد العبور" ، فيضحك ويمزج الحاجز . أو أسأله "هل أنت ضد العبور ؟ كل ما تريده هو العبور" فيزال الحاجز مرة أخرى . وبدأت الحيل الفكاهية تتناقص ، ومرة كنا عائدتين من المسرح أنا وأولادي ، وأصبحت المسألة بالنسبة لهم مصدر متعة بالغة . وفي ذلك اليوم ، جلسوا في المقعد الخلفي للسيارة ، وقالوا إنهم يريدون حيلة فكاهية جديدة . فقدحت زناد فكري ، ووقف بسيارتي عند الحاجز وقلت بأعلى صوتي : "افتح يا سمسم" . فنظر الحارس بمنتهى الجدية ، ثم أزال الحاجز وقال : "ادخل يا سمسم" ، ثم انفجرنا ضاحكين .

ولعل حب المصري للنكتة يعود إلى تجربته التاريخية الطويلة التي جعلته يعيش كثيراً من التناقضات ولحظات الانتصار والانكسار ويشعر بالقوة والعجز ، الأمر الذي جعله قادراً على تطوير رؤية فلسفية قادرة على تقبل التناقضات وتجاوزها من خلال النكتة ، وإن كان هذا لا ينفي أيضاً قدرته على التجاوز من خلال الثورة .

ولا شك في أننا كنا نتعلم الكثير في دمنهور دون أن ندرك طبيعة ما نتعلمه ، وهذه هي إحدى القضايا الأساسية المطروحة الآن في عالم التربة ؛ حينما يتم محو الأمية وتحديث المجتمع ، ما مقدار الثقافة والأشكال الحضارية التقليدية الشفوية التي ستختفي ؟ هل تكون الحسارة فادحة لا تُعوض ، أو أن الزمن سيكون معقولاً ؟ يرى البعض أن الزمن في الواقع سيكون فادحاً لأن المواد التي سيقروها من تعلموا القراءة والكتابة لن تكون بالضرورة الأعمال الكاملة لإسخيلوس أو الفارابي أو كونفرشيوس . فعدد مجلات الحوادث والجرائم وأخبار النجوم اللامعة لا يحصى ، ومعدل توزيعها يفوق معدل أي جريدة محترمة أو شبه محترمة . هل ثمة طريقة يمكن من خلالها محو الأمية بطريقة لا تؤدي بالضرورة إلى حرمان الجماهير من قدر كبير من الثقافة التقليدية الشموية التي تنقلها وتعلمها دون جهد كبير ، لأنه جزء من خطابها الحضاري وحياتها اليومية ؟ .

التنوع والتسامح

من مظاهر الصراع بين الحداثة والتقاليد ظهور الأسرة النووية مع استمرار الأسرة الممتدة . كانت الأسرة النووية قد بدأت تطل برأسها في دمنهور ، فكان هناك الموظفون ، الذين كان عددهم قد بدأ في التزايد . وكان لكل موظف أسرة مكونة من زوجين وأطفال ، ولا نعرف شيئاً عن أصولهم ، ومع هذا تقبلهم مجتمع دمنهور . بل كانت بعض الأسر العريقة لا تمنع في أن تصاهرهم . وكان بعض أبناء الأسر العريقة يفصلون عن ذويهم ليستقروا في الإسكندرية (حيث كانت هناك فرص أكبر للاستثمار والتمتع) . ومع هذا ظلت الأسرة الممتدة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية . (كان والدي - رحمه الله - يخبرنا أننا لا علاقة لنا بشروته زادت أو نقصت ، فقد قرر أن يجعلنا نعيش في مستوى أبناء الموظفين ، ولعل هذه هي طريقته في "تحديث" علاقته بنا ، وفي ترشيد الإنفاق ، وفي الالتزام بالتراكم الرأسمالي) .

كان جدي الحاج أحمد علي المسري ، صاحب الضحكة المجلجلة والهيئة المهيبة ، يعيش في الدور الأرضي في عمارته الكائنة في شارع الأنصاري ، ويعيش بقية أبنائه الأربعة في شقق مختلفة في العمارة نفسها ، أما ابتداء فقد إنتقلنا إلى بيتي زوجيهما ، أي أنني نشأت في بيت كل من فيه (مسيري، إلا زوجات الإخوة الأربعة . في هذا الجو كانت أمي تتميز (عن "سلفاتها" زوجات أصحامي) بأنها كانت أقلهن حداثة ورغبة في الإنجاز في رقعة الحياة العامة . كانت أمأ لأولادها ولأولاد عمي ولكل من يأتي في طريقها ، بل للخادومات (اللاتي كانت تجلس معهن أحياناً على الأرض وتأكل بعض الوجبات معهن في المطبخ . وعلى كل كانت الخادمة التي تُلحق بمنزلنا لا تتركه إلا عروسة ، فهي بمعنى من المعاني ابنة لها) . وكل هذا كان يثير حفيظتي أحياناً ، لذاتي الحديثة ، ذات الحدود الواضحة ، كانت قد بدأت تتعدد وتتلور .

والإطار الذي تحركت فيه في طفولتي هو الأسرة الممتدة ، بكل ما في الكلمة من معانٍ . ففي الجيرة التي نشأت فيها كان كل الأطفال معروفين للجميع ، ولذا كان الوقت الذي أقضيه في الشارع ليس مجرد "صباغة" ، وإنما وقت للشبشة الاجتماعية ، على عكس الشارع هذه الأيام . كما كان الصبية الكبار يراقبون الصغار وكانهم أولياء أمورهم ، بما كان يخفف العبء كثيراً على الوالدين . تخبرني أمي أنني ضللت طريقي مرة وأنا في الرابعة ، والتقطتني إحدى الأسر وقدموا لي الأكل . ولكنني رفضت أن أكل إلا بعد أن يتردوا جميعهم قوفاً على صدورهم لحماية ملابسهم من الأكل المتساقط ، ففعلوا ذلك إرضاءً لحاظري ، أي أنهم عدواً أنفسهم مثل أسرتي ، مسئولين عني . (أذكر أنني كنت أسير في إستنبول عام ١٩٧٧ ، وكان هناك طفل في العاشرة يدخن سيجارة فزجره أحد المارة ، أي أنه لعب دور الأب برغم أنه كان لا يعرف الطفل ، ولكنه الإحساس بالمسئولية الاجتماعية في المجتمع التقليدي . وهذا أمر يستحيل أن يحدث في المجتمعات الغربية الحديثة ، وفي كثير من المجتمعات العربية الحديثة ، خاصة في المدن الكبيرة ،

فهي مجتمعات مكونة من أفراد ، يعرف كل منهم حدود مسؤوليته ، لا يمكنه تجاوزها . فالدولة قد ملأت الحياة العامة وجزءاً كبيراً من الحياة الخاصة) .

أتذكر أن أمي ، هذه الأم الفاضلة الشاملة ، ظلت محتفظة بولائها الكامل لأسرتها ، آل حلي ، وظلت تؤكد لنفسها وللجميع بإصرار شديد أنها ليست مسيرية ، دخلت بيت المسيري تعيش فيه تؤدي واجبها ولكنها ليست منه . ويبدو أن تجربتها في وسط المسيرة كانت تجربة فريدة ، إذ تحول آل المسيري في وجدانها إلى عالم أسطوري عظيم مخيف . كانت تحكي لي عن أحفادي الذين عاصرت بعضهم قبل مجيئي لهذا العالم ، وكيف أن هيبة أحدهم (حدي المباشر الحاح أحمد) كانت تبث الرهبة في قلب الجميع . وكانت ضحكته تدخل البهجة على القلوب ، ولذا حينما كان يضحك في مكتب المدير ، كان المدير هو الآخر يضحك ضاحكاً وكذلك كل من حوله . أما جدي الحاج علي ، فكان - حسب روايته - لا يحب أن يأكل الكبد إلا نيسة ، وفي رواية أخرى بعد أن يطبخه في الزيت الساخن لمدة ثانية واحدة . أما البيض فكان يشرب بيضتين لبنتين كل يوم . وكانت زوجته (المسيرية) أكثر بطشاً منه ، فكانت قادرة على أن تحصل برميلاً زنته لا تقل عن مائة كيلو جرام وتسير به لعدة كيلو مترات (وما الذي كان يحملها على هذا ؟ هل هذه وقائع مادية ، أو أنها الأسطورة التي ينتجها عقل الإنسان الخلاق ليتفهم واقعه ولتصالح معه ؟) . وأخبرتني أمي عن أحد أجدادي ، وأنه كان تاجراً ينتقل بين المدن والقرى . كان يتزوج في كل مدينة ، ربما ليلنس وحدته . ولم يعرفوا بأمر زيجاته إلا بعد وفاته ، إذ حضرت الزوجات ليطالبن بأنصابهن في الميراث ، وكان بينهن زوجة من جنوبي السودان لا تعرف العربية (كيف كان هذا الرجل يتفاهم معها ؟) .

وبرغم أن أمي ظلت "غريبة" عن بيت المسيري ، فإن انتماءها للأسرة الممتدة كان يعطيها قوة وثقة . حينما كانت تغضب من أبي كان أخوها الأستاذ إبراهيم حلي ، رئيس حزب الوفد في دمنهور (أو لعله كان من الشخصيات الأساسية فيه) بماله من هبة في المجتمع ، يأتي وتدور المفاوضات إلى أن يُعرف أصل الخلاف وتسوى القضية . وإن لم تسو ، فهناك دائماً بيت أبيها أو أخوتها تلجأ إليه تعيش فيه بعض الوقت ، إلى أن تبدأ المفاوضات مرة أخرى . وإذا كانت الخلافات تسوى من خلال الأقارب ، فإن الزيجات في معظمها كانت تتم بنفس الطريقة ، فالفرد لم يكن يتزوج بفرد آخر (كما هو الحال في مجتمعنا الحديث) وإنما كانت العائلة "تصاهر" العائلة الأخرى . فالفرد في المجتمعات التقليدية ليس وحيداً لا في أفراحه ولا في أحزانه . أذكر أنني حينما ظهرت في التلفزيون لأول مرة للحديث عن موسوعة ١٩٧٥ تقدم كثيرون بالتهنئة لأمي ، بحسبانها مسئولة عن "النجاح" الذي حققته فثمرة الجهد لا يُنظر لا تنسب لصاحبها وحسب ، وإنما تنسب أيضاً للأُم ، الأمر الذي يوُلد لديها إحساساً بالاستمرار ويحفف كثيراً من عبء الأمومة ، ويُقرب الأجيال بعضها من بعض . كما يجعل مسألة عمل المرأة في المنزل مسألة

مُعترفاً بها اجتماعياً ، يقدرها المجتمع حق التقدير (على عكس ما هو حادث الآن : فلو سألت أماً ماذا تعمل ، لقلت : " لا شيء " ، بحُبان أن " العمل " أصبح هو ما يقوم به المرء من عمل في مجال الحياة العامة ويتقاضى عنه أجراً ، وكلا هذين الشرطين لا ينطبق على الأئمة) .

ومن المقولات الشائعة التي تكاد تكون بديهية أن المجتمع التقليدي يحو الشخصية الفردية للمرء . وما لا شك فيه أن عملية الضبط الاجتماعي المباشرة في المجتمع التقليدي تضع حدوداً للفردية وتولد إحساساً عميقاً بالانتماء للجماعة الأولية (الأسرة - القبيلة ... إلخ) . أذكر أنني كنت في ولاية ميسورتا عام ١٩٦٦ لإلقاء محاضرة ضمن نشاط منظمة الطلبة العرب . وبعد المحاضرة ، اقترب مني أحد الطلبة وعانقني وقبّلني ، واكتشفت أنه أحد زملائي من مدرسة دمنهور الثانوية من عائلة الملبودي ، ودعاني لحضور اجتماع " لاتحاد طلبة دمنهور في ولاية ميسورتا " ، فكدت أصعق من هول الصدمة ! ومع هذا حضرت الاجتماع ، وأدركت مدى قوة الانتماء للعائلة أو القبيلة أو المكان في المجتمع التقليدي .

ولكن برغم كل هذا ، فإن هناك عدداً كبيراً من الشخصيات ذات السمات الغدة في حياتي في مجتمع دمنهور التقليدي . ففي إطار أسرتي الممتدة ، لم يكن أبي هو الشخصية الوحيدة الطاغية ، كما هو الحال في الأسرة النووية ، إذ كان هناك نماذج أخرى يمكنني أن أحذر حذوها ومن خلالها تمكنت من أن أجاوز والدي وأن أتحرر منه (وهذه هي مشكلة المشكلات بالنسبة للأطفال في الأسرة النووية) . فزوج אחتي الأستاذ عبد الوهاب مصطفى حلمي ، أستاذ اللغة العربية ، شجعني منذ طفولتي على الاهتمام بالأدب والفكر ، وكان يساعدني على إصدار المجلة السنوية لمدرسة دمنهور الثانوية . وكان يطلب مني إلقاء المحاضرات العامة (' الخطب ' كما كانت تُسمى حينذاك) ويفتح لي آفاقاً جديدة مختلفة عن أفق أسرة ذات توجه تجاري واضح .

وكان خالي الأستاذ إبراهيم حلمي - كما أسلفت - شخصية سياسية بارزة في دمنهور . كانت الجماهير قد اختارته مرشحاً لها في آخر انتخابات نيابية أجريت قبل قيام ثورة سنة ١٩٥٢ . ولكن قيادة الوفد اختارت أحد أبناء عائلة الوكيل الإقطاعية مرشحاً عن دائرة دمنهور بدلاً منه (بعد أن انتدب الطويل باشا للصكيم) ، فجرى الهمس ساعتها بأن الوفد قد سقط تماماً كحرب شعبي . كان خالي قد كرّس حياته للعمل الحزبي ، إذ كان إيمانه بالوفد كاملاً . فكان يُوظف مطبعة (وهي من أقدم المطابع في مصر) لطباعة منشورات الوفد . وحينما قامت ثورة يوليو ، تحمست لها بعد أن كنت قد سمعت عن فساد الملك والصراعات الحزبية ، فذهت إليه ورجوته أن يؤدي دوراً في هذه التشكيلة السيامية الجديدة وعظمتها (هيئة التحرير) ، فكان رده صارماً : " السيامية بالنسبة لي هي إلقاء الأصوات خلف ستارة ، وبدون ستارة لا يمكن أن تقوم للحياة السياسية الحققة قائمة " . أعجبت ببطولته وحزمه برغم أنني لم أفهم ساعتها تماماً ما قاله . وترك خالي السياسة وتفرغ لعمله ولطبعته حتى حانت منيته ، وكنت ساعتها في

الولايات المتحدة ، وسمعت أن دمنهور بأسرها خرجت لتوديعه .

وكان لي حال آخر يمثل نمطاً مغايراً تماماً . لم يكن له أي توجه سياسي على الإطلاق ، وكان مشغولاً بأمور لا علاقة لها بالواقع الاجتماعي المباشر ، كان يطبع "إمساكية" جميلة في شهر رمضان . آخر مرة قابلته فيها أعطاني جدولاً بتواريخ النوات في الإسكندرية وأسمائها وظل يواظب على حضور كل الجنازات والأفراح ، إلى أن توفاه الله ، وهو فوق الثمانين .

ومن معالم دمنهور الأساسية ، مقهى السيدي لصاحبها الأستاذ عبد المعطي السيدي (رحمه الله) ترددت عليها مرة أو مرتين قبل دخول الجامعة ، وجلست على هامش جماعة الشعراء والعنانين والقصاصين والمفكرين والشعقيين ومحبي الصحافة . وبعد دخولي الجامعة ، أصبحت عضواً أساسياً في تلك الجماعة التي كانت تلتقي في المقهى ، في جو كله مودة ودون استقطابات أيديولوجية ودون خوف أو وجل من التجريب أو الخطأ ؛ فالمرء أمام أصدقائه لا يدعي ولا يضطر إلى موازنة الأمور ، بل يعبر عما بداخله في جراحة ، وهو يعرف أن ما سيقوله سيقابل إما بالإعجاب وإما بالضحك والسخرية ، وسخرية الأصدقاء مضحمة بالحب (على عكس المؤتمرات العامة التي أصبحت فضاءات زمنية ومساحات مكانية تُلقي فيها أوراق طويلة تُسمى وبحوثاً أعدت بعناية مسبقة ، تُؤتق فيها أحياناً البدهيات ، أو يظل الباحث يوازن نفسه حتى لا يقول شيئاً ، وهو يبذل قصارى جهده ألا يجرب وألا يخطئ وألا يترك ثغرة في بحثه قد يحاسب عليها . وهو عادةً ما يلقي بحثه أمام جمهرة من الأساتذة لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وفي إطار جو من التبرص العام) .

إن أي مؤلف لا يكتب "للناس جميعاً" وإنما لمجموعة محددة من البشر . وكل كاتب - في تصوري - يحتاج لجماعة من القراء تتوافر فيهم عدة شروط : أن يكونوا مهتمين بالقضية التي يتناولها ، وأن يكونوا على مستوى فكري يمكنهم من الحكم على أعماله فلا يكيلوا المدح دون حساب أو مقياس ، وألا يكونوا من الحاسدين الخاقدين . مثل هؤلاء يمكنهم توجيه النقد للمؤلف داخل إطار من الصداقة والتقبل المبدئي ، ويعطيه قدراً من الشرعية ، فهذا يشد من أزره ، والحوار الدافئ الذكي يرلّد في نفسه الثقة فيزداد الإبداع .

ومن أطرف الأشياء أنني حينما كنت طالباً في المدرسة الثانوية كنت كلما أرسلت خطاباً لإحدى الصحف لأعبر عن إعجابي بشيء ما أو لأستنكر شيئاً ما أفاجأ بأن خطابي يجد طريقه إلى النشر . بل ويُعطى مكان الصدارة أحياناً . وكنت أحرار لهذه الظاهرة ، وكان زملائي في المدرسة يعسرونها بأن أسلوب أديبي راقٍ ، فكنت أصدقهم وترتفع معنوياتي وترداد ثقتي بنفسي إلى أن اكتشفت أن المسألة مجرد تشابه أسماء ، وأن كثيراً من محرري الصحف كانوا يظنون أن عبد الرهاب السيدي من دمنهور هو عبد المعطي السيدي الأديب صاحب المقهى في نفس المدينة !

وكان بيننا شاعر العامية حامد الأطمس والشاعر فتحي سعيد (رحمهما الله) ، كما تعرفت إلى محمد صدقي كاتب القصة وعبد القادر حميدة وغيرهما . كان المقهى هو بيت الثقافة في دمنهور . وكان أمين يوسف غراب يتردد عليه ، وقيل لي إن يحيى حقي ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهما من المشاهير من أبناء البحيرة ومن عملوا فيها كانوا من رواد هذا المقهى الأدبي . ولكن بعد قيام ثورة يوليو ، تسارعت عملية التحديث التي تتسم بظهور الدولة المركزية القوية فانتقل الأستاذ عبد المعطي المسيري وحامد الأطمس إلى القاهرة ليعملا في المجلس الأعلى للفنون والآداب (ومع هذا ، استمر المقهى وما يزال - حسبما سمعت - منتدى ثقافياً يتردد عليه المثقفون والفنانون) . وللأسف مات الأستاذ عبد المعطي المسيري يوم موت الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان جهاز الدولة المركزية بأسره مشغولاً عن الحركة ، مشغولاً بهول الحدث ، ولذا اختفى الأستاذ عبد المعطي من الحياة الأدبية والعامية فجأة .

وفي مرحلة مبكرة من حياتي ، ولفترة قصيرة ، انضمت - كما أسلفت - إلى جماعة الإخوان المسلمين ، وتعرفت إلى مجموعة كبيرة من الشخصيات معظمهم من الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة الصغيرة (موظف بمصلحة التليفونات - مدرس لغة عربية - بعض أولاد صغار المزارعين - صغار التجار) . الطريف في الموضوع أنني اكتشفت حينذاك أن كثيراً من الشيوعيين في دمنهور كانوا أعضاء في الإخوان المسلمين قبل دخولهم الحزب الشيوعي والعكس بالعكس . وحينما كنت في دمنهور عام ١٩٥٦ في أثناء العدوان الثلاثي وكنا في قوات الحرس الوطني ، سمعت إمام أحد مساجد دمنهور ينشد قصيدة لعبد الوهاب البهاتي ، واكتشفت أن هذا الإمام كان ملحداً . ويبدو أن هذه المرحلة كانت مرحلة بحث عند الجميع ، وأبناء الطبقة المتوسطة المتعلمون في المدن الصغيرة وفي الريف المصري هم من أكثر العناصر بحثاً وتساؤلاً وصلابة . (وأعتقد أنه من أكبر الكوارث التي حاقّت بالمجتمع المصري تأكل الطبقة المتوسطة [مع الانفتاح والعولمة] بسبب تضائل دخلها والتضخم وزيادة التفاضل في حياتها : لقمة العيش - تعليم الأولاد - الرعاية الصحية ... إلخ . وقد أدى هذا إلى أن إسهام أبناء هذه الطبقة في المجتمع قد تراجع بشكل ملحوظ) .

ولعل هذا النوع الذي يسم المجتمع التقليدي يعود إلى التسامح الذي يشتمل به . فهو مجتمع - كما أسلفنا - تتم فيه عملية الضبط الاجتماعي بشكل مباشر ، كل شخص فيه يعرف مكانه وتتم مراقبته بشكل مباشر من خلال أبويه والجيرة وهكذا ، فهو يدين بالولاء أساساً لعلاقات القرابة والجيرة المباشرة . ولكن بسبب نجاح عملية الضبط الاجتماعي وثقة المجتمع بنفسه ، وبسبب أن الأسرة القرية من الفرد أو الجيرة هي التي تقوم بعملية الضبط الاجتماعي يجد أن المجتمعات التقليدية لا تمنح في أن تترك حيزاً لا بأس به للأفراد ليمارسوا فيه أشكلاً من التمرد ، ويمكن داخله التسامح والتساهل في أمور كثيرة . كل هذا يقف على طرف النقيض من

مؤسسات الدولة والمؤسسات الإعلامية المختلفة المجردة البعيدة التي تتطلب الولاء لها دون غيرها ، وهي مؤسسات لا شخصية ومجردة ، تحاول تنميط الفرد حسب قوالب مُعدة مسبقاً ، فتقضي على فرديته المتعينة حتى يمكنها توظيفه . أذكر أن إحدى السيدات اشتكت من أن زوجها يقضي معظم وقته في النادي يعاقر الخمر وأن له علاقات نسائية . فاجتمعت بعض النسوة وأجبرنها عن آليات استعادة الزوج إلى المنزل ، ومن ضمنها شراء الخمر له ، إلى أن يعود ، "وساعتها يحلها حلال" . وقد نجحت الخطة أو اخطط ، ولكن ليس هذا هو المهم ، فما يهمني من هذه القصة هو وجود متتالية مسقة لكل هذا الرجل ولكل هذه المشكلة ، كما توجد متتاليات مختلفة للحلول ، مما يعني أن رؤية المجتمع للنفس البشرية كانت رؤية مركبة تتجاوز الصور السطحية والتافهة التي تروج لها أجهزة الإعلام هذه الأيام . وجوهر هذه الرؤية الإعلامية الاختزالية هو الاستقطاب الحاد بين نوعين من البشر ، فالإنسان إما أن يكون محباً مخلصاً ، متفانياً في حبه ، لا يفكر إلا في محبوبته (بعد أن أحبها من أول نظرة بطبيعة الحال) ولا يشهد منزله ، أي عش الزوجية السعيد ، سوى شهور غسل متتالية ، وإما أن يكون رجلاً شريراً يخون زوجته وأفراد أسرته وأصدقائه ، ولا يشهد منزله سوى شهور بصل وخناقات متتالية !!

نعم التسامح هذا يظهر في علاقتنا بالأقباط . ثمة واقعة في بداية حياتي لا أنساها ، إذ أيقظتني أمي ذات صباح وأخبرتني أن وليام قد حضر لرويتي . لا أذكر اسمه بالكامل ولا علاقتنا به سوى أنه كان جازاً لنا وصديقاً لأخي الأكبر ، وكان يحبني ويأتيني بالحلوى والهدايا . وفي ذلك اليوم ، خرجت من غرفة نومي لأراه جالساً على الأريكة مبتسماً وأعطاني لعبة خشبية صغيرة : ديك ملون عُرِفَ أحمر ، قاني الحمراء ، لن أنساه ما نبئت . (ولعل شخصية الديك حسن ، إحدى الشخصيات الأساسية في قصص الأطفال التي كتبها ، هي خليط من هذا الديك وأخي حسن) .

وكان يجلس إلى جوارِي في المدرسة ديسفوروس (ابن قسيس الكنيسة ، وقد قيل لي إنه هو نفسه أصبح قسيس كنيسة دمنهور) . ولا أذكر أي اصطدام معه ، أو بينه وبين المدرسين ، بل كانت تربطنا جميعاً علاقة محبة ومودة . وكانت هناك أسرة قبطية تقطن إلى جوارنا ، ولم يكن بوسعهم رؤية النجم لتحديد موعد الإفطار بسبب موقع شقتهم ، فكان يُطَب مني أن أقف يومياً إلى حين ظهور النجم ثم أخبرهم بذلك (فبعض الإخوة الأقباط يصوم "من النجمة للنجمة" ، كما قالت لي د. إيساس يرسوم ، طاليتي منذ ربع قرن تقريباً والتي تعمل مدرسة في آداب عين شمس ، والتي لا تزال تربطني بها وأسرتها [زوجها وأولادها] علاقة قوية) .

وكان هناك عدد كبير من المدرسين الأقباط في مدرسة دمنهور الابتدائية والثانوية كانوا يؤدون دوراً حيوياً في حياتنا ، كان من أهمهم الأستاذ فارس ، مدرس الحساب ، الذي علّم كل الأجيال كيف تحسب . كنت أكرهه وبعمق لأن طرقه التربوية ووسائله التعليمية كانت تتضمن

الضرب على الرأس بدرجات متفاوتة من العنف ، وهي أمور كان أولياء الأمور يرون أنها من حسناته ، فهو ينهي كل المشكلات بضربة واحدة ، وتدل نتائجه على فاعلية وسائله التعليمية . وقد تولاني برعايته التربوية في السنتين الأولى والثانية من المرحلة الابتدائية . ثم جاء الأستاذ مشرفي في السنة الثالثة ليُجهز على أي بقايا حب داخلي للرياضة . ولكنهما لم يعلحا في القضاء على إيماني بالجنس البشري . وكان هناك أيضاً الأستاذ ووفاتيل والأستاذ إميل جورج اللذان تبنياي فكرياً ونفسياً بما كان له أعمق الأثر في (كما سأبين فيما بعد) .

و كنت ألاحظ أصدقاء حالي الأقباط من أعضاء حزب الوفد ، وكيف كانوا جميعاً يفتنون صفاً واحداً ضد الإنجليز والملك . باختصار شديد ، علاقتنا بإخواننا الأقباط في هذا المجتمع التقليدي كانت علاقة طيبة ومستقرة ، فهل هناك من وسيلة لدراسة أسباب هذا الودام الكامل ؟ وكيف يمكننا إعادة إنتاجه في مجتمعنا المصري "الحديث" الذي أصيب بعض أفرادهِ بلوثة في موضوع الدين ؟

منذ عدة أعوام أدمنت الاستماع إلى السيرة الهلالية في رمضان . وكنت مرة أستمع إلى السيد المصري (منشد السيرة الهلالية الشهير) في المجلس البريطاني (مع فريق الورشة) . ومن المعروف أن السيرة تبدأ دائماً بالصلاة على النبي ، فهذا جزء من التقاليد الأدبية لا يمكن التخلي عنه . ولكن المنشد لاحظ وجود عدد كبير من الأجانب (ولا شك في أنه كان هناك عدد من الإخوة الأقباط الذين لا يمكن التعرف عليهم لأنهم لا يختلفون عن المسلمين إلا في الأسماء) . فأحس أن عليه أن يطور افتتاحيته بما يتلاءم مع هذا الوضع دون أن يلغيها أو يستأصلها (كما يفعل بعض التحديثيين) . فأضاف عبارة " وكل اللي له نبي يصلي عليه" . وبذلك أجزأ المنشد ما يجده بعضنا صعباً : الحفاظ على التقاليد والقيم ، فنية كانت أم أخلاقية ، وتوسيع نطاقها بحيث يمكن لأعضاء الأقليات أن يشعروا أنها لا تسبهم ، فنحن - كما يعلمنا الإسلام - أمة واحدة .

وحتى لا يتصور أحد أن لدي حيناً رومانسياً (نوستالجيا) للماضي (برغم إدراكي لكثير من إيجابياته) ، يجب أن أشير إلى وعيي بالجانب المظلم لهذا المجتمع التقليدي . فالفرديّة التقليدية (وهي غير الفرديّة الحديثة) ، وعدم اضطباطها ، تفضح بشكل درامي ، خاصة حينما تبدأ المؤسسات الحديثة في الظهور ، وهي مؤسسات تتطلب من الفرد قدراً من الانضباط العام والمجرد . فالفردي التقليدي يظل على فرديته النابعة من ولاءاته التقليدية لنفسه ولأسرته أو عشيرته (تُعرف زوجتي الحديثة بأنها التخلي عن كل العلاقات الأولية [الكونية] مثل علاقات القرابة والانتماء للقبيلة والعلاقة المباشرة بالطبيعة ، وإحلال علاقات غير شخصية مجردة محلها منية على التعاقد والمنفعة) . لهذا نجد أن الفرد التقليدي يرفض الانصياع للقوانين العامة التي تحاوز نطاق هذه الولاءات ، والقيم الأخلاقية التقليدية والتي لا تنطبق إلا على حياته الخاصة

المباشرة ، أما رقعة الحياة العامة فهي مباحة ، ولا قداسة لها ، ولذا لم يظهر ما يُسمى «الأخلاقيات المدنية» . ولذا نجد في الجامعة على سبيل المثال ، فتاة محببة متمسكة بأهداب الفضيلة ، مطبعة لوالديها ، ولكنها لا تتورع عن الكذب على الأستاذ والغش في الامتحان ، لأن الأستاذ والامتحان يقعان خارج نطاق الولاء التقليدي لمنظومة القيم التقليدية .

ومن أطراف الأمثلة على هذه الازدواجية ، تصرف المصريين أمام البوفيه المفتوح - open buffet . ففي المجتمع التقليدي حينما يُدعى المرء للطعام فهو لا بد أن يأكل قليلاً ، ثم يعلن أنه والحمد لله قد شبع ، فيقوم مضيفه بتقديم المزيد من الطعام فإن رفض الضيف فإن المضيف يقسم بأغلظ الأيمان أنه لا بد وأن يقبل أن يأكل المزيد "ولا أكلنا لا يعجبك" ، و"ماتكسفنيش" ، و"خذ دي من إيدي" ، فيضطر الضيف المسكين إلى أكل المزيد . تنقلب الآية تماماً أمام البوفيه المفتوح ، إذ يتدافع الناس ويكدسون الطعام في أطباقهم إلى درجة التبريد . وقد سمعت مرة مدير أحد الفنادق يرجو النزلاء أن يأخذوا كل ما يريدون من طعام شريطة أن يأكلوه كله . ونفس التناقض يوجد في سلوك الناس داخل المسجد وخارجه ، فهم في صلاة الجمعة تجدهم يفسحون الأماكن بعضهم لبعض ويصطفون صفاً واحداً ويحرصون على أن يكون صفّاً مستقيماً ("استقيموا برحمكم الله") ويخرجون بشكل هادئ ، على سبيل المثال ، من المسجد . ولكن على بُعد خطوات منه إن كان يقف هناك بائع بطيخ تجدهم يتدافعون ويتشاحرون ولا يحترمون الطابور أو الدور . ولا يمكن تفسير هذا التناقض البين في السلوك إلا من خلال إدراك المفهوم التقليدي للقيم الأخلاقية بحسبانها ذات فاعلية في مجال الحياة الخاصة وحسب ، وأن الحياة العامة تقع خارج نطاق الأخلاق .

ولعل الظاهرة التي نشكو منها جميعاً ، أي سلم العمارة القذر ، مثل جيد آخر . فمعظم المصريين يحافظون على مستوى عالٍ من النظافة داخل شققهم ، وهذا جزء من منظومتهم الأخلاقية التقليدية ، أما خارجها فمباح ، فيتحول إلى ملفف للقمامة . ومن أكثر الأمثلة درامية هو حالة المرور في العواصم العربية والقيادة بسرعة جنونية ورفض الانصياع لإشارات المرور . كان لنا قريب من كبار الموظفين في مصلحة التليفونات ، وجاء خبير ألماني لا أذكر بالضبط مهمته في أثناء ما يسمى «أسبوع المرور» . ورأى صاحبنا الألماني أن الشوارع تزدحم بكبار الضباط الذين يشيرون للسيارات . ولكن حيث إن حركة المرور كانت تتسم بالفوضى (بالمقارنة لألمانيا) فإن صاحبنا تصور أن الهدف من «أسبوع المرور» هو تشجيع الناس على عدم الانضباط حيث إن الانضباط الدائم يسبب مشكلات نفسية . ولذا ذهب صاحبنا الألماني لقريبي وقال له : " هو مصطفى ، أنتم تعيشون مجتمع متحضر ، تحاولون أن تحلوا مشكلات الناس النفسية" . فهرق قريبي رأسه ، فالسكوت علامة الرضا ، ولا داعي للفضائح . واستمرت سعادة صاحبنا الغامرة لمدة أسبوع ، ولكن حين زادت الفوضى بعد أسبوع وأخذت في التصاعد ، عاد صاحبنا الألماني

وسأل قريبي: "مر مصطفى، ألم ينته أسبوع المرور، فلماذا هذه الفوضى المتزايدة؟" وهنا اضطر قريبي أن يخبره أن أسبوع المرور كان هو أسبوع الانضباط، ذروة التنظيم، وأن الفوضى المتصاعدة هي الأمر العادي.

وإذا كانت هذه القصة ملهاوية، فقد ذكر لي صديق (من الأردن) قصة مأساوية / ملهاوية. إذ كان عليه أن يستقبل خبير سويدي جاء للدراسة حركة المرور في عمان لتنظيمها. وبعد أن أوصله إلى الفندق، اتفقا أن يلتقيا في اليوم التالي في تمام الساعة العاشرة صباحاً. ووصل صديقي إلى الفندق في الموعد المحدد، وطال انتظاره لأن الخبير السويدي لم يظهر. ثم ظهر فيما بعد أن المسكين كان يعبر أحد الشوارع فصدته سيارة هتمت عظامه وأنه في انتظار طائرة طبية لنقله إلى بلده ليعالج هناك.

والحادثة التالية خبرتها بنفسي، ولا أدري كيف أصفها. كنت أقف مرة عند إشارة مرور حمراء، وبدأ قائد السيارة التي تقف ورائي يطلق زمارته بطريقة تدل على الضيق. فنزلت له وأخبرته أن هناك إشارة حمراء، فقال مستكراً: "يا دي النيلة، يعني كل ما تحمر الإشارة حنق!". قالها بحق شديد على هذا الذي يريد أن يستجيب لنظام المرور الإشاري غير الشخصي الذي يسري على الجميع، والذي بدوره تتحول الحياة إلى جحيم مقيم، كما هو الحال في مدينة القاهرة في معظم أيام الأسبوع. (ومع هذا يجب أن أشير إلى أن هذه الظاهرة، أي التناقض بين سلوك الإنسان في حياته الخاصة وحياته العامة أخذ في التفاقم رغم تصاعد معدلات التحديث والترشيد بسبب فساد كثير من النخب الحاكمة في العالم العربي، فهي تعطي الإشارة للناس أن رقعة الحياة العامة لا تنطبق عليها أي قيم أخلاقية، وأن الإيمان بالأخلاقيات المدنية هو من قبيل «الدون كيشوتية» التي يمكن أن تؤدي بالإنسان).

وفي دراسة بعنوان «الفتيان الغرباء الروح: دراسة في استجابة الوجدان الأدبي العربي لعملية التحديث كما تتضح في ثلاث قصص قصيرة» تناولت قضية كيف يتحول الماضي والتقاليد إلى عبء على واقعنا الحديث من خلال تحليل قصة توما الخوري، الكاتب اللبناني، "نحن رجالك".

"تبدأ القصة في جو عصري للغاية - موسم الانتخابات - إذ يشارك المواطنون في عملية صنع القرار. ولكن بعد أول جملة يستخدم الكاتب صورتين، فهو يقارن نشاط القرى غير العادي في أثناء الانتخابات بالبليز الذي تم ضربه جيداً. كما شبه حارات تلك القرى بخلايا النحل، أي أن الحركة الوجدانية هنا من العصر الحديث المبني على الفردية إلى المجتمع التقليدي المبني على الولاء للجماعة. وبعد هاتين الصورتين يعود الكاتب مرة أخرى للحديث عن أهمية الانتخابات وأهمية كل صوت يُدلى به فيها، ولهذا السبب يحضر الناخبون مستخدمين كل وسائل المواصلات الممكنة: الحمير والثيران والجمال واللوريات والأتوبيسات (الحافلات) وأي

عربية من أي نوع .

تتداخل إذن الأشياء ويذهب الناصبون إلى صندوق الاقتراع على ظهور الجمال ، والسبب واضح ، فعملية التحديث لم تتم بعد ، ثمة طرق قد تم رصفها وأخرى لم تُرصف بعد ، وهناك قرى لا يمكن بلوغها إلا عن طريق الهبوط "كالوحي تماماً" كما يقول الراوي ، إما بمظلة القفز أو بالهليكوبتر ، وإلا فعلى المرء أن يترك وطنه كلياً وكأنه مهرب حشيش ليصل إليها عن طريق دولة أخرى مجاورة .

في وسط هذه الأشكال التي لم تكتمل بعد ، يظهر أتوبيس أبو فحل المسمى بد المحروسة ، وهو خير رمز لهذا العالم ، فهو أتوبيس ، أي آلة ، جزء من العالم التكنولوجي المعاصر ، ولكنه يفقد هويته بالتدرج إلى أن يصبح جزءاً من العالم التقليدي . فالأتوبيس ذاته يجري أحياناً كالحيتونات ، وأحياناً أخرى يطير كالطيور . وحينما يسقط في نهاية الأمر فهو يطير في الهواء كالغزال ، وحينما يستقر على أرض الوادي فإن عجلاته تبدو وكأنها سيقان حيوان يرفس الفضاء . وحتى اسم «المحروسة» ، هو اسم لا يليق إلا بمركب شراعي جميل أو عربة "حظوظ" تجرها الأحصنة . واسم السائق ، أبو فحل ، يشير إلى قيم تقليدية مثل الفحولة والذكورة ، وهي صفات ليس لها علاقة كبيرة بعملية قيادة السيارة التي تتطلب عدداً من الصفات النثرية العادية مثل الانتباه والحذر واتباع القواعد ومراعاة القوانين . وقد كُتب على الأتوبيس العبارة التقليدية «الحسود لا يسود» . وفي مساره لا يتبع الأتوبيس مساراً محدداً . كما هو الحال مع الأتوبيسات العصرية ، إنما يتبع طريقاً فريداً للغاية ؛ فهو قد يتوقف مرة ليشري أحد الركاب سلعة ما ، أو ليقضي طفل حاجته ، ومرة أخرى ليشرب الركاب من عين يشتهر ماؤها بقدرته على شفاء المراءة . ويترك الأتوبيس مساره أحياناً لتوصل سيدة لمسافة قصيرة للغاية (عدة كيلومترات) وهكذا . ولكن الأتوبيس واسع ورحب - كما يقول الراوي - سعة ورحابة قلب السائق . وهكذا تختفي وسائل القياس الرياضية وتحل محلها وسائل قياس معنوية عاطفية .

"ويزداد فقدان الأتوبيس لهويته العصرية حينما ننظر إلى الركاب ، فهم بالتدرج قد تحولوا من مجرد ركاب (أفراد متفرقين في علاقة تعاقدية مع شركة الأتوبيس) إلى جماعة تقليدية تربط أعضاها أواصر المودة والتراث المشترك ، يتخبطون في غناء المواويل بشعبي أنواعها ، وينغمسون في رقص الدبكة ثم يتناولون العرق بما في ذلك السائق ، ثم يشتركون في مأدبة يقتسمون فيها طعامهم . وهكذا بعد أن اختفت الحدود الخارجية للأتوبيس اختفت أيضاً أي حلاوة داخلية . فالملكية الخاصة للطعام يحل محلها الاقتسام ، وفوات الركاب المنفصلة المستقلة دابت ثم تداخلت عن طريق الغناء والرقص الجماعي . وماذا عن الانتخابات نفسها ؟ حينما يمر الأتوبيس على بلدة المرشح يهتف الجميع «كلنا رجالك / زعروربيه» وهو غناء لا يختلف كثيراً عن المواويل ، ينتج عنه فقدان للذات المنفصلة وامتزاج بالجماعة . وحينما يظهر زعروربيه تطلق

النيران من البنادق التي تعود إلى عهد نابليون بونابرت وقبل ذلك بقليل ، ويهتف الركاب هتافاً يكفي لإسقاط أسوار أربعا (وهي إشارة إلى العهد القديم) ثم يختلط الهتاف بأصوات الحيوانات والطيور أو على الأقل يفزعها .

"ومن الواضح أن الراوي لا يعترض كثيراً على هذه الروح الجماعية وهذا الاعتزاز بالتراث ، ولكن المشكلة أن كل هذا يتم في الأتوبيس ، الموقف المناسب في المكان غير المناسب ! وقد أطلق الراوي التحذيرات من البداية ، فمن بين الركاب نقايل أم سليمان ، أرملة أحد السائقين والذي نجما بأعجوبة حينما سقط الأتوبيس الذي كان يقوده في الوادي (ولكنه مات من فرط الحزن فيما بعد) . ويخبرنا الراوي كذلك أن الطريق ملتو معلق في الهواء ! بل إن كثيراً من الركاب خامرهم الإحساس بشيء من الخوف ، ولكنهم تغلبوا على مخاوفهم . وحينما بدأ طقوس شرب المرق (التي تصبح بمعنى من المعاني طقوس الهلاك) يحتج على ذلك أحد الركاب ، ولكن مساعد السائق يقول إن أبا فحل لا يفقد وعيه حتى لو شرب بريميلاً كاملاً . وحينما يلاحظ بعض الركاب أن السائق نسي دوره العصري كلياً كسائق ، وانغمس في بعض النشاطات الإنسانية التقليدية ، مثل ملاعبة الحساء التي تجلس إلى جواره ومحاولة اختطاف قبلة منها ، فإنهم لا يحتجون بل يقلده أحدهم (ويحاول اختطاف قبلة من جاراته) ويصبح الآخر متمنياً للسائق حظاً سعيداً ! أي أنهم هم أيضاً يفقدون دورهم كركاب (شيء محايد ، غير شخصي ، مجرد) ويتحولون إلى شيء آخر (أعضاء في جماعة يحبون ويكرهون) ويشتركون في الفعلة . ومن أكثر التعليقات سخرية على أحداث القصة الموال الذي يذمه الراديو :

لسولا عيونك ما جينا

وصلتنا لنصف البير

وقطعتي الحبل فينا

وهو موال شعبي تقليدي ، ولكنه يصف الكارثة التي على وشك الوقوع . ولم يكتفِ الراوي بتنبه القارئ إلى أسباب الكارثة قبل وقوعها ، بل غرس شخصية واحدة عصرية داخل الرواية ، يحذر وينذر ولكنه يصبح محط السخرية بسبب موقفه ، ثم يسقط الأتوبيس في الوادي والراديو لا يزال يذيع الموال الذي يشكو فيه الغني من لوعة الهوى ثم يتوقف فجأة . لا ينجو من السقطة سوى الغريب العصري الذي يخرج من الأتوبيس ثم يصفق بكلتا يديه هاتفاً «كلما رجالك / زعزور بيه» ويقضي بقية أيامه في مستشفى للمجاذيب .

وانجتمتع التقليدي مجتمع - كما قلت - يحدد كل شيء ويتدخل في كل شيء ، وموروثه الحضاري ، برغم أنه قد يحمي الإنسان من التقاليع وهجمة الحداثة ويساعده على تأكيد هويته في مواجهة عالم رمادي لا شخصي ، يشكل عبئاً على المرء ، خاصة إن كان يريد التعبير والإبداع . أذكر أنني عام ١٩٦٩ حضرت اجتماعاً لإحدى لجان الاتحاد الاشتراكي ، في إحدى القرى

الاجاورة لدمنهور ، وفوجئت بأن الهدف من الاجتماع هو عقد تحالف بين الوفدين والسعديين (نعم الوفدين والسعديين) حتى يخوضوا انتخابات الاتحاد الاشتراكي كجبهة واحدة . ومرة ذهبت مع أحد أصدقائي (في الستينيات) خطبة إحدى الفتيات في دمنهور ، فطلبت منها أمها أن تلعب لنا البيانو ، لتظهر براعتها أمامنا (ولتين لنا انتماعا الطبقي البورجوازي ، فهي عندها بيانو عادة ما تنوي عليه الظلمات بعد الزواج) ، فقامت الفتاة وعزفت على البيانو نشيد "للمليك اهتمرا دائما دائما / نحن من حوله / قدية للوطن / للمليك / يا بلاد اهتمي / بالملك / يا بلاد افرحي ... إلخ" . فارتسمت علامات الإعجاب على وجه أم صديقي ، وقد وفق الله رأسين في الحلال في أيام الاشتراكية على أنغام ملكية !

وهذا يذكرني بمادة الحضارة التي كنت أدرسها للطالبات في كلية البنات ، وحيث إنني كنت قد بدأت أهتم بالآثاث ، حاولت أن أدرس لهن تطور طرزه المختلفة ، كتعبير عن تطور الأفكار والأنماط الحضارية . فكنت على سبيل المثال أدرس معهن الآثاث والموسيقى والتصوير في العصر الرومانتيكي وأربط كل هذا بما أدرس لهن من شعر وتاريخ الأفكار . كما كنت آخذهن لبعض المتاحف ومحلات الآثاث ذات الذوق الرفيع . وكان الهدف هو أن أجعل من دراسة تاريخ الأفكار شيئا حيا ، يستفدن منه في حياتهن ، وليس مجرد شيء بعيد يستذكرنه وينسيهه بعد الامتحانات . كما أن نوع المعرفة التي كن يكتسبونها بهذه الطريقة ، يمكن توظيفها في عملية اختيارهن آثاث منازلهن بدلاً من أن يشتريهن آثاثاً بشعاً (ومكلفاً) من بعض محلات الآثاث التي تخصصت في إفساد الذوق . فجاءتني إحدى الطالبات في غاية الحزن ، وقالت : "ما الفائدة من كل هذا؟ أمي هي التي ستختار ، وهي التي ستقرر ، وهي التي ستشتري لي الآثاث حسبما يروق لها" . والطالبة - للأسف - كانت محقة تماماً . حينما اشتريت غرفة مائدة قديمة ، وكانت جميلة ، صممت إحدى قريباتي وأخبرتني هامة وثقة أنني لابد أن أزعم أنها جديدة ، وإلا أصبحت فضيحة بجلاجل للعائلة بأسرها . فالهمم في الآثاث أن يكون جديداً ومكلفاً !

إن المشكلة التي تواجهنا هي : هل يمكن أن ندخل العصر الحديث ، وننفض عن أنفسنا رتابة المجتمع التقليدي وانماهه نحو تكرار نفسه ؟ هل يمكن أن نفعل هذا دون أن نضيع تلك العناصر الإيجابية التي يعسم بها المجتمع التقليدي ؟ هل يمكن أن ندخل المستقبل ومعنا ماضينا ، نحمله كهوية وذات نحررنا من اللحظة المباشرة ، وتحفظ لنا خصوصيتنا ، وتساعدنا على أن نجد اتجاهنا ، لا كمعبء يثقل كاهلنا ؟

من التواحم إلى التعاقد

كانت مدينة دمنهور مدينة تجارية حديثة تسود فيها العلاقات التعاقدية التي تسود في المدن والمجتمعات الحديثة (أي أنها كانت تنتمي لنمط الجيسيلشافت Gesselleschaft على حد قول

علماء الاجتماع الألمان) . ولكن تحت القشرة الحديثة كان هناك مجتمع تقليدي ، جماعة مترابطة متراحمة (جمائيشافت Gemeinschaft) لم تكن العلاقات فيها مبنية على المنفعة واللذة وحسب ، إذ كانت هناك حسابات أخرى غير مادية وغير أنانية تشكل مكوناً أساسياً في هذه العلاقات . وأرجو ألا يفهم مما أقول أنني أدعو إلى العودة إلى الماضي (فهذا على كل مستحيل) إذ إنني لا أنكر - كما أسلفت - وجود جوانب مظلمة للمجتمع التقليدي (فمثل هذا الإنكار أمر طفولي) . كل ما أود تأكيده هو أن المجتمعات التقليدية كانت تحوي منظومات قيمة وجمالية لم يؤد تقويضها وتدميرها بالضرورة إلى مزيد من السعادة . كما أود الإشارة إلى أن الأشكال الحضارية الحديثة (عادةً المستوردة) ليست هي الأشكال الحضارية الوحيدة ، بل هناك أشكال أخرى قد تكون أكثر ثراءً وأكثر دفئاً ، والأهم من هذا أنها قد تكون أكثر تجذراً ، وضاع مثل هذه الأشكال هو خسارة حقيقية .

وقد اكتسب الصراع بين الجمائيشافت، والجميسلشافت، ومظاهر الانتقال من الواحد للآخر ، مركزية في علم الاجتماع الألماني بسبب الوضع الاقتصادي والحضاري المتميز لألمانيا ؛ التي دخلت عالم التحديث والتصنيع بغطى حشنة في وقت متأخر (بالنسبة لبقية أوروبا) . وبرغم تصاعد عمليات التحديث والتصنيع فيها ، فقد ظلت الأشكال الحضارية والاقتصادية ، التي سادت في مجتمع ما قبل الصناعة والرأسمالية ، مزدهرة فيها بكل محاسنها وعيوبها . ولذا ، كانت هذه الأشكال الحضارية هي الأرضية التي وقف عليها علماء الاجتماع الألمان فطرحوا ، انطلاقاً منها ، بديلاً للعلاقات التعاقدية التي تهيمن على المجتمعات الرأسمالية . وينتمي ماركس (برغم ديماسجاته الثورية) إلى تقاليد علم الاجتماع الألماني وإعجابه بالجمائيشافت التراحمي التقليدي . كما أن النقد الماركسي الإنساني (جيورجي [جورج] لوكاش Gyorgy Luckacs - مدرسة فرانكفورت - هربرت ماركوز Herbert Marcuse ... إلخ) للحدائث الغربية ولصير الإنسان الغربي يخرج من نفس هذه التقاليد .

واعتقد أن علاقتي بدمهور بياضها وحاضرها تشبه إلى حد كبير علاقة علماء علم الاجتماع بياض ألمانيا وحاضرها . ولعلنا لو درسنا خلفية كثير من المثقفين المصريين (وخصوصاً الثوريين) فسلاحظ أنهم عاشوا في لحظات انتقال مثل هذه . ولعل هذا يفسر الخلفية الريفيّة لكثير من مثقفي مصر من أدوا دوراً في تاريخ مصر السياسي والثقافي الحديث . واعتقد أن هذا الجانب في خلفيتي الثقافية هو ما جعلني أحاول اكتشاف الأدبيات الاحتجاجية في التراث العربي ، وهو ما جعلني لا أنبهر بالمجتمع الأمريكي ، فنقطتي المرجعية كانت دائماً هي المجتمع الزراعي التراحمي . ومن الطريف أن أحد أساتذتي بعد أن قرأ رسالتي للدكتوراه ، بما فيها من ثورية ورفض للرؤية الأمريكية واقتصاديات السوق الحر وصفها بأنها رسالة neo-feudalist Marxut (يو فيرداليسست ماركست) أي أنها ذات توجه ماركسي إقطاعي جديد !

ولأنني عشت هذا الانتقال بكل جوانبه (وتدعم إحساسي به حينما انتقلت من دمنهور إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى نيويورك ، أي انتقلت من مجتمعات أقل تعاقدية إلى مجتمعات أكثر تعاقدية ، إلى أن وصلت إلى مانهاتن قمة التعاقد) أقول بسبب هذا كله أصبحت ملاحظاً قوياً لعلاقات التعاقد والتراحم ، وأصبح التناقض بينهما أحد أهم المفولات الأساسية في خريطتي الإدراكية للعالم (النموذج المعرفي) -

فعلى سبيل المثال كنت ألاحظ علاقة والذي بالعمال داخل متجرنا وبكل من يعملون عندما . كان والذي ولا شك هو صاحب العمل الذي يدفع لهم أجورهم ، يفتّر ويعدق عليهم حسبما يراه هو مناسباً . ولكن التفاوت الاقتصادي (والصراع الطبقي) كانت تقلل من حدتهما العلاقات التقليدية التراحمية والواجبات الاجتماعية والأخلاقية الملقاة على عاتق والذي بحسبانه "معلم كبير" وصاحب عمل . وأسلوب حياة العمال وصاحب العمل كان أسلوباً واحداً ، الأعياد هي هي ، والأحزان هي هي ، واللغة هي هي ، وطريقة الطعام هي هي . جميعهم كانوا يحتفلون بمولد النبي ولا يحتفلون بأعياد الميلاد أو رأس السنة . جميعهم كانوا يلبسون بنفس الطريقة (فالملابس الغربية كانت لا تزال هامشية) ، وجميعهم كانوا يعملون معاً ويعملون معاً ويقضون أوقات فراغهم معاً ، وكان أولاد التجار والعمال والموظفين ينفضون عن أنفسهم انتماؤاتهم الطبقية بعد الظهيرة ليشتركوا معاً في اللعب ، فلم تكن اللعب الإلكترونية الحديثة قد ظهرت بعد . وكان يُعاد تشكيل الهرم الحاكم حسب المهارات الشخصية . فبرغم أنني كنت ابن الحاج محمد المسيري الشهير بالحصافي إلا أنني كنت خائباً ، أفضل دائماً في أن أطيّر طائرتي الورقية (وهو مازلت فاشلاً فيه ، وأحтар منه . فمهما كان نوع الطائرة الذي أشغره ، فهي تهوي بسرعة إلى الأرض دون سبب واضح) . ولذا كان عليّ أن ألجأ لعمال محل والذي كي يساعدوني في ذلك .

ويتبدى هذا الصراع بين التراحمية والتعاقدية في الهدية . فنظام النقطة في الأفراح المصرية يبدو كما لو كان عملية تبادلية مع أنه في واقع الأمر هو نظام للزكاة وتوزيع أجزاء من الثروة . ففي داخل الأسرة الواحدة الممتدة يوجد دائماً الأغنياء والفقراء ، فكان الجميع يعطون للعروس نقطة : مبلغاً من المال يُدس في يد العروس بحيث لا يراه أحد ولا يعرف مقداره (على عكس النقطة التي تُعطى "للعالمة" [الراقصة] ، فهذه تعلن على رعوس الأَشهاد) . وفي إطار عملية التبادل الظاهرية هذه يتم إعادة توزيع الثروة ، إذ يعطي الأثرياء نقطة تفوق بمراحل تلك التي يعطيها الفقراء لآبة الأثرياء .

وإدراك التراحم كإطار مرجعي نهائي ، يظهر في موقف الفقراء من الزكاة ، فهم يعدونها "حقاً" لهم وليس منحة يعطيها إليهم الأثرياء ، فهي "واجب" عليهم . وهذا الإدراك لا يزال سائداً حتى في القاهرة . تقوم زوجتي بتوزيع الكفارة المفروضة لأنني لا أصوم رمضان بسبب

هبوط السكر . وفي مرة أعطت أحد الفقراء مبلغاً من المال وأخبرته أن هذا زكاة إفتار الدكتور ، فابتسم وقال : "حكمة رينا ، لو لم يمرض الدكتور ، لما أكلنا نحن" . وأعتقد أن هذا الإدراك للزكاة بحسبانها واجباً على الأثرياء حقاً للفقراء هو ما يخفف من حدة الفقر في هذا البلد ، وهو ما يعطيه شيئاً من الاستمرار .

ونفس النمط ، التراحم ضد التعاقد ، يعبر عن نفسه في علاقتي بخادمي المصري في السعودية ، الذي كان يأتي مرة كل أسبوع لتنظيف المنزل وللقيام ببعض الأعباء المنزلية الأخرى . كان يصير دائماً ، كل أسبوع ، عند لحظة تقاضي أجره ، أن يقول : "بلاش يا بيه . خليها عليّ هذه المرة" . وبعض الناس يرى أن هذه العبارة هي تعبير عن "النفاق" . ولكني أجد مثل هذا التفسير سطحيّاً ، فقد حللت هذه العبارة ، ووجدت أنه ، في واقع الأمر ، يقول : "برغم أنني أعمل خادماً عندك وأدخل معك في علاقة تعاقدية ، فإننا من الناحية الإنسانية متساويان ، ولابد أن ندخل في علاقة تراحمية تتجاوز عمليات التبادل الاقتصادية (خدمات مقابل نقود) . لكل هذا لا ادعي لأن تدفع لي هذه المرة" . ولذا كنت أحياناً أخبره أنني ليس معي نقود وأرجوه أن يأخذ أجره في الأسبوع الذي يليه . وبذلك أعطيه الفرصة أن يكون دائني ولأن يدخل معي في علاقة مساواة إنسانية تراحمية .

ويبدو أنني أثرت التراحم والتعاون على التعاقد والتنافس والصراع من بداية حياتي . فكنت أكره رياضة الصيد بمحق شديد . كما أقلق من لعب كرة السلة بسبب التنافس الشديد الذي كان يسود الملعب (على الرغم من أن الأستاذ الجبروك ، أستاذ التربية الرياضية ، كان يخبرنا بأن قيم اللعبة أهم من قيم التعاقد ، ولذا حينما كانت إحدى فرق الأقاليم المجاورة لدمهور تزورنا ، وهم بطبيعة الحال أقل منا مهارة وخبرة ، كان الأستاذ الجبروك يطلب منا أن ندعهم يسجلون بعض الأهداف حتى لا يصابوا بالإحباط الكامل) .

وقد ولد في الانتماء للمجتمع التقليدي التزاحمي كثيراً من المشاعر والسمات . فيمكن القول بأن ثقتي بنفسي تعود إلى طفولتي وصباي ، حيث كنت أتمرك في مجتمع أعرف كل من فيه ويعرفونني ويعرفون أبي وأعمامي وأخوالي . ولعل المجتمع التقليدي التزاحمي هو أيضاً الذي ولد في الحرم على علاقتي الإنسانية وصدقاتي . فانا لا أدع الصدقات تنضم بتخبر الزمان والمكان . يخبرني صديقي كافين رايلي Kevin Reilly ، المؤرخ الأمريكي ، أنني حينما قابلته عام ١٩٦٤ ، ونشأت صداقة حميمة بيننا ، قلت له : "متى دخلت حياتي ، فلي أسمح لك بالخروج منها" . ومع أنني كنت قد نسيت هذه العبارة فإنها بالفعل تصف جانباً مهماً من شخصيتي . ولذا فإن لي صداقات تمتد منذ طفولتي وصباي (د. عطية حامد) ، واستمرت صداقتي مع بعض زملائي من جامعة الإسكندرية (جمال إمام الذي تزوج من طالبتني يسر ، وفتحي أبو ربيعة وزوجته نادية قورة) ، ثم جامعة بجنورز (فيكتور طومسون وزوجته شارون ، ستيفن ميلر وزوجته

إيقا ، وبيل جولدن) ، ولا تزال علاقة قوية تربطني بأستاذي المشرف في الولايات المتحدة . ومازلت قادراً على إقامة علاقة حميمة مع أصدقاء جدد كصداقتي العائلية أنا وزوجتي مع الأستاذ محمد إسلام وزوجته نعمات ، وهذه صداقة بدأت منذ بضعة سنوات (في عصر ما بعد الموسوعة) ولكنها تطورت وتعمقت .

لقد تعلمت من المجتمع التراحمي أهمية الإنسان ككائن حر نبيل وأهمية العواطف وأهمية الإفصاح عنها . ولعل هذا يفسر حبي لأفلام المخرج الياباني أكيرا كيروساوا ، فهي عامرة بشخصيات ملحمية لا تتردد في التعبير عن مشاعرها وتعيش حياتها على مستوى يليق بأبطال الملاحم . كما يفسر عشقي للمسيرة الهلالية ، فهي الأخرى عمل ملحمي لغته نبيلة وشخصياته نبيلة والعواطف التي يعبر عنها متبلورة نبيلة . وكم كنت أحب أن أقرأ رواية سانت إكسبري الأمير الصغير لأطغالي ونفسي ، وأقص عليهم كيف أن الثعلب علم الأمير كيفية الدخول في صداقة حميمة ، وكيف أنه في لحظة الفراق يقول الأمير للثعلب : "أنت لم تقل لي عن أحزان هذه اللحظة" . فيعترف الثعلب أنه لم يفعل ، ولكنه يعطيه طرفاً ويخبره ألا يفتحه إلا بعد أن يفترقا . وحينما يفتحه الأمير يجد فيه هذه العبارة : "لا يمكن أن ترى الأشياء بوضوح إلا من خلال القلب ، فكل الأمور الجوهرية غير مرئية" . و الأمور الجوهرية هي الأمور الإنسانية ، وما عدا ذلك فأمر طبيعي مادية .

ولعل علاقتي بالدي والدي والاختلاف الواضح بين شخصيتهما ، مما يفسر هذا النفور من التعاقب والنزوع نحو التراحم . فأني - كما بينت - كانت مثلاً للتراحم وقيم المجتمع التقليدي ، أما والدي - رحمه الله - فكان من كبار التجار في دمنهور ، يقول من يفهمون في شؤون التجارة إنه كان ساحراً في عمليات البيع والشراء . كم من مرة رأيته وهو يوظف كل ما حوله ببراعة فائقة . حينما كان يزورنا أحد كبار التجار كنت أقول بقدرة قادر إلى "الاستاذ" عبد الوهاب . وحينما بدأ اسمي يظهر في الجرائد كمؤلف لمقالات أو كتب كان يطلب مني أن أحضرها لأريها لهؤلاء التجار ليزداد اسم المسيري هيبه أمامهم (مما يحسن بطبيعة الحال موقفنا التفاوضي) . وكان يجزل لي العطاء كلما ورد اسمي في الجرائد . وقد عرف هذا بعض أصدقائي من الأدباء المفلسين فكانوا ينشرون أخباراً كثيرة عني (بعضها وهمي) . وكانت الثمرة هي بضعة جنيهات من والدي ننفقها على الكفنة والكياب في أحد مطاعم القاهرة الرخيصة .

أذكر مرة أننا كنا نبحث عن مكان لنعقد فيه عرس إحدى أخواتي . وذهب إلى إحدى الكازينوهات في الإسكندرية (وكان هذا هو التقليد المتبع آنذاك) وكان جديداً وأنيقاً . وبرغم كرهه لشئون التجارة فإنني أجيد المساومة عند الحاجة ، ولذا نجحت في استئجار المكان بسعر تصورته ساعتها زهيداً (ووافقتي الجميع على ذلك) . وذهبت لأزف البشري لوالدي ، وكان مريضاً ، ولكنه بدلاً من أن يفرح بإعجازي تجاه وجهه واتجه إلى التليفون متوكفاً علي ، ثم طلب

صاحب الكازينو وأخبره أن "الأستاذ عبد الوهاب" قد عقد معه اتفاقاً غير عادل بالمرة . وبدأ يعدد له المزايا التي سيحصلها من عقد عرس إحدى بنات المسيري في الكازينو عنده . ثم قرأ عليه قائمة المدعويين وأخبره أن هذا في حد ذاته سيكون أكبر دعاية له ، وأنه لهذا يجب عليه أن يدفع لنا ، لا أن ندفع له . فسقط في يد الرجل واضطر إلى أن يخفض السعر حتى وصل إلى حد دون الأدنى .

ويقول من يعرفونه إنني ورثت عنه حب النكتة والديناميكية والمقدرة على الانفصال عن اللحظة وبعض الصفات الأخرى . كان والدي ، على سبيل المثال ، قادراً على أن يتوقف في إحدى المدن الصغيرة التي يوجد بها عدد من تجار القطاعي الذين يتعاملون معه ، وبينما هو يشرب كوباً من عصير القصب يبدأ في تجميع المعلومات عن عملائه : من اشترى قطعة أرض ؟ من باع عقاره أو كتبها باسم زوجته ؟ من تزوج للمرة الثانية ؟ ويتوصل من خلال هذه المعلومات المتناثرة إلى فكرة عامة عن وضعهم المالي . وكان - رحمه الله - يوسعه أن يجري حواراً مع شخص ما ، ويسمع ما يجري من حوارات حوله ، وقد ورثت عنه هذه المقدرة كما ورثت عنه بعض المقدرات التجارية . أذكر أنني حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ اكتشفت هوسهم بكل ما هو قديم ، خصوصاً السيارات . فقررت أن من ينزل إلى مصر ويشترى السيارات القديمة وي شحنها إلى الولايات المتحدة سيصبح مليونيراً . ولكنني بطبيعة الحال أهملت الأمر تماماً لأنني كنت مشغولاً بدراسة الشعر . ثم قرأت في مجلة نائم عام ١٩٦٥ أن تاجراً لبنانياً قد فعل هذا بالضبط وأصبح مليونيراً !

ويبدو أن والدي كان مدركاً لمسألة التعاقد والتراحم هذه ، ويظهر هذا في موقفه من الصدقات . فكان عمي - رحمه الله - يحب أن يتصدق على المتسولين فرداً فرداً . أما والدي فكان يفضل ترشيده هذه العملية بأن تعطى إعانات ثابتة لبعض العائلات . وينضح المزج بين التراحم والتعاقد في أسلوب إدارته للمصنع الذي اشتراه في الحاضرة في الإسكندرية . كان والدي يعرف تماماً أنه لن يمكنه أن يديره على الأساس التراحمي الدمشقي ، فقرّر توظيف التراحم في خدمة التعاقد ، إذ عين رؤساء الأقسام في مصنع الإسكندرية من عماله السابقين في محلنا في دمنهور ، وهم طبعاً يدينون له بالولاء "الإقطاعي" إن صح التعبير ، فهم من "محاسبيه" كما يسمون في العامية المصرية ، ومن خلالها يمكن إدارة المصنع بطريقة تراحمية / تعاقدية .

أما أمي فكانت غير مكتثرة تماماً بمسألة التراكم الرأسمالي هذه ، وكانت دائماً تعبر عن ازديادها للثروة التي تزداد تراكمًا ، والتي تؤدي في الوقت نفسه إلى ابتعاد زوجها عن أسرته (إذ كان دائم السفر) . (كم من مرة رأيته جالساً بجوار الباب يبكي لأنه لا يمكن أن يوقف نفسه عن الجري وعن التراكم ، فكانت أمي تقف تطيب خاطره ، إلى أن يحفف دموعه ثم يقفز من مكانه ليستأنف الجري) . ولعل تأثير أمي هذا يفسر رفضي للعمل في التجارة ، برغم محاولات والدي

المختلفة أن أعمل معه فيها .

أذكر حينما قررت الزواج من د. هدى حجازي أن ذهبت إليه ليموّل هذه الزيجة ، فأراد أن يستخدم هذا الوضع للضغط عليّ . فأخبرني أنني يمكنني الاقتران بجولييت (حسبما قال) إن وافقت على العمل معه . فقلت : لكنني أريد دراسة الشعر . قال إنه لا مانع لديه أن أذهب للحارج للحصول على الماجستير في الشعر ، وأعود لأعمل معه في التجارة . فوافقت ، ولكنني عدت له بعد ٢٤ ساعة وأخبرته أنني غيرت رأيي ، وأن الأمر متروك له أن يوافق على التمويل أو يرفضه . وكان كريماً فأذعن للأمر ووافق .

وقد ظلت هذه الروح التراحمية التقليدية راسخة في وجداني . فبعد وصولي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ ، عرض عليّ أن أظهر في إعلان تليفزيوني عن الأحذية . وكان المطلوب أن ألبس حذاءً جديداً (يصبح من نصيبي فيما بعد) ، ثم أسهر في عرفة فينظر الجميع إلى حذائي بإعجاب شديد . ولم يكن الجنس قد أصبح بعد عنصراً أساسياً في الإعلانات ، ولذا لم تكن هناك حساء تقع في هوائي ، بحسباني لا لبس الحذاء . المهم ، رفضت أن أشارك في هذه المهزلة ، لأنني كنت سأصبح شيئاً ، يبيع نفسه حسب عقد محدد .

ولعل نفس الروح التراحمية تظهر في طريقة قبولي الهدايا . إذ إنه حينما كان أحدهم يعطيني هدية ملفوفة كنت آخذها كما هي فأشكر صاحبها ولا أفض غلافها . وحينما نبهني أحدهم ، في الولايات المتحدة ، إلى ضرورة فسخ غلاف الهدية وإظهار الإعجاب بها ، أدركت أننا في مصر لا نفعل ذلك أبداً ، ففسخ غلاف الهدية وعرضها يعني تحولها من قيمة إنسانية (كيف) إلى ثمن محدد (كم) ، ومن هنا إخراجها من عالم التراحم إلى عالم التعاقد والتبادل . وقد امتد بي العمر لأرى ملامح "التقدم" في السبعينيات ، إذ إننا نفسخ غلاف الهدايا الآن ونعرضها على الملأ ، "واللي ما يشتري يتفرج أ" .

وقد لاحظت حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة أنني كلما دعوت أحد أصدقائي الأمريكيين إلى طعام العشاء ، أصر على ضرورة أن يحضر شيئاً معه ، وبعد العشاء كانوا عادةً يرسلون بطاقة شكر . كنت أتبرم بهذا ، وأرفض أن أفعله ، ولكنني في بداية الأمر لم أعرف السبب . وظللت أحاول تفسير استجابتي هذه لنفسى لمدة طويلة ، ولم يتقنني من طول الفكر إلا الواقعة التالية ، والتي حدثت لأحد أصدقائي . دعا هذا الصديق صديقة أمريكية لتناول طعام العشاء معه في أحد المطاعم وكانت من أسرة ثرية جداً ، من سكان القصور في بوسطن ، حيث يدخل الضيف فيقوم رئيس الخدم بإعلان وصوله وتفتح البوابات والأبواب ثم تغلق ، تماماً كما هو الحال في الأفلام الأمريكية . وكان على صديقي أن يلتقي بأم صديقتها ليستأذنها في اصطحاب ابنتها للعشاء (كان هذا في الستينيات ، حينما كانت مثل هذه الأمور ضرورية ، أما الآن فالمسألة أكثر انفتاحاً وتحمراً ، بل تُعدُّ الفتاة التي تستأذن أسرتها متخلفة ، ضيقة الأفق) وكان للصديقة

طفلة من زواج سابق ، قبلت الأم أن تكون جليستها في تلك الليلة . وبعد أن ذهب صديقي للمطعم مع صديقه وعاد معها إلى منزلها ، فوجئ بالابنة تخرج دفتر الشيكات وتعطي لأمها شيكاً بمقدار عشرة دولارات أجراً لها عن مجالستها الطفلة . هنا أدركت معنى هذه الواقعة وفحوى الكثير من التفاصيل في حياتي في الولايات المتحدة . فالأم بطبيعة الحال ليست في حاجة إلى عشرة دولارات ، فهو مبلغ من المال ليس له أي قيمة ، حتى في الستينيات . ولكن ما تم هنا هو شعائر التعاقد ، وهي شعائر لا بد من إقامتها حتى تسود التعاقدية وتتغلغل في كل العلاقات ، بما في ذلك علاقة البنت بأُمها ، لا يغفل من قبضتها شيء ، وبذلك يسود النموذج ويؤكد نفسه . (تماماً كما هو الحال في حلقة الكولا التي سنشير لها فيما بعد) .

ونفس الشيء ينطبق على إصرار الأمريكيين على أن يحضروا معهم هدية ما ، إذا دُعوا لطعام العشاء (زجاجة نبيذ - بعض الحلوى ... إلخ) وأن يرسلوا بطاقة شكر بعد كل دعوة . فالهدف هنا هو إدخال العشاء في شبكة التعاقد ثم إنهاء العلاقة (مؤقتاً من خلال بطاقة شكر) وتأكيد أن كل شيء تم احتواؤه داخل إطار التعاقد . ولعل القصة التالية توضح هذه النقطة بشكل أكثر تلبوراً : دعوت أستاذاً جامعياً وزوجته لطعام العشاء ، وشاءت الظروف أن الزوجين انفصلا بعد دعوتنا ، ولكننا فوجئنا بالزوجة تدعونا للعشاء برغم أن معرفتنا بها كانت سطحية لأقصى حد . ومع هذا رحبنا بالدعوة ظناً منا أنها تود أن تستمر الصداقة بيننا ، وذهبنا لزيارتها ، ولكنها كانت المرة الأولى والأخيرة ، إذ يبدو أن الزوجين بعد أن انفصلا وجدا أن من واجبهما "رد الدين" ، حيث إن الزوج ذهب إلى أريزونا ، وكنت أنا وزوجتي من نصيب الزوجة ، المقيمة في نيو جيرسي ، التي قامت بدعوتنا للعشاء من منطلق تعاقدي محض ، مما خيب آملي وجعلني أشعر أنني ضيعت وقتي . (كنت أُلقي محاضرة عن التحيز في مصر ، وأوردت بعض أفكارني بخصوص الهدية وكيف تركنا رؤيتنا للعالم وتبينا الرؤية الغربية . فقامت معيدة من الدراسات وقالت برفقة شديدة : "النبي قبل الكادو" . فأخبرتها أن النبي قبل الهدية ورفض الكادو . وحسب معلوماتي لم يقم بنقض خلافها أمام الملأ) .

وقد وجدت صعوبة بالغة في الولايات المتحدة أن أعلمهم أنه حينما يخرج الأصدقاء سويًا فلا داعي لأن يفتسبوا الفاتورة ، وليدفع من معه نقود حتى تصبح الليلة ليلة تراحمية ، تبعد عن الحسابات والكم وستتاح فرصة للآخرين أن يدفعوا في يوم آخر . وحينما كنت أخرج مع أحد الأصدقاء الأمريكيين كنت أبادر بدفع الفاتورة فكانوا يضطربون في بادئ الأمر ثم تعودوا على هذه الفوضى التراحمية (أخبرتني أم مصرية ، مقيمة في الولايات المتحدة ، أنها مرة اقترحت على ابنها أن يدفع فاتورة طعام العشاء لأصدقائه ، فما كان منه إلا أن قال : "لماذا أشتري عرفانهم بالجميل ؟ Why should I buy their gratitude" مما يبين هيمنة صور التعاقد البيع والشراء المجارية على إدراك الأمريكيين) .

والتعاقد يتغلغل في رقعة الحياة الخاصة . وكم صدمتني تلك المرأة التي قالت لزوجها : " أنزل من على الشجرة ، فأنت لم تدفع التأمين بعد ! " . ولكنني بمرور الأيام فهمت أنها كانت على حق ، فلو وقع زوجها وأصيب إصابة خطيرة ، فإن هذا سيدمر حياتها تماماً هي وأولادها لأن نفقات العلاج باهظة . بل إنني لاحظت أن شركات التأمين تعمق من هذا الاتجاه التعاقدي ، فلو كان أب يقود سيارة واصطدم بسيارة أخرى وأصيب الابن ، فإن عليه أن يرفع قضية على أبيه لياخذ قيمة التأمين . ولو كنت تزور صديقاً في الولايات المتحدة في الولايات المتحدة وكُسرت يد ابنك في أثناء لعبه ، فلا بد أن يكون الصديق مؤمناً عليه حتى يمكن للتأمين أن يعطي نفقات علاج ابنك وهكذا .

ومن أطرف قصص التعاقد ما أخبرني به صديق مصري يعمل في إحدى الشركات الكبرى في الولايات المتحدة . فقد أتت الشركة بطبيب نفسي ليعلم العاملين كيفية التغلب على التوتر ، واقترح عليهم أن من المستحسن اختيار دين ما لتحقيق هذا الهدف لأن الدين يزيد من الرقعة الزمنية التي يعيش فيها الإنسان ، فلا يشعر أنه محصور باللحظة المباشرة (أي أنه يرى أن الدين له مفعول الحرب المهدنة ، وهو بطبيعة الحال أقل تكلفة) . المهم بعد المحاضرة ذهب صديقي وقال له إن الإسلام يحتفظ للإنسان بقدر عالٍ من التوازن بين الدنيا والآخرة ، واقتبس له الحديث الشريف المعروف : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً" . أعجب الطبيب كثيراً بهذا الحديث ، وقال لصديقي هل يمكنه اقتباسه ؟ فطمأنه صديقي إلى أنه يمكنه أن يفعل ذلك . ولكنه عاد وسأله : "من هو صاحب حقوق النشر؟" فأخبره صديقي أن قوانين حقوق النشر لا تنطبق على هذا القول . ولكن الطبيب استمر في طرح المزيد من الأسئلة عن مسألة حقوق النشر هذه ولم يتوقف إلا حينما أعطاه صديقي اسمه وعنوانه ، وأخبره أنه لو تعرض لأي مسالة قانونية ، فيمكنه أن يحضره كشاهد إثبات .

ومع هذا لا بد أن ندرك أن روح التعاقد لها جوانبها الإيجابية ، فهي تضمن حقوق الإنسان وهي قد تقلل من التوترات بين الأفراد (برغم أنها تقوم بتفويض العلاقات الإنسانية الحميمة) ، وهي تحدد الحقوق والواجبات بدقة . ولا يمكن لأي مجتمع أن تقوم له قائمة ، إن لم يكن هناك احترام للتعاقد وما يتضمنه من حقوق وواجبات . ولكن معظم هذه الإيجابيات تنصرف إلى رقعة الحياة العامة ، لأن رقعة الحياة الخاصة بكل ما فيها من تركيبة تتطلب شيئاً أكثر تركيماً من التعاقد . ولعل هذه القصة توضح ما أقول : كان لي صديق مصري ثوري (كان ينتمى إلى الأحرار دائماً بأنهم باعوا أنفسهم وتخلوا عن نقاتهم الثوري ... إلخ) . ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وعبر جلدته تماماً ، إذ عمل باحثاً ثم مستشاراً في إحدى مراكز البحوث الإستراتيجية في الولايات المتحدة والمعروفة بعلاقتها الوثيقة بالمؤسسة الحاكمة . ثم تزوج صديقي هذا من فتاة أمريكية صهيونية ! ولا ندري ماذا حدث له ، فقد أصيب بانهايار عصبي أودع على أثره في

إحدى المصحات النفسية ، فوفقت زوجته إلى جواره لمدة أربع سنوات ، إلى أن شفي تماماً ، وفي يوم خروجه من المستشفى طلبت منه الطلاق . إذ يبدو أنها وجدت أن من "واجبها" ، بموجب العقد بينها وبين زوجها أن تقف إلى جواره حتى يُشفى ، وهذا أمر يستحق الإعجاب بالفعل ، ولكنها وجدت أن من "حقها" أيضاً أن تنفصل عنه بعد أن ضيقت هذه الفترة من حياتها .

ولنقارن هذه الواقعة بالواقعة المصرية التالية : في الستينيات كان الحصول على بعثة ، بالنسبة لكثير من أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ، يعني الحراك الاجتماعي الهذري ، فاستادة الجامعة كانوا في قمة السلم الطبقي ، ولذا كان حلم كثير من الشباب المتفوق في الستينيات هو الحصول على بعثة . ومن هنا قام أحد الأصدقاء بالزواج من ابنة أحد كبار الموظفين حتى يحقق حلمه بأسرع طريقة ، وبالفعل حصل صاحبنا على بعثة من خلال صهره ، وذهب إلى الولايات المتحدة ، حيث التحق ببرنامج الدكتوراه . ولكن في يوم حصوله على الدكتوراه طلق زوجته ، وتزوج من أمريكية واستقر في الولايات المتحدة ، وأصبح من كبار رجال الأعمال . وحضر إلى مصر وحصل على قروض كبيرة من البنوك ، ثم فر بعدها من مصر . والثلاث السابقان لا يعنيان بأي حال أن كل الأمريكيين تعاقديون وأن كل المصريين انتهازيون ، وإنما هما يحاولان أن يقدموا نموذجين من مجتمعين مختلفين يعبران عن جانب هام من النفس البشرية ولكنه يتبدى بشكلين مختلفين باختلاف الزمان والمكان .

ولعل الروح التعاقدية الصارمة (التي تقترب من حد السرفة) تظهر في علاقتي بأحد الناشئين في الولايات المتحدة ، وهو مطبعة القارات الثلاث (ثري كونتينس برس - Three Continents Press) الذي تولي نشر كتاب **العصر الفلسطيني** . وهذا الكتاب قمت بترجمته وطلبت إلى الفنان كمال بلاطة أن يصمم الغلاف ، وأن يرسم عدة لوحات تزين كل فصل من فصول الكتاب . كما طلبت من خطاط عربي أن يكتب النص العربي حتى يكون الكتاب كتاباً فنياً جميلاً . ودفعت من مالي الخاص مصروفات الفنان (بما في ذلك تصميم الغلاف) ومصروفات الخطاط ، وكل ما فعله الناشر هو أنه قام بعملية الصف التصويري للترجمة التي أرسلتها إليه . وحينئذ اتصل بنا ناشر فرنسي لبشر طبعة فرنسية من الكتاب ، وطلب التصريح بذلك . ولم يكن الكتاب قد نُشر بعد . وتصور أن عائد الكتاب الفرنسي سيكون لي ، لأن كل المواد التي سيستخدمها الناشر الفرنسي (الغلاف - الصور - النص العربي) قد دفعته من مالي الخاص (لأنه لم يستخدم النص الإنجليزي الذي قام الناشر بصفه وإنما سيستخدم ترجمتي) . وفوجئت بأن الناشر يطلب ٥٠٪ من كل هذا ، فهكذا ينص العقد .

وأختم قصص التعاقد هذه بقصة طريقة كانت بطلتها أختي التي حضرت من مصر لزيارتي في الولايات المتحدة : كنا نساعد أحد الأصدقاء الأمريكيين في نقل أمتهته من منزل لآخر . ونال المعطش من أختي فأخبرتها أن تطلب ماء من أحد الجيران لأننا كنا في الشارع (كما نفعل نحن

في مصر وفي غيرها من البلدان) . فذهبت إلى الجارة التي كانت تقعد أمام منزلها وطلبت ماء ، فقالت لها الجارة : "Why should I ? لماذا أفعل ذلك ؟" فلم تفهم أختي الإجابة ، وجاءت لأفسرها لها ، فأخبرتها أن هذه إجابة منطقية في إطار التعاقد والنماذج الرياضية المادية ، وأن هذه السيدة رفضت أن تعطيها ماء لأنه لا توجد بنود في العقد تنص على ذلك ولا توجد أي فائدة تعود عليها من هذا الفعل .

ومرة أخرى ، أرجو ألا يفهم من قصصي وتحليلي لها أنني أتصور أن المجتمع الأمريكي كله مجتمع تعاقدى . فانا ابتداءً لا أدرس تفاصيل الواقع المتناثرة ، الواحدة منفصلة عن الأخرى ، وإنما أدرسه ككل ، من خلال النماذج التحليلية . وحياة الأفراد أكثر تركيياً وأكثر إنسانية من النموذج الإدراكي الحاكم ، حتى لو تم استبطانه ، فالإنسان يحب ويكره بفطرته . ولذا توجد في المجتمع الأمريكي جيوب تراحمية كثيرة . بل تتزايد أحياناً هذه الجيوب كرد فعل للتعاقدية . وكان لنا العديد من الأصدقاء ، خصوصاً الذين لهم خلفية أوروبية ، أي لم يتم دمجهم تماماً في المجتمع ، الذين لا يعرفون التعاقد ، أو الذين نحوا في أن ينحوا جانباً في حياتهم الخاصة . وانتشار العبادات الجديدة هو في جوهره احتجاج على الروح التعاقدية ومحاولة خلق جيب تراحمي ، يوجد داخل المجتمع الحديث التعاقدى ، لكن لا يخضع لقوانينه ومعاييره .

ولعل هذه القصة تبين أن رفض التعاقد والتمرد عليه قد يكون قوياً على مستوى الأفراد في الولايات المتحدة . كنت مرة أركب طائرة متجهة من نيويورك إلى أثينا ، في الدرجة الأولى ، باعتباري ممثلاً للجامعة العربية . وقعد إلى جوارى شخص عملاق . وبعد أن بدأت الطائرة رحلتها بدأنا نتجاذب أطراف الحديث ، فظهر أنه من أشهر لاعبي كرة القدم في الولايات المتحدة (كان بعض الصبية من راكبي الطائرة يأتون بأوتوجرافاتهم يتو جمعها ، كما أصرت إحدى المضيفات أن تلتقط لها صورة معه) . وقد دهش صاحبنا تماماً حين عرف أنني لم أسمع به قط . وحتى أسري عنه . قلت له : هل سمع هو بي من قبل ؟ فقال : لا . قلت : حسناً أنا أيضاً معروف إلى حد ما في بلدي في أوساط معينة . ثم نشأت صداقة سريعة بيننا وتحدثنا في كل شيء وبدأ يخبرني عن عالم الرياضة في الولايات المتحدة وكيف تحول إلى بيزنس كامل بهدف إلى الربح ، وأنه وقع عقداً مع ناديه الذي "يحوسله" تماماً (الكلمة من نحوي وتعني تحريك الشيء ، خصوصاً الإنسان ، إلى وسيلة وهي على وزن "يسمل" أي "ينطق بالبسملة") ويحوطه إلى دحاجة سميعة في "قفص حديدي" (القفص الحديدي هو بالنسبة وصف ماكس فيبر Max Weber للترشيد والحداثة) . في إطار هذه التعاقدية الصارمة كان عليه ممارسة تمرينات رياضية عنيفة وأن يأكل كميات معينة من الطعام تتضمن كميات من اللبن واللحم (شاء أم أبى) . وروتين حياته بأسره أمر ينظمه له مدرسه : بل إن سلوكه الجنسي يخضع لإشراف مدرسه ، ولا يمكنه أن يضاجع امرأة بدون إذن منه ، وقبل المباريات عليه أن يمتنع عن أي علاقة جنسية ! (وهنا بدأت أفهم كيف أن

الحداثة ليست دائماً شيئاً عظيماً مثيراً ، بل هي ظاهرة لها جوانبها المظلمة التي تؤدي إلى تفكيك الإنسان لا تحريره .

أدهشني حديثه للغاية ، حيث كنت قد سمعت بصناعة الرياضة ، ولكنني لم أكن قد تعرفتها عن كنب ، واتفقنا على أن نلتقي في نيويورك . واتصلت به هاتفياً في منزله ، ولكنني وجدت والديه اللذين رحبا بي ترحيباً كبيراً وأخبراني أن ابنهما قد حدثهما عني وأنه يتطلع لرؤيتي . وفي اليوم التالي قابلت صديقاً لي وكانت صديقتة محررة في مجلة رياضية ، وحينما سمعت القصة ضحكت كثيراً وطلبت مني أن أرويها لقراء مجلتها نظير مبلغ كبير ، على أن يمدني صديقي اللاعب الشهير بمزيد من المعلومات عن نفسه . وبالفعل اتصلت به وأخبرته بما أريد إنجازه فرفض ، إذ شعر أنني كنت أمثل له من قبل جبهة تراجيحاً ، وأنني الآن أحاول إدخاله "القفص الحديدى" ، أي أريد "حوسلته" ، ولذا لم يجد أي معنى في الاستمرار في علاقتنا . وهكذا لم أكتب المقال ، ولم أربح الدراهم التي كنت أمني نفسي بها ، وفقدت صديقاً بسبب موقفى التعاقدي .

إن الفرد الأمريكى يعيش ثنائية حادة : تعاقدية في الحياة العامة على مستوى النموذج المهيمن ، وتراجيحية في الحياة الخاصة على مستوى الممارسة الشخصية . ولكن هناك مجتمعات تجعل تحقيق مشاعر التراحم أمراً عسيراً على المرء ومجتمعات أخرى تيسر تحقيقها . وكلما ازداد التناقض بين النموذج والواقع ، ازدادت الثنائية إلى أن تتحول إلى استقطاب . وهذا التناقض موجود في الولايات المتحدة بين النموذج التعاقدى من جهة ، وحياة الإنسان الفرد المتعينة من جهة أخرى .

وحتى أزيد مسألة التناقض بين النموذج والحياة الفردية وضوحاً أضرب مثلاً من المجتمع الإسرائيلى ، وهو ليس مجتمعاً عنصرياً وحسب ولكن قوانينه أيضاً عنصرية . فعلى سبيل المثال ، من المنوع استئجار عربي للعمل في أرض يمتلكها الصندوق القومي اليهودي ، وهذا يشكل ما يزيد على ٩٠٪ من الأرض . ومع هذا هناك من سكان الكيبوتسات من يريدون استئجار العرب ، إما بسبب رخص العمالة العربية وإما حتى بسبب الشفقة ، فيمنحون العرب حقهم الإنسانى الطبيعى في العمل من أجل الرزق . وبغض النظر عن الدوافع ، فإن القانون يحرم مثل هذا الفعل الإنسانى ، ومن "يُضبط" متلبساً بجريمة استئجار العربي ومنحه حقوقه يقدم للمحاكمة . فالنموذج الفعلى والقانونى هنا يجعل من العدالة مسألة عسيرة التحقيق على الفرد حتى لو أراد هو كفرد ذلك .

ولا يمكن القول بأن مجتمعاتنا العربية مجتمعات تراجيحية خالصة ، فنموذج التعاقد والصراع يزحف وبسرعة نحو مجتمعاتنا ، وسيطر علينا ، ولعله قد يحكم قبضته علينا خلال عدة سنوات . وإلا فبم نفس كثيراً من ظواهر حياتنا ، وإجابة البعض على التعبير عن الأسف

والاعتذار بقولتهم المشهورة : " وآسف دي أصر فيها في أي بنك ؟ " . ولتجرب ولتذهب إلى إحدى المناطق السياحية لتعرف أن كل شيء له ثمن غير محدد . (سألت مرة صبيًا عن مكان كنت أبحث عنه ، فأخبرني عنه ثم طلب نصف جنيه ، ورحمنا الله وإياكم !) .

البيع والشراء بين التراحم والتعاقد

يدور المجتمع التقليدي في إطار منظومة قيمية توزع الواجبات والحقوق بطريقة يؤدي الدين والعرف فيها دوراً أساسياً . ويعد النشاط الاقتصادي نشاطاً واحداً ضمن أنشطة إنسانية أخرى كثيرة ، لا يتمتع هو فيها بالضرورة بالصدارة أو المركزية . بل إنني أزعم أنه كان يُنظر لعمليات المنافسة (لا المساومة) نظرة سلبية إلى حد ما . كنت ألاحظ أن كبار التجار في دمنهور يقصرون يومهم في عقد الصفقات ويستخدمون كل الأسلحة اللفظية الممكنة (من إخفاء للحقائق ، إلى تشويه جزئي لها ، إلى إطلاق أغلظ الأيمان بطريقة يتصورون أنها غير ملزمة) ، أي أنهم يدخلون في علاقات اقتصادية صراعية تعاقدية كاملة حيث يتربص الإنسان بأخيه الإنسان . ولكنهم بعد ذلك يتناولون طعام الغداء معاً إذ تنقلب الآية تماماً وتنعكس الأدوار ويحل التراحم بدلاً من التعاقد . فبعد أن كان هم كل واحد منهم أن يُعْظَم أرباحه على حساب الآخرين ، يصبح هم كل واحد منهم أن يظهر كرمه وأريحيته وينفق على الآخرين ، ويلقي بأغلظ الأيمان (الصادقة هذه المرة) بأنه هو الذي سيدفع . ويبدو أن تناول الطعام معاً هو محاولة لتأكيد التراحم الإنساني وتضميد الجروح بعد أن قامت عملية البيع والشراء بتدمير الوشائج الإنسانية . وكأنهم يريدون أن يحيطوا العلاقة الصراعية التعاقدية بسياج قوي من التراحم .

ولا يختلف هذا كثيراً عما يُسمَّى في علم الأنثروبولوجيا بحلقة الكولا Kula . فجزر التروبرياندا كانت تشكل حلقة يتاجر أهلها بعضهم مع بعض . ولكن عملية التبادل التجاري كانت تحاط بطقوس تراحمية ضخمة . إذ كان على التاجر أن يتزين لصديقه التاجر الآخر ، حتى تسود المحبة وحتى يخفوا عملية التعاقد المدمرة . وكان التجار يتبادلون الهدايا وهي عبارة عن إسورة بيضاء ، وعقود حمراء ، فكان التاجر (أ) يعطي التاجر (ب) سواراً ، وكان التاجر (ب) يعطي التاجر (أ) عقداً . وبذا كانت العقود والأساور تتنقل من تاجر لآخر عبر الأجيال . وكانت حركة العقود الدائرية تدور حسب عقارب الساعة ، أما الأساور فكانت تدور عكس عقارب الساعة . وبرغم أن الجميع يعرف أن " الهدايا " سيتم استردادها ، فإن المهم هو السياج الشعائري التراحمي الذي يعيط بالتعاقد .

أذكر أنه حينما نظم والذي أول أو كازيون في دمنهور ووزع الإعلانات عنه ، أحس التجار في السوق بأن هذا أمر لا يليق ، فالأرزاق بيد الله وتصعيد التنافس من شأنه أن يؤدي إلى تصعيد الصراع وتضييق الرزق على صغار التجار . يجب على الإنسان أن يجلس في متجره ويأتي إليه

العملاء لا أن يلاحظهم بإعلاناته . ولكنهم كانوا لا يعرفون أنهم لحقوا بركب التقدم والحدثة والتعاقدية ، أو أنه لحق بهم ، وأن «المجسيلات» قد بدأت تنشب أظافرها في «الجمائينشافت» . وقد ذكرت من قبل سوق الاثنين ، ويمكن أن أذكر هنا أن بقايا نظام المقايضة كان لا يزال سائداً فيه ، وكان لا يزال له أصدائه في حديثنا اليومي . كنا - على سبيل المثال - إذا خلق أحدا رأسه نسائه من قبيل الدعابة : "الفرخة باضت والا خبزتم ؟" أي هل دفعتم للعلاق بيضة دحاجة كأجرة له ، أو دفعتم له رغيف خبز ؟ ومهما كان الأمر ، يمكنني القول إنني عشت في طفولتي حياة لا تزدي النقود (أهم شكل من أشكال التبادل التعاقدي المجرد) دوراً أساسياً فيها . كنت أذهب لعم بسوني الذي يحبك القمصان فأخبره أنني ابن الحاج حصافي ، فيسألني عن صحة الوالد وعن أخوالي . وكان ابنه يذهب إلى محل والدي ويخبره أنه ابن عم بسوني فيأخذ ما يريد . وفي نهاية العام ، يجتمع التجار ليصفوا حساباتهم . وأعني بهذا أن مجتمع دمنهور كان مجتمعاً تزدي فيه النقود (المجردة) دوراً ثانوياً ، على حين كان الاحتكاك البشري والتراحم يؤديان دوراً أكبر .

بل إن نشاطاً اقتصادياً مثل البيع والشراء ، لم يكن يُنظر له بحسبانه نشاطاً اقتصادياً خالصاً ، فالالتزام بتعظيم الربح ليس نهائياً يجبُ غيره من القيم . أذكر مرة أن دق جرس باب منزلنا ففتحته ، فوجدت فتاة فائقة الحسن ترتدي فستاناً جميلاً للغاية (ولعلها إسقاطات فتى باع من دمنهور) وتحمل قفصاً للفصيل أو الخبز وقالت : "هل تريدون شراء ؟" فقطوعت بأن أقول لا ، لأنني كنت أعرف أن عندنا مثل هذا القفص . ولكنني سمعت أمي تزجرني من الداخل وتأمرنني ألا أتدخل فيما لا يعني . وأمرتني أن أعطيها مبلغاً كبيراً من المال يفرق بمراحل ثمن القفص . وبعد ذلك ، أدركت أن ماتم هو اسماً عملية بيع وشراء تعاقدية ، إلا أنه فعلاً لم يكن كذلك على الإطلاق . فالفتاة ، هي من "أبناء الناس الطيبين" الذين إما فقدوا عائلتهم وإما تدهورت أوضاعهم المالية لسبب أو لآخر . وكانت هذه هي الطريقة المحترمة التي يمكن بها أن تصل إليهم المعونة المالية دون خدش للمياء ، أي أن التبادل التعاقدي هنا كان قشرة ظاهرة تغطي التراحم (الكامن) ، الهدف منها أن تجعل الصدقة تبدو كما لو كانت عملية تبادل لا أكثر ولا أقل .

وكثيراً ما كان بعض الباعة الجائلين يأتون ليعرضوا علينا سلعهم (في إطار تعاقدي) ثم يعقبون هذا بقصة عن سوء الأحوال وضرورة أن نشترى منهم (في إطار تراحمي) . وكثيراً ما كنا "نشترى" منهم سلعهم (في كتاب وولدن Walden للكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثورو Henry David Thoreau ترد واقعة مماثلة ، إذ يأتيه أحد السكان الأصليين من الهنود الحمر ويعرض عليه بعض السلال ، فحينما يرفض ثورو ، يصبح فيه الهندي قانلاً : "هل تريدني أن أتضور جوعاً ؟") .

وأسبقية الأخلاقي على الاقتصادي تظهر في طريقة تعامل التجار الواحد مع الآخر . فكلمة الشرف لها ورنها . كان هناك ولا شك تعامل بالشيكات والكمبيالات وإيصالات الأمانة ، ولكن كلمة الشرف كانت هي المرجعية النهائية . ومع تزايد التعاقد في بلادنا تراجعت أهمية كلمة الشرف هذه . حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ ، جاءني مهندس ديكور يسمى فاروق محرم ، وكان ينتمي لهذا العالم التقليدي ، ولكن بخلفيتي الأمريكية التعاقدية أصررت على كتابة عقد ، وقد سايرني في هذا . وفي أثناء تأليثه لشقتي كان يحرص على أن يقول مثلاً : "هذه الغرفة التي تكلف ألفي جنيه في بونترغولي (على سبيل المثال) يمكنها أن تكلف خمسمائة جنيه فقط ، لأن الرخام الذي فيها مكسور وملحوم بطريقة لن يلاحظها سوى خبير" ، أو "هذه النجمة الكريستال الفاخرة لن تكلفك سوى ٨٠ جنيهًا لأن بعض الكريستال فيها لم يكن أصلياً !!". بعد عام سلمنا شقتنا بكل ما اتفقنا عليه من أثاث وسجاد ولم يأخذ إيصالات ولم يسترد العقد ، ثم ذهب إلى بلد عربي ، ونشأت بيننا صداقة مستمرة حتى يومنا هذا .

وحينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ ، حضر إليّ مهندس ديكور شاب (ابن عم إحدى تلميذاتي وبناءً على توصيتها) لمساعدني على إعداد شقتي للسكنى . فأخبرته بالمبلغ الذي في حوزتي ، فقال إنه يحتاج إلى ثلاثة أضعاف هذا المبلغ ، فكان ردي أن هذا المبلغ هو كل ما عندي ، ولأبد من إعادة صياغة الشقة داخل هذه الحدود المالية . فوافق فأعطيته المبلغ كاملاً بكل براءة وبلاهة ، ولم أكتب عقداً ولم آخذ إيصالاتاً ، استناداً إلى تجربتي السابقة . فقام بخلع الشبابيك وهدم بعض الحوائط وكسر الأرضيات ثم رحل ، وأخذ معه كل الاعتماد اخصص لتغيير الشقة . (ظهر فيما بعد أن هناك عدداً كبيراً من مهندسي الديكور الجدد سينو السمعة) . ومن المؤسف أنني حاولت أن أسوي الأمر معه داخل الجامعة ، ولكن انطلاقاً من مفهوم قبلي غير أخلاقي ضيق للغاية تضامن معه العميد ووكيل الكلية (وكانا من كبار الفنانين) وبدلاً من رده وتهذيبه أخذوا صفه تماماً ، فاضطرت للجوء للنيابة الإدارية . فأحضره ، وحيث إنه كان مفلساً اكتفيت بأن طلبت من السيدة وكيلة النيابة تقريره وتعنيفه ... إلخ ، إذ لم يطأ عني قلبي أن أستمّر في كل الإجراءات التي كان من الممكن أن تؤدي إلى حبه .

وتداخل الأخلاقي مع الاقتصادي وعدم الالتزام بالتعاقد يظهران في هذه الواقعة : كنت مرة في سفحاجة أريد استئجار تاكسي ليعود بي للفردفة ، ولاحظت أن السائق يعالي في السعر فرفضت . فترك الفندق وعاد ومعه صديق ليخبرني أنه لم يعمل منذ ثلاثة أيام بسبب كساد سوق السياحة ، وأن خسائره فادحة والصديق هو الشاهد على ذلك . فأخبرته أنه من المفروض ، عملاً بقوانين التخصص والدورية والعرض والطلب ، أن أخفض السعر لا أن أزيده ، فمرفقه التفاوضي ضعيف ، وعالم داروين لا يعرف التراحم . لم يفهم شيئاً مما أقول ، وتذكرت أمي "وابنة الناس" الحسنة التي كانت تبيع لنا أشياء لا نريدها : تذكرت أن التراحم هو تراض

إنساني بين البشر ، وأن التعاقد هو تعاقد مادي بين أشياء أو بين بشر "تشيتوا" . فقررت ألا أكون شيئاً أو "متشيئاً" ، ودفعت له ما يريد .

وقد حدثت لي واقعة مماثلة في السعودية . يمكنني القول إنني لا أحب المساومة ولكنني أعشقها لأنني أعرف أولاً أنها إحدى آليات السوق والمجتمع التقليدي ، وثانياً لأنها تخلق موقفاً من الصراع الهادئ (التدافع) يمكن مراقبة البشر فيه (قمت على سبيل المثال بعملية مساومة في البرتغال مستخدماً القاموس ببراعة شديدة واستمتع شديد . وقد تمت هذه العملية أمام حشد كبير من السياح الأمريكيين الذين صفقوا كثيراً حين انتهيت من عملية المساومة) . ذهبت ذات يوم إلى الديرة القديمة في الرياض ، وهناك في أحد محال السجاد دخلت في مساومة حادة مع رجل عجوز ، وبالفعل اشتريت منه سجادة ونسيت الهدف من المساومة ، ودفعت له الثمن . ويبدو أنني من فرط استماعي بالمساومة نسيت السعر الذي توصلنا إليه ودفعت له الثمن الأعلى الذي كان قد طلبه في البداية . وبينما كنت أتجول في السوق ، إذ بي أجد الرجل يبحث عني إلى أن وجدني وشرح لي الأمر ، فأخبرته أنني نسيت الأمر تماماً وأنتي سعيدة بالسجادة وثمنها ، ومن هنا يمكنه أن يحتفظ بالبلغ ، ولكنه أصر على أن يعيد لي الفارق . وهنا قررت أن أجرب النموذج الكامن (الواضح لي والفامض بالنسبة له) . فرفضت وأصررت على الرفض . لم يدر الرجل ماذا يفعل ، ووقف حائراً : لو قبل النقود لأخل بأحد الموثائق ، وهو ألا يدفع أحد لثمن أعلى مما تم الاتفاق عليه نتيجة المساومة . وحينما ازداد الرجل حيرة ، قررت "الإفراج" عنه ، وأخبرته أننا يمكننا أن نعيد المساومة مرة أخرى ، وأن أدعه يهزمي في المساومة بحيث يحتفظ بالبلغ كاملاً ، فرفض تماماً مثل هذه الحيل . وبعد شد وجذب اقترحت عليه أن "نقسم البلد نصفين" وأن أخذ منه نصف المبلغ . فقبل شريطة أن أصبح يدي في يده وأقرأ الفاتحة وأقول "الله ييسحك" ثلاث مرات (وهي تعني "الله ييسامحك" ، بمعنى أنني قد سامحته في الثمن الأعلى الذي حصل عليه) . وحينما فعلت اسراج الرجل ودفع لي المبلغ الذي اتفقنا عليه وذهب لحال سبيله .

وقد قمت بتجربة عكس ذلك على طول الخط ، قمت فيها بدور الشرير ، إذ كنت في "مراكش في المغرب ، أشترى بعض التحف والأشياء التراثية التي أجمعها في منزلي . وفي أثناء تجوالي سمعت كلمة "جوج" تتكرر المرة تلو الأخرى . وحينما استفسرت عن معناها عرفت أنها تعني "زوج" ، وكما قيل لي إنه كلما زاد عدد ما تشتريه من سلعة واحدة انخفض الثمن (كما هو الحال في كثير من الأسواق) . وبدأت بغضب شديد أطلب سلعة وأسأل عن سعرها ، فيخبروني عنه . ثم أقول "جوج" فينخفض الثمن ، ثم أزيد العدد إلى أن أصل به إلى ستة فينخفض الثمن وبعدة . وبعد أن يستقر الثمن كنت أدخل عنصراً حديثاً ، جديداً تماماً عليهم ، وهو زوجتي ، إذ كنت أقول : "لقد ورطت نفسي ؛ زوجتي ستقتلني إن اشتريت ستة من نفس الصنف" . كانوا

ينظرون إلى هذا "الرجل" الذي يخاف من زوجته ، بل يعبر عن مخاوفه أمام الملأ في السوق . أين الرجل؟ أين الكرامة؟ ولكنني في دور البورجوازي الماكر لم تهمني هذه القيم التقليدية الزراعية البالية . ولذا كانت تتباهم الحيرة ، التي تنجم عنها الفشل الكامل في التعامل مع مثل هذا الموقف الحديث والجديد تماماً عليهم . حينئذ كنت أخبرهم أنني سأشتري واحدة فقط . ولم يكن أمامهم سبيل للمودة للسعر الأول . قضيت يومي في مراكش أشتري بهذه الطريقة حيث تقوم العقلية الصراعية التعاقدية بتقويض التراحم ، بل توظفه !

كنا أنا وأسرتي نؤدي العمرة في مكة ، وذهبنا بعدها إلى جدة لزيارة أختي . وقررنا أنا وابني أن نذهب غلات الأشياء القديمة ، ودخلنا أحد المحلات ولم نجد شيئاً يعجبنا . وفي أثناء خروجنا أذن المغرب فأدبنا الصلاة أمام المحل مع صاحبه . وبعد الصلاة تحدثنا معه ، وحينما عرف أننا من مصر قدم لنا بعض الهدايا . فشكرته ، ثم بحثت امرأة إيرانية جميلة ، ففكرت شراءها ، فرفض الرجل لأنه ظن أنني سأشتري المرأة لأرد على هديته مما يحول الهدية إلى "دهاية" . ولم يوافق على بيع المرأة إلا بعد أن أقسمت له بأغلظ الأيمان أن شرائي إياها لا علاقة له بهديته .

وفي عام ١٩٦٠ قمنا برحلة إلى وادي حلفا أنا وزوجتي وكنا قد تزوجنا لتونا ، وكانت عروسة صغيرة للغاية . فكانوا يرحبون بنا في المحلات ويغفروننا بالهدايا احتفالاً بهذه المناسبة . ويمكن أن أضرب مثلاً آخر باختلاط الاقتصادي بعناصر أخرى غير اقتصادية من تجربتي في دمنهور . إذ كنت لاحظت أننا في دكان والدي كنا نبيع السلع للدماهرة بأسعار أقل من تلك التي يدفعها غير الدماهرة . فكان الإنسان دمنهورياً ، من بلدنا وعشيرتنا ، هو أمر له وزنه في مجتمع تقليدي . وبطبيعة الحال كان أعضاء أسرنا الممتدة يحصلون على أجود الأصناف بأزهد الأسعار . وقل موتوا أيها الأغيار بمفطكم .

وفي عصر الانفتاح ، حينما بدأت تهيمن عقلية العرض والطلب ، والشراء بأرخص الأسعار والبيع بأغلاها ، أذكر أنني كنت أزور ابن خالتي في دمنهور ، الذي استقبلني في منزله مرتدياً "البيجاما" (وهذا أمر عجوج لإنسان أمسكت الحدادنة بتلابيبه مغلي ، برغم أن ارتداء البيجاما في الشارع كان من علامات الأبهة في دمنهور في طفولتي) . المهم أننا قمنا نتحدث وأخبرته أنه محاسب ويجيد الإنجليزية ، وبالتالي لو انتقل إلى القاهرة أو حتى الإسكندرية لحقق أرباحاً طائلة في وظيفته الجديدة . وفوجئت به يرد عليّ : "ومن سيرعى أبوي [مين حياخد باله من أبوي وأمي] . ذهلت من بساطة الرد وبساطة الالتزام في مقابل حركة الإنسان الحديث المليء لا يعرف ثوابت ولا أرضاً ولا قيماً إلا قيمة الصراع والحراك الاجتماعي (وقد عرف أحفادنا هذا جيداً)

بأنها مقدرة المرء أن يعبر قيمه بعد إشعار قصير The ability to change one's values at a short notice . ولذا نجد أن الإنسان الأمريكي ، وهو قمة التعاقد والحدادنة ، يغير من قيمته خمسة أعوام ، بل ويحولها إلى سلعة تباع وتشتري .

كنت أزور بعض الأصدقاء المصريين في مدينة دالاس في ولاية تكساس . وعلى طريقة المصريين أكرمونا بشكل منطرف ، فكنا ننام أنا وزوجتي في غرفة النوم الرئيسية وليس في غرفة الضيوف . وكان ملحقاً بغرفة النوم الرئيسية هذه حمام في غاية الجمال ، وبدلاً من حائط البانيو كان هناك سورٌ زجاجيٌ يطل على حديقة يابانية مليئة بالأحجار والأشجار التي تنسم بجمالها الرصين الهادئ . محاطة بسورٍ عالٍ . أما الحمام نفسه ، فحوائطه مزينة بعدد لا حصر له من المربايات فكنت حينما آخذ الدش أنظر إلى الحديقة التي يتغير شكلها حسب الوقت ، ففي الصباح هناك الشمس الساطعة ، وفي المساء هناك الأضواء الباهرة التي تغطي الأشجار . وتختلف التشكيلات اللونية والورقية باختلاف مصدر الضوء وقوته وضعفه . وفي المساء ، كان يمكن تغيير الأضواء ، فتنطفأ الأضواء الكشافة وتوقد الأضواء الخافتة الملونة . وبطراً لأنه لم يكن هناك ما أفعله في دالاس (فهي مدينة حديثة قبيحة لا يوجد فيها سوى مقاهٍ واسعة وأماكن لشراء البضائع الغالية) كنت آخذ دشاً كل ثلاث ساعات ، لأمارس تجربة جمالية . وسألت مضيقي لم لا يفعلان الشيء نفسه ، وفجأة اكتشفت أنهما لا يستخدمان حجرة النوم الرئيسية مطلقاً (ولذلك لا يقتربان من الحمام) لأنها أعلى ما في المنزل ، وكانا يودان الحفاظ عليها في أحسن حال حتى يحسنا من ثمن المنزل حين نعين لحظة بيعه (كان ابنهما يستمع إلى حديثنا ، فقال في براءة : "إن كنتم تنوون بيع البيت ، فلم اشترىتموه في المقام الأول ؟" . ولعله لم يكن قد فهم بعد مسألة المنزل / السلعة) . وعرفت من صديقي أن عليه أن ينظف حديثه في عطلة نهاية الأسبوع ، وأنه إن لم يفعل ثارت فائرة جيرانه لأن هذا يقلل من قيمة منازل المنطقة وبالتالي ما تضم من منازل / سلع . وفي زيارة أخيرة لهما اكتشفت أنهما اشتريا بيتاً أكبر ، فاشفت عليهما ، ولكنهما قالوا لي : "إن النظام الضرائبي في الولايات المتحدة يجعل من الصعب على الإنسان أن يسكن في شقة أو منزل صغير ، لأنه إن لم يدفع فوائد للبنك فإن دخله سيزداد ، وبالتالي سيزداد الضرائب المفروضة عليه ، أما إن اشترى منزلاً كبيراً فإن رهن المنزل يكون كبيراً وبالتالي الفائدة كبيرة ، ويمكن بالتالي للمرء استقطاعها من ضرائبه (ولذا إن قطن إنسان في شقة فإنه يدفع ضرائب أعلى ممن يسكن في قصر منيف لأنه لن يدفع فوائد للبنك ، وبالتالي لن يستقطعها من ضرائبه) " . إن النظام الضرائبي بذلك يحول منزل الإنسان (أهم شيء في حياته الخاصة) إلى مجرد استثمار . وقال لي صديق آخر إنه حينما يصل أبناؤه إلى سن الرشد (١٨ عاماً في الولايات المتحدة) فإنه لا يتمتع بالإعفاء الضريبي الخاص بهم ، ولذا يكون من صالحه المالي أن ينفصل أولاده عن الأسرة ، ويقيموا في منازل خاصة بهم ، وفي هذه الحالة يمكنهم هم أيضاً التمتع بالإعفاء الضريبي !

وتداخل النشاط الاقتصادي مع النشاطات الإنسانية الأخرى يظهر في مقدرة العمال المصريين مهما تقدموا في السن على اللعب في أثناء العمل أو بعده . ونفس التداخل بين

الاقتصادي وغير الاقتصادي يتبدى في الجو الذي يسود في محل العمل ، إذ نجد أنه غيظ به على مرور شبكة من العلاقات الإنسانية ، كما أنه كثيراً ما يتبادل الموظفون والعمال النكات في أثناء أدائهم عملهم (وهذا طبيعاً له جانبه المظلم ، فهو يقلل من كفاءة الأداء أحياناً . ولكني حينما أتذكر إحدى مساعداتي في الولايات المتحدة في أثناء كتابة الموسوعة أترجع قليلاً عن معيار الكفاءة المطلقة هذا . كانت هذه المساعدة على درجة من الكفاءة لا يمكن تصورها [وسأضرب أمثلة على ذلك فيما بعد] . ولكن يبدو أنها سخرت حياتها كلها في خدمة وظيفتها بحيث أصبحت آلة . حين كنت أتحدث معها وأذكر موضوعاً ما بشكل عامر ، كانت تبدأ في إعطائي معلومات عنه ، وكنت أفضل تماماً في أن أوقفها أو أن أوضح لها أنني في واقع الأمر غير مهتم بالموضوع . ولكنها كانت في كفاءة الكمبيوتر وفي آليته ، ولذا كانت لا تتوقف قط) .

حروبي الخاصة ضد المؤسسات

من وُلد في مجتمع تقليدي يضيق ذرعاً بالمؤسسات اللاشخصية ، فالمجتمع التقليدي مكوّن من شبكة واسعة من العلاقات العائلية وعلاقات الجيرة . ولذا - كما أسلفت - لا يتعامل الإنسان إلا مع من يعرفهم ومن يعرفونه ، حتى في المدرسة كان الفصل انمكاساً لهذا المجتمع . أما "المؤسسات" في دمنهور فكانت مؤسسات في معظمها أهلية لا علاقة لها بالحكومة ، يشرف عليها أناس من أهل دمنهور ، ويتحكم فيها الناس (مثل جمعية البر بالفقراء - جمعية تحفيظ القرآن - الأوقاف) ، فهي أقرب إلى ما يسمّى الآن «مؤسسات المجتمع المدني» ، أما المؤسسة بالمعنى الحديث (كيان لا شخصي ، خاضع لقوانينه وإجراءاته الخاصة ، وليس له مرجعية إنسانية أو أخلاقية أو دينية) فهو أمر لم يكن معروفاً في دمنهور التي نشأت فيها . ولعل تنشئتي التقليدية جعلتني أرى أن المعايير الأخلاقية لا تنطبق إلا على الأفراد وحسب ، أما المؤسسات فهي شخصيات مجردة لا شخصية ، لا نهتم بالأفراد أو الأخلاق ، وتتحرك كالوحش الكاسر أو كقوة من قوى الطبيعة ، تحطم كل ما يأتي في طريقها . فالمقدرة على الاستمرار والبقاء هي القيمة المطلقة الوحيدة بالنسبة لها والتي تجب أي حسابات إنسانية وأخلاقية .

وحينما انتقلت من دمنهور إلى الإسكندرية كانت صدمة حقيقية لي ، فهذا عالم جديد عليّ ، إيطالي / يوناني / غربي ، يتحدث الإنجليزية والفرنسية واليونانية والإيطالية ، غير معروف لي وأنا غير معروف له . وقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب كان هو الآخر تجربة غير مألوفة لي (كما سأبين فيما بعد) . ومع هذا كانت الإسكندرية مدينة صغيرة ، وكان قسم اللغة الإنجليزية هو الآخر صغيراً ، لا يجاوزان مقدرات الإنسان ولا خياله ولا حواسه . ولذا كان من الممكن تجاوز الصدمة بعد وقت معقول .

وحين تخرجت في جامعة الإسكندرية ، فوجئت بأن كل البعثات كانت تُمنع لخريجي

جامعة القاهرة وعين شمس ، ونُحرم نحن منها في الإسكندرية . إلى أن يهني أستاذ صديق من جامعة عين شمس أن إحدى خريجات جامعتي حصلت على بعثة جامعة الإسكندرية وأن مجموعها الكلي أقل مني بحوالي ٢٠ درجة . وبعد أن استقصيت الأمر اكتشفت أن قسم الامتياز ألغي من جامعة الإسكندرية ولم يُلغ من الجامعات الأخرى ، وأنه بعد أن كانت بعثات كل جامعة مقصورة على خريجياتها تم تركيزها في إدارة البعثات ، التي عادة ما تضع خريجي أقسام الامتياز في المقدمة . فتقدمت بشكوى لإدارة البعثات لأوضح أن قسم الامتياز ألغي أصلاً من الإسكندرية ، وأن استمرار الوضع الحالي يعني أن خريجي الإسكندرية سيُحرمون من البعثات . فقال لي مدير إدارة البعثات إنه لا حول له ولا قوة ولا بد من استخراج حكم من مجلس الدولة . وحتى يصدر الحكم لصالحني لابد من استصدار قرار من المجلس الأعلى للجامعات يبين أن اللجان العادية من جامعة الإسكندرية تعادل اللجان الممتازة من جامعتي القاهرة وعين شمس . لتقصيت عدة شهور في الانتقال من الإسكندرية إلى القاهرة لجميع الأوراق اللازمة ثم قدمتها للمجلس الأعلى للجامعات واستصدرت القرار وأخذته مجلس الدولة ، الذي أصدر حكماً لصالحني . فأخذت الحكم وذهبت لإدارة البعثات لتنفيذه . ولكني وجدت مديراً جديداً ، من البحيرة ، أي "بلدياتي" ، صديق حميم لعمي ، فاستبشرت خيراً وأعطيته حكم مجلس الدولة . وإذ به أفاجأ بأنه يرفض تنفيذ الحكم . وسألته في براءة لم ؟ فقال إنه لا يحب أن يغير الإجراءات . كدت أبكي من فرط الحزن . ولكن لم تفر عزمي واستمرت حربي ضد المؤسسات . وكان لي أصدقاء كثيرون يعملون في الصحافة ، فطلبت منهم أن ينشروا تفاصيل القضية وحكم مجلس الدولة في الصحف ، ففعلوا . فوجدت وزارة التعليم العالي نفسها موضعاً للشهر الذي يستند إلى حقائق . وفي ذلك الوقت اجتمعت اللجنة العليا للبعثات ، وكانت قد أثبتت قضية حول آخر بعثة تقدمت لها ، وكانت بعثة خاصة بكلية البنات ، وكان من المفروض أن تكون مقصورة على الإناث ، ولكنهم نسوا أن يكتبوا هذا الشرط في الإعلان . المهم ، حتى ينهوا القضية تفاضوا عن الشرط وتقرر أن أُنصح بعثة كلية البنات وسافرت بالفعل إلى الخارج . وقد استغرقت هذه الحرب ثلاث سنوات من تاريخ تخرجي عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٢ . وقد قابلت الدكتور أبا الوفا التفتازاني - رحمه الله - وكان عضواً بلجنة البعثات العليا ، فأخبرني بما حدث داخل اللجنة ، وأنه كان له فضل كبير في إقناعهم بمنحي البعثة .

وحين انتقلت إلى نيويورك ، حدثت هناك أول مواجهة حقيقية وشرسة بيني وبين إحدى المؤسسات ، وذلك حين ذهبت للدراسة بمنحة من مؤسسة فولبرايت (تغطي السنة الأولى ، أما بقية السنوات فكانت بعثة حكومية) . وصل إلي في القاهرة ، قبل سفري ، كتيب إرشادي من جامعة كولومبيا يتحدث عن كل كبيرة وصغيرة ، بما في ذلك الرياح القوية التي قد تهب علينا في الويست سايد درايف (الكورنيش الذي يطل على نهر الهدسون) . ومن هنا اقترحوا علي أن

ترتدي زوجتي إشاراً حتى لا تتأثر الطريقة التي صفت بها شعرها . انبهرنا بهذا النظام الدقيق ، خصوصاً وأنهم أخبرونا أن لجنة الضيافة سترسل شخصاً ليكون في استقبال شخصي الضعيف . ولكن حين وصلت إلى مطار نيويورك (وهو سيرك إنساني ضخمة) لم يكن هناك من يستقبلني . فركلت على الله وذهبت للاستعلامات لأسألهم عن طريقة الوصول إلى مدينة نيويورك فقالوا عليك أن تأخذ الأتوبيس حتى بورت أوتوري Port Authority . وقمت بترجمة هذا إلى "ميناء السلطة" أو "سلطة الميناء" . فاحترت وطلبت منهم إيضاحاً ، ولكن في نيويورك هذا يعطل النظام الآلي ، ولذا نجاهلوني تماماً . وبعد أن سألت سائق تاكسي عرفت أنها Port Authority Bus Terminal ، أي محطة الأتوبيس الأخيرة (آخر الخط) ، وأن "بورت أوتوري" هذه تشير إلى هيئة الأتوبيسات . فأخذت الأتوبيس وقضيت ليلتي في أحد فنادق الدرجة الألف . وفي اليوم التالي أخذت تاكسي وتوجهت إلى القنصلية المصرية ، ودفعت ما سجله العداد ، فنزل السائق وأمسك بتلابي قائل إن علي أن أدفع بفشيئاً ، فدفعت له ما يريد (وهذا أمر غير مألوف ولكنه حظي العاثر) .

توجهت بعد ذلك لمؤسسة فولبرايت واستقبلني أمريكي من أصل فلسطيني يسمى مستر فليشيانو وأطلق عبارات الترحيب والمودة بغزارة غير عادية . وحيث إنه لم يكن هناك ما يضطره لكل هذه المودة ، صدقته . وتصورت أنني وجدت شيئاً من الترحام في المدينة التي لا ترحم . ولكن حينما قررت زوجتي استكمال دراستها ذهبت إلى مستر فليشيانو هذا لأسأله عن إحدى الجامعات في نيويورك يمكن لزوجتي الالتحاق بها ، فأخبرني ببرود شديد (يتناقض مع المودة الدافقة في الزيارة الأولى) أن هذا ليس من تخصصه ، وأرسلني إلى سيدة أمريكية أخبرتني بكل أدب وباتسامة ثلجية أن هذا ليس من اختصاص المؤسسة ، فالمؤسسة تشرف عليّ وحدي . حاولت أن أبين لها أنني لا أطلب عوناً مالياً ولا حتى إشرافاً دائماً ، وكل ما أطلبه هو النصح والمشورة ، فجاءتني الابتسامة الثلجية مرة أخرى مع الرفض الصارم الرقيق !

وكنيت أقوم مرة بزيارة روتينية لمؤسسة فورد ، ولكنني فوجئت بأن كل الموظفين غادروا المبنى في منتصف النهار (لسبب لا أعرفه) دون أن ينبهني أحد لذلك ، ووجدت نفسي وحيداً في مبنى شاهق . حاولت الخروج منه ولم أفلح إلا بعد عدة محاولات . ولكنني من فرط غيظي أمسكت بالأقلام والأوراق الموجودة على بعض المكاتب وألقيت بها على الأرض وعدت إلى منزلي وأنا أرتجف من الغيظ والخوف .

وقد حملت زوجتي في أثناء وجودنا في نيويورك ، فذهبت إلى مبنى مرشد الطلبة الأجانب في جامعة كولومبيا ، وكان مليئاً بالموظفين الذين كانت مهمتهم الوحيدة مساعدتنا (حسبما قيل لنا) . فذهبت إلى هناك لأسأل عن أسماء مستشفيات رخيصة ، فما كان منهم إلا أن أخبروني بأن كل المستشفيات باهظة التكاليف وأن الحل الوحيد بالنسبة لي هو أن أتسول ! كاد

يُغشى علي من هول الصدمة ، ولكن لم أستسلم وأخذت أمر على المستشفيات واحدة تلو الأخرى ، إلى أن اكتشفت مستشفى جبل سيناء ، وهو مستشفى فاخر للغاية ، وكان قد فتح لتوه قسماً محدودي الدخل يدفعون حسب دخولهم .

ثم ذهبت إلى جامعة ريجرز . وقد قيل لي إن قسم اللغة الإنجليزية فيها قسم صغير يمكن التعامل مع من فيه بطريقة إنسانية شخصية . وحين حان الوقت لتحديد التخصصات المختلفة للامتحان الذي يسبق كتابة رسالة الدكتوراه (خمسة حقول مختلفة من الأدب ، على أن يتم اختيارها من خمسة أقسام مختلفة يحتوي الأول منها على الأدب الأنجلو ساكسوني أو أدب العصور الوسطى ، ويحتوي الأخير منها على الأدب الإنجليزي الحديث أو الأدب الأمريكي) حاولت أن أخذ التخصصين الأخيرين برغم أنهما يقعان في قسم واحد بدلاً من دراسة أدب العصور الوسطى (على الرغم من صعوبة دراسة الأدب الإنجليزي الحديث بالنسبة لدراسة أدب العصور الوسطى) . وكنت أعلم أنه قد تمت الموافقة على فتح باب الاختيار على مصراعيه للطلبة في مجلس القسم ، ولكن مجلس الكلية لم يكن قد وافق على هذا القرار بعد . ومع هذا رُفض طلبي ، وعبثاً حاولت أن أشرح للأستاذ المشرف وجهة نظري ، وهي أن تخصص طالب مصري في الأدب الإنجليزي الحديث بدلاً من العصور الوسطى ، أمر مفيد لكل من الحضارتين الأمريكية والعربية ، كما أشرت إلى أن ما أطلبه قد تمت الموافقة الفعلية عليه في مجلس القسم ، وأن المسألة مسألة وقت قبل أن يصبح قانوناً . ولكن هيهات ، فاللوائح لوائح ، وأنت كنت تعرفها يا مستر مسيري حينما حضرت إلى هنا ، كما قال لي الأستاذ المشرف .

ويجب أن أذكر هذه الواقعة من حياتي التي أسميها "حربي الخاصة ضد الرأسمالية العالمية" . ففي عام ١٩٦٩ ، كنت في طريقي من الولايات المتحدة إلى مصر . وذهبت إلى مندوب أميربكان إكسبريس ، الذي كان مشرفاً على إجراءات عودتي أنا وأسرتي . وكان أمامي خياران : أولهما العودة بعابرة المحيطات كريستوفر كولومبو ، وكانت رحلة متعبة وجميلة للغاية ، وأنا أحب السفر المتعب ، شأني شأن معظم البشر . ولا أجد غضاضة في أن يتمتع الإنسان بالبذخ الزائد من أونة لأخرى ، وأن يتمتع بهذه الحالة ، شريطة أن يكون واعياً بأنها مرحلة مؤقتة ، وألا يتصور أن الحياة كلها لحظات ترف وبذخ .

كان هذا هو الخيار الأول لرحلة العودة . أما الخيار الثاني ، فكان هو السفر بالطائرة ، وهي رحلة سريعة وعادية وعملية . وبالطبع كنت أفضل الرحلة بالسفينة ، وخصوصاً أن كنتي ، أهم مقتنياتتي ، بحسبانها الأدوات التي سأستخدمها في عملية التدريس والبحث العلمي ، ستكون معي إن سافرت بالباخرة ، ولن تصل بعدي . ولكن المشكلة الوحيدة التي واجهتني في العودة بعابرة المحيطات هي أنني كنت سأتوقف في نابولي وأترك أمتعتي لمدة أربعة شهور أقوم خلالها برحلة عبر أوروبا (نزور فيها إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وهولندا وألمانيا والنمسا وأخيراً إيطاليا مرة

أخرى) . وكنت أخشى تكلفة تخزين هذه الأمتعة طيلة هذه المدة . وأخبرت مندوب أمريكان إكسبريس بمخاوفي . بل عرضت عليه أن يتصل تليفونياً بمبنى نابولي على نفقتي الخاصة ليستفسر عن التكلفة . فأكد لي أن التخزين سيكون بمسكنة بضعة سنتات لا أكثر ولا أقل . وكانت لهجته يقينية بشكل لا يدع مجالاً للشك . فتوكلنا على الله وركبنا عابرة الم المحيط الإيطالية كريستوفرو كولومبو . وكانت الرحلة بالفعل مترفة بشكل رائع ، بل بشكل بديء : فيلم سينمائي كل يوم - إفطار فاخر - غداء فاخر - تناول الشاي الساعة الخامسة على صوت الموسيقى - عشاء فاخر - حجرة خاصة للأطفال .. وهكذا .

ولكن حينما وصلنا إلى نابولي ، اكتشفت أن التخزين مكلف للغاية ، وأنه سيكون أكثر من تكاليف الرحلة التي كنت أنوي القيام بها عبر أوروبا ، فسقط في يدي ووقفت لا أدري ماذا أفعل . وحينئذ رأني أحد الحمالين ، وبمساعدة قاموس إنجليزي - إيطالي وعن طريق معرفتي باللاتينية (كنت آخذ الكلمات اللاتينية وأحذف نهايتها ، فكانت تصبح إيطالية في معظم الأحيان) ، أفهمته وضعي . فقام بشرحه بدوره لموظف التخزين ، وقررا أن يغيرا في الوزن وبدلاً من أن تكون تكاليف التخزين مائة دولار في اليوم أصبحت عشرة دولارات فقط ، وهو سعر معقول (ومع هذا ، فإنه مضروباً في ١٢٠ يوماً يرتفع مبلغه ، ليصبح مبلغاً محترماً في الستينيات ، بل وثروة صغيرة بالنسبة لطالب بعثة وزوجته) . وكتبت لشركة أمريكان إكسبريس بما حدث ، فكشرت عن أنيابها التعاقدية ، وأخبرتني بأنها ليس لديها ما تفعله !

درست بوليصة التأمين طيلة أربعة الشهور التي قضيتها في أوروبا (في الرحلة التي أنفقت فيها معظم مدخراتي وتمتعت بمشاهدة متاحف أوروبا وآثارها) فاكشفت أن التأمين يغطي من الباب للباب From door to door . وعند عودتي لمصر وجدت أن الفلاجة التي أحضرناها من الولايات المتحدة قد أصيبت بضربة في جانبها . فكتبت لشركة التأمين أطلب تعويضاً ، فكتبت لي الشركة قائلة إن تأميني يغطي الـ total loss أي الخسارة الكاملة وليس الـ partial loss أي الخسارة الجزئية ، وهو تمييز يصعب على إنسان غير مدرب على اللغة القانونية (مثلي) أن يستوعبه . فاستشفت غضباً وحسبت ما خسرت سواء من جراء تخزين أمتعتي في نابولي ، أم من جراء العطب الذي أصاب الفلاجة ، وأبلغت قسم شرطة سابا باشا عن فقدان أحد الأجهزة الكهربائية الأخرى (وكان ثمنه يعادل تماماً كل ما خسرت) . وأرسلت صورة من المحضر لشركة أمريكان إكسبريس . فطلبوا مني ترجمته باللغة الإنجليزية ، فرفضت قائلاً إن شركة في حجمهم يمكنها ترجمة المحضر . وبالفعل بعد شهرين أو ثلاثة وصل إليّ منهم شيك بالمبلغ الذي عوضني عما فقدت من مال سواء بسبب التخزين أم نتيجة تلف الفلاجة . وهكذا كسبت "حربي الخاصة ضد الرأسمالية العالمية" .

ومن القصص الأخرى الطريفة في حربي ضد المؤسسات ، حكايتي مع بلدية مدينة فيش

كيل Fish Kill وهي مدينة صغيرة أمريكية في ولاية نيويورك . وكثير من هذه المدن تحاول أن تحقق دخلاً بأي شكل تحول به أوجه الإنفاق المختلفة من رواتب الموظفين إلى المكتبة المحلية . وتلجأ هذه المدن أحياناً للتحايل لتدبير الاعتمادات اللازمة ، ومن بين أشكال التحايل أن يوضع رادار لقياس سرعة السيارات في منطقة جبلية منحدره تقع خارج المدينة ولكنها تتبعها إدارياً . وبما أن التحكم في السرعة في مثل هذه المنطقة مسألة صعبة للغاية . وبما أنهم يضعون الرادار عند قاعدة المنحدر ، فإن الكثيرين يجدون أنفسهم مرتكبين لجريمة مخالفة السرعة مع أنها مخالفة استمرت بضعة دقائق أو ثوانٍ . ويضطر السائق مرتكب الجريمة إلى دفع الغرامة لمدينة فيش كيل . وهذا ما حدث لي عام ١٩٧٦ . فقررت أنا الآخر أن أتحايل ، وكتبت لهم خطاباً على الورق الرسمي لوفد الجامعة العربية لهيئة الأمم (حيث كنت أعمل مستشاراً ثقافياً) أخبرهم فيه بأنني لم أذهب البتة لمدينة فيش كيل هذه ، فكيف يمكن أن أكون قد ارتكبت مخالفة مرورية فيها ؟ وقد كتبت الخطاب بأسلوب إنجليزي راقٍ ، وختمته بقولي إنني قد اضطر لإبلاغ حكومتي ، وأن هذا قد يسبب أزمة دبلوماسية بين بلدنا (وهذه طبعاً أكاذيب ، فانا لم أكن دبلوماسياً ، كما أنني لا أعتقد أن واقعة مثل هذه يمكن أن تؤدي إلى أزمة بين مصر والولايات المتحدة أو حتى جمهورية لو كسمبورج ١) . ولكن الخطاب أتى بمفعوله . فمن الواضح أن مجلس مدينة فيش كيل أصيب بالهلع ، إذ وصلني خطاب طُبع على ورق خاص يعتذرون فيه لما بدر منهم ، ويوضحون مسألة أن المنطقة التي وقعت فيها المخالفة تابعة إدارياً لهم ، وأرسلوا لي نموذجاً أوقعه حتى يمكن إسقاط المخالفة على الفور ! وقد فعلت بطبيعة الحال ، ولم تحدث الأزمة الدبلوماسية التي هددتهم بها .

وحربي الخاصة ضد المؤسسات ضد الرأسمالية العالمية مسألة مستمرة . فعلى سبيل المثال اشتريت بلوفر من الولايات المتحدة ، وإذ بي أجد فيه ثقباً بعد ارتدائه بعدة أيام ، فاستمرت في ارتدائه طيلة عمره الافتراضي ، وحينما كان يسألني أحد من الثقب ، كنت أشرح لهم نظريتي عن محاولة الفأر من الاحتكاكات الرأسمالية . وتصدى هذه الحرب الضروس في أنني حين اشترى جوارب فإنني أشتري ثلاثة من نفس اللون ، ومن هنا إن فقدت فردة شراب أو إن اهرأت ، فإنه يمكن تعويضها من الجوارب الأخرى . (ويعلم الله أن هذا ليس بخلاً ديمهورياً ، وإنما هو تأكيد كوميدي للفردية ومقدرتي على الحرب ضد المؤسسات ، كما أنه تعبير عن وعيي البيئي الذي أشرت له من قبل) .

ولكن لاحظ لم يكن حليفي دائماً ، إذ إن الاحتكاكات كثيراً ما كانت تطحنني . فعندما استأجرت سيارة قبل عودتي من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ . قرأت إعلاناً مفاده أن إيجار السيارة سيكلفني كذا دولاراً في اليوم . ووجدت المبلغ معقولاً . ولكنني حينما ذهبت لتسليم السيارة وجدت فاتورة طويلة عريضة عن بنود لم تقرأ لي على بال ، فأديتها صاغراً . وحينما صُدمت عربتي المرلوكس وهي واقفة أمام عيادة الطبيب (الذي كنت في زيارة له مع أحد أبنائي)

، لم يأت مندوب شركة التأمين إلا بعد عدة أسابيع ، مما كان يعني وقف حالتنا تماماً ، فالحياة بدون سيارة في ضواحي أمريكا ، مثل الحياة دون حذاء ، أو حتى أقدم في القاهرة . وحينما حصر المندوب أخيراً نظر إلى سيارتنا باحتقار شديد ، وظل يخفض ثمنها إلى أن أصبح ٢٠٠ دولار ، ثم اكتشف أنني لصقت وردة بلاستيك على بابها ، فخفض الثمن إلى ١٠٠ دولار بحسبان أن هذه الوردة قد أضرت بطلاء السيارة ، وأن إعادة طلائها سيتكلف على الأقل ١٠٠ دولار . وبطبيعة الحال يطرح السؤال نفسه : لو كان ثمن السيارة هو حقاً ١٠٠ دولار ، فلم كانت الشركة تنقصني ٥٠٠ دولار تأميناً عليها ؟ ولكنه حكم القوي على الضعيف ، وحكم الشركات الكبرى على الفرد الأعزل ، لأن الشكوى كانت تعني رفع قضية ، والقضية تعني محامياً ، والمحامي يتقاضى مئات الدولارات . أما الشركة فهي دائماً عندها طاقم من المحامين جاهز دائماً للدفاع عن "مصالحها" .

وقد امتدت ظاهرة المؤسسات اللاشخصية إلى عالمنا العربي (فهي جزء من عملية التحديث) . وقد أخذت المشكلة شكلاً خاصاً في مصر بالذات ، بسبب وجود التراث البيروقراطي الطويل . فعلى سبيل المثال وصل إلي مرة خطاب يطلب مني فيه دفع غرامة قيمتها ٧٥ جنيهًا وإلا تم الحجز عليّ ، دون أن تبين نوعية المخالفة . فأهملت الأمر بعض الوقت ولكنني فوجئت بإجراءات الحجز ، فذهبت وأخبرت الموظف المختص أنني على أتم استعداد للدفع لو أنني عرفت السبب ، فلم يتمكن من معرفة السبب ، ومع هذا أصر على الدفع ، ففعلت صاغراً .

ومغامراتي مع شركة مصر للطيران كثيرة . كنت في عمان في طريقني من السعودية إلى القاهرة ، وكانت هذه الطائرة تنتظر الطائرة المصرية من بغداد لتحمل ركابها المصريين . ولكن يبدو أن عدد المسافرين كان صغيراً ، فجاء مدير المطلة ، وكان فرحنا صغيراً ، وقال إن الطائرة لن تحضر من القاهرة وإن علينا الانتظار للغد . وأشار بطرف أصابعه إلى كراسي المطار وقال يمكنكم النوم عليها . فذهبت له وقلت : إن هناك قوانين عالية تنظم هذه العملية ، وإن عليه أن يحجز لنا في أحد الفنادق إن كان يريد أن ننتظر طائرة الصباح . فقال إن ثمن التذكرة لا يغطي ثمن الفندق ، فأخبرته أن هذه هي مشكلته وليست مشكلتي . وحينما رفض أن يسلك حسبما يفرضه القانون ، طلبت من كل المسافرين أن يوقعوا على عريضة شكوى وأن يكتب كل شخص رقم حواص سفره إلى جوار توقيعهم . وأخبرته أنه إن لم يحجز لنا في الفندق فأسألكم لهيئة الطيران العالمية المختصة . وبقدرة قادر تحول الفرعون الصغير إلى «مهرج» مذعور وحلس يسترضيني ، وأمر للمسافرين بعشاء مجاني ، ثم اتصل بالقاهرة فأرسلوا الطائرة ١

ومرة أخرى ، كنت أيضاً في عمان وقررت شركة مصر للطيران أن ترسل طائرة صغيرة بدلاً من الإير باس air bus مما كان يعني أن نصف الركاب سيقفون في عمان لليوم التالي على الرغم من أنهم حجزوا تذاكر على شركة مصر للطيران . وكان لا بد أن أقضي الليلة مع ابني .

وتحركت بسرعة وذهبت إلى الدرجة الأولى وحجزت تذكرة . وحين وصلت إلى القاهرة ، أرسلت شكوى لمدير الشركة أخبره فيها أن القانون المنظم لحركة الطيران يرى أنه إذا كان هناك مكان في الدرجة الأولى ، فلا بد أن يعطى لراكب الدرجة الثانية إن لم توفر له الشركة مقعداً ، وبناءً عليه لابد أن أستعيد ما دفعت من نقود . وقد كان . ولاحظت أن موظفي الشركة كانوا فرحين بهذا التصرف ، وأخبرني أحدهم : "لو فعل الجميع ذلك ، لما ارتكبت شركة مصر للطيران مثل هذه الحماقات" .

وأخيراً كادت المؤسسة تطحنني في بعض المواجهات معها . كنت في السعودية أريد تجديد رخصة القيادة . وحين ذهبت لأفعل ذلك ، وجدت هناك المئات أمام شباك التجديد ، لا يفوق في طابور . فعرفت أنني سأضطر للتغيب عن المحاضرات عدة مرات إن أردت تجديد الرخصة ، مما يعني أنني أختار بين شرين (وليس بين الخير والشر) : إما أن أنقُب عن المحاضرات وإما أن أُضَيِّر الرخصة بنفسى . وأخذت ما تصوّرت أنه أهون الشرين ، فذهبت إلى المنزل وغيّرت تاريخ الرخصة بنفسى ، وصورتها ، لأن التغيير لا يتضح في الصورة . وحينما انتهى تاريخ هذه الرخصة ، حاولت مرة أخرى تجديدها بشكل رسمي ، دون جدوى ؛ فجددتها بنفسى كما فعلت أول مرة بأن وضعتها في الماء هذه المرة ومسحت التاريخ بيدي . وتصادف أنني ارتكبت مخالفة مرورية بسيطة فطلب منى الضابط الرخصة ، فأعطيت إياها . فلاحظ على الفور أن هناك تلاعباً ما . فطلب منى أن أركب معه سيارته ، تمهيداً لنرحلي إلى السجن بتهمة التزيف (وهي تهمة خطيرة) . وبدأت في السيارة عملية "المساومة" ، فأخبرته أن التاريخ المطموس غير معروف ، ومن هنا لا نعرف هل الرخصة نافذة المفعول أم انتهت مدة صلاحيتها . ثم أخبرته أنني أستاذ جامعي وأن القبض عليّ دون سبب واضح ليس أمراً هيناً . ولما ساعد على دعم موقفى ، أن أحد المقبوض عليهم كان من أحد قرائى (وكنت أكتب آنذاك في جريدة الرياض) وتناقشنا - في سيارة الشرطة - في ترجمة معروف الدواليبي لأعمال دوستويفسكي . وكان الضابط يفرج عن المتهمين الذين يعترفون بجرمهم (لأنه ، انطلاقاً من قيمه التقليدية ، كان يبحث عن الصديق لا النظام) . وأخرج عن كل المعتقلين إلا إياي . وفجأة تذكرت أن عندي صورة من الرخصة في منزلى ، فأخبرته أن الصورة ستعين التاريخ الحقيقي لرخصتى . وبعد شد وجذب وافق على أن يصحبني إلى منزلى (بسيارة الشرطة) ليرى صورة الرخصة (التي لم يكن يعرف أنها صورة لرخصة مريفة) . وكانت هذه مخاطرة حقيقية ، فالتحور على مثل هذه الورقة بين أوراقى مسألة شبه مستحيلة . ولكننى فوجئت أمرى إلى الله ، إذ كانت هذه هي الفرصة الوحيدة أمامى . وحينما ذهبت إلى المنزل ، كان ابني يأسر يمتلك قنفذاً اسمه شوكت كان جالساً تحت المائدة على صورة الرخصة ! فأخذتها وأعطيته للضابط ، فرجد أن صلاحيتها انتهت منذ أسبوع فقط ، فأبلغ قسم الشرطة باللاسلكي أنه اطلع على صورة الرخصة ، وأن كل شيء على ما يرام . وأوصاني بتغيير

الرخصة ، فسارعت بذلك ، فلم أكن أريد المخاطرة مرة أخرى .

ومن المواجهات الأخرى الطريقة التي لم تنته نهاية مأساوية أو ملهاوية ، هي قصتي مع تجارة الذهب . فحين كنت في السعودية ، ادخرت مبلغاً صغيراً أودعته في البنك ، وبدأ سعر الدولار ينخفض ، وفي خلال عامين أو ثلاثة فقدت رُبْع المبلغ (بخلاف التضخم) . وشكوت لأحد أصدقائي من العاملين في البنك ، فنصحني بأن أحوّل نقودي إلى ذهب أو إلى معدن ثمين آخر (فضة - بلاتين) ثم أبيع الذهب حينما يرتفع سعره . ولاحظت أن وجوه أصدقائي كانت تتحول إلى شيء أقرب إلى المعدن حينما يتحدثون عن الإتجار فيه . وبدأت أهتم بالموضوع من ناحية شخصية واجتماعية . وفتحت حسابين : حساب نقدي وحساب معدني ، وعلى المرة أن يحوّل أمواله من الحساب النقدي إلى الحساب المعدني والعكس ، حسب قراءته لأسعار المعادن ، وبذلك يتحقق بعض الأرباح . وقد كان ، حوّل أموالي إلى ذهب . وبدأ أدرس المسألة بطريقة "علمية" . فأخذت أقرأ عن مناجم الذهب في جنوب إفريقيا ، وقرار الاتحاد السوفيتي بخصوص مخزون الذهب عندها (وهو كبير للغاية) وأسعار الذهب . فعرفت ، على سبيل المثال ، أن أسعار الذهب سترتفع إن قام العمال في مناجم جنوب إفريقيا بأنها ستخفض إن باع الاتحاد السوفيتي بعض ما عندها من ذهب . وبدأت أنصرف في ضوء معرفتي "العلمية" هذا . ولكن ما حدث كان هو العكس تماماً ، إذ أضرب العمال في مناجم الذهب ، فانخفض سعره على عكس ما هو متوقع . فعرفت أن ثمن الذهب مسألة تعسفية يقررها كبار التجار وبعض الدول حسب احتياجاتهم ، وليس حسب آليات السوق ، كما كنت أتصور . وهنا طوّرت نظرية اللص الكبير واللس الصغير . وأن اللص الكبير هو الذي يقرر السعر وهو الذي يحدد الأرباح الحقيقية ، أما اللص الصغير (مثلي) فيمكنه أن يقاتل ويبيع هنا وهناك ، ولكنه لن يحقق أبداً كبيرة . ففكرت بهذا الدور ، وعمقت من الدراسة والقراءة ، وكانت النتيجة هي المزيد من الحسائر . ولم ينقذني من هذه الحمى الذهبية إلا يوم الاثنين الأسود ، حين انهارت أسعار الأسهم والسندات في الولايات المتحدة . إذ ارتفع سعر الذهب ، فاتهصل بي أحد أصدقائي في البنك ونصحني أن أبيع ما عندي من الذهب ، وأنسحب بالحد الأدنى من الجروح . ففعلت وانتهت مغامرتي . في عالم تجارة الذهب بعد أدنى من الجروح .

الوعي بالموت والمرض

كان الموت له مهابته ووقاره في دمهونر التي نشأت فيها . فالموت ، في المجتمعات التقليدية ، شأنه شأن الحياة ، أمر مهم وخطير لا يتحمل المساومة أو الهزل . وكان الناس يقبلونه كأمر طبيعي من أمور الحياة . حينما كانت جنازة تمر فإن الجميع كان يتوقف عن البيع والشراء ويتسابق الناس لحمل النعش والقيام بواجب العزاء ، وإن مررنا على القبور كان علينا أن نقول :

"السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون" . وكانت زيارة المقابر جزءاً من حياة الناس اليومية ، يزورون في المناسبات والأعياد من مات من أهلهم وأقاربهم ، تماماً مثلما نرور نحن الأحياء . وكانت الطريقة الحرفية ، ومقرها الأساسي دمنهور ، تهتم بالدفن والمقابر . كان الناس يُعدّون أنفسهم للموت ، تماماً مثل إعداد أنفسهم للحياة ، فالموت لم يكن نهاية وإنما كان بداية حياة جديدة . (ويبدو أن الموت في مجتمعنا قد تم استيعابه أحيراً في نمط النمط الصراعي الذي تم استيعاب الأفراح فيه . ففي صفحة الوفيات توجد تعازي الأثرياء في مربعات كبيرة ، أما تعازي الناس العاديين فتوجد في الأعمدة التقليدية ، كما قيل لي إن الفيدر قد دخل الجنازات أيضاً ، إذ يتم تصويرها بعناية فائقة !) .

كانت جدتي نازلي - رحمها الله - تُعدّ نفسها ، في السنوات الأخيرة من حياتها ، لمنزل العودة ، فبدأت في توزيع ما تبقى لها من أشياء الدنيا . كنت أزورها مرة كل أسبوع بناءً على أوامر والدتي (كان واجباً عليّ تاديبه ، فلم يكن هناك من هم في مثل سني لألعب معهم) . أعطتني مرة عصا جدي الأنوسية الجميلة ومصحفاً صغيراً ، إذ يبدو أنها كانت قد قررت التخلص من متاع الدنيا . ومرة غت في دولابها الخشبي المتهاك قطعتين من القماش ، واحدة بيضاء والأخرى خضراء . واسترعت القطعة الخضراء انتباهي ، فسألته عنها فلم تجب . وحينما عدت إلى المنزل سألت والدتي عن كنه هذا الشيء الجميل الأخضر قالت (وكانت أمي طيبة صارمة مثل أمها) : " هذا هو كفنها ، إذ لا يبقى للإنسان عند موته إلا لوبان : الثوب الذي دثره الله به (أي جلده) ، والثوب الآخر هو كفنه " . (فاجاني صديقي الأستاذ ديفيد كارول David Carroll ، وهو أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة لانكستر ، والذي تجاوز الخامسة والستين بسؤاله : هل بدأت في توزيع أشياءك ، أم أنك تظن أن الوقت لم يحن بعد ؟ " ثم أخبرني أنه قد بدأ في الإعداد لرحلة العودة) .

كانت قصص أمي عن آل المسيري - كما أسلفت - لا تنتهي . قصص نتم على الإعجاب والرهبة . مع هذا ، ظل انتماؤها لآل حليبي انتماءً أحاديًا لا يتزعزع . ولذا كانت آخر رغباتها ألا تدفن إلا في مداخل أهلها . فقطوس الموت بالنسبة للإنسان في المجتمعات التقليدية أمر لا يمكن التهاون فيه أو المسارمة بشأنه . ظلت هذه الأمور عالقّة في ذهني حين درست مسرحية أنتيجون لسوفوكليس ، فانتساء هذه البطلة المأساوية كان لأسرتها ، ولأسرتها وحسب ، وهو انتساء مطلق يجب حتى الانتماء للمدينة / الدولة اليونانية . ولذا أصرت أنتيجون على دفن أخيها ، اللدين حانا المدينة ، برغم تحذير الحاكم كريون لها . وفي نهاية المسرحية ، تواجه أنتيجون عقوبة الموت بكل شجاعة ، فقد أدّت واجبها تجاه أسرته !

ويبدو أنني لم أكن مستوعباً تماماً للمرض أو للموت على الرغم من إحساسي الشديد بالزمن ، فقد ظلا بعيدين عني طيلة حياتي . ولم أحضر سوى جنازة أو اثنتين طيلة حياتي ، كما

لم أذهب لتعزية أحد تقريباً ونادراً ما ذهبت لأعود أحد أصدقائي في مرضه ، فكنيت أكتفي بالمكالمات التليفونية أو بإرسال البرقيات . (كنت أقول ساخراً لزوجتي : إنني حينما يتوفاني الله لن يحضر أحد جنازتي ، وإن كانت ستلقى ميلاً عرمرماً من البرقيات) .

ولابد أن انشغالي الشديد بالموسوعة قد شجع هذا الاتجاه في ، وجعلني قادراً على تسويغه نفسي . فكنيت أخير نفسي بأن أصدقائي سيفهمون ماذا أفعل . ولكن يبدو ، والحق يقال ، أن المسألة كانت أعمق من انشغالي بالموسوعة ، إذ كان هناك داخلي اتجاه نفسي نحو التأمل والاحتفاظ بمسافة بيني وبين الأحداث (ذلك الاتجاه الذي سأتناوله فيما بعد) ، وهذا الاتجاه النفسي هو ما جعلني أسلك هذا السلوك . حينما توفي والدي ، كنت في الولايات المتحدة ، ولم يمكنني أن أدرف عليه الدعم . فسألت أستاذي عن سر هذا ، فأخبرني بأن المسافة الجغرافية بين مصر والولايات المتحدة ضخمة وأن لهذا دخلاً كبيراً . فذهبت إلى نيويورك وحضرت مسرحية برخت القاهدة والاستعلاء كطقس جنازتي لوالدي ، ولكنني لم أبكه إلا بعد زيارتي لقبره في دمنهور . أما والدتي ، فقد ماتت وهي في الخامسة والسبعين ، وكانت علاقتي بها قوية (وهذا ما اكتشفته بعد موتها) ، ففي حياتها كنت أظن أن رقعة الاختلاف بيني وبينها كبيرة . ولكنني أدرك الآن مدى تأثيري بها) . وذهبتا لتشيع جنازتها في دمنهور ، وظللت صامتاً (لما أثار دهشة من حولي) ، ولكنني انفجرت باكياً عند قبرها ثم لزموني الصمت وغصت في التأمل . (يبدو أن مقدرتي على التجريد هذه كانت وراء الملاحظة الغبية التي تقدمت بها لصديق لي في مثل سني ذهبت أعزبه في وفاة والدته ، إذ أخبرته بأنه من الناحية الإحصائية يمكن إثبات أن أمهاتنا قد بلغن السن التي يتوقع فيها الإنسان موتهن . فنظر إليّ بدهشة ، فاعتذرت وقلت : " البقية في حياتك ") .

كنت مرة في بوسطن ورأيت لوحة جميلة رسمها فنان صيني لشجرتين من نبات البامبو (البوص) تعلو كلاً منهما زهرة ملونة جميلة . وقال الفنان في شرحه للوحة : إن هذا النوع من البامبو يظل ينمو لمدة تسعة وثلاثين عاماً ثم يزهر زهرته في العام الأربعين ويموت بعدها . فسمحت بهذه الفكرة ، وغرقت في التأمل فيها ، وقررت أن أسافر إلى الصين لمشاهدة حقول البامبو هذه حينما تزهو . وحينما كنت أدرس عام ١٩٨٧ في السعودية ، قرأت مقالاً في مجلة قائم عن أن نبات البامبو قد أزهر في ذلك العام ، وكنيت أقتررب من الخمسين . وشعرت بأنه لن يقدر لي أن أراه . فكتبت " قصيدة " نظرية عن هذا الموضوع قلت فيها . " وكنت أجلس في شرفتي / أنظر إلى السجوم والرمال ، / أعُدُّ الأيام والدراهم / وأتمسك شعرك الحيالي . / وكنت أحلس / أتأمل في اللحظة العابرة ، / وفي السكون الساكن ، / في النار والنور ، / في لحظة النمو والفاء ، / أعُدُّ الأيام والدراهم . / وها أنت ذي يا زهرتي ، / تورقين وتتشربين ألوانك ، / وتذوين في الفضاء الأبيض الرهيب ، / وأنا / يا زهرتي بعدك / أحتُ الخطى " .

كانت لحظة شعرت فيها بالموت يحيط بي، إذ كانت الزهرة تذكرة لي بالزمن والموت، ولكنه كان شعوراً جمالياً، فقد كانت هناك مسافة بيني وبينه. (اكتشفت فيما بعد أن أحزاني لم يكن لها أساس، فحقول هذا النوع من البامبو لا توجد في مكان واحد فقط، بل توجد في مناطق متفرقة، وبالتالي تزهو في مواعيد مختلفة، وأنتي إن مد الله في عمري ووهبني بضعة دراهم سأحمل عصا الترحال وأذهب لمشاهدتها).

وثمة لحظة أخرى شعرت فيها بالموت (إحساساً جمالياً) وذلك حين كنت أقود سيارتي بالقرب من باب الحديد وكنا تقف في الصفوف الجنائزية التي تسم حركة المرور في القاهرة. وكان يقف إلى جوارى عربية يجرها حصان، كان يقف شامخاً ونبيلاً برغم أن كاهله كان مثقلاً بالسر، وأن سوط السائق كان ينزل عليه من آونة لأخرى يذكّره بمن السيد ومن المسود. وفيجأة تخلص الحصان من السرج ومن العربية ومن السوط، وأخذ يجري بأقصى سرعة بين السيارات، وظل يجري ويجري حتى تحول في ذهني إلى شكل من أشكال الحرية المطلقة. واستمر في عدوه البطولي حتى ارتطم بسور حديدي فخر صريعاً لتوه.

كما كنت أكرر في الموت نظرياً كثيراً، وأؤكد علاقته بالحياة والنمو والتاريخ والزمن. ففي رسالتي للدكتوراه، أفردت فصلاً كاملاً عن الموت وموقف الشعاعين وردزورث وويتمان، وكيف أن الأول يدرك أن نمو الإنسان وتطوره ثم موته هو جوهر إنسانيته، وأن النضج الإنساني يعني قبول هذه الحدود. أما ويتمان شاعر العلم وأمريكا والجسد، فهو كان لا يرى هذه الحدود، وكان يؤمن بدلاً من ذلك بشكل من أشكال تناسخ الأرواح (لا يختلف كثيراً عن إيمان نيتشه بالعود الأبدي) الذي يلغي الموت والحدود. وقد ربطت بين كل هذا وموقف الشعاعين من المعايير الجمالية. كما كنت أتأمل في موقف الأمريكيين من الموت، ورفضهم الشديد له وخوفهم العميق منه، وكنت أجد في هذا علامة على عدم النضج، بل ورفض عميق للحياة الإنسانية.

كانت هذه هي علاقتي بالموت بالمرض، إذ تحولوا إلى موضوع فلسفي مجرد، أضعهما داخل إطار، وأخلق مسافة بيني وبينهما، وأتأمل فيهما وأغرق في التأمل، دون إحساس شخصي وجودي مباشر. ثم حدث في حياتي ما زلنني. بدأت كتابة الموسوعة وأنا في الثلاثينيات من عمري، وكنت أعمل فيها ليل نهار. أبداً أحياناً في السادسة صباحاً ولا أنتهي إلا في الثانية عشرة مساءً. وعلى الرغم من تقدمي في السن، فإن حصتي من النشاط والصحة كانت آخذة في الازدياد بحيث كنت أكثر نشاطاً في الثامنة والخمسين مني في الخامسة والثلاثين. كما أن الله عافاني من أي مرض طوال هذه المدة (بامتناء نوبات المرض الخفيفة المعتادة التي تدوم عدة أيام ولا تعطل عن العمل، وعملية جراحية صغيرة دامت عدة أيام). ولذا حينما كان أحد يحدثني عن التقدم في السن كنت لا أفهم ماذا يقول.

ولكن يوم أن انتهيت من الموسوعة، عرفت نبأ حزيناً للغاية (موت زوج ابنتي). وقد

لاحظت في ذلك اليوم أنني بدأت أفقد القدرة على النطق أحياناً . وكنت أظن أنه عيب في فكي . وظللت متماسكاً مدة شهرين تقريباً ، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكرت أو مارست أي أحسيس ، وقد سقطت مرتين أو ثلاثاً على الأرض . ويبدو أن مرضي كان في معطمة نفسياً . نتيجة للإرهاق الذي أصابني من جراء العمل المتواصل في الموسوعة ومن جراء الخبز الذي وصل إلي وأنا منهك القوى تماماً بعد الانتهاء منها . فكان جهازي العصبي يتصرف بإرادته مستقلاً عني ، إذ قرر أن يستجيب وبحدة لأي شيء ، ولكل شيء حسبما يعن له ، دون تدخل واع مني . لقد وضعت جهازي العصبي داخل ثلاثة مدة ربع قرن ، كنت أتباهي في أثنائها بأنني أنظر إلى وقائع الحاضر نظرة مؤرخ . (وأنتي يمكنني أن أراقب العمال يغيرون رخام منزلي وأكتب في الوقت ذاته عن الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت Emmanuel Kant ، وقد حدث هذا بالفعل) . كما أنني كنت عبر كتابة الموسوعة أحامل نفسي ، خاصة في مسألة الوقت ، بهد من حديد . كنت حينما أجلس في الأوبرا للاستماع للموسيقى أو مشاهدة أي عرض ، لا أكف عن التفكير في الموسوعة ، ولا أكف عن الكتابة في أي ورقة تقابلني . وحينما كان أصدقائي يزورني ، أو كنت أروح عن نفسي ، كنت أتصنع الابتسام والمشاركة في الحديث ، وأنا هناك في عالم الموسوعة ، أشعر بالذنب الشديد لضباع وقتي . وحينما كان حفيدي نديم يأتي من الولايات المتحدة ، حيث كان أبواه يدرسان ، كنت أخفي أوراقني تحت الأريكة وأبتسم في وجهه ، وأتظاهر بأنني ألعب معه إلى أن تنادي عليه جدته ، فأخرج الأوراق بسرعة وأستأنف الكتابة . بل كنت قبل أن أدخل للنوم أضع إشكالية ما في عقلي ، ثم أنام على أن يستمر عقلي في التفكير ، حتى إذا استيقظت في الصباح ألفت بعض ملامح الحل قد تبلورت . بل إنني كنت حينما أغمض عيني أرى بقعة واسعة من النور .

رفض جهازي العصبي كل هذا ، وتمرد عليه وعلي . فكنت حين أود عبور شارع ما على سبيل المثال ، يخاف جهازي العصبي أحياناً من تلقاء نفسه ، برغم معرفتي الواعية بأن العبور لن يسبب لي شيئاً . فكنت أضحك من نوقي ، لكن قديمي كانوا لا تنحرف كان . ومرة قبلني طفل صغير ، فتأثر جهازي العصبي كثيراً وأصبت بدوار شديد كدت أسقط على أثره . ومرة أخرى رأيت خادماً صغيراً يحمل أثقالاً ، فحزنت من أجلها ، وأصبت بما يشبه الشلل ، واستندت إلى السيارات الواقفة في الشارع إلى أن بلغت المنزل ، وهكذا . وقد ذهبت إلى عشرات الأطباء ، وقمت بكثير من الفحوصات ، فلم تكشف الفحوصات عن شيء محدد ، ولم يجد الأطباء شيئاً (كان الدكتور مجد زكريا يعالجني ، وكما هو معتاد في مصر بدأ الناس يقولون لي لابد من السفر للخارج . وقد كان ، فسافرت إلى سويسرا ، حيث عرضت على ثلاثة متخصصين ، ذهبوا جميعهم إلى أن ما قاله د. مجد هو أقصى ما يمكن أن يوصوا به !) . وكنت على وشك أن تجرى لي بعض الفحوصات (رنين مغناطيسي) على مخي والفقرات الرقبية ، فأخبرتهم بأن يفحصوا

بقية العمود الفقري ، فاكشفوا أن الفقرتين الرابعة والخامسة الصدريتين في عمودي الفقري قد انهارتا منذ مدة طويلة (ربما في أثناء كتابتي الموسوعة) وأنها بدأت تشكلان مرة أخرى . وقد أخبرني أحد الأطباء بأنهما تساقطتا بطريقة آمنة لأنهما لو كانتا تساقطتا بطريقة أخرى لأصبنا بالشلل منذ عدة أعوام . واقترح أحد الأطباء أنهما تساقطتا على أنفسهما حينما سقطت من على ظهر حصان ، فأخبرته أنني لم أمتص صهوة جواد قط كي أسقط من فوقه .

وقد حضر لزيارتي صديقي الدكتور عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم ، المهندس المعماري ، فأخبرته بأنني لا يمكنني أن أتحدث واقفاً ، فضحك وقال : إذن فلتحدث وأنت جالس . ونصحتني بالرضا بحسبانه مدخلاً للشفاء . وبالفعل ، قبلت حالتي وبدأت رحلة الشفاء والعودة منذ تلك اللحظة ، فأخذت إلى الراحة التامة لأول مرة في حياتي تقريباً ، وقضيت إجازة شهرين أمام البحر ، امتنعت خلالها قدر طاقتي عن التفكير حتى استرددت جزءاً كبيراً من عافيتي (كنت أعمل مدة أربع ساعات في الصباح وحسب) . وأشير لهذه الفترة من حياتي بالزلزال أو الكابوس لأنها جاءت مفاجئة وكانت بالفعل كالكابوس ، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجردة وإنما كتجربة عشتها بنفسني ، واستوعبتها بشكل وجودي .

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى بعد أن توسّع في الإحساس بالموت ، أراد أن يرسخ في أيضاً الإحساس بالمرض . فهذه المرة كان مرضاً ليس له أي أبعاد نفسية . فبعد أن شُفيت تماماً من الدوار الذي كان يصيبني ، شعرت بألم خفيف في ظهري وأنا في رحلة إلى بيروت ودمشق ، وحينما عدت إلى القاهرة ترددت على مستشفى فلسطين لأموور طبية ، بما في ذلك العلاج الطبيعي لظهري . وتدهورت الأمور فجأة (خلال يومين) أصبحت بعدها عاجزاً تماماً عن الحركة ، وكنت أحمل من مكان لآخر . وقد أخبرني أحد الأطباء بأن داخل كل واحد منا قبلة زمنية تنفجر حين يأتي أوانها ، ويبدو أن قبلي الزمنية المرضية انفجرت في ذلك اليوم . وقد تبين فيما بعد وجود ورم نتيجة مرض يسمى ميلوما Myeloma . وقد خدعني هذا الاسم بعض الوقت بسبب رقبته المفرطة . وقد أخفى الطبيب حقيقة المرض عني ، لأنه كما علمت ، فيما بعد ، مرضاً خطيراً ، فهو شكل من أشكال السرطان الذي يسري في نخاع العظام ، وأنه هو الذي قام بتهشيم الفقرتين الصدريتين اللتين أشرت إليهما من قبل ، وبقي هناك سنوات طويلة ولم يهشم غيرهما (كرم الله ولطفه) . ثم مع نحو الأغشية وصل إلى العصب وبدأ يضغط عليه إلى أن توقف نصفني السفلي تماماً . (يبدو أن أمراض ذات طابع راديكالي : حينما كنت في الولايات المتحدة امتنعت في الصباح لأمارس نشاطاتي المعتادة ، وبعد ساعتين كنت في طريقي لغرفة العمليات لإجراء عملية زائدة ، وكان الأمر عاجلاً حتى إنهم اضطروا لقص ملابسني بالقص) لكل هذا تقرر إجراء عملية جراحية في الفقرة الخامسة لاستئصال الورم (تسمى لامينكتومي Laminectomy) . وقد أجرى العملية د. علاء فخر ، وهو طبيب متواضع واثق

بنفسه دون خيلاء العلم : يتعامل مع المعلوم، ولكنه يدرك أن هناك مجهولاً . (من الطريف أنني في عمليات سابقة حينما كنت أقع تحت تأثير المخدر ، كنت أتحدث بالفصحى ، وحينما يزول أثره أتحدث بالعامية ، وهذا إلى حد كبير عكس المؤلف ، فمن المفروض أن الفصحى جزء من وعينا وأن العامية هي اللغة الأكثر تلقائية وكموناً في سليقتنا) .

ولم تكن هذه هي نهاية المرض ، فقد ظهر أن الخلايا السرطانية قد انتشرت في نخاع العظم فعرضت نفسي على عدد من الأطباء في مصر والولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا وفرنسا ، فتضاربت آراؤهم ، وإن كانت غالبيتهم أوصت بأن أقوم برصد المرض ، لأنه يمكن أن يظل خامداً بعض الوقت . ولكن إذا زادت الخلايا السرطانية عن حد معين ، لابد من إجراء عملية تنظيف للنخاع . وحتى أساعد أطبائي بدأت في دراسة المرض وأعراضه ، وبذلك أصبح المراقب الذي يشترك في عملية المراقبة وحتى كتابة هذه السطور ، لم أصل إلى جواب حاسم . فحالتي كما يقولون تغف بين المرض والصحة ، بين معدلات الأصحاء والمرضى ، وأقول لنفسي ساخراً ، هذه الحالة جذيرة بشخص مثلي يعشق التفرد ويعبد دائماً استخدام النموذج المفتوح !

ورغم فجائية اكتشاف المرض إلا أنني قبلت هذا الخبر بكثير من الهدوء والرضا ، بل إننا حين كنا في شيكاغو أنا وزوجتي لاستشارة الأطباء ، كنا نحدد مواعيد الأطباء بما يتفق مع جدولنا "الساحي" . فقمنا بزيارة المتاحف والحدائق والمسارح ، وقضينا واحداً من أجمل شهور حياتنا الزوجية .

وتعلمت الكثير في مرضي : تعلمت أنا الذي لم أمرض مرة واحدة تقريباً في أثناء كتابة الموسوعة ، بل وكنت أتحدث عن السيطرة على الجسد ، والذي أعددت عشرات المشروعات البحثية فور الانتهاء منها ، تعلمت حدود الجسد الإنساني وحدود القدرة الإنسانية . وبدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذي قبل (وإن كنت اكتشفت كيف أن الإنسان المعوق يعرض لنقص النقص فيه من خلال كفاءات أخرى يطورها) . وتعلمت ما قاله لي أحد الأصدقاء إنه لا يوجد مرض وإنما يوجد مرضى ، أي أنه لا توجد قوانين عامة (أو نماذج مجردة) وإنما يوجد أشخاص يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم للمرض بطريقة مختلفة . كما غمرني أصدقائي وتلاميذي بالحب ، فمادني عشرات منهم ووصل إلي نهر جميل من الأزهار ، كان يفيض من غرفتي على بقية المستشفى . وحينما كنت أسير في شوارع لندن ، كان كل الناس يساعدوني ، وحينما أركب إحدى وسائل المواصلات العامة يتروكون لي مقاعدهم . (في الشدائد يظهر المعدن الإنساني الأصيل ، و"يقدم الإنسان شاراته الأخوية" ، كما يقول الشاعر الشيلي بابلونيرودا . ودكرني هذا عما كان يحدث للناس في الولايات المتحدة بعد العواصف الثلجية . كان الجميع يتكاتفون ، وإن عرست سيارة في الثلج تقف السيارات الأخرى لمساعدتها . وإن غطى الثلج باب منزل يأتي الجيران لإزاحة الثلج ، فيسقط التعاقد تماماً ويظهر جوهر الإنسان الترحامي) .

وكنت قد تعرفت على الأستاذ محمد همام - رحمه الله - الصحفي المتميز الذي كان قد أجرى معي عدة حوارات متميزة لجلة نصف الدنيا ، وكان ذكياً مثقفاً دمث الخلق . وتوطدت أواصر الصداقة بسرعة . وحين سقطت مريضاً كان يعودني وكان دائم السؤال عني ، بل وكان يزورني كلما سنحت له الفرصة (كم كان حزني عليه حين وصلني نبأ " اغتياله " على يد مائق أرعن على كوبري أكتوبر . ألا يمكن أن ننظر لحادث الاغتيال العشوائي هذا باعتباره رمزاً جيداً لما يحدث لمصر ولإمكانياتها وللأجيال الصاعدة ؟) . وهكذا تعلمت ، أنا الذي لم أعد أحداً في مرضه إلا نادراً ، أهمية أن يقف المرء إلى جوار الآخرين في لحظات الشدائد .

وحيث إن التدهور في حالتي الصحية بدأ يوم أن انتهيت من الموسوعة ، فقد انتشرت شائعة طريفة في القاهرة مفادها أن الموساد هي التي وضعت في الميكروبات التي تسببت في هذه الأمراض . وهذا تطبيق كوميدي لنظرية المؤامرة !

الفصل الثاني : بدايات الهوية

حلقاات الانفصال

أخبرني أمي أنني حين كنت طفلاً في الثالثة أو الرابعة وجدوني أسير بمفردي في الشرفة المطلة على حديقة منزلنا ، وقد وضعت إطار نظارة قديماً ، ووضعت ورقة ملفوفة في فني على هيئة سيجارة : أمسكت السيجارة بيد ووضعت الأخرى خلف ظهري ، وأخذت أذرع الشرفة ذهاباً وإياباً بجدية واضحة . وحينما سألوني عما أفعل أخبرتهم أنني قررت أن أصبح "دكتوراً" (لعلني رأيت الدكتور كامل يسي طبيب العائلة في الليلة السابقة ، ورأيت الأسرة كلها تستمع لنصائحه وإرشاداته) . ولعل هذه هي أول مرة قمت فيها بطقوس الانفصال عن بيئتي التجارية تعبيراً عن رغبتي في أن أصبح شيئاً آخر . وطقوس الانفصال في بداياتها دائماً مفتعلة ومسرحية (إذ يؤمن الإنسان بالنموذج قبل أن يتحقق في الواقع) وبخاصة في المجتمعات التقليدية حيث يهيمن النموذج السائد ولا يتقبل أي تعديلات جوهرية . (ولذا كنت أشجع طالباتي من "مدعيات الثقافة" على الاستمرار في الادعاء ، وأزعم أنني أصدقهن تماماً على أمل أن يتحول الادعاء بعد قليل إلى طبيعة ثانية ، ثم أخيراً إلى سليفة) .

ومما ساعد على الانفصال أن الذوق الفني لأعضاء أسرتي كان مختلفاً عن بقية المجتمع لسبب لا أعرفه حتى الآن . فلا أذكر أنني استمعت لأم كلثوم مرة واحدة في منزلنا ، ولذا تعجّدي حتى الآن لا أجيد فن الاستماع لها (والاستماع لأم كلثوم ، كما يخبرني المعجبون بها ، فن له أصوله) . وللسبب نفسه كنت من أوائل من اكتشف فيروز ، وكنت أعاني أشد المعاناة بسبب ذلك ، إذ كانت أغانيها تُذاع في ساعات غريبة ، فكان عليّ إما أن أسهر وإما أن أستيقظ في الصباح الباكر لسماعها : (ولا أدري هل غرامي بصوت ماجدة الرومي وكاظم الساهر هو استمرار لطقوس الانفصال هذه ، أو أنه مجرد طرب لصوتين شجيين ، ولطربين يجيدان اختيار النصوص التي يتعنيان بها ؟) .

وتعمقت رموز الانفصال وشعائره حينما اكتشفت ذات يوم مكتبة البلدية من حلال ابن

أحد الموظفين (هائناء التجار مثلي كانوا لا يذهبون للمكتبات ، وإنما يذهبون في الصيف إلى متاجر آبائهم للعمل فيها ، أو يذهبون للإشراف على جمع القطن في الأراضي الزراعية التي كان كبار التجار يشترونها إما من أجل الوجاهة الاجتماعية وإما من أجل الاستثمار المضمون وتأمين المستقبل) . وأذكر جيداً أن أول ما اطلعت عليه كان كتب الأستاذ كامل كيلاني الملونة للأطفال ، ولم أكن قد شاهدت مثلها من قبل ، فغمرني فرح لم أشعر بمثله من قبل . وقد توسم في أمين المكتبة الأستاذ زويل شيئاً من الخير ، وبدأ يشجعني على القراءة ، وكان يختار لي الكتب بنفسه . فصحني قراءة كتب التاريخ ، بما فيها كتاب عبد الرحمن الراقعي عن تاريخ مصر الحديث ، وبعض الكتب سهلة المثال عن الفلسفة والفتون ، وبعض الروايات . وأذكر أن وقعت عياني مرة على كلمة (غُوصية) في أحد كتب الدكتور عبد الرحمن بدوي ، فأصبحت برعدة من صوت الكلمة نفسه ، وقرأت عنها الكثير ولم أفهم ساعها شيئاً ، ولكنني ظلمت أحاول بقية حياتي . (كنت أحرص وأنا أدرس في الجامعة أن ألقى أول محاضرة في معظم المقررات في المكتبة ، لأخبر الطالبات بطريقة الاستعارة وتقسيم المكتبة ، وأنواع الكتب : موسوعات ومعاجم وكتب إرشادية ومراجع وكتب فن . وكان كثير من الطالبات يقلن لي إن هذه المحاضرة كانت تشكل لحظة فارقة في حياتهن ، تماماً مثل زيارتي لمكتبة دمنهور) .

وقد بدأت في اقتناء الكتب ، وهي عادة غير معروفة في أوساط أبناء التجار (كان والدي - رحمه الله - يقول لي دائماً : "أنه لما عندك من كتب ، ثم اشتر غيرها بعد ذلك") . ولذا لم يكن من الممكن أن أطلب شيئاً للكتب التي أشتريها ، لما كان يتطلب مناورات كثيرة . بل كنت أحياناً أستغنى عن ساندوتش الفسحة الصغيرة الذي كنت أشتريه من كائنين المدرسة ، لأشتري بطنه كتاباً .

ومن خلال علاقتي بابن الموظف الدكتور محمد شخير (الطبيب الذي يعمل الآن في أحد مستشفيات كندا) تفتح أمامي عالماً مختلفاً تماماً ، كان أبوه يعمل ناظراً للمدرسة الزراعية ، لاحظت أنه هو وأسرته أقل ثراءً من الناحية الاقتصادية من أسرتي ، إلا أن أسلوب حياتهم أجمل . كنت أراه يقرأ الكتب ، وحينما أذهب إلى منزلهم ألاحظ أنهم يتحدثون في أشياء كثيرة متنوعة ، وكانت هناك لوحات على الحائط وتحف في دواليب الفضييات (أذكر بالذات زجاجة صغيرة زرقاء عميقة الزرقة كنت أغوص داخلها حينما أنظر فيها ، وما زلت أشعر تجاه الزرقة بالصعف الشديد) . وبدأت أدرك أن ما يحدد حياة الإنسان ليس بالضرورة العصر الاقتصادي .

كان يمكن لكل هذه التجارب التي خضتها كطفل أو صبي يافع أن تتحول إلى مجرد تجارب شخصية ، وأنا أدرك مغزاها الاجتماعي ، وأنا أعمم منها نماذج تحليلية ، وأنا تساعدي على ولوج عالم الفكر ، لو لم ينعم الله عليّ بمدرسين (وأساتذة جامعيين) ساعدوني ودفعوني ودعّموا ثقتي بنفسي وساعدوني على التفكير النقدي (والثقة بالنفس ضرورية كي يمكن للمرء

أن يعمم ويصوغ نماذج تفسيرية) .

وقد قضيت مرحلة الدراسة الثانوية في مدرسة دمنهور الثانوية . وكان هناك عدد كبير من المدرسين الشباب ممن يودون الاستمرار في دراستهم العليا في الإسكندرية ولم يُعِينوا في الجامعة ، ولذلك كانت دمنهور مكاناً مناسباً للغاية لهم ، فهي تبعد ٦٠ كيلومتراً فقط عن الإسكندرية ، وبوسعهم الإقامة أو العمل فيها والذهاب إلى الإسكندرية لإعداد أطروحاتهم الجامعية .

كان من أهم أساتذتي الأستاذ شفيق ، مدرس الجغرافيا ، والأستاذ غزلان ، مدرس الطبيعة . والأستاذ روفائيل مدرس التاريخ الذي توسم فيّ خيراً (دون أي مقدمات من جاببي أو أي شواهد من سجلي الدراسي) وأعلن للطلبة أنني عبقرى وأنهم يجب ألا يقاربوا أنفسهم بي ، وبدأ يطلب مني أن أكتب "أبحاثاً" خارج المقرر . وحين كنت أنتهي منها كان يقرؤها على الطلبة ، الأمر الذي كان يسبب لي حرجاً شديداً وسعادة بالغة في الوقت نفسه . لم أكن أفهم سر حماسه لي ، فحتى ذلك الوقت (سنة ثالثة ثانوي) كان إحساسي أن ذكائي عادي وربما أقل من العادي ، ويشهد بهذا أدائي المدرسي : الرسوب في السنة الثالثة الابتدائية والنجاح من الدور الثاني ، مجموع منخفض للغاية في الشهادة الابتدائية ، وإعادة سنة أولى ثانوي ، والرسوب في السنة الثانية الثانوية والنجاح مرة أخرى من الدور الثاني ، ودرجات منخفضة للغاية ، وكره عميق للرياضيات واللغة الإنجليزية ، ودروس خصوصية في وقت كانت مثل هذه الظاهرة لا تُعرف فيه . وكنت الطالب الوحيد الذي رسب في مادة الرسم في السنة الأولى الثانوية . ومع هذا ، قرر الأساذ روفائيل أن لدي شيئاً ما ، ولذا وجدتنى مضطراً ألا أخيب عنه وأن أقدح زناد فكري كي آتي بأشياء "عبقرية" كما هو متوقع مني ، وتحسن أدائي الدراسي بعد ذلك بسرعة أذهلتني أنا شخصياً .

أما الأستاذ إميل جورج (الدكتور الآن) فكان هو بداية حياتي الفكرية الحقيقية . كان أستاذاً بمعنى الكلمة . درسنا عليه الفلسفة في التوجيهية (عام ١٩٥٤/١٩٥٥) وحُبب إلينا مادته . كان يعرض لنا أعنى المسائل الفلسفية بطريقة بسيطة ، وكان يبتث الشك في نفوسنا ولكنه كان لا يقذف بنا في هوة العدمية ، فكان نعم الأستاذ . وحينما أتقابه هذه الأيام وأتحدث معه ، أجد فيه الحيرة المتجددة والفكر المتقدم وأدرك أهمية المعلم ، فلولاہ لضيّعت من عمري سنوات وسنوات ، أقرأ ما أقرأ دون أن أصل إلى الأعماق ، أراكم المعلومات دون إدراك لأبعادها ومعناها .

إن تجربتي مع التعليم في مصر كانت معيبة للغاية (باستثناء حصص الحساب اللعينة) . وكم كانت سعادتني حين كان يحين وقت تسلم الكتب أول العام ، ومازلت أذكر ما قرأته في كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة ! وإلى جانب الدرس والتحصيل على يد مدرسين يحبون موادهم ويوصلونها بطريقة محبة للطلبة ، كان هناك وقت فراغ غرح فيه ولعب إلى جانب

حصص الألعاب والأشغال والرسم والموسيقى والفلاحة والخط . وأرتجف الآن حين أفكر فيما يحدث لصغارنا في المدارس وشبابنا في الجامعات الذين يُكبّلون بالكتب المعلوماتية الثقيلة (المطبوعة بشكل رديء) ، والذين يقضون كل وقتهم في دراسة مواد ينسونها بعد مرور شهر ، ولا تترك لهم أي مجال للعب أو التنفس ، والذين يقابلون في الفصل مدرسين يحولون الحصّة المدرسية إلى تكة لحشد التلاميذ للدروس الخصوصية . (حينما عاد ابني من الولايات المتحدة مع أخته عام ١٩٧٩ ، كان لا يعرف سوى الإنجليزية . وأردنا أن نلحقه بإحدى مدارس اللغات ، التي اشترطت أن يحتاز امتحان قبول في اللغة الإنجليزية . فلم نمانع بطبيعة الحال . ولكننا فوجئنا بمكالمة تليفونية من أخته تخبرنا فيها أن ياسراً قد رسب في امتحان القبول . فاحتلظ الأمر عليّ قليلاً وسألتها : "هل اللغة الإنجليزية هي الـ English" ؟! ، وحينما جاء الرد بالإيجاب ، عرفت أن احتفال الاستقبال المصري قد بدأ ، وعلمت فيما بعد أن الأستاذ المتحن كان بطمع في إعطاء ابني "دروس تقوية" حتى يمكنه اجتياز الامتحان ، وأذعنا للأمر الواقع ، والقوي هو الله . كان التعليم في مصر مجانياً تمتعاً ، وبالتدريج أصبح غير مجاني بسبب الدروس الخصوصية ، ثم أصبح لا علاقة له بالتعليم ، إذ أصبح التعليم الآن هو اكتساب مقدرة اجتياز الامتحانات) .

كانت المدرسة - كما أسلفت - تجربة ثرية وممتعة بالفعل ، ومع هذا يجب أن أذكر ما حدث في مادة الفلسفة في التوجيهية . فمن فرط حبي الشديد لها وتفوقي فيها ، كنت أشرح لأصدقائي ما غمض من معانيها . وقد حصلوا جميعهم على درجات عالية في الامتحان النهائي ، خاصة فاروق المسيري (رحمه الله) ابن عم والدي . فقد حصل على أعلى درجة لفلسفة على مستوى الجمهورية ٤٠ / ٣٦ عام ١٩٥٥ ، أما أنا فحصلت على ٤٠ / ١٨ ، أي الحد الأدنى المطلوب للنجاح . ويبدو أنه ليس المطلوب من طلبة التوجيهية أن يقولوا رأيهم الخاص في فرانسيس بيكون Francis Bacon ، على سبيل المثال ، مثلما فعلت . (ولعل هذا هو السر وراء رسوبي في مادة الرسم ، إذ قررت أن أكون مبدعاً وأصيلاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) . وقد حدث شيء مماثل لابنتي في شهادة الـ GCE عام ١٩٨٠ . فقد حصلت على امتياز في كل شيء إلا مادة الشعر التي كنت قد درستها معها . فأنيت لها بأستاذ لا يجيد الإنجليزية أو الشعر ولكنه أتقن مهارة تدريب الطلبة على اجتياز الامتحانات ، وطلبت إلى ابنتي أن تنسى كل ما درسته معي أو مع غيري ، وأن تنفذ ما يطلبه منها المدرس بحذافيره ، ففعلت وحصلت على الامتياز . وقد قابلت الملحق الثقافي البريطاني وبيّنت له خطورة هذا الوضع ؛ أن تتحول المدرسة إلى مؤسسة لتسطيح العقول والشخصيات . ويبدو أن هذا هو الاتجاه العام في العالم ، وهو جزء من عملية الترشيد والتنميط التي ازدادت سرعة في الآونة الأخيرة . وقد تعلمت من هذه التجارب أن النجاح والفشل في الحياة العامة ، حسب المعايير السائدة ، ليسا بالضرورة حكماً مصيباً أو نهائياً ، وأن الإنسان قد يفشل بالمعايير السائدة ، ولكنه قد ينجح بمعايير أكثر أصالة وإبداعاً .

الرموز والطقوس وداء التأمل

ثمة عناصر كثيرة في شخصيتي ساعدت على تعميق انفصالي عن محيطي وولدت في الرعية الدائمة في التفكير وتفسير أي شيء يحدث لي وعدم قبوله على علاته ، وهو الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى ظهور مفهوم المسافة (الذي سأشرحه فيما بعد) . وأول هذه العناصر أن بعض الأشياء كانت تكتسب قيمة رمزية في عقلي غير قيمتها الوظيفية . فالمكرونة ، كانت بالنسبة لي ، هي السحر بعينه (كنت أتصور في طفولتي أنها هي طعام أهل الجنة) . ولذا كاد تناولها يعني تجربة شبه روحية لا علاقة لها بإشباع الحاجة البيولوجية للطعام . كنت أكل منها لا بمقدار حاجتي الغذائية المادية ، وإنما بمقدار حاجتي النفسية أو العاطفية أو حتى الروحية إن شئت (ولذا كنت أنظر بشيء من الفهم لحالة الحديو عباس الثاني ، الذي يقال إن مستشاريه الأجانب سيطروا عليه من خلال المكرونة . كما تفهمت حالة الملك فاروق ، الذي يقال إنه أصيب بأزمة قلبية بعد أن تناول كمية هائلة من المكرونة) . أما الأرز ، فكان مرتبطاً في ذهني بالطمأنينة وبالعودة إلى المدينة . ولذا بعد عودتي من رحلة مدرسية كنت أطلب من أمي أن تطبخ لي بعض الأرز . فكانت تقدم لي كل أنواع الطعام ، ولكن هيهات ، فالأرز بعد الرحلة لم يعد طعاماً أملاً به معدتي وإنما مسألة ذات دلالة رمزية : ولم يكن من الممكن أن تفهم عالمي الرمزي ، كما لم يكن من الممكن أن أقبل منطقها الوظيفي . ولم أتخلص قط من هذا الميل نحو الترميز . فقد أصبح السيجار رمز الهدوء والاستقرار والإنجاز ، وكثيراً ما تكتسب أطروحات الكتب التي أكتبها بعداً رمزياً ، يجعل منها جزءاً من معركة الإنسان مع كل ما يتهدده . وعلى سبيل المثال ، تحولت الموسوعة إلى معركة الإنسان ضد الظلم ، وإلى هذا الصراع الأبدي بين الإنسان الإنسان (الذي يحاول تجاوز عالم الحواس الخمسة) والإنسان الطبيعي / المادي ، الذي يقبع فيه قانعاً راضياً . وأتصور أن هذا الميل نحو الترميز ساعدني كثيراً على الانفصال عن بيئتي المباشرة ، إذ خلقت لي الرموز عالمي الخاص . كما أن الرمز ولا شك شكل من أشكال النموذج ، فهو عنصر من العالم المادي ، ولكنه يعمل عليه إلى أن يصبح علامة مكثفة على عناصر كثيرة ، قد يبدو لأول وهلة وكأن لا علاقة بينها .

ويرتبط بهذه النزعة نحو الترميز ما أسميه النزعة الطقوسية ، إذ أسبل لأن يصبح كل حدث مهم في حياتي جزءاً من طقس خاص جداً وأقوم أنا بتطويره . فكنت في طفولتي أبدأ استدكاري بأن أضع زهرة في مزهرية ، أو أحلم بها إن لم يكن هناك زهرة . وحينما تقدمت بي السس طورت مفهوم "الشاي غير البيولوجي" ، وهو أي قدح من الشاي لا أحتاج إليه من الناحية المادية ومع هذا أشربه مع صديقي كي أئنس به . (قد تطور هذا فيما بعد ليصبح مفهوم "الأبوة غير البيولوجية" حين أقوم بتبني بعض الأيتام من ضحايا العصر الحديث) .

حينما استقل والدي إلى رحمة الله ذكرت الطقوس الخاصة التي قمت بها في نيويورك

(مشاهدة مسرحية برخت القاعدة والاستثناء) . وحينما انتقلت والدتي إلى رحمة الله ، وبعد أن شهدت جنازتها ودفنها ، قررت أن أقيم طقوس الجنازة بطريقتي الخاصة جداً والملائمة للموقف ، قررت أن أشرب بعض المشروبات التقليدية التي كانت تتناولها (التليو الحلبة منقوع ورق الجوافة اليسون) . فذهبت إلى أحد العطارين في الحسين ، وأشرت إلى أحد الأجولة ، ولكي أظهر مهارتي قلت للرجل : إن هذا التليو ليس جيداً ، فقال متجهماً : "هذا ليس تليو يا سعادة البية" . فادخلت لساني في فمي ، وقدمت له قائمة المشروبات دون جدل أو حذلقه .

ومن أهم الطقوس في حياتي طقس «ساعة الصفاء» (الذي طورته مع صديقي الفنان رحيمي) ، وهو المقدرة على الانسحاب من الزمان ، بحيث يعيش الإنسان لحظات ليست كالحظات خارج الزمان ، ومن ثم يمكنه أن يستعيد تكامله وإنسانيته (بعد أن يكون قد فقد بعضاً منهما في معترك الحياة وتفاصيلها التي لا تنتهي) ، على أن يظل الإنسان واعياً تماماً بأن هذه لحظات مؤقتة وحسب ، وأنها لا بد أن تنتهي ، ومن ثم فهي ليست نهاية التاريخ والصداف والأحزان والأفراح . (أو كما أقول في إحدى القصص التي كتبها للأطفال : "كل الأشياء الجميلة تنتهي ! كل الأشياء الحزينة تنتهي") . وقد حاولت تطبيق هذا المفهوم في حياتي حتى لا يتحول الاستمرار إلى تكرار وروتين ، فلحظة الصفاء تجلب عنصراً من الإبداع إلى الحياة الاجتماعية اليومية . وقد تعلمت أنا وزوجتي أن نغرس لحظات الصفاء هذه ، مهما كانت الحياة قاسية علينا . ساعتها نطلب من أولادنا أن يتعدوا عنا بعض الوقت ، ويجلس وحدنا نحسي القهوة وأدخن سيجاراً ، فتجدد العلاقة المباشرة بيننا ولا تضع منا في الزحام والتفاصيل . كما تعلم كثير من أصدقائي طقس لحظة الصفاء هذه . إلا أنني كنت أمارسها أيضاً مع بعض الأصدقاء ممن لا يعرفونها ، فنعيش معاً "ساعة صفاء" دون إدراك من جانبهم .

وكان هناك أيضاً ما أسميه الحمام الطقوسي الذي أخذه بعد الانتهاء من كل مؤلف من مؤلفاتي . كما أنني حينما كنت في الولايات المتحدة طوّرت طقس "الحمام الفكري" ، وهو أنه حينما تستعصي علي فكرة ما أذهب لأخذ حماماً ساخناً ، وتحت الدش تبدأ الأفكار تتلاحم والعلاقات بينها تنضج ، وأحل الإشكالية الفكرية التي تواجهني . (أخبرني أحد الأطباء أن هذا الطقس الأخير له أساس مادي ، إذ إنني أشكو من الحماسية من حبوب اللقاح المنتشرة بكثرة في الولايات المتحدة . ولذا حينما آخذ دش ماء ساخن فإن البخار المتصاعد يقوم بتنقية الجيوب الأنفية ، فيسهل التنفس ويتصاعد الأوكسجين إلى مخي فأقوم بالتفكير في حرية أكبر) .

وهذه النزعة الطقوسية هي في واقع الأمر نزعة لأن أضع حدوداً بيني وبين الواقع المادي المباشر ، وهي في هذا تشبه وعيي بالتاريخ والفن . كما أنها تطورت فيما بعد لنصبح ميلاً نحو بلورة المقولات التحليلية وإدراك مستويات الواقع المختلفة . وقد زادت هذه النزعة في الولايات المتحدة ، فهو بلد لا يحترم الطقوس ولا يعرف منها إلا أقل القليل . وطقوس الانتقال من مرحلة

عمرية لأخرى ، إما غير موجودة أساساً وإما مختلفة عما ألفته ، فهي ليست ثرية بما فيه الكفاية ، كما أنها ، في معظم الأحيان ، تأخذ شكلاً استهلاكياً واضحاً (مثل احتفالات بلوغ سن الرشد عند اليهود [البارمزقا] ، أو احتفالات دخول الجامعة أو التخرج منها) . ولعله لحماية ذاتي وإحاطتها مسياج تفصلها عما حولها ، لم يكن بد من أن أقيم الطقوس وأهتم بها .

ولكن أهم العناصر التي ساعدت على انفصالي ما أسميه «داء التأمل» الذي أصبت به في يوم من الأيام في طفولتي أو بدايات الصبا (ربما في سن الثانية عشرة) حينما أدركت مقولة الزمان وأنا تعيش داخله ، وأن حياتنا هي الزمان . وبناءً عليه انطلقت من هذه المقولة ، فكنت توفيراً للوقت ، وبالتالي "إنقاذاً لحياتي" - أطلب من إحدى الخدم أن تحضر لي حذائي (على سبيل المثال) . وقد اكتشفت والدتي هذا الأمر فأعطتني علفقة ساخنة . فيورجوازية الريف لا تعرف الرؤية الهرمية التي تقسم الناس إلى أساد وخدم ، بشكل حاد . وعبثاً حاولت أن أشرح لأمي أن المسألة ليست "عنطرة" أو "منظرة" (ادعاءً) ، وإنما هي إحساس عميق بالزمان ! المهم ، بعد هذا الانقسام الذي حدث داخلي ، وبعد هذا الإدراك العميق لمقولة الزمان ، بدأت أتأمل كل شيء يحدث لي ، وأمارس الحزن والفرح من خلال تأملاتي (وهذا في تصوري يعمق كلاً من الحزن والفرح ، وإن كان يقلل من حدتهما كثيراً) .

ولا أدري هل هذا التأمل المستمر هو المسئول عن أنني كنت في طفولتي دائماً أفقد النقود التي تعطيها لي والدتي لشراء أي شيء . حاولت عبثاً إصلاحني من هذه الناحية ، ولكن هيهات إذ كنت دائماً أسهر عما حولي فأفقد نقودي . (مازلت أفقد نظارتي في منزلي وأكونُ فرحاً للبحث عنها . وقد أصبحت زوجتي متخصصة في العثور عليها من خلال استجوابي وعما فعلت في نصف الساعة السابقة ، ومن خلال إجاباتي تبدأ في تصور الأماكن التي ربما أكون قد مررت بها ، وعادة ما تعثر على النظارة في نهاية الأمر . ومن رأي أمي أنني إنسان "ملهوج" [عَجُول] ، أي في عجلة من أمري ، أهمل التفاصيل وأنساها ، ولذا أفقد نقودي ونظارتي) .

استدعاني مرة أحد كبار المسئولين (في أوائل الثمانينيات) وأخبرني أن مصر على وشك أن تقدم باقتراح لهيئة الأمم لنزع الأسلحة النووية وأراد مني أن أقوم بترجمة الاتفاقية المقترحة نظراً لخطورتها وسريتها (حين عرضها على هيئة الأمم) . فقبلت على الفور . ولكنني مع هذا ذهبت لزيارة ابنتي في الجامعة الأمريكية ونسيت المعاهدة السرية المقترحة على كرسي هناك . ومن فرط ياسي أخذت أضحك ، وأخبرت ابنتائي أن الحل الوحيد لمشكلة الحالة هو الانتحار على طريقة الهماراكيري اليابانية . وحيث إنني كنت لا أنوي أن أفعل ذلك ، لم يكن هناك أمامي من حل سوى الانتظار لليوم التالي . وبالفعل رينا ستر ووجدت الظروف الذي يحوي اقتراح الاتفاقية في مكانه ولم يكن قد مسه إنس ولا جان .

وداء التأمل جعلني قادراً على الانفصال عما حولي وأن أنظر إلى نفسي من الخارج ، الأمر

الذي ولد في مقدرة غير عادية على تغيير الذات بناءً على تصورات عقلية مسبقة . قد يأخذ تكوين التصورات العقلية وقتاً طويلاً ولكن عملية التغيير ذاتها كانت تتم في لحظات (كنت في طفولتي سريع التأثر بما حولي ، وكانت دموعي تتساقط وبسرعة ، فكانوا يسمونني «العيوطة» ، أي سريع البكاء . وكان هذا الأمر يسبب لي حرجاً كبيراً أمام أقراني ، فقررت وأنا في سن العاشرة أن أنقلب على هذا العيب ، وقد نجحت خلال عدة أيام أن أنمع دموعي من التساقط ! فحينما اجتاحتني الشك الديني كنت في طريقي إلى المسجد في رمضان ، وحينما قررت اعتزال كرة السلة كنت في ملعب كرة السلة) .

ومن أهم القصص في حياتي الخاصة التي تلقي ضوءاً على هذا الجانب من شخصيتي ، قصة زواجي من د . هدى . وحينما قابلتها لأول مرة حدث لي ما حدث ، وكان لابد من أن أتأمل فيه وأفهمه "عقلياً" حتى يمكنني التعامل معه . وكنت حينذاك عضواً في الحزب الشيوعي المصري . فطلبت النصح من مسئول الحزبي ، فأخبرني أنها "بورجوازية" ، والزواج من مثلها يسبب مشكلات كثيرة ، أي أن المسئول عني في الحزب طرح تصوراً عقلياً أيديولوجياً (طبقياً) للحزب والزواج . وهذاني وجداني (وربما فطرتي السليمة) إلى أن أذهب لألمي أطلب منها النصح (وهو أمر نادر للغاية ، لعلني لم أفعله من قبل أو بعد) . فسألته مزالاً بسيطاً للغاية وهو : "هل يشعر قلبك بالفرح حينما تراها؟" لم أجب عن السؤال ، ولكنني أحسست ساعستها أن ألقالاً أيديولوجية وتحليلات طبقية مادية سقطت عن وجداني ، وأن أغلال العقل والقلب بدأت تنفك ، وفكرت الارتباط بالذكورة هدى . ولعل هذه كانت من أوائل أحداث حياتي التي بهتز فيها النموذج المادي الوظيفي كإطار للرؤية .

(من الطريف أننا في فترة الخطوبة كان المكان المفضل لنا للقاء هو الدور العلوي في ترام الرمل ؛ كان هادئاً وجميلاً ، وكنا نطل على الإسكندرية كلها منه ، وأحياناً نرى البحر . ونشأت علاقة بيننا وبين محصلي التذاكر ، فإذا ركبنا الترام بمفردي ، كانوا يسألونني : "أين المزمائل؟" . كان الترام مكاناً يصلح للقاء المحبين ، أما الآن فهو حلبة صراع داروينية) .

ولكن داء التأمل لم يتركني لحظة بعد ارتباطي بالذكورة هدى ، إذ بدأت أسأل : إذا كان الحب الرومانتيكي يوجد خارج الزمن ولا يصرف التاريخ أو التدافع ، فكيف يمكن للمرء أن يتزوج (ويدخل الزمان) ؟ كيف يمكن لمن يحب بهذه الطريقة اللازمية أن يشرك من يحب ويذهب إلى عمله (على سبيل المثال) ؟ ولكنني تساءلت أيضاً ، كيف يمكن للإنسان ، في الوقت ذاته . أن يتحمل مثل هذه العواطف المشبوبة بشكل يومي ؟ هل يتحمل جهازه العصبي مثل هذا العبء ؟ ولم يوقف عملية التفكير هذه إلا الزواج نفسه ، إذ اكتشفت ميلاد نوع جديد من الحب القادر على التعايش مع الزمن والتاريخ والمجتمع . فالحب في الزواج يتسم بنوع من الاستمرار . ساعستها بدأت أفهم مفاهيم مثل السكينة والمودة والألفة ، وبدأت أعرف أنها تشكل نوعاً من

العلاقة العميقة داخل الزمان ، ولكنها مختلفة عن الحب الرومانتيكي اللازمي . (لاحظ أن أبناء هذا الجيل نظراً لأنهم يتبنون عن غير وعي أيديولوجي الحب اللازمي [فهذا ما تتحدث عنه كل الأعاصي ، وما تقترضه كل الأفلام ، وما تروج له أجهزة الإعلام] ، فهم غير قادرين على التمايش داخل مؤسسة الزواج ، فكل فرد متوجه بشكل حاد نحو السعادة المردية ، وسحو اللذة ، مما يجعل التمايش مع الآخر داخل إطار واحد مسألة مستحيلة ، أو شبه مستحيلة) .

وقد حضعت حياتي الزوجية هي الأخرى للتأمل . أذكر أنني بعد أن تزوجت حان الوقت لأخذ صورة الرفاف التقليدية ، فجلست أتأمل في هذا "الفعل البورجوازي" . أن أرثدي بدلة الزفاف وترثدي زوجتي فستان العُرس ويذهب معاً إلى الإستوديو ونصنع الابتسامة والسعادة ليلنقط لنا المصور صورة رسمية ! واستمرت حالة التأمل عدة سنوات ، ولم أقف هذه الوقفة الرسمية إلا بعد أن عرفت أن زوجتي قد حملت ، فقررت أن أسلم أمري إلى الله على أن أستمّر في التأمل فيما بعد .

ومن خلال تأملاتي في تجاربي وتجارب الآخرين أصبح عندي رؤية ومفهوم للزواج . فكنت دائماً أخبر نفسي وغيري أن السعادة لا تهبط هكذا من السماء ، وإنما هي مثل العمل الفني ، لا بد أن يكده المرء ويتعب في صياغته وصنعه . والزواج ، مثل العمل الفني أيضاً ، ومثل أي شيء إنساني مركب ، يحتوي على إمكانيات سلبية وإيجابية ، ولا يمكن فصل الواحد عن الآخر . وكثيراً ما كنت أخبر طالباتي بأن الحب الحقيقي هو أن يقبل الواحد الآخر ويعرف أن محاسنه مرتبطة تمام الارتباط بمثالبه . كما طوّرت مفهوم "إعادة الزواج من نفس الزوجة" ، إذ تتغير الظروف والأوضاع وتتغير الشخصية والتوقعات فيعاد النظر في أسس العلاقة ويعاد تشكيلها بما يتفق مع الرؤية الجديدة . وأزعم أنني تزوجت من زوجتي ثلاث مرات ، المرة الأولى التقليدية ، والثانية بعد حصولي على الدكتوراه ، والثالثة بعد حصولها هي على الدكتوراه . ولعل مفهوم "إعادة الزواج من نفس الزوجة" قد يحل بعض المشكلات التي يقابلها الناس في زيجاتهم ، إذ يتصور كل طرف في العلاقة الزوجية أن الآخر نمط محدد لا يتغير ، ومن ثم فالتوقعات ، والأحزان والأفراح ، لا تتغير . وهو تصور غير إنساني ، فتمتد قدر من الذبات ، ولكن ثمة قدراً من التغير أيضاً ، ولا بد أن يأخذ الإنسان كل شيء في الحسبان .

ومن الطريف أنني كنت أتصور أنني تزوجت من د. هدى لأنها مستقلة في كثير من النواحي عن أمي ، ولكنني اكتشفت بعد قدر لا بأس به من التأمل - أنها تشبهها في كثير من النواحي ، فهي الأخرى أم مطلقة وشاملة تتسم بهذا الإيمان الريفي الصارم بالعدل والمساواة ، وهي مثلها تحب النظافة بشكل أراه متطرفاً وتراه هي أقل من المعتاد . لكل هذا أقول مازحاً إنني مصاب ببعض ملامح مركب أوديب .

ولعل الجانب الكوميدي من التأمل يظهر في هذه الواقعة . حينما كنت أدرس في كلية

البنات ، كنت أحاول أن أؤدي أدواراً كثيرة من بينها دور الأب (الأبوة غير البيولوجية) . ومرة قابلت إحدى طالباتي الحوامل وسألتها متى سترزق بالمولود ، فقالت : " بعد شهرين " . وبعد شهرين ، قابلتها في القسم فسألتها هل رزقت ولداً أو بنتاً ، لأقابل بضحكات الطالبات العالية ، فالطالبة الحامل لم تكن قد ولدت بعد . ولكنني قمت بعملية حسابية عقلية ، وجلست في عالمي العقلي الهادئ المنظم أطل منه على عالم الزمان والولادة والموت دون أن أنزل للتفاصيل المباشرة . ولعل هذه القدرة على الانفصال المؤقت عن الواقع هي التي مكنتني من كتابة الموسوعة فيما يزيد على ربع قرن . كان الصراع العربي الإسرائيلي في أثنائها يأخذ أشكالاً كثيرة ، ويتوهم البعض أنه اقترب من لحظته النهائية ، وأتينا على وشك دخول عالم السلام الدائم . ولكنني لم أتوقف عن العمل والتفكير والكتابة .

أما الجانب المظلم للتأمل (فهو يفصلني عن الواقع ويجعلني أعيش في عالمي الفكري [الأسطوري] الخاص) فيظهر في تلك الواقعة : كنت في الولايات المتحدة عام ١٩٧٠ أكتب كتاب أرض الوعد مستغرقاً تماماً فيه . ثم اتصلت بي زوجتي وأخبرتني أن بعض المصورين هاجموا واختطفوا حقيبتها وفروا وأنها متأخر حتى تنتهي الشرطة من التحقيق . وبعد ساعة وصلت إلى المنزل ولم أتحرك من مكاني واستمررت في الكتابة ، فانفجرت باكياً فادركت جرمي ، واعتذرت لها عما فعلت .

وقد لازمني داء التأمل عبر حياتي ، ولم يولد الإيمان داخلي إلا من خلال رحلة عقلية طويلة ، ولذا فأيماني إيمان تأملي عقلي ، لم تدخل عليه عناصر روحية ، فهو إيمان يستند إلى إحساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيبية .

ولكنني برغم غرقي في التأمل حرصت دائماً على ربط العام والخاص معاً ، وقد عمقت دراستي للرومانتيكية من هذا الاتجاه . فالحقيقة - حسب النظرية النقدية الرومانتيكية والشعر الرومانتيكي - ليست شيئاً مجرداً "يضاف" إلى الظواهر ، بل هي شيء كامن فيها لصيق بها ، يشعر به الإنسان من خلال خفقات قلبه ونبضات عروقه ، أي أن الحقيقة قد تكون شيئاً عاماً يصل المرء إلى بعض ملامحه من خلال العقل ، ولكن كي يصل إلى جوهره وكنيته فلن يمكنه ذلك إلا من خلال الخاص ، ومن خلال الوجدان والقلب . ولعل اختياري للنموذج كأداة تحليلية هو تعبير عن هذه الرغبة .

ومازلت حتى الآن أحاول قدر استطاعتي ألا أعيش في العام وحسب ، وأن أحتبر المقولات الأيديولوجية على محك الأشياء المباشرة والوجدانية . وقد توصلت إلى أن الأيديولوجية قد تكون قناعاً يختفي وراءه الإنسان بحيث يتحول إلى عقل محض ، وقد يختفي الإنسان تماماً إلى درجة أنه يموت قلباً لا قالباً (ولذا تجدني لا أؤمن بالزيجات الأيديولوجية ، فهي مثل الزيجات

المنبئية على المصلحة أو الزيجات التي تحف ولا تتخللها أي عاطفة أو لحظات صماء أو دكریات وأساطير مشتركة ، تتحول بعد فترة إلى ما يشبه اللجنة المتعقدة بشكل دائم . ومع هذا أرى أنه من الضروري أن يشترك الزوجان في نقط الانطلاق والمخاليات وسلم الأولويات الأساسية . فالتعارض على هذا المستوى يؤلّد توترات لا يمكن لمؤسسة الزواج تحملها) .

هذا لا يعني أنني تحررت تماماً من قبضة المجرّد والعقلي والطلق ، إذ يظل شيء ما داخلي يميل إليهم ، فهذا مكوّن أساسي في شخصيتي . كما أن موقفي من الزمان لا يزال فيه شيء من الانفصال ، إذ إنني أعامله وكأنه مادة ثمينة مطاطة ، إذ أحاول الحفاظ على كل دقيقة وثانية ، أحمل في جيبى دائماً أوراقاً لأكتب فيها أو كتباً لأقرأها . وإن وجدت نفسي واقفاً أصنع الشيء لنفسى وعلى انتظار الماء حتى يغلي ، ففي هذه الدقائق أؤدي بعض التمرينات الرياضية حتى لا أصعب وقتي (تعلمت هذه العادة من قراءاتي عن الصين الشعبية في أثناء الثورة الثقافية) كما أنني أحاول أن أجزّ داخل الزمان ما لا يمكن إنجازه ، وكثيراً ما أضع لنفسى جداول عمل مستحيلة التحقيق .

جامعة الإسكندرية

تخرجت في مدرسة المنهور الثانوية عام ١٩٥٥ ، وحملت عصا الترحال ، شأني شأن كثير من الدماهرة ، إلى الإسكندرية . ذهبت إلى هناك أحمل إدراكي المركب وثقتي بنفسى ، وفجأة وجدت نفسي في قلب مدينة مصرية إسماً ، غريبة فعلاً . كنت أقطن في الإبراهيمية التي كانت جالية يونانية كبيرة تعيش فيها ، حتى بانع الحضر كان ينادي على بضاعته باللغة اليونانية . وفي بعض المطاعم لم يكن بُد من الحديث باليونانية أو الفرنسية . وإلى جانب هذا كانت هناك نوادٍ للسينما تعرض علينا أحدث الأفلام الأوروبية ، وحفلات موسيقية ، جو كوزموبوليتاني زائع لا جذور له يمكن أن يثري الإنسان ويمكنه أن يبتلع . ذهبت إلى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها ، بكلية الآداب ، حيث كان الجميع يتحدث الإنجليزية ، وكان كثير من الطلبة أجانب من أصل يوناني أو إيطالي (كانت دفعتي الدراسية تضم سيمون تليماك جوانبندس وماري نيكولاوي وغيرهما) . وحتى المصريون الخلق كانوا أجانب ، إذ كانوا لا يعرفون العربية ولا يعرفون إلا أقل القليل عن مصر . حتى جدول المحاضرات كان مكتوباً باللغة الإنجليزية ، ومقسماً إلى مربعات أفقية ورأسية لم أفهم منها شيئاً . أصابني الدوار ، ولم يكن هناك أي شيء في خلفيتي يساعدي على التعامل مع هذا الموقف . وحينما ذهبت إلى الحلاق وأسلمت رأسي لهذا الأجير الذي لا يعرفني ولا يعرف أبي أو أخوالي ، عرفت أنني قد ذهبت إلى الجيسيلشافت ، المدينة التعاقدية

وبمقدرة الديمقراطية غير العادية على البقاء ، قررت التحرك بسرعة لأكتشف الآليات

الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء ، وأهمها إجادة اللغة الإنجليزية ، فحبست نفسي في غرفة لمدة شهر كامل لا أسمع إلا الإذاعات للمتحدثين بالإنجليزية ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية . وعُدت بعد الفصل الدراسي الأول وقد تملكيت ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذتي . وفي الصيف ، أحضرت أطناناً من الكتب العربية التي تتناول تاريخ الغرب والفكر العربي والفن الغربي والفلسفة الغربية ، كما أحضرت ترجمات لعدد من المسرحيات والروايات ، حتى يمكنني تملك ناصية الخطاب الحضاري الغربي ، وحتى تتعمق معرفتي بالتقاليد الأدبية الغربية ، مثلما تملكيت ناصية اللغة (وقد خضت تجربة فريدة في ذلك الصيف ، إذ أحضرت ترجمة إنجليزية لرواية جرمينال لإميل زولا وقررت قراءتها دون توقف حتى أشعر بها ككل عضوي متكامل . وبالفعل ، جلست لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أقرأ وأقرأ دون أن أنام ونجحت التجربة ، ولم أزد حكمة) . وفي الفرقة الثانية تركت الكلية لبضعة شهور ودخلت مدرسة إنجليزية حتى تصبح الإنجليزية لغة حية بالنسبة لي . وبذلك ، أصبحت قادراً على التحرك في تلك الأوساط شبه المصرية والتعامل معها بكفاءة غير عادية برغم عدم احترامي لها . وقد كان أمراً محزناً للغاية أن أرى كل هؤلاء يعيشون في بلدنا ، بعضهم لم يغادروها قط ولكنهم لا يعرفون عنها شيئاً ، بل لا يتحدثون لغتها !

كان قسم اللغة الإنجليزية في الإسكندرية تجربة فريدة . فالتدريس فيه كان يأخذ شكل محاضرات حقيقية ، لا دروس إملاء . (كانت ذاكرتي قوية إلى درجة أنني كنت لا أنسى أي شيء يُذكر في المحاضرات . وحينما كتبت رسالتي للدكتوراه وبعض مؤلفاتي عن الصهيونية بالإنجليزية والعربية ، لم أستخدم الكروت المعتادة ، برغم أنني قرأت عشرات المراجع واقتبست منها . وهذا يعود إلى أنني كنت أذكر الاقتباس والصفحة التي ورد فيها . ومع هذا يجب أن أذكر أنني لا أجيد الاستماع للمحاضرات ، إذ إنني كثيراً ما أسرح نتيجة لفكرة يقولها المحاضر وأبدأ في التأمل فيها) . كان الأساتذة يدخلون ويلقون بمحاضراتهم ويفسحون المجال للطلبة كي يطرحوا أسئلتهم . وكانوا يقبلون الرأي الآخر بصدر رحب ، بل ويرحبون به . كنت في هذه المرحلة من حياتي ماركسياً أقدم تفسيرات طبقية لكثير من النصوص الأدبية ، فكانوا يحاورونني بشأن ما قلته وأحصل في نهاية الأمر على درجة عالية برغم اختلافهم معي . وكانوا يطلبون منا أن نكتب أبحاثاً حقيقية ونقرأ المراجع ونستشهد بها في مقالاتنا . وكانت الأسئلة في الامتحانات تتطلب إجابة يعمل فيها الإنسان عقله وخياله لا أن يجتر ما قاله الأساتذة من قبل . وكانت إجاباتنا تأخذ شكل مقالات طويلة يعرض فيها الطالب وجهة نظره . وكان أساتذتنا في الإسكندرية لا يعرفون التهاون في الدرجات ، فالعملية التعليمية بالنسبة لهم كانت شيئاً جاداً ومهماً . كان عدد الطلبة صغيراً يتناقص تدريجياً كل عام إلى أن يصل إلى عشرة أو أقل في عام التخرج . كانوا يطالبوننا بالكثير ولا يتهاونون ، ولكننا كنا نتعلم المعرفة والسلوك القويم .

ولعله لهذا السبب حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا والتحقت بقسم الدراسات العليا ، وجدت أن مستوى أعلى من مستوى كثير من الطلبة هناك . في تلك اللحظة فهمت معاناتي في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الإسكندرية وما كنا نحمله من أعباء دراسية ثقيلة .

ورئيسة القسم ، الدكتورة نور شريف ، إنسانة على قدر كبير من الثقافة والحكمة . كانت محاضراتها عن تشارلز ديكنز Charles Dickens أو عن شعر أواخر القرن الثامن عشر (بما في ذلك شعر وليام بليك William Blake) أو عن حضارة القرن التاسع عشر متعة حقيقية . إذ كانت محاضرات حوارية بالفعل ، تناقش معنا النصوص الأدبية وتفسرها تفسيراً واسعاً يتضمن العناصر الجمالية والتاريخية والأخلاقية . (ولذا حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة حيث كان هناك استقطاب بين الاتجاه الشكلي أو الشكلاني [بالإنجليزية : فورماليسـت formalist] والاتجاه التاريخي ، لم أسقط في هذا الاستقطاب ولم أختر جانباً دون الآخر ، بل ركزت على النصوص وعمقت من رؤيتي لها من خلال دراسة سياقها الاجتماعي والثقافي ، وهو المنهج الذي مازلت أتبعه في دراساتي) .

كانت الدكتورة نور على قدر كبير من الالتزام برسالتها كمعلمة : أن تسهم في بناء هذا البلد عن طريق تعليم أبنائه ، وقد نجحت بفضل مثابرتها وإصرارها أن تكون جيباً فريداً . كانت لا تخضع أبداً للضغوط الخارجية لتحافظ على رسالتها . أذكر مرة أن أحد الطلبة "الواصلين" ، كان عضواً في الاتحاد الاشتراكي ورئيساً لاتحاد الطلبة ... إلخ . وكان هذا الطالب ، شأنه شأن كثير من "الواصلين" ، خائفاً ، فرسب في اللغة الإنجليزية واضطر لإعادة السنة النهائية ثلاث مرات لهذا السبب . ويبدو أنه نجح ، في هذه الآونة ، أن يجعل أحد الموظفين في رئاسة الجمهورية يكتب رسالة يسأل فيها عن سبب الرسوب المتكرر لهذا الواصل الوصولي . فكان رد د. نور أن نجاح ورسوب مثل هذا الطالب ليس شأناً من شئون رئاسة الجمهورية . كان هذا عام ١٩٦٢ ، حينما كان الجميع يخاف الاضطرابات . واضطر صاحبنا إلى أن يستذكر دروسه ويدخل الامتحان وينجح فيه شأنه شأن كل عباد الله . ومرة أراد العميد أن يعرف نتيجة إحدى الطالبات قبل إعلانها ، فاستشاط غضباً وأعطت النتيجة للفراش ليعلمها ، وأخبرت العميد في الوقت نفسه أن فلانة التي يسأل عنها قد رسبت في ثلاث مواد .

لاحظت ابنتي نور (التي سميتها باسم أستاذتي) أن أصدقائي من الإسكندرية لهم طابع خاص ، فأخبرتها أن هذه هي بصمات د. نور وقسمها . وسألتني مرة د. نور شريف عن أهم مصادري الفكرية ، فكان ردي ضاحكاً هو : نور شريف . ثم أضفت بشكل جاد : إنني على مستوى من المستويات أعني ما أقول . ولا يمكن أن أتخيل نفسي دون هذه المرحلة من حياتي التي تعلمنا فيها كيف نفكر وننقد ونكتب .

كان الدكتور محمود المنزلاوي يلقي علينا محاضراته في تاريخ الحضارة في العالم ،

فبعد ثنا سلاقة وتلقائية عن كل شيء ، ابتداءً من ملحمة هوميرو وانتهاءً بدكتور زيفاجو لباسترناك . وكان الدكتور محمد مصطفى بدوي يقرأ معنا النصوص ويرفض أي تعميمات لا تستند إلى استشهد من النص . كان يضايقتني أحياناً كثيرة ، ولكنني تعلمت (أنا الذي أجد التحليل في عالم الأيديولوجيا) أن أبحث دائماً عن أرض راسخة ، مهما حلفت . وكان كل من الدكتور المنزلاوي وبدوي يستضيفني في منزله ويعطيني الكتب ويعلمني فن القراءة والحياة .

ومن أهم أساتذتي في الإسكندرية الشاعر الإنجليزي الحديث البروفيسور جون هيث ستبس John Heath Stubbs (الذي درست على يديه الشعر والرواية والتراث الكلاسيكي [اليوناني والروماني] وكتابة المقال) . أذكر أنه في امتحان أدب القرن السابع عشر كان هناك سؤال عن مصادر شخصية الشيطان والموت والخطيئة في ملحمة الفردوس المفقود Paradise Lost لجون ميلتون John Milton . أمسكت بأطراف شجاعتي وقارنت بين لندن التي عاش فيها جون ميلتون ودمهور التي عثت فيها (والتي رأيت فيها مواكب الحرفيين حتى الخمسينيات والتي تعود ولا شك إلى عصور سابقة) . وقد عجمت من تجربتي ، أو على الأقل استخلصت منها نموذجاً تفسيرياً لدراسة ميلتون ، فبينت أنه حينما كتب الشاعر الإنجليزي ملحمة كان عصر النهضة قد بدأ بالفعل منذ قرن ونصف القرن ، بل وكان قد بدأ يخبو وبدأت تظهر تباعير عصر العقل والاستنارة . ولكنني أضرت إلى أن الرأي السائد (آنذاك) الخاص بأن العصور الوسطى المظلمة اختفت في اليوم التالي تقريباً لعصر النهضة هو اختزال مخل للأمور ، لأن الأشكال الحضارية لا تختفي مع التحولات الاقتصادية والسياسية والفكرية ، بل إنها تستمر قروناً طويلة . ولذا ، مع أن ميلتون كان يعيش حقاً في أواخر عصر النهضة إلا أنه يحتمل أن يكون قد احتك بشكل يومي بكثير من الأشكال الحضارية من العصر الوسيط (تلك الأشكال التي استمرت لعدة قرون بعد عصر النهضة) . ومن بين هذه الأشكال المسرحيات الدينية مثل مسرحيات الأخلاق (بالإنجليزية : Morality Plays) وهي مسرحيات كانت مليئة بشخصيات مسطحة تشبهية (allegorical) مثل الشيطان والموت والخطيئة والتي كانت لا تزال تمثل في أرجاء لندن . ولا بد أنه تأثر بها واستوعبها ورسم بعض شخصياته بوحى منها .

فوجدت بأن البروفيسور ستبس قد أعطانني النهاية العظمى ، بل وأخبرني فيما بعد أنه لو كان يرسمه أن يعطيني أكثر من هذا بالفعل ، إذ إن ما قلته كان جديداً تماماً . وأضاف أن العالم الإنجليزي تيليارد Tillyard كان قد كتب لتوه دراسة تطرح مثل هذه الرؤية صدرت منذ شهر وأنه متأكد من أنني لم أقرأها ، وأنني توصلت إلى ما توصلت إليه من خلال تجربتي . وازدادت جرأتي بعد تلك الواقعة ، وتعلمت كيف أستند إلى تجربتي الخاصة ولا أنكرها وإلى تراثي ولا أنكر له ، بل أوظفهما في عملية الإدراك والتفسير ، كما ازدادت إيماناً بمقدرة العقل والخيال على التوليد . وبعد عدة سنوات ، كتبت تقريراً لكلية الآداب بجامعة الملك سعود بينت فيه أن من أكبر

أفان البحث العلمي في العالم العربي ، انفصاله عن المعجم الحضاري الإسلامي وافترض أن ثمة معرفة عالمية علينا أن نحصلها متناسين تراثنا وهويتنا . وأشارت إلى أنه لن يمكننا أن نبدع طالما استمننا لهذه المقولة ، فهي تعني المحاولة الدائمة "للحاق بالغرب" (فالعالمي في واقع الأمر هو الغربي) . وضربت مثلاً بما يدور في أقسام اللغات الأوربية في العالم العربي ، وكيف أننا ندرسها من وجهة نظر أصحابها وحسب . هذا يعني سلباً كاملاً للذات تسبب في أن ذكاءنا يتناقص ، إذ إننا نحاول عن وعي أو غير وعي أن نستبعد هويتنا الحضارية ومعرفتنا العربية أو الإسلامية وأي أدوات تحليلية مرتبطة بهذه الهوية وبذلك المعرفة . وهذا الاستبعاد هو في جوهره عملية قمع هائلة للذات ، تستهلك جزءاً كبيراً من طاقة الإنسان لإنجازها ، وإن نجح في إنجازها فإنه يستهلك ما تبقى عنده من طاقة (واعتقد أن هذا هو ما يحدث للطلبة العرب في حضرة الأساتذة الأجانب . فالرقعة الحضارية المشتركة بينهم لا وجود لها البتة ، ومن ثم ينبغي على الطالب العربي أن يصفى ذاته الحضارية تماماً ، أي عليه أن يقمع ذاكرته الحضارية ، حتى يمكنه أن يبدأ في التحصيل والفهم بدلاً من أن تشكل أرضية يقف عليها ويفهم من خلالها الآخر ، بحيث يمكنه أن يستخدم تراثه الذي يطرحه في إدراك ما لا يعرف من خلال مقارنة نقاط الاختلاف والالتقاء) .

وحالاً لهذه المشكلة ، اقترحت تشجيع الباحثين على الانطلاق من منظور عربي إسلامي ومنظور عالمي مقارن يتجاوز المركزية الغربية التي سيطرت علينا جميعاً . فالانطلاق من منظور إسلامي عربي يمكن أن يساعد الباحث على اختيار موضوعات جديدة يترجم إبداعه من خلالها ، كما أنه بهذه الطريقة يسترجع المنظور المقارن الذي يحول الغرب من تشكيل حضاري مطلق إلى تشكيل ضمن تشكيلات حضارية أخرى ، ولذا يمكننا أن ننظر إليه براحة دون قلق ، إذ إنه إذا كان تشكيلاً ضمن تشكيلات أخرى فليس على المرء قبوله (كما يفعل دعاة الغرب) أو رفضه (كما يفعل بعض المتشددين) وإنما يمكننا أن ندرسه كمتتالية حضارية تتسم بما تتسم به من سلبات وإيجابيات .

وفي الإسكندرية ، قابلت شخصية أسطورية : محمد سعيد البسيوني ، هذا العبقرى المغمور الذي تعلم على محمد العشرات من مثقفي الإسكندرية . هو في مثل سني تقريباً ، لا يتحدث إلا قليلاً ، يكتب الشعر والرواية والمقالة ~~لقد أتت من أعماله متميز بدرجة تفوق~~ الوصف (ولكنه يطرحها جانباً ثم يمزقها أو يهملها تماماً) . ما الذي أصبه . ماذا إلخ ؟ هذا ما لم أتمكن من معرفته حتى الآن برغم مزايمتي له وتلميذي على يديه منذ عام ١٩٥٤ ، أي منذ يقرب من نصف قرن تقريباً . هو أسطورة حقيقية ؛ سحابة سخية تمطر على من حولها ولا يعرف كنهها . حينما كنا فتية مجلس على شاطئ مبور تتج كان يحدثنا في كل شيء : عن الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ، والأدب السوفيتي في القرن العشرين ، عن معنى نتائج

انتخابات البلدية في إيطاليا ، عن أعمال جوته ، ومؤلفات عبدالرحمن بدوي وتطور فكر
ماركس ، ويعرفنا على أشعار عبد الوهاب البياتي وعبد الصبور وأراجون وبابلونيرودا وناظم
حكمت (الذي عشقت شعره وقرأت معظم ما تُرجم منها إلى العربية والإنجليزية ، وتأثرت به)
. وكان سعيد سخيًّا للغاية يزودنا دائماً بالكتب ، فقد كانت مكتبته الخاصة ثرية إلى أقصى حد
. كما تعلمنا منه حب الموسيقى الكلاسيك ، وكنا نقترح منه الإسطوانات التي يستمع إليها
والكتب التي تساعدنا على التدقيق . وحينما كنا نكتب شيئاً ، كنا نعرضه عليه ، فكان ناقدًا
ناقد الرؤية ، ودوداً لا ينافق . لم ينشر شيئاً حتى الآن ، وإن كنت أعرف تمام المعرفة أن بعض
كبار الكُتّاب قد أخذ بعض كتاباته وانتحلها .

وأذكر أنه بعد صفقة الأسلحة التشيكية ، ذكر لنا أن الاتحاد السوفيتي سيُفضل التعاون مع
البورجوازيات الوطنية بدلاً من التعاون مع الأحزاب الشيوعية ، أي أنه سترجع عن الخط الأممي
الشيوعي ، ومن ثم توقع أن يتم هجوم حاد على ستالين . وقبل أن يلقي خروشوف بقلبه في
المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي التي رجّت العالم رجاً ، كنا شلة من الفتية نجلس على شاطئ
سبورتنج ننظر انفجارها . وحينما حدث الانفجار بالفعل ، مادت الأرض تحت أقدام بعض كبار
المفكرين في أنحاء العالم . مازلت حتى الآن ألقاه مرة أو مرتين كل عام ، لأتحدث معه في كل
القضايا الفكرية والسياسية وأنهل من معينه . وكان هو الذي نصحني بأن أدرس الأدب
الإنجليزي بدلاً من الفلسفة ، لأن اللغة الإنجليزية - كما قال لي - ستكون نافذة أحل منها لا على
الفلسفة وحسب وإنما على العالم ككل .

وقد قامت صداقة عميقة بين مجموعة من الأصدقاء (أ . جمال إمام - أ . فتحي أبو ربيعة
- أ . علي زيد [رحمه الله] - أ . محمد ريان [رحمه الله] - د . هدى حجازي) . مازلنا نلتقي
نتذكر أيامنا في الإسكندرية قبل أن يُغذف بنا في طرقات المدن اللعينة - نتذكر عالمنا الجميل
وأيام الأُنس والصراعات النبيلة . نتحدث عن العالم وكان مصيره يتوقف على نتيجة المناقشة ،
ونضحك وكأننا نسمش أبداً . ود . هدى حجازي هي زوجتي التي قرأت كل ما كتبت وحاورتني
كما لم يحاورني أحد (وحينما كبر ياسر ونور اشتركا في الحوار الذي كان ينسم أحياناً بسخونة
غير عادية ، وهو ما جعل منزلنا من المنازل القليلة التي يتكهرب فيها الجو بسبب نقاش فلسفي)
فدُمّت لي زوجتي الكثير في حياتنا الخاصة لما كان له أعمق الأثر في حياتي الفكرية العامة .
ولكن هذه - كما قلت - سيرة غير ذاتية ، ود . هدى إنسانة خاصة جداً ترفض أن تكون جزءاً
من الحياة العامة ، أو على الأقل حياتي العامة ، فهي لها مواقفها الفكرية والسياسية المستقلة .

تجربتي المادية والماركسية

حينما كنت في السنة النهائية في مدرسة دمنهور الثانوية ، وأنا بعد في السادسة عشرة ، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجمني وبإحراج شديد . وكان من أهمها أسئلة خاصة بأصل الشر في العالم والحكمة من وجوده ، وعن أصل الكون . وكان هذا العام هو أول عام أدرس فيه مادة الفلسفة . وقد جلبت هذه المادة لي تماماً ، فكنت أقضي الساعات الطوال في قراءة الكتاب المقرر . وقد ساعدني هذا على تنويع أسلتي وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة . وأذكر أنني قرأت قصيدة قصيرة اعتقد أنها لكامل الشناوي (في مجلة الرسالة الجديدة التي كانت قد بدأت في الصدور آنذاك) . تقول القصيدة : "يا رب فيم خلقتنا وتركنا ، / نهب الطلام فلا ضياء ولا سنا . / ونذب فوق الأرض لا ندرى بها ، / ونذب فوق الأرض لا تدري بنا . / أما من أنا ، أنا من أكون : وسيلة ، / أم غاية ، أنا لست أعرف من أنا . / وهم يساور ملحداً فيروع ، / ويخافه من كان مثلي مؤمناً" .

والقصيدة ليست من عيون الشعر العربي ، ومع هذا تركت في أثرًا عميقاً . ولكن من أكثر الأشياء تأثيراً أنها جعلت الإيمان الديني مسألة جبن ، وإحجام عن التساؤل ، وهذا ما لا يقبله من كان في سني . ولم يكن أحد في أعضاء أسرتي قادراً على أن يأتي بإجابة شافية مركبة لهذه التساؤلات ، لمعظمهم كان يصلي ويصوم بحكم العادة والتقاليد ، ومن هنا فالتساؤل الفلسفي يقع خارج نطاق تصوراتهم وأفكارهم . أما أقراني فلم يكونوا في مستوي الفكري ، ولذا عجزوا هم أيضاً عن محاورتي . وفي نهاية الأمر ذهبت إلى مدرس اللغة العربية (والدين) أسأله ، فكان رده بسيطاً ساذجاً ، إذ استخدم مفهوم السببية البسيطة وهو أن لكل مسبب سبباً ، وهذا العالم مخلوق لابد أن يكون له خالق ، ولذا فالأمور واضحة تماماً . وهنا سأله ومن خالق الشر ، كان رده في غاية البساطة أيضاً ، إذ قال إن العقل يمجس عن إدراك مثل هذا ، وتركني وحيداً مع إجاباته البسيطة السهلة التي لم تشف لي غليلاً ، بل قوّضت من إيماني . وبدأ التأمل ، وانتهى بي الأمر إلى أن أعلنت أنني لن أصلي ولن أصوم إلى أن أجد إجابة على أسئلتي .

تلقي أعضاء أسرتي الخبر بشيء من عدم التصديق في البداية ، ولما كانوا قد تعودوا مني مثل هذه التحولات (حيث إنني قبل عامين اثنين كنت قد انضمت لجمعية الإخوان المسلمين ، ركنت أقضي وقتاً طويلاً من الليل في قراءة القرآن مع أحد الخدم) ، شتمني والدي ولكنه تركني وشأني .

لم يتوقع الأمر عند هذا الحد ، إذ انتقلت بعد مرور الصيف إلى الإسكندرية . وقابلت سعيد البسيوني ، وكان هو الآخر قد هزه الشك . فبدأنا نتحاور ، وعرفت مكان المكتبة الحجازية ، وكان صاحبها رجلاً مثقفاً يساعدنا على اختيار الكتب (على عكس يائعي الكتب هذه الأيام الذين يتسمرون بالجهل المطبق ، فاهتمامهم بالكتاب ينتهي سعره عند لونه ١)

اتسعت دائرة الحوار بالنسبة لي ، ومما سهل الأمر عليّ وجودي في الإسكندرية (وفي كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها) مع مجموعة من الأجانب (اليونانيين والإيطاليين) ممن لا يحجمون عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة ، أتاحت أمامي الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن أصبح الشك مكوناً أساسياً في رؤيتي .

وقد دارت مناقشة حامية الوطيس بين أعضاء الندوة الشهرية التي أعقدها في منزلي ويحضرها من يشاء من الشباب (وقد نشأت بيني وبين كثير منهم صداقة فكرية وشخصية عميقة ، أذكر منهم : أحمد عبد المجيد - مهدي الدجاني وزوجته فاطمة الزهراء وصديقتها نانسي عمارة - د. محمد طه - أحمد عبد الله - وائل أبو سعادات - محمد إبراهيم مبروك - داليا الأسود - محمد وعلاء عبد العزيز - لباء سلام) . وحينما قرأت عليهم مقتطفات من هذه الرحلة الفكرية ، طرح بعضهم تساؤلات حول طبيعة ما حدث لي بالصبط ، هل كان مجرد شك وبالتالي فهو بداية بحث ، أم كان إحداءاً صريحاً ؟ وقد رأى بعضهم أنني أصبحت "ملحداً" بالفعل ، ولكن البعض الآخر أشار إلى أن إيماني ببعض المطلقات الأخلاقية والإنسانية يتنافى تماماً مع الرؤية المادية الخالصة (التي تشكل جوهر الإلحاد) ، وأن هذه المطلقات هي تعبير عن وجود شيء ما وراء العالم المادي ، وأن كل ما حدث هو أن الشك قوّض الإيمان البسيط وبدأت رحلة البحث وظلت مستمرة إلى أن تبلورت لنفسي رؤية دينية جديدة لا تنسم بالبساطة والسذاجة . وأرى أن كلمة "ملحد" في حالتي تعني في واقع الأمر "مادياً من الناحية الفلسفية وحسب" ، أما من الناحية الفعلية فقد كنت ملتزماً بالقيم المطلقة وبالحب كمقولة مجاوزة لعالم المادة (التجاوز بالمعنى العام هو "تخطي شيء ما وصولاً إلى ما هو أسمي منه" ، والتجاوز هنا هو تخطي الرؤية المادية وصولاً إلى رؤية أكثر عمقاً وتركيباً تستند إلى ما وراء المادة) . هذا يعني أنني كنت أدور في إطار نموذجين : واحد نظري مجرد مادي (معاد في نفس الوقت لفكرة الإنسان والأخلاق والقيم ولاي شكل من أشكال الثبات والإطلاق) ، والآخر متعبن أخلاقي (يستند إلى إيمان بمنظومة أخلاقية تضرب بجذورها في عالم ما وراء المادة) . وأعتقد أن هذه الازدواجية هي التي تصمت بعد ذلك وتبلورت إلى أن كان عليّ أن أحسم الأمر وأصفي الازدواجية وأدخل عالم الإيمان والتركيب (والثنائيات المتفاعلة) .

هذا الشك خلق في نفسي فراغاً ، فلم يعد من الممكن قبول الأطر القديمة . وكان لابد من أن يملأ هذا الفراغ العقدي (أو الأيديولوجي) . وبما أنني كنت ثائراً ضد الظلم الاجتماعي ، كان من الحتمي تقريباً أن أتوجه للماركسية . وقد أعطاني صديقي معيد البسيوني بعض الكتب عن هذا الموضوع ، كما أن أصدقائي الأجانب كان عندهم كثير من الأدبيات الماركسية . ثم فتحت المكتبات السوفيتية التي كانت تباع الكتب السوفيتية (والماركسية) بأسعار رخيصة ، فاشتريتنا الكثير منها ، وبدأت أقرأ فيها بنهم . وكان اهتمامي بالماركسية فكرياً في بداية الأمر ،

إلى أن التقى بي أحد أعضاء حديثي وجئتني عضواً في الحزب عام ١٩٥٤ . وفوجئت بتصعدي في الحزب نظراً لمعرفتي باللغة الإنجليزية وللصادر الأولية للفكر الماركسي . وقد قمت بترجمة كتاب ماوتس تونغ من العناصير عام ١٩٥٧ (لعلها كانت أولى الترجمات إلى العربية) . ومن الطريف أنني بموضوعية كاملة كنت أبين لهم في الحزب أنه يجب ألا أصعد بسبب خلفيتي البورجوازية ولا بد من اختباري والتأكد من "نقائي الأيديولوجي" . ومع هذا ، استمروا في تصعدي ووجدتني مستولاً عن خلية ، وعضواً في لجنة منطقة الرمل (على ما أذكر) . وكنا قد سمعنا أن الأستاذ محمود أمين العالم هو السكرتير العام للحزب الشيوعي الموحد (الذي بقي موحداً عدة أشهر) وانفرط عقده مرة أخرى لعدة أحزاب صغيرة متصارعة متناحرة كما هو الحال مع الحركة الشيوعية عبر تاريخها) .

ولعل أهم إنجازاتنا الحركية هو سيطرة الماركسيين على الجمعية الإنجليزية ، وهي جمعية الطلبة في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، وكان عدد أعضائها ثمانية ، يمثل اثنان كل سنة دراسية . وكانت الانتخابات حرة ونزيهة . ونظراً لشعبتنا بين الطلبة ، إذ كنا نقوم بتنظيم النشاطات المختلفة (رحلات - مسرحية - قراءة مسرحية ، أي أن نقوم بتمثيل مسرحية على أن يحمل كل ممثل الكتاب ويقرأ منه - مجلة حائط - مجلة سنوية مطبوعة) ، كان مرشحنا يكسب الانتخابات . ولكننا قررنا ألا نحتكر "السلطة" ولذا كنا نسمح بانتخاب عدد من الطلبة غير الماركسيين للجمعية ، على ألا يزيد عددهم عن ثلاثة ، حتى يكون القرار النهائي في يدينا .

أما نشاطي الماركسي خارج الجامعة فكان أكثر خطورة ، إذ كنت مستولاً حزبياً عن مصنع شريط لتجفيف البصل في الحضرة بالإسكندرية . وقد نجحت في تنظيم إضراب للعمال . ولكن والحق يقال كنت أشعر بأن وجودي بينهم كان نشازاً ، كما أن درجات الفقر بين بعضهم كانت لا تُصدق ، وكانت تتزايد بسبب الإضراب . فكان كل هذا يصدمني ويؤد في إحساساً عميقاً بالذنب بسبب مستواي المعيشي .

وأنا أحب أن أعيش فكري بقدر الإمكان . أذكر أنني كنت أسير مع خطيبتي على الكورنيش ، فرأت شحاذاً وأرادت أن تعطيه صدقة ، فنهرتها "حتى يشعر هذا الشحاذ بالظلم فيشور" ، وهي الاستجابة الماركسية التقليدية للتعاطف الفردي مع الفقراء (وقد تغيرت الأمور بعد ذلك ، وبدأت أفضل الثورة العامة عن البؤس الشخصي) .

وأحب أن أذكر هنا واقعة طريفة ، إذ قدمني الحزب لطبيب أسنان (من مدينة الحمام بجوار برج العرب) يدعى د . حسن حسونة . وقالوا لي إنه من مؤسسي الحركة الشيوعية في مصر ، وإنه قد يكون من المفيد تسجيل شهادته . وقد قص علي قصته ، فقال إنه كان يعمل في مقتل حياته مهرجاناً في سيرك مصري كان يزور موسكو عند اندلاع الثورة البلشفية ، وجنده البلاشفة

والتحق بإحدى مدارس الكادر الحزبية وعاد لتأسيس الحزب الشيوعي المصري. وقد دوت شهادته ، ولكن حين قبض عليّ تمّ تحريز هذه الأوراق ، ولعلها في أحد الأرشيف . ولعل الدفتر المخزّن لا يحوي شيئاً مهماً ، أو لعله يحوي بعض المعلومات المهمة عن بدايات الحركة الشيوعية المصرية .

وقد قبض عليّ في الحاضرة في أثناء توزيع المنشورات التي أصدرها الحزب يوم اندلاع ثورة العراق ترحيباً بها . وقد نجح والذي من خلال نفوذه أن يخرجني من السجن بعد فترة قصيرة للغاية ، وكتبت إلى الحزب وأخبرتهم أن التحركات شبه العلنية لابد أن تتوقف تماماً ، إذ توقعت حدوث صدام مع حكومة الرئيس عبد الناصر ، وأنه لابد من التزام السرية .

وأذكر أنني في صيف عام ١٩٥٨ كنت أجلس مع أعضاء خليتي في حديقة الشلالات نتدارس معاً أيديولوجية حزب البعث (بحسبانه حزب البورجوازية الصغيرة العربية [لم تكن المقولات التحليلية الأخرى ، الحضارية والدينية ، قد دخلت معجمي بعد] ١) ، حينما حضر أحد الرفاق الذي كان من المفروض أنه لا يعرف عن هذا الاجتماع شيئاً . وحينما سأله عن سر حضوره ، قال إنه عرف من فلان (مستولي في الحزب) أمر الاجتماع وأراد أن يستزيد علماً . وكان هذا خرقاً لأبسط قواعد العمل السياسي السري (تبين فيما بعد أن هذا الرفيق كان يعمل لحساب السلطات ١) .

وكنّت قد بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصي للرفاق كان متناقضاً مع أي نوع من أنواع المثاليات الدينية أو الإنسانية ، وأن كمية الترجسية عند بعضهم كانت ضخمة للغاية . وأنا لا أمانع في وجود قدر من الترجسية عند البشر ، فهذا أمر أساسي بالنسبة لهم ، وخصوصاً بالنسبة للثائر ، فالترجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه . ولكن الترجسية التي لاحظتها في كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة ، والحريات الخلقية التي كانوا يسمعون لأنفسهم بها كانت كاملة ، أي أنهم في واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية ، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأي منظومة أخلاقية ، خاصة أن بعضهم كانت ماركسيته تنبع من حقد طبقي أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض . بل كثيراً ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسياً بحكم وضعه الطبقي وأنه لو منحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الطالعة لفعل دون تردد وطلق ماركسيته طلاقاً باتناً . لكل هذا قدّمت استقالتي ، وطلبت أن أعدّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه .

بعد خروجي من الحزب اعتقلت إحدى طالباتي بتهمة الشيوعية ، وكانت متزوجة من أحد "الرفاق" . وبدأ زوجها يغازل أعز صديقاتها (وكانت هي الأخرى إحدى طالباتي) . فنهزته وطلبت منه أن ينتظر على الأقل حين الإفراج عن زوجته ، رفيقته في النصال . فلم يستمع إلى النصيحة . ولكن حين خرجت زوجته من السجن طلقها وتزوج من صديقتها بطريقة داروينية لا

علاقة لها باحترام الإنسان . وحينما جاءني طالبتني تشكو مما حدث (وكانت دائمة السخرية مني لنزعاتي الأخلاقية والإنسانية "غير العلمية") قلت لها ساخراً : "لقد خدمت المرحلة السابقة ، أما المرحلة اللاحقة فهي تتطلب زوجة جديدة" ، فانجرت باكية . وأنا لم أكن أقصد قط جرح شعورها ، وإنما كنت أحاول أن أبين لها أن المنطق الدارويني النيتشوي يؤدي إلى مثل هذه المواقف غير الإنسانية ، وأن المنطق الذي تبنته في الماضي لا يتعارض مع ما حدث لها . ولكنني أدركت أن طريقي كانت فتحة إلى حد كبير (نزعتي نحو التجريد والتأمل مرة أخرى) ، فطُيبت حاطرها وأحبرتها بأن هذا الطلاق ليس نهاية العالم وأنها يمكنها أن تستأنف حياتها من جديد .

ومن أطرف القصص التي رواها أحد الرفاق السابقين الفلسطينيين ما حدث له مع مجموعة من التروتسكيين حضروا إلى معسكر تدريب الفدائيين ، وبادروا صديقي بالسؤال عن إطاره النظري ومنطلقاته الفلسفية ونقط ارتكازه العقلية ، فاحتار صديقي ولكنه أخبرهم بأنهم في هذا المعسكر يؤمنون بالكفاح المسلح ، ثم أضاف أنهم يمكنهم أن يشاركوا بأنفسهم في عملية عسكرية في اليوم التالي . ثم أعد صديقي الماكر عدة سيارات لهم ، وتقدم الموكب نحو منطقة جبلية . ثم بدأ ينهال عليهم الرصاص ، بتدبير سابق ، وبطبيعة الحال لم يصيبهم بسوء . ولكن - كما أخبرني صديقي - تصرف التروتسكيون مثل أي بشر ، أي احتيوا تحت السيارات ، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الإله !

كانت تجربتي "الماركسية" القصيرة لها جوانبها السلبية والمظلمة دون شك ، فاستخدام الصراع الطبقي أو وسائل الإنتاج كمعيار نهائي ، والبحث الدائب عن العمال والفلاحين بحسبانهم قوى فاعلة ستغير التاريخ (خصوصاً العمال بطبيعة الحال) قد جعلنا رؤيتي للفكر والأدب رؤية اختزالية إلى أقصى حد ، وفي هذا الإطار قرأت أعمال توفيق الحكيم وطه حسين وهيكمل قراءة طبقية مبسرة للغاية لم تفهم حقهم . بل وقرأت بعض عيون الأدب العالمي مستخدماً نفس المعايير ، واعتقد أن هذا قد عاق تطوري الثقافي بعض الوقت . ولم أحضر الفترة "الأممية" التي كانت بصرف الحزب تزخر بإثباتها بالأحزاب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو في إسبانيا وإهمال الجهاد ضد الصهاينة في فلسطين ، فقد كان يُندُ سقراطاً في قبضة الرجعية العربية (فحل الصراع العربي الإسرائيلي - في تصورهم - كان هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود) . لم أحضر هذه الفترة ، ومع هذا كانت أصداء هذا التفكير الأممي واضحة في صفوف كثير من الشيوعيين ، وكانت تبدو بشكل واضح في حماسهم الدينية للاتحاد السوفيتي .

ومع هذا كان لتجربتي الماركسية آثار إيجابية كثيرة أتاحت لي فرصة التعرف على بعض النماذج الإنسانية (النبيلة والنيتشوية) عن قرب ، كما أنني استوعبت بعض المفولات الماركسية مثل دور التاريخ واللحظة التاريخية في تحديد مواقف الأفراد وتوجهاتهم . وتعرفت على كثير من

مقولات الفلسفة الألمانية من خلالها . كما أن محاولة التمييز بين المجلد الهيجلي والمجلد الماركسي تشكل أساس إحدى المقولات المركزية عندي (نهاية التاريخ) ، والإحساس بأن تفسير الظواهر الإنسانية لا يمكن أن يكون مركباً بما فيه الكفاية دون أخذ الأبعاد التاريخية والاجتماعية والاقتصادية في الحسبان . وقد أكدت الماركسية (الإنسانية) لي مركزية الإنسان في الكون ، وأن الإنسان مقولة مستقلة عن عالم الطبيعة ، وأن التاريخ له هدف وغاية . وحيثما ظهرت الفلسفة النبوية في الستينيات وبدأت تكتسح المثقفين في الغرب بدأت في دراستها بشكل محموم ، إذ إنني تصورت أنها ستحل المشكلة الأساسية التي أنصّر أن الماركسية فشلت في حلها ، أي علاقة البناء الفرقي (عالم الأفكار) بالبناء التحتي (عالم وسائل وقوى وعلاقات الإنتاج) . ولكنني اكتشفت أنها محاولة لا طائل من ورائها ، لأن النبوية كانت تنتهي في عالم من المعادلات الرياضية الميتة . وأعتقد أن النزعة الماركسية الإنسانية هي التي جمعتني من السقوط في العدمية والحيادية وانعدام الاتجاه والاحتفال بموت الإنسان أو بتحويله إلى معادلات رياضية يمكن التعامل معها رياضياً ! (هناك داخل الماركسية نزعة مادية منطرفة متناقضة مع النزعة الإنسانية ، ولكنني كنت من أتباع الماركسية الإنسانية ، ولم أسقط قط في مسألة «القوانين» العلمية المجردة . ولعل التجاذبي للماركسية الإنسانية يعود إلى ذلك النموذج الكامن في وجداني ، ولعل له أصولاً دينية ، والذي يرى أن الإنسان ليس بكائن مادي ، وأن هناك قانوناً للإنسان وآخر للأشياء والحيوان) . كما أن الماركسية دعمت من بعض الاتجاهات الكامنة في مثل رفض الظلم والاستغلال ، والأكثر من هذا زودتني الماركسية بأرضية نقدية أفق عليها لأطل على بيئتي اليهودية في مصر ، ثم فيما بعد على بيئتي الأمريكية في الولايات المتحدة ، فلم أبهر بما رأيت ، كما حدث لكثيرين من أعضاء جبلي ، ولم أنغمس في الاستهلاكية والرغبة في اقتناء السلع والأشياء والمزيد من السلع والأشياء . فمن خلال الماركسية أمكنني الاحتفاظ بالبعد النقدي وباستقلالي عما حولي وبمقدرتي على رؤيته كلاً كاملاً وبالتالي تجاوزه .

وفي بداية الستينيات ، بدأت النزعات الاشتراكية تظهر داخل النظام الحاكم ، وبدأ تشكيل الاتحاد الاشتراكي . وحيث إنني كنت أنصّر نفسي اشتراكياً ، فقد ملأت بطاقة عضوية . فرفض الطلب إذ عُدّت شيوعياً ، بل مُنعت من السفر إلى الخارج (لولا تدخل أبي) . وبعد عدة سنوات (بعد تأميم مصنع والذي) تم الاعتراض على تعييني في أحد المناصب «شبه القيادية» لأنني شيوعي ورأسمالي في الوقت نفسه (ولعله أضيف لها الآن صفة «إسلامي» مما يجعلني محكوماً عليّ بالهلاك بغض النظر عن الأيديولوجية الحاكمة!) . وحينما كنت في الولايات المتحدة بدأ تشكيل ما يُسمى «التنظيم الطليعي» ، ودُعيت إلى أول اجتماع ، وأثرت قضية سرية هذا التنظيم ، فكان هذا آخر اجتماع حضرت إليه . (ومن المؤسف أن معظم أعضاء هذا التنظيم الطليعي لم يكن عندهم أي التزام اشتراكي أو قومي . وقد استقر معظمهم في الولايات المتحدة ،

ولم يعودوا إلى الوطن ليساعدوا في بنائه ، كما فعل غيرهم من الطلبة العاديين (١) . وأذكر مرة أنني كنت سألقي محاضرة عن الجدل الهيجلي في إحدى ندوات منظمة الطلبة العرب في جامعة سيراكيوز ، وكان المحور الأساسي فيها هو الاشتراكية . وتصادف أن كان هناك أحد الطلبة من أبناء أحد أعضاء النخبة الاشتراكية الحاكمة ، وحين أخبره أحد أصدقائه أن يحضر هذه الندوة رفض قائلاً : "إحنا بتوع الاشتراكية" .

ومن الأمور التي تحيرني كثيراً ، وتحير كل أعضاء الأسرة ، السبب وراء تأميم مصنع والذي . فقد كان تاجراً كبيراً يمتلك تجارته وبعض العقارات ، وقبل أن يدخل عالم الصناعة قابل بعض كبار المسئولين في حكومة الثورة الذين أكدوا له أن المطلوب هو تصنيع مصري ، وأن الرأسمالية الوطنية لها دور في هذا . فقام والذي بنقل معظم رأسماله من التجارة والعقارات إلى الصناعة ، فباع قطعة أرض ضخمة كان يمتلكها في الشاطي (يوجد عليها بيت الطالبات الآن) واشترى مصنعاً من أحد الأجانب ، وقام بتطويره . ولم يكن معروفاً عنه الذخ على الإطلاق ، بل كنا نحن أبناء نهمة بالتقدير . فقد كنا ، على سبيل المثال ، نمتلك سيارة خاصة حرّم علينا استخدامها ، وكان يستخدمها للذهاب إلى المصنع أو لتوصيل العملاء ، فقد كان يصير على أن نعيش مثل "أولاد الموظفين" ولذا كان علينا استخدام المواصلات العامة . ومع هذا ، تم تأميم المصنع عام ١٩٦٤ ، أي بعد أقل من سنتين من شرائه ، وقُدّرت قيمته بطريقة متعسفة للغاية .

وقد لاحظ والذي - رحمه الله - بذكائه الشديد أن البيروقراطية العسكرية ستسيطر لا محالة على مقاليد الأمور ، فطلب مني أن أدخل إحدى الكليات العسكرية ، فضحكت من الاقتراح . وكان هو من هذه الناحية كريماً جداً لا يتشبه برأيه . وبعد احتكاكه ببعض مديري المصانع الجدد ، بعد عمليات التصدير والتأميم ، كان يعود للمنزل مهموماً بمستقبل الصناعة في مصر .

الفصل الثالث : في الولايات المتحدة

مواجهة فكرية أولى

بعد أن تخرجت من الجامعة ، حصلت على بعثة للذهاب إلى إنجلترا . وتصادف أن حضر إلى مصر البروفسير إيان جاك Ian Jack ، وكان أستاذاً للأدب الرومانتيكي الإنجليزي في جامعة كامبردج وصاحب شهرة عالمية . وطلب مني أساتذتي أن أعطيه بعض أبحاثي للماجستير ، فقدمت له دراسة مطولة ذات طابع شامل بعنوان "الانتقال من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية : دراسة نقدية" . وكانت دراسة طموحة للغاية ، تحاول أن تغطي تاريخ الأفكار وعلاقته بتاريخ الحركات الأدبية ، وتلك النقطة المهمة في تاريخ الغرب الفكري في نهاية القرن الثامن عشر والانتقال من عصر العقل والكلاسيكية إلى عصر الوجدان والخيال والرومانسية (وتناول لحظة الانتقال هذه هو في واقع الأمر تناول لمشكلة الموضوعية والذاتية ، أي نموذجين إدراكيين متعارضين) . ولا تزال عندي نسخة من هذه الدراسة ، وعندما أقرأها أجد أنها لا بأس بها على الإطلاق بالنسبة لطالب قد حصل على ليسانس الأدب الإنجليزي لنوره .

قرأ البروفسير جاك البحث ، ثم ذهبت إلى مقابلته فسألني ما مطلع قصيدة إندميون En-dymion لجون كيتس John Keats ، فدهشت من السؤال ولكنني لحسن حظي كنت أعرف الإجابة . ثم سألني سؤالاً آخر ، هذه المرة عن قافية المقطوعة السنسرية Spenserian stanza ، فأجبته . وحينما سألني السؤال الثالث عن عدد أقسام قصيدة "الملاح القديم The Ancient Mariner" لصمويل تايلور كوليردج Samuel Taylor Coleridge أجبته ، ثم سألتني لماذا تسأل مثل هذه الأسئلة التفصيلية المعلوماتية التي لا تتطلب الإجابة عنها ذكاءً أو إعمالاً للعقل أو للخيال ؟ فقال إنه لاحظ أنني أميل للتجريد والتعميم ، ولذا فإنه كان يتصور أنني لا أعرف شيئاً عن نسج الأعمال الأدبية ، ولا أجد التعامل معها في خصوصيتها كأعمال أدبية . كان ردي عليه أنني لا أتعامل مع العنصرين وحسب ، وإنما أتعامل مع العام في علاقته مع الخاص ، وأنا كبشر لا يمكننا أن نفكر ونتحدث إلا من خلال قدر من التعميم ، وأن المستوى التعميمي للبحث الذي قدمته له لا يتطلب مني تناول التفاصيل على هذا المستوى من التخصيص . فقال إنه يجب عدم

التعميم على الإطلاق في الدراسة الأدبية وأنه هو شخصياً كان يكتب الجزء الخاص بالشعر الرومانتيكي في تاريخ كمبردج للأدب ولم يستخدم مصطلح «رومانتيكية» مرة واحدة . فقلت له بصراحة إن محاولته هذه لا تنسم بكثير من الحكمة ، إذ كيف يمكن أن تستغني عن المصطلحات بهذه البساطة ، ألن يؤدي هذا إلى أننا نتحدث عن أعمال أدبية جميلة ، لا يتظمها أي إطار وربما بلغة خاصة للغاية (أسميها الآن «أيقونية») تجعل التواصل غير ممكن والمعرفة مستحيلة ؟

لم تكن المناقشة ودية على الإطلاق ، ولعله كان يتوقع من طالب دراسات عليا مثلي (من إفريقيا !) أن يذعن تماماً لآرائه ، ولكنه فوجئ بموقفي هذا . وبطبيعة الحال رفض الدكتور جاك أن يساعدني على الالتحاق بجامعة كمبردج ، ولذا سافرت إلى الولايات المتحدة ، إلى جامعة كولومبيا في نيويورك (وكانت هذه من أولى مواجهاتي مع النموذج المعلوماتي) . وقد وقع اختياره على أحد زملائنا ، فأخفه بجامعة كمبردج بالفعل ، ولكنه قام «بتسويته» تماماً هناك و«تبطيظه» ، إذ طلب منه أن يقرأ في كل شيء تقريباً . (والرغبة المعلوماتية هذه حينما تنهش إنساناً فإنها تجعله يقرأ كل شيء حتى يعرف كل شيء ، وينتهي الأمر بالمسكين أنه لا يعرف أي شيء . فالحقيقة غير الحقائق ، كما سأبين فيما بعد) . ثم اقترح البروفيسور جاك علي زميلنا أن يكتب رسالة عن شاعر فيكتوري مغمور ، يسمى جون كليبر علي ما أذكر (مجرد أنه موضوع جديد لم يسبق لأحد الكتابة عنه) . وانتهى الأمر بزميلي هذا أنه لم يكتب كلمة طيلة حياته بعد حصوله على الدكتوراه ، لأنه بطبيعة الحال لا يريد أن يعمم وأي كلام إنساني يحتوي على قدر من التعميم . كما أنه كان يريد حشد كل المعلومات الموجودة على ظهر الأرض بخصوص بحثه ، لأنه لا يوجد إطار تحليلي (أو نموذج تحليلي) يضبط عملية مراكمة المعلومات . وحينما كنت في الولايات المتحدة ، صدر كتاب د . جاك وماجمه كثير من النقاد بسبب ارتباطه الشديد بالجرثيمات . وحينما ذهبت إلى جامعة كمبردج عام ١٩٨٨ لزيارة ابنتي التي كانت تدرس هناك الأدب الإنجليزي ، وسألت أحد أساتذتها عن د . جاك ، فأخبرني أنه لا يزال يدرس وليس له أي تلاميذ من أي نوع ، وأنه منزول تماماً عن كل الحركات الفكرية هناك . ولم أدهش كثيراً فرؤيته كانت معادية للفكر ، وكان ملتزماً بشكل مرضي بالفاصيل والمعلومات . ولعلي لو كان ثر كيبيبي النفسي مختلفاً لانتابنتي الشكوك بخصوص طريقة إدراكي للواقع ولأدعت لتحديره من التعميم ، أي تعميم ، ولكنني والحمد لله لم أفعل .

جامعة كولومبيا

بدلاً من أن أذهب إلى إنجلترا ، ذهبت إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٣ ، وفي البداية قضيت شهراً في جامعة ييل Yale . وعند وصولي عقدوا للطلبة الدارسين امتحاناً

"موضوعياً" multiple choice تكون فيه الإجابة إما بنعم أو لا لتحديد مستواهم الثقافي واللغوي . ففضيت وقتاً طويلاً في تأمل الأسئلة ، وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية لا هي بنعم ولا بلا ، وإنما تقع بينهما . وكانت النتيجة بطبيعة الحال الفشل الذريع بدرجة رسوب لا نظير لها . وقد تقرر بناءً على هذا الامتحان أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق ببرنامج الدراسات العليا . ولكنني مرة أخرى نظراً لثقفتي بنفسي أخبرتهم أن الخلل ليس فيّ وإنما في الامتحان ، فهو امتحان سخيف لا يقيس مقدرات الطالب الحقيقية وإنما سرعة بديهته واستجابته ، وأن السرعة غير الصمق . كما بينت لهم أنني لم يسبق لي أن أخذت امتحاناً وصمت فيه الأسئلة بهذه الطريقة ، ففي جامعة الإسكندرية كانت الإجابة على أسئلة الامتحان كلها على هيئة مقالات . وأكذب لهم أن أدائي بعد أن عرفت "الطريقة" أو "الحيلة" (بالإنجليزية : gimmick) سيكون مختلفاً تماماً . وبالفعل قرروا أن يجربوا معي مرة أخرى ، وفوجئوا أنني حصلت على أعلى درجة بين المتقدمين . وكانت هذه من أولى المواجهات بيني وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وأحاديتها وحيلاتها .

وذهبت إلى نيويورك والتحق بجامعة كولومبيا وهي جامعة كبيرة جداً . كان قسم اللغة الإنجليزية والأدب المقارن فيها يضم بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم . كنا في كولومبيا نهول من حجرة إلى أخرى ونقرأ بشراهة ونتحدث بسرعة ولا تتفاعل بعضنا مع بعض إلا قليلاً وفي إطار من الإنكيت والشكلية . وكان الطلبة يتحدثون بلغة معقدة للغاية ، وكأنها لغة مكتوبة . وحينما بدأت أطلع على الكتابات النقدية الأمريكية لاحظت أنها هي الأخرى قد كتبت بلغة معقدة ، كل كاتب له مصطلحاته الخاصة . فظننت لوهلة أنني لا أعرف اللغة الإنجليزية بما فيه الكفاية ، إلى أن حضر الأستاذ بازيل ويلي Basil Willey ، مؤرخ الأفكار البريطاني الشهير ، واستمعت لإحدى محاضراته ، وكنت قد قرأت معظم كتبه نظراً لإعجابي الشديد بها . فذهبت إليه بعد المحاضرة وأخبرته عن مشكلتي مع لغة زملائي وأساتذتي وعن إحساسي بعجزني وجهلي . فضحك كثيراً وأخبرني أنه هو نفسه يجد صعوبة أحياناً في فهم الأساتذة الأمريكيين ، وطمأنني إلى أن ما أواجهه قد واجهه الكثيرون من قبلي !

وفي بداية الأمر أحسست برهبة موقفي : طالب مصري يدرس على يد بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم ، ولم يكن هناك طالب عربي غيري . وحينما أعطوني قوائم النصوص والمراجع (بالإنجليزية : reading list) (التي تتضمن النصوص التي يجب أن أقرأها والمراجع التي يجب أن أعود إليها) وجدتها طويلة بشكل لا يُصدق . فذهبت إلى أساذي المشرف أسأله عن حقيقة الأمور ، كأي مصري لا يصدق ما هو مكتوب ويبحث عن القصة الحقيقية (الشفافية عادةً) . فلم يفهم الأستاذ ما أرمي إليه ، وقال لي بصراحة بالغة إن المطلوب مني هو قراءة كل ما ورد في قوائم القراءة والتي كانت تضم كل شيء تقريباً : الأعمال

الكاملة لوليام وردزورث William Wordsworth وكوليردج وبرسي بيسي شللي Percy Bysshe Shelley ولورد بيرون Lord Byron وجون كييتس John Keats ، كما كانت تضم معظم المسرحيات العالمية الحديثة ، وقصائد جون ميلتون John Milton وهربرت سبنسر Herbert Spenser كلها . وقراءة كل هذه الأعمال الأدبية في غضون ثمانية شهور (أي فصلين دراسيين) هو أمر مستحيل من ناحية الكم ، فما بالك بالقراءة والاستمتاع والاستيعاب . ففقدت توازني بعض الوقت ، وقدمت طلباً بأن آخذ تقدير "غير كامل" (بالإنجليزية : incom-plete) في كل المواد ، وهو يعني أنني لم أكمل متطلبات المقرر ، وأن الأستاذ قرر أن يمهلني حين الانتهاء منها .

وبمقدرة الدهشوري على البقاء ، استأجرنا أنا وزوجتي غرفة في فندق رخيص قدر (غرفة نوم صغيرة بها سرير وكرسيان ملحق بها ما يسمى «المطبخ» [بالإنجليزية : Kitchenette] وهو عبارة عن حوض وبوتاجاز وثلاجة كل أولئك موضوع في مساحة لا تزيد عن مساحة دولا ب ، وعليه باب أشبه بصلف الدولا ب) . ورغم أن الفندق كان يتلع أكثر من نصف مرتبي تقريباً ، فإنه كان يقع حرفياً بجوار مكتبة جامعة كولومبيا ، وهذا أمر كان في غاية الأهمية حينذاك . وتفرغت تماماً للقراءة والتحصيل . قرأت الأعمال الكاملة لكل الشعراء الرومانسيين الإنجليز (موضوع تخصصي) وكثيراً من الكتب النقدية عنهم ، وكثيراً من المسرحيات الحديثة وأعمال ميلتون ... إلخ . وخرجت من فترة الحضنة هذه وقد تملكيت ناصية الخطاب النقدي بشكل يسمح لي بالدخول في حوار مع زملائي وأساتذتي . ولكنني اكتشفت أنني أكاد أكون الطالب الوحيد الذي قام بهذه العملية شبه الانتحارية (إذ اكتفى الآخرون بقراءة الملخصات أو ما درسوه في مرحلة الليسانس) ، فذاع صيتي لدرجة أنني بدأت إلقاء الدروس الخصوصية على أصدقائي . وكنت أخص لهم كل القضايا النقدية والفلسفية فيما سميت لهم حينذاك «صيغ مترو الأنفاق» (بالإنجليزية : سبواي فورميولا subway formula) ، وهي صيغ نقدية ذات مقدرة توليدية تمكنهم من مواجهة أي نص رومانتكي نظراً لأنها تحتوي على كل الاحتمالات الممكن ورودها ، فكانت الصيغة formula بمنزلة النمط الأساسي أو النموذج الكامن ، أما السبواي أو مترو الأنفاق فهذا يعني أن الصيغة يمكن قراءتها واستيعابها بسرعة حتى في أثناء ركوب مترو الأنفاق . انتشر فيما بعد مفهوم مماثل في الجامعات الأمريكية ، إذ كان يُشار لمثل هذه التلخيصات بكلمة "سبتس cepts" وهي النصف الثاني من كلمة "كونسبت concept" أي مفهوم ، ثم يوضع في صيغة الجمع ، فالمخلص يركز على تلخيص المفاهيم وليس المعاهيم ذاتها) . وحينما حل موعد الامتحان النهائي للماجستير في الصيف كان أدائي جيداً جداً وتقديراتي مرتفعة إلى درجة أن سكرتيرة القسم ظنت أن الممتحن الخارجي (الذي استعانوا به في أثناء فصل الصيف) قيم إجابتي بطريقة متساهلة للغاية . فتم عرض أوراق الإجابة التي تخصني على أستاذ

بجامعة كولومبيا ، الذي أفتى بأنني أستحق الدرجة التي حصلت عليها .

وإذا كانت ثقتي بنفسي قد أنقذتني من التهلكة عدة مرات ، فإنني كنت أرى عدم الثقة وهي تصرع بعض أصدقائي . كان لي صديق في الولايات المتحدة ذكياً إلى أقصى درجة ، ولكنه كان لا يتمتع بأي ثقة بالنفس . ولذا كان يكتب الأبحاث ويعيد كتابتها ولا يقدمها إلا بعد إلحاح منا . ومرة ذهبت لزيارته فوجدته مبتسماً لأنه وجد نفسه عاجزاً عن كتابة بحث مطلوب منه عن حوارات أفلاطون ، فطلبت منه الأوراق التي كتبها فوجدت بحثاً ممتازاً فأخذت منه الأوراق بحجة أنني أريد قراءتها بتمعن في المنزل ، وأرسلتها لأستاذه الذي منحه درجة الامتياز . فتعجب صاحبنا مما حدث ، فقد كان متخصصاً في الإقلال من حق نفسه . المهم بعد عام تقريباً وصله خطاب من إدارة البعثات لتجديد البعثة وأخبروه فيه بأن أستاذه يعد بحثه عن حوارات أفلاطون أحسن ما قرأ من بحوث عبر حياته الأكاديمية ! ولكن مع هذا استمرت عدم ثقة صديقي بنفسه ، فيبدو أنها مسألة أصيب بها منذ الطفولة ، ولم يعد لها علاقة بما يواجهه من مواقف !

والتاريخ العربي مليء بوقائع تبين مدى أهمية الثقة بالنفس . فقد روى المؤرخون العرب أن التتار كانوا يدخلون في حرب نفسية مع الشعوب التي يفزونها فيقومون ببث جواسيس لهم بين الجماهير لتحطيم روحهم المعنوية عن طريق نشر الإشاعات عن مدى قوة التتار ومدى بطشهم . ولذا حينما كان التتار يدخلون إحدى المدن ، كان يفر سكانها ، أما من بقي منهم ، فقد بقي وهو عبارة عن هيكل ، جسد دون روح . وقد روى أحد المؤرخين أن جندياً تتري أراد أن يقتل عربياً ، ولكنه لم يجد سيفاً فطلب من العربي أن ينتظره حتى يعود ، فظل العربي واقفاً إلى أن جاء الجندي وقام بذبحه . وفي رواية أخرى يقال إن العربي هو الذي ذهب بنفسه وأحضر السيف للجندي التتري ليقتله به . هذا يقف على طرف النقيض مما فعله قطز ، سلطان مصر في العهد المملوكي . فقد أرسل له ملك التتار رسالة يطلب فيها منه الاستسلام واستخدم عبارة "يا ابن عمي" ، ويبدو أن هذه العبارة تحمل معنى الاستخفاف . فأشار مستشارو قطز عليه أن يأتمر بأمر ملك التتار . ولكنه بدلاً من ذلك قطع رؤوسهم وعلقها على بوابات القاهرة . فاستعاد المصريون الثقة في أنفسهم ، وهزموا جيوش التتار في عين جالوت ، وأوقفوا هذا الرباء الذي كان يريد تحطيم كل الحضارات الإنسانية عن وعي . وفي كتابي عن الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الإدراك والكرامة أبين كيف أن استخدام الأزمة داخل الكيان الصهيوني وتزايد ثقة الفلسطينيين في أنفسهم هو الذي أدى إلى اندلاعها ، تماماً كما أن انتصار حزب الله في جنوب لبنان ولّد الثقة في النفوس مرة أخرى فاندلعت انتفاضة الأقصى والاستقلال . هذا لا يعني أن الثقة في النفس وحدها هي السبب في الانتفاضة ، ولكنها ضرورية لها . وكما يقولون بالإنجليزية necessary but not sufficient ضرورية ولكنها ليست كافية .

جامعة وتجرز

كانت سيورورك مليئة بالإمكانات الثقافية المجانية . عشنا بعض الوقت على مقربة من متحف الكلويسترز Cloisters ، وهو متحف متخصص في فنون العصور الوسطى المسيحية في الغرب . وكنا نتردد أيضاً على متحف المتروبوليتان Metropolitan باستمرار ، وهو ليس مجرد متحف وإنما مؤسسة ثقافية تعليمية كبرى (مثل كثير من المتاحف - الآن في العرب) . وإلى جانب هذا ، كان هناك عدد كبير من المتاحف المتنوعة (جوجنايم - فريك - متحف التاريخ الطبيعي ... إلخ) . وتعلمنا في نيويورك كيف نأكل الأنواع المختلفة من الطعام (الصيني - الياباني - التايلاندي - الهندي - النيبالي - الإيطالي) ، هذا إلى جانب حدائق النباتات والحيوانات المختلفة .

وبرغم ارتفاع أثمان المسارح ودور عرض الأفلام فإنه كانت هناك طرق مخفية لدخولها ، فكانت هناك تذاكر خاصة للمسارح للطلبة ، كما كان هناك كشك في شارع برودواي ، في منطقة المسارح يبيع التذاكر التي لم تباع في ذلك اليوم بنصف ثمنها قبل عرض المسرحية ببضع ساعات . وكان هناك ما يسمى «تذاكر وقوف» ، وهي أن يقف المشاهد طيلة المسرحية ، فكانا نذهب إلى المسرحيات المشهورة المكلفة ونتوجه إلى شباك التذاكر قبل موعد بدء المسرحية بربع ساعة ونطلب تذكرة في أي مكان ، فيخبروننا أنه لا يوجد سوى أماكن للوقوف فقبل . وقد أتاح لنا هذا رؤية كثير من المسرحيات برغم الميزانية المحدودة . كما كنا نذهب إلى دور عرض السينما في حفلات الماتينيه . ولكن وجود سينما ثاليا Thalia بجوار الجامعة كان فرصة ذهبية . كان ثمن التذكرة دولاراً واحداً إن دخل المتخرج قبل الثالثة . فكنت أذهب أنا وزوجتي قبل الثالثة ومعنا طعامنا وشرابنا ندفع الدولارين ولا نترك دار العرض إلا الساعة التاسعة مساء نترنح من فرط الإعياء والنعمة بعد أن نكون قد شاهدنا ثلاثة أفلام ابتداء من إنجمار برجمان Ingmar Bergman وانتهاءً بأكيرا كوروساوا Akira Kurosawa . وهكذا قضينا عاماً حافلاً في نيويورك ، نهلنا إبانته من معين الإمكانات الثقافية في نيويورك .

ولكن نيويورك كانت ، رغم روعتها ، باهظة التكاليف ، وأصبح من العسير علينا ، بل من المستحيل ، أن نستمتع بما فيها من فرص ثقافية وترفيهية ، خاصة بعد أن حيانا الله ابتسما نور ، وأصبح من المستحيل البقاء في شقة صغيرة في نيويورك (بعد أن انتقلنا من الفندق) يلتهم معظم مـحلنا . ولذا على الرغم من أن بعض أساتذتي في جامعة كولومبيا نصحوني بالبقاء فيها بحسبان أنها جامعة ذائعة الصيت من مجموعة الأيڤي ليغ Ivy League (والتي تعني حرفياً نبات اللبلاب المتسلق ، نسبة إلى مبانيها القديمة التي يعلوها هذا النبات ، ومن هنا أصبح رمز العراقة والقدم) ، فإنني انتقلت إلى جامعة أخرى هي جامعة وتجرز (في مدينة نيويورك ونيويورك بولاية نيويورك) ، والتي تبعد ٣٠ ميلاً عن نيويورك) . وتنتمي هذه الجامعة لمجموعة الأيڤي ليغ أيضاً ، إلا أنها أقل

شهرة من جامعة كولومبيا . وكانت تجربتي هناك مختلفة عما حدث في نيويورك . فالمدينة صغيرة ، وحصلنا من الجامعة على سكن كبير رخيص للغاية تحيط به حديقة ، تمكنت نور من أن تجري فيها وأن نبني لها أرجوحة تلعب بها . كما أنه نظراً لقرب نيويورك من نيويورك ، كان بوسعنا أن ندخر شيئاً من المال ونذهب إلى هناك متى ما سحت لنا الفرصة . فكأنني بالاستقال عن نيويورك أصبحت أكثر قرباً منها ، إذ أصبحت متاحة لي .

وكان قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة صغيراً وحيوياً ، فقد كان يشهد صراعاً حاداً بين مجموعة من الأساتذة من خريجي هارفارد ('صبيّة هارفارد' The Harvard Boys) كما كانوا يسمّون) الدين كانوا أكثر انفتاحاً على التيارات النقدية الجديدة من جهة ، ومن جهة أخرى بقايا "النظام القديم" من يؤمنون بالمناهج الأكاديمية التقليدية المستقرة . وكان هناك أيضاً صراع حاد بين الشكليين ودعاة النقد الحضاري التاريخي .

كان الجو في القسم تجريبياً متفتحاً تُدرّس فيه مقررات مختلفة تغطي كثيراً من الموضوعات والأعمال الأدبية والمناهج البحثية ، بل وكان هناك مقررات عن السينما والفنون التشكيلية وعلاقتها بالأدب . وقد عينت معيداً في القسم (أو على وجه الدقة مساعد باحث [بالإنجليزية : ريسيرش أور ليتشنج أسيسانتات resesarch or teaching assistant] ، حيث أن وظيفة «معيد» لا توجد في الولايات المتحدة) . وكان يُترك للمعدين تحديد الطريقة التي يدرسون بها المقرر التمهيدي للغة الإنجليزية ، شريطة أن يتفق خمسة منهم على الأقل على تدريس نفس الموضوع . فأعلنت عن مقرر بعنوان "مفهوم الشر في الأدب" . ندرس فيه تطور مفهوم الشر في الأدب الإنجليزي من خلال نصوص أدبية إنجليزية مختلفة ، وبذلك نعرّف الطالب بتاريخ الأفكار وتاريخ الأخلاق ونُدربه في الوقت نفسه على كيفية قراءة النصوص . والمقرر بذلك كان محاولة أولية في دراسة متتالية نماذجية تبدأ بالمصور الوسطى (جيفري تشوسر Geoffrey Chaucer : "قصة الواعظ المتجول" من حكايات كانتربري) مروراً بمصر النهضة (وليام شكسبير William Shakespeare : ماكبث) والقرن الثامن عشر (ألكسندر بوب Alexander Pope : مقال عن الإنسان) والقرن التاسع عشر (سمويل تايلور كوليردج : الملاح القديم) وانتهاءً بالقرن العشرين (ت . س . إليوت T. S. Eliot : الأرض الخراب - إرنست همنجواي Ernest Hemingway : المجرور والبحر) . وحيث إنه كان من المفهوم أن النزعة الشكلية متفشية بين الطلاب والمعدين ، كان من المتوقع ألا يوافق أحد من المعدين على اقتراحي الذي يركز على "المضمون" الإنساني والأخلاقي . وكانت مفاجأة للجميع أن ما يزيد على ثمانية معدين وافقوا على اقتراحي وتكوت بالفعل «مجموعة الشر» (بالإنجليزية : إيفيل جروب evil group) كما كانت تُسمّى ، وتمتع الطلبة بالمقرر أيما تمتع . وكان هذا إشارة إلى أن ما يسود من تقاليع ربما لا يكون بالضرورة تعبيراً عن رغبات الناس وتطلعاتهم الحقيقية . وهذه حقيقة مهمة لا بد من تذكرها في

وكانت إحدى الاقتراحات المقدمة لهذا البرنامج هو دراسة روايات القرن الثامن عشر الطويلة الرديئة حتى يعرف الطلبة قيمة الأدب العظيم . وفي الاجتماع المخصص لمناقشة الاقتراحات اعترضت على هذا الاقتراح قائلاً إنه سيحرم بعض الطلبة من فرصتهم الوحيدة للتدريب على قراءة روائع الأدب . فقال صاحب الاقتراح إنه لم يكن ، في واقع الأمر ، جاداً في اقتراحه والأمر كله من قبيل المزاح ، وأني لم أدرك "النكتة وخفة الدم" الكامنين في اقتراحه . ومثل هذا التملص كان أمراً شائعاً في الستينيات : استخدام "المفارقة الساخرة" (بالإنجليزية : *irony*) . أن يقول المرء عكس ما يعني ، للتخلص من المسؤولية الخلقية ، إذ إنه من خلال استخدامها يمكن للمرء دائماً أن يتصل بما قال بحجة أن ما قاله هو مجرد مفارقة ساخرة . ولكن المشكلة أنه في الماضي ، كان الأديب أو الكاتب يستخدم عنصر المفارقة الساخرة ، فيقف على أرضية أخلاقية صلبة يظل منها على العالم العادي ويوجه له سهام نقده ، أما مستخدمو المفارقة الساخرة في الستينيات فكانوا يستخدمون ما يُسمى "المفارقة الساخرة الزلقة" (*fleeting irony*) . فلا يقف الأديب على أرضية أخلاقية صلبة ، ومع هذا يوجه سهام نقده للجميع بما في ذلك نفسه ، فتصبح كل الأمور نسبية زلقة !

وثمة واقعة نادرة في حياتي جعلت دراساتي في الولايات المتحدة مشيرة للغاية من ناحية الكم والكيف . لدراسة الدكتوراه في الولايات المتحدة تنقسم عادةً إلى ثلاثة أقسام : المقررات - الامتحان الشفهي الشامل - رسالة الدكتوراه . وأول الأقسام وأهمها هو المقررات وتستغرق عادةً ما بين سنتين إلى ثلاث . ويدرس الطالب في أثناء هذه الفترة بعض المقررات الإلزامية (تاريخ اللغة الإنجليزية - الإنجليزية المعصور الوسطى) ، كما أنه من الناحية النظرية يدرس ما يحب من مقررات ، ولكنه في واقع الأمر عادةً ما يختار مقررات تصب في خمسة فروع هي عبارة عن التخصصات التي يختارها الطالب لامتحانه الشفهي الشامل (في حالتي درست آداب المعصور الوسطى ، وأدب عصر النهضة والقرن السابع عشر ، والأدب الرومانسي ، والأدب الأمريكي ، والنظرية النقدية) . وكل أستاذ يدرس مقرره دون أن ينسق مع بقية الأساتذة ، ودون أن تحكم الدراسة أي فلسفة عامة . ويحاول كل أستاذ أن "يغطي" أكبر قدر ممكن من النصوص الأدبية والنقدية والمراجع التي لها علاقة بمقرره . وقد أحصيت أنا وزوجتي عدد الصفحات المطلوب منا قراءتها في مقرر الأدب الأمريكي الذي درسته معاً ، فوجدنا أنه يزيد عن المائة صفحة كل يوم بالنسبة لهذا المقرر وحسب ، وهذا أمر مستحيل وعيshi ، فحتى لو تم إنجازها على المستوى المادي (من خلال "القراءة السريعة" التي تعلمناها في الولايات المتحدة) ، فإن العقل لا يمكنه استيعاب كل هذا ! هذا بالنسبة لمقرر واحد ، والحد الأدنى للمقررات أربعة والأقصى خمسة ، أي أن المطلوب هو قراءة خمسمائة صفحة في اليوم ! (حينما ذكرنا هذه الإحصاءات فيما بعد

لأستاذي الدكتور ديفيد وإيمار David Weimer، الذي درّسنا المقرر، أصيب هو نفسه بالدعرج . وكان علينا أن نكتب ثلاثة أبحاث لهذا المقرر . ونتيجة كل هذا أن إيقاع الدراسات العليا أصبح سريعاً لدرجة لا تسمح بأي إبداع حقيقي (في تصوري) ، كما أن تعدد المقررات (وغلبة النزعة المعلوماتية على بعض الأساتذة) يؤدي إلى نوع من أنواع التشظي . وقد حاولت قدر استطاعتي أن أتجاوز ذلك عن طريق محاولة الربط بين ما أدرس من نصوص وأن أقرأ في الفلسفة حتى تظل عندي الصورة الكلية ولا أغرق في المعلومات . (حينما أقوم بكتابة عمل ما ، أشعر بأن مثل هذا العمل له حدوده وقضاؤه ، وحتى لا أقبع داخلهما محصوراً بحدودهما فأنا عادة ما أقرأ كتباً لا علاقة لها بما أكتب ، حتى يظل خيالي خصباً ، وحتى تتفجر داخلي إشكاليات ربما لا يمكن أن أتوصل إليها إن ظلت داخل نطاق الموضوع الذي أكتب عنه وحسب) .

منذ البداية عرفت أن إيقاع الدراسات العليا هو الجنون بعينه ، فطلبت من أستاذي الشرف ألا أدرس أكثر من ثلاثة مقررات (أي دون الحد الأدنى) وتمت الموافقة على طلبي من قبل لجنة الدراسات العليا (ربما رافقة بهذا الطالب المصري الجديد الوحيد) . وبعد أن حصلت على درجة الامتياز في كل المواد في الفصل الدراسي الأول ، كنت أذهب إلى من أعرفهم من الأساتذة ، وأخبرهم بأنه بات من الواضح للجميع أنني طالب متميز ، وأنني أحب القراءة ومهتم بالفكر وأنني لم أحضر من مصر للتسليه . ثم أردف قائلاً إن نظام الدراسات العليا في الولايات المتحدة هو نظام تعليم جماهيري لا يسمح بأي شكل من أشكال التميز ، وهذا أمر مفهوم تماماً بسبب الأعداد الكبيرة نسبياً . ولكن لم تطبق علي نفس المعايير؟ وكثيراً ما ألقت الأساتذة بأن يعطوني تقدير امتياز دون أن أقدم ورقة بحث ، ولكنني كنت أعطيهم كلمة شرف أنني سأقدم البحث فيما بعد ، بعد كتابته في هدوء وسكينة . وكثيراً ما نجحت في إقناعهم ، فكنت أقضي الصيف في كتابة البحوث المطلوبة ، عندما يكون عندي متسع من الوقت . (حاولت أن أطبق نفس السياسة مع إحدى طالبات الدراسات العليا في مصر ، فما كان منها إلا أن تناست الموضوع تماماً بعد أن أعطيتها تقديرأً عالياً ، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي حاولت أن أفعل فيها ذلك) .

بعد الانتهاء من المقررات كان علي اجتياز الامتحان الشفهي الشامل (بالإنجليزية: Comprehensive ، أو أورالز Orals) حتى يمكنني أن أبدأ في كتابة رسالتي للدكتوراه . وكما أسلفت كان الامتحان في جامعة رنجرز مكوناً من خمسة أجزاء ، هي عبارة عن خمسة تخصصات يختارها الطالب . وكنت قد تملكيت ناصية مثل هذه الأمور تماماً . كما أنني والحق يُقال درست ما طُلب مني بعناية وشغف شديدين ، فجاء المتحنون الخمسة ، يمثل كل واحد منهم تخصصاً من التخصصات الخمسة التي اخترتها ، وجلسوا حول المائدة ثم بدأت الأسئلة تنهال علي ، وكان بعضها - والحق يقال - ذكياً للغاية ، ويتطلب إعمال الخيال والفكر

. ولكن كان من بين المتحنيين أستاذ عُرِفَ باهتمامه بالحقائق والمعلومات العامة أو المجردة وعدم الاكتراث بالنصرص . فسألني عن عدد قصائد ديوان الشاعرة الأمريكية إميلي ديكينسون Emily Dickinson فأخبرته بالرقم على وجه الدقة (الذي نسيته بعدها بطبيعة الحال) ، ثم أضفت قائلاً إنني كنت أعرف أنه سيسألني هذا السؤال . فضحك وكانت إشارة للأساتذة أمثاله أن يطرحوا هذه اللعبة المعلوماتية السطحية جانباً ويركزوا على ما هو أهم من ذلك . ثم طلب مني أستاذ آخر أن أضع وصفاً لقرار الدراسة لتاريخ النظرية النقدية الأدبية . وبطبيعة الحال ، كنت أعرف أنهم يريدونني أن أبدأ بأرسطو أو أفلاطون ، ولكنني قررت أن أصدمهم فقلت : الجرجاني ، لأذكرهم بهوبتي - ذمنهوري مصري عربي مسلم يطل عليهم كأحد علماء الأنثروبولوجيا ويدرس حضارتهم دون أن يكون جزءاً منهما . فسألوني من عسى أن يكون الجرجاني؟ فقلت لهم إنه ناقد عربي كلاسيكي مهم ، وصاحب نظرية نقدية رائدة . فقالوا : "حسناً لو كنت في الولايات المتحدة ماذا كنت ستفعل؟" فتعطمت وقلت : "أنا لا أنوي البقاء في الولايات المتحدة تحت أي ظروف" . قالوا : "فلنفترض ذلك" . فابتسمت وقلت : "حسناً ، لو افترض ذلك (وهو أمر صعب بعض الشيء عليّ) فإننا سنبدأ ولا شك بأرسطو" . المهم بعد هذه المعركة الكوسيدية المفتعلة الأولى ، أصبح الأساتذة المتحنون طوعً وبغيري تماماً ، فلقد بينت لهم حدود معرفتهم وجهلهم تماماً بخلفيتي الثقافية ، وانتهت المعركة بأنني اجتزت الامتحان بنجاح ، بل أعطوني درجة الامتياز (بالإنجليزية : With Distinction) ، وكانت أول مرة في تاريخ قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بالجامعة تُمنح مثل هذه الدرجة ، إذ إنه لا يوجد درجات في هذا الامتحان ، ولكنهم وجدوا أن لائحة تأسيس الجامعة تضم بنداً يسمح بهذا . (ولنقارن هذا بما يمكن أن يحدث لمن يتحدى أستاذته في إحدى الجامعات المصرية : مصيره هو التخطيم الكامل مدى الحياة بلا هراة ولا رحمة) .

وبعد أن انتهت من المقررات والامتحان الشفوي الشامل وأثبتت جدارتي الأكاديمية ، وحين وقت كتابة الرسالة ، كان قسم الأدب الإنجليزي قد بدأ تجربة جديدة وهي أن يعفى الممتازون من الطلبة من كتابة رسالة الدكتوراه على أن يكتبوا بتطوير بحثين من الأبحاث التي كتبوها في أثناء دراسة المقررات ، وأن يلقي الطالب محاضرة عامة (هي الأخرى بمنزلة رسالة قصيرة) على أن تحل هذه الرسائل الثلاث محل رسالة الدكتوراه . وقد قبلت أن أخوض هذه التجربة بعد طول تردد ، نظراً لخشيتي أن يُقال في مصر إنني لم أكتب رسالة للدكتوراه لأنني "فشلت" في دراستي . وأنا لأحب الدخول في المعارك الصغيرة ، وأفضل الاستسلام فيها حتى لا تستند طاقتي فيما لا يفيد (دائماً أنصح أصدقائي وتلاميذي أن يتعدوا عن المعارك الصغيرة التي تُفرض عليهم ، والتي يمكن أن تستنزف الإنسان بل وتقضي عليه . ومصر الآن عامرة بالمعارك الصغيرة في كل مكان ، وقلنا الله وإياكم) . ولكن ، لحسن حظي ، تضخمت رسالتي الأولى ، التي كان من

المفروض ألا تتجاوز مائة صفحة ، تضخمت إلى أن وصلت خمسمائة ، وأصبح من الختمي أن أترك النظام الجديد وأتبع النظام القديم . (ومع هذا لابد وأن أخبر إلى أن التجربة قد فشلت ، فالذين حاضروا بنجاح لم يجدوا عملاً بعد ذلك . فالبيروقراطية الأكاديمية في الولايات المتحدة كانت تسأل المتقدم لشغل وظيفة ما عن تخصصه الدقيق ، وحينما كان يذكر أنه كتب ثلاث رسائل قصيرة كان طلبه يُرفض) .

ونفس النطق يقسر حادثة أخرى في حياتي . لقد بدأت كتابة رسالتي للدكتوراه يوم ٩ من يربيه عام ١٩٦٧ حين أدركت حجم الكارثة التي حاقت بنا . ساعتها قررت الانتهاء من دراستي حتى يعود لنسأهم بما عندنا في إعادة بناء الوطن الجريح . ولم تكن سنة ١٩٦٧ بالنسبة لمن يقيم في الولايات المتحدة تعني البطش الأمريكي / الصهيوني بمصر وحسب ، وإنما كانت تعني أيضاً العريضة الأمريكية الكاملة في فيتنام ، وعمليات الإبادة التي كانت القوات المسلحة الأمريكية تقوم بها دفاعاً عن حكومة عسكرية فاسدة وعن مصالحها الإستراتيجية ضد شعب آسيوي يحاول أن يقرر مصيره . المهم قررت أن أقدم رسالتي للدكتوراه ثم أرفض الحصول عليها بعد مناقشتها وإقرارها احتجاجاً على السلوك الأمريكي في مصر وفيتنام . ولكن المضحك أنني فكرت في مصري في مصر بعد العودة ، إذ إنهم كانوا يقولون : "لقد فشل ، وهو يغطي فشله هذا بمسألة الاحتجاج" . وعبثاً كنت سأحاول الدفاع عن نفسي ، ثم سأحاول الحصول على الدكتوراه في مصر ، وسأدخل في مناهات تعطلني عن مشروعني الفكري الذي كنت أود التفرغ له . فعدلت عن قرارتي الثوري (ولم أندم على ذلك فيما بعد) .

وكما قلت ، كان القسم في نجرز صغيراً إلى حد كبير . ومن هنا بدأت أتفاعل معه ومع من حولي ، وهو تفاعل أخذ وعطاء ، فكانت هناك المحاضرات العامة التي كان كبار المفكرين الأوروبيين والأمريكيين يلقونها ، وكان هناك نادٍ للسينما ، وجلسات طلبة الدراسات العليا ، حيث كنا نناقش أهم الأمور وأبسطها .

كنت أنظر من حولي وأتفاعل ولا أفقد ذاتي . فلأخذ على سبيل المثال "طريقة التحية" ، وهي مسألة محفوفة بالخطاطر في الولايات المتحدة . فالتصافح باليد ، كما نفعل في بلادنا ، أمر نادر ، كما أنهم لا يحبون أن يضيّعوا وقتهم في السلام (كما نفعل نحن) . وكثيراً ما كنت أحضر حملاً مع بعض الطلبة والأساتذة ، وحينما نتقابل اليوم التالي ، كنا لا نحبي الواحد منا الآخر ، وكاننا لم نلتق قبل ذلك . وكان ذلك يسبب لي الألم في بداية الأمر . ولكنني تعودت عليه وتأقلمت . فكنت أنظر بطرف عيني قبل إلقاء التحية لأرى هل ستقابل بالتجاهل أو الترحاب ؟

و"طريقة التحية" لا تقل تركيباً ، فنحن في مصر نصافح النساء والرجال ولكن لا نقبل إلا الرجال (على الوجنتين) نحن تربطنا بهم علاقة حميمة للغاية . أما في الولايات المتحدة ، فتعلمنا

أن تقبيل الرجال له مغزى آخر تماماً ، أما تقبيل النساء على الوجنتين فهو من قبيل التحية (وعدم التقبيل يعدُّ من سوء الخلق) . وكان علينا تبني هذه الطريقة . (حينما حضر أستاذي إلى مصر قبل رواجتي وقبلت زوجته ، فضحكت كل الطالبات في الكلية ، وكان عليّ أن أشرح لهن المضمون الاجتماعي للتحية . ومازلت أصاب بحيرة بالغة حينما أحضر حفلاً في القاهرة يضم مصريين وأمريكيين ، إذ علينا أن نتبنى طريقتين مختلفتين للتحية في نفس الزمان والمكان ، فعينما أقابل سيدة ما أتأكد من جنسيتها أولاً ثم أصفحها حسب خطابها الحضاري حتى لا أقع في خطأ حضاري جسيم) .

ولكنني مع هذا لم أكن متلقياً سلبياً لمقاييس المجتمع الأمريكي . فقد اكتشفت ، على سبيل المثال ، أن كثيراً من عبارات التحية التي نستخدمها بالعربية لها وقع مختلف بالإنجليزية (والمكون الحضاري أمر لا يمكن تجاوزه) . فمثلاً إن قلت لرجل بالعامية المصرية " واحشني " (أي " إني أفتقدك ") فإن ترجمتها بالإنجليزية هي " آي ميس يو " " I miss you " . وفي أمريكا في الستينات كان لمثل هذه العبارة ، إن قلتها لشخص من نفس الجنس ، إيهاءات قوية (أحياناً جنسية) . فاللغة الإنجليزية لغة تم ترشيدها تماماً ، ومن هنا لا بد للمتحدث أن يكون مقتصرأ للغاية في التعبير عن عواطفه . فوجدت أنني لو استسلمت للغة الإنجليزية لطاعت مني لغة العواطف القوية ، ولذا كنت أستخدم العبارة التالية : " كما نقول بالعربية ، لقد افتقدتك " . " As we say in Arabic, I miss you " وبذلك أحيد المكون الحضاري أو أجعله عربياً بأن أجعل المرجعية عربية ، تسمح بالتعبير عن العواطف . وقد وجد الكثيرون في قسم للغة الإنجليزية هذه الصياغة اللفظية ممتازة فكانوا يستخدمونها ، برغم أنهم أمريكيون ، حتى يتحرروا قليلاً من حدود لغتهم الباردة ، وحتى يمكنهم التعبير عن عواطفهم . وكنا حينما نلتقي في الصباح في القسم نستخدم العبارة التي أشرت إليها ونضحك من المفارقة .

وفي طريق عودتي إلى مصر أنا وزوجتي وابنتي ، قررنا أن ننفق كل ما ادخرناه في أثناء إقامتنا (ومع انتهاء المدة كان مبلغاً محترماً نظراً لأنني كنت أحصل على إعفاء من مصاريف الجامعة نتيجةً لثروتي ، وكان قانون البعثات أيامها ينص على أن من يحصل على مثل هذا الإعفاء ترسل له البعثات المبلغ كاملاً كمكافأة . كما أنني عملت في مكتب الجامعة العربية في نيويورك بعض الوقت ، كما سأبين فيما بعد) . وكانت رحلة ممثلة بالفعل . فقد ركبنا عابرة محيطات نسمى كريستوفر كولومبو مشهورة بترفها . ونزلنا في البرتغال لمدة يوم ، ويوم آخر في إسبانيا ، واستقر بنا المطاف في نابلي ، إيطاليا ، وبقينا فيها عدة أيام ، ومنها إلى روما ثم فيسبا ثم سينا وسان جيمينانو وفيرونا وفلورنسه والبندقية وميلانو ، ثم اتجهنا إلى سويسرا حيث قضينا بضعة أيام في جنيف ولوزان ، ومنها إلى فرنسا حيث قضينا شهراً في باريس (وفرساي وشارتر) ، ومنها إلى لندن حيث قضينا شهراً في إنجلترا (منطقة البحيرات) حيث استأجرت سيارة

وسرنا بمحاذاة نهر دادون الذي كتب عنه ورفزوث مجموعة من المرفقات] - إسكتلندا ، حيث تركنا ابتنا عند بعض الأصدقاء - لندن حيث قضينا بضعة أسابيع تنتقل بين المتاحف والقلاع والقصور والمسارح) . وبعد أن جاءت ابتنا من إسكتلندا ذهبنا إلى هولندا ومنها إلى ألمانيا حيث تسلمنا سيارة فولكس فاجن في الشمال وقدنا السيارة إلى ميونيخ ومنها إلى النمسا ، فتابلي في إيطاليا ومنها إلى بيروت فالإسكندرية . وبذلك نكون قد قضينا أربعة شهور زنا خلالها معظم معالم أوربا (متاحف وحدائق وقصور وآثار) . عدنا بعد كل هذا إلى الإسكندرية حيث كان الأهل في الاستقبال . وأذكر أننا حينما دخلنا للمياه المصرية ، كان أحدهم يحمل راديو ترانزستور ، وسمعت أغنية «مال علي مال» للمطربة فائزة أحمد (كلما سمعتها أثار شجوني) . ثم رأينا قوارب بخارية مسرعة نحو الباخرة فابتسمت وقلت لزوجتي : «الكوسة المصرية بدأت» ، فوالهني من حولي ، واستنكروا الموقف . وإذا بي أرى ابن عمي ، رئيس المحطة البحرية ، هو قائد المظاهرة البحرية ، وأنني المستفيد من الكوسة ، وحينما عانقتي بحرارة أمام الجماهير ، تصببت عرقاً ، وكانت عيوني تسترق النظر للآخرين لأرى مدى دهشتهم واستنكارهم للكوسة المتدفقة ! ومع هذا يجب أن أضيف أنني لاحظت أنه حين بدأ مراقبو الجمارك في تقدير قيمة ما أحضرت من أدوات كهربائية من الولايات المتحدة ، كانوا يبالغون في ثمنها . وأدركت أنهم يفعلون ذلك «لإرضاء» ابن عمي ، الذي كان يتسم بالصرامة . فأخبرتهم بأن في هذا ظلم لي ، وأنني يجب أن أعامل كما يُعامل كل اليهود من زملائي ، وأنني لا ذنب لي إن كنت ابن عمه . فضحك المراقبون وبدأوا في معاملتي بالمعابر العادية .

بعض من صرحت في الولايات المتحدة

كوُنت في الولايات المتحدة مجموعة من الصداقات التي كانت خير عون فكري ومعنوي لي . تعرفت في نيويورك على فرانسيس باز Francis Paz ، وهو أستاذ أمريكي متخصص في نجيب محفوظ ، حرّلت حياته إلى عمل فني - كل شيء فيها تعبير عن محاولة للوصول إلى الجمال والنظام . وهو من أصل مكسيكي من ناحية الأب ، إيراني من ناحية الأم ، وكان يجد أن الحياة الحديثة بنسبيتها الشديدة متوذي بالإنسان ، ومن هنا تمسكه الشديد بالجمال وأشكاله المختلفة ، ثم تمسكه الشديد بأهداب دينه . بل إن الجمال عنده يمتزج بالدين تماماً ويكاد التزامه بهما يكون في نفس المنزلة . كنا نجد في منزله مخطوطاً عربياً جميلاً وقطعة سجاد قديمة وقطعة من السيراميك وأيقونة بيزنطية . وكان يتردد على كنيسة مجاورة لمنزله ، ولكنه كان يبحث أيضاً عن الكنائس التي تؤدي الموسيقى الدينية بالمستوى الذي يرضي ذوقه . مازلنا نحل ضيوفاً عليه هو وزوجته (فيغيان) حينما نذهب إلى نيويورك .

ومن أطرف الوقائع التي حدثت لي في نيويورك أنني حضرت عام ١٩٦٤ حفلاً أقامه طالب

ثري من زملائي في جامعة كولومبيا يسمّى جون كافاليتو John Cavalletto. ثم بعدت الشقة بيننا ، إلى أن عدت إلى الولايات المتحدة في السبعينيات ، فوجدت أنه أصبح من أهم الشخصيات اليسارية المعادية لإسرائيل . فحصلت على رقم تليفونه ودعوته لطعام الغداء . وحينما حضر أخبرني أن الحقل الذي حضرته عنده شكّل لحظة فارقة في تطوره السياسي لأنه سمع مني لأول مرة عن تلك الحقيقة البديهية التي يعرفها أي مثقف مصري ، وهي أنه لا يوجد اختلاف جوهري بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي ، ومن هنا لا يوجد نداول حقيقي للسلطة ، وأن هذا فتح عينيه على طبيعة النظام السامسي في الولايات المتحدة ، ومن هنا بدأ يبحث عن صيغة سياسية تتجاوز النظام القائم .

وقد تعرفت في كولومبيا إلى المفكر العربي / الأمريكي إدوارد سعيد الذي كان يدرس في كولومبيا ، وكان على وشك الحصول على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة هارفارد . ولم نتحدث ساعتها عن الصراع العربي / الإسرائيلي ، وإنما تحدثنا عن أمور كثيرة خاصة بالمتنوع العربي وبالخصارة العربية . كما تعرفت إلى الدكتور يحيى العزبي ، الأستاذ بالجامعة الأمريكية (إذ كنا ندرس معاً مقررأ في الدراما الحديثة) . كما تعرفنا إلى زوجته أميرة ، وقد نشأت بين أسرتنا صداقة (أدامها الله) تترينا إنسانياً وثقافياً وعاطفياً ، لا تختلف كثيراً عن صداقتنا مع د. عمر وهدي خليل اللذين تعرفنا إليهما إبان الفترة الثانية التي قضيناها في الولايات المتحدة .

كما توطلدت الصلة مع زميل آخر لي وكان واعظاً بروتستانتيّاً من الجنوب ، تخرج في جامعة هارفارد (قسم اللاهوت) وقرر الحصول على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة كولومبيا (إذ كان قد قرر أن يهجر وظيفته الدينية) . كان جون سميث (ليس اسمه الحقيقي) إنساناً متوحشاً يعيش على الفطرة (كنت أشير له بأنه المتوحش النبيل) بالإنجليزية : نوبل سافيج (noble savage) ، يحس بالضيق الشديد في نيويورك بسبب برود الناس فيها . وكان هو متوقد العواطف ، كرمه لا حدود له ، ولعل هذا ما جمعنا . ولكنه كان من أوائل النماذج التي قابلتها لإنسان غارق في المعلوماتية يحاول في الوقت نفسه الوصول إلى رؤية كلية مترابطة تمام الترابط (وهذه حلقة مستحيلة ، ذنب هيجلي معلوماتي سأتناوله بالتفصيل فيما بعد) . ثم بدأ يميل تدريجياً إلى البحث النهم عن الحقائق المادية والمصمتة ، أي أنه غرق في المعلوماتية .

بعد أن تركت جامعة كولومبيا للدراسة في جامعة رنجرز كان هناك سلسلة من الكتب النقدية البسيطة هدفها مساعدة الطلبة على دراسة الأدب الإنجليزي تدفع مكافأة مقدارها ٧٠٠ دولار نظير أي مقدمة نقدية تنشر في السلسلة (وهو مبلغ لا بأس به في الستينيات) . فتقدمت بطلب كتابة دراسة عن الشاعر الإنجليزي وليام وردزورث وتقدم جون سميث بطلب لكتابة كتاب عن كوليردج ، فقبل طلبه ورّفص طلبي . وحينما استفسرنا عن السبب كان الناشر

صريحاً واضحاً إذ قال إن الاسم العربي سيجعل الطلبة يحجمون عن شراء الكتاب (وكان محقاً في هذا) . فطلبت من صديقي أن يتقدم بطلب باسمه لكتابة الكتاب عن وردزورث على أن أقوم أنا بكتاتيه ، فقبل طلبه . وقمت أنا بكتاتيه بالفعل . وحينما جاء دوره ليكتب الكتاب عن كوليردج عجز تماماً ، إذ هاجمه الذئب المعلوماتي . فقامت بكتاتيه ولكنه أضاف بعض المعلومات (التي شوهت الكتاب في تصوري) . ظلت الصداقة قائمة بيننا بعض الوقت إلى أن تقدم "بأعماله" النقدية ليرقى في كليته . فقبل كتاب وردزورث ورفض كتاب كوليردج . وكان هذا من شأنه أن يجعل العلاقة بيننا تبرد كثيراً ، برغم استمرارها بعض الوقت بعد ذلك .

وبعد وصولي إلى جامعة رنجرز مباشرة انضم إليها البروفيسور وليام فيليبس William Phil-ips ، وتعود شهرته إلى أنه أحد مؤسسي مجلة البارليزمان ريفيو Partisan Review ، وهي مجلة فكرية ذات اتجاه يساري معاد للشمولية ، ابتعدت تدريجياً عن الماركسية مع احتفاظها بالحس الاجتماعي والتاريخي والحضاري . وقد أحضر البروفيسور وليام فيليبس مجلته معه ، وبدأت تُنشر من جامعة رنجرز . كان البروفيسور وليام فيليبس يدرس مقررًا في النقد الأدبي من أرسطو حتى العصر الحديث ، وكانت محاضراته في النقد الحديث مليئة بالحكايات الشخصية الصغيرة عن علاقته بجان بول سارتر وكيف أن سيمون دي بوفوار كانت تغار عليه تماماً من البنات الصغيرات برغم كل حديثها عن الحرية والانفتاح . وما الذي قالته ابنة إيزاك بابل (الكاتب السوفيتي) عن السبب الحقيقي لإعدام أبيها (ادعت السلطة السوفيتية أنه كان معادياً للثورة . وفي حقيقة الأمر ، كان أحد عملاء المخابرات عشيقاً لأملها وقرر التخلص من السيد الوالد) .

وكانت البارليزمان ريفيو مركزاً يتجمع فيه كثير من المثقفين اليهود . وكان البروفيسور فيليبس ، وهو من كبار المثقفين الأمريكيين اليهود ، يدعوني لبعض الحفلات التي تعقدها الريفيو ، فتعرفت إلى الكثيرين منهم . كان من بينهم ، على سبيل المثال ، دانيال بل Daniel Bell الذي كان قد بدأ يقدم أطروحته الخاصة بنهاية الأيديولوجية ونظرية التلاقي بين كل المجتمعات الصناعية ، اشتراكية كانت أم رأسمالية ؛ وليسلي فيدلر Leslie Fiedler الذي كان لا يكف عن الحديث عن رسالة اليهودي بحسبانه الغريب الأجنبي وعن الإسكانولوجي (نهاية الأيام) ، وإيرفينج هاو Irving Howe الذي كان يتحدث عن رؤية للمعادلة الاجتماعية خارج نطاق الاشتراكية (ولكنه مع هذا من أكبر مؤيدي إسرائيل) .

أذكر مرة أن طلب مني البروفيسور فيليبس أن أكتب بحثاً عن كتاب الشعر لأرسطو ففعلت وقرأته في المحاضرة ، وكان تعليقه طريفاً وحكيماً للغاية إذ قال ساخراً : "مستر السيري كلنا نعرف أنك ذكي للغاية ، بل نعرف أنك تفوق أرسطو علماً ، ولكن فلتحاول دائماً أن تفهم قبل أن تصدر أحكامك" . وهذه بالمناسبة حقيقة ! فأني طالب في أي جامعة في العالم "يعرف" . لربما عرفه أرسطو عشرات المرات من ناحية المعلومات ، أما من ناحية المقدرة على التحليل والرؤية

النقدية التي تصل إلى جوهر الأمور ، فالأمر جد مختلف . كان بحثي ماركسياً ملتجئاً أحاول أن أربط فيه بين نظام العبودية وجماليات أرسطو . وقد قمت بدمج الفيلسوف اليوناني بطبيعة الحال "لسكرته عن الظلم المحيط به ولا نحيازه للأسياد ضد العبيد" . ولم يكن حديث البروفيسور فيليبس لي درساً في التواضع وحسب ، وإنما كان درساً في ضرورة أن يسبق الحكم الأخلاقي (أو الطبقي أو السياسي) عملية فهم وتفسير (وهذا ما أطلب به في الوقت الحالي في علاقتنا بالصهيوية وإسرائيل ، بل مع كل الظواهر ، على أن نبتعد عن الشجب والشتن دون أساس من الدراسة) .

ومن المهم أن أذكر هنا علاقتي العميقة بالبروفيسور فيليبس وتبنيه لي وتقديمه الكثير من العون لي (بما في ذلك إتاحة الفرصة لي للعمل في الريفيسيو) . وعلاقتي به تقف على طرف النقيض من الأسطورة التي يروجها بعض الطلبة المصريين من أن الأستاذ اليهودي اضطهدهم وأعطاهم من الدرجات أقل مما يستحقونه . ولا شك في أن هناك أساتذة متعصبين ، ولكن هناك أيضاً الكثيرون أمثال الأستاذ وليام فيليبس ، ولذا يجب عدم التعميم .

ومن أساتذتي أذكر أيضاً البروفيسور ديفيد وايمر الذي تربطني به حتى الآن صداقة حميمة . وقد كان هو المشرف على رسالتي للدكتوراه . كنا نلتقي مرة أو مرتين في الأسبوع نناقش كل شيء ونسير معاً في الطرقات والحدائق والمطاعم . وكنت قد بدأت في عقد لقاء أسبوعي في أحد المقاهي في مدينة نيويورك سميت "يوم الجمعة الرعوي" (بالإنجليزية : باستورال فرايداي Pastoral Friday) ، أي أنه لقاء يستدعي الجو المثالي الخالي من الآلام والشكوك والصراع ، عالم التلقائية والفترة السليمة التي لم تفسدها الحضارة ولم تخربها المدنية ، الذي يفترض أن الرعاية يتحركون في إطاره (في الأناشيد الرعوية في التراث الغربي) . كنت ألتقي أنا وأصدقائي وكل من يحب أن ينضم لنا في ذلك اليوم ، وكان الشرط الأساسي في هذا اللقاء ألا يتحدث أحد في الأمور الأكاديمية ، وأن نطلق على سحبتنا نتحدث ونثرثر ونأكل وندخن السيجار الرخيص . كان ديفيد وايمر يأتي أحياناً إلى لقاء الجمعة الرعوي وينمتع به أيما تمتع . وقد ساعدني البروفيسور وايمر وشجعني عبر مراحل كتابة رسالتي للدكتوراه (كما سأبين فيما بعد) . كان يتحمس كثيراً لما كنت أكتبه ويرى أن فيه كثيراً من الحكمة وشيئاً من الجنون ، وأن نسبة الحكمة أكبر من نسبة الجنون ، وكان كثيراً ما يقرأ ما أكتب من أبحاث على الطلبة . وعندما قدمت له النسخة الأولى من رسالتي للدكتوراه أخبرني شفهياً أنها رسالة متميزة . وحين عدت إلى مكتبي وجدت رسالة منه مكتوبة من سطرين يقول فيهما : "دعني أخبرك ، بهذه الطريقة الرسمية إلى حد ما ، إنك كتبت عملاً متميزاً" Let me tell you, in this more or less formal way, you have written an outstanding dissertation . وبعد مناقشة رسالتي للدكتوراه كتب لي رسالة طويلة يخبرني فيها أنني لابد قد عانيت الكثير ، ولكن إحسامي الداخلي بالرضا (في

مقابل الاعتراف الأكاديمي بالرسالة) هو خير تعريض لي .

أما البروفيسر وليام كيلوج William Kellog أستاذ أدب العصور الوسطى ، الذي درست على يديه شعر العصور الوسطى ، فقد نصب نفسه أباً لي ، تبناًني أنا وأسرتي (لعله كان يشعر بالوحدة بعد أن تركه أولاده) . كان يدعوني دائماً لتناول طعام الغداء بشكل شبه دوري ، وقد أخبرني ونحن نتناول عشاء الكريسماس السنوي عنده أنه حينما يقابلني في الصباح فإنه يستمد قدراً كبيراً من الحياة .

وثمة قصة حزينة في حياتي ، كان البروفيسر كيلوج هو أحد أبطالها . إذ كان يشرف على رسالة للدكتوراه ، وكان موضوعها هو تحقيق مخطوط لإحدى الترجمات اللاتينية في العصر الوسيط لكتاب الشعر لأرسطو . وكانت المخطوطة تحتوي على بعض جمل بدا لأول وهلة أن لا معنى لها ، ولذا سببت حيرة عميقة للطلاب الذي كان يكتب الدكتوراه ولأستاذه الدكتور كيلوج . وتصادف أنني اطلعت على المخطوطة ، فأحسست أن الجمل التي تبدو كأن لا معنى لها قد تكون ترجمة ركيكة لأبيات شعر عربية ، ومن هنا فالمخطوطة ليست ترجمة مباشرة لكتاب الشعر لأرسطو ، وإنما قد تكون ترجمة لشرح ابن رشد له . (وكنيت قد تعرضت للموضوع في رسالتي للمماجستير في جامعة كولومبيا) . فأخبرت الطالب عن الأصل المحتمل ، وتطلعت أن ألقى المخطوطة بعناية أكبر حينما أعود لمصر . وبعد عودتي أحضرت تحقيق د. عبد الرحمن بدوي لشرح أو ترجمة ابن رشد لكتاب الشعر ، وكم كانت فرحتي بالغة حين اكتشفت أن تخميني كان في محله . وقضيت يومين في المكتبة ، ونجحت في حل كل المشكلات التي أدت إلى توقف البحث ، ووضعت نتيجة بحثي في خطاب أعطيته إلى صديق سافر إلى الولايات المتحدة على أمل أن يرسله عن طريق البريد لصاحب البحث . ولكن بعد عدة سنوات سألت عن الطالب ، فقالوا لي إنه لم يتسلم الخطاب قط . ولا أدري هل هو إهمال من مصلحة البريد الأمريكية ، أو أن صديقي حامل الخطاب لم يف بوعده . المهم بعد سنوات من البحث المضني الذي لا طائل وراه ، اضطر صاحبنا إلى أن يغير موضوع رسالته .

ومن أعز أصدقائي في الولايات المتحدة وليام جولدن William Golden (وكننا نسميه بل ، وهو الاختصار الشائع واسم الدلع لوليام . ولكنه كان يُسمي نفسه بل ذا جولدن Bill, the Golden ، بل الذهبي ، كما لو كان أحد فرسان العصور الوسطى) . كان دائم الابتسام ، من أصل كاثوليكي لا يكثر كثيراً بالإيجاز في رقعة الحياة العامة . وكان يعيش مع أبويه ، وهذا أمر نادر للغاية في الولايات المتحدة ، إذ إنه إذا بلغ الفرد سن السادسة عشرة أو النامنة عشرة فإنه لا بد أن يعيش بمفرده ، ومن هنا يبدأ في استيعاب قيمه من المجتمع المحيط به : الإعلام أو مجموعة الأصدقاء التي يعيش معها ، فتم عملية صياغته وقولته اجتماعياً بل وتنميطة بسرعة شديدة وكفاءة عالية وبدون تدخل الأسرة . أما بل فظل يعيش مع أبويه ، وكانت النتيجة أنه ظل

مستغلاً في شخصيته عن المجتمع وعن أقرانه ، وأصبح عنده وقت فراغ كبير (فهو ليس مضطراً لأن يعد طعامه لنفسه أو لغسل ملابسه) . وكنت قد بدأت حياتي المكثفة سريعة الإيقاع التي استوعبتها كتابة الدكتوراه والاشتغال بإعطاء محاضرات عامة عن مصر أو عن الصهيونية ، الأمر الذي لم يكن يدع لي دقيقة أستريح فيها أو أتواصل إنسانياً مع نفسي أو مع غيري . فكان بل يأتي لزيارتي كل أسبوع ويجلس على عتبة منزلي فأخرج "وأضطر" للجلوس معه ، ويأتي الأصدقاء ونظير إلى أن نقضي بضع ساعات صفاء لا يشغلنا فيها الزمان بما حمل . وقد أصبحت هذه عادة أسبوعية .

وبدأت في هذه المرحلة من حياتي الاهتمام بمن أسميهم "اليتامي" و"الأبرياء" ، وهم أشخاص يتسمون بالبراءة لم يفقدوا آباءهم بالضرورة ولكنهم وجدوا أنفسهم عزلاً أمام المجتمع الحديث المتوحش الذي لا ينتصر فيه سوى الأقوياء ، والذي يقوم بتهميشهم وتهذيبهم . ومن أكثر اليتامي حزناً صديقي بيتر Peter (ليس اسمه الحقيقي) وكان شخصاً رقيقاً للغاية . ولكن أبويه كانا يريدها شخصاً قوية مستقلة "تعتمد على نفسها" إلخ . وليس كل البشر عندهم هذه المقدرة (تري زوجتي أنه كلما امتدت فترة الحضانة قويت شخصية الطفل على عكس ما يتصور الكثيرون ، وأنه إن دُفع بالمرء إلى عالم الصراع اليومي في مرحلة مبكرة وهو غير مستعد لها فإن شخصيته تهتز) . وشاء حظ بيتر أن أباه كان يعمل في مجلس المدينة ، وكان يأتي له في الصيف يعمل في السجن ، والسجن له قوانينه الخفية الخاصة : تهريب الطعام والمخدرات - إدخال البغايا - التعامل مع أسوأ البشر . فكان يخرج من عمله الصيفي محطماً تماماً . وبعد أن تعلمت إليه أخبرته أنه يمكنه أن يخبر أبويه بأنه لن يأخذ وظيفته الصيفية "متأدداً" ، وأنهما لو رفضا الإنفاق عليه (وكانا متيسري الحال) فيمكنه الإقامة معي في منزلي طيلة فصل الصيف . ونجحت الخطة ، وانتصر في المعركة وقضى أول صيف له دون أن يذهب إلى السجن ، واسترد هذا اليتيم كثيراً من براءته التي فقدوها . ومازلت أهتم باليتامي والأبرياء هؤلاء ، حتى يذوقوا التراحم في مجتمعات لا قلب لها ، وحتى يمكنهم البقاء في مجتمعات البقاء فيها للأقوى .

وقد حدثت لي واقعة في الكويت أجد أنها جديرة بالتسجيل . كنت أدرّس مادة الشعر ، وكان بين الطالبات طالبة كويتية متفوقة في هذه المادة ورغم أنها كانت تدرس في كلية العلوم . واتصلت بي هذه الطالبة عدة مرات لمقابلاتي ، وكنت أعدها خيراً وأؤجل الموعد (إذ كنت قد وقعت في براثن الموسوعة) . وفي آخر موعد ، اتصلت بها لتأجيله ، فوجدتها في غيظ شديد من التأجيل ، فتراجعت عن مواعيدي وقلت لها إنني سأقابلها على الفور في مكتبي . وحينما حضرت بدأت تشكو من أنها تشعر بالغيرة عن أمها ، وكلما اقتربت منها شعرت بالبعد . وقد عرفت منها أن الأم إنسانة عادية ، وأن البعد بينها وبين ابنتها ليس متعمداً من جانبها ، وإنما هو نتيجة اختلاف في اللغة أو الخطاب . فالأم - كما أسلفت - إنسانة عادية ، ولكن الابنة غير عادية بأي

مقاييس وأجهشت الطالبة ببيكاء حار، ثم ودعتني . وحينما قابلتها في الكلية في اليوم التالي تجاهلتني تماماً ، وكأنها أرادت أن تغلق هذا الملف ، أو أن تخرج هذا الغريب من حياتها بعد أن كاشفته . وفي أواخر العام كانت تحييني عن بعد وبما يشبه الفتور ، وقد تفهمت وضعها تماماً . ولكن الأمر الذي حيرني آنذاك (ولا يزال يحيرني حتى الآن) هو خطابها الموغل في الحداثة (الاعتراب - الدات - الآخر - قتل التواصل) . ولم أقابل مثلها من قبل ولا من بعد . بطبيعة الحال هناك دائماً فجوة تفصل بين طلبتي التمييزين وآبائهم ، وهذه الفجوة هي مصدر شكوى دائمة ، ولكن الحدة التي اتسم بها خطاب هذه الفتاة أمر لا يزال يحيرني .

ومن المصريين الذين تعرفت عليهم في الولايات المتحدة الأمريكية وأعتر بصداقتهما العائلية الدكتور أشرف البيومي وزوجته د. سهير مرسى . فكلاهما أحرز مكانة علمية مرموقة ، وقد سمعت أن الدكتور أشرف كان بعد من أهم spectroscopist في الولايات المتحدة . ولكنه مع هذا عاد هو وزوجته إلى مصر لیساهموا في بناء الوطن ، وهما من المصريين القلائل الذين فعلوا ذلك ، للإغراءات القوية في الولايات المتحدة ، والإمكانات البحثية تغوي الكثيرين بالبقاء هناك ، ثم يعودوا لنا "خبراء أجانب" نحتفل بهم ونترج رؤوسهم بأكاليل الغار ، ونسى من ضحوا وعادوا بسبب التزامهم الوطني . والدكتور أشرف وزوجته - في نصوري - شيء نادر ، فهما يكونان حركة ثورية ، وقوة دافعة للمجتمع ، تبعث على التفاؤل ، لأنه إذا كان بمقدور فردين اثنين أن يحركا الماء الآسن بهذا القدر ، وببشا الحياة في المجتمع ، فإنه من الممكن ، إن تضافرت الجهود ، أن تنجز شيئاً وأن نهض .

الثورة هي أمريكا)

وبعد وصولي بعام إلى جامعة رنجرز التقيت بكافين رايلي ، المؤرخ الأمريكي المعاصر وصاحب كتاب الغرب والعالم : تاريخ العالم من خلال موضوعات The West and the World A Topical History of Civilization ، ونشأت صداقة عميقة بيننا . كان كلانا آنذاك ماركسياً ، ولكننا كنا ماركسيين بشرطة إن صح التعبير ، فقد كان عندنا مشكلات كثيرة مع التفسيرات الاختزالية المادية البسيطة ، نؤمن بالإنسانية الماركسية ونهتم بدور الفكر في التاريخ . وقد بدأت في تلك الفترة تطوير رؤيتي الخاصة بنهاية التاريخ (والتي سأشرحها بإسهاب فيما بعد) . لم يوافقني كافين في البداية ودخلنا في نقاش حاد، إذ إن الرأي السائد آنذاك في الأوساط الأكاديمية أن علم التاريخ قد بدأ مع ظهور البورجوازية ، فأشرت إلى أن الإحساس بالتاريخ غير علم التاريخ ، وأنه يمكن أن يكون هناك أستاذ للتاريخ في جامعة هارفارد دون أن يكون عنده أي إحساس بالتاريخ ، تماماً مثل أستاذ علم الأخلاق المنحل أخلاقياً ، وأستاذ الحكمة الذي لم ينل من الحكمة إلا أقل القليل . وكانت شكوكي بخصوص الرؤية المادية تتزايد بدرجة أكثر حدة من

كافين رايلي (ربما بسبب دراستي الأدبية وبسبب دراسته التاريخية) . المهم تعلمت من كافين الكثير (وكما جاء في مقدمة كتابه تعلم هو أيضاً مني الكثير) ، وكانت صداقته من أكثر الصداقات إثراءً لي . وما زلت ألقاه كلما ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فأقضي على الأقل بضعة أيام معه هو وزوجته نتحدث في كل شيء : ابتداءً من بنية الطعام التايلاندي وانتهاءً بالأزمة الاقتصادية في الولايات المتحدة مروراً بالأبعاد المعرفية للمدن المقدسة في أمريكا اللاتينية قبل وصول كولومبوس . يتروّد كافين في الحديث دائماً ، ولكنه عنده معرفة ثرية بكل هذه الأمور ، وتردده الدائم هو تردد العالم الذي يخشى أن يصدر حكماً متسرعاً (كتب كتابه الغرب والعالم فيما يزيد على عشرة أعوام) . ولكنه ، مع هذا ، صاحب عاطفة جياشة يدرك العالم بعقله وقلبه وحواسه وروحه . وقد حضر إلى القاهرة عدة مرات لقضاء بعض الوقت معي .

لم يحصل كافين على درجة الدكتوراه بسبب ما أصابه من إنهك في أثناء تأليف كتابه الغرب والعالم . ولكن أحد أساتذته في جامعة رنجرز سمح بالكتاب ، فاستدعاه وطلب منه تقديم الفصل الأول والثاني من كتابه كرسالة للدكتوراه وحصل بناءً عليه على الدرجة (وهذا أمر غير مألوف في الولايات المتحدة نفسها) . ومرة أخرى لنقارن هذا الوضع بما يحدث في مصر . حينما حصلت زوجتي على درجة الماجستير من الولايات المتحدة ، قررت الحصول على الدكتوراه في التربية من مصر ، بدلاً من السفر للخارج . فرفض الاعتراف بدرجةها العلمية ، وطلب منها أن تحصل أولاً على دبلوم عام ثم دبلوم خاص في التربية ثم ماجستير ثم دكتوراه . (قررت الجامعة بعد ذلك ، وبعد جهد جهيد ، أن تتنازل عن الدبلوم العام وحسب بخسبان أنه معادل للماجستير) . وقد بينت ساعتهما للسيد رئيس الجامعة - وكان رحمه الله تربيواً - أن هذه العملية ستستغرق على الأقل أحد عشر عاماً ، فوافق على ما أقول ، ولم يجد أي غضاضة في ذلك .

ولنقارن هذا أيضاً بمحاولتي أن أحول نفسي من أستاذ أدب إنجليزي إلى أستاذ علم اجتماع (لأن الناقض بين تخصصي الأكاديمي واهتماماتي الفكرية كان أخذاً في الاتساع وكان لابد من حسمه) . وعلمت أن لوائح الجامعات المصرية تسمح بذلك ، شريطة أن يكون الأستاذ المتقدم عنده من المؤلفات في التخصص الجديد ما يسمح بنقله . وكنت أتصور أن بعض مؤلفاتي في الصهيونية تندرج تحت هذا التصنيف (كان كتابي الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة يدرّس في مقررات علم الاجتماع في بعض الجامعات العربية) . ومع هذا قررت أن أحصل على ماجستير في علم الاجتماع حتى أطمئن لجنة الترقية إلى أنني لست دخيلاً ولا أنوي اختراق الصفوف بل أحاول الانضمام . واختصاراً للوقت ذهبت إلى الجامعة الأمريكية وسجلت للدرجة الماجستير في قسم الاجتماع ودرست المقررات المطلوبة ولم يبق سوى الامتحان النهائي الشامل . حينذاك ، قابلت أحد أعضاء لجنة الترقية لرتبة أستاذ في علم الاجتماع فأخبرني بأن

الأمر الذي أحاول إنجازَه مستحيل وأن اللجنة لن توافق على تحويلي مهما فعلت ، لأن هذا يعني أنني أبداً من القمة وهذا ما لا تسمح به البيروقراطية في مصر ، بلد الأهرامات القديمة والراسخة . فتوقفت عن محاولتي المحكوم عليها سلفاً بالفشل ، وقررت أن أحسم التنافس بالاستقالة تماماً من الجامعة حينما حان الوقت .

ويتناول كتاب الغرب والعالم (الذي كتبه كافين رايلي) تاريخ الحضارة لا بطريقة السرد التاريخي المألوف وإنما من خلال موضوعات وإشكاليات ومن خلال رؤية مركبة (تحتاج تحليلية مركبة) لا ترد عالم التاريخ والإنسان إلى عالم المادة والطبيعة ولا تعطي أي مركزية للحضارة الغربية ، وإنما تقدم رؤية عالمية حقة يتنقل صاحبها بسهولة ويسر من المدينة إلى القرية ، ومن الحاضر إلى المستقبل ، ومن عالم الآلة إلى عالم الفن (وقد قمت بترجمة الكتاب إلى العربية أنا وزوجتي الدكتور هدى حجازي ونشر في سلسلة عالم المعرفة بالكويت) .

وقد عاصرت أنا وكافين فترة الستينيات في الولايات المتحدة (حينما كان الشباب الأمريكي في حالة ثورة ضد المجتمع الأمريكي بإمبرياليته واستهلاكيته) . وكنت نشيطاً في حركة الشباب اليساري في الولايات المتحدة آنذاك (في الواقع كنت مستشاراً لشئون الشرق الأوسط لأحد مرشحي الرئاسة الأمريكية يسمى بول بوتيل Paul Boutelle ، وهو زنجي أمريكي عضو في حزب تروتسكي يسمى حزب العمال الاشتراكي [بالإنجليزية : سوشاليست وركرز بارتني Socialist Workers Party] . لم يسمع سوى قلة قليلة بهذا الحزب ، أما مرشحه للرئاسة فلم يسمع به أحد قبل الحملة الانتخابية أو في أثنائها أو بعدها ، اللهم إلا لمدة نصف ساعة في إحدى محطات الإذاعة والتلفزيون التي كانت مخبئة بحكم القانون أن تخصص له هذا الوقت) .

كانت إدارة الجامعات الأمريكية آنذاك في حالة هلع وخوف شديدين . وفي هذا الإطار ، قررت أن أقوم بثورة لرفع الأجور ، فطلبت من مكتيرة القسم أن تطبع المنشور رقم (١) وتوزعه على كل الأساندة والطلبة . (بدأ المنشور بمباراة شهيرة من قصة ملفيل القصيرة "بارتلي : الكاتب Bartleby : The Scrivner" "لأنني أفضل ألا أفعل Because I prefer not to" وبُيّت في المنشور أن المعيدين في قسم اللغة الإنجليزية يتم استغلالهم بدرجة تفوق الاستغلال الواقع على المعيدين في الأقسام الأخرى . إذ إننا نقوم بالتدريس وتصحيح أوراق الطلبة وغيرها من المهام مما يجعل وظيفة المعيد ليست مجرد مساعد باحث أو مساعد مدرس ، بل موظفاً طول الوقت . وطالبت إما بمضاعفة المرتب وإما بتخفيض ساعات العمل . وعُقد اجتماع بناءً على منشوري ، حضره جميع المعيدين واتخذ القرار بالمطالبة بخفض ساعات العمل إلى النصف . وأبلغ مدير الجامعة بالقرار فوافق على الفور . ولعل هذه هي أول (وآخر) مرة في التاريخ تتحقق فيها الثورة من خلال منشور واحد تكتبه مكتيرة تعمل لدى "المؤسسة الحاكمة" .

في هذا الجو الملتهب قررنا أنا وكافين أن نؤسس منتدى فكرياً ماركسياً ، فذهبت إلى إدارة الجامعة وطلبت مقابلة عميد الطلبة باعتباره المسئول ، وأخبرته بدون أي مواربة بما أريد . وبدلاً من مواجهة حادة بين البورجوازية (مثلة في شخص العميد) من جهة ، والطلاب والقوى الثورية (ممثلين في شخصي المتواضع) من جهة أخرى ، ابتسم العميد ابتسامة ليبرالية عريضة ، وقال : "مستر المسيري نشكرك على اقتراحك ، فنحن في أمس الحاجة إلى حزب ماركسي في هذه الجامعة ، إذ لا يصح أن توجد جامعة محترمة دون مثل هذا الحزب" . (أصبحت بالإحباط والغضب الشديدين . فرت علينا هذا اللعين الفرصة ، وبدلاً من أن نسجل لحظة مواجهة تاريخية ساخنة بين القوى الصاعدة "نحن" ، والقوى الهابطة "هم" ، ها نحن أولاء نتفاوض بمودة بالغة) . وببرود شديد ، سألتني بأدب جم عن اليوم الذي سيجتمع فيه السوشاليست فورام Socialist Forum أي المنتدى الاشتراكي ، وحددت لي المكان . وتم الإعلان عن الزمان والمكان في جريدة الجامعة ونجورل قارجوم Rutgers Targum . وكانت أول محاضرة (بعد يونيو سنة ١٩٦٧) عنوانها "اشتراكي عربي يتحدث عن الصراع العربي الإسرائيلي" حضرها مئات ، وكانت حدثاً في الجامعة بسبب جودة الخطاب واختلافه عن الخطاب العربي السائد آنذاك والغارق في فكر المزاورة (الأمر الذي سأوضحه فيما بعد) .

ثم بدأنا بعد ذلك في المنتدى الاشتراكي سلسلة محاضرات أسبوعية كانت تدور حول موضوعات مختلفة ، ونجحت في أن أجعل من إسرائيل موضوعاً أساسياً في كل المحاضرات بغض النظر عن الموضوع المعلن للمحاضرة . فمن الممكن أن يكون الموضوع هو علاقة الأدب بالواقع أو نظام القمع في جنوب إفريقيا ولكنني كنت دائماً أوجه النقاش نحو إسرائيل . وكانت تجربة مثيرة حقاً ، أتاحت لي فرصة الاحتكاك بمختلف الحركات الثورية . وتعرفت ساعتها إلى ستوكلي كارمايكل Stokley Carmichael وغيره من الزعماء السود الأمريكيين ، ودعوناهم لإلقاء محاضرات عندنا . وكنا نحبي الذكرى السنوية لاغتيال مالكولم إكس Malcolm X (الذي كنت قد تعرفت إليه لفترة قصيرة جداً قبل اغتياله) ، كما دعنا منظمة الطلبة السود الأمريكيين ومنظمة الطلبة الإفريقيين لحضور اجتماعاتهما .

كان جو الجامعات الأمريكية مختلفاً تماماً عما هو عليه الآن . حينما سألت ، في السبعينيات ، عما حدث مجموعة المنتدى الاشتراكي التي كنت أشرف برئاسته وكان كافين رايلي هو وكيله (والعضو المنتظم الوحيد فيه) ، وجدت ما يلي : الأسماء غير حقيقية ، ديفيد جرينرج ، الذي كان يتناول حبساً مهددة بشكل غير عادي ، حاول أن يقتل زوجته ثم انتحر . ريتشارد فريدمان ، التروتسكي المتطرف ، تخصص في التحليل النفسي وبالذات في فيلهم رايش Wilhelm Reich الذي طور جهازاً يُسمى علب الأورجون لاصطياد الأشعة الكونية المعنية بالطاقة الجنسية لمساعدة الفرد على القذف بمفرده . قطع كل علاقاته مع ماضيه ، بما في ذلك رفاقه في

السلاح والكفاح أمثالي أنا وكافين . جون سواتسكي بدأ في تهريب المخدرات بين المكسيك والولايات المتحدة وقُبض عليه وأودع السجن . أما سارة ستاينبرج ، زوجة طبيب الأسنان الذي كان يعارب في فيتنام والتي كانت تكره حياتها البورجوازية معه ، فقد طلقته وأحببت شاباً شاداً جنسياً من النوع الصادي مازوخي . لم يبادلها الحب بل كان يستغلها . طارده حتى سان فرانسيسكو وحاولت أن تعيش معه دون جدوى ، لأسباب بدھية واضحة . حلت مشكلتها في نهاية الأمر بأن أصبحت عضواً في جماعة الودمن Weathermen اليسارية الإرهابية . أما داني Danny فقد تهرّد تماماً وأطلق لحيته وانغمس في العبادة ، ولكن ماضيه الثوري جعله يدرك حقيقة إسرائيل فامتنع من تأييدها . وحينما زرتة في كاليفورنيا ، كان قد طلق زوجته المسيحية تيرينا (التي أصبحت أصولية مسيحية متطرفة) وتزوج من زوجة يهودية بورجوازية هادئة تماماً . كان يعبر عن كراهيته لكل ما هو مسيحي بطريقة أفرعني (كان يعلق صورة المسيح في دورة المياه ١) . أما فريدريك ميلر فقد ظل مخلصاً لماركسيته بعض الوقت ، ثم بدأ يصبح أحد مفكري اليمين الجديد في الولايات المتحدة ، الذين يرون أن القيمة مسألة أساسية وأن النسبة الكاملة لا تصلح لتأسيس مجتمع ، ولذا فهم يرون أن للدين دوراً (ومغ هذا يؤمنون تماماً بالاقتصاد الحر الذي يقوض القيم وينشر النسبة الأخلاقية والفلسفية) . وكان هناك آخرون ممن حصلوا على الدكتوراه وانتظموا في السلك الجامعي أو أصبحوا جنوداً مستأجرين في هذا الجيش الضخم من المهنيين النظميين المدجنين من أعضاء الطبقة المتوسطة العالية في الولايات المتحدة ممن يقضون حياتهم في محاولة تحقيق الحلم الأمريكي : بيت وزوجة وسيارة وطفلان وكنب ومستوى معيشي مرتفع ومستوى أعلى من الملل واللامعنى واللامميارية ، أو محاولة جاهدة للوصول إلى المعنى عن طريق الانضمام في كنيسة أو عبادة جديدة أو الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك وزبارة المتاحف ولذوق ألحان الأطلعة .

ولكن حتى لا يتصور أحد أن الحريات بالفعل "مطلقة" في الولايات المتحدة ، علي أن أذكر واقعة أخرى . كان يوجد في نفس الفترة أستاذ يساري في الجامعة ، كان يأخذ موقفاً معادياً لحرب فيتنام . ولم يكن من الممكن للجامعة أن تطرده بسبب أفكاره . فقام مجلس الولاية بتقليص ميزانية الجامعة (وجامعة وجرمز جامعة تابعة لحكومة الولاية) ، ثم سربت رسالة إلى أعضاء هيئة التدريس مفادها أن تقليص الميزانية سببه هو وجود هذا الأستاذ اليساري في الجامعة ، فبدأ الأساتذة أنفسهم بالضغط عليه حتى يترك الجامعة ، فرفض في بداية الأمر ، ولكن بعد قليل أصبح الأمر لا يمكن تحمله ، فاضطر للاستقالة .

والديموقراطية الأمريكية محكومة تماماً من خلال ما يسمى بمؤسسة (أو آلة) الحزب (بالإنجليزية : بارتني ماشين party machine) . وأكبر دليل على هذا فشل مرشح أي حزب ثالث (خارج الحزبين اللذين يتناوبان الحكم) في أن يحصل على عدد من الأصوات له وزنه . وقد عرف

أحد أصدقائي من المهاجرين المصريين هذه الحقيقة ، فاستثمرها لصالحه تماماً . فبعد أن هاجر صديقي هذا إلى أمريكا انضم إلى الحزب الديموقراطي ، واشتغل في عالم العقارات ، وبعد أن حقق ثروة صغيرة بدأ في إعطاء المعونات لحزبه . وكان صديقنا لا يكن أي احترام للنظام ولذا كان يحسن استغلاله . أذكر مرة أنه دعانا لطعام عشاء عقد لصالح أحد مرشحي الحزب للكونجرس ، وبينما كان المرشح يتحدث ويعلن عن برنامج أعطى صديقي له ظهره وبدأ يتحدث معنا . وحينما أخبرته أن هذا لا يليق ، ضحك وأخبرني أنه يعرف ثمن كل واحد منهم . المهم انتهى الأمر بصديقنا هذا إلى أن حصل (من خلال آلة الحزب) على عدة ملايين من الدولارات بفائدة صغيرة للغاية كقرض من الحكومة الأمريكية لمساعد في إحياء مراكز المدن الصغيرة . وأصبح من أكبر الأثرياء ، ويمتلك أحد المصارف ، وكل هذا بفضل ذكائه السياسي وإدراكه لأليات التسلق والنجاح .

العودة لمصر والذئاب الثلاثة

حينما عدت إلى مصر من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ بعد حصولي على الدكتوراه ، كنت ممثلاً ثقة بمقدرة الإنسان على تغيير واقعه وإقامة العدل في الأرض . كما كان عندي مشروع الواضح : أن أصبح ناقلاً أدبياً يربط الأدب بتاريخ الفكر وتاريخ الفكر بالتطور الاقتصادي في المجتمع ، ويحاول أن يحل معضلة علاقة البناء التحتي (الاقتصادي) بالبناء الفوقي (الفكري والأيدولوجي) ، وأن يحاول الإجابة عن السؤال التالي : كيف تعبر الأفكار في خصوصيتها وتركيباتها وذاتيتها عن البناء التحتي في عموميته المادية ووجوده الموضوعي ، وكيف يمكن أن نفكر من الواحد إلى الآخر ؟ (وهي إشكالية مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج كأداة تحليلية وإشكالية علاقة الإنسان بالمادة) . وقد عبر جان بول سارتر Jean Paul Sartre عن القضية نفسها بطريقة أبسط وأكثر مباشرة حين قال : إذا كان بول فاليري Paul Valérie بورجوازياً صغيراً ، فلم لم يصبح كل البورجوازيين الصغار بول فاليري ؟ فمشروع الأدبي كان مشروعاً فكرياً بالدرجة الأولى . (ولذا فالتحول من دراسة الأدب إلى دراسة الصهيونية - كما سألنا لاحقاً - لم يكن تحولاً جذرياً كما قد يتراءى للبعض ، إذ إنني حين بدأت في دراسة الصهيونية حملت معي إشكالياتي النظرية والمنهجية ، والموضوعات الأساسية في فكري مثل نهاية التاريخ وفكرة الخصوصية) .

وعند عودتي إلى مصر ، حاولت قدر استطاعتي أن أندمج في المجتمع ، أي أن أعود له بالمعنى الأخلاقي والحضاري ، لا بالمعنى المادي وحسب . فكنت أحاول تحاشي الحديث باللغة الإنجليزية قدر استطاعتي خارج منزلي (أما في المنزل ، فكنا نحاول التحدث بالإنجليزية حتى لا نحول إلى لغة ميتة وحتى أحفظ بلياقتي اللغوية كأستاذ للأدب الإنجليزي) . وكنت أدخن

الباب ، فقررت استبعاده من حياتي (أما السيجار فأنا لا أدخنه إلا نادراً ، ولذا فهو لا يشكل مشكلة) . وكنت أحب ارتداء الشورت في الصيف ، ولكنني أردت أن أعرف استجابة المجتمع لهذه العادة ، فلبست الشورت يوماً وسرت في السوق ، وطلبت من أحد العاملين في منزلي أن يسير على مقربة مني ، ويخبرني بانطباعات الناس ، أي أنني قمت "بدراسة ميدانية على الطبيعة لاستجابة المصريين العاديين للشورت" ، كنت أنا فيها الملاحظ والملاحظ . وحسب تقريره لم تكن الانطباعات إيجابية ، ولذا قررت ألا ألبس الشورت إلا في منزلي .

ولكن التكيف مع المجتمع على هذا المستوى كان من أسهل الأمور ، إذ كان هناك معركة أخرى دارت في داخلي ، فقد واجهتني ثلاثة ذئاب شرسة (هكذا أسميها) ظلت تنهشني بعض الوقت : ذئب الثروة وذئب الشهرة والذئب الهيجلي المعلوماتي . أما الذئب الأول فهو ذئب برائي تماماً ، وهو ذئب الثروة الذي يعبر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أكون ثرياً . فقد أتيت من عائلة مجاورة ، مصدر الشرعية فيها هو الثروة ، ومن هنا إن لم يحققها المرء ، انتابته المخاوف واعتزت ثقته بنفسه . ولكن كان من السهل علي أن أنقلب على هذا الذئب ، وأن أقرر أن مشروعي مستقبلي ربما لا يأتي بالثروة ولكنه سيأتي بالحكمة ، وأن أسلوب حياتي بما فيه من آفاق ثقافية واسعة أفضل بكثير من حياة التراكم الرأسمالي بما فيها من أحادية (ولعل هذا جزء من ميراث أمي) .

وبما ساعدني على اتخاذ قراري أنني لاحظت أن أبناء الأسرة حينما كانوا يحضرون إلى منزلنا كانوا يرفضون العودة إلى منازلهم ، إذ كانوا يسعدون كثيراً بأسلوب حياتنا . فقد كنا نأخذهم إلى الحدائق القليلة المتبقية في القاهرة (حديقة الأورمان - حديقة الأندلس - القناطر الخيرية) ونذهب إلى المتاحف المختلفة (متحف السكة الحديد - متحف البريد - متحف العربات الملكية - متحف في أرض المعارض [أرض الأوبرا الآن] لا أذكر اسمه وملحق به قبة سمارة - المتحف الزراعي - المتحف الإسلامي - المتحف القبطي - متحف الفن الحديث) . كمل كنا نزرر آثار القاهرة الكثيرة الإسلامية والفرعونية والقبطية ، غير الرحلات الشراعية في النيل . فأسلوب حياتنا كان يشمرهم بالامتلاء ، ويشمرني في الوقت ذاته أن ذئب الثروة لا يمكنه أن يمدحني كل هذه الأشياء . وقد ذكرني هذا بواقعة حدثت لأستاذي في الولايات المتحدة ، فقد كتب سيناريو لفيلم (قال لي إنه أساساً عني) وذهب لهوليوود لتسويقه ، وقد بدأ في تحقيق بعض النجاح . وفي أحد الأيام كان في منزل أحد كبار المخرجين في حفلة كركتيل ليقابل أحد وكلاء الفنانين ليعرض عليه فيلمه . وفي أثناء الحديث اكتشف أستاذي أن هذا الوكيل لم يكن قد سمع قط عن أرسطو ، ففزع أستاذي ، وأنهى زيارته لأنه كما قال "لم يتخيل أنه سيقضي بقية حياته مع بشر من هذا النوع" . هذه القصة ترسخت في وجداني وساعدني على هزيمة ذئب الثروة . وأصبح هدفي هو أن أحقق ذاتي حسب الشروط التي تملئها رؤيتي لذاتي وأن أحصل من

المال على ما يكفي لأن يحقق لي شيئاً من التحرر من تفاصيل حياتي اليومية ولأن أمور حياتي الفكرية وأنجز مشروعي المعرفي . ولذا أردت دائماً أن المال يشكل عبئاً على البعض ، يفنون حياتهم في جمعه ، أما بالنسبة لي فالمال حرية .

وقد مجتحت إلى حد كبير في توظيف المال بدلاً من أن يوظفني . فلم أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشروعي الفكري أو يعوقه ، ولم أعمل إلا في وظائف أقوم بتوظيفها لخدمته . فكنت أقوم باللقاء محاضراتي في كلية البنات ولم أزد (إلا محاضرتين إضافيتين أو أربعاً كنت أقبل تدريسها متدبهاً حتى أخرج من نطاق كلية البنات) . وقد مجتحت في أن تكون هذه المحاضرات جزءاً من حوار فلسفي مع نفسي ، أي جزءاً من مشروعي المعرفي . وقد اخترت محل إقامتي عبر الشارع من كلية البنات بحيث لا أضيق أي وقت في الانتقال ، ولم أشغل قط أي منصب إداري من أي نوع طيلة حياتي ، فلم أعمل رئيساً للجنة أو لقسم أو كلياً أو عميداً لكلية . وقد عملت مستشاراً ثقافياً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم في نيويورك ، ولكن وظيفتي مرة أخرى أصبحت مجرد إطار لتحقيق مشروعي المعرفي (بداية تحديث موسوعة ١٩٧٥) . وحينما عرض عليّ أن أعمل في هيئة الأمم براتب ضخم ، أثرت البقاء في وظيفتي والتضحية بالراتب الضخم لأن الوظيفة الجديدة كانت مستوعبة كل وقتي ، كما أنها كانت تتعارض كلية مع مشروعي الفكري .

هذا لا يعني أنني لم أعرف شظف العيش . فحينما ذهبنا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ اضطررنا - كما أسلفت - إلى أن نعيش أنا وزوجتي في فندق رخيص قدر . وفي الشتاء اضطررنا إلى شراء معاطف مستعملة لاتقاء برد نيويورك ، فلم يكن معنا ثمن المعاطف الجديدة . وحينما انتقلنا إلى جامعة رنجرز كنا نضطر للسير مسافات طويلة في البرد القارس ، بل في الثلج ، للوصول إلى الأتوبيس (فلم يكن معنا ثمن السيارة) . وقد اضطررت زوجتي إلى أن تعمل لتقدم لنا بعض العون المالي . كما اضطررت إلى أن تعود من المستشفى بعد أن وضعت نور بأربعة أيام في مترو الأنفاق في نيويورك (وكان طريقة للمواصلات متوحشة في الستينيات) . كما أنها كانت تحمل ابنتنا في المواصلات العامة وتذهب بها من نيويورك إلى نيويورك للتمتع بالخدمة الطبية المجانية بعد الولادة .

ولم أترفع قط عن القيام بأي عمل ، ولم أمانع على سبيل المثال في أن أعمل عضواً في فرقة مكافحة الحريق بمصنع الكابلات في نيويورك ونيويورك . وقد استأجرنا هذا المصنع لا لمكافحة الحريق وإنما ليخبر شركة التأمين بذلك ، لتخفيض أقساط التأمين . فالمعمل الذي أوكل لنا لم يكن عملاً حقيقياً ولا يستنفد أي وقت ، فقد كان يتلخص في أن نمر على المصنع كل ساعة ، ثم نكتب في كراس عبارة "كل شيء على ما يرام" . وكانت هذه العملية تستغرق حوالي خمس دقائق . أما بقية وقتنا فكانا نقضيه في القراءة والكتابة يومي السبت والأحد ، حينما يكون المصنع مغلقاً ،

وربح فيه بضعة دولارات تنفقها في التاحف والساح . وقد رقيت إلى أن أصبحت رئيساً للفرقة . فاستأجرت كل أصدقائي من طلبة الدكتوراه ليعملوا أعضاء فيها ، وكان من بينهم كافين رايلي بطبيعة الحال . وكان مدير المصنع يتباهى بأن فرقة مكافحة الحريق في مصنعه تتمتع بأعلى مستوى تعليمي في العالم ، وكان محقاً في تباهيه هذا .

ولم يكن الأمر يخلو من مصاعب . فمرة القيت محاضرة في ذكرى مالكولم إكس في الجامعة ، فنشرت الصحف المحلية وذكرت اسمي . فاستوقفني مدير المصنع (وكان رجلاً رجعيًا من ولاية تكساس) وسألني : "أنت الشخص الذي كان يثير القلاقل في الجامعة بالأمس ؟" حوثل هذه التهمة كفيفة بإقصائي عن منصبى الربيع الربيع . فأنكرت بطبيعة الحال . فسألني عن اسمي ، فهداني الله إلى أن أخبره عن اسمي الرباعي وبمخارج الحروف العربية وبسرعة ، فاضطرب الرجل وفقد اتزانته ، وقال إنه لابد أن يكون شخصاً آخر .

ومما ساعد على ترويض ذنب الثروة بل تدجينه تماماً ، أن زوجتي ، لحسن الحظ ، لم تراودها أحلام الثروة ولم تعان من أي نزعات استهلاكية . (من الأمور المضحكة ، أنها مصابة بحساسية من نوع فريد ، إذ يصفر وجهها وتعطس حينما تمكث مدة طويلة داخل إحدى المجلات ، وهي حساسية يحسدني عليها كثير من الأزواج المصريين) . اكتشفنا ، على سبيل المثال ، حينما انتهت من الموسوعة أننا لم نتناقش قط فيما كنت أدفعه من تكاليف . كما أنني حين فررت الاستقالة من الجامعة لإتمام الموسوعة ، وافقت على قراري بعد مناقشة دامت خمس دقائق ، رغم ما كان يعنيه ذلك من أن الأسرة ستصبح دون دخل ثابت . وبعد حرب الخليج ، حينما أصبح من "حقى" العودة لوظيفتي (باعتبار أنني كنت أعمل في الخليج) ناقشنا الأمر لبطع دقائق أخرى ووجدت أنه لابد من الاستمرار في التفرغ لأنهي الموسوعة (وأسمي هذا ضرباً من الجنون المقدس الذي أصابني وأصاب زوجتي ، ولولا ما انتهت من الموسوعة) . ولم يكن من الصعب أن تقنع زوجتي طفلينا برؤيتها غير الاستهلاكية . ولعل تحييد النقود بهذه الطريقة قد جعلني أتفرغ ذهنياً للبحث والتأمل ، إذ لم أعد مشغولاً بأمور الدنيا المباشرة .

وقد هزمت ذنب الثروة تماماً إلى درجة أن "حمل" الإحساس بالذنب من الثروة قد أصابك بعلامي . فبرغم حدودي المالية ، فإنني بدأت أشعر بالذنب من أجل أصدقائي الذين دخلوا طاحونة المحاضرات الإضافية . وكان الإحساس بالذنب قوياً إلى درجة أنني لم أتمكن من أن أخط حرفاً واحداً لمدة عام تقريباً . ولم يشفني من هذا "الحمل" إلا اكتشافني أن هناك من أقراني من هم أكثر مني ثروة ، ومع هذا يتكالبون على المال بشكل مفرط ولا يخطون حرفاً . حينئذ اكتشفت أن التاليف والثروة أمران منفصلان ، وأن الثروة قد تكون عنصراً مهماً ولكنه لا يؤدي بالضرورة إلى التاليف . وعلى كل ظل حمل العداء للثروة معي بعض الوقت ، وكنت أحوّل كل أعمالي الفكرية تقريباً ، والعائد المالي لمثل هذه الأعمال ، كما هو معروف ، ضئيل للغاية . وكما قال

أحد الناشرين لصديق أفتنى عمره في إعداد موسوعة عن الموسيقى ، قال له وهو يعرض عليه ألف جنيه لا أكثر ولا أقل : "لكم المجد ولنا الثروة" !

أما الذئب الثاني ، فهو أقل برانية ومادية ، وهو ذئب الشهرة الذي يعبر عن نفسه في الرعبة العارمة في أن أصبح من المشاهير . وحينما عدت للمرة الأولى من الولايات المتحدة الأمريكية لم أواجه ذئب الشهرة ، إذ إنني وجدت نفسي أكتب في الأهرام وأتحدث في الإذاعة والتلفزيون ومستولاً عن وحدة الفكر الصهيوني في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية . وأصبحت أحد كتاب الأهرام المنتظمين ، وكل ما كنت أكتبه كان يجد طريقه للنشر في إحدى المجلات ، وكلما شكلت لجنة ما (مثل لجنة إصلاح تدريس اللغة الإنجليزية ، على سبيل المثال ، أو حتى إصلاح العالم) ، كنت أجد نفسي عضواً فيها ؛ وإذا عُقد مؤتمر لمناقشة الكتب الدراسية في الأرض المحتلة أو لأي موضوع آخر ، كنت أدعى له . ولذا كان عليّ ، في كثير من الأحيان ، أن أرفض التعيين في بعض هذه اللجان أو الذهاب لبعض هذه المؤتمرات . ولذا فذئب الشهرة داخلي كان منتشياً ، نائماً مكران من النشوة .

ولكنه استيقظ وبكل ضراوة عام ١٩٧٩ حينما عدت للمرة الثانية من الولايات المتحدة الأمريكية . وكان جو التطبيع سائداً في القاهرة ، وبطبيعة الحال لم أسترده مكاني في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام (وكما قال لي مدير المركز آنذاك إن عودتي له تعني القيام بالهزارا كبري [أي الانتحار على الطريقة اليابانية] . فكان ردي عليه أن الحياة حسب الشروط المهنية التي قد يضعها الآخرون ليست أمراً عظيماً على أي حال ، وقد يكون الانتحار هو أحسن اختيار . والانتحار في هذه الحالة ليس انتحاراً وإنما استشهاد في سبيل رسالة) . وبطبيعة الحال لم أدع للحديث في الإذاعة والتلفزيون ، وبدأ بعض المذيعين ، ممن كنت حليفاً دائماً على برامجهم ، يخافون حتى من الحديث معي . بل إنني كنت أجد صعوبة بالغة في دخول مبنى الأهرام ، وكان عليّ الاتصال بمساعدتي السابقة للتوسط لي . باختصار شديد ، وجدت نفسي نكرة ، ومن ثم بدأ جوع ذئب الشهرة ونهمه يتزايدان . وقد أخذ رد فعلي بهذه الصدمة الحضرارية شكلاً فريداً ، إذ بدأت في الاهتمام بالعمارة الداخلية لمزلي ، وبدأت في اقتناء الأشياء القديمة ، إلى درجة الهوس (كنت أقعرض أحياناً من أصدقائي لشراء أي قطعة قديمة أقع في هواها) . ثم دارت المعركة بيني وبين هذا الذئب . فجلست مع نفسي لأكتشف أنني أحب الشهرة نعم ، ولكن رغبتني في الشهرة نابعة من رغبتني في حماية نفسي حتى يمكنني الانتهاء من مشروعاتي المعرفية . والمشاهير ، كما كنت أظن واهماً آنذاك ، لا يمكن أن يزعج بهم في السجس بيساطة . كما أن الشهرة ستكون وسيلة ناجعة لإشاعة وتوصيل ما عندي من أفكار أعتقد أن لها قيمة ما . ولذا إن حاولت أن أشبع ذئب الشهرة داخلي حسب الشروط التي يفرضها العالم الخارجي ، فأكون كمن كسب المعركة وفقد الحرب . وويل للمرء الذي يربح كل شيء ويخسر

نفسه . حينئذ أخبرت ذئب الشهرة داخلي أنني لا أمانع في الشهرة حسب شروطي ، تماماً كما أنني أحب الثروة بمقدار ما تخدمني . وهكذا صرعت ذئب الشهرة داخلي ، وقبلت أن أعيش بعيداً عن الأضواء ، خاصة حين بدأت في كتابة الموسوعة بما كانت تتطلبه من عزلة شبه كاملة أحياناً .

بقي بعد ذلك أهم الذئب وأكثرها خطورة وضراوة وجوانية ، وهو الذئب الهيجلي المعلوماتي ، وهو ذئب خاص جداً ، جواني لأقصى درجة ، يعبر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أكتب كتاباً نظرياً ، إظهاره النظري واسع وشامل للغاية ولكنه في الوقت نفسه يتعامل مع أكبر قدر ممكن من المعلومات والتفاصيل ، إن لم يكن كلها . أي أنني كنت أطمع في كتابة عمل يصل إلى أعلى مستويات التصميم والتجريد والشمول ، وفي الوقت نفسه نصل إلى أقصى درجات التخصص والدقة . وهذه صيغة مستحيلة لأنه إن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ، فما بالك برؤية بانورامية متسعة في غاية الاتساع وتفاصيل دقيقة في غاية الدقة . ويبدو أن هذا الذئب الهيجلي المعلوماتي كان يطاردني منذ طفولتي ، فقد كنت أنوي أن أحصر كل ما تبقى من كتب لم أقرأها في مكتبة البلدية بدمهور (بحسبان أنها تحوي كل المعرفة الإنسانية) حتى يمكنني أن أعرف كل ما خطته يد البشرية ! وأذكر في شبابي أنني بدأت في كتابة تاريخ الشعر الإنجليزي منذ البداية حتى النهاية من منظور ماركسي . أقول "بدأت" لأنني لم أنته منه قط ، بل لم أجاوز الصفحة الثالثة ! وقد أصبت بصدمة عميقة ، في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية ، حين عرفت أن أحد أساتذتي لم يكن قد قرأ الأعمال الكاملة لشكسبير ! وحين بدأت كتابة رسائل الماجستير مع الدكتور محمد مصطفى بدوي عن أثر الشعر الرومانسيكي الإنجليزي وبودلير على جماعة أبولو وخاصة إبراهيم ناجي ، ظهرت نزعتي الهيجلية المعلوماتية بشراسة ، فكنت أريد أن أقرأ كل شيء كمقدمة لكتابة الماجستير . فقرأت المعلقات وكثيراً من عيون الشعر العربي ، وبخاصة شعر المتنبي ، وكتبت دراسة عن الانقطاع في الشعر العربي . ثم قرأت كثيراً من الأعمال النقدية للمقاد والمازني وطه حسين وإبراهيم المصري ، وكتبت دراسة مطولة في الموضوع ، وقرأت بعض عيون التراث آنذاك . وبدأت في كتابة دراسة في شعر خليل مطران ، وأنهيت دراسة عن ترجمة ناجي لديوان أزهار الشر لبودلير وأثرها عليه . كما كتبت الدراسة التي قدمتها لبروفسير إيان جاك عن "الانتقال من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية" . وكان الدكتور بدوي يتركني أكتب ما أريد ، ولم يتقذني مؤقتاً من برائن الذئب سوى ذهابي إلى الولايات المتحدة .

وقد صرع هذا الذئب مجموعة من أعز أصدقائي أمام ناظري ، مات بعضهم دون أن ينسب بينت شفة ، رغبة منه في أن يحقق هذه الصيغة المستحيلة : عمل نظري شامل مجرد ينتظم كل المعلومات الممكنة . ولعل صديقي الأستاذ علي زيد - رحمه الله - مثل فريد على ذلك . كان -

رحمه الله - يعرف كل شيء تقريباً ؛ ولا يعرفه كمعلومة ، وإنما في إطار نظري شامل كان يزداد اتساعاً على مر الأيام . كما أنه كان يعرف الكثير من اللغات الأوروبية (الإنجليزية - الفرنسية - الإسبانية - الإيطالية) وكان تملكه لخاصية اللغة العربية شيئاً مذهلاً . كنت كلما أطلب منه كتابة مقال يجلس ليتحدث عن موضوعها ساعات طويلاً ، ويأتي بآطروحات مذهلة . ثم يذهب لكتابة المقال ، فيأتي بعشرات الكتب ويبدأ في البحث وتوسع الرؤى إلى ما لا نهاية ، فيلتهمه الدئب . وهذه إشكالية لا يواجهها مترسوط الذكاء ، فبعضهم يحشد التعميمات التي لا يربطها رابط (أسميها " أفكاراً " في مقابل الفكر) ، والبعض الآخر يحشد المعلومات التي لا يربطها رابط أيضاً . وأمثال هؤلاء يخطرون بضعة كتب (" يهرص كلاماً فوق كلام تحت كلام " على رأي صلاح عبد الصبور) تُنشر مع مئات الكتب الأخرى التي تصدر ويقرؤها البعض ثم تموت . وهم يعيشون حياتهم في سعادة بالغة ورضا تام ! لكن أن يحاول المرء الجمع بين أعلى مستويات التعميم وأدنى مستويات التخصص فهذا مستحيل ، والمصير هو الفشل النبل والصمت الدائم . استمر الدئب الهيجلي المعلوماتي متربصاً بي ، وإن كان والحق يقال قد تم ترويضه قليلاً في الولايات المتحدة حيث كان عليّ أن أكتب أبحاثاً قصيرة لقررات الدراسة العليا تقدم في نهاية كل فصل دراسي ، تعلمت من خلالها أنني لا بد أن أكتب جماع ذاتي وإلا لما انتهت من شيء . كما أن أستاذي المشرف على رسالة الدكتوراه كان لا يسمح لي بالانطلاق في أي اتجاه . فبعد أن كتبت دراسة مطولة عن وردزورث وويتمان وأصولهما التاريخية والدينية والفكرية ، أخبرني أن هذه " الخلفية " لا علاقة لها بالرسالة ذاتها ، وأنتي بوسعني أن أقرأ ما يحلو لي بخصوص " الخلفية " ، طالما أن ما أقرأ له علاقة بموضوعي الأساسي (الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ) ، ولكن على ألا أكتب سوى النزر اليسير عن هذه الخلفية ، لأنها ليست موضوع اختصاصي .

ويظهر ترويض الدئب الهيجلي المعلوماتي في النصيحة التي أسديتها لصديقي كافين رابلي . لقد كان يكتب كتابه الغرب والعالم ، والذي استغرق معظم حياته الفكرية ، وكان لا يكف عن الإضافة والتعديل ولا يجرؤ على نشره . فأخبرته : " كافين ، يحين وقت في حياة الإنسان ، يكون الكتاب الوحيد الذي يستحق القراءة هو الكتاب الذي يؤلفه " . وهي عبارة تهدف إلى أن أبين له أن المعرفة لا حدود لها وأن المعلومات بحر يمكن أن يتغلب المرء ، ومن هنا يجب أن يتوقف المرء عند نقطة ما . وقد كان ، إذ توقف كافين ونشر كتابه ، وحقق نجاحاً كبيراً وذيوياً منقطع النظير .

وفي هذه الآونة ، قرأت قصة قصيرة لكاتب أمريكي (للأسف نسيت اسمه) بعنوان « عن هذه المدينة وسلامكا Of This Town and Salamanca » ، وتدور أحداث القصة حول رهط من الشباب ينشئون في نفس المدينة ، ولكن أحدهم كان بوهيمياً ، لا يتردد في الانتقال من بلده إلى مدن وموانئ بعيدة (سلامكا هنا هي رمز هذا العالم البعيد الذي يرتاده صاحبنا) . وكان

صاحبنا يعود من آونة لأخرى ليقص على رفاقه قصص المغامرات المختلفة التي خاضها . أما هم فيبقون في مدينتهم ليعلموا أبناءها وليبنوا بيوتاً وجسوراً . وتدعونا القصة للإعجاب بالبطل البرهيمي ، ولكن تعاطفنا الحقيقي يتوجه لهؤلاء الذين بقوا وعلموا وبنوا . وقد تعلمت من هذه القصة أن التحليق البانورامي ليس دائماً صفة إيجابية وأنه يمكن أن يقع المرء بالقليل وينجزه . ولذا حين عدت من الولايات المتحدة كان عندي ثلاث متتاليات - أن أكون ناقدًا أدبيًا وأستاذًا جامعيًا وأبًا وزوجًا متميزًا ، فإن أخفقت فلأكن أستاذًا جامعيًا وأبًا وزوجًا متميزًا ، فإن أخفقت فلأكن أبًا وزوجًا متميزًا . وغني عن القول أن متتالية حياتي كانت مختلفة عن "خطتي" (فلم أصبح ناقدًا أدبيًا ولم أستمّر في التدريس في الجامعة ، ولا أدري هل كنت أبًا وزوجًا متميزًا أم لا ، ولأنك الحكم لأولادي وزوجتي) . ولكن المهم أنني روضت الذئب الهيجلي ، والزعة البشوية الفلاسفة : أن أجوب كل الآفاق وأن أجرب كل التجارب وأن أجاوز كل الحدود ، وبدلاً من ذلك ، قبلت الحدود الإنسانية واحتمالات الانتصار والانكسار .

وبرغم إدراكي لمخاطر الذئب الهيجلي ، وبرغم نجاحي في ترويضه (ومن هنا لجحت في نشر بعض الكتب التي لا تحتوي على دراسات "شاملة كاملة ضخمة" ... إلخ) ، فإنه ظل رابضاً داخلي ، فكنت كلما انتهيت من إحدى دراساتي عن الصهيونية ، أعلن أن هذه آخر دراسة ، أملاً في أن أبدأ دراستي النظرية الشاملة والتطبيقية في ذات الوقت . ومع هذا ظلت الصهيونية (كموضوع للدراسة) تلاحقني ، وكما انتهيت من كتابة دراسة ما عن الصهيونية كنت أجد نفسي مضطراً لكتابة الثانية ثم الثالثة وهكذا (كنت أشعر أحياناً أن من يدفعني إلى ذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وأن هذه هي مشيئته) . وقد قررت عام ١٩٨٤ أن أذبح الذئب الهيجلي المعلوماتي تماماً ، فقبلت الاستمرار في الكتابة في حقل الصهيونية وحسب ، أي أنني تخلّيت عن المشروع النظري التطبيقي الطموح . والطريف أنني حينما فعلت ذلك ، تداخلت كل الأطروحات الأيديولوجية والفلسفية (وهي على كلٍّ كانت متداخلة منذ البداية) وتبلورت النماذج التحليلية ، وبدأت أحاول الإجابة عن السؤالات التي تطرح نفسها عليّ من خلال دراساتي في اليهودية واليهود والصهيونية التي تحولت تدريجياً من الموضوع الأساسي للموسوعة إلى مجرد "دراسة حالة" ، أي أنني أنصّر أنني كسيت دراسة تتسم بقدر معقول من التجريد والشمول ومن التعيّن والتخصيص ، وأن الحلم الهيجلي (أو بعض جوانبه) قد تحقق دون أن ينهشني الذئب . ولهذا فمعظم كتبي القادمة - بإذن الله - ستكون عن موضوعات نظرية عامة مثل العلمانية الشاملة والحلولية وما بعد الحداثة ، وتعامل في الوقت ذاته مع نصوص وحالات معينة .

ومع هذا ، لاشك في أن هناك بقايا "هيجلية" تتبدى في إعجابي الشديد بالفلسفة الأنسية ومقولاتها التحليلية . كما يتبدى في كثير من مقولاتي التحليلية مثل نهاية التاريخ والفردوس

الأرضي والناثوت الحلولي واهتمامي بالبعد المعرفي (الكلي والنهايي) للظواهر . واهتمامي بالصهيونية لم يكن قط سياسياً بل أتناولها من خلال مقولات مثل : إشكالية الإنسان وعلاقته بالطبيعة والتاريخ - الغنوصية - الواحدية المادية - الأسطورة المفصلة عن التاريخ - الداروينية - العلم المنمصل عن القيمة والغاية ... إلخ . ولكن هذه المقولات التحليلية الكبرى ليست مجرد مقولات نظرية ساكنة عامة ، وإنما لها تجلياتها المتعينة في تفاصيل التاريخ والواقع الكثيرة . ومن هنا قولي إنها مجرد "بقايا هيكلية" لأنني أرفض الواحدية الهيكلية ، أرفض كلاً من المثالية الحالصة والمادية الحالصة ، فكلاهما بمفرده واحدتي اختزالي ، ولكن حينما يتقاطعان فإننا ندخل عالمًا مركبة أبعاده ، عالم الإنسان والأسرار .

الفصل الرابع

من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان

تآكل النموذج المادي

لعل التجربة الوجودية والفكرية المحورية في حياتي هي هيمنة النموذج المادي الفلسفي عليّ بعض الوقت (بعد أن اجتاحتني الشك في دمنهور) ، ثم إدراكي التدريجي بعدم جدوى النماذج التحليلية المادية في الإحاطة بالظاهرة الإنسانية المركبة (نظراً لبسطة هذه النماذج وسذاجتها واختزالتها) وإحساسي المتزايد بضرورة تبني نماذج تحليلية مركبة متعددة الأبعاد والمستويات ، إن أراد المرء أن يرصد إنسانية الإنسان (لا ماديته أو طبيعته المادية) ، وأن يراه في كل تركيبته . فالإنسان هو أكرم المخلوقات في الكون ، مختلف بشكل جوهرى عن بقية الكائنات ، حتى وإن شاركها بعض صفاتها . فهو يعيش في الطبيعة لكنه منفصل عنها . (طورت فيما بعد مفهوم الطبيعة / المادة ، فأنا أذهب إلى أن صفات «الطبيعة» ، في معظم الخطاب الفلسفي الغربي ، هي ذاتها صفات «المادة» بالمعنى الفلسفي . ولذا أرى أنه كلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن يحل محلها كلمة «مادة» أو نكتبها «الطبيعة / المادة» . كما طورت مفهوم المسافة التي تفصل بين الإنسان والطبيعة وبين الخالق والمخلوق وبين الجسد والروح . مما يعني أن هناك ثنائية أساسية في الكون ، وأن الكون متنوع متعدد غير معجانس ، فيه المطلق وفيه النسبي ، فيه الثابت وفيه المتحول ، قد يتصارعان وقد يتقابلان وقد يتفاعلا ، ولكنهما مختلفان . كل هذا يقف على طرف النقيض من الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالم بأسره [الإنسان والطبيعة] جوهر واحد) .

فالعالم (الإنسان والطبيعة) - بالنسبة لي - يتسم بما أسميه الثنائية الفضفاضة . والثنائية الفضفاضة مصطلح يقابل «الواحدة» . والثنائية هي الإيمان بوجود أكثر من جوهر في العالم . والثنائية الأساسية (في النظم الترحيلية) هي ثنائية الخالق (المنزه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ) والمخلوق . وهي ثنائية فضفاضة تكاملية إذ إن الإله مفارق للعالم إلا أنه لم يهجره ولم

يتركه وشأنه . وينتج عن هذه الثنائية ظهور الحيز الإنساني الذي يتحرك فيه الإنسان بحرية ومسؤولية . وينتج عن هذه الثنائية الأولية ثنائيات تكاملية عدة من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة ، والتي تعترض انفصال الإنسان عن الطبيعة وأسبقيته عليها واستحالة رده إليها وتفسيره في إطارها لأن الإله خلقه وكَرَّمه واستخلفه في الأرض . ولكنها لا تعني أن الإنسان هو مركز الكون ، فقد وُضِع في مركز الكون ، ولا تعني أنه مالك الطبيعة ، فهو حليلة فيها من قبل خالقها (أي أن ثمة حيزاً طبيعياً مستقلاً عن الإنسان ، وإن كان من حق الإنسان أن يتحرك فيه) . والثنائية غير الإثنينية أو الازدواجية . ففي الثنائية ثمة عنصران قد يكونان متكافئين أو غير متكافئين ، ولكنها مع هذا يتفاعلان ويتدافعان . أما في الإثنينية فهما عنصران مختلفان تمام الاختلاف يكادان يكونان متعادلين (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام في بعض العبادات الوثنية) ، ولذا يدخلان في صراع أزلي أو شبه أزلي . وقد يكونان عنصرين متعادلين تمام التعادل ، متكاملين تمام التكامل ، فتعود للواحدة مرة أخرى .

وبدلاً من الإنسان الطبيعي طرحت فكرة الإنسان / الإنسان (أو الإنسان الرباني ، أو الإنسان السر في السابق) ، كائن لا يعلمه في كليته إلا الله ، لأنه ليس جزءاً لا يتجزأ من العالم الطبيعي المادي ، وإنما هو جزء يتجزأ منه وحسب ، إذ إن هناك جزء منه يتجه نحو ما هو متجاوز للمادة . ومن هنا وجود الإنسان المأساوي / الملهوي : كائن يعيش داخل جسده (المادي) ، في الطبيعة المادية ، يتحرك جزءاً منه حسب قوانين الجاذبية والدوافع البيولوجية والفيزيائية ، ولكنه في الوقت ذاته تنوُّق روحه إلى عالم المثل والنبات والروح ، كائن أقدامه مفروسة في الوحل وغيبونه شاخصة للنجوم ، يسقط دائماً ولكنه قادر دائماً على النهوض ثم التجاوز . (هل حبي للثنية ، في جانب من جوانبه ، تمبير عن إدراكي لهذا البعد في لظاهرة الإنسانية ؟) .

ووجود الله هو الضمان الوحيد لوجود الإنسان الإنسان ، بجزيائه الطبيعي وغير الطبيعي ، فالله هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المعطى النهائي ، هو النقطة التي يتطلع إليها الإنسان ويحقق التجاوز من خلالها ، ومن ثم بغيا به يتحول العالم إلى مادة طبيعية صماء ، خاضعة لقوانين الحركة والضرورة التي يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها . وينضوي الإنسان تحت نفس النمط ، إذ بغيا به الله يتحول الإنسان إلى كم مادي يمكن تفسيره في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التي يمكن معرفتها والتنبؤ بها .

لم يكن هذا النموذج الإنساني غير المادي متبلوراً وواضحاً في وجداني وعقلي ولكنه كان هناك ، كامناً ودفيناً . ولكن ثمة عناصر عديدة ساعدت هذا النموذج على التحرك من عالم الإمكانية إلى عالم التحقق . وقد تناولت نشأتي في دمنهور والمجتمع التقليدي الذي عرفته عن قرب ، بكل حسانه وميثاقه ، كما تناولت موضوع التناقض بين التعاقد والتراحم . ولعل هذه التجارب كانت تشكل الإطار الكلي أو التربة الخصبة التي صبت فيها التجارب الأخرى التي

هزت النماذج والأفكار والمقولات المرجعية المادية التي كانت تستند إليها حياتي الفكرية بعض الوقت .

ومما ساعد على ترسيخ النموذج المركب في وعي الباطن وفي وجداني دراستي للأدب ، فالأدب يكاد يكون التخصص الوحيد الذي لا يزال يتعامل مع الإنسان كإنسان ، كل مركب لا يمكن رده إلى عنصر أو عنصرين في الواقع ، ولا يمكن تفسيره في ضوءهما (على عكس الاقتصاد ، على سبيل المثال ، الذي يدرس الإنسان في إطار المعطيات الاقتصادية وحسب) . كما أنني درست الأدب الإنجليزي في الفترة ما بين منتصف الخمسينيات وأواخر الستينيات ، في فترة كان التيار الإنساني (الهيوماني) يضع الإنسان في مركز الكون ويؤكد اختلافه الجوهرى عن باقي المخلوقات كما يؤكد منظوماته الجمالية والأخلاقية (حتى وإن أنكر منظوماته الدينية) . ولم تكن الاتجاهات الشكلانية قد هيمنت بعد ، بل إن مثل هذه الاتجاهات ، كما هو الحال في النقد الجديد ، كانت تحاول أن تجد في القيم الجمالية ، مثل المفارقة (irony) والبنية ، قيماً أخلاقية ، بل أحياناً دينية . كما أنني درست الأدب على يد أساتذة في مصر والولايات المتحدة ، كانوا في غالبيتهم من المؤمنين بالفكر الهيوماني ، لا يقبلون فكرة إسقاط الحدود الجمالية والمعرفية والأخلاقية .

هكذا واجهت العالم بعد تحولي للمادية ، نموذج ظاهر مادي ، ونموذج كامن يصل إلى الجوهر الإنساني المفقود لصيرورة المادة . ويبدو أن قصة تحولي الفكرية هي أيضاً قصة الصراع الخفي بين النموذجين ، إذ كنت أفكر حسب النموذج الظاهر ، ولكنني في الوقت ذاته كنت أفكر وأسلك وأراقب سلوك الآخرين حسب النموذج الباطن .

وحينما يظهر تناقض بين النموذج المهيمن من جهة ، ومن جهة أخرى سلوك المرء وما يلاحظه في الواقع ، عادةً ما تحدث أزمات وهزات ومراجعات . وقد حدثت أولى الهزات حينما قررت الارتباط بالدكتورة هدى برغم كل التحليلات الطبقيّة (التي أسلفت الإشارة إليها) . فقد كان هذا يعني وجود تناقض صارخ بين النموذج النظري المادي وال مجرد و سلوكي الإنساني المتعين . ولا شك في أن حياة الكثيرين مليئة بالتناقضات بين الرؤية والممارسة ، ولكنهم مع هذا يمكنهم التعايش معها . ولكن بالنسبة لإنسان مثلي يحاول أن يعيش فكره قدر استطاعته ، نجد أن مثل هذا التناقض يسبب مشكلة حقيقية يحاول حلها بطريقة مختلفة . فعلى سبيل المثال قد يلجأ المرء إلى إعادة النظر في النموذج الحاكم ليكتشف داخله بعض العناصر الهامشية التي قد تفسر سلوكه وتزيل التناقض . ولكن تستمر عملية الاكتشاف والتعديل بشكل تدريجي وربما تراكمي إلى أن يصبح من الحتمي تبني نموذج جديد . وقد اكتشفت أن ماركس عرف الزواج بأنه علاقة اقتصادية مفعمة بالحب ، أي أنه تبني مقياسين : واحداً مادياً والآخر غير مادي (لا يختلفان كثيراً عن نموذجي الظاهر والكامن) . وقد وجدت أن قول ماركس هذا يريحني كثيراً ، ويجعل

سلوكي "غير العلمي" و"غير المادي" مقبولا ماركسياً ، فاستوعب قرار الزواج من د. هدى داخل منظومتي المادية .

ولكن التشققات زادت والتناقضات احتدمت بمرور الأيام ، حتى وصلت إلى نقطة تحول فيها التناقض إلى تطاحن . وقد حدثت الهزة القوية الثانية حينما رزقني الله ابنتي نور . كانت لحظة ولادتها لحظة فارقة في حياتي ، إذ وجدت نفسي أنا العقلاني المادي وجهاً لوجه مع معجزة جعلتني أغرق في التأمل ؛ طفلة تولد وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين حولها ، ثم ترتبط بأمها على الفور بطريقة لا أفهم كنهها ؛ أمها - زميلتي في الجامعة والتي كنت أذهب معها إلى السينما والرحلات مع "شلتا" أو بفردنا - تتحول بين يوم وليلة إلى أم تطعم الصغيرة بتدبيرها وترتبط بابنتها ارتباطاً جنونياً لم أر مثله . وتبدأ تتحدث بلغة جديدة تماماً علي ؛ زميلتي وزوجتي أصبحت أما ودخلت عالماً جديداً أقف أنا على أطرافه دهشاً . في بداية الأمر أصبت بالغشيان ، وأحسست بالهجران ؛ كيف يمكن لزميلة الدراسة أن تتحول بهذا الشكل وتتركني وحيداً ؟

وتدريجياً تجاوزت هذا الإحساس ، وبدأت أتأمل في هذا الكائن الجديد الذي دخل حياتي : هل يمكن أن يكون كل هذا نتيجة تفاعلات كيميائية وإنزيمات وغدد وعضلات ؟ هل هذا الكل الإنساني هو جماع أعضائه للمادية وثمرة الصدفة ، أو أن هناك شيئاً ما يجاوز السطح المادي ؟ هل الإنسان فعلاً جزء من الطبيعة ، لا يفصله فاصل عنها ، خاضع لقوانينها وأموالها (كما يقول المنهج المادي الصارم) ، أو أن فيه أسراراً وأغواراً ؟ وفوجئت بأنني ، برغم شكوكي الفلسفية وتصوراتي المادية ، أكتب قصيدة تحاول استكناه هذا الحدث من خلال صور شعرية دينية ، إذ إن الصور المادية لم تعد كافية ، فقد أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لي ظاهرة غير مادية غير طبيعية ؛ معجزة بكل المعايير المعروفة لدي . وهكذا ظهر الإنسان الإنسان ، (أو الإنسان الرباني فيما بعد) ! وبينما محمد في غاره حزين - يالجه الضياء قد أرجفت قلبه - وبينما دماؤه تبلل الصليب - أقبلت بالعرزاء للمسيح فانتصر - في الغابة الندية اللعبري قاعد - لطار كي يعانق الشمس والقمر - يا أصبح الإله قد أفلقت مضجعي - أولدتها حواء ثم مريم) .

وترالت الأحداث التي كان من الصعب استيعابها داخل النموذج المادي المهيمن . ثمة ليلة في حياتي لن أنساها أبداً أسميها "ليلة بكاء الطفلة" ، إذ استيقظت نور ابنتنا وهي لم تكمل عامين بعد وأخذت تبكي بصوت عال دونما مسبب واضح . كان لبكائها تلك الليلة رنين خاص لم ندر كنهه . مزيج من الفرع والحزن . حملتها أمها على كتفها وحاولت أن تهدئ من روعها . فسكنت ، ولكن كنت كلما اقتربت منها أجدها تصرخ بأعلى صوتها ، فكان علي أن أختمي عن ناظرها وظلت أمها معها إلى أن نامت . لا ندري حتى الآن سر بكاء الطفلة ، ولكنني أذكر هذه القصة لنذكر ما في داخلنا من أسرار ومدى احتياجنا للألم ، إذ كيف يمكن للموظف "مختص" مهما

بلغ من تخصص أن يفهم لغة الطفل ويدرك معناه الخاص ، أفراده وأحزانه ؟
وبعد أن أنجبنا نور ، فوجئت بأن زوجتي قررت ألا تستمر في دراستها العليا (برغم اتفاقنا على ذلك من قبل) وأخبرتني بأنها لا تريد أن تحرم ابنتها من حق الاستيقاظ ومن حق ممارسة كل وظائفها البيولوجية بما يتفق مع إيقاعاتها الجسدية ويريحها عصبياً . فرغت من نفسي ساعتها لأنني لم أفكر في هذا ، ولم أفكر إلا في الإنجاز (المادي) والأداء في رقعة الحياة العامة وتسوية الرجل والمرأة ونسيت الطفلة وحقوقها تماماً . وفزعني من نفسي هذا جعل المزيد من الاقتناعات والمقولات والنماذج التفسيرية ، التي تحكم في عقلي ووجداني ، تهتز وأعيد النظر فيها .
وحينما رزقنا الله ابنتاً ياسراً كنا قد تصورنا ، أنا وزوجتي ، أننا قد تدرينا تماماً على تنشئة الأطفال ، وإذا به مختلف تماماً عن أخته وتطلبت تنشئته مهارات أخرى . فابنتنا نور تحب التجريب ولا تخشاه برغم إصرارها على المعايير الجمالية الدقيقة ، التي أسميها أرستقراطية . أما أرستقراطية ياسر الجمالية فهي تنحو منحى آخر ، فهو يكره التجريب . لاحظت أنه ظل يشاهد فيلم "كاجاموشا (اغارب الظل)" للمخرج الياباني أكيرا كوروساوا ، المرة تلو الأخرى ، حتى حفظه تماماً تقريباً . فطلبت منه أن يجرب فيلماً آخر ، فكان رده : "إن وصلت إلى الأعالي ، فلماذا تهبط منها ؟" . وبينما تتميز نور بمقدراتها اللغوية ، فإن ياسراً كان يعيش في عالم الأرقام ، فكان لا يكف عن سؤال أسئلة غريبة تتطلب معرفة وثيقة بالرياضة . سألتني مرة وهو بعد صبي : "إن كان هناك حوت وزنه كذا وضرب بذيله سفينة وزنها كذا فهل ستغرق أم لا ؟ كنا نضحك من رغبته العارمة في هذا الاهتمام الجرد بالأرقام والعلاقات الرياضية ، ولذا كنا نسميه «الكونت دراكيولا» Count Dracula وكلمة Count الإنجليزية تعني «كونت» ولكنها تعني أيضاً «بحسب أو بعد» . ونتيجة للاختلاف بين الابنة والابن ترسخ اعتقادي بالإنسان المعجزة الذي يجاوز الحتميات الطبيعية (في هذه الحالة العوامل الوراثية والبيئية) . كما بدأت أدرك أهمية الأسرة في عملية التنشئة ، إذ لا يمكن لمؤسسة عامة (مهما بلغت درجة كفاءتها) أن تفي بالاحتياجات النفسية للطفل ، والتي تختلف من طفل لآخر .

الدين والهوية

ومن الأمور التي لاحظتها بشكل مباشر ، وهزت مقولاتي المرجعية ، وكان من الصعب استيعابها داخل النموذج التفسيري الحاكم ، أنني اكتشفت إبان إقامتي في الولايات المتحدة أن كل أصدقائي من أصل إما كاثوليكي وإما يهودي (بامتثناء أستاذي ، فكان بروتستانياً ولكن من جماعة بروتستانتية هامشية) ، وأنا هنا أتحدث عن أصولهم الدينية لا عن انتماهم الديني الفعلي (فمعظمهم كانوا ملحدين أو غير مكترئين بالدين) . وبدأت هذه المسألة تحيرني ، إذ إنني كنت قد تعلمت في الدروس الماركسية التي كنت ألقنها أن الدين إن هو إلا أفيون الشعوب ،

جزء من بناء فوقتي يمكن رده للبناء التحتي . ومن هنا ، فإنه لا يصلح أساساً صلباً للتصنيف أو للإدراك (فالأساس الحقيقي الوحيد للتصنيف - كما تعلمنا - هو الأساس الاقتصادي) . ومع هذا ، لاحظت أن المكون الديني هو الطريقة الوحيدة لتفسير انجذابى للكاثوليكي (الذين كانت عقيدتهم تشجع على الانتماء للجماعة والإحساس بالآخر) . كما لاحظت أن كثيراً من أصدقائي اليهود أتوا من خلفية أوروبية تقليدية لم تسد فيها قيم التعاقد الصارمة (على عكس من أسميهم) اليهود الجدد ، فهؤلاء كانوا أمريكيين خُلصاً ، في رؤيتهم وفي سلوكهم) .

وبدأت ألاحظ أخطاءً من السلوك بين الطلبة ، فكنت أقرر أن هذا لابد أن يكون كاثوليكيّاً أو يهودياً أو بروتستانتيّاً . وحينما أراجع تخميناتي على الواقع ، كنت أكتشف أنني قد رُفقت في التخمين في معظم الحالات . فبدأت أرى أن مقولتي "بروتستانتي" و"كاثوليكي" لابد أن يكون لهما مقدرة تفسيرية كبيرة (لم أكن قد سمعت بعد عن ماكس فيبر وأطروحته الشهيرة عن علاقة الأخلاق البروتستانتية بالرأسمالية) ، وقد استمرت هذه العادة معي . كنت في ألمانيا لحضور مؤتمر عن الإسلام عام ١٩٩٦ ، وكانت مرافقتي فتاة صغيرة كانت تعطف عليّ كأنها ابنتي تماماً . وبمرارة شديدة سألتها : "هل أنت كاثوليكية ؟" فأجابت بالإيجاب وبعنى شديد كأنني أهنئها . وحاولت أن أشرح لها نظريتي عن الشخصية الكاثوليكية ، وكيف أن الكاثوليك أقل فردية من البروتستانت لأنهم نظراً لانتمائهم للكنيسة فإن الفرد يدرك نفسه باعتباره عضواً في جماعة ، كما أن مؤسسة الأسرة بين الكاثوليك لا تزال أكثر قوة من مؤسسة الأسرة البروتستانت وأنها حينما ساعدتني بهذا الشكل (فقد أصرت مثلاً على حمل حقبيتي) خمنت أنها كاثوليكية . ولكن برغم شرحي المطول لها ظلت حائرة عليّ ، كأنني كشفت سراً دفيناً من أسرارها ، إذ يبدو أنها كانت تتوهم أنها علمانية تماماً ، وأنها نجحت في التخلص من ماضيها وتوابعه .

خلاصة الأمر أنني اكتشفت الدين كمقولة تحليلية وليس مجرد جزء (غير حقيقي) من بناء فوقتي ليس له أي أهمية في حد ذاته ، ويمكن تفسيره (كشفه - فضحه) في إطار العناصر الاقتصادية ، وأن المكون الديني ليس مجرد قشرة وإغما هو جزء من الكيان والهوية . وهكذا اهتمت معادلة أن البناء الفوقي "إن هو إلا تعبير عن البناء التحتي" ، وزادت الفكرة التي تفصل الإنسان المركب عن الواقع المادي البسيط اتساعاً ، وزادت فاعلية الأفكار (عالم الروح) في تفسير ظاهرة الإنسان . وكانت رسالتي للدكتوراه ، في أحد جوانبها ، هي محاولة لتطبيق هذه الثنائية المتعارضة ، حيث قارنت بين وليام وردزورث ، صاحب الوجدان التاريخي "الكاثوليكي" ، ورولت ويطمان ، صاحب الوجدان المعادي للتاريخ البروتستانتي (وهو ما سأتناوله بشكل تفصيلي في جزء لاحق من هذه الرحلة) .

و كنت ، كما أسلفت ، قد بدأت أشعر بأن مقولة الدين ذات فعالية في الواقع المادي

الصلب وليست جزءاً مغلقاً من عالم الغيب ، أي أن الدين أصبح تدريجياً في تصوري جزءاً من الكيان الإنساني التاريخي ليس منفصلاً عنه . ولذا ، بدأت أتعرف على التجربة الدينية الإسلامية لأفهم منطقها الداخلي . وكانت مقابلي مع مالكولم إكس الزعيم المسلم لها أعمق الأثر . كان مالكولم x يسمي مالكولم ليتل Little وحذف اسمه الأخير وأحل محله حرف x (باعتبار أن هذا هو الاسم الذي منحه إياه الرجل الأبيض) ، ثم اختار اسم "الحاج مالك الشباز" بعد اعتناقه الإسلام . وبعد وفاته ، طلب مني أحد كبار المؤرخين الأمريكيين السود (جون هندريك كلارك John Hendrik Clarke) أن أكتب دراسة عن دور الإسلام في حياته . لم أكن أعرف الكثير عن الإسلام (إلا ما يعرفه أي مسلم يمارس شعائره عقيدته دون تعمق في الأبعاد الفلسفية والمعرفية) . ولكن بعد قراءة سيرة مالكولم x (الحاج مالك الشباز) أدركت مدى عمق أثر الإسلام فيه كمثالية مجاوزة لعالم المادة ، كما أدركت دور الإسلام التنويري التنويري في حياته . كان مالكولم x يعمل قوَّاداً ومهرباً للمخدرات ، أي أنه كان يعيش مستوعباً بشكل شبه كامل في عالمه الأمريكي ، خاضعاً تماماً للدولارية (هكذا كان يشير إلى النظام الرأسمالي) . وحينما دخل السجن ، قام المسلمون السود بإقناعه بالدخول في الإسلام ففعل . وبدأت حياته في التغير ، وبدأ يدرك عالمية الرؤية الإسلامية للإله ، والطبيعة الفريدة لله باعتباره بعيداً كل البعد ، قريباً كل القرب في آن واحد (تتواتر في السيرة عبارة "أعرف أن الله قريب" كإلزامية) ، كما أدرك الحاج مالك الشباز الطبيعة الجماعية للإسلام (في مقابل الفردية الأنانية في المجتمع الأمريكي) ورفضه للتجسيد والعنصرية . وتصل سيرته الذاتية إلى لحظة القمة ، التحول الثوري الكامل ، في أثناء حجه إلى مكة ، في عالم البراءة الجديد ، في مدينة مكة المكرمة ، حيث يكتشف نزعات مثالية داخله ، كما يكتشف إمكانية تحقيق المساواة دون إلغاء التنوع . وحينما شعر بذلك ، تجاوز الحاج مالك كرهه للبعض ، وعاد إلى الولايات المتحدة لينظم حزباً جديداً يجمع بين البيض والسود في رفضهم للدولارية ، فحصدته الرصاصات الفائرة (كان عنوان المقال الذي كتبه "الإسلام كأشودة رعوية في سيرة مالكولم إكس الذاتية" . وقد نشرته في كتابي الفردوس الأرضي وسأنتارله بالتفصيل فيما بعد) .

الفردية والتسوية

الحضارة الغربية الحديثة - في تصوري - هي حضارة النموذج العقلاني المادي (لا العقلاني وحسب ، كما سابين فيما بعد) . إنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) هي نتاج رؤيتها المادية ، التي مكنتها من استبعاد كثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (غير المادية) وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط) . ولكن إخفاقاتها التي لا تقل ضخامة (الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه وتحول

الوسائل إلى غايات - ظهور العيشية والعدمية) هي أيضاً نتاج رؤيتها للمادية . وعادةً ما نجد أن الإيمان بقيمها هو في جوهره إيمان بكفاءة النموذج المادي (في تحليلاته المختلفة : الليبرالية الفردية أو الفاشية الشمولية أو الاشتراكية الجماعية أو البرجماتية والنيشوية الداروينية) في تفسير الواقع وفي تحريكه . وبطبيعة الحال لم أشكل - بإيماني بالمعلانية المادية - أي استثناء لهذه القاعدة . فعنبي النموذج المادي كان يعني في واقع الأمر تبني النموذج الغربي (الماركسي في حالتي) .

والفرق الشاسع الذي يفصل بين ما ييشربه النموذج (مثالياته التي أومن بها) وبين الواقع الغربي كما خبرته ، كان يزعزع من قبضة هذا النموذج . فعلى سبيل المثال ، كنت أتصور ، شأني شأن الكثير ، أن الحضارة الغربية هي حضارة الفردية ، وأن حضارتنا هي الحضارة الشرقية الجماعية . هكذا تعلمنا ، وهكذا أدركنا الكون (وطبعاً كانت هناك الأطروحات "العلمية" الجاهزة التي تفسر هذا : اقتصاد رأسمالي - فكر حركة الاستتارة - المسيحية الغربية ... إلخ) . ولكنني حينما ذهبت إلى هناك ، لاحظت أن ثمة غطية مذهلة في أشكال الحياة ، وفي الأنماط الإنسانية . وهو أمر قد رصدته علم الاجتماع الغربي ، خاصةً بعد ظهور علوم متخصصة في التحكم في السلوك الإنساني ، سواء في العمل أو في الحياة الخاصة ، التي قامت بترشيد حياة الإنسان وضبطها وفقاً لخطوة محددة (نوم - إفاطار - عمل) بحيث أصبح كل شيء مجهزاً مسبقاً ، حتى الإجازات والأفراح بل والمآتم ، مجهزة ومنظمة ومخططة . يوجد الآن وظيفة "مخرج فرح" (وهي وظيفة بدأت تظهر في بلادنا أيضاً) ، ينظم لك كل شيء ، وصاحب الشأن نفسه لا يستطيع أن يغير أي شيء .

ثم أول احتكاك لي بالنمطية الشديدة التي تسم الحياة في الولايات المتحدة ، بشكل فجائي ، في أواسط الستينيات ، حين قمت برحلة بالأتوبيس عبر الولايات المتحدة (من نيويورك إلى ميسورنا) استغرقت يومين . وكان الأتوبيس يقف في محطات بها فروع من مطاعم هوارد جونسون ، فكاننا ننزل ونأتي الجرسونات ويخضعون ويقدمون لنا الطعام الذي نطلبه . أكلت الطعام بشهية المرة الأولى ، وشكرتهن على الخدمة الممتازة . ولكنني لاحظت أن الأتوبيس يقطع مئات الأميال ويقف كل مرة في إحدى المحطات فذهب إلى فرع مطعم هوارد جونسون ، وكان له نفس المدخل ونفس قائمة الطعام ونفس العمار ، فتأتي الجرسونات ويخضعون نفس نفس الابتسامات ويقدمون نفس الطعام الذي له نفس الطعم . وأصبح كل شيء مضبوطاً تماماً ، يمكن التنبؤ به بكل دقة . في المرة الرابعة ، تحققت من حجم كارثة التنميط ، فكانت أشيح بوجهي عن الجرسونة ، حتى لا أرى ابتسامتها "مدفوعة الأجر" ، وأقذف بالطعام البلاستيك في جوفي دون حب أو كره ، وذلك حتى لا أموت بجوعاً .

وفي حفلات الكوكيتيل التي كنت أحضرها ، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يخطبوا

ود مرءوسهم بشكل قاتل . بل كان عليهم إثبات أن حياتهم العائلية مستقرة ، وأن زوجاتهم يوفرن لهم الاستقرار الكافي في حياتهم حتى لا يعرفوا مسيرة الإنتاج والعمل ، أي أن الحياة الخاصة توظف في خدمة الحياة العامة (ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرم من على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهن علي أن كل شيء تمام التمام !) .

وقد حدث العكس تماماً لي حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ ، ودعوت أنا وزوجتي عضوات هيئة التدريس في كلية البنات لطعام العشاء في منزلي وأزواجهن ، وفوجئت بأنهن جميعاً تقريباً حضرن مستقلات . وتناولنا طعام العشاء وتحدثنا في كل شيء . وحينما تأملت في الواقعة وجدت أن حياتهن العامة بالنسبة لهن لا علاقة لها بحياتهن الخاصة ، وأن رفقة الحياة الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها وأنه لا يجوز بأي حال جرّها جرّاً للحياة العامة ، وبهذا أكدت كل أستاذة فرديتها واستقلالها ، وقدسية حياتها الخاصة !

كنت أقابل كثيراً من الأمريكيين يغيرون ملابسهم وماكلهم وسلوكهم حسب ما يمليه الإعلام ، بل وينسخون ما جاء في بعض الكتاالوجات ، مما كان يثير ضحكي أحياناً وحزني أحياناً أخرى . وهذا دعائي للقول بأن ما يسود في الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية . والإنسان البرجسماني يتصور أنه يؤكد ذاته الجوانية ولكنه ينتهي بالكيف مع ما حوله وبالاستجابة المباشرة لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية ، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات . وكما أشرت من قبل عرف أحد العلماء الغربيين الحدائة بأنها "المقدرة على أن يغير الإنسان فيه بعد إشعار قصير" . وهذا يتنافى مع ما تعلمناه من أن الإنسان الغربي إنسان فاوستي ، بروميثي ، يقف وحيداً في الكون يملئ إرادته ، عالمه الداخلي من صنعه ، وهو يحاول في الوقت نفسه أن يفرضه على العالم الخارجي من حوله . لم أجد شيئاً من هذا (إلا في الأعمال الأدبية أساساً) . بطبيعة الحال ، كان هنالك الشخصيات الفاوستية البعثوية ، التي تلهم الآخرين . لكن الغالبية الساحقة من الناس ، التي ليست عندها مقدرات نقدية عالية ووعي بالذات ، في حالة عدم ثقة بالنفس تستمد صورتها لنفسها من الإعلام الذي كان أخذاً في التوحش والتفول .

وفي تصوري أن معظم المجتمعات الإنسانية في الماضي كانت تحاول إدخال الطمأنينة على قلب الإنسان بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة (وهو توازن فقدته بسبب إنسانيته ووعيه) . فطور الإنسان عبر تاريخه كثيراً من الطقوس هدفها هو تأكيد الاستمرار في حياته وتفسير الانقطاعات المختلفة فيها . ولعل الأسرة هي أهم المؤسسات التي طورها الإنسان ليدخل الطمأنينة على قلبه . أما المجتمعات الحديثة (خصوصاً المجتمع الأمريكي) فقد جعلت الإنتاجية والحركية هي هدفها . ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركي (فالقلق ، كما يقول ماكس فيبر ، يولد نزعة إمبريالية في الإنسان تجعله يود

غزو العالم وتملكه وهزيمته والهيمنة عليه وعلى نفسه ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئاً من الاتزان . والمجتمع الأمريكي هو مجتمع القلق ، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله في سوق العمالة في مرحلة مبكرة للغاية . وفي سن الثامنة عشرة لابد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه . وطبعاً هناك التآكل الكامل للأسرة التي سماها عالم الاجتماع الأمريكي كريستوفر لاش "مرفأ في عالم بلا قلب" . هذا الفرد المنعزل الذي لا يشعر بأي اطمئنان يترك وحيداً أمام آلاف الاختيارات والإعلانات ، والذي يلتهمه الإعلام الكفء التهاماً ، لا يجد أي جماعة مرجعية ، موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفي معنى على وجوده ، وتساعده على اتخاذ القرار .

فمت بعقد مقارنة (في عقلي) بين الأغط الأمريكية حولي والأغط المصرية التي عرفتھا في مصر (حتى أواخر الستينات) ، وجدت أن عالم الإنسان المصري أكثر امتلاءً وأكثر صلابة ، فهو قادر على الحب وعلى الكره ، وعلى التعاون والتآمر ، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته . وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة ، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع في إذاعة مصر . أما الإنسان الأمريكي ، فهو مؤمن تماماً بكل ما يُقال له ، وما يُقال له هو كسولات إعلامية تزيد تبعية خارجية وهشاشة داخلية .

وحيثما درست الأدب الأمريكي (وبخاصة شعر وولت ويتمان) ، لاحظت هذه الظاهرة الغريبة : أن كلاً من الذاتية المتطرفة وذويان الذات في الكل (الطبيعة - الكائنات الأخرى - الولايات المتحدة الأمريكية) يتعايشان ، برغم تناقضهما ، جنباً إلى جنب ، وهو ما سمينته حينذاك التآرجح بين التمرکز حول الذات (بالإنجليزية : سوليبسيزم solipsism) والموضوعية المتطرفة (بالإنجليزية : إكستريم أوبجكتيفيتي extreme objectivity) . وبدأت ألاحظ أن المجتمع الحديث الذي يزعم أنه يدافع عن الفردية يقوم في واقع الأمر بهدمها وتذويبها ، وباقتحام عالم الإنسان الجواني (وهذه ثنائية أساسية في الحضارة الغربية الحديثة ، ظلت عالقة في ذهني تطلب تفسيراً ، وأسماها الآن التمرکز حول الذات الذي يؤدي إلى التمرکز حول الموضوع) . وأضرب مثلاً بتقاليع الملابس نصف السنوية (شتاءً وصيفاً) ، وكيف أن من يقرر أن يرتدي رداء حسب "آخر موضة" هو إنسان متمركز حول ذاته يود تحقيقها بكل قوة ، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تماماً لأن عليه أن يتفد أوامر مصمم الأزياء بحدافيرها لأن "الموضة كده السنة دي" ، أي أنه يتمركز حول الموضوع . وفي إحدى دراساتي عن العلمانية الشاملة أبين أن هذا نمط أساسي في الحضارة الغربية الحديثة . وأضرب أمثلة من كثير من المجالات الفكرية والاجتماعية . وهكذا ، اعتزت مقولة ثالثة أو رابعة من مقولاتي المرجعية (وقد تدعمت كل تخميناتي حينما بدأت أقرأ أعمال هربرت ماركوز وبعض علماء الاجتماع الغربيين الذين يدرسون ظاهرة التنميظ والاغتراب والإنسان ذي البعد الواحد ، وهم كلهم لا يرون علاقة

ضرورية بين التحديث والفردية ، بل يرون أن التحديث في بعض مراحله ودرجاته يقضي على الفردية . وقد وصف ماركوز المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها ضرب من "غياب الحرية في إطار ديمقراطي سلس معقول" (بالإنجليزية : سموث ريزنابل ديموكراتيك أن فريدم smooth reasonable democratic unfreedom) ، أي أنها مجتمعات شمولية بحسب ما يرى أن تجعل الجماهير تستبطن الرؤية السائدة في المجتمع ، وتسلك حسبها دون قمع بوليسي براني ، بحيث يرى الإنسان أن الهدف من الحياة هو زيادة الإنتاج والاستهلاك .

وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة وجدت أن النسبية المعرفية والأخلاقية التي كان من المفروض فيها أنها ستحرر الإنسان وتفسح له المجال لتأكيد فرديته ، أدت إلى العكس . فالنسبية تنزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) وتجعل كل الأمور متساوية ، ومن هنا فالظلم مثل العدل ، والعدل مثل الظلم ، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له . فيصبح من العسير للغاية ، بل من المستحيل ، على الإنسان الفرد أن يتخذ أي قرارات بشأن أي شيء ، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسياً . فالنسبية قوضت الإنسان / الفرد من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أي قرار وإن كانت ، في الوقت ذاته ، قادرة على تسوية أي شيء ، وكل شيء .

إن النسبية قد فرغت الإنسان الأمريكي من الداخل وتركته في مهب الريح ، فإن قرر الفرد شيئاً كان يجاهد أو حتى أن يحب فحاش ، فإن الشك يزحف إلى قلبه على الفور ، ويبدأ في التساؤل عما إذا كان القرار الذي اتخذه سليماً مائة بالمائة ، أم ماذا ؟ وكيف ستكون استجابة الآخرين ؟ وكل هذا يصيبه بالشلل الكامل ويقع في الغالب في مغالبة ما أسميه والإمبريالية النفسية التي جعلت من الإنسان النسبي المتردد فريسة سهلة لخططاتها (والتي سأتناولها فيما بعد) . وبدلاً من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية ، جعلته شخصية محافظة رجعية قادرة على التكيف في الأعم والأغلب . ولكن في بعض الحالات تظهر - كما أسلفت - شخصيات نيتشوية تجعل من نفسها البداية والنهاية ، ولكن هذا الأمر ينطبق على المثقفين أكثر من غيرهم ، أما بالنسبة لعامة الناس ، فتأكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة في مجتمعاتهم ، تتحركهم بلا معيارية ، فتميد الأرض تحت أقدامهم فيزدادون تعصباً وانغلاقاً على ذاتهم ، بحثاً عن مركز ثابت وعن قدر من اليقين . (بل وأذهب إلى أن السمار الجنسي والاستهلاكي في المجتمع الحديث هما في بعض جوانبهما تعبير عن رغبة إنسانية في الوصول إلى نقطة ثبات يقينية في عالم النسبية السائل) . وهذا الوضع هو الذي يفسر هيمنة فلسفة رجعية مثل البرجماتية وسيادة الجو السياسي المحافظ في الولايات المتحدة ، بل وعدم الاكتراث بالعملية السياسية (إذ يتبادل الجمهوريون والديموقراطيون سدة الحكم ، برغم عدم وجود اختلافات نظرية وعملية بينهما) .

ويمكن تشبيه ما يحدث للإنسان الغربي الحديث في عالم النسبية بما كان يحدث لي حينما أذهب للسوبر ماركت لشراء مستلزمات المنزل (في حالة انشغال زوجتي) . كانت زوجتي تعطيني قائمة المشتريات ، فأذهب لسوبر ماركت حجمه حجم مدينة دمنهور ، يحوي سلعاً لا حصر لها ولا عدد . فإن قورت تكشف الجديد أصبح تماماً ، فالجديد مسألة يومية . وإن اخترت بحزم عدم الضياع وتنفيذ ما جاء في القائمة بحذافيره ، تنشأ مشكلات جديدة ، من بينها معرفة مكان السلمة في هذا الخضم العميق ، فكان عليّ أن أذهب لقراءة اللافتات على الممرات التي تخبرك أن هذا الممر خاص مثلاً بالمعلبات ، وهذا خاص بالنظقات ... إلخ . ولكن إن فشلت في تصنيف السلعة (وهذا عادة ما كان يحدث) أضطر للذهاب لمكتب الاستعلامات الذي عادة ما يعطيني هذه الإجابة المبهمّة : "إن كانت عندنا فستجدها في عمر رقم ٥" على سبيل المثال (معظم العاملين في السوبر ماركت من طلبة المدارس الذين يتقاضون الحد الأدنى ، ولا يعملون بشكل دائم وليس عندهم خبرة) . فأذهب إلى هناك وأبدأ في البحث عنها ، فإن وجدتها سأكون من المحظوظين . ولكن هناك مشكلة أخرى ، وهي أن "الجديد" يكون قد ظهر ، وزوجتي لا تواكب التطور لأنها كانت هي ذاتها تدرس . فكانت إن طلبت سيريال cereal معيناً ، وتذكر لي الماركة أذهب لأجد الصنف وقد انقسم فجأة إلى عدة أقسام : محلي بصل النحل أو مضاف له فيتامين ، وهذا مقسمان بدورهما إلى صنف عادي ، وصنف مسميز محبب للأطفال . ولكن هذا الأخير قد ينقسم إلى عدة أقسام : على شكل حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات . وكان شراء الزيتون مشكلة حقيقية ، فبدأ بشراء برطمان زيتون ، وبعد شهر تجد أنه أصبح سوبر زيتون ، وبعد شهر آخر يصبح إكسترا سوبر زيتون ، وهكذا إلى أن يخيل لك أن حجم الزيتون أصبح بحجم رأس الإنسان أو ربما الكرة الأرضية . أمام هذه الاختيارات العديدة ، كنت أقع في حيرة شديدة . فأجد نفسي مضطراً للاستماع لصوت ما داخلي (هو عادة صوت آخر إعلان سمعته) أو اختيار أي شيء بشكل عشوائي أو أهاتف زوجتي لتصدر لي الأوامر وتعطيني من مسئولية الاختيار . وهكذا بدلاً من أن تحقق لي الوفرة حرية الاختيار ، سلبتني إياه وأذعنت وتكيفت دفاعاً عن نفسي .

والقصة التالية تلقي مزيداً من الضوء على هذه المشكلة . يوجد محل للأطعمة في نيويورك يسمّى زابارس Zabars عنده قسم خاص للقهوة : جميع أنواع القهوة التي تطراً ولا تطراً لك على بال ، عددها ما يقرب من أربعين . ذهبت مرة لشراء قهوة منه أنا وصديقي كافين رايلي وأحدنا نتناقش في أي قهوة نختار ، واكتشفنا أنه يمكن اختيار نوعين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة وبخلطها . فقلت : لم لا نجرب كل الخلطات ؟ وبالطبع نسينا القهوة وجلسنا ندرس الاحتمالات المختلفة فوجدنا أنه كي يجرب الإنسان كل الأنواع ويقارنها ليختار النوع الأمثل له ، فإنه سيحتاج لحياته كلها . ولكن المشكلة أنه بعد أسبوع واحد من الدراسات المقارنة المكتشفة فإنه

سيسى طعم القهوة رقم ١ وعلاقتها برقم ٢ وعلاقتها برقم ٣ وعلاقة كل هذا برقم ٥ - ٦ - ٧ ، فما بالك بحياته بأسرها ! إلى جانب أن الإنسان المتذوق نفسه يتغير مذاقه بتغير حالته الجسدية والذهنية . فكان اختيار أحسن قهوة بمكة مسألة مستحيلة ، وعلى المرء أن يقبل بما يعرف أو بما يخبره به معارفه وأصدقائه ، "واسأل مجرباً ولا تسأل طبيباً" ، بدلاً من "اللي يعيش ياما يشوف واللي يجرب يشوف أكثر" .

وتظهر هذه النسبية بشكل طريف في علاقتي بصديقي كافين رايلي حين نود الخروج معاً في نيويورك . وبدأ بمناقشة هل نذهب إلى السينما أو المسرح ، فإن كان المسرح فأى المسرحيات ، ومزايا كل واحدة منها وهكذا . مرة قررنا الخروج لتناول طعام العشاء ، وبدأ يتحدث عن البدائل المختلفة ومزايا كل : الأكل الهندي والأكل الصيني والأكل الإسباني ، بل هناك سلسلة من المطاعم في شارع برودواي تقدم أكل صيني / إسباني ، إذ يبدو أنه مع هجرة أعداد كبيرة من البشر من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة هاجر معهم أعداد من الصينيين الذين كانوا يعيشون في أمريكا اللاتينية وطوّروا هذا النوع من الطعام . ثم تطرق ثانية إلى الفرق بين الأكل الصيني والهندي والتايلاندي ، وبدأ يتحدث عن طعام مملكة نيبال ، وتوجه نحو مكتبته ليحضر كتاباً في الموضوع . فصرخت زوجته فيها أنها جائعة ، وأنها ترغب في أكل أطعمة بحرية ، بدأ كافين يتحدث عن البدائل مرة أخرى ، ولم تحسم المسألة إلا حينما قررت زوجته أننا سذهب إلى أقرب مطعم !

وقد بين الطب النفسي أن كثرة الاختيارات قد تؤدي إلى مشكلات نفسية . إذ يبدو أنه حينما يواجه الإنسان بمثل هذا الموقف ، فعليه أن يحدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف ، وهو يحدده بمفرده . كل هذا يتطلب جهداً نفسياً كبيراً ، بشكل ضغطاً حقيقياً على الإنسان لا قبل لكثير من البشر به .

ومن القصص الكوميدية التي تبين مدى تفويض النسبية للإنسان الغربي قصتي مع "ميس إيزو" Elizo التي حضرت معي مؤتمراً لحماية البيئة في مدينة فولكساكير (بالقرب من مارسيليا) . وكنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال الفهر في العالم مع مجموعة من المؤرخين . فقامت الآنسة إيزو إنها تشرح بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تختار بابا Pope (أي رئيساً) للكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان لأنها أنثى . فقلت (مازحاً بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأنني لا يمكن أن أعين بابا للكنيسة الكاثوليكية لأنني مسلم . وبدلاً من أن يضحك الحاضرون ، التزموا الصمت ، وإذ بي أجد أن الآنسة إيزو تعبر عن تعاطفها معي ، ولم أدر ماذا أفعل . ولحسن حظي ، تركت الآنسة إيزو المكان ، فتشجع بقية الحاضرين وتساءلوا : "ألم تزد الآنسة إيزو عن حدّها قليلاً ؟" أي أنهم حتى أمام موقف في غاية الوضوح والتطرف ، لا يتحمل أي إبهام ، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبروا عن رأيهم .

كنت مرة أجلس أمام التلفزيون البريطاني وشاهدت برنامجاً من برامج الأحاديث (توك شو talk show) . وكان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما ، مع إضافة بسيطة للغاية وهو عشيق الرجل (نعم عشيقه لا عشيقته) الذي يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل ، ولكن بموافقة الزوجة والأطفال . وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية ، وهي أن جميع أعضاء الأسرة موافقون على هذا الوضع الشاذ . فمن ناحية توجد الموافقة (وهي الشرط الأساسي والوحيد لأي علاقة جنسية في العالم الغربي [ولذا يُشار إليه بعبارة «كونسنسوال سكس consensual sex» وهي من كلمة «كونسنسوس consensus» وتعني «إجماع»] أو ربما من كلمة «كونسنت sent» بمعنى «اتفاق» والكلمتان على كلٍّ من نفس الأصل] ، فهي ممارسة جنسية تتم باتفاق الطرفين ، ولذا فهي شرعية لا شأن للمجتمع بها) . ومن ناحية أخرى ، يوجد الشذوذ الذي يسم هذا الوضع ! ولكن لا توجد أرضية متجاوزة (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الوقوف عليها والإجابة بها ، ويمكن أن تزودهم بمعارية ما . لكل هذا كلما كان أحد الحاضرين يحتاج على شيء ، كان الزوج ، الذي أحضر عشيقه ليعيش معه يرد بكل ثقة ، بأن زوجته موافقة وسعيدة وأن أولاده أيضاً موافقون وسعداء ، وأي تدخل في شئونهم سيكون إهداراً لحرمتهم وحقوقهم في الاختيار . ويبدو أنهم في الغرب يشجعون الآن قيمتين أساسيتين ، حولهما إلى معيارين : الحساسية واتساع الأفق ، بمعنى أن الإنسان يجب أن يكون حساساً تجاه الآخرين (بالإنجليزية : sensitive) فلا يؤذي مشاعرهم بأي شكل ، بل عليه أن يتحلى بسعة الأفق (بالإنجليزية : broad-mindedness) وأن يتقبل كل أشكال السلوك مهما كانت غرايتها وشذوذها . وغني عن القول إن مثل هذه المعايير تفتح الباب على مصراعيه لتقبل كل شيء أو أي شيء ، فمن يحب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق ؟ ! ظل النقاش دائراً على شكل حلقتين كل حلقة فيهما مغلفة على نفسها ، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين الأطفال أنهم ليسوا في سن يسمح لهم بالاختيار ، وبالتالي ، فإحضار الأب لعشيقه ليعيش مع أسرته فيه تدمير لحقهم في الاختيار . وتنفس الجمهور الصمداً ، إذ وجدوا أرضية فلسفية تستند إلى حرية الاختيار ، ولكنها في الوقت نفسه تعطيهم الحق في الهجوم على الشذوذ ، فشكروا هجومهم بشجاعة بالغة ، ولزم الرجل وعشيقه الصمت . ولكن المذيع ، حتى يستعيد المظهور السي ، قال : "برغم كل شيء لابد أن نهني فلاناً وفلاناً على شجاعتيهما وقبولهما الحضور لهذا البرنامج" .

وقد صاحب النسبية شيء مناقض تماماً ، وهو الرغبة العلمية الصارمة المتطرفة في أن يصل المرء إلى اليقين العلمي الموضوعي الكامل بخصوص كل شيء ، بما في ذلك الأمور الإنسانية . وألا يقنع بقدر إنساني معقول من المعرفة . وتفترض هذه الصرامة العلمية أن يكون في إمكان المرء أن يعبر بدقة عما يريد ، وأن يعرفه بصرامة بالغة ، فما لا يمكن التصريح به لا يوجد ، فالتعبير عن

العواطف هو مجرد جمل "شبه إخبارية" (كما يقول الوضعيون المنطقيون) لا يمكن تصديقها أو تكذيبها . (وهذه ازدواجية أساسية أخرى في الحضارة الغربية الحديثة : التراجع بين الشك الكامل واليقين الكامل ، وبين اللغة الأيقونية الخاصة واللغة العلمية الرياضية) . وقد تم ترشيد اللغة الإنجليزية بحيث أصبحت لغة دقيقة ومنطقية وصلبة للغاية لا يوجد فيها مجال للأسرار أو المناطق الرمادية . أذكر مرة أن جاءتني إحدى صديقات زوجتي وكانت على وشك الطلاق من زوجها ، وأرادت أن تأخذ رأياً في الموضوع . وجلست وعرضت حالتها بطريقة لا مجال فيها للتردد أو للظلال ، ولا تبين هل هي إنسان يتعذب ، أو إنسان يشعر بالسعادة التي تأتي من التحرر من عبء يتقل كاهله . ولذا لم يكن هناك ما أقوله سوى أن أشير إلى أن مهارتها اللغوية وتملكها لناسبة اللغة الإنجليزية قد جعلها تلخص حالتها بطريقة لا تدع مجالاً للاستئناف أو الاجتهاد . فعرضها كان أشبه بمراجعة المحامي الحاذق منه بحدث إنسان لا يزال متردداً في اتخاذ قراره يبحث عن النصيح والمشورة .

ونفس ارتباط النسبة المعرفية (السائلة) بالوضعية المنطقية الصارمة (الصلبة) يظهر في هذه القصة التي توضح ما أرمي إليه . كنت في حفل زفاف إحدى صديقات زوجتي ، وكان من ضمن الحاضرين فتاة بلغت بها النسبية والوضعية المنطقية مبلغاً كبيراً ومطرطراً . وحاولت أن أبين لها أن التواصل الإنساني لا يتطلب دقة في الحديث تحول لغة الحوار الإنساني إلى معادلات رياضية ، فالتواصل يتطلب سماحة الآخر وكرمه . كما أن أي حوار يستند إلى مجموعة من التصميمات المشتركة التي لا يباح بها أحد برغم وجودها . ولكن الفتاة أصرت على أن كل شيء يجب أن يتم تقريره بوضوح .

في اليوم التالي ، تصادف أن كنت أمام مكتبة الجامعة واستوقفتني نفس الفتاة دون أن تذكرني أو تذكر حوار الليلة السابقة وسألتني عن الوقت مستخدمة العبارة التالية : "هل تعرف الوقت ؟ دو يو هاف ذا تايم ؟ Do you have the time ؟ فاجبتها : "نعم أعرف الوقت" ، وسرت إلى حال سبيلي وهي حائرة من سلوكي هذا . وبعد عدة خطوات توقفت ، وعدت إليها ، ثم قلت ضاحكاً : "إن الدقة البالغة في التعبير تؤدي إلى مثل هذا في الأمور الإنسانية ، فقد سألتني عما إذا كنت أعرف الوقت أم لا ، فكانت إجابتي على قدر سؤالك" . ثم بينت لها أنه في إطار الدقة البالغة المطلوبة ، هذه الإجابة تكفي ، بل إن أكثر من هذا يعد تطفلاً . ولذا كان ينبغي عليها أن تقول "إن كنت تعرف الوقت ، فهل يمكن أن تخبرني به ؟" ساعتها وساعتها فقط كان يمكن أن أخبرها بالوقت ، وضحكنا ثم افترقنا .

وقد أدى الغلو في النسبية إلى أن مفاهيم إنسانية فطرية وأساسية مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس تصبح هي الأخرى محل تساؤل بسبب اختفاء المعايير وفقدان القدرة على الحكم . وقد نشرت مجلة تايم مؤخراً مقالة بعنوان "صحيح الجسم ، وثري ، وغير سعيد" ورد فيه أن السرال

التالي طُرح على الأوروبيين : هل أنت سعيد ؟ فظهر أن أكثرهم ثراءً وتقدمًا الألمان ، هم أكثرهم بؤساً ، وأن أكثرهم فقراً الأيرلنديين والبرتغاليين ، هم أكثرهم رضا . وقد قامت إحدى شركات استطلاع الرأي بتطوير ما سمّته «مؤشر الأمل Hope Index» . فوجدت أن النشاط بخصيص المستقبل يسود أوروبا ، خاصة في البلاد التي تقع على شاطئ الراين (في ألمانيا حيث يصل معدل دخل الفرد ٢٨ ألف دولار) على حين وجدوا أن ٤٢٪ في جنوب إفريقيا و ٦٤٪ في البرازيل (حيث يصل دخل الفرد ٣٥٠٠ دولار و ٤٤٠٠ على التوالي) ممن شملهم الاستطلاع عندهم أمل في المستقبل . وتضيف المقالة أن مقياس النمو الإنساني التي طورته هيئة الأمم غير كافية ، فقد اعتمدت الدخل والتعليم ومتوسط العمر بحسبانها مقياس أساسية . ويقول الكاتب : إنه حسب هذا المعيار ، فإن أمة من المصابين بالأمراض العصبية ، حصل كل أفرادها على شهادة دكتوراه ومتوسط أعمارهم ٩٠ عاماً ستحصل على الدرجات النهائية . لأن المرض النفسي ليس جزءاً من المعايير . ثم يختتم المقال بإشارة إلى أعضاء قبيلة الباكوتو التي تعيش في الكونغو والتي وصفت الإنسان الغربي بأنه «خفاش يطير بتوتر ولكنه لا يعرف إلى أين» .

وكثيراً ما كنت أحدث أصدقائي الأمريكيين عن مدى البؤس الذي يعيش فيه الإنسان الأمريكي في أشد مجتمعات الأرض ثراءً (بيت يبعد عن محل عمله - علاقات أسرية مفتحة - علاقة واهية بمحيطه الإنساني - إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالاً لأي شيء إنساني - ساعات عمل قاسية - نسبة طلاق عالية - برامج تليفزيونية باهتة) وأن هذا يؤدي إلى الإحساس القاسي بالوحدة . فكان ردهم دائماً كيف تعرف هذا ؟ لعلهم سعداء بكل هذا ؟ ومن تكون أنت لتصدر حكماً على حياتهم الداخلية ؟ فكانت الحيرة تصيبني في بادئ الأمر ، ولكنني تعلمت أن آتي بالإحصاءات التي لا علاقة لها بالوضع الاقتصادي : عدد الساعات التي يقضيها المواطن الأمريكي مع أطفاله - تلك التي يقضيها مع المعالج النفسي ، الذي أصبح جزءاً عادياً من الحياة اليومية في الولايات المتحدة (٣٥٪ من شباب الدولة التي يقال لها متقدمة مصابون بأمراض نفسية) . كما كنت أشير إلى الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسي ، وإلى انتشار المخدرات في المجتمع الأمريكي ، وإلى أن منحى استخدامها أخذ في الصعود برغم الحرب المستمرة ضدها . أذكر كل هذه الأشياء بحسبانها مؤشراً موضوعياً على بنية البؤس العميقة التي تخبئها بنية السعادة السطحية وعلى رغبة الإنسان الأمريكي في أن يستعيد بعض التوازن الذي فقده ، ولا يمكن تخيل سعادة دون توازن . هذا في مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسي والوحيد ويفترض فيه أنه نجح في تحقيق أهدافه .

وعلاوة على هذا ، كان لابد من استخدام كلمات مثل «ضياع» و«اغتراب» لفهم هذه الظواهر ، أي كان لابد من استخدام مجموعة من المصطلحات لا علاقة لها بعالم الاقتصاد (المادي) ولكنها وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات . كما أن استخدام «الطبيعة البشرية»

ذاتها كمرجعية نهائية هو أمر يقف ضد النسبية المطلقة وما يتبعها من سهولة ولا تحدّد وعدم مقدرة على الحكم . وما يجدر ذكره أن العلوم الإنسانية الغربية ترفض مفهوم الطبيعة البشرية ذاته ، بحسبانها يمثل نوعاً من أنواع الثبات ، في عالم يود أن يكون سائلاً تماماً .

ومن القصص الخزينة التي توضح غياب مفهوم الطبيعة البشرية وكيف أنها تحول الإنسان إلى شخص غير قادر على الحكم ، قصة طالبتي الثورية المتميزة في جامعة تجرّز ، حيث درّست بعض الوقت . كانت هذه الطالبة تحصل على تقديرات عالية في النصف الأول من الفصل الدراسي ، ولكنني فوجئت بأن تقديراتها بدأت تنخفض بسرعة . فاستدعيتها لمكتبي وسألتها عن السبب في ذلك . فقالت إن زوجها يحضر صديقته (أي عشيقته) معه إلى المنزل ، وينامد معها على السرير في غرفة نومها . فتضطر هي إلى النوم على الأريكة في الصالة . ولكنها بدلاً من أن تعبر عن أي مشاعر إنسانية فطرية ، أخبرتني بموضوعة شديدة أن "الأريكة في الصالة غير مريحة ، ولذا فهي لا تستطيع النوم" . فأخبرتها بأن عليها إذن أن تشتري أريكة جديدة مريحة . فنظرت لي وقد أدركت أنني عرفت ما لا تريد البوح به .

ويبدو أن القانون الأمريكي نفسه يتقبله المفاهيم النسبية ، يجعل إصدار الأحكام أمراً في غاية الصعوبة . أخبرتني إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حجر صديقها ، بينما كان يقود سيارته . فأوقفهما ضابط الشرطة ، الذي ترم بمنظرهما ، ولكن القانون لا يخول له أن يجرم مثل هذا الفعل ، فأصدر للسائق تذكرة مخالفة مروورية ، بحسبان أن زميلتي كانت تعجب الرؤية عن السائق !

ولمة ظاهرة غريبة ظهرت في الولايات المتحدة وهي زيادة فارلي الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم في البيت الأبيض) . كما انتشرت العبادات الجديدة (مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالمقدورات الخارقة للهرم وعبادة جايا ، أي كوكب الأرض) . وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة أذهب إلى أنه برغم تزايد معدلات النسبية فإن الإنسان كائن ميتافيزيقي ، يسأل أسئلة نهائية عن معنى الكون ، ولكن سقف الإنسان في العالم الغربي سقف مادي لا يسمح بوجود ثوابت أخلاقية ، خاصة مع تفشي أخلاقيات السوق . فالحدانة الغربية هي حدانة تفصل العلم والتكنولوجيا والدنيا عن الأخلاق والهدف والغاية . والنتيجة هي الإيمان بما أسسه «ميتافيزيقا دون أخلاق» ، كأن يؤمن الإنسان بالأطباق الطائرة ، فهذا يعطيه اليقين الميتافيزيقي الذي يبحث عنه ، ولكنه في الوقت ذاته لا يحمله أي أعباء أخلاقية .

وهناك شكل من أشكال النسبية الأخلاقية بدأ يظهر في الغرب والشرق ، وهو أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج . فعلى سبيل المثال يتغنى المجتمع الأمريكي بأغان تدور في معظمها حول الحب ، وبخاصة الحب الرومانسي ، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية . وعادة ما يتنازع الآباء اتجاهاً متناقضاً في تنشئة أطفالهم : هل

يحافظون على براءتهم وبالتالي رومانسيته، أو يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء في عالم السروق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءاً كبيراً من مقدرتهم على الصراع من أجل البقاء، وإن فعلوا العكس، أي علموهم فنون الصراع من أجل البقاء، أفقدوهم جزءاً كبيراً من براءتهم. ويعسم بعض الأمريكيين (وكثير من البشر) هذه القضية بتبني غوردجين: واحد للحياة الخاصة والآخر للحياة العامة. ولذا كنت تجد أستاذاً للفلسفة يدعو للإباحية في فلسفته، ولكنه في حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التي ليس لها أي أساس في رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحداً من هؤلاء الدعاة للحرية الأخلاقية الكاملة والنسبية المعرفية، وكان - والحق يقال - إنساناً فاضلاً. فقال: أما أومن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأنني منحل أخلاقياً؟ فأجبته من غيظي قائلاً: "إذن مستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم".

وقد استمرت هذه النسبية في الاتساع حتى قوضت كل شيء (الإحساس بالوجود الموضوعي للعالم - الإحساس بأنه كل متكامل - الإحساس بأي قيم أو مركز) إذ اكتسحت السيولة والنسبية كل شيء في طريقها، ولم يعد هناك أي أساس لأي شيء (تسمى ما بعد الحداثة «عد الأساس» بالإنجليزية: أنتي فونديشناليزم [antifoundationalism]، فهي تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز، عالم سائل لا قوام له). ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت في إحدى محاضراتي عن "ما بعد الحداثة" هذه النكتة المصرية الصميمة: "أراد أحد القضاة أن يوقف ضمير الحشاش الذي مثل أمامه في المحكمة عدة مرات وسأله: لماذا بالله عليك قدغن الحشيش دائماً؟ فقال المتهم: حتى أنسى يا حضرة القاضي. فسأله: تنسى ما؟ فأجاب: والله مانا فاكرك (لا أذكر السبب)". وقد عرفت المولمة بأنها تحطم كل اليقينيات ولما لمات (ومن هنا يمكن القول بأن ما بعد الحداثة هي أبديولوجية النظام العالمي الجديد).

ولعل هذا المنطق النسبي المتطرف، وهذا الإنكار للمركز والأساس، يظهران في موقف هذا الصحفي الأمريكي (جريج برنستون) الذي جاء ذات مرة إلى مكتبي بمؤسسة الأهرام حينما كنت أعمل في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية. وكان يرفض بحزم أي شكل من أشكال التعميم بحسبان أن التعميم لا يشير إلى حالات مباشرة واضحة. وعلى سبيل المثال أنكر وجود أي وطن ومن ضمن ذلك الولايات المتحدة ذاتها، لأن "الولايات المتحدة" مجرد تعميم يبتعد عن "قائع" محددة. فهناك أرض متنوعة التضاريس والمناخ مترامية الأطراف، ومجموعات إثنية مختلفة ذات أصول حضارية متنوعة، ونظام حكم يتغير كل خمسة أعوام، ومن هنا يكون تسمية كل هذا "الولايات المتحدة" من قبيل التعسف وتثبيت ما هو متغير ومتحرك. ناقشته كثيراً فأخبرته أن قدراً من التعميم ضروري للتواصل الإنساني، فإذا كنا للواقع هو في حد ذاته شكل من أشكال التعميم، وأن المعرفة المطلقة للأجزاء (والشظايا) أمر

مستحيل ، ولكن هيهات ، فإيماننا السائل بالنسبة كان يسانده إيمان صلب بموقفه النسبي (وهذه مفارقة كبرى تستحق التسجيل) . فطردته من مكتبتي قائلاً عليه أن يرى عملية "الطرد" هذه بحسبانها "خروجاً" من مكتبتي وحسب ، إذ إن مفهوم الطرد مفهوم عام للغاية ، وتعميم لا مبرر له !

ومطبعة الحال أثرت النسبة في كثير من مجالات الحياة ، خصوصاً الفنون . وبدأت في الستينيات عملية التحرر من قيود وحدود الفن ، الأخلاقية والجمالية ، وتزايدت معدلات الإباحية والعنف ، ثم تجاوزتهما عملية التحرر ، إذ أصبحت تحرراً من أي قيود أو معايير . كان من أهم رواد البارتيزان ومثيقي في جامعة رنجرز الفنان آندي وور هول الذي كان يوقع في منتصف الستينيات على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرته قادر إلى أعمال فنية تُباع بألاف الدولارات . وكان له فيلم يسمى "آلنوم" ، يستمر عرضه لمدة ثلاث ساعات ، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو عشر دقائق . كما رأيت فرقة مسرحية في نفس الفترة تسمى نفسها «مسرح الواقعية الراديكالية» ، وكان عنوان المسرحية التي تقدمها هو "أخت فيديل كاسترو" . وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية (من بينها عرض الأعضاء التناسلية) التي لا تهدف إلى نقل رسالة ، فهدفها الأساسي هو أن تصدم الجمهور . ولكن الأدهى ، ولسبب لا أعرفه حتى الآن ، كان الذكور يلعبون دور الإناث ، وكانت الإناث يلعبن دور الذكور . ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبة والحرية . وما حيرني كثيراً هو أن جمهور المتفرجين عبّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية ، التي لا يسمح أحد بها هذه الأيام ، تماماً مثلما عبّر عن إعجابه بفيلم «النوم» .

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبّر عن نفسه بشكل مشير في الآونة الأخيرة في أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبة إلى أقصى مداها ، إذ أصبحت تعني التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها : أولهم أندريه سيرانو André Serrano . وتمود شهرته إلى "لوحة" بعنوان "فلتنبول على المسيح Piss Christ" ، حيث وضع الفنان صرورة المسيح على الصليب في البول . وثانيهم هو روبرت مابلثورب Robert Mapplethorpe ، وهو مصور فوتوغرافي تخصص في تصوير نفسه في أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف . وثالثهم وأشهرهم هو جويل / بيتر ويتكين Joel-Peter Witkin وهو مصور فوتوغرافي يستخدم أجساد الموتى في أعماله الفنية . ومن أهم أعماله عيد الغفلين ، وهو تقليد لأحد الأنواع الفنية الكلاسيكية يسمى «الفروور Vanitas» موضوعه الأساسي هو الفروور الإنساني وتأكيد أن كل شيء إلى زوال . وكانت اللوحة التي تدور حول الموضوع تأخذ شكل فواكه أو طعام في طبق ، توضع بجوارها جماجم بشرية ، وطاقير ميت في طبق لتذكر الإنسان بالموت . ولكن ويتكين طوّر طريقة تناول وحولها ، إذ كان يضع بدلاً من الجماجم أيادي وأقداماً إنسانية حقيقية ، وبدلاً من الطائر الميت كان يضع جثة طفل ميت (يقال إنه قام «بإبداع» هذا

العمل في مشرحة ١) . ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتى بعد أن يرتدوا بعض الملابس ، وصورة رجل يضع حسماراً في قضييه (فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان) . وقد أبدع ويتكين لوحتين / صورتين شهريتين : صورة جنين مشوه وقد تم تثبيته على صليب ، ورجل بلا رأس يجلس على كرسي . وحينما تقيأت إحدى المدعوات في حفلة افتتاح أحد معارضه ، قال الفنان : "إن إحدى علامات المرأة الجميلة ، أنها تحتفظ بجمالها حتى حينما تتقيأ ! " . وتُباع النسخة من صورته بـ ٣٥ ألف دولار (من عملاته الفنان ريتشارد حير وحمون إلتون) . وفي مقال عن ويتكين بدأه الكاتب بقوله : "إذا كان الفنانون يعبرون عن طبيعتهم من خلال صورهم ، فإن ويتكين وحش بكل تأكيد" .

وحياة ويتكين لا تقل وحشية أو نسية . فحينما يجري صحفي حواراً معه فإنه عادة ما يحذره مرتدباً قناع زور . وهو يعيش مع زوجته سينثيا وعشيقتهما باربرا وينامون في نفس الفراش ، وله ابن من سينثيا يسمى كيرسون (ولنتخيل مشكلة الهوية التي سببها هذا الابن المخطوط بالتعددية المفرطة المخطئة به ، خاصة إذا عرفنا أن الفنان يعترف أنه يمارس الجنس أحياناً مع موضوعاته ، أي جثث الموتى !) . وهنا يمكن أن نشير قضية الحياة الخاصة للشخصية العامة ، هل هي أمر خاص بها وحدها ؟ هل إصابة نيتشه بمرض سري أثر على عقله ، ولا علاقة له بفلسفته التي خرجت من تحت عباءتها كثير من المذاهب الفلسفية الحديثة ؟ (وقل نفس الشيء عن تيودور هرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية ، الذي مات هو الآخر بمرض سري) .

ويصل هذا الاتجاه الفني فيما يسمى «سنف موفيز snuff movies» ولا أعرف ترجمة لهذه العبارة ، ولكن لعل وصفها يعطي فكرة عن محتواها . وهي أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة ، وكثيراً ما تنتهي ببطلنة الفيلم في حالة نشوة جنسية ويتم قتلها في اللحظة التي تقذف فيها . ومثل هذا المنظر يتكرر في الأفلام الإباحية «العادية» ، ولكن في السنف موفيز يتم الذبح بالفعل . نعم تقتل بطلنة الفيلم . وكان يتم الإعلان عن الفيلم بعبارة «صور في أمريكا اللاتينية ، حيث العمالة رخيصة» ، وكل ليبب مشرّح بالإشارة يفهم . ومخرجو مثل هذه الأفلام يدافعون عنها من منظور الإبداع والحرية والصورة ... إلخ . وقد قام بعض المشقّفين الليبراليين المدافعين عن حرية الرأي المطلق بمظاهرة ضد دور السينما التي تعرض مثل هذه الأفلام . ولكن جريدة وول ستريت جورنال قامت بتعتيقهم لوقفهم هذا ، وبيّنت لهم أن ما يحدث إنما هو نتيجة طبيعية للموقف النسبي المتسبب من الفن والجنس وإنكار الحدود باسم الحرية المطلقة والإبداع غير المتناهي !

ومن الطريف أن انتشار فلسفة ما بعد الحداثة النسبية السائلة صاحبه ما يسمى بالخطاب «السياسي الصحيح» (بالإنجليزية : بوليتيكالي كورككت politically correct) وهو خطاب صلب للعناية ، بل متعجرف ، ويطالب المرء بالأ يقول شيئاً قد يسيء لأحد أعضاء الأقليات .

وكل البشر بالنسبة - حسب تصور هذا الخطاب - أعضاء أقليات : البدينون - طوال القامة - السود - اليهود - المعوقون ، وهذا يعني ، في واقع الأمر ، أن أعضاء الأغلبية (الواسب ، أي البيض البروتستانت في حالة الولايات المتحدة) هم الوحيدون الذين يمكن إيداع مشاعرهم . كما يحدد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة من وجهة نظره والمواقف الواجب تبنيها ، ومن ضمنها الاهتمام بالبيئة - الاهتمام بكل الأقليات - قبول الشذوذ الجنسي بحُسابه شكلاً طبيعياً من أشكال التعبير عن الهوية . وبعض هذه الأفكار خيّر ولا شك ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية نسبية معالية في النسبية . ولكن المهم أن الطريقة التي يدعى بها إلى هذا الخطاب النسبي طريقة متمحبة إرهابية .

وقد انتشر هذا الخطاب في الجامعات الأمريكية ، وأصبح شيئاً مخيفاً يهدد الجميع . فعلى سبيل المثال ، قامت أستاذة علم اجتماع في جامعة كاليفورنيا بتدريب الطالبات على الاستملاء (حتى يمكنهن الاستغناء تماماً عن الرجال) وذلك في إطار مقرر كان المفروض فيه أن يتناول سوسولوجيا الحياة الأمريكية . فاحتج أحد أولياء الأمور ، فاتهم بأنه ضيق الأفق غير قادر على تقبل الجديد . فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء ، شاكياً من أنه يضح ماله . فالقانون الأمريكي قد فشل تماماً في تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب ، وحكم المحكمة العليا يذهب إلى القول بأن الإباحي هو ما تراه كل جماعة كذلك . وهو تعريف نسبي كان من العسير تطبيقه . فهو يعني أنه حينما يشتري المرء مجلة إباحية في نيويورك ويعبر نفق لينكولن الذي يفصل بينها وبين نيويورك سيتي ، والذي يستغرق عبوره خمس دقائق ، فإنه مهدد بالقبض عليه لأنه "يخرق معايير الجماعة" ، كما يقول حكم المحكمة العليا . ولكن القانون الأمريكي يعترف بالمواطن بحُسابه دافع ضرائب (بالإنجليزية : تاكس بيبير tax payer) وبالحقوق الدستورية الناتجة عن ذلك . لذا لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس .

وهناك الجانب الكوميدي للخطاب السياسي الصحيح . فمثلاً يجب ألا يقول الإنسان المعاصر "رجل الثلج" (بالإنجليزية سومان snowman) فهو بذلك يؤذي مشاعر الإناث وبين ضيق أفقه ، ولذا عليه أن يقول "امرأة الثلج" (بالإنجليزية : سنو وومان snow-woman) أو حتى "الشخص الثلجي" (بالإنجليزية : سنو پرسون snow-person) حتى لا تتضمن عبارته تمييزاً للذكور على حساب الإناث . ولابد أن يعتمد الإنسان عن أي مصطلحات معيارية كأن تقول "إن فلاناً طويل" ، بل عليك اللجوء إلى مصطلحات وصفية فتقول "إن فلاناً يتم تحديه رأسياً" (بالإنجليزية : فيرتيكاللي تشالنجد vertically challenged) . بل إنهم يكتبون كلمة "نساء : women" على النحو التالي "womyn" لأن الكلمة الأولى تحوي كلمة men ! بل إنهم يتحدثون عن التاريخ (بالإنجليزية : هيستوري history) ويؤكدون أن المقطع الأول "هز hus" ذكوري ، وبالتالي يكتبون الكلمة هيرستوري (herstory) والتي يمكن ترجمتها بكلمة

"تاريخه" (أو قصتها في مقابل قصته). وفي محاولتهم تحييد اللغة حتى لا تحمل أي تضمينات تقييمية فإن مؤيد الإجهاض ليس متحيزاً للإجهاض (برو أبورشان pro-abortion) وإنما هو مؤيد لحق الاختيار وحسب (برو شويس pro-choice). وبرغم أنني أتحدث عن النسبية فقد ذكرت هذا الخطاب الجديد لأنه نتيجة نزعتين متناقضتين: النسبية والرغبة في الدقة الكاملة والحياد الكامل. فالنسبية قوضت ما هو قائم من معايير، والرغبة في الدقة الكاملة والتعبير عما هو مقبول اجتماعياً أقرزت هذه المصطلحات المضحكة.

ومع هذا ثمة لحظات كثيرة يضطر المجتمع فيها أن يتخلى عن نسبيته. فعلى سبيل المثال، حينما بدأ الحديث عن استئصال البشر، أصدر الرئيس كلينتون أمراً بتشكيل لجنة لتناقش أخلاقيات الموضوع. وقد اكتشف أمر أحد أساتذة الجامعة في كندا كان يكتب مقالات تحت اسم مستعار يطالب بعدم تجريم العلاقات الجنسية بين الرجال والعصيان القصر، إذ يرى هذا الأستاذ أن مثل هذه العلاقة فيها "إثراء" روحي للطرفين (وقد ظهر فيما بعد أن هذا الأستاذ يعمل في أوقات فراغه "بائع هوى للذكور"). فنار المجتمع على آرائه المتطرفة هذه. (ولكن نظل المشكلة ما الأساس الفلسفي لقرار كلينتون ولثورة المجتمع إذا كانت كل الأمور نسبية؟). وتوجد الآن جماعة في الولايات المتحدة تسمى NAMBA، وهي جماعة تدعو إلى عدم تجريم الجماع الجنسي بين البالغين والقصر من نفس الجنس.

وثمة مقولة أخرى تعلمناها عن الحضارة الغربية أنها حضارة الإحساس (الجواني والفردية) بالذنب (بالإنجليزية: guilt)، أما حضارتنا فهي حضارة الإحساس (البراني والجماعي) بالخجل أو العار (بالإنجليزية: shame). والافتراض الكامن هو أن الإنسان الفرد، إنسان من الداخل ولذا فهو أكثر تحضراً، أما هذا الذي يتم ضبطه اجتماعياً من الخارج بشكل دائم، فهو ليس كائناً فردياً، ومن هنا فهو إنسان غير متحضر. وقد لاحظت أن الإحساس بالذنب عند كثير من الأمريكيين كان بالفعل زائداً للدرجة تُشَلِّعُ عندها حركتهم ولا تدع لهم مجالاً للإبداع (وخصوصاً في إطار النسبية). وبدأت أرى أن الإنسان لو تُرك وشأنه، دون مجتمع يسانده أو يردعه، فإنه يحمل عبئاً ثقيلاً يفرق طاقته.

ولكن أسطورة إحساس الفرد بالذنب هذه تبيخرت هي الأخرى بغزة عام ١٩٧٧، حين انقطع التيار الكهربائي عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس، بيضاً وسوداً، يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح. (لوحظ أن بعض السيدات من الطبقات الثرية البيضاء كن يشتركن في كرفال السرقة). ابتسمت ساعتها وأخبرت أصدقائي الأمريكيين أن الليلة السابقة شاهدت تبخر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية في حياتنا جميعاً، وعلينا ألا نتحدث عن "الضبط الفردي الجواني" وإنما عن "الضبط العلمي وربما البوليسي الكهربائي". فالكهرباء الجمعية (رمز وجود الدولة والسلطة المركزية) قد حلت

تماماً محل الضمير الفردي ، أي أن الجيسيلشافت حققت النجاح الكامل والنصر الساحق . وأرجو ألا يفهم من قلبي أنني أتصور أن كل الأمريكيين غارقون في النسبية أو بدون أي إحساس بالذنب ، فهذا تبسيط مخل للأمور . فأنا أدرس الواقع على مستوى النموذج المهيمن ، أما حياة الأفراد المختلفين فهي بلا شك أكثر تركباً وأكثر إنسانية من النموذج . فالإنسان العادي لا يزال يستمد بقيته من المسيحية أو بقاياها أو مقولاتها وقيمها بعد علمتها ، والإحساس بالذنب (الذي يفترض وجود معايير ثابتة خارج كيان الفرد) موجود وبكثرة (خاصة بين البروتستانت) . وهناك كثير من المفكرين الغربيين والأمريكيين ممن أدركوا خطورة هذا النموذج وحاولوا بشتى الطرق تهذيبه ، وهناك من رفضه تماماً فهمش نفسه . ونقدي للحدائثة الغربية متأثر إلى حد كبير بالنقد الغربي لهذه الحدائثة ، وهو نقد أثبتت منه أيما إفادة . كما أرجو ألا يفهم أنني من دعاة الإطلاق في الرأي . فأنا أؤمن بما أسميه «النسبية الإسلامية» ، وهو أن يؤمن الإنسان بأن هناك مطلقاً واحداً هو كلام الله ، وما عدا ذلك فاجتهادات إنسانية ، أي أن كل ما هو إنساني نسبي في علاقته بالمطلق الذي يوجد خارجه . كما أنني أؤمن بما أسميه «الإنسانية المشتركة» التي تجمعنا كلها والتي تترك مع هذا مجالاً للاختلاف ، وهو مفهوم ينجز كل هذا دون السقوط في هوة النسبية العدمية . (وهذا ما سأتناوله فيما بعد) .

والنسبية بدأت تستشري في بلادنا أيضاً . وملاحظ أن كثيراً من المثقفين اليساريين ممن اكتسبعتهم النسبية تخلوا عن عقيدتهم الثورية وعن الإيمان بمقدرة الإنسان على التجاوز (فالتجاوز يفترض اختياراً ، والاختيار يعني مفاضلة ، والمفاضلة لا بد أن تستند إلى معايير ثابتة) وأصبحوا من دعاة الأمر الواقع والتطبيع وقبول ما هو قائم ، أي أصبحوا من عند الرجعية الصلبة . ولكن ، وهذا هو الغريب ، يوجد فريق لا يزال متمسكاً بقيم مثل الخصوصية القومية المستقلة وضرورة مقاومة إسرائيل ، ومع هذا تجده ينطلق من الإيمان بنسبية كل الأشياء ، فمثل هؤلاء غير مدركين أنه إذا كانت حقاً كل الأمور نسبية (كما يدعون) فلا سبيل لتفضيل شيء على آخر ، فالتغير يكتسح كل شيء في طريقه . فالالتزام في الأدب مثلاً يفترض وجود قيم إنسانية ثابتة ، لا بد أن يدافع عنها الأديب الملتزم ، فإن كانت كل الأمور نسبية ، فالالتزام يصبح مساوياً لعدم الالتزام ، والدفاع عن الإنسان يصبح مثل الهجوم عليه . وقد حضرت ندوة عُقدت ضد التطبيع حضرها ممثلو الأحزاب المصرية ، بما في ذلك اليساريون ، الذين قدموا ورقة عن الهوية المصرية قالوا إنها كانت فرعونية ثم قبطية ثم عربية ثم حديثة ! وقولهم هذا يؤكد الصيرورة المستمرة ، بل وتنتهي الهوية بشيء عام لا لون ولا طعم ولا رائحة له يسمى «حديثة» . فأشرت إلى أنه مع هذه التغيرات المذهلة لم لا تتصور تحول هذه الهوية إلى هوية شرق أوسطية ، كما يتنادي الصهاينة ! ليست كل الأمور نسبية ؟ أليست كل الأمور متساوية ؟ فاستشاط كاتب الورقة غضباً ، وأصدر أصواتاً عصبية حيث كان يجلس ، لكن للأسف كانت الجلسة على وشك

الانتهاء ، ولذا لم يكن هناك أمامه مجالاً للرد وتوضيح وجهة نظره .

العقلانية المادية ؟

أذكر جيداً أنني حينما بدأت التدريس في مصر عام ١٩٦٩ ، ألقيت محاضرة عن الاستنارة الغربية نرمت فيها بمنابها الكثيرة بما في ذلك عقلانيتها . ولكنني في المحاضرة التالية كنت أدرّس الشعر الإنجليزى الحديث ، وكان الدور على قصيدة ت . س . إليوت : "الأرض الخراب The Waste Land" . فتحدثت عن أزمة الإنسان الحديث وتفتته واعترايه عن ذاته وعن الطبيعة . وبينما كنت ألقى محاضرتي ، أحسست بمسغفي الشديد ، إذ تساءلت كيف يمكن لمحاضرة الاستنارة أن تنتهي في ظلمات الأرض الخراب ؟ كيف يمكن أن أبشر بالمحاضرة الغربية بعدها حضارة الاستنارة من الساعة التاسعة حتى الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة ، ثم أبين نفس الطالبات أنها في واقع الأمر حضارة الأرض الخراب من الساعة العاشرة حتى الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة ؟ كان لابد أن أجد تفسيراً كلياً قادراً على تفسير هذا التناقض ، هذه الوحدة الكامنة خلف التنوع ، بل خلف التناقض الظاهر الواضح ! (ومن الطريف أنني كنت أكتب قصائد حدائية فأجد نفسي أكتب عن موضوعات حدائية ، مثل غربة الإنسان وخيانة القيم ... إلخ ، وهي موضوعات ليس لها علاقة بتجربتي الشخصية وتتنافى مع رؤيتي الخاصة . وحيث أنني كنت لا أنوي نشر هذه القصائد فالمسألة لا يمكن تفسيرها على أساس أنني أبحث عن رضا النقاد أو القراء ، ولا بد أن تُفسّر من الداخل ، إذ يبدو أن خطاب الحدائية له حدوده وسقفه ، فهو ليس مجرد أسلوب وإنما طريقة في الرؤية) .

وكنت مرة أجلس مع ابني ، وهو بعد طفل ، نشاهد التلفزيون ، وسمع من المذيع أن الغرب قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفي لتدمير العالم أكثر من مائة مرة ، ففوجئت به يضحك ملء شذقه ويخبرني بشيء بلهجي فائتي ، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة ، لا يمكن تدميره مرة ثانية ، ساعتها ضحكنا أنا الآخر ، وتدعمت شكوكي بخصوص عقلانية العالم الغربي "المتقدم" .

وكما أسلفت ، كنت أحضر حفلات الباتيزان ريفيو ، وأتحدث مع كبار الكتاب ومع الشباب من المثقفين الواعدين ، فكنت أحدثهم بحماسة شديدة (باعتباري واحداً منهم) عن الإنسانية (الهيومانية) humanism والاستنارة والعقل والعقلانية الغربية ، فكنت ألتاجأ بأنهم يتحدثون عن اللاعقل واللاوعي والتخدرات والعبث والأساطير والفن البدائي والوعي الكوني والدوبان في الكون والنبوية . كما لاحظت تزايد الإشارات السلبية إلى مفهوم الإنسانية الهيومانية والإشارات الساخرة إلى الاستنارة . واكتشفت ساعتها أنني الداعي الوحيد للاستنارة في صحراء اللاعقل الجليدية ، واكتشفت أن الحضارة الغربية قد دخلت مرحلة جديدة .

فالحضارة الغربية التي عرفناها ونشأنا على الإعجاب بها ، بعقلانياتها وإنسانياتها ، كانت تعالج سكرات الموت بعد أن سدّد نيّشه ضربيته الأولى ، وبعد أن توالت الضربات من كبير كجارّد ونيّشه إلى هايدجر وهتلر . (من المؤلم حقاً أن بعض دعاة الاستّارة والتغريب في مصر يترجمون أعمال نيّشه وكبير كجارّد وهايدجر ويعرضونها بحُسنائها كلها جزءاً من عملية "التنوير") .

ومما ساعد على تعميق شكوكي بخصوص النموذج المادي الغربي ، دراستي للحركة الرومانتيكية ، فهي في جوهرها كانت ثورة على الفكر العقلاني المادي الآلي الذي ساد في أوربا في القرن الثامن عشر بعد ظهور البورجوازية واقتصاديات السوق والتبادل والتجارة الحرة (دعه يمر) وهيمنة أسطورة أن حركة السوق حركة آلية تلقائية تؤدي إلى خدمة الصالح العام للجميع : التاجر - المستهلك - العامل ، هذا لو تركت الأمور وشأنها . وهي رؤية مغالية في الفردية ومغالية في الذرية تطورت فيما بعد لتصبح النظرية الداروينية . أدرك الشعراء الرومانسيون وحشية هذه الرؤية واختزاليّتها ، فهي لا ترى الإنسان بحُسنانه كأننا حضارياً مركباً له قلب وعقل ، وحواس ووجدان ، وإحساس بذاته وبالأحر ، فرد لكنه يكتسب إنسانيته من جماعته وحضارته ، يعيش في المقدس وغير المقدس ، وإنّما نراه بحُسنانه إنساناً طبعياً يعيش بمفرده له حاجات مادية وخاصّات لقوانين معروفة مسبقاً . والحركة الرومانتيكية هي محاولة لرد الاعتبار لتركيبية الإنسان أمام اختزالية العقلانية المادية الآلية . والماركسية هي امتداد للحركة الرومانسية ، فهي على سبيل المثال تؤكد الجدّل ، جدل الإنسان والطبيعة ، وتؤكد مقدرة الإنسان على التجاوز ، وفي كثير من كتابات ماركس وإنجلز نقد عميق لفكر القرن الثامن عشر ولعقلانيته وماديته الآلية . والماركسية مثل الرومانسية ، تهتم بحالة البراءة الأولى ، المجتمع الشيوعي ، وترى أن النهاية لا بد أن تشبه البداية وأن التراحم سيحل محل التماقّد ! (ولكن ماركس بالذات كان حريصاً على أن يلبس كل هذا لباس العلم والموضوعية والحياد) .

وهكذا اكتشفت بالتدريج أن العقلانية الغربية ليست شيئاً مطلقاً ، وإنّما يتخفى وراءها نموذج مادي يتساوى بين الإنسان والطبيعة ومن هنا يساوي بين العقل الإنساني والطبيعة المادية ، ويجعل هذا العقل يذهن للطبيعة في نهاية الأمر إلى أن تصبح مهمته الوحيدة أن يرسد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان ، ومن هنا سميتها العقلانية المادية (التي تسمّى عادة الاستّارة) التي عبّرت عن نفسها في مقدرة العقل (المادي) على التجريب ، ثم انفصلت النزعة التجريبية عن العقل ، وأصبح العقل يلهث وراء التجريب المنفصل عن القيمة الإنسانية والأخلاقية ، يتلف نتائجها دون تساؤل عن المعنى والغاية .

واعتقد أن هيمنة العقل للمادي في الغرب هي المسؤولة عن الكره العميق الذي يشعر به الكثيرون تجاه العرب ، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس . فاللاجئون

الفلسطينيون يعيشون في وضع مادي مزري ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التي يمكن أن تدفع لهم ، وهم لا يزالوا يتذكرون بيوتهم في حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها ، وهم مستمرّون في مقاومة العدو عبر ما يزيد عن مائة عام . وعلاوة على كل هذا يصرون على أن مدينة القدس هي عاصمة دولتهم (برغم أن كلنتون - كما يقال - عرّض على السلطة الفلسطينية ٣٠ مليون دولار) . كل هذا ، من منظور العقلانية المادية ، يبدو أمراً متخلفاً لاعقلانياً يثير العيظ والحقن ، إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بترائهم ومقدساتهم برغم كل الإغراءات المادية ؟ ما الذي يجري في عقولهم ؟

وقد وصفت العقل المادي - في إحدى دراساتي - بأنه يوجد داخل حيز التجربة المادية لا يمكنه تجاوزها ، يسري عليه ما يسري على الطبيعة من قوانين ، فهو أداة الطبيعة ، يمكنه تسخيرها بمقدار ما يمكنه الانحماص بها والإذعان لها . وهو عقل محايد لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالغرض من وجود الإنسان في الكون) ، أو بالقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر ، فهو موصل جيد لما يدخله من معلومات ومعطيات لا يمكنه أن يتجاوزها ، ولذا فهو لا يفرز سوى ما يمكن تسميته «أخلاق الضرورة» أو «منطق الأمر الواقع» أو «موازن القوة» . بل إنه معاد للتاريخ ، لأن التاريخ بنية غير طبيعية غير مادية تتسم بالتنوع والتركيب والإيهام لا يمكن لهذا العقل أن يتعامل معها بكفاءة فهو يجيد التعامل مع الأرقام والكم والكشافة والحجم والوزن . ولذا فهو يتجه نحو اختزال الواقع المركب وإلى قوانين عامة تؤكد التماثل والعمومية ، ولكنه في الوقت ذاته بسبب التصاقه بعالم الحواس يسقط في التفاصيل ، فكانه يتأرجح بعنف بين العام ، الموغل في العمومية ، والخاص الموغل في الخصوصية . فهو عقل يشبه أشعة إكس من ناحية ، يمكنها أن تعطينا صورة لهيكل الإنسان المطمئ لكها لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنساني في أحزانه وأفراحه . ومن ناحية أخرى ، يشبه الميكروسكوب الذي يعطينا أدق تفاصيل الخلية دون أن يمكنه أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذا العالم . وقد خلصت من كل هذا إلى أن العقل المادي عقل عنصري إسبريالي لأنه يسقط مفهوم الإنسانية المشتركة (لهو مفهوم كلي نهائي مركب لا يمكن قياسه) ولا يجيد إلا اختزال الواقع بهدف توظيفه .

ومن ثمرات هذا العقل المادي ما يسمى «الترشيد» ، أي محاولة توظيف الوسائل بأحسن السبل في خدمة الغايات ، أي غايات . وهذا يعني أن يتعلم الإنسان كيف يبني جسراً أو طريقاً ، ولا يهم إلى أين سيؤديان : إلى الجنة أم إلى الجحيم ؟ المهم هو طريقة بناء الجسر ، مما يؤدي إلى عقلانية الوسائل (كيف تقتل؟) لاعقلانية الغايات (لم تقتل؟) . هذا يعني في واقع الأمر أن رؤية عنصرية لاعقلانية يمكن أن توظف خير الوسائل العلمية والتكنولوجية (العقلانية ١) في خدمة اللاعقل . (ولذا نجد أن هناك تعايشاً كاملاً بين اللاعقلانية والعلم والتكنولوجيا . ألم يفعل ذلك المجتمعان النازي والصهيوني ؛ مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير

عادية ، وفي الوقت ذاته يستندان إلى رؤية داروينية لاعقلانية مادية غيبية (٢) .

وحينما يتم الترشيد من خلال العقل المادي وفي إطار النموذج المادي ، يصبح ترشيدها مادياً هدفه إعادة صياغة المجتمع الإنساني (بل والإنسان نفسه) عن طريق تفكيكه وإعادة تركيبه ليتوافق مع معطيات العقل المادي . والمفارقة الكبرى أن هذا الترشيد المادي يؤدي إلى ضمور الرشد الإنساني لأنه يتطلب الانصياع الكامل لنموذج براني ، مادي ، وفي نهاية الأمر غير إنساني ، واستبعاد كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية ، وكل العناصر الكيفية والمركبة والغامضة والخفوفة بالأسرار ، بشكل تدريجي ومتصاعد ، حتى تهيمن الواجهة المادية ، ويتحول الواقع إلى مادة استعمالية ، ويتحول الإنسان إلى كائن وظيفي أحادي البعد . والعولة هي تصاعد معدلات الترشيد المادي على مستوى العالم ، بحيث يصبح العالم كله مادة استعمالية ، مجرد سوق ضخمة ، ويصبح كل البشر كائنات وظيفية ، أحادية البعد ، يمكن التنبؤ بسلوكها وتوظيفها .

ولعل الولايات المتحدة هي البلد الذي تم فيه ترشيده جوانب الحياة بشكل يكاد يكون كاملاً . وكانت تجربتي مع الترشيد في بداية الأمر محصورة بالمحيط الجامعي ، وهو لا يزال يتمتع بمقدار كبير من الحرية والفردية . ومع هذا لاحظت أن الإعلام الأمريكي ينجح تماماً في عزل الإنسان الأمريكي عن الأحداث العالمية (برغم تدخل الولايات المتحدة في كل أرجاء العالم) . فالجرائد التي تنشر الأخبار العالمية مقصورة تقريباً على أعضاء النخبة ، أما الجرائد الشعبية والمحلية التي تقرأها الجماهير ، فهي تشير إلى "العالم" في نصف عمود ، أما بقية الجريدة فهي تنشر الأخبار الخاصة بالجماعة المحلية ، ولكن الجزء الأكبر مخصص للإعلانات والأوكازيونات وكوبونات الخصم وهكذا . (لا أنسى يوم ٦ من يونيو سنة ١٩٩٧ حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب في ثلاث سطور في الصفحة الثالثة ، وكانت الصفحة الأولى تحمل أخباراً عن افتتاح طريق جديد !)

وقد تصادف أنني كنت في الولايات المتحدة في أثناء انتخابات الرئاسة الأخيرة (عام ٢٠٠٠) ولم أسمع تصريحاً واحداً عن السياسة الخارجية ، بل كانت القضايا الأساسية هي شخصية آل جور ، وهل قبل زوجته في شفتيها أمام مؤتمر الحزب الديموقراطي بحرارة زائدة أم حرارة معقولة ؟ وهل شخصيته أقوى من شخصية جورج بوش أم لا ؟ ونحن كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب ، أما السياسة الخارجية فقد تلخصت في أسعار البترول المتزايدة . ولا يختلف التليفزيون عن الصحافة في تناول السياسة . وينتج عن هذا كله تبسيط الوجدان السياسي للإنسان الأمريكي ، بحيث يمكن للسياسة الحاكمة أن تملي عليه ما تريد من أفكار يمتنعها بتلقائية وحرية كاملتين ، فهو من أحادية البعد بحيث لا يمكنه أن يعمل ملكته النقدية ويتجاوز الحدود البلهاء المفروضة عليه وعلى وجدانه .

وقد ازداد إدراكي لدى مطرة عملية الترشيح (في الإطار المادي) حين عمل بعض أصدقائي في قطاع الصناعة والمال . كان أصدقائي يستيقظون في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحاً لأن عليهم أن يكونوا في مكاتبتهم الساعة الثامنة والنصف ، مهما كان المنزل بعيداً . وحينما يصلون إلى هناك كل حركاتهم محسوبة ، فعليهم أن يكتبوا تقارير باستمرار عن إنجازاتهم . وكل واحد منهم يحتفظ بملف يرصد فيه كل ما فعله بل وأي مذكرة كتبها ، مهما كانت تافهة . وتحدد المؤسسة لهم نوعية ردائهم . ففي الماضي كان على الجميع أن يحضر إلى العمل مرتدياً بدلة وكرافتة ، ثم صدر الأمر أن العاملين بوسعهم أن يحضروا يوم الجمعة مرتدين رداء غير رسمي (بالإنجليزية : كاجوال casual) ثم أضيف له يوم الاثنين . ولكن حين لاحظ أحد المديرين أن العاملين يرتدون البلو جينز بحسبان كاجوال ، أرسل تعميماً يخبرهم أن الكاجوال لا يعني البلو جينز . وأخبرني صديقي أنه حينما يسافر إلى الخارج لأداء مهمة مرتبطة بعمله ، فالليموزين يحضر في الوقت المحدد ، ويسرع بصاحبنا إلى المطار وهو يحمل أوراقاً عليه أن يقرأها وهو في طريقه إلى الاجتماع . وحينما يصل إلى الفندق ، تكون الشركة قد أعدت له جدولته . وإذا كان صاحبنا مسافراً من الولايات المتحدة إلى إنجلترا ، فعليهم أن ينام في الطائرة حتى يهرع إلى الاجتماع ولا يضيع أي وقت في أي تفاصيل غير عملية ، مثل الاسترخاء بعض الوقت ، وإذا كانت المسافة طويلة فهو يحق له أن يستخدم غرفة الألعاب الرياضية الخاصة بالفندق على حساب الشركة حتى يستعيد نشاطه ، أي أن الاسترخاء هو الآخر قد تم حسابه وترشيده . كما أخبرني صديقي أن المؤسسة التي يعمل فيها حينما تلاحظ أن العاملين فيها بدأ ينال منهم التعب ويظهر عليهم التوتر ، فإنهم يحضرون طبيباً نفسياً ليعقد معهم اجتماعات كي يعلمهم فن الاسترخاء .

ومن أهم جوانب هذا الترشيح أنه لا يوجد أي ضمانات للعاملين أن يستمروا في وظائفهم ، إذ يمكن أن يصل أي منهم خطاب في أي لحظة يخبره بالاستغناء عن خدماته ، وهذا طبعاً يعني أن كل العاملين يعيشون في قلق دائم ، الأمر الذي يزيد من إنتاجيتهم (فالإنسان السعيد المثرن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشيء ، إذ تصبح أهدافه في الحياة إنسانية) . وكان صديقي حينما يستيقظ في الصباح يشرب معي القهوة ، يجري إلى الكمبيوتر ليرى أي رسائل قد وصلت ، ويرسل هو بدوره بضعة رسائل ، وكان يتحدث بسرعة حتى يتمكن الاستفادة بالوقت إلى أقصى حد . ومرة حينما أوصلني محطة القطار وصلنا مبكرين ٩ دقائق ، فضحك وقال الآن عندي ٩ دقائق لا أعرف ماذا أفعل فيها ، إذ أنني لم أخطط لها . وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية ، فعليها أن تقوم بفعل الخير بطريقة مؤسسية ، فيأتي أحد المحاسبين ويحدد الميزانية المطلوبة (تبرع لتحتف - لمرضى السرطان - لمكتبة) ولكن عليه أيضاً أن يحسب العائد الإعلامي للشركة ، والأرباح التي تحققها من إجراء ذلك والإعفاءات الضريبية ... إلخ .

في هذا الإطار ننظر إلى التليفون المحمول (رمز الوجهاء وأداة الثروة في بلدنا) . في الولايات المتحدة المحمول هو واحد من أهم آليات الترشيد ، إذ أن المؤسسة يمكنها أن تصل إلى كل العاملين في أي زمان ومكان ، مما يعني مزيد من تآكل رقعة الحياة الخاصة ومزيد من توظيفها وحوسلتها .

وحين لاحظ تصاعد معدلات الاستهلاكية في المجتمعات الغربية كنت أظن في بداية الأمر أن الهدف من زيادة الاستهلاك هو زيادة الإنتاج ، وهي بالفعل كذلك . ولكن حينما تعمقت في الأمر قليلاً وجدت أنها تهدف أيضاً للترشيد في الإطار المادي والضبط الاجتماعي وتنميط المجتمع . فتصميم معدلات الاستهلاكية ، وجعل هذه المعدلات هي المقياس الذي يحدد الإنسان من خلاله مدى سعادته ومكانته الاجتماعية ، هو شكل من أشكال الترشيد الجواني . فالاستهلاكية (وصورة الإنسان الاستهلاكي التي تروج لها من خلال الإعلانات التليفزيونية وأفلام السينما) تحدد للفرد كل شيء ولا تتركه يحلم أحلاماً خاصة ، ولا أن يسلك سلوكاً خاصاً . والموضة (أي الأزياء) التي أصبحت واحدة من أهم الصناعات وأضخمها أكبر دليل على ذلك . فالهدف المعلن من تغيير الأزياء هو إعطاء الفرصة للمرأة أن تجدد ملابسها وتغيرها حسبما يروق لها فتعبر عن ذاتها . ولكنك لو دقت في الأمر لوجدت أنه لو أن كل امرأة أطلقت فعلاً لحياها العنان وعبرت عن ذاتها خارج كل حدود وقبود وسدود فإن مصانع الملابس الحرими ستوقف عن الدوران لأن سلوك المرأة لن يمكن التنبؤ به ، ولن يمكن للاحتكارات أن تعد خطوط الإنتاج المليونية هنا تأتي مهمة الأزياء ، في أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده) فتضع لها الخطوط الأساسية التي تتحرك داخلها (الفستان الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام ، أما العام الذي يليه فهو القصير الأزرق ، وفي العام الثالث فإنه إما يكون كذا أو كذا ، ودوخيني يا لمونة) وبذلك يمكن التنبؤ بسلوكها ويمكن استيعابها (واستيعاب أحلامها) داخل خطوط الإنتاج .

بل إن الاستهلاكية تحاول أن تحدد للمراء الغاية من حياته ، أي أنها تضع الإنسان وأسرته داخل قوالب محددة ، بحيث تصبح كل جوانب حياته الجوانبية مضبوطة من خلال حلم الاستهلاك ، أي أنه إذا كان الترشيد البراني يشيئه من الخارج ، فالترشيذ الجواني يشيئه من الداخل ، أي أنها عملية ضبط كاملة . واعتقد أن هذا هو العمود الفقري لقوة الولايات المتحدة ، فهي قد نجحت في ضبط سلوك هذه الملايين وتوجيهها نحو هدف واحد : الإنتاج والاستهلاك ، وجعلتها تستلطن هذه النُّل كهدف نهائي وكمصدر للمعنى ، وتسعى من أجلها .

واعتقد أن المعونات الأجنبية تلعب دوراً مائلاً بالنسبة لدول العالم الثالث ، فهي دول تضم شعوباً ذات أصول إثنية ودينية مختلفة ، والأفراد فيها لهم ولاءات متعددة وأحلام مختلفة فردية وعائلية وقبلية وقومية ودينية . كل هذا يجعل من عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مسألة صعبة . ومهمة المعونة الأجنبية هي محاولة ترشيذ المجتمع (أي تنميطة) حتى يمكن ضمه إلى

السوق العالمي ويتمتع بحرية التجارة ، أي أن تصب السلع من الدولة المتقدمة إلى الشعوب التي تم ترشيدها . وهولبود تلعب دوراً أساسياً في عملية الترشيد هذه ، فهي تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه . حينما قررت اليابان فتح السوق الماليزية للسيارات اليابانية أعطتها معونة لبناء طرق حديثة حتى يمكن القضاء على شبكة الطرق القديمة غير الرشيدة ، التي لا تسمح بمرور السيارات اليابانية . وقل نفس الشيء عن الطعام والشراب والملابس و حياة الإنسان العامة والخاصة . وألا يمكن أن نرى الرعاية الطبية الشاملة وما يسمى بمعونات البطالة هي محاولة من جانب الدولة أن تجعل المجتمع خاضعاً لحد أدنى من القواعد ويتمتع بحد أدنى من الثبات . وأن هذا الحد الأدنى من الثبات يضمن الحد الأقصى من الحرية للشركات والمؤسسات الخاصة ، التي يمكنها أن تفعل أي عدد من الأشخاص في أي وقت ، ولكنهم مع هذا لا يضيعون ثمناً ، بل يظلون رصيداً "عاملاً" لهذه الشركات والمؤسسات الخاصة ، تستدعيه عند الحاجة ، ومن ثم تضمن لنفسها الاستمرار ، والمقدرة على الانكماش .

ويرى مفكرو مدرسة فرانكفورت (الذين تأثرت بفكرهم) أن تصاعد معدلات الترشيد في المجتمع أدى إلى اختفاء الفرد والقيم الثقافية والروحية والعقل النقدي القادر على التجاوز حتى أصبح الإنسان كائناً ذا بعد واحد (هربرت ماركوز) يرتبط وجوده بالاستهلاك والسلع (لهو إنسان متسلع متشبع) ، عقله أداتي ، يشغل بالوصف والرد وإدراك الآليات ، عاجز تماماً عن إدراك الأغراض النهائية . أما هوركهايمر وأدورنو ، فقد ذهبوا في كتابهما *ديالككتيك الاستنارة* ، إلى أن الترشيد المتزايد للعلاقات الاجتماعية في العصر الحديث قد أدى إلى تناقص استقلال الفرد وإلى تضييق الحياة . وأدى ، في نهاية الأمر ، إلى الشمولية والعنصرية .

ويرى أدورنو أن الترشيد كان من المفروض أن يؤدي إلى الحرية والعدالة والسعادة ولكنه أدى إلى نيجيتين متناقضتين (انتقاع الإنسان من أسر الضرورة المادية ، وتسلمه وتشبثه في الوقت نفسه) . بل إن العقل نفسه (أداة الترشيد) تحول إلى قوة غير عقلانية وغير رشيدة تسطر على كل من الطبيعة والإنسان ، أي أن ترشيد الحياة الاجتماعية أدى إلى نفي الحرية تماماً ، كما يتبدى ذلك في قوى التسلط الرشيدة الحديثة .

إن هيمنة العقل المادي في رأي مفكري مدرسة فرانكفورت تؤدي إلى اختفاء الفرد والقيم الثقافية والروحية والعقل النقدي وإلى تناقص استقلال الفرد وإلى تضييق الحياة ، وأدى في نهاية الأمر إلى الشمولية والعنصرية وإلى الواقع المتمثل في أن الرأسمالية ترجمت مثل الاستنارة إلى واقع معسكرات الاعتقال المنضبط والتي غمت فيها الهيمنة الكاملة على الإنسان (ولدا يشير ماكس فيبر إلى الحياة الحديثة التي تم ترشيدها بأنها «القفس الحديدي») .

وحينما سئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع ، أجاب قائلاً : "هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ

البشري . فلم يعد الناس يحترمون ما يدعى القيم الميتافيزيقية العليا ، والتي تمثل شيئاً أعلى مرتبة منهم ، شيئاً مفعماً بالأسرار . وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي ، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز . هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس ، وأفقاً لهم ، ولكنها فقدت الآن . وتكمن المفارقة ، في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية ، التي أصبحت تسير بدون تحكم من جانبنا . فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم ، في هذه اللحظة نفسها ، بدأ العالم يفقد بعده الإنساني .

ومن أهم صفات العقل المادي أنه يرد كل شيء بما في ذلك الإنسان إلى المادة ، أي أنه يقوم بتفكيك الإنسان إلى عناصر مادية أولية . وكما يقول المفكر الاستناري هلفتيوس "نحن من صنع الموضوعات المحيطة بنا ، ليس إلا" ، أو كما قال كانبانيس (وهو مفكر استناري آخر) : "إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما تفرز الكبد الصفراء" . وهذا طبعاً تبسيط مخل للفلسفة المادية ، ولكن هذه المادية الآلية هي النموذج الفعال الذي يسيطر على الإعلام والجماهير وعلى كثير من صنّاع القرار ، على الأقل في رؤيتهم للجماهير . هذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان تنزع عنه القداسة وتفقد مركزيته في الكون ، وهذا ما أدركه فلاسفة «الاستنارة المظلمة» .

ولعل هوبز هو أول مفكر وضع يده على الأطروحات المظلمة في العقلانية المادية (ولذا فنحن نتحدث عن «الاستنارة المظلمة») حين أعلن أن حالة الطبيعة (وهي حالة الإنسان بعد انسحاب الآله من الكون) هي حالة من حرب الجميع ضد الجميع ، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خيرة فيهم وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء فينصّبون الدولة التتين حاكماً عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا قدراً ولو قليلاً من الطمأنينة . وقد اتفق معه ماكيافللي في هذا ، أما إسبينوزا (ونوتن) فقد قدما عالماً آلياً شاملاً ، تنحل فيه الذات في الحركة الآلية للكون ، وبين لوك أن العقل صفحة بيضاء لتراكم عليها المعطيات ، وبين بنتام أن أخلاق الإنسان مرتبطة بدوافعه وغرائزه وحسب ، وبين الماركيز دي صاد وداروين وفرويد أن الإنسان يحوي الذئب داخله وخارجه ، وذاته المتحضرة هذه إن هي إلا قشرة واهية تخبي ظلمة تمور داخل الإنسان ومن حوله . كما بين يورغ أنه لا توجد ذات فردية وإنما ذات جمعية تعوي نماذج أصلية . وقد بلور نيغشه أسس الاستنارة المظلمة حين بين أن الذات هي إحدى الحيل التي يحاول بها الضعفاء أن يخفوا براءة القوة وتلقائيتها . فالذات هي التي تصرص المثل الوهمية للوجود الثابت على عالم الصيرورة ، وهي في واقع الأمر مجرد قناع أو زحرفة أو توليفة أيديولوجية أو وضع لغوي يسمّى الذات ليس له وجود حقيقي . ولا يختلف ماركس عن هذا كثيراً في بعض كتاباته "العلمية" ، فهو أيضاً يرى أن الذات الإنسانية المستقلة وهم ما بعده وهم ، ف وراء الواجهة الفردية المستقلة يوجد الصراع الطبقي ووسائل الإنتاج . ويصل هذا الاتجاه إلى قمته في فكر فوكو وديدا وما بعد الحداثة ، فلا توجد ذات ولا موضوع ،

فالدات إن هي إلا حفرة من حفريات الماضي ووهم من الأوهام واختراع من اختراعات الهيومانية العربية ، والموضوع لا يمكن الوصول إليه وإنما هو نتاج الألعاب اللغوية والقوة .

وقد ترجمت الاستنارة المظلمة ، التي هي في جوهرها عملية تفكيك وهدم للإنسان ورده إلى ما هو دونه . إلى مجموعة من الصور المجازية الأساسية لعل أولها هو مقارنة إسبينوزا للإنسان بقطعة حجر قذفت بها يد قوية ، وبينما تدور الحجرة المسكينة في الفضاء تظن أنها تتحرك بكامل إرادتها . ثم قام نيوتن بمقارنة العالم كله (بما في ذلك الإنسان) بآلة دقيقة : ساعة تدور دائماً وعلى نفس الوتيرة دون تدخل إلهي أو إنساني . وقد اكتشف لوك أن الآلة التي توجد خارجنا توجد داخلنا أيضاً ، فقارن العقل بالصفحة البيضاء التي يتراكم عليها كل ما يصلنا من معطيات حسية ثم تتحدد هذه المعطيات آلياً من تلقاء نفسها حسب قانون الترابط ، فتتكون الأفكار البسيطة ثم تتلاحم الأفكار البسيطة لتصبح مركبة . وقد أدى كل هذا إلى ظهور الصورة التي يطرحتها آدم سميث للإنسان الذي يعيش في عالم تنظمه اليد الخفية وسرق ينظم قوانين العرض والطلب الآلية .

شهد القرن التاسع عشر انتقالاً تدريجياً من الرؤية الآلية إلى الرؤية العضوية ، ولذا نحل الصور المجازية العضوية (أي المستمدة من عالم الحيوان والنباتات) محل الصور المجازية الآلية (المستمدة من عالم الآلات) . وقد بين داروين أن جنة رومو الطبيعية ليست مثل الآلة ، وإنما هي غابة تصل إلى حالة التوازن من خلال اليد الخفية للصراع من أجل البقاء والأصلح . وإذا كان نيوتن قد جعل من العالم ساعة والإله صانع الساعات الماهر ، ففي عالم داروين تختفي "مقدمة السماء" تماماً فأصول الإنسان - حسب تصوره - تعود للقرود العليا والزواحف . ثم جاء فرويد وأثبت علمياً وموضوعياً (حسب تصور البعض) أن الغابة تقع ، في واقع الأمر ، داخل الإنسان على شكل لا وعي مظلم ولبيدو مشفجرة . وقد أجرى بافلوف تجاربه على الكلاب ، ثم طبق نتائج تجاربه على الإنسان ، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين الواحد والآخر ، فكلاهما تحكمه ظروفه الموضوعية . وهكذا يتم تفكيك الإنسان تماماً ، وهكذا يتحقق الوعد ما بعد الحدائي أن الإنسان لن يعيد شيئاً ولا حتى نفسه ، وأنه سينزع القداسة عن كل شيء ، حتى نفسه . ويحتفي فوكوه بكل هذا من خلال صورة لا هي بالعضوية ولا بالآلية إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التي خطت على الرمال ، ثم تمحوها الأمواج !

وأنا أذهب إلى أن العقل العربي الإسلامي يمارس خوفاً من العقلانية المادية (باستنارتها المظلمة) أساس الحدائث الغربية ، التي عرفت من قبل بأنها ليست تبني العلم والتكنولوجيا وحسب ، وإنما تبني العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيمة والغاية الإنسانية ، بحيث يمكن تنميط الواقع (الطبيعة والإنسان) وترشيده عن طريق فرض القوانين العلمية عليه ، بهدف إدارته وتوظيفه على أحسن وجه بحسبانه مادة استعمالية . وفشل الحدائث عندما هو نتيجة هذا

الخوف ، فالإنسان العربي ، مسلماً كان أم مسيحياً ، يحتفظ بمنظومته القيمية التي تجعله إنساناً متعدد الأبعاد ، له ذات حقيقية ، وظاهر وباطن يدرك الواقع من خلال مقولات إدراكية وتحليلية وتصنيفية تتعامل مع صفات المادة مثل الطول والعرض والسرعة والكثافة والعمق ، ولكنها لا تستبعد ما عدا ذلك من صفات ، ومن هنا فهو لا يسقط في الأحادية المادية التي ترد العالم بأسره إلى مستوى واحد ، أي المستوى المادي (على عكس العبادات الآسيوية الخلوئية التي تذيب الفرد في المجموع والجزء في الكل ، وهي عبادات ليس لها منظومات أخلاقية واضحة ، وتحمل الأخلاق فيها إلى أن تصبح بروتوكولات . ولذا فهي تربة صالحة لأن تولد الإنسان ذا البعد الواحد ، الملائم تماماً للحدثة الغربية بعقلانياتها وواحديتها المادية) .

وقد كتبت مقالاً أدبياً اجتماعياً عن هذه القضية عنوانه "الفتيان الغرباء الروح" . وقد تناول المقال في بدايته بنية العمل الأدبي (أي النموذج الكامن فيه) ، ثم تنازل عدة قصص قصيرة من بينها قصة الطبيب الصالح "دومة ود حامد" . وينتمي راوي القصة إلى المجتمع التقليدي ، أما الغريب المصري ("الفتى غريب الروح") فهو لا يفعل شيئاً سوى أن يستمتع بأدب جم لحديث الراوي . يبدأ الراوي برسم صورة قاعة مجتمع القرية التقليدي الذي تغطيه أسراب النملة شتاءً ، ويهجم عليه ذباب البقر صيفاً ، أما إذا كان الوقت لا صيفاً ولا شتاءً ، فلا تجد شيئاً . نحن ننام حين يسكن الطير ، ويمتنع الذباب عن مشاكسة البقر ، وتستقر أوراق الشجر على حال واحد ، وتضم الدجاج أجنتها على صغارها ، وترقد الماعز على جنوبها تحت ما جمعته في يومها من علف . نحن وحيواناتنا سواء بسواء نصحو حين تصحو وننام حين تنام ، وأنفاسنا جميعاً تتصاعد بتدبير واحد . أما في المدينة فالأمر جد مختلف إذ يمكن للمرء أن يسمع الإذاعة ويذهب إلى السينما وأن يمتنع بنور الكهرباء . وفي تنعيم لفظي يتم على الانتماء الكامل للعالم التقليدي يقول الراوي للشباب اليافع إنه ولا شك سيرحل عن هذه القرية التي يعيش فيها الناس «على السر» ، قوم أصبحت جلودهم نخينة من فرط المشقة ، ولكنهم اعتادوا هذه الحياة ، بل هم في الواقع يحبونها .

نعم سيرحل الشاب ، ولكن الراوي يود أن يريه شيئاً واحداً جوهرياً : «شيء واحد نُصر أن يراه زوارنا» . إنها بمنزلة المتحف ، وإذا كان المتحف هو المكان الذي يحفظ فيه «تاريخ القطر والأمجاد السالفة» فإن هذا الشيء ولا شك له دلالة ماثلة ، إنها دومة ود حامد ، شجرة تقف شامخة برأسها إلى السماء وكأنها صنم قديم ، أو مهر جامع ، ضربت بعروقها في الأرض ، ترسل بظلمها على النهر تارة وعلى الأرض المزروعة تارة أخرى وكأنها «عقاب خرافي باسط جناحيه على البلد بكل ما فيها» . والدومة لم يزرعها أحد ، بل نمت وحدها ، ولذا كل جيل يجيء يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه . ولم لا والدومة تقف في عقل أهل القرية ، تظهر لهم في أحلامهم ويقومون بزيارتها كل يوم أربعاء ليزيحوا نذورهم وهي تستجيب

لدعائهم وتنجز لهم المعجزات ؛ كأن تشفي المرضى الذين استعصى عليهم الداء أو الذين لا يمكنهم أن يصلوا إلى الطبيب في المدينة .

الدومة إذن رمز لجماعة تقليدية ، متماسكة الأطراف ، مؤمنة بالأسطورة ، ولكنها مع هذا لها تاريخ ، يقصه الراوي على هذا الشاب اليافع . فالعصر الحديث لا يترك القرية وشأنها ، إذ تقرر الحكومة "الاستعمارية" إقامة "مكنة الماء" في موضع الدومة ، ولكن أهل القرية "هرا عن أحرهم هبة رحل واحد ... وأعانهم الذباب أيضاً : "ذباب البقر" فطردوا مندوب الحكومة "ولم تأت مكنة ماء ولم يأت مشروع ... ولكن بقيت لنا دومتنا" . ثم جاء «الحكم الوطني» وقرر أن ينشئ محطة تقف عندها الباخرة لتوفر على السكان مثقة السفر نصف يوم كامل للوصول إلى المحطة في البلدة المجاورة ، ولكن حينما يحضر مندوب الحكومة بالنسبة السعيد لا يقابل بالترحاب وإنما بوجوه مترقبة لأن الباخرة تمر عليهم يوم الأربعاء وأخبرهم الموظف أن الموعد الذي سيحدد لوقوف الباخرة في محطتهم سيكون في الرابعة بعد الظهر ، الوقت الذي تزور فيه القرية ضريح ود حامد عند الدومة "ونأخذ نساءنا وأطفالنا ، ونذبح ندورنا ؛ نفعل ذلك كل أسبوع" ، وحين طلب منهم الموظف تغيير يوم الزيارة وقعت الواقعة ! ولا تقف الباخرة عند القرية ولا يزال أهلها يذبحون ندورهم كل يوم الأربعاء "كما فعل آبائنا وآباء آبائنا من قبلنا" . وليكن الأمل مثل الغد ، وبدلاً من التطور ندور في حلقات .

ويبدو أن الحكومة الوطنية «الديموقراطية» حلت محلها حكومة وطنية مستبدة وقوية قررت إنشاء المحطة وإزالة الدومة بالقوة ، فقاوم أهل القرية فزج بعشرين رجلاً منهم في السجن ، ثم أفرج عنهم فجأة ووجدوا أنفسهم أبطالاً شعبيين . إذ إن الحكومة الوطنية العسكرية قد حل محلها حكومة وطنية جديدة ديموقراطية ، تحترم حقوق الإنسان ، ووجد أبطال القرية أنفسهم وسط الخطب الرنانة الثائرة المعادة . وحضر الرؤساء والنواب أقاموا نصباً تذكاريًا تحت الشجرة واستذكروا طغيان الحكومة التي تدخل في معتقدات الناس ، في أقدس الأشياء المقدسة عندهم . ومن الخطب تعلم أن دومة ود حامد كانت السبب في سقوط الحكومة المستبدة وبدا أصبحت "دومة ود حامد رمزاً لبقطة الشعب" . والوصف هنا مفعم بالسخرية ، فهذا العالم الجديد الذي ينقض على القرية ودومتها وأهلها لا يكتثر بها كثيراً ولا يحترم علاقاتها الإنسانية الوثيقة . ولذا بعد الخطب والنصب "عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى ، لا مكنة ماء ، ولا مشروع زراعة ، ولا محطة باخرة . وبقيت لنا دومتنا تلقي ظلها على الشاطئ القبلي عصراً ، ويمتد ظلها وقت الصبح فوق الحقول والبيوت حتى يصل إلى المقبرة والنهر يجري تحتها كأنه أفعى مقدمة من أفاعي الأماطير" . وهذه هي نفس الكلمات التي استخدمها الراوي في وصف الدومة في بداية القصة . لم يزد على الدومة سوى "نصب رخامي وسور حديدي وقبة ذات أهلة مدهية" نتيجة محاولات الحكومة الوطنية الجديدة أن تكسب تأييداً شعبياً ، فبين الحكومة

الاستعمارية والوطنية الديموقراطية والوطنية المستبلة ، والوطنية الديموقراطية الجديدة ، لم تكن القرية وأهلها ودومتها سوى شيء أو موضوع ، وليس كياناً إنسانياً حياً له قوابسه الخاصة يجب التعامل معه باحترام .

وفي نهاية القصة يتفوه الغريب العصري ببضع كلمات ساتلاً عن الطلمبة والمشروع والمخطة ، ومتى سيمكن إنشاؤها "حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم ، ومتى يكون ذلك" . هنا يجبرنا الراوي تفاصيل من حياته ، تدل على أن الصراع بين الجديد والقديم ليس خارجياً ، وإنما يدور داخل القرية ذاتها ، إذ نعرف من الراوي أن ابنه قد هرب إلى المدينة ودخل المدرسة رغم أنه ، ومع هذا "إنني أذكر أن يبقى حيث هو فلا يعود" . ثم يعبر عن رغبته في أن يتكاثر أمثاله في القرية "المسيان الغريب الروح فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي .. لعل الباخرة حينئذ تطف عندنا .. تحت دومة ود حامد" .

ولكن ماذا عن الدومة ، هذا الصنم ، إلهة المكان ، هل نجحت من مكانها ؟ ليجيب الراوي "لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة . ليس ثمة داعٍ لإزالة الضريح . الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعاً أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء ، يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة" .

إن الراوي التقليدي يتحدث مع الغريب العصري ، ويطرح على مستوى النظرية والرؤية ، إمكانية التصالح بين الماضي والمستقبل حتى لا تنتهي إلى ماضٍ دون مستقبل (كما حدث للقرية) أو مستقبل دون ماضٍ ، كما يحدث في بلدان الغرب .

وتنتهي قصة الطيب صالح بالراوي ينظر إلى الغريب الجديد نظرة "لا أدري كيف أصفها ولكنها أثارت في نفسي شعوراً بالحزن ، الحزن على أمر مبهم لم أستطع تحديده" .. ولكننا يمكننا التخمين ، نعم . سيتزوج القديم والحديث ، وسينشأ العالم المركب وستظل الدومة كلاً من القرية والمكنة ، ولكن الراوي يعلم جيداً أن عالمه هو - بكل عظمته وضيق ألفه - سيمر ويذوي ولن يبقى منه سوى الذكرى : وهذا لا شك يثير الإحساس بالحزن .

واختتمت المقال بالإشارة إلى بعض أسباب إبهام موقفنا من الحديث :

لعل مخاوفنا من العصر الحديث تنبع من معرفتنا لا بسيناريو التحديث وحسب ، وإنما بعواقبه أيضاً ، فنحن نقرأ الصحافة الغربية وندرس المجتمع الغربي . وغير المتخصصين يسمعون عن المظاهرات والجريمة ، والمتخصصون يقرأون عن أزمة المعنى في الغرب . ولذا حينما نتحرك إلى العصر الحديث فنحن لا نتحرك بتفاوت شديد ، إذ إن معرفتنا المأساوية بما حدث هناك وبالشحن الفادح الذي سيدفع ، يقلل من حماسنا بعض الشيء . ولا نملك إلا أن ننظر نظرة عريضة تدل على الحزن مثل نظرة الراوي التقليدي في دومة ود حامد .

ولعل ارتباط التحديث والتصنيع بالاستعمار الغربي يزيد من إبهام موقفنا ومن رفضنا للآلة

رغم احتياجنا بل وحبنا لها . إن أول مكنة معاصرة واجهتنا هي المدفع الذي حملة الجندي الغربي ودك به جدران المجتمع التقليدي الشرقي ، لا ليجلب النور والاستارة وإنما لينهب الوطن . كنت قد حضرت محاضرة عن محاولات زكي مبارك إعادة تخطيط القاهرة ، وقد بين الحاضر أنه كان من السهل تغيير أماكن المساجد والأضرحة ، بل وهدم بعضها إن تطلب الأمر ذلك ، ولم تعارض الجماهير في ذلك ، إذ أحست أن هذا المصري لا يريد أن يصيب منظومتها القيمة بسوء . (وزكي مبارك لا يختلف في هذا عما قام به أخي في دمنهور ، إذ كان هناك ضريح بجوار قهوة المسيري وكان يعترض الطريق ، فقام بنقله عدة أمتار ، ولم يعترض أحد على ذلك ، لمعرفتهم أن ابن البلد لا يريد بها بسوء) . وقد أخبرنا الحاضر أنه بعد عام ١٨٨٢ (أي بعد وصول القوات الإنجليزية إلى مصر) لم يتمكن أحد من تحريك أي مسجد أو ضريح بسبب توجس الناس خيفة من الحكومة التي وقعت في يد المستعمر) .

إن المطلوب هو "حدثا جديدة" ، تبني العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم أو بالغالية الإنسانية عرض الحائط ، حدثا تحمي العقل ولا تحت القلب ، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود ، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث ، وهي مسألة ولا شك صعبة ، ولكنها ليست مستحيلة . واعتقد أن الخطوة الأولى نحو إنجاز هذه الحدثا البديلة هو فصل الحدثا عن الاستهلاكية وعن مفهوم التقدم المادي ، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة بحيث يمكننا أن نحدد هدفا للحدثا غير الإنتاج والاستهلاك وأن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك في إطار تحقيق الإنسانية وفي إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية وليس مجرد زيادة الاستهلاكية . ونفس الشيء بالنسبة لمفهوم التقدم ، الذي يجب توسيع آفاقه بحيث يضم المادي والمعنوي والملموس والروحي . وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحدثا البديل وأن نحقق التقدم دون أن نفقد اتزاننا ودون أن نمر الكون .

الإمبريالية والعنصرية

كانت هنالك عناصر عديدة أخرى جعلتني أتساءل بخصوص بعض المسلمات التي يستند إليها النموذج الحضاري الغربي الحديث ، من أهمها إدراكي أنني أفصل الحضارة الغربية والحدثا الغربية عن بعض الظواهر السلبية المصاحبة لها مثل الإمبريالية والنازية والصهيونية التي كنت أصنفها على أنها ظواهر استثنائية ، ومجرد انحراف عن الجوهر العقلاني للحضارة العربية الحديثة . وبالتدرج بدأت أرى هذه الظواهر بحُبانها جزءاً لصيقاً ببنية النموذج الحضاري الغربي الحديث . وبدأت أرى الحدثا الغربية (والعقلانية الغربية) في علاقتهما بالإمبريالية ، التي كانت تعرف التحديث في بلادنا ، وتعاون مع النظم الفاسدة ، وتقوم باستغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم ، تساندا في ذلك القوة العسكرية والأيديولوجيات العنصرية مثل

"عبء الرجل الأبيض" ، وهي أيديولوجيات أبعد ما تكون عن العقلانية . (كشف أخيراً أن الجنرال مونجمري ، "بطل" العلمين ، وضع مخططاً لاستعباد إفريقيا وأهلها وتحريكها إلى مصدر للمواد الخام ، أي إلى جزء من "مجالها الحيوي" ، في المصطلح النازي) .

كنت أقرأ تاريخنا مع الغرب الذي أخذ شكل مواجهة عسكرية منذ البداية : ثورة الحرية والإخاء والمساواة ترسل لنا بحملة نابليون التي تحمل المدافع - إحباط محاولة محمد علي التحديثة حين تكاكات عليه كل أوروبا بما في ذلك فرنسا حليفته - جيوش بريطانيا الديمقراطية تعزو مصر وتهزم أحمد عرابي (ممثل الشعب المصري) لتناصر الخديوي توفيق (ممثل الاستبداد) . وتستمر الحلقة دون توقف حتى يومنا هذا ، كما حدث في تجربة جمال عبد الناصر الوحشية والتنمية . وكما قال الراوي في رواية موسم الهجرة للشمال للطبيب صالح :

"حين جيء لكشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه ... ، قال له : "لماذا جئت بلدي تغرب وتذهب؟" الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض ، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً ... إنني أسمع في هذه الحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ، وقعقة سنانك خيل اللبني وهي تطأ أرض القدس . البراخر مخترت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد أنشئت أصلاً لنقل الجنود . وقد أنشئوا المدارس ليعلّمونا كيف نقول «نعم» بلغتهم" . وهذا بالضبط ما أدركه هذا الشيخ الجزائري الذي أخبروه بأن القوات الفرنسية إنما جاءت لبلده لتنتشر في ربوعها الأمن والسلام والاستتارة . فقال باقتضاب شديد : "لم أحضروا كل هذا البارود إذن؟" .

وفي دراستي عن روجيه جارودي أقتبس كلماته حين يقول :

"إن شرط «نمو» الغرب إنما كان بالضرورة ولید نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية ، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً" . إن النمو والتخلف ، عنصران منظومة الرأسمالية . وتراكم رأس المال الأولي ، ثم الإنتاج الموسع ، تطورا خلال مراحل عدة : إبادة هنود أمريكا بدءاً من القرن السادس عشر - نخاسة العبيد السود التي أصبحت ضرورية لاستغلال المعادن - أراضي أمريكا التي قلّ سكانها نتيجة تلك الإبادة الجماعية - الثورة الاقتصادية (التي جعلها التكديس أسراً ممكناً) - والحركة الاستعمارية أي السيطرة السياسية والعسكرية على أفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين للاستثمارات ذات الربح الأعظم في الصناعة وفي التجارة ، وذلك بفرض السعر الأدنى على اليد العاملة ، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضاً بالقوة ..."

"ثم ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسّعها ، ومن هنا لم تبق علاقات الاستغلال ثنائية الجانب بين البلد المستعمر ومستعمرته . إن الشركات المتعددة الجنسيات تُنظم نهب العالم على الصعيد العالمي ، سواء بالاستناد إلى قوة

عظمي (الولايات المتحدة مثلاً) من أجل توجيه اقتصادها وسياساتها واستخدام جهازها العسكري (كما جرى في جواتيمالا أو في فيتنام) تارة ، أم باستخدام مؤسسات دولية في سنة ١٩٧٦ .

ببساطة شديدة ، أدركت أن «التقدم الغربي» هو ثمرة نهب العالم الثالث ، وأن الخدانة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه ، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره ، وهذا أيضاً بالضبط ما أدركه بدر شاكر السياب في قصيدة له ، موجهاً حديثه للندن ماداً ساكتب يا مدينة / فعلى ملامحك العجاف تجوب أخيلة الضفينة / ساقول إنك توقدين / مصباح عارك من دم الموتى وجوع الآخرين .

لكل هذا لم أعد أتحدث عن «التراكم الرأسمالي» وإنما عن «التراكم الإمبريالي» ، وأناادي دائماً بأن محاولة تفسير معظم الظواهر الغربية دون استرجاع الإمبريالية كمقولة تحليلية ستكون محاولة ناقصة إلى حد كبير .

بالإضافة إلى كل هذا لابد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا ، وكيف تفص متاحف البلاد الغربية وميادينها بها . حينما ذهبت إلى لندن سألني صديق ما إذا كنت أود مشاهدة الإمبراطورية البريطانية . فدهشت من سؤاله وأجبت بالإيجاب بطبيعة الحال . فأخذني للمتحف البريطاني حيث شاهدت أجنحة كاملة لآثار نُهبَت من بلاد العالم الثالث ، بما في ذلك مصر بطبيعة الحال . وبطبيعة الحال استدعي كل هذا الدمار الذي ألحقته الإمبريالية بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للعالم الثالث . وقد أوجز جازودي إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية في صورة مجازية رائعة إذ وصفها بأنها «خلقت قبراً يكفي للندن العالم» .

وقد قرأت في إحدى الكتب (الأصول الثوريّة للرأسمالية المصرية وتطورها للدكتور محمود متولي) الحوار التالي الذي دار في أغسطس عام ١٩١٩ بين المستشار المالي البريطاني وطلعت حرب .

قال المستشار المالي : "كنت أظنك رجلاً عاقلاً ولكنك يبدو أنك أصبحت بعدوى الجنون المنتشر في البلد هذه الأيام ...

هل تصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكاً ؟
إنكم لا تصلحون لأعمال المال .. إنها صناعة الأجانب .. والدليل على ذلك أنكم عندما توليتم شئونكم قبل أن نجيء إليكم جعلتم مصر تفلس" .

ويستمر المستشار المالي البريطاني موجهاً كلامه لطلعت حرب قائلاً :
"كنت أستطيع أن أمنع قيام هذا البنك ، ولكنني وافقت على إنشائه لأعطيكم درساً عملياً في الفشل ... وكل ما أنصحك به هو أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطي للمصريين شعوراً بالثقة في هذا البنك" . وقد رد عليه طلعت حرب بقوله : "لقد قررت أن يكون هذا البنك

مصرياً مائة بالمائة". فقال المستشار المالي البريطاني : "إنك تتكلم بلغة مظاهرات الشوارع ..
والذي يصلح في الشارع لا يصلح في أعمال المال والبنوك . وقد استدعيتك لأنصحك فانت رحل
طيب لا تشغل بالسياسة".

إن مثل التقدم والمدنية والحدثة ينادي بالواقعية ، وشأنه شأن التطيعين هذه الأيام ، وباسم
هذه الواقعية يسقط على المصريين بعض الصفات الثابتة (المتافيزيقية) التي لا تتحول (إبها
صناعة الأجانب) . أما المصري (المفترض فيه أنه مثل التغلف وآسيا وإفريقيا) فإنه يؤكد
صفات (حركية) أخرى : مقدارنا على الاستقلال الاقتصادي وحاجتنا له . وبطبيعة الحال ،
دائماً أطرح السؤال التالي على المستعمرين والصهاينة الذي يتحدثون دائماً عن تخلف الشرق
ويؤكدون أن هذا التخلف هو أحد مبررات الاستعمار ، إذ أسألهم : هل لو تقدم الشرق سيفرح
الغرب والصهاينة بذلك ، أم أن تقدم الشرق سيصيبهم بالهم والغم ؟ ألا يعني تقدم الشرق
انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب ، وعمالة غير رخيصة ، ومواد خام مرتفعة الثمن ، ودولة
صهيونية محاصرة ، لا تؤدي أي خدمة للغرب ؟

وقد لاحظت (شأنني شأن أي عربي مقيم في الغرب) تأييد الغرب غير المتحفظ لإسرائيل
والتعاطف الكامل مع ضحايا النازية الذي يصاحبه في الوقت ذاته إنكار كامل للجرم الصهيوني
الغربي ضد الفلسطينيين وعدم الاكتراث بضحايا الغارات الإسرائيلية . كما لاحظت أن الغرب
في موقفه من إسرائيل يتبنى خطأً عقدياً مطلقاً ، فهو يظهر تفهماً عميقاً لرغبة اليهود في
العودة "لأرض أجدادهم" ، أرض الميعاد (بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين) ، ليؤسسوا دولة
يهودية يحققوا من خلالها هويتهم التاريخية . ولكن الغرب نفسه حينما ينظر إلى الفلسطينيين
فإنه يأخذ موقفاً برجماتياً عملياً ولذا فهو لا يتفهم لم يصير الفلسطينيون على العودة ، ويعرض
عليهم بضعة ملايين من الدولارات للتخلي عن أوطانهم . حيرني هذا الأمر في البداية ، وحاولت
أن أمشيه عن طريق تصنيفه بخسبانه مجرد "استثناء" من القاعدة العامة أو "انحرافاً" عن المسار
(الإنساني الديمقراطي) الرئيسي . لكن التأييد الغربي للدولة الصهيونية وتقبل الأساطير
الصهيونية كان من الشمول والقوة والاتساع بحيث كان من المستحيل تفسيره على هذا الأساس
. وبدأت أرى تأييد الغرب لإسرائيل كجزء من نخط أكبر ، وهو الإيمان الكامل بشرعية القوة
والغاب والإمبريالية والعنصرية ، لا شرعية العقل والعدالة . فمسألة التراث اليهودي - المسيحي
هذه ، وتعاطف الغرب مع اليهود ، ورجته في تعويضهم عما نالهم من أذى في العرب بإعطائهم
فلسطين ، هي في تصوري ديباجات وتبريرات لا تصلح لتفسير مثل هذه الظاهرة واتساعها
وشمولها ، خاصة وأن الغرب لا يشغل باله بمسائل أخلاقية أخرى مثل "الحق العربي" و"حق
العودة بالنسبة للفلسطينيين" فهي بالنسبة له مسائل لا معنى لها ، فالحق ليس فوق القوة ، بل إن
داروين ونيشه فوق الجميع . إن العقل الغربي يعجب أيما إعجاب بالصهاينة بسبب بطشهم

وقوتهم ومقدرتهم على حل كل الأمور لا عن طريق العقل والمناقشة ، وإنما بطريقة عملية جراحية باترة مباشرة . كما أنه يرى أن الصهيونية جزء من التشكيل الحضاري الغربي ولذا فهو يعطيها حقوفاً مطلقة ينكرها على الآخرين . إن الصهيونية تعبّر عن شيء أصيل وجوهري داخل التشكيل الحضاري الغربي الحديث الذي يتباهي بتسامحه وعمليته ، ولكنه يزيد في الوقت نفسه بلداً يستند إلى مجموعة من الأساطير العرقية البدائية الوثنية . فالغرب - في واقع الأمر وفي التحليل الأخير - يطلب منا أن نعتزف بإسرائيل لا بسبب الإبادة النازية ، ولا بسبب ما تعرض له اليهود من المظالم ، وإنما بسبب موازين القوى التي لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما ؛ فالمعيار الوحيد هو القوة لا العقل .

والعنصرية الغربية ليست موجهة ضد العرب وشعوب العالم الثالث وحدهم ، وإنما تمتد لتشمل كثيراً من الأقليات في الولايات المتحدة ، وبخاصة الأمريكيين والأفارقة ، أي الأمريكيين السود . كنا نعيش في نيويورك على مقربة من هارلم حيث يتقاطع شارع ١١٤ مع طريق برودواي (هذه المنطقة أصبحت في الوقت الحاضر منطقة "راقية" بضياء ، ولكنها آنذاك كانت جزءاً من حيوت هارلم الذي يقطنه السود) . كنا نرى الفئران الضخمة تجري في الشوارع والمنازل ، والصراصير ترح في المطابخ وخارجها (في فندقنا الرخيص بجوار جامعة كولومبيا ، كنا نضطر لوضع بقايا الطعام في المطبخ حتى ننصرف عنا الصراصير) . وقد حدثني أصدقائي السود كيف أن الشرطة الأمريكية تسمح لتجار المخدرات ببيع سمومهم في حرية بالغة داخل أحياء السود حتى تضمن تخديرهم وتحقيق الأمن الاجتماعي ! وأذكر جيداً أول صيف قضيناه في نيويورك (صيف عام ١٩٦٤) وكان حاراً رطباً بشكل لا يطاق . بدأت الفئران تهيج والصراصير تزداد حركتها بشكل ملحوظ . ساعتها قيل للناس إنه سينجم جمع القمامة ورش بعض المبيدات ، ففرحوا . ولكن في آخر لحظة ودون سابق إنذار ، قرر الكونغرس توفير بضعة آلاف من الدولارات ولم يرسل جامعو القمامة ولا المبيدات الحشرية . كان أي طفل يعيش في هارلم أو على مقربة منها يعرف أن الوضع على وشك الانفجار ، ولكن النظام الحاكم الأمر ، بكل مؤسساته ومعاهد بحوثه ، فشل في الوصول إلى هذه الحقيقة البسيطة والبدئية الواضحة . وقد حدث الانفجار في هارلم بالفعل ، ونزل الفقراء السود إلى الشوارع يطالبون الحد الأدنى اللازم للحفاظ على إنسانيتهم ، فيما عرف حينذاك "بالصيف الطويل الحار" (بالإنجليزية : long hot summer) . عرفت حينذاك ، في ذلك "الصيف الطويل الحار" ، أن نظام القمع الأمريكي أبله وغير عقلاني بالمرّة . وبعد بضعة أيام ، حينما شاهدنا في التلفزيون السيارات وهي تجمع القمامة استجابة للضغط الشعبي ، ثم عمال المبيدات وهم يرشونها ، تعجبنا بما رأينا . هذا هو مجتمع مادي براجماتي ثري قادر على توفير الحد الأدنى المطلوب للحياة الإنسانية الكريمة بكل بساطة ويسر ولكنه لا يفعل (وبدلاً من ذلك يتفق الملايين على السلاح) .

ولا بد أن أذكر هذه القصة الطريفة التي أخبرني بها صديقي فيكتور تومسون Victor Thompson ، وهي تبين حدة الفصل العنصري في الولايات المتحدة قبل قيام حركة الحقوق المدنية في بداية الستينيات . أخبرني فيكتور أنه في طفولته كان يعيش في حي لا يقطنه سوى البيض ، وبالتالي كان لا يشاهد سواهم . وكان الإعلام الأمريكي يعبر عن أحلام وآراء وواقع أمريكا البيضاء وحسب ، ولذا كان من النادر أن تجد شخصية سوداء تلعب دور البطل في الأفلام أو البرامج التليفزيونية . ولهذا حينما ركب فيكتور حافلة ذات يوم ووقعت عيناه على امرأة سوداء لأول مرة في حياته . توجه نحوها وبدأ يلحق يدها ، ظناً منه أنها مصنوعة من الشيكولاته ! وكانت السيدة السوداء لطيفة فضحكت مما فعل ، وضحك كل من في الحافلة ، تماماً مثلما ضحكت أنا وهو .

أما العنصرية ضد العرب ، فقد كانت طفيفة للغاية . عندما وصلت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ ، لم يكن هناك استخفاف بالعرب ، بل يمكن القول إنه كان هناك خوف منهم ، ففي أوائل الستينيات كان هناك مشروع قومي عربي ، وكان هناك رفض لفكرة الأحلاف العسكرية ورفض لإسرائيل ومقاطعة لها وهكذا . وكانت هناك حركة الحياء الإيجابي ، وكان هناك عبد الناصر . ولكن مع هزيمة عام ١٩٦٧ بدأ الكره يحل محل الخوف ، وبدأت العنصرية الشرسة ضد العرب تظهر ، ففي حضارة داروين ونيتشه ، لا يوجد مجال للمهزومين . ولذا حينما عدت للولايات المتحدة عام ١٩٧٥ ، كان الأمر جد مختلف . بدأت الصورة النمطية للعربي تظهره زير نساء وثرياً ينفق أمواله فيما لا يفيد ، لا يفهم في التكنولوجيا ، خبيثاً لا يمكن الوثوق به ، إلى آخر هذه الصفات العنصرية .

دعيت مرة لإلقاء محاضرة عن مصر في جامعة نيويورك ، على أن يسبق المحاضرة فيلم عن مصر الحديثة . فذهبت إلى قاعة المحاضرات ، ولأحظت وجود عدد كبير من الطلبة الأمريكيين السود وطلبة العالم الثالث . وحينما عُرض الفيلم وجدته ينقح عنصرية . فالحاضرة بالنسبة له كانت مدينة الموتى ، وبعض المقاهي التي يجلس عليها بقايا البشر . وفي نهاية الفيلم أتى مخرج الفيلم بمن قال إنه أحد الهاربين القدماء في حرب سنة ١٩٧٣ فقد إحدى ساقيه في الحرب ، ولم يجد منا يقبل به أوده ، فاضطر إلى التحول إلى بهلولان يعمل في الطرقات ، وينتهي الفيلم بصاحبنا وقد وقف على ساق واحدة ، وقد أوقف عصا على أنفه ، وموسيقى بدائية تعرف في الخلفية . كان الدم يغلي في عروقي حينما انتهى الفيلم . ولكنني تماسكت ، وأعلنت أن المحاضرة ستكون تعليقاً على الفيلم ، وأنها موجهة للطلبة الأمريكيين السود وطلبة العالم الثالث وحدهم . وبينت لهم آليات العنصرية الضمنية ، وكيف حاول مخرج الفيلم أن يأتي ببعض الوقائع المثيرة ويرفعها إلى مستوى الواقعة المثلة . فمصر مليئة بالأمثلة الأخرى وبقصص النضال البطولة . وحكيت لهم عن مظاهرات الطلبة عام ١٩٧١ وعن عبور سنة ١٩٧٣ وعن

جمال القاهرة برغم ما فيها من قبح ، وعن إبداع الحضارة اليومي في مصر المحروسة . وأن محرج الفيلم . بسبب عنصريته ، لم ير في القاهرة سوى مدينة الموتى ، وضابط فقد ساقه في الحرب فتحول إلى بهلوان تحت ظروف مبهمة (فحسب معلوماتي الشخصية لم تهمل الحكومة هؤلاء الخargin القدامى ، بل قدمت لهم العون كل العون) . قوبلت الحاضرة بعاصفة من التصفيق ، واعتذر لي الأستاذ الذي دعاني لهذه المناسبة ، بل أرسل لي فيما بعد خطاباً يبين فيه أنه لم يكن قد رأى الفيلم من قبل !

ولم يصني من العنصرية ضد الملونين ، سوى رذاذ بسيط ، لأننا كنا نقطن في مدينة جامعية ، وهذه لا يوجد فيها أي تمييز تقريباً . مرة واحدة ذهبت إلى السينما ، ورفض الرجل أن يعطيني تذكرة ، فأخبرته أنني سأحضر الشرطة ، فراجع على الفور ودخلت السينما وشاهدت الفيلم . ومع هذا لا بد أن أذكر هذه الواقعة . حينما أرسلت أطفالي لزوجتي (على أن ألحق بهم بعد عدة شهور ، فقد كنت مشغولاً بموسوعة ١٩٧٥) فالحقتهم بالمدرسة . وبطبيعة الحال كانت مقدرات ابنتي اللغوية أقل من مستوى زميلاتهما . فيصنفت على أنها "دون المتوسط" ، وهو أمر متوقع . ولكن بعد مرور عدة شهور ، جاء التقرير الشهري واكتشفت زوجتي أن تقديراتها في جميع المواد "متاز" إلا مادة اللغة الإنجليزية فتقديرها كان لا يزال "دون المتوسط" ، مما يدل على وجود خلل ما (أو تحيز ما أو كسل ما) . وزوجتي أستاذة تربية تفهم هذه الأمور ، فذهبت إلى المدرسة وطلبت مقابلة المدرس المسئول عن ذلك لناقشة هذا الأمر الشاذ معه . وحينما حضر وأخبرته بالخلل ، اضطرب واعتذر ، وقال إنه سيعقد لها امتحاناً خاصاً في اللغة . وحين عُقد الامتحان ، وحضره معها طفل أسود ، أثبت التلميذان أنهما متفوقان بشكل مذهش وأن تصنيفهما "دون المتوسط" كان تصنيفاً جائراً (بل كان مستوى نور يضعها في مصاف طلبة السنة ما قبل النهائية في المرحلة الثانوية ومستوى الطالب الأسود لم يكن أدنى من ذلك بكثير) . وما حدث هو أن المدرس اكتفى بقوليهما في إطار دون مستواههما ، ولولا تدخل زوجتي لظلا داخل القالب الضيق ولتدهورت معنوياتهما لكنه اعتذر ، وأعاد تصنيفهما فانطلقا دراسياً . المهم بعد مرور عامين كعبت لنا المدرسة لتقول إنه يمكن لنور أن تُعد لدخول الجامعة في خلال عام ، أي أنها كان بإمكانها أن تدخل الجامعة وهي بعد في سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر . فرفضنا وآثرنا أن نظل نور مع أقرانها وألا تفقد طفولتها وبراءتها بإدخالها الجامعة فوراً .

ويجب أن أذكر في مقابل ذلك اهتمام مدرسة ياسر به ، وكيف كانت تغمره المعادة في الصباح وهو في طريقه إلى المدرسة برغم عدم معرفته بالإنجليزية . وبالتدريج ومن خلال حب مدرسته له نطق ياسر اللغة الإنجليزية بعد عدة شهور إلى أن أصبح متفوقاً فيها . كما يجب أن أذكر ما حدث لنور في مدرستها الكاثوليكية . فقد حققت نجاحاً باهراً خاصة في مادة اللغة الإنجليزية . وكانت حفلة التخرج في كنيسة المدرسة . وحينما جاء دور تسليمها الشهادة وجائزة

التفوق وجدناها عبارة عن كتاب باللغة الإنجليزية ، ولم يكن الكتاب سوى القرآن الكريم أعطاهما إياه كبير الرهبان . وأنا أذكر هذه القصص لأبين الفرق بين النموذج المهيمن من جهة ، ومن جهة أخرى الأفراد الذين يعيشون جزءاً من حياتهم حسب إنسانيتهم المشتركة ، لا حسب ما يسيطر عليهم من غمادج .

الجنس والمجتمع الأمريكي

كانت إحدى الصور النمطية الشائعة في عقولنا والنموذج التفسيري الكامن فيه أن الجنس طاقة (مادية) إن فُرِغت بطريقة "عادية" "طبيعية" "سوية" فإن الفرد يصبح عادياً وطبيعياً وسوياً ، أما إن كُتت فإنها تصبح قوة مدمرة . وهي معادلة بسيطة ومعقولة لأول وهلة على الأقل ، ولذا كان من المفهوم أن ينشغل الشرقيون بالجنس ، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية في طفولتهم ومرافقتهم ، ولذا طاقاتهم الجنسية كلها مخزونة ، وهو ما أدّى إلى تشوهمهم النفسي الكامل ، وتحولوا إلى مرافقين أزيلين . هذا ما تعلمناه ؛ كما تعلمنا أيضاً أن الأمور مختلفة تماماً في الغرب ، فهم يتصرفون بشكل طبيعي إذ إنهم يسربون الطاقة الجنسية بطريقة عقلانية بلا قمع ولا كبت .

ولكن حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن الأمر ليس بهذه البساطة ، وأن المعادلة البسيطة التي آمنت بها لا تفسّر الأمور ، إذ لاحظت إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحياناً المرضي) بالجنس ، بينما مجال الإشباع الجنسي متاح أمامهم بشكل ديموقراطي مذهل . (على سبيل المثال - كان الجنس متاحاً تماماً في السبعينيات في جامعة تيجرز ، ومع تزايد الحرية الجنسية كان عدد المجلات والأفلام الإباحية يأخذ هو الآخر في التزايد ، كما كانت تقع حوادث اغتصاب كثيرة ، الأمر الذي كان يحيرني كثيراً في بادئ الأمر) .

ولم أكن مصداقاً لما حولي ، إلى أن حضر طالب لبناني (متزوج من إيطالية) من فرنسا . وحيث إننا نعرف ، حسب قوالبنا الإدراكية ، أن فرنسا هي بلد الانفلات الجنسي قررت أن أسأله عن هذا الاهتمام المصوم بالجنس في المجتمع الأمريكي لأتأكد مما إذا كانت ملاحظتي في محلها أم لا . وفوجئت بأنه قد صدم هو الآخر بهذا الهوس الجنسي برغم أنه درس في فرنسا . وأضاف ، أنه لم يشاهد شيئاً مثل هذا من قبل .

وكما قلت ، أنا أتفاعل مع ما حولي محاولاً قدر استطاعتي تخطي القوالب الإدراكية الجاهزة ، مما يحول كثيراً من مشاهداتي إلى إشكاليات . وقد نجم عن إدراكي للانفعال المتطرف للأمريكيين بالجنس أن اهتزت المعادلة البسيطة التي كنت أؤمن بها ، وتحول الجنس من كونه مجرد فعل جسدي لإشباع الرغبة الجنسية إلى موضوع للدراسة والتأمل يجب أن يفصل عن قضية الإشباع وعن الشهوة الإنسانية العادية ، أي أن الجنس أصبح موضوعاً فلسفياً ، تماماً مثل الخمر

عند امرئ القيس وعمر الخيام ، فهي ليست مجرد سائل أصفر (أو أحمر) يذهب الوعي ويستيقظ المرء في اليوم التالي عنده صداع خفيف ليستأنف حياته ، وإنما هو جزء من فلسفة كونية ، وتعبير عن إحساس عميق بالغربة والوحدة والخوف من العدم . (كتبت ابنتي نور دراسة قصيرة تسمى "الكلمات والعدم" عن مقدمة معلقة ابن كلثوم : "ألا هبي بصحنك فأصبحينا / ولا تنسي خمور الأندرينا" . ويستمر الشاعر في تعداد أنواع الخمور المختلفة . وتذهب ابنتي في بحثها إلى أن الإنسان العربي في الجاهلية كان محاطاً بالصحراء والموت . وحيث إنه كان لا يؤمن بحياة أخرى ، تصاعد عنده الإحساس بالعدم . وحيث إن هذا الإحساس لا يمكن أن يتعايش معه الإنسان ، ولا يمكن له أن يواجهه بشكل مستمر فإن الإنسان الجاهلي يطرح على نفسه أسئلة تخص السؤال الكلي والنهائي عن مصيره في الكون ، فذكر أنواع الخمر في مقدمة المعلقة [الكلمات] إنما هو هرب من السؤال النهائي عن العدم) .

وسألت : كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسي بحُبانته تعبيراً طبيعياً عن رغبة جنسية طبيعية . يقال على سبيل المثال إنه في أثناء محاكمة أحد الرياضيين بتهمة محاولة اغتصاب فتاة قاصر ظهر أنه كان ينام مع ما يقرب من ثلاث نساء في اليوم (امرأتين ونصف على وجه التحديد) عبر عدة سنوات من حياته . هل نحن هنا أمام إنسان عادي يشبع رغباته الجنسية ، أم نحن أمام إنسان مدمن لا للخمر وإنما للجنس (بالإنجليزية : سيكسهاوليس sexaholic على وزن الكهوليك alcoholic) فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية ؟ ومن المعروف أن بعض مدمني الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً فهم مدمنون تماماً للجنس ، شأنهم في هذا شأن مدمن الخمر الذي يمقت ما يتعاطاه ؟

هذه الأسئلة هي في واقع الأمر كانت مقدمة للبحث عن نموذج إدراكي تحليلي جديد لدراسة قضية الجنس ، نظراً لعجز النموذج السائد عن التفسير . ومرة أخرى عاد التساؤل بخصوص التفسيرات المادية السهلة للظواهر ، وعاد مرة أخرى النموذج الكامن في أعماقي الخاص باختلاف الإنسان عن الطبيعة المادية . وبدأت أسأل لعل الارتواء الجنسي عند الإنسان (وهو مختلف عن الحيوان) مرتبط بعناصر مادية وغير مادية ، ولعل هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما من صميم الإشباع الجنسي عند الإنسان ، ولعل الجوع الذي أشاهده في الولايات المتحدة والذي ليس له أي تفسير مادي مباشر (هل يمكن تفسير سلوك الرئيس كلنتون بشكل مادي ؟) لعله يعود إلى "رؤيتهم" المادية للجنس ، كما لو كان الجنس شيئاً طبيعياً مادياً ؛ مسألة غدد وعضلات وجنب ، مسألة محايدة تماماً لا تختلف عن أي عملية بيولوجية أخرى (مثل تناول الطعام) ؟ وكثيراً ما سمعته يقولون إن الجنس مثل الطعام تماماً (مع أن أي إنسان سوي يعرف الفرق بين النشاطين ، ويعرف الأبعاد الخاصة للجنس والأبعاد العامة للأكل) . ولعل محاولة تطبيع الجنس تفسر رغبتهم العارمة في ممارسة الجنس في العلن ، بلا أي إحساس بالحرج

أو الخصوصية أو الفردية ، خاصة بعد انكماش رقعة الحياة الخاصة . (هل يفسر هذا الرغبة العارمة في المجتمعات الحديثة أن يصبح الجنس جزءاً من الحياة العامة ؟ وهل يفسر أيضاً إصرار الشذاذ جنسياً على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها ؟ هل هذا يعني أن ما لا يُمارس في رقعة الحياة العامة ، فلا وجود له ؟ هل يُفسر هذا المرض الغريب الذي يُسمى «الخوف من الحميمة» ، [بالإنجليزية : فير أوف إنتيماسي fear of intimacy] إذ يبدو أنه حينما يمارس البعض الجنس أو ما يشبه الجنس في إطار غير رومانسي وعلني [كأن يضاجع رفيقه على عجل في فندق بحرار محل عمله في أثناء الساعة المخصصة للغداء أو في المقعد الخلفي للسيارة أو في حديقة] تصبح هذه الظروف شرطاً لأدائه الجنسي ؟ ولذا يفاجئ هذا الشخص أنه غير قادر على الأداء داخل المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة لأنه لا يستجيب جنسياً إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفي رقعة الحياة العامة) . ومحاولة تطبيع الجنس تظهر في أن المجتمع الأمريكي يظهر عدم الاكتراث بعلاقة الجنس بالمجتمع ، أو كما يقولون : لا يهم سلوك الإنسان في السرير ، المهم هو سلوكه أمام شبك التذاكر !

في إحدى محاضراتي حاولت أن أبين بطريقة شبه كوميدية شبه مجادة أن اهتمام الإنسان الغربي بالجهاز الهضمي يفوق اهتمامه بالجهاز التناسلي . فالإنسان الغربي دائم التساؤل عن الطعام الصحي وعن عدد السعرات الحرارية ، وحتى عهد قريب كان الأكل بالشوكة والسكين هو إحدى علامات التحضر . وتزايد عدد المطاعم في نيويورك يشير إلى هذا الاهتمام المفرط بالجهاز الهضمي . أما السلوك الجنسي فهو مسألة متروكة تماماً للفرد ، أو موضوعاً للتفكه . وكما أضرب مثلاً مشهوراً ، أخبرت الحاضرين أنه لو ضبط شخص يتبول في مكان عام في الغرب لقامت الدنيا ولم تقعد ، أما إن عبر عن رغبته الجنسية (تجاه شخص من جنسه أو الجنس الآخر) بشكل واضح لاضح ، فهذا أمر غير هام .

وعدم الاكتراث هذا هو نتيجة لتبسط الإنسان واختزال دوافعه . ولهذا لم يدرك كثير من الأمريكيين أن الجنس مسألة إنسانية مركبة خاصة وفردية وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية . وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة ، هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسي ، فهم يمارسون الجنس في إطار مادي ، يعرك كيانهم الإنساني بلا إشباع . أو لعلهم أدركوا تركيبة الجنس على المستوى الفردي ، ولكن مؤسسات الإعلام التي تبحث عن الربح تشيع صورة الجنس السهل المباشر ، الذي لا يسبقه مقدمات ، ولا توجد بعده أي توابع : أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير في الرؤية (الصورة "الثالثة" الشائعة هي صورة جيمس بوند مصاحباً إحدى الجميلات ثم يسألها ما اسمها ؟ وفي منظر آخر يحضر جيمس بوند ليقبض على إحدى الجميلات ، فيكتشف أنه وصل قبل مواعده فيقرر أن يضاجعها لفرجة وقت الفراغ . وفي أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على

يديها ويرحل بها) ، وهذا تطبيق عملي لمقولة بلوتارخ الطريقة السطحية : "حينما تطفأ الشموع فكل النساء جميلات" . إن الأفلام (ووسائل الإعلام) الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان إنساناً جسدياً ، يعيش في جسده (المادي) وحسب ، تماماً مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنساناً اقتصادياً تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب ، وهو ما وجدته يتناقض مع الواقع الإنساني المتعين ، بما في ذلك واقع الأمريكيين أنفسهم ، والتناقض بين الصورة الاجتماعية الشائعة (الجنس كنشاط مادي بسيط) ، والتجربة الفردية الحية يولد توترات في الإنسان .

وقد بدأت أشعر بأن ثمة علاقة بين بحث الإنسان عن المطلق ورغبته في التجاوز والنزعة الطوباوية من جهة ، وتصاعد رغبته الجنسية من جهة أخرى . فكلما حُسِّرت النزعة الطوباوية وتوارت المقدرة على التجاوز ، زاد السعار الجنسي كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام ، بحُسان أن عالم الجنس هو البديل المادي والمباشر للمدينة الفاضلة (تحقق مؤقت ومادي للفردوس) . وكلما ازداد العالم نسبية وتوارى المطلق ، زاد السعار الجنسي أيضاً ، فالجنس يزود الإنسان بمركز ومطلق مؤقتين في عالم لا مركز له ولا مطلقات فيه ، فهو مركز مؤقت ومطلق نسبي يملأ الفراغ الذي يخلقه غياب المركز الدائم والمطلق الحقيقي . إنه ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له ، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يحمل أي أعباء إنسانية أو أخلاقية .

وقد وجدت أيضاً أن عدم إحساس الأمريكي بالطمأنينة وافتقاده المعنى يجعله دائماً يحاول أن يصل إلى بعض اليقين أو إلى اليقين الكامل المؤقت ، ويحاول أن يأنس بالغير كي يتجاوز اغترابه . ولكنه في الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر ، ففي هذا نوع من الثبات وهذا هو الخشى ما يخشاه . وقد وجد ضالته في الجنس العابر ، فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والالتئاس المؤقتين ، فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس ، فتحل محل المعنى المجرد ، ومن هنا تدخل شيئاً من الطمأنينة على قلبه ، ولكنها لا تضطره في الوقت نفسه للارتباط بالآخر .

والجنس في الولايات المتحدة مرتبط بالسمار الاستهلاكي . فالأمريكي الذي يعيش في حضارة الفوارغ (بالإنجليزية : ديسبوزابل disposable) وحضارة التغليف (بالإنجليزية : باكيجينج packaging) لا يعرف فكرة التدوير ، ولا يعرف "الاقتصاد الإنساني" (عبارة الكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثورو الذي رأى كيف تهدد الاستهلاكية كيان الإنسان الأمريكي . وهو يعني بالاقتصاد الإنساني ، كيفية الحفاظ على العلاقات الإنسانية بدلاً من تبديدها) . ولذا نجد أن الأمريكي غير راض عما في يده ، برم به ، دائم البحث عن الجديد وعن آخر التقاليع ، يغير مسكنه وجيرانه وأصدقاءه مرة كل خمسة أعوام ، ويستمتع كل شهر (وربما كل أسبوع) إلى أغنية جديدة ، ويرتدي كل عام رداءً جديداً ، ويحاول أن يغير سيارته كلما سنحت له الفرصة . وهو يغير زوجته مثلما يغير كل شيء آخر (وهي أيضاً تفعل الشيء نفسه) حتى يبدأ من جديد .

ولعل انتماء الأمريكي إلى مجتمع استيطاني يعمق من هذا الاتجاه ، فالمجتمعات الاستيطانية مجتمعات لا ذاكرة لها ، تنكر التاريخ . وكما بدأ المجتمع من نقطة الصفر اللاتاريخية ، يحاول الفرد أن يفعل الشيء نفسه .

كل هذا يفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعي والإنساني المركب ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة الكمي ، إذ تُعرّف السعادة / اللذة بأنها إرضاء أكبر قدر ممكن من الرغبات لأكثر عدد ممكن من الناس . إن الإنسان هنا يتعزل عن تراثه وماضيه ، بل وعن وجوده الإنساني المتعين المركب ، يعيش في الجسد يبحث عن التعة المباشرة التي لا علاقة لها بالخير أو بالشر . ولكن بالنسبة لمثل هذا الإنسان المتمركز حول لذته تصبح الأسرة أمراً غير مهم . ولذا نجد أن هذا الموقف من الجنس قد أثر على بناء الأسرة . فقد ألقى على كاهل الجميع عبئاً ثقيلاً ، فأيما تفتح التلفزيون الأمريكي نجد امرأة نصف عارية تباع لك شيئاً ما . وهذا يصعد من توقعات الرجل الأمريكي بالنسبة للجنس ، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء (ويحاول هو جاهداً أن يصبح أحد ملوك الإغراء) وهو الأمر الذي يسبب عدم الاطمئنان والإحباط له ولزوجته لاستحالة تحقيق مثل هذه الرغبات . وتساهم شركات التجميل في تصعيد هذا الجانب ، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل .

هذا إلى جانب أن الباحث عن اللذة هو إنسان فرد مكتفٍ بذاته (موضع الحلول) ، لا يطبق أي حدود أو قيود ، أو مسئولية ، ولذا فهو غير قادر على إرجاء تحقيق رغباته (يقال لها بالإنجليزية : ديلاييد جرافيكيشن delayed gratification) ، فهو يود أن يحققها في العر (الآن وهنا) ، خاصة وأن هذا الفرد يعيش في مجتمع نفعي مادي ، لا يعرف المثاليات التي تساعد على تجاوز ذاته الضيقة . وفي تصوري أنه لا يمكن إرجاء إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمثل أعلى يتجاوز حدود الفرد وحيزه .

ومثل هذا الفرد المكتفي بذاته لا يمكنه أن يقبل مؤسسة الأسرة ، فهي مؤسسة تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى ، وتفرض عليه حدوداً وقيوداً ، عليه أن يقبلها ، وهو من الصعب عليه أن يفعل ، فهو يعيش لنفسه ولتعمته وفائدته ولذته ، ولذا تضمر مؤسسة الأسرة ثاماً . ولعله لهذا يزداد المزوف عن النسل والزواج ، مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر .

بل يبدو أنه مع ازدياد معدلات الطلاق وظهور "الأشكال البديلة" للأسرة ، أصبح بعض الأطفال يرمين بحدود الأسرة التقليدية . ولكن ، مثل هؤلاء ، لا يزالون - والحمد لله - قلة قليلة ، بل قلة نادرة : فتغيير الفطرة الإنسانية أمر صعب للغاية . أخبرتني صديقة أمريكية تعمل ممرضة ، ولم تنفصل عن زوجها ، أن أحد أطفالها أخبرها مرة بأنه لا يتمتع بحياته مثل بقية الأطفال الذين انفصل أبواهما ، إذ إن هؤلاء يعيشون في منزلين مختلفين عند أبوين وأمين : الأب

الحقيقي وزوجته الجديدة ، والأم الحقيقية وزوجها الجديد ، ومن هنا تتسم حياتهم بقدر أكبر من الحرية ، فهم دائمو التنقل ، ويحصلون على قدر أكبر من المتعة والهدايا (بالإنجليزية : ذي هاف مور فـ they have more fun) . (وقد قرأت رأياً مماثلاً للمعلق السياسي الشهير لاري كنج الذي تزوج وطلق خمس مرات) .

لكن نمط الأسرة بدوره يزيد من السعار الجنسي ، إذ إن الأسرة هي المؤسسة الوحيدة التي يمكن داخلها تنظيم الرغبات الجنسية دون أن تتم عملية قمع كاملة لها . أما المؤسسات التي حلت محل الأسرة ، فهي قادرة على القمع الكامل وحسب ، وحيث أن هذا مستحيل ، فإنه يحل محله الترخيصة الكاملة .

لعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة الفردوسية (وهي فردوسية لأنها لا تبحث عن الاستمرار وترفض الارتباط الدائم كما تحاول تخاشي أي نتائج اجتماعية مثل الزواج أو الأطفال) هو الذي يفسر انتشار الشذوذ الجنسي في المجتمعات الرأسمالية الغربية . وقد تناولت في رسالتي للدكتوراه مسألة الشذوذ الجنسي - كما سأبين فيما بعد - كما تناولتها في كتابي المعنون الفردوس الأرضي ، فقلت فيه : "هذه ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا على أساس أيديولوجي . فكل مجتمع فيه شذذه ، ولكن الشذوذ في المجتمعات الغربية قد زاد إلى درجة أصبح معها يشكل ظاهرة (يوجد في الولايات المتحدة الآن [عام ١٩٧٢] ما يزيد على أربعة ملايين من الشذاذ ، بل يوجد لهم بعض الكنائس التي يديرها وعاط شاذون جنسياً مثل كنيسة لوس أنجلوس ، وقد أنشئ بآخرة معبد يهودي للشذاذ ، بل ويشيافه [مدرسة تلمودية] لتفريخ الشذاذ) .

"وأعتقد أن الشذوذ هو النتيجة المنطقية والترجمة الوحيدة الأمينة لمبدأ اللذة النفعي ، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه فينقلب على اغترابه بشكل مؤقت ثم يعود مرة أخرى لطبقاته الاستهلاكية البسيطة . وهو يتقلب على اغترابه دون أن يدخل في علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول في علاقة حقيقية مع الآخرين ومع الواقع ، إن العلاقة مع شخص من نفس الجنس هي أقل العلاقات الإنسانية جدلية . وحينما كنت في نيويورك لاحظت أن الشذاذ من النساء أصبح لهن وجود ملحوظ ، وهذا تطور جديد لأنه قبل ذلك كان الشذاذ من الرجال وحدهم هم المصرح لهن بالظهور . وسبب هذا «التطور» أو «التقدم» ولا شك يعود لحركة تحرير المرأة [أعني في واقع الأمر حركة التمركز حول الأنثى] التي ينادي بعض رعمائها بأن المرأة الشاذة جنسياً هي المرأة التي استغنت كلية عن الرجال ، ولذا فهي أكثر النساء تحرراً ، وهي المرأة التي حققت داخل التاريخ المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال ، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتي" .

ويبدو أنه مع تصاعد معدلات الترشيح وازدياد هيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية ، أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية ، ولذا فهو يحتاج إلى

مؤثرات عنيفة حتى يمكنه الاستجابة . وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف في الحياة وفي الأفلام ، ولعل هذا يفسر أيضاً ارتباط الجنس بالعنف . كنت أشاهد التلفزيون الإنجليزي ، وجاء رجل قد غرس في كل أجزاء جسمه ما لا يقل عن ثلاثين قرطاً ، في أذنيه وفي شفته - في فمه - في بطنه ... إلخ . وقد ظهر أن هذا الرجل كان مدير إحدى كبرى الشركات ، وفجأة شعر أنه يعيش في عالم مجرد من الأرقام والصفقات ، فتمرد عليه وأراد أن يشعر بالعالم المتعين ، فغرس كل هذه القروط حتى يشعر بجسده . ولم يجد سوى هذه الطريقة العنيفة !

واعتقد أنه مع الترشيد الكامل للغة الإنجليزية ، أصبح التواصل الإنساني من خلالها صعباً ، إن لم يكن مستحيلاً . فالتواصل بين البشر يتطلب لغة مركبة تحوي الكثير من الظلال وتسمح بقدر من الإبهام ، فليس كل ما يشعر الإنسان به يمكنه البوح به ، وحتى إن أمكنه البوح ، فالصمت أحياناً أكثر بلاغة من الكلمات . أما اللغة الرشيدة فتتطلب أن تعبر عن كل شيء ، وما لا يتم الإفصاح عنه لا وجود له . وهي لغة ممتازة ، ولكنها لا تصلح إلا للمعمل أو المحكمة . وقد أصبح التعبير عن العواطف ، داخل إطار الترشيد ، أمراً محجوباً ومبالغة غير مقبولة (بالإنجليزية : over statement) ، ولم يعد أمام الإنسان سوى أن يتواصل من خلال الجسد . وهذا النوع من الحوار من خلال الجسد هو نتيجة منطقية للموقف المادي الذي يرد الإنسان في كليته إلى عالم المادة ، والذي يرى أن الحيز الإنساني هو ذاته الحيز الطبيعي / المادي وأن الإنسان قابض داخل حواسه الخمس . ولذلك أصبحت العلاقة الجنسية وسيلة سهلة ومباشرة ولمموسة للتواصل مع الآخرين (ولندا أقول إن intercourse [الجماع] هو شكل من أشكال dis-course [الخطاب] في كثير من الأحيان) .

وقد بدأ الحديث في الولايات المتحدة في الستينيات عن مزج ماركس وفرويد ، ولكن ما حدث في الواقع أمر مخالف تماماً ، فما هو مزيج بين ماركس وفرويد ، ولا هو انتصار لأي منهما ، وإنما هو انتصار لما بعد ماركس وما بعد فرويد (والحضارة الغربية هي حضارة المابعديات فهي حضارة "ما بعد الصناعة" و"ما بعد الرأسمالية" و"ما بعد الحداثة" ، وبعضهم يقول "ما بعد الإنسانية" أيضاً ، وكلمة "ما بعد" تفيد أن النموذج السائد قد نفدت ولم يحل بدلاً منه نموذج جديد) . وحضارة المابعديات هذه تتحرر فيها الطاقة الجنسية تماماً من أي أعباء اجتماعية أو أخلاقية أو إنسانية ، وتصبح مسألة طبيعية محايدة تماماً . لقد انتهى الأمر بأن انتصر الجنس (هذا الشيء المادي الكامن في الإنسان) على كل شيء بما في ذلك مقدرة الإنسان على التجاوز - فكرة الجوهر الإنساني - الأسرة - وسائل الإنتاج - العنصر الاقتصادي . ويظهر هذا في حركة الهيبي ، التي طرحت مسألة علاقة الجنس بالشهوة وحاولت أن تجعل الثورة في جوهرها ثورة جنسية ، والتحرر الحقيقي تحرراً جنسياً كاملاً ، بحيث يصبح الإنسان فرداً مكتفياً بذاته ، مرجعية ذاته . ولكن المفارقة الكبرى هي أن تحقق هذه الرؤية يعني أن الإنسان يصبح مسلوب

الإرادة لا حول له ولا قوة ، يسير حسبما توجهه غرائزه بكل حتمياتها .

وتعد مسرحية "هير Hair" (أي شعر) الفنائية ، التي شاهدتها في نيويورك في منتصف الستينيات ، معلماً أساسياً في هذا الاتجاه ، فهي تحتفي بانتصار إله الجنس وهيمته الكاملة على الإنسان . إذ يصبح هو المحرك الأساسي له فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار . تمتع المسرحية بأعنية عن الأبراج الفلكية وعن تلك اللحظة التي تلتقي فيها بعض أبراج النجوم ، فيبدأ عصر أكويرياس Aquarius ، وهي كلمة لاتينية تعني برج الدلو وتشير في الوقت ذاته إلى المياه والسيولة . وكأننا بدأنا عصرًا جديدًا لا حدود فيه ولا قيود ، عصر ذوبان الدات . ويعبر الإنسان عن نفسه في هذا العالم السائل من خلال علاقات جنسية عرضية مستمرة ، لا تتسم بأي قدر من ثبات ، ولا تدخل الأطفال ، الذين قد يكونون ثمرة العلاقة الجنسية ، في الحسبان ، فهي حالة نرجسية كاملة ينتج عنها عدم الاكتراث بالآخرين .

وفي أحد مشاهد هذه المسرحية الفنائية تأتي فتاة بيضاء لعشيقها الأسود ، وبطنها قد انتفخ نتيجة اللقاء الجنسي «المتع» والعابر بينهما ، فيخبرها بأنه في طريقه إلى كاليفورنيا ليبدأ حياة المتعة من جديد مع أنثى أخرى . وحينما تحتج على ذلك ، يخبرها عن حكمته العميقة التي لا تفهمها هي : "أنت لا تفهمين الوعي الكوني وكل هذه الأمور الهباب you do not understand cosmic consciousness and all that shit . وولت ويتمن . واستخدام العشيق لهذه العبارة (مع إضافة العبارة الأخيرة) يدل على أنه يستخدم الوعي الكوني ستارًا فلسفيًا لأنانيته وشهوته .

وكنت أنوي كتابة دراسة عن هذه المسرحية الفنائية منذ قدمًا فيها نموذج الحلولية (حلول الخالق في المخلوق واتحاده به) مبينًا فيه أن الحلولية السائلة (التي لا مركز لها) تحل محل الحلولية الصلبة (ذات المركز المادي) التي سادت في الحضارة الغربية حتى منتصف القرن العشرين (وهذا نمط أساسي آخر أحاول أن أدرسه وأوضحه في الموسوعة وأشير إليه في هذه الأوراق في فصلين عندهما «الحلولية» و«العلمانية الشاملة» . وما زاد من عزمي أن أكتب الدراسة أن د . لويس عرض كتب مقالاً في الأهرام يشيد فيه بهذه المسرحية دون أن يعوجه لأي من المشكلات الفكرية أو الأخلاقية التي تثيرها ، ولكنني لسوء الحظ لم أفعل .

وقد شاهدت في نفس الفترة تقريباً مسرحية بيتر فايس أنرمزم قرضين مارا / دي صاد ، وهي مسرحية تثير قضية علاقة الجنس بالتاريخ وعلاقة الذات الثورية (الهائجة) بالثورة الموضوعية (وقرائنها الصارمة) . وتلدو أحداث المسرحية في مستشفى للأمراض العقلية حيث يقوم المرضى بتمثيل مسرحية عن حياة جان بول مارا ، أحد أهم مفكري وقادة الثورة الفرنسية . ويقوم الماركيز دي صاد ، الذي حدثت إقامته في هذا المستشفى ، بإخراج المسرحية التي تتداخل فيها كل الأمور وتشابك كل الخطوط . فبعض ممثلي المسرحية يخرجون عن أدوارهم فجأة

ويتصرفون كمجانين ، وكثير منهم مصاب بأمراض مرتبطة برغباتهم الجنسية ، المكبوتة والمنطلقة في آن واحد . وبطل المسرحية داخل المسرحية هو أحد زعماء الثورة الفرنسية جان بول مارا المصاب بمرض جلدي يرفع حرارته دائماً (ويبدو أنه أصيب بالمرض في أثناء فراره في مجاري باريس من الشرطة الفرنسية) . وليخفف درجة حرارته قليلاً ، يجلس جان بول مارا في شيء يشبه البانيو ، وكأنه في حالة جنينية كاملة ، ويشعر وهو في جلسته هذه بالجماهير والعواء تجري في عقله ويصدر بياناته الثورية الواحد تلو الآخر . وهنا تراودنا الشكوك بخصوص مدى عقلانية بياناته ، ويلقي الماركيز بسؤال في وجهه : ما الثورة دون جماع ؟ أي ما الثورة الموضوعية دون إرواء للذات الفردية المتمثلة في اللذة الجنسية ؟ .

وقد قابلت في إحدى الحفلات التي كانت تعقدتها في البارتيزان ريفيو (بجامعة رنجرز) سوزان سونتاج Susan Sontag ، الكاتبة الأمريكية اليهودية المدافعة عن السحاق (هي ذاتها كانت مساقفة برغم أنها كانت قد تزوجت وعلى ما سمعت أنجبت ولداً . كنت حينما أفكر فيه ينتابني الكثير من الحيرة وبعض الحزن . حينما قابلتها أول مرة ، وكانت المرة الأولى في حياتي أقابل هذا الصنف من النساء ، تأملت في شكلها كثيراً وأصبت بما يشبه الدوار ؛ ولكنني ألفت الأمر بعد ذلك) . كانت سوزان سونتاج تعدُّ من أهم الكتاب ، وكانت قراءة مقالاتها أمراً "معتماً" على أي مثقف (إيه مست ويدج a must reading كما يقولون بالإنجليزية) ، ثم صدر كتابها ضد التفسير (بالإنجليزية : *Against Interpretation*) الذي اكتسح كل شيء عند صدوره (ولا يسمع أحد به الآن ، كما هو الحال مع كثير من هذه الكتب) . اشتريت الكتاب وقرأته بشغف .

وحينما عدت إلى مصر عام ١٩٦٩ ، كان أول مقال نشرته هو عرض لهذا الكتاب ("حضارة الكامب : دراسة في مذهب نقدي جديد" المجلد ديسمبر سنة ١٩٧٠) . وأشارت في المقال إلى اللاعقلانية الفلسفية التي بدأت تمسك بتلابيب الغرب بل وتهيمن عليه ("العمل الفني ليس محاكاة وإنما سحر" - "الاستجابة الحسية المباشرة للعمل الفني التي تستمضي على التفسير" - "مظهرنا هو وجودنا الحقيقي ، والقناع هو الوجه" - "في عالم الحداثة لا يوجد شكل مفهوم ، وحيث يفقد الإنسان ما يميزه كإنسان وحيث يساوي الرجل مع الشيء ، بل حيث تنحصر الأشياء من الإنسان وتسيطر عليه") . وأشارت أيضاً إلى تحول الجنس إلى موضوع أساسي ("الرغبة في العودة إلى حالة البراءة الأولى قبل أن يسقط الإنسان في التاريخ" - "المطلوب هو جنسيات للأدب erotics [إيروطيقا] وليس تفسيرات له hermenutics [هيرمنوطيقا]" - "أرستقراطية حضارة الكامب هم المنحنون ، فالإنسان الخشّي لا يمكنه أن ينتمي لجمعية جاد يحكم على نفسه بمعايير أخلاقية اجتماعية") . هل نفهم الآن مايكل جاكسون الذي لا هو بالذكور ولا هو بالأنثى ، مثل النسبية الكاملة ، وعدم الانتماء لأي شيء ، التجسد الحق للتفكيكية ؟ هل

نفهم الآن هذا الحديث المتكرر والممل عن الجندر gender ، أي النوع ، (وليس الجنس sex) بحُبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست أساسية ، وأن دور كل منهما (كذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية ، وإنما هي مسألة تشكيل اجتماعي ، وصياغة حضارية ؟ (وهذه مفارقة تستحق التسجيل . في الحضارة التي يشعل فيها الجنس هذه المركزية التي تصل إلى حد الهوس ، ثمة محاولة إلى تجبيده تماماً و"إلغائه" .

وقد درست على يد الناقد الأمريكي ليونيل ترلينج Lionel Trilling حينما كنت في جامعة كولومبيا (وفكرت في أن أكتب عنه رسالة للدكتوراه ، لكن دعاة الاتجاه الشكلي في جامعة رنجرز قالوا إنه لا يستحق الكتابة عنه ، فالأمور في الولايات المتحدة ليست ليبرالية تماماً كما يدعون) . كان ترلينج من المؤمنين بالطروحة التي أشرنا إليها من قبل ، وهي أن المجتمعات الحديثة تقضي على إنسانية الإنسان وفرديته ، وترشده وتدجنه وتجعل منه شيئاً مستأنساً ، وتؤدي إلى تزايد التعميط وهيمنة النماذج الآلية على كل أشكال الحياة الإنسانية . ولكنه ، مع هذا ، كان يرى أن الطاقة الجنسية في الإنسان هي عنصر برومسي يستعصي على الترشيد والقمع ، ولذا كان يتصور أن الرغبة الجنسية (ذات المذور البيولوجية الراسخة) ستظل هي صخرة المقاومة الأساسية للإنسان ضد المجتمع الحديث ينزعاه التعميطية المعادية للإنسان .

ولكن حلم ترلينج لم يكتب له النجاح ، وهذا ما أدركه كثير من المهملين الماركسيين . والخطاب التحليلي الماركسي في الولايات المتحدة في الستينيات كان مختلفاً إلى حد كبير عما ألفناه في مصر ، إذ بدأ يركز على موضوعات جديدة مثل فكرة التجاوز والتسامي ونظرية ما بعد الأيديولوجيا ونظرية التلاقي ، وبدأ الماركسيون يكشفون كلاسيكيات يسارية جديدة مثل مخطوطات ماركس التي كتبها عام ١٨٤٨ ومؤلفات إريك فروم Eric Fromm ومدرسة فرانكفورت . فالعنصر الاقتصادي لم يعد العنصر الوحيد الذي يمكن من خلاله تفسير الحياة الإنسانية ، والطبقة العاملة لم يعد لها ، في تصور هؤلاء الماركسيين الجدد ، دور مركزي في حركة التاريخ . لقد اكتشف الماركسيون في الولايات المتحدة (أو شبه الماركسيين ، حسب تصنيف بعض الغلاة) أن التحليل الذي يعطي أولوية سببية للعنصر الاقتصادي والطبقي لم يعد مجدياً ، فالمجتمعات الصناعية الحديثة (في الشرق الاشتراكي والغرب الرأسمالي) يمكنها أن تفي بحاجات الإنسان المادية (الاقتصادية والجنسية) . ومع هذا ، ستظل هذه المجتمعات مجتمعات شمولية تتجه نحو مزيد من التعميط (الترشيد فيما بعد) . ولذا اتجه الخطاب الماركسي في الولايات المتحدة لمشكلة الإنسان كإنسان ، ومشكلة طبيعته ، ولم يحصر نفسه في انجبال الاقتصادي (كما حدث في كثير من بلاد العالم الثالث) وإنما تناول كل جوانب حياة الإنسان ، ومن بينها الجنس .

وكان من الطبيعي أن يتوجه الفكر الماركسي أو شبه الماركسي الجديد لقضية الجنس ، فبين أن الاحتكارات الأمريكية التي وظفت دوافع الإنسان الاقتصادية قامت بتوظيف دوافعه الجنسية أيضاً . فكان ماركوز يتحدث عن إنسان مشبع اقتصادياً ، ولكنه مصاب بالجوع الدائم للملح ، وعن طبقة عاملة ، مفتقدة للوعي الطبقي ، وعن إنسان مشبع جنسياً ، ولكنه في حالة نهم جنسي شديد . فوسائل الإعلام (حسب تصور ماركوز وغيره من المفكرين) تُصعد من رغبات الإنسان الجنسية والاستهلاكية ، وتسطع فيه يصبح ذا بُعد واحد يمكن التحكم فيه من خلال أحلامه ورغباته . وهكذا انتهى حلم ترلينج البروميثي - حلم التجاوز من خلال الجنس - وحلت محله الهزيمة على الإنسان من خلال الجنس ، وتحول الجنس من عنصر ثوري إلى عنصر معاد للثورة ، توظفه شركة الكوكاكولا والشيفروليه لصالحها ضد الإنسان .

لقد انفصلت الرغبات الجنسية البروميثية من عقالها ، وبدلاً من أن تحرر الإنسان ، حيدته لم استعبده . فانتشرت الإباحية وتم "تطبيعها" بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكي من قبل (خاصة من خلال الإعلانات ، كما سأبين لاحقاً) . بل يُخيل إلي أحياناً أننا يجب أن ننظر إلى الإباحية الأمريكية لا في علاقتها بالجنس ، وإنما في علاقتها بالتشريع ، فبعض الأعمال الإباحية الحديثة تنظر للجسد لا باعتباره شيئاً يثير الشهوة وإنما باعتباره شيئاً يُنظر إليه بشكل معلمي ، شبه محايد . فكان الهدف من الإباحية هنا ليس إرضاء الشهوات وإنما اختزال الإنسان إلى جسد ، ثم تشريح أو تفكيك هذا الإنسان وتحويله إلى مادة استعمالية ، ومن هنا محورية فعل «بُعْري» (بالإنجليزية : دي نيود deneude) . فالتعرية هنا تبدأ بالجسد وتنتهي بتعرية الإنسان من تركيبته وإنسانيته . لكل هذا يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية وكأنه نشاط بيولوجي منفصل عن القيمة . (كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن "الزنا" في الغرب ، وكان الغرب لا يزال يدور داخل إطار الحلال والحرام . فكنت أقول لهم : عندنا في مجتمعاتنا إن اجتماع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما . المشكلة في الغرب أن الشيطان لا يحضر ، لأن المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أي إحساس بالذنب إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة : أين ؟ متى ؟ إلخ . وكنت أخبرهم أنني أرحب بحضور الشيطان فهو على الأقل يذكرنا بالله ، تماماً كما يذكرنا الشر بالخير ، والحرام بالحلال) . انطلاقاً من هذا التحديد ، أصبح من الممكن الآن الإشارة إلى البقاء بحُسيانه نشاطاً اقتصادياً محايداً ، مجرد عمل عضلي لا يختلف عن غيره من الأعمال . ولذا تُسمَّى البُعْري الآن في بعض الأوساط «عاملة جنس» (بالإنجليزية : سكس وركر sex worker) .

ونظراً لتحديد الجنس وتطبيعها ، أصبح خاضعاً للتجريب (شأنه شأن أي ظاهرة في المجتمع الغربي) ، فبدءوا يتحدثون عن «الاختيار الجنسي» (بالإنجليزية : سكشوال بفرنس sexual preference) و«الدور الجنسي» (بالإنجليزية : سكشوال رول sexual role) بدلاً من الهوية

الجنسية وبدأ يظهر الترانسفيسيتايت transvestites وهم عادة الرجال الذين يرتدون ملابس النساء . وبدأ الاهتمام بأمور مثل الجماع مع الأطفال (بالإنجليزية : بيدوفيليا pedophilia) والحيوانات (بالإنجليزية : زوفيليا zoophilia) . (وهي كلها كلمات المقطع الثاني فيها يعني "حب" ، وهو نفس المقطع للوجود في فيلوسوفيا philosophia أي "حب الحكمة") .

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعي وتحميده وتطبيعته يظهر في أن المرأة الغربية الآن قد تمارس الجنس مع رجل وتزوج من آخر وقد تحمل من ثالث ، كما يتضح في ظهور "أشكال بديلة من الأسرة" (حاول مؤرر السكان في القاهرة إسباغ الشرعية عليها) مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما الآن تبني الأطفال ، بل "إنجابهما" عن طريق عمليات التلقيح الصناعي . ولعل هذه التطورات التي كانت كامنة في نموذج التحرر الجنسي والتي بدأت في التحقق ، لعلها تؤدي ببعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى التهرب قليلاً في دعوتهم فلا يدعون إلى الحرية ويكتفون بذلك ، بل ينظرون إلى التطورات اللاحقة ، خاصة أن بعض هذه التطورات بدأت تظهر في مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التلفزيون المصري وإعلاناته الراقصة التي لا تنتهي وتوظف الجنس في بيع كل شيء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية) .

ويرتبط بقضية الجنس والاهتمام المحموم به ، عدة قضايا . فقد ظهرت أعمال أدبية تتعامل مع الجنس بشكل مكشوف ومباشر ، وتحاول أن تتحدث عما يسمى "لغة الجسد" ، كما ظهرت مجلة أدبية مصرية عنوانها الرئيسي "النساء يكتبن بأجسادهن" . ولا أعرف أي لغة هذه ، فاللغة بطبيعتها مجردة ، ولكنها مرة أخرى محاولة أن يحصر الإنسان في نطاق حواسه الخمس ، وإنكار قدرته على أن يجاوز ذاته الطبيعية المادية ، فهي دعوة رجعية لا إنسانية . إن الأعمال الأدبية التي تتحدث بلغة الجسد (والحواس الخمس) أعمال ترفض التعامل مع رحابة وتركيبية الظاهرة الإنسانية .

والأعمال الإباحية لم تعد قضية فردية وأعمالاً أدبية يتداولها بضعة أفراد (من أعضاء النخبة الثقافية أو السياسية) ، فشيوعها ، على هذا المستوى ، يجعل منها قضية اجتماعية ، خاصة بتوجهه المجمع ونسجه . كنت أعرف شاعراً أمريكياً يكتب بلغة الجسد هذه . والطريف في الموضوع أنه كان معزولاً ، وعنده أولاد ، وكان محافظاً إلى حد ما في حياته الشخصية . ودخلت معه في حوار بخصوص شعره في إحدى محطات الإذاعة . وكان بطبيعة الحال يدافع عن شعره من منظور حرية الفكر وحرية الفردية . فأخبرته أليس من حق المجتمع أن يدافع عن نفسه وعن معاييرهم ضد أفراد يودون تقويضه ويسقطون أي معيارية ؟ كما قلت صاحكاً إن قضية الإباحية تصبح قضية فكرية لو توافر في كاتب الأدب الإباحي شرطان : ألا يحقق ربحاً مالياً من أدبه (فالمدافع نحو الكتابة الإباحية قد يكون الربح المالي وليس الموقف الفكري) ، أما الشرط الثاني فهو أن يثبت لنا هذا الكاتب أنه يمارس في حياته الخاصة فعلياً ما يدعو إليه نظرياً ، لنتأكد

من إيمانه بما يقول . ولا أعرف أديباً إباحياً واحداً تتوافر فيه هذه الشروط . فتجاهل صاحبنا أقواله تماماً واستمر في الدفاع عن الحرية المطلقة . بل إنني قرأت عن سيدة أمريكية عندها شركة إنتاج تلفزيوني ، تخصصت في إنتاج المسلسلات التلفزيونية التي تتميز بوجود شخصيات مساحقة فيها . وهذه السيدة لا تؤمن شخصياً بالشذوذ ولا تمارسه في حياتها ، ولكنها وجدت هذا طريقاً سهلاً للربح !

وفي دراسة بعنوان "الجسد والجنس كصورتين مجازيتين أساسيتين في الحضارة العربية الحديثة" اقتبست كلمات المفكر الفرنسي ليونارد : "الجسد أصبح أصل الفلسفة وأصل كل النشاطات الأساسية ، أما الإستمولوجيا فقد أصبحت تشبه النشاط الجنسي" . وحاولت أن أوضح كلمات ليونارد ، فقلت : إن الجسد هو الصورة المجازية الأساسية في عصر التحديث ، أما الجنس فهو صورته في عصر ما بعد الحداثة . ولزيت من الإيضاح بينت أن ما يحدث الآن في الفلسفة الغربية الحديثة هو إعطاء الجنس (واللذة والشهوة والرغبة) أسبقية معرفية على كل الأشياء ، بل إن الجنس بدأ يحل محل اللغة ، فعلى الرغم من أن اللغة في رأي أنصار ما بعد الحداثة هي نظام مستقل عن الواقع (فهي نظام لا يشكله الإنسان الفرد الواعي) ، فإنها يوجد فيها بعض ظلال الإله - أي المعنى والرغبة في التفسير والذات والموضوع . أما الجنس ، فقد تخلص من هذا تماماً . فالجنس رغبة فردية محضة ولكنها لا فردية فيها ، فالجميع يشعر بها ويمارسها . والرغبة لا يمكن أن يحكم عليها من خارجها ، ولذا فهي تتحدى التفسير ، ومن يتمسك بها تماماً لا يسقط في الميتافيزيقا بسبب اكتفائها بذاتها . وبهذا يمكن القول بأن الرغبة الجنسية أقرب من الجسد إلى المادة الأصلية الأولى التي تتحدث عنها الفلسفة المادية والتي ليس لها أصل رباني ، إنها تشكل المرجعية المادية الكامنة الحقة التي لا تعرف أي تجاوز .

كنت أسير في ميدان الكونكورده في باريس ، وكان هناك عدة تماثيل لأنثى تمثل فرنسا ، ولاحظت أن النحات يعتمد أن يعري إحدى ثدييها . وبطبيعة الحال لم يكن الهدف هو إثارة الشهوة . فكان عليّ أن أبحث عن سبب آخر ، فلم أجد سوى أن النموذج الجنسي / المادي ، الذي يرد الإنسان إلى أدنى قاسم مشترك له ، أي الرغبة الجنسية ، هو الذي يفسر لم صور النحات فرنسا على هذا النحو ، فهو تأكيد لمادية الرؤية . وهذه المادية / الجنسية تبدو في أن كثيراً من الغربيين يفكرون الآن في الإله من خلال صورة مجازية جنسية ، فيُشبهون له بأنه هو أو هي أو حتى بشكل محايد he/she/it . وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل حينما نقول "باب" ثم نشير إلى "البرابرة" فنحن لا نفكر فيهما إلا بحسبانتهما ذكراً وأنثى ؟ هل الشيطان ذكر والفضيلة أنثى ؟ وما هو جنس الرذيلة والشهامة والكرامة والبخل والذل ... إلخ ؟ هل الموت ذكر ، والحياة أنثى ؟ ثم أخيراً يحق لنا أن نتساءل هل ما يهيمن على المجتمعات الحديثة هو نموذج وثني متدني يدور حول عبادة الأعضاء التناسلية ؟ هل هذه الوثنية هي أعلى (أو أدنى) مراحل المادية ، إذ يرد

الإنسان إلى جسده ثم يُرد جسده بأسره إلى أعضائه التناسلية ؟

وكثيرون يربطون الآن بين التجربة الجمالية والتجربة الجنسية (بالإنجليزية : إستيتكس aesthetics وإروتيكس erotics) وبين النصوصية أو التناص والسيولة المرتبطة بالدافع الجنسي (بالإنجليزية : تكتسيواليتي textuality وميكثواليتي sexuality) ، فالنص المنعلق - في تصور بعض دعاة ما بعد الحداثة - هو شكل من أشكال قمع الرغبة الجنسية أو إعلاء أو تجاوز لها من خلال شكل مستقل له حدود وهوية ، أما النصوصية فهي التداخل الكامل للنصوص المنفتحة بحيث يحيلك نص إلى نص آخر يحيلك بدوره إلى نص ثالث إلى مالا نهاية ، إذ لا يوجد أي حدود على أي نص ، عما يعني تراقص النصوص وانزلاقها (يشبه رقص الدوال وانزلاقها) . في هذا الإطار ، يسقط مفهوم النص بحسبانه عملاً فنياً متكاملًا ناتجاً عن وعي إنساني مركب ، وتصبح التجربة الجمالية الحققة عملية إنكار للتجاوز واستسلاماً كاملاً لإغواء البنية (الأنثوية) المنزقة التي لا حدود لها ، والتي تحوي داخلها كل ما يلزم لفهمها (المرجعية الكامنة) ، فهي عودة للرحم وتشكل فقداناً للحس الخلفي والإحساس بالتاريخ (تماماً مثل لحظة الجماع الجنسي) .

وهذا الاتجاه المتزايد نحو الانشغال بالجسد والجنس ليس حكراً على المجتمع الأمريكي ، بل هو ظاهرة عالمية ، آخذة في الاتساع مرتبطة بتساقط الأيديولوجيا وانتشار فكر ما بعد الحداثة . كنت في ماليزيا لإلقاء محاضرة على أعضاء هيئة التدريس عن طريقة تدريس الأدب الإنجليزي من وجهة نظر إنسانية إسلامية ، واستخدمت نموذج الحلولية الكمونية لتحليل النصوص الأدبية ، وضربت عدة أمثلة . وعند انتهائي من المحاضرة ، سألتني إحدى الأستاذات : هل يمكن تدريس الأسس النظرية لأدب الشذاف جنسياً (بالإنجليزية : كوير ثيري queer theory) . فأجبته بأن هذه الأسس النظرية لا تُدرس في معظم جامعات الولايات المتحدة ، فلماذا هذا الاهتمام الزائد بها ؟ فقالت لأن مثل هذه الأمور تحدث في مجتمعاتنا . فأخبرتها أنها تحدث في كل المجتمعات الإنسانية ، ولكن يظل هناك فارق بين الواقع والمثل الأعلى . وحتى في الواقع ذاته ، هناك وقائع مختلفة وأخرى غير مختلفة ، لرغبات وآراء السواد الأعظم من الناس . وبغض النظر عن حوار مع هذه السيدة ، يجب أن نؤكد أننا لسنا بمنأى عن موجات الإباحية والشذوذ الجنسي ، وأن ما حدث في الغرب ليس مجرد انحراف أو انحلال وإنما هي أمور كامنة في المتتالية النماذجية ، وعلينا أن ندرسها جيداً .

ومهما كان الأمر فإن قضية الجنس كانت من القضايا المهمة التي اكتشفت من خلالها بساطة الرؤية المادية الاختزالية وأنها تؤدي لا إلى تحرير الإنسان وإنما إلى تفكيكه .

الاستهلاكية والإمبريالية النفسية

وهنا يجب أن أتحدث ، بشيء من التفصيل ، عما أضرت إليه من قبل ، أي الإمبريالية النفسية ، فهي مرتبطة إلى حد كبير بزيادة السعار الجنسي والاستهلاكي والتكالب على كل شيء (السلع - النساء ... إلخ) . ومن هنا فهي من أهم العوامل التفكيكية في العصر الحديث ، إن لم تكن أهمها طراً . وهذه الإمبريالية النفسية - على عكس الإمبريالية التقليدية أدركت أن استنزاف المصادر الطبيعية في آسيا وإفريقيا وكل أطراف المعمورة قد ازداد ، تماماً مثل التضاحم على الأسواق ، وأن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث هي الأخرى قد أصبحت باهظة . فالدخول في حروب عسكرية "عالية" يؤدي إلى استنزاف طاقة الدول الكبرى العربية . ثم وجدت هذه الدول أن بوسعها أن تقذف بالدول النامية إلى حروب صغيرة تحقق من خلالها أرباحاً عالية (إذ تقوم هي بطبيعة الحال ببيع السلاح للطرفين المتنازعين ، ولا تزال تجارة السلاح هي أهم تجارة في عصرنا الحديث ، لا يفوقها حتى تجارة المخدرات) .

ولكن أبعاد الإمبريالية النفسية أكثر عمقاً وشمولاً من ذلك ، فهي تنطلق من الإيمان بأن الهدف من الإنتاج هو الاستهلاك ، وأن الهدف من تزايد الإنتاج هو تزايد الاستهلاك ، وأن حياة المرء تكتسب معنى إن هو استهلك ، ومزيداً من المعنى إن هو صعد من استهلاكه (وقد عرفت التنمية والحدثة بأنها ثورة التوقعات المتزايدة !) ، وأن الإنسان أساساً حيوان اقتصادي جسماني لا يبحث إلا عن منفعة (الاقتصادية) ولذته (الجسدية) ، وأن سلوكه لا بد أن يصبح نمطياً حتى يمكن أن يستهلك السلع التي تنتجها خطوط التجميع . هذا الإنسان لا يهدف في حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة ، ويرى أن خلاصه يكمن في ذلك . ولذا كانت "الحاجة أم الاختراع في الماضي" ، أما في إطار الإمبريالية النفسية "فالاختراع هو أبو الحاجة" ، إذ لا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم . ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج التي لا هدف لها والآخذة في الاتساع إلى ما لا نهاية .

إن الإمبريالية النفسية قررت توسيع رقعة السوق لا عن طريق الانتشار الأفقي في الخارج (الذي يتطلب القوة العسكرية) وإنما عن طريق الانتشار الرأسي داخل النفس البشرية ذاتها ، التي تتحول إلى سوق دائم الاتساع تسيطر عليها هذه الإمبريالية وتوجهها وتطرح فيها كمّاً كبيراً من السلع ، ثم تلقي في روع الفرد (الذي يقف عارياً ضعيفاً وحيداً أمام وسائل الإعلام ، والذي يتم نميطه حتى يدخل الآلة الاستهلاكية) أن هذه السلع لا تحقق "منفعته" و"حسب بل و"سعادته" (أي لذته) أيضاً . وقد نجحت هذه الإمبريالية في تجنيد كل الطاقات ، خاصة صناعات الصور (بالإنجليزية . إيميغ ميكروز image makers) في مختلف وسائل الإعلام (ومن المفارقات التي تستحق الوقوف عندها أنه رغم خطورة الدور الذي يلعبه القائمون على الإعلام إلا أنهم أشخاص عبر منتخبين وأنه لا يمكن مساءلتهم) . ومن أهم القطاعات التي تساهم في صنع

الصورة قطاع الأفلام الذي يشيع العنف وصورة الإنسان الذي يعيش في اللحظة الآتية ، يساعده قطاع الأزياء الذي يُغيّر "أذواق" الذكور والإناث والأطفال كل عام مرتين . ومن أهم القطاعات الأخرى ، ولعلها أهمها قاطبة ، قطاع الإعلانات التجارية التي لا يكف التلفزيون الأمريكي عن بنها (أصبح قطاع الإعلانات من أهم القطاعات الاقتصادية حتى إن أحد أصدقائي قال مازحا إنه لو تحولت الولايات المتحدة إلى الاشتراكية ، فإن من أكثر المشكلات التي سيواجهها النظام الاشتراكي هناك مشكلة العاملين في هذا القطاع وإعادة تأهيلهم ، تماماً مثلما واجه النظام الاشتراكي في كوبا مشكلة إعادة تأهيل العاملين في قطاع البغاء والقمار ، وكان من أكبر قطاعات الاقتصاد الكوبي قبل الثورة) .

والهدف من هذا الهجوم الإعلامي هو إضاعة النموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير من بينهم وتنميطهم ، بحيث يجد الإنسان العادي (وغير العادي) نفسه مستطبناً لفكرة أن السعادة لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك ، فيتوحد تماماً بالسلمة ويصبح إنساناً متسلعاً ذا بعد واحد غارقاً تماماً في السلعة والمادة ، وفي حالة غيبوبة إنسانية كاملة . وكما يقول الدكتور جلال أمين ، فإن ضحايا الاستغلال في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ليسوا العمال والفلاحين ، وإنما هم المستهلكون من أي طبقة . ولعل هذا يظهر في الاستغلال البشع للطفولة ، إذ تتوجه لهم الإعلانات مباشرة ، وبذا تتخطى الآباء والأمهات ومنظوماتهم الأخلاقية بل ودخلهم المالي . وكما رأيت الكثيرون من زملائي المصريين يدخلون مناطق الابتضاع (الشوبنج مول) ولا يخرجون منها قط . وهم يضطرون بطبيعة الحال إلى مغادرتها لممارسة حياتهم العادية (من أعمال ودراسة) ، ولكنهم كانوا يغادرونها جسداً وقالباً وحسب ، لأنهم كانوا يبقون فيها روحاً وقلباً ، يهرعون إليها بعد أداء أعمالهم ليستأنفوا نشاطهم الأساسي الذي يتصورون أنهم خلقوا من أجله : شراء السلع والاستفادة من الأوكازيونات التي لا تنتهي ! وبطبيعة الحال وصلت هذه الإمبريالية النفسية إلى بلادنا ، وبعد أن كان التلفزيون المصري لا يعرف الإعلانات ، أصبح الإعلان جزءاً أساسياً فيه . وهو أيضاً يتوجه للأطفال متخطياً الآباء . أخبرني إحدى الأمهات المصريات أن ابنتها يبكي بحرق شديدة من أجل نوع من الشيكولاتة لم يذوقه طيلة حياته ، ولكنه شاهد إعلاناً عنه !

وإن نظرت من حولك في الولايات المتحدة ظننت أن كل شيء يُباع ويُشترى بتخفيض كبير ، وكلمة "سيل sale" أي "تخفيض" أو "أوكازيون" موجودة في كل مكان وتطاردك أينما ذهبت في المحلات والشوارع والمجمعات والمكتبات ومنزلك تحاول أن تقتنع بأن أمامك فرصة ذهبية لأن "تخرب بيت" صاحب المحل السكني ، المضطر إلى تصفية بضاعته . ويرسم صديقي كافين رايلي صورة واقعية ولكنها مثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية على الإنسان الفرد في كتاب الغرب والعالم :

"إن قدرة مجالين اثنين فقط - هما العلاقات العامة والإعلان - على التلاعب بالآراء والتأثير في القرار الفردي مع التظاهر بتوسيع عالم الاختيار الفردي هي قدرة هائلة . وكفى أن نتأمل أمثلة قليلة مستقاة من خبرات الحياة العملية لأحد العاملين في هذه الفنون الجديدة في الثلاثينيات ، وهو إدوارد دل . بيرنيز ، لنجد فيها ما يغني عن مجلدات . يشرح بيرنيز في مذكراته كيف ساعد جورج واشنطن هل ، بشركة الدخان الأمريكية ، على حث النساء على الجهر بالتدخين . قام بيرنيز ، بناءً على مشورة محلل نفسي كان يرى أن النساء يتصورن أن السجائر بمثابة «مشاعل للحرية» ، بالإعداد لموكب تسير فيه المدخنات في عيد الفصح في نيويورك ١٩٢٩ . وجعل مكروتيه ترسل تلفرافات لثلاثين من المتهيات من عليه القوم في المدينة ، وهذا نصه :

«من أجل المساواة بين الجنسين ، ومن أجل مناهضة تحريم آخر مفروض على بنات جنسنا ، قررت مع غيري من الشابات أن نوقد مشعلاً آخر للحرية ، بتدخين السجائر في أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح» .

"وقد أثار الحدث ضجة قومية ، فنشرت صور النساء بالصحف في أرجاء البلاد . واستجابت النساء من نيويورك إلى سان فرانسيسكو ودخلاً بهاراً . وأدرك بيرنيز أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريقتين : إصدار نداء مثير ، تنشره شبكة من وسائل الإعلام .

ولكن هذه دسوة للتدخين وحسب ، والمطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر ، وهو لكي سترايك ذات الغلاف الأخضر . لتحقيق ذلك كان لابد من إشعال الثورة الخضراء . فقامت شركة لكي سترايك بإعداد تصميم شامل ، ومخطط إجرائي كامل ، وحددت أهدافه التفصيلية ، ونوع البحث والإستراتيجية والموضوعات والتوقيت اللازم للنشاطات المخططة .

"فأعدت دراسات سيكولوجية عن تداعيات اللون الأخضر . وقام «مشجع مجهول» بإرسال المبلغ المرسود في الميزانية كله ، وقدره ٢٥٠٠٠ دولار لتنظيم أهم حفل راقص للمجتمع الراقي آنذاك ينظم حفلاً أخضر . وتم تشجيع أحد منتجي الحبر على «الرهان على اللون الأخضر» ، فأقام مأدبة تحريري الموضة ، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل الطعام أخضر . وقام أحد علماء النفس فحدهم عن اللون الأخضر . ثم حاضروهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر عن «اللون الأخضر» في «أعمال أعلام الفنانين» .

"ولما نشرت الصحف «بغريف أخضر» و«شتاء أخضر» أنشئ مكتب لموضة اللون وقام بتبنيه العاملين في حقل الموضة إلى أن اللون الأخضر هو سيد الألوان في الملابس وفي القطع الكمالية (الإكسسوارات) وحتى ديكورات المنازل من الداخل . وأُرسلت ١٥٠٠ رسالة إلى مصممي الديكور وتجار الأثاث تدور حول سيادة اللون الأخضر ، وذلك حتى يضمّنوا انضمامهم إلى الاتجاه الجديد ، وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمّن تعاون

صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية (التي تعاونت اعترافاً منها بالقوة الشرائية للمرأة الأمريكية) . وتكونت لجنة ضيافة لفريق الموضة الخضراء ضمت بعضاً من ألمع الأسماء في المجتمع الأمريكي ، كالسيدة حرم جيمس روزفلت ، والسيدة حرم وولتر كريزلر ، والسيدة حرم أرفينج برلين ، والسيدة حرم آفريل هاريمان . وأقامت اللجنة سلسلة من حفلات العشاء دعت إليها نمثلي صناعات القطع الكمالية لتشجيعهم على توفير القطع الكمالية الخضراء التي تتمشى مع الأرياء الخضراء الواردة من باريس .

" فلما اشتدت الحملة ركب سائر المنتجين الموجة ، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردني ، وأدخل آخر الجوارب الخضراء . وبدأ ظهور المعروضات الخضراء في الفترينات ، في فيلادلفيا أول الأمر ، وأخيراً في سبتمبر ظهرت في محل أولتمان بالشارع الخامس في نيويورك . وقامت مجلتي فوج و هاربرز بالازدحام بتقديم الموضة الخضراء على أغلفتها . وأخيراً انضمت المعارضة البريئة إلى الحملة . فعرضت سجاير " كامل Camel فتاة ترتدي زياً أخضر مقلماً بالأحمر - وهي نفس ألوان علبة سجاير لكي سترابك .

" وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكي سترابك هي قمة الموضة " .

وقد أصبحت الإعلانات "فتاة جميلة" (برغم أنه شكل دون مضمون يهدف إلى حداثك وسرفتك) ، يستوعب طاقات إبداعية كثيرة . انظر مثلاً إعلان الأكسهنتي El Exihente «الرجل المتشدد» : يبدأ الإعلان في قرية في إحدى دول أمريكا اللاتينية وقد اعتلى الوجوه القلق وخيم الصمت على المدينة ، «فالمتشدد» قد وصل . ويذهب هذا الرجل إلى أحد أكياس القهوة ويتذوق الحبوب الموجودة فيه ثم يتعاطى فنجاناً من القهوة ، وحينما تملو وجهه ابتسامة الرضا نعم الفرحه وترقص الجماهير وتبدأ طقوس الاحتفال بالحصاد . فمندوب شركة القهوة المتشدد قد وافق على شراء المحصول ، مما يدل على جودة القهوة التي تبيعها هذه الشركة الحريصة على مصالح المستهلكين . (في رسالتي للدكتوراه عقدت مقارنة بين هذا الإعلان وقصيدة الشاعر الإنجليزي روبرت هربك "الحصاد" إذ تبدأ طقوس الاحتفال بعد الحصاد مباشرة ، دون انتظار هذه الشخصية اللاشخصية (الإكسهنتي) ليعطي بركته للمحصول ، وبينت أن هذا هو الفرق بين المجتمعات التراحمية والمجتمعات التعاقدية ، فالأولى تدور في إطار القيمة الفعلية [والكيفية] للأشياء ، أما الثانية فلا بد أن تتحول فيها القيمة إلى ثمن والكم إلى كيف) .

وتشكل إعلانات السيارات المختلفة تشكيلة هائلة متنوعة . فإذا كنت من اليمينيين المؤيدين للتدخل الأمريكي العسكري في أرجاء العالم ، فإن القوات المسلحة لشركة شفروليه تسير على الشاشة في عظمة وجلال يدلان على عظمة هذه السيارة ومن الخير لك الاستسلام . أما إذا كنت ثورياً فأنت مدعو للانضمام فوراً لصفوف ثورة اللودج ، فلقد سئنا الشيفروليه وأشباه السيارات . (وبهذا المعنى تكون الإعلانات التجارية هي أول تبشير بما بعد الحداثة وما بعد

الأيديولوجيا وانفصال الدال عن المدلول . فالإعلانات - ككذب في كذب ، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها) . ولكن ماذا لو كنت فقيراً ذا جيوب مثقوبة ؟ لا داعي للقلق فصديقك ذو الابتسامة العريضة في بنك نيويورك للقروض سيساعدك ، وكل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح العربة والسعادة . وإن دقت النظر في هذه الورقة البيضاء الصغيرة اكتشفت أنه عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وداتك وعرضك وعربتك في مقابل هذا ، فضلاً عن أن سعر العائدة ليس 4٪ كما تقول اللافتة العريضة ، لأنه بالحساب المركب يصل إلى أضعاف أضعاف ذلك . ولكن الابتسامة العريضة على وجه صديقك إياه تنسيك كل الهموم والخاوف . فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السلع الأخرى ... معجون أسنان ، صابون للأطباق ، أنواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه العذبة والملابس الداخلية والأحذية والشيكولاته والنشاطات الحسوية والمهدئات وأدوات التحميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية . هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان بالطبع ولو للحظة واحدة ليستأصل عن جدوى كل هذا ، ولكنه بالطبع لا يفعل لأنه إنسان برأسمالي ناجح ، يجيد التعامل مع الواقع ، والإمبريالية النفسية لا تغزو الإنسان من الخارج وحسب ، بل تغزوه وتقمع إسانيته من الداخل .

والغزو الداخلي يتمثل في مظاهر عديدة ، لكن أهمها الجنس . فصورة الإنسان الآن في الولايات المتحدة هي خليط من الإنسان الاقتصادي والجسماني (ولذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية - سواء في الولايات المتحدة أو في مصر - توظف الجنس بلا حياء في بيع السلع) . وقد هيمنت هذه الصورة الإدراكية إلى حد كبير على الإنسان العادي الأمريكي برغم مقاومة بعض المثقفين لها .

أذكر جيداً أول إعلان تليفزيوني في الولايات المتحدة يوظف الجنس لبيع سلعة ، وكان إعلاناً عن كريم حلاقة : تظهر فتاة شقراء على الشاشة الصغيرة وهي تتركب سفينة (فهذه الفتاة مرتبطة في ذهن المتفرج الأمريكي بالفايكج ، قراصنة شبه جزيرة إسكندناوه ، ومن هنا فهي تربط الكرم بالوحشية والبداية) ثم تقول بصوت عذب : 'فلتخلعها ، فلتخلعها كلها Take it off, take it all off' وهنا لعب على الالتقاط بين شعر الذقن الذي يحلق وملابس المرء التي تُلْعَل ، واستخدام كلمة it في اللغة الإنجليزية يعمق من هذا التلاعب .

وقد كان لي صديق أمريكي من أصل يوناني قال لي ساعته إن هذا شيء ضخم لا يعرف أحد نهايته . لم أفهم تماماً معنى ما قاله برغم تعاطفي معه بشكل غامض . وكان صديقي محقاً تماماً في مخاوفه . إذ انهالت الإعلانات ذات الطابع الجنسي . انظر إعلان هذه السيارة - نسير السيارة ثم تخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد في شرائها - السيارة / الفتاة وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين من أهم الأيقونات الجنسية في المجتمع الأمريكي

وهي إعلانات يشاهدها الجميع ولا يمكن الوقوف ضدها أو وضع رقابة عليها ، لأن هذا يعد قيداً على الحرية (مع أن أصحاب هذه الإعلانات لا يعنون أبداً بحرية الرأي ، أو بأي مبدأ آخر ، فهمهم هو بيع السلعة ، ولو وجدوا أن بعض أسفار الإنجيل قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا في التخلي عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلاً من ذلك) .

وقد نجم عن هذا انتشار الإباحية ، ليست الإباحية التقليدية وإنما إباحية من نوع جديد . فالإباحية القديمة تفترض أن الجنس إنساني ، وأنه يمكن استغلاله لهذا السبب عن طريق عرضه بطريقة مغرية يسيل لها لعاب الذئاب والملائكة . ولكن الإباحية الجديدة إباحية ديموقراطية "علمية" تفترض أن الجنس طاقة محايدة يمكن استخدامها في التحكم في هذه الوحدة الاستهلاكية التي كانت الفلسفة القديمة تطلق عليها اصطلاح «إنسان» . واختيار الجنس كوسيلة للتحكم في الإنسان يدل على ذكاء وفطنة ، فالجنس نشاط بيولوجي حتمي ولكنه في الوقت نفسه ذو بعد اجتماعي ، ويتأكد الجانب البيولوجي على حساب الجانب الاجتماعي (دون إلغائه كليةً) يخلق المجتمع العلماني الشامل الخلطة السحرية والتوازن المنشود . فانت قد تسلك سلوكاً اجتماعياً ولكن سلوكك ستحدده حسابات بيولوجية بسيطة ومحددة . انظر مثلاً إلى كريم الشعر هذا ، إن سحره لا يقاوم ، إن استخدمته وقعت كل الفتيات في شباكك . وأنت يا سيدتي إذا شربت هذا الدواء (الذي أظهرت التقارير الطبية فيما بعد أن مضاره أكثر من نفعه) ، فانت ستتمتعين بجاذبية جنسية بعد شربه . وأنت أيها المعجوز الكركوب لم لا ترتدي باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنظفونك أو تطوله . اختر ما تشاء من السلع وكله في سبيل الحيوية والبعث الجنسي ، ولكنه بعث جنسي لا علاقة له بالحيوة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أو حتى إبليس أو بروميثيوس ، فهو بعث بيولوجي مجرد يدور في فراغ حتمي لا نهائي .

والإمبريالية النفسية هي حضارة السهل ، بدلاً من المركب والجميل . وهي تخطط بين التركيب والتعقيد . فالتركيب هو تعدد الأبعاد والعناصر ، أما التعقيد فهو اختلاط الأبعاد والعناصر وليس بالضرورة تعددها . ونحت شعار "فلتكن بسيطاً" أو "لتكن طبيعياً" (يقابلها في حضارتنا الآن حضارة «بلاش عقده») تبدأ في إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والديسكو والبنطلون المميز) تهدف كلها إلى إفقاد الإنسان تركيبته وأبعاده ليصبح كياناً بسيطاً غير معقد يمكن التنبؤ بسلوكه . وأشير إلى هذه السلع البسيطة وأمثالها (التي لا لون ولا طعم ولا رائحة لها ، وليس لها أي خصوصية تاريخية أو اجتماعية أو حضارية) بأنها إحدى تبيديات التشكيل حضاري جديد ، أفرزته الإمبريالية النفسية في الولايات المتحدة . ولكنه ليس أمريكياً . ولذا أطلق عليه اصطلاح «ضد الحضارة ranti-culture» ، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات ، بما في ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية (فالحضارة الأمريكية تعرف تقاليد حضارية محلية ثرية مختلفة : حضارة الكريول في لويزيانا حضارة الساحل

الشرقي - حضارة الوسط الغربي الأمريكي - التنوع الناجم عن الهجرات المختلفة ... إلخ) .
ولكن السلع النمطية السهلة تقوم بختفها وتصفيها جميعاً . إن هذه الحضارة المضادة تعبر عن
أحادية الطبيعة / المادة وتكرارها ، وتحول الإنسان الفرد إلى كائن غطي بلا أبعاد ، يمكن توجيهه
بسهولة ويمكن التنبؤ بسلوكه ، ولذا فهي حضارة معادية للحضارة والإنسان . ولهذا اعتقد أن
خط التجميع (والتميط) هو الصورة المجازية الكبرى لهذه الحضارة المضادة . وقد يكون مما له
دلالتة أن شير إلى أن فورد اكتشف خط التجميع في سلخانة شيكاغو حيث رأى كل الحيوانات
معلقة بعد ذبحها صفوفاً متراسة ، يمكن تحريكها بسهولة ويسر ، كما يمكن "معالجتها" بأي
طريقة في أثناء تحريكها .

ولكن هذا الإنسان النمطي هو مع هذا إنسان فردي ، بمعنى في الفردية ، في حالة تنافس
دائم مع من حوله ، فهو ذات مستقلة ، مرجعية ذاتها ، لها قوانينها الخاصة ، لا يمكنها إرجاء
تحقيق الذات (خاصة وأنه لا يؤمن بآخرة ، فإن هي إلا الحياة الدنيا) . ولهذا توقعاته دائماً عالية
للغاية ، وسريعاً ما ينطفئ صبره (على الرغم من مقدرة الهائلة على التكيف) . أذكر مرة أنني
كنت أجلس في فندق في شيكاغو ، وجاءت جلستي إلى جوار تليفون عام يتحدث فيه شخص
إلى زوجته . ويبدو أن زواجهما كان يمر بمرحلة صعبة نهائية ، إذ كانا يتحدثان عن إجراءات
الطلاق . وقد ذكر لها بعض مشكلاته ، وكان من ضمنها عدم تحقيق ذاته (التي ذكر هو نفسه
أنه لا يزال يبحث عنها) . وأنه لا يتواصل مع زوجته ١٠٠٪ ، كما ذكر لها بعض المشكلات
الأخرى التي لا تختلف - في تصوري - عن أي مشكلات يقابلها أي شخص عادي في حياته .
وكنت على وشك أن أخبره بأن توقعاته أعلى من اللازم ، وأن حدود ذاته صلبة للغاية وسائلة
للف غاية في الوقت ذاته ، وأنه لو خفض من توقعاته قليلاً لأصبحت حياته أكثر سعادة ، ولتواصل
مع زوجته بنسبة ٧٠٪ وهذا يكفي ، فالإنسان لا يتواصل مع ذاته بنسبة ١٠٠٪ . ولكنني لم
أفعل لأنه كان سيصور أن هذا اقتحام لحياته الشخصية .

وهم الفردية المطلقة هذا وحلم الاستهلاك المستمر (مع كل آليات الترشيح الأخرى مثل
توظيف الجنس في الإعلانات والهيمنة على الإنسان من خلال الإعلام) هو الذي قوض تماماً أي
وعي طبقي أو اجتماعي ، فالجميع يحلم أحلاماً فردية يحقق من خلالها الخلاص لنفسه المنفصلة
عن المجتمع . وقد كتبت قصيدة قصيرة عن الطبقة العاملة الأمريكية بعد وصولي إلى الولايات
المتحدة ، بعد أن أحسست بشكل فطري ومباشر بما أحاول أن أنقله في هذه السطور ، وكان
عنوان القصيدة "إلى البروليتاريا الأمريكية" :

"ولماذا نكد ونكدح/ والأهراء بالقمح مكتظة/ والعصفور/ متختم من لقط الحبوب ، /
فلماذا بالله ننفخ في البوق ؟/ والسمن في القدور ، / أما الكروم/ فهي محفوظة ومثلجة / لماذا
بالله نشعل النار ؟/ وفي المساء/ حينما نسير في جنازة الحياة/ في الأضواء الحمراء والخضراء

والصفراء / تمزح وتمزح ثم ننام في الشق ، / فلماذا بالله نصره الحديد ؟ .

وفي إطار الإمبريالية النفسية يصبح الإنسان قادراً على التقدم للأمام وعلى النجاح وحسب (أليست هي حضارة التقدم والإنجاز ؟) غير قادر على التقهقر والفشل . وبرغم أنها حضارة التقدم فإن الإنسان فيها يجد صعوبة بالغة في التقدم في السن ، فهذا يعني الخضوع للرمم والفقدان التدريجي للطاقة ، وهذا يمثل نوعاً من الإخفاق . ولذا نجد أنهم يحلمون بالشباب الدائم أطفالاً كانوا أم كهولاً ! كنت أسير مرة في شارع ماديسون (ماديسون أفينو) وهو الشارع الذي توجد فيه معظم مكاتب الإعلان الساعة الخامسة ، أي ساعة انصراف المكاتب . وفوجئت بمنظر غريب ، كل السكرتيرات يشبهن بعضهن البعض ، يضعن نفس الكمية من المساحيق على الوجه ، ويحاولن ألا يزيد سنهن عن الثلاثين . وكان منظر المتقدمات في السن منهن يبعث على الحزن !

ويمكن القول بأن النظام العالمي الجديد هو عولة لهذه الإمبريالية النفسية ، وتعميم لمفهوم الإنسان الاقتصادي / الجسماني الذي لا يكتسب بالوطن أو بالكرامة ، ولا بهمة سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة .

وهذا السعار الاستهلاكي ليس مسألة انحطاط خلقي وسلوك فردي واختيار حر ، وإنما هو وضع اجتماعي شامل ونموذج ضخم يهيمن على الإنسان من الخارج ويستبطنه المرء دون أن يشعر . وإن نجح المرء في مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون في مثل صموده . فالمجتمع هو الذي يحدد مقاييس السعادة واللذة ، ومهما حاول المرء أن يفلت من الحتميات الاجتماعية فإنه يجد نفسه محاطاً بالمجتمع لا يمكنه الفكك منه إلا بفعل عنيف ، كان يتحول إلى هوبي زاهد في الدنيا ، برغم تمتعه بها . والهوبي يجسد أسطورة الفشل ، وهي عكس أسطورة النجاح المهيمنة على العقل الأمريكي . أما المواطن العادي ، الذي يعيش حياة "عادية" داخل المجتمع ، فهو يقع في شراك الاستهلاكية بكل بساطة ، خاصة وأنه منذ نعومة أظافره قد استبطن الأيديولوجية الاستهلاكية من خلال الدمى والبرامج التليفزيونية المختلفة (تعد العروس باريبي وأصدقائها من أهم آليات إشاعة الأيديولوجية الاستهلاكية) .

ولعل القصة التالية التي وقعت لي توضح ما أود قوله : حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة ، ظللت أنا وزوجتي في السنوات الأولى نعيش داخل جيتو مستقل ، نتبع المعايير التي كانت سائدة في المجتمع المصري في أواخر الخمسينيات ، ومن ضمنها أن لحم الدجاج كان يشغل قمة الهرم الذي ينتظم أنواع اللحوم المختلفة . ولذا كان تناول هذا النوع من اللحوم يعد نوعاً من أنواع الترف بالقياس إلى اللحوم الأخرى (الضاني - المعجالي - البتلو - الأسماك) ولا أدري سبب هذا التفضيل ، ولعله يعود إلى أن لحم الدجاج كان أعلى من اللحوم الأخرى . وظللنا داخل الجيتو نعيش مع تصورنا المصري أن لحم الدجاج لحم فاخر . ولما ساعد على ذلك أننا لم نلاحظ أن

سعر لحم الدجاج في الولايات المتحدة منخفض بالنسبة للحوم الأخرى ، لأننا لا ننظر إلى الأسعار أنا وزوجتي إلا نادراً .

المهم ، كان هذا هو حالنا نعيش داخل أوهايو المصرية ، إلى أن زارتنا صديقة أمريكية وقالت (بطريقة تنم على الملل) إنها ستذهب إلى المنزل لطبخ لوبيا بيضاء ودجاجاً لزوجها فانتابني شيء من الشك وسألتها عن السبب في تغيير الملل هذا . ومن حلال إجابتها أدركت أن لحم الدجاج يعد أقل أنواع اللحوم جودة ، وأنه يوجد في أسفل الهرم ، وأنه لهذا السبب أرخص أنواع اللحوم . تعمجت في يادئ الأمر من هذا الترتيب الذي يحتلف عن نظيره المصري تمام الاختلاف ، ولكنه مع هذا أمسك بتلابيبي ووجدتني لا أتناول لحم الدجاج إلا بسبب الفاقة ، أما اللحوم الأخرى فكنا نتناولها عندما تتوافر عندنا الأموال اللازمة لذلك . لقد أصبح مذاق الدجاج " رخيصاً " في فمي ، أنا الذي كنت أجده لذيذاً للغاية . كنت أضحك من نفسي ومن تحولتي ، ولكن دون جدوى ، فقد حدد لي المجتمع سلم الأولويات في المذاق واستبطنت النموذج الإدواكي ، بالرغم مني .

وقد حدث الشيء نفسه مع شركات الطيران . كنت أحب السفر بالطائرة لأنه يحقق لي كثيراً من الهدوء سواء في المطار أو في الطائرة ، إذ لا يمكن لأحد الاتصال بي ، وأقرأ الجرائد ، وأتناول قداماً من القهوة ، أو أجلس لأتأمل في راحة وسكينة . وكنت أسافر بطبيعة الحال بالدرجة السياحية إلى أن رأيت إعلان إحدى شركات الطيران الذي بدأ يتحدث عن مدى اتساع كراسي الدرجة الأولى ، وتظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير ، مقارنةً براكب الدرجة السياحية ، الذي تظهر صورته بعد ذلك وهو يتقلب من الألم في كرسيه ، ويلكزه جاره عن غير قصد . منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية مسألة مؤلمة بالنسبة لي . هذا هو حالنا أنا المدرك لما حولي ، الراعي به تمام الوعي ، فما بالك بالمواطن الأمريكي الطلقائي الطيب ، الذي تعرفه وسائل الإعلام يومياً بسلع جديدة ؟

أخبرني صديق لا يؤمن تماماً بمسألة الألقاب ، أنه ذهب إلى النادي مرة ، فكان كل من يقابله يتناديه بلقب " يا باشا " (افضل " يا باشا " - أهلاً " يا باشا " - صباح الخير " يا باشا) ولكن أحد العاملين حصر وقال : " أي خدمة يا بيه " . أخبرني صديقي ضاحكاً بأنه فوجئ بأنه شعر بالضيق من هذا الأخير الذي أتكر عليه لقب الباشوية ، إلى أن تنبه إلى نفسه فأدرك أن الفرعة ليست أمراً كامناً في النفس البشرية ، وإنما هي أمر يكتبه المرء ممن حوله .

والسعار الاستهلاكي مرتبط ولا شك بأزمة البعثة التي يعاني نحن كلها منها في الوقت الحاضر . صيف شديد الحرارة - تلوث - ثقوب الأوزون . وقد شعرت بهذه الأزمة قبل الكثيرين بسبب تجربة شخصية طريفة . فقد قمت أنا وزوجتي " بتقسيم " العمل في المنزل . (كلمة " تقسيم " هنا فيها مبالغة بعض الشيء ، فقد فازت هي بتصيب الأسد من الأعمال المنزلية) .

وكان من نصيبي إخراج صفيحة القمامة يومياً ، ليقوم عمال النظافة في الصباح بجمعها وتفرغها في سيارة القمامة . وقد فرحت في بداية الأمر لهذا العمل الذي تصورته سهلاً . ولكن بدأت الصفائح تزداد مع تزايد القمامة ، إلى أن وصلت إلى ثلاث (برغم أننا أسرة مصرية احتفظت ببعض تقاليد التدوير والتدبير) ، وكان عليّ طبيعة الحال أن أحمل هذه الصفائح ثلاث مرات يومياً (بدلاً من واحدة) . وهنا بدأت أعمم من وضعي الخاص وأتساءل عن قمامة الولايات المتحدة كلها . وبدأت أثير مع أصدقائي قضية القمامة والاستهلاكية والبيئة (فالقمامة المتزايدة دليل على الاستهلاك المتصاعد ومؤشر على النهب المتزايد للبيئة وعملية التخلص منها مشكلة في حد ذاتها) . فكانوا يفسرون تساؤلاتي هذه بأنه حسد من شخص من العالم الثالث . وكنت أحاول من جانبي أن أبين لهم أن هذا الاستهلاك غير المستول سيودي بنا جميعاً . وبالفعل ظهرت المشكلة البيئية في السبعينيات ، وظهر أن الولايات المتحدة تعد من أكثر الدول اكتظاظاً بالسكان من منظور معدلات الاستهلاك . فإذا كان استهلاك المواطن الأمريكي يعادل استهلاك حوالي ألف مواطن هندي فهذا يعني أن الولايات المتحدة تضم حوالي بليونين وسبعمئة مليون نسمة (٢٧٠ مليون × ١٠٠٠) وأنها أكثر ازدهاراً من الهند . ووجدت أنه لا يمكن إيقاف هذا الاستهلاك على الإطلاق من داخل المنظومة المادية المهيمنة . فالعقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع الأمريكي ينطلق من فكرة الفرد المطلق ، ومصدر الشرعية للنظام السياسي والاجتماعي هو تحقيق الرفاهية الاستهلاكية للمواطن ، والفلسفة السائدة هي البراجماتية التي لا تتساءل عن الكليات والمبادئ . وانطلاقاً من كل هذا يكون من العبث مطالبة المواطنين بالحد من الاستهلاك ، فبإسم من سنطالب المواطن الذي يعيش في حواضر الخمس أن يمتنع عن الاستهلاك : باسم الأجيال المقبلة ، أم الأخلاق الحميدة ، أم قيم المطلقة ؟ "اليوم خمر وغداً أمر" هذه هي عقلية الاستهلاك المادية ، ولا يمكن إيقافها إلا بالخروج منها والبحث عن أساس فلسفي آخر .

العلم والتقدم

أذكر في صباهي أنني كنت أقعدت مع زميلي في المدرسة (وصديق الأمير) الدكتور عطية حامد عن أحلامي لمصر ، وذكرت من بينها ميكنة الزراعة . وإذا بي أفجأ به يقول (وهو أكثر علماء مني بأمور الزراعة ، إذ كان يسكن في أبي المطامير ، بينما كانت تجربتي محصورة في دمنهور) إنه لو تم إدخال ميكنة الزراعة في مصر لكانت كارثة ، إذ إن البطالة ستنتفش بين الملايين . وإجابته كانت مفاجأة كاملة لي لأن الصحف والمجلات كانت لا تكف في ذلك الوقت عن الحديث عن اليكنة بحسبانها الحل لكل المشكلات . وإجابة د. عطية كانت في واقع الأمر طرحاً لإشكالية الطبيعة (الشيء/ الآلة) والإنسان ، وأن الإنسان هو الغاية النهائية ، ولا يصح

استخدامه وسيلة . وقد بقي هذا الحوار في ذهني لم يرحه حتى الآن .

وقد وصلت إلى الولايات المتحدة في وقت كانت تهيم فيه مدرسة النقد الجديد (بالإنجليزية : نيو كريتيزم هزي ضمضم نصنخ) على كثير من أقسام الأدب الإنجليزي . ومدرسة النقد الجديد تركز على قراءة النصوص وتبتعد بقدر الإمكان عن التفسيرات التاريخية والاجتماعية . فالنص الأدبي - حسب تصور دعاة هذه المدرسة - بناء مكتف بذاته يشبه إناء الرهور ، يمكن فهمه من الداخل دون حاجة إلى فهم سياقه أو خلفيته التاريخية أو حتى سيرة المؤلف الذاتية أو نواياه . ولذا تأخذ العملية النقدية عند نقاد هذه المدرسة محاولة فك شفرة النص من داخله من خلال ما يسمى «القراءة النقدية التفصيلية» (بالإنجليزية : كلوس ريدنج close reading) ، وهي قراءة نقدية تركز على علاقات النص الداخلية وتستبعد كثيراً من العناصر التاريخية والاجتماعية والثقافية والنفسية . وكانوا يرون أن داخل كل عمل فني عظيم يوجد إدراك للتناقض (بالإنجليزية : بارادوكس لشخمشخرقلا) الذي يسم الوجود الإنساني (كان بعضهم يرى أن التناقض الأكبر هو صلب المسح ثم قيامه ، ومن موته تولد الحياة ، ومن هزيمته يولد الانتصار) . وكانوا يرون أن ما يميز الظاهرة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية هو التناقض الذي يوسع لغة الشعر التعبير عنه ، فهي يمكنها الحديث عن الشيء ونقيضه في الوقت نفسه ، على عكس لغة العلم المجردة التي لا يمكنها التعامل إلا مع القوانين العلمية المجردة ومع الشيء أو نقيضه . ومن هنا يصبح الشعر والجاز مسائل لصيقة بالوجود الإنساني ذاته ، ولا يمكن التعبير عن المشاعر الإنسانية إلا من خلالها .

لم أتبن رؤية مفكري مدرسة النقد الجديد للنص الأدبي ، ولكنني مع هذا تأثرت تأثراً عميقاً ببعض مقولاتها النقدية والفلسفية ، مثل تمييزهم بين الظاهرة العلمية (الطبيعية المادية) والظاهرة الإنسانية ، وشكهم العميق في العلم بحسبانه نموذجاً قاصراً عن التعبير عما هو إنساني . كما أنني حاولت دائماً أن أرى النص الأدبي بحسبانه كياناً يحتوي على عناصر مركبة عديدة ، قد يكون التناقض أحدها ، ولكنه ليس بالضرورة أهمها ، وأن بنية النص وشكله يماثلان (دون أن يعكسا) بناء اللحظة التاريخية . ومن ثم استفدت كثيراً من منهج قراءة النصوص دون أن أتبنى نموذج العداء للتاريخ الكامن وراءه .

وأذكر عام ١٩٦٥ أن دعاني صديق من أعضاء اليسار الجديد (البروفيسير بيزان ، وكان فرنسياً من علماء الطبيعة) لاصطحابه في زيارة لروبرت أوبنهايم Robert Oppenheimer ، مكتشف القنبلة الذرية ، في منزله في برنستون . وأوبنهايم هو رئيس فريق سان ألamo الذي "نجح" في تسخير الطاقة النووية لإجراء أول انفجار نووي . وقد قدم لنا هذا العالم الجليل الشاي ، وبعد أن تحدثنا في كل شيء ، في اليسار الجديد وفي الرأسمالية الأمريكية ، سألته : "ماذا كان شعورك بعد اكتشافك أن مشروعك قد "نجح" وأن موعد إجراء أول انفجار قد أصبح وشيكاً؟"

أجاب باقتضاب شديد : " لقد تقيأت " ، أي أنه أدرك مدى وحشية النموذج العلمي الموجه لسلوكه في أثناء عمله على القنبلة الذرية ، وأدرك أنه نموذج منفصل عن الإنسان وقيمه وعيانيته . ودهشت من إجابته التي ذكرتني بما كتبه فرانسوا رابليه : " إذا لم يقترن العلم بالصميم أدى إلى خراب النفس " ، كما ذكرتني بخطيب جامع الحبشي في دمنهور الذي كان يستمد بالله في نهاية حطة الجمعة من علم لا يستفاد به . وقد دعمت إجابة أوبنهايمر عن سؤالني من إحساسي باختلاف الإنساني عن الطبيعي وبقصور العلم الطبيعي عن الإحاطة بالإنسان وبمنظوماته القيمة والجمالية وبخطورة انفصال التجريب العلمي عن الأهداف والأغراض الإنسانية . (ومن المعروف أن أوبنهايمر قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية) .

وبدأ ينتابني شك عميق في بعض المقولات التي أصبحت مطلقات علمانية عسبية مثل الإيمان بالعلم والتقدم والتكنولوجيا . وتعلمت من كتاب كافين رابلي الغرب والعالم أن العلم له تاريخ متغير ، وأن أهداف العلم البنزطي والإسلامي تختلف عن أهداف العلم الحديث (على سبيل المثال) . كما بدأت أعرف - على سبيل المثال لا الحصر - أن الفكر المادي الذي ظهر في القرن الثامن عشر وتلقي دفعة قوية من الاكتشافات " العلمية " في القرن التاسع عشر كان يستند إلى تصورات علمية خاطئة مثل قانون السببية البسيطة الذي ولد في أحضان الرؤية النيوتنية (المادة الآلية) للكون . وعالم نيوتن عالم محكم مغلق يتسم بالحتمية الميكانيكية ، وتفسير العالم ، حسب تصوره ، يستند إلى آليات الوجود الفيزيائي للذرة (الجزيء) وقوانين الحركة . وانطلاقاً من هذا ، ظهرت الرؤية العلمية المادية التي نادى بأنه يوجد قوانين تحكم عالم الظواهر مستنبطة من الاستقراء القائم على الملاحظة والتجربة ، ودعامته الأولى في ذلك مبدأ العلية أو السببية أو الحتمية وأنه لا يمكن الحديث عن تأملات خارج معامل البحث ونتائج التجريب .

وقد ظلت هذه الرؤية مهيمنة تماماً حتى نهاية القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الوقت ، بدأت الضربات توجه إلى هذا النظام المغلق بكل افراضاته عن الحتمية والموضوعية ومطلقية الفضاء والزمان وإمكانية الملاحظة الموضوعية الخالصة للواقع والسببية الصلبة (أي أن السبب "أ" يؤدي إلى النتيجة "ب" بكل بساطة ، مثلما تؤدي الحرارة إلى غدد الحديد) . فقد أدت نظرية الكم (الكوانتوم) ولائحة هايزنبرج ونظرية النسبية إلى إضعاف قيمة كل هذه الافتراضات . خذ على سبيل المثال مبدأ الاشبهاء أو عدم التفريق بين الجسيمات الفردية المفحوصة في الميكروفيزياء وزوال فرديتها عنها . فمثلاً إذا كان لدينا جسيمان في مكان واحد ، ورعبنا في أن نتبع سير أحدهما اختلط علينا الأمر بينهما ، ولم يعد بمقدورنا تمييز أحدهما عن الآخر .

بل إنني قرأت في مجلة تلج أخيراً عن تجربة " علمية " تبين أن جزيئات النشاط الضوئي (الفوتونات) حينما يخضعها الإنسان لتجربة ما ، فإنها تعي ما يحدث وتغير سلوكها . وهذا شيء جديد كل الجدة ، وهل يمكن التعميم منه على الكون ؟ فمن المشكلات التي كان يتصور أن

العلوم الإنسانية تواجهها هو أن الإنسان حينما يكون واعياً أنه موضوع للتجربة فإنه يغير سلوكه ، فهل ستواجه العلوم الطبيعية المشكلة نفسها ؟

وقد نسفت النظرية النسبية الحدود القائمة بين الذات والموضوع ، فقد أعطت المراقب أهمية كبيرة لأن سرعته أو مسكونه يغير في نتائج القياس ، والمقاييس التي تُتخذ في قياس المدة والأطوال تتوقف في نهاية الأمر على وجهة نظر الراصد وإطار الإشارة الذي يوجد فيه ، مما يضفي على قياسه طابعاً ذاتياً (كانت نتائج القياس في الفيزياء الكلاسيكية مستقلة عن سرعة المراقب) . لكل هذا لم يعد من الممكن أن تحتفظ الفيزياء بموضوعيتها ، أي لم يعد الإنسان يرى الطبيعة في ذاتها ، فهو يرى الطبيعة الملحوظة .

وقد ظهر أن ثمة وجوداً غير مادي للطاقة الذرية هو الوجود الموجي . والتعامل مع ظاهرة الضوء أثبت أن جزيئات النشاط الضوئي (الفوتونات) تتصرف في مواضع تجريبية بحسبانها مكونة من جسيمات وحزم ضوئية ، وأنها في مواضع تجريبية أخرى تتصرف بحسبانها مكونة من موجات . (وقد قال أحد علماء الطبيعة متهمكاً : في يوم السبت والاثنين والأربعاء نعرف الضوء بأنه جسيمات وحزم ، ثم يصبح موجات بقية أيام الأسبوع) ويسمى هذا «مبدأ الازدواجية» ، وهو مبدأ موجود أيضاً في الذرات التي تتصرف أحياناً وكأنها موجات وأحياناً جسيمات . ولا يمكن لتجربة واحدة أن تبين أن الفوتونات ذرات وموجات في آن واحد ، فكل تجربة تكشف طبيعة واحدة ، إما ذرات وإما موضوعات .

وبعد أن كان منطق العلم لا يحتوي إلا على قيمتين فحسب هما : الصدق أو الكذب بمعنى أن تكون القضايا إما صادقة وإما كاذبة ، أصبح من الممكن الآن تكوين منطق ثلاثي القيمة ، فيه قيمة متوسطة هي «اللاتحدد» ، وفي هذا المنطق تكون القضايا إما صادقة ، وإما كاذبة ، وإما غير محددة . كما أنه يمكن القول بأن الواقع الفيزيائي ، كما يقول فؤاد كامل في مقال له بعنوان "أزمة العلم الحديث" ، يقبل تفسيرين لممكنين ، كل منهما يماثل الآخر في صحته ، وإن يكن من غير الممكن الجمع بين الاثنين في صورة واحدة ، لأن قانون اللاتحدد يجعل من المستحيل القيام بأي تجربة فاصلة تحدد أي التفسيرين هو الصحيح وأيهما الباطل . ويبدو أن مثل هذا المنطق هو الصورة النهائية لفيزياء الكوانتم حتى هذه اللحظة .

وأخيراً ، فإن سؤالا : ما المادة ؟ لا يمكن الإجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها وإنما يحتاج إلى تحليل فلسفي للفيزياء . والطبيعة لا تُعطي علينا وضعا واحداً بعينه ، والحقيقة لا تقتصر على لغة واحدة .

ولعل اكتشاف الثقوب السوداء في الكون له دلالة علمية ورمزية في الوقت ذاته . فداحل هذه الثقوب تحطم قوانين علم الطبيعة والأحياء وتحطم الزمان والمكان ويتم اتهام الضوء (العنصر الثابت في الطبيعة) . ويمكننا أن نرى أثر الثقوب السوداء على ما حولها ولكننا لا

نعرف عنها تماماً . فهي موجودة وأساسية لا يمكن تفسير بعض الظواهر دونها ، ولكنها مع هذا غير خاضعة للتحكم الإنساني ولا نفهم عنها تماماً . وقد ظهرت أخيراً نظرية الفوضى (chaos) وهي ضربة أخرى للعالم المادي المطلق المصمت .

إلى جانب كل هذا أدركت أن كثيراً مما يسمّى «القوانين العلمية» هي في واقع الأمر مقولات فلسفية قبلية ، يؤمن بها العالم ، وعلاقتها بعالم التجربة العلمية إما واهية وإما متعذرة . فعلى سبيل المثال إن قال أحد العلماء إن العالم "خلق بالصدفة" فإنه يؤكد "إيمانه" بتلك الحقيقة أو إحقاقه في التوصل إلى فهم حقيقة أصل الكون . وحين يتحدث عالم آخر عن "المادة ذاتية التحريك" فهو هنا يسمي شيئاً لم يفهم عنه . وفي كلتا الحالتين ، فإن العالمين قد انطلقا من مقولات فلسفية غريبة تسبق عملية التجريب ذاتها .

وقد أخبرني أحد أصدقائي من علماء علم الطبيعة أن الوصول إلى نظرية عامة (بالإنجليزية : grand unification theory) يتطلب بطبيعة الحال استيعاب كل ما نوافره لدينا من معلومات (أو أساسياته) . ولكن هذا أصبح أمراً مستحيلاً في الوقت الحاضر (تضاعفت المعرفة الإنسانية منذ بداية التاريخ حتى عام ١٧٥٠ ، ثم تضاعفت مرة أخرى من ١٧٥٠ - ١٩٠٠ ، ثم تضاعفت مرة ثالثة في الفترة من ١٩٠٠ - ١٩٥٠ ، ثم أصبحت تتضاعف كل عشر سنوات ابتداءً من ١٩٥٠ - ١٩٩٠ ، والآن تتضاعف كل خمس سنوات) . فأخبرته : "ماذا لو وضعنا كل المعرفة الإنسانية على جهاز كمبيوتر ضخم ؟" قال : "ستظل هناك مشكلة استرداد هذه المعلومات" . وأخبرني آخر أن هناك إشكاليات في العلم نعرف أنه يمكن حلها "نظرياً" ، ولكن يتطلب ذلك أن يعمل الجيل الحالي من آلات الكمبيوتر والجيل الذي يليه لفترة قد تستغرق آلاف السنين ، وربما كل ما تبقى من سنوات للنوع الإنساني علمه .
الأ.م.د. د. رجب

إن محدودية العقل البشري من ناحية ، وتكدس^{١١} المعلومات والحقائق العلمية من ناحية أخرى ، قد جعلتا من العمل الجماعي^{١٢} تعاوني ضرورة لا مهرب عنها في مجال البحث العلمي ، في الوقت الذي لا يمكن فيه للكشف العلمي إلا أن يكون فردياً . وهذه هي المعادلة الصعبة : فرد واحد لا يستطيع أن يستوعب نتائج العلوم لكثرتها وتشعبها ، وفرد واحد هو الذي ينبغي أن يتوصل إلى كشف علمي أو نظرية واحدة - كنظرية النسبية - لتفسير النتائج التي توصلت إليها العلوم المختلفة .

وبالتالي أصبح من المستحيل الآن وضع نظرية عامة استناداً إلى المعطيات الطبيعية / المادية المتوافرة لدينا ، كما كان الأمر في الماضي ، فنحن لا نعرف بعضها برغم أنها معروفة للآخرين ، كما أن البعض الآخر ينتظر الحل . (حين حان الوقت لمناقشة رسالة الدكتوراه الخاصة بابني حيث كان يدرس في إحدى جامعات الولايات المتحدة ، أرسل له أحد המתحنيين تهنئته ، ومعها

صفحات معادلات رياضية لم يفهمها ابني ، وطلب من أستاذة المشرف أن يشرحها له ، ولكن الأستاذ المشرف نفسه لم يفهمها) . وحيث إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش دون مركز ودون إطار عام (فهو لا يمكنه أن يعيش من لحظة إلى لحظة) فإنه لا يمكنه الوصول إلى مثل هذه النظرية العامة إلا من خلال التأمل والتفكير و"افتراض" وجود مركز و"الإيمان" به .

وقد اتسع عالمنا على مستوى الماكرو (الأجرام - النجوم - الكون) وعلى مستوى المايكرو (الدرة - الجزيء ... إلخ) . واتسع نطاق المعرفة بشكل غير مسبوق . فإذا أضفنا إلى هذا مسألة التخصص الدقيق (وهي أن العالم الحقيقي هو الذي يعرف مجال تخصصه تمام المعرفة) فإننا تدريجياً نواجه العالم المتخصص الذي يعرف الكثير عن تخصصه الضيق ويجهل الكثير عن أي شيء آخر (فالعقل الإنساني غير قادر على استيعاب كل شيء) . وقد قال أحدهم مازحاً إن التخصص هو أن تزداد معرفة بموضوع تخصصك الضيق ، ثم تزداد المعرفة اتساعاً والموضوع ضيقاً إلى أن تعرف كل شيء عن لا شيء !

وقد ذكر الأستاذ محمد سيد أحمد في مقال له بالأهرام أن "أخطر إنجازات الإنسان عند نهاية الألفية الثانية ، هو تحرره من قيد حجمه في الكون .. هو قدرته على تجاوز حجمه الطبيعي في استكشاف أسرار المتناهي الصغر والمتناهي الكبر .. ومعنى ذلك قدرته على التدخل لإعادة صياغة قوانين الطبيعة لأول مرة ، يتدخل "الثقافي" لا لإعادة صياغة "الطبيعي" ، ولكن ، في عوالم المتناهي الصغر والمتناهي الكبر التي أصبح الإنسان يملك القدرة على ارتيادها ، فإنه لا يملك في هذا الارتياح الاستعانة بحواسه الخمس (النظر والسمع واللمس والشم والذوق) وأصبح يستعاض عنها بالمعادلة الرياضية استناداً إلى افتراضات قد تصيب وقد تخطئ وهكذا يعتمد أساساً على أدوات مبهمة ، تحمل أكثر من تفسير ، وعرضة للالتباس وبالتالي فإن ما يحمل الوعد بتحقيق المعجزات للرفقي بمصير البشر ، يحمل في طياته خطر سوء التفسير ، أو الاصطدام بما هو ليس معلوماً ، ويكون مصدر انفضالات لم يشهد البشر مثيلاً له من قبل ، بل قد يعرض نفسه لخطر "الإفناء الذاتي" وصور من الانتحار الجماعي للبشرية ككل لم تختبر من قبل هي الأخرى" . وأن يصدر مثل هذا الكلام من الأستاذ محمد سيد أحمد أمر يجب أن يؤخذ على محمل الجد .

وقد أسقط العلم الحديث تدريجياً فكرة اتساع رقعة العلوم وتراجع رقعة الجهول (وهي فكرة ساذجة حدث بأحد "العلماء" المتفائلين في القرن التاسع عشر إلى التنبؤ بأنه في خلال ثلاثين عاماً سيعرف الإنسان كل شيء ، وبالتالي لا لزوم للأخلاق أو الله أو الدين) . ولكن بعد مائة عام من التجارب العلمية ، اكتشف الإنسان أنه كلما اكتشف وسيطر على شيء ما ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التي لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها ، أي أنه كلما ازداد معرفة ازداد جهلاً . من ذلك تجربتنا مع الذرة ، هذا الشيء الذي يتحرك دون قانون والذي يصعب رصده ، وكلما

رصدناه اكتشافنا عناصر جديدة فيه تحيرنا ، ثم حطمتها لنؤسس الفردوس الأرضي . ونحس الآن في حيرة من أمرنا بخصوص التخلص من العادم النووي ، وانتهى بنا الأمر إلى أنه قد يدمرنا ويدمر كرتنا الأرضية معنا . وها نحن أولاء نمسك بكرة اللهب ، أي العادم النووي والأسلحة النووية التي يمكنها تدمير العالم عشرات المرات .

وإذا كان التحكم في الطبيعة هو وهم العلم الأكبر ، فإن ما يحدث هو عكس ذلك ، فالأمر يمتد من عالم الذرة ليشمل بعض "الاكتشافات" التكنولوجية التي نستخدمها في حياتنا اليومية . فيقال على سبيل المثال إن الأغذية التي تحتوي على مكونات مهندسة أو معدلة وراثياً تصعب جهاز المناعة (كما ثبت من كثير من التجارب العلمية) ولذا فهم يطلقون عليها «أغذية فرانكشتاين» . وقد طُرد أحد العلماء الإنجليز لأنه راح يؤكد هذه المقولة ، وقد تظاهر بعض زملائه تأييداً لأرائه . وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث لأحد أصدقائي في الولايات المتحدة ، إذ كان يجري بعض التجارب على أفران الميكرويف ووجد أنها تسبب أضراراً جسيمة للإنسان ، وقبل أن يتوصل لنتائج نهائية بخصوص موضوع بحثه ، سحبته منه الميزانية بحجة توفير الاعتمادات . ونفس القول ينطبق على شاشات الكمبيوتر والميكرو فيلم التي لا نعرف حتى الآن أثرها على عيون الإنسان وجسده .

وقد طرح أحد العلماء عدة أسئلة عن أمور بسيطة ، ولكنها تبين مدى حدود المعرفة الإنسانية : لماذا يتفرد البشر بين كل الفقريات الثديية باستخدام الأطراف اليمنى غالباً دون اليسرى ؟ لماذا تتغير حالة نباتات الظل المنزلية بتغير أمزجة أصحابها ونفسياتهم ؟ ولماذا تطير أسراب الطيور على شكل الرقم ٨ ؟ كيف تنجح حيوانات صغيرة كثيرة (أسماك وطيور) في الارتحال عبر آلاف الأميال نحو هدف بعينه ، جيلاً بعد جيل ، فتصل إلى هدفها بدقة ، رغم أنها لم تكن قد رآته أو ذهبت إليه من قبل ، ودون خرائط ولا بوصلات ؟ وكيف تنجح حيوانات اليفة ، لم تعود على الهجرة ، في السفر وحيدة آلافاً من الأميال ، بحثاً عن أصحابها الذين هجروها ، حتى تمثر عليهم ؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تعتمد أساساً على القول بأن عالمنا يحتوي على الآلاف من العناصر والغرائن التي لم يعلم بها من اكتشف قوانين الديناميكا الحرارية ، التي جمعت قوانين الوجود المادي والحركة في إطار واحد في محاولة أولية لوضع تفسير واحد وشامل للكون .

إن عدم التحكم أصبح سمة أساسية في عصرنا ، وكلما زادت ميكنته والسيطرة عليه علمياً ، أي تقدمه ، قلت إمكانية التحكم فيه . ويتبدى هذا في أمور كثيرة مثل مشكلات البيئة والفسل في التخلص من النفايات وتزايد الأمراض النفسية . ولعل عدم التحكم يظهر بطريقة كوميدية في هذين المثالين البسيطين : تحول اسمي في الولايات المتحدة من عبد الوهاب Abdelwahab إلى عبد الوها Abdelwa لأن الكمبيوتر لم يكن يوسعه أن يجد مكاناً للحرف الأخير . وقد اقترحت عليّ مرة إحدى الموظفات أن أسمى نفسي إلى Elm وكهي ، فهو اسم أنجلو

سكسوي وقصير ! يمكن للكمبيوتر أن يتعامل معه بكفاءة . وكانت لدي أخيراً مشكلة مع مجلة نيوزويك ، إذ فوجئت بأنهم أوقفوا اشتراكي فجأة ، وبعد أن شكرت لهم من الوضع أرسلوا لي خطاباً يرحبون فيه برغبتي في الاشتراك . فكتبت لهم قائلاً إن خطابهم لم يكن ردّاً على خطابي ، فأرسلوا لي خطاباً غمطياً آخر يقولون فيه إنهم يأسفون لأن اشتراكي انتهى ، فأرسلت خطاباً ثالثاً أنبهم إلى موضوع رسالتي وشكواي ، فتسلمت في نهاية الأمر ردّاً على خطابي يقولون فيه إنه على ما يبدو حدث خطأ ما وأنهم سيرسلون لي بأعداد المجلة ، وطلبوا مني أن أهمل ما قد يصلني من خطابات أخرى . إذ يبدو أن الكمبيوتر سيستمر في مطاردتي بالرسائل النمطية والتي لا يمكنهم إيقافها ! وهذا قمة عدم التحكم ، وإن كان في أمر نافه مثل إرسال الرسائل ، فما بالك في مجالات أخرى مثل الاستنساخ والذرة والمعالجة الوراثية للنباتات ! وهناك أخيراً مشكلة التجريب العلمي . فكثير من العلماء (من الذين حققوا اكتشافات في حقن الهندسة الوراثية) يقفون ضد إجراء التجارب في هذا المجال خوفاً من عواقبها الرخيمة بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية ، بحيث أصبح التجريب نهاية في حد ذاته ، بغض النظر عن نتائجه التي قد تؤدي بالإنسان ! وقد قال أحدهم : إن الأخطاء في التجارب العلمية في الماضي ، كان يحدث انفجار أو ما شابه ، كانت تتم داخل دورة الطبيعة لا تتحدى قوانينها ، ولهذا فإن دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل . فإن تلوث منطقة ما ، فإنه يمكن أن تترك بضع سنوات لتقوم العوامل الطبيعية بإصلاح ما أفسدت يد الإنسان . بل إن التلوث الإشعاعي قد يستمر لآلاف السنين ، ولكنه مع هذا يظل داخل الزمان ودورة الطبيعة . أما تجارب الهندسة الوراثية ، فهي أمر مختلف عن التهجين القديم في أنها تتجاهل تماماً حدود البيولوجيا ، إذ يمكن إضافة جينات من الفيروسات أو البكتيريا أو الحيوانات في الشفرة الجينية لأنواع النباتات التقليدية . هذه التجارب قد تأتي بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها ؛ فهي مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية . وقد ظهر أخيراً مصطلح «التلوث الجيني» (بالإنجليزية : جينك بوليوشن genetic pollution) ، وهو انتقال الجينات التي تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نبات آخر (أعشاب ضارة على سبيل المثال) ، مما يجعل القضاء عليها صعباً أو مستحيلاً .

وقد وصفت خوف الإنسان الغربي من التجريب المتحرر من القيمة والغاية من خلال وصفي لبعض الصور المجازية والأساطير الأساسية التي هيمنت على وجدانه . وأول هذه الأساطير هي أسطورة بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة وأعطاهها للإنسان (بهدف الاستارة بطبيعة الحال ، وهذه هي الأسطورة العلمانية الكبرى) . ثم تلتها أسطورة فاوستوس الذي باع روحه للشيطان في سبيل المعرفة الكاملة التي تمكنه من التحكم في الواقع والزمان (أو هكذا كان الظن) . ومع

بداية القرن الثامن عشر ، تظهر أسطورة فرانكشتاين ، هذا الكائن القبيح الذي خلقه عالم "مستنير" يؤمن بالعلم وبمقدراته ليسخره في خدمته (المركزية الإنسانية) . ولكن الخلق يقتل حالقه بعد قليل وينطلق حراً ليعيث في الأرض فساداً وفي الناس قتلاً ، أي أن ثمرة العلم الإنساني هي قتل الإنسان ، ونتيجة العلم الإنساني لا إنسانية ، فرانكشتاين إسان طيعي آلي يتحرك في إطار قوانين الطبيعة الآلية . ثم تظهر بعد ذلك أساطير مثل دكتور جيكل ومستر هايد وغيرهما لتدل على خوف الإنسان على ذاته الإنسانية المتعينة من عقله المجرد ، الذي يتحرك في إطار القوانين العلمية والمعادلات الرياضية اللاإنسانية . وهكذا ، بعد أن سرق بروميثيوس كرة النار من الآلهة بنقطة بالغة لينير للإنسان طريقه وعالمه ، وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل بها يعد ذلك ، وبدلاً من الاستفادة من النار ، بدأت تحرق أصابعه ، إذ رأى ثقب الأوزون والعلوث وتآكل الأسرة واجتثاث أشجار عابات المطر الاستوائية وازدياد غاز ثاني أكسيد الكربون ، فالتحسب أنه لا يساعد الإنسان وينير طريقه ، بل على العكس وجد أنه يساهم في هلاكه وحرقة وتصفيته . (يقال إن أحدهم دخل خلسة في أحد المنازل في تشرونوبل ، وسرق بعض النقود . وبعد أن تم تداولها ظهر أنها تشطب جيوب من يحملها بسبب أنها ملوثة بالإشعاع) .

وقد أثبت التقدم أن تكلفته عالية ، وأنه لم يشف كثيراً من أمراض الإنسان الروحية والنفسية ، بل فاقمها . والتقدم ، حسب ما تعلمناه ، هو تطبيق النموذج الغربي في التنمية والاستهلاك . وهو نموذج مبني على غزو الطبيعة والسطو عليها (٢٠٪ من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون ٨٠٪ من مصادرها الطبيعية) . والآن ، ماذا لو "تقدمت" الصين والهند حسب المقررات الغربية ؟ ألا يعني هذا بليون سيارة جديدة تسير في الطرقات ، يخرج عادمها وثلوث جو الكرة الأرضية وتحرق الأوكسجين ، خاصة إذا ما "تقدمت" البرازيل هي الأخرى ، وبدأت في اجتثاث غابات المطر الاستوائية (لتؤسس المصانع والطرقات وتحقق "التقدم المشهود" على الطريقة الغربية ، فهذا حقها القومي) ، فإنها بذلك تكون قد اجتثت مصدر ثلث الأوكسجين في العالم . إذا كانت فكرة التقدم الغربية تستند إلى لا محدودية الموارد الطبيعية ، فإن الممارسة أثبتت عكس ذلك ، فهناك معادن آخذة في الاختفاء ، وهناك أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنوياً ، وهناك مشكلة النفايات الآخذة في التزايد بشكل مخيف (يقال إنه في غضون عدة أعوام ، لو استمر التقدم على ما هو عليه ، فإننا سنحتاج لست كواكب في حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشي المرتبط بالتقدم) . وبطبيعة الحال ، هناك النفايات النووية ، التي لم نعرف طريقة أكيدة للتخلص منها بعد . إن التقدم الذي كان من المفروض فيه أن يحقق مساعدة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب .

وهناك سؤال أطرحه دائماً على نفسي وعلى الآخرين : هل جهاز الإنسان العصبي قادر على

استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات التي تُرسل له يومياً من بيئته الاجتماعية التي يزداد إيقاعها سرعة ووحشية ؟ وهو سؤال يجب أن نتوقف قليلاً لنسأله . وهل من قبيل الصدفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم العربي والعالم أجمع آخذة في التزايد في السنوات الأخيرة ؟ كما يمكن أن أتساءل عن نوعية الإنسان الذي سيكون الكمبيوتر هو العنصر الأساسي في حياته (يقال إنه في القريب العاجل سيتمكن للإنسان أن يتحكم في كثير من عناصر بيئته من خلال الكمبيوتر : طهو طعامه - فتح الباب وإغلاقه - درجة حرارة منزله - طعام فطته ... إلخ) . هل يكون إنساناً ذا خيال خصب قادر على التأمل ، له ذاكرة تاريخية قوية ، أو أن الكمبيوتر مع وهم التحكم سيجعل من الخيال مسألة "قديمة" والتأمل مسألة مستحيلة ، والذاكرة التاريخية مسألة قد عفى عليها الزمن ، فتراكم الخبرة ليست مسألة مهمة ؟ هل يكون هذا الإنسان مثل إنسان البورتويات التكنولوجية الذي يتحكم في كل شيء ويتم التحكم فيه ؟ بل يمكن أن نسأل عن التقدم ذاته ، وهل يؤدي بالضرورة إلى السعادة ، ونسأله مع مالكولم إكس الذي قال إن الدولة كي تتعامل مع الأفراد لابد أن تحولهم إلى أرقام وحالة مدرجة في الكتب ، وإن هذه الدولة قد تستطيع أن ترسل إنساناً إلى الفضاء الخارجي ، ولكنها لا تعرف كيف تتعامل مع البشر . وبالفعل نجد أن الثورة العلمية قد نجحت في تطوير السلاح بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية . ولعل عجز الإنسان حتى الآن عن الحرب ضد الإنفلوانزا دليل على تروجه العلم غير الإنساني وعلى الحدود التي يفرضها علينا وجودنا الإنساني .

وقد أشرت في مقدمة كتاب الفردوس الأرضي إلى أن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «التقدم» السريع والدائم والحتمي ، إلى أن أصبح التقدم العلمي هدفاً في حد ذاته . وأن "منطق التقدم الدائم وبأي ثمن هو المنطق السائد في العالم العربي بل في العالم بأسره . ولكن يبدو أن مشكلة البيئة في المجتمعات الصناعية قد بدأت في التفاقم ، ولأول مرة في تاريخ التقدم في الغرب يدخل عنصر كيميائي عليها ، وبدأ المفكرون ، بل المواطنون العاديون ، يتحدثون عن «تكاليف» التقدم وعن تلوث البيئة . وهل مجرد «إنتاج» سلعة ما هو «تقدم» أو أن التقدم والتخلف يقاسان بمقاييس تقع خارج نطاق الأشياء والكم ، وأنه لا يمكن استخلاص هذه المقاييس إلا من ظاهرة الإنسان نفسه ومن بيئته التاريخية نفسها ؟ وإذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) أصبح أمراً شائعاً في الغرب ، فإن الحديث عن تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية) سيصبح هو الآخر أمراً مطروحاً عما قريب لا محالة ... والمجتمعات الاستهلاكية التي تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان والتي تُعرف هذه الرغبات بشكل كمي ، مسقطا احتياجاته الروحية من الحُسن ، أقول هذه المجتمعات تتجاهل ازدواجية [أي ثنائية] الإنسان وتسبب البؤس للبشر . هكذا كان خطابي آنذاك ، ورغم أنني كنت أصنف نفسي حينذاك علمانياً بل مادياً ، لكن يبدو أنني كنت من البداية علمانياً جزئياً ، أرى ضرورة فصل

الدين عن الدولة وحسب، لا فصل الواقع الإنساني بأسره عن القيم الأخلاقية والمطلقات (كما يفعل دعاة العلمانية الشاملة الذين يطالبون بتطبيق القانون الطبيعي على كل من الإنسان والطبيعة ، فهي شكل من أشكال وحدة الوجود المادية ، كما سأتبين فيما بعد) . ولذا أطلب الآن بفتح ملفات « ثمن التقدم ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه ، وأن ننظر للتقدم المادي في إطار ما يحدث من « تخلف إنساني » .

كل هذا جعلني أتخفظ بعض الشيء بخصوص مقولات أصبحت مطلقة بالنسبة للبعض مثل التقدم التكنولوجي والتجريب العلمي . وهذا لا يعني أنني رفضت المعرفة العلمية رفضاً كاملاً (كما يفعل بعض غلاة السلفيين) ، ولم أقبلها قبولاً كاملاً بحسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل بعض غلاة العلمانيين ، إذ إننا أردنا استخدام المصطلح الذي صكه الصديق الأستاذ فهمي هويدي) . كل ما في الأمر أن قبولي له أصبح مشروطاً وغير مطلق ودخل حدود .

الروحي والمادي

ومن التطورات الفكرية المهمة التي خضتها وقامت بتفويض الرؤية المادية ، أنني بدأت لاحظ أن التناقض بين « الروحي » و « المادي » ليس واضحاً تماماً في بعض الكتابات الأدبية والفلسفية الغربية (وخصوصاً التي توصف بأنها « صوفية ») . فالروحي (أو المثالي) في مثل هذه النصوص يمكن أن يكون مادياً ، والمادي يمكن أن يكون روحياً (أو مثالياً) . وتعود بدايات هذه الملاحظة إلى طفولتي ، إذ كنت قد لاحظت العلاقة الحميمة بين والدي التاجر الكبير وشيخه ، شيخ الطريقة الحصافية في دمنهور (كان اسم الشهرة لوالدي هو الحاج حصافي تيمناً به ، وسُميت أنا عبد الوهاب تيمناً باسم الشيخ عبد الوهاب الحصافي) . كان والدي ، الشخصية الفاضلة الجبارة المؤمن بالتراكم الرأسمالي ، والذي كان يقضي معظم وقته في البيع والشراء وإبرام الصفقات ، يتجاوز العقيدة التعاقدية ويتحول إلى حمل وديع في حضرة شيخه ، وينفق عليه وعلى حاشيته سخاء ، ويقوم الولائم احتفالاً بمقدمه . وحيث أنني كنت أحاول تفسير كل شيء ، فإنني لم أجد تفسيراً لهذه العلاقة ولا هذا التحول في سلوك أبي من الرأسمالية إلى الصوفية وبالعكس .

وقد وجدت شيئاً مماثلاً في كتابات المتصوف السويدي عمانوئيل سويدنبورج Emmanuel Swedenborg (الذي تأثر به الشاعر وليام بليك) . وكانت كنيسة التي أسسها كنيسة غربية ، فهي كنيسة متصوفة تدعو للحرية المطلقة التي تصل إلى درجة الترخيصية . ولكن فكر سويدنبورج الصوفي ارتبط بالثورة البورجوازية في السويد . ونفس الظاهرة توجد في شعر بليك ، فقد ارتبط شعره بالثورة الفرنسية والصناعية ولكنه في الوقت ذاته كان من المؤمنين بتعاليم سويدنبورج ثم طور منظومة صوفية أسطورية غنوصية . ولا يختلف هذا كثيراً عن

التصوف الحلولي سواء في الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو عن النزعات المشيخانية أو المهدوية .

وفي أثناء دراستي للأدب الأمريكي ، لاحظت أن الكاتب الأمريكي رالف وولندو إمرسون Ralph Waldo Emerson ، فيلسوف المدرسة الترانسندنتالية والروح الكلية (أوفر سول Over-soul) ، الذي كان ينتمي للكنيسة الموحدة (بالإنجليزية : يونيتريان Unitarian) والذي كان يتفنى بأعمال سويندبورج وبودا وكونفوشيوس وجمال الدين الرومي ، هو ذاته الفيلسوف الأثير لدى الرأسماليين الأمريكيين العمليين الماديين . (وقد تطور تداخل المادي والروحي المقدس وغير المقدس والذاتي والموضوعي في الكنيسة الموحدة لدرجة أن شعائر الصلاة في هذه الكنيسة تتغير من يوم ليوم حسب هوى أعضاء الكنيسة ورغباتهم . فهي في يوم قراءة بعض القصائد ، وفي يوم آخر قد يتحدث أحد المتعبدين عن مشاعره الداخلية . وفي مرة قامت إحدى راقصات الستريپتيز striptease [أي راقصة تقوم بتنزع ملابسها قطعة قطعة في أثناء رقصها] بالتعبير عن مشاعرها "الدينية والروحية" ... إلخ ، عن طريق أداء إحدى رقصاتها في الكنيسة ، ولم يعترض راعي الكنيسة عما حدث واكتفى بالقول إنها طريقة غير تقليدية للتعبير عن الإيمان الديني (١) . ومن الشائع في الولايات المتحدة أن يقول أحدهم إن تجربة زيارته لمحف ما أو مطعم ما أو عرض مسرحي أو غنائي ما (بل وتجربة جنسية ما) كانت تجربة "روحية" .

وكانت مكتبة إمرسون تضم كثيراً من الكتب عن الإسلام ، ولكنه كان لا يشير إليها إلا نادراً ، ولا يقتبس إلا المقطوعات الصوفية منها . وعلى العكس من هذا ، نجد أن كتاباته الأخيرة بإشارات إلى الديانات الآسيوية (وفيما بعد لاحظت انتشار التراث الصوفي الحلولي [القبالة] بين أعضاء الجماعات اليهودية وفي الوقت ذاته اشتغالهم بالتجارة) .

ولذا بدأت أتساءل : هل ثنائية الروح والمادة (والمقدس وغير المقدس والذاتي والموضوعي) في مثل هذا الخطاب إذن ثنائية زائفة ؟ هل من يستخدمون هذا الخطاب قد يستخدمون كلمتي "مادة" و"روح" ، ولكنهم في واقع الأمر لا يميزون بينهما ، ومن هنا فهم يدورون في إطار واحدة لا تعرف الثنائيات ، وأن عالمهم مكون من جوهر واحد يسميه البعض "الإله" أو "الروح" ويسميه البعض الآخر "الطبيعة" أو "المادة" أو حتى "الذات" ؟ وهل الاختلاف بين الفريق الأول (المادي) والفريق الثاني (الروحي) ليس اختلافاً في البنية وإنما في التسمية وحسب ؟ هل هذا تعبير عن الميتافيزيقا الحلولية (روحية كانت أو مادية) حين يحل الإله في الطبيعة ويصبح جزءاً لا يتجزأ منها ؟ وهل هذه الميتافيزيقا الحلولية هي ميتافيزيقا من لاميتافيزيقا ، أو ميتافيزيقا مادية بلا أعباء أخلاقية ؟! وهل نحن نحتاج ، إذن ، لمقولات تحليلية جديدة لفهم الاختلاف بين الواحدة المادية والواحدة الروحية ولفهم الوحدة النهائية بينهما ، الكامنة خلف الثنائية الظاهرة ؟ هل هناك نمط عام قائم ونموذج كامن وراء هذا الإيمان الراسخ بالبوذية والكونفوشية والعبادات

الآسيوية والتصور المتطرف من جهة، والفردية والليبرالية المتطرفة والرأسمالية والبراجماتية من جهة أخرى؟ (وهكذا يعود الدين مرة أخرى كمنقولة تحليلية). ومن أولى المحاضرات العامة التي ألقيتها في الولايات المتحدة محاضرة في جامعة فيرلي ديكينسون Fairleigh Dickinson في نيويورك محاضرة بعنوان "فاوستوس متخفياً في زي بوذا"، حاولت أن أُبين فيها أن هنري ديفيد ثورو حينما خاض تجربته "الصوفية" وانسحب إلى وولدن، كان متأثراً بالتراث الشرقي الذي ينحو نحو إنكار الذات، ولكن تأثيره كان سطحياً، فقد كان يحمل ذاتاً فاوستية تتلعب الدنيا، وأنه لم يكن متصوفاً بمعنى الزهد وإنما بمعنى أنه يحب أن يصل إلى جوهر الأشياء ليهيمن عليها. وهذه الأطروحة لا تختلف جوهرياً عن أطروحة ماكس فيبر الخاصة بعلاقة الرأسمالية الرشيدة بالبروتستانتية، والتي لم أكن قد قرأت عنها بعد.

وبدأت أتلسم طريقي نحو نموذج الحلولية (الذي سأشرحه بالتفصيل فيما بعد)، فالدبانات الآسيوية ورؤية هيجل Hegel والدعوات المشيخانية (التي تُعدّ المؤمنين بالفردوس الأرضي عما قريب) كلها رؤى واحدة لا يوجد فيها مجال للأحلام المفارقة للمادة بشكل جذري، فتتحد الروح بالمادة والمقدس بالزمني، ويتوقف الجدل والتاريخ ويصبح حديث الروح هو ذاته حديث المادة، وحديث المادة هو ذاته حديث الروح، ويؤدي التمرکز حول الذات إلى الذوبان في الموضوع بحيث لا يوجد فارق بين الإنسان المركب والطبيعة البسيطة! وهذا هو النموذج الكامن وراء الرأسمالية الاستهلاكية والإمبريالية. وكل الفلسفات الغاشية فلسفات مادية فردوية حلولية تعلن نهاية التاريخ الآن وهنا (وقد أدركت تدريجياً أن إسرائيل تنضوي تحت نفس النمط). وكانت المسرحية الموسيقية "شعر" (التي سبق الإشارة إليها) تتحدث عن الفعل الجنسي أو أي شيء يحقق اللذة للمرأة بحسبانه تجربة روحية!

وهنا بدأت أدرك مخاطر الهيجلية بحسبانه رؤية واحدة مغلفة إذ سيُتحد العقل الكلبي (في نهاية الأمر والزمان والتاريخ) بالطبيعة، فتصبح الطبيعة فكراً والفكر طبيعة، والمادة روحاً والروح مادة، وينتلق الجدل وتُلغى الثنائيات. فهو نسق لا تدافع فيه، برغم كل ادعاءاته "الجدلية". وبالتدرّج، أدركت أنني حينما أتحدث عن نهاية التاريخ فإنني أتحدث في واقع الأمر عن بعض النظم الفلسفية المادية (التي تدّعي الروحية أو التي تستخدم دياباجات روحية للتعبير عن المادي) والتي تحلم دائماً بتشديد الفردوس في الأرض، اليوتوبيا التكنولوجية، في لحظة ينهي فيها التاريخ ويُعلن انتهاء الجدل والمعاناة والتدافع ثم انتهاء الإنسان نفسه - أي أن نهاية التاريخ هي انتصار المادة وسد المسافة بين الطبيعة والإنسان وتصفيتها ككيان مستقل متجاوز للنظام الطبيعي. وقد انتضح كثير من هذه الأفكار فيما بعد، بعد صياغة نموذج الحلولية ووحدة الوجود

وهكذا، احتلّت التصوف والمادية، واللاعقلانية والعلم والتكنولوجيا، والدين والهوية

والاقتصاد والجنس ورؤية الإنسان للمكون ، وتداخلت الأمور ولم يعد العالم واحدياً مادياً بسيطاً ، يضم مقولات مستقلة لها حدود واضحة ، وبناءً فوقياً يردُّ إلى بناء تحتى (أساسي) يردُّ بدوره في نهاية الأمر إلى العلاقات الاقتصادية . وتفضت عن نفسي وهم الموضوعية المتوترة في تصور أن العقل كالمرآة يعكس الواقع ، وتبنيت نموذجاً توليدياً في رؤيتي للواقع (كما سأبين فيما بعد) . وهكذا انتقلت من مزاجية المادية واختزاليته إلى تركيبيية الظاهرة الإنسانية . وكنت أحاول دائماً أن أصل إلى إطار تصوري عام (نموذج كلي) يضم كل هذه الموضوعات والأطروحات .

بدايات الانتقال

لم يتم الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية ، ولم تحل النماذج التفسيرية المركبة (التي تذهب إلى أن هناك قانونين : واحداً للإنسان والآخر للمادة) محل النماذج التفسيرية المادية البسيطة (التي ترى أن هناك قانوناً مادياً واحداً يسري على كل من المادة والإنسان) دفعة واحدة ، بل كانت عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن . فالفلسفة المادية فلسفة مريحة تختزل الواقع وتختزل الوجود الإنساني في قوانين المادة ، ولذا فهي قادرة على تفسير كل شيء وعلى تزويد الإنسان بأجوبة سريعة . (كنت أقول ساخراً - فيما بعد - إن إحدى مزايا الفلسفة المادية أنها قادرة على تحويل الإنسان في لحظات إلى مثقف فادر على الإجابة عن كل الأسئلة الكبرى وتفسير كل شيء والإفتاء في كل شيء من خلال صيغ جاهزة بسيطة) . وبرغم إحساسي بقصور هذه الفلسفة ، وبرغم التناقضات الصارخة بين النموذج المهيمن من جهة وتجربتي وسلوكي وإحساسي بما حولي من جهة أخرى ، وبرغم محاولتي التملص بعض الشيء من المقولات المادية المصححة فإنني حاولت في الوقت ذاته أن أمكث داخل حدود الفلسفة المادية (لإسقاط النموذج المهيمن وإحلال آخر محله ليس مسألة سهلة أو هينة) ، ولذا بدأت أبحث عن مقولات زمنية (مادية) تنسم في الوقت ذاته بقدر من الثبات والتجاوز في عالم الضرورة المادية تصبح هي مرجعيتي النهائية ومصدر القيمة والغاية والاتجاه . باختصار شديد ، حاولت أن أنقذ مقولة الإنسان الحر المستقل من السقوط في حمأة الطبيعة / المادة المتغيرة الحتمية . على أن أبقى داخل حدود المادة ، وبألمها من مفارقة .

ويبدو أن هذه ظاهرة متكررة في تاريخ الفكر الإنساني ، وقد سميتها ظاهرة «الإله الخفي» ، وهو مفهوم يعني أن الإنسان قد يؤمن بشكل واع بنموذج مادي ، ويظن أنه استطاعه تماماً حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من رؤيته ووجوده . ولكن هذا الإنسان مع هذا ، في ظروف معينة ، تفصح أقواله وأفعاله بشكل غير مباشر وغير واع عن وجود شيء ما في أعماق أعماقه يتناقض مع الإطار المادي الواحد الذي تبناه . وبرغم هذا فإن مثل هذا الإنسان قد لا يتجه بالضرورة نحو اختيار

منظومة أخلاقية بديلة ، ويمكننا القول بأن الإله الخفي هو في واقع الأمر البحث غير الواعي للإنسان الطبيعي / المادي عن المقدس في عالم الطبيعة / المادة ذلك العالم الذي لا قداسة له ولا محرمات فيه ولا حرمان .

ويتضح الإله الخفي في بعض العبارات المتواترة في الفكر الغربي الحديث . فهناك دائماً حديث عن «التجاوز من خلال الطبيعة / المادة» (بالإنجليزية : ترانسندانس ثرو نيشنر transcendence through nature) ، بمعنى أن الإنسان يوجد داخل المادة ولكنه لا يذعن لها ولا يرفضها ، فهو يتطلع لأن يتجاوزها (وصولاً إلى المقدس) ، وهي محاولة للحفاظ على استقلالية الإنسان عن الطبيعة وعلى قداسته وحرية ومقدرته على الاختيار والتجاوز (العنصر الرباني) دون التخلي عن الإطار المرجعي المادي النهائي .

ويتضح الإله الخفي بشكل أكبر في عبارة «النزعة الطبيعية المتجاوزة أو الخارقة للطبيعة» (بالإنجليزية : سوبر ناتورال ناتوراليزم supernatural naturalism) ، والتي وردت في كثير من الكتابات التي تصف الحركة الرومانسية ، وهي عنوان كتاب الناقد الأمريكي إبرامز . كما قال أحد النقاد إن مدرسة فرانكفورت تؤمن بـ «الإنسانية الميتافيزيقية» (بالإنجليزية : ميتافيزيكال هيومانيزم metaphysical humanism) . ففي كل المصطلحات السابقة يوجد مكون مادي (خلال المادة - الطبيعة - الإنسانية) ومكون متجاوز للمادة (تجاوز - تجاوز الطبيعة أو الخارق لها - الميتافيزيقية) الذي يمكن أن نعرفه بأنه المقدس ، مما يعني وجود ثنائية تتجاوز الواحدية المادية برغم كل المحاولات لمحاورها في إطار مادي محض .

كنت أدور في نفس النمط حينما بدأت بحثي عن مقولات ثابتة متجاوزة في عالم المادة ، ولذا حاولت أنا أيضاً أن أؤكد استقلال الإنسان واحتفظ به في الوقت نفسه داخل المعطى المادي ، ولذا بدلاً من التحدث عن «العنصر الرباني» في الإنسان (كما فعلت فيما بعد) ، كنت أتحدث عن «العنصر الكوني» الذي كنت أعرفه حينذاك بأنه «العنصر الثابت نوعاً» في الإنسان والطبيعة وبالتالي فهو غير تاريخي غير مادي (برغم ماديته الواضحة) . وكلمة «كوني» كلمة مبهمه ، فالعناصر الكونية توجد داخل عالم المادة الذي يتسم بالحركة ولكنها تتجاوز نظراً لثباتها النسبي ، فهي غير خاضعة لقوانين التاريخ والزمان والصراع الطبقي وعلاقات الإنتاج والغيريات الاجتماعية والسياسية والثقافية ، أي أنها غير خاضعة لقوانين المادة ، ومن ثم فكلمة «تاريخي» في هذا النص تعني «مادي» (كل هذا تعبير عن النموذجين المادي [الظاهر] والإنساني [الكامن] اللذين نحمكما في وجداني في أثناء فترة التحول) . وكما بيّنت في موسوعة ١٩٧٥ :

«العنصر الكوني» في أي بنية تاريخية هو عنصر لا يخضع للقوانين التاريخية بل يتعداها ويمتد بالحياة . وتحت هذا العنصر ، تندرج الرغبة الجنسية بالمعنى البيولوجي وكل الحاجات البيولوجية والبيئة الجغرافية (خاصة في جانبها الذي لا يتأثر كثيراً بالتدخل الإنساني) والمشاعر

الإسانية الأساسية مثل الخوف من الظلام والموت .

وتتضح نفس المحاولة نحو توسيع نطاق استخدام المصطلحات الماركسية القديمة مع البقاء داخل النسق المادي في بعض المصطلحات النظرية التي طورتها في موسوعة ١٩٧٥ . كنت أشعر أن ثنائية البناء الفوقي / التحتي هي في واقع الأمر إثنيية تتسم بقدر كبير من التبسيط والاختزالية وتُصمَّم في نهاية الأمر برد الأول للثاني ، كما أنها تؤدي إلى سقوط كل شيء في قبضة المادة والضرورة والحركة والواحدية ، وبالتالي لا يبقى أي ثوابت ، وتحثفي ظاهرة الإنسان ككيان مستقل عن عالم الطبيعة / المادة المتغير . وانتهى بي الأمر إلى أن نعت مصطلحاً شبه ماركسي ، ولكنه كان - في تصوري - يتجاوز الثنائية الماركسية التبسيطية الاحتزالية . فأشرت إلى العنصر الكوني بحسابه - كما أسلفت - جزءاً من البنية التاريخية يتسم بالثبات النسبي ، ولكنه في ذات الوقت منفصل عنها (أي أنه يعكس ثنائية الإنسان والمادة الكامنة في وجداني) ، ولذا فهو - حسب تصوري آنذاك - يشكل الأساس التحتي للبناء التحتي (ولذا سميت «البناء تحت التحتي») . كما أنه يعبر عن نفسه على قمة البناء الفوقي (ولذا سميت «البناء فوق الفوقي») .

وقد أكدت أن "العنصر الكوني" هو الحد الأدنى المشترك بين البشر وأن تكرار العناصر الكونية وثباتها هو في نهاية الأمر أساس إنسانيتنا المشتركة ومصدر مقدرتنا على تجاوز الطبيعي / المادي . ثم أضفت قائلاً :

"وجود العنصر الكوني في البنية التاريخية هو مصدر تحددها . والتداخل بين الكوني والتاريخي هو أساس التقدم والحركة ، فالإنسان الفرد موجود داخل الدائرة التاريخية ومستوعب فيها ، وهذا الاستيعاب إذا كان تاماً وكاملاً فإن الإنسان يفقد الرغبة في الفورة [التجاوز في مصطلحي الحالي] ، ولكنه لأنه داخل البنية التاريخية وفي الوقت نفسه على صلة بعناصر كونية غير تاريخية ، فإنه لا يستوعب تماماً [في البنية التاريخية] وإنما يحتفظ بالقدرة على الانسحاب داخل ذاته وعلى إنشاء صلة مباشرة مع الكون ، وعن طريق هذه العملية يعيد صياغة نفسه ويكتسب مفومات الحياة التي تجعله لا يفتن بما حوله بل يطرح رؤى جديدة . ولتلاحظ أن العنصر الكوني هو مصدر الثورية [أي القدرة على التجاوز] إن ظل متفاعلاً مع العنصر التاريخي ، ولكنه لو استقل فإن الإنسان يصبح «الإنسان الفرد» ضيق الحدود ، ولكنه في الوقت نفسه «الإنسان الكوني» الذي لا تحدده حدود [السوبرمان في مصطلحي الحالي] ، وهذا هو جوهر الاستقطاب الرأسمالي إذ يذهب الإنسان اليورجوازي إلى الطبيعة أو إلى السوق ، فهو فرد غير اجتماعي ، عالم في حد ذاته ، مغلق تماماً لا يربطه رابط بالآخرين ، ولكنه عالم لا تحدده حدود يتحد بالطبيعة إن شاء ، ويستولي على فائض القيمة دون أي قيود ، وينتج ما يشاء من سلع ويبيعها بالسعر الذي يراه . ولكن الشيء نفسه ينطبق على العنصر التاريخي ، فإذا لم يتفاعل العنصر

التاريخي مع العنصر الكوني ، فإن الإنسان يصبح «الإنسان البيروقراطي» [السياسي ، دون الإنسان في مصطلحي الحالي] المجدب الذي فقد الحلم والذي يقنع من الحياة بقرارات اللجان والخطط الحمسية والسبعية ، ويستهج بتوجيه من السلطة ويحزن إن طلب منه ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم حاولت أن أؤسس نظاماً أخلاقياً استناداً لهذا العنصر الكوني (غير المادي) :
"ولعل تأكيد العنصر الكوني في البنية التاريخية يكتسب أهمية خاصة عن دي قبل ، فنحن في عصر التكنولوجيا والتجريب ، وباسم «التقدم» التاريخي والعلمي بدأ الإنسان يستهلك موارده الطبيعية بسرعة فائقة وغير رشيدة ، وهي سرعة لا تمتد إلى الخارج وإنما إلى داخل الإنسان نفسه ، إذ بدأ الإنسان يفقد ذاته وبدأ يجرب فيها المخدرات والشذوذ الجنسي ، ولا يمكن الوقوف ضد هذا الاتجاه إلا من منظور كوني / تاريخي في ذات الوقت . فنحن لا نملك أساساً فلسفياً لنقد التجريبية والاستهلاكية في المجتمعات الغربية من منظور تاريخي وحسب ، فهي مجتمعات «منتجة» ، كما أن الشذوذ الجنسي توافق عليه الأغلبية العظمى ولا تمنع فيه بتاتاً . ولا يلقى أمام الإنسان الثوري إلا العودة للطبيعة الكونية (البشرية وغير البشرية) . فالسعار الاستهلاكي سيؤدي بنا إلى التهلكة : بيئة ملوثة ، عالم تنافس فيه على المواد الخام ، كون أقرع لا خضرة فيه ، أنهار تحمل الأحماض القاتلة بدلاً من المياه الصافية ، هواء يحمل كميات محترمة من الكربون مونوكسيد . وحينما نقرأ جريدتك اليومية في الصباح ، فلتذكر أيها الإنسان الاستهلاكي الأشجار التي قطعناها من الصناعات العلمية لتزودك بكم هائل من الأخبار ، أنت في نهاية الأمر في عني عنها ، فلقد سمعت من مظهرها في النشرة الإخبارية . أما الإنسان التجريبي فسيؤدي إلى خلق أعماق بشرية لا هي بالذكر ولا هي بالأنثى ، وبشر في حالة غيبوبة كاملة مستمتعين بالشذوذ والغيبوبة . من منظور كوني يمكننا أن نشير إلى أثر الاستهلاك على المجتمع والإنسان . إن التقدم العلمي سيؤدي إلى ورطة كونية ، لأنه تقدم لا يأخذ في الحسبان العنصر الكوني (حداً أدنى من الاتزان والتفاهم مع الطبيعة) .

"ولعل هذا الاتجاه هو ذاته الذي سيؤدي إلى تكاثف البشر في مواجهة الطبيعة ليرشدوا الاقتصاد الإنساني ووسائل الإنتاج في العالم ، وإلا قضى الإنسان على نفسه وعلى بيئته . ونفس الشيء ينطبق على محاولات التجريب في الإنسان ، فلا يمكننا الوقوف ضد الهلوسة والشذوذ إلا بالعودة إلى العناصر الثابتة في النفس البشرية ، وهي العناصر تحت التحتية وفوق الفوقية . ومن الواضح أنه عبر التاريخ قد ترسخت مسألة أن الإنسان الواعي خير من الإنسان الذي يفقد رشده ، وأن العلاقة الجنسية المثلى هي العلاقة بين الرجل والمرأة وليست بين فردين من نفس الجنس . وبهذه الطريقة يتقاطع الكوني مع التاريخي ، وتنتج حركة حلزونية متطورة وحية وليست حركة دائرية آتنة وميتة .

وكنّت واعياً تماماً يتناقض فوقفي (الكروني بحُسانه عنصراً ثابتاً يوجد داخل عالم المادة المتغير) ، ومع هذا كنت أرى هذا التناقض تكاملاً ، فكنت أقول : "واعمل لنديك كأنك تعيش أبداً (مستخدماً المادية الجدلية) ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً (منطلقاً من القرآن والسنة)". كما كنت أصنّف نفسي ساخراً بأنني ماركسي سني ، أو ماركسي بشرطة .

وهذا البحث عن مقولة ثابتة متجاوزة في عالم الصيرورة المادية عبّر عن نفسه في الإيمان بالتاريخ . ولكن كون الإنسان كائناً تاريخياً ، كان يعني - بالنسبة لي حينذاك - استقلاله عن القرابين الطبيعية ووعيه بداته كخالق الحضارة ومبدع لها ، ومن هنا كلمة «تاريخي» في هذه النصوص تعني "يمكن رده لعالم الإنسان ولا يمكن رده لعالم الطبيعة / المادة" (ومن هنا اهتمامي المبكر بإشكالية نهاية التاريخ بحُسانها نهاية الإنسان) . هذا الاهتمام بالتاريخ ترجم نفسه إلى ضرورة تأكيد الهوية القومية (والخصوصية القومية) بحُسانها تتسم بقدر من الثبات والتجاوز . وللتعبير عن هذه الهوية بدأت في تغيير بعض معالم حياتي . فكنت ، على سبيل المثال ، أرتدي جلباباً ريفياً في الحفلات التي تُقام لتوديعي في الولايات المتحدة حين حصلت على الدكتوراه ، إعلاناً عن أن عودتي ليست مجرد عودة جسدية وإنما عودة روحية . (لم تكن ابنتي التي وُلدت في الولايات المتحدة قد رأت الجلباب المصري من قبل ، ولذا نهتني مرة إلى أن جلبابي يلامس الأرض واستخدمت كلمة "جاون شرفي" أي "قميص نوم" بدلاً من جلباب ، فضحكت وعرفت أنني فشلت في أول دروس الخصوصية القومية الذي لفتته لابنتي) .

ولعل عدائي للصهيونية ينبع من نفس المصدر ، فهي أيديولوجية معادية للتاريخ وبالتالي للإنسان والقيم ، ولذا تبنت القضية الفلسطينية التي تحولت إلى نقطة الثبات والتجاوز بالنسبة لي ، فهي قضية الحق فيها واضح غير مبهم . فالفلسطينيون طُردوا من ديارهم دون وجه حق ، وكل ما يطلبونه هو العودة إليها ، هذه حقائق أساسية ثابتة ، ذات مضمون أخلاقي واضح لا يمكن التفاوض بشأنها ، الحلال فيها بين ، والحرام بين ، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور دارويني مادي شرس . ثم اتسمت القضية الفلسطينية لتصبح رمزاً للتاريخ الإنساني بأسره بحُسان أن التاريخ كياناً مركباً لا يُردُّ إلى الطبيعة / المادة .

وقد عبّر كل هذا عن نفسه في الكلمة التي كتبتها في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ونشرها الأهرام بعنوان "كلمة عربية في زمن الأباطيل" :

"لا ، لم يصنع الأساطير ولا المعجزات ، وإنما نركنا مع تاريخنا العربي وتحرك معنا ، دفعناه إلى الأمام ودفعنا ، خلقناه وهو يهبنا الحياة .

"لا ، لم يصنع الأساطير وإنما عشنا واقعنا بكل حقائقه وإمكاناته ، فلم تسكرنا الرؤى ولم يبعث الواقع في أنفسنا القنوط ، وحمّلنا الراية الفرحة الحزينة وعبرنا .

"في زمن الكذب والأباطيل والإحصائيات الملفقة والعلاقات العامة والآلة التي تنتظر من

البشر الإدعان ، تعبر أيها الإنسان دهاليز الخوف لتعلن أنك لا تزال في مركز الكون . وحينما أسقطت الآلة الحديدية «المتفوقة» النيران على القرى والأطفال والأشجار في الجزائر ، وحينما زنجرت الآلة العاتكة «الكفاءة» في سماوات فيتنام الزرقاء وفوق غاباتها المورقة الخضراء ، لم تدعن أيها الإنسان وإنما انطلقت وعبرت وأمليت إرادتك .

"وها أنت ذا في سوريا وفي مصر وفي أنحاء شرقنا العربي تعبر الحاجز مرة أخرى لتؤكد أنك لن تسلم للأشياء والأصنام حتى ولو أخذت شكل نابالم حارق أو فانتوم قاتل أو أموال يهودية صهيونية لا تُعد ولا تحصى أو إمدادات أمريكية لا تنتهي أو جيش إسرائيلي لا يقهره .

"في مركز الكون فلتقف أيها الإنسان العربي ولتغرس راية العروبة والحق في أعلى القمم .

وعلى الرغم من إيماني العميق بما كنت أقول في ذلك الوقت ، فإنني كعادتي استعرت في التأمل وبدأ الشك يزحف إلى نفسي . فالدراسة الموضوعية للتاريخ (والهوية القومية) ، تبين أنه هو الآخر مجرد حركة ، ومن هنا يطرح السؤال نفسه : هل هذه الحركة لها غاية ؟ أو أنها حركة مادية صرفة لا غاية لها ؟ فإذا أخذنا بالاحتمال الأول ، بمعنى أنها حركة لها غاية ، فإن السؤال بخصوص مصدر هذه الغاية يطرح نفسه ، بما أن المادة لا تعرف لا الغاية ولا القيم . ولذا فالإيمان بـ "حتمية التاريخ" و "حتمية انتصار الطبقة العاملة" و "حتمية تحرير فلسطين" ، وما شابه من حتميات هو في واقع الأمر إيمان بغايات مادية ونوع من أنواع الميتافيزيقا المتخفية . (أسميها الآن «الميتافيزيقا المقدرة» لأنها تنكر هويتها كميتافيزيقا وتطرح نفسها على أنها "علم" بل "وعلم طبيعي" له قوانينه المادية الموضوعية ! هذا على عكس "الميتافيزيقا النظيفه" ، فهي ميتافيزيقا ظاهرة واضحة ، لا تخجل من طرح نفسها على أنها ميتافيزيقا ولا تنطفل على أي شيء ولا تتخفى وراء أي مسميات أخرى) .

وقد حدثت لي هذه الواقعة التي يبتدى من خلالها بدايات الانتقال واختلاط النماذج المهيمنة عليّ ، وكيف كنت أقف على الحدود بين الشك والإيمان : قرأت إعلاناً في أحد المطارات يقول "كأنك تمتلك خط طيران As if you own an air line" . وقرأت تفاصيل الإعلان فوجدت أنه يمكن للمرأة أن يدفع ١٩٩ دولاراً فقط لغير ويسافر أينما يريد على طائرات شركة إيسترن لمدة ثلاثة أسابيع . فلم أصدق الإعلان في بداية الأمر ، وأخبرت مكتب السياحة الذي أتعامل معه ، فلم يصدق الموظف المختص هو الآخر الإعلان ، ولكنه أخبرني بأنه على استعداد أن يقطع لي التذكرة إن حددت له المسار (فتحديد المسار مستغرق منه وقتاً طويلاً) . وبالفعل أعطاني الكتاب الخاص بمواعيد الطائرات وأعددت رحلة تأخذني إلى دالاس ، في ولاية تكساس ، ومنها إلى ولاية كاليفورنيا (لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو) ثم إلى ولاية فلوريدا فبرورتوريكو والمكسيك . ففوجئ مكتب السياحة بأن الكمبيوتر قد قبل التذكرة ، بل وتصادف أن يوم قطع التذكرة كان هو آخر يوم يُسمح فيه بذلك . وبالفعل قمنا أنا وزوجتي بالرحلة ، وقبلنا طفلنا

في ولاية فلوريدا حيث قضينا بعض الوقت معاً . ثم عادا إلى نيو جرسي ، واستمرت رحلتنا إلى مدينة سان خوان في بورتوريكو . وكنت قد أعلنت قبلها أن رحلتي ستكون خارج الزمان والتاريخ ، أي أنها لا علاقة لها بالثبات أو بأي نوع من أنواع الميتافيزيقا الواضحة أو الخفية ، فهي ستكون حياة دنيوية خالصة ، تمكث على السطح المادي اللامع المريح وحسب ، ولا علاقة لها بالأعماق ، ومن ثم لا علاقة لها بالقيم المطلقة أو بالفقراء أو بالجهداء أو بالشهداء (كانت مظاهرات الأكفان قد بدأت في إيران ، فكنت أسمع عنها وأهرب منها ، بحسبي سائحاً ناعزياً يقف خارج التاريخ لا علاقة له بالسياسة أو الأخلاق) .

وقد نزلنا في فندق يُسمى El convento ، أي الدير ، وكان ديراً للراهبات حُوِّلَ إلى فندق . وفي المساء في أثناء عودتي من رحلتي اليومية سمعت صوت غناء الفلامنكو الذي أعشقه (بسبب ما فيه من نبل وحزن) فتوقفت وقلت لزوجتي هيا بنا . فدخلنا المرقص (وكان في الماضي كنيسة الدير) . أما مكان المذبح فأصبح مسرحاً يقف فيه راقص الفلامنكو وبجواره الراقصات . وقد تضايقت من عدم الاحترام للدين ، ومع هذا انتشيت بالغناء والرقص بشكل غير عادي (عرفت فيما بعد أن راقص الفلامنكو هذا من أشهر الراقصين في العالم ، وأنه يقدم أولى حفلات الموسم في سان خوان) . وعند انتهاء الحفل ، وفي طريقنا إلى غرفتنا ، توقفت على سلم الفندق وقد أحسست فجأة بالزمان وبالتاريخ وعالم القيم والحدود ، وقلت لزوجتي : " هذه النشوة التي أشعر بها تفوق الوصف ، وقد عبرت خطأ لا يصح أن يعبره البشر ، ولذا فستعاقبني الآلهة " (لم أكن ساعتها قد ولجت عتبات الإيمان بعد) . وبالفعل حينما ذهبت إلى غرفتي دق جرس التليفون ، فقلت : اللهم اجعله خيراً وأرجو ألا يكون قد حدث شيء لابنتنا وابنتا . وبالفعل كانت المكالمة من أصدقائنا المصريين الذين كانوا في منزلنا مع طفلينا . وقالوا إن الأطفال بخير ، أما ما عدا ذلك فقد سرق ، فقد جاءت سيارة نقل وحملت كل ما نملك من متاع الدنيا (وكما سألنا فيما بعد كانت هذه سرقة سياسية تهدف إلى إفقادنا الاتزان) .

وبرغم اقتحام الزمن لنا فقد قررنا ، بإرادة نيتشوية ، أن نستمر في رحلتنا ، وذهبنا إلى المكسيك حيث رأينا أعمال الفنان المكسيكي ريشيرا ، الذي كان يرسم على حوائط مباني الفقراء ، فذهبنا إلى مبنى المنطقة التعليمية في أحد الأقسام الفقيرة لمدينة مكسيكو لشاهد رسومه الرائعة التي غطت حوائطها ، تماماً مثل رسوم الأزتيك Aztec والمايا Maya على أهراماتهم . فمصادره الإبداعية لم تكن غريبة وحسب ، وإنما كانت محلية تراثية أيضاً . وقد قضينا يوماً في ضاحية سوتشميلكو Xochimilco بجوار مدينة مكسيكو ، وهي ضاحية غريبة مكونة من قنوات صغيرة تساجر فيها زورقاً لتقضي فيه بضع ساعات وتشترى الورود من الباعة . وقد شاركنا زورقنا أسرة يهودية سفاردية . وبعد قليل ظهر قارب آخر يحمل عازفين للموسيقى . فاشترى لنا رب الأسرة السفاردية أغنية تحية لنا ، فقمنا أنا الآخر بشراء أغنية تحية لهم . وكانت

تجربة فريدة حقاً في عالم لا يوجد فيه من السلع غير الورد والأغاني . وتذكرت عالم التراحم الرائع الذي عشته في طفولتي ، وتذكرت نيو جرسى التعاقدية التي سأعود إليها بعد أيام ، حيث سرقت معظم ممتلكاتي أنا وزوجتي .

وحينما عدت من الولايات المتحدة إلى مجتمع الانفتاح في مصر عام ١٩٧٩ ، طرحت فكرة المادية والقيمة مرة أخرى نفسها عليّ بإلحاح ، خصوصاً أنني درست الإبادة النازية لليهود وغيرهم من الأقليات ، ووجدت أنه في داخل إطار النموذج المادي والنسبية المطلقة التي ترى أن كل الأمور مادية ومن ثم متساوية ، وأن آراء أي إنسان ، مهما بلغت من ذاتية أو موضوعية ، ومهما بلغت من خساسة أو نبيل ، صحيحة ، لا تختلف عن آراء أي إنسان آخر ، فالإنسان مرجعية ذاته ، يرى ما يرى . فهو قد يقرر ، على سبيل المثال ، أن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق أمر غير مشروع يوم السبت ، أما يوم الثلاثاء فقد يرى غير ذلك ، وهو في كلتا الحالتين على حق وعلى صواب ! أقول إنه داخل إطار مثل هذه المادية والنسبية المطلقة ، لا يمكن دمج التجربة النازية (أو الصهيونية أو أية تجربة إمبريالية) أو رفضها أو حتى محاكمتها بحسبانها خطأ أو أمراً يتنافى مع الأخلاق . لأنه لا يمكن "الحكم" على شيء ولا يمكن التمييز بين الخير والشر مع غياب المعيارية ، فإصدار حكم على شيء ما خارجنا يتطلب وجود أرضية فلسفية تحوي درجة من الإطلاق متجاوزة لقوانين المادة والحركة ، يمكن من خلالها تطوير معايير وموازن فلسفية وأخلاقية ، نجعل بوسعنا الحكم والتمييز .

واستمرت الأسئلة بخصوص النموذج المادي والنسبية المطلقة تهاجمني بلا هوادة . فمن منظور مادي نفهي ، هل يمكن أن نأخذ "الآخرين" في الحسبان ؟ أليست الأنانية تعبيراً عن عناصر مادية صلبة ، فلم ننكرها إذن ؟ أليس البحث عن اللذة الجسدية هو أمر مادي (ينتمي إلى البناء التحتي) ، فلم نتنكر لها أحياناً ، ونعطيها أحياناً أخرى ؟ أليس الإنسان الطبيعي ، الذي يتبع دوافعه (الاقتصادية) وغرائزه (الجنسية) ، أقرب إلى الحالة البشرية منا ، نحن الذين لا نزال نعيش داخل إطار الحضارة والمجتمع والأسرة ، ونلتزم بمقاييس غير المقاييس الطبيعية ؟ على أي أساس يمكن أن نحكم على الأشياء ؟ كيف نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ؟ وما المعروف وما المنكر ؟ هل هناك معروف وهل هناك منكر ؟ وحينما يسقط كل شيء في قبضة الضرورة ، يصبح كل شيء مباحاً .

وكت ألاحظ أن بعض الناس أشراراً دونما سبب ، الشر فيهم عميق متاصل ، لا يمكن تفسيره من خلال البيئة أو العناصر الوراثية (خضت تجربة عائلية خاصة جداً ، تبين هذا الجانب في النفس البشرية وتركت في نفسي جرحاً غائراً ، ولكنني لا يمكنني أن أتوارلها لأنها مسألة خاصة جداً ، وقد اختار الله شخصيتها الرئيسية إلى جواره ، رحمه الله) . كما كنت ألاحظ أن معظم البشر برغم ما فيهم من شرور يحوون قدراً كبيراً من الخير (ولعل هذا استعداد نفسي

لدي) بما طرح السؤال علي : كيف نفسر هذا الخير ؟ هل الإنسان الطبيعي قادر علي إتيان أفعال الخير ؟ ثم بدأت أطرح السؤال علي نفسي وبإلحاح غريب : لم أفعل الخير وأتخاشى الشر ؟ هل هذا هو أثر البيئة فيّ وحسب ؛ عملية تربية اجتماعية لا أكثر ولا أقل ؟ وإذا كان الأمر كذلك - فلم أتمسك إذن بالأخلاقيات ؟ لم لا أعلن نفسي إليها - إنسان نيتشه الكامل الذي يشكل عالمه الأخلاقي الخاص به ولا يحكم علي نفسه إلا بمعاييره هو ؟ وبدأت الأسئلة تتسع وتعمق وبدأت أتساءل : لم نتحدث عن المعنى ؟ لم نتحدث عن الاغتراب ؟ لم نتحدث عن الإنسان كقيمة مطلقة ؟ لم نتحدث عن الأخلاق ؟ بل لم نتحدث عن الجمال ؟

وقد عمق من شكوكي بخصوص النسبية والمادية قراءاتي لكتاب إرفينج بابيت Irving Babbit ورومو والرومانتيكية . وبابيت مؤلف رجعي ، ولكن كتابه كان هجوماً لا دعاً علي الرؤية الطبيعية / المادية التي سماها «رومانتيكية» . وبرغم أن المؤلف نفسه لم يكن مؤمناً بالله ، فإنه كان يرى استحالة أن يعيش الإنسان داخل نفسه (أو داخل العالم الطبيعي) دون أي حدود أو قيم . وكانت كتابات تي . إي . هلم T. E. Hulme (وهو ناقد مهم ولكنه مات شاباً في الحرب العالمية الأولى) تنحو نفس المنحنى وتهاجم ما سماه «الرؤية الرومانتيكية» التي ترى الإنسان بحسبانه كائناً لا حدود له يعيش خارج التراث والتقاليد والقيم . وبرغم إعجابي الشديد بالرؤية الرومانتيكية ، وبرغم اختلاف وجهة نظري عنهما ، فإن هذين الناقلين نبهاني إلى خطورة المادية والنسبية واستحالة أن يعيش الإنسان في عالمه المادي المتحرك دون مركز ودون قيم ودون مرجعية .

ولاحقني الأسئلة بشكل يكاد يكون مرضياً وكاد يقضي علي . كانت الأسئلة تطاردني وتنهكني ، خاصة حينما آتي بفعل فاضل ، يكلفني الكثير . إذ كان عليّ كل مرة أن أتخذ قراراً وجودياً ، ليس له أي أساس في النموذج المادي للمهيمن : أن أفعل الخير وأتخاشى الشر وأدفع الثمن . وهذا أمر مرهق حقاً أن يفكر المرء بعوثر شديد في كل موقف يواجهه ، ويوازن الأمور ويحكم عليها من منظوري نموذجين متناقضين : واحد مادي والآخر إنساني ، ثم يقرر وجودياً ، ودون سبب واضح ، أن يختار الثاني دون الأول . وقد استمر بحثي المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه من اقتناعات إيمانية .

آلام الانتقال

كانت المحاضرات التي ألقيتها على الطالبات في كلية البنات في جوهرة حواراً مع ذاتي بصوت عال ، ومحاربة للوصول إلى أجوبة عن الأسئلة التي تلاحقني . وقد قمت بتدريس الشعر الرومانتيكي والفيلسوف ، وهو يناقش نفس المشكلات الفلسفية التي واجهتها ويحاول الإجابة عن نفس الأسئلة التي طرحتها . وأذكر بالذات تدريس قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج ، وهي

قصة ملاح يتسم بسذاجة الماديين وتجردهم ونفعتهم ، يواجه العالم بهذه الرؤية البسيطة فيحاول توظيفه والتحكم الكامل فيه . فالعالم - في تصوره - تحكمه سببية مادية بسيطة فيصرع طائر القطرس الأبيض رمز الجماعة الإنسانية والمحبة ، بل رمز الإله ، ويوافق على فعلته كل رفقاته . وهنا يواجه الجميع ما يستحقونه : عالماً مادياً تعاقدياً بلا إله ، لا رحمة فيه ولا محبة ، فتصبح الحياة خراباً ويباباً وتتوقف السفينة عن الإبحار ، بل تعفن المياه نفسها . ثم يدفع المذنبون ثمن خطيئتهم فيعاقب البحارة بالموت ، أما الملاح القديم فيعاقب " بالحياة في الموت " . وبالتدرج يكشف الملاح أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لا تنفع كثيراً في عالم الإنسان ، فيتحول عالمه من مادة محضة إلى عالم تسري فيه الروح . فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحاً وبياركةً ، أي أنه بدأ يدرك القيمة المطلقة للأشياء . فتذهب اللعنة وتحل البركة ، وتعود القداسة وتذب الحياة من حوله مرة أخرى لأنه أثبت مقدرته على الحب وعلى الإحساس بالجمال . ويفقد الملاح القديم الرغبة في السيطرة والتحكم ويرحب بعالم لا يسكه بقضته ، لأنه يحوي من الأشياء غير المرئية أكثر من الأشياء المرئية (كما تقول مقدمة القصيدة) ، ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول غربة وعزلة وانفصال . ولكنه مع هذا يُصاب من آربة لأخرى بنوبة تشبه الكابوس لا يخرج منه سوى أن يقصر قصته على أحد الأفراد الذين لم يتخطوا بعد مرحلة البراءة والذين لا يستطيعون أن يصلوا إلى المعنى العميق للحياة والطبيعة . هذه القصيدة تركت في أثرها عميقاً وجعلتني أتوجه لأبحث عن غير المنظور .

وبدأت أحدث الطالبات عن الخطاب الإمبريالي : خطاب التحكم في الآخر والهيمنة عليه وتوظيف معرفتنا به لتحقيق مزيد من التحكم فيه (فالمعرفة) ، كما يقول فرانسيس بيكون ، هي القوة . وفي مقابل هذا الخطاب الإمبريالي كنت أحدثهن عن خطاب المحبين ، حيث يؤدي تزايد معرفة الآخر إلى مزيد من التعاطف والتواصل معه ، ومن ثم تراضى قبضة الإنسان وبصيصه الضعف والخور .

وكانت لفصائد وليام وردزورث هي الأخرى أعنى الأثر في نفسي ، ففي قصيدته المعنونة " لندن عام ١٨٠٢ " بهاجم الشاعر القيم النفعية التي سادت في وطنه . فالبورجوازية الشرهة التي ركزت كل اهتمامها على الإنتاج وعلى البيع والشراء أحلت الكم محل الكيف ، حتى أصبح أكثر الناس ثراءً هو أفصلهم . ويستخدم الشاعر أسطورة الطبيعة الطليقة البريئة (" يجب أن ينساب متلائين كجدول في ضوء الشمس المشرقة ") ليبين مدى خسارة نمط الحياة البورجوازية النفعي وما تؤدي إليه من تلوث مادي ومعنوي (الأمر الذي يذكرني إلى حد ما بالساحل الشمالي الذي تحول إلى غابات من الأسفلت والأسمت وبالتلوث القاتل في القاهرة) . وفي قصيدة " ما أكثر ما تستغرقنا الدنيا " يقف الشاعر أمام الطبيعة ويبين أن غالبية الناس غارقون حتى الآذان في البيع والشراء وفي تافه التفاصيل ، ولذلك فهم غير قادرين على الاستجابة الخلاقة للطبيعة

(والطبيعة بالنسبة له ليست المادة، وإنما هي المكان الذي يحقق فيه الإنسان التكامل ولا نهاجمه التفاصيل). ثم يسترجع الشاعر في مخيلته أيام الوثنية البدائية ويقول إنه يفضل أن يكون وثنيًا ، حواسه متبقة ، بدلاً من أن يقف إنساناً بليداً ؛ بلا إحساس ولا خيال ولا عاطفة ، إنسان المجتمع الصناعي البورجوازي . إن البحر بالنسبة للوثني لم يكن مجرد مسطح شاسع من المياه وإنما كان مكاناً يزخر بالآلهة وأنصاف الآلهة مثل بروتيوس ، رجل البحر العجوز في الأساطير الإغريقية ، الذي اعتاد أن يرعى قطعانه ظهراً بالقرب من الشاطئ ، ومثل ترايتون ، إله البحر ، الذي كان يُصور حاملاً صدفة يستخدمها كبوق يُطلق منه أصواتاً جميلة مخيفة تثير البحر أحياناً ، وتجعله هادئاً أحياناً أخرى .

كما كانت قصائد وردزورث الأكثر طولاً تشكل جزءاً من حوار مع نفسي . ففي قصيدة "تنترن أبي Tintern Abbey" يعود الشاعر إلى ذاته المتكاملة يعودته إلى الطبيعة (فلا يتوحد بها) وبلغه ذلك الإحساس الذي يسري في صميم الكون (دون أن يذوب فيه) . ويستعرض تاريخ حياته في مراحلها المختلفة : الطفولة حينما كان جزءاً من الطبيعة ، والشباب حينما كان يستجيب للطبيعة بحواسه دون تأمل ، وأخيراً الرجولة حين يسمح "موسيقى الإنسانية الهائلة الحزينة لا خشنة ولا صاخبة / وإن كانت قادرة على تطهير النفس وتهذيبها" . وهو نفس الموضوع الأساسي الكامن في قصيدته المعنونة "أنشودة الخلود" حيث يحتفي "بالإيمان الذي ينظر من خلال الموت ، وفي السنين التي تجلب معها النظرة الفلسفية" .

كنت أقرأ للطالبات أشعار بليك وشللي وكيتس وأحاور ذاتي من خلال هذه الأشعار . ولكن أشعار كيتس بالذات كانت من أهم آليات الحوار . ولعل انشغال كيتس بقضية الحدود والتركيبية الإنسانية استحوذ على اهتمامي إلى درجة كبيرة . ففي قصيدة "أغنية إلى الحزن" نجد أن ثمة تقبلاً عميقاً للموضع الإنساني ، فالفرح الأصل ثمرة رؤية عميقة ، ولكن الرؤية العميقة الحققة لا بد أن تحيط بكل جوانب الواقع . ولذا تبدأ القصيدة برفض الرموز التقليدية للحزن : "لا تصنع مسبحتك من ثمرات أشجار المدافن ، / ولا تدع الخنفساء ، ولا حشرة الموت تمثّل لك / سيكي [النفس البشرية] النائحة ، ولا تدع البومة المنطفشة الريش / تشاركك أحزانك" .

فمثل هذه الطريقة في الحزن سطحية "تفرق عذاب الروح الساهر اليقظ" . أين إذن يجد الحزن العميق ؟ يرى الشاعر أنه لا يمكن أن نجده إلا في الفرح العميق ذاته ، فكلاهما جزء لا يتجزأ من الواقع المركب . ومن يريد أن يُجرب الحزن فعليه أن يغذي ناظره على مظاهر الجمال ، التي متبعث في نفسه الفرح والحزن في الوقت ذاته : الفرح لوجود مظاهر الجمال والحزن لأنها زائلة لا محالة . لذا "أتخم حزنك بوردة صباح [زائلة] / أو بقوس قزح على وجه الرمال الماخة [يظهر للحظات عابرة ثم يختفي] / أو بخصوبة الثمار المستديرة [التي لا بد أن تُستهلك أو تتعفن] / أو إذا أظهرت حبيبتيك فيضاً من غضب / فلتحبس يدها الرحيصة ،

ولتدعها تهيج غاضبة/ ولتتهل عميقاً عميقاً من عينيها الفريدتين . [فمصيها هو الموت لا محالة] .

[العبارات بين الأقواس المربعة ليست جزءاً من القصيدة وإنما أضفتها لتوضيح المعنى الذي يرمي إليه الشاعر] .

إن ربة الحزن تقطن مع ربة الجمال وليس مع البوم أو في الظلمة أو بجوار أشجار السرو أو مع مظاهر الحزن التقليدية . "نعم في معبد السرور ذاته/ يوجد محراب ربة الحزن المحجبة المهيب/ ولكن لا يراه إلا من يستطيع لسانه المتقد/ أن يعتمر كرمه الفرح على مشربه الرفيع/ ستدوق روحه كآبة عظمتها/ وتصبح معلقة بين عنائهما القائمة" .

وتقبل كيتس حدود الحياة الإنسانية يصل إلى قمته في قصيدة "إلى الخريف" حيث نجد أن كل شيء مثقل بالثمار ، متزعج بالخصب ، فياض بالرحيق . لقد بلغت الوفرة ذروتها حتى إن الخريف يجلس متكاسلاً في عدم اكتشاف "فيترك صف السابل التالي بكل أزهاره المتعاقبة" فقد وجد الكفاية فيما حصد . وتتساقط قطرات العصور الأخيرة ببطء شديد حتى ليظن المرء أن الفردوس لن يزول أبداً . ثم يتذكر الشاعر الربيع بأنغامه المرحّة فيبدأ في التحديق ، ولكنه يتذكر كذلك أن الفردوس والواقع قد امتزجا ، فيسكت تساؤلاته عن الربيع ليسمع موسيقى الخريف حتى ولو كانت حزينة ، ويرضى بما يرى حتى ولو كان زائلاً .

كان شعر كيتس بشجنياً ، ولكنه كان يجعلني أسأل إن كانت حدود الإنسان بالفعل هي واقعه المادي ، فهل هذا يعني أن حدوده هي حدود هذا الواقع ، وأن فضاءه هو الفضاء الطبيعي/ المادي ، وأنه لا يمكنه تجاوزه ؟ في "أغنية إلى وعاء إغريقي" يتمزق الشاعر بين التجاوز والتقبل الذي يتحول في قصيدة "إلى الخريف" إلى نوع من أنواع الحلول ، حيث يصبح الخريف مكتفياً بذاته ومرجعية ذاته ، فهل يكفي الواقع دون تجاوز فعلاً ؟ أو أن في هذا نهاية الإنسان ؟

وتزداد الأزمة اتساعاً في الشعر الفيكشوري . فشعر ألفريد لورد تينسون Alfred Lord Tennyson يتناول وبشكل واضح نفس القضايا التي واجهتني كمشتق يبحث عن مركز في العالم . ويجب ألا ننسى أن تينسون كان يعيش في عصر داروين الذي حاول أن يربط بين الإنسان والطبيعة ، والذي حاول أن يبين أن حياة الإنسان لا تختلف كثيراً عن حياة الحيوان . ولذا يتساءل تينسون عما إذا كان الإنسان "الذي يكلمه الجلال ، وتشع من عيون الرغبة البهية/ الإنسان الذي أشد الزمائم تحت السماوات المطيرة" هل يتحول حقاً إلى مجرد مادة وكأنه "رمال في الصحراء تذروها الرياح" ؟ إن التساؤل هنا ديني/ إنساني في الوقت نفسه ، فوجود الماوراء (الغيب) مرتبط بوجود الإنسان . فهل الإنسان مجرد جسد ورغبات كمية محدودة ، أو أنه كل مركب يعلو على المادة البسيطة ؟ هل الإنسان مجرد عنصر من العناصر الطبيعية الأخرى ، أو أنه يقف في وسط هذا الكون وفي مركزه : سيد الكون وأشرف المخلوقات ؟

وعلى المستوى الأخلاقي يكون التساؤل : هل هناك مجال للقيم الأخلاقية والروحية بالمعنى العام ، أو أنه يجب على الإنسان أن يخضع لقانون العرض والطلب ؟

ونفس هذه التساؤلات تأخذ شكلاً آخر في قصائد تيسون عن الموت وعن وضع الفنان في المجتمع الحديث . ففي قصيدة "سيدة جزيرة شالوت" تعيش هذه السيدة في عزلة عن المجتمع ، في برجها وحزيرتها ، في كمالها وحركتها المتكررة التي لا نهاية لها . تركز كل طاقتها على نسجها الخلاق إلى درجة يختفي معها الزمان والمكان وتصبح وعياً ثابتاً مطلقاً منعزلاً عن كل ما يعبط بها . ولكنها ، وهي رمز الفن الخالص ، في سكونها وتكاملها هذا ، تفتحها الحياة . إذ تظهر بعثة الصورة الحارقة للمسير لانسلاوت ، رمز الحياة والسوق والرغبة والصراع ، على مرآتها الزرقاء . حينئذ تحول سيدة جزيرة شالوت ناظرها عن نسجها وتنتظر إلى "مدينة" كاملوت ، بكل ما فيها من حسنات ومساوئ وخير وشر ، فتتخبط المرأة التي تنظر فيها ويظهر النسيج وتترك البرج والجزيرة لتموت صريعة هواها للغرام ورغبتها العارمة في الحياة . أما الفارس ، فلا يعبر الأمر كبير اهتمام ، ويستمر فيما هو فيه . فالفن الخالص النبل - كما يبدو - ليس له مكان في عالم الحياة العادية ، عالم العرض والطلب .

ومن القصائد الأخرى التي كنت أحب تدريسها ، والحوار مع ذاتي من خلالها ، قصيدة ماثيو أرنولد Matthew Arnold "على شاطئ دوفر" ، وهي قصيدة المفروض فيها أنها قصيدة حب ولكنها تصبح ، في النهاية ، مراثية للإنسان في العصر الحديث . تبدأ القصيدة بوصف بارد محايد للبحر في ليلة مقمرة . ثم نعرف أن هذا البحر يذكر الشاعر بنغمة الحزن السرمدية التي استمع لها الكاتب المسرحي الإغريقي سوفوكليس Sophocles في الزمان الغابر . ويترسخ في وجداننا إحساس الشاعر بعزله ووحدته . ثم يطلق الشاعر العنان لأحزانه فيقول : "فيما مضى كان بحر الإيمان / هو الآخر مختلفاً ، محيطاً بشواطئ الأرض / مثل ثيابا حمزام مشرق مطوي / ولكنني الآن لا أسمع سوى هديره الطويل الحزين / عند انحساره وانسحابه مع أنفاس / رياح الليل إلى حواف العالم المغفرة الشاسعة / وإلى الحجارة العارية الصماء" .

لقد انتقلنا من امتلاء الإيمان إلى الفراغ الضخم على عصرنا الحديث الذي لا معنى له . وفي المقطع الأخير من القصيدة ، نجد أغرب دعوة للحب عرفها الشعر ، إذ يطلب الشاعر من حبيبته أن تكون وفيه في حبها له . وألا تدع هذا الحب يذوي ويضمحل "لأن العالم الذي يتدأ أمامنا / وكأنه أرض الأحلام / متنوع جميل جديد / ليس فيه ، في الواقع ، فرح ولا حب ولا نور / ولا يقين ولا سلام ولا يلسم يحفف من حدة الآلام" ، أي أنه يورد لها الأسباب الفلسفية (المجردة) التي تدعوها إلى حبه ، كما لو كان من المحتم علينا أن نبحث عن مبررات للحب والوفاء في عالما المسطح السخيف . ثم نطل مع المحبين من النافذة لنرى أننا نعيش في سهل مظلم ، تعصف بنا نداءات متضاربة بالإقدام والإدبار مثل جيشين جهولين ملتحمين في الظلام الحالك . إن هذا هو

عالم داروين الصراعى ، عالم مادى ، خالٍ من الروح والمعنى (مثل عالم "الملاح القديم" بعد أن قتل طائر القطرس) ولم يبق سوى أن يطلب الشاعر من حبيبته أن تحبه للأسباب عالية ! (وقد كتبت دراسات عن كل هذه القصائد نشرت كمقالات متفرقة ، وأنوي بإذن الله أن أصيف لها بعض فصائد أخرى أضفها كلها في كتاب عنوانه "دراسات في ظهور وضمور النثر الرومانتيكى الأعلى" وتتجلى من خلال كل قصيدة لحظة تاريخية محددة . وحين توضع القصائد الواحدة تلو الأخرى ، فإن هذا يؤدي إلى الإحساس بالتالى التاريخي) .

واستمرت الأسئلة المحمومة تحيط بي ، حينما درست مادة الحضارة وركزت على مفكرى القرن التاسع عشر في إنجلترا . وكانوا كلهم يواجهون نفس المشكلات التى واجهها الشعراء الرومانتيكيون والفيككتوريون : كيف يمكن أن نعيش في عالم مادى تماماً بلا مرجعية متجاوزة ؟ كانت كتابات جون ستوروات ميل John Stuart Mill الأخيرة بالذات نستهوئني ، فافتناعات فيلسوف النفعية والليبرالية أخذت تهتز بشدة في أواخر حياته ، وكان يردد : "خير لي أن أكون سقراطاً ساخطاً من أن أكون خنزيراً راضياً" . فكنت أسأل بدوري : "الخنزير يعيش في عالم الحواس والمادة ، ولذا لا نهاجمه أي شكوك أو تساؤلات ، ولا يسأل عن أي أخلاقيات أو مطلقات . ولكن ماذا عن سقراط ؟ لماذا هو ساخط ؟ ويتحدث دائماً عن المطلقات وعن المعنى ، ولماذا يفضل على الخنزير الراضى ؟ ما الأساس الفلسفى الذى نستند إليه في عملية التفضيل هذه ؟ هل ثمة ميتافيزيقا خفية يحاول ميل من خلالها أن يصل إلى أساس التفضيل" . وكانت إجابته : "سقراط يعرف طرفي القضية ، أما الخنزير فلا يعرف سوى طرف واحد" . أي أن الخنزير خنزير لأنه كذلك دون اختيار ، أما سقراط فقد شاء ألا يكون خنزيراً . حرية الإرادة هي إذن المدخل لعملية التفضيل ، هي الميتافيزيقا الخفية ، هي النقطة التي يعبر الإله الخفي عن نفسه من خلالها ، إذ يطرح السؤال نفسه : إن كانت الأمور مادية محضة ، فما مصدر حرية الإرادة هذه ؟ أوليس أقر للعين أن يكون الإنسان خنزيراً راضياً في عالم الصيرورة المادية ؟ وكانت بعض طالباتي الذكيات في كلية البنات يلاحظن أنني ، في أثناء محاضراتي ، كنت لا أتحدث لهن وإنما مع نفسي .

ومن أكثر الوقائع دلالة في حياتي في مرحلة الانتقال هذه إحدى المحاضرات التي ألقيتها عن قصيدة أندرو مارفل Andrew Marvel "إلى صديقتي المتمنعة To His Coy Mistress" (كتبت في القرن السابع عشر) ، وهي قصيدة أجمع النقاد على أنها محاولة ناجحة من جانب الشاعر في أن يخوي حبيبته بطريقة منطقية مقنعة . فيخبرها في الجزء الأول من القصيدة بأنها يحق لها أن تمنع ما شاء لها التمتع إن كانا يعيشان في الأزلية ، خارج حدود الزمان والمكان . ولكنه في الجزء الثاني من القصيدة يخبرها بأنه في واقع الأمر يسمع عربة الزمان المجنحة تسرع بجواره ، ثم يقول ساحراً إن القبر مكان ولا شك جميل ، يتمتع فيه المرء بالخصوصية ، ولكن لا يمكن

للأحبة أن يتعانقوا فيه. وفي الجزء الثالث يخبرها بأن النتيجة المنطقية لهذه المقدمات أنهما لن يمكنهما إيقاف الزمان ولا تجاوز حدوده ، ولكنهما مع هذا يمكنهما هزيمته عن طريق عناقهما [الجنسي] .

هذه هي القراءة السائدة للقصيدة ، وكنت أنوي تدريسها لطالباتي بهذه الطريقة ، ولكنني فجأة رأيت وراء الإغواء والانتصار قصة مغايرة تماماً ، ترويهما الصور التي يستخدمها الشاعر . فتوقفت في منتصف المحاضرة ، وأخبرت الطالبات بأنني لن يمكنني الاستمرار في المحاضرة وأن عليهن أن يحصرن في اليوم التالي لأستأنف شرح القصيدة. وذهبت إلى المنزل ، وبدأت أقرأ الجزء الأخير من القصيدة قراءة مغايرة تماماً. فهي لم تعد قصيدة إغواء وانتصار وإنكار لمقدرة الإنسان على التجاوز ، وإنما وجدت أن هناك عناصر من الاشتمزاز توجد على المستوى الكامن في القصيدة . ففي أهم ميوت القصيدة في الجزء الثالث يطلب الشاعر من حبيبته المتمنعة أن يلعبا معاً ، وهما لا يزال أمامهما متسع من الوقت ، ولكنه يشبه نفسه وحبيبته "بالطيور المرححة الراهة" . ثم يطلب منها أن ينتزعا لفتنهما انتزاعاً من "بوابات الزمن الحديدية" بدلاً من الذبول بين "مخالبه المشققة القوية" . وهكذا تحل لغة الحرب محل لغة الحب ، وبدلاً من خطاب المهين يظهر الخطاب الإمبريالي . ونكتشف أن الشاعر صاحب الانتصار الساحق الماحق يكتشف أنه إنسان مفترس فيملؤه الاشتمزاز من نفسه ومن عملية الافتراس التي لا علاقة لها بالحب أو الوصال . (وهو في هذا لا يختلف عن أوبنهايمر الذي "تقياً" حينما اكتشف نجاحه الساحق الماحق) .

وفي النهاية كتبت كتاب الفردوس الأرحي (الذي بدأته عام ١٩٧١ وانتهيت منه عام ١٩٧٩) الذي أودعت فيه كل تساؤلاتي . فهاجمت منطق التقدم الدائم وتسليح الإنسان . ولكن الأهم من هذا - في سياق هذه الرحلة الفكرية - أن الكتاب مليء بالإشارات ذات النكهة الدينية ، فعلى سبيل المثال حينما كتبت عن الهبيي اختصمت المقال بهذه العبارة : "حَقّاً إن المصمت هو قدس الأقداس للمننشي الذي يفقد عقله ، أما آدم فقد كان عليه أن يتعلم الأسماء كلها كي يصبح إنساناً سوياً تخر له الملائكة ساجدين" .

وبدأت الفصل الذي أقارن فيه بين المفكر الصهيوني نورمان بودورتر Norman Podhoretz والزعيم المسلم الأسود مالكوم إكس بهذه العبارة : "حينما تغمض عينيك فإنك تبصر لأن الإنسان له بصر وبصيرة ، عين حسية [مادية] ترى الأشياء وأخرى [روحية] تخترق السطح لتصل إلى البنية الكامنة وطبيعة الوجود . ولأننا لا نقنع من الأشياء بسطحها ولا نرضى بالواقع كما هو ، فإننا دائماً نحلم . ويضيق نطاق الحلم ويتسع ، ويرتفع ويهبط ولكنه في ضيقه واتساعه وارتعاعه وهبوطه يعكس ما في داخلنا ويُجسّد هويتنا" . وحديثي عن البصيرة والحلم هو في واقع الأمر حديث عن نموذجين : نموذج الطبيعة/المادة المصمت ونموذج ثنائية المادة

والروح التي تسم حياة الإنسان الإنسان .

وتناولت في الكتاب لحظة الإشراق والكشف الكبرى في حياة بودورتز ، كما يصفها هو "أنا متيقن من أن النقود شيء مهم ، وهذا اكتشاف لم يصل إليه إنسان من قبل (كما يضيف متهمكاً) "ولا شك في أنه من الأفضل أن أكون ثرياً على أن أكون فقيراً . أعرف أن القوة شيء مرغوب فيه ، فمن الأفضل أن تعطي أوامر من أن تتلقاها . أعرف أن الشهرة شيء لذيذ دون تحفظ ، فمن الأفضل أن تكون معروفاً على أن تكون مغموراً " . وهكذا يسيطر الخطاب الإمبريالي تماماً وتعالى الصلوات لربة النجاح في صوت مليء بالتقوى ومفعم بالورع ، ولعله بالنجاح والشهرة يصل إلى أبعاد لا يمكن تخليها . فبينما هو في الجيش يكتب مقالاً لجلة كوفنتاري ، وحينما يصح المقال موضوعاً حاداً للنقاش ، يثير الأمر القبطة في قلبه لا لأن المقال جيد (بأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) ، ولا لأنه مقال قد حقق عن طريقه ربحاً (تجارة بصيبتها أو امرأة ينكحها) ، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعاً للحديث ، وهذا هو المهم أن يظل هو السلعة الراحلة والشيء المطلوب . لم يعد بودورتز مرتدياً قناع البلاستيك للدعاية ، بل أصبح هو نفسه الرجل / الإعلان / البلاستيك - الإنسان السلعة ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

وختمت الفصل عن بودورتز بهذا السؤال : "هل من الممكن أن يكون النجاح مقياساً دقيقاً إلى حد ما لمقدرتنا الداخلية في عالم الحضارة الأمريكية ؟" ، وهو سؤال يطرحه بودورتز نفسه ، ولكنه سؤال خطابي إلى حد كبير ، فهو يؤمن بأن النجاح [الخارجي] هو بالفعل مقياس للمقدرات الداخلية . فأعلق على هذه الإجابة بقولي : "إذا كانت الإجابة بالإيجاب تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاءً مبرماً على الإنسان الأمريكي وحولته إلى شيء يقاس . ولكن السؤال في نهاية الأمر ، ما النجاح الذي عنه تبحث ؟ ما الآلام والآمال ؟ هجرة لله ولرسوله أم هجرة تجارية للحصول على الأشياء ومزيد من الأشياء ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يمكن أن يسأله البشر كبشر بالنسبة لقضية النجاح .

"فإن لم يسألوه كانوا كالحبوان الأعجم الذي لا روح له ، أو مثل بودورتز الذي تعبد في محراب ربة النجاح المادي والأشياء والنقود والشهرة ، أو كالجليل الأصم الذي لا يستطيع أن يحمل الرسالة التي عرضها الله عليه ويقف وسط الطبيعة مساوياً لها ، ليس فيه ما يميزه [منها]" .

في مقابل كل هذا أطرح سيرة مالكولم إكس الذاتية ، التي نتعلم منها أن "الإنسان في مقدوره أن يحقق .. البقاء [و] الاستمرار لأنه يعلم دائماً بعالم من البراءة الأولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحي حتى يعد أن يصبح أكثر السافرين مرارة . والإسلام بالنسبة لمالكولم هو حلم البراءة هذا ، فلقد زوده بإطار مثالي حرره من افتراضات وأخلاقيات مجتمعه العرقية [على عكس بودورتز الذي كان يتعبد في محراب ربة النجاح المادية الأمريكية] .

"ويمكن رؤية بناء السيرة الذاتية ككل على أنه تجسيد لتطور المالكولم من كونه إنساناً مادياً لا روح له ولا ضمير ، إلى إنسان قادر على اكتشاف ونزعات مثالية في نفسه . تبدأ السيرة بإشارة إلى أم المالكولم إكس الحامل كرمز واضح الدلالة على الخصوبة والحياة الجديدة والإمكانية الإنسانية التي تريد أن تولد . وإلى جوار الأم الحامل يقف أبو المالكولم وهو واعظ ينتمي لشكل بدائي من القومية السوداء في أمريكا ، أي أنه هو الآخر رمز لميلاد قومي جديد . [كان المالكولم يتذكر جيداً موعظة أبيه المفضلة التي حملها في قلبه طيلة حياته : "ها هو ذا القطار الأسود الصغير قادم ، ومن الأفضل لك أن تكون جاهزاً له" . كما كان يتذكر ذلك الزمجي الذي كان يسمع أغنية عن أحد الطيور المختلفة وكان يدخل سيجارة مخدرات فقفر من شرفة الطابق الثاني في محاولة يائسة للطيران والتجاوز ، فسقط وكسرت رجله ! وكما يقول المالكولم نفسه في موضع آخر إنه استطاع أن يحلق في السماء مثل الفتى إيكاروس (الذي حاول الطيران بأجنحة شمع) ولكن بأجنحة وهبها الله إياه عن طريق عقيدة الإسلام] .

"ولكننا في السطر الثاني من السيرة [نجد] إشارة إلى أعضاء جماعة الكوكلوكس كلان [ku klux klan] العنصرية الإرهابية المتطعن صهوات جيادهم ، والذين أحاطوا بمنزل المالكولم في الليل وسخروا من أبيه - [كما أن هناك إشارات محاولة أمريكا البيضاء أن تحول إلى عصفور كناري ألبي أو حتى إلى بقل جميل أو حيوان ألبي أو كلب بودل وردي أو إلى شيء طفيلي أو نسر مفترس] ؛ أي أنه منذ البداية تحاصر قوى الشر إمكانات الخير وتحاول إجهاضها والقضاء عليها . وبالبرغم من ذلك كله فإن المالكولم لم يتخل ولو للحظة عن براءته ، لأنه أدرك أنه قد صار طائراً مفترساً لا بسبب شرٍّ كامن فيه وإنما بسبب وجوده في عالم الرجل الأبيض المادي المبني على التنافس الذي يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان . ولكن بقاء المالكولم وكتابته لسيرته الذاتية يقرمان شاهدين على أن الإنسان ، برفضه بيع روحه لـ"شيطان العنصرية والمادية ، وبإيمانه بتفوق ما هو ممكن على ما هو قائم بالفعل ، يستطيع تحقيق الخلاص .

"إن تلك السيرة الذاتية هي حقاً قرينة تجسد لروح الإنسان ، القادرة على التحمل ، بل على الانتصار" .

ثم أختتم كتاب الفردوس الأرضي بهذه الكلمة الختامية المعونة "التاريخ والفردوس في القلب" :

"في المرة الأولى ، ذهبت إلى الولايات المتحدة مع زوجتي . وحينما عدنا عام ١٩٦٩ مع ابنتنا ، كانت أُمي تنتظرنني في البناء وكان معها إخوتي وأخوات زوجتي وأبناء عمومتي . أما أبي فكان غائباً لأن الله كان قد توفاه ، فزرت قبره في مذهبهم وقرأت على روحه الفاتحة ، عل الله يسكنه فسيح جناته .

"وفي المرة الثانية ، ذهبت بمفردي وعند عودتي كانت زوجتي وطفلاتنا وأخواتها ينتظرونني

في المطار ، وليلتها عدنا للمنزل وشرينا الشاي ولم أتم . وكانت هذه إحدى المرات النادرة في حياتي التي سمعت فيها صوت المؤذن عند الفجر .

وقد سألتني صديقي الناشر الأستاذ عبد الوهاب الكيالي - رحمه الله - عن معنى هذه الكلمة الختامية ، فلم أجد ساعتها جواباً لسؤاله ، ولكنني مع هذا أصرت على بقائها . وأعرف الآن أنني كنت أودع الشك ، "فالتاريخ والفردوس في القلب" غير التاريخ المادي وغير الفردوس الأرضي ، فهما متجاوزان لعالم المادة . وتصور الكلمة الختامية عالم التراحم وعالم الموت المفعم بالمعنى (في مقابل عالم التعاقد واللامعنى) . وتنتهي الكلمة بسماعي صوت المؤذن عند الفجر . أسمع صوته ولكني لا أقيم الصلاة ، فلم يكن قد حان وقتها بعد بالنسبة لي ، ولم أكن قد انتقلت بعد من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان . كنت أقف على العتبات أتأمل وأفكر بلا توقف ولا هوادة ، وكان عليّ أن أنتظر بضعة سنوات أخرى قبل أن أقيم الصلاة .

وحينما فعلت ، كنت أفعل ذلك في بداية الأمر لأعطي ابني حرية الاختيار بين الشك والإيمان (لقد قرأت أن الشاعر وليام بتلر بيتس William Butler Yeats كان ساخطاً على أبيه الملحد لأنه حرّمه من المقدرة على الإيمان وجعله بديلاً غير مطروح . ولذلك حينما بدأ يشعر بالحاجة إلى الإيمان بشيء يتجاوز عالم المادة ، وهو شعور إنساني فطري ، غرق في الغيبات مثل تحضير الأرواح ، وانتهى به الأمر إلى أن أسس عالماً أسطورياً كاملاً يشبه الدين في كثير من الوجوه) . كنا نؤدي صلاة الجمعة معاً ، ولكن في جامع أثري فندرس المسجد وقيمته المعمارية والحضارية بعد الصلاة ، ونأخذ معنا كتاباً إرشادياً (بالإنجليزية : جايده بوكس guide books) ، وكأنني كنت أريد أن أكون مصلحاً وسائحاً في الوقت ذاته . إلى أن أقمت الصلاة في أوائل الثمانينيات خالصةً لوجه الله ، وأصبح اهتمامي المعماري جزءاً من إيماني وليس مسوغاً له .

الإيمان ومقولة الإنسان

لعل العنصر الحاسم في انتقالني من عالم المادية الضيق إلى عالم أكثر رحابة ، هو تبلور النموذج الكامن في وجداني وتحوله إلى النموذج الحاكم . وكما أسلفت ، يذهب هذا النموذج إلى أن الإنسان كائن حر يصنع التاريخ ؛ جزء من الطبيعة ومستقل عنها لا يمكن أن يردّها ، كائن له منتجاته الحضارية التي تمنحه خصوصيته القومية ، والتي تحوله من كائن طبيعي إلى كائن حضاري . إنه الإنسان الإنسان (عكس الإنسان الطبيعي / المادي) . وكما أسلفت ، بذلت محاولات شتى في إبقاء هذا النموذج داخل إطار مادي . فتحدثت عن الكوني والتاريخي وتقاطعهما ليتحا حركة حلزونية حية . ولكن الحركة الحلزونية ، حركة لها عاية ، وليست دائرية (كما بينت) ، ومن هنا فمحاولة الامتداد إلى الإنسان ككيان ثابت مطلق (العنصر الكوني غير الطبيعي داخله) هي محاولتي الأخيرة ألا "أسقط" في الميتافيزيقا . ولكن ما حدث

هو العكس تماماً إذ فتح الإنسان الباب على مصراعيه للميتافيزيقا ، أي الإيمان بوجود شيء في عالم الطبيعة ولكنه لا يُردُّ بأكمله إليها . وبذا أصبح عالمنا يحتوي على المحدود (المادي) واللامحدود (الذي لا يمكننا الإحاطة به حتى ونحن ندرك تبادياته) .

إن الإنسان داخل الطبيعة أصبح هو علامة الثبات في عالم المادة المتحرك ، وعلامة الانقطاع في عالم المادة المتصل ، أي أن الإنسان متجاوز لقوانين الطبيعة المادية . ثمة مسافة تفصل بينه وبين الطبيعة وثمة ثنائية أساسية هنا تحتاج لتفسير ، ثنائية المادة وما هو ليس بمادة ، الطبيعة وما هو ليس بطبيعة ، ثنائية غير الإنساني والإنساني . ولتفسير هذه الثنائية كان لابد من افتراض ثنائية أخرى ، ثنائية عالم الصيرورة ونقطة ما تقع خارجه : نقطة ثابتة منزوعة متجاوزة ، هي نفسها ضمان ثبات الإنسان وانفصاله عن الطبيعة ، هذه النقطة هي الإله . فكانه لا يمكن تفسير ظاهرة الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق عز وجل ، المفاوق للطبيعة / المادة . لهذا أرى أنه حينما أعلن نيتشه موت الإله فإنه كان يعلن ، في واقع الأمر ، موت الإنسان ، وأنه إذا مات الإله ، على حد قوله ، فإن الإنسان يعيش في عالم مادي طبيعي شيء مصمت ، ويعتول هو نفسه إلى كائن طبيعي مادي يقف شيئاً بين الأشياء ، أي أنه هو الآخر يموت (وهذا ما عبّر عنه الآبه الكريمة بقولها : (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (الحشر ١٩) .

وبكذا ، بدلاً من الوصول إلى الإنسان من خلال الله ، وصلت إلى الله من خلال الإنسان ، ولا يزال هذا هو أساس إيماني الديني ، وهو ما أسميه (الإنسانية الإسلامية) التي تنطلق من رفض الواحدية المادية وتصر على ثنائية الإنسان والطبيعة / المادة ، وتبعد منها إلى ثنائية الخالق والمخلوق وكل الثنائيات الأخرى مثل ثنائية الأرض والسماء - الجسد والروح - الحلال والحرام - المقدس والمقدس . ولم يحدث التحول الكامل من الرؤية المادية الواحدية إلى الرؤية المادية / الروحية والثنائية إلا في أوائل الثمانينيات ، أي أن عملية مقاومة الإيمان من جانبي دامت ما يزيد على ربع قرن . وبالتدريج تحول الإيمان إلى رؤية شاملة للكون ، وإطار للإجابة عن كل التساؤلات .

وقد وصفت الإنسان في الموسوعة بالكلمات التالية : "إن إنسانية الإنسان تعبر عن نفسها [من خلال مظاهر عديدة من بينها النشاط الحضاري للإنسان (الاجتماع الإنساني - الحس الخلقي - الحس الجمالي - الحس الديني) .

"فالإنسان كائن صاحب إرادة حرة برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التي تحدّه . وهو كائن واع بذاته وبالكون ، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية / المادية وعالم الطبيعة / المادة . وهو عاقل قادر على استخدام عقله ، ولذا فهو قادر على إعادة صياغة نفسه وبيئته حسب رؤيته . والحربة قائمة في نسج الوجود البشري ذاته ، فالإنسان له تاريخ يروي تجاوزه لذاته (وتعبيره وفشله في محاولات) ، وهو تعبير عن إثباته لحريته وفعله في الزمان والمكان . والإنسان كائن قادر على

تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي / المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وعرائزه ، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضاً على خرقها ، وهو الكائن الوحيد الذي طور سقفاً من المعاني الداخلية والرموز التي يدرك من خلالها الواقع . وهو النوع الذي له ذاكرة قوية ونظام رمزي أصبح جزءاً أساسياً من كيانه حتى إنه يمكن القول بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يستجيب مباشرة للمثيرات وإنما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يسقطه عليها من رموز وذكريات .

"والإنسان هو النوع الوحيد الذي يتميز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها . فالأفراد ليسوا نسخاً متطابقة يمكن صيها في قالب جاهزة وإحصاءها جميعاً لنفس القوالب التفسيرية ، فكل فرد وجود غير مكتمل ، مشروع يتحقق في المستقبل واستمرار للماضي ، ولذا فإن زمن الإنسان هو زمن العقل والإبداع والتغيير والمأساة والمهابة والسرور ، وهو المجال الذي يرتكب فيه الإنسان الخطيئة والذنوب ، وهو أيضاً المجال الذي يمكن فيه التوبة والعودة ، وهو المجال الذي يُعبر فيه عن نبله وخساسته وطره وبهيمته . فالزمان الإنساني ليس مثل الزمان الحيواني أو الطبيعي / المادي الخاضع لدورات الطبيعة الربية ، زمان التكرار والدوائر التي لا تنتهي و"العود الأبدى" . ولكل هذا ، فإن ممارسات الإنسان ليست انعكاساً بسيطاً أو مركباً لقوانين الطبيعة / المادة ، فهو مختلف كينافاً وجوهرافاً عنها ، فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله إلى بُعد واحد من أبعاده أو إلى وظيفة واحدة من وظائفه البيولوجية أو حتى إلى كل هذه الوظائف .

"ومن المظاهر الأخرى لهذا الجانب أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عما يُسمى «العلل الأولى» (من أين جئنا؟ وأين سننتهي بنا المطاف وما الهدف من وجودنا؟) . وهو لا يكتفي أبداً بما هو كائن وبما هو مُعطى ولا يرضى بسطح الأشياء ، فهو دائب النظر والتدبر والبحث ، يفرس وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكامنة وراءها والتي ينسبها إليها ، وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون . وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري (الفزعة الربانية) ، ولذا سُمي الإنسان «الحيوان الميتافيزيقي» .

"ولا توجد أعضاء تشريعية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادي لهذا الجانب الروحي أو الرباني في وجود الإنسان وسلوكه . ولهذا ، فهو يشكل ثغرة معرفية كبرى في النسق الطبيعي / المادي . وهو ليس جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها ، يوجد فيها ويعيش عليها ويتصل بها وينفصل عنها . قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات ، ولكنه لا يُرد في كليتها إليها بأي حال ، فهو دائماً قادر على تجاوزها ، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات . وهو ، لهذا كله ، لا يمكن رصد من خلال النماذج المُستعمدة من العلوم الطبيعية" .

وهكذا أصبح الإنسان في منظومتي كائنات يعيش في عالم الطبيعة / المادة ولكنه يحوي داخله عناصر غير طبيعية ، أي متجاوزة للطبيعة يتسم بثنائية الروح والمادة ، ومن ثم فإنه تننازع نزعتان : نزعة للعودة إلى الطبيعة / المادية (أسميها النزعة الجينية) وأخرى للإحساس بالاستقلال عنها وتجاوزها (أسميها النزعة الريانية ، وهي مصطلحات سأوضحها فيما بعد) .

وإذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تجاوز ذاته الطبيعية ، فهو أيضاً الكائن الوحيد القادر على الارتداد عنها . ولذا نجد أن الخير والشر ظاهرتان إنسانيتان لا علاقة لهما بعالم الحيوان . (ومع هذا يمكن أن أذكر مثلاً لبعض القردة التي ارتدت عن "قرديتها" . ففي الجبال في ألبا ، في المملكة العربية السعودية ، كانت مجموعة من القردة تعيش على هيئة جماعة متماسكة ، فبقاء الفرد / الفرد داخل الجماعة أمر أساسي لبقائه . وكانت هذه المجموعة تعيش بجوار متنزه عام ، ومع توافر بواقي الطعام التي يتركها المتنزهون البشر بدأت القردة تحصل على طعامها بسهولة ويسر ، فأنحل البناء الاجتماعي ، وانقسم مجتمع القردة إلى أسر نووية [أي أنه تم تحديدها] تعيش مستقلة الواحدة عن الأخرى ، وبدأت تصاب بالأنانية والبذانة والكسل !) .

وقد ولدت من مفهوم « الطبيعة البشرية » مفهوم « الإنسانية المشتركة » ، التي أضعها في مقابل مفهوم « الإنسانية الواحدة » . والذي يفترض أن الناس كيان واحد وإنسانية واحدة خاضعة لبرنامج بيولوجي ووراثي واحد عام ، على عكس الإنسانية المشتركة ، التي تؤمن بأن ثمة إمكانية وطاقة إنسانية كاملة لا يمكن رصدتها أو ردها إلى قوانين مادية . هذه الطاقة لا يمكنها أن تتحقق في فرد بعينه أو شعب بعينه أو في جنس بعينه وإنما تتحقق بدرجات متفاوتة حسب اختلاف الزمان والمكان والظروف ومن خلال جهد إنساني (وربما لا تتحقق على الإطلاق ، فالإنسان - كما أسلفنا - يكاد يكون هو الكائن الوحيد القادر على الانحراف عن طبيعته بسبب حريته) ، ولذا فإن ما يتحقق لن يكون أشكالاً حضارية عامة ، وإنما أشكال حضارية متنوعة بتنوع الظروف والجهد الإنساني فتحقق جزء يعني عدم تحقق الأجزاء الأخرى التي تحققت من خلال شعوب أخرى ونحت ظروف وملابسات مختلفة ومن خلال درجات من الجهد الإنساني الذي يزيد وينقص من شعب لآخر ومن جماعة لأخرى) . وما يزيد التنوع أن الإنسان قادر على إعادة صياغة ذاته وميئته حسب وعيه الحر وحسب ما يتوصل إليه من معرفة من خلال تجاربه . هذه الأشكال الحضارية تفصل الإنسان عن الطبيعة / المادة وتؤكد إنسانيتنا المشتركة (فهي تعبير عن الإمكانية الإنسانية) دون أن تلتقي الخصوصيات الحضارية المختلفة .

ولا شك في أن الانتقال المتواصل من بلد إلى بلد جعل من العسير على الاختزال والسقوط في التعميم السهل ، ولكن الأهم من هذا أن هذه التجربة ساعدتني على الوصول إلى سمات إنسانية مشتركة ، جوهر إنساني ما ، ف وراء التحولات التاريخية والاجتماعية ، يوجد دائماً الإنسان الذي يحب ويكره .

هذه هي رحلة الانتقال والعودة ، رحلة طويلة وشاقة ، نتيجة تأمل طويل في الذات الإنسانية وفي الكون ، واقتناع بفشل النموذج المادي في تفسير ظاهرة الإنسان ، وإدراك لأهمية البعد الديني في حياة الإنسان . وقد ساعدتني دراستي للأدب الرومانتيكي والمراجعات الغربية لكثير من المقولات السائدة وكتابات ماكس فيبر (خاصة عن الدين) على إنجاز الرحلة . ولعلها من المفارقات التي قد تثير الدهشة أن رحلة الانتقال والعودة أمر قد بدأ هناك وليس هنا . ولكن كان هناك بعض المفكرين الإسلاميين مثل مالك بن نبي وسيد حسين نصر وفضل عبد الرحمن الذين قرأت كتاباتهم وساعدتني على فهم الإسلام بطريقة جديدة تجيب عن كثير من تساؤلاتي . وإلى جانب كل هذا ، كان هناك في نهاية الأمر المخزون الضخم داخلي من التراث الديني الإسلامي وتجربتي مع المجتمع التقليدي في دمنهور في طفولتي وصباي . ففي سن الثالثة عشر ، كنت قد قرأت القرآن عدة مرات وعرفت الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وكنت كذلك قد قرأت كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ، ولذا كنت أعرف الفروق الدقيقة بين المذاهب الأربعة في كثير من الأمور . وكنت أعرف كذلك الكثير من قصص السيرة والخلفاء والصحابة ، كما كان لي معرفة بتاريخ المسلمين . وقد تراسلت بعض الوقت مع الأستاذ سعيد رمضان [رحمه الله] الذي كان كريماً معي فكان يرد علي رسائلني . وقد عدت لقراءة القرآن مرة أخرى ، والكتب التي تتناول التراث الإسلامي ، بما في ذلك الفلسفة الإسلامية ، وللتأمل في التراجم والأسرة الممتدة ، أي أنني عدت إلى ما أعرف .

ومن الأمور التي تستحق الذكر أن الدكتور أنور عبد الملك (الذي قطن في عمارتي بعض الوقت) كان كثيراً ما يتحدث عن الإسلام الحضاري ، ويؤكد أنه لا يمكن فهم البعد الحضاري للإسلام إلا بالذهاب إلى جنوب شرقي آسيا ، بحيث يرى المرء بنفسه الفرق بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية . وكان لهذا الأثر فيّ ، وفتح عيني على الجوانب الحضارية في الإسلام وهي أمور كنت أحس بها دون أن أدركها بشكل واضح .

وهذا لا يختلف كثيراً عن دراستي لأدب وفنون المصور الوسطى وبخاصة تشوسر في حكايات كانتربري ، فقد عمّق من إحساسي الديني (برغم أنه أدب مسيحي) وإحساسي بعركية الوضع الإنساني ، ولا أنسى تعليق الأستاذ كيلوج على الشر في إحدى شخصيات تشوسر حين اقتبس كلمات القديس أوغسطين St. Augustine : "وأنت لن تحب الرذيلة بسبب الرجل ، ولن تكره الرجل بسبب الرذيلة ، بل فلتحب الرجل ولتكره الرذيلة" . وهي لا تختلف كثيراً عن قول علي بن أبي طالب : "لا يعرف الحق بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق" . كما أنني أعجب كثيراً بالموسيقى الكنسية ومعمار الكاتدرائيات الكاثوليكية ، وأحرص على زيارتها والتأمل فيها بحسبانها تعبيراً متميزاً عن تجربة دينية عميقة .

وقد تعرفت إلى المحامد يوسف بيخير Youssef Becher في أثناء إقامتي في الولايات

المتحدة ، وهو حاحام أرثوذكسي أمريكي من أصل شرق أوروبي ، كان معادياً تماماً للصهيونية من منظور ديني يهودي ، وكان يُكرس جل وقته للحرب ضد الصهيونية بحُسابه يهودياً مؤمناً وبحُسابها حركة كفر وهرطقة . وكان لا يكف عن الحركة والتضحية من أجل قضيته . رثبت له مرة لقاء مع أحد المسؤولين العرب لمناقشة أمر مهم للغاية ، وتصادف أن وقع الاجتماع في أحد الأعياد اليهودية التي كان عليه أن يرتدي فيها زيّاً أقل ما يوصف به أنه كان غريباً . ولكن نظراً لأهمية الاجتماع ، ونظراً لأنه لا يساوم في شئون دينه ، ارتدى الحاخام بيخر زيه هذا وسار في طرقات مانهاتن ، قمة الحدائق ، وحضر الاجتماع وعاد إلى منزله . أهديته كتابي أرض الوعد "إلى يوسف بيخر ، محب صهيون" . وأميز في الكتاب بين الحب الديني للصهيون ، وهي رغبة روحية تعبّر عن نفسها في الرغبة في تجاوز العالم المادي من جهة (وأنا كمسلم ليس عندي أي مشكلة مع مثل هذا التطوع الديني) ، والشهوة الاستيطانية ، أي الرغبة الصهيونية في الاستيلاء المادي على فلسطين من جهة أخرى ، التي مازلت أقف ضدها بكل ما أوتيت من قوة ، انطلاقاً من أنها قمة رذضي للظلم والتفاوت بين البشر .

أذكر كل هذه التفاصيل لأبين تنوع مصادر تجريبي الدينية . فبرغم أنني تبنت الإسلام في نهاية الأمر ، رؤية للحياة وأيديولوجية ومرشداً للسلوك ، فإن المسار الذي قادني إليه كان متنوعاً ومركباً ومختلفاً عن المسار العادي . ولا شك في أن هذا قد ترك أثره على رؤيتي الدينية وعلى سلوكي تجاه الآخرين من هم ليسوا من أبناء ملتي واعتقادي .

وأنا أذهب إلى أن الرقعة المشتركة بين الأديان ، في المجال الأخلاقي ، واسعة . ولذا أرى أنه يجب التوصل إلى عقد اجتماعي يستند إلى هذه الرقعة المشتركة ، على أن نناقش الخلافات العقائدية (وهي خلافات حقيقية عادة لا يفهمها البشر العاديون برغم معاركهم الدائمة بشأنها) في أقسام العقائد ومدارس اللاهوت . والنقاش هناك سيكون نقاشاً علمياً هادئاً ، ولن يتحول إلى مذابح لا عقلانية ، لا تفيد أحداً سوى أعداء الله والإنسان والأخلاق . (وما يستحق الذكر أن هذه هي الطريقة المصرية في التعامل مع الدين ، فعنتي عهد قريب كانت تسود المجتمع معايير أخلاقية عامة بخصوص العيب والمباح ، والحشمة والتبرج ، و"الأصول" وما هو خارج عنها ، معايير يتقبلها الجميع ، ويسلك في إطارها ، دون أن يتحدث أحد قط في العقائد) .

وقد بقيت مدة من الوقت مؤمناً بالله وبالإسلام ، ولكن إيماني بالإسلام لم يكن له أي أساس فكري وفلسفي واضح في ذهني (وأنا لا أقبل شيئاً إلا إذا كان له أساس فلسفي) . وقد حيرني هذا السؤال بعض الوقت : لم الإسلام وليس أي دين آخر ؟ وحيث إنني أحب أن أكون نزيهاً - قدر طاقتي - في الأمور الفكرية ، فقد كنت أذكر لأصدقائي أنه لا يوجد سبب واضح ، إلى أن تبلورت قضية الحلولية في ذهني ، وضرورة وجود مسافة بين الخالق والمخلوق ، وقد وجدت أن الإسلام هو أكثر العقائد ابتعاداً عن الحلولية وعن توحيد الخالق بمخلوقاته (وحدة الوجود) ،

أي أن التوحيد في إطار الإسلام - في تصوري - هو أكثر أشكال التوحيد رقيًا وتساميًا .
هذا لا يعني رفضًا للآخر ، إذ يظل مفهوم التدافع مفهومًا أساسيًا ، وهو مفهوم إسلامي
يعني الاختلاف بل والصراع ، ولكنهما اختلاف وصراع رقيقان ، مثل تدافع السيل ، حين تلاطم
بعض مياهه بعضًا ، ولكن هذا التلاطم لا يوقف التدفق ، بل هو جزء منه .

يضاف إلى هذا ما أسماه « النسبية الإسلامية » وهي الإيمان بأن الله هو وحده الثابت الذي لا
يتحول وما عدا ذلك فمتغير ، وهو وحده الذي يحيط بكل شيء (وما أوليتم من العلم إلا قليلًا
(الإسراء : ٨٥) (ولوق كل ذي علم عليم) (يوسف : ٧٦) - أما نحن البشر فلا نعرف
إلا جزءاً من الحقيقة . ويحضرني في هذا ذلك النحوي الذي قضى حياته بحثاً عن معاني كلمة
واحدة ، وحينما جاءه الزائر الأخير قال قوله الأخيرة : "أموت وفي نفسي شيء من حتى" .
والنسبية الإسلامية التي أدعو إليها لا تؤدي إلى العدمية ، فهي نسبة داخل إطار ولا تمهد إلى
المرجعية النهائية ولا تؤدي إلى تعددية مفرطة في المعاني والمراكز ، بحيث يصبح العالم بلا معنى
وبلا مركز .

ومفهوم الله الرحيم العادل من المفاهيم المركزية في تصوري ، وهو ليس إله العرب أو
المسلمين أو قوم أو عرق دون الأقوام والأعراق الأخرى ، بل هو رب العالمين أجمعين ، يشملهم
جميعاً بعدله ورحمته . ولعل كل هذه العناصر توسع من آفاق إيماني ديني ، وتجعل للآخر مكاناً
في عالمي برغم إيماني بالإسلام أو ربما بسببه . إذ إن الإسلام من أكثر العقائد تسامحاً وقبولاً
للاخر ، برغم أنه يحدد الحدود ويضع القواصل .

ويمكنني القول : إن إيماني أساساً إيمان عقلاني (بل يمكن أن يوصف بأنه جاف) ، فانا لا
أشعر بأي شيء يشبه شعور المتصوفين وما يسمى بالروحانيات ، ولا أنفعل دينياً إلا نادراً . ومن
تلك اللحظات النادرة التي انفعلت فيها ، زيارتي للكعبة لأول مرة . كنت أسمع عن بعض
المسلمين ممن يشغلهم الوجد ويقعون في غرام الكعبة ، ولا يشفيهم من وجدهم هذا فإن يقوموا
بزيارتها مرة أخرى . وأعترف بأنني مارست شيئاً من هذا القبول بعد زيارتي للكعبة . ومع هذا
تظل تجربتي الدينية عقلانية في جوهرها .

الجزء الثاني
عالم الفكر

الفصل الأول : النماذج الإدراكية والتحليلية

من الموضوعية المتلقية إلى الموضوعية الاجتهادية

لم تكن عملية الانتقال من المادية إلى الإنسانية والإيمان مسألة هينة أو يسيرة ، ولم يصدق كثير من أصدقائي ما حدث في بادئ الأمر ، وقاطعتني بعضهم ، وضمرت علاقتي بالبعض الآخر . ولأن كتاباتي عقلانية (برغم أن مرجعيتها النهائية إيمانية : الإيمان بالله والإنسان بحسبانه كائناً غير مادي يكتسب تركيبته من كونه كائناً ربانياً لا طبيعياً) ، فقد ظل البعض يصنفني فيعدني مادياً لأنهم ربطوا العقلانية بالمادية ، وهي عملية ربط لا أساس لها في الواقع . فرر بسببهم كان مادياً خالصاً ، أعلن عبادة العقل ، ولكنه في الوقت ذاته فرض حكم الإرهاب على الشعب الفرنسي فترة من الزمن ، لم تنته إلا بإرساله هو نفسه إلى المفصلة (تماماً مثل دانتون من قبله ، الذي أصيب بالاشمئزاز من هذه العقلانية المادية الإرهابية ، فقال وهو أمام المفصلة : إنني أفضل أن تقطع المفصلة رأسي على أن أقطع رعوس الآخرين . أنا أشعر بالغيثان من الجنس البشري) . وكان هتلر مادياً ، مغالياً في ماديته ، وكان في الوقت ذاته لاعقلاً مغالياً في لاعقلانيته ، وكذا كان متالين . وهل يمكن الادعاء بأن الإمبريالية الغربية ، هذه الحركة المعادية للإنسان وللعقل ، والتي أحرقت الأخضر واليابس ، وأبادت الملايين ، استناداً إلى ادعاء تفوق الإنسان الأبيض ، هل يمكن الادعاء بأن هذه الحركة المادية عقلانية ؟

وقد صاحب تغير الرؤية الذهنية تغير في فلسفة المنهج وأدواته . فمن المستحيل أن يتم الواحد دون الآخر . وحينما نفصت المادية عن فكري أصبح من الصعب عليّ تقبل تصور أن العقل الإنساني صفحة بيضاء تسجل الواقع في سلبية وبشكل مباشر ، وكان الإنسان مجرد شيء مادي بين الأشياء . وظهرت في حياتي ثلاثة موضوعات أساسية مترابطة متزامنة حتى أكاد أن أقول إنها ثلاثة أوجه لعملة واحدة (إن صح التعبير) تعبر عن تحولي من النموذج المادي إلى النموذج الذي يفصل بين الإنسان والطبيعة / المادة . هذه الموضوعات هي : الانتقال من الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية والتوثيقية) والمعلوماتية إلى الموضوعية الاجتهادية ، ورفض العقل السلبي

وتبني رؤية توليدية للعقل، وأخيراً رفض الرصد المباشر وتبني النموذج منهجاً في التحليل .
وبرغم ترابط العناصر الثلاثة فإنني - ككاشفك منهجي - سأتناولها واحداً تلو الآخر . ولأبدأ
بالموضوع الأول ، أي الانتقال من الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية) والمعلوماتية إلى الموضوعية
الاجتهادية

والموضوعية الفوتوغرافية هي نموذج تحليلي يذهب إلى أن المعرفة عملية تراكمية تتكون من
التقاط أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادي) كما هو تقريباً ، بصورة فوتوغرافية (أو شبه
فوتوغرافية) وإدراجها في البحث أو الدراسة (دون ربط بين المعلومات ودون محاولة تجريد أنماط
منها) . وقد عُرف الموضوعي بأنه " ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين " . والموضوعية
تستند إلى أن ثمة علاقات قائمة بين أجزاء الأشياء المدركة ، وأن الناس جميعاً بوسعهم أن يدركوا
هذه العلاقات بنفس الطريقة لو تهيأ لهم الموقف الصحيح لإدراكها . ولا يهمني أي التعاريف
يتبناها المرء ، وإنما المهم هو النموذج الإدراكي الكامن وراءه . وفي حالة الموضوعية نجد أن
النموذج الإدراكي يساوي بين العقول كلها ، ولذا إن تهيأت الظروف كان الإدراك واحداً ، أي
" إدراكاً موضوعياً " . ومثل هذا التعريف يلغي فعالية العقل وإبداعه ، ويلغي الذاكرة التاريخية
وأعباء المدرك الأخلاقية وتحيزاته وأوهامه وآماله وأحلامه والتي تؤثر في عملية الإدراك .
فالعقل - حسب هذا النموذج - شيء سلبي بسيط مثل الكاميرا يحاول أن يحيط بالواقع كله
وأن ينقل تفاصيل الواقع كلها وبهذا أثيرها ، فهو غير قادر على الحذف والاختيار والتضخيم
والتهميش والتحريف والتشويه ، مرجعته النهائية هي الواقع المادي كما هو . وهذا التصور
للعقل والواقع بهمل علاقة الجزء بالكل والواقعة بالنمط والظاهر بالباطن ، فالكل والنمط
والباطن لا توجد في الواقع وإنما هي أطر يجردها العقل الفعال . (وكما أخبرني أحد كبار
الأساتذة من المتخصصين في المنهج ، في حفل عشاء ، بعد أن وضع كفه على رأسه : " إن المعرفة
هي محاولة نقل الواقع نقلاً فوتوغرافياً ، وكلما كانت الصورة أدق كانت أكثر موضوعية . فهي
تعكس الواقع بدقة " . وبينما كان يتحدث وجدت رأسه يتحول فجأة أمامي إلى مربع في وسطه
عدسة يتحرك في جميع الاتجاهات . فضحكت . وحينما سألتني لم تضحك ؟ قلت له : " تذكرت
أنني لا أمتلك آلة فوتوغرافية ، مما يؤثر على موضوعيتي " . فنظر إليّ في دهشة ولم تسجل آله
الفوتوغرافية معنى كلامي !) .

والمعلوماتية ، المرتبطة تمام الارتباط بهذه الرؤية ، تذهب إلى أن المعلومة مهمة في حد
ذاتها ، لا بسبب علاقتها بالموضوع الكلي أو بنمط متكرر . ولذا يصبح التأليف هو أن يحشد
المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها وعدم وجود بؤرة مركزية لها .
والافتراض الكامن أنه كلما زادت المعلومات زادت درجة الاقتراب من الواقع (كما هو) ، إلى أن
يحشد الباحث كل المعلومات أو المراجع (أو معظمها) ، ويعطينا صورة طبق الأصل من الواقع .

وهو تصور يتضمن صورة للعقل بحسبانه كياناً سلبياً .

إن هذا الموقف الموضوعي المتلقي للمعلوماتي ليس "موضوعياً" وإنما "موضوعائياً"، بمعنى أن الدارس يكتفي برصد التفاصيل والموضوعات وتسجيلها دون أن يربط بينها ودون أن يبين ما هو المركزي منها وما هو الهامشي ، وما هو المعبر عن النمط الكلي وما هو مجرد واقعة غير مثلة ، وما يستحق الإبقاء منها وما يستحق الاستبعاد . ولذا أيضاً أتحدث عن الفرق بين "الفكر" و"الأفكار" . فالفكر هو أن يقوم المرء بالربط بين الأفكار المختلفة ثم يقوم بإعادة تركيبها داخل منظومة محددة تتسم بقدر من التجريد والاتساق الداخلي . أما الأفكار، فهي أن يرصد الإنسان الفكرة تلو الأخرى ويسجلها دون أن يحاول أن يرى الوحدة الكلية الكامنة وراء التعدد كما أتحدث عن الفرق بين "الواقعية" و"الوقائعية" ، فالواقعية هي أن تصل إلى جوهر الواقع (الماضي والحاضر والمستقبل) ، وانطلاقاً من هذا يمكن الربط بين الوقائع المختلفة وترتيبها وتجريد معنى عام منها يتجاوز كل معلومة على حدة . أما الوقائعية ، فهي مرتبطة بالحاضر وحسب ، وهي عملية رصد مباشرة للأمر القائم ، تهمل ما هو كامن . ولذا نجد أن الوقائعية ، في عالما العربي ، التي تقدم نفسها بحسبانها واقعية تؤدي إلى نفي التاريخ وإلى الهم والغم والهزيمة . ودعاة التطبيع والعمولة يدعون دائماً أنهم من "الواقعيين" ، وهم في حقيقة الأمر وقائعون ، أما الواقعيون الحقيقيون ، فهم المجاهدون في جنوبي لبنان الذين تجاوزوا الظاهر ووصلوا إلى الباطن (الإمكانية الكامنة) وتحركوا في إطارها ووقعت الواقعة إذ أوقعوا الهزيمة بالعدو وأصبح النصر أمراً واقعاً !

ولعل التمييز بين الموضوعية والموضوعائية ، والواقعية والوقائعية ، والفكر والأفكار ، يعود إلى هذا التمييز ، الذي أدعو له دائماً ، بين الحقائق والحقيقة . فالحقائق هي معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط ، أما الحقيقة فهي نتاج جهد إنساني عقلي ، حين يقوم العقل بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها . وعملية الربط والتجريد تقفان على طرف النقيض من عمليتي الحشد والتراكم . (وبطبيعة الحال ، إذا كان ثمة فارق بين الحقيقة والحقائق ، فهناك فارق بينهما من جهة والحق من جهة أخرى ، فالحق يسبق عمليات الفهم والإدراك والتحليل والتجريد والفك والتركيب) .

ومن أطراف النكت عن الموضوعية التلقية ، التي تلغي العقل تماماً ، تلك النكتة التي أخبرني بها د. أسامة الباز حينما كنا ندرس معاً في الولايات المتحدة : سار شحاذ في المدينة يعلن أنه سيتزوج ابنة السلطان ، فلم يعرفه أحد أي التفات ، ولكنه حينما غادى في ادعائه عدة أيام أمسكه أحدهم من قفاه ، وقال : "لم تخرج هذه الأكاذيب ، أيها الشحاذ؟" . فقال : "في واقع الأمر ، المسألة شبه منتهية ، فأنا موافق على هذا الزواج ، كما وافق كل من أبي وأمي عليه ، ولم يبق سوى موافقة ابنة السلطان وأبيها وأمها" . كنت أسأل طالباتي ، لم نضحك لهذه القصة مع أن

الشحاذ صادق فيما يقول ١٩ ومن خلال الحوار نصل إلى أن الشحاذ بالفعل ، من ناحية موضوعية متلقية ، لم يكذب ، فهو وأبواه يمثلون ٥٠٪ من العناصر الموضوعية المكونة للمظاهرة ، ولكن الأمر يختلف تماماً إن أخذنا في الحسبان مدى القيمة وفاعلية كل عنصر (وهو أمر يحتاج لإعمال العقل والخيال) ، إذ إننا حينئذٍ نستنتج أن قرار الشحاذ وأبويه بالزواج من ابنة السلطان لا قيمة له .

وفي الندوة الشهرية التي أعقدها في منزلي ، ضرب تلميذي وصديقي ياسر علوي مثلاً آخر . إذ قال : إن مخبرين دخلا غرفة حدث فيها جريمة ، فألقيا نظرة عليها . وبعد قليل دون أحدهما المعلومات التالية : جثة القتيل - مسدس استخدم لتوه - محفظة فارغة - زر أخضر . فقام المخبر الأول بحصر هذه المعلومات ، واستخلص منها أن هناك جريمة قتل استخدم فيها مسدس بهدف السرقة ، وأن القاتل كان يرتدي قميصاً أخضر . أما المخبر الثاني ، فقد استمر في عملية الرصد الموضوعي ، وأخذ يدون : كرميان - قطر المائدة - لوحة - لون السقف - لون السيراميك - ارتفاع الحائط ... إلخ . والحقائق التي أوردها المخبر الثاني هي حقائق صلبة لا مراء في هذا (لا تقل في صلابتها عن المعلومات الدالة التي دونها المخبر الأول) ، ولكنه لم يستخدم عقله في عملية الربط والتجريد التي تؤدي إلى اختيار بعض العناصر واستبعاد البعض الآخر ، ومن ثم ناه في خضم المعلومات الدقيقة الكثيرة غير المترابطة التي ليس لها أي قيمة تفسيرية ! والأمثلة تبين أن تزايد المعلومات لا يؤدي بالضرورة إلى زيادة المعرفة والحكمة !

وكنت أذكر للمطالبات كذلك قصة من قصص جحا الفكاهية التي تلقي الضوء على الموضوعية المطلقة . ذهب جحا إلى إحدى القرى ، وادعى أنه متفقه في الدين ، فأكرم القرويون وفادته . فقام في المسجد يصعد ويلتهم ما يأتيه من طعام . وبعد بضعة أيام أراد أهل القرية أن يستفيدوا من علمه الوافر . وبعد إلحاحهم ، قام جحا في وسط المسجد ليعظهم وتساءل : "هل أتاكم حديث الجنة وأهلها ؟" قالوا : "لا" . فظهرت علامات الغضب على وجهه ، وقال : "كيف تعرفون من هو في علمي أن يتحدث مع من هم في جهلكم ؟" . وقعد ليعاود العبادة والتهام الطعام . حزن أهل القرية ، وقرروا أن يغيروا من إجابتهم . وذهبوا إلى جحا مرة أخرى طالبين منه العلم والمرعظة . وبعد إلحاحهم قام مرة أخرى وتساءل : "هل أتاكم حديث الجنة وأهلها ؟" قالوا : "نعم" . فارتسمت على وجهه ملامح السرور والقبطة ، وقال : "الحمد لله ، الحمد لله ، أنتم أهل علم وتقوى ، فلتهنتوا بعلمكم وتقواكم ، ومعرفتكم بحديث أهل الجنة وأهلها !" . وقعد ليعاود العبادة والتهام الطعام . حار القرويون في أمره ، وقرروا أن يتبعوا خطة جديدة وذهبوا إليه وأخبروا عليه أن يعظهم . فقام جحا ، وقال : "هل أتاكم حديث الجنة وأهلها ؟" فقال نصف أهل القرية : "نعم" . أما النصف الثاني فقال : "لا" . فما كان من جحا إلا أن قال : "هؤلاء الذين يعرفون يخبرون الذين لا يعرفون" . وجلس وعاد إلى ما كان عليه .

كانت الطالبات يضحكن من القصة ، ولكنهن عادةً كن يخفن في تفسير سب الصحك . ولكن بعد قليل كنا نتفق على أن جحا ساوى بين المعرفة (المركبة ، نتاج الربط والتجريد) والمعلومة (البسيطة) . فحديث الجنة ، بالنسبة له ، مجرد معلومة ، إما أن تعرفها أو لا تعرفها ، وكانت أسئلته تشبه الأسئلة في امتحان موضوعي الإجابة عليه إما بنعم وإما بلا ، وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة . وقد ابتلع القرويون المساكين طعم الموضوعية المتقلبة ، فجلسوا في المسجد بعد هزيمتهم مذمومين محسورين .

وقد أشرت من قبل إلى الذئب الهيجلي المعلوماتي (أعلى درجات التجريد وأدنى مستويات التخصيص) . ويمكن القول بأن الموضوعية القوتوغرافية هي نتيجة انفصال الهيجلية والرغبة في الوصول إلى رؤية شاملة ينضوي تحتها كل التفاصيل عن النزعة المعلوماتية ، فتبقى المعلوماتية بمفردها ، ويصبح هم الباحث ، الذي يدور في إطار أدنى مستويات التخصيص ، أن ينقل الواقع كما هو ، وأن ينقل التفاصيل والمعلومات المتناثرة كما هي دون ربط أو تجريد . وهذه الإمبريقية السطحية لا تفرق بين مادة البحث (التجميعية الأرضيفية) وعملية البحث (التحليلية التفكيكية التركيبية) والتي وصفها الأديب الأمريكي هنري ديفيد ثورو بأنها مثل إحصاء عدد القطط في زنبار . وهو جهد لا طائل من ورائه ، إن لم يكن هناك إطار لعملية الإحصاء هذه ، وإن لم يكن هناك هدف . والبحث الحقيقي ليس إحصاء عدد القطط في زنبار ، وإنما تصنيفها داخل أطر محددة . إن هذه الإمبريقية غير مبدعة وغير توليدية ، فهي محصورة في فضاء التفاصيل الضيق ، لا تشغل نفسها بما وراء التفاصيل (أنماطها - اتجاهاتها - علاقاتها ... إلخ) . وقد علق أحد أساتذة اللغة العبرية على الموسوعة بقوله إن المسوري بعد كتابة الموسوعة لا يمكنه أن يأتي بجديد ، أي أنني جمعت من المعلومات قدر استطاعتي ، ولم يعد هناك المزيد . مع أن إسهامي الأساسي في الموسوعة ، كما أراه ، هو أنني توصلت إلى نموذج تحليلي ، تنفرع عنه آليات تحليلية تيسر علينا تحليل الظاهرة الصهيونية ، تكفيكاً وتركيباً ، وفهمها دون اختزالها . وهناك مئات المواضيع التي لم تتم دراستها بهذه الطريقة "الجديدة" ! بل إنه قال إن معظم الموسوعة نقل من الموسوعات اليهودية . فطلبت منه أن يقارن مدخل الدياسبورا في اليهودية (الموسوعة اليهودية الإنجليزية) وفي الموسوعة اليهودية (العبرية) ، وعرضت عليه أن أوفر له المادة المطلوبة لعله من خلال الدراسة المقارنة أن يرى الفرق بين الأطر التحليلية ، فلم يفعل . وقد علق أحد طلبتي على هذا الموقف بقوله : إن الأستاذ المذكور معلوماتي ، موضوعي متلقي ، يبحث عن المعلومة ، والمعلومة بطبيعة الحال تتكرر . فعلى سبيل المثال ، المؤتمر الصهيوني الأول عُقد في بال عام ١٨٩٧ . هذه المعلومة توجد في كل الموسوعات بما في ذلك الموسوعة ، ومن ثم فهو لا يرى سوى أنني نقلتها من الموسوعات الأخرى . أما الإشكاليات التي تثيرها الموسوعة حول هذه المعلومة مثل لم عُقد هذا المؤتمر في ذلك التاريخ ولم يُعقد قبل أو بعد ذلك ؟ ولم عُقد في بال

(حيث توجد جماعة يهودية صغيرة) ولم يُعقد في ميونيخ التي كانت توجد فيها واحدة من أكبر الجماعات اليهودية في العالم الغربي ؟ فهو لم يرها فقد كان يبحث عن المعلومة ولم ير الإطار النظري أو التحليلي . وفي محاضرة لنفس الأستاذ عن الوسوعة قال إنه لا يرى أي أهمية للمجلد النظري الأول فالمسألة واضحة تماماً .

وحاولت أن أوضح له مسألة الإطار والنمط هذه ، فأخبرته بأن المؤتمر الصهيوني الأول عُقد في عام ١٨٩٧ لأن المائض البشري اليهودي كان قد تزايد في شرقي أوروبا وبدأ يهدد المواقع الطبقيّة والمكانة الاجتماعية التي حققها يهود وسط أوروبا وغربها ، وأنهم هم الذين أسسوا الحركة الصهيونية للتخلص من يهود شرقي أوروبا (ولذلك لم يكونوا يتحدثون عن «المسألة اليهودية» وإنما عن «المسألة اليهودية الشرق أوروبية») . ولكن العنصر الحاسم كان هو اكتشاف هرتزل للإمبريالية كآلية غربية كبرى لوضع أي مشروع موضع التنفيذ ، فكان هو الذي ربط المشروع الصهيوني بالمشروع الإمبريالي ومن ثم أمكنه أن يكتسح كل الجماعات الصهيونية الأخرى التي كانت لا تزال تنوهم إمكانية تنفيذ المشروع الصهيوني "بالجهود اليهودية الذاتية" (شبه أحد أصدقاء هرتزل هذه المحاولة بأنها مثل محاولة إفراغ المحيط بسطل ماء) ، وعقد المؤتمر الصهيوني الأول . أما لماذا بال وليس ميونيخ ؟ فإن تفسير الأمر هو أن الصهاينة كانوا يودون عقد المؤتمر الأول في ميونيخ ، ولكن الجماعة اليهودية هناك اعترضت ، خوفاً من أن تؤدي الصهيونية إلى اتهامهم بازدواج الولاء ، ولذا عُقد في بال ، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية الصغيرة لا يملكون أي وسائل لممارسة أي ضغط .

ثم ضربت له مثلاً آخر بأرقام هجرة اليهود في العصر الحديث ، وكيف أن هذه الأرقام يوظفها الصهاينة ليبينوا أن أعضاء الجماعات اليهودية كُتب عليهم «الشنات» ، وأنهم يتنقلون من بلد لآخر بحثاً عن مأوى (مما يجعل مسألة إنشاء الدولة الصهيونية مسألة عادية وطبيعية بل وحنسية) . أخبرته أن هذه الأرقام ذاتها (هذه المعلومة الصلبة) يمكن أن تُقرأ بطريقة مغايرة تماماً . إذ بُنيت أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث ، كانت أساساً إلى الأمريكتين وجنوب إفريقيا ... إلخ ، أي أنها هجرة داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي . ثم زدت المسألة تخصيصاً فبيّنت أنها كانت أساساً هجرة إلى البلاد الاستيطانية المتحدة بالإنجليزية (الولايات المتحدة - كندا - جنوب إفريقيا - أستراليا - نيوزيلندا) ، أي أنها هجرة داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني ، وأنه يمكن فهم إسرائيل في هذا الإطار وداحل هذا النمط ، فهي الأخرى قد تم تأسيسها داخل إطار هذا التشكيل الاستيطاني الأخير . كان الأستاذ يهز الرأس / الكاميرا ، فهو لم يكن يرى سوى المعلومة المصمتة : تاريخ عقد المؤتمر الصهيوني الأول وأرقام الهجرة .

والموضوعية التلقية لا تترجم نفسها إلى إمبريقية سطحية وحسب ، وإنما إلى براجماتية

سطحية . فالبراجماتية تتجاهل الكليات والغايات والثوابت وتركز على الإنجاز . وكلمة «براجمات» تعني «فعل» ، وشعارها هو «getting things done أي «الإنجاز» . ومن أطرف الوقائع التي تبين جوهر البراجماتية بشكل كوميدي هو هذه اللافتة التي قرأتها عام ١٩٦٣ (بأن الحرب الباردة) في محل لغسيل وكي الملابس في الولايات المتحدة . تقول اللافتة : " فيما يلي الخطرات الواجب اتباعها في حالة حدوث انفجار نووي : ١- قف هادئاً في مكانك . ٢- ادفع الماتورة ٣- اهرب بعد ذلك بأقصى سرعتك " ! تبين هذه اللافتة الكوميديّة أن العقل البراجماتي لا يتعامل إلا مع المباشر واضسوس والمكسب والخسارة بطريقة ضيقة الأفق . فأمام الانفجار الذري الذي قد يدمر الوطن أو ربما العالم بأسره ، ينحصر اهتمام صاحب المحل في تحصيل أتعابه نظير قميص ، أو ربما غسله وكبه ، وباللهول .

وإغفال البراجماتية للحقائق النهائية الكبرى يظهر في هذين الخطابين الطريفيين اللذين قرأتتهما في برید القراء في مجلة تلیم . كانت المجلة قد نشرت تحقيقاً عن محلات بلومنجدیل Bloomingdale في نيويورك ، وهي من أكبر المحلات وأغنىها . قال الخطاب الأول : "إن من قال إن السعادة لا يمكن شراؤها بالمال ، لم يسمع عن محلات بلومنجدیل" . أما الثاني فقد قال إنه سيكتب في وصفه أن يحرق جثمانه ويحرق الرماد في بلومنجدیل حتى يضمن أن تزوره زوجته مرة واحدة في الأسبوع على الأقل . إن قضايا نهائية كلية مثل الموت والتراحم والسعادة توضع داخل السقف المادي فيصغر حجمها وتلفد تركيبتها ويصبح من الممكن التعامل معها بسهولة ويسر ويمكن إطلاق النكات عليها (ولعل هذا يفسر خفة دم الأمريكيان ومقدرتهم على إطلاق النكات) .

والأسلوب البراجماتي في التفاوض يذهب إلى أنه من الممكن إرجاء النظر في القضايا النهائية الكبرى والتركيز على القضايا التي يمكن حلها . إذ إنه بطريقة أو بأخرى في أثناء المفاوضات somewhere, somewhat, somehow, sometime, something might emerge سيظهر حلاً للقضايا النهائية . وهي طريقة للتفاوض تُعقّد الأمور عن طريق تبسيطها . وينتهي الأمر بأن صاحب المدفع الأكبر هو الذي يفرض رأيه ، وذلك بسبب غياب أي مرجعية كلية . وأتصور أن هذا هو ما حدث في أوسلو وفي كامب ديفيد .

والمصدر الأساسي لرفضي لنموذج الموضوعية الفوتوغرافية والمعلوماتية هو تحولي الفكري الذي أشرت إليه (الذي يؤكد مسئولية الإنسان ومقدرته على التجاوز والإبداع) . كما كانت هناك وقائع كثيرة في تجربتي الشخصية جعلت من العسير عليّ السقوط في الموضوعية المتلفية . فعلى سبيل المثال ، حينما كنت في الولايات المتحدة وجدت أنني أنظر للأشياء نظرة مختلفة عن نظرة أقراني الأمريكيين . وقد عشت مدة طويلة في المجتمع الأمريكي ، وهو مجتمع علاقاته متشابكة ، وكان لابد لي من تفسيره حتى يمكنني التعامل معه ، الأمر الذي يتطلب نظرة أعمق

للظواهر لا مجرد تلقى سطحي لها .

وفي الجزء الخاص عن التعاقد والتراحم ضربت بعض الأمثلة على أهمية النموذج في تجاوز المعلوماتية والموضوعية التلقية وصولاً إلى المعنى العميق للأشياء . ويمكنني هنا أن أضرب مثلاً آخر . كنت أقف أمام مبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك ، وكانت تقف بجواري عائلة أمريكية مكونة من رجل وزوجته وابنتيهما ، وكان كل واحد منهم يمسك بآلة تصوير يصور بها نفس المنظر . يمكننا القول إن الهدف من التصوير هنا هو تسجيل المنظر ، ولكن هذا في تصوري مثل جيد على الموضوعية التلقية ، لأنه لو أن الهدف هو تسجيل المنظر وحسب ، فإن آلة تصوير واحدة تكفي . يمكننا القول إن هذا تبهير وسفه ، وهذا موقف أخلاقي لا يفسر الظاهرة وإنما يعدل حكماً أخلاقياً عليها . والحكم الأخلاقي غير عملية التفسير التي تؤدي إلى الفهم . وأنصوّر أنه من خلال إعمال العقل والاجتهاد ، والبحث عن الهدف الأعمق ، يمكننا القول إن أعضاء الأسرة يودون تجميد اللحظة (نوع من أنواع الأزلية المؤقتة العلمانية) بحيث يمكن لكل واحد منهم أن يحملها معه إلى منزله . أو لعل التصوير أصبح جزءاً من السباحة ، ولذا لا تكتمل المتعة إلا مع تصوير المشاهد . قد يقول قائل إن هذين التفسيرين يجتحيان نحو القراءة بين السطور أكثر من اللازم ، وقد يكونا إجهاداً أكثر منه اجتهاد ، ولكن يمكن الرد على هذا بالقول إنهما على الأقل لا يسقطان في التفسيرات النمطية الجاهزة التي تساوي بين كل الظواهر والأشياء .

وما لا شك فيه أن دراستي الأدبية (خاصة في جامعة الإسكندرية) وضرورة النظر إلى العمل الأدبي ككل عضوي متصاسك ، جعل عملية الرصد بالقطاعي هذه عملية ملمة ومستحيلة . كما تعلمنا أن سطح العمل الأدبي يخبئ بنية كامنة عميقة هي وحدها التي تنطق بالمعنى المركب للنص . وقد قوضت المرحلة الماركسية في حياتي فكرة الرصد الموضوعي التراكمي المباشر ، فالماركسية هي رؤية كلية نقدية للواقع ترى الواقع في ترابطه وحي كليته . وترفض رؤية سطح الأشياء بحسبانها الحقيقية ، بل تحاول النفاذ إلى بنيةها الكامنة أو جوهرها ، ثم تطرح رؤية ثورية باسم الجوهر (أو قوانين التاريخ) ، متجاوزة الحقيقة المادية القائمة . وهذا لا يختلف كثيراً عن الرؤية الرومانتيكية للواقع ، فقد تعلمت من الشعراء الرومانتيكيين أن الجوهر الكامن وراء الطبيعة أهم من سطحها ، وهو الأمر الذي أكدته أيضاً معظم مفكري القرن التاسع عشر ، الذين كانوا يشهدون الوصول إلى وحدة شاملة تتجاوز التعددية المفرطة والتبعثر والتشتت ، تلك الأمور التي كانت تسم واقعهم المباشر . وقد قرأت بعض أعمال جيورجي لوكاش الذي كان يؤكد الجوانب الإنسانية في فكر ماركس (مقابل ما تعلمته في مصر عن أهمية الاقتصاد [الموضوعي]) . كما أنني قرأت كثيراً من أعمال روجيه جارودي Roger Garaudy ، حينما كان منظرًا ماركسيًا ، وكان يؤكد مفهوم الاغتراب والإرادة وبعض مصادر الماركسية غير المألوفة (مثل فلسفة فيخته) . ومن الأعمال الأخرى التي قرأتها بشغف مؤلفات عالم الاجتماع الإنجليزي (من

أصل بولندي) زيجمونت باومان Zygmunt Bauman ، وهو مهتم بقضايا الحداثة ، ويبين أن وراء سطحها اللامع المبهج أعماقاً مظلمة ، وأن النظرة السطحية المتلقية للحداثة لا تفيد كثيراً .
وبما عمق هذا الاتجاه نحو رفض الموضوعية الفوتوغرافية دراستي لبعض أعمال عالم الاجتماع الألماني الشهير ماكس فيبر Max Weber وتأكيده على دوافع الفاعل الداخلية في مقابل سلوكه الظاهر ، وتمييزه بين طريقة دراسة أسرة من الدجاج وأسرة إنسانية ، فنحن لا نعرف شيئاً عن دوافع الدجاج الداخلية ، ولذا فنحن نرصد سلوكها من الخارج . أما الأسرة الإنسانية فالمعنى الداخلي الذي تسقطه على الأشياء أمر مهم يمكننا تخيله ونحاول التوصل إليه ، أي أن رصدها يكون من الخارج والداخل . كما أن تأكيد فيبر على النتائج غير المقصودة للفعل الإنساني أدى دوراً كبيراً في هذا . وحينما قرأت في علم الأنثروبولوجيا عرفت مدى تأثير اللغة في الإدراك ، وأن الإنسان لا يدرك الأشياء كما هي بطريقة فوتوغرافية ، وإنما يلوّنها بمقولاته الإدراكية .

وقد واجهتني مشكلة الموضوعية المتلقية هذه حينما كنت أكتب رسالتي للدكتوراه . إذ اكتشفت أن عدد المقالات والكتب الذي يُنشر سنوياً عن موضوع بحثي كثير للغاية ، وأنني لو أردت الإحاطة بها كلها لقضيت بقية عمري أقرأ وأتلقى دون أن أبدع وأنتج ، فقررت أن أستخدم عقلي ، وأن أستبعد بعض المواد التي رأيت أنها ليست على صلة كبيرة بموضوعي . كما أنني قررت الاعتماد على رأيي لموضوع الرسالة ، وقلت لنفسي ساعتها إنه من الصعب أن تكون رؤية الآخرين (من الأمريكيين) مشابهة لرؤيتي أنا المصري العربي المسلم .

كما واجهتني مشكلة الموضوعية المتلقية وبحدة في أثناء محاولتي تعريف الصهيونية . فعريفات الصهيونية التي وردت في بطون الكتب الغربية (بما في ذلك الموسوعة البريطانية) تتحدث عن أن "الصهيونية هي حركة تحرير الشعب اليهودي" أو "عودة اليهود لوطنهم القومي أو أرض أجدادهم أو الأرض التي وعدهم الإله إياها" . وهنا طرحت على نفسي السؤال التالي : "هل تتطلب الموضوعية مني نقل هذا التعريف بحذافيره ، ورغم أنه يتضمن مفاهيم كثيرة لا يمكن قبولها ، مثل أن فلسطين ليست وطن العرب ، وإنما وطن اليهود ، وأن اليهود شعب واحد ؟ وإن رفضت هذا التعريف ، هل يكون هذا من قبيل الذاتية ؟" وينطبق الشيء نفسه على ما باتينا من أخبار ، فهل الموضوعية تتطلب أن أوردتها كما هي ، والذاتية عكس ذلك ، ورغم إدراكي أن هذه الأخبار تم انتقاؤها بعناية ، وأنه تم في المقابل إخفاء عشرات الأخبار الأخرى أو تهميشها ؟

إن مثل هذه الحقائق حقائق جزئية للغاية ، يُطلق عليها عبارة "أكاديب حقيقية" (بالإنجليزية : true lies) ويمكن أن نطلق عليها بالعربية "حقائق كاذبة" ، أي كلمة حق يُراد بها باطل . فمثل هذه الحقائق معلومات صلبة دون شك ، ووقائع لا مراء فيها ، فهي حقيقية ، ومع هذا تم توظيفها بطريقة لا تتفق مع الحقيقة الكلية ، ومن ثم فهي "أكاديب" .

إن النقل الفوتوغرافي أمر مستحيل ، إذ يقوم العقل حتماً بعمليات حذف وإبقاء وتضخيم وتهميش ، ومن ثم نجد أن الفكر الغربي الذي يطرح نفسه بحسبانه فكراً موضوعياً ، هو في واقع الأمر فكر يخبي مفاهيم محددة (وإلا لما كان فكراً ولأصبح مجرد أفكار) . ولذا فالموضوعية في السياق العربي تعني في واقع الأمر نقل الأفكار الغربية الكامنة بلا وعي وبدون إدراك .

ويمكنني أن أذكر هذه الواقعة التي قوضت من قبضة الموضوعية الفوتوغرافية والنزعة المعلوماتية ، فقد كانت درامية ومثيرة . أذكر أنني كنت في إحدى الجامعات العربية وقام أحد أعضاء هيئة التدريس بالقاء محاضرة عن "ميريديث Meredith والإحساس بالكوميديا" ، وكانت المحاضرة عبارة عن معلومات متراكمة : معلومة فوق معلومة . ومع نهاية المحاضرة ، لم يكن هناك ما نقوله ، فالمعلومات في الكتب ، وإن كان قد أخطأ في معلومة أو اثنتين فليست هذه مشكلة كبيرة ، إذ يمكن تصحيح المعلومات . ولكن مع هذا أحس الحاضرون بعدم الارتياح ، فقلت . للسيد المحاضر : "يا دكتور فلان أنت لم تقل لنا شيئاً ، وقذفنا بالمعلومات دون أن يربطها رابط" . فأجاب : "أردت أن أكون موضوعياً" . فقلت له : "يا ليتك كنت أكثر ذاتية وقلت لنا شيئاً غير أطنان المعلومات" . فضحك الحاضرون ، ولم يفهم صاحبنا شيئاً ، إذ كان مشغولاً بتلقي التهاني من يخلطون بين الفكر وحشد المعلومات "لأنه أتى بمعلومات قيمة" .

ويبدو أن المعلوماتية والموضوعية التلقية أصبحتا من أهم أمراض العصر ، فحينما ذهبت روجتي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٤ كان علمي أن الحق بها بعد مرور ستة شهور تقريباً . ولكنني اكتشفت أن عليّ أن أحصل على موافقتها الكتابية حتى تصدر لي إدارة البعثات القيزا المطلوبة وتذكرة السفر ، إذ يبدو أن القانون المصري في هذه الحالة لا يفرق بين الذكر والأنثى ويتحدث عن "ضرورة موافقة عضو البعثة" . وبالفعل كتبت زوجتي خطاباً للبعثات تبين لهم فيه أنها موافقة على سفري . كنا حينما نذكر لهم هذه الواقعة في الولايات المتحدة يأخذونها على أنها مؤشر على مدى "تقدم" مصر وعلى مدى "تحرر" المرأة فيها ، ويقدمون لنا التهاني على بلدنا الذي يعرف المساواة بين الجنسين ؛ وهذا بطبيعة الحال كان بعيداً كل البعد عن الواقع ، فكانت التهاني نسب لنا الحرج بدلاً من الفخر . وما حدث هو أن أصدقاءنا الأمريكيين كانوا يحملون الصورة الكلية والواقع المتواتر ويركزون على الواقعة (أو المعلومة) ، ويفضلونها عن النمط العام التكرار ، فيصبح بوسعهم أن يفرضوا عليها أي معنى يريدون ، وهذه إحدى أهم سمات المعلوماتية والموضوعية التلقية . وقد فتنت محطة الـ CNN في فتنت كل الظواهر وتحويلها إلى وقائع ومعلومات متناثرة ، الهدف منها هو التسلية ، حتى إن نشرة الأخبار تحولت إلى نوع من أنواع التسلية يعطيك المعلومات فور حدوثها ، ولكنها معلومات لا معنى لها ، لأنها منغلقة على ذاتها ، منفصلة عن أي نمط ، ومن ثم لا دلالة لها .

وقد استشرى ذاء الموضوعية المتلقية والمعلوماتية إلى درجة كبيرة ، حتى إن أحد مراكز البحوث أرسل لي رسالة يطلب مني فيها أن أكتب دراسة في موضوع يهود العالم . فرحبت بالأمر . فأرسلوا لي بكتيب فيه الإرشادات بخصوص حجم المقال والمنهج الذي ينبغي اتباعه . وقد جاء في هذا الكتيب بالحرف الواحد "يجب ذكر المعلومات بلا تحليل" ، وهو أمر في تصوري مستحيل . ولكنني مع هذا قررت الاستمرار فكتبت مقالاً مليئاً بالمعلومات والأرقام التي تم تقديمها من خلال نموذج تحليلي كامن ، بحيث إنه لا يمكن فصل الأرقام عن النموذج ! وقُبل المقال ، إذ كان مظهره معلوماتياً واضحاً (جداول - إحصاءات ... إلخ) . أما مخبره فكان تحليلياً ، ومن ثم وجد طريقه إلى النشر .

الموضوعية المتلقية والجامعة

اكتشفت أن كثيراً مما أتصور أنه ظواهر أكاديمية مرضية هو نتيجة هذا الموقف المتلقي للواقع . حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ ، أوصاني السيد رئيس القسم (في كلية بنات عين شمس) أن تضم محاضراتي ما لا يقل عن عشر معلومات أنقلها للطلابات ، اللاتي كان من المفترض فيهن تلقي هذه المعلومات فيزددن معرفة . ثم أضاف أنني لو أجزت مسألة العشرة هذه فإن هذا سيرضيه تماماً .

وقد أراد السيد رئيس القسم أن يتدخل في محاضراتي ليؤكد من أنني أعطي الطالبات المعلومات العشر إياها ، فقررت أن أبقيه بعيداً عن مجالي وعن طريقي في التدريس ، وهذا من حقي . ولكن بدلاً من المواجهة ، استخدمت السلاح المعلوماتي بمكر ودهاء ، إذ أخبرته أنني أعطي الطالبات خلفية تاريخية قبل أن أتناول النظرية النقدية الرومانسية نفسها ، ولذلك فإنني سأدرس معهن الناقد لوث Lowth . ولو أن هذا ناقد ليس له أي أهمية ، ولم يسمع به أحد لهذا السبب . ولكن بدلاً من أن يجادلني السيد رئيس القسم في مدى أهمية هذا الناقد وجدوى تدريس نظرياته لطلاباتي بكلية البنات ، لزم الصمت ، لأنه فوجئ بمعلومة لم يسمع بها من قبل ، ولم يجزؤ علي أن يسأل عن قيمتها أو أهميتها ، فمطل هذه الأسئلة "ذاتية" ليس لها أي أساس موضوعي متعلق !

وتتضح سيطرة النموذج المعلوماتي على الجامعة في ظاهرة الإملاء التي أصبحت شكلاً أساسياً من أشكال التعليم في الجامعة يفترضها الطلبة كما يفترضها الأساتذة وتصبح أساساً لعقد اجتماعي صامت بينهم . وإن حاول أحد الأساتذة أن يغير من هذا الاتجاه . ويبدأ في إعطاء محاضرة حقيقية تتطلب الحوار وإعمال العقل يجد نفسه أنه يقف ضد التيار الأساسي . كنت أدرس مرة مع الطالبات قصيدة للشاعر وليام بتلرييتس (وكانت من أحب القصائد إلى قلبي ، وهو يكاد يكون شاعري المفضل) . واكتشفت أنهن لم يقرأن القصيدة ولا يعرفن معنى عنوانها

(Lapis Lazuli وهو حجر ثمين يسمى اللازورد) . فقررت أن أبين لهن خطورة التلقي الخض ، وبدأت أقول : "إن Lapis Lazuli هو نوع من أنواع الطيور الإفريقية يشتهر بمقدرته على أن يحط على ظهور التماسيح ، وفي حضارة الأزيك القديمة كانت الكلمة تشير إلى طائر خرافي يظهر كل مائة عام ويصق على الأرض . ولكن أورد أحد المعاجم أن الـ Lapis Lazuli نوع من الطعام إن أكله الإنسان لا يشبع البتة" . وانهمكت الطالبات في كتابة كل كلمة قلتها بعناية شديدة . ثم ترقفت وأخبرتهن أنني كنت أمزح وأن اللابيس لازولي هو حجر اللازورد ، وأنني أردت أن أبين لهن أنهن حولن أنفسهن إلى إماء متلقيات لكل ما أقوله ، ففقدن المقدرة على التفاعل والحوار والحكم .

ثم يلي الإملاء طبع المذكرات وبيعها للطلبة "بسر معقول" أو مغالى فيه حسب درجة طمع الأستاذ . وتصبح القضية هي ثمن المذكرة ، ومن هنا مشكلة ما يسمى «الكتاب الجامعي» ، وهو مفهوم يدل على مدى الانهيار الذي يعاني منه التعليم الجامعي . سمعت أن أستاذاً كبيراً كان عنده ارتباط ما ، ولذا كان من الصعب عليه إلقاء محاضرة الدراسات العليا الخاصة به ، فولي هذه المهمة معيداً ، وأعطاه الكرامة التي تحتوي على المعلومات . ويبدو أن المعيد كان حسن النية أو خبيثها للغاية ، إذ إنه ذهب إلى المحاضرة وأملى على الطلبة كل ما في الكرامة مرة واحدة . وهاج الأستاذ الكبير وماج حينما علم بالأمر ، إذ لم يكن هناك ما يقوله بعد ذلك ! وعلى العكس من هذا ، نجد بعض الأساتذة ذوي الضمير الحي يسفطون بطريقة مختلفة في الموضوعية الفوتوغرافية . أعرف أحد الأساتذة كان يريد أن ينقل إلى الطلبة كل المعلومات والتفاصيل المتوافرة لديه بخصوص القصائد التي يدرسها . فكانت النتيجة أنه كان يعطي نصف قصيدة في فصل دراسي بأكمله ، ثم يهرول بعد ذلك لتغطية بقية النصوص ويعطي الطلبة جرعة أقل من المعلومات ! ولعل هؤلاء لم يسمعوا تعليق الشيخ محمد عبده حين قيل له إن فلاناً قد حفظ البخاري . فقال : "لقد أحيف إلى البخاري نسخة جديدة !"

ونصل إلى الهرة في "الدروس الخصوصية" ، إذ تنحصر العملية التربوية في تدريب الطلبة على طريقة اجتياز الامتحانات وكيفية اجتراح المعلومات على ورقة الإجابة ، وتنحصر الحقائق الصماء التي لا معنى لها ، وتضيق الحقيقة ويدوي المعنى .

وغني عن القول إن فلسفة الامتحانات تنبع من نفس النموذج ، إذ يصبح هم الطلبة هو أن يحفظوا عن ظهر قلب ما لقنهم إياه الأستاذ وإظهار معرفتهم بأكبر قدر منه في الامتحان . وحيث إنني كنت أحاول إنجاز شيء مختلف تماماً في محاضراتي ، فإن فلسفة امتحاناتي كانت هي الأخرى مختلفة . وفي إحدى السنوات ، كنت أدرس مادة الشعر لطالبات السنة التمهيديّة في الدراسات العليا ، وأخبرت الطالبات أنني لا أمانع في أن يستشرن بعض النصوص في الامتحان ، فالفقضية بالنسبة لي - هي أن يعملن عقولهن ويقمن بمقارنة نصين شعريين أو ثلاثة ويكتبن

مقالاً نقدياً مقارناً . ولكن السيدة رئيسة اللجنة عدت هذا نوعاً من أنواع الغش . وعيناً حاولت أن أبين لها أن القضية ليست "تذكر" النص وإنما كيفية التعامل معه نقدياً وإبداء وجهة نظر فردية ، وأن وجود النص بين أيدي الطالبات للاقتباس منه ليس غشاً من هذا المنظور . ولكن هيهات ، فالأستاذة المذكورة كانت محصورة في رؤيتها المعلوماتية الموضوعية الضيقة .

أذكر مرة أنه تم اختياري (لسبب لا أعرفه) لإجراء المقابلات الشخصية مع الطالبات المرشحات للقب "الفتاة المثالية" . فجلست مع أعضاء اللجنة ، وفوجئت بأن الأسئلة كلها معلوماتية بشكل متطرف ، تدور في إطار ما يسمى «المعلومات العامة» (والتي أسميها «معلومات خاصة جداً» لأنها تدور في نطاق ضيق جداً ولا يوجد وراءها رؤية متكاملة) . ومن الأسئلة التي وجهت إلي الطالبات ما يلي : ما عدد محافظات مصر ؟ كم تبعد شبين الكوم عن القاهرة ؟ ما لون علم الدولة الفلانية ؟ (ولا يختلف هذا كثيراً عن مسابقات التليفزيون المصري في الوقت الحاضر ، والتي تفترض أن الثقافة هي حشد المعلومات [«المعلومة» كما يقولون] الخاصة بعالمى السينما والكرة . ولذا فهم يسألون أسئلة مثل : ما آخر أفلام إسماعيل يس ؟ ما الأفلام التي سميت فيها كل من نادية الجندي ومديحة يسري باسم حكمت ؟ ما المباراة التي أحرز فيها اللاعب فلان ثلاثة أهداف في النصف الأول من المباراة ؟) والطريف أن كثيراً من الطالبات يعرفن مسبقاً مثل هذه الأسئلة المعلوماتية التي ترد في معظم الامتحانات ، ولذا توجد أوراق تضم الإجابة عن هذه الأسئلة ، يحفظنها عن ظهر قلب .

بعد أن تزايدت الأسئلة المعلوماتية ، ضحكت وقلت لأعضاء اللجنة : "لو دخلت مثل هذا الامتحان لرست ، ومن ثم ففرصة أن أصبح فتاة مثالية منعدمة" . فضحكوا ووافقوني على نقدي المستتر ، وغيرنا من نوعية الأسئلة . وبدأنا نسأل الطالبات أسئلة تتطلب قدراً من الثقافة العامة (بالفعل) والدكاء والخيال . فسألت إحداهن على سبيل المثال : لو تقدم للزواج منك شخص من المؤمنين بالنظرية الداروينية ، هل تقبلينه أو ترفضينه ؟ ولم ؟ ما الفرق بين الماركسية والفرويدية ؟ ما عيوب النظم الشمولية ؟ وما عيوب النظم الديموقراطية ؟ ما أثر السينما وكرة القدم على الناس ؟ ما المقطوعات الموسيقية المحببة إليك ؟ ولم ؟ وكانت النتيجة أن كثيراً من محترفات امتحانات المعلومات لم يتم اختيارهن ، واختيرت بعض الفتيات اللاتي يتسمن - في رأيي - بقدر من الثقافة والدكاء .

وكثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست "بحوثاً" على الإطلاق ، فهي في كثير من الأحيان عبارة عن المادة البحثية الأرشيفية الأولية بعد تصنيفها سطحيّاً وبعد ترتيبها بطريقة لا تستند إلى منطق واضح أو كامن . وهناك حيلة أخرى ، وهي أن يكون البحث عبارة عن ورقة تتحدث عن أطروحة معروفة مسبقاً يتم توثيقها من خلال حشد مصادر كثيرة ومراجع عديدة ومعلومات غير مترابطة . لذا حل التوثيق (الموضوعي المتلقي) محل الاكتشاف والتفكير والتفكيك

والتركيب (الذاتي الإبداعي) . ومن ثم ظهر داء النصوصية (الذي سأتناوله بالتفصيل فيما بعد) ، وهو أن يحشد الباحث أقوال الآخرين ، الواحد تلو الآخر ، تأييداً لكلامه (وهو استمرار علماني للنعنة والإسناد والحفظ ، السبيل الوحيد في الماضي للتمحيص ولحفظ الذاكرة التاريخية) . وقد أخبرني أحد كبار الأساتذة الموضوعيين بنظرته في مسألة البحث العلمي هذه . فهو يرى أن كل أستاذ جامعي يمتلك قطعة واحدة من العجين لا أكثر ولا أقل (مجموعة من المعلومات المتوافرة لديه) ويقوم بتشكيلها حسب الطلب . فهي تارة مقال (مربع) ، وتارة أخرى بحث في مؤتمر (مستدير) ، وتارة ثالثة حديث إذاعي (كالإصبع) ، ولكن في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير هي عجينة واحدة تأخذ أشكالاً عدة بلا اكتشاف ولا بحث ولا تركيب . وكل ما سيحدث للعجينة أنه قد يُضاف لها بعض المعلومات التي تزيد من حجمها وامتدادها الأفقي . (ولا أدري ما حجم هذه العجينة الآن بعد الإنترنت وثورة المعلومات) .

كنت ذات مرة أناقض رسالة موضوعها العنصرية الصهيونية . ولم تزد الرسالة عن إثبات أن الصهيونية حركة عنصرية ، وقد تم ذلك من خلال مئات الاقتباسات ، كان آخرها (في الصفحات الأخيرة) اقتباساً يبلغ طوله ثلاث صفحات ، كما لو كانت ذات الباحثة قد ذابت غاماً ولم يبق أمامها سوى "النقل" (سميته "طريق النقل السريع" في دراستي عن جمال حمدان) . وقد بدأت مناقشتي بأن أخبرت الباحثة بأنها لم تأت بجديد على الإطلاق ، إذ إنها لو سألت عربياً (سائق حنطور) في ميدان التحرير عن الصهيونية ، لقال : "الصهيونية عنصرية يا ست هاتم ، عنصرية طبعاً" . وأخبرتها أنه كان عليها أن تتعامل مع السمات الخاصة للعنصرية الصهيونية ، جذورها - مسارها - مستقبلها ، أي شيء إلا أن تثبت ما هو واضح وما هو معروف .

ونفس النموذج (أي نموذج الالتزام بالمعلوماتية والموضوعية المطلقة) يتبدى في الإجراءات التي تتخذ الآن للتسجيل لدرجة الدكتوراه أو للماجستير . حينما كنت على وشك اختيار موضوع لرسالتي للماجستير عام ١٩٦٠ ، ناقشت الأمر مع د. محمد مصطفى بدوي بشكل شفهي ، واستقر الأمر على أن أكتب رسالة عن موضوع "أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والشعر الرمزي الفرنسي (وبخاصة شعر تشارلز بودلير Charles Baudelaire) على شعر إبراهيم ناجي" . فوافق القسم ، وبدأت في كتابة الرسالة ولم أكنه منها لحصولي على بعثة . وحدث نفس الشيء في اختيار موضوع الدكتوراه في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧ . فبعد انتهائي من المتطلبات الأكاديمية الأخرى : مقررات في تاريخ اللغة الإنجليزية - امتحان في الفرنسية - امتحان في اللغة اللاتينية - مقرر في شعر تشوسر وآخر في شعر ملتون ، ثم الامتحان الشفهي الشامل . اتصلت بأستاذي تليفونياً واقترحت عليه الموضوع ، واتفقنا على عنوان الرسالة : The Critical Writ- ings of William Wordsworth and Walt Whitman : A Study in the Historical and

Anti-Historical Imagination أعمال وليام وردزورث وولت ويتمان النقدية : دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ". وقد اتصل بي أستاذي تليفونيا وسألني عما إذا كنت أعني "غير تاريخي unhistorical" أم "معادياً للتاريخ anti-historical". فأكدت له أنني أعني "معادياً للتاريخ" وشرحت له وجهة نظري. وفي اليوم التالي قام هو بعرض الأمر كله على لجنة الدراسات العليا التي وافقت بدورها على موضوع الرسالة . كانت هذه هي الإجراءات حتى أوائل السبعينيات ، أما الآن فيطلب من الطالب (في كثير من الجامعات) أن يقدم تقريراً مفصلاً عن الموضوع الذي سيكتب عنه وعن أطروحته ، يرفق به قائمة بالأدبيات المتصلة له . وهذا الإجراء يحمي بعض الطلبة (متوسطي الذكاء) من الدخول في طريق لن يؤدي بهم إلى شيء ، ولكنه يجعل الهدف من الرسالة عملية توثيقية ، لأن كل شيء لابد أن يكون معروفاً مسبقاً . (مع العلم أنني في رسالتي للماجستير والدكتوراه قد توصلت إلى نتائج تقف على طرف النقيض من الأطروحة التي كنت أنوي إثباتها ، كما سأبين بالتفصيل فيما بعد) .

ومن الظواهر الأكاديمية المريبة الأخرى ، الناجمة عن نموذج الموضوعية المتلقية ، تصور أن موضوع الرسالة أو البحث يجب ألا يكون قد سبق الكتابة فيه ، بمعنى أنه يجب أن يكتب مرة واحدة عن نفس الموضوع . والتصور الكامن هنا أن "الموضوع" الظاهر هو ذاته الموضوع الأساسي الكامن ، وأن الرسالة تكتب عن موضوع ما ، تتوافر عنه مجموعة من المعلومات (الحقائق) على الباحث جمعها ومراعاتها ، وأن الأسئلة الخاصة بموضوع ما هي أسئلة عامة ومحددة وكامنة داخل الموضوع نفسه ، يسألها جميع الباحثين (الموضوعيين) بغض النظر عن سلوكهم وخبرتهم وتجاربهم ورؤيتهم . أما أن يكون موضوع الرسالة قضية (فكرية أو معرفية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية) خاصة يشعر بها الباحث تولد أسئلة محددة يطرحها الدارس على نفسه وعلى غيره ويحاول الإجابة عنها من خلال قراءته للنص موضع الدراسة ، فهذا أمر غير وارد . ومن الواضح أن وهم الموضوعية المتلقية والمعلوماتية قد هيمن على العقول وساد التصور بأن الموضوع لا تتفاعل معه ذات وإنما هو موضوع مكتشف بذاته . وأن الدارس ، بالتالي ، يشبه شارلوك هولمز ، الذي عليه أن يحل لغز الموضوع وأن يصل إلى إجابة عن كل الأسئلة العامة المحددة الكامنة في الموضوع لا في ذات الدارس .

وانطلاقاً من فكرة الموضوعية المتلقية ، التي تسقط حق الاجتهاد ، أصبح من المعتاد أن يقال لطالب تقدم بموضوع رسالته : "لقد كُتِبَ في هذا الموضوع من قبل" ، وكان وجهة نظر الدارس مسألة عديمة الأهمية ، وكان المعرفة الإنسانية معرفة واحدة تراكمية : مجموعة من الأفكار أو المعلومات ، التي تتراكم بعضها فوق بعض ، مثل المعادلات الرياضية أو القوانين العلمية . وفي الغالب التي بدلتها زوجتي في ألا نسافر إلى الولايات المتحدة مرة أخرى ، على أن تكمل دراستها العليا هنا ، تقدمت برسالة عن فكر الشيخ محمد عبده التربوي ، فقبل لها إن هناك طالباً في

الأزهر يكتب عن الموضوع نفسه . وقُتل الاقتراح على الفور وكان رسالة واحدة عن فكر محمد عبده متصل إلى القول النهائي الفصل (ومن المفارقات أن الطالب المذكور لم يكمل بحثه ، كما أن هناك عشرات البحوث التي كُتبت بعد ذلك عن نفس الموضوع) .

وتعبيراً عن نموذج الموضوعية المتلقية الذي استشرى في الرسائل والمؤلفات في العلوم الاجتماعية في البلاد العربية ما يسمّى بالاستبيان ، وهي مجموعة أسئلة توزع على "أعضاء العينة" الذين يجيبون عليها عادةً بنعم أو لا ، وتُختزل القضية إلى الأسئلة التي يطرحها الدارس والأحوبة التي يتلفاها ، ثم يحاول بعد ذلك التوصل إلى نتائج إحصائية دقيقة ، ثم يملأ رسالته بالجدول التي تدخل القبضة على نفس المتحنيين نظراً لدقتها العلمية (وهم يعنون الموضوعية الفوتوغرافية في واقع الأمر) . ومعظم هذه البحوث يُقال لها «ميدانية» ، أي أنها لا تتعامل مطلقاً مع الإطار النظري ولا تتساءل بخصوصه ، وإنما تحاول أن تطبق مقولة نظرية ما على حالة ما أو على عدة حالات . وهذه الدراسات الميدانية هي الأخرى عملية تطبيقي صماء متلقية تأتي بنتائج متوقعة متضمنة في المقدمات النظرية ، ومن ثم فهي ليست بحثاً ولا تعدل شيئاً من النظرية السائدة (مع أن هذا في تصوري هو هدف العلم) . وعادةً ما تُفضل الإحصاءات والدراسة الميدانية لأنها "مفيدة" مما يبين أن الواقع المباشر سيطر على عقل الدارس ، كما توصف بأنها "دقيقة" مما يدل على أن العلوم الطبيعية (وهي علوم تتجاوز في دقتها العلوم الإنسانية والاجتماعية) تلقي بظلالها الكثيفة على العلوم الإنسانية ، كما تدل على أن هذه المناهج ترى الإنسان بحبانه كائنًا طبيعيًا .

ولنفس النموذج يتضح في مناقشة الرسائل ، إذ تتحول المناقشة إلى مناسبة لاستعراض المعلومات . فيسأل الأساتذة المتحنون الطالب لمَ يأت بكذا ، ولمَ لم يذكر كذا ، وأنه كان بإمكانه أن يطلب في الحديث في هذه النقطة . (واجهتني المشكلة نفسها حينما كنت أعرض ما كُتب في الموسوعة على بعض المتخصصين . إذ كانوا دائماً يقولون إن هذا لا يكفي ؟ لا يمكن أن تكتب ثلاث صفحات فقط عن الكنعانيين . وعشاً كنت أحاول أن أبين لبعضهم أن من يقرر الحجم هو أنا في ضوء الحجم الكلي للموسوعة وفي ضوء مدى أهمية الموضوع من منظور الموسوعة) . كنت أخبرهم بأن المدخل عن إسبينوزا في موسوعة ١٩٧٥ كان لا يزيد عن خمسة سطور . ولكن بعد تطوير نموذج الحلولية ، أصبح إسبينوزا في غاية الأهمية ، ومن ثم أصبح نصيبه في الموسوعة مدخلان يبلغ كل منهما عدة صفحات .

وقد وصل مرض الموضوعية المطلقة - كما هو متوقع إلى المعايير التي يرفق حسبها الأساتذة . فعندما بدأت إعداد أبحاثي للترقية ، سألت أحد أعضاء لجنة الترقية عن معايير الترقية ، فقال : "أن تأتي بمعلومة جديدة" . ثم ضرب مثلاً "ببحث" الأستاذ فلان الذي "اكتشف" ترجمة الشاعر الإنجليزي فلان لقصيدة قصيرة عن الفرنسية ، وبعد أن حقق الأستاذ المذكور

اكتشافه نشره على الملأ (وفي تصوري هذا عمل مهم ، إلا أنه مختلف عن عمليات التفسير والتفاعل مع النص) . كما أكد الأستاذ عضو اللجنة أهمية المراجع ، وضرورة أن أطلع على آخرها . ولم أكن أريد أي مواجهة معه ، فقد كان رجلاً طيباً بالفعل . فاكثفت بهز رأسي ، وهز الرأس يمكن أن يكون علامة القبول أو الرفض أو التأمل . ولكنني في واقع الأمر لم أقبل هذه المعايير كمعايير كلية ونهائية ، وإن كنت قد استفدت بنصائحها ، فحرصت في أبحاثي المقدمة للترقية على أن أعطي وجهة نظري ، ثم آتي بآخر المراجع حتى يهدأ روع من سيقوم عملي . وقد نجحت الحيلة ، إذ كان بعض أعضاء اللجنة لا يعلقون على تفسيراتي للنصوص التي أتناولها ويكتفون بالتنويه بعدد المراجع .

وهذا النموذج الموضوعي التلقي المعلوماتي عبّر عن نفسه بشكل واضح حين ذهبت إلى إحدى الجامعات العربية . فقد قيل إن الكتب لا تقبل في لجان الترقية . ويبدو أن سمعة الكتب قد انهارت بعد أن تحولت إلى "مذكرات" تحتوي على مجموعة من المعلومات العامة المنقولة من مراجع أجنبية أو عربية . وقد أصابني هذا بشيء من الصدمة ، إذ أذكر في الخمسينيات أن معظم أساتذة الجامعة كان لا يتقدم للترقية لوطنية أستاذ إلا بعد أن ينتهي من تأليف كتاب ، بحسبان أن الكتاب هو جماع فكره ورؤيته .

ومن الأوهام الأخرى المسيطرة على لجنة الترقية في نفس الجامعة المذكورة ، وهم التنوع ، أي أن يكتب المتقدم للترقية عن عدة موضوعات ، لا موضوع واحد . وقد وجدت نفسي طرفاً في معركة خاصة بترقية أحد الأساتذة تقدم بأبحاثه ليُرْفَى لوطنية أستاذ مساعد . وعلى الرغم من أن أبحاثه كانت هي كلها تدور حول الموضوع نفسه ، فإنها كانت بالفعل متميزة تنظر للموضوع نفسه ولكن من زوايا مختلفة . ومع هذا قررت لجنة الترقيات في القسم عدم تربيته بحجة أنه لم يكتب إلا عن موضوع واحد ، فقط لا غير . وحيث إنني كنت مندوب القسم على مستوى الكلية ، وجدت نفسي أتخذ موقفاً معارضاً لموقف القسم . فبيّنت للجنة الكلية أن مسألة تعدد الموضوعات (وتنوعها) ليس بالضرورة معياراً وحيداً يمكن الاعتماد عليه ، إذ إن التعدد والتنوع يمكن أن يكونا مؤشراً على انعدام وجهة النظر ، وعلى القدرة على حشد المعلومات .

وقد قابلت أحد الأساتذة في هذه الجامعة ، وكان يؤمن إيماناً عميقاً بهذا المعيار المعلوماتي الغريب ، ولذا حاول قدر طاقته أن يطبقه بحذافيره ، فأخبرني بأنه (والحمد لله) قد انتهى من كتابة دراسة عن المسرحية في القرن السادس عشر وأخرى عن الشعر في القرن السابع عشر وثالثة عن الرواية في القرن التاسع عشر ولم يبق سوى دراسة رابعة عن النظرية النقدية في القرن العشرين . إن هذا الأستاذ / البقال قد قرر تنويع دراساته (أو بضائعها) بشكل نماذجي ليرضي لجنة الترقية بمعاييرها المعلوماتية .

وقد استشرى المرض المعلوماتي في لجان الترقية في مصر ، حتى إنه أصبح على المتقدم

للترقية في الرقعة الحاضر أن يختار موضوعاً بالقرعة ، نعم بالقرعة ، ليكتب عنه في غضون مدة قصيرة ، دون أي اهتمام بميوله الفكرية أو القضايا والإشكاليات التي يواجهها . فالهم هو اختبار قدرته على حشد المعلومات وبسرعة وإثبات أن أحداً لم يساعده . (أخبرني إحدى المتدمات أنه مع وجود الإنترنت أصبحت القضية سهلة للغاية ، فالإنترنت هي سيدة المعلومات بلا منازع) .

وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث للبروفيسور ديفيد كارول حينما حضر إلى مصر ، واجتمع ببعض الشابات من أعضاء هيئة التدريس ، وفوجئ بأنهن يطلبن منه أن يختار موضوعاً لهن للكتابة عنه . وحاول أن يبين لهن أنه من الضروري أن يخترن الموضوع بأنفسهن (بما يتفق مع اتجاهاتهن وميولهن الفكرية) وأن مهمته تنحصر في أن يساعدهن على صياغة الأسئلة ، وفي أن يوجهن نحو المكتبات المتخصصة أو المراجع المهمة .

ونموذج المعلوماتية والموضوعية المتلقية تسبب في ظاهرة غريبة الشكل ، لم أر مثلاً في العالم بأسره . وهو أنه حينما يقرر أحد الأساتذة الكتابة عن موضوع ما ، فإنه يخفيه عن زملائه بدلاً من مناقشتهم فيه . والتصور هنا معلوماتي بطبيعة الحال ، لأن البحث - حسب تصور هؤلاء - يتكون من حشد المعلومات عن موضوع ما ، وبالتالي يمكن أن "يلطشه" أحدهم ويسرع بالكتابة (أي حشد المعلومات) عنه قبل غيره . (كان بعض المعلوماتيين يحذرونني من أنني أصور أجزاء من الموسوعة وأعطيتها لبعض الشباب ليستفيد منها في أبحاثه ، وأنهم قد ينسبوا إلى أنفسهم . فكنت أرد عليهم بقولي إن الموسوعة تشكل خطاباً جديداً يعبر بدوره عن وجهة نظر متكاملة ، ولذا فعملية السرقة تكاد تكون مستحيلة . ومع هذا لا بد من أن أشير لبعض الأساتذة الذين "سرقوا" من مؤلفاتي ، ولكن ما سرفوه يظهر بشكل واضح لأن مصطلحي وخطابي مختلفان للغاية . (وقد قام أحدهم بسرقة الجمل طريف - كما سأبين فيما بعد - ولكن درجة عدم فهم الجمل ومن ثم درجة التشويه الناجمة عن ذلك كانت عالية إلى درجة أنه أصبح من الصعب أن أشير إلى المسخ الجديد بحُصانته سرقة للشخصية التي طورتها لقصص أطفالتي إذ لم يبق سوى الاسم) .

وحينما تقدمت زوجتي للترقية لوظيفة أستاذ مساعد ، قدمت عدة أبحاث من بينها دراسة كانت قد نشرتها في إحدى الجوليات الصادرة باللغة الإنجليزية عن التحيز في المقررات الدراسية ، وكانت دراسة ذات طابع نظري تطبيقي ، وقد ترجمتها وتقدمت بها لمؤتمر التحيز وطُبعت في كتاب إشكالية التحيز . وقد أخبرتها أنها أحسن الدراسات لأنها تطرح إشكالية نظرية مهمة ولا تتبع الأسلوب الطفولي الذي يتبعه بعض المتقدمين للترقية (والذي تصر عليه لجان الترقية) من تقسيم أبحاثهم إلى "مشكلة البحث" ، "خطوات البحث" ، "أسئلة البحث" ... إلخ . وقد صدر قرار بترقيتها ، فقد حصلت على تقديرات مرتفعة في كل الأبحاث ، إلا عن بحث واحد ،

وهو بحثها عن "التحيز في المقررات الدراسية" لأنه لم يأخذ الشكل الطفولي الذي أشرت إليه ولأنه قُدِّمَ لمؤتمر "غير متخصص".

إن كلمة "أكاديمي" فقدت معناها ، وأصبحت تشير إلى أي شخص عديم الخيال ، يلحق ببحثه قائمة طويلة بالمراجع ، ويشرح أطروحته بطريقة مملة ، ولا يُبدي أي رأي ، ويحدث أصواتاً معروفة . وفي الدراسة التي كتبها عن جمال حمدان نوهت بهذا العبقري الفلتة ، فهو من القليلين الذين أفلتوا من قبضة (أو مستنقع) الموضوعية المتلقية ، فبينت أن كتاباته ليست دراسات «أكاديمية» بالمعنى السلبي للكلمة ، والتي عرَّفَها بأنها :

"الدراسة التي يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح ، ولا تتسم بأي شيء سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعينات علمية موضوعية) ثم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء . والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التي يُقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أي معاناة حقيقية ولا لشكل «بحث» عن أي شيء) هو زيادة عدد الدراسات التي تضمها السيرة العلمية للأكاديمي صاحب الدراسة ، فيتم ترقيته ، فالصالح للنشر هو عادةً ما يؤهل للترقية . قد تقوم الدنيا ثم تقعد ، وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام ، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنن وينشر ، ثم يكتب ويوثق ويعنن وينشر ، وتدور المطابع وتسيل الأخبار ويخرج المزيد من الكتب . ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التي تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شيء ليزداد لمعانا وتالقاً ، إلى أن يُعيِّن رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشيء الأكاديمي ، يتحرك في عالم خالٍ من أي هموم إنسانية حقيقية - عالم خالٍ من نبض الحياة : رمادية كالحية هي هذه المعرفة الأكاديمية ، وذهبية خضراء هي شجرة المعرفة الحية المورقة .

"كتب جمال حمدان اليهود ألفروبولوجياً ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما دراسة عميقة كتبها مثقف مصري «صاحب موقف» ، لا يكتب البتة إلا انطلاقاً من لحظة معاناة وكشف ذات طابع تاريخي . وهو ولا شك يتبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنونة ، ولكن الآليات تظل مجرد آليات ، والوسائل لا تتحول البتة إلى غايات ، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتي به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هي قلق وجودي عميق أدى إلى ظهور مشروع فكري متكامل ، والهدف يظل دائماً هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل .

"ولذا فكل كتب جمال حمدان هي كتب إشكالية ، معاولة للإجابة عن سؤال ما ، وتصب كل الأسئلة في مشروع فكري واحد ، محوره مصر . فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً للأفكار (مثل عدد لا يُستهان به ممن يسمون بالمفكرين في بلادنا ، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة ، عادةً من الغرب) . صاحب الفكر هو إنسان قد طوّر منظومة فكرية تتسم

أجزاءها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي [فهي تعبر عن قلقه وآماله] ، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد - رؤية واحدة للكون . أما ناقل الأفكار ، فهو إنسان ينقل أفكاراً متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط ، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة . وما يحدث في كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها ، دون إدراك للنموذج المعرفي الكامن وراءها ، أو مع إدراك كامل له دون أن يكتثروا بتضميناته وتطبيقاته . مهمتهم هي النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الأوربية) - نقل كل شيء بأمانة شديدة وحياد أشد ، وموصوعية متلفية هي في واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية . في هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تعبك وإعادة تركيب ، ويخفي المنطوق النقدي وتخفي ذاتية الناقل ، فتعالب الأفكار المتناقضة جنباً إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجمهوري منها والهاشمي . ونقل الأفكار ورسها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيراً عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتعيزات القابعة داخلها والسياق الذي نبعت منه . ولذا فمثل هذه الدراسات "قد تنقل عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسياً" (كما يقول جمال حمدان) . وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء في شركات نقل الأفكار التي لا تختلف كثيراً عن شركات نقل المعلومات أو حتى نقل البضائع .

"جمال حمدان لا ينتمي إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التي استشرت تماماً في صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمي من خلالها (استبيانات - جداول - تحليل سطحي للمضمون - استطلاع رأي - أرقام) . ولا شك في أن غياب المشروع الحضاري المستقل بيزيد من انتشار هذا النموذج ، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل ، ويصبح التلقي المهزوم والإذعان (الموضوعي) للأمر الواقع بديلاً لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته .

"إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع . إنها تدور في إطار الموضوعية المتلقية ، السلبية . العقل عندها آلة ترصد وتسجل ، وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم . وهي لا تكتثرت بالحق أو الحقيقة ؛ فهي قد غرقت شامخاً في الحقائق والوقائع والأفكار المتناثرة ، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهد وكأنها أشياء مرصوفة ، كم لا هوية له ، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاصين" .

إن جوهر البحث والإبداع - في تصوري وتصور الكثير غيري - هو أن يكتشف الإنسان علاقة بين شيئين أو ظاهرتين لم يكتشفها أحد من قبل ويربط بينهما ، ثم يجرّد بعد عملية الربط هذه غطاً عاماً يتجاوز الظاهرتين له مقدرة تفسيرية ، ثم يرى الواقع من جديد في ضوء هذه العلاقة الجديدة . وعملية الربط فعل ذاتي ، لأنه نتاج أعمال الفكر ، وليس معطى مادياً يوجد

جاهزاً في الواقع ، وعملية التجريد عملية إبداعية أكثر ذاتية من عملية الربط . ولكل هذا ، وجدت أنه من الأحدى استبعاد مصطلحي «موضوعي» و«ذاتي» ، فهما يفترضان موضوعاً قائماً في حد ذاته ، وذات مستقلة منعزلة لا تتعامل مع الموضوع) . وأحلت محلها مصطلحي «أكثر تفسيرية» و«أقل تفسيرية» ، فهما أكثر دقة في وصفهما لعملية الإدراك والتفسير . فإن كانت الأطروحة التي يأتي بها الدارس تفسر عدداً من المعطيات يفوق العدد الذي تفسره الأطروحات السائدة ، فهي «أكثر تفسيرية» ، وإن كان عددها أقل فهي «أقل تفسيرية» . ويتميز هذان المصطلحان بأنهما لا يتجاهلان الواقع بطريقة مفرقة في الذاتية ، وإن كانا في الوقت نفسه يؤكدان أهمية العقل ومقدرته على التفاعل مع الموضوع وربط المعطيات المختلفة . كما أن المصطلحين الجديدين أكثر انفتاحاً . فالإنسان يقدم أطروحته لختبر على محك الواقع ، لا لتقبل أو ترفض ، وبعد اختبارها إن وجدها الإنسان أكثر تفسيرية أخذ بها ، وربما أضاف إليها لجعل مقدرتها التفسيرية أعلى ، أما إذا كانت أقل تفسيرية فإنه يشير إلى نقائصها ويكملها . ولذا أسمى هذا النوع من التفكير «الموضوعية الاجتهادية» (في مقابل الموضوعية المتلقية أو الفوتوغرافية) ، وهي ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره وكأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء ، وإنما يعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد منها أغطاً متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل .

وفي محاولتي ترسيخ هذه الرؤى وهذا المنهج في وجدان الطلبة والطالبات ، كنت أخبرهم في دروس النقد الأدبي بأن النص (الموضوع) لا ينطق بشيء بمفرده ، وأن الناقد (الذات) لا يمكنه أن ينطق بشيء بمفرده ، وأن العملية النقدية في جوهرها هي عملية «استنطاق» ، فالناقد يقول ما يقول من خلال النص ، الذي يكشف عن سره بمقدار ما يستنطقه الناقد . فالنقد الأدبي إذن هو النقطة التي تلتقي فيها الذات (الناقد) بالنص (الموضوع النقدي) . وإن البحث عن المعنى الوحيد للنص هو بحث لا طائل من ورائه ، وأن تصور أن النص مجرد موضوع يمكن للمرء التقاطه وفك سره (وكانه شيء محدد) هو تصور مضلل للغاية .

كما كنت أخبرهم بأنه في أثناء كتابة بحث يجب أن يدرب الباحث نفسه على استبعاد بعض المعلومات (وهو أمر صعب للغاية) . ففي أثناء كتابة البحث يتوافر لدى الباحث مجموعة من المعلومات ، بعضها مهم للغاية في حد ذاته ، لكنه لا علاقة له بموضوع البحث ، فإن تم إبقاءها فإنها في واقع الأمر تضعفه لأن القارئ لن يمكنه متابعة الأطروحة الأساسية . فالحقصة هي اختيار المعلومة المناسبة ووضعتها في الإطار الكلي لا مجرد ذكرها (يخبرون الطلبة في الثانوية العامة بأن يذكروا كل شيء ، وعلى المصحح أن يختار من بينها ، ويعطي الدرجة النهائية لأن جميع النقاط قد ذكرت) . كما أؤكد لطالباتي ضرورة وجود إشكالية / تساؤل عند الباحث قبل أن يبدأ بحثه ، وإلا وجد نفسه يحشد المعلومات حشداً دون منطق داخلي واضح . وأخيراً أنصح طالباتي

بالابتعاد عن منهج السرد التاريخي ، فهو يشجع على المعلوماتية إذ يصبح هم الباحث هو حشد المعلومات المرتبة تاريخياً . وأوصيهم دائماً بدلاً من ذلك أن يكون البحث من خلال موضوعات وإشكاليات (مثل هذه الرحلة) .

وتجاوز الموضوعية المتلقية والرصد المباشر ، كان هو ديدني في دراستي وأبحاثي ، بما في ذلك دراستي في الصهيونية . وقد ذكرت من قبل طريقة تفسير أرقام الهجرة اليهودية . ويمكن أن أذكر هنا واقعة أخرى ، وهي تشييد متحف الهولوكوست (المحرقة) في الولايات المتحدة . ساعتها قال البعض إن هذا تعبير عن قوة النفوذ الصهيوني ... إلخ . ولكن بعد قليل من البحث والتحقيق ، اكتشفت أن الدولة الصهيونية لم تكن سعيدة تماماً بهذا المتحف . فهي تعدّ نفسها مركز اليهود واليهودية ، وقد تحولت الهولوكوست إلى معلم أساسي لما يسمى «التاريخ الصهيوني» ، وقد أسسوا نصب ياد فاشيم في إسرائيل ليكون بمنزلة مزار يتعبد فيه «الشعب» في تاريخه ونفسه ، فهو بمنزلة مكان مقدس ، بل هو أكثر الأماكن قداسة . فإذا بنى يهود الولايات المتحدة متحفاً للمحرقة ، أفليس هذا بمنزلة ازدواج للمركز ، وتوزيع للقداسة ، وتنافس مع أرض الميعاد ؟ ومن هنا كان اعتراض بعض الإسرائيليين على إقامة هذا المتحف . ومثل هذا التركيب (حيث يتعارض الظاهر مع الباطن) لا يمكن للموضوعية المتلقية اكتشافه ، فهي تكتفي بالتلقي وبالرصد السطحي السريع .

ورفض الموضوعية المتلقية يظهر في دراستي في فيلم «قائمة شندلر» ، إذ بينت أن هذا الفيلم لا يعنى الرؤية الصهيونية للمحرقة ، التي تذهب إلى أن المحرقة إن هي إلا تعبير عن عداة الأغيار الأذلي لليهود ، واستمرار للمذابح المسمرة ضد اليهود عبر التاريخ ، وهي مذابح لا تفسر لها سوى كره العالم لليهود ، مما يعني ضرورة تأسيس دولة يهودية لهم ، وتبني رؤية مغايرة . وقد بينت في الموسوعة ، ابتداءً ، أن بطل الفيلم الذي ينقد اليهود ليس يهودياً ، وهذا يسقط الثنائية الصهيونية الاختزالية : اليهود ضد الجميع . كما أن الفيلم يبين أن حرق اليهود ليس مجرد هوس نازي ، وليس مجرد عداة أذلي من جانب الأغيار ، فهو يتم لأسباب عملية نابعة من رؤية نفعية مادية واضحة (ومن هنا التسمية «قائمة شندلر» ، فهذا عالم كل شيء فيه محسوب) . وبرغم أن نهاية الفيلم الملونة نهاية صهيونية ، تدور أحداثها في إسرائيل ، فإنها إضافة مفحمة ، الهدف منها هو الحصول على أوسكار . وبالفعل حصل سيلبرج على ما يريد . ولكن إسحق رابين ، رئيس وزراء إسرائيل ، تنبه إلى المضمون الحقيقي للفيلم ، فقال إنه ليس «هولوكوستي» بما فيه الكفاية .

وقد تفهم ابنائي تجاوز الرصد المباشر . ولذا تخصصت ابنتي في الأدب الإنجليزي ورسالتها للدكتوراه تقدم قراءة جديدة للنصوص التي درستها . أما ابني ، فقد تخصص في علم الطبيعة النظرية ، وهو تخصص لا يقوم على الملاحظة ، وإنما على التفكير في الظواهر الطبيعية التي لا

يمكن إخضاعها للملاحظة المباشرة . ولعل الواقعة التالية تبين مدى تجاوز ابني للموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية) . كان عندنا مرة يواب أمي تنسم زوجته بالذكاء والنفطة الشديدين ، وهما الصفتان اللزمتان للمساعدة في الأعمال المنزلية ، كما أنها كانت تجيد القراءة والكتابة . وكان بإمكانها أن تحقق أرباحاً طائلة لو قامت بتنظيف الشقق للسكان ، هذا لو توافرت فيها صفة ثالثة وهي الأمانة . ولكنها للأسف كانت لا تكف عن السرقة واختراع القصص المتلوية حتى تسرق شيئاً ، ولذا لم يطلب أحد خدماتها . ذات مرة جاءت ابنة البواب من زواج سابق لزيارة أبيها ، فاتفتت هذه المرأة معها ، وأخذت تكتب رسائل تستعطف فيها الناس لتحصل على صدقاتهم لأن زوجها ، أي أبو الصغيرة ، عاجز غير قادر على العمل ، وكانت تعطي الطفلة سببها المتلوية ، والأب الأمي غير مدرك لما يحدث حوله . ومرة أخرى جاءتني وأخبرتني أن شخصاً ما قد جاء وأعطاه ورقة يخبرها فيها أنها يمكنها أن تحصل على قماش جلباب بالجان إن هي ذهبت إلى عيران قريب من منزلها ، وادعت أنها هرعت إلى ذلك المنزل . ولكنها حينما عادت اكتشفت - وباللهول - سرقة أنابيب البوتاجاز وهكذا كانت لا تكف عن السرقات الصغيرة مثل هذه ، ولذا لم يكن أحد يجرؤ على أن يطلبها كي "تنظف" له منزله ، لأنها كانت "ستنظف" على طريقتها . المفارقة الكبرى كانت تكمن في أن ما كانت هذه المرأة تحققه عن طريق السرقات يقل كثيراً عما كان يمكن أن تحققه عن طريق العمل الشريف . فحرت في أمرها ، إلى أن أخبرتني ابنتي نور بأن العمل في تنظيف المنازل لا يتطلب أي إبداع ، على عكس عملية السرقة ، خاصة إذا كان على اللص أن يؤلف قصة جديدة كل مرة . والطاقة الإبداعية عند زوجة البواب - حسب تفسير نور - كانت عالية للغاية ولا بد أن يتم الإفصاح عنها ، وحيث إنها غير متاح لها أي قنوات شرعية لم يكن أمامها سوى السرقة . وهذا التفسير ليس تسويغاً لسلوكها الإجرامي وإنما محاولة لتفسيره ، وهي محاولة لم تستسلم للرصد المباشر وإنما نغذت إلى البنية الكامنة .

العقل التوليدي

إن نموذج الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية) والمعلوماتية فيه إنكار لقدرة العقل على الإبداع والتوليد ، فهو يفترض أن عقل الأديب (ومن بعده عقل الدارس) يقف كالفقير أمام عتبات الواقع يلتقط منه الفتات ، وليس كالأمير يراه في كليته فيختار منه ويفككه ويركبه كما يشاء ، ليصل إلى تصورات «أكثر تفسيرية» .

ولذا ارتبط رفضي للموضوعية الفوتوغرافية بتبني نموذج معرفي وتحليلي جديد للعقل بحسبانه كياناً توليدياً وليس مجرد وعاء مادي متلق للمعلومات . وفكرة العقل التوليدي فكرة أساسية في المنظومة الإسلامية ، فالإنسان يولد على الفطرة ، أي عنده مقدرات داخلية على الخير

(كما أن هناك ما يدل على أن عنده مقدرات داخلية على الشر) . والعقل التوليدي فكرة مركزية في الشعر الرومانتيكي ، خاصة في شعر وليام وردزورث وكوليردج ، تعبّر عن ثورتهم على المادية الآلية التي سادت في القرن الثامن عشر بعد أن هيمن النموذج النيوتوني على الفكر (يقول وليام بليك : " ليحمننا الله من الرؤية البسيطة ومن توم نيوتن ") . وقد درست فلسفة عمانويل كانط الذي يذهب إلى أن العقل ليس مجرد صفحة بيضاء تطبع عليه المعطيات المادية كأنه سطح من الشمع ، وإنما هو كيان مفلور فيه مقولات قبلية ، أي مقولات توجد قبل التجربة الحسية ، ولا تكفي التجربة الحسية وحدها لتفسيرها وتوضيحها ، فهي مقولات يفترض الذهن وجودها ويثبت صدقها وكذبها بعزل عن التجربة (هذا على عكس المعرفة البعدية التي تولد من التجربة) . ومن الأمثلة على المعرفة القبلية ، مقدرة الطفل على أن يولّد كلمات جديدة من خلال القياس ، فيقول " حَجَرَاتٌ " بدلاً من " أَحجارٌ " قياساً على صيغة الجمع لكلمات أخرى يعرفها (مثل أكلات) مع أنه لم يتعلم قواعد القياس من أحد . هذه المقولات الفطرية القبلية تجعل العقل قادراً على إعادة صياغة الواقع وترتيبه لا تلقّيه بشكل بيخاني . وقد قرأت بعض أعمال كلود ليفي شتراوس Claude Levi-Strauss ومحاولته التحليل البنيوي الذي يربط بين كل عناصر الواقع . ليفي شتراوس يذهب إلى أن العقل يحوي كل الأنبياء التي تدعها يد الإنسان ، وأن دراسة هذه الأنبياء هي في واقع الأمر دراسة لبنية العقل الإنساني نفسه . ومن ثم فهو يرى أن ثمة تماثلاً (بالإنجليزية : homology) بين كل الأنبياء الفكرية الإنسانية من جهة وبين عقل الإنسان من جهة أخرى . كما قرأت بعض أعمال العالم اللغوي الأمريكي نعوم تشومسكي Naom Chomsky وعالم النفس السويسري جان بياجيه Jean Piaget ، فأدركت تأكيدهما على مقدرات العقل التوليدية . كما أن أي إنسان ثوري لا يمكن إلا أن يؤمن بالعقل التوليدي القادر على تجاوز الواقع المادي القائم .

و كنت أحاول أن أنقل لطلبتي وطلباتي فكرة العقل التوليدي ومقدرته على الإبداع (في مقابل العقل السلبى الفوتوغرافي المتلقي) بطريقة درامية . ففي بداية محاضرات النقد الأدبي ، كنت أقول لهم (مازحاً بطبيعة الحال) إنهم لو قرءوا أعمال أرسطو بعناية للاحظوا مدى تأثيره بأفكاره . وبهذه الطريقة كنت أحاول أن أبين لهم أنني الأستاذ المصري العربي المسلم من دمنهور يمكن أن أصل إلى أفكار ربما لا تقل في عظمتها أو روعتها عن أفكار أرسطو . وعني عن القول أن هذه مبالغة ، ولكنها مبالغة كان الهدف منها إيقاظهم ليتعرفوا على إمكانياتهم الداخلية ، ولا يخافوا من الإبداع .

وبطبيعة الحال لم أكن ألقأ في محاضراتي إلى الإملاء مطلقاً ، وكنت أخبر الطلبة بأن ما أقوله اليوم قد يختلف عما قلته بالأمس ، فأنا أتغير وعقلي يولّد من الأفكار ما قد يكون متنوعاً بسبب تنوع تجاربي الحياتية والوجودية . وأشير دائماً إلى تجربتي الدرامية مع قصيدة مارفل إلى

سيدتي المتمنعة (التي أشرت لها من قبل) . كما كانت محاضراتي تأخذ شكل أسئلة لتوليد الإجابات من داخل الطلبة ليكتشفوا إمكانياتهم . (وهذه الطريقة ممكنة مع أعداد معقولة من الطلبة ، أما مع الجيوش الجارة فلا يوجد دليل للمحاضرات ثم الإملاء فالكتاب الجامعي ، التي تتبعها معاضات ودية أو ساخنة قبل الامتحانات بين الأستاذ والطلبة لمعرفة المقرر وحذف بعض الأبواب حتى ينكمش المقرر) .

وإنكار مقدرة العقل التوليدية (وهو إنكار مرتبط تمام الارتباط بالموضوعية التلقية والمعلوماتية) ، يتبدى بشكل واضح في ظاهرة مرضية أكاديمية أخرى هي دراسة قضية التأثير والتأثر ، وهي دراسة مريحة (تماماً مثل التماذج الفلسفية المادية) لا تتطلب اجتهداً أو إبداعاً . فهي تفترض أن مواطن التشبه بين أديب وآخر ليست بالضرورة نتيجة لإنسانيتهما المشتركة ، ولا لمقدرة العقل الإنساني التوليدية وتماثل العقول الإنسانية ولا لانتشار مناخ ثقافي معين يؤدي إلى نفس النتائج في مجتمعات مختلفة . فالأثر - حسب هذا التصور - هو نتيجة انتقال شيء مادي ومحدد ومحسوس (بأخذ شكل صورة أو عبارة أو كلمة أو كلمتين) وينتقل من خلال قنوات مادية محددة : قراءة أديب ما لأعمال أديب آخر ، بحيث يترك هذا الشيء المحسوس ، أعمال الأديب الثاني المؤثر ، "أثره" على الأديب الأول المتأثر . وهذا الموقف هو نتيجة التبني الواعي أو غير الواعي لمفهوم العقل الإنساني كصفحة بيضاء متلقية ، الذي يستند بدوره إلى مفهوم وحدة (أو واحدة) العلوم ، أي الإيمان بأن العلوم الإنسانية لا تختلف جوهرياً عن العلوم الطبيعية ، لأن الظاهرة الإنسانية في جوهرها لا تختلف عن الظاهرة الطبيعية المادية .

ودراسة الأثر - حسب هذا المنهج الموضوعي التلقّي - تأخذ شكل البحث عن الصور أو العبارات أو الكلمات (بل أحياناً الأفكار) المحددة التي "أخذها" الأديب المتأثر من الأديب المؤثر ، وعلى الباحث أن يبين بشكل موضوعي "القنوات" الفعلية والمادية التي انتقل من خلالها الأثر . وعلى من يقوم بدراسة التأثير في هذا الإطار أن يأتي بالفرائض المادية الموضوعية والملموسة على صدق أطروحاته وأن يحاول من محلل أدبي إلى مخبر بوليسي .

وكنت قد بدأت حياتي العلمية بدراسة من هذا النوع ، إذ قضيت - كما أسلفت - ثلاثة أعوام أكتب رسالة للماجستير عنوانها "أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والشعر الرمزي الفرنسي (وبخاصة تشارلز بودلير Charles Baudelaire) على شعر إبراهيم ناجي" . وكان المفروض أن تكون المسألة في غاية البساطة لأن الشاعر إبراهيم ناجي كان قد قام بترجمة ديوان أزهار الشر إلى العربية (عن الإنجليزية) . ولكن حينما بدأت الدراسة وجدت أن "الأثر" موجود وبكثرة ، ولكنه تافه سطحي ، مجرد أصداء لفظية ، لم يغير من وجدان الشاعر ولا رؤيته . بل وجدت أن "تحويل" ناجي لبودلير و"نقله" في فهم الشاعر الفرنسي (بسبب تراثه الفكري والأدبي) أهم من تلك اللحظات التي تأثر به فيها بشكل مباشر . أي أنني وجدت الكثير من

القارئ الموضوعية للمموسة على تأثر ناجي يهودا ، ولكنني أعلنت أن التوقف عند هذا المستوى التحليلي فيه تسطيح واختزال للقضية ، وأنه لابد من التوصل إلى مستوى أعمق عن طريق التحليل والتفكيك والتركيب وأخذ مقدرة الشاعر التوليدية في الحسبان ، والتعامل مع الوجدان والتراث واللغة بتقدير أنها عناصر مركبة لا يمكن للأديب المتأثر إدراك أعمال الأديب المؤثر إلا من خلالها ، ولذا فهو "يشوة" و"يحور" حسبما يليه حدود وجدانه وإدراكه ورؤيته ولفظه . أي أنني منذ البداية أعلنت أن علاقة الأديب المؤثر بالأديب المتأثر ، شأنها شأن علاقة العقل بالواقع المادي ، ليست مباشرة ولا بسيطة ، وأن تطبيق النماذج المادية الاحتزالية المستقاة من العلوم الطبيعية على الظواهر الإنسانية (أثر أديب على آخر) أمر سهل لا يأتي بالمعرفة ولا بالحكمة ، وينتهي بالباحث إلى أن يكرر نفسه ، وأن يسقط في التعميمات المجردة التي لا تقول شيئاً ، والتي تسقط خصوصية الظواهر ومعنوياتها الخاصة ، وأن يراكم المعلومات المادية الصلبة التي لا تشير أي قضية ولا تحل أي إشكالية لأنها لم تصل إلى أي أعماق واكتفت بملامسة السطح . وقد تكرر الشيء نفسه في رسالتي للدكتوراه - كما سأبين فيما بعد - التي بدأت كرسالة تقليدية في دراسة أثر شاعر إنجليزي على شاعر أمريكي ، ولكنها انتهت بتأكيد تفاهة الأثر وعمق الاختلاف الناجم عن اختلاف الوجدان والرؤية . وهذه مسألة لها دلالتها من منظور هذه السيرة غير الذاتية غير الموضوعية - فكأنني كنت أبدأ في عالم المادة المصمت ، ولكن كنت أنتهي دائماً في عالم الإنسان المبدع .

وفي دراستي عن جمال حمدان درست قضية "الأثر" مرة أخرى ، فأشرت إلى أنه حينما كنت أكتب موسوعة ١٩٧٥ قرأت كتابه اليهود والفروبولوجيا . ولكنني حين قرأته كنت أبحث ساعيتها عن المعلومات شأني شأن أي باحث ، ولكن يبدو أيضاً أنني استوعبت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تماماً دون أن أدري . ولذا حينما تأملت في علاقتي بجمال حمدان "هائلي حجم تأثيري به في طريقة تفكيره . لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع ، فأخذت منها ما أخذت ، واستبعدت ما استبعدت ، ثم تبذلت المعلومات ونحوها ، كما تبذل المعلومات وتصحح ، ولكن بقي ما هو أهم ، بقي فكره ورؤيته ومنهجه . فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية ، وإعادة الاعتبار للخيال والحدس في عملية التفكير العلمي . ومن أهم ما تعلمته منه ، الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام ، ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة ، وليست ظاهرة واحدة مغلفة تتسم بالوحدة . ولكن أهم ما تعلمته منه ، وهو ما تعلمته من أساتذتي (مثل د . إميل جورج - د . نور شريف - د . ديفيد وايمر) طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل في المعلومات وتفسيرها . لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تُكتشف الأنماط

داخل ركام التفاصيل المتغيرة ، وكيف تجرد الحقيقة من الحقائق . ولا أدري هل تعلمت منه أيضاً شيئاً من الصلابة والقدرة على المقاومة ؟

"أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته ، وإنما هو هناك بين السطور ، وهذا هو أعماق الأثر . ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي ، أهملت أهمية هذا النوع من التأثير . إن مجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة ، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها ، ولذا فحينما يُدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادةً ما يبحثون دائماً عن بضع جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف بها لأنها غير موجودة من منظور كمي معلوماتي .

"كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى ، وهي : لم يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري ؟ يمكنني القول إن النموذج المعلوماتي التراكمي سيطر تماماً وحول كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات . ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية ، يتناولها بنهم الكتاب المعلوماتيون . واعتقد أن معظم ما يكتب هذه الأيام يكتب صدوراً عن هذا النموذج ، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يُقرأ الآن يُقرأ بنفس الطريقة ، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الخلقاق !"

تشومسكي في القاهرة

وفي سيرة غير ذاتية غير موضوعية مثل هذه ، لابد أن أذكر مقابلاتي مع نعم تشومسكي والحوار الذي دار بيني وبينه في القاهرة عام ١٩٩٤ . وكما قلت من قبل ، تأثرت إلى حد كبير بثورة تشومسكي التوليدية ، ولذا كنت أطلع إلى زيارته لمصر . ولقهم الحوار الذي دار بيني وبينه لابد من تلخيص فكره اللغوي والفلسفي : سماته الأساسية وتناقضاته الكامنة ، وهو أمر صعب للغاية .

ويمكننا أن نقول إن فكر تشومسكي ينطلق من الثنائية الأساسية (ثنائية الإنسان والطبيعة) التي تُشكّل جوهر الرؤية الإنسانية (الهيومانية) للعالم وللفكر العقلاني المادي المستمر حول الإنسان ، والذي لم يسقط في التشيؤ والعدمية . ولعل إبداع تشومسكي (والثورة البنوية التوليدية ككل) يتبدى بالدرجة الأولى في عملية النظر إلى البناء التحتي لا بحسابانه بناءً موضوعياً مادياً مصمماً مغلقاً ، وإنما بحسابانه علاقات وأفكاراً كامنة في العقل ذاته ، تعبر عن نفسها من خلال أشكال وظواهر كثيرة . والعقل الإنساني ، بالنسبة لتشومسكي

، هو أعمق البنى . وهذا العقل ليس عقلاً سلبياً ولا صفحة بيضاء ، ولا يكتسب أفكاره تدريجياً ، (بشكل تراكمي) من البنية المحيطة به ، ويدور في إطار أنساق مغلقة مصمتة اختزالية ، كما يرى السلوكيون ، وإنما هو عقل نشط فعال يمتلك إمكانات إبداعية وملكات مفطورة كامنة فيه هي في واقع الأمر أشكال وبنى قَبْلِيَّة تتبع قواعد معينة ذات مقدرة توليدية وتؤدي دوراً أساسياً في عملية اكتساب المعرفة . وهذا يعني أن الإنسان لا تتحكم فيه الدوافع الخارجية أو البيئية ، وأن قدراته الإبداعية التوليدية تمنحه قدراً كبيراً من الاستقلال والحرية ، وأنه يدور في إطار أنساق مركبة مفتوحة تختلف عن الأنساق الطبيعية المغلقة .

لهذا نجد أن نقطة الانطلاق عند تشومسكي عقلانية جوانية استدلالية ، وليست تجريبية برانية استقرائية ، فهو يبدأ من العام والبنية والنمط ومن المعطيات القَبْلِيَّة الكامنة في عقل الإنسان ، ولا يدع العقل يقف على عتبات البيانات والمعطيات الحسية والبراهين الجزئية والبيئة المادية وكأنه وعاء سلبي تصب فيه المعرفة ، وإنما يقف بحُسناته كياناً إيجابياً مبدعاً يعطي مثلاً يأخذ ، ويلون المعرفة التي يكتسبها من الواقع . ولذا فإن صياغة الفروض العلمية والنماذج التفسيرية - حسب تصور تشومسكي - أمر منوط بالعقل والخيال ، وليس أمراً خاضعاً للحواس . لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن الحواس قد تم إلغاؤها ، فهي مسألة أسقية ، ونحن هنا أمام ثنائية هرمية يسبق الإنسان فيها الطبيعة ، ويسبق العقل فيها الحواس ، ويسبق الخيال الفعال فيها التلقي السلبي للمعطيات الحسية .

ويرى تشومسكي أن أهم الإمكانيات الكامنة في عقل الإنسان ومقدرته اللغوية . فاللغة تمثل لحظة فارقة في تاريخ الكون ، فهي ما يُمَيِّزه من الكائنات الأخرى التي تعيش مع الإنسان في هذه الأرض وداخل إطار الطبيعة ، ولكنها مع هذا ليس لها الفطرة اللغوية . ولغة البشر مختلفة بشكل جوهري عن لغات الحيوانات وطرق التواصل بينها . ولذا فإن تشومسكي يتحدث عن معجزة اللغة ، فيها يُكوّن المجتمع وتتقدم الحضارة ويظهر الفكر .

وكدليل على رؤية تشومسكي (الثورية التوليدية) للغة بحُسناتها مفطورة في العقل ، فإنه يشير إلى الزمن الذي يقضيه الطفل البشري (الذكور منهم والإناث ، الأذكى منهم والأغبياء) في تعلم لغته الإنسانية . فهذا الطفل يتعلم لغته بسرعة وبلا جهد وبكفاءة عالية خلال عام (وهو وقت أقصر من الوقت الذي يستغرقه بعض الرجال في تعلم قيادة سيارة) ، مع أنه وصف قواعد أي لغة قد يستغرق عدة سنوات من الباحثين . ويصل الطفل إلى مرحلة امتلاك اللغة بين سن الخامسة والسادسة ، أي أنه يمتلك ناصية نظام لغوي متكامل ، مُكوّن من مجموعة هائلة ومركبة من القواعد ، ويتطلب استخدامه كثيراً من قواعد النطق (الاستقراء والقياس) وقواعد التحويل وقواعد الترتيب التي لو تعلمها الطفل عن طريق الاكتساب لاستغرق في ذلك عشرات السنين . واللغة الإنسانية أفضل مرآة تعكس العقل ، فتمتازُ بين بنيتي العقل واللغة ، أي أن

اللغة هي بمنزلة البناء السطحي لبنية أكثر عمقا هي العقل الإنساني .

إن النظام المعرفي (الكلي والنهايي) عند تشومسكي يستند إلى ثنائية الإنسان والطبيعة ، وإلى الإيمان بأن البشر مختلفون عن كل من الحيوانات (النموذج العضوي) والآلات (النموذج الآلي) ، وأن هذا الاختلاف لا بد أن يُحترم ، فهذا هو أساس كرامة الإنسان وأخوة البشر . هذا الإيمان باستقلالية العقل عن البيئة المحيطة به وإبداعه ، هو أساس هجومه على الفلسفة الوضعية والتجريبية والمدرسة السلوكية ، فهي فلسفات لا تكتثر بالبنى العميقة ، أي ما يُميز الإنسان من بقية الكائنات . فالمدرسة السلوكية ، على سبيل المثال ، تكتفي بوصف البنية السطحية في أشكالها المادية المنطوقة (المسموعة) والمكتوبة ولم تتجاوز ذلك إلى التعرف على البنية العميقة . ويرى تشومسكي - استناداً إلى كل هذا - وجوب تأسيس علوم اجتماعية تدرس الطبيعة البشرية بحسبانها كيانا مستقلاً عن الطبيعة [المادية] لضمان حرية الإنسان وتعميقها . وهذه العلوم لا بد أن تكون ذات أسس راسخة في الطبيعة [المادية] البشرية ذاتها . ولا بد أن يتبع العمل الاجتماعي من تصوّر لطبيعة المجتمع في المستقبل وأن يستند إلى بعض الأحكام الواضحة بشأنه ، وهي أحكام تستند بدورها إلى رؤية للطبيعة البشرية . فمفهوم الطبيعة البشرية مفهوم محوري عند تشومسكي ، وهو يشير إلى كيفية التوصل إليها من خلال الدراسة الإمبريقية ، إذ إن هذه الطبيعة تتبدى في سلوك الإنسان وإبداعاته المادية والفكرية والاجتماعية .

ولكن مفهوم الطبيعة البشرية بالنسبة لتشومسكي ليس مفهوماً إمبريقياً محضاً . ففي حوار له مع بيل مويرز Bill Moyers طرح عليه هذا الأخير الإشكالية الهوبزية بطريقة مأكرة ، إذ سأله : "هل تعتقد أن البشر يحنون بطبيعتهم للحرية ، أم أنهم على استعداد لأن يخضعوا للنظام مقابل الأمن والأمان ؟" فكان رد تشومسكي قاطعاً : "هذه مسائل خاصة بالإيمان لا المعرفة ، عليك أن توجه آمالك نحو ما تؤمن به ... وأنا أحب أن أؤمن بأن الناس قد ولدوا أحراراً ، ولكنك إن طلبت مني دليلاً على ذلك لما أمكنني أن أعطيك إياه" . فسأله مويرز في دهشة : "أنت تتحدث عن الإيمان ، فهل «تؤمن» بالحرية ؟" فاجابه تشومسكي : "أحاول ألا يكون إيماني غير عقلاني ، فنحن يجب أن نسلك على أساس معرفتنا وفهمنا مع تمام العلم بأن معرفتنا محدودة ... ولكنه ، على أي حال ، إيمان خاضع لاعتبارات الحقائق والعقل" . وتشومسكي ، بهذا ، يطبق على الطبيعة البشرية نفسها المنهج العقلاني الذي طبقه على البحث اللغوي ، وهو أمر منطقي أن نبدأ بما نتصوره المقدرة المثالية ثم ندرس الأداء الفعلي : المثالي قبل المادي ، والعقلي قبل الحسي ، والإنساني قبل الطبيعي .

بعد أن عرضنا لبعض الجوانب الأساسية لرؤية تشومسكي التوليدية ، لا بد أن نشير إلى أنه على الرغم من أن نقطة انطلاقه هي ثنائية الإنسان والطبيعة ، فإن ماديته الصارمة تدفع به نحو إنكار هذه الثنائية ومعها وتأكيد الواحدية المادية . هذا التناقض كان محور النقاش بيني وبينه

في أثناء زيارته للقاهرة ، فقد طرحت عليه قضية "الطبيعة" ، وهو مصطلح يستخدمه بشكل مبهم أحياناً . سألت تشومسكي : ما الطبيعة ؟ وهل هناك داخل البشر ما يُميّزهم من الطبيعة ، أو أنهم جزء لا يتجزأ منها لا يتجاوزها قط ؟ وأشارت إلى بعض آرائه ولعبارة "معجزة اللغة" على وجه التحديد ، وسألته ألا تعني هذه العبارة خرقاً لقوانين الطبيعة والمادة في حالة الإنسان ، أو على الأقل انقطاعاً وعدم استمرار . ومضمون سؤاله كان ، في واقع الأمر ، عن الثنائية العميقة التي تسم رؤيته . ولكن تشومسكي ، شأنه شأن كثير من الفلاسفة الغربيين العلمانيين يحاول أن ينكر أي ثنائية حينما يواجه بالتضمنات الفلسفية لنسقه المعرفي . ولذا ضاق تشومسكي ذرعاً بسؤالي وأجاب إجابة تنم عن الضيق ، وقال : الطبيعة هي كل ما هناك ، والطبيعة لا تُردُّ إلى شيء خارجها (بالإنجليزية : نيتشر إز إرديو سابل nature is irreducible) ، وهذا اختيار ميتافيزيقي ليس له ما يسوغه . وقد عدت إلى كتاباته أبحث عن إجابة أكثر تفصيلاً وإفادة ، فوجدت أن تشومسكي الذي يؤكد كمنونية الأفكار يرى أنها في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إن هي إلا جزء من بيولوجيا الإنسان (شأنها في هذا شأن الجوانب الفسيولوجية التشريحية) . ولذا ، لا يتردد تشومسكي في أن يصف ملكة اللغة (معجزة اللغة) في مصطلح بيولوجي مادي حتمي صرف . فاكتساب الطفل للغة لا يختلف عن تغييره أسنانه من الأسنان اللبنية إلى الأسنان الناضجة ، وكالمراهق حين تتغير خصائصه التشريحية . فاللغة تنمو فسيولوجياً ، تماماً مثل أي صفات تشريحية أخرى ، من تلقاء نفسها . أي أن كلمة «كامن» تصبح «فسيولوجي» أو «فيزيائي» ، والبنى العقلية الكامنة هي بنى فيزيائية . والكمون لا يعني في واقع الأمر سوى البرمجة البيولوجية أو التشفير (بالإنجليزية : بروجرام program وكود code) ، وهي كلمات تشير إلى نظم مغلفة حتمية . ولا يتردد تشومسكي في أن يصف نظامنا العقدي بأنها النظم التي يقوم العقل (بحسبانه بنية بيولوجية) بإنتاجها . ويرى تشومسكي أن العقل قد "صُم" (بالإنجليزية : ديزاينيد designed) لتوليدها . والكلمة في الأصل الإنجليزي تعني «تصميم» ، ولكنه "تصميم هندسي لآلة" ، أي أن الكلمة التي تشير إلى الإبداع تستدعي في الوقت نفسه نظاماً مغلفاً حتمياً . ويبدو أن هذه ليست مجرد صور مجازية لوصف شيء يصعب وصفه باللغة المباشرة وإنما هو وصف حرفي ، إذ إن تشومسكي يشير إلى العقل بحسبانه عضو التفكير (بالإنجليزية : منتال أورجان mental organ) أو وحدة قياسية (بالإنجليزية : مودول module) ؛ فالعبارة الأولى وصف عضوي للعقل ، والثانية وصف آلي ، وكلاهما مغلق وحتمي . وكل النظريات العلمية التي تم تطويرها عبر تاريخ البشرية مستمدة من حصيلة محدودة من النظريات الممكنة وفرنّها لنا الهيئات (النظام البيولوجي) وتتناقلها الأجيال . وهكذا توارى الإبداع وحلت محل الحتمية البيئية والاجتماعية (التي نادى بها السلوكيون والتي هاجمها تشومسكي) حتمية بيولوجية .

هنا سألت تشومسكي مجموعة من الأسئلة : ما الفرق إذن بينه وبين السلوكيين إذا كان كل شيء بيولوجياً فيزيائياً مُشْفِراً في الجينات ؟ وإذا كان علينا أن نتبع الطبيعة (البرامج الطبيعية التي صُممت مسبقاً) ، أفلا يمكن إذن دراسة الإنسان كما تُدرس الفئران (وهذه حقيقة السلوكيين الكبرى في نظره) . وألا يصبح البناء الظاهر أكثر أهمية من البناء الكامن ؟ ألا يمكن "للخبراء" (الذين يكرههم تشومسكي بعمق لأنهم العمود الفقري للنظم الشمولية التكنوقراطية البيروقراطية التي اجتاحت المجتمع الحديث) أن يوفرُوا علينا الكثير من العاء ويدرسوا الموضوع (الإنساني) بالأنهم العلمية الدقيقة ، ويرسموا خريطة علمية دقيقة لما سيفعله الإنسان تحت ظروف معينة ، أي أن يتنبؤوا بسلوكه ومن ثم يمكنهم التحكم فيه ، كما أن بوسعهم أن يقرروا ما يجب أن يفعله الإنسان وما يجب عليه تحاشيه ، أي تطوير نظام أخلاقي "علمي" ؟ أليس هذا هو ذاته قمة الحتمية التي يحارب ضدها تشومسكي ؟

ثم دفعت السؤال إلى ناحية حساسة وسألته : على أي أساس يمكن التصدي لمجموعة من الخبراء أو العلماء (النازيين) الذين يرون أن بإمكانهم تحقيق السعادة للمجتمع من خلال الهيمنة عليه وإخضاعه للنماذج العلمية ، المادية الكمية ؟ أليس بوسع هؤلاء الخبراء أن يستخلصوا لنا قوانين الطبيعة التي يمكن على أساسها تأسيس المجتمع وتحدد ما هو خير وما هو شر وما هو نافع وما هو ضار ؟ وماذا لو قال هؤلاء الخبراء إن المستن والمورق واليهود يقفون ضد قوانين الطبيعة (الإنشائية - السعادة المادية) ؟ ماذا يمكن أن نقول لهؤلاء الخبراء ، لا سيما أن تشومسكي نفسه يؤمن بضرورة "توجيه" الشعب إن أخطأ (حسب ما قاله لي في القاهرة) ؟ أي أنني أهتم إلى أن هذه العقلانية المادية تؤدي إلى الواحدية والعقلانية التكنولوجية التي تؤدي بدورها إلى التجريبية والوضعية والسلوكية والهيمنة والتحكم .

فبين تشومسكي أن كلمة "فيزيائي" (أي مادي) حسب تصوُّره قد تم توسيع مدلولها تدريجياً لتغطي أي شيء يمكن فهمه ، ولذا فالكلمة لا تُعرَّف بمعزل عن العقل . ومضمون الكلمة سيتسع ليمطي كل الخصائص التي يكتشفها العقل . فأشرت إلى أن المرجعية النهائية في هذه الحالة ستظل هي العالم المادي والفيزيائي ، أي أن الإنسان يُستوعب في الطبيعة . ودُّكرته بالعبارات التي استخدمتها "الطبيعة لا يمكن أن تُردُّ لأي شيء خارجها" ، وهذا هو الافتراض السلوكي الأساسي . ثم أشرت إلى أحد أهم الأنماط الفكرية العامة في الحضارة الغربية : محاولة التجاوز من خلال المادة ، ملمحاً إلى أنه ينضوي تحت هذا النمط .

ثم أشرت إلى أن الأفكار الكامنة يمكن أن تكون إيجابية أو سلبية ، وأنه في إطار الحتمية البيولوجية التي يتحرك في إطارها لا يوجد مجال لقبول البعض ورفض البعض الآخر ، فالطبيعة هي كل ما هناك ، وعلينا قبولها والإذعان لها !

وقد طلبت من تشومسكي أن يفسِّر لي ظاهرة ما بعد الحداثة في الغرب ، وهي فلسفة تقف

على طرف النقيض من فلسفته فهو يؤمن بمعجزة اللغة ومقدرة الإنسان على توليد نظم اتصالية تستند إلى إنسانية مشتركة ، أما ما بعد الحدأة فتؤدي إلى انفصال الدال عن المدلول وإلى عطب اللغة واستحالة التواصل ، ومن ثم إلى انسحاب العقل واستحالة إقامة العدل . وكان الهدف من السؤال أن أبين له أن النظم الفلسفية المادية يمكن أن تؤدي إلى أي شيء ، وأن إيمانه بالإنسان ، النابع من إيمانه بمعجزة اللغة ، هو إيمان تابع من شيء كامن في الإنسان ، ولكنه في الوقت ذاته متجاوز للنظام الطبيعي (أي تابع من ثنائية مبدئية) . فكان رده هذه المرة جافاً وصارماً إذ قال : إن ما بعد الحدأة نتاج ثرثرة المثقفين الفرنسيين الذين يجلسون على المقاهي يضيعون وقتهم فيما لا يفيد ! فأحبرته بأن هذه الثرثرة تحولت إلى أهم اتجاه فلسفي في الغرب ، ولذا فالأمر يحتاج إلى تفسير .

وأخيراً ، أثرت مع تشومسكي قضية الدين والأدب والفن (وكان في ذهني كتابات علي عزت بيجوفيتش الذي ربط بينها ، وبين أنها نابعة من شيء غير مادي في الإنسان) ، وأنه برغم حديثه المستمر عن الإبداع لا يعالج إلا السياسة وبشكل مباشر ، وأن كتاباته اللغوية لا تعرض أبداً لأي نصوص أدبية ، والنص الأدبي نص لغوي مكشف يبين "معجزة اللغة" عن حق . فقال إنه سمع هذا النقد من قبل ، ولعل انشغاله بالسياسة هو السبب (وهو تفسير غير كاف في تصوري) . أما فيما يتصل بالدين ، فقد قال إنه لم يمكنه قط أن يتعامل مع فكرة الإله أو ما وراء الطبيعة ولا يمكنه أن يفهمها ، وأن مناقشة مثل هذه الأمور أمر لا طائل من ورائه . واعتقد أن إهماله الدين والأدب والفن نابع من حتمية البيولوجية الواحدة ، ولذا فهو يؤثر الاعتماد عن الحقل المعرفية التي يمكن أن تثير له أسئلة تقع خارج نطاق نموذج المعرفي .

ويبدو أن الحوار بيني وبينه كان حامي الوطيس ، ولذا برغم اتفاقنا معه على إجراء حوار يُسجل بالفيديو في منزلي ، وبرغم موافقته المبدئية ، وبرغم استئجارنا للأجهزة اللازمة وإعدادنا لفريق التصوير ، رغم كل هذا رفض تشومسكي الحضور في اللحظة الأخيرة ، حرفياً . إذ كان موعدنا هو الساعة السابعة وقرر هو عدم الحضور في الساعة السابعة إلا خمس دقائق !

النماذج كأداة تحليلية

كان من الحتمي أن يواكب رفض الموضوعية الفوتوغرافية وفكرة العقل السليم ، وهي تحولات في رؤيتي لعقل الإنسان وعلاقته بالواقع المادي ، ومن ثم في الفلسفة الكامنة وراء المنهج ، أقول كان من الحتمي أن يواكب كل هذه التحولات تحول في الأدوات المنهجية ، ولذا اتجهت نحو البحث عن أداة تحليلية تيسر لي عملية الرؤية الكلية للظواهر والأفكار والربط بين العديد من التفاصيل والموضوعات التي تبدو وكأنها لا علاقة للواحد منها بالآخر والربط بين مستويات الواقع المختلفة : العام والخاص ، والمجرد والمتعين ، والموضوعي والذاتي ، أداة تجعلني أتجاوز الرصد

المباشر والموضوعية المادية المتلقية دون السقوط في الذاتية ، أداة يمكنها أن تحيط بتركيبية الواقع والظاهرة الإنسانية .

وقد وجدت بغيتي في نهاية الأمر في النماذج التحليلية . ولعل التجارب المعقدة من الانتقال الرماني والمكاني هي التي عمقت في فكرة النماذج كأداة تحليلية (خاصة وأنا لا أسافر إلى مكان حتى ولو للمساحة إلا بعد أن أكون قد قرأت عن تأريخه ومعتقداته وحضارته) . فالانتقال من بلد إلى بلد هو في واقع الأمر انتقال من مرحلة زمنية (يتجلى من خلالها نموذج محدد) إلى مرحلة زمنية أخرى . أي أن الانتقال المكاني ، في كثير من الأحيان ، لا يختلف كثيراً عن الانتقال الزماني . فمدينة دمشق التي ولدت فيها والتي قضيت فيها طفولتي وشبابي ، كانت مدينة نصف حديثة نصف تقليدية . ولكنني قضيت مطلع شبابي في الإسكندرية التي كانت مدينة أوربية حديثة بمعنى الكلمة حتى منتصف الخمسينيات . وقضيت جزءاً كبيراً من شبابي في الولايات المتحدة ، التي كانت بلداً محافظاً للغاية (بشكل خائف) في أوائل الستينيات حين ذهبت إلى هناك ، ثم رأيت عناصر التحلل والتفكك تدخل عليه إلى أن أصبح بلداً مختلفاً تماماً مع منتصف السبعينيات . ثم عدت إلى القاهرة في السبعينيات ، القاهرة الانفتاح (بعد أن كنت قد تركت ورائي في الستينيات القاهرة "قلب العروبة النابض" و"قلعة الاشتراكية العربية") ، وانتقلت منها إلى السعودية وعدة بلاد عربية وغربية أخرى . وكل بلد انتقلت إليه كان يمثل لحظات تاريخية وحضارية الواحدة مختلفة عن الأخرى ببرغم تزامنها . وكان عليّ أن أفسر كل لحظة لنفسي وأن أبحث عن نوع من الوحدة وراء التنوع ، وإلا لأدركت الواقع كمجموعة من التفاصيل المتناثرة وأصبحت بالجنون ، أو لسقطت في التلقي السطحي للأمور وفي الموضوعية الفوتوغرافية (وهي - في تصوري - لا تختلف كثيراً عن الجنون أو على الأقل عن التخلف العقلي) . وفي محاولة التفسير هذه ، تمزقت فكرة النموذج كأداة تحليلية (دون استخدام المصطلح بطبيعة الحال) .

وما يسر عليّ التوصل لفكرة النماذج قراءاتي في أعمال ماكس فيبر وفي تركيزه على فكرة النمط المثالي (بالإنجليزية : أيديال تايب ideal type) . وقد قرأت أيضاً بعض أعمال الناقد الأمريكي ماير أبرامز Meyer Abrams خاصة كتاب المروءة والمصباح الذي يعطي تاريخاً للنقد الأدبي الغربي من خلال موضوعات أساسية ويربطه بتاريخ الأفكار . كما أن أعمال الناقد الأدبي رينيه ويليك René Welelk النقدية كان لها أعمق الأثر فيّ ، فعقليته جرمانية تبحث دائماً عن وحدة ما وراء التفاصيل الفكرية والنقدية التي يأتي بها .

وفي الدراسات الأدبية ، يحاول الباحث ألا يظل على مستوى الموضوع المباشر الظاهر (بالإنجليزية : سابجيكٲ subject) ، وإنما يحاول الغوص للوصول إلى الموضوع الأساسي الكامن (بالإنجليزية : ثيم theme) . والموضوع الأساسي الكامن يتسم بأنه يربط بين كل أجزاء

النص ويمنحه الوحدة التي لا بد أن يتسم بها إن كان نصاً جيداً . ولأن الموضوع الأساسي كامن ، لا يمكن للعقل رصدده بشكل مباشر ، وإنما عليه أن يكذب ويتعب ويجتهد ويُفكك ويركّب ويُجرّد ليصل إليه . ودراسي للموضوعات الأساسية الكامنة في الأعمال الأدبية كان تمهيداً حقيقياً لبنى النماذج كأداة تحليلية .

ومن النماذج الأدبية التي تأثرت بها منهج دراسة العمل الأدبي من خلال الصورة . وهذا المنهج يفترض أن الصور التي يستخدمها أديب ما تعبر عن الموضوع الأساسي الكامن في النص الأدبي أكثر من أي عنصر آخر فيه ، بل أكثر مما قد يقرره الأديب نفسه بشكل صريح واضح واع . ولذا يقوم الناقد الذي يستخدم هذا المنهج بدراسة الصور المتناثرة في العمل الأدبي ، فيربط بينها ويجرد منها أنماطاً أساسية يحاول أن يكشف مغزاها ويراهها ككل يتطور وكوحدة لها منطق داخلي ومعنى . فكتنا ندرس على سبيل المثال صور الدم والنوم في مسرحية ماكبث وصور العطش والريح في "الملاح القديم" ، وهكذا . وقد استوعبت هذا المنهج ، ولا تزال دراسة الصورة المجازية طريقة أساسية بالنسبة لي لتحديد الموضوع الأساسي الكامن في نص (سياسي وأدبي) ما . وقد كتبت دراسة عن الصورة المجازية العضوية والصورة المجازية الآلية بحسبانهما نموذجين إدراكيين أساسيين في الحضارة الغربية .

وقرأت كذلك كتابات نورثروب فراي Northrop Frye الناقد الأدبي الذي حاول أن يطور نظرية شاملة تستند إلى فكرة النمط الأولي (بالإنجليزية : آر ك تايپ archetype) ، وهي الرموز المتكررة المفروسة في لا وعي الإنسان الجمعي مثل الريح رمز عودة الحياة ، والمطر رمز الخصب ، وهكذا . وأخيراً درست كتابات المدرسة النيوية ، وقرأت بعض قراءاتهم النيوية للأعمال الأدبية ، وكانت قراءات ، والحق يقال ، مملّة مجردة طويلة تقول أبسط الأمور بأعقد الطرق ، ولكنها مع هذا كانت تحاول الوصول إلى جوهر البنية في تركيباتها وتشابك عناصرها وعلاقاتها . والقاسم المشترك الأعظم بين كل هذه المدارس الأدبية أنها تحاول أن تدرك الوحدة الكامنة خلف التنوع والتفاصيل . وبالتالي كانت تمهيداً حقيقياً لبنى النماذج كأداة تحليلية وتدريباً عليه .

والمردج - كما أشرت في المقدمة - هو بنية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان (بشكل واع أو غير واع) من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق (الموضوعية) ، فهو يستبعد بعضها بحسبانها غير دالة (من وجهة نظره) ويستبقى البعض الآخر . ثم يربط بينها وينسقها تنسيقاً خاصاً ، ويجرد منها غمطاً عاماً .

وعملية الربط حتمية قبل التجريد ، وكلاهما يحلر المعلومة بعض الشيء من فضائنها الخاص (زمانها ومكانها المباشرين) بحيث تصبح ذات مقدرة تفسيرية عالية . (أما السمة الأساسية في الموضوعية التلقائية والمعلوماتية ، فهي الفصل بين المعلومات ، بحيث تظل كل

معلومة ملتصقة بفضائها ومناسبتها ، لا يمكن إدراكها داخل نطع عام ، ومن ثم يمكن أن يفرض عليها أي معنى وأي اتجاه .

وقد ضربت مثلاً في مقدمة الموسوعة بنصين مكتوبين ، وهما حديثان شريهان : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، فلا هي أطمعتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" . أما الحديث الثاني فهو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "بينما رجل يمشي ، فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ حفه ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر" (أي في كل حي من الحيوان والطير ونحوهما) .

في محاولتي شرح طريقة التوصل للنموذج الكامن ، بينت أنه بوسع الباحث أن يقوم بتقسيم الحديثين إلى وحدات متقابلة مختلفة تشكل عناصرهما الأولية . وهي في الحديث الأول : امرأة - قط - جوع - زيادة الجوع - موت - جهنم . أما في الحديث الثاني فهي : رجل - كلب - عطش - سقى - حياة - جنة .

على هذا المستوى المباشر (حصر عناصر الحديثين كما هما في إطار الموضوعية الملتصقة) ، سيقف الحديثان كما لو كانا متناقضين . ففي الحديث الأول امرأة وفي الثاني رجل ، وفي الأول هرة وفي الثاني كلب ، وفي الأول جوع وفي الثاني عطش ، وفي الأول بطش بالحيوان وزيادة الجوع ، وفي الثاني رفق بالحيوان وري للعطش ، وينتهي الحديث الأول بالموت و جهنم وينتهي الثاني بالحياة والجنة . وتحليل المضمون السطحي دائماً يقف عند هذا المستوى لا يتجاوزه ويهملك الباحث في إحصاء عدد الكلمات التي تشير إلى موضوع ما .

ولذا كي نفهم الحديثين لابد أن نقوم بعملية الربط والتجريد ، بحيث نتجاوز عناصر كل حديث الفضاء الزماني والمكاني المباشر لكل منهما ، حتى يمكن رؤيتهما في علاقة كل منهما بالآخر . وستأخذ عمليتي الربط والتجريد الشكل التالي : المرأة والرجل يتم ربطهما الواحد بالآخر ثم يجردان إلى إنسان - القطه والكلب : حيوان - الجوع والعطش : نتيجة حتمية (حياة - موت) - البطش بالحيوان وزيادة الجوع والرفق بالحيوان وري العطش : فعل إنساني - موت القطه وحياة الكلب : نتيجة مادية - الجنة والنار : نتيجة روحية .

ثم نريد من عمليات الربط والتجريد على النحو التالي : فاعل - مفعول - فعل - عاقبة . والإنسان هو الفاعل ، والحيوان هو المفعول به ، وثمة فعل يؤدي إلى نتيجة .

ويمكن ، عند هذه النقطة ، أن ترتفع بعملية الربط والتجريد إلى المستوى المعرفي ورؤية الكون . ولابد من معرفة بعض المفاهيم الأساسية الحاكمة في الإسلام (الاستخلاف - الأمانة -

وضع الإنسان في الكون) ، فهذا يساعدنا على الوصول إلى البعد المعرفي وإلى تحديد العلاقة بين الإنسان (الفاعل) والحيوان (المفعول به) . ومن كل هذا نستنتج أن الحديشين يتحدثان عن علاقة الإنسان بالطبيعة ، وهي علاقة استخلاف واستئمان ، فالإنسان يُوجد في مركز الكون لأن الله كرمه وحباه عقلاً وحكمة . وقد أعطاه الله الطبيعة ولكنه ليس بصاحبها ، فقد استخلفه فيها وحسب وقد قُبل هو أن يحمل الأمانة ، ولذا فهو لا يمكن أن يبددها وكأنه هو وحده في الكون : كائن لا متناه مثاله .

وبعد عمليات الربط والتجريد والإبقاء والاستبعاد تتكون صورة أو خريطة إدراكية يتصور صاحبها أنها مماثلة في تناسقها وثرابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع الذي يرصده أو عناصر النص الذي يدرسه . وقد أشرت إلى أن النموذج هو مجموعة من الصفات التي تحولت إلى صورة متماسكة ترسخت في أذهاننا ووعينا بحيث لا نرى الواقع إلا من خلالها ، فهي رؤية متكاملة للواقع في أغلب الأحيان .

واستخدام النماذج مسألة حتمية فهي تدخل في صميم عملية الإدراك ، لأن الإنسان لا يدرك شيئاً بشكل مباشر ، وإنما من خلال نموذج (نسميه «النموذج الإدراكي») . والنماذج الإدراكية في كثير من الأحيان غير واعية ، يستطنها المرء تدريجياً وتصبح جزءاً من وجدانه وسليقته وإدراكه المباشر من خلال ثقافته ، بل وتفاصيل حياته وما يتعامل معه من أشياء ومنتجات حضارية (منزله - رداءه - طعامه - الأغاني التي يستمع إليها) ، ويتم كل هذا في معظم الأحيان دون وعي منه . وقد ذكرت من قبل قضية الهدية وبطاقة الشكر بعد الدعوة لتناول طعام العشاء . ومن الواضح أن من قدم الهدايا وأرسل بطاقة الشكر لم يفعل ذلك واعياً بتضمينات فعله المختلفة .

وسأورد بعض الأمثلة الأخرى ، لأبين مدى هيمنة النماذج الإدراكية على لا وعي الإنسان وطريقة إدراكه للواقع : كنت في منزلي في الولايات المتحدة ، وكانت زوجتي في إنجلترا تجمع المادة العلمية لرسالتها للدكتوراه في إنجلترا . وفجأة انتابني شك عميق في أن ابني الصغير مريض . فقيست درجة حرارته ، وبالفعل وجدتها مرتفعة . فاتصلت على الفور بالطبيب لأحدد موعداً معه ، فسألني الممرضة عن "مسز المسيري" (حيث اعتادت أن زوجتي هي التي تأخذ طفلياً للطبيب) ، فأخبرتني بأن مسز المسيري في إنجلترا . ثم أضفت بحدة واضحة أنه لا يوجد وقت نصيحه في مثل هذه الأسئلة ، إذ لم أرى أي علاقة بين السؤال والموقف الخرج الذي وجدت نفسي فيه . فطلبت مني بحزم أن أضع سماعة التليفون وأن أقيس درجة حرارته مرة أخرى . وحينما فعلت وجدت أن حرارته عادية ، فاتصلت بالممرضة لأخبرها أن كل شيء على ما يرام . فصحكت الممرضة ، وعنفتي قائلة : "إنني لأبذل من الصنف الذي يهتم زوجته بالقلق المفرط على الأولاد" ، فاعترفت بذلك . (أصف زوجتي بأنها رئيسة لجنة القلق العليا) . فأخبرتني بأن هذا غط

(أي نموذج) سائد: في غياب الزوجة تسيطر على الزوج النماذج الإدراكية التي تسيطر على زوجته ، فهو يعمل محلها وظيفياً . ويتم كل هذا دون وعي منه ، وأنها حينما سألتني عن مسر المسيري وعرفت بغيابها ازدادت يقيناً أنها حالة "قلق وظيفي أو نماذجي" ، وهي حالة قلق غير واعية يقع الإنسان في برائتها دون أن يدري ، حيث يقلق الزوج "تيابة" عن الزوجة . وهذا يبين مدى قوة النموذج (ومدى قوة التحيزات الكامنة داخله ، الأمر الذي سأتناوله فيما بعد) .

وقد حدث لي حادث طريف آخر لم يمكنني أن أفهم كنهه إلا بعد فترة ، وعن طريق الصدفة . فقد كنت سائراً في مطار نيويورك ، فأوقفتني سيدة أمريكية لتقول لي : "رائحتك جميلة للغاية You smell so nice" ، ثم تلعثمت وارتبكت وسارت إلى حال سبيلها وهي في خجلها الشديد . وكنت في أحد الفنادق في واشنطن حيث تقوم المسئولة عن الاستقبال بحمل حقائبنا (من باب التوفير ، فالفندق ليس فيه شخص مختص بحمل الحقائب هزيع حق) . وأخبرتني بأنني جنتلمان لا يمكن أن أسمح لسيدة بأن تحمل حقائبي ، فأصرت على موقفها وحملت الحقائب . وإذا بها فجأة تترك الحقائب تسقط على الأرض وتقول : "د. المسيري ، إن رائحتك جميلة للغاية Dr. Elmessiri, you smell so nice" ثم تلعثمت وانتابها هي الأخرى الخجل ، وبدأ تساورني الأوهام بأن سحري لا يقاوم ، وإلا كيف تفسر هذا العدد من الضحايا ؟ المرة الثالثة كنت أتناول طعام الإفطار مع صديقي المؤرخ كافين ريلي حينما قالت زوجته "you smell so nice" . فوقفت على الترو وأخبرتني بما حدث لي في المطار وفي الفندق قائلاً إنني اشتريت العطر مع زوجها ، وأتذكر أنه من العطر الرخيص ، فهو أولد سبايس ، دفعت فيه بضعة دولارات . فضحكت وقالت إن السيدات اللاتي عبّرن عن إعجابهن بعطري ، لابد أنهن فوق الأربعين (وبالفعل كن كذلك) . ثم أردفت قائلة : إن أولد سبايس هو تقريباً العطر الوحيد الذي كان متاحاً في الستينيات (قبل الهجمة الاستهلاكية) وكان أباؤهن يضعون هذا العطر ، ومن ثم فهو يذكرهن بطفولتهن ! فضحكنا نحن كلنا ، لأن رؤيتنا تغيرت تماماً بعد معرفة السبب أو النموذج الكامن وراء الأحداث والذي يمنحها الوحدة والمعنى . واختفت فوراً صورة دون جوان الخطير وحلت محلها صورة الأب الوقور الحنون ، الذي لا يمثل أي خطر ! وهذه القصة أروها دائماً لأبين كيف أننا يمكن أن ننسى تفسير الواقع ، وكيف يمكن لواقعنا أن يصبح تفاصيل متناثرة إما غير مفهومة ، وإما تفاصيل نفرض عليها تصوراتنا القاصرة ، إن لم نفهم النموذج الحاكم والتحيزات الكامنة فيه .

وحينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ ذهبت لإعطاء أول محاضرة للطلبة (والطالبات) في كلية الآداب جامعة عين شمس (إذ كنت قد انتدبت هناك) . وقيل لي إن المحاضرة في مدرج كذا ، فذهبت إلى المدرج المذكور ودخلت ، فوجدت أن هناك عدداً كبيراً من البنات يجلسن في المقدمة وقد وضعن قدراً كبيراً من المكياج ويرتدين فساتين مزركشة ،

فخرجت على التو ثلثاً مني أن هناك "حفلة" وأنتي أخطأت المكان . فتماذجي الإدراكية الأمريكية والمصرية (حتى بداية الستينيات) كانت تحدد مجال الرؤية لي ، وحسب هذه النماذج فإن الفتيات لا يضمن هذه المساحيق ولا يرتدين مثل هذه الفساتين إلا في الحفلات (كما كان الأمر في جامعة الإسكندرية حين تركتها ، وفي الجامعات الأمريكية التي درست فيها) . ولكن أحد الطلبة سارع بالخروج من المدرج ليخبرني أن هذه ليست حفلة وإنما محاضرة ، وكان عليّ تعديل نموذجي الإدراكي ، إذ أدركت أن الفرق بين الحفلة والمحاضرة لم يعد كبيراً كما كان الأمر في الماضي .

ومع هذا هناك توظيف واعٍ للنماذج الإدراكية ، كما هو الحال في الإعلانات التليفزيونية ، حين يدرك مخرج الإعلان أنه يمكن توظيف كل غرائز الإنسان النبيلة والخسيسة في تسويق السلعة المعلن عنها ، فيربط مثلاً بين أحد أنواع السمن والسعادة الزوجية ، وأحد أنواع المياه الغازية أو العطور والجاذبية الجنسية ، وعاطفة الأبوة والتليفون المحمول وغير المحمول وهكذا .

وقد يؤدي نمودي النموذج الإدراكي المهيمن إلى مشاعر سلبية ، إذ إنه يكشفنا أمام أنفسنا ويُعدّل من خريطتنا ، وهو أمر ليس بالهين . اشتركت في ندوة بيت الثقافة لمخون طنزم لموقع تم موجهزف في برلين ، حضرها د. نصر حامد أبو زيد ود. رضوان السيد ود. أركون وآخرون . وقد دارت حوارات ساخنة بيني وبين الدكتور أركون ، إذ كان يناقش بسيادة العلوم الطبيعية ومعاييرها (وكان يتصور أن هذه هي العقلانية بعينها !) ، فأخبرته بأن في هذا ضياعاً للإنسان وأن المطلوب هو فصل العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية ، أي أنني أخبرت عن النموذج المهيمن على فكره ، وأن فكره ليس فكراً إنسانياً كما يتصور ، فنظر لي بعمق ولم يجب . ثم التفت إلى الحاضرين وذكرت عمانويل كانط وأعضاء مدرسة فرانكفورت بحُسانهم مدافعين عن ثنائية الإنسان والطبيعة . ثم أضفت أنني كمفكر مسلم أعتبر نفسي وريثاً حقيقياً لهما أكثر من دعاة ما بعد الحداثة في الغرب . وكان لقولي هذا وقع سيئ لأنه كشف النماذج المهيمنة والتحيزات الكامنة عند معظم الحاضرين . وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان . ولذا عند مفادرتي القاعة حاولت فتاتان الهجوم عليّ ، لولا أن أوقفهما الحرس .

وكنّت مرة ألقى محاضرة في جامعة الملك سعود ، حضرتها بعض الأستاذات . وكنّت قد طورت لنوي نموذج تحليلي يرى أن الحضارة الغربية الحديثة قد بدأت بداية إنسانية هيومانية ولكنها أصبحت معادية للإنسانية ، وأنه من ثم يمكن الحديث عن حضارتين غربيّتين حديثتين . واحدة متمركزة حول الإنسان والأخرى متمركزة حول المادة . وكانت من بين الحاضرات أستاذة مصرية ، قاطعتني فجأة ، وأخذت تسيّني بصوت مرتفع ، ولعدة تزيد عن ربع ساعة . فاضطر رئيس الجلسة إلى إنهايتها ، واتصل بي بعد ذلك واعتذر عما حدث ، ودعاني لإلقاء المحاضرة مرة أخرى . ثم فوجئت بالأستاذة تتصل بي هي الأخرى ، وأخذت تعتذر لي لمدة تزيد عن ربع ساعة !

إذ يبدو أن خريقتها الإدراكية قد تم تعديلها بغية ، فخلقت عندها حالة من عدم التوازن ، فسلكت بطريقة اضطرت أن تعتذر عنها فيما بعد .

والمناذج الإدراكية كامنة في النصوص التي يقرأها الإنسان أو يكتبها وفي الظواهر الاجتماعية التي يوجد داخلها والمعايير التي يعيش حسبها ، ومهمة الباحث - في تصوري - أن يحاول اكتشافها ، وأن يعرف ملامح النموذج المهيمن في أدب هذا الأديب وفكر ذلك المفكر ، أو النموذج الكامن وراء سلوك أعضاء هذا المجتمع . وهنا يمكننا أن نتقدم خطوة للأمام ونشير إلى "النماذج التحليلية" ، أي النماذج الواعية التي يصوغها الباحث من خلال قراءته للنصوص الغتلفة وملاحظته للظواهر المتنوعة ثم يقوم بتفكيك الواقع (أي فك عناصره الأساسية الواحد عن الآخر) وإعادة تركيبه من خلالها بحيث يصبح الواقع (أو النص) مفهوماً بشكل أكبر . وكثيراً ما كنت أذكر لطبعتي أن النموذج التحليلي التفسيري الذي يستخدمه الباحث لا يتضح له تماماً إلا بعد الانتهاء من كتابة البحث ، ولذا فهو يجب ألا يكتب المقدمة إلا بعد الانتهاء من البحث . بل إنه سيجد نفسه ، بعد أن يتضح له النموذج التحليلي الكامن في بحثه ، مضطراً لإعادة كتابة البحث مرة أخرى بعد وضوح الرؤية . هذا باختصار شديد هو منهج استخدام النماذج (بما يتضمن من رفض للموضوعية المطلقة ولفكرة العقل السليم) الذي أصبح أمراً أساسياً في منهجي البحثي .

والمناذج كما بينا نتاج إبداعي ذاتي في تفاعله مع الواقع الموضوعي ، ولذا فتطبيق النموذج (التحليلي) على الواقع ينجم عنه إثراء للنموذج ذاته ، إذ إنه يتم توسيع نطاقه من خلال الظواهر والمعطيات المادية التي يحاول تفسيرها ، فهي قد تتحداه وتبين عجزه التفسيري ، ومن ثم لابد من تعديله بعض الشيء حتى نزيد من قدرته التفسيرية ، أي أن العلاقة بين النموذج والواقع علاقة حلزونية ، لابد أن يكون الواحد فيها منفصلاً على الآخر ، (كما حدث لي في أول محاضرة لي حين ظننت خطأ أن هناك فرقاً بين الحلقة والمحاضرة) . ولكن الأهم من هذا أنه بعد استخدام النماذج يمكن اختبار نتيجة البحث بشكل موضوعي ، أي أن استخدام النماذج يفترض وجود علاقة تبادلية (حلزونية) بين الذات والموضوع .

ولم تكن المسألة بهذا الوضوح منذ البداية ، ولم تكن مصطلحات المنهج الذي استخدمته متبلورة ، ولكني مع هذا كنت أتحسس طريقي نحوه في دراستي "الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة" (التي كتبتها بالإنجليزية لأول مرة عام ١٩٦٥) . وقد أشرت من قبل إلى أن النموذج يأخذ شكل صورة إدراكية متبلورة . والصورة التي استخدمتها في تلك الدراسة هي صورة الإنسان الطبيعي الذي هو بلورة لعدد من الصفات وجدها لا تختلف كثيراً عن مفهوم الرأسمالية التنافسية للإنسان . وقد استخدمت في هذه الدراسة مصطلح "الأسطورة الحاكمة" (كما سأبين فيما بعد) للإشارة إلى النموذج . ورغم أنني أسقطت هذا المصطلح ، فإنني أجد أنه

يبرز سمة هامة للنموذج ، وهي أنه يشبه النموذج بالصورة المجازية . فكلاهما ليس له وجود موضوعي مادي ، وإنما هما أداة إدراكية تحليلية مفيدة بمقدار ما يسهمان في تنظيم الواقع المادي المكون من معطيات متناثرة . وكثيراً ما كنت أحذر طلبتي من تصور أن النموذج (شيء) حقيقي وليس مجرد أداة إدراكية تحليلية .

ولكن من أكثر المحاولات درامية وتبلوراً (قبل اكتمال المصطلح والمفهوم والأداة التحليلية) ، ما ورد في كتاب الفرهوفس الأرضي . فقد تناولت عدة عناصر في الواقع وحاولت أن أرى العلاقة بينها بحُسانها تعبيراً عن نموذجين مختلفين : وجدان البساطة والطبيعة والعداء للتاريخ في مقابل وجدان التركيب التاريخي والإنساني . (وهي نفس النماذج التحليلية التي كنت قد استخدمتها في رسالتي للدكتوراه ثم في كتاب نهاية التاريخ ، وهي تعبر عن نفس ثنائية الإنسان والطبيعة التي تبدى في معظم كتاباتي) :

"حينما يتناول المصري طعامه ، فهو يتناول وجبة ساهمت آلاف السنين من التاريخ المصري في طهوها . ولهذا السبب ، نحن لا نقدم الكوسة المسلوقة (والعياذ بالله) إلا للضري ، أما الأصحاء فهم يأكلونها إما بالبشملة ، أو منحشية بالأرز أو اللحمية المفرومة أو كليهما ، أو قد تقدم مطبوخة بالصلصة والسمن البلدي ، وهذا أضعف الإيمان . على العكس من هذا ، حينما يقرر المواطن الأمريكي تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية في الولايات المتحدة) فزوجته عادة ما تقدم له كمية لا بأس بها من البطاطس المسلوقة أو المقلية ، مع شريحة كبيرة من اللحم المشوي على الفحم (على طريقة آبائنا الأوائل) ، أو المطبوخ على نيران البوتاجاز (دون الإخلال بالبنية البدائية لعملية الطهي) . فإذا أراد الأمريكي الضيوع ، فإنه قد يأكل الهامبورجر ، وهو نوع من اللحم المفروم الأحمر واخْلوط بالحد الأدنى من الخضراوات والتوابل ، وهو عادةً يؤكل إما بالخبز وإما مع البطاطس الحتمية . وحينما يسأم الأمريكي رتابة حياته الغذائية ويفكر في تناول طعام جيد له مذاق خاص فهو عادةً يتناول وجبة أجنبية (صينية أو فرنسية) نتاج تاريخ بلد آخر . ولذلك ، فمن أيسر الأمور تناول طعام أجنبي ، بل وشراء موااده الخام في أي مدينة أمريكية .

"وأنا لا أبحث هنا عما إذا كان الأكل المصري أفيد أو أصح من الأكل الأمريكي أم لا ، وإنما أشير إلى طريقة (صنع) هذا الأكل وإلى أن الطريقة المصرية في الطهو أكثر تركيبياً من الطريقة الأمريكية ، وهذا ينطبق حتى على الفول المدمس الشهير ، الذي يترك على نار دافئة طوال الليل حتى ينضج ثم يضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون .

"وإذا ما نظرنا إلى علاقة الرجل بالمرأة وبالأمرأة في المجتمعين المصري والأمريكي للاحظنا نفس الاختلاف . فالرجل الأمريكي حينما ينظر إلى امرأة ، فإنه يرى امرأة وحسب على قدر ما من الدكاء والحسن . فإذا أراد التعرف عليها فلا داعي للمؤامرات والمناورات والتلميحات . وإذا قرر الزواج منها فهو يتزوجها - إن هي وافقت - دون ضجيج أو صخب (ويطلقها بالبساطة

نفسها) . وهو عادةً ما يذكر هذا الأمر لأسرته (الأب والأم والإخوة والأخوات ، فالأعمام والأحوال وأولادهم ليسوا من الأسرة) . وقد يدعوهم لحفل زفافه ولكن هذا لا يتم إلا من باب العلم بالشيء وحسب ، لأنه لا ينبغي رضاهم ولا يخشى سخطهم ، فعلاقته بأسرته قد انقطعت بعد بلوغه السادسة عشرة واقتصرت على المقابلات في أعياد الكريسماس ، ثم تظل تنضم إلى أن تظل قاصرة على تبادل بطاقات المعايدة الخالية من أي محتوى إنساني شخصي . فالرسالة المكتوبة على البطاقة عادةً ما تكون مطبوعة ، بمعنى أنها ليست رسالة شخصية تعبر عن علاقة خاصة وإنما هي أقرب إلى التقرير العائلي العاطفي . لقد أصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريراً عاطفياً عائلياً من هذا النوع أرسله لي أحد أصدقائي يخبرني فيه (ويخبر مائة شخص آخر) بأنه وزوجته وأولاده يرفلون في حلل السعادة وأنهم يخصونني بالسلام ! إن علاقات الأمريكي الاجتماعية من البساطة إلى درجة أنه يمكنه أن يكتفي بالتقرير بدلاً من الخطاب الخاص التقليدي . وكنت أصاب بالذعر الشديد لرؤية هؤلاء الأمريكيين «المرنين» وهم يودعون أمهاتهم وآباءهم في بيوت العجزة ، وهي بيوت شيدت لتسد حاجة نشأت في المجتمع الأمريكي نتيجة لتفكك الأسرة الأمريكية . فعندما تبلغ من الخامسة والخمسين فانت لا تظن مع ابن من أبنائك ، كما أنك لا يمكنك أن تعيش في منزل بمفردك لأنه سيكون مكلفاً وكبيراً ولذا تنتقل إلى أحد هذه المنازل المزودة بكل وسائل الراحة العصرية من سرائر نظيفة إلى أجهزة تكييف هواء إلى أسطوانات إلى حجلات فسيحة تجلس في إحداها لتنظر إلى التلفزيون بقية أيامك الأرضية . (في دراسة لاحقة قارنت بين بيوت المسنين ومعسكرات الاعتقال النازية . فكلاهما يضم بشراً يرى المجتمع أنهم غير منتجين أو «أفواه تستهلك ولا تنتج» (بالإنجليزية : بوسلس إيترز useless eaters) . ولكن بينما يتم القضاء على المسنين في الغرب بالتبريد (التكييف) يتم إبادة نزلاء معسكرات الاعتقال النازية بالتسخين [أفران الغاز]) .

«أما المصري فإنه حينما ينظر إلى امرأة يرى امرأة ويرى طبقة اجتماعية وتاريخاً طويلاً ، فإذا قرر التعرف على المرأة / الطبقة فيجب عليه أن يعرف خلفيتها العائلية لأن هذا سيحدد تكتيك وإستراتيجية الهجوم . وإن قرر الزواج فالزواج لا يتم على سنة الله ورسوله وحسب بل حسب ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شبكة ومهر ومقابلات بين الأسر للتعارف والتباهي . وهذا المصري بعد تزوجه يبقى على علاقته بأبيه وأخيه وبأم زوجته وأبيها وأخيها . وعلى الزوج والزوجة أن يقسما وقيهما بالعدل والقساط في زيارة الأقارب - أقاربها وأقاربه ، والويل كل الويل لمن لا يقي الموازين الدولية الدقيقة . فإن أراد المصري أن يطلق - لا قدر الله فإنه يكتشف أن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله ، وأن المجتمع لن يتركه وشأنه قبل أو بعد الطلاق ، فرسل الصلح وفاعلو الخير ولله الحمد كثيرون . وحينما تهرم الأم أو الأب ، فإننا لا نرسلهما إلى أي فردوس أرضي (فهذه المؤسسة العلمية المعروفة باسم «بيوت العجزة» غير معروفة بعد في

مجتمعنا المتخلف) ، بل على المصري أن يبقّي على علاقته بأبويه ، يرسل لهما النقود ويحارب ضد زوجته التي ترى أنه يبالغ بعض الشيء في كرمه ، كما تحارب هي ضده حتى تبقى على علاقتها الوثيقة مع أمها (أي حماته المصرية الشهيرة) التي تنفّض عليه عيشته دائماً . إن الفرد المصري لا وجود له خارج هذه الشبكة الهائلة من الطقوس الاجتماعية والقيم الدينية ، فوجوده وحوادث اجتماعي تاريخي بالدرجة الأولى ، ووجود فردي بالدرجة الثانية .

ولعل هذا البعد التاريخي للوعي المصري هو ما يفسر ظاهرة غرام السيدات المصريات الزائد بالماكياج (بغض النظر عن انتماهن الطبقي) . فالماكياج هو محاولة للبعد عن البساطة الأولى ، إنه ارتداء لفنّاق الفن فوق وجه الطبيعة ، وهو ضرب من الطقوس الاجتماعية التي تحول الظواهر البيولوجية إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وإنسانية . أما السيدات الأمريكيات فادراً ما يضعن هذه العطور والمساحيق الساحرة بهذا السخاء . وإن وضعنها فذلك لا يتم إلا في مناسبات خاصة جداً (وليس مجرد الذهاب لحضور محاضرات في الجامعة مثلاً) . ولأحظت في زيارتي الأخيرة لأمريكا أن ثمة ضيقاً شديداً بالثياب من أي نوع ، ورأيت في الطرقات شباناً وشابات يرتدون بالفعل الحد الأدنى من الملابس (الأمر الذي يذكرنا مرة أخرى بآبائنا الأوائل) . فالتخفيف من الثياب في أمريكا ليس الغرض منه إثارة الفتنة (كما هو الحال في بعض المحاضرات) وإنما الغرض منه هو التبسيط ، ولذلك فالمرء يفرّج من منظر الفتيان والفتيات منكوشتي الشعر المرتدين الهللهيل والحرق .

ونبحثُ المواطن الأمريكي العادي عن البساطة الأولى للطبيعة قبل تحولنا إلى مخلوقات اجتماعية تاريخية يتضح أيضاً في كرهه المميت للمدينة وزحامها . وحينما كنت أذكر لأصدقائي أنني لا يمكنني أن أحيا إلا في مدينة نيويورك أو على الأقل بالقرب منها كانوا لا يفهمون ما أعني على درجة الدقة . فالحياة المثلى بالنسبة للأمريكي العادي هي الحياة بجوار الطبيعة أو (في الريف) بهدوئه الفردوسي على حد قولهم . وعلى الرغم من أن هذا الأمريكي العادي يعيش عادةً في منزل من دورين تحيطه حديقة صغيرة محاطة بالسيارات والأشجار ، وعلى الرغم من أن مراكز الانبضاع تبعد عادةً عن مناطق السكنى بضعة كيلو مترات (وهذا هو الجنون بعينه في نظري) ، فإن الأمريكي العادي دائم التملل والشكوى من الزحام ، لأنه يود أن يحيا بمفرده إن استطاع ، مثل إنسان روسو الذي يعيش على القطرة والطبيعة دون أن تفسده الحضارة والمدنية . وقد يُقال إن الأمريكي العادي يود أن يحيا على القطرة على أن تكون معه عربتان وثلاجة وغسالة أوتوماتيكية وجهاز تسجيل وفتاحة علب كهربائية ، وفي هذا بعد عن الطبيعة . ولكن دحول هذه الأشياء لا يفسد بساطة حياته ، فالتاريخ والمجتمع ، وليس الآلات ، هما اللذان يأتينا بالخبرة التي تفسد علينا فردوس البراءة الأولى .

”وإذا قارنا سلوك الأمريكي بسلوك المصري في هذا المضمار للاحظنا مرة أخرى الفروق

الواضحة ، فطموح الإنسان المصري يتلخص في أن يقطن بالقرب من أهله وعشيرته وأسرته ،
ويا حبذا لو كان الجميع في القاهرة في قلب العروبة النابض ¹ .

وبرغم أن هذه كانت محاولة جادة (بطريقة كوميدية) لتقديم دراسة مقارنة للنموذجين
الإدراكيين أو للرأيتين المصرية والأمريكية (كما تبديان في الطبخ والماكياج والملابس والعلاقات
العائلية) ، فإن مدير الجامعة (وكان صديقاً لي) استدعاني ليعنني بسبب هذه "المسحرة" غير
الأكاديمية . وعيناً حاولت أن أقنعه بأنه ليس من الضروري أن تكون الأمور الأكاديمية عابسة
الوجه وإنما يمكن أن تكون دمهها خفيف . ولكن صديقي السيد المدير كان يرى غير ذلك . كما
أضاف قائلاً إنه يعرف كثيراً من الأمريكيين الذين لا يتصفون بهذه السمات . فوافقته بطبيعة
الحال وحاولت أن أبين له أن دراستي إنما هي دراسة للنموذج المهيمن (دون استخدام المصطلح)
وهي نتيجة لدراسة النصوص الفكرية الأساسية الغربية ابتداءً من هوبز Hobbes وماكيافللي
Machiavelli وانتهاءً بداروين وماركس وفرويد ، ونتيجة ملاحظة لثلاث المواقف ، وأني حينما
أطرح هذا النموذج بحسبانه نموذجاً تفسيرياً ، فهذا لا يعني أن ثمة تطابقاً بين النموذج والواقع
، فهناك نماذج فرعية كثيرة متناقضة للنموذج المهيمن متصارعة معه ، ويحملها أناس حقيقيون ،
ولكنني حينما أقدم صورة نماذجية لا بد أن أتغاضي عن بعض هذه التفاصيل لأركز على النمطي
والنواتر ، ولكنني ، مع هذا ، أظل واعياً تمام الوعي بأن النموذج الذي أطرحه ليس هو الواقع ،
برغم أن هذا النموذج يحاول تفسيره . ولتوضيح فكريتي أقول دائماً إنني "أرفض أمريكا
[النموذج] ولكنني أحب الأمريكيين [الأفراد المتمعنين]" . فكان رئيس الجامعة يكتفي بهز رأسه ،
ولكنه كان يبدو عليه أنه غير موافق .

وقد استخدمت فيما بعد النماذج التحليلية (النموذج كصورة كامنة) في تحليلي لموقف
المستوطنين من الانتفاضة . فأخذت صورة "الحمام والصقور" التي تستخدم في تصنيف المواقف
السياسية بحسبانها تعبيراً عن نقطتين متطرفتين من الاعتدال والعشدد ، وبُينت أن هذه طريقة
متمسكة للغاية في عملية الرصد تنسم بالتبسيط والاختزال . واقترحت توسيع النموذج
التحليلي بما يتفق مع تركيبة الظاهرة الصهيونية بأن تضاف "طور إدراكية أخرى" (أي الفراض
وجود نماذج إدراكية أكثر تنوعاً من الحمام والصقور تهيمن على الوجدان الإسرائيلي) مثل
الدجاج والنعام (وتنويغات عليها) :

"والحمام كما يقال مسالمة دائماً ، والصقور يُفترض فيها أنها عدوانية شرسة . أما الدجاج
فهو متخصص في الهرب ، ويجيد النعام فن دفن رأسه في الرمال . والنعام هو أكثر أنواع الطيور
الإدراكية انتشاراً في المستوطن الصهيوني وبخاصة بعد الانتفاضة ، وإن كنا لا نعلم عدداً كبيراً
من الدجاج الذي يتحدث كالصقور ، وتوجد قلة نادرة من الحمام ليس لها وزن كبير (على
عكس ما تصوره الشائعات) ، وإن كان هناك عدد كبير من الصقور التي تتحدث كالحمام .

ويقول الدكتور قدري حنفي : إن اليهود الشرقيين مثلاً هم حماة تود أن تكون صقوراً لتثبت إخلاصها للنخبة الحاكمة الإشكنازية . وقد أسقط كثير من المعلقين السياسيين كل التدرجات والتداحلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفي (التحليلي) قاصر ساذج يحوي مقولتين اثنتين ، ولذا لم نر الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التي تنتظر من يكتشفها ويرصدها " .

والعبارة الأخيرة تشير إلى إحدى الصفات المهمة للنموذج ، وهي أنه يساعد على الرؤية المتعمقة المركبة كلما ازداد تركيبية ، وكلما اتسع نطاقه ليضم معلومات وظواهر كانت مهمة أو مهمة في الماضي . خذ على سبيل المثال الإمبريالية الغربية ، ينظر إليها الكثيرون بحسبانها " انحرافاً " عن مسار الحضارة الغربية الليبرالي الديمقراطي الإنساني ... إلخ ، ومن ثم يستبعدون كماً هائلاً من المعلومات . إن غيرنا النموذج بأن نزيده تركيبية وبأن نوسع نطاقه ، ورأينا الإمبريالية بحسبانها جزءاً عضوياً من هذه الحضارة وتعبيراً متعياً عن شيء أساسي وجوهري فيها ، فإن عدداً كبيراً من المعلومات الجديدة سيدخل في نطاق النموذج التحليلي ، وتصبح ذات أهمية محورية تفسيرية . سنكتشف - على سبيل المثال - أن إبادة الشعوب الأخرى ليست مسألة انحراف ، وإنما خط عام متكرر : ملايين الهنود في الأمريكتين - السكان الأصليون في أستراليا - سكان الخانات التركية المجاورة لروسيا على يد الدولة القيصرية - إلقاء القبلة الذرية على اليابان (دون حاجة عسكرية ماسة لذلك) - الفلسطينيين (الطرد والإبادة) - الجزائريون - شعب فيتنام . كما سنكتشف مثلاً أن قفزة الولايات المتحدة الصناعية في الثلاثينيات من القرن الماضي تعود إلى حد كبير إلى العمالة السوداء الرخيصة (التي قدمها ملايين العبيد السود) ، وأن مجموع ما سلبته إنجلترا من الهند إبان ثورتها الصناعية يفوق كل ما أنتجته في تلك الفترة . إن حساباتنا ستكون مختلفة ، والمعلومات التي نبحث عنها ستكون مختلفة وستظهر لنا بلاهة الحديث عن "التقدم الغربي" بحسبانه نتيجة عناصر خاصة بالمجتمعات الغربية .

وقل نفس الشيء عن النماذج التي يشيعها الصهيانة . فقد قبلناها بسذاجة شديدة ، فحجبت عنا رؤية كثيراً من جوانب الواقع . ولنضرب على سبيل المثال النموذج الصهيوني التفسيري لظاهرة مثل الدياسبورا أو المنفى . يذهب الصهيانة إلى أن اليهود كانوا يعيشون في وطنهم القومي ، فلسطين أو يهودا ... إلخ ، ثم جاء القائد الروماني تيتوس فحاصر القدس وهزم اليهود وهدم الهيكل ، وبعدها بدأ نفي اليهود وتشتتهم . هذا هو النموذج السائد ، وهذه هي الرواية الصهيونية السائدة ، التي يقبلها الجميع تقريباً ، والذي يوجه أنظارنا إلى مجموعة من المعلومات ويستبعد غيرها . فيبينون أن عدد اليهود بعد سقوط الهيكل (سنة ٧٠ ميلادية) قد أصبح صغيراً بالفعل ، مما يدل على تشتتهم القسري ! ولكن تغيير النموذج يؤدي إلى "اكتشاف" مجموعة أخرى من المعلومات مغايرة تماماً للمعلومات التي يسوقها الصهيانة . وقد

بدأ الشك في النموذج التفسيرى الصهيونى يتسلل إلى نفسى حينما لاحظت أن الغالبية الساحقة ليهود العالم لم تهجر إلى «وطنها القومى» المزعوم . فعدت إلى التاريخ لأختبر مدى مصداقية النموذج الصهيونى بالنسبة لتفسير الماضى . فاكشفت أنه قبل هدم الهيكل ، كان عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين يفوق عدد اليهود داخلها بعدة أضعاف . فاليهود لم "ينعروا" ولم "يشتموا" قسراً وإنما انتشروا وحسب ، شأنهم في هذا شأن كثير من الجماعات البشرية الأخرى ، وأن هدم الهيكل لم يكن سوى عنصر مساعد لعملية ديموجرافية بدأت قبل وقوع ذلك الحدث . أما بخصوص تيتوس فلاحظت أن الحرب التي خاضها لم تكن حرباً للرومان ضد اليهود ، وإنما حرباً للرومان ضد فريق من اليهود ، إذ إنه كان يوجد إلى جوار الجيش الرومانى المحاصر للقدس ، جيش يهودى بقيادة "ملك اليهود" أجربيا الثانى ، بل والأدهى من هذا نجد أن برنيكى ، أخت أجربيا الثانى ، كانت عشيقة تيتوس ، وكان ينوي الزواج منها . كما لاحظت أنه عبر التاريخ أثرت الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية الاستقرار في أوطانهم خارج فلسطين ، وهو النمط الذي استمر حتى الوقت الحاضر . إن تقويض النموذج السائد ومحاولة نعت نموذج تفسيرى جديد ، قد أعطى مركزية لبعض المعلومات التي آثر الصهاينة إما إخفاءها وإما تجاهلها تماماً ، وقوض من صلابة بعض المعلومات «الصلبة» الأخرى .

وهناك الكثير من الأمثلة الأخرى من تاريخ الصهيونية وغيرها تبين أن النموذج التحليلي المستخدم هو الذي يقرر ما هو المهم وما هو الهامشي من المعلومات ، وما يستحق الإبقاء وما يتم حذفه . وبهذا المعنى يمكن القول بأن النموذج «يولد» معلومات وحقائق ، وهو استخدام مجازي لكلمة «يولد» ، فالحقائق موجودة في الواقع وفي بطون الكتب لمن يريد "اكتشافها" .

وقد حاولت تطبيق منهج النماذج التحليلية في محاضراتي وما أدرُس من مقررات ، وتركت المنهج التاريخي (التعاقبي) ودراسة الشعراء والنقاد كل على حدة ، الذي يدفع الباحث نحو التراكم المعلوماتي والموضوعية المطلقة ، وأعدت صياغة المقررات التي أدرُسها بحيث أصبحت أدرُس نفس المادة ولكن من خلال موضوعات أساسية كاسية وإشكاليات معزاة متواترة (نماذج تحليلية) . فالنقد الرومانسي كنت أدرُس على سبيل المثال من خلال : إشكالية اللغة - إشكالية الذات - إشكالية الحدود الجمالية ، ثم أدرُس هذه الإشكاليات في أعمال كل النقاد (وأشير إلى أن لها ما يماثلها في النقد العربي الحديث) . وقد فعلت نفس الشيء مع الشعر الرومانسي . فكنت أبدأ بدراسة "الملاح القديم" بحسبانها القصيدة الرومانسية النماذجية التي تضم كل الموضوعات الأساسية الكامنة ، والتي تتبدى في معظم القصائد الرومانتيكية ، مثل : الانتقال من الخبرة إلى البراءة - مشكلة الشر - إشكالية الذات والموضوع - إشكالية المدينة . ثم أدرُس النصوص الرومانسية من خلال هذه الموضوعات والإشكاليات . وكنت أضيف أحياناً بضعة نصوص عربية تتبدى فيها نفس الموضوعات (حتى لا تكون دراسة الأدب الإنجليزي شيئاً

بعيداً يحتفظ به الطلاب في قسم خاص في ذهنهم) . وفوجئت بارتفاع الحاسة النقدية عند الطلبة والطالبات ، وارتفاع مقدرتهم على الربط والتجريد والوصول إلى "الحقيقة" متجاوزين الحقائق . فقد وجدوا أن المادة التي يدرسونها أصبحت ممتعة ، وأصبح لها صلة بحياتهم الحقيقية ، وليس مجرد «أدب إنجليزي» يوجد في قسم مستقل من عقولهم .

ومن أطرف الوقائع في هذا المضمار ، أنني كنت أعرف أنني سأنتهي من موسوعة ١٩٧٥ في منتصف العام ، وأنني سألحق بزوجتي في الولايات المتحدة في مارس . ورغم حبي لتدريس الأدب ، فإنني ، من قبيل احترام الطالبات ، طلبت من القسم أن يوكل إليّ تدريس مواد مثل الترجمة والمقال حتى إذا ما توقفت عن التدريس وحل أحد الأساتذة محلي ، فلن يسبب هذا اضطراب كبير للطالبات ، إذ إن هذه مقررات أولية تعتمد على التدريب . ولكن أحد الأساتذة - رحمه الله - كان يهوى الاصطدام ، فاعترض على ذلك ، فما كان من الدكتورة لطيفة الزيات ، رئيسة القسم ، إلا أن أسندت لي المقررات التي أحبها ، وكان من بينها الشعر الرومانسي بطبيعة الحال . وقمت بتدريسه بطريقتي ، أي من خلال موضوعات (نماذج) وليس من خلال السرد التاريخي .

وحيثما ذهبت إلى الولايات المتحدة ، كان هذا المقرر من نصيب الأستاذ المذكور . ولكنه كان يقوم بالتدريس لمجموعة من الطالبات تم تدريبهن على قراءة النصوص الأدبية قراءة جديدة مبنية على الربط بين تفاصيل العمل ، ثم تجريد الموضوعات الأساسية الكامنة ورصد كيفية تبديها في بنية القصيدة . وكان صاحبنا معداً بمذمته النقيلة المعلوماتية عن حياة الشاعر فلان وخلفية الشاعر علان التاريخية ، والمناسبة التي كتبت فيها القصيدة ، كما أنه بطبيعة الحال كان يردد ما تقوله بعض المراجع الغربية من أن الشعر الرومانسي هو عودة للطبيعة ، وهي صيغة لفظية جاهزة يستخدمها كثير من الأساتذة يصفون بها كل القصائد الرومانسية دون أكثرات بخصوصية بنيتها وصورها ولغتها (أي دون أكثرات بالنموذج الكامن فيها) . وكان صاحبنا يسأل الطالبات عن قصيدة ما فكان يعطينه إجابة غير متوقعة من جانب ، فكان يضطرب ، وخاصة أن كثيراً من الطالبات كن يجدن أن نخط (أو نموذج) الانتقال من البراءة إلى الخبرة الذي يتكرر في الشعر الرومانسي هو نخط له دلالة إنسانية عميقة ، وتصادف أن عدداً كبيراً منهن استخدمه في تحليل القصائد . وفي إحدى المرات سمع الأستاذ المذكور عبارة "الانتقال من البراءة إلى الخبرة" ، وكان قد طفع به الكيل ، فألقى بالكتاب على الأرض وتوعد كل من تذكر هذه العبارة بالويل والثبور !

وحيثما انتقلت إلى السعودية للتدريس في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود طُبقت نفس النهج . واستخدمت نموذج التجاوز (والكمون) كمعيار أساسي لتصنيف القصص القصيرة التي أدرسها مع الطلبة ، وبينت أن القصص التي يحاول أبطالها أو

الشخصيات الأساسية فيها أن تتجاوز واقعها تنسم بقدر عال من التركيب ، أما الأعمال التي تحاول إنكار مقدرة الإنسان على التجاوز فشخصياتها مسطحة وحبكتها بسيطة (وقد قمت بترجمة القصص القصيرة موضع الدراسة وأنوي نشرها في كتاب مع دراسة نقدية طويلة توضح هذه الفكرة) . وحينما درست مع الطلبة شعر النصف الأول من القرن الثامن عشر (الشعر النيو كلاسيكي) درسته معهم من خلال موضوع المضمون الأخلاقي للهجاء وإشكالية مفهوم البطولة في مجتمع تراجعت فيه البطولة بعد ظهور العلم وبعد انتهاء عصر الفروسية ، وهي موضوعات وإشكاليات لها ما يقابلها في تجربتهم الحضارية .

وحدث أنني عُيِّنْتُ رئيساً للجنة الدراسات العليا حينما كنت أعمل في السعودية . وكانت مهمة هذه اللجنة هي وضع الخطوط الرئيسية لبرنامج الماجستير هناك . واقترحت أن تكون المقررات في السنة التمهيدية تدور حول موضوعات وإشكاليات (أي نماذج إدراكية تحليلية) . ونشأت حرب ضروس بيني وبين كثير من الأساتذة (برغم مساندة رئيس القسم الدكتور عزت خطاب لي) . فكل أستاذ يود تدريس المادة التي يعرفها وبالطريقة التي يعرفها ، أي الطريقة السردية التاريخية المألوفة . وكان أحدهم يتصور أنه يعرف أعمال الشاعر الإنجليزي جيفري تشوسر تمام المعرفة ، ولذا كان يصر على أن يكون هناك مقرر إجباري في ذلك الموضوع . وحيث إنني كنت مؤمناً بطريقتي (نتيجة لاقتناعي النظري وتجربتي العملية) فقد انبريت للدفاع عنها . ولكن ميهبات ، فيبروقراطية الأساتذة (وكان غالبيتهم من الفلسطينيين والمصريين) كانت صلبة في غابة الصلابة ورجعية مفرقة في الرجعية . وفي النهاية نجحت في فرض مقرر تمهيدي واحد يدور حول موضوعات ، ولكنني سمعت أنه ألغي بعد رحيلي عن السعودية . (لا يختلف هذا عن اقتراحي بإنشاء كلية للدراسات العليا في جامعة عين شمس يكون لها مكتبة محترمة ، وتضم أعضاء هيئة التدريس من ذوي الخبرات حتى يمكن تكثيف ما عندنا من إمكانيات ضعيفة . ولكن الانقراض لم ينفذ لأن كل كلية وكل قسم يفضل أن يكون له "استقلاله" الخاص [أي بيروقراطيته الخاصة] وبرنامجه الخاص للماجستير) .

أذكر مرة أنني كنت في المغرب وكانت سكرتيرة أحد أصدقائي (خديجة) تصاحبني لشراء ما أريد من أشياء تراثية (والمغرب غنية بها وأنا مغرم بها) . وسألتها عن تخصصها ، فقالت الأدب الإنجليزي ، فأخبرتها بأنني أستاذ أدب إنجليزي أيضاً . وحينما طلبت منها أن تخبرني بالنصوص التي درستها ، وجدت أنها قليلة للغاية مقارنة بما ندرس نحن في القاهرة . ومع هذا وجدتها تتحدث بطريقة تدل على أنها متملكة لنوعية الخطاب الأدبي والنقدي وبرباطه جاش غير عادية . فأعجبت بشقاقتها ، برغم قلة النصوص التي درستها . فأخبرني بأنها درست في كلية صغيرة ، لا يوجد فيها عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس . ولتخطي هذه الصعوبة قام الأساتذة بتدريس النصوص من خلال إشكاليات وموضوعات ، وأن مقدراتها النقدية والثقافية هي

وقد لاحظت أن النموذج كأداة تحليلية ، يكاد يكون خالياً من الزمان ، فهو يتجاوز أحداث التاريخ ليصل إلى النمط المتواتر الكامن فيها والذي يجمع بينها . كما أن مقدرة النموذج على رصد الحركة ضعيفة ، إذ إنه ، مرة أخرى ، يحاول الوصول إلى النمط وإلى اللحظة التي يتبدى فيها النموذج . وحتى أسد هذا النقص قررت تطوير فكرة المتتالية الممازجية ، وهي مثل النموذج رؤية تصويرية يجرد عاقل الإنسان من الوقائع والظواهر . ولكن المتتالية ترصد الظواهر لا في سكونها وإنما في غوها وتطورها عبر حلقات مختلفة ، فهي ترصد البعد التاريخي والبعد الحركي . فترى الواقع لا كحلقة ساكنة وإنما كحلقة في سلسلة آخذة في التحقق التدريجي .

ولعل من أهم الأسباب التي ساعدتني على تطوير فكرة المتتالية الممازجية إقامتي خلال فترتين منفصلتين في الولايات المتحدة (١٩٦٣ / ١٩٦٩ - ١٩٧٥ / ١٩٧٩) . كان الجو الثقافي والأخلاقي العام يختلف في الأولى عنه في الثانية ، بل وتنقسم الفترة الأولى إلى قسمين : قبل عام ١٩٦٥ وبعده . فالولايات المتحدة في النصف الأول من الستينيات كانت محافظة بشكل خانق حتى عام ١٩٦٥ ، ثم بدأت حركة اليسار الجديد وحركة الجنس الحر ، أو الجنس بلا ضوابط (بالإنجليزية : فري لاف موفستيت همبرز حقوز حقوز زخ زخه) ، وصاحبها قدر من التفكك بدأ يتزايد بسرعة تفوق الوصف . فعلى سبيل المثال ، كنا نستضيف بعض الطالبات الأجنبيات في منزلنا في الأعياد باعتبار أنني وزوجتي كنا أكبر الطلبة الأجانب سناً ، فكان علينا ، قبل عام ١٩٦٥ ، أن نوقع على أوراق تعهد فيها بإعادتهن إلى المدينة الجامعية قبل الساعة العاشرة . وحينما عدت في السبعينيات ، أصبح هناك بيوت مختلطة للطلبة والطالبات . كما أن الشذوذ الجنسي الذي كان " عيباً " في الستينيات (أو يوجد في منطقة رمادية) ، أصبح مقبولاً تماماً في السبعينيات . وحينما أعود الآن للولايات المتحدة ، أجد أنه من قلة الخباء أن تذكر هذا الموضوع ، فما بالك بتوجيه النقد (إذ أصبح الجميع نسبين منفتحين) . ولم تعد القضية هي التسامح مع الشذوذ الجنسي ، وإنما " تطبيعها " بحيث يصبح أمراً طبيعياً تماماً مثل الجنس العادي . وحينما أذهب إلى الولايات المتحدة تكون نقطتي المرجعية العاصمة ، شنت أم أبيت ، هي مصر . وحينما تركت بلدي في الستينيات ، كانت تحكمها المعايير الأخلاقية ، كما أن " العلم " كان محترماً ، ولذا كانت الأبواب تفتح حينما يعلم الناس أن الشخص الغلاني " دكتور " . كما أن النظام الاشتراكي كان يضمن للناس الحد الأدنى من الرزق والكرامة . فكانت دائم المقارنة بين الولايات المتحدة ومصر التي تركتها . وكنت أخير الأمريكيين أن مصر قد تكون بلداً فقيراً إلا أن الإنسان لا يمكن أن يفصل من عمله ، على سبيل المثال ، إلا إذا ارتكب كبيرة . وثمن السلع الغذائية الأساسية ثابت لا يؤثر فيه التضخم ، كما أن إيجار المسكن زهيد للغاية . وحينما يجلس المواطن أمام شاشة التلفزيون ليشاهد فيلماً ، فإنه يشاهد فيلماً وحسب ، لا تقاطعه

الإعلانات التي تبزّه وتجعل زمانه الخاص جزءاً من السوق ، وكان السوق هو مصير الإنسان وقدره .

بل إن الدولة كانت تجعل الثقافة في متناول الجميع بالفعل . الكتب يشتريها من يريد ، والمسارح رخيصة للغاية ، والموسيقى العربية يمكن الحصول على تذكرة حضور حفلاتها ببضعة فروش . (أذكر أنني حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ فوجئت بأن أحد العمال الذين كانوا يعملون في محل والذي يتحدث عن أنه ينوي الذهاب للمسرح القومي لمشاهدة مسرحية ماكبث لشكسبير) .

حينما أذهب للولايات المتحدة الآن ، فإنني لا يمكن أن أتحدث عن الأشياء نفسها . فنقطتي المرجعية الصامتة قد تغيرت ، وأصبحت السوق الحرة هي الآلة الكبرى في عالم الاقتصاد والأخلاق . ولذا فالثقافة أصبحت شيئاً باهظ التكاليف ، لا يقدر عليه إلا من عنده فائض كبير من الأموال . والطعام أصبح مكلفاً للغاية . (حتى ساندوتش الفول الذي كان في متناول الجميع أصبح هو الآخر مكلفاً) . وحينما يجلس المواطن الآن أمام التلفزيون المصري فإنه يقذفه بالإعلانات التي تحول زمانه الخاص إلى سوق يباع فيها كل شيء ويشترى .

تعلمت من كل هذا أن ما يحدث في بلد ما قد يحدث في بلد آخر إذا ما توافرت الظروف ، حتى ولو لم يحدث في لحظة الرصد المباشر . إذ إنه يمكن أن يحدث فيما بعد ، لأن البلد المذكور لا يزال يمر بالحلقات الأولى من المتتالية النماذجية ، التي تليها الحلقات الأخرى . وإن الحاضر قد يكون مختلفاً عن الماضي ، ولكنه في الوقت نفسه ثمرة من ثمراته ، إن نحن أمعنا النظر . وفي إطار هذا التصور أصبح من الحتمي أن أنظر إلى مصر لا بحسبانها مثلاً (ساكناً) لهذه أو تلك الصفة ، وإنما بحسبانها لحظة في متتالية نماذجية تتابع حلقاتها ، بحيث أستخدام ما أرى في الغرب على تقدير أنه من المحتمل أن يعكس حدوثه عندنا هنا ، فنفس المقدمات والظروف الاجتماعية قد تؤدي إلى نفس النتائج أو شيء قريب منها ، كما أنها ولا شك تصلح كمؤشر على ما يمكن أن يحدث في المستقبل .

ويحضرني في هذا ما قاله سيرج لاتوش في كتابه "غريب العالم" فالغرب بالنسبة له ليس بقعة جغرافية ولا حتى لحظة زمنية ، وإنما هو متتالية نماذجية أخذت تتطور وتأخذ أشكالاً مختلفة إلى أن أصبحت كالألة التي لا تكثر كثيراً بالإنسان ، تدور لتفرض الجميع حتى صاحبها ، منفصلة عن الزمان والمكان الغربيين ، ويمكن أن تمسك بتلابيب أي مكان وزمان . من كان يتصور في الماضي أن ما يحدث الآن في مصر ، كان يمكن أن يحدث ؟ من كان يتصور أن تصبح النقود هي المعيار الذي يجب غيره من المعايير ، وأن مسألة "العلم" هذه تصبح مصدر سخرة ؟ حينما عدت أنا وزوجتي من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ ، كان بعض سائقي التاكسي يرفضون تقاضي الأجر منا حينما يعرفون أننا أساتذة جامعيون عدنا لبلدنا لنساهم في بنائه وإعمار ، فهل يمكن

أن نتخيل حدوث مثل هذا في الوقت الحاضر؟ باختصار شديد ، أنا لا أرى أن الشرق شرق والعرب غرب ، أو أن الشرق روحي والغرب مادي ، إلى آخر هذه المقولات الجاهزة ، وإنما أرى أن هناك متتالية غاذجية إن أمسكت بتلابيب حضارة ما فهي تأخذ في التحقق (إلا إذا تصدى لها الإنسان بوحي إنساني وأخلاقي) . وتظهر فكرة المتتالية النماذجية كآلة تحليلية أساسية في معظم كتاباتي . ولكنه يظهر ، على وجه الخصوص ، في تحليلي للحلولة والعلمانية الشاملة .

وعلى عكس المتتالية النماذجية ، طورت مفهوم "اللحظة النماذجية" . وينطلق هذا المفهوم من الإيمان بأن ثمة اختلافاً جوهرياً بين الواقع والنموذج المهيمن ، وأن النموذج لا يمكن أن يتحقق كلية في الواقع . ولكن هناك لحظات نادرة يقترب فيها النموذج من حالة التحقق الكامل . وهذه اللحظة ، رغم ندرتها ، قد تعبر عن جوهر النموذج أكثر من اللحظات أو الحلقات الأخرى . وفي دراستي للمجتمع العلماني أشرت إلى ثلاث لحظات غاذجية : اللحظة السنغافورية التي يظهر فيها العالم بحُسانه سوقاً والإنسان بحُسانه كائناً اقتصادياً ، واللحظة النابولندية التي يظهر فيها العالم بحُسانه وكالة سباحية أو ملهى ليلي والإنسان بحُسانه كائناً جسمانياً ، واللحظة النازية أو الصهيونية التي يظهر فيها العالم والإنسان بحُسانهما مجرد مادة تُوظف .

ومن المفاهيم التحليلية التي طورتها كذلك ما سميت «التعريف من خلال دراسة مجموعة من المصطلحات المتقاربة ذات الحقل الدلالي المشترك أو المتداخل» . فقد لاحظت أنه في العلوم الإنسانية ثمة كثرة مفرطة للمصطلحات ، كل مصطلح فيها ينطبق على مجموعة من الحالات دون غيرها ، مما ينتج عنه أن أي محاولة حقيقية للتعميم تخفق بسبب تضارب المصطلحات وضيقها (رغم أنها تنطبق على حالات بعينها) . وتظهر المشكلة بحدة حينما نتعامل مع مصطلحات واردة لنا من الغرب . فالعلوم الإنسانية الغربية تنسم بهذه الكثرة المفرطة ، خاصة مع تزايد معدلات النسبية . ولذا أقوم عادة بحصر هذه المصطلحات ثم أقوم بتجريد ما أتصور أنه النموذج الكامن وراءها (من خلال عملية طويلة من التفكيك وإعادة التركيب) الذي يبين الوحدة الكامنة وراء المصطلحات المتناثرة ، ومن خلال ذلك نضع التعريف للظاهرة موضع الدراسة .

وقد استخدمت هذه الطريقة في الموسوعة في تعريف النموذج ، كأداة تحليلية ، والحلولة والعلمانية الشاملة والجماعة الوظيفية ، بحُسانها نماذج تحليلية . وهي نماذج أخذت في الاتساع حتى إن الموسوعة أصبحت مجرد "دراسة حالة" وتطبيق لنماذج ثلاثة على اليهود واليهودية والصهيونية . ولكن ، تظل النماذج أكثر اتساعاً وشمولاً من "الحالة" التي طبقت عليها . فنموذج الحلولة يمكن استخدامه في دراسة الباطنية والغنوصية والديانات الآسيوية ، وبخاصة الشنتو ، بل ومقدمات العلمانية ونشوء الرأسمالية (وعلم مقارنة الأديان) . كما يمكن استخدامه في فهم فلسفات مختلفة ابتداءً من فلسفة إسينوزا وانتهاءً بفلسفة هيجل وبرجسون

وكثير من الفلسفات المادية . كما أن دراستي لجماعات الوظيفية والدولة الصهيونية تستخدم مفهوم الحلولية . أما نموذج العلمانية الشاملة فهو من الاتساع والشمول بحيث يمكن تطبيقه على الإمبريالية الغربية والداروينية والحدائق الغربية وتأريخ العلمنة في الغرب . وبعد النموذج الثالث ، الجماعة الوظيفية ، أكثرها جدة ويمكن تطبيقه على المالك والإنكشارية والصينيين في جنوب شرقي آسيا وجماعات المهاجرين - (وأنوي كتابة دراسات مستقلة عن كل نموذج ، لأبهر إمكانياته التحليلية) . بل أزعـم أن استخدام النماذج التحليلية سيساعدنا على تحديد المفهـم الإسلامي ؛ فبدلاً من النظر لكل المفاهيم الإسلامية وكل النصوص الدينية بحسابها متساوية الدرجة ، يمكن من خلال النماذج أن نصل إلى هرم المفاهيم والنصوص بحيث يحدد ما هو الأساسي وما هو الفرعي .

الحلولية .

لم أبالغ كثيراً حين قلت إنه لم يكن هناك تعاقب في ظهور الموضوعات المنهجية الثلاثة : رفض الموضوعية المتلفة ، وتبني تصور للعقل بحسابه كياناً توليدياً ، والنموذج بحسابه أداة تحليلية مناسبة ، فقد ظهرت العناصر الثلاثة تدريجياً بشكل متزامن تقريباً ، فالواحد مستحيل دون الآخر . ويمكنني أن أقول الشيء نفسه عن النموذجين الأساسيين في كتاباتي : الحلولية (وحدة الوجود) والعلمانية الشاملة .

وأنا لم أبلور هذين النموذجين بشكل كافٍ إلا في التسعينيات ، بعد مرور ثلاثين عاماً من التفكير والكتابة . فبعد أن انتهيت من الموسوعة ، وجدت أنه قد يكون من المفيد أن أتأمل فيما كتبت لأصل إلى بعض التعميمات ، فكتبت ما يقرب من أربعة مجلدات أدرس فيها منهجي والاطروحات النظرية الأساسية . (وقد وجدت أنها طويلة للغاية فقسمت بتلخيصها في المجلد الأول من الموسوعة الحالية . كما قمت بإعادة كتابة معظم أجزاء الموسوعة بعد أن ازدادت النماذج التحليلية وضوحاً في ذهني) .

ويمكنني القول بأن أفكارني الفلسفية الأساسية (النماذج التحليلية) لا تختلف في كثير من النواحي عن أفكارني في الماضي ، وإن كانت قد اكتسبت تبلوراً عن ذي قبل . كما أن المفردات - مثل الطبيعة / المادة والعقلانية المادية والمسافة - لا تختلف كثيراً عن المفردات التي استخدمتها في الماضي وإن كانت قد أصبحت أكثر وضوحاً . ولعل القارئ قد أدرك أن المفكرة المخورية في فكري هي إيماني بأن الإنسان ظاهرة مركبة لا يمكن أن تُردَّ إلى ما دونها : الطبيعة / المادة . ولذا فدراسة الإنسان تحتاج لنماذج مركبة تحوي قدرًا من الثنائية ، أما النماذج التي نحتاجها لدراسة الطبيعة فهي نماذج مادية بسيطة رياضية آلية ، قوانينها تنسم بقدر من الثبات ولذا يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها إلى حدٍّ ما . وتظهر ثنائية الطبيعي (المادي)

والإنساني في كثير من كتاباتي .

هذا التمييز بين الطبيعي والإنساني هو الفكرة الأساسية الكامنة وراء نموذجي الحلولية والعلمانية الشاملة . ولفهم هذين النموذجين لابد أن أذكر تمييزي بين ما أسميه «النزعة الجنينية» و«النزعة الإنسانية أو الربانية» . وأذهب إلى أن هاتين النزعتين أصيلتان هي النفس البشرية ، يتنازعانها بشكل دائم . أما «النزعة الجنينية» فهي نزعة لرفض كل الحدود وإزالة المسافة التي تفصل بين الجزء والكل ، والفرد والمجموع ، والطبيعة والإنسان ، والخلق والخالق إلى أن يصبح الإنسان كائناً لا حدود له . ولكن حينما تتحقق هذه النزعة ، يجد الإنسان نفسه جزءاً من كل أكبر منه يحتويه ويشمله ويخضع لقوانينه . وهذه الرغبة في إزالة الحدود والتحكم الكامل هي ، في واقع الأمر ، رغبة في التخلص من تركيبية الذات الإنسانية وتعينها ومن عبء الخصوصية والوعي الإنساني ، وهي محاولة للهرب من الواقع الإنساني بكل ما فيه من ثنائيات وتناقضات ، وغير وشر ، وإمكانات النجاح والفشل ، والنهوض والسقوط ، والحرية والحتمية ، ومحاولة التجاوز والتكيف ، أي أنها نزعة للهروب من الحيز الإنساني المركب متعدد الأبعاد إلى عالم بسيط أحادي البعد (مثل الطبيعة / المادة) .

هذا العالم الذي يهرب إليه الإنسان عالم سائل بسيط أملس يشبه الرحم حيث كان الجنين يعيش بلا حدود ولا قيود ، لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن رحم أمه ، ولا توجد مسافة أو حيز يفصلان بينهما ، أو يشبه حياة الطفل الرضيع في الأشهر الأولى من حياته ، حين يتصور أنه لا يزال جزءاً لا يتجزأ من أمه . وحينما يمك بثديها يتصور أنه قد تحكم في العالم بأسره . وأنه قد تواصل مع العالم كله ، وأن الدائرة قد انغلقت أو اكتملت تماماً فيشعر بالطمأنينة الكاملة ، ولا توجد لديه أي حاجة للتجاوز ، مع أنه لا حرية ولا إرادة مستقلة له في عالمه البسيط الضيق هذا . ويظل الإنسان في هذه الحالة إلى أن يتم فطامه وانفصاله عن أمه . والحالة الجنينية حالة نفسية ذات أصل بيولوجي ، ولكنها تستقل عن أصلها البيولوجي ، وتصبح حالة نفسية ورؤية للكون .

وعادةً ما استخدم السفر بالدرجة الأولى في الطائفة كصورة مجازية للحالة الجنينية . فالمسافر يدخل الرحم (الطائفة) ويجلس في كرسيه فيعامل وكأنه طفل مدلل يطلب فيجاب طلبه ، والمضيفات لا هم لهن إلا إدخال السعادة على قلبه . ويبدو أن مصمم الإعلان التلفزيوني عن سيارة BMW الذي شاهدته في التلفزيون الفرنسي قد أدرك شيئاً من هذا القبيل . يبدأ الإعلان بشدي أم ، ثم تظهر صورة طفل يمك بهذا الثدي ويبدأ في الرضاعة . ثم تنتقل الكاميرا إلى صورة رجل يجلس مستريحاً على كرسي السيارة ، وكان الرجل في علاقته بالسيارة مثل الطفل في علاقته بشدي أمه . والعودة إلى عالم بلا مشكلات ولا أبعاد والنزعة الجنينية تعبر عن نفسها في السعار الجنسي والاستهلاكي الذي يصيب الإنسان في المجتمعات المتقدمة (وفي

تصوري أن الإعلانات توظف هذه النزعة نحو الهروب من المسئولية والاختزال في تسويق السلع . وجوهر أي إعلان هو ظهور مشكلة ما [القشرة - الصحون المتسخة ... إلخ] ثم حل هذه المشكلة بحيث يصل الإنسان إلى حالة التحكم الكامل) .

في مقابل النزعة الجنسية نضع النزعة الإنسانية أو الربانية ، وهي نزعة نحو تجاوز الطبيعة / المادة وعالم المعطيات المادية والشئىة ، نزعة نحو انفصال الجزء عن الكل ، والفرد عن المجموع ، والإنسان عن الطبيعة ، والخلق عن الخالق ، ونحو قيام المسافة بينهم ، مما يعني أن العالم يتسم بقدر من الثنائية ، كما يعني أن الإنسان ، حينما يحقق انفصاله عن الكل وعن الطبيعة وعن الخالق ، يصبح كائناً حراً مستقلاً ، يقبل الحدود وعيب الوعي وتأكيد الهوية الإنسانية ، يعيش داخل الزمان مثل الكائنات الطبيعية ولكنه يدرك أنه مختلف عنها ، فهو مستخلف من الله ، يحوي داخله عنصراً غير مادي غير طبيعي ، لا يمكن رده إلى الطبيعة / المادة (ولذا نسميه «القيس الإلهي») الذي يحول الإنسان من كائن طبيعي (إنسان طبيعي) إلى إنسان إنسان أو إنسان رباني . وغني عن القول إن الفرق بين النزعة الجنسية والنزعة الربانية هو الفرق بين الطبيعة والثقافة ، وبين الطبيعي والإنساني . وجاذبية النزعة الجنسية (في مقابل النزعة الربانية) عالية للغاية ، فالأولى تصل مع قانون الجاذبية الأرضية وتعمل الثانية ضده ، وكما أقول إن السقوط في الوحل أسهل بكثير من الصعود إلى النجوم . (وكما بينت من قبل ، استبدلت الإمبريالية النفسية السهل بالجميل والمركب ، والطبيعي المادي بالإنساني ، ومن هنا جاذبيتها الكبرى) .

النزعة الجنسية (تلك الرغبة في العودة إلى الرحم والذوبان في الكل) تمبر عن نفسها من خلال ما أسميه مذهب الحلول أو الكمون القاتل بأن العالم كل واحد متماسك بشكل عضوي ، لا تتخلله أي ثغرات ولا يعرف الانقطاع أو الثنائيات ، خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه . ويذهب مذهب الحلول إلى أن كل ما في الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مكون من جوهر واحد . فالمبدأ الواحد المنظم للكون ليس مفارقاً أو متجاوزاً له أو منزهاً عنه وإنما كامن (حال) فيه . ولذا فالعالم مكتف بذاته يحتوي على مركزه وركيزته الأساسية (مطلقة) داخله . ولأن الكون كله مكون من جوهر واحد ، ينكر هذا المذهب وجود الحيز الإنساني المستقل (عن الكل وعن الطبيعة وعن الخالق) كما ينكر إمكانية التجاوز . وفي إطار الحلولية الكمونية يمكن رد كل الظواهر ، مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها ، إلى مبدأ واحد كامن في العالم . ومن ثم تتم تسوية الإنسان بالكائنات الطبيعية وتلغى كل الثنائيات .

والحلولية متتالية يؤدي تتالي حلقاتها إلى وحدة الوجود ، التي تبدو في صيغتين مختلفتين ظاهراً ، هما في واقع الأمر صيغة واحدة برغم اختلاف التسميات التي تطلق على مركز العالم (المبدأ الواحد) الحال فيه ، المفارق له :

(أ) في المنظومات الحلولية الكمونية الروحية (وحدة الوجود الروحية) ، يُسمَّى المبدأ الواحد «الإله» ، ولكنه إله يحلُّ في مخلوقاته ويمتزج ثم يتوحد معها ويذوب فيها تماماً بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه ، أي أنه لا يبقى من الإله سوى اسمه . ولكنه إله متحد تماماً بالطبيعة المادية (مرة أخرى امتزاج الروحي بالمادي) لا يمكنه الحديث إلا من خلالها . ويمكنها هي الحديث باسمه . لكل هذا يمكن الحديث بلغة روحية عن عالم المادة ، ولغة مادية عن عالم الروح (فهذا عالم ذو بُعد واحد لا يتسم بأي ثنائية) . وهذا هو إنجار إسبينوزا ومن بعده هيجل - وحين يمارس المرء تجربة جسدية متمعة فإنه بوسعه أن يصفها بأنها تجربة روحية ! (والشعر الصوفي الحلولي مليء بالإشارات الجنسية ، تلميحا في بعض الأحيان ، وتصريحا في أحيان أخرى) . فالتجربة الجسدية لا تختلف في جوهرها عن التجربة الروحية في عالمٍ واحدٍ مكون من جوهر واحد . فكل الأشياء تسري فيها روح القداسة بنفس الدرجة : الشجرة - الطفل - الخمر - الشر - الطاقة - القوة ، ومن ثم تتساوى الأمور تماماً وتسود الواحدية ، وحادية روحية ، ولكنها مع هذا وحادية لا تعرف الثنائيات .

(ب) في المنظومات الحلولية الكمونية المادية (وحدة الوجود المادية) ، يتم الاستغناء تماماً عن اسم الإله ، وعن أي لغة روحية أو مثالية ، ويُسمَّى المبدأ الواحد «قوانين الطبيعة» أو «القوانين العلمية» أو «القوانين المادية» أو «قانون الحركة» أو «حركة التاريخ» أو «الخصمية التاريخية» أو «الأنا» إلى آخر هذه المطلقات . ويحل الخطاب المادي الصرف محل الخطاب الروحي اسماً للمادي فعلاً . وتُصفي أي ثنائية ولو اسمية وتسود الواحدية المادية ، فكل الأشياء في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير مادية (ومن ثم متساوية) . وقوانين الطبيعة / المادة هي قوانين شاملة يمكن تفسير كل الظواهر - ومن بينها الظاهرة الإنسانية - من خلالها .

ووحدة الوجود المادية هي الأخرى تنبع متتالية يمكن تلخيص حلقاتها فيما يلي :

١ - تبدأ المتتالية بأن يواجه الإنسان الكون دون وسائط ، فيعلن أنه سيّد الكون ومركزه ، ولذا فهو مرجعية ذاته ، الذي لا يستمد معياريته إلا منها . وانطلاقاً من هذا الافتراض ، يحاول هذا الإنسان أن يؤكد جوهره الإنساني (المستقل عن الطبيعة) وأن يتجاوز الطبيعة / المادة بقوة إرادته وأن يفرض ذاته الإنسانية عليها باسم إنسانيتنا المشتركة ، أي باسم الإنسانية جمعاء .

٢ - ولكن في غياب أي مرجعية متجاوزة لذاته الفردية ، يتغلق الإنسان على هذه الذات ، فيصبح تدريجياً إنساناً فرداً لا يفكر إلا في مصلحته (أو مصلحة عرقه أو أمته) ولذته ، ولا يشير إلى الذات الإنسانية وإنما إلى الذات القومية أو الفردية . حينئذ تصبح هذه الذات ، لا الإنسانية جمعاء ، هي موضع الحلول . فيؤله الإنسان الفرد نفسه أو قومه في مواجهة

الطبيعة وفي مواجهة الآخرين ويصبح إنساناً إمبريالياً . ويستمد هذا الإنسان الإمبريالي معياريته من ذاته الإمبريالية فيوظف الآخرين ويسخرهم ، ويوظف الطبيعة نفسها ويسخرها لحسابه .

٣ - ولكن الإنسان يكتشف تدريجياً أن الطبيعة / المادة هي الأخرى موضع الحلول ، وأنها هي أيضاً مرجعية ذاتها ومكتفية بذاتها . فتظهر إثنية وازدواجية صلبة أخرى ، ازدواجية الإنسان المتمركز حول ذاته الذي يشغل مركز الكون ، مقابل الطبيعة المكتفية بذاتها التي تشغل مركز الكون .

٤ - ولكن سرعان ما تنحل هذه الازدواجية الصلبة ، إذ تصبح الطبيعة / المادة وحدها هي موضع الحلول وتحل الواحدة الطبيعية / المادة محل الواحدة الإنسانية . فيبدأ الجوهر الإنساني في الغياب تدريجياً ويحل الطبيعي محل الإنساني ، ويستمد الإنسان معياريته لا من ذاته وإنما من الطبيعة / المادة ، ويزداد اتحاده بالطبيعة إلى أن يذوب فيها تماماً ، ذوبان الجزء في الكل . حينئذ يظهر الإنسان الطبيعي ، وهو إنسان ليس فيه من الإنسان سوى الاسم ، إنسان جوهره طبيعي / مادي وليس إنسانياً ، فهو يذعن للطبيعة ويتبع قوانينها ، وبعد أن كان يشير إلى ذاته (الإنسانية أو الفردية) ، يصبح جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة يشير إليها ، أي يتم تفكيك الإنساني ويتم رده إلى الطبيعي .

٥ - تتصاعد معدلات الحلول والتفكيك ، وتتعدد مراكز الحلول إلى أن تصبح الصيرورة هي مركز الحلول ، ويصبح النسبي هو المطلق الوحيد ، ويصبح التغير هو نقطة الثبات الوحيدة . حينئذ تفقد الطبيعة / المادة مركزيتها ، بخسبانها المرجعية النهائية .

وقد كان لقصيدة وودزورث التالية ، والتي كنت أدرسها لطالبي ، أكبر الأثر في بلورة رؤيتي للنزعة الإنسانية (الربانية) في مقابل النزعة الجينية (الطبيعية المادية) : إنها أمسية بديمة ، هادئة طليقة ، / الوقت المقدس ساكن كراهبة / تتعبد لاهثة ، والشمس العريضة / تفوح إلى أسفل في سكونها ؛ / أنصت ! إن الكائن العظيم قد استيقظ / محدثاً بحركته السرمدية / صوتاً كالرعد - إلى الأبد . / أينها الطفلة العزيزة ! أينها الصبية الغالية ! يا من تسمرين معي هنا ، / إن كنت تبدين وكأنك لم يمسك الفكر الرصين ، / فإن هذا لا يجعلك أقل قدسية . / أنت ترقدين على صدر إبراهيم طيلة العام ؛ / وتعبدين في محراب المعبد الداخلي . / ويكون الله معك ونحن لا ندري .

(عبارة 'على صدر إبراهيم' عبارة إنجيلية تعني "حجر الإله" أي قريباً جداً منه) .

والقصيدة من نوع السونت الإيطالي التي تنقسم إلى مقطع ثماني (أوكتيف octave) ومقطع سداسي (سستت sestet) . وقد وجد الشاعر أن هذا الشكل الشعري مناسب له للتعبير عن موضوعه الأساسي الكامن : رؤيتان للوجود مختلفتان ، ولكن لكل منهما مشروعته . في

النصف الثاني من السونت (المقطع السادس) نجد وصفاً دقيقاً للحالة الجنينية . فالطفل غير مدرك لما حوله ، وعقله سلبى لم يمسسه "الفكر الرصين" ، وهو جزء لا يتجزأ من كل أكبر : الطبيعة والإله . يسير الطفل غير مدرك لجمال الطبيعة أو أنه يتعبد في محراب المعبود الداخلي (فهو جزء من كل) . وتتسم اللغة هنا بالبساطة ، فلا كلمات ضخمة ولا صور مركبة إذ لا توجد مسافة بين المدرك والمدرّك (ولا توجد أي ثنائية فتسود الواحدية) . ومع هذا يرى الشاعر أن للطفل قدسيته التي لا يمكن إنكارها .

أما في النصف الأول من السونت (المقطع الثماني) فهناك الرجل وهو يمثل الحالة الإنسانية والربانية . ينظر للطبيعة فيتجاوز سطحها (فهو ليس بموضوعي متلقٍ) ومن خلال عقله التوليدي تتحول الطبيعة المادية إلى صور ، ويتحول البحر إلى كائن عظيم محدثاً بحركته السرمدة / صوتاً كالرعد - إلى الأبد" . واللغة في هذا القسم مركبة ، والصور المركبة تتابع فيه ، إذ توجد ثنائية الخالق والمخلوق ، والعابد والمعبود ، والإنسان والطبيعة . ولا يرى الشاعر أي غمضة في الحالة الجنينية طالما أنها في مرحلة الطفولة . ولكن في مرحلة الرجولة يجب أن يكون عقل الإنسان فعالاً قادراً على تحويل الطبيعة إلى رموز إنسانية تنطق بما هو إنساني ورباني .

والقصيدة تربط بين الحالة الجنينية والحلولية (كما تربط بين الحالة الإنسانية والربانية والمقدرة على التجاوز) . وقد وضحت لي سوناتا وردزورث (وأشعاره الأخرى) أن وحدة الوجود الروحية لا تختلف كثيراً عن وحدة الوجود المادية . فالذوبان في الإله مثل الذوبان في الطبيعة هو ذوبان في الكل وفقدان للوعي والمستولية . (ومع هذا يرى وردزورث أن مرحلة وحدة الوجود بالنسبة للطفل هي مرحلة مؤقتة ، وأنها دليل على الأصل الرباني للإنسان ، وبرغم أنه سيبعد عن هذا الأصل ليعيش في عالم فيه ثنائيات [ثنائية الخالق والمخلوق - والإنسان والطبيعة] ليحقق إنسانيته ، فهو لن يفرق في حمأة المادة بسبب أصله الرباني هذا) .

ويبدو أن الإنسان يعيش في عالم الحواس (الجنيني المادي) ويجد صعوبة بالغة في الانطلاق نحو التجاوز الرباني (ومن هنا الأصرحة والأولياء والسحر ، فهي كلها تعبير عن نزوع الإنسان الحلولي الجنيني ، والرغبة في إدراك المفارق المتجاوز من خلال الحواس الخمس ، تماماً مثل الطفل في الرحم أو في علاقته بشدي أمه ، فهي مصدر الحياة بالنسبة له ، وهو جزء منها) . ذهبت مرة أنا وزوجتي لحضر الليلة الكبيرة في السيد البدوي ، وحضرت إحدى حلقات الذكر والإشاد . ويبدو أن المنشد ، وكان صوته جميلاً للغاية ، أدرك بشكل فطري ثنائية الجنيني والرباني وصعوبة تجاوز الأولي وصولاً للثنائية . بدأت أنشودته بالحديث عن فتاة جميلة للغاية تعيش في قصر جميل اسمها زهرة ، وقد تفننت القصيدة في وصف مفاتها والتغزل فيها . ولكن تدريجياً نكتشف أن زهرة هي رمز أعمق ، إذ تتحول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحب الحسي المباشر يتحول إلى حب النبي صلى الله عليه وسلم . وتنطلق الأنشودة في الحديث عن حب

الرسول ، وتدرجياً تتحول إلى قصيدة عن حب الله عز وجل . وهكذا أخذ المنشد بيد الناس وتحرك بهم من المحسوس الجنيني الذي يعيشون فيه إلى الله المفارق ، الذي ليس كمثل شئ (برغم أنه أقرب إلينا من حبل الوريد) عبر حب الرسول ، أقرب الناس إلى الله ، ولكنه إن هو إلا بشر مثلنا .

ويبدو أن المنشد (أو المؤلف الذكي للمنشد) أدرك أن الحلولية مثل الباب قد تفقد من الإيمان إلى الكفر والوثنية (ومن التركيب إلى الواحدية) حينما ينزل الله ويتحد بمخلوقاته ، ولكنها قد تفعل العكس حين تجعل الإنسان يدرك أن العالم ليس شيئاً مادياً مبعأ لا روح فيه ، بل ينبض بالحياة والقداسة (فإيماً قولوا لعم وجه الله) (البقرة : ١١٥) . ثم تأخذ بيده ليتجاوز الأشياء ليصل إلى المبدأ الواحد الكامن وراء الأشياء المتعددة ، المفارق لها . وهذا ما فعله كثير من الشعراء الرومانتيكيين بدرجات مختلفة ، ومنهم من بقي حلولياً يرى القداسة في الطبيعة ويحتفي بها ويبقى عندها لا يتجاوزها (كيتس وشيلي) ، ومنهم من نجح في التجاوز ليصل إلى رؤية إيمانية حقة (وردزورث وكوليرج) .

وقد حاولت تفعيل نموذج الحلولية (بحسبانها إنكار التجاوز وتأكيد أن كل ظاهرة مكتفية بذاتها ، تحوي داخلها ما يكفي لتفسيرها ، وتحرك ذاتها) في تحليل كثير من الظواهر والنصوص . فالفلسفة المادية في تصوري فلسفة حلولية ، ترى أن الطبيعة مكتفية بذاتها ، والتوجه نحو اللذة والشذوذ الجنسي لا يختلفان كثيراً عن ذلك . والفلسفة النيتشوية (وأصلها الدارويني) فلسفة حلولية تماماً ، تجعل الإنسان مكتفياً بذاته ، لا يمكنه أن يستمد معياره من خارج ذاته ، لا تحده حدود أو قيود أو سدود . والسوبرمان هو قمة هذا الاتجاه ، فهو موضع الحلول . وتصور الحلولية عن نفسها بشكل أقل عنفاً في فكرة الإنسان الاستهلاكي الباحث عن لذته وعن مصلحته ، فهو يجعل من ذاته مرجعيته النهائية والوحيدة (الشذوذ الجنسي بهذا المعنى تعبير منطوق عن هذه الحلولية) .

والصهيونية هي الأخرى أيديولوجية حلولية وثنية (كما سأبين فيما بعد) ولذا يصفها بعض الحاخامات الذين بقوا داخل إطار العقيدة اليهودية بأنها عقيدة شيطانية . ويصفون الدولة الصهيونية بأنها « العجل الذهبي » ، شيء سادي ألهم اليهود بدلاً من الخالق . كما بينت أن الحلولية هي الأرضية التي يستند إليها الاتفاق المبرم بين الصهاينة الملاحدة والصهاينة المتدينين ، فكلاهما يتفق على أن الشعب اليهودي « مقدس » ، موضع الحلول ، ولكنهم يختلفون بخصوص مصدر القداسة . فالمتدينون يرون أنه الخالق ، ولكنه خالق حال في شعبه ، بينما يرى الملحدون أنه شعب مقدس ، خلق القداسة على نفسه . وقد كتبت تاريخاً مصغراً للفلسفة العربية ، مستخدماً نموذجي الحلولية والتجاوز أبين فيه أن الفلسفة اليونانية قبل سقراط فلسفة حلولية ، ولكنها وصلت إلى قدر من الثنائية في العصور الوسطى ، ثم عادت للحلولية مرة أخرى مع عصر

النهضة . ومع هذا ظل هناك قدر من الثنائية في الإنسانية الهيومانية (الإنسان في مقابل الطبيعة) . حاول إسبينوزا القضاء عليها وفرض الواحدية المادية ، وحاول كانط الدفاع عنها ، ولكنها أخذت تُهمش تدريجياً إلى أن تصل إلى هيجل حيث تصل الحلولية وفلسفة وحدة الوجود إلى ذروتها .

العلمانية الشاملة

لم أتناول بالتفصيل في دراساتي وحدة الوجود الروحية ، ولا تلك السمات التي تميزها عن وحدة الوجود المادية ، فالأخيرة هي التي تهمني بحسبانها تعني سيادة القانون الطبيعي / المادي على كل من الطبيعة والإنسان . وأميز بين الحلولية المادية الصلبة والحلولية السائلة . فالحلولية الصلبة هي الحلولية المادية في مراحلها الأولى حين يتم تصفية الإنسان باسم الطبيعة ، ويكون مركز العالم هو الطبيعة / المادة (وهذه هي مرحلة الحدأة) . ولكن تصبح أشياء عديدة موضع الحلول ، فتتعدد المراكز ويسقط كل شيء في قبضة الصلابة الكاملة ، فيغيب كل يقين وتسيطر النسبية تماماً . ويلغى بنا كل هذا إلى عالم مفكك لا مركز له ، ويتحول العالم إلى كيان شامل واحد تتساوى ثاماً فيه الأطراف بالمركز ، عالم لا يوجد فيه قمة أو قاع ، أو يمين أو يسار (أو ذكر أو أنثى) ، وإنما يأخذ شكلاً مسطحاً تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح وتُصفى فيه كل الثنائيات ، وتفصل الدوال عن المدلولات فتعراقص بلا جذور ولا مرجعية ولا أسس . وتصبح كلمة «إنسان» دالاً بلا مدلول ، أو دالاً متعدد المدلولات ، وهذا هو التفكيك الكامل ، وهذا هو أيضاً الانتقال من عالم التحديث والحدأة (والإمبريالية) والحلولية المادية الصلبة إلى عصر ما بعد الحدأة (والنظام العالمي الجديد) والحلولية المادية السائلة .

ولكن هذا هو ذاته ما أسميه العلمانية الشاملة، التي تتميز عن العلمانية الجزئية في أن العلمانية الجزئية لا تدور في إطار القانون الطبيعي وحده ، إذ إنها تترك مجالاً للقانون الإنساني (والأخلاقي والديني) ومن ثم تسمح بقدر من الثنائية . وهذا يتضح في أن العلمانية الجزئية تطالب بفصل الدين عن الدولة وحسب ، ولكنها تلزم الصمت بخصوص مفهوم القيم المطلقة والحياة الخاصة والمرجعية النهائية للقرارات السياسية والاقتصادية، أي بها تترك حيزاً واسعاً للقيم الإنسانية (غير الطبيعية غير المادية) والأخلاقية المطلقة ، بل للقيم الدينية ، مادامت لا تتدخل في عالم السياسة بالمعنى الفني (ولذا أسمى العلمانية الجزئية العلمانية الأخلاقية أو الإنسانية) .

وتعريف العلمانية بحسبانها رؤية جزئية قد تم التوصل إليه في القرن التاسع عشر . وكان يصف واقع العلمانية بالفعل آنذاك ، إذ كانت الدولة كياناً ضعيفاً هزلياً لا تتبعه أجهزة أمنية وتربوية قوية ، كما لم يكن هناك إعلام قوي يصل إلى المواطن في منزله . كل هذا يعني أن الحياة

الخاصة ظلت بمنأى عن عمليات العلمنة ، وظلت تحكمها القيم الأخلاقية والدينية (أو في صورة معلمة) .

وأنا بحسباني مدافعاً عن الإنسان والإيمان ، لا أرى أي غضاظة في تقبل العلمانية الجزئية ، أي فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد (بالمعنى المباشر والمحدد للكلمة) . إذ إنني بكل صراحة لا أحب أن أرى شيوخاً أو قساوسة أو فلاسفة أو أساتذة أدب إنجليزي يجلسون في لجان تناقش طرق تحسين التصدير وميزان المدفوعات أو نوع السلاح الذي يجب علينا تزويد جيشنا به . فمثل هذه الأمور الفنية يجب أن تُترك للفنيين .

ولكن المرجعية النهائية (الإستراتيجية والمعرفية والأخلاقية) للدولة ، فهذه أمور لا يمكن أن تُترك للفنيين . وهنا يمكن الحديث عن العلمانية الشاملة . فقد حدثت نظورات ضخمة غيرت الصورة تماماً ، إذ تغولت الدولة وحولت نفسها ومصالحاتها إلى مرجعية نهائية تجب كل المرجعيات ، وهي دولة قوية ، ذراعها طويل يمكنها أن تصل لكل المواطنين من خلال مؤسساتها الأمنية والتربوية والإعلامية . وتوحش الإعلام ، وأصبحت مؤسساته قادرة على الوصول إلى المواطن في أي مكان وزمان تزوده بمختلف المرجعيات ! ولم تعد الحياة الخاصة بمنأى عن كل هذا ، إذ يلاحظ اتساع رقعة الحياة العامة وتآكل رقعة الحياة الخاصة ، حتى تكاد أن تختفي تماماً .

علاوة على كل هذا ثمة تحولات بنيوية كبرى (التصنيع - الهجرة إلى المدينة ... إلخ) قد تبدو وكأنها لا علاقة لها بالعلمنة ولكنها قامت في واقع الأمر بتغيير رؤية الإنسان وإشاعة النسبة والحيادية والانفصال عن القيمة . لكل هذا لم يعد التعريف القديم الجزئي للعلمانية له أي علاقة بالواقع الجديد . ومع هذا استمر المصطلح واستمر استخدامه . وقد نجم عن ذلك أن كثيراً من الظواهر التي لا يمكن للتعريف الجزئي أن يشملها ، بدأ يُنظر لها بحسبانها ظواهر مستقلة عن العلمانية مثل الاغتراب والتشيز .. إلخ . هذا يعني ، في واقع الأمر ، أن علم الاجتماع الغربي قد أخفق في التوصل إلى مصطلح مركب شامل يحيط بكل جوانب العلمانية بعدما ظهر من تطورات وتحولات . ونتيجة لهذا نجد أن أهم الدراسات عن المجتمع العلماني والظواهر المرتبطة بظاهرة العلمانية لا تُشر تحت هذا السُمى ، وإنما تُشر تحت مسميات أخرى مثل (التسلع) أو «ثقافة الترجسية» أو «هيمنة النماذج الكمية» .

لكل هذا قمت بصياغة مصطلح «العلمانية الشاملة» لأصف وضع المجتمع العلماني بعد التطورات التي أشرت إليها ، فهي أيديولوجية كاسحة لا يوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم ، ومن هنا فهي لا يمكنها أن تتصالح مع الدين أو القيم الثابتة أو الإنسان ، وتحاول أن تختزل حياة الإنسان للبعد المادي وحسب . وأعرّف العلمانية الشاملة بأنها ليست مجرد فصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب ، وإنما هي فصل القيم والغايات الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الدولة وعن مرجعيتها النهائية وعن حياة الإنسان العامة والخاصة ،

وتطبيق القانون الطبيعي / المادي على كل مناحي الحياة ، وتصفية أي ثنائية بحيث يتم تسوية كل الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية ، فتتزع القداسة تماماً عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية ، يمكن إدراكها بالحواس الخمس ، كما يمكن لمن عنده القوة الكافية لهزيمة الآخرين أن يوظفها لصالحه . ونتيجة لهذا يظهر العلم والتكنولوجيا المنفصلان عن القيمة والغاية .

والعلمانية الشاملة متتالية غمادية تبدأ بعالم الاقتصاد الذي يصبح موضع الحلول (مرجعية داته ، مكتفياً بذاته ، لا يشير إلا إليها) يستمد معياريته من نفسه ، فتختفي المرجعية الإنسانية العامة ، ويستمد كل مجال معياريته من شيعيته ويتم الحكم عليه من منظور مدى كفاءته في تحقيق أغراضه ، فتصبح المعايير في المجال الاقتصادي اقتصادية ، ثم يكتسب كل نشاط شرعيته من مدى نجاحه في تحقيق أهدافه ، فتصبح المعايير في المجال السياسي سياسية ، وفي المجال العلمي علمية ، وفي المجال الجمالي جمالية .

ثم تساعد هذه العملية إلى أن يصبح العالم بأسره مجالات غير متجانسة غير مترابطة متناثرة لا يربطها رابط ، إذ يصبح لكل مجال مرجعيته النهائية المختلفة ، ويتزايد تحدّد النشاطات والوظائف وعدم تشابكها مع أي نشاطات أو وظائف أخرى . وهذا يعني في واقع الأمر تبسيطها أو ترشيدها لتصبح عناصر غير شخصية ومتماثلة إلى حدّ كبير فيسهل التعامل معها ("معالجتها") ودراستها والتحكم فيها وإخضاعها لنماذج تحليلية بسيطة (عادة كمية) وقواعد إجرائية ذات طابع مادي كمي عام .

ثم تتغلغل عمليات العلمنة الشاملة وتنتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فيتحوّل الجرواني إلى براني ، والباطن إلى ظاهر ، كما تتحول الأسرار إلى ظواهر علمية قابلة للدراسة الموضوعية وتسود العلاقات التعاقدية (الدقيقة) محل الصراعات الإنسانية المباشرة . وتسود أخلاقيات السوق والقيم الداروينية في كل مجالات الحياة .

ثم يُعرّف الإنسان ذاته في ضوء احتياجاته المادية ، أي أنه هو ذاته ، شأنه شأن النشاطات الطبيعية والاجتماعية ، يفصل عما هو إنساني واجتماعي وتصبح مرجعيته النهائية مادية . فيخفي الإنسان الإنسان (الإنسان الرباني) ويظهر الإنسان الطبيعي ، الذي يتحرك داخل الحيز الطبيعي / المادي لا يبرحه ، ويحكم على نفسه وعلى العالم بمعايير مستقاة من عالم الطبيعة / المادة ، أي أن المنظومة العلمانية تبدأ بسحب الأشياء من عالم الإنسان وتضعها في عالم مستقل تسميه (عالم الأشياء) ، ثم تسحب الإنسان نفسه من عالم الإنسان وتضعه في عالم الأشياء هذا .

وانطلاقاً من هذا التعريف للرؤية العلمانية الشاملة قمت بتطبيق هذا النموذج التحليلي على كل مناحي الحياة : الطعام - الشراب - الملابس - القوانين - المعمار - السياسة .. إلخ . لأبين تصاعد معدلات العلمنة . خذ على سبيل المثال حالة الفنان القوتوغرافي الياباني "العالمي"

آراك الذي يتسم فنه بنوع من الإباحية المعرفية التي تتجاوز القيمة تماماً . حقق هذا الرجل شهرته بأن صور مراحل موت زوجته بالسرطان ، ثم تخصص بعد ذلك في تصوير البنات الصغيرات عرايا (أي أنه حوّل البشر إلى مادة استعمالية ولم يفرّق بين الإنسان والشيء الطبيعي / المادي) . والفيلم الوثائقي الذي شاهدته عنه في التليفزيون البريطاني يعرض منظراً لافتة صغيرة تريد أمها أن يقوم آراك بتصويرها عارية والفتاة ترفض لأنها لا تود أن تتجرّد من ملابسها ، وتُحاول أمها أن تقنعه بأن تدع آراك يصورها لأنه سيجعلها مشهورة (والشهرة كما يبدو قيمة مطلقة ومرجعية نهائية !) ويشترك آراك في محاولة إقناع الفتاة ، ويستخدم حججاً قوية في ذلك ! ومن منظور علماني شامل ، لا يمكن الاحتجاج على محاولته هذه ولا على فنه الإباحي ، لأن المعايير لابد أن تكون جمالية محضة منفصلة عن القيمة .

ففي عالم الرياضة ، على سبيل المثال ، بينت كيف أن ممارسة الرياضة في الماضي كان المفروض فيها تهذيب الجسد وتدريب الناس على التعاون وعلى الصراع الرقيق لتفريغ نزعاتهم العدوانية من خلال قنوات متحضرة . ولكن تدريجاً تنفصل الرياضة عن كل هذه القيم لتصبح مرجعية ذاتها ، وتصبح معايير الرياضة رياضية ، ويصبح إحراز النصر هو الهدف الأعلى والأسفل والوحيد . ونسمع بعد ذلك عن تفرغ اللاعبين تماماً للرياضة ، واحترافهم ، وبيعهم وشرائهم وتحويلهم إلى نجوم تُستخدم في الإعلانات ، فالتصايدات السوق تقتحم هذا القطاع تماماً . ونسمع بعد ذلك عن عدد كبير من الرياضيين يستخدم المخابرات لتحقيق النصر . أين كل هذا من قيم التعاون والصراع الرقيق والمرجعية الإنسانية ؟ وقد بينت - فيما بينت - أن من أهم أشكال العلمنة ما يسمّى بوحدة العلوم (التي سميتها واحدة العلوم) وهي الإيمان بأنه لا توجد فروق جوهرية بين الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية ، وأن النماذج التحليلية التي تنفع لدراسة الواحد تنفع لدراسة الآخر لأن قوانين المادة تسري على كل الكائنات ، لا تفرق بين الإنسان والطبيعة !

والعلمانية الشاملة هي ذاتها التحديث على النمط الغربي . وعادة ما يعرف التحديث بأنه تبني العلم والتكنولوجيا والعقل ، ولكنني أضيف "التفصلين عن القيمة والغاية" حتى يتسنى التحكم في الإنسان والطبيعة تحكماً كاملاً . فالتحديث جوهره تطبيق نموذج الطبيعة / المادة على ظاهرة الإنسان ، وهذا يعني أن اتجاهات فكرية حديثة مثل الماكيافيلية (الغاية تبرر الوسيلة : ماكيافللي) والهوبزية (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان : هوبز) والداروينية (الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح وللاقتدر على التكيف : داروين) والنيتشوية (تأكيد إرادة القوى والصراع ورفض المحبة بحسبانها مؤامرة الضعفاء ضد الأقوياء : نيتشه) وأخيراً البراجماتية (يحكم على العقل لا من خلال أي منظور أخلاقي قبلي وإنما من خلال نتائج العملية . جيمس) ، أقول إن كل هذه الفلسفات هي مجرد تنويعات مختلفة على العلمانية الشاملة والنموذج المادي

وقد حضرت مؤتمرًا نظمه اتحاد الطلبة المسلمين في فرنسا في مدينة ليموج (الشهيرة بصنع الأواني والتحف الصينية التي تسمى باسمها) . وكان ضمن الحاضرين أعضاء المحفل الماسوني في المدينة . وعرضت فكرتي عن العلمانية الشاملة Laïcisme comprehensive ، ويبدو أن الحاضرين قد شعروا بجذبتها . ولكن إحدى الحاضرات قالت : "نحن لم نسمع عن هذا المصطلح من قبل ، ولابد أنه من تأليفك" . فابتسمت وقلت : "لا توجد قوانين ضد الابتكار في فرنسا ، أليس كذلك ؟" فسكت على مضض ولكنها جاءتني في الاستراحة وقالت إنها علمانية ولكنها تجمع أولادها من رؤية الأفلام الإباحية في التلفزيون . فقلت لها : "حسنًا فعلت ، وفي معجمي أنت علمانية جزئية" ، فازدادت دهشتها .

وفي ندوة بعنوان "مفوط العلمانية" قدمت هذه الرؤية الجديدة للعلمانية الشاملة ، فجاؤني البروفيسور جون كين John Keane ، الأستاذ بجامعة وستمنستر ومنظم الندوة ، ومن أهم أعماله سيرة توم بين Tom Pain (المفكر الإنجليزي الأمريكي العلماني) ، وقال لي إنه بعد هذا التعريف للعلمانية لم يعد يستطيع النوم ! وضحكنا معًا ، إذ يبدو أنه كان يفكر في الموضوع مليًا من قبل ، وكان بحثي هو القشة التي قصمت ظهر بعيره العلماني . وبالفعل بدأ يعيد النظر في مفهوم العلمانية ، بل وبدأ يتحدث عن «ما بعد العلمانية» (بالإنجليزية : بوست سكيولاريزم- post-secularism) ، وكتب عدة دراسات عن ضرورة فتح ملف العلمانية مرة أخرى ! وعلى كل ، كان تعريفه للعلمانية من البداية جزئيًا للغاية ، حتى إنه التفتح المؤخر بقوله : "إنه لا يمكن تصور العلمانية بدون الإيمان بالله !" (وهذا هو موقف الربوبيين [بالإنجليزية : ديست deist] الذين يرون أن الإنسان يمكنه أن يهتدي لفكرة الإله دون حاجة لوحي) .

وحيثما كنت في الولايات المتحدة في أواخر الستينيات ، حين بدأت معدلات العلمنة تتصاعد بوتائر لم يعهد البشر صكها من قبل ، كنت أعتقد أن أوروبا بموروثها الثقافي والتاريخي ستضع بعض الحدود على هذه العلمنة الشاملة . ولكن تدريجيًا بدأت أوروبا تلحق بركب التقدم ، ونهاوت مقولة التراث الحضاري كدرع ضد التفكك أو التفكك العلماني . وحيثما أسير في لندن وأرى المنازل العريقة والعادات الأصيلة وأرى معدلات التفكك ، أدرك أن الأنبيكة لا يمكن أن تملأ محل المنظومات الأخلاقية .

وما يؤسف له أن كثيراً من دعاة الحداثة في العالم العربي يرددون ما يقوله الغرب عن الحداثة الغربية دون أن ي طرحوا رأيهم ورؤيتهم في الموضوع فيتبنون أفكار الحداثة (والتقدم) بحلوها ومرها ، بخيرها وشرها دون تساؤل . ويكتفون بدراسة متتالية التحديث (بالإنجليزية : سيكوانس sequence) دون أن يدرسوا ما يتلوه من نتائج (بالإنجليزية : كونسيكوانس con-sequence) ، ويصنفون كل المشكلات بحسبانها ثمنًا معقولاً للتقدم . ولعله قد حان الوقت

كي يقارن مكاسب التقدم بخاسره ، وفرى هل الثمن فادح ؟ وهل يمكن الإفلات من هذا المصير أو لا ؟ وهذه الحادثة الطريقة تبين مدى التبعية الإدراكية (أن تفكر من خلال نماذج الآخر) . كنت مرة أشاهد التليفزيون في إحدى الدول العربية ، وكان المتحدث هو مدير شركة الطيران القومية لهذا البلد ، وأتى بعدة إحصاءات عن حركة الطيران في العالم ثم ختمها بإحصائية عن الإنسان الحديث وأنه ينتقل من مكان لآخر بمعدل كذا ميل في السنة . ثم أودف قائلاً بوقار بالغ وتقوى واضحة : "ونحن نقترّب من هذا المعدل بعون الله" ، وكأن اقتلاع الإنسان من مكانه وزمانه واستقاله كاشيء من مكان لآخر هو أحد طموحاتنا وآمالنا . (ثبت أن إقلاع الطائرات وهبوطها يحدثان ذهنيات تؤثر على الذاكرة قصيرة الأجل وعلى المخ بشكل عام !) .

والعلمانية الشاملة - كما أسلفنا - تحول العالم إلى مادة استعمالية ، وهي مثل بهذا المعنى الوجه الآخر للإمبريالية التي حولت العالم (آسيا وإفريقيا والأمريكتين) إلى مادة استعمالية يوظفها الإنسان الغربي (الأقوى) لصالحه . ويمكن القول بأن العلمانية الشاملة قامت بتنظيم الداخل الأوربي بشكل صارم ، فرشدت الإنسان الغربي وجيش الجيوش ، وقامت بغزو العالم غزوة إمبريالية شاملة . فالتحديث المنفصل عن القيمة والغاية في الداخل الأوربي ، والإمبريالية المنفصلة عن القيمة والغاية في بقية العالم هما وجهان لعملة واحدة . والصهيونية ، التي حولت أرض فلسطين والفلسطينيين أنفسهم ، بل وأعضاء الجماعات اليهودية في العالم إلى مادة استعمالية قابلة للتوظيف (تهجير يهود العالم من أوطانهم - تهجير الفلسطينيين خارج وطنهم) ، أقول إن الصهيونية بهذا المعنى إحدى تباديات نموذج العلمانية الشاملة .

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن العلمانية الشاملة قد تنزع القداسة عن المقدس ، ولكنها في ذات الوقت قد تخلع القداسة على غير المقدس . ولذا نجد انتشار النزعات الإلحادية جنباً إلى جنب مع النزعات "الدينية" الحلولية (البهائية - العبادات الآسيوية - عبادة الأرض [جايا] - النجم - قراءة الطالع ... إلخ) . وفي أثناء وجودي في الولايات المتحدة كانت تحيرني هذه الظاهرة "المتناقضة" . فمن ناحية تنجيم وخرافات ، ومن ناحية أخرى رؤية عملية وعلمية صارمة (الامر الذي ذكرني بأشعار وينمان ، وفلسفة إمرسون "الصوفية" المادية) . ولكن نموذج الحلولية والعلمانية الشاملة يعطينا الفتحاح للفهم ، فهو يعني رفع الحاجز بين المقدس والمقدس ، وتقديس أشياء غير مقدسة مثل الكون والطاقة .

إن العلمانية الشاملة (والتحديث المنفصل عن القيمة والغاية) تؤدي إلى تفكيك الإنسان ، فهي ترد الإنسان المركب إلى ما هو دون الإنسان ، الطبيعة / المادة ، التي لا تتمتع بنفس الدرجة من التركيب . وحينما يتم تفكيك الإنسان ، فإنه يُلقي به في عالم الحركة التي لا مركز لها ، عالم ما بعد الحداثة ذلك الذي أشرت إليه من قبل . فكان ما بعد الحداثة هي حلقة أخيرة في سلسلة التحديث على النمط الغربي في إطار العلمانية الشاملة المنفصلة عن القيمة .

وفي محاولة كتابة تاريخ للعلمانية ، أبين أن العلمانية بدأت جزئية في منتصف القرن التاسع عشر ، ولكن نطاقها أخذ يتسع ويستولي على مجالات مختلفة ، ولكن ظلت الحياة الخاصة بمنأى عن عمليات العلمنة ، مما نجم عنه أن الإنسان الغربي كان يدير حياته بنموذج العلمانية الشاملة (الأخلاقيات الداروينية وأخلاقيات السوق والمنفعة المادية) . ولكنه كان يدير حياته الخاصة بنموذج أخلاقي يعترف بالتراحم وقيم الأسرة والقيم الأخلاقية المسيحية أو الإنسانية (وهي القيم المسيحية بعد علمنتها) . ولعل هذه الازدواجية هي سر نجاح واستمرار المجتمعات الغربية الحديثة ، وأسمي هذه المرحلة « المرحلة الصلبة » . ولكنني أرى أنه ابتداء من عام ١٩٦٥ ، بدأت تضيق رقعة الحياة الخاصة ، وبدأ الإعلام يتوجه للفرد مباشرة متجاوزاً كل المؤسسات الوسيطة (مثل الأسرة) التي قد تحميه وتحمي فيه مشاعره وأخلاقيات لا تتفق وأخلاقيات السوق ، إلى أن تحب هيمنتها تماماً ، وأسمي هذه المرحلة « المرحلة السائلة » .

والتعريف الذي أطرحه للعلمانية الشاملة ينبع من ذلك التمييز المبني بين الإنسان والطبيعة ، وهو محاولة لاستعادة مقولة الإنسان للإيمانين بعد أن سلبها منهم العلمانيون الشاملون بحجة الدفاع عن الإنسان ووضعه في مركز الكون ، ولكن المتتالية العلمانية الشاملة كما تحققت في الواقع أدت إلى مركزية المادة وتهميش الإنسان وإخفائه ، ثم إلى اختفاء المركز كلية وإلى ظهور الفلسفات العدمية بما في ذلك ما بعد الحداثة .

وأنوي إن شاء الله كتابة دراستين : واحدة عن الحلولية والآخر عن العلمانية الشاملة بضماء بعض ما كتبت عن الموضوع ، ولم أنشره ، إلى جانب بعض الإضافات التي أصبحت ضرورية بعد ترابط الأفكار وبعد قراءة الكثير من المراجع في الموضوع .

الفصل الثاني

بعض الثمرات الأولى

الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة

كانت أولى محاولاتي لاستخدام النماذج عام ١٩٦٥ حين كتبت دراسة باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٥ ، عنوانها "الرأسمالية التنافسية والإنسان الطبيعي Competitive Capitalism and the Natural Man" نُشرت الترجمة العربية في الطبعة في فبراير عام ١٩٧١ بعنوان "الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة" . وكما هو واضح أخذت عنصراً من عالم الاقتصاد (الرأسمالية) وآخر من عالم دراستي الأدبية للرومانتيكية (العودة للطبيعة) وحاولت أن أرى العلاقة بينهما (وهذه إحدى ميزات النماذج التحليلية ، أنها تظهر العلاقة بين عنصرين قد يبدو لأول وهلة وكأنه لا علاقة بين الواحد والآخر) . وقد سميت النموذج التحليلي آنذاك «المعتقدات الشائعة» أو «الأسطورة الحاكمة» (في الأصل الإنجليزي : ريجوليمنتج ميث regulating myth) . وفرقت في دراستي هذه بين المعتقدات الشائعة والأيديولوجيا ، فقلت : "بينما تحاول الأيديولوجية أن تشرح الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المعقدة ليسنى للأفراد والجماعات أن يتخذوا قراراً فيما يواجههم من مشكلات تاريخية واجتماعية ، نجد أن المعتقدات الشائعة تحدد سلوك الإنسان في المشكلات التي قد يبدو أنها بدون طابع اجتماعي مباشر ، مثل الحب والزواج والعلاقات الأسرية ، كما أنها تؤثر على الحضارة اليومية ومنشجاتها مثل الأغاني والأفلام والتعبيليات الإذاعية . مثل هذه المعتقدات يحددها ولا شك الإطار الأيديولوجي العام للمجتمع ، ولكنها في الوقت نفسه تحقق ضرباً من الاستقلال النسبي عن الأيديولوجية" .

ثم بيّنت أن الأيديولوجيا أكثر تحديداً من المعتقدات الشائعة ، فالمعتقدات الشائعة تصوغ وجدان الإنسان بشكل لا واع ، كما أن أصحاب المعتقدات الشائعة يظنون أنها من المسلمات الأزلية ، وأنها جزء عضوي من النفس البشرية ذاتها وليس من أي نظام اقتصادي وسياسي . فالمعتقدات الشائعة أشبه ما تكون بالعدسة التي تلتقط إشعاعات من القاعدة الاقتصادية ومن

الأيديولوجيا السائدة في المجتمع (ومن مصادر كثيرة أخرى مثل الأساطير السائدة في المجتمع وعاداته وتقاليد) وبعد أن تمزجهم جميعاً تضعهم في إطار محسوس مباشر يمسك خيال المرء أن يستجيب له".

إن مفهوم المعتقدات الشائعة والأسطورة الحاكمة هو محاولة لإيجاد مسافة بين العقل والواقع، وبين الإنسان والطبيعة، وبين المثير والاستجابة، فيصبح الواحد مختلفاً عن الآخر، برغم علاقتهما الوثيقة، ومن ثم يمكننا أن نبين أن استجابة العقل للواقع ليست مباشرة (مادية انعكاسية) وإنما أكثر تركيباً، فالعقل ليس جزءاً من الواقع المادي، يرد إليه، وإنما هو جزء من الكيان الإنساني المستقل نسبياً عن الواقع المادي.

ودراسة "الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة" هي محاولة للتوصل للنموذج الكامن أو الأسطورة الحاكمة في النظام الرأسمالي (العلماني الشامل فيما بعد). وقد وجدت أن الأسطورة الحاكمة في هذا المجتمع هي الطبيعة (الطبيعة/ المادة فيما بعد)، وبينت أن الحيوانات تعيش في الطبيعة، فهي بسيطة انعكاسية، أما الإنسان فهو يعيش في المجتمع الإنساني والحضارة والتاريخ. فقلت:

"لقد كان من الممكن على الإنسان أن يتطور المعركة ويورثها (وبذا يتخلص من الشبكات) أي الجمود الذي تنسجم به الكائنات الطبيعية) لأنه يعيش داخل المجتمع الذي مكّنه من أن يتخطى قدراته وتجربته الفردية. إلا أن حياة الإنسان داخل المجتمع برغم أنها حررت من الطبيعة قد حدت من حريته الفردية لأنه عليه أن يلتزم بالقيم والقوانين الاجتماعية (لأن حياته لا تنظمها القوانين الأزلية للطبيعة).

"وإذا كانت الحيوانات حرة حرية مطلقة، مستعبدة استعباداً مطلقاً، فالإنسان قد حقق قسطاً من الاستقلال عن الطبيعة، وفقد جزءاً من حريته. في الطبيعة يوجد نباتات [تكرار] واستقطاب، وداخل التاريخ يوجد صراع وتمازج. هذا التمييز بين الكائنات الطبيعية والكائن الوحيد الاجتماعي صاحب التاريخ سيساعدنا في محاولتنا فهم حقيقة الرؤية البورجوازية للواقع".

ومن بنية الطبيعة، انتقلت إلى السوق حيث تأخذ العلاقات طابعاً غير إنساني وبينت أن عالم السوق لا يختلف كثيراً عن عالم الطبيعة إذ إن ثمة تأرجحاً شديداً بين الفردية المفرطة من جهة وفقدان الذات من جهة أخرى. وقلت في ذلك: "الحتمية المطلقة وفقدان الإرادة الإنسانية، وعدم جدوى القيم التي خلقها الإنسان هي بعض صفات الرؤية البورجوازية للإنسان. ولكن الغريب في الأمر أن الجانب الآخر من هذه الرؤية يناقض الجانب الأول تمام المناقضة، فالفرد المسير، فاقد الإرادة، هو في الوقت نفسه فرد حر تمام الحرية، إذ إن العالم الموضوعي لا وجود له خارج ذات هذا الفرد".

هذا هو نمط التمرکز حول الذات الذي يؤدي إلى التمرکز حول الموضوع والذي وجدته نمطاً أساسياً داخل الفلسفات المادية . وقد بيّنت في المقال أنه النمط الأساسي الكامن في الفلسفة الغربية منذ عصر النهضة ، بل ويتضح في الحضارة اليومية البورجوازية (شخصية باتمان أو طرزان بحسبانها شخصيات نيتشوية : إرادة مطلقة ولكنها في الوقت ذاته شخصيات غير إنسانية خاضعة للقانون الطبيعي) .

ثم أشرت إلى أن تقبل فكرة العودة إلى الطبيعة والذوبان فيها (النزعة الجينية فيما بعد) هي فكرة معادية للتاريخ ولاستقلال الإنسان عما حوله ، وأنها تخلق لدى الإنسان استعداداً لأن يقبل تحكم السوق وآلياتها فيه ، ثم تحكم أي مجردات غير إنسانية . " فإذا قبل الإنسان حركة الطبيعة الدائرية الرتيبة الثابتة على أنها هي الحركة المفروضة أن تكون ، فإنه سيقبل كل أعاجيب النظام الرأسمالي ، ويقبل قوانين العرض والطلب كما لو كانت قوانين أبدية (أليست هذه القوانين من صنع « الطبيعة » ؟) ، وتجعله يحيا حياة لا معنى لها ، وبلا نشاط خلاقي فيها ، ينتج ما لا يستهلك ، ويستهلك ما لا يريد . كما أن فكرة الطبيعة والإنسان الطبيعي تجعل من السهل على المواطن العادي أن يتقبل لا أخلاقية هذا النظام ، وبشاعة استغلاله ، لأن الإنسان الطبيعي ، تماماً مثل الرأسمالي ، ولأن الطبيعة ، تماماً مثل الرأسمالية ، غير خاضعين للمقاييس الأخلاقية والاجتماعية " (والحديث هنا عن العلمانية الشاملة بشكل كامن) . ثم ختمت المقال بالحديث عن الاستعارة (أي الصورة المجازية) العضوية بحسبانها استعارة تؤكد الحتمية واختفاء عنصر الإرادة الإنسانية واختفاء الوعي التاريخي .

وهذه الدراسة (التي كتبت عام ١٩٩٥) تطرح الموضوعات الأساسية التي ظهرت في معظم دراساتي فيما بعد : الإنساني مقابل الطبيعي - الثنائية مقابل الواحدة - الجدلي [الفضايف والركب ، في معجمي الحالي] مقابل العضوي والآلي والبسيط - التاريخ مقابل العداء للتاريخ - الطبيعة بحسبانها نهاية التاريخ والإنسان . ولعل هذا الموضوع الأخير يحتاج إلى قليل من الشرح . فقد بدأت أدرك أن الحضارة البورجوازية (العلمانية الشاملة فيما بعد) حضارة معادية للتاريخ . فرؤيتها للكون مرتبطة تماماً بآليات السوق ، بالعرض والطلب ، وهي آليات بسيطة لا تعرف تركيبة الإنسان ولا مقدرة على التجاوز ولا جدلية التاريخ . واقترحته في بحثي أن المدخل الحقيقي لدراسة الحضارة البورجوازية هو دراسة عدائها للتاريخ (ومن ثم عدائها للإنسان كظاهرة مستقلة عن الطبيعة) . فالسوق بآلياتها البسيطة هو الطبيعة البسيطة حيث تتحول غابة روسو الجميلة إلى غابة داروين الشريرة ، ولكن برغم " التحول " الظاهري ، فإن كليهما تنسم بالباطة والواحدة ، أي أن الحديث عن العودة للطبيعة هو حديث عن الهرب من التاريخ وعن إنكار التجاوز وتصعية الإنسان . (فهو تعبير عن النزعة الجينية في الإنسان مقابل النزعة الإنسانية أو الربانية) .

رسالة الدكتوراه : تمهيد

ازداد ترابط كل هذه الموضوعات بعضها مع بعض ومع موضوعات أخرى حين بدأت في كتابة رسالتي للدكتوراه عام ١٩٦٧ ، وازداد تملكي لناسية النموذج كأداة تحليلية (دون أن أسميه) . وكنت قد لاحظت أن شعر الشاعر الأمريكي وولت ويتمان يتضمن كثيراً من الموضوعات الأساسية التي تهمني (كل هذا يثير قضية الموضوعية والذاتية : هل وجدت في شعر ويتمان تعبيراً جيداً عن هذه الموضوعات لأنه بالفعل كذلك ، أو أنني وجدتها بسبب انشغالي الشديد بها ؟ وللخروج من هذه الورطة ، أقترح دائماً - كما أسلفت - أنه بدلاً من أن نقبل أطروحة ما لأنها "موضوعية" ونرفض أخرى بحجة أنها "ذاتية" ، علينا أن نخضع أي أطروحة ، ذاتية كانت أم موضوعية ، للاختبار لنرى مقدرتها التفسيرية) . اللهم ، كتبت رسالة للدكتوراه عنوانها - كما أسلفت - "الأعمال النقدية لوليام وردزورث وولت ويتمان : دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخي" .

وقد أصبحت الرسالة قضية شخصية تهمني بشكل وجودي إلى درجة أن بعض زملائي قالوا إنهم لن يستمروا في كتابة رسائل عن موضوعات عامة جافة ، لا علاقة لها بمهومهم الشخصية ، وأنهم لن يستأنفوا برنامج الدراسات العليا إلا بعد أن يجدوا موضوعاً يمكنه أن يصبح أيضاً إشكالية حية . وقد أصبح ويتمان بالنسبة لي رمزاً للسيولة والعدمية واللامعيارية التي تهدد الإنسان . ولذا قرأت كل رسائله الشخصية (المنشور منها وغير المنشور) ، بل وذهبت إلى مدينة كامدن في نيو جيرسي (حيث أقام في الأيام الأخيرة في حياته) وبدأت أجمع الحكايات التي انتشرت حوله .

وكعادته معي ، فحسب أساذي البروفيسور وإيمر للرسالة بشكل منقطع النظير ، فكان نعم المشرف ونعم الصديق . وحين انتهيت من كتابة الرسالة اختار ثلاثة أساذة ممججين لمناقشة الرسالة من بينهم الأستاذ بول فسيل Paul Fussell ، وهو من كبار الكتاب الأمريكيين (في الوقت الحاضر) . كنت أمت الرجل ، وكان - والحمد لله - يبادلني الشاعر نفسها . كان الصراع بيننا يأخذ شكل مبارزة فكرية مستمرة . فعلى سبيل المثال ، كان يلقي مرة محاضرة عن الأنواع الأدبية واستخدم صورة مجازية عضوية هيكلية لتفسير ظهور واختفاء الأنواع الأدبية ، إذ شبهها بالكائنات الطبيعية التي تولد وتموت (مما يعني في واقع الأمر السقوط في حتمية بيولوجية عضوية والتي تعني نهاية التاريخ) . كنت بين المستمعين فرفعت إصبعي وطلبت الكلام ، وعبرت عن احترامي الشديد لرؤيته العضوية الهيكلية وتقديري لها (وهذا أمر بروتوكولي لا بد منه) ، ثم بينت أنها رؤية غير قادرة على تفسير تدهور واختفاء الأنواع الأدبية ، فهي (أي الأنواع الأدبية) ، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، ليست كائنات عضوية . ولذا ، لا بد من استرداد التاريخ الإنساني حتى نفهم ماذا يحدث (أي لا بد من استرداد الإنسان ككيان مستقل

عن عالم الطبيعة / المادة وكفاعل حر ومستول يتمتع بقسط من الحرية داخل الحتميات المختلفة) .
و ضربت للأستاذ فسيل مثلاً بالملحمة ، فقلت : إن الملحمة هي النوع الأدبي الأساسي في
العصور القديمة ، البطولية الوثنية ، فهي تجسد رؤية الجماعة لذاتها وللكون ، وتحتوي على
منظومتها العقيدية والدينية ، فهي تكاد تكون بمثابة كتابها المقدس . ولا يمكن للمجتمع أن
يستمر بدون الملحمة . ولذا ، كان من السهل على هومر ثم على فيرجيل ، بل من الضروري ، أن
يكتبوا ملاحم . أما في العصور الوسطى المسيحية في الغرب ، فقد حل الإنجيل محل الملحمة
بحسبانه مستودعاً للعقائد ورؤية للكون . ولم تكن العصور الوسطى المسيحية عصرًا بطوليًا ،
فانخل الأعلى لم يكن اغراب وإنما الراهب أو الإنسان التقى . وفي نهاية العصور الوسطى ، كتب
دانتي ملحمة الكاثوليكية الكوميديا الإلهية حيث يحقق البطل تجاوزه لعالمه الأرضي لا من خلال
الفعل البطولي الفردي وإنما من خلال فعل التقوى : حبه ليهوذا ، وهو صدى للحب المسيحي
للعداء مريم . أما الملحمة البروتستانتية التي كتبها جون ميلتون فهي الفردوس المفقود ،
والتجاوز هنا أيضاً يتم من خلال الإيمان الديني الفردي ، لأن هذا هو عصر البطولة الديني في
الإطار البروتستانتية .

وبعد هذا ، مع ظهور العقلانية المادية والرؤية العلمية ، أصبح من السهل أن يكتب أحد
ملحمة . ولذا نجد أن معظم الشعراء في العصر النيوكلاسيكي في أوروبا (القرن الثامن عشر) ،
كانوا يحلمون بكتابة ملحمة لأن النظرية النقدية كانت تضع الملحمة على قمة هرم الأعمال
الأدبية ، ولكن ما كتب من ملاحم كان جامداً ومملأً للغاية . وحينما حاول ألكسندر بوب كتابة
ملحمة ، كتب ملحمة مضادة ، ملحمة ساخرة معادية للبطولة mock-heroic هي قصيدة The
Rape of the Lock "أختصاب خصلة الشعر" حيث يستخدم الشاعر كل تقاليد الملحمة البطولية
في وصف عالم غير بطولي ، عالم القرن الثامن عشر حيث يرتدي الجميع ملابسهم المعطرة
البالغة الأناقة والتصنع ، ويحيون حياتهم كأنهم راقصو باليه ! والنتيجة هي سخريه من مجتمع
جميل ضيق ، يذكرنا في الوقت ذاته بعالم البطولة الحقيقي الرحب الذي ولّى . ففي عصر العقل
والاستنارة (وعلمنة الإنسان) لا يوجد مجال للتجاوز أو البطولة .

ثم ظهرت الثورة الرومانسيكية . وحينما حاول الشعراء كتابة ملحمة ، كانت دائماً تأخذ
شكل سيرة ذاتية ، فالبطولة هي كفاح الشاعر الرومانسي حتى يدرك ذاته والعالم من حوله
والعلاقة بينهما . وهكذا ، فالتجاوز يتحقق من خلال الانغلاق على الذات . ونحن هنا لا
نتحدث ، في واقع الأمر ، عن ملحمة ، وإنما عن شعر غنائي يطمح إلى أن يكون ملحمة . ثم
كتب بايرون قصيدة دون جوان التي يتحدث فيها عن البطل الملحمي واستحالته في عصر النفعية
والعقلانية المادية - وهكذا ماتت الملحمة . وبعد ذلك التاريخ كتب الشعراء العربيون قصائد
طويلة نوعاً مثل الأرض الخراب لإليوت التي يُشار إليها بأنها "ملحمة العصر الحديث" ولكنها لا

علاقة لها بالملحمة على الإطلاق فلا يوجد فيها بطل ولا طموح ولا تجاوز ولا أشواق ، وإنما عقم وخراب وموت .

وجوهر ما فعلته في هذا التاريخ القصير لظهور الملحمة واختفائها ، هو أنني رفضت صورة (أو نموذج) الأستاذ بول فسيل المجازية المعنوية الحتمية الاختزالية المغلقة (وكان تاريخ الأعمال الأدبية نبات يمو ثم يموت من تلقاء نفسه) وأحللت محلها نسقاً (أو نموذجاً) تاريخياً إنسانياً مركباً مفتوحاً يخلط بين المادي والمعنوي ، بين التاريخي والفكري ، ولا يعطي أولوية مسببة لعنصر واحد . وكان رد البروفسير فسيل عليّ مخيفاً للغاية ، إذ قال : "إن هذه وجهة نظر رائعة ، وارجو من مستر المسيري وأمثاله من دعاة المذهب الإنساني الماركسي أن يطوروا رؤاهم هذه" ، أي أنه رفض بكل بساطة أن يدخل معي في حوار .

حدثت أستاذي البروفسير وايمر من فسيل ، وقلت له إن الهوة الفكرية التي تفصل بيني وبينه ضخمة ، وسيكون من العسير عليه اجتازها وبالتالي سيكون من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، عليه مناقشة رسالتي . فضحك الأستاذ وايمر وقال : "أنت دكتور و سلطان شرقي لا تفهم الديمقراطية الأمريكية وروح الليبرالية" . فقلت له : "أنا أفهم جيداً حدود الديمقراطية والليبرالية ... هناك خطوط حمراء إن عبرتها قُضي عليّ" ، وقد عبرت هذه الخطوط في رسالتي للدكتوراه : طالب من العالم الثالث يتحدى الرؤى الغربية السائدة ، بل يتعامل مع الحضارة الأمريكية بطريقة أنثروبولوجية محايدة ، تماماً كما يتعامل أي أنثروبولوجي غربي مع إحدى القبائل الإفريقية" . فقال أستاذي : "ولكن فسيل هيجلي مثلك" . فبيّنت لأستاذي أنني لست هيجلياً برغم إيماني بالجدلية ، بل أنني أرى أن الهيجلية هي فلسفة واحدة لا تعرف الثنائيات ولا تفصل بين المادي والروحي أو بين الطبيعي والإنساني وترد كل شيء إلى عنصر واحد ، وأنها تؤدي في التحليل الأخير إلى نهاية التاريخ . فضحك أستاذي وأصر على موقفه ، فقامت بإرسال نسخة من الرسالة إلى البروفسير فسيل وأخرى إلى البروفسير وليام فيليبس وثالثة إلى البروفسير ماريوس بيولي Marius Bewley (وكان من أهم المتخصصين في الأدب الرومانسي) .

وكنت قد تعرضت في رسالتي لسألة الشذوذ الجنسي عند ويتمان ، وبيّنت أنها ليست انحرافاً شخصياً وإنما هي جزء من منظومة ويتمان ورؤيته للكون وتوجهه الحاد نحو اللذة ، وأن العداء للتاريخ وإعلان نهايته يؤدي إلى التمرکز المتطرف حول الذات ، وأن الشذوذ الجنسي هو النتيجة المنطقية لهذا الاتجاه . هذا على عكس الفعل الجنسي بين الرجل والمرأة (وبخاصة في إطار الأسرة) فهو فعل اجتماعي تاريخي ، له نتائج اجتماعية تاريخية ، أي نتائج إنسانية عامة تهم الإنسان ككائن اجتماعي ، وليس كمجرد فرد منغلِق على نفسه إذ يعيد المجتمع إنتاج نفسه من خلاله فيضمن استمراره وتربطه . (وقد تناولت الموضوع نفسه في كتاب الفردوس الأرضي) . ومن هنا تبأت بانتشار الشذوذ الجنسي في الولايات المتحدة مع ازدياد التمرکز حول الذات

وتساعد معدلات البحث عن المنفعة الشخصية واللذة الذاتية (هذا في أواخر الستينيات قبل أن تصبح مناقشة مثل هذه الموضوعات أمراً مألوفاً . كما تنبأت بأن مرحلة الفلود ستبعتها مرحلة أكثر انغلاقاً على الذات ، وهي مرحلة الاستمناء حيث يصل النموذج إلى لحظة تحققه حين لا يدخل الإنسان في علاقة إلا مع نفسه . ولعل انتشار الإيدز والإنترنت سيساعدان على ذلك) .

وقد بينت أن كل قصائد ويمان المعادية للتاريخ والتي تعلن موته تنتهي بموقف فيه شذو جنسي . على عكس القصائد ذات البعد التاريخي الاجتماعي مثل المراثية التي كتبها بعد اغتيال إبراهيم لنكولن . وقدمت قراءة تفصيلية مقارنة لتلك القصائد ، بينت فيها الاختلاف في الصور والأسلوب والبنية . هذا ديدني في قراءة النصوص الأدبية : أ طرح رؤيتي التاريخي الاجتماعية الفلسفية ، ولكنني لا أكتفي بذلك ، بل أبين كيف تتبدى من خلال تفاصيل وبنية العمل الذي أدرسه ، أي أنني أرى البنية التاريخية الاجتماعية في تعاملها مع البنية الجمالية .

أذكر هذا الموضوع لأن البروفيسور ماريوس بيولي كان شاذاً جنسياً ، وكان صديقه البورتوريكي يأتي ليقابله في القسم . ومثل هذه الموضوعات كانت أموراً نتحدث عنها آنذاك همساً ، إذ كانت توجد في منطقة رمادية لا هي بالسرية ولا هي بالعلنية (بعد مناقشة الدكتوراه ، أصيب البروفيسور بيولي [الذي كان يتحدث عن صديقه بصراحة بالغة] بالإيدز ومات على الفور ، ويبدو أنها كانت حالة إيدز مبكرة ، ولكن المرض لم يكن قد اكتشف بعد) . أما فسيل فقد كان متزوجاً ، ولكنني أخبرته أستاذي (سأخراً) بأن موقفه من العالم هو موقف المتمركز تماماً حول ذاته ، فهو شاذ جنسياً من الناحية الفكرية والنفسية ، برغم أنه متزوج وأنجب أطفالاً من الناحية الفعلية (كان هناك إعلان تليفزيوني في ذلك الوقت عن سلعة تصلح for the single woman, whether married or unmarried ، وهي عبارة تعني "للمرأة العزبة سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة" ، أي أنه تم فصل حالة الزواج الفيزيكية من حالة العزوبة النفسية) . وبالفعل دعا بول فسيل أعضاء أسرته ، عام ١٩٧٢ ، وأخبرهم بأنه سيطلق زوجته ليعيش مع صديقه . وقد أصبح بعد ذلك من أكبر المدافعين عن الشذو الجنسي . ساعتهما ، اتصل بي أستاذي من الولايات المتحدة وقال : لقد صدق حدسك . ولكنني في زيارة أخيرة في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ ، أخبرني أستاذي بأن فسيل "طلق" صديقه وتزوج من امرأة (ولعل منه يتجاوز ٧٥ عاماً) وأن زوجته الأولى كتبت مذكراتها عن حياتها مع فسيل ، وكيف أنه كان يحب أن يسير عارياً أمام صديقها !

الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ

يمكنني الآن أن أخص رسالتي للدكتوراه بحُسابها أول أعمالِي الفكرية المتكاملة التي تداخلت فيها معظم الموضوعات الأساسية في حياتي (الحلوقية - العلمانية الشاملة) والتي تضمنت أجندتي البحثية التي لم تتحقق إلا في الموسوعة وفي الكتب التي ستصدر بعدها بإذن الله . كما أن رسالتي للدكتوراه - كما أسلفت - هي أول دراسة مطولة أكتبها ولا تلجأ للرصد المباشر، وإنما تستخدم النماذج كأداة تحليلية بشكل واسع.

كان هناك رأي سائد في الأوساط العلمية أن وردزورث "أثر" في ويتمان . وكان المطلوب أن أحدد هذا الأثر على الطريقة المادية ، الموضوعية المتلقية ، التي أسلفت الإشارة إليها . ولكنني فعلت العكس تماماً . فانطلقت في رسالتي للدكتوراه من رفضي لهذه الرؤية لفكرة التأثير والتأثر لفكرة وحدة (أو واحدة) العلوم ، ومن الإيمان بالعقل التوليدي والإنسانية المشتركة . فقسّمت رسالتي (في النسخة الأولى) إلى عدة أقسام ، وكان تقسيمًا غير تقليدي بالمرّة . فالجزء الأول سمّيته «الأطروحة (thesis)» ، أما الجزء الثاني فقد سمّيته «أطروحة مضادة (أنتي ثيسيس antithesis)» ، ثم جزء ثالث سمّيته «الأطروحة المركبة (سينثيس syn-thesis)» . ولكن بدلاً من الانغلاق الهيجلي داخل الإيقاع الثلاثي الزائف ، أضفت جزءاً رابعاً قصيراً سمّيته «الممارسة (براكسيس praxis)» وجزءاً خامساً سمّيته «الملحق الأيديولوجي» (وكان هو مقال «الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة» الذي أسلفت الإشارة إليه) .

ولجات لحيلة سماها أستاذي «برخنية» (نسبة إلى الكاتب المسرحي الألماني برتولد برخت Bertold Brecht) ، وهي أنفي في الجزء الأول من الرسالة اصطنعت موقف العالم الأكاديمي الموضوعي الوضعي الفتح الذي يؤمن بأهمية تعقب علاقات التأثير والتأثر بين الكتاب بعضهم بعض وكانه شرلوك هولمز . وبصرامة بالغة مصطنعة ، بيّنت (بما لا يقبل الشك) أن وردزورث أثر على ويتمان في ٢٤ موضعاً مختلفاً ، وقدمت البراهين الصلبة على ذلك من خلال عمودين متقابلين ، توجد في الأول مقتطفات من شعر ونقد وردزورث ، وأدرجت في الثاني مقتطفات من شعر ونقد ويتمان ، تبين أثر وردزورث عليه (كما يفعل الأكاديميون ممن يؤمنون بفكرة التأثير والتأثر المادية التي أشرنا إليها) .

ولكنني في خاتمة الجزء الأول (التي سمّيتها "خاتمة لم يختتم فيها شيء") ، أضفت بطريقة فجائية وغير متوقعة أن هذه حقيقة صلبة لا قيمة لها على الإطلاق ، إذ ما فائدة أن نعرف أن فلاناً قد أثر على علان في أربعة وعشرين موضعاً مختلفاً ؟ وسميت هذا مجرد «معرفة» (باللاتينية : scientia) وليس «حكمة» (باللاتينية : sapientia) (مقتبساً بذلك كلمات الحكماء الروماني شيشرون) ، أي أنني ميّزت بين الظاهرة الطبيعية المادية البسيطة والظاهرة الإنسانية المركبة ، (بين الحقائق والحقيقة والحق ، وبين خطورة النموذج المعلوماتي التراكمي

الذي يساري بين المعلومات والمعرفة ، وخطورة وهم المعرفة الذي يخلقه . ثم اختتمت هذا الجزء بقولي . " فلنبداً إذن حيث يجب أن نبدأ ، في عالم رؤية الكون والجلود الشفافية والتاريخية والدينية والاقتصادية " .

وكتب الجزء الثاني (الأطروحة المضادة) . ويبدو أن تجربتي في الولايات المتحدة قد طرحت على عقلي ووجداني بإحاح شديد مقولة التاريخ . فالاجتماع الأمريكي مجتمع حديث يقال له «مقدم» ، ليس له تراث تاريخي ، ولذا يتجه إيقاعه العام نحو الآن وهنا ، والمباشر والغسوس ، والعملي . وكل هذه في تصوري أحاسيس معادية للتاريخ الذي يعبر عن نفسه من خلال أنماط تتبدى من خلال رقعة زمنية عريضة وتفصيل كثيرة ، وإدراك هذه الأنماط يتطلب حساً تاريخياً لا يُعرف في الآن وهنا . كما لاحظت أن كتابات الترانسندنتاليون الأمريكيين American Transcendentalists مثل إمرسون وثورو تتأرجح بين التفاصيل الكثيرة والأفكار المجردة (مثل فكرة "روح العالم" التي سبق الإشارة إليها ، وهي المقابل الأمريكي للمفهوم الحلولي animus mundi) .

ومن خلال حوار استمر عدة سنوات مع الصديق كاثين رابلي بدأت أدرك أهمية البُعد التاريخي ، فاستخدمته في رسالتي ، حيث قارنت بين وردزورث وويتمان مستخدماً مقولة التاريخ وموقف الإنسان منه كمقولة معرفية تحليلية في مقابل مقولة الطبيعة ، أي أنني استخدمت نموذجاً تحليلياً قوامه التعارض بين الإنسان المركب صاحب الوجدان التاريخي الذي يستطيع تجاوز الطبيعة والإنسان البسيط الطبيعي المعادي للتاريخ والذي يرد إلى ما هو دونه ، أي عالم الطبيعة . فاشرت إلى أن كلاً من وردزورث وويتمان قد تم تصنيفهما على أنهما شاعران "رومانتيكيان" ، وأن هذه حقيقة صلبة عامة لا يمكن الاختلاف بشأنها ، ولكنها مع هذا لا معنى لها ، فنقط الاختلاف بينهما جوهرية وأكثر دلالة . فالشاعر الإنجليزي ينتمي إلى الكنيسة الإنجليكانية ذات التوجه "الكاثوليكي" (بتأكيدهما على الطقوس ، وفكرة الكنيسة كمؤسسة وسيطة) ، بينما ينتمي ويتمان إلى جماعة الكويكرز (جماعة بروتستانتية متطرفة ترفض الطقوس وأي وساطة بين الإنسان والخالق ، وتؤكد على ما يُسمى «الصوت الداخلي» ، أي الصوت الذي يسمعه الإنسان داخله ويتلقى منه الإلهام والمشورة . وهذا الصوت يحل محل التجربة الدينية الجماعية ، ويجعل الطقوس والشعائر لا لزوم لها) . وكان وردزورث يعيش في مجتمع مر بكل المراحل التاريخية ما قبل الرأسمالية ، تتداخل فيه الحداثة بالتقاليد والعناصر المادية بالعناصر الروحية (دون أن تنتزع) . أما ويتمان ، فكان يعيش في مجتمع استيطاني لا يعرف إلا الشكل الرأسمالي في التنظيم الاقتصادي وفي الرؤية للكون .

ولكل هذا ، فإن موقفهما من الكون مختلف تماماً على الرغم من بعض التشابه في التفاصيل . فوردزورث يغازل الحلولية وحسب (استخدمت كلمة بانثيرزم pantheism

(الإنجليزية) ويتحدث عن "العودة" ولكنه لا يسقط فيها أبداً ، فقد اكتشف أن هذه العودة الحلولية للطبيعة والامتزاج بها هي نزعة معادية للتاريخ والدين والإنسان . ولذا ، فإن العودة للطبيعة عنده هي مجرد "صورة مجازية" أو لحظة . ولحظات الشطح الصوفية لحظات مؤقتة (ولذا سميت هذا الجزء «هامشية أسطورة الطبيعة») ، ومن هنا فإن "شاعر الطبيعة" ، كما كان يُسمى ، لا يفقد ذاته فيها ، فهو يستند إلى تراث تاريخي قوي وإيمان عميق بالإنسان (وبالإله الذي لا يتجلى في الصوت الداخلي وحسب ، وإنما من خلال طقوس اجتماعية) . وبالتالي فهو في واقع الأمر شاعر الإنسان في لحظات حزنه وفرحه (وهذا على كل وصف ودرزورث نفسه) . وقدمت قراءة لقصيدة "الحاصدة الوحيدة" التي سمعها الشاعر فسحرت به بنائها ، بل وكادت أن تكسحه وتقذف به في اللازمان ، ولكنه يتماسك ويتذكر التاريخ والحدود الإنسانية فيرفض التوحد بالنظر الذي أمامه (الطبيعة) ويحمل أنغامها في قلبه ويرحل ، أي أنه وقف على عتبات لحظة الحلول وذوبان الذات في الموضوع ولكنه قاوم وتماسك وانتصر ، فازداد ثراءً من اللحظة (الطبيعة الحلولية) دون أن يتخلى عن حدوده (الإنسانية) التي تميزه كإنسان .

ثم قارنت كل هذا بشعر ويتمان الذي وصفته بأنه شاعر حلولي صوفي مادي يعادل بين الروح والمادة ويقرن بينهما (على طريقة هيجل) (ولذا سميت هذا الجزء «مركزية أسطورة الطبيعة») . وهو يتغنى بالمادة والجنس والكهرباء والجاذبية الأرضية التي يرى أنها تشبه الجاذبية الجنسية . فالإنسان إن هو إلا جزء لا يتجزأ من الكون ، ووعيه لا يتجاوز الطبيعة ، بل عليه أن يتكيف معها ويدعن لها . كما أن الإيمان المطلق لدى ويتمان بالطبيعة (وعداؤه للإنسان المركب التاريخي) يترجم نفسه إلى عدااء للتاريخ يتضح في محاولته الوصول إلى نهاية التاريخ وإلى اليوتوبيا التكنولوجية . وكان ويتمان يرى أن أمريكا هي الذر حوس الأرضي ، قمة كل التطور التاريخي السابق ، فهي دولة العلم والتكنولوجيا التي ستهدم التاريخ وتعلن نهايته (وذلك قبل أن يتحدث فوكوياما في نهاية الثمانينيات عن انتصار الليبرالية التي تؤدي إلى نهاية التاريخ) . وكما يقول ويتمان "جوهر المثالية الأمريكية هو علمية" (بالإنجليزية : نو سيانمايز - to scient-ize) (نسبة إلى علم) الروح والشرائع اليونانية" ، أي صبغها بالصبغة العلمية أو استخلاص قوانين علمية عامة منها يدير الإنسان حياته من خلالها بطريقة علمية . وهذا هو جوهر فكرة وحدة أو واحدة العلوم) . بل إن التاريخ يظهر ، في أشعار ويتمان وفي كتاباته النقدية ، كجثة هامدة وعيب ثقيل يحاول الإنسان قلبه طاقته أن يتخلص منه ، حتى ينطلق من نقطة الصفر (ونقطة الصفر هذه تشبه أمريكا التي رفضت التاريخ الأوروبي لتبدأ من "جديد" بلا أعباء أخلاقية ولا تراث تاريخي) .

و يتمان في رؤيته واحدي يردُّ التاريخ إلى الطبيعة ، ويردُّ الطبيعة إلى مبدأ واحد "آل قانون الذي لا يتغير ؛ الحتمي - مثل قوانين الشتاء والصيف ، والنور والظلام" .

ونكتشف أن الجنس في شعر ويتمان ، مثل الطبيعة ، هو شكل من أشكال الهروب من التاريخ ومن التركيبية الإنسانية (فلمسة واحدة من يد الحبيب تعطيه إجابة شافية عن كل الأسئلة الخاصة بالواقع وتهدم كل الثنائيات) . والجنس يسوي كل الأشياء بعضها بعض ، فتصبح الحياة مثل الموت ، والإنسان مثل الطبيعة ، والروح مثل الجسد (في مقدمة الذكثوره وضعت اقتباسين أحدهما من القرآن (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة ٣٠) ، والآخر من ويتمان يقول فيه إنه سيذهب ويعيش مع الحيوانات فهي مكتفية بداتها) .

وشعر ويتمان معمم بهذه "الرغبة في العودة" ، الحرفية والمادية الدائمة ، إلى الطبيعة ، أو المبدأ الواحد (وليس مثل وردزورث الذي يعود إلى الطبيعة ، مجازاً وحسب ، وللحظات وحسب) . وكثير من قصائد ويتمان تبدأ بالابتعاد التدريجي عن الحضارة والاقتراب المتزايد من الطبيعة إلى أن يلتحم بها تماماً ، ويصل إلى اللحظة النماذجية ، لحظة ذوبان الذات الإنسانية في الطبيعة المادية ، وهي عادة ما تكون لحظة قذف جنسية (مع محب من جنسه) يعلن فيها تحرره من عبء التاريخ ومن التدافع ومن الحضارة والهوية ، فهي لحظة نهاية التاريخ وتحقق الفردوس الأرضي .

وقد لاحظت تأرجح ويتمان بين الذات والموضوع . فهو شاعر ذاتي مغرق في الذاتية ، ولكنه كان يلذ له أن يفقد ذاته تماماً فيما يرى ويتأمل ، ولذا فهو يستخدم ما سماه هو نفسه الكنازج : أن يذكر الأشياء التي حوله دون ترتيب أو إعادة صياغة من خلال الخيال ، فالموضوع المتجاوز للإنسان (لا الإنسان المتجاوز للموضوع) هو الذي له الكلمة النهائية . وبالتدريج ، اكتشفت علاقة نهاية التاريخ (وهذا السقوط في الموضوعية) بغياب الجنس الخلفي ، وأن إلغاء التاريخ في أمريكا (الدولة الاستيعباطية) يعني في واقع الأمر شرعية إبادة العنصر السكاني الأصلي (التاريخي) حتى يبدأ المستوطنون تاريخهم من نقطة الصفر . فالعداء للتاريخ هو في واقع الأمر عداء للإنسان .

وقد خلصت من مقارنتي بين الشاعرين إلى أن وولت ويتمان ، الذي يسمونه في الولايات المتحدة "شاعر الديموقراطية الأمريكية" ، هو في واقع الأمر شاعر الشمولية والفاشية وموت التاريخ والإنسان .

في الجزء الثالث من الرسالة (الأطروحة المركبة) ، اقترحت أن نعيد النظر في مسألة التأثير في ضوء الاختلاف في الرؤى ، وبيئت أنه أثر حقيقي مادي وملموس ولكنه سطحي ، لأن بنية فكر وردزورث ورؤيته (نموذجه المعرفي) لم تؤثر البتة في ويتمان ، وأن الاختلاف (الفكري والثقافي) بينهما أهم من التشابه (المباشر المادي) . أما القسم الرابع والأخير والذي سميت «الممارسة» ، فقد كتبه بشكل فكاخي ماخر إلى حد ما ، كما يتضح من عنوانه : «عشرون

طريقة يمكن للجنس البشري بأسره أن يستفيد بها من رسالتي للدكتوراه ، وحمته بنفس العبارة التي حتم بها البيان الشيوعي ولكن بعد تعديلها : "يا عمال العالم - لكل هذا - اتحدوا" (و كنت أبوي حذفه في النسخة النهائية) . أما الملحق الأيديولوجي فكان عنوانه - كما أسلفت - "الراسمالية التنافسية والإنسان الطبيعي" .

قدمت الرسالة ، فأرسل بها أستاذي إلى بول فسيل وماريوس بيولي ووليام فيليس . وقابلني بيولي وأخبرني بأن رسالتي للدكتوراه هي أحسن رسالة قرأها في حياته الأكاديمية . أما بروفيسر فيليس ، فقد قابل الرسالة بفتور شديد وقال باقتضاب "عمل عظيم" ، ولم يثر أي اعتراضات ولم يتفوه بأي كلمات مدح أو قذح (ولا أعرف سر هذا الفتور حتى الآن) . أما فسيل فأمره كان مغايراً ، إذ أعاد رسالتي بعد ساعتين من تسلمه لها وزعم أنه فعل ذلك بسبب وجود خطأ في علامات الترقيم في الصفحة الثانية ١ (أو كما قال في خطابه : "لا يمكن أن أقرأ رسالة للدكتوراه تحتوي على خطأ في استخدام الفصلة في الصفحة الثانية - I cannot read a disser- tion with a comma splice on the second page" splice يعني "خطأ" باللغة الإنجليزية الأكاديمية ! فصعق أستاذي وأخبرني بأن ما قلته عن حدود الديوقراطية على ما يبدو أمر صحيح .

وبعد أن رفض فسيل الرسالة ، اضطرت لقضاء ستة شهور كاملة لإعادة كتابتها وتنقيحها (وقد ساعدني الأستاذ وإيمر كثيراً في هذا ، وهذا ما يتجاوز واجبه بمراحل) . فأسقطنا القسم البرخعي ، كما استبعدت كثيراً من عبارات الذم والقدح في ويتمان وفي الحضارة الأمريكية ، ودرست علامات الترقيم في الإنجليزية دراسة عميقة للغاية ، إلى درجة أن دار النشر التابعة للجامعة كانت تفصل بي لاستشارتي في بعض المشكلات المتعلقة بهذا الأمر . ولكنني على الرغم من كل هذا لم أغير من رؤيتي ، وكل ما فعلته هو أنني استخدمت أسلوباً بارداً حبيادياً قلت من خلاله كل ما أريد ، بل إنني زدت من عيار الهجوم الفعلي ووازنت هذا ببرود أسلوبني وحجاده .

ثم تقدمت بالنسخة الجديدة ، فوافق فسيل عليها وكتب خطاباً يبدأ بالعبارة التالية : "هذه رسالة ممتعة بشكل يدعو إلى الجنون «dissertation» This is a maddeningly interesting ، وهي عبارة طُصت موقفه المبهم (وبينت أن تحدي النمودج المعرفي المهيمن أمر من الصعب على المرء تقبله) . وحُدد موعد المناقشة ، وفوجئت بالأستاذة (بما في ذلك البروفيسور بيولي) قد جاءوا ومعهم أثنان من الورق وأستلة مكتوبة ، وهذا أمر غير مألوف بعد قبول الرسالة للمناقشة . وصُعق أستاذي للمرة الثانية (كان أستاذي يُصعق دائماً حينما يرى الشر ، كان خبيراً وقديساً لدرجة تنير الفرح والحزن في ذات الوقت) . وقررت أن أستخدم مدفعيتي الثقيلة وبكل ضراوة . وفوجئت بأن أستاذي قد اكتشف الموقف أيضاً ، فقرر أن يأخذ صفّي دون أي تحفظ . وهذا أيضاً أمر غير مألوف ، فوظيفة المشرف في مثل هذه الحالات هي إدارة الحوار وحسب ، لا أن يأخذ صف

وبدأت المبارزة ، فسألوني عن غياب بعض كبار النقاد من قائمة المراجع ، فلخصت لهم أطروحات هؤلاء النقاد ووصفتها بأنها أطروحات تافهة ومن ثم فهم لا يستحقون أن يذكروا في رسالتي للدكتوراه ، لأنني لن أذكر كل من هب ودب من أيام آدم إلى أيام جونسون وبكسون . وعرض علي أحد الأساتذة بعض مقطوعات من شعر وردزورث ذات طابع حلولي مُعرق في الحلولية ، فقلت على الفور : إنني طبعاً أعرف هذه المقطوعات الحلولية المتطرفة ، وأعرف أنها وُجدت ضمن أوراقه . هذه حقيقة مادية صلبة لا مرأى فيها ، ولكن الأهم من هذا كله أن وردزورث نفسه قام بحذفها من قصائده ، وحذفها من شعره أعمق دلالة من وجودها في درج مكتبه !

أما المقطوعات الأخرى التي أتوا بها ، فقد بُنيت طبيعتها المجازية . فأشار الأساتذة إلى الناقد جيفري هارتمان Geoffrey Hartmann الذي قدم قراءة لقصيدة "الحاصدة الوحيدة" تطف على الطرف النقيض من قراءتي لها ، فهو يجد أن تراجع وردزورث عن لحظة الذوبان الحلولية هو دليل على خوفه ووهنه وضعف خياله ، أي أن هارتمان يرى أن الحلولية هي الرؤية السليمة ، وأن ذوبان الإنسان في الطبيعة هو القمة التي يمكن للخيال الإنساني أن يصل إليها . فبُنيت التضمينات المعادية للإنسان في فكر هارتمان ، ثم أخبرتهم ضاحكاً بأن هارتمان هذا لابد أن يكون صهيونياً . فدهشوا من إجابتي . فشرحت لهم علاقة الحلولية بنهاية التاريخ والعودة للطبيعة وعلاقتها بالعودة لصهيون ، ك لحظة تكون فردوسية ينتهي فيها المجدل ، فهي لحظة موت وتحكم غير إنسانية (وظهر فيما بعد بالفعل أن هارتمان هذا صهيوني متطرف بالفعل) . بل أخبرت أساتذتي بأن رسالتي للدكتوراه هي ظاهرياً عن وردزورث وويتمان وأنها في واقع الأمر عن الصراع العربي الإسرائيلي ، الصراع بين مجتمع تاريخي (المجتمع العربي في فلسطين) ومجتمع معاد للتاريخ (التجمع الاستيطاني الصهيوني) ، وأن العودة للطبيعة هي العودة إلى صهيون ، وأن العداء للتاريخ هو جوهر الصهيونية (وبالفعل استخدمت النموذج التحليلي الذي استخدمته في الدكتوراه في دراساتي للصهيونية فيما بعد) .

بعد انتهاء النقاش ، خرجت من الغرفة حتى تشاؤم اللجنة . وحينما عدت ، أخبروني بأنهم وافقوا على منحي درجة الدكتوراه ، ووقع ثلاثتهم على الرسالة بموضوعة بالغة ، ثم أداروا ظهورهم لي ولم يصالحوني كما هي العادة في مثل هذه المناسبات . فصعق أستاذي للمرة الحامسين ، وجلس وقد اعترته الدهشة وأخبرني بأنهم قالوا له في أثناء المداولات : "إن حياتهم ستكون مختلفة بعد رسالة المسيري" ، وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح إليه أي رسالة . ثم تساءل : "لماذا إذن عاملوك بهذه الطريقة الجافة الجافية ؟" فشرحت له للمرة المائة نظرية الخطوط الحمراء التي لا يمكن للمرء عبورها ، وأن هذا ما فعلته حين قدمت رؤيتي هذه لويتمان والحضارة العربية

الحديثة ، وأخبرته بأنه لولا أنه هو المشرف على رسالتي لما حصلت على الدكتوراه من أي جامعة أمريكية . وقد تأكد هو بنفسه من مسألة الخطوط الحمراء هذه حينما أرسل برسالتي لتُنشر ، فكان طلبه يُقابل بالرفض (كما سأبين فيما بعد) . ومع هذا يجب أن أعترف بمقدرة المتحنيين على تجاوز عيظهم مني وحقهم عليّ (وهذا أمر أساسي في العملية التربوية) ، وهذا ما لا يمكن أن يحدث للأسف - في مصر ، فلابد من أن يكون الأساتذة راضين تمام الرضا عن الطالب وإلا فنصيبه هو الصياح والخراب والدمار والهلاك ، وربما ما هو أكثر من ذلك .

الفردوس الأرضي ، التقدم والداروينية

حين وصلت إلى الولايات المتحدة بلد الحرية والديموقراطية عام ١٩٦٣ ، وجدت نفسي كارهاً لما حولي ، إذ أحسست أنني وصلت إلى سوق كبير . كنت أمقت الجرائد اليومية المحلية التي كانت تنشر أخبار العالم في بضعة كلمات وتحتوي صفحاتها على عشرات الصفحات التي تحتوي على إعلانات وعلى كوبونات ، إن قطعها القارئ فإنه يحصل على تخفيض خمسة سنتات في هذه السلعة وعشرة سنتات في تلك . وبرغم حبي لكثير من الأمريكيين (فهو شعب طيب نشيط متفتح الذهن) فإنني وجدت أن النظام المهيمن بجهش إنسانيتهم ، ويخاطب أحط ما في الإنسان . (كتبت قصيدة قصيرة في هذه المرحلة على لسان أحد المهاجرين قبلت فيها : " وهلمني وكبري وباركي القدم / فراشي فراشي / يا قبة الفرح / يا شعلة الضياء / ومرقا الأمل / وعارياً وحالياً وجائعاً أثبت / يلفني التيار كي يدمر العفن / وجعت فوق رأسي من الهموم تاج / وسرت في الطريق / السابغ اللعين / يا بلدة المبيد / يا وردة الحديد / وشارة الحداد ") الطريق السابغ [Seventh Avenue] هو ماديسون أفينو الذي تتركز فيه كل شركات الإعلام) .

وحينما عدت إلى مصر وبدأت أفكاري تتحول عن الماركسية ، قلت لنفسي لابد أن أوقف المتحيز ضد الولايات المتحدة كان متأثر إلى حد ما برؤيتي الماركسية ، ولذا حين عدت مرة أخرى عام ١٩٧٥ ، قررت أن أحاول أن أنظر للمجتمع الأمريكي بعقل أكثر تفتحاً . ولكن هيهات إذ كنت كلما لاحظت ما حولي ، ازدادت اقتناعاً بخطورة النموذج المادي المهيمن على الولايات المتحدة ، لا على الأمريكيين كبشر وحسب ، وإنما على الجنس البشري بأسره . وقد ازدادت قناعتي على مر الأيام .

وبطبيعة الحال لم أكتف بالتأمل ، ولذا كان لابد من أن أدرس الظاهرة الأمريكية ، وأنترجم تأملاتي إلى دراسة ، أنقل من خلالها أفكاري للقارئ العربي ، وأعرض عليه ثمرة تجربتي التي وضعتها في دراستي التي نُشرت بعد ذلك في كتابي الفردوس الأرضي : دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة (١٩٧٩) ، وهي محاولة دراسة الواقع الأمريكي من خلال نماذج . وتنطلق الدراسة من نفس المقولة الأساسية في فكري ، أي الفصل بين الإنساني والطبيعي .

ووصفت في هذه الدراسة النزعة الاستهلاكية المهيمنة على الإنسان الأمريكي (والإنسان الحديث) ، وكيف أنها تعني الارتباط بالآن وهنا الذي يلغى الماضي والمستقبل ، أي يلغي التاريخ . فالإنسان الأمريكي يحاول أن يؤسس فردوساً أرضياً يمكنه التحكم فيه ، فردوساً خالياً من الزمن ومعقماً من الجدل ، وربطت كل هذا بالفلسفة البراجماتية والتفعية والداروينية (أي أن أطروحة العلمانية الشاملة بدأت تتكامل حينذاك) .

وتحدثت في مقدمة الكتاب عن الإنسان الطبيعي والإنسان التاريخي ، وبينت أن الإنسان الطبيعي إنسان لا حدود له ، يرفض الحدود التاريخية . هو إنسان روسو الحر الفرح الآمن الذي يتحول إلى إنسان داروين المتجهم الذي يلتهم الضعاف من البشر أو تلتهمه الدئاب من البشر الطبيعيين (والذي تحول أخيراً إلى كلب بافلوف المسكين ، القابع في العمل ، لا يتحرك إلا بعد تلقي إشارات برانية ، فهو ظاهر مادي محض ، لا باطن إنساني له) . ووصفت الإنسان التاريخي بحسب أنه إنساناً يتم بالنائية ، فهو "يعيش في التاريخ" ، يفصل بين المطلق والنسبي ، ويبحث عن المطلق خارج التاريخ ، إذ إن التاريخ لا نهاية له [أي أنني جعلت من التاريخ المرجعية المتجاوزة] ، ولن نصل أبداً إلى لحظة السكون التي يتحقق فيها الفردوس الأرضي أو نهاية التاريخ والتي ينفي فيها الجدل ويتداخل فيها المطلق والنسبي ويصبح التاريخ دائرياً مثل الطبيعة . وقد ربطت هذه النزعة الفردوسية اللاتاريخية بما سميت "الغبية العلمية" التي تدعي لنفسها احتكار الحقيقة المطلقة والتي تنسب لنفسها القدرة على تحقيق الفردوس "الآن وهنا" بإشباع كل رغبات البشر ، ذلك إن استسلم الناس لها "وأسلموا لها القياد ، متبعين آخر الأساليب العلمية التي لا يعرفها بطبيعة الحال إلا العلماء" (أصبح هذا المفهوم فيما بعد هو الترشيده المادي أو الترشيده في الإطار المادي) .

وقد وصفت هذه الرؤية الفردوسية العلمية (هذا النموذج المعرفي التحليلي) بأنها رؤية "ميكانيكية بسيطة تفترض أن الإنسان كم محض لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى" ، يعكس بعينه بشكل مباشر وبسيط . أي أن الإنسان الحديث الذي تم تدجينه وترشيده تماماً ، هو ذاته الإنسان الطبيعي . وقد وجدت أن هذا التيار ليس مقصوداً على العالم الرأسمالي بل يوجد أيضاً في "الحضارات الصناعية في الغرب" ، على وجه الخصوص . فاضفت قائلاً :
"وهذا التصور الفردوسي للإنسان ليس حكراً على فلاسفة الرأسمالية والتكنولوجيا ، وإنما هو جزء من تصورات المواطنين في الحضارات الصناعية في الغرب . وقد عبر هذا المفهوم عن نفسه في فكرة «التقدم» السريع والدائم نحو الفردوس العلمي المنظم [اليوتوبيا التكنولوجية فيما بعد] الذي قبل السقوط وقبل أن يكتسب معرفة الخير والشر . فالتقدم العلمي أصبح هدفاً في حد ذاته بعض النظر عن العائد المعرفي أو الإنساني له ، وبغض النظر عن مقدار البؤس أو السعادة التي يجلبها للبشر ، وأصبحت مضاعفة الإنتاج أمراً مرغوباً فيه دون أي حساب

لحاجات الإنسان الحقيقية (كما ظهرت عبر التاريخ) ودون أي احترام لإمكانات البيئة الطبيعية . أي أن هدف الإنتاج لم يعد إشباع الرغبات الإنسانية، وإنما أصبح هو ذاته الهدف والمثل الأعلى ، وهذا هو قمة الاغتراب . وتطور عجلة المصانع في سرعة خرافية لتنتج سلعا وأشياء لا يريدتها الإنسان ، ولكنها في دورانها تلوث البيئة بالأحماض والعامد الصناعي فتدمر الإنسان من الخارج ، ثم تفرقه في السلع والتفاصيل وتدمره من الداخل .

"هذه الحضارة الأمريكية ، المعادية للحضارة والتاريخ ، قد يُقدَّر لها السيطرة على المجتمعات الرأسمالية الأخرى ذات التاريخ العريق والتراث القومي والديني الفعال . بل إنني أعتقد أن المجتمعات الاشتراكية مهددة بهذا الغزو الحضاري الأمريكي أكثر من غيرها ، لأنها مجتمعات قد قطعت صلتها بتراثها القومي والديني وخلقت فراغا حضاريا لا يمكن أن تزدهر فيه سوى القيم المادية الأمريكية ، خاصة وأن هذه المجتمعات الاشتراكية لا تزال تقوم نحاحها وإنجازاتها بمعايير مادية ميكانيكية غير إنسانية ، مثل زيادة حجم الإنتاج وزيادة إنتاج الصلب والذخم والصابون . إن الحضارة الرأسمالية الأمريكية هي حضارة الماديين النفعيين ، حضارة لوك وهوبر وبنام ودبوي ، حضارة ترى الإنسان على أنه كمية من الاحتياجات من السهل إرضاؤها . والحضارات الاشتراكية باستمرارها في التركيز على الإنتاج دون ذكر للهدف الإنساني من الإنتاج ، وبإهمالها خلق وعي تاريخي إنساني عند المواطنين ، وبحرمانهم من المشاركة الفعلية في إدارة المجتمع ، قد تقع في براثن هذه الرؤية النفعية المعادية للفكر والإنسان ، وقد تظل قابضة في عالم الضرورة والكم ."

وكان العالم السوفيتي زخاروف Zakharov قد بدأ يطالب "بتخطي الخلافات الأيديولوجية وبتوحيد جهود علماء العالم لإسعاد البشر ، كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كل الأمراض ، متناسيا أن العلماء قد يعالجون تفصيلات الوجود المادي (الطبيعي) للإنسان ، أما وجوده التاريخي المرتبط بقوانين التاريخ وبقضية العدالة والتنظيم الاجتماعي فهذا ما لا يمكن معالجته ، وأن العلم يتعامل مع عالم الطبيعة وحسب ، وحينما يتعامل مع الإنسان فإنه يتعامل معه على أنه كائن طبيعي ، أما الإنسان ككائن تاريخي مركب فهذا هو مجال الفلسفة والأيديولوجيا ."

كان كثيرون من أصدقائي الماركسيين تزعمهم هذه المقارنة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . ولكن يبدو أنني بدأت أكتشف أن الإنسان الطبيعي يتلاقى عنده كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي ، وأن المرجعية الطبيعية المادية هي المرجعية النهائية لكليهما . (وكان علم الاجتماع الغربي آنذاك قد بدأ يتحدث عن المجتمع ما بعد الصناعي بحسبانه مجتمعا يتجاوز الأيديولوجيات ويتحدث عن نظرية التلاقي [بالإنجليزية : كونفرجنس convergence] بين النظامين)

كانت هذه كلها مجرد نظريات ، وكان علي الانتظار حتى عام ١٩٨٧ حين زرت موسكو ، وفي شوارعها اكتشفت أنني المعجب الوحيد بفكرة العدل والتنظيم الاجتماعي ، أما مرافقتي فقد كانت إنسانة طبيعية / مادية تماماً ، سيدة عجوز من أعضاء الحزب الشيوعي ، تعرض علينا كل شيء للبيع ، فكل شيء بالنسبة لها خاضع للتفاوض . كانت امرأة حديثة بمعنى الكلمة ، لا تعرف أي مطلقات أو ثوابت ، فكل الأمور - في تصورهما - تعاقدية مادية ، وبالتالي نسبية . وحينما أخبرناها أنا وأصدقائي بأدب شديد بأنها متقدمة قليلاً في السن ، أخبرتنا أنها على استعداد لأن تُحضر من هن أصغر منها سناً .

كنت أقف مرة أمام مسرح البولشوي أنظر لهذا البناء الحضاري الشامخ حين لاحظت حركة غريبة حولي ، فقد كان الجميع ينظرون إلى شيء ما أمامهم . فنظرت من حولي ، وأخذت أبحث عن حريق أو حادثة اصطدام سيارة بأخرى أو حاوي أو فرداتي أو وكيل وزارة أو أحد أعضاء اللجنة المركزية في سيارة فارهة ، أو أي شيء آخر مما يتضمنه نموذجي الإدراكي ، ولكن دون جدوى . ولحسن حظي وجدت من يتحدث الإنجليزية ، فسألته عن سر هذه الجلبة ، فأشار إلى فناء صغيرة تقف على محطة الأتوبيس . ومرة أخرى استخدمت نماذجي الإدراكية العربية فنظرت إليها ، ولكنني وجدتها بنت عادية ليست خارقة الجمال أو شديدة الجمادية (برغم أنها كانت شقراء . ولكن هذا مما لا يدعو للتجمهر في الاتحاد السوفيتي) ، ولم تكن ترتدي فستاناً مكشوفاً ، ولم تكن تأتي بأي فعل فاضح أو غريب . فزادت حيرتي بطبيعة الحال ، وطلبت من صاحبي مزيداً من الإيضاح ، فضحك من حيرتي وأشار إلى أن الفتاة تلبس بلوجينز أمريكياً حقيقياً ، أي أن الإمبريالية النفسية كانت قد اكتشحت الجميع .

وفي إحدى الأمسيات ، دعانا بعض الرفاق من الشيوعيين العرب ، المنفيين في موسكو ، لطعام العشاء في مطعم خارج موسكو حيث جلسنا نستمع لبعض الموسيقى الفجيرية ونشاهد الرقص الفجري . وفي منتصف الليل ، في الساعة الثانية عشرة تماماً ، ترك المطعم كل رواده إلا نحن . وعلمنا من الرفاق أنهم قاموا برشوة مدير المطعم وطاقمه والشرطة ، أي حكومة "العمال والفلاحين" كلها ، وأنا سجنس حتى الصباح نأكل ونسمع الموسيقى ونرقص - خصخصة حقيقية قبل السقوط ، أو لعله من الأدق القول إن الاتحاد السوفيتي كان قد انهيار تماماً ، وكان الجسد الميت يقف دون حياة ، ولم يبق سوى جورباتشوف ليقم مراسم الدفن ، ويلتسن ليزيد الخصخصة وليعيد دفن رفات القيصر .

وقد هاجمت في الفردوس الأرضي الفلسفة البرجماتية ، وهي الفلسفة الأمريكية بامتياز ، وبينت أنها رؤية رجعية محافظة . وتساءلت عن سر هذا التناقض بين العلمانية والديمقراطية من جهة ، والرجعية والمحافظة من جهة أخرى . وفي محاولة للإجابة عن هذا التساؤل ، قلت : "أعتقد أنه من الممكن فهم هذا التناقض إذا ما تفحصنا الرؤية البرجماتية ذاتها . فالرؤية

البراجماتية يجعلها النجاح العيار الوحيد للحكم على أي شيء ، وبإغاثتها التاريخ والتراث ، جعلت الحقيقة الوحيدة المقبولة ، الحقيقة السائدة أو الحقيقة التي تسهل لنا التعامل مع الواقع كما هو وليس كما ينبغي أن يكون ، وهي لهذا رؤية محافظة مغالية في المحافظة . أما الرؤية الثورية ، فهي على العكس من ذلك لابد أن تطرح تصوراً جديداً للواقع مخالفاً لما هو قائم ، وإلا فميم ثورتها ؟ هذا التصور يستند إلى تحليل علمي للواقع وللتاريخ ، ولكنه في الوقت نفسه يجب أن يتخطاهما ، لأن الفكر الثوري يحاول أن يزود المجتمع بإطار جديد يسمح للإنسان بأن يحقق إمكاناته بشكل أفضل . فالنطق الثوري يفترض دائماً وجود تناقض جدلي بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون . فالقديم يحتوي جرثومة فتاته التي هي نفسها بذرة الميلاد الجديد ، والعقل الإنساني الواعي الخلاق يحتوي الواقع والأشياء ويتخطاهما . هذا الجدل قد صُفي غاماً في إطار الفكر البراجماتي وحل محله جدل دائري زائف تسيطر فيه الأشياء والماديات المصنعة على عقل الإنسان . فالمطلوب في الإطار البراجماتي الضيق أن يتعامل المرء بنجاح مع الواقع . ولكن التعامل مع الواقع المادي بالشروط التي عليها هذا الواقع لا يؤدي إلى تحولات راديكالية ، وإنما ينجم عنه تقدم أو تمدد أفقي كمي دائري لا تختلف فيه نقطة البداية عن نقطة النهاية . إن البراجماتية رؤية مادية لا روح ولا حياة فيها ، فهي تفترض خضوع عقل الإنسان للأشياء وحدودها ولا تسمح لهذا العقل بتخطيها ، وتفترض عدم وجود ذات إنسانية مركبة تحمل عبء وعيها التاريخي في مقابل موضوع يكتسب فحواه ودلالته من الإدراك الإنساني المركب له ، وإنما يوجد شيء يخضع أمامه الإنسان في صمت كأنه أمام وثن أو صنم .

ثم بينت أن البراجماتية ، فلسفة التكيف والإذعان ، هي في الواقع فلسفة العنف ضد الإنسان ، فلسفة الطبيعة / المادة . "كل شيء [من منظور الفلسفة البراجماتية] نسبي متغير . والشيء الحقيقي ليس هو الشيء العقلاني (الطلق) كما يقول هيجل ، وليس هو ما يتفق مع الفهم الأخلاقية والدينية كما تقول معظم الأديان السماوية ، وليس هو ما تعبر عنه القوى الكامنة الوليدة داخل المجتمع الإنساني كما ينادي ماركس ، وإنما الحقيقي هو ما ينجح . إن أي شيء ينجح في أن يحرز مكانة خاصة به وفي أن يفرض نفسه على تيار التغير تصبح مكانته قائمة وثابتة . فالطبيعة تلد كل شيء ولا تعييز لأي شيء ، ولا يوجد أي شيء أحق من أي شيء آخر ، أو فضيلة أهم من فضيلة أو رذيلة أخرى . كل شيء لا يزال في دور التكوين ، والتغير والنمو هما سمة كل شيء ، سواء في حياة الإنسان أو في الشيء العابر الذي لا يعيش إلا لمدة ثوان . وليست الطبيعة الخارجية وحدها هي المتغيرة والمتقلبة ، فالطبيعة الإنسانية هي الأخرى ليست أقل تغيراً ... الخير والحقيقة والجمال والعقلانية ليست أموراً أساسية ، فهي ليست أموراً معطاة وإنما هي مرتبطة بالنتائج ، بل إنها أمور تظهر في النهاية بعد أن نكون مارسنا ما أردنا ممارسته

"هذا العالم البراجماتي الهادئ العملي ، إن هو إلا عالم نيتشوي دارويني يمور بالتغير الذي

يعمي الأبصار ويجرف كل شيء في طريقه . ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن هذا هو جوهر رؤية [الفيلسوف البراجماتي وليام] جيمس للإنسان . فحسب تصوره ، الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفترس أبناء نوعه ، إذ إن الإنسان قد تكيف وإلى الأبد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طال أن تمحو من الوجدان الإنساني الرغبة في الحرب . «لقد ولدنا كلنا لنحارب» ، بل إن الحرب هي الطبيعة البشرية في ذروتها . والمجتمع سيصاب حتماً بالعفن دونها ، دون ذلك «البدل الصوفي للدم» كما يسميه جيمس ، وما سمو العقل بين جميع البشر إلا نتيجة الرغبة في السيطرة ، أن تدبح الآخرين أو تُدبح . يا إلهي ! ماذا حدث للهدوء البراجماتي المرن العملي - والذي يتباهى به البراجماتيون ويتفاخرون ؟ لقد ظهر نيتشه وداروين و«السفك الصوفي للدماء» . نعم «الصوفي» في كتابات البراجماتي ، كما لو كنا في عالم بدائي رهيب - عالم روسو بعد أن سقطت أفتعته المتحضرة . نقول نيتشه وداروين ، ولكن في تصوري أن داروين هو البنية الكامنة الحقيقية والتعبير الفلسفي عن رؤية نيتشه وجيمس . فداروين ، أو لكي نتوحي الدقة ، الداروينيون ، حينما ينظرون إلى ظاهرة الإنسان ، فهم لا يضرعون عليها أي خصوصية ، وإنما يرون الإنسان على أنه كائن طبيعي تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية ، شأنه في هذا شأن أي كائن آخر دون أي تمييز خلقي أو تاريخي أو جمالي - والقانون الذي يحكم الجميع هو «قانون البقاء للأصلح» . وقد ورث نيتشه هذا المفهوم وطوره وجعله أساس تطور المجتمع الإنساني وليس الوجود الطبيعي وحسب .

وقد طوّرت هذه الأطروحة فيما بعد ، وبدلاً من الحديث عن الحضارة الأمريكية الحديثة ، أشير الآن إلى ما أسميه «الحضارة الاستهلاكية العالمية» التي تتسم منتجاتها الحضارية (الهامبرجر - البلوجينز - الديسكو ... إلخ) بأنها لا طعم ولا لون لها ، ولا تنتمي لأي تشكيل حضاري ، وإنما هي حضارة معادية للحضارة ، حضارة مضادة (بالإنجليزية : أنتي كلتشر anti-culture) تحاول تقويض كل التشكيلات الحضارية الأخرى بما في ذلك الحضارة الأمريكية نفسها (برغم أصولها الأمريكية) ، وأن «الغزو الثقافي» ليس غزو الثقافة الغربية لنا (فهم لا يُصدّرون لنا شكسبير وموزارت وبوشكين) وإنما غزو هذه الحضارة الاستهلاكية العالمية لكل الحضارات وتقويضها لظاهرة الإنسان !

الضردوس الأرضي : صهيون الجديدة

في إسرائيل والولايات المتحدة

وبعد ذلك تناولت واحداً من أهم موضوعات الكتاب طراً ، أي العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل بحسبانهما جيبيين استيطانيين إحلاليين . فالتبست قول أحد الصهاينة : «إن الفرق بين أمريكا وإسرائيل هو أن الأولى ذات تاريخ صغير وجغرافيا كبيرة ،

على حين أن الثانية لها تاريخ كبير وجغرافيا صغيرة . وهو قول أبه بطبيعة الحال ، ولكنه مع هذا ينطوي على نوايا توسعية تحققت بالفعل عام ١٩٦٧ ، بحيث أصبح الجغرافيا الصغيرة كبيرة !

كانت مقارنتي بين الولايات المتحدة وإسرائيل أكثر عمقا من ذلك ، فبدأت بالقول في فصل بعنوان «صهيون الجديدة في الولايات المتحدة وإسرائيل» :

"لا يملك الدارس للوجدان الأمريكي والصهيوني إلا أن يلاحظ التشابه والتطابق بينهما على الرغم من أن الحضارة الأمريكية لا يزيد عمرها على بضعة قرون ، على حين تتباهى الحضارة اليهودية الإسرائيلية بتاريخ قديم قدم الإنسان . ولعل مرجع صفات التشابه بين الوجدانين أن كليهما يرفض التاريخ بعناد وإصرار ، أو على الأقل يحوله إلى أسطورة متناهية في البساطة . وقد بدأ التاريخ الأمريكي حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد أو أرض الميعاد هرباً من المشكلات التي أثارها «التاريخ الأوربي» . والبيوريتانيون أو المتطهرون هم لغيف من البروتستانت المتطرفين الذين وجدوا أنه من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة الإنكليزية لأنها - حسب تصورهم - لم تتعد بما فيه الكفاية عن النمط الكاثوليكي في العبادة بما فيه من طقوس وتماثيل وزخارف ، وطلبوا «بتطهير» العبادة المسيحية من كل هذه العناصر الدخيلة التي لم يأت لها ذكر في العهد القديم أو الجديد . إن «العودة» للبساطة الأولى كانت الهدف الأسمى للمتطهرين الذي حاولوا تشييد مدينتهم الفاضلة (أو صهيون الجديدة كما كانوا يسمونها) حسب المثل والقواعد التي وضعها وطبقها المسيحيون الأول (ولم لا ، اليسوا هم النخبة الصالحة التي ورثت رؤى العهد القديم والجديد ؟) . ولذا يمكننا القول بأن الوجدان البيوريتاني يرفض التاريخ المسيحي كله ، بل يرفض أي رؤية تاريخية على الإطلاق لأن العودة «لبساطة الأولى» (وهي نقطة سكون ميتافيزيقية غير متطورة أو متغيرة) تصبح واجب كل فرد في كل زمان ومكان ...

"والرفض البيوريتاني الأمريكي للتاريخ الأوربي يقابله الرفض الصهيوني الإسرائيلي للتاريخ اليهودي في الدياسبورا (الشعات) . فالصهاينة يرون أن الوجود اليهودي في أي حضارة غير يهودية ظاهرة شاذة وعلامة على المرض الروحي ، ولذلك فهم أيضاً يعودون «لبساطة الأولى» ، أيام كان اليهود يعيشون ككيان قومي مستقل فريد لم تدخل عليه الشوائب (التاريخية) غير اليهودية المختلفة . والصهاينة يرون أن التاريخ اليهودي يؤدي إلى النهاية الإسرائيلية السعيدة ، وفي الفردوس اليهودي الجديد يحمل كل المواطن أسماء عبرانية لها رنين خاص . إن أسطورة العالم الجديد الذي يتحلى بالبساطة والبراءة والذي هو أقرب إلى الفردوس الأرضي تسيطر على الوجدانين الأمريكي والصهيوني .

"ولعل هذا يفسر نظرة كثير من الصهاينة والإسرائيليين إلى دولة إسرائيل على أنها كيان

ميتافيزيقي يحقق نبوءات العهد القديم ، وبالتالي فهي لا علاقة لها بالشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى . وكما قال أحد محرري النيويورك تايمز ، إن على الإنسان أن يستوعب سمر إشعيا استيعاباً كاملاً ليفهم سياسة إسرائيل الخارجية ! مفهوم «إرتس يسرائيل» التوسعي أو «إسرائيل العظمى» التي تضم الأرض الواقعة بين نهر مصر والفرات هو مفهوم ديني (أو قومي إذا شئت) لا علاقة له بالزمان أو المكان .

”ولم يختلف فهم البيوريتان لمدينتهم الفاضلة كثيراً عن فهم الصهاينة لإسرائيل ، فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنهم إنما هاجروا من أوروبا للعالم الجديد لينشروا «مدينة على التل» تنظر إليها كل الأمم ونحاكي أفعالها وبذا يعم الخير ويأتي الخلاص . وكان المفهوم البيوريتاني للتاريخ مفهوماً دينياً ضيقاً يرى في كل شيء علامة مرسله من الله يستشهد بها على شيء ما . وكما هو الحال مع الإسرائيليين ، نجد أن البيوريتانيين استخدموا هذه «العلامات» الربانية لتسويق كل أعمالهم العدوانية من إبادة للهنود الحمر واحتلال لأراضي الغير . وقد استمر هذا التزاوج بين الأحلام الدينية والأحلام القومية التوسعية حتى القرن التاسع عشر .” (ويمكن القول بأن هذا الخطاب الديني المغلق لم يختلف تماماً ، ولعل ظهور ما يسمى بالأصولية المسيحية هو أكبر دليل على ذلك) .

ثم بينت أن : ”عقلية الريادة تسيطر على كل من الصهاينة والأمريكيين . فالبيوريتانيون واكتشفوا أمريكا ثم انتشروا فيها عن طريق إنشاء مستعمرات ذات طابع زراعي عسكري . والمستوطنون الصهاينة هم الآخرون واكتشفوا فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة . وعقلية الرائد عقلية عملية تفضل الفعل على الفكر ، والنتائج العملية على الحسابات الخلقية . إنها عقلية الكاوبوي : الكاوبوي الذي ينتصر لأنه يطلق مسدسه في الوقت المناسب وقبل خصمه بشوان قليلة ، ثم يسمح فوهة مسدسه وهو يقبل عشيقه حتى لا يضيع وقته فيما لا يفيد . وقمة الفعل هو دائماً ذبح الخصم : ”أنا أذبح (خصومي) لا كروسي يهودي أو فرنسي يهودي بل كيهودي يهودي ، هذا هو مناي“ ، (كما يقول أحد أبطال القصص الإسرائيلية) .

”ولعل نقطة التشابه الأساسية بين الوجدانين الأمريكي والصهيوني الإسرائيلي هو العنف العنصري . فرفض التاريخ نتج عنه تمام عن الواقع ونجاهل لكل تفاسيله ، ولذلك وقع البيوريتانيون والصهاينة في تناقضات رؤياهم المثالية القبيحة ، رؤيا عالم جديد بريء بسيط لا يمكن أن يشيّد إلا عن طريق العنف والإبادة (إبادة الهنود الحمر والفلسطينيين) ، الفردوس والجحيم في آن واحد .

”ولعل في هذه المقطوعة مفتاحاً لفهم نقاط التلاقي بين الوجدانين الصهيوني والأمريكي : ”كان الرجال يسكنون باغرات بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى ، وكانوا يعدّون من المحظوظين إن لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق إما في الحقول وإما في مخزن القلّال“ .

"في هذه العبارة تختلط الصور الفردوسية وصور الإخصاب بالصور الجهنمية وصور الدمار ، فالرجال يحرقون الحقول وينقلون نتاج عملهم إلى مخازن الغلال ، ولكن عدوهم المتوحش يقف لهم بالمرصاد كأنه الثعبان في الحنة يدمر الثمار والحصاد ، لذا يمتزج المحراث بالسيف والريادة بالحرب . وهذا يذكرنا بالكيبوتس ومؤسسات إسرائيل الزراعية العسكرية . ولكن العبارة الساقطة ليست وصفاً للكيبوتس ، بل هي مقتبسة من القصة المعنونة «دفن روجر ملفن» للكاتب الأمريكي ناثانيل هورثون (من كتاب القرن التاسع عشر الأمريكيين) وهي قصة تعالج حياة المستوطنين الأمريكيين الأول . وليس من قبيل المصادفة أن شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» قد تبناه كل من البيوريتانيين والصهاينة . وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن المجتمعين الإسرائيلي والأمريكي من أكثر المجتمعات عنصرية . ومما له دلالة وطرافته ، أن مؤسسي الجمهورية الأمريكية بعد إعلان الاستقلال قد فكروا في جعل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية بحسبان أن الجمهورية الوليدة هي صهيون الجديدة ، ولكن الاعتبارات العملية جعلتهم يعدلون عن تهيؤاتهم".

وقد تناولت من قبل الفلسفة البراجماتية التي هي عودة للطبعة الروسية - الداروينية - النيتشوية ، وتعال كامل على الأخلاق ، والتزام لاعقلاني بالنجاح كمعيار نهائي وبالحرمة "الطبيعية" للأشياء . وبينت أن هذه هي أيضاً البنية الكامنة في الفكر الصهيوني . فالصهيونية أيضاً في جوهرها محاولة لتعرية فلسطين من تاريخها وتحويلها مجرد «أرض» ، شيء ينتمي إلى عالم الطبيعة أكثر من انتمائه لعالم التاريخ . وهي أيضاً محاولة لإسقاط حق الإنسان الفلسطيني التاريخي في أرضه (باسم التقدم) حتى يصبح مثل الهنود الحمر ، إنساناً طبيعياً كونياً لا تحده حدود وبذا يمكن اصطفاؤه كالفريسة دون أي ملع أو وجل أخلاقيين . بل وتحول الصهيونية اليهود أنفسهم إلى مخلوقات مثالية لا تاريخية آلية في بساطة الظواهر الطبيعية وتحدها".

وفي فصل بعنوان «فابريك الإنسان الجديد» تعاملت مع فكرة الإنسان الأمريكي والعبراني الجديد :

"من نطق التشابه الرئيسية بين المجتمعين الإسرائيلي والأمريكي أن كليهما مجتمع استيطاني يتكون من المهاجرين الذين عليهم أن يطرحوا عن أنفسهم هويتهم القديمة ليكتسبوا هوية قومية جديدة بمجرد وصولهم إلى نيويورك أو حيفا . واكتساب الهوية الجديدة هو مشكلة المشكلات بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الراقضة للتاريخ وللتراث والتي تفبرك وتراثاً جديداً ، يدور حول أسطورة بسيطة يؤمن بها «الإنسان الجديد» . فأمريكا استحدثت أسطورة «آدم الجديد» الذي يأتي إلى الأرض أو الحنة العذراء ليقم فيها ويستلهم كل ما في التراث العالمي من إيجابيات وينفتح على كل الحضارات . والصهاينة فبركوا أسطورة «اليهودي الخالص» المنفتح على الحضارة اليهودية الخالصة والذي يهاجر إلى أرض الميعاد اليهودية ليحارب في جيش

يهودي ويزرع في حقن يهودي ويقرأ في كتاب يهودي (وربما يحب على الطريقة اليهودية ، ويقتل بالطريقة نفسها) .

وبعد تحليل مستفيض لأسطورة بوتقة الصهر الأمريكية بينت : "أن الكل الأمريكي المتجانس لا وجود له . فهذا الإنسان الجديد البريء من الشر والتاريخ والمعرفة لم يقدر له أن يخرج من البوتقة مبتسماً كأنه في إعلان تليفزيوني ، وخرج بدلاً منه الصهيوني مزدوج الولاء ، والأفرو أمريكي حامل لواء قارته السوداء والمدفع الرشاش ، والأيرلندي الكاثوليكي الذي يرفع علم بلاده الأيرلندية ، ويحاول تنفوه ببضعة حروف من لغة بلاده الأصلية وكان كل حرف يحمل رسالة ذات مغزى عميق .

"إذاً كان هذا هو الحال مع الولايات المتحدة ، فما الحال مع صهيون الجديدة الإسرائيلية ، وهي صهيون لا يزيد عمرها الرسمي على عشرين عاماً تقريباً ولا يزيد وجودها التاريخي على ذلك كثيراً ؟ من المعروف أن ظاهرة التفتت القومي (التي يواجهها المجتمع الأمريكي الآن بصورة مخففة) هي أخشى ما يخشاه حكام إسرائيل وهي ظاهرة تظل برأسها في فترات السلم النسبية التي تعيشها إسرائيل (مثل الفترة بين ٥٦ و ١٩٦٧) وتعبّر عن نفسها فيما يسمى بالامتتين الإسرائيليتين : إسرائيل اليهود الشرقيين وإسرائيل اليهود الغربيين . ولكن داخل كل (إسرائيل، يوجد جماعات قومية صغيرة لا تزال إلى حد ما مزدوجة الولاء . فالإسرائيليون المنحدرون من أصل ألماني يكتشفون أنهم ألمان والإسرائيليون الفرنسيون فرنسيون بما يدل على أنهم لم يكتسبوا الهوية الإسرائيلية اليهودية الخالصة ، وهذا يذكرنا بالفشل الذي لاقته بوتقة الصهر الأمريكي" .

وقد خلصت من كل هذا إلى ما يلي :

"على المستوى الإعلامي يجب أن نضع في حُسابنا أنه من اليسير على الشعب الأمريكي فهم العقلية الإسرائيلية والتعاطف مع الشعب الإسرائيلي وقيمه اللا أخلاقية من عنصرية وعنق ، نظراً للتشابه بين وجدان الشعبين . وهذه النتيجة ليست فيها أي دعوة لليأس ، وإنما هي مجرد تعرف على عنصر موجود بالفعل ، إن لم نعترف به هزماً وأفضل خططنا ، أما اعترافنا به فيساعدنا على معرفة حدود ومدى أي حملة إعلامية نقوم بها . إن الشعب الأمريكي وقادته الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد والكاريوي لا يفهمون سوى منطق القوة . ولا يحسون إلا بالنتائج العملية المباشرة ، ولذلك فالإعلام الذي لا تستند قوة أو وضع قائم بالفعل ما هو إلا دعوة للأخلاق الحميدة لا ينصت لها إلا ذوو النوايا الطيبة ، وحتى هؤلاء سينسونها وينسونها بعد دقائق" .

وبرغم نطق التشابه الكثيرة فإنني أشرت إلى نقطة اختلاف جوهرية :

"يظل هناك فارق جوهري بين براجماتية جيمس الأمريكية والبراجماتية الصهيونية .

فالبراجماتية الأمريكية هي براجماتية غير مبرمجة وغير مثقلة بأي أساطير ، ولذا فهي براجماتية متسقة مع نفسها ، تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها . أما البراجماتية الصهيونية فهي براجماتية مبرمجة مثقلة بالأساطير والتواريخ المقدمة .

وقد أسلفت القول بانني لاحظت العلاقة بين الصهيونية والحلولية ، أي أن الموضوع اليهودي والصهيوني لم يعد قائماً في حد ذاته ، بل بدأت أنظر إليه من خلال منظومتي الفكرية من خلال نموذج تحليلي واحد . ففي كتابي الفردوس الأرضي بينت محورية فكرة العودة إلى صهيون ، في كل من الحضارة الأمريكية والتشكيل الاستيطاني الصهيوني . وكما أقول في مقدمة الكتاب : " يمكنني أن أضيف هنا أن الديانة اليهودية دهانة حلولية تخلط بين المطلق والنسبي ، ولا تركز على فكرة البعث في عالم آخر ، وتزخر بأفكار مثل عودة الماشيح آخر الأيام ، وهي أفكار تؤكد فكرة الفردوس الأرضي ، أقول إن اليهودية بهذا تنمي في تابعيها هذه الحساسية وتجعلهم مؤهلين أكثر من غيرهم لأن يتقبلوا قيم المجتمعات الاستهلاكية " ، أي أن الحلولية أصبحت نموذجاً عاماً أفهم من خلاله الصهيونية وإسرائيل والولايات المتحدة .

الفردوس الأرضي ، عقد الزواج الشامل

من الموضوعات الأساسية الأخرى التي تنبعت لها ، وتناولتها في هذا الكتاب مشكلة المرأة ، والضغوط التي يضعها عليها المجتمع الحديث . كانت الأمور بالنسبة للمرأة هادئة ، بل خائفة ، حينما وصلنا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ ، وحينما تركناها عام ١٩٦٩ كان الزلزال قد بدأ . ولذا حينما عدت عام ١٩٧١ لأكتب عن الوضع الحضاري في الولايات المتحدة كانت الأمور قد تغيرت بشكل جذري ، ولم تعد الإناث يطالبن بحقوقهن وبالمساواة ، وإنما أصبحت الثورة شيئاً جذرياً يتجاوز إنسانيتنا المشتركة (ومن هنا أميز بين حركة تحرير المرأة women's liberation movement وحركات feminism التي أترجمها بتعبير «التمركز حول الأنثى» . وقد ترجمت في كتاب الفردوس الأرضي مقتطفات من المنشورات "الثورية" التي أصدرتها بعض حركات التمركز حول الأنثى . خذ على سبيل المثال لا الحصر المنشور الصادر عن جماعة «سكم» ، والكلمة تعني «نفاية» ولكنها اختصار لعبارة إنجليزية ترجمتها الحرفية هي «جماعة التخلص من الرجال» . يبدأ المنشور بتأكيد أن الحياة في هذا المجتمع أصبحت شيئاً «يبعث على الملل الشديد على أكثر تقدير ، ولذلك يكون على السيدات المسئولات بالباحثات عن المتعة أن يقلبن نظام الحكم ويلعبن النظام النقدي ويدخلن نظام الصناعة الآلية ويقضين على جنس الذكور» .

" ثم يستطرد المنشور العتيد قائلاً : «لقد أصبح من الممكن الآن للسيدات أن يلدن دون أي مساعدة من الذكور (ودون مساعدة من الإناث أيضاً) وأن يلدن إنثائاً فقط . وينبغي البدء في هذا على الفور» ، ويذكر المنشور حقيقة بيولوجية مهمة مفادها أن جينة الذكر إن هي إلا جينة أنثى

غير كاملة ، فجينة الذكور تحتوي على مجموعة غير كاملة من الكروموسومات ، بمعنى آخر أن الذكر ليس سوى أنثى غير كاملة ، إنه شيء مجهض يسير على قدمين ، شيء أجهض وهو لا يزال في حالة الجنينة (وهي مرحلة سابقة على مرحلة الجنينية) . ولأنه أنثى غير كاملة يقضي الذكر حياته بحثاً عن جين يحتوي على مجموعة كاملة من الكروموسومات ، وهذا لا يتأتى له إلا عن طريق البحث عن الأنثى ومصادقتها والعيش معها والامتزاج بها وادعاء بأن كل الصفات الأنثوية هي صفاته مثل القوة العاطفية والاستقلال والقوة والدينامية والقدرة على اتخاذ القرارات وبرود الأعصاب والموضوعية وتأكيد الذات والشجاعة والتكامل والخيرية والجدة وعمق الشخصية ... إلخ . كما أنه يسقط كل سمات الذكورة على المرأة مثل الغرور والسطحية والتفاهة والضعف ... إلخ " .

"والصراع حسبما جاء في المنشور ليس بين الإناث والذكور ولكن بين «السكم» ، وهن الإناث المسيطرات الآمنات الوثائق بالنفس الخبيثات العنيفة الأنانيات المستقلات المتكبرات الباحثات عن المتعة ، المغرورات ، اللاتي يعتقدن أن عندهن القدرة على حكم العالم ، واللاتي انطلقن إلى حدود هذا المجتمع ، واللاتي على استعداد للانطلاق حتى يصلن إلى أبعد ما يمكن أن يقدم لهن - نقول إنه صراع بين السكم وبين الإناث اللطيفات السليات المستقلات المتحضرات المؤدبات صاحبات الكرامة الخاضعات ، والخائفات اللاتي لا يثقن البتة في أنفسهن ، بنات آبائهن اللاتي لا يمكنهن مراجعة الجهول واللاتي يردن الاستمرار في الترنح في الحضيض لأنه على الأقل مألوف لديهن ، واللاتي يردن المكوث مع القروء ، واللاتي لا يشعرن بالأطمئنان إلا وبابا الكبير يقف إلى جوارهن أو باعتمادهن على رجل كبير قوي يشد من أزهرن .

"ثم يستطرد البيان في الحديث عن طريقة الاستيلاء على الحكم عن طريق الامتناع عن العمل . وبعد ذلك يتخلص الإناث من النظام التقدي ويقتلن الذكور ، ثم يصلن على الفور إلى المدينة الفاضلة . وبعد ذلك قد يبقى بعض الرجال ولكن هؤلاء أسرههم سهل يسير إذ إنهم «سيقتضون بقية أيامهم في رعب يشربون الخمرات أو يراقبون في سلبية وسكينة الأنثى الجديدة المسيطرة . وحيث إن الإناث رحيمات فيسزودن الرجال بأجهزة إلكترونية ، بحيث إذا وقع أحد الذكور صريع هوى إحدى الإناث فيمكنه مراقبة كل حركاتها وسكناتها بطريقة تشبع غرائزه ودون أن تشعر هي بذلك» !

"وحتى لا يقال إن منشور سكم مجرد عبث ومزاح لا يعبر عن غمط متكرر ، فقد قررت أن أقدم للقارئ مقتطفات من منشور «سيدات نيويورك الراديكاليات» وهي جماعة جادة تعمل جاهدة لتحرير المرأة . ولقد اقتصرت هذه الجماعة مبادئها في هذه الكلمات : «نحن نقف إلى جوار المرأة في كل شيء . نحن لا نسأل عما إذا كان شيء ما إصلاحياً أم راديكالياً أم ثورياً ، وإنما نسأل عما إذا كان هذا الشيء في مصلحة للمرأة أم لا . نحن ضد كل الأيديولوجيات السابقة

والآداب والفلسفة نتاج حضارة الذكور ... إلخ ... إلخ .

هذه الثورية الجذرية عبرت عن نفسها في مطالبة حركات التمركز حول الأنثى بإلغاء عقد الزواج التقليدي لتحقيق أكبر قسط من الحرية ، وفي الوقت نفسه يدافعن عما يمكننا تسميته «عقد الزواج الشامل» ، وهو يشبه من بعض الوجوه عقد استئجار شقة أو شراء أرض ، فمثل هذه العقود تحاول أن تصل إلى الشمول وتحاول تغطية جميع الجوانب القانونية وكل الاحتمالات المنطقية والرياضية . وقد وُصف العقد بأنه ليس مجرد وثيقة قانونية ، بل هو بالفعل طريقة جديدة للحياة ، أو كما تقول إحدى زعيمات حركة تحرير المرأة «إن العقد هو سيكتنا لمواجهة ألفي سنة من التقاليد» (ألفي سنة من التاريخ أيضاً) . ولكن ألا يمكن أن نرى العقد بحسبانه هيمنة العقلية البورجوازية التعاقدية على المجتمع ، التي هي في واقع الأمر تعبير عن تغلغل أخلاقيات السوق على كل مناحي الحياة وعن مدى تآكل رقعة الحياة الخاصة واتساع رقعة الحياة العامة ، بحيث تُدار مؤسسة الزواج نفسها ، آخر ماوى للإنسان ، وكأنها شركة مساهمة ؟

«فكرة العقد الشامل ترجع جذورها إلى القرن التاسع عشر والمفكر الإنجليزي الثوري بول جودوين الذي تزوج بالمفكرة الثورية المطالبة بتحرير المرأة ماري ولستونكرافت ، فلننظر الآن إلى هذا الزواج الذي يحرر الإنسان من كل القيود والأعباء . استأجر جودوين شقة على بُعد عشرين منزلاً من منزل زوجته ولكنه كان يذهب ليزورها كل صباح . وقد وصف جودوين علاقته هذه في رسالة له قال فيها : «وحتى لا تبدو هذه العلاقة على أنها مثل تلك العلاقة البذيئة الوضيعة المسماة بالزواج ، أقام الزوجان منزلين منفصلين ، «على ألا يزور الزوج زوجته إلا كما يزور الرجل عشيقته ، فيكون كل منهما مرتدياً أبهى ملابس وحجرات الفزل معدة لاستقباله . وقد وافق الزوجان على أنه من الخطأ بمكان للزوج والزوجة أن يكونا معاً لما ذهبا إلى مجتمعات مختلطة من الذكور والإناث ، ولذلك كانا يحشان عن أي فرصة لا لاتباع هذه القاعدة بل لخرقها ، الافتراض هو أن علاقة الزوج بزوجه علاقة بسيطة للغاية يمكن التحكم فيها عن طريق العقد . لتتخيل هذا الزوج الذي عليه أن يذهب لزوجته كل صباح وقد استيقظ واكتشف أنه قد ألم به زكام خفيف والدنيا تترق وترعد في الخارج ، هل يعود إلى فراشه الدافئ أو أنه سيصارع العناصر الطبيعية حتى يصل لزوجته لأنه لو لم يذهب لما انت قلقاً عليه من فرط قلقها أو لفسخت العقد حتى لا تموت ؟ هنا سيتركا بطلنا الثوري الزكوم على عصاه ويذهب وسيطلب من زوجته تغيير العقد حتى يزورها وتزوره هي الأسبوع الآخر . ولكن هذا لن يغير من الموقف شيئاً لأنها قد تصاب بالأم روماتيزمية خفيفة أو حادة في أوقات أعمالها الزوجية الرسمية !

«ولكن المسألة أعمق من زيارة تتم في الشتاء ، فنحن لا نرتدي أبهى ملابسنا إلا حينما نذهب إلى طبيب الأسنان الكريه أو إلى مدير المستخدمين المقيت ، ولكن حينما نذهب لزيارة صديق حميم ، فنحن نذهب بذاتنا الحقيقية ، بكل آلامها وأفراحها ، فعلاقتنا بأصدقائنا هي

علاقة في السراء والضراء ، لا يحكمها عقد أبله وإنما تحكمها احتياجاتنا الإنسانية وحسابات نفسية عديدة . ولذلك فزوجتي تحتل رذاتي ومطالبتي العديدة في يوم وترفضها في يوم آخر تتحملني يوم احتياجي لها وترد الصاع صاعين في أيام قوتي . وأنا أقبل لاعقلانيتي في يوم وأرفضها في يوم آخر ، وبذا تكون الحياة الزوجية أمراً خلاقاً وليس علاقة عمل روتينية . إن جودوين برغم كل ثورته ، وبرغم كل راديكاليته ومناصرته للضعفاء والفقراء ، هو في النهاية ضحية تبسيطاته البورجوازية السوقية الفردوسية ، فهو لا يمكنه أن يتصور إلا الإنسان الطبيعي (الوحيد) ، والذي يعيش في الفردوس الدائم (ولذا فهو لا يزور زوجته بل يزور عشيقته) . إنه الإنسان المنفصل الذي يقف وحيداً في مجابهة الآخرين من الأغيار يرجو من الله أن يكفيه شرمه .

وفي كتاب الفردوس الأرضي ترجمت «عقداً شاملاً» يتضمن بنوداً كثيرة من بينها ما يلي :
" نحن نؤمن بأن عضو كل أسرة له (أو لها) حق كامل في وقته وعمله وقيمه واختياراته ، وإن أرادت هي (أو هو) أن ينفق هذا الوقت في كسب المال فهذا من حقه وإن لم يرد هذا فهذا أيضاً من حقه .

- من ناحية المبدأ يجب أن نقسم الأعمال المنزلية إلى نصفين ٥٠ - ٥٠ ، ولكن يمكن عقد صفقات بالاتفاق الثنائي وأي انحراف عن التقسيم النصفى يجب أن يكون متلائماً مع الطرفين ، ويجب أن يكون جدول العمل مرناً . ولكن في الوقت الحاضر يجب أن يوافق على كل التغييرات بشكل رسمي . إن شروط هذا العقد حقوق وواجبات وليس امتيازات وهبات .
- الأعمال المنزلية : الطبخ : كل من يدعو ضيفاً يقوم هو بنفسه بشراء الطعام وبالطبخ وغسل الأطباق (ماذا لو كان لهم أصدقاء مشتركون ؟ هل نسقط العقد ونتعايش أو نكتب عقداً جديداً) .

- تقسيم الأعمال : في الصباح إيفاء الأطفال - إخراج الملابس والكتب والواجبات والنقود وأبونيسات الأنوبيس - تمشيط شعرهم - إطعامهم - يتناوب الأبوان القيام بكل هذه الواجبات كل أسبوع . الشراء : تقوم الزوجة بوجه عام بشراء الطعام ، أما الزوج فيقوم بشراء الأشياء الخاصة . (ماذا إذا قرر الزوج أن يأكل كافياراً . هل هذا طعام ، أو شيء خاص ، فلنستشر المحامي على الفور ! الزوج معفي من العمل يوم السبت ، والزوجة يوم الأحد . ومن ساقبل يوم السبت إن كنت هذا الزوج ؟ عشيقتي أم مدير أعمالي) .

"رحتى يعم السلام بين الجميع رأى مستر شولمان وزوجته [صاحباً العقد الشامل الذي قمت بترجمة بعض بنود منه] أن يعقد طفلاهما عقداً تكميلياً" .

وقد علقت على هذا العقد الشامل بهذه الكلمات :
"والآن بعد أن أبرم العقد فلتعرف السعادة الزوجية على الجميع بين الوحدة المذكورة التي

يسمىها العوام بالزوج والمتعاونة مع الوحدة المؤنثة المسماة بالزوجة . هل فعلاً قام العقد بتنظيم كل العلاقات ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أن الرجل حدث له تضخم شديد في ذاته ؟ هل يفض العقد فوراً أو تنتظر الزوجة حتى تزول الكربة ؟ وماذا يحدث لو أن الرجل بعد أن تزوج على هذه الطريقة الليبرالية أصبح ماركسياً أو رجعياً بعد الزواج ورفض المبادئ النظرية ؟ ماذا عن المواقف الزوجية المركبة اليومية مثلاً ؟ ماذا لو ألقيت بطبق الفول المتيد ، أو حتى كوب اللبن الرقيق ، في وجه زوجتي التي تعاهدت معها ؟ وماذا - وهذا هو الطامة الكبرى من وجهة نظري - ماذا لو فعلت هي ذلك أمام الرأي العام العالمي من أصدقاء أو طالبات أو أقارب أو حساد ؟ هل أذهب ساعنها وأستشير العقد والأساس النظري بكل هدوء ، أو أقرر على الفور الشار لكرامتي ولشرفي الضائع وأقتل زوجتي أمام الملا حتى يرتدع الآخرون ؟ أو ربما يتدخل أولاد الحلال ويصلحون ما بيننا . أو ربما أهدأ من تلقاء نفسي وأتذكر أن زوجتي لم تتمكن من النوم ليلة أمس بسبب الرطوبة والحر والكلب روي اللعين الذي لا يكف عن التباح ، وأتذكر أيضاً الأنباء الحزينة التي سمعتها زوجتي في الصباح وأتذكر أنني جرحت شعورها أمام طانط فلانة التي لا تطيقها زوجتي . عند هذا قد أعدل عن تنفيذ حكم الإعدام وأزيل الفول واللبن وأتحم على الطريقة المصرية أو العالية وحصل خير ، أو ما شابه .

"إن العقد لا يسمح بمثل هذا التكيف ويمثل هذا الارتفاع والانخفاض (أو التذبذب التاريخي الجدلي) ، فهو إنتاج عقلي بوجوازة فردوسية دائرية لا تقبل الجدل كحقيقة أساسية . كل ما تملك في الإطار الثوري المقترح هو أن تفضي العقد في عقلانية شديدة - أي أن الفردوس يفودك في خط مستقيم إلى الجحيم . وتوجد الآن في كاليفورنيا محاكم تسهل الأمور لك إذ إنه على الزوجين الراغبين في فسخ العقد - أي في الطلاق سابقاً - أن يكتبوا اتفاقهما ويرسلانه بالبريد ويستسلمان ورقة الطلاق بالبريد أيضاً (ولا شك في أنه توجد الآن مكاتب مختلفة تيسر لك هذا الأمر حتى يمكنك أن تهدم حياتك الزوجية في أقل وقت ممكن وبارخص التكاليف) - أي أن واقعنا الأرضي يمكنه أن يتحول إلى ما يشبه المصمل (أو الدائرة) في بساطة علاقاته وفي ميكانيكيته .

"العقد مثل الكومبيوتر يعطيك إجابات مبسرة ولا يمكنها أن تغطي جميع جوانب الحياة المركبة . وإذا كان العقل الإلكتروني قدم للأمريكان الإجابات الحاططة بالنسبة لحرب فيتنام ، فإن العقد الميكانيكي سيضللهم لأن المطلوب هو إصلاح نوعية الحياة نفسها والبحث عن الخلاص والحياة الجديدة من خلال الحدود المتعينة" .

وقد يكون من الطريف أن أذكر هذه الواقعة ، فهي تبين بشكل واضح الفرق بين حركة تحرير المرأة وحركة التمرکز حول الأنثى ، ومدى تطرفها الذي يجعلها معادية للمحضرة والإنسان .

كنت أعرف سيدة أمريكية من رائدات حركة التمركز حول الأنثى كانت تزورني أنا وأسرتي عام ١٩٧٤ ، وعبرت عن رغبتها في التعرف على رائدات حركة تحرير المرأة في مصر . فاتصلت بالدكتورة مهير القلماوي - رحمها الله - ففضلت مشكورة بدعوتنا كلنا إلى طعام الغداء . وبدأ الحوار بين السيدة الأمريكية والدكتورة مهير ، فتحدثتا عن المساواة بين الرجل والمرأة وعن تحرير المرأة . وكانت الدكتورة مهير توافقها على ما قالت ، إلى أن وصلت إلى نقطة شعرت عندها الدكتورة مهير أن الأمر لم يعد حديثاً عن تحرير المرأة وإنما عن تأثيرها في مقابل الرجل وعزلها عنه .

هنا توقفت الدكتورة مهير عن الحديث معها باللغة الإنجليزية ، والتفتت إلي وقالت بالمرية : "ماذا تريد هذه السيدة ؟ إن أخذنا برأيها ، سيكون من المستحيل علينا أن نجتمع بين الذكور والإناث مرة أخرى ؟" ثم استمرت في الحديث بالإنجليزية . وقد خضت كلماتها البسيطة الرائعة الفروق الحادة بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى ، وبين من يدرك الإنسانية المشتركة ومن يرفضها ، وبين من يرى أسبقية المجتمع على الفرد ومن يرى أن الذات الفردية هي البداية والنهاية ، وبين من يضع الإنسان قبل الطبيعة والمادة ومن يرى ، على العكس من هذا ، أسبقية المادة على وعي الإنسان وحضارته وتوجهه الاجتماعي والأخلاقي .

وقد كتبت كتاباً في الموضوع أبين فيه الفرق بين الحركتين ، بل أبين التشابه بين حركة التمركز حول الأنثى والحركة الصهيونية ، فكلاهما يقسم العالم بطريقة إثنية بسيطة (ذكور/ إناث - أغيار/ يهود) . ويتمركز كل عنصر حول ذاته (إذ يعد نفسه مركز الحلول ، مرجعية ذاته ، ومكتفياً بها) ، وتدعي كل من الحركة الصهيونية وحركة التمركز حول الأنثى بأنهما حركتان ثوريتان ، ولكن برنامجهما "الثوري" لا يهدف إلى تحقيق العدل بالنسبة لليهود أو للمرأة ، ولذا فالصهيونية تعادي كل من يحاول الدفاع عن حقوق اليهود الدينية والمدنية في بلادهم ، فمثل هذه المحاولة هي تقويض للهدف الصهيوني : هجرة اليهود من بلادهم إلى المستوطن الصهيوني ، أي تحويلهم من مواطنين إلى مستوطنين . ونفس الشيء بالنسبة لحركة التمركز حول الأنثى ، فالهدف ليس تحقيق مكاسب للمرأة داخل إطار اجتماعي باعتبارها أمّاً وأختاً وزوجة ، وإنما هو تعميق رقعة الخلاف بينها وبين الذكور ، حتى يمكنها أن تستغل قناعتهم . لكل هذا نجد أن البرنامج الثوري لكلا الحركتين لا ينطلق من الإيمان بالإنسانية المشتركة ، وإنما من الإصرار على تفرد اليهود والإناث ، وأن الأغيار والذكور ، لا يمكنهم أن يحسروا بأحاسيسهم ، وأن التاريخين اليهودي والأنثوي مستقلان عن تاريخ الأغيار والذكور إلى آخر هذه الترهات . ولذا يصبح الهدف من البرنامج الثوري هو تحسين كفاءة الصراع لدى المرأة واليهودي ، وهذا يبين أن النموذج الكامن وراء الحركتين ، نموذج دارويني صراعي .

ومن أطرف تبديات هذا النموذج ، حوار مع السيدة زعيمة حركة التمركز حول الأنثى

التي سبق الإشارة إليها . إذ قالت لي مرة : "هابو [وهو اسم الدلع الذي يتناديني به أعضاء أسرتي وأصدقائي الأمريكيون لأن «عبد الوهاب» صعبة عليهم] إن العلاقة الجنسية في الزواج هي مواجهة سياسية (بالإنجليزية : بوليتيكال إنكونتر political encounter) . " فضحكت وقلت لها : "أنت لا تعرفين شيئاً إما عن العلاقة الجنسية وإما عن المواجهة السياسية" .

وقد ورد في أول كتاب الفردوس الأروحي صفحة إهداء وردت فيها هذه العبارة : "وس غيرك أهديها هذه الكلمات ؟" وإهداء الكتاب بالنسبة لي مسألة جادة للغاية ، إذ أجلس أفكر كثيراً فيمن ساهديه الكتاب ، فلا بد أن يكون على علاقة ما بالكتاب ، علاقة خاصة للغاية . وقد شاركني د . هدي حجازي ، زوجتي ، تجربتي في الولايات المتحدة ، ولذا اقترحت عليها أن أهديها الكتاب ، ولكنها رفضت (فهي - كما قلت - إنسانة خاصة جداً) . فما كان مني إلا أن كتبت هذا السؤال ، وأخبرتها بأن السؤال موجه لها ويمكنها أن تجيب عليه بالقبول أو الرفض ، كما يمكن أن تقول إن الأمر لا يعنيها على الإطلاق .

إشكالية التحيز : تعارفي الخاصة

بدأت مسألة التحيز المعرفي تصحح إشكالية أساسية تطرح نفسها عليّ بعد انتقالي من دمنهور إلى الإسكندرية ، إذ لاحظت التباين في العادات والتقاليد (والنماذج الإدراكية) بين المدينة / القرية المصرية من ناحية ، ومن ناحية أخرى المدينة الكوزموبوليتانية المصرية اسماً ، الغربية فعلاً .

وأذكر في صباه أن أستاذ اللغة العربية كان يقرأ معنا المعلقات ، التي عادةً ما تبدأ بالبكاء على الأطلال ، وكان شديد السخرية منها ، لأنه لم يكن يعرف الهدف منها ولا وظيفتها في بناء القصيدة ولا مضمونها الفلسفي . كنت أرى أن البكاء على الأطلال مفعم بالنبل والحزن ، وهو علامة على أن الإنسان لا ينسى ، لأنه لو نسي ولو ضاعت ذاكرته لكان شيئاً بين الأشياء ؛ أي أن البكاء على الأطلال هو رمز الاختلاف الجوهري بين الإنسان والطبيعة . قد تلحق الطبيعة الهزيمة بالإنسان ، وقد تضطره للرحيل من مكان لآخر ، وقد يكون وضع الإنسان في هذا الكون مأساوياً ، ولكنه مع هذا يظل معتزلاً بما هو إنساني حتى في لحظة الهزيمة . لم أكن أدرك كل هذا بطبيعة الحال في صباهي ، ولكنني أحسست ببعضه أو بأكمله بشكل تلقائي غير واع ، خاصةً وأنني كنت قد قرأت كتاباً مدرسياً عن علم النفس أورد هذين البيتين الشعريين في مجال الحديث عن الذاكرة :

مررت على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدار

هوما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

والبيتان الشعريان يبينان المضمون الإنساني للبكاء على الأطلال ، وأن الأطلال تكتسب

قيمتها من كونها رمزاً على العلاقات الإنسانية . وعيى بهذا المضمون كان مصدراً للاحتكاك بيني وبين مدرس اللغة العربية المغترب ، الذي تميز ضد حضارته .

وقد تعمق في الإحساس بالتحيز حينما بدأت أتفكر في هذا العالم ، وفكرت بعض الدراسات في الأديان المقارنة وتاريخ الفن . وتعلمت من قراءاتي في علم الأنثروبولوجيا أنه توجد حضارات لا يحتوي النموذج الإدراكي المهيمن عليها إلا على لونين أو ثلاثة ، ولذا لا يرى أهلها إلا هذه الألوان . وتوجد حضارات لا يحتوي النموذج الإدراكي المهيمن عليها مفهوم (الذات) ، ولذا إن سألت أحد أفراد هذه الحضارات عن قصة حياته فهو عادة ما يذكر قصة حياة جده . وتوجد لغات تعبر عن مستويات مختلفة من السببية (سببية مادية وسببية غيبية) . وحينما يقول طفل من أطفال الإسكيمو : "انظر الثلج" ، فإن كلمة "الثلج" في لغته يتم التعبير عنها ربما بخمسين كلمة غير مترادفة ، فكل كلمة تعبر عن شكل معين وحالة معينة للثلج .

وقد قضيت عاماً كاملاً أقرأ عن اليابان وفنونها ومؤسساتها الحضارية ، مما صمق في الإحساس بالآخر ونماذج الحضارية التي تختلف بشكل جوهري عن مؤسساتنا ونماذجنا الحضارية . والأهم من هذا أنها تختلف كذلك عن المؤسسات والنماذج الحضارية الغربية ، مما ينزع الإطلاع عن الحضارة الغربية ويخلق عليها شيئاً من النسبية ، لتصبح تشكيلاً حضارياً ضمن العشرات من التشكيلات الحضارية الأخرى .

لكن التجربة الحاسمة كانت انتقالي إلى الولايات المتحدة ، حيث عشت أحد عشر عاماً (فترتين غير متصلتين) كنت أشعر في أثناءها بالغربة أحياناً وبالألفة أحياناً أخرى ، ولكنني كنت أشعر دائماً بالاختلاف . فقد واجهني في حياتي اليومية في الولايات المتحدة الكثير من الأمثلة التي نبهتني إلى أن إدراكنا للواقع ليس هو الواقع في حد ذاته ، وأنه لا داعي للخلط بين الواحد والآخر ، وأن إدراك الآخر لظاهرة ما يختلف عن إدراكنا لها . لذا - كما أسلفت - كنت ألقى على نفسي السؤال التالي : كيف أنظر لظاهرة ما ؟ هل أنظر لها من وجهة نظر الآخر (الأمريكي) ، أو من وجهة نظري أنا ؟

كانت معظم تفاصيل حياتي تصب في هذا الاتجاه ، فعين وصلت إلى الولايات المتحدة للمرة الأولى (عام ١٩٦٣) ذهبت إلى جامعة ييل لقضاء الفصل الصيفي فيها ، ودعيت إلى حضور مسرحية لشكسبير ، فذهبت لمشاهدتها دون أن أرتدي جاكete أو رباط عنق . فهمس أحد الأساتذة الأمريكيين في أذني بأنني لابد أن أفعل ، وقال : "ألا يستحق شكسبير منك ذلك ؟" ، وحيث إنني أحب شكسبير وأجمله ، عدت إلى غرفتي فارتديت جاكete ورباط عنق وذهبت ، وشكرني أستاذي على حسن أدبي .

ولكن قبل عودتي إلى مصر في عام ١٩٦٩ ، ارتديت الجاكete ورباط عنق للذهاب إلى المسرح مع بعض الأصدقاء الأمريكيين ، فكنت موضع سخريتهم لأن ارتداء الجاكete كان قد

أصبح موضة قديمة وعلامة من علامات التخشب والتجمد (بالإنجليزية : stiffness) . أدركت ساعتها أن الحماكت ليس شيئاً مادياً يستر به الإنسان جسمه ويدفئ بدنه ، وإنما هو علامة على شيء ما ، لغة كاملة .

وكانت المفاجأة الثانية في جامعة كولومبيا . فقد كانت إحدى البدهيات التي تعلمناها أن مشكلة المشكلات في التعليم المصري هي التركيز على حفظ الدروس عن ظهر قلب فكل شيء يُحفظ (وينمتم بعضهم بأن الحفظ يعود بجذوره إلى التعليم الديني ومركزية القرآن) . ولكن حين وصلت إلى جامعة كولومبيا (في الولايات المتحدة) عام ١٩٦٣ (في قسم الماجستير) ، فوجدت أنه كان من المطلوب منا أن نحفظ عن ظهر قلب بعض قصائد الشعر الرومانسيكي . وحين سألت عن السبب قيل لي إن الحفظ يُعدّ من أحسن آليات إنشاء المودة والحميمية بين الطالب والنص . ثم عرفت بعد ذلك أن النظام التعليمي في اليابان لا يحتقر الحفظ على الإطلاق وإنما يوظفه . ثم تعلمنا أنه في كثير من العلوم الإنسانية لابد أن يقوم الطالب بحفظ بعض القواعد والعناصر الأساسية عن ظهر قلب . فتسلل الشك إلى قلبي في يقيني التقدمي القديم المطلق ، وأحسست أن رفضنا الكامل للحفظ كان هو في واقع الأمر تحميراً أعمى ضد تراثنا ، وتحميراً أكثر عماءً لإحدى مقولات الفكر التقدمي الغربي التي نقلناها وحفظناها عن ظهر قلب كأنها مقولة علمية مطلقة لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها .

وكان صديقي كافين رايلي من أكثر الناس اهتماماً بقضية التحيز هذه دون أن يسميها . ففي كتابه الغرب والعالم يشير إلى أن تكنولوجيا الطاقة المستندة إلى الهواء والماء كانت مقدمة للغاية في أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر ، وهي تكنولوجيا نظيفة ، تعمل مع الطبيعة لا ضدها . ومع هذا حينما بدأت ثورة أوروبا الصناعية تطورت تكنولوجيا الطاقة المستندة إلى الفحم ثم البترول (أي الطاقة المستخرجة من باطن الأرض) ، وانقرضت تكنولوجيا الطاقة المستندة إلى الهواء والماء تقريباً . وهو يجد أن السبب في هذا التطور هو التحيز الكامن في النموذج الإدراكي الإمبريالي : بقر بطن الأرض - نهب ما فيها - استهلاك المصادر الطبيعية . وهو يرى أنه لو كان التحيز الغربي مختلفاً لربما اتخذ التطور التكنولوجي في أوروبا مساراً مختلفاً .

وعند وصولي إلى الولايات المتحدة تصادف أن تعرفت على أحد الأطباء المصريين كان يعمل في واحدة من أكبر المستشفيات في نيويورك . وكان حديثه في معظمه يدور حول الممارسات الأمريكية الطبية المختلفة التي تملحها التحيزات المختلفة . فكان يخبرني بأن دافع الربح وآليات السوق الحر يؤديان إلى التطور السريع في آلات الرفاهية الطبية (وهي مختلفة عن آلات الضرورة الطبية) . كما أنها تؤدي إلى إدخال تغيرات طفيفة على بعض الآلات حتى يمكن لشركات المعدات الطبية أن تبيع الجديد منها دائماً (كما يحدث في موديلات السيارات) . وكان يبين أن انعدام الثقة بين الطبيب والمريض (بسبب التعاقدية) يجعل الطبيب يخاف من مريضه حتى إن

مصطلح defensive medicine «دفاعي مديسين» الذي يمكن ترجمته بعبارة «الطب الدفاعي» يعني محاولة الطبيب أن يقي نفسه شر المريض المتربص به إن أخطأ التشخيص . وأخيراً قال إنهم يتعاملون مع الجسد البشري كما لو كان آلة . وحكي لي قصة سيدة مريضة عمرها فوق الثمانين ، جاءت المستشفى تشكو من مرض في المسالك البولية . فقرروا أن يضعوا لها حرطوماً ينتهي ببرطمان يتجمع فيه البول ، وصاحب ذلك عملية جراحية . وكان صديقي الطبيب يرى أنهم لو أخذوا إنسانية هذه المريضة في الحسبان ، لقاموا بإعطائها بعض الأدوية دون تدخل جراحي ، وتركوها تتمتع ببقية حياتها الأرضية .

وقد عرفني كالفين ببعض الدراسات الجديدة المراجعة لتاريخ الثورة الفرنسية التي يعرف معظمنا أحداثها ابتداءً من اجتماع ملعب التنس وانتهاءً بحروب الثورة الفرنسية وظهور نابليون . كما يعرف مسألة الحرية والإخاء والمساواة وأن عصر الإرهاب كان انحرافاً عن جوهر الثورة الفرنسية هذا الإنساني الرائع . نحن نعرف كل هذه الأحداث تمام المعرفة . ولكن ماذا عن فاندې Vendee التي عرفتها عن طريق القراءات المراجعة ؟ يجب عليّ أن أتعلّى بشيء من الشجاعة وأعترف بأنني لم أكن قد سمعت بها قط ، فلم أكن قد قرأت إلا التواريخ الشائعة عن الثورة الفرنسية ، وهي تواريخ تتحكم فيها التحيزات العربية . فاندې هي ثورة اندلعت في غربي فرنسا (١٧٩٢ - ١٧٩٣) ، أشار لها أحد المراجع بأنها «ثورة مضادة» . وقضت عليها قوات الثورة (قبل عصر الإرهاب ١) بوحشية بالغة حتى إن المؤرخ الفرنسي بيير شونو (الأستاذ في السوربون) قال : « إن قوات الثورة الفرنسية لم تكن تحاول إخماد التمرد وحسب ، وإنما قامت بعملية إبادة (هولوكوست) كانت في فظاعة الإبادة النازية وأشد فاعلية منه » . وقد قال وسترمان ، جنرال الثورة الفرنسية الذي أعدم التمرد : « لقد دست على الأطفال بسنابلك خيلي ، وذهبت النساء حتى لا يلدن أي معبر بعد ذلك » . (ويجب أن نذكر أن هذه هي كلمات مجل ثورة الحرية والإخاء والمساواة التي أرسلت بقواتها الاستعمارية فيما بعد إلى مصر والشرق) .

وقد رويت قصة رسالتي للدكتوراه ، والصراع بيني وبين المستعنين كان في واقع الأمر صراعاً بين تحيزات مختلفة . ولكن بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه لم تتوقف حماسة أستاذي وصديقي البروفيسور ديفيد وايمر لرسالتي . فقد تناولت الرسالة ، كما بينت من قبل ، موضوعاً كان جديداً سمعتها (١٩٦٩) ، وهو موضوع نهاية التاريخ ونهاية الإنسان فأرسل أستاذي برسالتي لعدد من الناشرين الجامعيين (باعتبارها عملاً أكاديمياً) . وقد كان الرد دائماً بالرفض لأسباب مضحكة أو من دون إبداء أي أسباب ، ولكن تطوعت إحدى دور النشر (جامعة أوهايو) بإبداء الأسباب في خطاب الرفض . وقد بدأ كاتب الخطاب بالتنويه برسالتي للدكتوراه باعتبارها فريدة من نوعها فهي أول دراسة متكاملة مقارنة بين التراث النقدي الرومانتيكي في كل من إنجلترا والولايات المتحدة . وباعتبارها كذا وكذا (ولا داعي لأن أبعث الملل في نفس

القارئ) . ولكنه أضاف أن جامعة أوهايو مع هذا قررت عدم نشرها لأن كاتبها قام بالهجوم على إحدى "البقرات الأمريكية المقدسة" (أي رولت ويتمان) . وهذا طبعاً لا يجوز ، ولم يذكر خطاب الرفض أي أسباب علمية موضوعية محايدة .

والواقعة التالية سببت لي صدمة حقيقية . كنا - كما أسلفت - نستضيف أنا وزوجتي بعض الطلبة الأجانب . وكان هناك طالبان من إريتريا تترددان كثيراً على منزلنا . ودأت مرة كانتا نتناولان طعام العشاء معنا . وأخذت أمزح مع إحداهن وسألتها عن نوع الرجل الذي ترد الزواج به ، فتعلبت على حياتها وقالت : رجل إيطالي . ولما كانت لا تعرف الإيطالية ولم تذهب قط إلى إيطاليا فقد نالت مني الحيرة . فاعلمت عقلي إلى أن اكتشفت أن هذه المنطقة من العالم قد غزتها إيطاليا ، فولد هذا في نفس الفتاة تحيزاً للغازي .

بدأت الأسئلة تنهال عليّ ، وبدأت إشكالية التحيز هذه تصبح إشكالية أساسية ، وأصبحت أنظر لكل شيء من خلالها . فبدأت أنظر لتاريخ المسرح العربي الحديث الذي بدأ بترجمة مسرحيات مختلفة عن الفرنسية والإنجليزية ، ثم ترجمة النظريات الغربية في المسرح (ابتداءً من أرسطو وانتهاءً ببريخت وأرتور) ، حتى أصبح المسرح بالنسبة لنا يعني مسرح الغربي : يجلس المتفرجون في مواجهة خشية المسرح التي عادةً ما تغطيها ستارة ، ويبدأ العرض بعد رفع الستار وينتهي بإسداها ، ويحاول الممثلون إيهامنا بأن عالمهم المسرحي يشاكل العالم الخارجي إما بشكل مباشر وإما بشكل رمزي . وأدركت أن هذا قد حدد وعينا وتحيزنا ونماذجنا الإدراكية ، وانطلاقاً من هذا ، بدأنا في كتابة المسرحيات "الحديثة" ، ولم نتمكن من التعرف على الأشكال المسرحية في تراثنا . لم ندرك أن السيرة الهلالية - على سبيل المثال - ليست عملاً غنائياً أو حتى قصصياً ، وإنما عمل مسرحي من الدرجة الأولى ، يختلط فيه الأداء المسرحي بالسرد القصصي والمقطوعات الغنائية .

ولذا تساءلت : لعلنا لو درسنا المسرح الياباني (مسرحيات النوه والكابوكي) لاكتشفنا عالماً مسرحياً مختلفاً تماماً ، ولاختلفت رؤيتنا للمسرح ، فهو مسرح لا يجلس الجمهور فيه في مواجهة الممثلين وإنما يختلطون معاً تماماً كما تختلط فيه الأنواع الأدبية بشكل رائع . ولعلنا لو درسنا المسرح الياباني (والهندي والصيني والأشكال المسرحية الأخرى غير الغربية) لأجلد تاريخ المسرح العربي الحديث منعطفاً مختلفاً تماماً ، ولربما اكتشفنا ما حولنا من أشكال مسرحية (صندوق الدنيا - خيال الظل - السيرة الهلالية - السير البطولية الأخرى) .

أذكر هذا لأروي الحادثة التالية . كنت في ساحة الفناء في مراكش أتقفل بين الحوالة والبائعين والرواة . واسترعى انتباهي راوٍ يحكي سيرة سيدنا علياً كرم الله وجهه . وكان يمسك حبلاً بيده وحجراً بالآخرى . وحينما يهاجم الثعبان سيدنا عليّ يتحول الحبل إلى حية وقطاء وأحياناً أخرى يتحول إلى طريق مستقيم ، وهكذا . ولكن لاحظت أن الحجر يسقط من يده أحياناً فنظر إليه

ونهمل كل شيء آخر . وبالتدريج أدركت أنه يسقط الحجر عن عمد حتى "يغير المنظر" ، وأن ما نشاهده ليس عملاً روائياً أو غنائياً ، ولكنه عمل مسرحي لم نستطع أن نصفه كذلك بسبب تحيزنا الغربية المسبقة .

وبدأت أدرك أن التحيز يوجد في كل مكان ، فحينما كنت أعمل في جامعة الملك سعود (قسم اللغة الإنجليزية وآدابها) تقدم أحد الأساتذة بأبحاثه للترقية . وكان عدد منها يدور حول صورة الإنسان العربي في بعض الروايات الأمريكية اليهودية ذات التوجه الصهيوني الصريح (أي التي يعلن كتابها صراحة عن ولائهم للعقيدة الصهيونية) . وقررت الجامعة ، إيماناً منها بالموضوعية والعلمية ، أن ترسل بالأبحاث لعلماء عرب وغير عرب لتقييمها . وكان رد المحكم الأمريكي مدهشاً إلى أقصى درجة ، فقد أعاد كل الأبحاث مبيناً في حطابها أن الصهيونية إن هي إلا "بز ورد buzz word" ، أي "كلمة تصدر طيناً وحسب ، ولكنها لا معنى لها" . وهذه هي طريقته الأمريكية في أن يقول لا يوجد شيء اسمه صهيونية . فخريطته المعرفية لا تتضمن شيئاً بهذا الاسم ، ولذا استبعدتها تماماً !

والتحيزات المعرفية أمر كامن في نماذجنا الإدراكية ، ولذا فهي موجودة بشكل غير واع . ولذا نجد أن الصحف اليومية العربية تجسد في بنيتها التحيزات المعرفية الغربية دون أن تدري . وإلا فهم نفسر سلوك هذه الصحيفة العربية التي صدرت وفي صفحتها الأولى خبر مشير عن قطارين اصطدما في الهند مما أودى بحياة بضعة عشرات ، على حين أوردت في صفحتها الأخيرة ، صفحة الاجتماعيات والفضائح ، خبراً عن عدد الأطفال غير الشرعيين في إنجلترا الذين بلغ عددهم ذلك العام ٥٠٪ من كل المواليد ؟ في خبر الصفحة الأولى كان الضحايا نتيجة فشل تكنولوجيا ، وهذا هو الفشل الوحيد الذي تعترف به الحضارة الغربية (النموذج الحضاري الغربي) ، فالفشلنا أثرهم وحذونا حذوهم ووضعنا الخبر في الصفحة الأولى . أما الخبر الثاني فهو نتيجة فشل أخلاقي وهذا ليس بفشل من منظور الحضارة الغربية ، ولذا نضعه نحن أيضاً في صفحة الاجتماعيات ، وكأننا ببغاء عقله في أذنيه . من الذي رتب لنا أولوياتنا في هذه الحالة ؟ من الذي حدد لنا مجال الرؤية ؟

واستبطان النموذج الإدراكي التحيز دون وعي يظهر في شغفنا الزائد بأفلام تروم وجيري ، والتي تصنف في كل البلاد العربية الإسلامية على أنها حلال وبريعة (فهي - في تصورنا - لا تحوي صوراً عارية ولا قصصاً ملتهبة ولا دعاية أيديولوجية) ولهذا تترك التلفزيون مفتوحاً وأطفالنا جالسين أمامه عزلاً ، يلتهمون ما يرون . مع أننا لو دققنا النظر قليلاً لاكتشفنا أن هذه الرسوم المتحركة تجسد نموذجاً إدراكياً يتضمن تحيزات صراعية واضحة ، ولذا فهي تنقل لنا سماً زعافاً . فالعالم - حسب رؤية هذا الكارتون الكامنة - إن هو إلا غابة داروينية ملأى بالذئاب التي تلبس ثياب القط والفأر ، فهما في حالة صراع دائم لا ينتهي ، يبدأ ببداية الكارتون ولا ينتهي

بنهايته . وعالمهما عالم خالٍ تماماً من القيم ، فنحن نحب الفأر ونكره القط لا لأنهما يمثلان الخير والشر ، بل لأن الفأر ذكي ولذيذ ، أما القط فخبثي وثقيل الظل ، أي أن القيم التي تسود العمل ، والتي يطلب منا أن نستخدمها للحكم عليه ، هي قيم نسبية نفسية ، وظيفية براجماتية . بل يمكننا القول بأن هذا الكرتون هو دعوة (مقنعة) للارتقاء في أحضان الطبيعة / المادة . فالقط هو رمز عالم الإنسان ، وهو يحرس زائدنا وحياتنا ، أما الفأر الذي يسرق كل ذلك ، فهو يرمز إلى شيء عكس ذلك . يرمز إلى ما هو غير إنساني وطبيعي ومادي ، والمطلوب منا أن نبغض الأول ونحب الثاني ، نبغض الحضارة الإنسانية ونحب الانطلاقة الطبيعية / المادية التي لا تحدّها حدود أو قيود . كل هذا نعرض أطفالنا له ونظن أنه بريء وحلال !

ويمكن أن أذكر أفلام رعاة البقر التي طالما عشقناها في طفولتنا وصفقنا لها . ألا تنقل لنا هذه الأفلام غودجاً إدراكياً إمبريالياً عنصرياً بشعاً متحيزاً ضدنا ؟ فبطل الفيلم هو الكاوبوي أو الرائد (بالإنجليزية : بايونير pioneer) ، الرجل الأبيض الذي يذهب إلى البرية (أرض بلا شعب) ليفتحها ويستقر فيها ولا يحمل سوى مسدسه . وكلنا يعرف المنظر الشهير ، حين يقف اثنان من رعاة البقر في لحظة المواجهة التي يفوز فيها من يصل إلى مسدسه "أسرع" من الآخر . إن هذا المنظر الذي انطبع في مخيلتنا منذ نعومة أظافرنا ، يعلمنا كل أسس الداروينية الاجتماعية : أن الصراع من أجل البقاء هو سنة الحياة ، وأنه لا يكتب البقاء إلا للأصلح ، أي الأقوى أو الأسرع أو الأكثر دهاءً ومكرًا ، وهي مجموعة من الصفات التي لا علاقة لها بأي منظومة قيمية ، دينية كانت أم أخلاقية أم إنسانية . وحينما يظهر الهنود الأشراة ، هؤلاء "الإرهابيون" أصحاب الأرض الأصليين الذين لا يتركون الرائد الأبيض وشأنه كي يرمي أبقاره ويبني مزرعته ، أي مستوطنته ، على أرضهم وأرض أجدادهم ، يضطر (المسكين) إلى حصدهم برصاصه حصداً "دفاعاً" عن الفتاة البيضاء البريئة وعن حقوقه المطلقة . كنا في طفولتنا نستمتع بكل هذا دون أن ندرك أن الكاوبوي هو في واقع الأمر الرائد الصهيوني (بالعبرية : حالوتس) ، وأنه الإنسان الأبيض الإمبريالي الذي نهب ديارنا وثرواتنا وأذلنا ، وأن الهنود هم نحن ، العرب والفلسطينيين ، وأن البرية ، هي في واقع الأمر ، العالم الثالث بأسره ، أرض بلا شعب ، أو شعب ينظر له الإنسان الغربي من خلال رؤيته الإمبريالية باعتباره مادة استعمالية يمكنه أن يحوسلها (أي يحولها إلى وسيلة) لصالحه (كلمة "تحوسل" هي كلمة من نحتي لأصف بها الموقف العلماني الشامل من الحياة) . ولا تزال الملايين تشاهد أفلام الويسترن وتستبطن ما فيها من تحيزات دون وعي .

ولعل تلغلل النموذج الصراعى وقبول النموذج الدارويني كنموذج نهائي في نفوسنا ، يتضح في هذه القصة الطريفة . كنت أجلس في منزلي في السعودية أتناول طعام العشاء مع صديقين ، وكلاهما يعدُّ نفسه من المتمسكين بقواعد الدين وأهذاب الفضيلة . ثم حان موعد ما يُسمى «المصارعة الحرة» ، وهي أمر يشير لدي الغثيان حرفياً . وفوجئت بأن الصديقين يتمتعان بما

يريان ويأكلان بشهية غير عادية . وحيث إنني أردت أن أستمّر في طعام العشاء معهما ، حاولت أن أشير لهما من طرف خفي إلى وحشية المصارعة الحرة هذه ، وسألتهما : "لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم معنا ، هل كان سيوافق على هذه المصارعة الحرة ؟" فسارع صديقاى بالنفي قائلين "الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان ليقبل هذا" . سررت من إجابتهما وسألتهما عن السبب ، فقالا "المصارعان لا يرتديان مايوهات شرعية" ! لقد نسي الصديقان أن المصارعة الحرة تحول الإنسان إلى كتلة من اللحم تتصارع مع كتلة أخرى من اللحم بمنتهى الشراسة ، وتسود حلة المصارعة قوانين العابة . نسي الصديقان كل هذا لأنهما استبطنا النموذج الصراعى الدارويني ، ولم يبق أمامهما سوى المايوه غير الشرعي وحلم المايوه الشرعي الذي لا يعبر من بنية الأشياء ويقبل التحيزات الصراعية الكامنة .

ومن أطرف الأمثلة على التحيز الأبله (أحيانا التحيز ضد الذات) ، ما شاهدناه في مصر عام ١٩٦٩ بعد عودتنا من الخارج . إذ كنا نمر أمام محلات عمر أفندي الواقعة في شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) . وكان يقف أمامها رجل متكرر في زي بابا نويل ، بملحيته البيضاء (القطنية) وملابسه الحمراء ويدانته الشهيرة ، وهي أمور معروفة لدى أطفال العالم الغربي ، فهذا جزء من حضارتهم ، كما يعرفه أطفال الطبقات الثرية في مصر التي تم تغريبها . ولكن مر عليه بضعة أطفال مصريين مشاكسين من عامة الشعب ، فلم يفهموا بطبيعة الحال هذا الشيء الأحمر / الأبيض / البدين ، ولم يدركوا أنه رمز إلى شيء ما . فالتفوا حوله وبدأوا يعاكسونه كل بطريقته ، وبعض طرفهم كانت لا تغلظ من العنف . فاضطر بابا نويل ، صديق الأطفال نظريا ، إلى أن يسلك بمصا ويدافع عن نفسه ضد هؤلاء الأطفال ، وكان منظرا مضحكا للغاية : بابا نويل وهو مشتبك مع الأطفال في معركة حامية الوطيس !

ومن التحيزات البلهاء الأخرى ضد الذات التي بدأت تدخل في حياتنا التحيز للعامة ضد الفصحى . وهو تحيز أبله لأن من يروجون له (من قبيل عبادة السهل البراجماتية) لا يدركون دلالة تحيزهم ولا تضميناته الفلسفية والاجتماعية ، الواقعية . ويظهر هذا التحيز في الإعلانات بالعامة ولغة بعض الصحف وغيرها من المفاهيم . وما لا يعرفه هؤلاء المتحيزون أن الدول الغربية تبذل أقصى جهدها في تمويل مشروعات بحثية تهدف إلى دفع العاميات العربية إلى الأمام باعتبار أنها لغة الواقع التي تحمل محل الفصحى ، والدول الغربية تفعل ذلك لكي تنقطع صلتنا بترائنا وتاريخنا وماضينا ، فتزداد هذه الأمة غمزا ، وتحول إلى دويلات إثنية صغيرة لا يربطها رابط ، وهذا هو التطبيع الحقيقي لإسرائيل ، أن توجد ضمن دويلات بلا تاريخ أو لها تاريخ وهمي أسطوري مفبرك ، لا يمكنها أن تتحد في عصر التكتلات الاقتصادية والسياسية الكبرى . وهم لا يعرفون أيضا أنه بدون الفصحى ستقطع صلتنا بترائنا الفلسفي والفكري والأدبي والاجتماعي والعلمي والديني ، وسيصبح تراثنا لا يتجاوز إسماعيل يس وشكوكو (ورغم

شغلي بهما ، فكثيراً ما أدخلنا الفرح على قلبي في طفولتي وصباي ، إلا أنه لا يمكن مقارنتهما
بامرئ القيس والمتنبي وابن سينا والبارودي والغزالي) .

ذهبت مرة إلى فاس ولم أجد غرفة في أي فندق . وبينما كنت واقفاً في حيرة من أمري إذ
بظلم لا يتجاوز العاشرة يأتي ويحدثني بالفصحى ويدعوني للبقاء في منزله مع أهله فقبلت
الدعوة شاكراً ، وذهبنا إلى منزل فقير للغاية وجلسنا نحتسي الشاي وكان الأب يعمل فراشاً في
مدرسة ، ووجدت صعوبة في فهم ما يقول ، فكان ابنه يترجم لي بالفصحى . وبعد قليل
استرسلنا في الحديث ويدأنا تبادل النكات بالفصحى أنا والطفل ، وكان يترجمها للأب .
وقضيت يوماً عربياً جميلاً ، كانت لغتنا العربية فيه حية ، تقترب من حديث صديقنا الدكتور
أحمد صدقي الدجاني ، الذي لا ينطق إلا بها فتحولت معه إلى أداة طيعة تشبه الموسيقي ، بهير
بها عن أصعب الأفكار بطريقة سلسلة جميلة . إن حلم الفصحى ليس حلم العودة ، وإنما حلم
الانطلاق نحو غد يمسك فيه العرب بزمام أمرهم ، أما التحيز إلى العامية ، فهذا هو طريق الهزيمة
والسوق الشرق أوسطية .

إشكالية التحيز ، التعمير الحضاري

ظلت إشكالية التحيز تتبلور حتى بدأت تحتل مكانة رئيسية في وجداني ، ثم ظهرت
بشكل حاد أول مرة في المناقشات التي دارت في إطار لجنة التعمير الحضاري التي شكلها الأستاذ
هيكل ، في مؤسسة الأهرام ، في أعقاب حرب أكتوبر ، وكان الهدف منها هو دراسة المشروع
الحضاري العربي ومستقبله بعد الانتصار الذي حققته الأمة العربية آنذا نتيجة لتوحيد الجهود
العسكرية والاقتصادية . وكانت اللجنة تضم الدكتور محمود فوزي ، رئيس الوزراء الأسبق ،
والدكتور زكي نجيب محمود ، والدكتور حسين فوزي ، والدكتور لويس عوض ، والأستاذ توفيق
الحكيم ، والأستاذ أحمد بهاء الدين ، والدكتور جميل مطر ، وكاتب هذه السطور ، والأستاذ
هيكل بطبيعة الحال .

وبدأ النقاش حول طبيعة المشروع الحضاري العربي . وكانت كثير من مقولاتي الفكرية قد
اهتزت ، ولذا بدأت أساءل بخصوصي مضمون التقدم والتحيزات الكامنة فيه ، وهل الغرب
بالفعل متقدم ؟ وبأي معنى هو متقدم ؟ وبدأت أثير قضية القيمة وعلاقتها بالتقدم ، وهكذا .

وأذكر أنه في أثناء النقاش ، حدث أن انقسم الحاضرون إلى جناحين (أزعم أنه بسبب بعض
الأسئلة والإشكاليات التي طرحتها) ، جناح ، يضم الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور
محمود فوزي ، أظهر تعاطفاً واضحاً مع تساؤلاتي ، وجناح آخر ، يضم الأستاذ توفيق الحكيم
والدكتور حسين فوزي والدكتور لويس عوض ، رفض ما أثير من تساؤلات ، لأن المسألة بالنسبة
لهم كانت محسومة تماماً (وقد تنبأ الدكتور لويس عوض "بنهايتي" ووقوعي في برائن الرجعية ،

وقال : " ستكون زعيماً لليمين الذكي " . وكان رأي الجناح الأول أن نتحفظ في استيرادنا للأفكار الحضارية الغربية حتى نتحفظ يهويتنا ، أما الجناح الثاني ، فكان يرى أن النموذج الغربي للتنمية جدير بالتبني بأكمله ، وأنه لا يوجد نموذج آخر بديل ، وأن على العرب أن ينسوا تراثهم وتاريخهم وأن يحذوا حذو أوروبا في كل شيء . فالتحديث في رأي هؤلاء هو في واقع الأمر التعريب ، أي اتباع أساليب الغرب في التفكير والسلوك والتنمية (بحلوه ومرة) .

وقد أخبرت الأستاذ توفيق الحكيم ، في أثناء المناقشة ، أنه هو نفسه في بعض كتاباته قد شكك في قيمة الحضارة الغربية وقيمها ، وأنه في بعض كتاباته الفلسفية دعا إلى بهج فلسفي مستقل . فكانت مفاجأة لي حين تنكر الأستاذ توفيق الحكيم لكتاباته (وليراجع من يشاء محاضرات الجلسات التي سجلت ، وهي موجودة في مكتبة مؤسسة الأهرام) . وقال إنه لا خلاص لنا إلا بتبني الحضارة الغربية بحذافيرها . فتقدمت خطوة إلى الأمام ، وأخبرته بأن الحضارة الغربية تغطي آلاف السنين وعشرات الأنساق الخلقية والتاريخية ، فأني غرب هذا الذي سنقلد ؟ أهـي فرنسا أم إنجلترا أم الولايات المتحدة أم إسبانيا أم روسيا ؟ ثم قلت حتى أضمن استمرار الحوار : فلتنك إنجلترا (باعتبار أننا نعرفها أكثر من غيرها) - وهنا سطرحت السؤال نفسه ، أي إنجلترا هذه ؟ هل هي إنجلترا العصور الوسطى حين سادت قيم أخلاقية دينية لا تختلف كثيراً عن قيم أي مجتمع تقليدي ، أو إنجلترا عصر النهضة حين بدأت فكرة الفردية (واقتصاد التجار) في الظهور ، أو إنجلترا القرن الثامن عشر وعصر العقل والفلسفات الميكانيكية ، أو إنجلترا القرن التاسع عشر وعصر الثورة الصناعية والانقلاب الرأسمالي الاستعماري وقيم النفعية والعنصرية ، أو إنجلترا القرن العشرين والكمبيوتر والتخدرات ووسائل الانتقال السريعة والشذوذ الجنسي وفلسفات الحرية والعشبية واللذة والعدمية ؟ (حينما عدت من أمريكا للمرة الأولى ، التقيت بالدكتور لويس عوض في طعام غداء ، وأخبرني بأنني يجب أن أنقل " آخر " ما توصلوا إليه في الغرب [باعتبار أن " آخر " ما توصلوا إليه هو " أعظم " ما توصلوا إليه ، فهو النقطة التي تجسد ذروة التقدم العلمي] . لكنني أخبرته أنني أفضل شعر تشومر [وهو من شعراء العصور الوسطى] على شعر إليوت [الشاعر الحديث] ، وأني أجد العصور الوسطى الغربية [خاصة في عقودها الأخيرة] أكثر تركيهاً وقرباً من مشكلاتنا من العصور الحديثة) .

ثم طرحت سؤالاً آخر أكثر جذرية : ما جاذبية مثل هذا النموذج الغربي ؟ وما الذي يجعلنا نتبناه ونحن نعرف تكلفته الإنسانية العالية ؟ وهل يجب أن نأخذ التخدرات مع الكمبيوتر وفلسفات العبث والعدمية مع وسائل الانتقال السريعة ؟ فكانود توفيق الحكيم على كل هذا أنه لا يمكن تبني جزء من النموذج الغربي وحسب وإنما يجب تبنيه كله . فكان ردي أن الغرب حينما دخل العصر الحديث على هذا النحو ، وحينما أقرز التخدرات والعدمية ، كان كالبطل المأساوي الذي يجلب على نفسه كارثة دون أن يدري ، وأنها إذا سرنا في نفس الطريق وارتكبنا

نفس الأخطاء وانتهينا نفس النهاية فلن نكون أبطالاً ولا مأساويين ، وإنما سنكون مهرجين لا نستحق حتى العطف أو الرثاء .

وأضفت قائلاً إن هذا الموقف سيجعلنا بشراً من الدرجة الثالثة بشكل دائم ، وإن حشنا الخطي أصبحنا من الدرجة الثانية ، وهذا أقصى ما نطمح إليه ، لأن الدرجة الأولى هي العرب ذاته الذي يتحرك باستمرار في الاتجاه الذي قرره لنفسه ، والذي قرره له حركياته التي لا هدف لها . وأشرت في حديثي إلى ضرورة استرداد الإمبريالية كمقولة تحليلية في دراستنا للغرب ، فلا يمكن دراسة تاريخ الديمقراطية في الغرب وتاريخ المجتمع المدني دون دراسة المشروع الغربي الإمبريالي . فديمقراطية إنجلترا تستند إلى حقيقة أن هذا البلد حقق الأمن الاجتماعي في الداخل ، عن طريق تصدير كل مشكلاته إلى الشرق (وما الصهيونية سوى تصدير المسألة اليهودية إلى الوطن العربي) . وذكرت له إحصائيتين في منتهى الدلالة : الأولى بخصوص ما نهبت إنجلترا من الهند وأنه يفوق كل ما أنتجته إبان ثورتها الصناعية (فما بالك بحجم ما نهب من بقية الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ؟) . والثاني بخصوص الرأسمالية الأمريكية وقفزتها الهائلة التي حققتها في منتصف القرن التاسع عشر من خلال عدة عناصر كان من أهمها صناعة المنسوجات القطنية ، والتي تستند إلى محاصيل القطن الرخيصة . هذه المحاصيل كان يستجها آلاف العبيد السود ، الذين كانوا يشكلون عمالة رخيصة تحت سرققتها من إفريقيا ثم الهيمنة عليها وفسرها على أن تعيش تحت أقصى أنواع الظلم ودون حد الكفاف . إن الإمبريالية ليست غزوة استعمارية ولا مجرد انحراف عن مسار الغرب ، وإنما هي من صميم هذه الحضارة ، ولذا لا بد من أخذها في الحسبان باعتبارها مقولة تحليلية .

وبعد ذلك ، طرحت موضوع الدولة الصهيونية . فقلت للأستاذ توفيق الحكيم : "هذه الحضارة الغربية الحديثة التي تدافع عن الحرية وحقوق الإنسان والمساواة والعدالة وكمية أخرى من القيم النبيلة السامية ، لماذا لا تصدر لنا هذه القيم فيما تصدر من سلع وأشياء ؟ وعبر تاريخ مصر الحديثة والجزائر الحديث وسوريا الحديثة ، من كان يقف ضد التحديث والديمقراطية والاستنارة ؟ ألم تكن جيوش أوروبا هي التي تقصف بالمدافع الجماهير العربية التي تطالب بحريتها وحقوقها ؟ ألم تكن هذه الجماهير هي التي ترفع لواء القيم الغربية ، النبيلة السامية وتغوت من أجلها ، بينما تقف جيوش أوروبا لهم بالمرصاد ؟" .

ثم سألت توفيق الحكيم عن التمثيل الرئيسي للحضارة الغربية في شرقنا العربي ، أليست هي الدولة الصهيونية ؟ دولة قامت على أرض الآخرين ، ولا تستمد شرعيتها من العقل أو الاستنارة أو أي قيم نبيلة أو سامية ، وإنما من منطق القوة وشرعية الغاب . دولة تصدر عن فلسفة عنصرية غيبية إرهابية ، وتشرع قوانين عنصرية غيبية إرهابية ، وتمتلك جهازاً "أمياً" قوياً لقمع العرب في داخل الأرض المحتلة ، وفي ضربهم خارجها ؟

كان رد توفيق الحكيم مندهشاً . فقد كان يرى أن النموذج الصهيوني نموذج يستحق أن يحتذى ، وأخبرنا (عام ١٩٧٤) في أثناء اجتماعات لجنة التعمير الحضاري بالأهرام عن زيارته للجامعة العبرية في فلسطين في أثناء حكم الانتداب وعن مدى "تقدم" و"رفي" المستوطنين الصهاينة وعن الاستعدادات الضخمة التي حشدت لهذه الجامعة وعن مبانيها الفخمة وأساتذتها الكثرين ، ثم أضاف : "وكل هذه الاستعدادات والمباني قد شيدت وكل هؤلاء الأساتذة قد استعدوا حتى قبل وصول الطلبة" .

كان الإعجاب بالنموذج الصهيوني باعتباره جزءاً من النموذج الغربي يسيطر على توفيق الحكيم وعلى حسين فوزي وعلى آخرين (ولذلك لم أدهش حينما قام بعضهم - فيما بعد - بزيارة إسرائيل ، أي فلسطين المحتلة) .

ومن ضمن اقتناعاتي الآن أن الإنسان الذي يؤمن إيماناً أعمى بالنموذج الحضاري الغربي ، عادةً (وليس دائماً أو حتماً) ما ينتهي به الأمر بتقبل الدولة الصهيونية (وليس من قبيل الصدفة أن نظام الانفتاح على الغرب في مصر هو نفسه نظام التطبيع مع الدولة الصهيونية) . فالدولة الصهيونية تطرح نفسها على مستوى من المستويات على أنها الآلة الغربية التي تعمل دون تاريخ ودون أعباء أخلاقية ؛ هي المستقبل لمن يود أن يطرح عن كاهله تراثه وقوميته .

ومن حق أي فرد أن يعجب بأي نموذج ، بما في ذلك نموذج البلد الذي نكّل به واحتل أرضه . ومن حق توفيق الحكيم والآخرين أن يكونوا مستغرقين في الإعجاب بالغازي وبالمنتصر (كما هو الحال مع معظم البشر) ، ولكنهم ليس من حقهم أن يروجوا لنموذج ما دون دراسة لأصوله وأسباب نجاحه المزعوم ومدى إمكانية استمرار هذا النجاح عبر الزمان .

وقد حاولت أن أقدم رؤية نقدية للنموذج الصهيوني ، فسألت توفيق الحكيم : ألم يدهشه أن تكون الجامعة قائمة دون طلبية ؟ وحاولت أن أوضح له أن هذه سمة بنوية في الصهيونية ، لصيقة بها ، فالصهيونية لم تنشأ كحركة جماهيرية ، وإنما نشأت بين بعض مثقفي الطبقة المتوسطة اليهودية في شرقي أوروبا ووسطها ممن فشلوا في تحقيق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتهم (بعد تمرر التحديث فيها) ، وأسسوا المنظمة الصهيونية التي كانت تدعي أنها ستجمع شتات الشعب اليهودي . (وهي في واقع الأمر كانت ستخلق مجالاً حيوياً للإمبريالية الغربية ولأعضاء الجماعات اليهودية ليحققوا في الدولة الاستيطانية الجديدة [من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي] ، ما فشلوا في تحقيقه في أوطانهم [من خلال التشكيل الحضاري والقومي الغربي]) . فنحن هنا أمام ظاهرة قريضة قيادة ميسية تخلق منظمة ، والمنظمة تخلق شعباً على حين نجد أن العكس هو الصحيح في كل الحركات القومية في العالم . فالشعب هو الذي يتطلع ويطنح فتظهر من بين صفوفه النخبة التي تقوم بتنظيم صفوفه لتحقيق هذه التطلعات .

والوضع نفسه ينطبق على النظام الحزبي الإسرائيلي ، فهو النظام الحزبي الوحيد في العالم الذي ظهر إلى الوجود قبل ظهور الجماهير التي يعبر عن "مصلحتها" ، وقبل ظهور الوطن الذي ينتمي إليه ، وقبل ظهور الدولة التي يحاول أن يستولي على مقاليد السلطة فيها ، فالحرب في إسرائيل يسبق الشعب والدولة .

والجيش أيضاً لا يختلف كثيراً عن الحزب أو عن الدولة . فعصابات الإرهابيين الصهيونية كانت قد بدأت مناقشاتهما ضد العرب قبل ظهور التنظيمات العسكرية الصهيونية وحتى قبل وصول «الشعب اليهودي» ذاته (وقد قال أحد الشعراء الإسرائيليين إن كل الشعوب تحتك جيشاً ما عدا الشعب الإسرائيلي فهو جيش تحتك شعباً) . والجامعة العبرية إن هي إلا استمرار لنفس النمط وتعبير عن نفس السمة البنيوية .

ثم أشرت إلى سمة بنيوية أخرى ، وهي اعتماد المؤسسات الصهيونية على التمويل الخارجي ، ومن هنا طفيليتها . والجامعة العبرية من أكثر المؤسسات الصهيونية اعتماداً على التمويل الخارجي ، فمثلاً في كلية العلوم تجد أن كثيراً من الأساتذة قد حصلوا على تعليمهم في الخارج ، بل قاموا بالبحوث في بلادهم ثم يقومون بنشرها في الدولة الصهيونية . وتجد أن المعامل يقوم بتمويلها مليونير أمريكي ، أما بيت الطالبات فيموله ، على سبيل المثال ، يهود جنوب إفريقيا . كما أن هناك صندوق جبهة خاص بالجامعة العبرية في الولايات المتحدة . والنموذج الصهيوني نموذج تمويل طفيلي وقويله يعود لمعامل خاصة به هو وحده ، لذا فهو نموذج لا يمكن محاكاته أو تكراره ، ولأنه يعتمد عوامل حياته من خارجه ، فإنه من المستحسن عدم محاكاته لأنه مقضي عليه بالزوال ، إن زالت تلك العوامل . ولكن الأسعاف توفيق الحكيم لم يغير من موقفه قيد أنملة لمعجابه بالغرب كان كاملاً ، دون تحفظ .

استخدم النقاش بين دعاة التغريب والتحديث ودعاة إعادة النظر فيها ورؤيتها بشكل نقدي يصدر عن إدراك لأهمية التراث والهوية ، فلم تتقارب وجهات النظر . ومع هذا يمكن القول بأنه حدث تغيير جوهري ، فقد تقرر عقد مؤتمر لدعوة مستقبل المشروع الحضاري الغربي . ولكن بدلاً من أن يكون موضوع المؤتمر هو "كيف نحضر التقدم ؟" أصبح "ما التقدم ؟" . (ولم يعقد المؤتمر في نهاية الأمر بسبب خروج الأستاذ هيكمل من الأهرام) .

إشكالية التحيز ، المؤتمر والكتاب

وهكذا أصبح التحيز إشكالية أساسية كان لا بد أن أكتب عنها . وفي هذه الآونة تعرفت على الأستاذ عادل حسين ، الذي اتصل بي عام ١٩٨٠ دون سابق معرفة ، وأخبرني بأنه قد قرأ كتاب الفردوس الأرضي وأنه وجدته مثيراً . فأخبرته أنني قرأت كتابه عن الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية وأنه يبدو أن هناك نقط لقاء كثيرة بيننا (فدراسته مثل حيد على فكر

مفكر انتقل من الاهتمام بالقوانين المجردة العامة إلى إدراك أهمية الخصوصية الحضارية ، ومن التركيز على المادي إلى الإنساني ومنه إلى رحابة الإيمان) ، وبدأنا نحن وبعض الأصدقاء نلتقي بشكل منتظم ، مرة كل شهر ، نقرأ كتاباً ونناقشه . كانت المجموعة تضم عدداً كبيراً من المثقفين من الاتجاهات الفكرية كافة ("التراثيون الجدد" كما سماهم أحد الكتاب : د. جلال أمين - د. عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم - د. جودة عبد الخالق - د. كريمة كريم - أ. طارق البشري - د. هدى حجازي - د. حامد الموصلي - د. ممدوح فهمي ، وكان الدكتور محمد عمارة ينضم إلينا أحياناً) . وكان الموضوع الأساسي هو التبعية . وكان الأستاذ عادل حسين هو العقل المفكر والروح الملهم وراء الاجتماعات والحوارات ، فهو شعلة نشاط إنساني ، وهبه الله عقلاً نافذاً ولكنه ليس عقلاً محضاً بارداً وإنما عقل إنسان له قلب وروح ، قادر على الدخول في علاقات إنسانية حميمة . وهو لا يدخل اليأس إلى قلبه البتة ، يبحث دائماً عن علامات الأمل في التاريخ والأفراد ، فيشجعها ويشير لها ، ولعل هذا ما ضمن له الاستمرار ، برغم ما يحيط بنا من كل جانب من محبطات . وقد ساهمت هذه المرحلة في بلورة رؤيتي الفكرية ، ومن بينها إشكالية التحيز التي كانت لا تزال آخذة في التشكل .

وفي أثناء وجودي في الرياض (١٩٨٣ - ١٩٨٨) كانت تُعقد ندوة شهرية تنظر في التحيزات المعرفية المختلفة ، وكانت تضم د. سعد البازعي - د. عزت خطاب - د. منصور الحازمي - د. عزيز العظمة - د. محمود الزواوي - د. سعد الصويان وآخرين . وعند عودتي لمصر عام ١٩٩٠ ، تعرفت على مجموعة من الشباب المثقف (هبة رءوف - د. أحمد عبد الله - هشام جعفر - د. أسامة القفاش - فؤاد السعيد - إبراهيم البيومي غانم - حسام السيد - حازم سالم) . كنا نلتقي بشكل شبه دوري في منزلي وكانت لقاءاتنا متعة فكرية حقيقية تُفجر داخلنا كثيراً من الأفكار والرؤى وتتيح لنا فرصة التجريب الفكري ، فكنا نناقش في شتى الموضوعات وخصوصاً إشكالية التحيز والنماذج المعرفية . وقد تقرر أن نكتب كتاباً عن إشكالية التحيز يضم أبحاثاً يكتبها المشاركون في ندوة الرياض والقاهرة .

وقد استمر الحوار بشكل مكثف يكاد يكون يومياً (أساساً بالليفون) بيني وبين هبة رءوف وأسامة القفاش . فهبة تنبهنى دائماً إلى الأبعاد المعرفية للظواهر ، وعندها مقدرة غير عادية على الوصول إلى جوهر الأشياء والإفصاح عنها بسلامة غير عادية . أما أسامة فعقله متفجر ، لا يتورع عن أن يتصل بي تليفونياً من الإسكندرية لمدة ساعة ليناقش معي علاقة المنظومة الحلولية بالكتابة الصينية أو الفرق بين الغنوصية في مصر وفي الغرب أو آخر أعمال وودي ألين وقد كتبت ورقة عمل أرسلت بها إلى السادة المؤلفين أدعوهم فيها إلى كتابة مقالات تدور حول موضوع التحيز فنقطف منها ما يلي :

"نمة إحساس غامر لدى الكثير من العلماء العرب بأن المناهج التي يتم استخدامها في

الوقت الحاضر في العلوم العربية الإنسانية ليست محايدة تماماً ، بل ويرون أنها تعبر عن مجموعة من القيم التي تحدد مجال الرؤية ومسار البحث ، وتقرر مسبقاً كثيراً من النتائج . وهذا ما نطلق عليه اصطلاح «التحيز» ، أي وجود مجموعة من القيم الكامنة المستترة في النماذج المعرفية والوسائل والمنهج البحثية التي توجّه الباحث دون أن يشعر بها ، وإن شعر بها وجدها لصيقة بالمنهج لدرجة يصعب معه التخلص منها .

ولعله قد حان الوقت لكي يتم الإفصاح عن هذه الأحاسيس والاجتهادات المردية بشكل أكثر وضوحاً وتحديداً ، وأن يتم تجميعها على أمل أن تصل إلى تعريف إشكالية التحيز في المنهج ، وأن نضع أيدينا على بعض سماته وآلياته ، ونصل إلى بعض الحلول المطروحة التي قد تؤدي في النهاية إلى ظهور نموذج معرفي بديل .

وبعد إعداد ورقة العمل ، عقدت كثيراً من اللقاءات مع الساهمين في الكتاب وترأست معهم . وكنت أتعهد معهم تليفونياً لمتابعة مسيرة الكتاب . وقد قمت بتمويل هذه المرحلة البحثية .

ثم بدأت أفكر في عقد مؤتمر ، وبدأت أفكر في تكاليفه ، وكيف يمكن عقده بأقل التكاليف ومن خلال مساهمة بعض المشاركين فيه . وهنا لحسن حظي قررت نقابة المهندسين والمعهد العالمي للفكر الإسلامي تمويل المؤتمر . وعُقد بالفعل في القاهرة في فبراير عام ١٩٩٢ ، وأشار له الأستاذ فهني هويدي في مقاله الأسبوعي في الأهرام بأنه «اتفاضة ثقافية» . ثم قمت بجمع الدراسات التي قدمت إلى المؤتمر وأضفت لها دراسات أخرى ، وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب في جزأين عام ١٩٩٥ بعنوان إشكالية التحيز : رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي ونقابة المهندسين ، وكان الكتاب يضم حوالي ستين بحثاً . ثم صدرت الطبعة الثانية في واشنطن عام ١٩٩٦ (عن المعهد أيضاً) . ثم صدرت طبعة ثالثة في سبعة مجلدات عام ١٩٩٨ ، كل مجلد مخصص لفرع مستقل من فروع المعرفة . ويضم المجلد الأول وفقه التحيز ، وهو المقدمة الطويلة التي كتبها وعرفت فيها التحيز وأسبابه وأشكاله وكيفية تجاوزه (دون إلغائه ، فهذا أمر مستحيل) .

وقد أشرت في فقه التحيز إلى أن كل شيء ، كل واقعة وحركة ، لها بُعد ثقافي وتعبر عن نموذج ، وأن التحيز لا يمكن تجاوزه ولكنه ليس نهائياً ، فالنهائي هو الإنسانية المشتركة (والقيم الأخلاقية) التي تسبق كل تنوع وأي تحيز . ثم أشرت إلى هيمنة النموذج الحضاري العربي على كل الاتجاهات الفكرية العربية (ليبرالية - ماركسية - إسلامية) وحاولت تعريف بعض سماته الأساسية . فبينت أن هذا النموذج نموذج مادي حلولي واحدي ، وأن جوهر الواحدية المادية هو أن تصبح كل مخلوقات خاضعة تماماً لنفس القانون للمادي الصارم ، وأن يسود منطق الأشياء على الأشياء وعلى الإنسان ، وأن هذا هو نفسه حجر الزاوية في المشروع المعرفي العربي : نعمة قانون

واحد وثقافة واحدة وإنسانية واحدة (تكتسب وحدتها من كونها جزءاً من النظام الطبيعي) ،
ولذا فإن ثمة نموذجاً واحداً للتطور .

وقد حصرت تحيزات هذا النموذج فيما يلي :

- ١ - التحيز للطبيعي / المادي على حساب الإنساني .
 - ٢ - التحيز للعالم على حساب الخاص .
 - ٣ - التحيز للمحسوس والمحدود وما يُقاس والكمي على حساب اللامحدود وما لا يُقاس والكيفي .
 - ٤ - التحيز للبسيط والواحد والمتجانس على حساب المركب والتعدي وغير المتجانس .
 - ٥ - التحيز للموضوعي على حساب الذاتي .
 - ٦ - التحيز للمصطلحات العامة ، الدقيقة ، الوصفية ، الكمية التي تنبذ الجاهل وتبتعد عن التركيب .
 - ٧ - التحيز للدقة البالغة في التعريفات والمطالبات بأن تكون جامعة مانعة واضحة .
 - ٨ - التحيز ضد الغائية والخصوصية والانقطاع ، والتحيز للاغائية والعمومية والواحدية المادية والاستمرارية واللغة الرياضية بهدف تسير التحكم الإمبريالي .
- ثم أشرت لبعض التحيزات الكبرى ، مثل التحيز للتقدم والنظرية الداروينية والسوق / المصنع كصورة نهائية للكون والدولة المركزية والاستهلاكية .
- وفي مجال تحديد آليات تجاوز التحيز ذكرت أن أول خطوة هي إدراك حتمية التحيز ، وأن يكون نقدنا للحضارة الغربية نقداً كلياً ، يلي ذلك توضيح نفاثات النموذج المعرفي الغربي (نموذج معاد للإنسان - استحالة تنفيذ المشروع للمعرفي والحضاري الغربي لأنه يستند إلى الإمبريالية وسرقة المصادر الطبيعية من العالم [وتوظيفها لحساب الإنسان الغربي مما يعني تصاعد معدلات الاستهلاك بما يتجاوز حدود المصادر الطبيعية] . ثم اقترحت منهجاً في دراسة الحضارة الغربية (دراسة أزمة الحضارة الغربية - دراسة انحرافات الحضارة الغربية [العنصرية - النازية - الإمبريالية] لا باعتبارها انحرافات وإنما باعتبارها جزءاً من نموذج مهيمن - دراسة الفكر الغربي الاجتماعي والمراجعات الجديدة للتاريخ الغربي والأزمة المعرفية في العلوم الطبيعية - التأكيد على نسبته الغرب وعلى خصوصيته الحضارية ودراسة الظروف التاريخية والثقافية المحيطة بظهوره وبروزه - الانفتاح على العالم بأسره وليس على العالم الغربي وحده) .

وحتمت فقه التحيز بالحديث عن النموذج البديل النابع من التراث ، ولخصت ملامحه فيما يلي : الانطلاق من الإنسان باعتباره مقولة غير مادية - الإيمان بالنموذج التوليدي لا التراكمي - طرح علم بديل يحاول أن يصل إلى يقين غير كامل ، ولذا تصبح المعرفة اجتهاداً مستمراً - هذا العلم لا يهدف إلى التحكم الكامل في الواقع - ولذا فهو لا يحاول اختزال الواقع أو تصفية

الثنائيات - لا يؤمن هذا العلم بوحدة العلوم ولا يركن إلى الواحدية المسببية - ولهذا العلم الجديد هيكل مصطلحي جديد يهدف لا إلى الدقة وإنما إلى التركيب ولا يرفض استخدام المجاز .
و حين أدركت جوانب جديدة لموضوع التحيز وتعمق إدراكي لدى تركيبه ، أعدت كتابة الجزء الأول من الكتاب (فقه التحيز) بحيث يمكن القول إنه كتاب جديد تماماً سواء في هيكله أو الأمثلة التي أضر بها أو جوانب الموضوع الجديدة التي أتناولها (ولعله يقف مثلاً جيداً على إمكانية التطور داخل إطار من الوحدة) .

الفصل الثالث : الصهيونية

علاقتي بعالم السياسة

وقبل أن أنتقل للحديث عن أهم أعمالي قاطبة ، أي الموسوعة ، لابد من توضيح نقطة مهمة ، وهي أن اهتمامي بالسياسة كان بالدرجة الأولى اهتماماً معرفياً فلسفياً ، وأن اهتمامي بالأحداث السياسية اليومية ظل اهتماماً ثانوياً وها مشياً متجاهلاً الصحف اليومية والهستريا الجماعية ! فعلى سبيل المثال ، كنت في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧ ، حينما وقعت النكسة ، وقد احتفل الإعلام الأمريكي احتفالاً هستورياً بالانتصار الإسرائيلي ، ومع هذا بدأت رسالتي للدكتوراه بعد الحرب مباشرة متجاهلاً الصحف اليومية والتلفزيون والهستريا الإعلامية . ثم نشبت حرب سنة ١٩٧٣ وكنت مشغولاً بكتابة موسوعة ١٩٧٥ ، والتصفت زوجتي - مثل معظم المصريين - بالتلفزيون ، واستمرت أنا في عملي لم أتوقف . ولكنني طلبت من زوجتي أن تخبرني حينما ترى بعض الأسرى الإسرائيليين حتى أراهم رؤية العين . وقد كان هذا بالنسبة لي تجربة حق ، أنا الذي أزعم أنني أراقب أحداث الحاضر كمؤرخ .

ومع هذا لابد أن أذكر مشهداً لن أنساه ، عرّضه التلفزيون الأمريكي بعد حرب سنة ١٩٦٧ مباشرة . كان موشيه ديان يخطب في بعض الأسرى المصريين العائدين إلى مصر ، وكان موضوع خطبته بطبيعة الحال السلام (فالإسرائيليون - كما يبين سلوكهم - لا يطلبون إلا السلام والرخاء للجميع !) . المهم قال ديان للجنود العائدين : أن يبلّغوا القيادة المصرية برغبتهم الصهيونية الصادقة في السلام . فلم يرد الجنود عليه واعتلوا وجوههم الصمت وشكل من أشكال التصميم للذات أدرك ديان معناه . وحينما ركب الجنود الأتوبيس هتفوا " ناصر - ناصر " . فقال المعلق : إن من الواضح أن الجنود لن ينقلوا للقيادة المصرية رسالة السلام هذه .

هذا لا يعني أنني لا أشارك في العمل السياسي اليومي ، فلي مشاركاتي وإسهاماتي . ففي عام ١٩٧١ حينما بدأت مظاهرات الطلبة ضد حالة الاحتراب واللاسلم اشتركت أنا وزوجتي في حملة جمع التوقيعات تأييداً للطلبة . وحينما كتب الدكتور فؤاد زكريا بيانه (الذي كان شهيراً

آنذاك) كنت أنا وزوجتي أول الموقعين عليه . وقد ظن رئيس الجامعة آنذاك (الدكتور فتحي غانم رحمه الله) أنني المستول عن البيان (وهو شرف لم أستحقه) . فاستدعاني إلى مكتبه ، وأخذ يعنفني لأنني تسببت في إغلاق الجامعة . فما كان مني إلا أن أخبرته بأن الجامعة المفتوحة في بلد محتل ، لا فائدة منها ، وأنه قد يكون من الواجب أن تغلق الجامعات لتحرير الأرض . نظر لي الدكتور غانم ولم يجب . ولكنه اعترف لي (وهو على فراش الموت في نيويورك في منتصف السبعينيات) أنه كان يتفق معي في كل كلمة قلتها .

و برغم بُعدي عن العمل السياسي إلا أنني حاولت الاقتراب من الطلبة آنذاك لأفهم ماذا يحدث . كنت أعمل آنذاك في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، وبدأت أدرك أن دراسة الصهيونية هي مصري . ولذا كنت أشير للمركز بأنه «العمل» ، أما كلية البنات والآداب فكانت أشير لهما «بالبارفان» ، أي العطور . فمحاضراتي لم تكن تشكل عبئاً كبيراً عليّ ، كما أن الفتيات كنّ على قدر كبير من الذكاء والجمال والأناقة (أو هكذا كنت أنصوّر) مما كان يدخل النعمة على قلب شاب / رجل في منتصف الثلاثينيات من عمره . وفي يوم من أيام الإضرابات ذهبت إلى غرفة المحاضرات (في كلية الآداب) لإلقاء محاضراتي ، وإذا بأحدى الجميلات / الدلوعات تجري ورائي ، وجهها كان مغطى بكم من المساحيق المختلطة ، إذ يبدو أنها كانت في إحدى المظاهرات وتصب عرقها وأفسد الماكياج . ثم قالت : "ألا تعرف أن هناك مظاهرة يا دكتور ، وتريد أن تعطي محاضرة؟" خجلت من نفسي ، وتجمعت لما تفعله اللحظة التاريخية بالناس . ومررت على أحد المدرجات التي كان المتظاهرون يجتمعون فيها وجلست أستمع إلى كلمات المتحدثين ، فوجدت الخطاب ساذجاً للغاية . فذهبت إلى "زعيم" الطلبة وأخبرته بملاحظتي فأخبرني بأنه يعلم ذلك تماماً ، ولكنه يرى أنه أمر منطقي بعد مرور عدة سنوات أبعد فيها الشعب عن المشاركة السياسية ، ثم أضاف إن الهدف من عقد الاجتماعات السياسية في المدرج هو إعادة تدريب الشباب على المشاركة وعلى الحوار وعلى الحديث ، وإن سذاجة الخطاب ستزول بالتدرج . عجبت من ذكائه وإفراكه ، ومقدرته على أن يجمع بين التحليل النظري الراقي والممارسة الفعلية .

كما أنني أشارك في كثير من المؤتمرات الجماهيرية ذات الانحاء السياسي ، وأظهر في كثير من البرامج الإذاعية والتلفزيونية (داخل وخارج مصر) التي أعبر فيها عن رأيي (والذي كلفني الكثير أحياناً) . كما أنني أعدّ جهودي النظرية ، سواء في تعريف الصهيونية أو التعريف بالخصارة الغربية وإشكالية التحيز ، بل وأدب الأطفال ، هي كلها أفعالاً حضارية ذات معنى سياسي .

وقد اشتركت في الجهود الرامية إلى إيقاف التطبيع ، وكنت عضواً في لجنة مناصرة الشعب الفلسطيني واللبناني ، وساهمت بمجهود لا بأس به فيها . وقد اشتركت أيضاً في كثير من

النشاطات السياسية إبان ثورة الأقصى ، كما شاركت زوجتي فيها بكل جوارحها ، حتى إنني كنت أقول مازحاً إنني حين أريد مقابلة زوجتي الآن فإنني أذهب إلى إحدى المظاهرات ! ومن قصص الممارسة السياسية الأخرى التي تستحق الذكر ، بسبب خصوصيتها وطرافتها ، ما حدث عام ١٩٨٢ حين بدأت محاولات التطبيع في مصر . إذ وصل قسم اللغة الإنجليزية بكلية البنات خطاب من وزارة الخارجية يطلب منه أن يقترح بعض الآليات لتوطيد العلاقة بالجامعات الإسرائيلية وبالأقسام الماثلة . وبطبيعة الحال أعددت اقتراحاً بأن ترد رداً قاطعاً على وزارة الخارجية نرفض فيه التطبيع ونستنكر كذا وكذا ... إلخ . ولكنني فوجئت بأعضاء القسم يقولون لنكتب : «عَلِم» وكفى . فابتسمت لأنها طريقة بيروقراطية رائجة لقتل كل شيء . وقد ظهر فيما بعد أن معظم الجهات الحكومية التي ورد إليها مثل هذا الخطاب ردت بنفس الطريقة الرائجة . وباله من أسلوب مصري عريق في النضال .

وبرغم أن إسهامي في عالم السياسة هو بالدرجة الأولى إسهام فلسفي معرفي يهدف إلى تعريف الظواهر والمصطلحات بحسبان ذلك أمراً ضرورياً لا بد أن يسبق الممارسة العملية لإنني أحاول قدر استطاعتي أن أعلن موقفي من قضايا سياسية مباشرة مثل التطبيع وأوسلو والسوق الشرفي أوسطية .

ولابد أن أشير إلى أن لي علاقة ببعض الشخصيات التي تؤدي دوراً مهماً في الحياة السياسية العامة . فقد تعرفت على الدكتور أسامة الباز في الولايات المتحدة في السبعينات حينما كنا نشيطين معاً في العمل الطلابي . وحين عدت إلى مصر عام ١٩٦٩ قامت صداقة حميمة بيننا ، كان لها انعكاساتها الفكرية . وحين طلب مني أن أفكر في التخصص في دراسة الصهيونية وأن أصنع خبيراً في وزارة الإرشاد في مكتب الوزير (كان الأستاذ هيكल قد عُيِّن وزيراً لفترة قصيرة) ، أخبرته ببعض تحفظاتي بخصوص بعض الممارسات الناصرية ، برغم حماسي لكثير من إنجازاتها (وقد ازدادت هذه الحماسة في السبعينات مع تجربة الانفتاح ومع تراجع الإحساس بالكرامة والمروية) . وقد أخبرته بأنني أجند نفسي محروماً من حقوقي السياسية بقرار رسمي ، في الوقت الذي كانت فيه صفوف المنظمات الناصرية ترخر بمرتزة لم يسمعوا قط بالاشتراكية (وهم في نهاية الأمر الذين "استمروا" في تأييد كل من وصل إلى كرسي الحكم بحماسة بالغة) . فقال د . أسامة : "يجب التفريق بين الدولة والحكومة ، وإن لم نخدم الدولة المصرية وقعت في يد اللصوص والأفاقين" . فافتنعت بوجهة النظر هذه .

قدمني الدكتور أسامة للأستاذ هيكل فقابلته في مكتبه في الوزارة . ومرة أخرى أخبرته بأنني لست ناصرياً ، ففوجئت به يخبرني بأن هذا لا يهم . ثم تحدثنا في شعر وولت ويتمان والحضارة الأمريكية والفلسفة ، فعُيِّنني في مكتب المستشارين التابع لمكتبه . وأذكر أنني ذكرت للأستاذ هيكل أن الموظفين في الوزارة قد حاروا في وما وظيفتي على وجه التحديد ، وما مكاني

على وجه الدقة (وهذا يتحدد بطبيعة الحال بمدى قربي من ، أو بُعدي عن ، السيد الوزير) . وقد تفهم الأستاذ هيكل وضعي ، فكان يدعوني إلى مكتبه مرة في الأسبوع و ندخن السيجار سوياً ونحدث في الفلسفة والشعر ، مما كان يرفع أسهمي في الوزارة بقية الأسبوع ا وكنت أدرس للحصول على الماجستير في علم الاجتماع من الجامعة الأمريكية ، فقرر أن يحضر معي أحد المقررات ، وكان عن تاريخ مصر (وقد تناقلت وكالات الأنباء الخبر وحاولت تفسيره بطريقة إستراتيجية عميقة ا) .

وقد تحددت علاقتي بالأستاذ هيكل منذ البداية حتى الآن ، على أنها علاقة فكرية وشخصية عميقة تتجاوز الاعتبارات السياسية . ومنذ أن عرفت الأستاذ هيكل ، كان من الكرم بحيث إنه يعطيني من وقته الكثير ، فكان يقرأ معظم ما أكتب ويحاورني فيه ويتحسس لبعضه ويحفظ على البعض الآخر . أذكر أنني كتبت مجموعة من المقالات عن الوضع الحضاري في الولايات المتحدة (التي جمعت في كتاب القردوس الأرضي) قرأها وعبر عن إعجابه بها ثم قال : "مع هذا سأخذ موقفاً مضاداً" . وبدأ يطرح وجهة النظر المضادة وأخذ يحاورني بطريقة أرفقتني جداً ، فقد كان قادراً على أن يبين مواطن القوة في الأطروحة المضادة ومواطن الضعف فيما أ طرح من أفكار (ولعل مقدورته على محاورتي بخصوص هذا الموضوع تعود إلى شكره هو نفسه ، بحسبانه قوماً عربياً ، بخصوص الحداثة الغربية المنفصلة عن القنعة والذاكرة التاريخية والتي لا تعترف بالخصوصيات القومية والتي انتهت بعولمة غربية تود اكتساح العالم) . ولا أعتقد أنني كنت سأجد من يوافق على نشر دراسة بعنوان "صهيون الجديدة في الولايات المتحدة" إلا الأستاذ هيكل . ومن يمكنه العلمانية أو مقال بعنوان "صهيون الجديدة في الولايات المتحدة" (في أوائل السبعينيات) ويتبأ بالسقوط الخفيف في عبارة واحدة : "إن مشكلة الاتحاد السوفيتي أنهم قد فقدوا الحلم" ، وهي عبارة وجيزة تعني في واقع الأمر أن من لا مشروع حضاري له يتقدم بخطى حثيثة إلى مزيلة التاريخ .

أذكر مرة ، حينما كنت في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ، أن تقدم أحد الباحثين بدراسة عن المجتمع الصهيوني ، فطلب مني فحصها وتقييمها (وكان هذا الطلب أمراً نادراً للغاية) . وقد وجدت أنها دراسة معلوماتية توثيقية رديئة للغاية ، لا يوجد فيها أي كشف جديد . فعلى سبيل المثال ، بدأ السيد الباحث دراسته بذكر حقيقة جديدة تماماً وهي أن التيارات السياسية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : يمين ويسار ووسط . وحيث إنها معلومة جديدة خلافية ، فقد ذكر السيد الباحث عدة مراجع في الهامش ! عقد الاجتماع بعد الظهر لمناقشة الكتاب في المركز ، وإذ بنا نفاجاً بالأستاذ هيكل يحضر المناقشة . فلم أدر ماذا أفعل . فمن ناحية كان لابد أن أدافع عن سمعة المركز أمام رئيس مجلس الإدارة ، ومن ناحية أخرى ، هاك الأمانة العلمية وضرورة أن أصدر حكماً يرضى عنه ضميري العلمي . فأخذت أقول عبارات بلهاء مثل "هذه

الدراسة العظيمة التي لا تستحق النشر ... وهذا البحث العميق الذي لم يأت بجديد ... إلخ". وبعد انتهاء الجلسة ذهبت إلى مكتبي، قرن جرس التليفون، وكان الأستاذ هيكل، الذي طلب مني أن أحضر إلى مكتبه. وبادرني بالسؤال التالي: "ماذا تريد أن تقول؟". فضحكت وقلت له: "إن الدراسة سيئة للغاية ولا تستحق النشر، ولكن نظراً لوجودك، وأنت صاحب العمل، حاولت أن أغلف كلامي، ومن الواضح أنني فشلت فشلاً ذريعاً!".

ذكرت من قبل أن علاقتي بالأستاذ هيكل كانت "غير سياسية". ومع هذا لا بد من ذكر هاتين الواقعتين. في عام ١٩٧٣، دعاني مرة ل طعام الغداء في منزله. وكان الجو حاراً للغاية، فجلسنا في التكييف، وتحدثنا في كل شيء كعادتنا، إلى أن سألته عن سر ارتباطه الشديد بعبد الناصر. وفجأة انقلب الصحفي والسياسي إلى شاعر غنائي، فقد تدفقت منه الكلمات قصائد: كيف أن عبد الناصر كان بالنسبة لمصر هو المستقبل وهو التنمية المستقلة، وكيف أن العروبة من الممكن أن تعطي لهذه المنطقة هوية حصارية وثقلاً إستراتيجياً، يجعلها تواجه عالم التكتلات الكبرى هذا.

وبعد أن خرج من مؤسسة الأهرام، أذكر أنه اتصل بي وطلب أن أصحبه إلى بيته الريفي في برقاش (وكانت هي المرة الوحيدة التي يفعل فيها ذلك، فأنا دائماً الذي أطلب مقابلته). وجلسنا وتحدثنا كعادتنا في كل شيء، ولكنه أراد ذلك اليوم أن يتحدث في السياسة بشكل مباشر. وقد لخص موقفه بأنه أمران اثنان (وعد على أصابع يده): العدل الاجتماعي في الداخل وعدم الاستسلام للولايات المتحدة في الخارج (أما "إسقاط" أمريكا - كما أكد هو - فهذا ليس من مهام حركات التحرر في العالم الثالث).

وعلى الرغم من ارتباطي "غير السياسي" بالأستاذ هيكل، فإنني، بينما كنت أعمل مستشاراً له حينما كان وزيراً، وبعد أن قبلت مصر مبادرة روجرز، وجدت نفسي مع أحد الزعماء الفلسطينيين (ولست في حلٍّ من ذكر اسمه). ودار حديث بيننا أوضح له فيه وجهة النظر المصرية. فالحكومة كانت تعرف أن القوات المسلحة المصرية أبليت بلاءً حسناً إبّان حرب الاستنزاف ولكنها كانت تعرف أيضاً أنها نال منها الإرهاق، وكان المطلوب أن تلتقط أنفاسها. كما أن القيادة المصرية أرادت أن تحرك الصواريخ إلى شاطئ القناة لتحمي القوات المصرية (إعداداً للعبور). وكان من رأي القيادة المصرية أن تتحرك منظمة التحرير الفلسطينية كما تشاء، شريطة ألا تهاجم مصر. فمصر دولة، أما المنظمة فهي حركة فدائية، ولكلٍ منهما حدوده وحركياته المستقلة. فوجدت أن الزعيم الفلسطيني موافق على رأيي إلى حدٍّ كبير، ولكنه أضاف أنه لا يمكنه أن يعلن ذلك لأنه "لا يمكنه التحكم في الخيّمات". إذ يبدو أنه تم شحن مكان الخيّمات بطريقة لا عقلانية تجعل من المستحيل توجيههم بطريقة عقلانية. وقد ذهلت من رده، ثم كان ما كان من هجوم على مصر، وأيلول الأسود والمذابح التي لا يريد أحد ذكرها أو تذكرها.

وفي نفس الوقت تقريباً حدثت هذه الواقعة . إذ يبدو أن القيادة السياسية في مصر آنذاك وجدت نفسها معزولة إلى حد كبير عن الرأي العام ولا تعرف عنه شيئاً . فطلب الأستاذ هيكل من هيئة المستشارين أن يفعلوا شيئاً . واكتشفنا أن هناك ما يُسمى الإعلام الداخلي ، وكان من مهامه أن يكتب الموظف المسئول فيه تقريراً عن الرأي العام (ولذا كان هذا الموظف يُسمى "مسئول الرأي العام") ، وكان المفروض أن جماع هذه التقارير يعطي الحكومة فكرة لا بأس بها عن نبض الشارع . ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، إذ إن مسئول الرأي العام كان يتلقى تعليماته من السيد المحافظ الذي كان يطلب منه كتابة تقارير وردية . وقد تكرر هذا الوضع حتى أصبح هو القاعدة وليس الاستثناء . وقد قرر الأستاذ تحسين بشير (وكان في مكتب مستشار السيد وزير الإعلام) أن تكون هذه هي النقطة التي نتاولها في تقريرنا للسيد وزير الإرشاد على أمل أن ننجح في توسيع قنوات الاتصال بين القاعدة الجماهيرية والقيادة السياسية . ومبادرة مني ، بدأت أضع السؤال التالي لمسئولي الرأي العام لاختبار مدى مصداقيتهم : ما موقف الشعب الآن من الخبراء السوفيت ؟ وكنت أعرف من تجربتي أن هناك كراهية عميقة نحو هؤلاء الخبراء بدأت تضرب بجذورها ، ولا أخفي حتى الآن ما السبب إذ كنت من المتحمسين للاتحاد السوفيتي وأعرف (كما يعرف غيري) أن وجودهم كان أساساً لإعادة بناء القوات المسلحة وحماية مصر من الطيران الإسرائيلي .

وفي البداية كانت الإجابة تأتيني عبارة عن صيغ لفظية جاهزة : "إن العمال والفلاحين المصريين ، وكل طبقات الشعب الكادحة ، تقف صفاً واحداً ضد العدوان الصهيوني ، وهي تعرف تماماً الدور الإيجابي الذي يلعبه الخبراء السوفيت ... إلخ" . وهي قوالب لفظية شاعت بين محترفي السياسة والثقافة آنذاك . وكنت لاحظ أنه بعد الهجمة اللفظية الأولى ، أن الموظفين المسئولين عن تقرير الرأي العام ، بحكمة المصريين وفهمهم العميق ، كانوا يتوقفون قليلاً ويسألوننا عما إذا كنا نريد الحقيقة أم الخط السائد ، فكانوا يؤكد لهم أننا نريد الحقيقة ولا شيء غيرها وأن عليهم ألا يخشوا شيئاً . فكان المسئول يخبرنا حينذاك بمسألة الرقابة التي يفرضها المحافظ عليه ، وأن ما يكتبه ينافي الحقيقة ويتفق مع القوالب اللفظية السائدة .

قابلت كثيراً من مسئولِي الرأي العام ، وكنت أضع لهم السؤال السابق ، وفي جميع الحالات حدثت الهجمة اللفظية ثم التراجع عنها ، إلا في الحلة الكبرى حيث أصر مسئول الرأي العام هناك على قوالبه اللفظية ولم يتزحزح عنها . وهنا أشار لنا أحد الثبان وهمس في أذني إن هذا المسئول له صلات قوية بالجهات المستولة !

لم أعر الأمر أي انتباه ، إلى أن سألتني د . أسامة الباز بعد أسبوعين تقريباً عما قلته في الحلة الكبرى ، فلم أتذكر سوى ما ذكرته ، لأن هذا هو الذي حدث بالفعل . واكتشفت فيما بعد أن سؤال د . أسامة الباز لم يكن مجرد سؤال ، إنما هو تحقيق غير رسمي يجري معي ومع الأستاذ

تحسين بشير . إذ يبدو أن هذا المسئول عن الرأي العام كان على علاقة بالأستاذ سامي شرف الذي أبلغ أحد المسئولين في السفارة السوفيتية عن "رجالات هيكل" وعلى رأسهم تحسين بشير الذين نزلوا إلى الشارع المصري لتأليه ضد الخبراء السوفيت . وأبلغت الرسالة إلى الكرملين في نفس اليوم . وكان هناك اجتماع سيعقد بين الوفد المصري (برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر وعضوية الأستاذ هيكل) والوفد السوفيتي (برئاسة بودجورني ، رئيس الاتحاد السوفيتي آنذاك وعضوية آخرين من بينهم وزير الخارجية) . وكان الاجتماع بخصوص قبول مصر لمبادرة وروحز . وبدأ الاجتماع بالإشارة إلى "رجالات هيكل" (تحسين بشير وعبد الوهاب المسيري) وتأليهم للشعب المصري ضد الخبراء السوفيت . ويبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر قد تضابق قليلاً ، ومن هنا جاء "التحقيق" غير الرسمي الذي أجراه د. أسامة . ولكنه حينما وجه السؤال إلى الأستاذ تحسين بشير بخصوص ما حدث في المحلة الكبرى ، كانت إجابته أن ما يثير دهشته ليس ما قاله هو أو ما قلته أنا ، وإنما وصول ما حدث في المحلة الكبرى إلى الكرملين في نفس اليوم أي أنه قلب الموايد وجعل أجندة التحقيق مختلفة تماماً . وانتهت القضية بسلام . المهم أنه حينما كانت الأحداث تدور من حولي كنت لا أعرف شيئاً عنها ، إذ حرص د. أسامة (والأستاذ هيكل) على ألا يزوج بي في معصعة السياسة . وقد أخبرني د. أسامة بالأحداث بعد مرورها بحوالي ثلاثة أعوام ، بعد وفاة الرئيس عبد الناصر ، وبعد قيام ما يُقال له الثورة التصحيحية في مايو عام ١٩٧٢ .

وقد تعرفت على بعض مستشاري الأمن القومي الأمريكي من بينهم وليام كواندت Wil-liam Quandt (وكان مستشاراً لكارتو لشئون الشرق الأوسط) وشخص يُسمى وليام شكسبير ، وكان أول مستشار للأمن القومي ليكيون في ولايته الأولى (لفترة وجيزة) . وقد اكتشفت أن بعضهم لا يعرف ما فيه الكفاية عن الشرق الأوسط وأن عقله مليء بالأساطير الشائعة عن "العرب واليهود" . وأذكر أنني في حوار مع وليام شكسبير هذا أنه أخبرنا بأن اليابان تمثل ثلث الرأسمالية في العالم وأن الولايات المتحدة لن تسمح لأحد بالضغط عليها ، ومن هنا أهمية بتقول العرب . فسألته لم لا تتخذ الولايات المتحدة سياسة عادلة تجاه القضية الفلسطينية بسبب بتقول العرب المهم هذا ؟ ولماذا تتبع سياسة مماثلة لإسرائيل ، التي لا تعد الولايات المتحدة بأي بتقول ؟ وأردفت قائلاً : "إن هذا موقف لا يمكن تفسيره بشكل عقلاني" . فدُهِش الأستاذ وليام شكسبير مما قلت وكأنه كشف . وكان في طريقه لإسرائيل فأخبرته أنه حينما يذهب لإسرائيل يجب أن يسألهم عن حدود النولة التي يطلبونها : هل هي حدود سنة ١٩٤٨ أو حدود سنة ١٩٦٧ أو حدود ليس لها حدود ؟ ومرة أخرى دُهِش الأستاذ وليام شكسبير ، وقال إن هذه وجهة نظر تستحق التأمل ، ووعد بأن يسأل المسئولين الإسرائيليين عند وصوله هناك . ولا أدري هل كان يقول هذا من قبيل الأدب والكياسة أو أن دهشته كانت حقيقية .

على كلٍ مهما كان الأمر ، يبدو أن المعرفة لا تؤثر كثيراً في السلوك الأمريكي . فوليام كوانت يعرف كل شيء عن الشرق الأوسط ، فهو متخصص فيه . وفي لقائي معه (في جامعة فيلادلفيا حيث كان يقوم بالتدريس) وجدت أنني أتفق معه في كل شيء ، ومع هذا حينما عُنِ مسئاراً للأمن القومي لشئون الشرق الأوسط لم تختلف سياسة الولايات المتحدة في هذه المنطقة عما كانت عليه من قبل . فالثوابت الإستراتيجية لا يغير منها فهم أو سوء فهم المستشارين ، ومدى تعاطفهم مع العرب أو عدائهم لهم .

ولعل لقائي مع سفير الولايات المتحدة في مصر عام ١٩٦٣ (حين عقد حفل توديع للطلبة الحاصلين على منحة فولبرايت) يوضح هذه النقطة تماماً . كان السفير (وبدعي جون بادو) يتكلم بالعامية المصرية بطلاقة وكأنه غثال في متحف الشمع (لأن كلامه كان آلياً بشكل مضحك ، فمثلاً كان يخبرنا بما يجب أن نتوقعه من انخفاض في درجات الحرارة فقال : "والله والله الدنيا برد خالص" ، ثم أخذ يكرر الجملة ويغلظ الأيمان ، ولعل هذا هو تصوّره للعامية المصرية . ويبدو أنه تعلم العامية المصرية ، حين كان والداه يعملان في إحدى الإرساليات التبشيرية في أسيرط ، حيث يوجد تجمع قبلي كبير . (ولا يعلم الكثيرون أن الحملات التبشيرية البروتستانتية كانت موجهة أساساً إلى أقباط مصر حتى يخرجوا من كنيستهم القومية) .

بعد تبادل التحيات البروتوكولية المعتادة مع السيد السفير ، قلت له إن الولايات المتحدة تحاول أن تأخذ موقفاً عادلاً من القضية الفلسطينية ، وهو أمر تحمد عليه ، إلا أنه مستحيل ، لأن إسرائيل لا يمكنها البقاء دون الدعم الأمريكي ، وبقاء إسرائيل في حد ذاته ظلم للفلسطينيين لأنه يعني تشردهم وتكريس عملية سرقة وطنهم . ثم سأله لو تبلورت الأمور في العالم العربي ووصلت إلى درجة الاستقطاب بحيث كان على الولايات المتحدة أن تختار بين الدولة الصهيونية والدول العربية ، فماذا سيحدث إذن ؟ هل تختار الولايات المتحدة الجانب العربي أو الجانب الصهيوني ؟ والسؤال كان ساذجاً إلى حد ما ، ولكنه سؤال افتراضي يمكن أن يلقي الضوء على قضية مهمة . وكان رده دالاً إلى أقصى درجة ، إذ قال إن الولايات المتحدة تفضل أن تكون لها سياسات عربية بعدد الدول العربية [أي أنها تفضل عدم اتخاذ موقف متبلور ، وتجنب وضع التجزئة في العالم العربي حتى يمكنها إصدار تصريحات "متوازنة" ، دون اتخاذ أي إجراءات بطبيعة الحال] .

ومرت الأعوام وظلت الأمور كما هي . ففي عام ١٩٩٧ ، أي بعد حوالي ٣٤ سنة ، اختارني حزب العمل لأكون رئيساً لوفد لمقابلة السفير الأمريكي ، لأقدم له التوقيعات التي قام الحزب بجمعها احتجاجاً على ضربة أمريكية متوقعة ضد العراق (ولكن تم تفاديها في اللحظة الأخيرة) . وكان السفير مسافراً للأقصر (ولا ندري هل كان سفيراً دبلوماسياً أو حقيقياً ؟ ولم

الأقصر بالذات : هل كان تلويحاً أمريكياً بمقدرة هذه الدولة العظمى على أن تشير لنا المتاعب ؟
 . فقابلت مساعد السفير الذي كان شخصاً متعجرفاً للغاية فقبل مني التوقعات وقال : "أرسل
 بهذا الالتماس إلى وزارة الخارجية الأمريكية - I will send this petition to the State Depart-
 ment . فبهتته على الفور إلى إيساعته التصنيف ، وقلت له : "هذا ليس التماساً يا سعادة السفير
 بل هو مذكرة احتجاج ، وإن كنت تريد كلمة أكثر حيادية فليقل إنها "مانيفستو" ، ولكنها ليست
 التماساً على وجه التأكيد This is not a petition, your Excellency, but a note of
 protest. If you want a more neutral term, you can call it "a manifesto"; but a peti-
 tion it is not"

ثم بدأنا حواراً قصيراً سألته فيه نفس السؤال الذي طرحته على السفير جون بادو منذ عدة
 سنين وإن كان بطريقة جديدة . لماذا تكيل الولايات المتحدة بمكيالين ؟ ولم هذا الاهتمام الشديد
 بأسلحة "الدمار الشامل" في العراق ، على حين يعرف الجميع ، بما في ذلك الولايات المتحدة ، أن
 إسرائيل تملك ترسانة من الأسلحة النووية ؟ وكان الرد دبلوماسياً إذ قال السيد مساعد السفير
 إنه سيحرص على إبلاغ وجهة النظر هذه لوزارة الخارجية !

وقد تعرفت على الأستاذ خالد الحسن ، أحد مؤسسي منظمة فتح وزعمائها (بعد أن قدمني
 له ابنه سعيد الحسن) . وقد قضيت ليلة معه في الكويت ، ووجدت نفسي في حضرة إنسان
 مفكر ، القضية الفلسطينية بالنسبة له ليست مجرد قضية وطنية أو حتى قومية ، وإنما قضية
 مرتبطة برؤية للكون ورغبة في تطوير مشروع حضاري مستقل . ومنذ لقائنا هذا ، كنت دائم
 التردد عليه وعلى كل أعضاء الأسرة (في المغرب والأردن) كلما ستحت الفرصة . وحينما حل
 به مرضه الأخير ، احتفظ بشباته وصموده ومقدراته الفكرية وقدرته على الدعاية حتى آخر لحظة .
 وحينما انتهت من الموسوعة أخذت النسخة الأولى منها معي وأعطيتها إياه في المستشفى .
 وبعد أسابيع ، رحل عنا تاركاً ما ترك من فراخ . وقد عقدت حفلاً لتأبينه بعد رحيله عنا بعام ،
 حضره الكثير من رموز مصر الفكرية والسياسية من الحكومة والمعارضة . وقد أهديت له
 الموسوعة في هذه الكلمات :

"كان يوماً عابفاً برائحة التاريخ والأزلية .

حَلَمْتُ أنني أسير في حقول الشمس ، رائحته الطيبة تمسني مساً ونوراته البيضاء تحوم
 من حولي كفراشات نورانية . وحينما استيقظت كان الفرح يسري في كياني .

وفي الصباح أخبرني صديقي أننا سنذهب إلى عزاء شهيد فلسطيني : حصده الرصاص
 وهو يحاول أن يعبر السلك الشائك ليعود للأرض . كان منزل الشهيد على قمة تل من تلال
 عمّان ، والطريق المؤدي له محاط بأشجار الشمس - رأيت نوراته البيضاء وشملت رائحته .
 وحينما دخلت المنزل لم أسمع بكاء ولم أر علامة من علامات الحزن ، بل وجدتهم يوزعون

الخلوى ويتقبلون التهاني ويقولون : "إن شاء الله في البلاد" . وكان الجميع يتحدث عن الفداء والتضحية .

جاء مجلسي إلى جوار عجوز من أتباع الشيخ عز الدين القسام (رحمه الله) قال "كنا نعلم تمام العلم أن أسلحتنا العثمانية عتيقة ، وأنا كلما اشتبكنا مع الصهاينة والإنجليز فإنهم يحصلوننا برصاصهم ، كما فعلوا مع ابننا الشهيد . ومع هذا كنا ننزل كل ليلة من قرانا كي ننازلهم" . فسألته : "لم؟" صمت العجوز قليلاً ثم تحرك كأنه جبل قديم من جبال فلسطين ، وقال : "حتى لا ننسى الأرض والبلاد .. حتى لا ينسى أحد الوطن" .

وفي المساء زرت أبا سعيد ، خالد الحسن . كان في مرضه الأخير ، ولكنه كعادته كان مناسكاً لا يتحدث إلا عن الصمود ، وعن الوطن السليب ، وعن العودة إلى الأرض ، إلى البلاد . وكانت معي أولى نسخ هذه الموسوعة فأعطيته له ، فأمسك أحد المجلدات وابتسم .

حين خرجت من المستشفى تسألت : "هل تموت الفروسية بموت الفارس؟ هل تموت البطولة باستشهاد البطل؟ وهل يخفي الصمود إن رحل بعض الصامدين؟" ثم تذكرت كلمات العجوز في فرح الشهيد . حينئذ عرفت الإجابة ، فسرى الفرح في كباني .

إلى أبي سعيد ، رحمه الله ،

وكل من صمد ،

وكل من سيصمد بإذن الله" .

وكانت تربطني بالرئيس علي عزت بيجوفيتش ، رئيس البوسنة ، وابطلة فكرية عميقة . فقد قرأت كتابه الإسلام بين الشرق والغرب ، وأدركت أنني أمام عمل فكري متكامل من الطراز الأول ، فهو يقدم تحليلاً عميقاً للحضارة الغربية . وحين حضر إلى القاهرة عام ١٩٩٥ عقدت على شرفه حفلاً حضره بعض المثقفين المصريين وأجاب عن أسئلتهم بطريقة تبين مدى اتساع ثقافته . ولكنه قال إنه ترك الثقافة منذ مدة طويلة ، لأنه أصبح مشغولاً بأمور أخرى سياسية مباشرة ، مثل توفير السلاح للمجاهدين البوسنيين الذين يحاولون إثبات أن التهام أهل البوسنة ليس بالأمر السهل ولا يمكن أن يتم في عدة أيام (كما كان يتصور الصرب وأوروبا من خلفهم ، التي كانت على أتم استعداد لأن تقيم مأتماً لإحياء ذكرى البوسنيين بعد إبادةهم !) . وعبد هذه اللحظة بكى علي عزت بيجوفيتش ، ومسح الدموع من عينيه واستمر في الحديث مبتسماً .

وقد تعرفت كذلك على الدكتور أنور إبراهيم ، نائب رئيس وزراء ماليزيا ووزير ماليتها السابق . وقد سمعني ألقى كلمة قصيرة في إحدى الحفلات ، فجاءني بعدها وطلب مني المكرث بعض الوقت في ماليزيا . ولكنني أخبرته بأن حفل زفاف ابني سيعقد بعد عدة أيام ، ولذا كان علي أن أسارع بالعودة إلى مصر ، فأعقدني قميصاً حريراً جميلاً من ماليزيا . وعندما زرت ماليزيا بعد عدة أعوام (عام ١٩٩٥) ذهبت للقاءه ودار حوار بيننا ، فشرحت له نظرية

الجماعات الوظيفية (التي سأتناولها بالتفصيل في الفصل الذي يحمل ذلك العنوان) ، وكيف أنها يمكن استخدامها كنموذج لتفسير وضع الصينيين في بلادهم . وقد تركت نظريتي انطباعاً جيداً عليه ، وأبدى تفهماً عميقاً لها ، بل قام باستخدامها على الفور في تفسير بعض الظواهر الخاصة بالجمتمع الماليزي ، وكان تطبيقه للنظرية ينم عن استيعاب كامل لها برغم أنني شرحتها له في عدة دقائق .

ثم تحدثنا عن مدرسة فرانكفورت ، وأخبرته بأنها في تصوري خير نقد للعلمانية الشاملة والنسبية من داخل المنظومة . فأشار إلي كارل مانهايم ، وسأل : هل يمكن تصنيفه هو الآخر بنفس الطريقة ؟ وتحدثنا بعد ذلك عن ماكس فيبر وإشكالية أصول الرأسمالية . باختصار كان الحديث متنوعاً وعميقاً ، ينم عن عقلية مثقفة من الدرجة الأولى ، واعتقد أن بلده خسرت الكثير بإقالته والتشهير به .

ومن الطرائف التي يجب أن أذكرها ، أنه في صباي نشأت صداقة بيني وبين فتى من جزر محلديب (مالديف الآن) كان يدرس في الأزهر ، وتوطدت أواصر الصداقة بيننا فكان يزورني في دمنهور وكنت أزوره في القاهرة ، وتبادلنا الرسائل بعض الوقت ، إلى أن توقفت المراسلات بيننا ، ربما بسبب الخدمة البريدية . ومرة كنت أجلس أمام التلفزيون في السعودية ، وقيل إن رئيس جمهورية مالديف يقوم بزيارتها ، فقلت أنا لا أعرف سوى شخص واحد يُسمى مأمون عبد القيوم من هذا البلد ، ولعله هو رئيس الجمهورية . وبالفعل كان الأمر كذلك وكنت له رسالة أرسلتها مع بعض تلاميذي . فاتصل تليفونياً بي وجددنا الصداقة ، وأنوي إن شاء الله زيارته في المستقبل القريب بعد أن انتهيت من الموسوعة التي استغرقت معظم شبابي !

علاقتي بالصهيونية

بينما كانت رؤيتي الفكرية ونماذجي التحليلية تشكلان كانت الصهيونية قد بدأت تتحول إلى الانشغال الفكري والسياسي الأساسي في حياتي . ولعله قد حان الوقت لأن أتعامل معها وعلاقتي بها . ونقطة البدء هنا ليست خلافية على الإطلاق بل محددة تماماً . حينما كنت طفلاً في دمنهور كنا نسمع عن مولد "سيدي أبي حصيرة" (الولي اليهودي) في قرية مجاورة ، وكنا نذهب أحياناً لحضور ذلك المولد الذي كان لا يختلف كثيراً عن أي مولد آخر . ولا أذكر من تفاصيله شيئاً وإن كنت لا أتذكر أي مشكلات قد أثّرت آنذاك . وكان يجلس إلى جواربي في القمطر (التختة) موريث داود مالح ، وهو يهودي (ومن اسمه أعرف الآن أنه سفاردي ومن اليهود المستعربة) ولم يختلف عنا في أي شيء ، ويعيش وسطنا ولذا لم تكن هناك لديه أي "مسألة يهودية" (أو هكذا كنا ننصرون) . وقد عرفت من عمي أن والده كان رئيس الجماعة اليهودية في دمنهور . كما أننا كنا أطفالاً ولم نكن ندرك بعد مسألة إسرائيل والمسألة الصهيونية

وقد أصبح موريث صيدلياً بعد ذلك ، وفتح صيدلية في مرسى مطروح . ثم ترك مصر عام ١٩٦٧ . ولا أدري هل ذهب إلى إسرائيل أو إلى فرنسا . وكان هناك شخصيات يهودية أخرى في حياتنا (مثل الخواجة داسا صاحب مصنع نسيج صغير في المنشية اشتراه والذي ، أو الخواجة هامبورجر صاحب مصنع الأمد للنسيج الذي اشتراه والذي أيضاً) . ولكن كل هؤلاء ظلوا شخصيات هامشية أو عادية لا تطرح أي إشكاليات فهم لم يكونوا سوى خواجهات أو أجاب (شأنهم في هذا شأن كثير من يهود مصر) . لا يختلفون عن غيرهم من الرأسماليين الأجانب المقيمين في مصر ، والذين رحلوا عنها بوصول عبد الناصر إلى الحكم واتباع سياسة التمهيد الاقتصادية والسياسة .

ونفس الشيء ينطبق على "مسيو كوهين" أحد المهندسين العاملين في مصنع كابر وكان صديقاً لوالدي وللعائلة ، فكان يدعونا لقضاء بعض الوقت في فيلا أنيقة يمتلكها في قرية المعدي بجوار رشيد . وكان ينوي الاشتراك مع والذي في بناء مصنع في دمنهور ، ولكنه بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢ عرف أنه لا مستقبل له في مصر ، خاصة بعد أن وقعت حادثة التخريب التي أصبحت تُعرف باسم حادثة لاقون . وقد بكى الخواجة كوهين طويلاً حينما سمع بالحادثة وبالقبح على مجموعة من الشبان اليهود المتهمين بارتكابه ، لأنه كان متأكداً من براءتهم (فلم يكن يتصور أن الدولة اليهودية ستلعب بمصابير اليهود بهذه الطريقة) . وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن البراءة . وقد أوردت ما يلي في كتاب *أرض الوعد* The Land of Promise (الذي صدر بالإنجليزية في الولايات المتحدة عام ١٩٧٧) :

"نظمت الوكالة اليهودية عمليات تجسس في العالم العربي ، فكانت تقوم بتجنيد العملاء الصهاينة من بين صفوف اليهود العرب . ففي العشرينيات . كانت الوكالة اليهودية شبكة تجسس كان لها فروع في العالم العربي تعمل سرّاً تحت ستار تظاهرات شرعية ، مثل الأندية المكابية أو المنظمات الخيرية اليهودية الكثيرة . وفي الثلاثينات أنشأت الهاجاناه قسماً للمخابرات برئاسة موشي (شبرتوك) شاريت (١٨٩٤ - ١٩٦٥) وأنشأت المخابرات الإسرائيلية (الموساد) سنة ١٩٤٧ مركزاً لتدريب اليهود العرب على القيام بأعمال التجسس على سواحلهم . وأطلق على هؤلاء الجواسيس اسم «الأولاد العرب» [هت إيهود باراك هذا التنظيم في الثلاثينيات تحت اسم «المستعمرون»] .

"وفي أعقاب قيام دولة إسرائيل ، استمرت دون عائق عملية تجنيد اليهود العرب للقيام بأعمال التجسس . وتخبرنا الموسوعة اليهودية (جودايكا) بأنه كانت هناك حركة صهيونية سرية على درجة عالية من التطور في مصر ، وكانت تعمل في خدمة الصهيونية [وهذه أكذوبة كبرى مثل كثير من الأكاذيب الصهيونية الأخرى التي تهدف إلى تضخيم القوة الصهيونية] . وكان من الشخصيات البارزة في هذه الحركة المواطن المصري / اليهودي موشي مرزوق الذي ولد

في القاهرة سنة ١٩٢٦ . وجاء في الموسوعة اليهودية أنه بدلاً من أن يرتبط الدكتور مرزوق ببلاده ، فإنه كان على اقتناع بأن مستقبل جميع اليهود المصريين يكمن في الهجرة إلى أرض إسرائيل التاريخية . ونتيجة لهذا ، فإنه كرس حياته ، لا للدفاع عن البلد الذي ولد وتربى فيه ، بل لتحقيق الأهداف الصهيونية . فقام بتجنيد اليهود الشبان ، لينهبوا إلى إسرائيل . وكان باستطاعته هو نفسه أن يغادر البلاد ، إلا أنه قرر أن يبقى في وظيفته بالمستشفى اليهودي بالقاهرة وأن يعمل من أجل إسرائيل . وكان من أصدقاء مرزوق شخص يدعى صمويل عزار من مواليد الإسكندرية حصل على منحة للدراسة الهندسة الإلكترونية في الخارج . لكنه اختار (هو الآخر) - كما فعل مرزوق - أن يبقى في مصر ويؤدي مهمته .

”ومن أسوأ الداهم، المشبوهة التي قام بها الصهاينة سراً في مصر تلك التي أصبحت معروفة باسم فضيحة لافون . ففي سنة ١٩٥٥ قام ١٣ يهودياً مصرياً - بناء على تعليمات من إسرائيل - بوضع متفجرات في مكتبة المركز الإعلامي الأمريكي في القاهرة ، وفي منشآت أخرى مملوكة لأمريكا وبريطانيا في القاهرة والإسكندرية . وكان الهدف من هذه الأعمال هو إيجاد حالة من التوتر في علاقات مصر مع هاتين الدولتين الغربيتين . وكما أوضح يوري أفسيري في كتابه إسرائيل دون صهاينة ، كان المقصود من هذا التوتر تمكين العناصر الاستعمارية الرجعية في البرلمان البريطاني «من منع إبرام اتفاقية تنص على الجلاء عن قواعد السويس وكذلك تقديم سلاح يستطيع استخدامه معارضو تسليح مصر في الولايات المتحدة» . ولكن قبل كل شيء ، كان الهدف من العمليات التخريبية هو إضعاف مظهر نظام الحكم الثوري الجديد في مصر ، وإظهار افتقاره إلى الاستقرار أمام العالم . وقد ألقى القبض على بعض العملاء الصهاينة متلبسين ، الأمر الذي أدى إلى القبض على جميع المشتركين في المؤامرة . وكان المقبوض عليهم هم ماكس بنيت زعيم الشبكة ، والدكتور مرزوق ، وصمويل عزار ، وعشرة آخرون . وفي أثناء المحاكمة ، تمكن اثنان من الهرب ، وانتحر ماكس بنيت . أما الباقيون ، فقد برئت ساحة النين ، وصدرت على سبعة أحكام بالسجن ، بينما صدر حكم بالإعدام على مرزوق وعزار اللذين كانا يتزعمان شبكتي القاهرة والإسكندرية . فقد وجهت إلى مرزوق تهمة تنظيم مجموعة القاهرة ، وبوضع ترتيبات الاتصال اللاسلكي مع إسرائيل ، بعد أن أمضى فترة تدريب هناك . أما عزار فقد اتهم بتزعم مجموعة الإسكندرية وإدارة مصنع سري لتصنيع أجهزة التخريب . وكان طبيعياً أن يتكرر في أعقاب المحاكمة نفس الاتهامين المعتادين عن معاداة العرب للسامية وعن المكابدة التي تدبرها للأبرياء . مثلما فعل الخواجة كوهين . ولكن تدور الأيام وتقوم الدولة الصهيونية بالاعتراف بتورطها ، بل وتمنح رتبة ميچور في الجيش الإسرائيلي لأسم الدكتور مرزوق بعد أن أعدته السلطات المصرية . كما أطلق عليه هو وعزار اسم «كيدوشاي كاهير» (أي شهيد القاهرة) . المهم في الموضوع أن الخواجة كوهين لم يهاجر إلى إسرائيل ، وإنما إلى أستراليا حيث

لا يزال يعيش هناك ، حسب آخر ما وصلنا من أخبار عنه ! وظلت دموع الخواجة كرهين مجرد علامات استمهام في مخيلتي تبحث عن إجابة .

ويمكن القول بأن علاقتي الحقيقية بالصهيونية بدأت عام ١٩٦٣ ، حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا في نيويورك للحصول على الماجستير في الأدب الإنجليزي والمقارن . كان عندي ساعتها مجموعة من الاقتناعات الراسخة من بينها أن إسرائيل (التي لم يكن من المسموح الإشارة إليها إلا بإضافة كلمة «الزعزعة») هي بلد تقطنه عصابات صهيونية يمكن للقوات العربية القضاء عليها في أي لحظة تقرر فيها ذلك . ولهذا ، قررت أن أتجاهل الموضوع برمته لأنه إذا كانت المسألة تافهة إلى هذا الحد ، فلماذا أشغل بالي بها ؟ لم نوقف التاريخ العربي بسبب شيء مزعوم غير حقيقي يمكننا اقتلعه تماماً والقضاء عليه حينما نقرر ذلك ؟ وكانت القضية الفلسطينية تقدم بحسبانها قضية لاجئين طردوا من ديارهم ولابد من إنصافهم . ولذا كان الحل ببساطة هو إعادة بعضهم لديارهم (خاصة وأن إسرائيل كانت ساعتها تعلن أنها لا تمنح في ذلك) وتوطين البعض الآخر في الوطن العربي . ثم يتحالف العمال والفلاحون الفلسطينيون مع العمال والفلاحين الإسرائيليين لمكافحة الاستغلال الطبقي وللإطاحة بكل النظم المستغلة في المنطقة (لا نفرق في هذا بين النظم العربية والنظام الصهيوني) ونؤسس مجتمعاً لا مكان فيه للطبقات أو الاستغلال . فاعتراضي على إسرائيل كان اعتراضاً أخلاقياً (بحسبانها الدولة التي طردت الفلسطينيين بحسبانها دولة رأسمالية مستغلة) وليس اعتراضاً سياسياً ومبدئياً (بحسبانها الدولة التي اغتصبت أرض الفلسطينيين وطردتهم من ديارهم لتحل محلهم كتلة بشرية وافدة ولنؤسس جيباً استيطانياً بشكل قاعدة للمصالح الغربية) .

هكذا كانت الأوضاع هادئة ومستقرة تماماً على الجبهة الصهيونية ، بل على كل الجبهات الأخرى في حياتي ، إلى أن شربت الشاي في ظهر يوم الثلاثاء في شهر أكتوبر سنة ١٩٦٣ في حفلة الشاي الأسبوعية التي كان قسم اللغة الإنجليزية يعقدها لطلبة الدراسات العليا ، وكانت تحضرها زوجة أحد الأساتذة ، وتقوم بصب الشاي لنا بنفسها ، وذلك في مبنى فيلسوفي هول Philosophy Hall (بهر الفلسفة) الذي كان يجلس أمامه تشال رودين "المفكر" . كنا نحن الطلبة نجلس على المقاعد الوثيرة أو نقف أو نتجول في الحديقة الصغيرة أمام المبنى نتحدث عن كل شيء أو أي شيء أو لا شيء ، وكان معظم الطلبة من الأرستقراطيين ، فأبواب جامعات مثل كولومبيا لم تكن قد فتحت أبوابها بعد لأعضاء الأقليات .

وكنت مرة منزوياً في ركن قصي وحيداً لا أتحدث مع أحد (فلم أكن بعد قد تملكيت ناصية فن البقاء في حفلات الشاي والكوكتيل ، وهو فن صعب ودقيق) حين جاءتني إحدى الزميلات ويبدو أنها هي الأخرى مثلي ، لم تكن تعرف كيف تسلك في هذا الوسط الأرستقراطي (الذي عرفت فيما بعد أنه waspush نسبة إلى WASP وهي اختصار لعبارة White Anglo-Saxon Prot-

Protestant أنجلو ساكسون بروتستانت ، أي أمريكي بروتستانت من أصل أنجلو ساكسوني ، أي إنجليزي أو ألماني أو نرويجي ... إلخ) . ومن هؤلاء الواجب كان يأتي كل رؤساء الجمهورية الأمريكية (إلى أن انتُخب كينيدي أول رئيس كاثوليكي) ، ومعظم مالكي الصناعات الثقيلة ومديري الشركات الكبرى ، أي أعضاء النخبة الحاكمة والمالكة .

بادرتني هذه الزميلة الحديث وأخبرتني بأننا الاثنين غير قادرين على التحرك ببساطة داخل هذا الوسط ، ولذا لم لا نتحدث معاً . فوافقتها على رأيها ، ثم بادرتني بالسؤال - كما هو الحال عادة في مثل هذه المناسبات والمواقف - عن اسمي وجنسيتي . فأخبرتني أنني فلان بن فلان وأنتي مصري . ثم سألتها بدوري عن اسمها وجنسيتها فقالت : ثلما برنشتين Thelma Bernstein (ليس اسمها الحقيقي) ، ثم أضافت إنها يهودية . فأعدت السؤال عليها ، قلت : لم أسألك عن ديانك وإنما سألتك عن جنسيتك ؟ فأصرت على أن جنسيتها «يهودية» . وحيث إنني كنت قد تعلمت من كتب السياسة وعلم الاجتماع أنهم يفصلون الدين عن الدولة في العالم الغربي ، أحسست أن ثمة خللاً ما في المصطلح ، وثمة قصوراً في الرؤية إما عندي وإما عندها . والقضايا الفكرية - كما أسلفت - تصبح دائماً بالنسبة لي قضايا وجودية شخصية . فكان لأبد من العثور على إجابة أو تفسير ، ولذا بدأت أقرأ بشراهة عن الصهيونية واليهودية واليهود والإسرائيليين ، وبدأت تظهر لي رؤية مختلفة تماماً عما نعرف . عرفت على سبيل المثال أن إسرائيل المزعومة ليست بمزعومة ، وأن الولايات المتحدة بل العالم الغربي بأسره يقف وراءها بشراهة غير عادية ، ويُعدونها خبر محتل للحضارة الغربية . وعرفت عن المساعدات التي تصب في الكيان الصهيوني «المزعوم» ، وعن برامج التدريب العسكرية والاجتماعية . وأخيراً عرفت أن الدولة الصهيونية قد أسست في فلسطين ، بوابة مصر الشرقية ، من يحتلها فإنه يمسك بمفاتيح مصر والشرق العربي ، وأن توطئ الصهيونية في فلسطين الغرض منه هو تحقيق هذا الهدف .

وقد عملت بعض الوقت في مكتب الجامعة العربية (في السبعينيات حينما كنت طالباً ، وفي السبعينيات حينما أصبحت عضواً في وفد جامعة الدول العربية لهيئة الأمم المتحدة) . كان الإعلام الغربي والصهيوني يستند إلى مجموعة من الأساطير الثقافية ، التي أصبحت اقتناعات أساسية في العالم الغربي . وكانت الصهيونية (آنذاك) تطرح نفسها على أنها حركة إنسانية لا تهدف إلى الاستيلاء على فلسطين (لا سمح الله) وإنما تريد أن توجد وطناً لليهود يلجئون إليه عند الحاجة ، وفي الوقت نفسه أن تأخذ بيد العرب . وكان الصهاينة يدعون أن المستوطنين لم يفتصبوا الأرض الفلسطينية ، وإنما اشتروها بحر مالهم ، وأن الفلسطينيين هم الذين تركوا أرضهم لا بسبب الإرهاب الصهيوني ، وإنما لأن القادة العرب هم الذين طلبوا منهم ترك أرضهم لحين تطهير فلسطين من اليهود وخنق الوليد الغض الديوقراطي (إسرائيل : الدولة الصغيرة التي تعيش مهددة دائماً من حيرانها) .

وكان الخط الرسمي للدعاية الصهيونية آنذاك إنكار مسئولية الصهاينة عن المذابح التي ارتكبت ضد العرب ، ولذا كانوا يؤكدون أن مذبحه دير ياسين هي الاستثناء وأن الهاجاءه "المعتدلة" استنكرت بكل قوة هذه العملية التي قام بها أعضاء الإرجون "المتطرفون" ، وكان تيودور هرتزل - مؤسس الحركة الصهيونية - يوصف بأنه كان كاتباً ليبرالياً يحاول ألا يؤذي أحداً وأن حديثه عن طرد العرب ينتمي للأيام الأولى الرومانسية من حياته قبل أن ينضج فلسفياً .

كنت أعرف زيف هذه الادعاءات ، لا من الكتب وحسب وإنما من تجربتي الخاصة ، فقد كنت أعرف أن العلاج لا يبيع أرضه ولا يتركها إلا تحت ظروف غير إنسانية ، وأن الصهيونية حركة تهدف إلى إحلال كتلة بشرية (يهودية) محل الكتلة البشرية الأصلية (الفلسطينية) ، وأن ماكس نوردو Max Nordau ، شريك هرتزل في تأسيس الحركة الصهيونية ، عرف لأول مرة بوجود الفلسطينيين في المؤتمر الصهيوني الأول ، فاندفع إلى هرتزل قائلاً : "لَمْ لَمْ تخبرني بوجود الفلسطينيين ؟" ، فطُِبَ هذا خاطره ، وأخبره بأن كل شيء سيتم تسويته فيما بعد . ونحن العرب نعرف "كيف يتم تسوية الأمر" والوسائل التي لا تزال تستخدم في ذلك .

كنت أعرف كذلك عن الخطاب الذي أرسله عالم الاجتماع اليهودي النمساوي لودفيج جومبلوفيتش Ludwig Gumplowicz إلى هرتزل ينهمه فيه بالسذاجة لتصوره أنه سيؤسس دولته الصهيونية دون اللجوء للعنف والغدر . وحين كنت في الولايات المتحدة قابلت فلسطينياً من ضحايا دير ياسين . كانت المرأة تأكله وهو يقص علي ما حدث له حينما كان طفلاً ، وكيف أرغم على الفرار مع أمه ، وكيف كانت طلفات الرصاص الصهيونية تصيب أقدامهم حتى يفروا بعيداً عن ديارهم ليتركوها للمستوطنين الإحلاليين الصهاينة ، وكانت الأكاذيب الصهيونية التي يرددتها الإعلام الغربي تزيد من ألمه ومرارة .

وكان الإعلام الأمريكي يؤكد جملة نُسب زوراً للرئيس عبد الناصر ، وهي مطالبته "بالقاء إسرائيل في البحر" . كما كان يدعي أن اليهود ممنوعون من زيارة الأماكن المقدسة اليهودية في الأردن (حائط المبكى) . كنا نحتاجهم أن يبتعوا المناسبة التي قال فيها عبد الناصر عبارته المشار إليها . كما كنا نعرض عليهم أن يقوم أحد الصحفيين بزيارة حائط المبكى في الأردن بنفسه . ونبين لهم أن القضية هي أن العرب لا يعترفون بإسرائيل ، ولذا لا يمكن لأي شخص أن يقوم بزيارة إسرائيل وبعدها الأماكن المقدسة في الأردن ، بل عليه أن يزور الأردن بمفردها . كنا نأتيهم بالوثائق التي تهدم أساطيرهم الإعلامية من أساسها ، ولكن كان يتم تجاهل الأمر برمته ، وكان شيئاً لم يكن ، ثم يستمررون في ترويع الإشاعات وتزويد الادعاءات . وهنا بدأت أكتشف - كما أسلفت - أن تأييد الغرب لإسرائيل مرده أنها جيب استيطاني يخدم مصالحه ، شأنه شأن الجيوب الاستيطانية الأخرى ، وأنه تعبير عن نمط أكبر كامن راسخ في الوجدان الغربي الذي

أسلفت الإشارة إليه بأنه الإيمان الكامل بالبراجماتية التي تستند إلى أرضية داروينية صلبة شرسة ، وأن مسألة النفوذ اليهودي واليد الخنيدية اليهودية هي أساطير ليس لها سند في التاريخ أو الواقع .

وفي الليلة الأخيرة قبل رحيلي عن الولايات المتحدة في المرة الأولى عام ١٩٦٩ ، قبلت أن أدخل في مناظرة مع البروفيسر جوزيف ناير Joseph Neyer ، وكان من أكبر التحصمين في فكر أوجست كونت في العالم الغربي ، وكان معروفاً لدى الأوساط اليسارية ، التي كنت أتحرك فيها حينذاك ، بآرائه الثورية . وقد قبلت دخول هذه المناظرة (في وقت كنت مزدحماً فيه بتفاصيل السفر) حتى يتسنى لي أن أسبر غور الإنسان الغربي العقلاني حينما يجابه القضية الفلسطينية والعدوان الصهيوني على فلسطين والفلسطينيين . وكنت قد تحملت ناصية الرد على الاعتذاريات الصهيونية والتصدي لحملهم وإستراتيجيتهم البلاغية .

ذهبت قبل المناظرة مع البروفيسر ناير إلى غرفة المحاضرات حيث وجدت سبورة مكونة من لوحين متحركتين ، فكتبت على اللوحة الأولى أسماء ما لا يقل عن ١٤ مذبحه صهيونية قبل وبعد دير ياسين ، لأبين أنها نمط متكرر وليست حادثة استثنائية كما يدعي الصهاينة وغطيتها باللوحة الثانية . وأحضرت معي كذلك خمس مجلدات هي يوميات هرتزل الكاملة (التي حررها دوفائيل باتاي) بعد أن وضعت ورقة عند الصفحات التي يطالب فيها هرتزل بطرد السكان الأصليين في اليوميات التي كتبها في السنوات الأخيرة من حياته بعد أن "نضج" فكرها . كما أحضرت كتاب مناحم بيجين الثورة ومراجع أخرى تبين حجم التعاون بين "متطرفي" الإرجون وأعضاء الهاجاناه "المعتدلين" في معظم العمليات العسكرية التي قام بها الصهاينة ، بما في ذلك دير ياسين . وبدأ الحوار ، وقال البروفيسر ناير العقلاني ما هو متوقع منه عن مذبحه دير ياسين . فأشرت إلى زميل لي فجاء وحرك السبورة وكشف المعلومات (التي كنت قد خبأتها بعناية قبل المحاضرة) ليظهر اسم ١٤ مذبحه . فاضطرب البروفيسر ناير قليلاً ، ولكنه ثمالك نفسه .

ثم جاءت الأكذوبة الخاصة بهرتزل ، وأنه لم يطالب بطرد العرب إلا في شبابه ، وفي الأيام الرومانسية الأولى ، وأنه "نضج" فيما بعد ... إلخ ، فأشرت إلى زميل لي فجاء إلى النصه حيث كنا نقف أنا والبروفيسر ناير ومعه اليوميات الكاملة لهرتزل وأشرت إلى الصفحات التي كنت قد انتقيتها بعناية من قبل . وعلقت على هذا بأن الصهيونية عنصرية بطبيعتها وبنيتها ، وأنها لا يمكنها أن تكون إلا كذلك ، إذ كيف يمكن تأسيس الدولة الصهيونية على أرض عربية مكتظة بالسكان العرب دون إبادةهم أو طردهم على الأقل ؟ فاهتز البروفيسر ناير ، ولكنه ثمالك نفسه مرة أخرى .

وحينما ردد البروفيسر ناير الادعاء الصهيوني الخاص بأن الهاجاناه لم تشترك في مذبحه

دير ياسين بل استنكرتها ، جاء زميل ثالث يحمل كتاب ميجين والمراجع الأخرى التي أشرت إليها . وقد تنبه الجمهور بطبيعة الحال إلى أن كل الحركات المسرحية معدة بعناية مسبقاً ، وبدعوا بصحكون . هنا سقطت عقلانية البروفيسور ناير تماماً ، واحتز تماماً ولم يتمالك نفسه هذه المرة ، بل تحرك إلى مقدمة المسرح وتحدث بصوت وثني بدائي وقال : "هذه هي حقوق الشعب اليهودي المقدسة وستدافع عنها يحد السلاح ، ولن يوقفنا أحد" . دُهِش الحاضرون من هذه الوثنية المسلحة ، وحُدم بعض طلبته من اليساريين مما حدث ، وعرفت أنا ليلة عودتي إلى مصر أننا أمام عدو بدائي شرس ، يحمل أسلحة متقدمة فتاكة .

وقد كنت في الولايات المتحدة في أثناء حرب سنة ١٩٦٧ ورأيت الهستريا الأمريكية (أقول الأمريكية لا اليهودية) بعد هزيمة مصر في حربها ضد إسرائيل . وأقيمت الأفراح في كل مكان بطريقة تبين مدى واحدة العقل الغربي وضيقة حينما يكون الأمر متعلقاً بإسرائيل . وأذكر أنني كنت أسير بجوار المركز الإسلامي في نيويورك (شارع ٨٢ في مانهاتن على ما أتذكر) ووقفت أمام أحد المطاعم فوجدت في الفاترينة شيئاً لا يصدق : بطاقة تحقيق شخصية لأحد الجنود المصريين الذين سقطوا شهداء في الحرب ، تحمل صورته ، وإلى جوارها ملابسه المضرجة بدمائه (هل كان من المفروض أن يراها رواد المطعم فتزداد شهيتهم ؟) . في تلك الآونة حضرت محاضرة كان يلقيها جنرال في الجيش الإسرائيلي (أحد "أبطال" سنة ١٩٦٧) . وقد فوجئ الجنرال بحماسة الجمهور الأمريكي البالغ بالانتصار الإسرائيلي والتكامل بالعرب وإرافة دمائهم كما لو كانت المسألة لعبة من لعب الأطفال . فاستشاط غاضباً وقال : "يجب أن نتذكروا أننا نتحدث هنا عن بشر وعن دماء بشرية" . فوجم الحاضرون إذ اكتشفوا أنهم كانوا يقومون بشعائر بشعة : وثنية بدائية .

الوحش الصهيوني من الداخل

عدت إلى مصر أحمل في عقلي هذا الإدراك لوثنية الصهيونية وبدائيتها وواحديتها الهستيرية واستمائها إلى التقاليد الحضارية الغربية . ولكن إلى جانب الهستريا والوثنية والراحدية ، صنعت لي أيضاً فرجة أن أعرف الوحش الصهيوني الكاسر من الداخل ومن هناك (على عكس معظم المفكرين العرب الذين خبروا الصهيونية من الخارج وهنا على أرض المعركة ، أي من خلال الصراع العربي الإسرائيلي وحسب) ، من ثم كانت بداية معرفتي بالصهيونية مختلفة إلى حد ما عن تجربة معظم المثقفين العرب ، ولذا تشكل النموذج التحليلي الذي طورته للظواهر اليهودية والصهيونية بشكل اعتقد أنه مركب إلى حد كبير ، ولا يسقط في الاختزالية . وقد تولقت العلاقة بيني وبين ثلما شكل (زميلتي في جامعة كولومبيا التي أخبرني بأنها يهودية لا أمريكية) ، وقدمتني أنا وزوجتي لأمرتها (أبويها وإخوتها) في حي فورث لي في يور

جرسي . فوجئنا بأن ثلما اليهودية كانت دائمة السخرية من اليهود ومن أبويها (بسبب عاداتهما اليهودية ولكنهما اليديشية) ، بل كانت تسخر من أثاث منزلها وتراه في غاية السوقية (لا يختلف كثيراً عن أثاث منازل الطبقة المتوسطة المصرية حديثة الثراء) ، وكانت تشير له بأنه طراز « رينيسانس جويف Renaissance Juive » أي « عصر النهضة اليهودي » . وقد نشأت علاقة حميمة بيني وبين الأم التي كانت تعيش في إحدى المدن البولندية الصغيرة قبل هجرتها إلى الولايات المتحدة ، ويبدو أنها لم تكن قد سمعت قط عن الصراع العربي - الإسرائيلي . لهذا كانت تطلب مني أنا وزوجتي أن نبحث لابتنتها عن عريس (شاب يهودي طيب يتزوجها) فكنا نبتسم ونعدها خيراً . وبينما كان الجيل القديم يذل قصارى جهده كيما يحافظ على بقايا حضارته السلافية الشرق أوروبية (التي كانوا يسمونها « يهودية ») ، كان الجيل الجديد يحاول (قصارى جهده أيضاً) أن يتخلص منها بكل ما أوتي من قوة ، وفي أسرع وقت ممكن ، وفي أول فرصة تسنح له . كانت الأميرة متدمجة تماماً في المجتمع الأمريكي - أحلامها أمريكية ، أثارها أمريكية ، لغتها أمريكية . وعلى كل ، كان المجتمع الأمريكي يجعل عملية الاندماج أمراً سهلاً لأقصى حد .

ثم أخبرني ثلما عن تجربتها في إسرائيل ، وصارحتني بأنها تكن للدولة الصهيونية كرهاً عميقاً . ذهبت مرة إلى هناك للعمل في إحدى الكيبوتسات هي وأختها ساندرا وللبعث عن عريسين ، وبعد نصف يوم شعرت بالإحياء والإرهاق ، فتساقط المثل الصهيوني تماماً وقررت بدلاً من المساهمة في بناء المستوطنة الصهيونية أن تتحول إلى سائحة تتمتع بالطبيعة والآثار وصحة شباب الكيبوتس . ثم اكتشفت أن معظم شباب الكيبوتس مولع بها هي وأختها لا بسبب حسنهما وإنما لأنهم يودون مغادرة أرض الميعاد الصهيونية في أول فرصة إلى أرض الميعاد الأمريكية . ثم اعترفت لي بأنها حينما أخبرتني بأنها « يهودية » بهذه العدوانية إنما كانت تغطي إحساسها بالذنب بسبب شعورها بالاشتمزاز من صهيون .

أما أختها ساندرا Sandra ، فكانت أكثر وضوحاً ، فقد اعترفت بأنها ذهبت إلى إسرائيل بحثاً عن عريس ! (وقد نجحت ساندرا في نهاية الأمر في العثور على عريس في نيو جيرسي) كان شاباً طويلاً عريضاً أشقر ، غير يهودي . بكت أمها يوم الزفاف ، ولكنها قبلت بالأمر الواقع ، وكثيراً ما كانت تربني حفيدها وهي تحمله بشغف شديد) . وبعد الزواج ، أصبحت ساندرا غير مكترثة تماماً بالدولة الصهيونية ، ولكنها كانت تدفع يسخاء لصندوق الحماية اليهودية الذي كان يؤكد لها (ولغيرها من اليهود الأمريكيين) أن النقود تصرف على الولايات واليتامي وعلى المتاحف والفنون ، لا على المستوطنات والقذائف . وكانت تدفع ما تدفع لأنها توقفت تماماً عن ممارسة أي شعائر دينية يهودية بما في ذلك شعائر الطعام . ولم تعد تذهب إلى المعبد اليهودي إلا مرة في كل عام (في عيد الغفران) ، ولذا فإن البالغ التي كانت تدفعها هي كل ما تبقى من

يهوديتها (ولذا يُسمَّى هذا النوع من اليهودية «يهودية دفتر الشيكات») . وتُنشئ ساندرا أولادها بطريقة أمريكية متعددة . مفرطة في التعددية ، فأعضاء الأسرة يحتفلون بالكريسماس مع أسرة زوجها ويدهون للكنيسة أحياناً ، ولكن لا مانع لدى الأولاد من ارتداء نجمة داود من قبل حب الفولكلور والحفاظ على الجذور الإثنية . وهم لا يعرفون شيئاً عن الشعائر اليهودية ، وحينما يعرفونها يجدونها غريبة بل وشاقة ومستحيلة (فالإنسان الاستهلاكي الحديث يفضل ما هو سهل وبسيط على ما هو جميل ومركب) . وأعضاء أسرة ساندرا لا يمكن وصفهم بأنهم مسيحيون أو يهود . كما نجد أن موقفهم من الدين لا يتسم بالعداء ، فهو في جوهره عدم اكتراث ، وإن كان هناك اهتمام به فهو اهتمام بشيء مشير غريب ، وكأنه رحلة سفاري في كينيا .

أما لئما فلم يتأكل إيمانها الديني لأنها كانت قد تجاوزته ورفضته بشكل واع منذ عدة سنوات . ولكنها أخبرتني أيضاً بشيء طريف ، وهو أنها لم تقرأ العهد القديم قط ، أما التلمود فقد سمعت عنه ولكنها لا تعرف عنه شيئاً ، بل لم تر نسخة منه طيلة حياتها . وحينما أخبرتها بأنه مكتوب بالآرامية وأنه مكون من ١٧ جزءاً في ترجمته الإنجليزية ، ضحكت وقالت - على الطريقة الأمريكية البراجماتية - إن من كتب قد أضاع وقته وكان بوسع أن يقضي وقته بطريقة أفضل وأكثر إنتاجاً . (من الحقائق التي لا يعرفها الكثيرون أن معظم اليهود المعاصرين لا يعرفون شيئاً عن التلمود ، وأن مارتن بوير ، أهم فلاسفة اليهود في القرن العشرين ، تلقى هدية في عيد ميلاده الستين كانت عبارة عن نسخة من التلمود ، وكانت هذه هي أول مرة تقع عيناه عليه . ومع هذا ، حينما تقرأ الدراسات العربية ، تصور أن شغل اليهود الشاغل هو قراءة التلمود والتفقه فيه وتنفيذ ما جاء فيه من «تعاليم ومؤامرات») .

ولئما وأختها تذكراني بفتاة يهودية أخرى أخبرتني أن درجة الاندماج في منزلها كانت عالية لدرجة أنها لم تعرف أنها يهودية إلا في سن الثانية عشرة حين مات عمصورها وقررت دفنه ، فصنعت له تابوتاً صغيراً من الخشب ورسمت عليه صليباً . فاضطر أبواها إلى إخبارها بأنها يهودية . وبرغم أنهما قالاً لها ذلك فإن وجدانها كان قد تشكل ، ولذا تزوجت بمسيحي . وحينما سألتها عن موقف أسرة زوجها منها ، ابتسمت وقالت : «كانوا يتصورون أن شجرة الكريسماس وبعض العادات الأمريكية المسيحية الأخرى قد تسبب لي بعض الضيق . ولكنهم فوجئوا بأن أسرتي كانت هي الأخرى تضع شجرة كريسماس !» .

ثم تعرفت على طالب عراقي يهودي (كريم ناداف) . وحينما سألته عن جنسيته ، قال بعدوانية شديدة وعصبية واضحة إنه «إسرائيلي» . ومع هذا استمر الحوار بيننا لأننا كنا ندرس نفس المقرر ، ولأنه كان يتحدث العربية مثلي . وقد اعترف لي بعد أن توطدت عرى الصداقة بيننا أنه هاجر إلى إسرائيل من العراق مضطراً ، وأنه لم يمكث فيها سوى عامين هاجر بعدها

منها إلى الولايات المتحدة ، فحياته في صهيون كانت لا تطاق ، لأنه شعر أنه مجرد مادة استيطانية اقتصادية وقبالية . كان كثيراً ما يأتي لمنزلنا فطهرو له زوجتي الأكل العربي الذي يعشقه ، كما كان يطلب أن يسمع الموسيقى العربية التي يعرفها ويحبها . وفي لحظات الصفاء ، كان يعترف لنا بأنه لا يجد نفسه إلا في منزلنا . وكم كان يسعدنا أن يحمل ابتنا نور . ودات يرم . اعترف لي بأن معظم اليهود الشرقيين يشعرون بأنهم قد غُرب بهم وبأبهم يحسون بأن اليهود الإشكناز (الغربيين) يحتفظون بعلاقاتهم بأقاربهم في العالم الغربي ، حتى يمكنهم الفرار حينما تسقط الدولة الصهيونية ! وكانت هذه هي أول مرة في حياتي أسمع فيها شخصاً يتحدث عن سقوط الدولة الصهيونية بحُسيانه أمراً مطروحاً ومتتالية تستحق النقاش . (كان عليّ أن أنتظر حوالي عشرة أعوام أخرى لأسمع عن نهاية إسرائيل من مصدر آخر ، وذلك عندما حضر الجنرال بوفر قائد القوات الفرنسية التي حاولت غزو مصر عام ١٩٥٥ ، ليحاضرنا في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام عن الدروس المستفادة من حرب سنة ١٩٧٣ . وحكى لنا القصة التالية : بعد حرب سنة ١٩٦٧ بعدة أيام ذهب بوفر ليقابل رابين ، وكانت القوات الإسرائيلية لا تزال في طريق العودة إلى قواعدها . وكان الجنرال الفرنسي مع الجنرال الإسرائيلي يحلفان بالطائرة . فانتبهز بوفر الفرصة وهنا رابين على انتصاره ولكن رابين فاجأه بقوله : " ولكن ماذا سيبقى من كل هذا ؟ " (But what will remain of it all) .

وفي الولايات المتحدة أيضاً ، في عام ١٩٦٥ ، كنا نعتقد مؤتمر الطلبة العرب في كمبودج ، ماساتشوستس . وفرجتنا يوماً بوصول طالب إسرائيلي وزوجته (فكانا من جبل الصابرا ، أي من من مواليد فلسطين المحتلة) وطلب أن يقابل أحد المسئولين عن المؤتمر . ولأن اسمي كان قد بدأ يرتبط بالدراسات الصهيونية ، طلبت المنظمة مني أن أتحدث معه بشكل غير رسمي (حيث إن اللقاء مع الإسرائيليين والحوار معهم أمر مرفوض) . وبعد أن بدأت الحديث معه بدقائق كدت أصعب تماماً ، إذ ظهر أن ناثن (وهذا كان اسمه) عضو في جماعة «الماتزين» وهي جماعة تروتسكية معادية للصهيونية تطالب بفك الدولة الصهيونية وإنشاء دولة اشتراكية - علمانية تضم كل المواطنين .

وقد عرفت الصهيونية ، لا من منظور عربي ، ولا من منظور ثوراتي يهودي ، وإنما من منظور عالمي كجزء من التشكيل الحضاري الغربي وتاريخ الأفكار في الغرب (ولي دراسات في هذا الموضوع ، واحدة منها عن علاقة الصهيونية بالرومانسية) . بل إنني أزعم أن الإشكاليات الفلسفية التي أثارته الصهيونية بالنسبة لي كانت مثارة في حياتي قبل الاشتباك مع موضوع اليهود واليهودية والصهيونية (ولذا فالوسوعة هي مجرد دراسة حالة لإشكاليات فلسفية ومنهجية تتدلى في كل دراساتي ، وما الصهيونية سوى حالة واحدة من بين حالات أخرى عديدة) . وقد عرفت الدولة الصهيونية لا بحُسيانها ظاهرة تستند إلى الوعد الإلهي وإنما

بحسبانها أداة عسكرية واقتصادية وسياسية في يد العالم الغربي . كما أنني لم أعرف "الإنسان اليهودي" بشكل عام أو "الشخصية اليهودية" بشكل مطلق ، وإنما عرفت مجموعة من اليهود لكل منهم تاريخه ولغته وحضارته وشخصيته ؛ فهناك الحشد الكبير من المفكرين والأدباء اليهود الذين تنتزع آراؤهم ومواقفهم حسب تنوع ظروفهم ورؤاهم . وهناك مفكرون يهود يؤيدون المشروع الصهيوني برغم لبيزاليتهم . وهناك مفكرون يهود ضد الصهيونية برغم يهوديتهم . وهناك اليهود الذين قابلتهم في حياتي وقد ذكرت بعضهم من قبل ، ويمكن أن أشير إلى ستيفن ميللر Steven Miller الذي كان موقفه يختلف عن مواقف وليام فيليبس وسوزان سوتاج وأصدقائي في المسير الاشتراكي . وأساتذتي من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة تصرفوا إزائي بطريقة لا تختلف عن تصرف بقية الأساتذة . وكان الأستاذ وليام فيليبس ، محرر الباريتزان ريفيو يهودياً ، وقد منحني درجة الامتياز في المقررات التي درستها معه ، ورعاني فكرياً وشخصياً بشكل يتجاوز ما هو معتاد في مثل هذه الظروف (كما بينت من قبل) . أما بخصوص زملائي ، فقد كان عدد كبير منهم من اليهود اليساريين المعادين للصهيونية وإسرائيل ، ومازلت أراسل بعضهم حتى الآن ، ولم يتخلوا عن مواقفهم المناوئة للصهيونية وإسرائيل . كما قابلت الكثير من اليهود الأرثوذكس الرافضين للصهيونية على أساس ديني ، وبطبيعة الحال قابلت الكثير من اليهود الصهاينة ، ممن أعماهم التعصب واكتسحتهم العنصرية .

ولابد هنا من أن أحكي قصة أليس زميلتنا اليهودية في الجامعة ، وكانت قد طُلقت نكاحها من زوجها الصهيوني ، ولا أدري أكانت تؤلف القصص عنه ، بدافع الغيظ من رجل طلقها ، أم أنها كانت تقول الحقيقة ؟ المهم أنها أخبرتنا بأنه كان يحتفظ بكمية من الحناجر في غرفة النوم ، وكان لا يخلد إلى النوم إلا بعد أن يصوبها نحو الهدف ، بمنتهى الشراسة . فضحكت وقلت لها إنه كان "بلشفيًا" في غرفة النوم ، والبلشفية أيديولوجية لا تصلح لهذا المكان .

وثمة واقعة حدثت لي في الولايات المتحدة حاولت تفسيرها واستخلاص بعض التعميمات منها ولكنني فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً . وسأذكر تفاصيل الواقعة كما حدثت لي . حينما كنت في الولايات المتحدة ، جازني طالب إسرائيلي ، يهودي أرثوذكسي ، أخبرني أن ابني كسر زجاج سيارته الأمامي . ودفاعاً عن القيم الإسلامية والصورة الإعلامية وشرف الأمة العربية أخبرته بكل برود بأنه يمكنه أن يشتري زجاجاً جديداً ويركبه وسأدفع له الثمن . فوافق ، ولكنه عاد بعد بضعة أيام وقال إنه ذهب إلى المكان الذي يلتقي فيه بالسيارات القديمة وعثر على الزجاج المطلوب وركبه في سيارته ، وأن الثمن هو عشرة دولارات فقط لا غير . وهو مبلغ نافع للغاية ، ولكنه مع هذا أصر على تقاضيه ! لا يمكن اتهامه بالطمع لأنه لم يتقاض سوى مبلغ زهيد يمثل ٥% مما كان يمكن تقاضيه . بل يمكن وصفه بالشهامة ، لأنه بدلاً من أن يشتري زجاجاً جديداً ضحى بوقته وذهب وبحث إلى أن وجد الزجاج الأمامي القديم . ومع هذا ، لم أصر على تقاضي

عشرة الدولارات ؟ هل هي عقيلة التعاقد الصارم ؟ لكن التعاقد كان بخصوص زجاج حديد .
وحتى الآن أتأمل في هذه الواقعة ، وأحاول تصنيف هذا الإسرائيلي / اليهودي / الأرثوذكسي دون
جلدي ١

وكانت هناك زوجة صديقي اليهودية التي كانت لا تغامر أيًا من الشعائر اليهودية ، ومع
هذا كانت تصر على هويتها "اليهودية" . فقلت لها : "سارة ، إن قلت إنك أعظم امرأة في العالم
سأصدقك ، أما أن تسمي نفسك يهودية فهذا أمر صعب عليّ تصديقه" . فأصرت على انتماها
اليهودي ، وحين سألتها السبب قالت : "أريد أن أصبح جزءاً من شيء قديم" . فنصحتها أن تذهب
إلى أحد محلات الأتيكة ، وقد تحمل مشكلتها بهذه الطريقة . وقد أشرت من قبل إلى أنه بسبب
تنوع الشخصيات اليهودية التي تعرفت عليها إما شخصياً وإما فكرياً ، كان من الصعب عليّ ،
بل من المستحيل ، أن أسقط في التعميمات السهلة بخصوص "اليهود" و"شخصيتهم الثابتة
الأزلية التي لا تتحول ولا تتبدل" كما تدّعي بعض الأدبيات العربية والصهيونية والمعادية للسامية
(أي لليهود واليهودية) . كما عرفت الإنسان الأمريكي اليهودي بأحلامه وأوهامه ، والمفكرين
الصهاينة بكل لفظ قوتهم وضعفهم ، والإنسان الإسرائيلي بكل طموحاته الوهمية والحقيقية ،
وبكل نجاحاته وفشله ومخاوفه ومفاسده .

لهذا ، وبرغم إحساسي الغامر بخطورة الغزوة الصهيونية (بحسبانها تعبيراً أخيراً وحاداً
عن الغزوة الحضارية والعسكرية الغربية) ، وبرغم إيماني العميق بضرورة التصدي لها ، فقد
عرفت منذ البداية أيضاً أن اليهود ليسوا عباقرة أو شياطين ، وإنما بشر يمكن الحديث معهم ،
ويمكن إزاحة دمهم ، وأن عوامل القوة والضعف والحياة والموت كامنة في هذا الكيان الضخم ،
وأنه من الممكن التحدث عن لحظة سقوطه ، ومن الممكن أيضاً مناقشة الآليات التي تؤدي إلى
ذلك .

وفي عام ١٩٦٥ ، قرأت لأول مرة أشعار محمود درويش . من أعماق الأرض المحتلة جاءنا
صوت أمير شعراء العرب في العصر الحديث ("أسأل حكمة الأجداد / لماذا تُسحب البيارة
الخضراء / إلى سجن ، إلى منفى ، إلى ميناء / وثبقي ، برغم رحلتها / وبرغم روائح الأسلاك
والأشواق / تبقى دائماً خضراء" . "خيول الروم أعرفها / وأعرف قبلها أني / أنا زين الشباب
وفارس الفرسان / أنا ومحطم الأوثان" . وبعد ذلك جاءنا صوته يقول : "والحلم أصدق دائماً / لا
فرق بين الحلم / والوطن المرباط خلفه / الحلم أصدق دائماً / لا فرق بين الحلم والجسد المختبأ في
شظية / والحلم أكثر واقعية") . إن شعر محمود درويش يفيض بهذه الروح الجهادية التي تنطلق
من مقدرة الإنسان على التجاوز ("يدي أحاديث الزهور وقبيلة / مرفوعة كالواجب اليومي ضد
المرحلة / وأقول لا ، وأقول لا") . وظهور محمود درويش داخل ظروف كان لابد ، بكل المقاييس
الموضوعية والمادية ، أن تؤدي إلى الغياب العربي ، كان - بالنسبة لي - كالمعجزة . هذا هو شاعر

الهوية العربية يصدق بالغناء بالعربية الفصحى في أرضه برغم وجود دولة استيطانية إحلالية ، قوية مسلحة تبدل قصارى جهدها أن تلغيه وتلقي تاريخه وأن تنكر وجوده . إن الإنسان الفلسطيني ، من خلال شعر درويش ، أصبح بالنسبة لي الإنسانية جمعاء ، وأصبح النضال الفلسطيني هو رمز الإنسان في عالم واقعي مادي ، لا يعرف إلا التكيف الرشيد .

التخصص في الصهيونية

ساهمت كل العناصر السابقة في أن تجعلني أقرر التخصص في الصهيونية ، وكتبت للملحق الثقافي المصري - براءة الشباب وحماسه - أطلب منه تحويل بعثتي من دراسة الأدب الإنجليزي إلى دراسة اللغة العبرية والسياسة . وقد أدرك الرجل ساعيتها أنه أمام مجنون ، فاتصل بي تليفونياً وأخبرني ما معناه «بطل هباله» ، أي فلتكف عن الجنون ، ولتنته من دراسك . فتفكير موضوع بعثة أمر يحتاج إلى تحرك كل الدولة المصرية ، ولعل رئيس الجمهورية ذاته غير قادر على إنجازه ، فالقوانين تكبل الجميع . فقررت الانصياع للأوامر ، وكان الرجل علاوة على ذلك يرى أن أمثالي ممن يتخصصون في الصهيونية والأيدولوجية يضيعون وقتهم في أمور نظرية ، هي - في تصوره - مجرد زخرفة علمية . يمكن للعرب أن يتباهوا بالدراسات العلمية الرصينة التي يكتبها علماء عرب في هذا الموضوع ولكنها لا تفيد كثيراً في اتخاذ القرار السياسي والعسكري (فهو كبير وقراطي عتيد يرى أن الحكومة "تعرف" كل شيء وتتخذ كل الإجراءات اللازمة) .

برغم هذا الموقف السلبي قررت التخصص في الصهيونية . وبالتدريج تحول الأدب الإنجليزي والأمريكي والمقارن (تخصصي الأكاديمي إلى هامشي) . وكما أشرت من قبل ، كانت رسالتي للدكتوراه هي المجال الذي طورت فيه النماذج التحليلية التي استخدمتها في دراسة الظواهر الصهيونية واليهودية . كما أنني وضعت أجندة بحثية للدراسات الأكاديمية التي سأكتب عنها للترقية ، بل وكتبت بعضاً منها وجهزت المراجع اللازمة . وبالفعل حينما كان يحين وقت الترقية كنت أخرج هذه البحوث والمراجع ، وأرسل لشراء ما استجد من مراجع ، ثم أعيد كتابتها وأقدمها للجنة الترقية . وكان موضوع أبحاثي الأكاديمية (كما سأتبين فيما بعد) يتناول الموضوعات الأساسية في فكري . وكانت محاضراتي عن الأدب الإنجليزي والأمريكي تدور حول نفس هذه الموضوعات . وهكذا منذ عام ١٩٦٤ ، وبرغم وجود أجندة بحثية واحدة ، فإن دراسة الصهيونية أصبحت هي العنصر الرئيسي .

ثم بدأت أيضاً نشاطي العملي ضد الصهيونية ، فكتبت مذكرة للسفير المصري آنذاك (د. أشرف غربال) أقترح عليه طرقاً أكثر تركيبيه للحركة ضد العدو الصهيوني ، وأخبرته عن جماعات اليسار الجديد التي كان ثلث أعضائها من اليهود ومع هذا كانت معادية للصهيونية

ولإسرائيل . ودعاني إلى مكتبه ودعا بعض موظفي السفارة لأحدثهم عن جهود الولايات المتحدة واليسار الجديد . وطلب مني أن أكتب تقريراً عن الموضوع رفعه للحكومة المصرية ، خصوصاً وأن الوزارة الإسرائيلية كانت قد اجتمعت لمناقشة الموضوع نفسه .

والصهيونية - في تصوري - كالحرباء ، تتلون حسب المحيط الموجودة فيه ، وتغير ديباجاتها حسب الظروف حتى تكتسب شرعية أمام الجمهور المتلقي ، وهي حركة تجيد فن الإعلان وتمتلك ناصية فن الإعلام . ولذا كانت إسرائيل في الستينيات ، على سبيل المثال ، أيام حركة عدم الانحياز وحركات التحرر الوطني ، تطرح نفسها على أنها إحدى دول العالم الثالث وأن الصهيونية إن هي إلا حركة من حركات الكفاح ضد المستعمرين . ولذا كانت الأدبيات الصهيونية آنذاك تركز على نشاط الإرجون ضد القوات الإنجليزية في فلسطين ، وبذلك يصبح الاستيطان الصهيوني هو حركة تحرير الشعب اليهودي التي تحاول تحرير فلسطين من المستعمرين الإنجليز (ومن العرب بالمرّة) . فكتبت أولى دراساتي عن إسرائيل وهو كتيب صغير بالإنجليزية ، كتبه في يوم واحد ، صدر عام ١٩٦٦ في الولايات المتحدة بعنوان إسرائيل قاعدة للاستعمار الغربي Israel · Base of Western Imperialism . وقد كان كتيباً معلوماً إلى حد كبير لا يتعامل إلا مع المستوى السياسي للقضية ، يضع المعلومة تلو المعلومة لإثبات أن إسرائيل والصهيونية يتحالفتان مع الاستعمار البريطاني والأمريكي والحبب الاستيطاني في جنوب إفريقيا . كما ذكرت فيه آراء بعض قيادات العالم الثالث مثل غاندي وكاسترو في الصهيونية . وكتابة مثل هذه الدراسة الموثقة لم يكن أمراً صعباً ، فالمعلومات كانت في كل مكان وكانت تحتاج للتجميع وشيء من التنسيق والتبويب لا أكثر ولا أقل ، وهذا ما فعلته . ومع هذا كان الكتيب عملاً طليعياً في ذلك الوقت ، لأن المكتبة الإنجليزية لم تكن تضم أي كتب تتعامل مع الظاهرة الصهيونية من منظور يساري ، ومن منظور العالم الثالث .

ولكن الأطروحة السياسية بدأت بعد ذلك في التشابك مع الموضوعات الفكرية الأخرى في حياتي بشكل تدريجي . وعلى سبيل المثال ، قرأت - كما أسلفت - يوميات هرتزل . وكان هرتزل قد زار مصر في إطار بحثه عن أرض لمشروعه الصهيوني . وحضر محاضرة عن الري ، وفي المساء ، في غرفة فندقه ، دوّن انطباعاته عما شاهد وعبر عن دهشته من مستوى ذكاء المصريين ومقدرتهم على الاستيعاب والحوار والنقاش . ثم قال بالحرف الواحد : "إن الفلاحين المصريين سيثورون حتماً ضد مستعمرهم" ، ثم تعجب من فشل الإنجليز في إدراك هذه الحقيقة البسيطة الواضحة .

ولا يمكن أن ينكر المرء أن هرتزل أظهر ذكاءً غير عادي ومقدرة فائقة على تجاوز تحيزاته وأنه لم يدرك الواقع بشكل مباشر مطعني (الآن وهنا) وإنما تجاوز ذلك ليصل إلى البنية الكامنة (المستقبل) . فما كان أمامه هو بلد مستعمر ، ولكنه ، مع هذا ، رأى الثورة الكامنة ، أي أنه

أدرك واحداً من أهم جوانب الواقع العربي إدراكاً عميقاً .

ولكن ما أثار دهشتي أن هرتزل قد أدرك ما أدرك في المساء ، ولكنه في اليوم التالي ذهب ليقابل كرومر ، الندوب السامي البريطاني ، ليطالب منه إعطاءه أرض العريش ليقم فيها دولة الصهيونية . هل يمكن القول بأن الإدراك الصهيوني للواقع ، برغم ذكائه ودقته ، محدود للغاية ؟ وإلا فلم لم يتمكن هرتزل من رؤية الفلاحين المصريين (أو الفلسطينيين أو الأرغنديين) وهم في حالة ثورة ضد حكومتهم الصهيونية ؟ هل هذا شكل من أشكال الجمود الإدراكي الذي يصيب المفنصب ، ولذا يمكنه رؤية الثورة حينما تكون موجهة ضد غيره ولكنه لا يراها حينما تهدد بالاندلاع ضده ؟ ما سبب هذا الجمود الإدراكي ؟ هل هو نتيجة حتمية للعداء للتاريخ بخيان أن إسرائيل تعبر عن الإنكار اليهودي للتاريخ العربي في فلسطين ، بل التاريخ اليهودي في العالم خارج فلسطين ؟ هل الصهيونية هي تبدي آخر لمقولة نهاية التاريخ ؟

إن استجابتي للواقعة البسيطة لم تكن استجابة سياسية (تخبر هرتزل - تعصبه - تحالفه مع الاستعمار) ، وإنما كانت محاولة للوصول إلى الكلي والنهاي (طبيعة الإدراك - الموقف من التاريخ) ولم أعد أتعامل مع الأفكار والحقائق وإنما مع الفكر والحقيقة . وهكذا بدأت الأسئلة تدور في ذهني ، وهي أسئلة مختلفة عما كان مطروحاً بخصوص الصهيونية آنذاك .

وقد ساعدني على الانتقال من السياسي إلى المعرفي ومن الاهتمام بالأحداث السياسية المباشرة إلى الاهتمام بالثوابت المعرفية والإستراتيجية قراءة أعمال الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي في أوائل السبعينيات . وقد ألف - رحمه الله - كتيبين صغيرين عن العقيدة اليهودية وعن الصهيونية تناولتهما فيهما تناولاً معرفياً سريعاً ولكنه عميق وموح (فهو أستاذ ديانات مقارنة) . وكان أسلوب معالجته للموضوعات مختلفاً تماماً عما كنت قد ألفته من دراسات في هذا المجال . فقد وضح لي كثيراً من الأبعاد الغامضة التي أخفقت كتب السرد التاريخي في توضيحها . كما قرأت أعمال الأستاذ حبيب قهوجي والدكتورة بديعة أمين والدكتور أسعد رزوق والدكتور أنيس صايغ . وكان لكتاباتهم أعماق الأثر في من حيث توسيع نطاق رؤيتي وتعميقها ، وتجاوز النموذج العلماني العقيم .

وكما أسلفت ، حينما كنت في الولايات المتحدة ، تعرفت على الدكتور أسامة الباز الذي قرأ بعض ما كتبت فاقترح عليّ أن أتخصص في الصهيونية وأن أفرغ تماماً لدراستها (وكان هو أول من فعل ذلك ، فهو بمعنى من المعاني "مستول" عن تخصصي في الصهيونية) . وحين عدت لمصر عام ١٩٦٩ ، أخبرني أنه يجب أن يستفاد من خبرتي بالصهيونية بشكل أو بآخر . فقدمني للأستاذ هيكل الذي عينني مستشاراً في مكتبته بخسانه وزيراً للإرشاد . وحين ترك الوزارة (بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر) ، انتقلت إلى كلية البنات . وكان طموحي الأصلي هو أن أصبح باقداً أدبياً (فحبي للشعر أمر طاعاً تماماً ، ومازلت أنوي إن شاء الله كتابة دراسة في الشعر

الرومانتيكي) ، فكنيت تلخيصاً لأطروحتي عن الإدراك الصهيوني وحدوده ، وتركته للأستاذ هيكل على أمل أن يقوم أحد الباحثين بمتابعة الموضوع ، ويتركني وشأني . وكان رد الأستاذ هيكل أنه لا يمكن أن يكتب عن مثل هذا الموضوع غيري . وزاد الدكتور أسامة الباز من تشجيعه لي ، فبدأت في كتابة دراسة عن فلسفة التاريخ عند الصهاينة . وحين انتهيت منها عرضتها على الدكتور أسامة الذي اقترح أن أعرضها على الأستاذ هيكل ، فقمنا بزيارته في مكتبه ، وتركته له الدراسة ، ثم عكفت على كتابتها مرة أخرى (كما أفعل دائماً مع معظم دراساتي) . وبعد شهرين أو ثلاثة ، فوجئت بالأستاذ هيكل يتصل بي ويستقبلني في مكتبه في مؤسسة الأهرام ، ويخبرني بأن دراستي مهمة جداً ، وأنه لهذا السبب يعرض عليّ أن أعمل في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام مسئولاً عن الفكر الصهيوني . فأخبرته بأن مكاني ليس في صحيفة يومية ، إذ إنني إن طلبت مني أن أكتب عن الأحداث اليومية فقد أصاب بالهيار عصبي . فأخبرني بأنه أسس المركز وعيّن بعض كبار الكُتّاب في مؤسسة الأهرام ليعطيهم من مهمة الانشغال بالأحداث اليومية ، حتى يمكنهم التركيز على دراسة الظواهر والأبعاد الإستراتيجية ، وأكد لي أنه لن يطلب مني أن أكتب عن الأحداث اليومية ، فقبلت العرض . وأرسلني إلى الولايات المتحدة بعد أن وضع تحت تصرفي عدة آلاف من الدولارات (مبلغ رهيب آنذاك) ، وطلب مني شراء ما أريد من كتب عن الصهيونية وإسرائيل لمكتبة المركز . فقصيت ثلاثة أسابيع في الولايات المتحدة أنقل بين المكتبات أشتري الكتب وأصور المقالات . وهكذا بدأت رحلتي العلمية مع اليهود واليهودية والصهيونية .

وفي مركز الدراسات ، تعرفت على الأستاذ حاتم صادق وعلى الدكتورة هدى عبدالناصر . وبدأت صداقتنا الشخصية والفكرية والعائلية - نتفق على أشياء ونختلف على أشياء ، ولكننا نلتقي دائماً لنتفق ونختلف .

نهاية التاريخ

بعد انتهائي من الدكتوراه وبعد قراءتي المديدة في الصهيونية ، أصبحت مقولة التاريخ ومحاولة نفيه (أي مقولة نهاية التاريخ) مقولة تحليلية أساسية . وحيث إنني لا أفصل بين دراسة الأدب ودراسة الصهيونية ودراسة الحداثة ، لم يكن من المستغرب أن تحمل أولى دراساتي الجادة عن الصهيونية عنوان **نهاية التاريخ** ، فدراستي للصهيونية مثل أي دراسة أخرى أكتبها ، ذات طابع معرفي يتجاوز السياسي . ولكن لأن التناول المعرفي للقضايا السياسية كان أمراً جديداً كل الجدة عليّ وعلى الكثيرين ، تناولت موضوعي بحذر شديد ، بل حاولت قدر استطاعتي أن أخبئ الأطروحة المعرفية الأساسية في النسخة الأولى من دراستي (علاقة الحلولية [وحدة الوجود] • بنهاية التاريخ وفلسفة التاريخ الصهيونية) . وقام الدكتور أسامة الباز بتحرير الكتاب بنفسه

وكتب الغلاف بخط يده (فهو يحب فن الخط العربي ويمارسه حينما تتاح له الفرصة) . وطلب مني أن ألقى سلسلة محاضرات في المعهد الدبلوماسي تدور حول هذه الدراسة . وقد فعلت . وكانت فرصة فريدة بالنسبة لي أن أحتك ببعض الدارسين المهتمين بالسياسة والفلسفة (وهو ما كنت أفتقده في كلية البنات) .

وأذكر مرة أنني كنت في المعهد الدبلوماسي للقاء الدكتور أسامة في مكتبه . وفي غرفة الانتظار ، قابلت أستاذاً مشهوراً في العلاقات الدولية يُسمى الدكتور جورج أبو صعب ، كان هو الآخر على وشك مقابلة الدكتور أسامة ، وتجادينا أطراف الحديث . وسألني ماذا أفعل . وحيث إنني تحققت من أنني لن أقابل هذا الأستاذ بعد ذلك ، تشجعت وأخبرته أنني أكتب عن الفلسفة الصهيونية للتاريخ بحسبانها تعبيراً عن رؤية حلولية تؤدي إلى نهاية التاريخ ، وشرحت له النظرية . وفوجئت به يدون بعض الملاحظات . فسألته عما يفعل ، فقال إن هناك بعض القضايا في القانون الدولي كانت تحيره دائماً ولا يمكن تفسيرها إلا من خلال هذا النموذج التفسيري ، فتشجعت إلى أقصى حدٍّ وغُيِّرت من بناء الدراسة . وبعد أن كان الحديث عن حلول الإله في التاريخ ووحدة الوجود وما شابه من مصطلحات ترد في آخر الكتاب أو في الهوامش ، أبرزت هذه الموضوعات بحسبانها جوهر النموذج التحليلي . وفي نهاية الأمر اتخذت الدراسة شكلها النهائي وأصبح عنوانها **نهاية التاريخ : مقبلة لدراسة بنية الفكر الصهيوني** ، ونشرها مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام عام ١٩٧٢ .

بدأت الدراسة بتحديد المستوي المعرفي ، إذ ألت لفهم الرؤية الصهيونية للنفس البشرية (اليهودية وغير اليهودية) وللتاريخ اليهودي والإنساني ، لأبد من العودة للتراث اليهودي القديم ولتصور اليهود للإله . فعلاقتنا بالإله (المطلق) تلقي كثيراً من الضوء على علاقتنا بالتاريخ (النسبي المتغير) . ثم طرحت فكرة الحلولية : "الإله حسب التور اليهودي لم يكن حقيقة مطلقة تعلو على المادة ، بل هو في الواقع امتداد لما هو نسبي . وحتى بعد أن تحول هذا الإله النسبي إلى إله العالمين ، نجد أنه يظل بالدرجة الأولى إله إسرائيل على وجه الخصوص" . ويؤدي "حلول الإله في الأرض والشعب" إلى أن "المقدس يصبح هو القومي والقومي هو المقدس" . ثم بينت أن الحلولية هي ضرب من ضروب إنكار التجاوز والعداء للإنسان والتاريخ وضرب من الوثنية (العلمانية الشاملة فيما بعد) .

ثم أضفت في قسم بعنوان "حلول الإله في التاريخ" ما يلي :

"وهذا التصور [اليهودي] يختلف إلى حدٍّ كبير عن التصور الإسلامي والمسيحي لحياة الإنسان وتاريخه الذي يرى أن الإله قد ترك الإنسان حراً في التاريخ ليحقق إرادته الإنسانية ، ولكنه في الوقت نفسه لم يهجره كليةً ولم يتركه يفرق في النسبي . أخير الإله الإنسان أنه سيثبه ويعاقبه في اليوم الآخر "خارج التاريخ" والزمان الإنساني كلية ، ولذلك فالإنسان حر في

داخل التاريخ . ولكن الإله طالبه باتباع القيم الأخلاقية وأرسل له الكتب السماوية ، ولذلك فالإنسان ليس ضائعاً يدور في حلقات مفرغة : 'اعمل لدنياك كأنك تعيش [في التاريخ النسبي] أبداً ، واعمل لأحررتك كأنك تموت [تواجه المطلق] غداً' . هذه دعوة للإنسان ألا تستغرقه الأشياء السببية والعادية والواقعية وأن يحاول تخطيها والتسامي عليها ، ولكنها في الوقت نفسه تأكيد لحق الإنسان في أن يعيش داخل التاريخ حراً ليحقق لنفسه أكبر قسط من السعادة . يقف الإنسان وقدماء معروستان في الأرض وعيناه شاخصتان للسماء ، وهذا هو سر عظمة الإنسان ومأساته ، وهذا أيضاً هو سر وجوده الإنساني المركب . هذا الصراع صُفِّي إلى حد كبير في التراث اليهودي ، فحياة اليهودي لا تتميز بهذا التوتر لأنه ليس إلا جزءاً من كل قومي مقدس لا وجود تاريخي له ، إذ إن التاريخ اليهودي تاريخ لا جدل فيه ، ولذا فهو ليس بتاريخ حقيقي ، فإنه إسرائيل لم يعلن عن نفسه في قوى الطبيعة وإنما في التاريخ وفي التاريخ اليهودي على وجه الخصوص .

"يصبح التاريخ اليهودي ، إذن ، هو النقطة التي يلتقي فيها الخالق مع الشعب ، ومسار التاريخ بهذا المعنى يصبح له هدف واضح . ويتجسد هذا الهدف في فكرة المسيح [المسيح] المنتظر الذي هو نهاية التاريخ . إن مسار التاريخ يصبح واضحاً ، له بدايته ونهايته ، تماماً مثل أي مسرحية بل أي ميلودراما لأن الأخيار أخيار والأشرار في منتهى الشر ، كما أنه يشبه أي ميلودراما لها نهاية سعيدة" .

وفي قسم بعنوان «وحدة الوجود اليهودية» ، قلت :

"حلل الإله في الأمة المقدسة والأرض المقدسة هو ولا شك ضرب من وحدة الوجود أو البانثيزم Pantheism . والمؤمن بوحدة الوجود في صورته المتطرفة ، يتخذ ، عن وعي أو عن غير وعي ، موقفاً معادياً من الإنسان والتاريخ والوعي والثورة ، فحينما يحل الإله في الأرض أو في تاريخ الأمة ، وعندما يبلغ الحلول ذروته فيصبح الإله هو الأرض والأمة (وهذا هو ثالث وحدة الوجود : الإله والإنسان والطبيعة) ، فإن المطلق يحل في النسبي ويمتزجان ، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه وجوده كمثل أعلى ، كما يفقد النسبي حدوده وكيانه . والإيمان بالمثل الأعلى لازم لأي فرد إنساني على الواقع ولأي تطور ديكارتيكي وتخطي الحركة الميكانيكية التي تكرر نفسها ، ويتعدى التوازي والتقابل والتعادل . فالمثل الأعلى هو ما يدفع الإنسان نحو محاولة تخطي واقعه المادي وتخطي حدود ذاته لتحقيق وجود أعلى وأفضل ، وهو بهذا يتخطى البيئة والطبيعة وكل الأشياء ليعلي ذاته الإنسانية دون أن يذيقها في ما هو خارجي عنها أو أعلى منها . والإيمان بمقدرة الإنسان على التسامي هو في واقع الأمر إيمان بأن الإنسان ليس جسداً محضاً أو كماً ميكانيكياً غير قادر على ترويض الطبيعة وتصنيفها ، كما أنه يعني أن وعي الإنسان «الذاتي» الخلاق يميزه عن بيئته «الموضوعية» ، وأن عقله غير مساوٍ لجسده وإلا لحقق

نوعاً من التوازن يقضي على أي حركة وتقدم . أما فلسفة وحدة الوجود اليهودية ، فهي تساوي الإنسان اليهودي بالأرض التي يعيش عليها ، بل تجعل الأرض هي المحور والمحرك الأساسي لحياته وتاريخه . كما أنها تنيب كل حدود وجوده التاريخي النسبي المحسوس الذي يميزه ككائن فردي له خصوصياته ، وتحل محله الوجود الجماعي للشعب المقدس . وهو وجود مطلق غير محدد أو معين أو متنوع ليس فيه تدرج ولا يمكن تصنيفه أو تسميته . إن فلسفة وحدة الوجود اليهودية تنيب اليهودي الفرد في الأمة اليهودية والأرض اليهودية ثم تخلع القداسة على هذه الأشياء (وهذه هي الوثنية بعينها) .

ثم ربطت بين الرؤية المسيحية لنهاية التاريخ والرؤية الهيجلية التي تفترض أن ثمة فكرة مطلقة لا وجود مادي أو نسبي لها تحرك كل الظواهر ، وتكون بمنزلة المحرك الأول (والآخر) للتاريخ ، وهي تسبغ عليه معنى عقلانياً وتبين « الحقيقي » من الزائف . ولأن « الحقيقي » الوحيد هو النهائي المطلق ، فإن هذه الرؤية الهيجلية تفترض أن كل التناقضات في جوهرها « غير حقيقية » لأنها مهما كان عمقها فما هي إلا حلقة في سلسلة ضخمة تؤدي إلى هذا المطلق الخالي من التناقض : الفكرة المطلقة أو الدولة البروسية أو اليهودية !

"والحيلة الهيجلية المثالية لحل المشكلات تلخص في رؤية التاريخ من وجهة نظر نهايته . وإذا ما فعل المرء ذلك ، فإنه لن يرى إلا الفكرة المطلقة الثابتة المتجسدة في كل التفاصيل المتغيرة ، ولكنه بعد قليل لن يرى إلا « الفكرة » نفسها وينسى التفاصيل ، لأن التفاصيل المحسوسة ستصبح تجسّدات متساوية في الدرجة والقيمة ، ليس فيها ما يميّز الواحدة عن الأخرى . وبحث إن هذه الفكرة المطلقة غير محسوسة أو معروفة (إلا لله عز وجل) ، فإنها تتحول إلى فكرة ذاتية يدعي الزعيم النبي (هتلر أو بن جوريون) معرفتها ، ويحاول قصارى جهده فرضها على الواقع المحسوس غير الحقيقي ! وهكذا يخلق المجدل الهيجلي على نفسه أو يفتح على المطلق الذاتي ، وهذا ضرب من الانفلاق هو الآخر " .

ثم أشرت إلى مجموعة من المفكرين الصهاينة الهيجليين : فـ "نحمان كروكمال Nahman Chrochmal ، بهيجليته العضوية المثالية ، لم يعتمد كثيراً عن الفكر اليهودي القديم بتصوره المسيحاني للتاريخ وبرؤيته للشعب المختار في مركز التاريخ . و [موسى] هس Moses Hess ، يربط بين التاريخ والطبيعة ، يرى أن العصر المسيحاني هو العصر الذي سيصبح فيه التاريخ كالطبيعة " .

ولا شك في أن هذا الربط بين الحلولية والهيجلية ، زاد من القدرة التعميمية والتفسيرية للنموذج ، فرصفت النازية والصهيونية بأنهما فلسفتان تناديان بوحدة الوجود ، وأشرت لأثر نيتشه على كل من الفكر الصهيوني والنازي ، ثم بيّنت خلفيتهما الداروينية المشتركة . " وقد طبق الصهاينة والنازيون آراء داروين في التطور الطبيعي على التطور التاريخي والاجتماعي ،

فكلاهما يؤمن بأن الظواهر الإنسانية في بساطة الظواهر الطبيعية (وهذا يفسر حتمية الفكر الصهيوني) . كما أن كليهما يؤمن بأن المجتمع لا يحكمه سوى قانون واحد طبيعي لا أخلاقي ، قانون «البقاء للأصلح» ، ولذا يصبح العنف وسيلة مشروعة بل ومنطقية وحتمية . وتصبح العنصرية غطاءً طبيعياً وأساساً «علمياً» للحياة . ويلاحظ أن الحلولية بدأت تصبح مرادفة للطبيعية المادية وأن واحدة الحلولية هي نفسها واحدة الطبيعية (وهذه مقدمة لتوضيح علاقة العلمانية الشاملة بالحلولية) .

ومن القصص الجديرة بالذكر في هذه المرحلة الفكرية ، ما حدث بيني وبين صديقة أمريكية يهودية كانت تزورنا في مصر أوائل عام ١٩٧٢ قبل أن أنتهي من كتابة نهاية التاريخ ، وواجهتني بالسؤال التالي : كيف تتحدث عن الوجدان الصهيوني بعدة وجدانا معادياً للتاريخ ، وتجربة المحرقة تجربة تاريخية حقيقية بالنسبة لليهود ؟ لم أجد جواباً لهذا السؤال وأخبرتها عن حيرتي ، وقلت إنني إذا لم أجد جواباً شافياً فلن أنشر هذا الكتاب . وكنت أعني ما أقول ، فانا أخذ مثل هذه الأمور على محمل الجد . وذهبت هي في رحلة إلى الأقصر ، وأخذت أفكر (لم أتم مدة ثلاثة أيام) . وحينما كان من حولي يسألونني عن السبب في صمتي الدائم ، كنت لا أجرو على الإجابة ، إلا زوجتي التي تعرفني وتعرف مدى أهمية مثل هذه الأمور الفكرية النظرية بالنسبة لي .

في نهاية الأمر ، اعتديت إلى أنه يجب أن ننظر لظاهرة المحرقة في إطارها التاريخي ، فهي جزء من التاريخ الأوروبي ، أي أنها ليست تجربة ويهودية عامة وإنما تجربة أوروبية خاصة . ثم أضفت أن المستويات والبنى التاريخية المختلفة مسألة من صميم الرؤية التاريخية وأن إنكارها هو سقوط في وحدة الوجود التاريخية الهيجلية . فالاشراكي اليهودي الذي يرفع الألوية الحمراء في بلاده (بولندا أو روسيا) هو ولا شك ثوري ، وله أن يتحدث عن حق العمال والفلاحين المضطهدين في بلادهم . لكنه حين ينقل نفس الأيديولوجية ونفس الشعارات ونفس الألوية الحمراء إلى فلسطين فهو يتحول على الفور من ثوري يتنادي بالمعادلة إلى مستوطن يختصب الأرض ويهدر حقوق الآخرين . وحينما عادت صديقتنا من الأقصر كانت هناك إجابة عن السؤال الذي طرحته عليّ ومن ثم كان من الممكن استئناف كتاب نهاية التاريخ ، وإصداره في نهاية الأمر .

وكما بينت ، استخدمت مقولة نهاية التاريخ في دراستي عن الحضارة الأمريكية (الفردوس الأرضي) . ثم استخدمتها في دراسة الحداثة الغربية ككل . فنهاية التاريخ هي نهاية التدافع الإنساني والتركيب وإدراك الحدود ، هي نهاية الإنسان كما نعرفه وهي الحالة الخنثية بالدرجة الأولى . فاشترت إلى تصور المستوطنين الصهاينة أن "فلسطين هي أرض بلا شعب" وتصور المستوطنين الأرائل في أمريكا الشمالية إليها بحسبانها "أرضاً عذراء" . فكل الفريقيين ينكر تاريخ الأرض التي اغتصبها ، لينكر على المواطنين الأصليين إنسانيتهم . كما استخدمت المفهوم

في دراسة أعمال الشعراء الرومانسيين الإنجليز وكيف أنهم يتأرجحون بين تقبل الحدود الإنسانية من ناحية ، ومن ناحية أخرى الرغبة في رفض الحدود وإنهاء التاريخ والدخول في الفردوس . والمجلات الإباحية ، بل والإعلانات التليفزيونية ، هي كلها محاولات لإنهاء التاريخ ، عن طريق النهايات السعيدة التي تلغي أي تدافع أو تركيب .

وفي إحدى المحاضرات ، كي أبسط الفكرة ، رويت للحاضرين قصة فيلم طريف لا أذكر اسمه للأسف . يبدأ الفيلم حين يقع طبيب أسنان في هوى فتاة رائعة الجمال عن بعد ، فيبدأ في ملاحقتها هي وزوجها إلى أن ينتهي المطاف بالجميع في إحدى الجزر في المحيط الهادئ . ويكاد الروح أن يفرق ولكن صاحبنا المقيم يتقذه ، ويصبح صديقاً للأسرة . وتلاحظ الزوجة أنه غارق تماماً في هواها ، فتدعوه للمنزل في غياب زوجها ، وتقوم بكل طقوس اللذة ، ما بين تناول العشاء معه في مطعم فاخر والاستماع لبعض الموسيقى الكلاسيك وتدخين بعض السجائر التي تحتوي على الماروانا ، ثم انتهى الأمر - كما هو متوقع - في السرير . ولكن الحساء كانت تفعل كل هذا وهي في منتهى الهدوء والحياد . ثم يدق جرس التلفون ، ويظهر أن المتحدث هو زوجها ، فتخبره بنفس الهدوء والحياد أن صديقها معها ، وتطلب منه أن يكلمه . فيشعر الصديق بالحرج ولكنه يتبادل معه التحية ويعطي التلفون للزوجة ، وحينما تنتهي من المكالمات تنظر حولها فتجد صاحبنا يرتدي ملابسه بسرعة ، فتسأله مستنكرة : "إلى أن أنت ذاهب؟ ما هي مشكلتك؟" فيقول : "مشكلتي هي أنه لا توجد عندك أي مشكلة" My problem is that you have no problem . فهي لا يوجد عندها أي إحساس بالذنب أو بالخير أو الشر ، كل شيء بالنسبة لها طبيعي بسيط محايد ، والإنسان ليس بسيطاً ولا طبيعياً ولا محايداً ، أي أنها بموقفها هذا أنهت ظاهرة الإنسان وأنهت التاريخ . فهي في سلوكها لا تختلف كثيراً عن أعضاء المجتمعات الفاضلة (اليوتوبيات) التكنولوجية (مثل أطلانتيس الجديدة لفرنسيس بيكون أو رواية السيد من حقل السبانخ لموسى صبري) .

وقد ذكرت في الموسوعة أن "بعض المؤرخين يرون أن العصر الحديث هو عن حق عصر نهاية التاريخ ، فالحضارة الحديثة المرتبطة بآليات السوق ، وبالعروض والطلب ، هي حضارة مرتبطة بآليات بسيطة لا نعرف تركيبتها الإنسان وتشكر قدرته على التجاوز ، فهو إنسان ذو بعد واحد (يعيش في مجتمعات أحادية الخط) ، وعقله عقل أداتي (يعرق في التفاصيل والإجراءات ، ولا يمكنه إدراك الأنماط التاريخية ولا تطوير وعيه التاريخي) . فالسوق (والصنع) بآلياتهما البسيطة يتطلبان إنساناً طبيعياً مادياً بسيطاً ، ليست له علاقة بالإنسان الإنسان ، الإنسان المركب . والمجتمعات الاستهلاكية التي لا تحكمها إلا آليات العرض والطلب والاستهلاك والإنتاج تزعم أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان المادية والروحية من خلال مؤسساتها الإنتاجية والتسويقية والترفيهية .

"ويلاحظ في العصر الحديث تزايد هيمنة البيروقراطية والتكنوقراطية والتحكم في البشر من خلال الهندسة الوراثية والبيولوجيا الاجتماعية وعمليات الترشيد المتحررة من القيمة ، وهذه علامة على شيوع فكرة نهاية التاريخ . وكما قال ألدوس هكسلي متهمكناً ، واصفاً إمكانات اليوتوبيا التكنولوجية والفردوس الأرضي : "سيحكم الأرض عالم جديد شجاع ، مبادئه المساواة والتماثل والاستقرار . وسيكون علم البيولوجيا العلم الأساسي في هذا العالم ، سيُمكن الإنسان من الحصول (من الحاضنة) على كائنات بشرية متشابهة وفق معايير موحدة . وسيعمل آلاف من التوائم على الآلات نفسها ، ويقومون بالأعمال نفسها ... " . ويُعلق علي عزت بيغوفيتش (المفكر المسلم ورئيس جمهورية البوسنة) على ذلك بقوله : "في هذا العالم الرائع لن يوجد أناس خاطئون ، قد يوجد بعض الأفراد المعاقين ، ولكنهم لا يكونون مسئولين عن إعاقتهم ، ولا يعاقبون عليها [ولذا] سيتم فكهم من الآلة بساطة . في عالم كهذا ، لن يكون هناك خير ولا شر . . ولن يكون هناك إلهام ولا مشكلات ولا شكوك ولا عصيان . هنا يتم القضاء على الدراما وعلى الإنسان وتاريخه ، ويرتفع صرح اليوتوبيا" .

"بل إن نهاية التاريخ أصبحت لأول مرة في تاريخ البشرية إمكانية قائمة بالمعنى الحرفي ، فالتلوث الكوني يتزايد إلى درجة تهدد الحياة على وجه الأرض ، وقد تراكم لدى البشر كم من الأسلحة يكفي لتدمير العالم أكثر من عشرين مرة . وهذه آلية تكنولوجية رائعة لإنهاء كل من التاريخ والجغرافيا بطريقة رشيدة بسيطة شاملة حديثة لا تسبب ألماً كبيراً ولا تستغرق سوى لحظات ، وهي من ثم تحقق حلم الإنسان العلماني الشامل بالتأله الكامل والتحكم الشامل في كل شيء ، وضمن ذلك يوم القيامة !

"وبرغم مركزية فكرة نهاية التاريخ (والحلول النهائية والفردوس الأرضي واليوتوبيا التكنولوجية) في الفكر الغربي الحديث عامة إلا أن حدة الحمى الطوباوية المشيخانية التكنولوجية تختلف من عقيدة لأخرى . فهي خافتة مثلاً في الفكر الليبرالي ، ولكنها ولا شك كامنة فيه ، فهو فكر يدور حول فكرة التقدم والإيمان بأن ما هو مجهول لابد من أن يصبح معروفاً (فلا مجال للمجهول أو للغيب) ، الأمر الذي يعني تزايد التحكم (الإمبريالي) في الواقع ، إلى أن يصل الإنسان إلى قدر عال من المعرفة العلمية بقوانين الطبيعة ، بحيث يمكن تحقيق ما يشبه السعادة الكاملة المخططة المُبرمجة ، أي الفردوس الأرضي .

"وإذا كانت الحمى المشيخانية التكنولوجية خافتة في النموذج النفعي العقلاني الديمقراطي الليبرالي ، فهي تزداد سخونة في الفكر الماركسي لدى حديثه عن المجتمع الشيوعي ، حيث تزول كل الحدود ويتطابق الداخل والخارج ويتحقق الفردوس الأرضي . وتصل السخونة إلى درجة العليان والانصهار في الستالينية حيث يتم إصلاح العالم بقروارات وزارية وعسكرية مادية جدلية علمية رصينة تطرح الحلول النهائية التي تكفل إزالة جميع العناصر المقاومة للتقدم وسائر

الانحرافات عن المسار المحتمي والواضح المؤدي إلى السعادة الكاملة وإلى تحقيق المجتمع الشيوعي العادل (وقد شبه أحدهم نهاية التاريخ بأنه بوليس سري يطرق على باب المعارضين) . وفي ألمانيا النازية ، كان الرايخ الثالث هو الترجمة المباشرة للعقيدة الألفية ذات الطابع الميثيخاني (وكان المفترض فيه أن يستمر لمدة ألف عام) . ففي الرايخ الثالث كان سيحكم القضاء على كل آلام الشعب الألماني ويتم تحقيق الرخاء الأزلي ، الأمر الذي كان يتطلب إزالة بضعة ملايين من الأطفال المعوقين والعجزة والفجر والسلاف واليهود ممن لا تنفع لهم ، فنهاية التاريخ تتطلب بطبيعة الحال الحل النهائي .

"ويمكن القول بأن النموذج الكامن وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية - الماركسية - الليبرالية - الصهيونية) هو ما يُسمى «التطور أحادي الخط» (بالإنجليزية: بوني لينيار unilinear) ، أي الإيمان بأن ثمة قانوناً علمياً وطبيعياً واحداً للتطور تخضع له المجتمعات والظواهر البشرية كافة ، وأن التقدم هو في الواقع عملية متصاعدة من الترشيد المادي ، أي إعادة صياغة الواقع الإنساني في إطار الطبيعة / المادة فتستبعد كل العناصر الكيفية والركبة والغامضة والمغفولة بالأسرار ، بحيث يتحول الواقع إلى مادة استعمالية بسيطة ويتحول الإنسان إلى كائن وظيفي أحادي البعد . ومن ثم يمكن توظيف كل من الواقع المادي والإنساني بكفاءة عالية . ثم تتصاعد عمليات الترشيد (والتنميط والتسوية) إلى أن يتحقق حلم اليوتوبيا التكنولوجية ، حين تتم برمجة كل شيء ، والتحكم في كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان ، ظاهره وباطنه (ومن ثم يمكن استنساخه ببساطة) . وعمليات الترشيد تأخذ شكل مراحل تمر بها كل المجتمعات البشرية (ومن هنا ولع الفكر الغربي بتقسيم التاريخ إلى مراحل محددة) .

"وتتصاعد عمليات الترشيد على مستوى العالم هو العولمة بحيث يصبح العالم كله مادة استعمالية ويصبح كل البشر كائنات وظيفية أحادية البعد يمكن التنبؤ بسلوكها . وتتصاعد معدلات الترشيد إلى أن تصل سائر المجتمعات البشرية إلى نقطة تعاقب عندئذ ويسود التجانس الكامل بينها ، وهذا ما يُسمى أيضاً «نظرية التلاقي» (بالإنجليزية: كونفيرجانس ليري conver- gence theory) . والتلاقي هو توحيد النماذج كلها بحيث تتبع نمطاً واحداً وقانوناً عاماً واحداً هو قانون التطور والتقدم بحيث يصبح العالم مكوناً من وحدات متجانسة ، ما يحدث في الواحدة يحدث في الأخرى . وقد أشار أحد المعلقين إلى أن ما يحدث الآن في العالم هو سقوط الماركسية وبدلاً من الماركسية ، ماركسيزم Marxism ، ظهرت عبادة السوق ماركتيزم - Marke- tism . وعبادة السوق هذه وهيمنتها على العالم بأسره ، بشماله وجنوبه وشرقه وغربه ، هي في واقع الأمر نقطة التلاقي التي تحدث عنها علم الاجتماع الغربي .

"وقد تنبأ ماكس فيبر بأن عمليات الترشيد ستؤدي إلى تحويل المجتمع إلى حالة المصنع وإلى إدخاله القفص الحديدي . ونحن نتفق معه تماماً في صورة القفص الحديدي ، ولكننا نذهب إلى أن

العالم سيحكمه إيقاع ثلاثي : المصنع (حيث ينتج الإنسان) - والسوق (حيث يشتري ويبيع) - وأماكن الترفيه (حيث يفرغ ما فيه من طاقة وتوترات وعُقد وأبعاد) ، أي أنه إيقاع يستوعب كلاً من الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني ويشبع جميع رغباتهم البسيطة الطبيعية أحادية البعد ، التي لا علاقة لها بأي تركيب إنساني .

وحينما يسيطر هذا الإيقاع الثلاثي على العالم بأسره يظهر النظام العالمي الجديد وأيديولوجيات نهاية التاريخ وما بعد الحداثة وما بعد الحداثة هي في واقع الأمر الإطار المعرفي الكامن وراء النظام العالمي الجديد ، فهي رؤية تنكر المركز والرجعية ، وترفض أن تعطي للتاريخ أي معنى أو أن تعطي للإنسان أي قيمة أو مركزية أو إطلاق ، وتُسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات) ، وتنكر التاريخ (عصر نهاية التاريخ) ، وتنكر الإنسان (عصر ما بعد الإنسان) . فالعالم حسب هذه الرؤية يفتقر إلى المركز ، فكل الأمور مادية ، وكل الأمور متساوية ، وكل الأمور نسبية ، فهو عالم في حالة سيولة كاملة (تماماً مثل النص textuality) حين يحيلك نص إلى نص قبله ونص بعده ، فيختفي المعنى وتختفي الحدود والهوية والمسئولية . وكما يقول فريدريك جيمسون ، الناقد الأمريكي الماركسي ، إن روح ما بعد الحداثة تعبر عن روح رأسمالية عصر الشركات متعددة القوميات حيث قام رأس المال (هذا الشيء المجرد المتحرك الذي لا يكثر بالحدود أو الزمان أو المكان) بإلغاء كل الخصوصيات ، كما ألغى الذات المتماسكة التي يتحد فيها التاريخ والعمق والذاتية ، وحلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء .

بعض الممارك الجانبية مع الصهيونية

بدأت في منتصف الستينيات إلقاء المحاضرات عن الصهيونية . كنت أملاً سيارتي بالكتيبات المناهضة للصهيونية ، وأنتقل من مكان لآخر ، وكنت نشطاً لدرجة أن مكتب الجامعة العربية في نيويورك طلب مني أن أعطي هذه المحاضرات باسمه ، نظير أن يدفع لي راتب شهري . فقبلت بطبيعة الحال ، ثم نشرت الكتيب الصغير المعنون «إسرائيل قاعدة للاستعمار الغربي» الذي سبق ذكره . وفي عام ١٩٦٧ ، بعد تأسيس المنبر الاشتراكي في جامعة رنجرز ، أُلقيت محاضرة كان عنوانها - كما أسلفت - «اشتراكي عربي يتحدث عن الصراع العربي الإسرائيلي» . وقد أحدثت المحاضرة دوياً كبيراً في الجامعة إذ يبدو أن الحضور ، وكان معظمهم من منظمة هليل ، وهي المنظمة الصهيونية التي تجمع بين الشباب اليهود والصهاينة في الجامعات الأمريكية ، كانوا يتوقعون متحدثاً على شاكلة متحدثي مكتب جامعة الدول العربية الذين كان من عادتهم آنذاك الهجوم على إسرائيل بعددًا "دولة شيوعية" (فمن المعروف في أوساط الجامعة العربية آنذاك أن الشيوعية ليست سوى مؤامرة يهودية) . كما كان من عادتهم الهجوم على اليهود

بحسبانهم مسيطرين على أمريكا المغلوبة على أمرها ، ناهيك عن حديثهم المحجوج عن بروتوكولات حكماء صهيون والمؤامرات اليهودية التلمودية التي لا تنتهي . فرجئ الحضور بخطاب جديد تماماً يميز بين الصهيونية واليهودية ، وبين إسرائيل واليهود ، وكانوا غير معدين لهذا الموقف - وحقق المنتدى الاشتراكي أول انتصار ساحق له .

وكان من بين الحاضرين أحد طلعتي اليهود ، الذي عاملته بمودة شديدة لأنه كان طالباً متميزاً . ورجعت به يأتيني بدعوة لزيارة إسرائيل . بطبيعة الحال لم أرفض مباشرة ، فهذا هو ما يطلبه الصهاينة . (إذ كانوا يحرمون آنذاك على إخفاء رفضهم للفلسطينيين وإنكار وجودهم حتى يظهروا بمظهر العقلانيين الذين يقبلون بالأمر الواقع ، والواقعيين الذين يقبلون الحقائق ، والمظلومين المرفوضين من قبل العرب لسبب غير مفهوم ، الأمر الذي يجعل المقاومة العربية تبدو كما لو كانت مجرد إرهاب لاعقلاني) . فوافقت شريطة أن أحصل على تأشيرة الدخول من منظمة التحرير الفلسطينية ، فرفض طلعتي بطبيعة الحال ووضعت طلعتي (والصهاينة) في موقف المدافع عن النفس ، وبيّنت أن الصهاينة والإسرائيليين يرفضون الاعتراف بالفلسطينيين . وبهذه الطريقة جعلت الجمهور الأمريكي يدرك أن عدم الاعتراف ليست مسألة لاعقلانية شاذة ، بل دليل أن إسرائيل ترفض الاعتراف بالفلسطينيين .

وقد لجأت لنفس الأسلوب لتوضيح مشروعية المقاطعة العربية لإسرائيل . فحينما ذهبت إلى المكسيك اشترت مجموعة من السجائر الكوبي . عادة ما نتجاهل الجمارك الأمريكية مثل هذه البضائع لأنها لا تهدد الصناعة الأمريكية ولا المقاطعة الأمريكية المفروضة على كوبا . ولكنني أخبرت موظف الجمارك أنني أحمل سجائراً كوبياً ، فاضطر إلى مصادرتي وإعطائي إيصالاً بأنني أدخلت بضائع محظورة واستخدمت هذا الإيصال في أحد البرامج التلفزيونية ، لأبين للمشاهد الأمريكي أن "المقاطعة" ليست أمراً غريباً شاذاً، وإنما هو أمر عالمي مشروع ، تلجأ له كل الدول في حالات معينة .

وفي أثناء حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كتبت مقالاً بعنوان "لا نهاية للتاريخ" . بدور حول نظرية الأمن الإسرائيلية وأنها استندت إلى إدراك المكان (الحدود الآمنة وخط بارليف) دون إدراك الزمان (التاريخ ومقدرة الإنسان على النهوض) . والزمان في الإدراك الإسرائيلي معطل . ولذا ، لم يكن بوسعهم أن يدركوا أن الإنسان العربي يمكن أن يستيقظ لتجاوز حسابات الخواس الخمس ويعبر عن إمكاناته الإنسانية . وأن ما حدث في أكتوبر هو هذا بالضبط ، وأن الإسرائيليين سيدركون من خلال ما حدث أن نظريتهم الأمنية لا أساس لها من الصحة ، وأن عليهم أن يتعاملوا مع الرمن وهو ليس في صالحهم . وقد ظل هذا المنهج هو الأساس في التعامل مع الظاهرة الصهيونية . أن أناول البنية والنمط الأساسي الكامن والثابت دون التفاصيل اليومية المتغيرة . وقد وصف الأستاذ هيكمل مقالتي السابق ذكره بأنه أحسن ما كتب عن الحرب . وقد سألتني :

كيف نجحت فيما أخفق فيه "الجورنالجية" ؟ ، أي كتابة مقال متميز يتسم بالبعد الإستراتيجي في أثناء الحدث نفسه ؟ فضحكت وقلت : لأنني لا أقرأ الصحف اليومية .

وبعد الحرب ، كنت أتابع وكالات الأنباء . فلاحظت تدهور صحة بن جوريون فقامت بإعداد مقال بعنوان "مريثة ديفيد جرين : بن جوريون ، موسى الثاني" لنشره عد وفاته . وقد حاولت في المقال أن أحل إشكالية الكتابة عن موت عدو ، فجعلت هذه الإشكالية هي نفسها موضوع المقال ، فقلت : "أمام الميلاد والموت تسقط كل الأقنعة ويقف الإنسان ليرى إنسانيته وإنسانية الآخرين وليؤكد تضامنه الشامل معهم ضد ما هو غير إنساني . وحينما وصلني نبأ موت بن جوريون ، حاولت قدر استطاعتي أن أسقط كل الأقنعة لأجابه الموت حتى ولو كان موت عدوي ، ولكنني اكتشفت أن قناعي هذه المرة هو وجهي ذاته . وحينما سألت نفسي عن السبب ، وجدت أنني لا يمكنني أن أفكر في موت بن جوريون إلا كعربي- مصري ، لأنه قضى حياته كلها منكراً علي إنسانيته بل ووجودي ذاته" . وكان المقال مُعداً للنشر ، وقد نُشر بالفعل في الأهرام (٢ من ديسمبر سنة ١٩٧٣) عند وصول نبأ موت بن جوريون ، وقد تناقلته وكالات الأنباء (ربما لأنه نشر في الأهرام . ولأنه كان من المقالات النادرة التي نشرت في الصحف العربية عند وفاة الزعيم الصهيوني) . وبرغم تركيبة خطابي ورؤيتي إلا أن الألة الإعلامية النهمة آلة اختزالية لا تعرف المنحيات الخاصة ، أو التساؤلات ، فالحقيقة بالنسبة لها إما بيضاء وإما سوداء . هل كاتب المقال مع بن جوريون أو ضده ؟ أي أنها تشبه الامتحانات الموضوعية التي تكون الإجابة على أسئلتها إما بنعم أو لا . وظهرت مجلة لومس المجلوس قائمز ، على سبيل المثال ، بخبر صغير يحمل عنوان "كاتب مصري يهاجم بن جوريون بعنف" ، وفي ثلاثة سطور قصيرة قالت لقرائها إنني ضده ولست معه ! لقد أصبح الإعلام اليومي مصدراً أساسياً لتسطيح العقول وفرض التقسيمات الثنائية الاختزالية .

وقد عملت مستشاراً ثقافياً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم . ولا توجد مثل هذه الوظيفة في الواقع ، ولكنني (بالاتفاق مع رئيس الوفد) أعطيت نفسي هذا اللقب لأحقق لنفسي بعض الحرية في الحركة بحيث يمكنني أن أتحدث عن القضية العربية كمثقف عربي وليس كمندوب للجامعة العربية . وبالفعل ، في داخل هذا الإطار ، أصبح بوسعي أن أدعى للجامعات للتحديث أمام الطلبة والأساتذة خارج إطار الممارك الإعلامية ، وأن أنشر الدراسات المختلفة عن الصهيونية والتي كان يُقرر بعضها في الجامعات . وكان أعضاء الوفد الإسرائيلي يحارون دائماً في اختيار "نطيري الدبلوماسي" .

وفي منتصف السبعينيات ، بعد عودتي إلى الولايات المتحدة للمرة الثانية ، تزايدت معرفتي باليهودية واليهود والصهيونية . وكنت أستخدم معرفتي هذه بطريقة هادئة ، ولكنها كانت تسبب ألماً شديداً للمستمعين من صهيانية ويهود . فكنت على سبيل المثال ، أشير متسماً

إلى أن يهود أمريكا غير مقبلين على أرض الميعاد لأنهم يحبون بابل الأمريكية اللديدة (فكل بلاد العالم بالنسبة للصهيانية هي "متفى"، و"بابل" هي الصورة المجازية التي يستخدمونها للتعبير عن هذه الرؤية) والدكر منهم يحبون البابليات الأمريكيات تماماً كما تحب الإناث منهن البابليين الأمريكيين (ومن ثم فمعدل الزواج المختلط يصل أحياناً إلى ٦٠٪ في بعض الولايات). كما كنت أشير إلى علمنة يهود الولايات المتحدة وانصرافهم عن الشعائر اليهودية. فكنت أشير إلى أنه إذا أتى أحد حاخامات اليهود من القرن التاسع عشر معنا، فإنه سيجد في أنا المسلم صفات «يهودية» أكثر مما يجد فيهم. فانا على الأقل مؤمن بالله وباليوم الآخر وهو الأمر الذي لا ينطبق على غالبية يهود أمريكا الساحقة.

أذكر مرة أن الجامعة العربية طلبت ترشيح أحد المتفقيين في الدين ليحضر حواراً تديره هيئة الأمم بين حاخام ورجل دين مسيحي وشيخ. وبعد أن صرح مدير المكتب الإسلامي في واشنطن بأن الإسلام لا علاقة له بالسياسة ورفض الحضور، استأذنت من السيد السفير، رئيس الوفد الدائم، بأن أذهب بحسباني "رجل دين" إسلامياً، وبدلاً من أن أتحدث في الاجتضاع من منظور إسلامي، تحدثت من منظور مسيحي/يهودي أخلاقي، وأخبرتهم بأن الوصايا العشر لا تسمح بقيام إسرائيل، فقد اغتصبت الأرض وطردت سكانها. وكانوا كلما يتحدثون حديثاً سياسياً أخبرهم بأننا كرجال دين لا علاقة لنا بالحلل البراجماتية العملية، بل لابد أن نصر على تطبيق القيم الأخلاقية المطلقة. وقد شعر رجل الدين اليهودي بحرج شديد إذ فوّت عليه الفرصة تماماً لترديد الديباجات الصهيونية المعتادة، وقد تعاطف معي رجل الدين المسيحي.

وحينما كان جمهوري اليهودي والصهيوني يأخذ موقفاً متعاليًا مني ويعلمون أن العرب قد هزموا وعليهم تقبل حقيقة الهزيمة، كنت أخبرهم بأنني على استعداد كامل لتقبل هذا المنطق الدارويني المتوحش، شريطة أن يفعلوا هم نفس الشيء مع هتلر الذي دحروهم وسحقهم وأبادهم. فكانوا يصابرون بذهول من هذه الأطروحة، التي تبين النموذج الكامن في قولهم، وهو نموذج لا يحبون بطبيعة الحال إدراكه أو الحديث عنه.

وقد أتيت لي فرصة الظهور مرتين في مناظرة تليفزيونية مع حاييم هرتزوج (رئيس دولة إسرائيل السابق) حينما كان رئيس وفد بلاده لهيئة الأمم. وقد بدأ هرتزوج حديثه في أحد البرنامجين بالإشارة إلى "هذا الشاب المجهول الذي أرسل به العرب"، أي إلى شخصي المتواضع للغاية. وكان الحديث يدور حول الذكرى العاشرة لحرب سنة ١٩٦٧. وكانت إستراتيجيته، باعتبارها جنراً سابقاً، أن يفرقني في المعلومات والتفاصيل العسكرية (فهذه هي نقطة قوته)، فاتبعت إستراتيجية مختلفة تماماً وهي الحوار معه من خلال الحركة التاريخية العامة (وهذه هي نقطة ضعفه). فحينما كان يتحدث عن حركة الدبابات مثلاً، كنت أتحدث أنا عن فشل الإسرائيليين الذريع في أن يضربوا بجنودهم في المنطقة، وأشارت إلى عبارة المؤرخ الإسرائيلي

يعقوب تالمون (عقم النصر) ، وهي العبارة التي وصف بها انتصارات إسرائيل العسكرية التي لم تحقق شيئاً . وفي أحد المشاهد ، ظهر الجنرال ممسكاً بالمؤشر وأشار إلى الدبابات ومعه الخرائط وكيف تحركت من هذا الموقع إلى ذاك . وحينما ركزت الكاميرا عليّ ، قلت ضاحكاً : "إنني لن ألعب هذه اللعبة ، ولن أعرق المشاهد في التفاصيل . فبعد عشرة أعوام من انتصار سنة ١٩٦٧ ، ماذا حقق الإسرائيليون ؟ ألم تشتبك معهم في حرب استنزاف مريعة ؟ ألم يدحلوها في حرب سنة ١٩٧٣ التي تكبدوا فيها الخسائر ؟ ألا تزال العمليات الفدائية مستمرة ، ولا يزال الرفض الفلسطيني قائماً ؟ فمهما حركت الدبابات يميناً أو يساراً ، فإن بعض الحقائق التاريخية والإنسانية تظل ثابتة لا تتحرك ، فهي تحتاج إلى شيء أكثر من الدبابات حتى يتغيرها" . وحين ركزت الكاميرا على هرتزوج وكانت علامات الضيق الشديدة واضحة علي وجهه ، وأصبح المؤشر الذي في يده (علامة الصرامة العلمية والعسكرية) وكأنه لعبة أطفال يلهو بها رجل كبير السن .

ومن أهم حوادث الاشتباك بيني وبين الصهيونية ، اشتراكي في النقاش الذي دار بين الصهاينة وأعدائهم على صفحات الجرائد وفي التليفزيون قبل صدور قرار هيئة الأمم المتحدة الخاص بأن الصهيونية حركة عنصرية وشكل من أشكال التمييز العنصري . فقد نشرت النيويورك تايمز في صفحة الرأي مقالاً لحاييم هرتزوج يدافع فيه عن الصهيونية بعددتها حركة تحرير الشعب اليهودي ، ويتهم كل من يهاجمها بأنه معادٍ للصامية (أي معادٍ لليهود واليهودية) . فكتبت على الفور للجريدة أطالب بحق الرد (لأن هرتزوج إسرائيلي وليس أمريكياً ، ولعلمهم لو أدرکوا ذلك لنشروا نفس المقال بقلم أمريكي) . فاضطرت الجريدة للموافقة ، وكتبت مقالاً بعنوان "الصهيونية والعنصرية : المنظور الإفريقي الآسيوي" لم أذكر فيه رأي العرب في الصهيونية وإنما رأي بعض زعماء آسيا وإفريقيا والأمريكيين السود في الصهيونية بعددتها حركة استعمارية استيطانية لا تختلف عما واجهوه هم في بلادهم من استعمار واستيطان . وختمتها بالإشارة للإسرائيليين واليهود المعادين للصهيونية ، وتساءلت : هل هؤلاء أيضاً معادون لليهود ؟ اضطرت النيويورك تايمز إلى نشر المقال ، وكان المقال العربي الوحيد الذي نُشر في أثناء النقاش ، وتناقشته صحف العالم وترجم إلى عدة لغات ، ووجدت نفسي محط اهتمام أجهزة الإعلام العربية ، وظهرت في عدة برامج تليفزيونية .

وقد تحركت المؤسسة الصهيونية للتصدي ، فنشر برنارد لويس Bernad Lewis مقالاً في مجلة الشؤون الخارجية (فورين أفيرز) Foreign Affairs يتحدث فيه عن عنصرية العرب . وقال إن بروتوكولات حكماء صهيون كتاب يتداوله كل الناقين العرب . فكتبت ردّاً عليه أبين فيه أن الصحف الشعبية قد تعمل هذا (كما هو الحال في الولايات المتحدة على سبيل المثال) ، لكن مراكز البحوث المحترمة لا تسلك هذا السلوك ، لأن البروتوكولات وثيقة لا تحوز على احترامهم .

وتحديث برنارد لويس أن يوثق ما قاله أو أن يُقدم اعتذاراً ، بحُسين أنه سب المثقفين العرب وأنا منهم . في البداية ، لم تنشر المجلة الخطاب ، فاقصت بالبروفيسر نعم تشومسكي وأحبرته بالموقف ، وقلت له إنني أنوي رفع قضية قذف وسأطلب عونه في هذا المضمار ، موافق . فكتبت للمجلة مرة أخرى وأخبرتهم عما أنوي فعله ، وأشارت إلى تأييد تشومسكي . فسارعت المجلة بشر الخطاب ومعه رد خائب من برنارد لويس ، ويبدو أنه استأجر مساعد باحث ليمرر أعماله كلها على يحد عبارة واحدة عنصرية ولكن خاب ظنه ، كما هو متوقع . ومع هذا ، فقد أشار إلى عبارة وردت في كتاب نهاية التاريخ كانت على شكل استفهام بخصوص أيمان وهل موقفه المطالب بتوطين اليهود في فلسطين يجعل منه صهيونياً ؟ وكانت إشارته من قبيل التمهك الذي لا مضمون له .

ولا يمكن أن التحدث عن معاركي مع الصهيونية دون أن أذكر المناظرات العديدة التي كانت تدور بيني وبين بعض الأساتذة الإسرائيليين . فكان هناك الجنرال متسياهو بيليد وبروفيسر بن هالبرن وعميد كلية الحقوق في جامعة تل أبيب عام ١٩٧٧ (لا يحضرني اسمه الآن) . وكانت المناقشات دائماً مهذبة إن لم تكن ودية والمرجعية كانت عقلانية . ولذا كان الأمر ينتهي بنا أنا والمتحدث الإسرائيلي (إن كان عقلانياً) إلى أن نتفق على كل شيء تقريباً لما كان يسبب له حرجاً شديداً ، لأن الانساق كان يتم في إطار الاعتراف بالفلسطينيين وحقوقهم . أما إذا كان المتحدث عنصرياً لعقلانياً فلننتي كنت دائماً أكسب الجولات (وقد ذكرت من قبل المناظرة مع البروفيسر ناير) .

كان هذا عادةً ما يحدث ، إلا مرة واحدة كان المفروض أن أتناور مع أستاذ تاريخ إسرائيلي اسمه (علي ما أذكر) عمانويل سيفان من جامعة تل أبيب . وكان مقرراً أن يدور الحوار في جامعة ييل Yale في جو أكاديمي هادئ (أمام جمهور محدود من طلبة الدراسات العليا) . ولذا أعددت نفسي أكاديمياً وتصورت أنه سيكون حواراً عقلانياً . فعرضت وجهة نظري بأسلوب هادئ ، وإذ بي أفاجأ بسيفان هذا يهاجم العروبة والإسلام بطريقة عنصرية غير عقلانية لم أر مثلاً من قبل أو من بعد . فأخذت على حين غرة ، لأنني لم أكن مستعداً لهذا النوع من الخطاب وتلعثمت وكان أدائي سيئاً للغاية ، بشكل لم أعهده في نفسي ، وكانت هزيمة سكراء تعلمت منها الكثير ، وأزعم أنها لم تتكرر مرة أخرى .

وقد قرر طلبة قسم الإعلام في جامعة كونيتيكت Conneticut تسجيل برنامج عني . فأخذوا بعض دراساتي حتى يُعد المحاور نفسه ، ولكن بدلاً من أن يأتوا بأستاذ محاورتي ، جاءوا بمشكلة شهيرة في المسلسلات التلفزيونية (ربما ليحققوا نصراً إعلامياً) تسمى إليزابيث إنجلش Eliza beth English . وقد استأت من سوء اختيارهم وعدم إخباري بشخصية المحاور ، وقررت إفشال البرنامج عن طريق عبور الخطوط الحمراء ، التي إن عبرها الإنسان أصبح الحوار مستحيلاً لأنه

سيتحدى كل مقولات الآخر المبذوبة ومن ثم لن تكون هناك أي أرضية مشتركة . فبدأت السيدة إنجلش هذه بأن أخبرتني بأنه من المعروف أن اليهود لم يندمجوا في أي من المجتمعات التي عاشوا فيها ، فأخبرتها بأن هذه مقولة لا يمكنني قبولها ، فوقائع التاريخ تبين عكس ذلك ، وأعطيتها شواهد على ذلك مثل أن عدد اليهود في القرن الأول الميلادي كان حوالي سبعة ملايين ، ومع القرن الخامس الميلادي كان عددهم لا يتجاوز مليوناً ، ولا يمكن تفسير هذا التناقص إلا من خلال افتراض اندماجهم . كما أخبرتها أن كل المؤشرات تدل على أن معدلات الاندماج بين يهود الولايات المتحدة أعلى من نظيراتها بين المهاجرين الآخرين . فقالت لكن من المعروف أنهم اضطهدوا عبر التاريخ ؟ فلم أوافقها هذه المرة أيضاً ، وأخبرتها بأن يهود العالم الإسلامي عبر تاريخهم لم تنظم ضدهم غارات أو مذابح (مثل تلك التي عُرِفَت في الغرب) ولم يعانون من الاضطهاد ، إلا في حدود ما هو إنساني وشائع ، فالعلاقة بين الأغلبية والأقلية كثيراً ما يشوبها التوتر . ونفس الشيء ينطبق على غالبية يهود العالم في الوقت الحاضر الذين يعيشون في الولايات المتحدة والعالم الغربي . فلم تدري ماذا تفعل سوى أن تطرح سؤالاً ثالثاً عن ارتباط اليهود بفلسطين ، وكيف تم تشتيتهم بعد سقوط الهيكل ؟ فأخبرتها أن الحقائق الإحصائية تقول غير ذلك . فعدد اليهود الذين تركوا فلسطين قبل سقوط الهيكل كان يفوق عدد اليهود الذين بقوا فيها . هنا وجدت السيدة المشكلة أننا لا نتفق على أي من المقولات المبذوبة ، وطلبت وقف البرنامج ، وكان لها ما أرادت . وقللت عائداً لبيتني في نيويورك .

وفي عام ١٩٨٦ ، قمت بزيارة لجنوب إفريقيا لمدة عشرة أيام وألقيت عدداً كبيراً من المحاضرات (تجاوز الخمس عشرة) . وكان من ضمن نشاطاتي الإعلامية حوار / مناظرة في تليفزيون جنوب إفريقيا مع اثنين : واحد منهما أستاذ علوم سياسية يهودي ليبرالي ، والآخر كان رئيس المنظمة الصهيونية ، الذي يسمى بقدر كبير من الغباء ، حتى إنه كان لا يزال يردد الشعار الصهيوني ، الذي يحرم الصهاينة الآن على إخفائه رغم أنه يشكل جوهر الرؤية الصهيونية للواقع : «أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض» . وبدلاً من مواجهة رئيس المنظمة الصهيونية جعلت تكتيكي الإعلامي في ذلك البرنامج محاولة توسيع رقعة الاتفاق بيني وبين الأستاذ الليبرالي وتوسيع رقعة الخلاف بيننا وبين السيد رئيس المنظمة . فكنت أقول : "كما يقول سيل (اسمه الأصلي وليام) ... ، "أنا أتفق مع بيل ... وهكذا . وقد نجحت الخطوة ، ولم ينتبه السيد "بيل" إلى خطتي إلا في نهاية البرنامج ، وحاول التملص مني دون جدوى ، إذ كنت ألاحقه مصراً على أن رقعة الاتفاق بيننا كبيرة للغاية . وانتهى البرنامج بالسيد رئيس المنظمة يتفوه بكلام لا معنى له ، وظهر بمظهره الصهيوني العنصري الحقيقي . وقد سمعت من أصدقائي في جنوب إفريقيا ، أنه عُزل من منصبه بعد هذا البرنامج .

وقد لاحظت في منتصف السبعينيات أن اليسار في الولايات المتحدة ، بعد انتهاء حرب

فيتنام، قد أصبح بلا قضية، وأنه كان قد بدأ يركز بشكل واضح على جنوب إفريقيا، فافترحت على اللجنة الإعلامية لجامعة الدول العربية أن تقوم بإعداد كتاب عن موضوع علاقة إسرائيل بحزب إفريقيا لبوزع على أعضاء وفود الدورة عام ١٩٧٧، لكن الطلب رُفِض (وقصر النظر سمة عامة في الإعلام العربي في الولايات المتحدة). فقامت باستئجار مساعد باحث على نفقتي، وبدأت في إعداد الكتاب. وحينما بدأت الدورة، فوجئت اللجنة الإعلامية بأن موضوع جنوب إفريقيا مدرج بالفعل على جدول الأعمال، فطلبوا إعداد نشرة إعلامية وسريعة عن الموضوع. ولكنني أخبرتهم أنني كنت قد أعددت بالفعل كتاباً كاملاً عنه، ودعوت الأستاذ ريتشارد ستيفنس Richard Stevens إلى أن يساعدني في إصدار الكتاب على أن يكون هو المؤلف الأول، برغم أنني - والله على ما أقول شهيد - كنت قد أعددت كل المادة المطلوبة، ولكنه يحمل اسماً أمريكياً، كما أنه أستاذ مشهور في حقول الدراسات الإفريقية، وكل هذا يعطي مصداقية للكتاب. وفي خلال أسبوعين، تم إعداد الكتاب وطبعه ونشره تحت عنوان إسرائيل وجنوب إفريقيا: تطور العلاقة بينهما Israel and South Africa : The Progression of a Relationship وكان كتاباً وثائقياً معلوماتياً يهدف إلى إثارة العلاقة بين الحسنيين.

الاستيطانيين وإلى نزع القداسة عن الدولة الصهيونية، فهي دولة لا تدور في إطار المقدسات والمطلقات اليهودية (كما يحلو لبعض الصهاينة الزعم أحياناً)، وإنما هي دولة استيطانية إحلالية لا تختلف كثيراً عن أي دولة استيطانية أخرى، نسيج من حركات الاستعمار الغربي، وليس من التاريخ اليهودي. (وقد طبعت من هذا الكتاب عدة طبعات وترجم إلى عدة لغات مع أن الأبعاد المعرفية والنظرية فيه تكاد تكون منعدمة). وزع الكتاب على الوفود، وأحدث صدوره دوياً كبيراً. وفي العام نفسه، كنت في مناظرة مع الجنرال متيتياهو بيليد (الشخص في الأدب العربي ولجيب محفوظ بالذات)، فمبّر عن دهشة لي من كفاءة الجامعة العربية ومقدرتها على إصدار كتاب علمي كامل عن جنوب إفريقيا وإسرائيل بهذه السرعة.

وقد تعلمت أن الآلة الإعلامية آلة بلهاء تود الدوران بأي شكل مادامت هناك معلومات وحقائق وأخبار، فقامت بإرسال هذا الكتاب المعلوماتي لمعظم الصحف والجرائد وكانني الأعمدة لأعطيهم مادة يستخدمونها في كتاباتهم. وبالفعل، بعد عدة شهور، كانت الآلة البلهاء تتحرك. وظهرت عدة مقالات عن موضوع التعاون بين إسرائيل وجنوب إفريقيا، الأمر الذي اضطر الإسرائيليين إلى الرد على الاتهامات الموجهة إليهم.

وفي هذه الآونة أرادت الجامعة العربية إصدار نشرة صغيرة تهاجم الصهيونية والعنصرية بلا هوادة وبكل عنف (وما أكثر هذه النشرات التي تجد طريقها إلى سلة المهملات)، وعُهد إليّ بتنفيذ هذه المهمة. ولكن بدلاً من ذلك استأجرت على نفقتي الخاصة طابعاً على الآلة الكاتبة ومساعد باحث ليجمع لي المادة العلمية (لا يعرف الكثير من الأساتذة مسألة مساعد الباحث

هذه ، ويخلطون بينها وبين التآليف ، ولذلك يقومون بإعداد كل شيء بأنفسهم مما يستند طاقاتهم . ولكني والحمد لله اكتشفت وظيفة مساعد الباحث هذه في مرحلة مبكرة من حياتي لأنني أفرق دائماً بين الحقائق والحقيقة ، وبالتالي بين التجميع والتآليف . وجعلت وظيفتي هي التآليف لا التجميع . ولولا هذا التفريق لما انتهيت من أي من أعمالي ولنهضني الذئب الهيجلي المعلوماتي تماماً) . وكانت الثمرة هي كتاب أرض الوعد : نقد الصهيونية السياسية The Land of Promise : A Critique of Political Zionism وهو تاريخ للصهيونية من خلال موضوعات ، يهدف إلى تزويد الجامعات الأمريكية بكتاب يمكن استخدامه في المقررات الجامعية التي تتناول الصراع العربي / الإسرائيلي ، وقد كُتب الكتاب بحذر شديد دون أي مغامرات فكرية أو منهجية ، ودون تكشف لأي آفاق جديدة كما هو الحال مع معظم الكتب الأكاديمية التي تدرس في الجامعات . ولكن الكتاب ، مع هذا ، يصدر عن نموذج تحليلي واضح كما يضم مواد معلوماتية جديدة ساهمت في عملية تحديث موسوعة ١٩٧٥ . (إذ كنت أعد آنذاك الملفات التي استخدمتها فيما بعد في كتابة الموسوعة) .

وحينما أصبح الكتاب جاهزاً للنشر ، وجدت أنه يمكن لناشر كبير أن ينشره ويقتله (كما فعلوا مع كتاب جاري سمث Gary Smith عن الصهيونية الذي نشرته دار بارنز ونوبل Barnes and Noble) ، أو أن يقوم ناشر صغير ليس عنده أي إمكانيات للإعلان والتوزيع بنشره ، وهو ما يعني أيضاً قتله . فدرست مسألة إقامة دار نشر تقوم بنشر الكتاب ، فوجدت أن المسألة لا تكلف كثيراً ، وبالفعل أسست (مع صديق مصري) داراً لنشر دراساتي وأي دراسات مماثلة ، وقد سميتها اسماً غير عربي غير إسلامي بالمرّة (نورث أميركان North American ، أي الأمريكي الشمالي) ، وبإمكانيات مالية محدودة تمكنا من الكتابة لكل أساندة دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة وإنجلترا وأرسلنا بالكتاب للمعرض في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب ، بل أعلننا عنه في الجلات الصهيونية وفي بعض الصحف الإسرائيلية . ونجح الكتاب تجارياً وقرر في حوالي ٢٥ جامعة أمريكية ، ودُعيت لإلقاء المحاضرات على الطلبة الذين يدرسون الكتاب . ورشحته مجلة تشويي Choice (الخاصة بشؤون المكتبات) بعدة مناسبات لمكتبات الجامعات ، ففوجئنا بوصول ما يزيد على خمسمائة طلب مرة واحدة! وأعادت الدار نشر كتاب إسرائيل وجنوب إفريقيا . وقد حققت دار النشر نجاحاً كبيراً للدرجة أنه بدأت تصلنا مخطوطات لكتب علمية لنشرها . ولم يكن عند الدار لا الإمكانيات المالية ولا العلمية لفحص مثل هذه المخطوطات ونشرها ، فكانت تجربة فكرية وتجارية ناجحة . وحينما صدر كتاب أرض الوعد استشاط السيد السفير رئيس الوفد الدائم غضباً لأنه كان يريد كتاباً إعلامياً ملتهباً لا كتاباً أكاديمياً هادئاً . ومع هذا حينما حضر السيد الأمين العام للجامعة العربية ، وكان الكتاب قد حقق نجاحاً لا بأس به ، أخبره أن هذه هي إحدى نشاطات المكتب !

وبعد صدور الكتابين ، ومع احتفاظي بمكاني كأستاذ جامعي (فأنا لم أكن - حسب صفتي الرسمية - سوى مستشار ثقافي لوفد الجامعة العربية ، لا علاقة لي بالعمل الدعائي) أصبح من الممكن أن أتحدث بهذه الصفة . وقد قامت إحدى الجمعيات العربية / الأمريكية بتنظيم زيارات لبعض أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ الأمريكي (كان من بينهم السناتور ماسكي ، الذي كان من المتوقع أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية) لأحدثهم عن علاقة إسرائيل بجنوب إفريقيا ، وعن الصهيونية ككل . وهذا ما يسمى لوبيج lobbying ، أي أن يحاول المرء التحرك خلف الكواليس ليؤثر في صانع القرار الأمريكي . وكنت أقابل عضو الكونجرس أو مجلس الشيوخ لبضع دقائق بروتوكولية ، يحولني بعدها للشخص المختص بجنوب إفريقيا ، إذ كان يتبع كل واحد منهم مجموعة كبيرة من المستشارين والمتخصصين .

وكان من أهم الزيارات التي قمت بها زيارتي لكاتبتي العمود الشهير إيفانز ونوفاك ، وكان مقرهما هو فيلا ضخمة مليئة بالمستشارين والمتخصصين . وقابلت مستر إيفانز لبضع دقائق بروتوكولية ، وقدمني للمختص بإفريقيا ، وكان حاصلاً على الدكتوراه من جامعة هارفارد . وذهبتا لمكتبه وجلسنا مدة ساعة نتناقش في موضوع إسرائيل وجنوب إفريقيا ، وكان ملماً بالموضوع ، ولذا كانت أسئلته ذكية للغاية . وكان يصعب كل هذا في ذلك العمود اليومي .

إن الإعلام العربي في الولايات المتحدة (إلى جانب غرفه في الستينيات في فكر المؤامرة) كان يتسم بضيق النظر ، وبأنه موجه إلى القاهرة والرياض ودمشق وليس إلى واشنطن ونيويورك وبوسطن . فالقائمون على الإعلام العربي يمثلون بلادهم ويعيشون محصورين في نطاقها معزولين عن بينهم الأمريكية ، فلا يدركون قط آليات وحركات المجتمع الأمريكي . ناهيك عن الفساد الذي تطول قصته إن بدأت في روايتها .

حينما كنت طالباً في الولايات المتحدة في الستينيات ، كان المهمة الوحيدة تقريباً لأحد الموظفين هي القيام بإعداد برنامج إذاعي أسبوعي يسمى «عرض الصحافة العربية» (بالإنجليزية : Arab Press Review) يتكون من مقتطفات من الصحف العربية . وكان هذا الموظف يود القيام بإجاعة لمدة شهر ، فطلب مني أن أحل محله مؤقتاً ، وقد فعلت ، ولكنني اكتشفت أن إعداد هذا البرنامج يستغرق أقل من يوم . كما أن صاحبنا كـ ، يجعل البرنامج بياناً ملتهباً ضد إسرائيل . فأخذت في تنويع المقتطفات . وتناولت موضوعات مختلفة مثل الاكتشافات الأثرية والعمران المتزايد في الدول العربية (وكان هذا حقيقة في الستينيات) . وهنا بدأت الشكاوى تنهال على محطة الإذاعة من أن البرنامج معادٍ للسامية (وهذه هي التهمة الصهيونية المعتادة) . وقد اندهشت مقدمة البرنامج الأمريكية ، لأنني في واقع الأمر ابتعدت عن السياسة . وما لم تفهمه هو أن البرنامج أصبح له جمهور (بعد أن كان مجهولاً) . وقد سبب هذا عصاة للصهيانية ، ولم يكن أمامهم من حيلة سوى أن يلصقوا بالبرنامج هذه التهمة ، على

أمل أن يوقفوه ، ولكنهم والحمد لله لم ينجحوا . وحينما عاد صديقنا من إجازته وجد أن عمله قد دوي وانتهى لأنني أنجز في أقل من يوم ما كان يستغرق كل وقته ! فقلّبت مني الاستمرار في العمل وعُهد له بوظائف كتابية . وقد رثيت كثيراً لصاحبنا ، لكنه كان مثل العشرات غيره لا يعرف المجتمع الأمريكي ولا يجيد التعامل معه ولا يواكب إيقاعه .

وأذكر أنني حين كنت في جامعة بنجرز ، بعد حرب سنة ١٩٦٧ ، كان لي صديق أمريكي يدرس معي في الجامعة وكان يقدم برنامجاً إذاعياً يتلقى فيه مكالمات المستمعين . ولكن بدلاً من أنه يدعوني (وكان يعرفني جيداً) ، قام بدعوة أحد موظفي الجامعة العربية (الذي لم يكن يجيد الإنجليزية) ، وهذه حيلة يستخدمها الإعلام الغربي ! فأخذ صاحبنا يتحدث عن البروتوكولات والمؤامرة الشيوعية . ولم يكن يفهم كثيراً من الأسئلة التي توجه له ، وحينما كان يفهم بعضها ، كان يجيب عليها بالإنجليزية ساذجة جعلت منه أضحوكة حقيقية .

وقد وقعت لي حادثة من نوع مختلف قليلاً في أثناء عملي في الوفد الدائم عام ١٩٧٦ . وصل موظف مصري برتبة نائب سفير يتسم بسمات البروقراطي المصري الحقيقي ، ولكن بشكل متطرف ومتبلور . لم يكن همه الإعلام وإنما الهيراركية الوظيفية ، أي التدرج الهرمي . وحيث إنه لم يكن لي مكان واضح في سلم الوظائف (لأنه تم التعاقد معي محلياً) فقد أصيب بحيرة شديدة وبغيرة أشد ، خاصة أن أعضاء الوفود العربية كانوا يقولون له : " أنت مع د . المسيري في الجامعة العربية ، أليس كذلك ؟ " ، إذ إن صيتي كان قد بدأ يذيع بعض الشيء . أذكر أنني كتبت مرة رداً من الجامعة العربية على أحد الاتهامات الصهيونية التي لا تنتهي ، وكتبته في حدود الخطاب الغربي وطلبت من السفير قراءته في التلفزيون . ولكن هذا البروقراطي المصري أخذ تعليقي وأحل محله تعليقاً كتبه هو بنفسه وكانت كارثة كبرى ، لأنه كان موجهاً للعواصم العربية ، مليئاً بالمبارزات الخطابية الرنانة والحقائق الثقيلة التي لا مكان لها في مثل هذا التعليق . وكانت النتيجة أنه وردت لوفد الجامعة العربية تعليقات سلبية من كل الوفود العربية الأخرى .

ولكن موظفنا لم يرتدع ، واستمر في ممارسة نشاطه الإعلامي الأبله وسلطاته الهيراركية ، وجعلني هدفاً أساسياً لهجماته . فعلى سبيل المثال ، قسّم موظفي مكتب الجامعة العربية إلى موظفين دبلوماسيين (أي من موظفي الجامعة العربية المرسلين إلى الخارج) وموظفين محليين لهم وظائف محددة و"آخرين" ، أي السعاة وغيرهم ووضعني أنا ضمن "الآخرين" . وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون ، إذ كانت تعني ، إلى جانب أنها إهانة شخصية كبيرة ، أنني لن أقوم بأي عمل إعلامي - فاضطرت للجوء للأستاذ محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية من خلال الأستاذ هيكل - فحضر إلى نيويورك (وكان يعرف بنشاطي فقد شاهدني في البرنامج التلفزيوني مع هرتزوج) ، وطلب من السيد نائب السفير ألا يتعامل معي علي الإطلاق ، على أن تكون معاملاتي مع السيد السفير مباشرة ، مما سبب له حرجاً شديداً أمام

أعضاء الوفد والموظفين ، ولكن - للأسف - كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا الشيء البيروقراطي . وفي نهاية الأمر ، وقّعت مصر اتفاقية كامب ديفيد ، فترك صاحبنا وفد الجامعة العربية وأخذ معه كل ميزانيتها ، وألحق نفسه بالوفد المصري ، في مكانه الوظيفي المناسب بطبيعة الحال !

ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التي تنم عن مدى عطب الإعلام العربي في الولايات المتحدة . فقد قررت كتابة بحث عن علاقة الصهاينة بالنازيين ، خاصة وأنني بدأت أرى أنه تم نشر بحوث كثيرة بالألمانية في هذا الموضوع من وجهة نظر جديدة ، كما تم رفع السرية عن بعض الوثائق الخاصة بالموضوع . بل ولاحظت أن وثائق وزارة الخارجية الألمانية في عهد النازي كانت متاحة ، وأنه لم يقم أي باحث بقراءتها من وجهة نظر غير صهيونية . وقد قابلت باحثين : أحدهما أمريكي والآخر مصري متخصصين في هذا الموضوع . وبدأنا في البحث ، ولكن بعد أن استولى البيروقراطي على ميزانية الجامعة ، أصبحت الاعتمادات غير متوافرة ، فطلب مني أن أستمّر في البحث مؤقتاً على نفقتي الخاصة ، وقد فعلت وجمعتنا مادة ضخمة بالإنجليزية والألمانية واليديشية (من بينها نص محاكمة الصهيوني رودولف كاستر الذي حوكم في إسرائيل بتهمة التعاون مع النازيين في ترحيل يهود المجر) . وحينما حان وقت العودة إلى مصر ، طلبت أن يقوم مكتب الجامعة بتعويضني عما دفعت ، فرفضوا بحجة أنه لم يتم بعد توفير الاعتمادات المطلوبة (وكانت هذه كذبة كبيرة) . فطلبت أن أعطى إيصلاً ، فاتصلوا بالبيروقراطي المصري لسؤاله عما إذا كان هناك قرار خاص بهذا البحث !! وكان معي نسخة منه لحسن الحظ . المهم انتهى الأمر بأن سلمت المادة البحثية إلى مكتب الجامعة العربية وحصلت على الإيصال المطلوب . وحاولت بعد ذلك أن يقوم مكتب الجامعة في تونس بدفع تلك التكاليف لي ، وأن يسرد المادة البحثية ، وظلت المحاولات قائمة لعدة سنوات ، إلى أن أخبروني بأن المادة قد ضاعت وأن مكتب الجامعة في نيويورك يرفض دفع مستحقاتي !

وإلى جانب هذا التقدير (أو هذه البلطجة) هناك عمليات النهب . فعلى سبيل المثال ، كان مكتب الجامعة بدأب على نشر إعلانات في جريدة النيويورك تايمز تكلف عشرات الآلاف من الدولارات بلنتهم جزءاً كبيراً من ميزانية الإعلام العربي في الولايات المتحدة ، وكان مردودها أقرب إلى الصفر . فقدمت اقتراحاً لمكتب الجامعة بإلغاء هذه الإعلانات وتوفير الاعتمادات ، على أن نلجأ إلى ما سميت المنظمات الواجهة (بالإنجليزية : front organizations) : فرنت أورجانيزيشنز - front organizations ، أي إقامة منظمة أمريكية تكون مهمتها الإعلام عن القضايا العربية دون أن تكون مصنفة على أنها مؤسسة إعلامية عربية (لما يجعل الجمهور الأمريكي يتصرف معها) كانت كل هذه الاقتراحات ترفض فوراً دون أن أعرف السبب ، ولكنني عرفت فيما بعد أن هذه الإعلانات كانت هي المصدر الأساسي للعمولة لكبار الموظفين !

الأيدولوجية الصهيونية

صدر لي عام ١٩٨٠ - ١٩٨١ كتاب من جزأين بعنوان الأيدولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة ، والكتاب يعبر عن رؤيتي في الصهيونية حتى تلك اللحظة ، ويحتوي على معظم ما جاء في كتاب أوض الوعد الذي صدر بالإنجليزية بعد إدخال كثير من التعديلات والإضافات ، وبالأذات فيما يختص بالمنهج . وقد استفدت كثيراً بالملفات التي كنت أعدها لتحديث موسوعة ١٩٧٥ .

ويذهب الكتاب إلى أن الأيدولوجية الصهيونية أيدولوجية عنصرية معادية لكل من العرب واليهود ، وأنها إحدى تجليات التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي ، يأخذ شكلاً إحلالياً . ويلاحظ أن البعد المعرفي قد أصبح أساساً كما هو واضح في العنوان الفرعي للكتاب الذي كان يضم ملحقاً مستقلاً عن علم اجتماع المعرفة . كما يلاحظ أن الموضوعات الأساسية في عالمي الفكري قد تزايدت تداخلها عن ذي قبل ، وبدأت رؤيتي للنازية تنضح بحسبانها تعبيراً عن نموذج كامن في الحضارة الغربية ، نموذج التحديث والترشيد والعلمنة . ويثبت أن معظم الدراسات التي تتناول الظاهرة النازية تهمل إبراز حقيقة أنها - شأنها شأن الصهيونية - لم تكن مجرد انحراف عن الحضارة الغربية وإنما كانت تياراً أساسياً فيها ، وتحققاً لنموذج حضاري كامن .

فالحضارة الغربية - كما جاء في الكتاب - هي حضارة تكنولوجية تُعلي من قيم المنفعة والكفاءة والإنتاج والتقدم مهما كان الثمن المادي والمعنوي المدفوع فيها ، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دالماً ، وبنت أن الحل النازي للمسألة اليهودية لا يختلف كثيراً عن الحلول الغربية الإمبريالية المطروحة للمشكلات المماثلة . فالنازية والإمبريالية يصدران عن الإيمان بفضوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى ، وأن هذا التفرق يعطي الحق للآرين في أن يتخلصوا من مشكلاتهم عن طريق تصديرها للبلاد الأخرى ، حتى ولو أدى هذا إلى إبادة السكان الأصليين . والحل النازي لا يختلف عن ذلك ، فهو محاولة لتصدير المسألة اليهودية إلى الدول الأوروبية الأخرى (حيث إن المجال الحيوي للاستعمار النازي كان في أوروبا) .

وقد أشرت إلى ظاهرة مشتركة بين النازيين والصهاينة (وهي أيضاً سمة أساسية للحضارة الغربية) ، هي عقلانية الإجراءات والوسائل ولاعقلانية الهدف . وقد أشار ماكس فيبر لهذه الظاهرة في كتاباته . فعملية العقلنة ، أو الترشيذ ، التي يتحدث عنها تنصب على الوسائل والأدوات وحسب ، أما الأهداف فهي أمر متروك لاختيار الأفراد . ومعسكرات الاعتقال والتعذيب ، سواء في ألمانيا النازية أم في إسرائيل الصهيونية ، هي مثال جيد على هذا الجانب في الحضارة الغربية . فهذه المعسكرات منظمة بطريقة « منهجية » تحسب فيها حسابات المكسب والخسارة ، وتُحسب المدخلات والمخرجات . حتى التعذيب لا يتم بشكل عشوائي فردي ، وإنما

يتم بشكل مؤسسي منظم . أما الهدف من معسكرات الاعتقال والإبادة والتعذيب ، أما المصون الأخلاقي لهذه الأشياء ومدى عقلانيتها من منظور إنساني (لأن فكرة العقل والعقلانية لا وجود لهما خارج فكرة الإنسان) ، فكل هذا متروك للزعيم أو للدولة أو للأهواء الشخصية أو للأسطورة الدينية القومية .

وقد تناولت موضوع علاقة النازية بالصهيونية بشكل أكثر عمقاً في الموسوعة ، وظهرت المداخل الخاصة بهذا الجزء في كتاب مستقل بعنوان الغازية والصهيونية ونهاية التاريخ : رؤية حضارية جديدة حاولت أن أدرس فيه البنية المعرفية العميقة لكل من النازية والصهيونية التي توضح تماثلها ، وأن أستعيد الإمبريالية كمنقولة تحليلية أساسية في كل الظواهر العربية الحديثة . ففقت بتعريف الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها ، وبوضع ظاهرة الإبادة في سياقها الحضاري العام الغربي ثم في سياقها الحضاري السياسي والألماني . وتناولت بعض الإشكاليات التي تنبرها الإبادة النازية ليهود أوروبا (إشكالية انفصال العلم عن القيمة - توظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها - إشكالية الحل النهائي - قضية عدد الضحايا - الجريمة النازية - ملاحقة مجرمي الحرب النازيين - إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية [خصوصاً الصهاينة والنازيين] ، ثم وضحت بعض المصطلحات التي استخدمتها في هذه الدراسة [النموذج - الطبيعة / المادة - العقلانية المادية واللاعقلانية المادية - الحلولية الكمونية الواحدة - الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة - ترشيد - حوسلة - داروينية اجتماعية - ترانسفير - نهاية التاريخ ، الذي بينت علاقته الوثيقة بفكرة الحل النهائي والنموذج المادي] .

وقد بينت في مقدمة الكتاب أنه سيحاول أن ينجز أهدافه بدون التقليل بأي حال من فداحة الجرم النازي ضد اليهود (والسلاف والفجر وغيرهم) ، ولكن دون السقوط ، بقدر ما هو ممكن إنسانياً ، في التحيزات والرؤى والمقولات السائدة في الخطاب الغربي بشأن الإبادة النازية . فالتقليل من حجم الجريمة النازية بشكل فسلأ معرفياً وأخلاقياً . أما من الناحية المعرفية فهو يعني فشل المرء في إدراك واحدة من أهم سمات الحضارة الغربية الحديثة ، أي نزعتها الإبادة . أما الغسل الأخلاقي فهو فشل الإنسان المسؤول أخلاقياً الذي رأى جريمة ترتكب ضد مجموعة بشرية فآثر الصمت وزيف الحقائق حتى لا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . ونحن نؤكد هذا برغم معرفتنا بأن الصهاينة وظفوا واقعة الإبادة في خدمة أهدافهم الإعلامية ، وفي ابتزاز الحكومات ، وفي تبرير الغزو والاستيطان والإرهاب . ولكن هذه جميعاً اعتبارات عملية غير معرفية وغير أخلاقية . ونحن نذهب إلى أن إيضاح الحقيقة المركبة كفيلاً في حد ذاته بأن يفشل محاولات الصهيونية توظيف الجريمة الغربية النازية لخدمة الجريمة الصهيونية التي تعتبر تجلياً آخر للحضارة نفسها وللنمط نفسه .

دراسات أخرى في الصهيونية

وقبل أن أنتقل إلى الموسوعة ذاتها ، يجب أن أشير إلى بعض الدراسات الأخرى ، وكلها نصب في الموسوعة أو تبع منها . وأولى الدراسات التي يجب ذكرها هو كتابي عن الانتفاضة . كنت قد كتبت مقالاً (في فبراير عام ١٩٨٤) في جريدة الرياض بعنوان "إلقاء الحجارة في الضفة الغربية" أتت فيه بالانتفاضة قبل وقوعها بأعوام ، وبأن استخدام الحجارة سيكون أحد أهم أشكال النضال الأساسية . لكل هذا حينما نشبت الانتفاضة ، ملأني الأمل وبدأت أرصدها بعيني محب . وكتبت قصيدة بعنوان "أغنية إلى البنت النفوز" تصل إلى ذروتها في هذه الأبيات : "أيتها البنت النفوز ، / يا من تلدين الجند والشهداء والأغاني ، / في عينيك أوقرت المعاني ، / وبين يديك عادت الدلالة للكلمات" .

وفي النهاية ، وجدتني "مضطراً" لكتابة دراسة عن الانتفاضة . أقول "مضطراً" لأن الموسوعة في هذه اللحظة كانت قد أمسكت بي وأحكمت قبضتها عليّ ، وأصبحت (منذ أواخر السبعينيات) هي الشغل الشاغل في حياتي الفكرية .

وحينما نشبت الانتفاضة لم أكن متأكداً أنني كتبت المقال ونشرته بالفعل ، فكثيراً ما أتتني بوقوع حدث ما ، نتيجة لتحليل سياسي أو فلسفي ، ولكن كثرة مشاغلي تحول دون كتابة مقال في الموضوع . وحينما يقع الحادث ، أندم على تقاعسي . وخفت أن يكون قد حدث الشيء نفسه وسارعت إلى أوراقي ولكنني وجدت المقال ، والحمد لله . وقد حدث شيء شبه بهذا مع عبور عام ١٩٧٣ ، فكنت ألقى محاضرة لبعض القيادات المصرية ، وطرحتم عليهم فكرة أن الإسرائيليين يعتمدون إخافتنا بخط بارليف ، وأن هناك من الدلائل ما يشير إلى خوفهم العميق منا . كنت لاحظ ، على سبيل المثال ، أنه حينما ينشب حريق ما داخل إسرائيل ، فإنهم عادة ما ينشرون الخبر في الصفحة الأولى ، ويسارعون إلى التأكيد بأن الحريق ليس متعمداً . كما لاحظت مرة أن فلسطينياً وضع قبلة في سينما في حيفا ولم تنفجر ، ومع هذا اجتمعت الوزارة الإسرائيلية لمناقشة "الحادث الذي لم يحدث ، والواقعة التي لم تقع" . كل هذا أقنعني بمخاوف الإسرائيليين الشديدة ورغبتهم في إخافتنا ربما لصخبه مخاوفهم . وهذه المخاوف كانت تقف شاهداً على أن الدعيمات العسكرية التي يتباهون بها ربما لا تكون بمثل هذه القوة التي يدعونها ويحرصون على الإعلان عنها . وفي هذه المحاضرة التي ألقيتها في إبريل عام ١٩٧٣ ، أي قبل العبور بعدة شهور ، اقترحت على هذه القيادات أن تعبر القوات المصرية إلى الضفة الأخرى من القنال . وهناك ، بعد العبور ، سنكشف العدو وإمكاناته الفعلية ونعيد تشكيل خططنا بناءً على ذلك . المهم ثارت القيادات ضديّ واتهموني بالعمالة لإسرائيل (وهو اتهام نلقيه عادة في وجه كل من نخلف معه) وبمحاولة زج القوات المصرية في حرب لا قبل لهم بها ، وأنه يجب أن ندرس إسرائيل بموضوعية شديدة ولمدة طويلة للغاية (حوالي ٢٠ سنة) قبل أن ندخل معها في

حرب . اصطدمت بجمهور المستمعين ، وفكرت في أن أكتب مقالاً يومياً في الأهرام بعنوان "بوكر طوف شلومو" ، "صباح الخير يا سليمان" يكون موجهاً للإسرائيليين وللمصريين ، يكون هدفه أن يجمع من الصحف الإسرائيلية ما يبين مخاوف الإسرائيليين العميقة ، ومن ثم يساهم في إزالة مخاوف المصريين ، وقد يعطيهم بعض الأمل ومن ثم يزيد من رباطة جأشهم ويتخلصوا من الخوف الذي جعلهم مشلولين عن الحركة . ولكن للأسف لم أفعل لأنني كنت قد بدأت موسوعة ١٩٧٥ ، ودخلت في دوامتها . وبعد عدة شهور عبرت القوات المصرية وكسرت حاجز الخوف وأثبتت أنه كان هناك أساس واقعي لمخاوف الإسرائيليين .

وهناك حادثة أخرى أسوأ من سابقتها . حينما قام الانقلاب ضد جورباتشوف عام ١٩٩٣ ، أجرت معي مجلة الإفاضة حواراً عن توقعاتي بخصوص هذا الانقلاب . فأخبرتهم بأن الإنسان السوفيتي قد فرغ من الداخل ، وقوضته الاستهلاكية تماماً ، ومن ثم فليس عنده القدرة على القيام بأي انقلابات أو فرض أي تحولات ، وما بهم في مثل هذه الأمور ليس عدد الدبابات وإنما من يقودها ، والجنود السوفيت لا يختلفون كثيراً عن الإنسان السوفيتي . ولذا تنبأت بأن ينتهي الانقلاب بالفشل وبسرعة . أجرى الحوار معي في أوائل الأسبوع ، ومع نهاية الأسبوع كان الانقلاب قد فشل بالفعل . وانتظرت يوم السبت لأرى الحوار منشوراً وفيه النبوءة التي تحققت (ربما مع تنويه بذلك) . ولكنني فوجئت بأنه لم يكن له من أثر . وحين اتصلت بالجلة قبل لي إن السيد رئيس التحرير وجد أن الحوار أصبح غير ذي موضوع ، بعد فشل الانقلاب . ولعل السيد رئيس التحرير لم يسمع من قبل عن السبق الصحفي أو عن المنطق الداخلي للتحليل .

لنعد لموضوع الانتفاضة ، يمكنني القول بأنني تنبأت بوقوعها من خلال عملية تحليل مركبة للغاية ، بدأت بإدراكي للمتحمسين الخاص للوضع في الضفة الغربية ، وانتهت بوصف ما سمعته «النموذج الانتفاضي» . وكانت نقطة البداية هي حديث جرى في القاهرة بيني وبين إحدى طالباتي الفلسطينيات من غزة ، ولاحظت مدى ازدهانها للإسرائيليين وعدم خوفها منهم . وبدأت ألاحظ أن فلسطيني الداخل غير منكرين ، على عكسنا نحن عرب الخارج . فالفاعل الإنساني العربي هناك قوي متماسك . ثم قرأت إعلاناً في إحدى الجرائد عن إحدى المستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية ، فلم أجد فيه إشارة واحدة لأرض الميعاد أو لصهيون أو للمثل العليا الصهيونية أو العقيدة اليهودية ، بل يقتصر الحديث على المزايا والإعراءات المادية والمعيشية والترفيهية . وهكذا ولدت في عقلي صورة للعرب والصهاينة مغايرة للصورة المألوفة .

ينتهي الحديث مع الطالبة والإعلان في الجريدة الإسرائيلية إلى ضرورة استرجاع كل من الفاعل الإنساني العربي والصهيوني . ثم بدأت أرصدتهما في تفاعلهما ومواجهتهما اليومية ودوافعهما الداخلية ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في صياغة نموذج تحليلي جديد . فأدركت أن الفاعل الصهيوني أصبح محايداً غير مكترث بما يسمى «المثاليات» الصهيونية ، متمركزاً

حول ذاته ، يدرك العالم من خلال حرصه الشديد على المعدلات الاستهلاكية المادية العالية التي يتمتع بها . والمستوطنون الصهاينة ، في تصوّرٍ ، أساساً مرتزقة ، ولكن بينما كان القدامى منهم على استعداد لتحمل شظف العيش وإرجاء الإضباع وانتظار المكافأة المادية المزعجة ، نجد أن المستوطنين الجدد ، مع تزايد معدلات العلمنة ، يُصرون على تحقيق مستويات معيشية وأمنية عالية عاجلة دون تأجيل . ولذا ، فالمنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشا الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق معدّة خصيصاً لهم ومدارس لأطفالهم وحراسة مشددة حتى ينعموا بالعيش في هواء «أرض الميعاد المكيف» . (صُغت آنذاك مصطلح «الاستيطان مكيف الهواء» . وقد صاغ زئيف شيف ، المعلق العسكري الإسرائيلي ، مصطلحاً مماثلاً [«الاستيطان دي لوكس»] بعد ذلك بعدة سنوات) . إن النموذج الإدراكي للصهاينة نموذج آلي اختزالي مادي ، وبالتالي كانت رؤيتهم للعرب ولأنفسهم آلية اختزالية مادية .

انطلاقاً من هذا أشرت - في مقالتي - إلى الوهم الإسرائيلي الذي يستند إلى الرؤية المادية بأن «المقاومة قد اجتثت تماماً من جذورها» ، وأن هناك علامات وقرائن على ما سماه الجنرال بنيامين بن أليعازر (منظم الأنشطة في الضفة الغربية وحاكمها العسكري آنذاك) «الاتجاه المتردد أو الحذر نحو البراجماتية» والذي يعني في نهاية الأمر «التكيف مع الأمر الواقع وتقبّله» (الجمهورساليهم بوست ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٨٣) ، أي القبول بوجود إسرائيل كحقيقة نهائية . وقد رأى الجنرال إمكانية تقوية هذا الاتجاه عن طريق إنشاء عدد أكبر من البنوك والشركات الاستثمارية ، أي عن طريق إضباع الحاجات الاقتصادية للعرب وإغراق هويتهم ، الأمر الذي يؤدي إلى استغراقهم فكرياً في أمور الدنيا والمال بدلاً من قضايا الوطن والأرض والهوية . (فالنموذج الإدراكي الكامن هنا هو نموذج الإنسان الاستهلاكي المقبل بنهم على الحياة الدنيا) . ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن هذا الاتجاه التطبيقي البراجماتي ، فقامت الولايات المتحدة (كما أذكر في المقال) بمد يد المساعدة إلى الجنرال الإسرائيلي المذكور ، فدّعي إلى الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الأمريكية وكبار موظفي الوزارة لبحث معهم كيف يمكن تحسين مستوى معيشة العرب في الأرض المحتلة (أي مزيد من البنوك) ، وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الإسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والتنمية .

وبعد أن عرّضت للرؤية الصهيونية (الأمريكية) المادية الاختزالية للعرب ، حاولت أن أحدد الحالة العقلية والنفسية للصهاينة والأهداف المحددة التي يرمون إلى إنجازها ، فوصفت الاستعمار الصهيوني بأنه استعمار استيطاني إحلالي لا يود استغلالنا أو استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الإنجليزي في مصر) وإنما يرمي إلى ما يلي :

١ - استلاب الأرض .

٢ - العيش فيها في هدوء وراحة بال -

٣ - سلب العرب أسباب الحياة والاستمرار ، حتى يرحلوا عن الأرض ليحل هو محلهم فيها .

في مقابل ذلك ، رصدت ما أتصور أنه النموذج الإدراكي الذي يرى الفلسطينيون أنفسهم من خلاله ، فلاحظت أنهم يرفضون الانصياع للنموذج الاستهلاكي الاختزالي المادي الذي يدور في إطاره المستوطنون الصهاينة ويسقطونه عليهم ، وأنهم يدركون أنفسهم بطريقة مغايرة . ثم حاولت أن أرصد إدراكهم لحالة الإسرائيليين النفسية والعقلية ولنموذجهم الإدراكي ، فقلت بالحرف الواحد : "إن مواطني الضفة الغربية أدركوا أن كل ما يُنفّس على المستوطنين (مكيفي الهواء) حياتهم هو في نهاية الأمر إحباط للمخطط الصهيوني" .

وقد لاحظ الجنرال بن أليعازر نفسه أن العرب يُلَقَّون بالحجارة على الإسرائيليين ، وصرَّح لمريدة معاريف (١٤ من نوفمبر سنة ١٩٨٣) بأنه قرر وضع حد لظاهرة إلقاء الحجارة . ثم بعد يومين اثنين ، اصطحب الجنرال الإسرائيلي البراجماتي أحد مؤسسي روابط القرى لالفتح مبنى بلدية جديد في إحدى مدن الضفة . ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم تُبد أي براجماتية أو اعتدال أو تقبُّل للقانون الطبيعي المادي ، ولم تُقابل أبطال البنوك والاستثمارات بالأزهار وإنما بالحجارة (الجمهور سالم يوم ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٨٣) . وقد أشرت في المقال إلى وقائع كثيرة أخرى عن إلقاء الحجارة أدَّت إلى غضب المستوطنين الصهاينة وإلى مطالبتهم الجيش الإسرائيلي بالتدخل لوضع حد لهذه الظاهرة . بل إن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (كما ورد في الجمهور سالم يوم ٢٤ من يناير سنة ١٩٨٤) اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة متحيا وأخبرهما بأن إلقاء الحجارة من أسباب قلقه المميت ، ووعد بأن يدرس القضية شخصياً . وبينت في المقال أن إلقاء الحجارة أصبح سلاحاً أساسياً في الضفة الغربية ، وتنبأت بأن هذا السلاح ، برغم ضعفه وبدائيته ، ستزداد أهميته (ومن هنا كان عنوان المقال) . ولا شك في أنني تذكرت تجربة إلقاء الحجارة على الجنود الإنجليز في دمنهور في طفولتي .

وقد انجزت ما توصلت إليه من نتائج لا من خلال تقبل الأطروحات السائدة أو من خلال عملية رصد خارجية لأحداث لا معنى لها تتم على مساحة ، وإنما من خلال مراقبتي لبشر لهم رؤية (نماذج إدراكية) محدَّدة تحدِّد استجاباتهم وتوقعاتهم وبالتالي سلوكهم فالصهيوني الذي يحاول أن يرفع مستوى معيشة العرب ، حتى ينسوا الوطن والهوية ، هو نفسه الذي يودُّ أن يتمتع بحمام السباحة في المستوطنة والذي يصير على مستويات عالية من الراحة والمتعة . والعربي الذي يرفض الانصياع للرؤية البراجماتية التي تودُّ تطبيعته وتدجينه هو نفسه القادر على أن يدرك التآكل الداخلي للمستوطنين وتحولهم إلى شخصيات شرهة مستهلكة غير منتجة . من هنا الحجر الذي قد لا يقتل ولكنه يعكر صفو المستوطنين ويسقط معنى حياتهم ، ومن هنا كانت الانتعاضة .

وكان كتابي عن الانتفاضة المعنون الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الإيماء والكرامة (١٩٨٩) ، وهو أحب كتبتي إلى نفسي . ويتناول الكتاب ظاهرة الامتلاء الفلسطيني في مقابل أزمة المجتمع الصهيوني . وقد طُبعت منه طبعة في تونس ظلت حبيسة في المخازن ، ولم يعرض في معرض الكتاب في القاهرة [رغم الوعد بذلك] . ولذلك اضطررت لإصدار طبعة أخرى في مصر على نفقتي ، وأشرفت على طباعته الدكتور هدى ، لأنني كنت آنذاك في السعودية ، كما تبرع الدكتور عمر النجدي برسم الغلاف . وقد نفذ الكتاب ، وأنوي إعادة طباعته إن شاء الله . وكتاب الانتفاضة هذا هو أول كتاب أدرك فيه بشكل واسع النماذج التفسيرية كأداة تحليلية ، بعد أن كنت أستخدمها طيلة حياتي بشكل غير واسع أو بدون أن أسميها . ويتناول الكتاب نموذج الإنسان السري (أسميه الآن الإنسان الإنسان ، أو الإنسان الرباني ، في مقابل الإنسان الطبيعي / المادي) الذي يعبر عن نفسه في إبداع مستمر ، لا يمكن تفسيره اقتصادياً أو مادياً . ومقدرة هذا الإنسان على توليد الأفكار الجديدة ، وعلى الإبداع الذي لا حدود له (لأنهما لا يردان إلى المستوى الاقتصادي المادي وحسب) .

ومن أهم الأمثلة على الإبداع ، ما قرأت في إحدى الصحف عن شكل من أشكال المقاومة التي ابتدعها الفلسطينيون قبل الانتفاضة . فمن المعروف أن القوات الإسرائيلية كانت تحظر على الفلسطينيين رفع العلم الفلسطيني ، وتقبض على أي فلسطيني يفعل ذلك ، فكان الفلسطينيون في غزة ، حينما تمّ عليهم قافلة عسكرية إسرائيلية ، يأتون بطيخة ويقطعونها ويرفعون نصفها . والوان البطيخة هي ذاتها ألوان العلم الفلسطيني (أخضر وأحمر وأسود) . ولم يكن بمقدور القوات الإسرائيلية أن تقبض على الفلسطيني بنهضة قطع البطيخ وإلا أصبحت أضحوكة العالم ، رغم أن عملية قطع البطيخ أكثر عمقاً في رمزيتها النضالية من مجرد رفع العلم (فالسكين الذي يقطع يذكر الجندي الإسرائيلي بما لا يجب) . كما أنني لاحظت أن البطيخة المقطوعة هي أول سلاح في التاريخ يقاوم به الإنسان ثم يأكله بعد ذلك ، فهو سلاح يمكن تدويره .

ومن حلال صرورة البطيخة هذه وطريقة استعمالها ، بدأت أولد مفردات النموذج المعرفي الذي تتحرك في إطاره الانتفاضة . فبدأت أرى أن المقاومة تستند إلى الخزون الحضاري في لاوعي الإنسان العربي ، وأن إبداع الانتفاضة يكمن في أنها تعود إلى التراث (حكمة الأحداذ) لتنتقل منه . واكتشفت أن الحجر ذاته هو سلاح لا يستورد من الخارج ولا ينفد ، فهو يمكن تدويره ، تقايل به ثم تلتقطه مرة أخرى . وإن هدموا منزلك فهو يتحول إلى أحجار تقاوم بها . وكما أخبرني أحد الجرحى الفلسطينيين أن الحجر " في كل مكان في وجداننا : الشيطان الرجيم - طير الأبايل التي ترميهم بحجارة من سجيل - رجم الزاني والزانية - رجم إبليس - مكر مفر مقبل مدبر معاً / كجلمود صخر حطه السيل من علي - الحجر الأسود " . واستخدام الحجارة ، تماماً مثل

البطيخة ، سلاح لا يحتاج إلى دورات "توعية" و"تسييس" ، وإنما هو سلاح يمكن للمرء استخدامه بفطرته . الانتفاضة ، إذن ، هي تجنيد الكتلة البشرية الفلسطينية من خلال مخزونها الحضاري الذي أثبت مقدرته التعبوية الهائلة . فهي عملية عودة عن الحدائث المادية الغربية ، المنفصلة عن القيمة ، لتبدع من خلال حداثة خاصة بنا .

وقد طوّرت أطروحة الكتاب الأساسية فيما بعد ، لتصبح النموذج الانتفاصي (الفضفاض) المنفتح (في مقابل النماذج العضوية والآلية [المنغلقة]) . وهو نموذج يتسم بأن مركزه ليس بالضرورة قريباً على حساب الأطراف ، بل هو نموذج مركزه في قوة أطرافه .

ومن الطريف ، أنني قبل اندلاع الانتفاضة بعدة أسابيع كنت في عمان ألقى محاضرة في مؤسسة شومان ، واقترحت استخدام الحجر كوسيلة للكفاح ضد العدو . وقد قام أحد الحاضرين واتهمني بالرومانسية ، بل وأشار من طرف خفي إلي أنني قد أكون عميلاً صهيونياً . فقد كان يرى أن مثل هذه الدعوة للكفاح بالحجارة ضد العدو يمتلك السلاح الذري ، هو من قبيل العبث والزج بالجواهر في معركة خاسرة ، وأنه من الضروري الانتظار إلى حين تطوير السلاح الذري العربي ، أي أن صاحبنا قد خضع للمألوف وسلك الطريق العام دون أن يعمل عقله ، ودون أن يراقب واقعنا الخاص (وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن الثوريين العرب الذين كانوا يرون أن التغيير لن يتحقق إلا من خلال ثورة عمالية تتم من خلال تسلسل الحقب التاريخية المعروفة في الفكر الماركسي : ثورة بورجوازية ضد الإقطاع تأتي بعدها ثورة عمالية ضد البورجوازية . وحيث إن البورجوازية العربية لم تشر بعد ضد الإقطاع العربي ، إذن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . وهو يذكرني أيضاً بالثوريين العرب الذين كانوا يدرسون التجربة الفيتنامية ، ويتألمون لفشلنا في تقليد الفيتناميين بسبب اختلاف تضاريس العالم العربي عن تضاريس فيتنام . فاقترح أحد الظرفاء أن نقوم بزرع بعض الغابات والجبال حتى يمكننا أن نناضل) . المهم بعد ثلاثة شهور كنت في عمان ألقى محاضرة بعد أن أصبحت الانتفاضة ملء الأرض والسماء ، وبدأت تعيد الثقة لنفوسنا ، وشاهدت صاحبنا بين الحضور ، فلم أرحمه ، بل وجهت له وللجمهور الحديث وأخبرته وأخبرتهم بأنني لم أكن رومانسياً بل كنت حالمًا واقعيًا (لا وقائعياً) أرى الأمر الراجع وأرى الإمكانية ، وأرصد كليهما وأصدر حكماً في ضوء ما هو ظاهر وباطن . وعرفت صاحبنا لواقعيته (أي وقائعته) الانهزامية . ولكنه لم يستطيع الرد هذه المرة ، فالتاريخ الحي كان يقف في صفي وحده منطق "العلمي" الانهزامي .

وفي عام ١٩٨٩ ، دعاني الدكتور عصمت عبد المجيد وزير خارجية مصر آنذاك (وأمين عام الجامعة العربية في أثناء كتابة هذه الرحلة) إلى مكتبه ، وأطلعني على بعض المذكرات والتقارير السرية عن هجرة اليهود السوفيت ، كما أنني اطلعت (من خلال أحد المسؤولين في الكويت) على المذكرة التي رفعت لمؤتمر وزراء الخارجية العرب الذي ناقش القضية . ووجدت أن المذكرات

ملينة بأنصاف الحقائق والعلومات المعزولة عن أي سياق ، والتي لا هدف لها سوى تضخيم العدو والتهويل من شأنه (مما يجعل الاستسلام أمراً منطقياً) ، فقررت أن أكتب تقريراً عن الموضوع للدكتور عصمت أطرح فيه وجهة نظري . وتحول التقرير إلى كتاب بُنيت فيه استعالة أن يهاجر ملايين اليهود السوفيت كما ورد حينذاك في الصحف الغربية والصحف العربية نقلاً عنها . وقد بُنيت أن الكتاب يقدم منهجاً في الرصد ورؤية للمعلومات مختلفة عما هو سائد ، وطرحت فكرة النموذج التفسيري مقابل الرصد الموضوعي والتراكم المعلوماتي بشكل أكثر إسهاباً وتفصيلاً (هجرة اليهود السوفيت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات (١٩٩٠) . وقدم الكتاب دراسة لهجرة اليهود السوفيت بحسبانها حركة جذب لإسرائيل وطردها من الاتحاد السوفيتي (أي أنني درست حركة الهجرة اليهودية السوفيتية بحسبانها حركة هجرة عادية ينطبق عليها ما ينطبق على سواها من هجرات) . وقد توقعت أن عدد المهاجرين لن يتجاوز ٤٠٠ ألف ، وأنهم سيشيخون مشكلات اجتماعية عديدة في إسرائيل، من بينها تزايد الصراع بين المتدينين والسفارد من جهة ، والعلمانيين والإشتكاز من جهة أخرى ، وهذا ما حدث بالفعل . واستمرت الهجرة بعد ذلك بالمعدلات العادية حتى وصلت إلى ما يقرب من المليون ، وقد ثبت أن أعداداً كبيرة منهم (ربما ما يقرب من النصف) غير يهود . (ولا أدري لم لم يتم صناع القرار بدراسة ما حدث ، ولم لم يدرسوا أعداد المهاجرين ودوافعهم وانتماءاتهم الدينية والإثنية غير المتجانسة ؟ هل هناك خلل في عمليات الرصد والتراكم المعلوماتي؟) .

ثم صدر كتاب الجمعيات السرية في العالم (١٩٩٣) ، وهو محاولة لتوظيف منهج دراسة الواقع من خلال نماذج لتخليص العقل العربي من الفكر التأمري الذي يسيطر عليه . وقد بُنيت أن الفكر التأمري الذي ينسب لليهود كل الشرور ويجعلهم مسئولين عن كل الجرائم والفن هو نتيجة استخدام نماذج اختزالية (كما سأبين بالتفصيل في فصل لاحق) . وبضم الكتاب دراسات عن البهائية والماسونية والبروتوكولات واللوبي الصهيوني ، تهدف إلى توضيح كثير من جوانب هذه الظواهر عن طريق دراستها من خلال النماذج المركبة .

وكنت قد أرسلت كتاب هجرة اليهود السوفيت إلى إحدى كبريات دور النشر فرفضت نشره دون إبداء الأسباب . كما أرسلت كتاب الجمعيات السرية لأحد كبار الناشرين عام ١٩٨٩ ، فلم يرِد عليّ بالإيجاب أو السلب لمدة ثلاث سنوات . ثم عرضت الكتابين (الواحد تلو الآخر) على الأستاذ مصطفى نبيل فبادر بنشرهما على الفور (بعد أن اقترح بعض التعديلات) . وفوجئنا بأن كتاب الجمعيات السرية نفذ في غضون أيام وأعيد طبعه أربع طبعات خلال شهرين . فاتصل بي الناشر الكبير ليعاتبني على أنني لم أقدم هذا الكتاب له ، فابتسمت وأخبرته بأن الكتاب عنده في ملفاته منذ سنوات .

أذكر هذه الوقائع لأبين أن حركة النشر عندنا عشوائية إلى حد كبير . فمعظم الناشرين

(أو ربما كلهم) لا توجد عندهم لجان متخصصة للقراءة . ولذا ، فإن المسألة متروكة تماماً للعلاقات الشخصية أو إلى عدة معايير أخرى ليس من بينها قيمة الكتاب . وأعتقد أن هناك عشرات من الكتب المتميزة التي سقطت ضحية النشر العشوائي ولم يسعد أصحابها الحظ بمقابلة رجال مثل الأستاذ مصطفى نبيل على سبيل المثال ، الذين يكلفون خاطرهم بقراءة ما يرد لهم من نصوص أو يحولونها إلى أحد المختصين .

وقد عدلت فصول كتاب الجمعيات السرية ، وأعدت صياغتها وطورتها وأضفت للكتاب عدة فصول جديدة (التلمود - السحر - القرانكية - السبئية - الدوغه) . كما أضفت ملحقات مفصلاً عما سمعته النماذج الاختزالية والنماذج المركبة ، وعمقت من استخدام الحلولية كنموذج تفسيري ، وأصدرته دار الشروق عام ١٩٩٨ تحت عنوان اليد الخفية : دراسة في الحركات اليهودية ، الهدامة والسرية ثم صدر في مكتبة الأسرة . وبرغم أن هذا الكتاب - مثل سابقه - يتناول النموذج التأمري ومدى تشويبه واختزاله للواقع ، فإن البعض لا يزال - للأسف - يتحدث عنه كما لو كان كتاباً يثبت بما لا يقبل الشك أن اليهود يتآمرون على شعوب الأرض قاطبة . ولعل هذا يبين هيمنة النموذج المعلوماتي . فالكتاب يحوي الكثير من المعلومات عما يسمى المؤامرة اليهودية ، ولكنه يعيد تفسيرها ويضعها في سياق أعرض ، ويبين بعدها التاريخي والاجتماعي ليتمكن "فهمها" حق الفهم ، وأنها استجابة بشرية لأحداث محددة (وهذا أيضاً ما أنجزته في كتابي الآخر أسرار العقل الصهيوني) .

وقد أصدرت دار الشروق كتاباً أخرى مستمدة من الموسوعة . وأصدرت دار المعارف كتاباً بعنوان اليهود في عقل هؤلاء وهو يضم أيضاً بضع دراسات من الموسوعة . ولكن الأهم من هذا أن الكتاب يضم دراستين إحداهما عن جمال حمدان وفكره الإستراتيجي . أما الدراسة الأخرى فهي في فكر روجيه (رجاء) جارودي ، بُنيت فيها الفرق بين الأسطورة بالمعنى الإيجابي والأسطورة بالمعنى السلبي ، كما تناولت مسألة غوله إلى الإسلام وبُنيت أنها شيء منطقي للغاية ، متسق مع فكره ، فهو يبحث عن نظام يؤكد مقدرة الإنسان على تجاوز عالم المادة وسرق السلع ، وقد وجد ضالته في التوحيد الإسلامي (مقابل واحدة السوق) . وما لم أذكره في هذه الدراسة (التي كتبت بمناسبة زيارته للقاهرة ، وهي مناسبة احتفالية) أن دراسات جارودي في الصراع العربي الإسرائيلي هي دراسات معلوماتية صدامية ، الهدف منها هو إثارة قضية سياسية ، ومن ثم فهو لا يصل قط إلى أي أبعاد معرفية ، ولا يربط بين نسقه الفكري وتفكيره السياسي (وهو أمر يشير الدهشة من كاتب في مثل عظمة جارودي) . كما لم أشر إلى اتجاهاته الحلولية وإعجابه بابن عربي خاصة في نظرية الخلق المستمر ، وهي مسألة تحتاج إلى إعادة نظر منه ، وإن كان هذا الاتجاه الحلولي (الذي أرى أنه معاد للاتجاه الإيماني) أمراً متغفلاً في كتابات كثير من الإسلاميين .

الفصل الرابع : الموسوعة : تاريخها

متى بدأت كتابتها ؟

متى انتهيت من كتابة الموسوعة ؟ أمر واضح لا لبس فيه ، فقد سلّمت الديسكات إلى دار الشروق في يناير سنة ١٩٩٨ ، واستمرت عملية التنسيق والإخراج وتصحيح البروفات ما يقرب من عام . ولكن متى بدأت كتابة الموسوعة ، فهذا أمر خلافي : هل في عام ١٩٧٥ حين بدأت في تحديث موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية ، أم في عام ١٩٧٠ حين بدأت في كتابتها ، أم في عام ١٩٦٥ حين نشرت أولى دراساتي عن الصهيونية (فكل كتاب لا يجب ما قبله وإنما يستوعبه ويطوره) ؟ أم هل يمكن القول بأن نقطة البدء هي يوم أن ولدت ، باعتبار أن كل تجربة خضتها أصبحت جزءاً من النموذج المعرفي والتحليلي الذي استخدمه في هذه الموسوعة وباعتبار أنها بالدرجة الأولى - كما أسلفنا - تطبيق لنموذج تفسيري على حالة يعنيها (اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل) وأن النموذج أكثر شمولاً واتساعاً من الحالة ذاتها .

وحسباً لهذه القضية فلأفرق هنا بين ثلاثة مراحل : مرحلة التكوين ، أي مرحلة دراسي للصهيونية ، ومرحلة العمل الموسوعي ، ومرحلة كتابة الموسوعة ذاتها . بدأت دراسي المادة للصهيونية عام ١٩٦٤ ، وكما أسلفت كتبت أول كتيب عنها (بالإنجليزية) عام ١٩٦٥ . ثم بدأ عملي الموسوعي عام ١٩٧٠ حين بدأت في كتابة نهاية التاريخ . ففي هذه المرحلة بدأت فكرة كتابة موسوعة متكاملة عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل تختصر في ذهني . فحين بدأت في كتابة نهاية التاريخ وجدت أنه كان عليّ ، شأني شأن معظم المؤلفين العرب ، أن أتوقف عند كل صفحة لتعريف بعض المصطلحات والشخصيات التي أشير إليها (« الكيبوتس » - « بن جوريون » - « الماباي ») وكانت كثيرة نظراً لانخفاض مستوى المعرفة بالعنصر الصهيوني آنذاك بين المتخصصين وغير المتخصصين . ولهذا ، قررت أن أستمّر في كتابة دراسي دون توقف لتعريف كل مصطلح ، لأن مثل هذا التوقف يُشتت القارئ ويُضعف من تماسك النص ، على أن أُلحق

بالدراسة مسرّداً أوضح فيه ما غمض من مصطلحات وأعرف فيه بالأعلام . هذا ما قررته حينذاك ، ولكن مشروع المسرد تحول تدريجياً إلى كتيب معجمي مستقل ترد فيه معاني المصطلحات وتُعرف فيه الشخصيات بطريقة معجمية . ثم تحول مشروع الكتيب إلى معجم صغير ، والمعجم الصغير إلى معجم كبير ، والمعجم الكبير إلى موسوعة صغيرة (من جزء واحد) تهدف إلى توفير المعلومات (العربية والغربية) ، المتاحة في ذلك الوقت ، للقارئ والباحث العربي حتى لا يُصعّبا وقتيهما وجهدهما في البحث عن المعلومات ، وحتى يتفرّغا للعملية البحثية الحقيقية ، أي عملية التفكير والتركيب والتفسير والتقييم . ولكنني اكتشفت بعد قليل من البحث والتعمق أن حقل الدراسات المعني باليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل ومصطلحاته مُشبع بالمفاهيم الأولية (القبلية) . وأن عدداً كبيراً من المفردات يكتسب دلالات خاصة تُخرجها عن معناها المعجمي المألوف وتصبح مصطلحات ذات دلالات خاصة (مثل «الشعب» و«الأرض») ، وأنا نترجم ، ليس فقط حين نترجم ، ولكننا نترجم حتى حين نؤلف ، وذلك بسبب غياب الرؤية النقدية . كما اكتشفت أن المعلومات ، مهما بلغت من كثافة وذكاء وصدق ، هي عملية لا نهاية لها ، ولا جدوى من ورائها ، فهي تشبه الرمال المتحركة ، وهي لا تأتي بالمعرفة أو بالحكمة لأنها محكومة بمغولات قبلية محدّدة تتم مراكمة المعلومات في إطارها .

حينما أدركت ذلك ، تحول مشروع الموسوعة من مشروع لكتابة موسوعة معلوماتية صغيرة عادية تُعرف بالمصطلحات والأعلام (على الطريقة الشائعة والمعروفة) إلى مشروع موسوعة تفكيكية شاملة ، أي موسوعة تحاول تفكيك المصطلحات وتهدف إلى توضيح المفاهيم والتحيزات الكامنة وراءها بدلاً من تلخيصها والعرض لها . وكتبت اقتراحاً بالمشروع وتقدمت به إلى مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، فرفض الاقتراح بحجة أنه لا يوجد كوادر كافية لكتابة مثل هذه الموسوعة ، فافترحت أن تكون الموسوعة هي الوسيلة لتوليد مثل هذه الكوادر وتدريبها . ولكن المجلس لم يقتنع بوجهة نظري ، فاستخدم الأستاذ حاتم صادق صلاحياته كمدير للمركز ، وقرر أن يسمح لي بالاستمرار في كتابتها من خلال الإمكانيات المتاحة بالفعل للمركز (المكتبة - بعض المساعدين) دون اعتماد ميزانية خاصة .

وكانت هذه هي أولى المشكلات (وإن لم تكن آخرها) ، إذ تطلب الأمر بطبيعة الحال أن أنفق من جيبتي الخاص على هذا العمل ذي الأهمية القومية ، خاصة بعد خروج الأستاذ هيكل من الأهرام ، واستقالة الأستاذ حاتم من مركز الدراسات ، إذ قامت إدارة المركز الجديدة بتضييق الخناق عليّ ، وتقليص حجم الخدمات المتاحة ، وقد كانت محدودة من البداية . (ولذا كنت أقول إن الحاج حصافي المسيري ، أي والدي ، هو الذي مولّ هذه الموسوعة) . ولكن مع هذا لا بد أن أذكر العمل التطوعي الذي قام به كثير من طابعتي . أذكر أنني ذهبت مرة إلى إحدى محاضراتي في كلية الآداب جامعة عين شمس (حيث كنت منتدباً) وعرضت على الطلبة والطالبات

مشكلتي، وأنني في حاجة إلى مساعدات تطوعية . وفوجئت بترحيب عدد كبير منهم . بل جاءت إحدى الطالبات بوالدها (وكان موظفاً بالمعاش) ليساعدني ! وقد ساعدني هذا العمل التطوعي على إنجاز الكثير من أعمال السكرتارية، وهي كثيرة في العمل الموسوعي، مثل كتابة المداخل بخط واضح إلى إعداد الفهارس إلى ترتيب الصور، وهكذا . ولولاه لتعذر علي إنهاء العمل ، فإمكاناتي المالية لم تكن تسمح باستئجار مثل هذا العدد الضخم من المساعدين .

وكما أسلفت ترك الأستاذ هيكل مؤسسة الأهرام في أثناء إعدادي لموسوعة ١٩٧٥ . فأصبحت هذه الموسوعة مصدر مخاوف لكبار الإداريين فيها ، خاصة أن رياح التطبيع كانت قد بدأت تهب . فشككت لجنة لفحص الموسوعة ، فافتت بصلاحياتها للنشر . وقد اضطرت إلى اللجوء إلى حيل لا حد لها إلى أن وصلت بها إلى المطبعة حتى تصبح أمراً واقعاً لا يمكن للإداريين إيقافه . ومع هذا ، أوقف الطبع مرة أخرى ، وعرضت الموسوعة على الدكتور إلياس شوافي ، على أمل أن ينصح بعدم نشرها ، ولكنه لحسن الحظ أفتى هو الآخر بضرورة نشرها . ومرة نصحتني أحد كبار المسؤولين في مركز الدراسات أن أترك له الأمر برمته وأذهب إلى الولايات المتحدة وأنا مطمئن البال لألحق بأسرتي (فقد قررت زوجتي أن الوقت قد حان لتحصل على الدكتوراه) . وبسذاجة غير عادية كدت أن أفعل ، إلى أن نصحتني من هم أكثر مني خبرة ألا أترك مصر إلا بعد صدور الموسوعة ، فصاحب التصالح الخالصة كان يود أن أخفي من على المسرح حتى لا يضطر مركز الدراسات لنشرها . وبالفعل مكثت في مصر إلى أن صدرت الموسوعة في مارس سنة ١٩٧٥ ، ثم حزمت حقائبي ولحقت بأسرتي .

وكنت أكتب موسوعة ١٩٧٥ في أثناء عملي في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بصحيفة الأهرام ، وكنت محاطاً بمجموعة من الباحثين لم يتركوا أهمية البعد المعرفي ، فخطابهم التحليلي كان سياسياً بشكل سطحي ، فكانوا دائمي السخرية مني ، مما جعلني أشعر بالوحدة الشديدة . وفي محاولة للدفاع عن نفسي زادت ترجميحي بشكل واضح ، إذ كنت لا أكف عن الحديث عن نفسي وعن إنجازي وعن أهميته . ولعل هذا كان من باب التهويز عن أنني لم يكن لدي جمهور من القراء ، فكنت أتوجه لنفسي ولا أكف عن التنويه بها . وقد تعلمت من هذا أن الترجسية - وهي صفة ولا شك موجودة - قد تكون ضرورة نفسية في حالة غياب المطلق . فكل مؤلف يحتاج لدرجة من الثقة بالنفس ولجمهور يستجيب لما يكتب ويعطيه قدراً من الشرعية . ولا يمكن لأي كاتب أن يضع مؤلفاته بشكل مجرد وفي المطلق !

ولم تلق موسوعة ١٩٧٥ ما تستحق (في تصوري) من ذبوع ، ربما لأنها صدرت مع الاتفاق الثاني للفصل بين القوات . وقد أخبرني أحد الأصدقاء من أعضاء النخبة الحاكمة أن أحد البند السري لهذا الاتفاق كان ينص على عدم توزيع الموسوعة . فأودعت في مخازن الأهرام (والعمدة على الراوي) . وكادت أن تحول إلى ورق مفروم ولكن اشتراها موزع كتب سعودي ، وقام

بتوزيعها هناك (ولدا فوجئت بأنها معروفة في السعودية أكثر منها في أي مكان آخر) .

وحين صدرت الموسوعة عام ١٩٧٥ كان عنوانها الرئيسي موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، أما عنوانها الفرعي فهو رؤية نقدية حتى أنه القارئ إلى أنه يتعامل مع موسوعة من نوع جديد (فهي لم تكن مجرد تجميع للبيانات والإحصاءات والمعلومات) . ويلاحظ أن كثيراً من الموضوعات والقضايا المنهجية والنماذج التحليلية التي أصبحت أساسية في كل كتاباتي وفي نسقي المعرفي تمت بلورتها في هذه الموسوعة . على سبيل المثال ، تعمق مفهوم الحلولية وازداد مركزية في تفكيري ، وقد ورد في المقدمة ما يلي :

"أنا هنا أنطلق من رفضي لما أسميه بفكرة «وحدة الوجود التاريخية» ، وهي فكرة هيكلية [صهيونية فيما بعد] ، تفترض أن لمة تاريخاً عاماً مجرداً ، لا مستويات له ، ينتظم كل البشر . ومن الواضح أنه لا يمكن إنكار وجود تاريخ إنساني عام ينتظما جميعاً . ولكن ، داخل هذا الإطار ، توجد بنات تاريخية غير متساوية ، إذ إن التطور التاريخي لا يتم بنفس المستوى ولا بنفس المعدل ولا بنفس الطريقة من مجتمع لآخر . ومن هنا تظهر أهمية الخاص على حساب العام .

"يتجاهل الهيكليون والمضمونيون هذه المستويات المختلفة من التاريخ والواقع ، ويتحدثون عن القوانين العامة المجردة وحسب (أو عن التفاصيل التي لا يربطها رابط) . والصهاينة أنفسهم يدورون في إطار وحدة الوجود التاريخية ، فهم يتحدثون ببراءة شديدة عن الهجرة إلى فلسطين [حلاً للمسألة اليهودية في أوروبا] ، كما لو كانت فلسطين وأوروبا تنتميان إلى نفس البنية التاريخية" .

وانطلاقاً من رفض وحدة الوجود هذه ، بدأت أبلور هجيم . على الموضوعية المجردة (أي الموضوعية الفئورغرافية المتلقية ، في معجمي الفلسفي الآن) :

"لكن لا بد أن نعترف ، وألا نخجل من الاعتراف ، بأنه إذا كان الرصد المضموني للظاهرة والملاحظة المحضة لها تصل إلى الحد الأقصى من «الموضوعية المجردة» ، فإن الترتيب والربط بين العناصر يدخل فيه عنصر الاختيار الذي يرتبط بذات الباحث التاريخية والفردية . فنحن حينما نريد أن نصنع التفسيرات في نسق ، فإننا لا بد أن نقرر مستوياتها المختلفة (فكرة المستويات فكرة غير واردة في التفكير المضموني ، ولكنها فكرة أساسية في التفكير البنيوي) . ولتقرير المستويات ، لا بد أن نقرر ما هو جوهري وما هو فرعي من وجهة نظرنا نحن ، إذ إنه لا توجد وجهة نظر مطلقة في العلوم الإنسانية .

"ولعل هذا العنصر الأخير هو الذي يميز العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية ، فالبنات الطبيعية قد يوجد خلاف بشأنها بين علماء الطبيعة ، ولكنه خلاف لا يصل في درجته بأي حال إلى درجة الخلافات التي تنشأ في مجال العلوم الإنسانية (وخصوصاً الدراسات التاريخية) . كما

أن نظرنا للنبات الطبيعية لا تتأثر كثيراً بالذات المدركة ، هذا على عكس الظواهر التاريخية الإنسانية التي تتأثر برؤية الإنسان المدرك .

ومن هنا توضيحي لأهمية ما أسميه «المنحنى الخاص» ، وهو مصطلح يحاول أن يأخذ في الاعتبار ذاتية الإدراك (وهو أمر حتمي) والوجود الموضوعي للظاهرة (وهو أمر تؤكد ممارستنا اليومية ولا بد من افتراضه في أي رؤية علمية) . والمنحنى الخاص للظاهرة هو النقطة التي تلتقي فيها الرؤية الخاصة للمدرك بزوايا الظاهرة المحددة والمتعينة والخاصة ، فكل ظاهرة يحكمها قانون عام ، يمكن لكل الدارسين إدراكه ، بل لابد من أن يدركه الجميع حتى يصح قانوناً لا خلاف عليه بين مجموعة من الباحثين ، ولكن مع هذا سيظل لكل مدرك زاويته الخاصة . ولذا ، دعوت إلى ما سميته «المنهج البنوي» باعتباره أن أهم مزياه هي "مقدرته على تفسير خصوصية الظاهرة دون إسقاط فكرة القانون العام . فهو يحاول أن يرصد الحقائق المحسوسة ، لا كعناصر منفصلة ولا كثوابت ساكنة وإنما كتغيرات متحركة لا وجود لها خارج مجموعة من العلاقات المتناحية في التركيب والخاضعة في ذات الوقت للقوانين الخاصة والعامة" .

من التفكير إلى التركيب والتأسيس

كنت قد كتبت في مقدمة موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية أن هذه طبعة أولية أو ورقة عمل يمكن أن يتبنّاها أحد مراكز البحوث العربية كأساس لمشروع بحثي ضخم يهدف إلى إصدار الموسوعة العربية الشاملة عن هذا الموضوع ، وأرسلت بالاقتراح لمراكز البحوث العربية المختلفة (فلم يرد أي منهما لا بالنفي ولا بالإيجاب) . كما تقدمت باقتراح إلى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام أن يعين أحد الباحثين تكون مهمته تحديث موسوعة ١٩٧٥ أولاً بأول وفتح ملفات لكل مدخل من مداخلها ، فرفض الطلب أيضاً . ولذا حين وصلت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٥ بعد انتهائي من موسوعة ١٩٧٥ ، قررت أن أبدأ عملية التحديث بنفسني وبدأت في فتح الملفات حتى أستفيد من وجودي بجوار المكتبات الأمريكية الكبرى (مثل مكتبة بلدية نيويورك العامة ، ومكتبة الكونغرس) التي تحوي مجموعات كتب مهمة في الدراسات اليهودية والصهيونية والمكتبات اليهودية المتخصصة (مثل مكتبة المدرسة اليهودية اللاهوتية التابعة لجامعة كولومبيا) . وقد استفدت من هذه الملفات في كتابي أرض الوعد والأيدولوجية الصهيونية .

وعند عودتي من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ ، وجدت أن مراكز البحوث لا تزال محجمة عن إصدار موسوعة متخصصة عن الصهيونية ، وبدأ الحديث عن التطبيع يتزايد في بعض الجهات . وبدأ بعض الكتاب يتحدثون عن حرب سنة ١٩٧٣ باعتبارها "الحرب الأخيرة" و"الحرب التي ليست بعدها حروب" . وكان هناك دائماً بعض "العقلاء" العالمين ببواطن الأمور الذين كانوا

يخبرونني بأن موضوع اهتمامي وتخصصي (أي الصهيونية) أصبح "موضة قديمة" عما عليها الزمن ، وأن عملية السلام مستكسح الجميع . هذا ما أخبرني إياه بعض زملائي في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام في أثناء كتابة موسوعة ١٩٧٥ . وهذا ما تطوع الكثيرون بإخباري به بعد كامب ديفيد ، ثم بعد مدريد وأوسلو واتفاقية واي ريفر وكامب ديفيد الثانية ... والبقية تأتي ، وإن كان يبدو أن انتفاضة الأقصى والاستقلال قد وضعت حداً لهذا الهزل .

والحادثة التالية تستحق الذكر . كنت أعمل في مكتب الجامعة العربية في نيويورك ، واتصل بي صديقي سابق كنا نشيطين معاً في الستينيات في حركة الطلبة العرب في الولايات المتحدة (وكنا معاً في معسكر النصار) ، وقد أصبح هذا الصديق مليونيراً كبيراً ، وقمنا بتجديد العلاقة . فكنا نتناول طعام الغداء معاً بشكل شبه دوري ، وكان يزودني ببعض الوثائق شبه السرية التي يعدها بنك تشيس مانهاتن عن حالة الاقتصاد في العالم (كنت أعطيها لرئيس الوفد الدائم) . وفي يوم أخبرني أنه سيتم تأسيس معهد للدراسة الصراع في الشرق الأوسط يترأسه اثنان : عربي ويهودي غير صهيوني هو ستيفن كوهين . وأخبرني أن حجم الراتب متروك لي لأحدده . وأنا من ناحية المبدأ لا أجد أي غشاضة في الحوار مع يهود غير صهيانية بل ويهود صهيانية ، فهم مواطنون أمريكيون وليسوا مستوطنين صهيانية . ولكنني مع هذا ترددت كثيراً في الأمر ، ودارت أسئلة كثيرة في ذهني ، لم أجد لها إجابة ، فرفضت . المهم بعد عودتي إلى مصر عام ١٩٧٩ فوجئت بوصول وفد من حزب العمل الإسرائيلي لمقابلة الرئيس السادات ، كان من ضمنه ستيفن كوهين هذا !

وقد نشرت كثير من الشائعات حولي . فعلى سبيل المثال ، نشر المرحوم الأستاذ حمدي الجمال مقالاً لي في الأهرام بعد أن أضاف له مقدمة "من عنده" ، يفهم منها أنني أؤيد قرار إعادة نشر القرات (عام ١٩٧٧) مع أن مقالتي كان عن النظام الحزبي في إسرائيل . وحينما شكوت له بما حدث ، تصنع - رحمه الله - الغضب ، وقال بانفعال هرامي شديد : "المسئول عن هذا لابد أن يحاكم" . فلم أملك سوى الصمت ، إذ ما عساي أن أفعل تجاه مثل هذا الموقف ؟ ولم أرسل مقالاً للأهرام طيلة وجودي في الولايات المتحدة . كما نشرت جريدة الأهالي باستخفاف شديد خبراً (نقلًا عن شخص هم أنفسهم لا يشقون به) يفيد أنني من مؤيدي كامب ديفيد . ونصحني المرحوم الدكتور علي مختار أن أطلب منهم نشر تكذيب للخبر وإلا لجأت إلى القضاء . فقوجئت بأنهم ، باستخفاف شديد مرة أخرى ، ينشرون التكذيب وكان شيئاً لم يحدث ! وقام أحد أساتذة الجامعة من أصدقائي السابقين باستدعاء إحدى قريباتي من غرفة المحاضرات ليخبرها بنفسه بمسألة تاييدي لكامب ديفيد .

وهذه الحملة (التي لا أدري هل كانت منظمة أو أنها كانت نتيجة للتسيب والاستخفاف

والنفاق) ، كانت تهدف إلى إثبات أن ملف الصهيونية قد أغلق تماماً ، وأن واحداً من أهم المتخصصين في هذا الموضوع يذهب إلى هذا الرأي . وقد كان محكوماً على هذه الحملة بالفشل ، وكان من الختمي أن تُكشف وتُفضح . وبالفعل قامت صبرا وشاتيلا وكتابي عن الأيديولوجية الصهيونية بوضع حد لكل هذا . وأنا أؤمن بأن إسرائيل ، بنية استيطانية إحلالية ، وأن عنصريتها وعدوانيتها وتوسيعتها جزء لا يتجزأ من وجودها . وكان عليّ تقرير هذا في دراساتي ، فانا كمثقف لا أملك سوى رؤيتي وأفكاري وكلماتي ، لا يمكنني التهاون فيها . إذ لو فعلت غير ذلك ، فماذا يتبقى لي ؟

لكل هذا (أو بالرغم من هذا) واصلت جهودي وسارعت بعملية "تحديث" موسوعة ١٩٧٥ بمجهوداتي الخاصة ، برغم كل مؤشرات "السلام الدائم" الكاذبة . وقد تصورت ساعته أن مسألة التحديث هذه ستستغرق عاماً أو عامين على الأكثر وستكلفني عشرة آلاف جنيه فقط لا غير . ولاختصار المدة ، قررت التعاون مع مجموعة من الباحثين ، فعددت اجتماعاً لي منزلي عام ١٩٨٢ حضره عشرات من المتخصصين (وكان مظاهرة أكاديمية ضد التطبيع) . وعين الأستاذ محمد هشام مديراً لتحرير الموسوعة ، وكلفنا هؤلاء السادة المتخصصين أن يكتب كل واحد منهم مدخلاً أو أكثر في حقل تخصصه ، على أن أنتهي من تحديث الموسوعة في غضون عام أو عامين .

وفي الرياض ، تفرغت تماماً للموسوعة التي بدأت تتحول إلى مؤسسة ، إذ أصبح هناك مكتب للترجمة العربية لتزويدي بأهم المقالات في الصحف الإسرائيلية . وكانت هيئة الموسوعة تضم عدداً من العاملين بالسكربتارية (واحد في القاهرة وآخر معي في أي بلد أكون فيه) ، وبعض المساعدين الباحثين ، بعضهم في الولايات المتحدة ، ومحررين ، وكاتب على الكمبيوتر ، وماكينات تصوير ، وجهاز كمبيوتر وليزر .

وكنت أحرر باباً أسبوعياً بعنوان "إسرائيليات معاصرة" في جريدة الرياض ، ولكنني لاحظت أن انشغالي بالحدث اليومي بدأ يقوض من رؤيتي البانورامية الموسوعية ، التي تركز على الثوابت ، والتي تتطلب إيقاعاً بطيئاً واهتماماً بموضوعات تاريخية وفلسفية وجوانب إستراتيجية ربما لا يكون لها علاقة مباشرة بالحدث اليومي . ولذا توقفت عن تحرير هذا الباب .

وبعد قليل ، بدأت تصلني المداخل التي كتبها الباحثون الذين حضروا اجتماع عام ١٩٨٢ في منزلي ، ووجدت أن كثيراً منها مادة علمية وصينة ولكنها تنحو منحى معلوماتياً وموضوعياً متلقياً يكتفي بالرصد داخل إطار النماذج التفسيرية القائمة (كتب أحد الأساتذة المتخصصين المداخل الخاصة بالاقتصاد الإسرائيلي ، تناوله من خلال المقولات التحليلية المألوفة في علم الاقتصاد ، كان إسرائيل لا تختلف عن فرنسا أو بوليفيا ، وكأنها ليست جيئاً استيطانياً مولاً من الخارج لا يحضخ لمعايير الجدوى الاقتصادية) . كما أن التميز من المداخل التي وصلتنني كان

ينحصر منحى تفكيكياً يظهر نقاط الضعف في النموذج التفسيري المهيمن دون أن يطرح أي بديل . ومع هذا لم يكن إدراكى لهذه النقطة متجسراً تماماً ، ولذا مضيت في كتابة الموسوعة ، بل وبدأت طباعة ما تصورت أنه النسخة الأخيرة على الآلة الكاتبة عام ١٩٨٥ .

ولكنني بدأت أدرك الطبيعة التفكيكية لموسوعة ١٩٧٥ ، وأن التفكيك غير التأسيسي ، وأن ما أقوم به هو تفكيك وحسب ، وأخذ هذا الإدراك في التبلور تدريجياً ، الأمر الذي غير من رؤيتي لكثير من الأمور . وما لا شك فيه أن التفكيك له فائدة ، بل هو أمر حتمي وضروري ، فهو يكشف المفاهيم الكامنة ويزيل الغشاوات ، ولكنه يترك كثيراً من جوانب الظاهرة دون تفسير . فالتفكيك عملية هدم جذرية تطهيرية تشبه الشخص الذي يمسك بمطرقة ضخمة يهوي بها بكل عنف ورثابة على كل الأبنية التي يقابلها ، بحُسابها بنى أسطورة مستغلة ، تبلور علاقات القوى القائمة ورؤية السلطة . ومهمة الناقد التفكيكي أن يبين عناصر التحيز الكامنة في النماذج الإدراكية والتحليلية المهيمنة وأنها تعبير عن السلطة القائمة ، وكيف أنها تولد معرفة تخدم هذه السلطة . وفي ضوء هذا تكون وظيفة الناقد التفكيكي الأساسية هي أن يكشف هذه التحيزات (والأساطير) وأن يفضحها ويفتتها (ولعل أعمال فوكو وغيره تنتمي إلى هذا النوع) . ولكنها - في تصوري - عملية عتد أفقي لا تؤدي إلى أي حكمة ولا تطرح بديلاً ، بل لا تفسر شيئاً ، بل إنها في نهاية الأمر تؤدي إلى العدمية الكاملة والنسبية المطلقة .

أما التأسيس ، فهو عملية إبداعية تركيبة تتجاوز التفكيك فهي تتطلب نحت نماذج مختلفة والربط بينها ، كما تتطلب الفروض في كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة ، وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها في ضوء النماذج التحليلية الجديدة . وقد اكتشفت أنني لم أعد أفكك وحسب ، وإنما بدأت أطرح مصطلحات ومفولات تحليلية بديلة وأصوغ نماذج تفسيرية جديدة ، "أكتشف" من خلالها حقائق مُهمشة (متأثرة في بطون المراجع المختلفة وقامت النماذج السائدة بتهميشها) ، وبدأت أمنحها المركزية التفسيرية التي تستحقها ، كما بدأت أسك مصطلحات جديدة وأعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة ، كما يتفق مع حقيقة الواقع كما أراه ، لا كما صاغته المراجع والمصطلحات الصهيونية . وعلى هذا ، فإن الموسوعة لم تعد موسوعة معلوماتية تحاول تفسير المعلومات للقارئ عن طريق ترجمتها ، ومراكمتها من المراجع والصحف الأجنبية والعربية ، ولا حتى موسوعة تفكيكية تحاول أن تهدم النماذج القائمة ، وإنما أصبحت موسوعة تأسيسية تطرح نماذج تحليلية مترابطة ومصطلحات بديلة وبرنامجاً بحثياً جديداً في الموضوعات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية (أي أنها تطرح بعض الأفكار ولا تدعي أنها أفكار نهائية مغلقة) . ولو ظلت الموسوعة موسوعة معلوماتية ، لأصبح حجمها ضعف الحجم الحالي (ثمانية مجلدات) ولتم إنجازها في أقل من نصف الوقت الذي قضيته في كتابة الموسوعة الحالية ، ولو كانت موسوعة تفكيكية وحسب لنشرت عام

١٩٨٤ أو ربما عام ١٩٨٥ بعد انتهاء السادة الباحثين من كتابة مدخلهم بوقت قصير الذين قدّموا إسهاماتهم في موعدها .

وكان لي أحد "الأصدقاء" ظل يتصور أن كتابة الموسوعة هي مجرد حشد للمعلومات والحقائق ، وهو في تصوّره هذا كان متسقاً تماماً مع بعض المفاهيم الشائعة الخاطئة . فإن وُصف شخص بأنه "موسوعي" ، فالمقصود أنه عنده معلومات كثيرة ، فهو كما يقال "دائرة معارف" و "مكتبة متحركة" إلى آخر هذه العبارات التي تركز البُعد المعلوماتي . ولذا كان صديقي هذا يتصور أن "سري" البائع يكمن في أن لدي مكتبة ضخمة تضم الموسوعة اليهودية (جودايكا) وموسوعات أخرى ، وأنتني أقوم بترجمة المعلومات التي تضمها هذه الموسوعات . وظل يلح عليّ أن أكون له مكتبة في الشؤون اليهودية والصهيونية والإسرائيلية ، وحاولت أن أنفيه عن عزمه ، وحاولت أن أشرح له أنني قد أترجم بعض المعلومات ولكن يظل إسهامي الأساسي لا في عمليات النقل والترجمة وإنما في عملية التفكيك والتركيب وصياغة النماذج التحليلية ، ولكن دون جدوى ، فقد ظل مُصرّاً على رؤيته المعلوماتية القراكمية (الموضعية المطلقة) وبدأ يشير من طرف خفي إلى أنني أخاف من منافسته إياي . فما كان مني إلا أن اشتريت له على حسابه عدة موسوعات وكتب ببضعة آلاف من الدولارات (كان هو وعائلته في أمس الحاجة إليها) ، ولا يزال صديقنا يحشد المعلومات ، ويترجم من الموسوعات دون أن يشعر شيئاً !

وبنزوعي الدائم نحو الترميز تحولت الموسوعة في ذهني إلى معركة ضارية مع العنصرية والاستعمار . بل إنني كنت أؤكد دائماً أن معركتي مع الصهيونية ليس لها علاقة كبيرة بالصراع العربي الإسرائيلي . فعدائي للصهيونية ينبع من عدائي لكل أيديولوجيات العنف والعنصرية (مثل النازية وأيديولوجية التفرقة اللونية في جنوب إفريقيا) . وأنه لو اختفت إسرائيل من على وجه الأرض أو تصالح معها كل العرب لظل عدائي للصهيونية كما هو (وهذا بطبيعة الحال مرتبط برؤيتي المعرفية التي تركز على الكلي والنهائي) . (حينما زار الرئيس السادات القدس فجأة وبلا مقدمات ، وأعلن أن مشكلتنا مع إسرائيل مشكلة نفسية وحسب ، كنت في الولايات المتحدة . وقد طبل الإعلام الأمريكي وزمر لهذه الزيارة بشكل هستيري ، وروج لأطروحة الأساس النفسي للصراع . تأثرت بعض الوقت ، وفلت قد يكون الأمر كذلك بالفعل ، ونمت لمدة أسبوع تقريباً ، ولكنني بدأت التأمل في أثناء نومي وتذكرت العنصرية الصهيونية ومحيطات اللاحقين وخطر إسرائيل الإستراتيجي ، فاستيقظت من نومي لأستمر في كتابة الموسوعة) .

ولعل من أهم الأسباب التي وجهتني نحو التأسيس بدلاً من التفكيك تجرّبيتي الإعلامية في الولايات المتحدة . فمحاضرات التي كنت ألقّيها هناك كانت ذات طابع تعبوي وقانوني وأخلاقي ، تهدف لحث الأمريكيين وغيرهم على الوقوف إلى جانب العرب من خلال الإتيان بالحجج القانونية والتاريخية والأخلاقية الدامغة . ومن أهم القضايا التي كنت أحاول توضيحها

للأمريكيين مسألة المذابح الصهيونية ضد الفلسطينيين ، وأن الفلسطينيين لم يبيعوا أرضهم ولم يتركوها من تلقاء أنفسهم ، أو بناء على دعوة الحكومات العربية لهم (كما كانت تروج الدعاية الصهيونية) . وفجأة اكتشفت أنني هنا أثبت ما هو يدهي بالنسبة لي ، وأن مسألة التعبئة والدفاع القانوني هذه مختلفة عن مسألة الفهم وتطوير النماذج التحليلية التي تساعد على عملية الفك والتركيب والفهم . حينئذ قررت أن ينصرف جهدي محاولة فهم الظواهر اليهودية والصهيونية ، بدلاً من مهاجمة الصهاينة وبدلاً من تعبئة الجماهير . وشأن بين الأمرين . ومحاولة الفهم هذه هي بداية مرحلة التأسيس .

وبما عمق من هذا الاتجاه نحو التأسيس أنني كنت دائماً أحاول أن أنتهي من كتاباتي عن الصهيونية حتى أفرغ لكتابة عمل نظري يتعامل مع القضايا الحضارية والفلسفية الكبرى على أن يتم عرض الأطروحات النظرية من خلال أمثلة محددة وحالات معينة (الحلم أو الذئب الهيجلي المعلوماتي الذي كان ينهشني) . ولكنني أذعنت لمصيري عام ١٩٨٤ وقررت أن أقضي بقية حياتي الفكرية في الكتابة عن الظاهرة اليهودية والصهيونية . وبدوا أنه نتيجة لهذا القرار بدأت أنظر للقضايا التي أتناولها في الموسوعة بكل إمكاناتي الفلسفية والتحليلية ، وبدأت الموضوعات الفكرية الأساسية في حياتي التي كانت متشابكة بالفعل تزداد تشابكاً (الصهيونية كاستعمار استيطاني وكأيديولوجية لأعضاء الجماعات اليهودية - الهيجلية والحلولية ونهاية التاريخ - الاستهلاكية ومصير الإنسان - التحيزات المعرفية والحاجة لمشروع حضاري مستقل - الحاجة إلى استخدام النماذج كأدوات تحليلية - اليهودية والحلولية) . وتحولت الأفكار المتناثرة إلى فكر متماسك ثم أخذت شكل نموذج معرفي متكامل ، جعل من المسير علي تناول بعض الظواهر من الناحية السياسية والبعض الآخر من الناحية المعرفية . ومن ثم أصبحت دراساتي في الصهيونية واليهودية جزءاً من الانشغال الفكري العام ، ولم يعد من الممكن إنهاء الموسوعة في نفس الإطار الذي بدأتها داخله . ولعل من أهم الأمور التي يجب ذكرها في هذا السياق أنه في هذه الفترة (١٩٨٤ - ١٩٨٥) تحول الإسلام بالنسبة لي من كونه مجرد عقيدة أو من بها إلى رؤية للكون أو من بأنه يمكن للإنسان أن يولد منها نماذج تحليلية ذات مقدرة تفسيرية عالية كما يعطي إجابات عن الأسئلة النهائية .

وكما هو معروف لم أنه من الموسوعة لا في عام ١٩٨٤ (كما كنت أتوي) ولا عام ١٩٩٤ (كما كنت أتمنى) ، وإنما بعد ما يقرب من ربع قرن أو ثلاثين عاماً ، مما جعل الموسوعة جزءاً من حياتي وحياة أسرتي . أعرف شاباً في الأسرة كانوا يسألونني عن الموسوعة ، وحيث إنني أعرف أنهم ليس لهم اهتمامات سياسية أو فكرية ، كنت أدهش لسؤالهم ، لأعرف منهم أنهم منذ أن ولدوا وهم يسمعون عن هذه الموسوعة .

وكثيراً ما يطرح علي سؤال : لم استغرقت كتابة الموسوعة كل هذا الوقت ؟ ولم لم أنشرها

بالتدريج عبر عدة سنوات ؟ يجب أن أثير ابتداءً إلى أن عملية التأسيس عملية تستغرق وقتاً طويلاً ، إذ إن الباحث الذي يريد أن يؤسس نسقاً فكرياً تحليلياً جديداً لا ينقل معلومات وحسب ، ولا حتى يحاول أن يربط بينها ويجرد منها ، وإنما يقوم بعد ذلك بتطوير نماذج تفسيرية تعيد قراءة التاريخ والواقع في ضوءها . وحيث إنها قراءة جديدة فإنه عليه أن ينحت مصطلحات جديدة .

والموسوعة لأنها تستخدم النماذج التحليلية ، تتسم بالترابط الشديد ، وخاصة أن النماذج التحليلية الأساسية تداخلت ، فنموذج الحلولية تداخل مع نموذج العلمانية الشاملة ، وهذان تداخلًا بدورهما مع نموذج الجماعة الوظيفية . وكثيراً ما كنت أعيد صياغة النموذج التحليلي في ضوء بعض المعطيات الجديدة ، فالعلاقة بين النموذج والمعلومات علاقة - كما أسلفت - حلزونية ، يعيد النموذج ترتيب المعلومات وتنسيقها ، وتعيد المعلومات ترتيب النماذج وتنسيقها . فأجد نفسي مضطراً لإعادة كتابة الموسوعة بأسرها . أذكر مرة أنني كنت على وشك إرسال المداخل الخاصة بالجماعة الوظيفية لتكتب على الآلة الكاتبة (فيل أن يكون هندا كومبيوتر) . وكان ابني في طريقه إلى الجامعة ، فطلبت منه الانتظار بضع دقائق لإضافة سطرين . فانتظر ، وإذا بي أجد أن الأمور مستعسرة وقتاً أطول ، فطلبت منه أن يذهب إلى كليته . ثم جلست مدة شهرين أعيد كتابة المداخل . ثم أعدت كتابة الموسوعة بأسرها ، كما أعدت صياغة المصطلحات في ضوء التعديل الجديد ، واستغرق هذا بدوره بضعة شهور .

كما أنني كثيراً ما كنت "أكتشف" معلومات في بطون الكتب والمراجع الصهيونية وغير الصهيونية تغير من رأيي وتعدل من نماذجي التحليلية وتضطرني إلى إعادة النظر في كل ما كتبت . وكما أسلفت كنت أتصور عام ١٩٨٤ أنني على وشك الانتهاء من الموسوعة وبدأت أعد ما كنت أتصور أنه النسخة النهائية . ولكنني قرأت في أحد المراجع أن الغالبية الساحقة لليهود العالم الغربي مع نهاية القرن الثامن عشر كانوا يوجدون في بولندا ، واقتسمتهم روسيا والنمسا وألمانيا باقتسام بولندا ذاتها ، ومن صفوفهم خرجت الآلاف والملايين التي هاجرت إلى إنجلترا وأستراليا وكندا والولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ثم فلسطين ، وتذهب بعض الإحصاءات إلى أنه مع نهاية القرن التاسع عشر ، كان كل يهود العالم الغربي من أصل بولندي ، باعتبار أن اليهود الأصليين في البلاد الغربية تم استيعابهم وصهرهم . ولذا فإننا حينما نتحدث عن يهود العالم الغربي (أي معظم يهود العالم) فإننا نتحدث في واقع الأمر عن يهود بولندا ، ولأنهم كانوا يتحدثون البديشية سميتهم «يهود البديشية» . ولهم أوضاعهم وأصولهم الحصارية لا بد للمتخصص في اليهود واليهودية والصهيونية أن يلم إلماً كبيراً بحيط الجماعة اليهودية الحضاري في هذه المنطقة ، أي تاريخ بولندا وتشكيلها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الفريد . ولذا وجدت أن نشر الموسوعة عند هذه النقطة هو خيانة فكرية . فكتبت لإحدى

مساعداتي في الولايات المتحدة وطلبت منها أن ترسل عدداً من الدراسات عن بولندا . فأرسلت لي قائمة بالمراجع ، فاخترت عدداً منها وقضيت عدة شهور في قراءتها . وبالتدريج كنت كلما تعمقت في القراءة كلما زاد إحساسي بجهلي الشديد . هل سمع أحد منا بجمهورية يحكمها ملك منتخب ؟ وما علاقة بولندا بليتوانيا وما علاقتهما بأوكرانيا ؟ هل سمع أحد منا بطبقة الشلachten (طبقة النبلاء البولنديين) أو بنظام الأرندا (نظام استئجار الأراضي من النبلاء) ؟ وما دور اليهود في الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا (وهو "إقطاع" نظراً لسيادة العلاقات الإنتاجية الإقطاعية ، وهو "استيطان" نظراً لأن النبلاء الإقطاعيين البولنديين كانوا لا يقيمون بين الفلاحين وإنما بعيداً عنهم في وارسو) ؟ إن هذه العناصر والمفردات هي التي تكون - في تصوري - تاريخ بولندا ومن ثم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والحضاري للجماعة اليهودية فيها ، ولا يمكن فهم المسألة اليهودية إلا بعد الإحاطة بهذه العناصر وغيرها إحاطة كاملة . ولذا توقفت عن طباعة الموسوعة وأعدت كتابة الأجزاء الخاصة عن بولندا وروسيا وأعدت صياغة المصطلح ، واضطرت إلى إعادة كتابة الأجزاء الخاصة عن الاستيطان وعن الجماعة الرطيفية وهكذا .

ولم يكن يهود بولندا هم الإشكالية الوحيدة . فدراسة يهود رومانيا ، على سبيل المثال ، كانت تمثل إشكالية من نوع جديد . فحين بدأت دراسة الموضوع ، تصورت أنني سأكتب تاريخ يهود هذا البلد كما فعلت مع يهود إنجلترا أو هولندا على سبيل المثال ، ولكنني اكتشفت أنني كنت واهماً . فعلى سبيل المثال لم يكن يهود رومانيا عنصراً واحداً متجانساً ، فرومانيا كانت في الأصل إمارتين أو مقاطعتين مستقلتين هما : مولدافيا في الشمال وفالاشيا في الجنوب . وكانت مولدافيا تضم يهوداً من أصل بولندي أو كراني . أما فالاشيا ، فكانت تضم يهوداً نزحوا إليها من شبه جزيرة البلقان ، كما كانت توجد فيها أقلية سفاردية . ثم ضمت رومانيا بعض المناطق منها منطقة بكوفينا (عام ١٩١٩) والتي كانت إقليمياً نمساوياً منذ عام ١٧٧٤ ، وكانت قبل ذلك خاضعة لتركيا (كجزء من مولدافيا) ، وكان العنصر اليهودي في هذه المقاطعة نصفه نمساوي ونصفه بولندي . ثم ضمت رومانيا بعد ذلك بيساريا التي كانت روسيا قد اقتطعتها من مولدافيا عام ١٨١٢ ، وكان العنصر اليهودي فيها روسياً . أما المقاطعة الثالثة ، ترانسيلفانيا ، فكانت تحت حكم المجر منذ القرن الثاني عشر ، واستوطنها يهود من جاليشيا ذرو توحه ألماني وكذلك عنصر سفاردي . وكانت هذه الجماعات ذات الأصول الإثنية المختلفة تنقسم ، من وجهة نظر الرومانيين ، إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - العنصر الغلي . ويتمثل في اليهود الذين كانوا يقطنون مولدافيا وفالاشيا منذ أمد طويل ، واعتبر هؤلاء جزءاً عضوياً من الأمة الرومانية .
- ٢ - الهرسوفلتسي Hrisovelitzi : وهؤلاء هم اليهود الذين استوردتهم النبلاء الإقطاعيون

(بويار) ومنحوم مواثيق (بالرومانية : هرسوف Hrisov) يُمنح اليهود بمقتضاها مزايا معينة من بينها الإعفاء من الضرائب عدة سنين ، وأرض قضاء مجانية لإقامة معابدهم ومدارسهم وحماماتهم الشعائرية ومقابرهم . وقد صدرت معظم المواثيق في الفترة ١٧٨٠ - ١٨٥٠ . وعلاقة يهود الهرسوفلتسي بالبويار تشبه إلى حد كبير علاقة يهود الأرندا بطبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) . وقد أسس النبلاء ليهود الهرسوفلتسي مدناً صغيرة (شتتلات) خاصة بهم تقريباً مثل مدينة فالتسيني (١٧٩٨) وجزء من مدينة فوكساني . وقد تم تأسيس ست وثلاثين مدينة من هذا النوع في مولدا فيا . كما استمرت هجرة اليهود الهرسوفلتسي حتى عام ١٨٦٠ .

٣ - ولكن أعداداً أخرى من اليهود هاجرت ، بعد توقيع معاهدة أدرنة ، إلى إمارتي مولدا فيا وفالاشيا اللتين كانتا في حاجة إلى حرفيين وصناعات ورأسمال . وقد اجتذب هذا الوضع عناصر تجارية يهودية ومسيحية من البلاد المجاورة ، ولكن لم تصدر لهم مواثيق خاصة . وكان يهود الهرسوفلتسي ، وكذلك يهود المجموعة الثالثة ، يرتدون الأزياء البولندية المتمثلة في القلطان والقبعة المزينة بالفرو وخُصل الشعر (إستريميل) . وقد أثروا في بقية الجماعة اليهودية ، حتى أنه ، مع بداية القرن التاسع عشر ، كانت الجماعة اليهودية بأسرها ترتدي نفس الزي وتتحدث نفس اللغة (اليديشية) وتتبع أسلوباً واحداً للحياة ، أي أنهم أصبحوا تقريباً من يهود اليديشية . وظهرت الجماعات اليهودية كما لو كانت وحدة متماسكة ليست ذات أصول مختلفة ، مع أنها لم تكن كذلك في واقع الأمر ، وانعكست الانتماءات الإثنية المتنوعة على علاقتهم بعضهم ببعض الآخر .

وأخيراً كان هناك يهود العالم القديم . ونظراً لعدم تخصصي في الموضوع ، كنت أتصور خاطئاً ، ولحت تأثير ما قرأته من كتابات صهيونية ، أن الأمور واضحة ومحددة . ولكني حينما دخلت هذا الحقل شعرت وكأنني في رمال متحركة . فمعظم التواريخ والوقائع احتمالية وأحياناً متعارضة ، ومصادر التاريخ القديم منحيزة (مثل كتابات الفراعنة عن أنفسهم ، والتوراة عن اليهود) . وكان عليّ أن أقرأ عدة مراجع عن كل حقبة أو شخصية أو واقعة حتى أصل إلى تصور مركب عنها ، وحتى أنقل للقارئ الطابع الاحتمالي للرواية التاريخية (على عكس الطابع القاطع للرواية الصهيونية ، ذات الأصول التوراتية) .

فعلى سبيل المثال ، يتصور الدارس أن كلمة «عبري» مشتقة من كلمة «عبر» وأنها تشير إلى العبرانيين أو «الخابيرو» أو «العابيرو» . ولكن حينما يدرس المرء القضية بقليل من التعمق فإنه يكشف من الإشكاليات الكثير . فكلمة «خابيرو» كلمة أكادية ذات دلالات متعددة ، وأحياناً متناقضة ، تُطلق على قبائل رُحّل من البدو ، وتعني «العابر» و«المتجول» و«البدوي» . كما استخدمت التسمية أيضاً للإشارة إلى القبائل التي كانت تهاجم قديماً بلاد الرافدين وحدود مصر

وكانت تُغير على أرض كنعان من آونة إلى أخرى فتشيع فيها الفوضى والاضطراب . ومن دلالات الكلمة أيضاً «الجندي المرتزق» ، فهي إذن تُطلق على أي جماعة من الرحل أو الغرباء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش مقابل أجر أو بدافع الحصول على الغنائم . ويُوصف الخابيرو في وثائق نوزي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد بأنهم "عبيد أصبحوا كذلك باختيارهم" . كما تُستخدم أحياناً للإشارة إلى أي عناصر قوضوية في المجتمع . ومعنى هذا أن الكلمة ذات مدلول عرقي (الغرباء) ، وأن لها في الوقت نفسه مدلولاً اجتماعياً طبقياً ووظيفياً .

وإذا كانت الكلمة غامضة في معناها ، فالأمر لا يختلف كثيراً بالنسبة إلى الخابيرو أنفسهم ، إذ لا يُعرف الكثير عن أصلهم من الناحية العرقية . وكل ما يمكن أن يُقال عنهم إنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ، ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين وهم بعد في مرحلة التجوال . وقد ظهروا ضمن القبائل الآرامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية ، وإن كان بعض الباحثين يرون أنهم لم يكونوا ساميين وإنما جماعات مهاجرة عاشت حياتها متجولة لتبيع خدماتها لأمة في المنطقة ، وأنهم (في معظم مراحل تاريخهم غير المدوّن) تزاوجوا واختلطوا بالعديد من الأجناس .

ويقرن بعض الباحثين الخابيرو بالعبرانيين أو «العابيرو» اعتماداً على التشابه الصوتي الموجود بين الكلمتين ، خاصة وأن الأكادية تخلط بين العين والحاء وفي بعض فتراتها لم يكن فيها حرف العين . ولكن كلمة «عبيرو» التي ترد في المدونات المصرية القديمة في الفترة من منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، تعني «عبد» ، وتشير إلى العمال الذين استُخدموا في أعمال السخرة . وفي نصب تذكاري ألقاه أمنحوتب الثاني ، يشير أمنحوتب إلى أنه أسر ثلاثة آلاف وستمئة من الد «عبيرو» في أثناء غزوة قام بها في كنعان . وقد ورد في السجلات التي تركها رمسيس الثاني أنه استخدم عبيداً من العبيرو في مشاريع البناء التي قام بها . كل هذا يعني أن الربط بين الخابيرو والعابيرو الذي يأخذه البعض على أنه أمر مسلم به ، هو أمر احتمالي ، وأنه قد لا تكون هناك أي صلة بين الفريقين .

وهذا قليل من كثير . وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن طبيعة العمل الموسوعي مختلفة عن العمل التأليف العادي . فحينما يكتب المؤلف كتاباً فإنه يحدد لنفسه الموضوع الذي سيكتب عنه وحدوده ، وماذا يقع داخل نطاق الكتاب وماذا يمكن استبعاده . أما الموسوعة فلها مطلق مختلف فهي تشبه الـ Jigsaw ، وهي مجموعة من القطع الخشبية أو الورقية لا تظهر الصورة المرسومة عليها إلا بعد ترتيبها الواحدة بجوار الأخرى . فمدخل ما ، يولّد إشكالية لا يمكن تجاهلها ، لابد من كتابة مدخل عنها ، ولكن هذا الأخير يولّد إشكالية أخرى ، وهكذا . كما أن الموسوعة تشبه معماراً ضخماً ، وقرب الانتهاء منه يكتشف الباني أن هناك نوافذ وأبواباً ناقصة وأخرى يجب تعديلها ، وأنه لابد أن يُضاف شيء هنا وشيء هناك . فمثلاً إن كتبت مدخلاً عن

كلمة «يهودي» ، وآخر عن «إسرائيلي» ، وثالث عن «صهيوني» ، فهذا يتطلب أن تكتب عن «عبري» أيضاً . وكلمة «يهودي» تتطلب أن تكتب عن «يهودي أرثوذكسي» و«يهودي علماني» ، وهكذا . وأفرق هنا بين الاكتمال (بالإنجليزية : completeness) والكمال (بالإنجليزية : perfection) ، فما كنت أحاول أن أصل إليه هو الاكتمال ، أما الكمال فهو لله وحده ، والموسوعة هي التي تقرر هل اكتملت أم لا .

وقد واجهت مشكلة حقيقية ، وهي أنني أنكر وجود ثقافة يهودية أو شعب يهودي . كما أنكر أن تكون «يهودية» مفكر يهودي ما هي العنصر الأساسي والمحدد لفكره . ومع هذا في موسوعة عن اليهود لابد أن أكتب عن «أعلام اليهود» للتعريف بهم ولتوضيح وجهة نظرهم ، فكيف يكون مبدأ الاختيار ، والإبقاء والاستبعاد ؟ وحلاً لهذه المشكلة قررت أن أكتفي بالكتابة عن مشاهير الأعلام من أعضاء الجماعات اليهودية (فرويد - كافكا - ماركس - كينجر - تروتسكي) على أن أختار بعض الشخصيات ممن هم أقل شهرة بحسبانهم حالات مثلة لإشكاليات توضح وجهة نظري . لكل هذه الأسباب كان لابد من الانتظار ربع قرن لتصدر الموسوعة كاملة .

ولما ساعدني على الاستمرار في كتابة الموسوعة عبر كل هذه المدة ، أنني كنت دائماً أتصور أنني على وشك الانتهاء منها فكانت تظهر لي مقالات أذكر فيها أن الموسوعة ستصدر في يناير سنة ١٩٩٠ ثم نوفمبر سنة ١٩٩٢ ثم أكتوبر سنة ١٩٩٤ . وهكذا . وأنا لم أكن أكذب على القراء ، لأن هذا كان تصوري بالفعل . بل إنني كنت أطبع إعلانات عن الموسوعة ، وهناك إعلانات عن موسوعة من أربعة مجلدات ثم ستة ثم سبعة ثم ثمانية . ويبدو أنني كنت في واقع الأمر أخدع نفسي ، حتى يمكنني الاستمرار في هذا المشروع الضخم (ويبدو أن هذه إستراتيجية نفسية أتبعها حتى يمكنني الاستمرار في أي مشروع بحثي أقوم به) .

ولإنجاز الموسوعة (والتي بلغ عدد كلماتها ما يزيد على مليونين) ، كان عليّ أن أتبع نظاماً حديدياً في حياتي . فاهملت كثيراً من التفاصيل وضمرت حياتي الاجتماعية إلى حد كبير ، مما سبّب لي الحزن أحياناً . وكنت أسيّظ في الصباح المبكر قبل السادسة وأبدأ في الكتابة حتى الثانية عشرة مساءً لا أتوقف إلا لتناول وجبات الطعام أو النوم حوالي ساعة في الظهيرة . وتستمر هذه العملية ما يزيد أحياناً على عشرة أيام . وحينما كنت أذهب للاستطاف كنت أملاً حقيقتين بالمراجع ، لأن ساعات العمل في الصيف كانت أكثر لعدم وجود تليغراف فضلاً عن اختفاء الحياة الاجتماعية تماماً . ولم أكن أقرأ إلا ما له علاقة بموضوع بحثي : اليهود واليهودية والصهيونية . ولذا كان إذا ما أعطاني أحد الأصدقاء كتاباً أو أوصى بقراءة كتاب ، كنت أقول مازحاً : «هل له علاقة باليهود؟» . وقد زادت وتيرة العمل منذ عام ١٩٩٠ حين عدت من الكويت ، واستقلت من الجامعة ، إذ إن وقتي أصبح ملكاً خالصاً لي ، مكرماً كله للموسوعة .

و كنت أحياناً أشعر بأنني في دوامة وأنني لم أعد أتحكم في الموسوعة وإنما هي التي تتحكم في
وفيمن حولي .

و كنت قد أعددت مكتبة كاملة من الكتب المنصورة حتى يمكنني استخدامها في الموسوعة .
ففي تصوري أن وجود صور يقلل من خوف القارئ العربي من الظواهر الصهيونية (كما فعلت
في موسوعة ١٩٧٥) . ولكن أحد الأصدقاء نبهني إلى حقوق نشر الصور ، وأن الصهاينة قد
يوقفون نشر الموسوعة من هذا المدخل ، خاصة بعد توقيع اتفاقية الجات واتفاقيات الملكية
الفكرية . وبدأت رحلة طويلة للسؤال عن هذه القضية ، فذهبت للهيئة العامة للكتاب ،
وبالطبع كانوا لا يعرفون شيئاً . فذهبت إلى مدير مطبعة الجامعة الأمريكية ، فأكد لي أن حقوق
نشر الصور لا تختلف عن حقوق نشر الكتب ، وأن عليّ أن أكتب لكل المناحف والأرشيفات
التي تحتفظ بهذه الصور . وأخبرني ثالث أن نشر الصور أمر لا يخضع للقوانين الخاصة بحقوق
النشر ، خاصة إن قصصت قطعة من الصورة ، فهي تعامل حينذاك معاملة الاقتباس الذي يرد في
أحد الكتب ، فهو ليس بسرقة طالما ذكرت المصدر . وأخبرني رابع أن نشر الصور النمطية غير
خاضع لقوانين حقوق النشر (كأن تنشر صورة لمتحف الآثار المصرية) ولكن الصور الفريدة
(المتحف نفسه ساعة الغروب) خاضعة لها . فوجدت أن الإجابات متضاربة ، وحيث إنني كنت
أخشى مصادرة الموسوعة عدلت عن نشر الصور ، على أن أنشر بعضها في كتب مصورة (مشتقة
من الموسوعة) ، لمصادرة مثل هذا الكتاب ، إن حدثت ، لن تكون خسارة فادحة .

و كانت مسألة الحصول على المراجع مسألة شاقة ومكلفة ، ولكنها حتمية لطبيعة الحال .
وقد تكلمت بهذا مساعداً الباحث العاملتان في الموسوعة في الولايات المتحدة ، فكنت أتصل
تليفونياً بهما ، فتقرمان بالبحث عن الكتب والمقالات التي أريدها ثم ترسلان بها ، عن طريق
إحدى الحفالب الدبلوماسية في خلال يوم أو يومين (إذ صادفت الملحق الثقافي لإحدى السفارات
العربية في الرياض وكان متفهماً لطبيعة عملي وظروفه) . وكانت كمية الكتب التي ترسل لي
كبيرة ، فكان لي صديق في أحد خطوط الطيران ، وكان يعمل على أن يتم الشحن مجاناً على
طائرات الشركة ، وكانت تصلني في الرياض (ثم القاهرة بعد ذلك) مما كان يوفر لي الكثير من
الوقت والمال والعناء .

أذكر أن ابني كان يود الذهاب إلى النمسا لزيارة أسرة صديقي السعودي ، صديق الدراسة
والعمر ، د. محسون جلال ، وهي بمنزلة أسرة ثانية له (إذ تبنتوا ياسراً تقريباً حينما كان في
السعودية ، وكان يقضي عندهم وقتاً أطول مما يقضيه في منزلنا ، وأصبح ياسر ابناً لأمه ميشيل
ولإخوته عبد السلام وطارق وصوفي وهاشم) . ولكنني مانعت في ذهابه لأسباب اقتصادية .
و كنت على وشك أن أكتب أحد المداخل في الموسوعة عن موضوع « الشعب المختار » فرسلني
الكتب ومعها الفاتورة ، وكان ثمن الكتب يفوق بكثير ثمن التذكرة إلى فيينا . فأمسك ابني

بالباتورة وقال : "يا دكتور ، هو إحنا أقل من الشعب المختار؟" . فسقط في يدي وابنسمت ، وأرسلته لأسرته الثانية في فيينا .

الصهيونية والدراسة الأدبية

يرى كثير من الناس أن ثمة انقساماً في حياتي بين تخصصي الأكاديمي (الشعر الرومانتيكي والدراسات الأدبية) واهتمامي الثقافي والسياسي العام (اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل) . ولذا فهم دائماً يطرحون عليّ هذا السؤال : ما علاقة الصهيونية بالرومانتيكية ؟ وكيف يمكن لشخص مثلي في الشعر والنقد الرومانتيكي أن يتحول إلى متخصص في الصهيونية ، ويترك تخصصه الأصلي تقريباً ؟ وفي محاولتي الإجابة عن هذه التساؤلات أزعّم أن الدراسات الأدبية عمقت من فهمي للصهيونية ، وأنتي استفدت من مناهج التحليل الأدبي في محاولتي تفكيك وإعادة تركيب الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية . كما أزعّم أن ثمة وحدة فكرية تجمع بين جانبي حياتي الفكرية .

فالدراسة الأدبية هي في نهاية الأمر تدريب على قراءة النصوص قراءة نقدية لتحديد ما هو هامشي عرضي في نص ما ، وما هو مركزي جوهري . وهذه مهارة أساسية مطلوبة للتعامل مع كل من النصوص والظواهر الأدبية وغير الأدبية . وكثير من النصوص الصهيونية قد يكون بسيطاً ، ولكنها نصوص مأكرة مراوغة تحاول أن تخفي أطروحتها الأساسية . ففي أثناء المؤتمر الصهيوني الأول ، على سبيل المثال ، لاحظ هرتزل أن إحدى اللجان تدور فيها مناقشة حادة ، إذ أصر فريق راديكالي على التصريح بأن الصهاينة يطالبون بإنشاء «دولة يهودية» . ولكن كان هناك فريق براجماتي رفض هذا الاقتراح بحجة أن مثل هذا التصريح سيكشف حقيقة نوايا الصهاينة للعرب والعثمانيين ومن هنا فهم قد يمدوا العدة للمخطط الصهيوني ، ولذا اقترح البراجماتيون كتابة كلمة «وطن قومي» بدلاً من «دولة يهودية» للتصويه . فما كان من هرتزل إلا أن حسم الخلاف بقوله : "اكتبوا «وطن قومي» وسيفهم الجميع أن المقصود هو «دولة يهودية»" . وتاريخ الصهيونية هو تاريخ تلاعب بالألفاظ «الأرض مقابل السلام» ، «الأرض مقابل الأمن» ، «السلام مقابل الأمن» ... والبقية تأتي . ولذلك فكفاءة تحليل النصوص قادرة على كشف كثير من الموضوعات الأساسية الكامنة في النصوص (والتصريحات) الصهيونية ، وهي موحدة بشكل واع أحياناً وبشكل غير واع أحياناً أخرى . كما أنه يمكن أن يحلل الدارس النص ويحصر ما جاء فيه من أكاذيب ويضاهيه بما يحدث في الواقع بالفعل .

وقد قمت بتحليل كثير من النصوص الأدبية الصهيونية ، مما أدى إلى اكتشاف بعض التناقضات والإشكاليات الكامنة في النموذج الصهيوني (ومن ثم أقدت منها كثيراً في تحليل الخطاب الصهيوني وفي محاولة فهم الفكر الصهيوني وما يدور داخل العقل الصهيوني ، ومن ثم

الممارسة الصهيونية) . فكتبت دراسة عن أهم شاعرين صهيونيين : حاييم نحمان ببياليك وشاءول تشرنحوفسكي . ومن خلال الدراسة تكشف لي كثير من المفارقات والتناقضات والنوايا الصهيونية . فعلى سبيل المثال تتبدى في كتابات هذين الشاعرين روح حلولية وثنية عميقة (وكلاهما ، شأنه شأن كثير من المفكرين الصهاينة ، تأثر بنيتشه ، ومن هنا السرعة الصهيونية القبلية الشرسة) . ولكن يغطي هذه الشراسة ديباجات شبه دينية سميتها «الغيبات العلمانية» . كما يتبدى في أشعارهما الإبهام الصهيوني تجاه ما يسمى «التراث اليهودي» ، فهم يصدرون عنه باعتباره يهودياً ولكنهم يرفضونه باعتباره تراث المنفى . (وحينما تقدمت بدراسة عن تشرنحوفسكي إلى إحدى المجلات الأدبية فوجئت برفضها ، وقال المشرف عليها [وكان من كبار المفكرين] إنه لا يمكن لمصري أن يكتب مثل هذا الكلام ، وإني في الغالب سرقته من إحدى المجلات الأجنبية . فتحدثته أن يأتي بالأصل الأجنبي ، إذ لا يمكنه أن يطلق الاتهامات هكذا دون شواهد . ثم تعرفت بعد ذلك على هذا المفكر ، فاعتذر عما بدر منه ، وقام بنشرها في مجلة أخرى كان يرأس تحريرها آنذاك) .

وقد المادني تحليل النصوص الأدبية الصهيونية في محاولة إدراك الوجدان الصهيوني ، وما في داخله من مخاوف يحرص على كبتها وأزمات لا يحب أن يكتشف حقيقتها أو التصريح بها . فأغنية ماثير باتاي ، وكانت من أشهر الأغنيات الإسرائيلية في الثمانينيات ، تقول الكثير مما يتجاوز البيانات الرسمية : كلهم ذاهبون إلى مكان ما ، / يرون للمستقبل العذب ، / أما أنا ، فاستيقظ في الصباح / وأركب الحافلة رقم ٥ المتجهة للشاطئ . / الحافلة مليئة بالدخان ، / وعجوزان ، / والكمساري . / وهناك كتابة على حائط أسمنتي : / ماذا حدث للدولة ٩ / أنظر إلى الدولة وأنظر إلى الأسمنت ١ / تغني الطيور «صباح الخير» / لعله يمكنني أن أطيّر نعما بعيداً ، ولا أسقط .

إن فراغ الحافلة رمز جيد لأزمة المستوطن الصهيوني السكانية ، فليس فيها سوى عجوز (لعلها رمز «للشعب اليهودي» المسن) . ويتساءل عما حدث للدولة المكتوب اسمها على الأسمنت ، وهو رمز للجمود وغياب الحياة بل والموت . مقابل كل هذا ، هناك غناء الطيور التي تبشر ببداية جديدة ، خارج الحافلة الفارغة ، بعيداً عن الأسمنت الصلب . ويود المغني أن يطير بعيداً ، أن ينزع عن كل هذا . ولكن الأغنية مع هذا تعبّر عن عدم اليقين من إمكانية الفرار ، فالمقوطة احتمال وارد أي أنه لا مكان للتقدم للأمام ولا التراجع للخلف !

ونفس القول ينطبق على قصة «في مواجهة الغاية» للروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشوا ، التي وُصفت بأنها هدامة وانتحارية برغم أنها ظهرت في أواخر الستينيات ، حينما كان الكيان الصهيوني وثقاً بنفسه كل الثقة . تتناول القصة بعض الأحداث في حياة طالب يكتب دراسة عن حرب الفرنجة (وهذه تجربة تاريخية أخرى عقيمة وعاجزة تطارد الوجدان الإسرائيلي ، فقد

فشلت تماماً في تحقيق وجودها وكان مآلها الاختفاء) . وقد عَمَّ بطل القصة الإسرائيلي حارساً لغابة عرسها الصندوق القومي اليهودي في موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن ، وكانت كل شجرة في الغابة تحمل اسم أحد المساهمين المتحمسين من الصهاينة التوطينيين من يهود الخارج . ويرغم أن البطل ينشد الوحدة ، فإنه يقابل عربياً عجوراً أبكم كان من أهل القرية ويقوم برعاية الغابة . وتنشأ علاقة حب وكرامية بين العربي والإسرائيلي ، فالإسرائيلي يخشى انتقام العربي ، ومع ذلك فإنه يجد نفسه متجذباً إليه بصورة غير عادية ، بل يكتشف الحارس المعبر من قِبل الصندوق القومي اليهودي أنه يحاول ، بلا وعي ، مساعدة العربي في إشعال النار بالغابة . وفي النهاية ، عندما يتجح العربي في أن يضرع النار في الغابة كلها ، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة .

مثل هذه الرؤية لا يمكن أن تجد طريقها للخطاب السياسي أو الإعلامي العلني ، لأنها كما يقولون الآن هي «المسكوت عنه» ، وهو في هذه الحالة إحساس الإسرائيلي بعيشة موقفهم (وهذا عكس الخطاب الإعلامي الإسرائيلي الرسمي ، الذي لا يكف عن الحديث عن النصر والبطل والفرقة) .

ونفس الإحساس بالعيشة يتجدي بقوة في كلمات الشاعر الإسرائيلي حاييم جورى المبرر ، حين أشار إلى ما سماه «مركب إسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلي يؤلف «وفي داخله السكين الذي سيذبحه» ، كما بين جورى أن «هذا العراب (أي أرض فلسطين المحتلة) لا يرتوي» ، فهو يطالب دائماً «بالمزيد من المدافع وصناديق دفن الموتى» ، كما لو كانت أرض إسرائيل آلهة تثار بذممة ، لا مجرد قطعة أرض أو إقليم . كما لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب ، الذين يخدمون في الجيش ، يشعرون بأن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت ، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي «تضحية علمانية بإسحق» ، أي أنها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى .

ويمكن استخدام نفس أدوات التحليل الأدبية في تحليل نص سياسي لنكتشف أن نفس الحالة العقلية ، حالة العيشة الكاملة والاستسلام التام ، قد زحفت إلى وجدان بطل عسكري رسمي مثل موشيه ديان . ففي جنازة صديقه روي روتبرج ، الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون ، يقول : «إننا جيل من المستوطنين ، ولا نستطيع غرس شجرة أو بناء بيت ، دون الخوذة الحديدية والمدفع ؛ علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل في أفتدة مئات الآلاف من العرب حولنا . علينا ألا ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا . إنه قدر جيلنا ، إنه خيار حياتنا ، أن نكون مستعدين ومسلحين ، أن نكون أقوى وأقساة ، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة» . وعبارة «ابن بربر» العبرية ، أي «لا اختيار» هي تعبير عن هذه القدرة الاستيطانية ، إن صح التعبير .

وقد قمت بتحليل بعض الأساطير الصهيونية (ودراسة الأسطورة جزء من الدراسة الأدبية) . فبينت أن هذا الإحساس بعثت الموقف يظهر في أساطير قومية تترجم هذا الوضع إلى بناء أيديولوجي أسطوري مُحكم ، ومن هنا ظهرت أسطورة ماسداه وشمشون . وفي كلا الأسطورتين ثمة حالة حصار نهائية مغلقة ، لا يمكن الفكك منها إلا بتدمير الذات وتدمير الآخر ، فنهايتها ليست سعيدة وإنما إبادية للجميع . (في دراستي عن جارودي أحلل أيضاً مفهومه للأسطورة وأميز بين استخدامين : الأسطورة بمعنى "وهم وخديعة" ، والأسطورة بمعنى "رؤية متجاوزة للواقع" ، تحفز الإنسان نحو عدم قبول الأمر الواقع) .

مثل هذه الرؤية العيشية ، التي تكشف الكثير والكثير عن اللاوعي الإسرائيلي وعن مخاوف الإسرائيليين الحقيقية ، لا يمكن أن تجد طريقها للخطاب السياسي أو الإعلامي العلني ، لأنها كما يقولون الآن هي "المسكوت عنه" ، وهو في هذه الحالة إحساس الإسرائيليين بعيشية موقفهم (وهذا عكس الخطاب الإعلامي الإسرائيلي الرسمي ، الذي لا يكف عن الحديث عن النصر والبطش والقوة) .

وتضم المراسومة ثلاثة ملفات : أحدها عن الأدب المكتوب بالعبرية ، وثانيها عن أدب اليديشية ، وثالثها عن أدب أعضاء الجماعات اليهودية . وبطبيعة الحال ساعدني كثيراً تخصصي الأكاديمي على وضع نظام تصنيفي لهذه الآداب ، ولعل من أهمها التفريق بين الأدب العبري (أي الأدب الذي ينبع من التقاليد الأدبية العبرية) والأدب المكتوب بالعبرية ، أي الأدب الذي كتبه بعض الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية صدوراً عن تقاليد أدبية مختلفة ولكن باللغة العبرية . وتحليل الصور المجازية هو أحد الخبرات الأدبية المهمة ، الذي استخدمته وبكثرة في دراستي للصهيونية . فالصورة المجازية ليست مجرد زخرفة تضاف ، وإنما هي مقولة إدراكية متخفية في شكل صورة . فحينما نقول "حمام وصقور" ، فنحن لا نزخرف وإنما نحاول إدراك صلات موجودة في الواقع ، لا يمكن أن نمسك بها إلا من خلال الصورة المجازية (وكما أسلفت ، كي أجعل أداتي التحليلية أكثر تركيباً أضفت : الدجاج والنعام ، باعتبارها "طيوراً إدراكية" ، إلى الحمام والصقور) .

وقد درست وظيفة الدولة الصهيونية من خلال مجموعة من الصور مجازية التي استخدمها الصهاينة وأعدائهم في وصف الدولة الصهيونية . فكثير من الصهاينة ينظرون إلى إسرائيل وهم يَعدُّونها (رقعة) أو «مساحة» أو «مكاناً تابعاً» أو «بلداً تحت الوصاية» (فهي مكان تم نزع القداسة عنه وتمت حوسلته تماماً حتى أصبح موضوعاً محضاً) . وهم يَعدُّون المستوطنين الصهاينة حراساً و"خدمة عسكرية جاهزة" : جماعة من المالك أو المرتزقة على أهبة الاستعداد دائماً والملوك أداة ووسيلة ، وليس إرادة وقيمة . (بل إن إحدى الصحف الإسرائيلية وصفت الدولة الصهيونية بأنها «عاهرة الموانئ») .

وسواء أكانت الإشارات للمكان أم كانت للإنسان ، فإن جوهر الصور المجازية المستخدمة في وصف الدولة الصهيونية هو التبعية الكاملة للغرب ، والتحوّل الكامل لحسابه ، وتحويل المكان والإنسان إلى أداة منزلة عن المحيط الحضاري الشرقي (أفراح مستقبلية) على حد قول أحد المعلقين الإسرائيليين . وقد مزج هرتزل ، مؤسس الصهيونية ، كل العناصر في تعبيره المجازي الشهير حين قال : "نقيم هناك [في آسيا] جزءاً من حائط لحماية أوروبا يكون حصناً منيعاً للحضارة [الغربية] في وجه الهمجية" ، فقد مزج الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطاً غربياً في مواجهة الشرق . (يلاحظ أن كلمة «إسرائيل» في العبرية كلمة متعددة المعاني متنوعة الدلالات وتشير لكل من الأرض والشعب ، تماماً كما فعل هرتزل) .

ومن الصور المجازية المتواترة الأخرى ، صورة إسرائيل بحصانها كلب حراسة . فقد وصف البروفيسر يشعياهو ليبوفيتس في حديث له في صحيفة لوموند بتاريخ ٨ من مارس سنة ١٩٧٤ إسرائيل بأنها "عميل للولايات المتحدة" ووصف الإسرائيليين بأنهم "كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط ، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا على القيام بهذه المهمة" . وقد طوّر الصحفي الإسرائيلي عاموس كينان هذه الصورة المجازية المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة ، إذ وصف إسرائيل بأنها "كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس" ، وهي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلى حماية . ويفضل العرب استخدام «مخلب القط» كصورة مجازية لوصف الدولة الرطيفية . وهي صورة مجازية مألوفة وشائعة فقدت كثيراً من قوتها بسبب تكرارها بشكل محل ، وإن كانت معبرة تماماً . والصور المجازية السابقة (الحارس ، والعامرة) وكلب الحراسة ، ومخلب القط) سواء قبلناها لجدتها أم رفضناها لجدتها ، تؤكد أن أهمية إسرائيل من وجهتي النظر الغربية والصهيونية لا تكمن في عائلتها الاقتصادي وإنما في دورها الإستراتيجي ، إذ إن كل الصور المجازية فتعترض وجود دور يؤدّي وثمان يدفع ، لا عائد اقتصادي يحصل .

ولكن كل الصور المجازية السابقة ، الثلاث منها وغير الثلاث ، هي في الواقع مستمدة من القرن التاسع عشر قبل تفجّر الثورة التكنولوجية وتزايد معدلات نمو الصناعات الحربية وتنوعها . ولذا ، كان تطوّر الصورة المجازية بشكل يتفق مع روح العصر في أواخر القرن العشرين أمراً حتمياً . وهذا ما فعله يعقوب ميريدور في حديثه للإذاعة التابعة للجيش الأمريكي ، فقد بين أنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلى بناء عشر من حاملات الطائرات . وهو بذلك يكون قد أحلّ صورة إسرائيل المجازية كحاملة طائرات أمريكية محل الصور المجازية الغامضة أو الفاضحة السابقة . وترد الصورة المجازية نفسها ، وبشكل أكثر تلوّراً ، في مقال الصحفي الإسرائيلي سبير والمعنون «مجتمع يتغذى على الهبات الخارجية» ، إذ قال الكاتب : "إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة

مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود". وقد وصف سبير هذه الدولة بأنها حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة في موقع إستراتيجي فريد من نوعه قريب من الاتحاد السوفيتي وقريب من أوروبا الشرقية وقريب من حقول النفط .

إسرائيل إذن «حاملة طائرات» ، أي أنها وظيفة تؤدي أو دور يلعب وأداة تُستخدم أو ثروة إستراتيجية تضم أربعة ملايين مقاتل . ولا شك في أن صورة «حاملة الطائرات» المجازية أكثر دقة ودلالة من سابقتها لأنها لا تتحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكل عام ، وإنما تعرف وبدقة بالغة طبيعته الإستراتيجية كدولة عميلة توجد في منطقة حدودية قريبة من الاتحاد السوفيتي (سابقاً) وأوروبا الشرقية وحقول النفط ، وليس لها عائد اقتصادي مباشر . وتؤكد الصورة المجازية حركية هذه الدولة النافعة الثمينة وإمكانية نقل جنودها من مكان حدودي إلى مكان حدودي آخر . ولكن الصورة المجازية تظهر في الوقت نفسه أنه يمكن الاستغناء عنها ، فالأجزاء الآلية الحركية ليست عضوية ولا ثابتة .

ودارس الأدب هو أيضاً دارس للغة الأدب وتحليل الخطاب ، ولذا فهو يهتم بمعاني وإيهادات الكلمات وما بين السطور . وللموسوعة بأسرها هي دراسة تحليلية للخطاب الصهيوني ومحاولة للتحقق من معاني المصطلحات والمفاهيم الكامنة وراءها ونحت مصطلحات جديدة أكثر تفسيرية ودلالة . ففي مدخل كامل أوردت تاريخ تطور مفهوم الصهيونية (دون المصطلح) ثم تاريخ ظهور مصطلح «صهيونية» وتطوره . وأشارت إلى أنه في الآونة الأخيرة أصبح بلا معنى . وأوردت بعض الكتابات الإسرائيلية التي تشير إلى هذا التطور الأخير . فأشارت إلى أن أحد الكُتّاب الإسرائيليين لاحظ أن كلمتي «صهيوني» (بالعبرية : تسبوني tzioni) و«غير المكتثر» (بالعبرية : تسبيني tzini) لا يوجد فارق كبير بينهما . والفارق بينهما في الإنجليزية هو حرف (o) ، أي زيرو . فالصهيونية ، هذه الأيديولوجية للشيحانية التي تدعي أنها القومية اليهودية ، والتي تتطلب الحد الأقصى من الحماسة والالتزام ، فقدت دلالتها وأصبحت شيئاً لا يكتثر به اليهود أعضاء هذه القومية المزعومة الذين تحاول الصهيونية «تحريرهم» من أسرهم في «المنفى» !

ويشير أحد الكُتّاب الفكاهيين في إسرائيل إلى أن كلمتي «صهيونية» - زايونيزم Zionism و«زومبي» Zombie (وهو الميت الذي أعيدت له الحياة بعد أن دخلت جسده قوة خارقة ، ولذا يمكنه الحركة ولكنه لم يستعد لا القدرة على الكلام ولا حرية الإرادة) تردان في نفس الصفحة من المعجم الإنجليزي ، الأمر الذي يدل - حسب تصوّره - على ترابطهما ، وأن الصهيونية إن هي إلا رومبي ، أي جسد متحرك لا حياة فيه ولا معنى له . (وهذا الكاتب الكوميدي لم يجابب الحقيقة كثيراً ، فهناك العديد من المستوطنات الفارغة ، تعى من بناها إذ لم يسكن فيها أحد ، ويُطلق عليها بالإنجليزية : دمي ستلمنت Dummy Settlement . وقد أثرت ترجمتها بعبارة «مستوطنات الأشباح» ، فهي جسد قائم لا حياة فيه) .

ونظراً لكل هذه التطورات ، أصبحت كلمة «صهيونية» (تسيونوت بالعبرية) تعني «كلام مدع أحق» (المجهر وسالم يومست ٢٦ من إبريل سنة ١٩٨٥) وتحمل أيضاً معنى «التباهي بالوطنية بشكل علني مُبالغ فيه» ، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة (الإيكونومست ٢١ من يولية سنة ١٩٨٤ وكتاب برنارد أفيشاي مأساة الصهيونية ، ص ٢٦) . ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر : صهاينة الخارج ، أي الصهاينة التوطينيون الذين يحضرون إلى إسرائيل وكأنها مكان سياحي («فندق صهيون» على حد قول أحد الكتاب في إسرائيل) . ويحبون أن يسمعو الخطب التي لا علاقة لها بالواقع ، ولذا فهي ساذجة ، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية . وفي الوقت نفسه تشير الكلمة إلى الصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التي عليهم إلقاؤها إن هي إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها ، ولكن عليهم إلقاؤها على أي حال حتى يجزل لهم الضيوف العطاء . والمقصود الآن بعبارة مثل «أعطه صهيونية» هو «فلتفتوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى» ، فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول . أو كما نقول بالعامية المصرية : «هَجَصْ» ، فالمسألة «هَجَصْ في هَجَصْ» . ويمكن أن نضيف لزيادة الدلالة «والأرزاق على الله» . أو فلنعلن العبارة ونقول : «والأرزاق على الولايات المتحدة وبهოდ الدياسورا» .

إن الدراسة الأدبية تجعل الدارس يهتم بخصوصية الظاهرة (فما يُمَيِّز عملاً أدبياً عن آخر ليس موضوعه العام [الحب - الموت - الغضب ... إلخ] وإنما طريقة تناوله لهذا الموضوع ، وما يقوله عنه بشكل محدد) ، أي أن الدراسة الأدبية تُعلم احترام الخصوصية وثراها بحُبانها تدياً محدداً لما هو عام (ومن هنا المفهوم الخاص «بالمعنى الخاص للظاهرة» الذي تأثرت فيه بمقال ت . إي . هلم T. E. Hulme عن الرومانتيكية والكلاسيكية) ، وهو أمر مهم جداً لدراسة الظاهرة الصهيونية التي تغلفها قشرة سميكة من الديباجات اليهودية تخبي كثيراً من صفاتها العامة .. والدراسة الأدبية تدرب الدارس على كيفية صياغة النماذج واستخدامها . وقد بدأت في تطوير النماذج التحليلية (الحلولية - نهاية التاريخ ...) في أثناء كتابتي للدكتوراه في الأدب المقارن . وقراءة الواقع والنصوص من خلال نماذج يساعد على ربط أشياء قد يبدو لأول وهلة أن لا علاقة بينها ، ولذا بدأت أربط بين رومانتيكية ريتمان وحلوليته المعادية للتاريخ من جهة واستيطانية المجتمع الأمريكي من جهة أخرى . وتحولت الحلولية وإشكالية نهاية التاريخ إلى نماذج إدراكية تحليلية قبل اهتمامي بالصهيونية . وحينما بدأت أدرس الصهيونية بشيء من العمق وجدت أن هذه النماذج التحليلية تصلح للدراسة الفكر الصهيوني والممارسة الصهيونية .

ولعل كل هذا ساعدني على إدراك أن الصهيونية ، على عكس ما يتصوره الكثيرون ، لا تنبع من التوراة وأرض كنعان والتلمود ، وإنما هي إحدى إفرازات التشكيل الحضاري الغربي في

القرن التاسع عشر ، وهو التشكيل الذي أفرز كذلك ظاهرتي الإمبريالية والعنصرية ، وكثيراً من الأنساق الفلسفية العدمية التي تنكر التاريخ بل وتنكر فكرة القيمة نفسها وكل المطلقات والثوابت المعرفية والأخلاقية . وقد ظهرت الرومانسية هي الأخرى في ذلك التاريخ وفي ذلك المناخ . وهي تعبير عنه واحتجاج عليه في الوقت نفسه . ومن ثم نجد أن الصهيونية - على مستوى من المستويات - حركة "رومانسية" تتسم بكثير من سمات الرومانسية . فعلى سبيل المثال تنحو الرومانسية الغربية منحى عضوياً في التفكير (أي رؤية الواقع ككل بحسبانه كياناً عضوياً يشبه النبات ، على سبيل المثال) وكذا الصهيونية (وكل الحركات الفاشية والشمولية) . وإذا كانت الرومانسية عودة للطبيعة كمطلق ، فإن الصهيونية هي الأخرى عودة لأرض الميعاد كمطلق . ويمكننا أن نقول كذلك إن جوهر الفكر الغربي العلماني الشامل في القرن التاسع عشر هو البحث عن «مطلق مادي» - أي نقطة داخل المادة يمكن عن طريقها تفسير كل الأشياء والظواهر . هذه النقطة هي صراع الطبقات ووسائل الإنتاج عند ماركس ، وهي الجنس عند سيغموند فرويد Sigmund Freud ، وهي مبدأ المنفعة عند جيريمي بنتام Jeremy Bentham ، وهكذا . وهذا ما فعلته الصهيونية ، فقد استعارت مفهوم العودة (وهو مطلق ديني متجاوز للمادة يتحقق خارج التاريخ حسب الشريعة اليهودية التي كانت تحرم على اليهودي العودة إلى فلسطين إذ عليه انتظار مشيئة الخالق) ، استعارت الصهيونية هذا المفهوم ثم حولته إلى مطلق علماني مادي شامل يتحقق في التاريخ في عالم المادة ، أو عند نهايته . فاليهودي - حسب التصور الصهيوني - هو عضو في شعب عضوي (فولك) ، ولذا فهو مرتبط عضوياً بأرض الوطن (إرثس إسرائيل في المصطلح الصهيوني) ، يمارس دائماً رغبة عارمة وإحساساً غريزياً بضرورة العودة (أي أن علاقة اليهودي بفلسطين ، حسب الرؤية الصهيونية ، تشبه علاقة الألماني بأرض الأجداد - ألمانيا التي هي فوق الجميع - حسب الرؤية النازية) . ويمكن القول بأن الخطابين النازي والصهيوني يتسمان بأنهما خطaban رومانسيان حلوليان عضويان يستبدلان بالإله الأمة (الفولك) ويخلعان عليها كل صفات الإله .

ويذهب الصهاينة إلى أنه لا يمكن فهم حركات وآليات ما يُسمى «التاريخ اليهودي» دون إدراك لهذه الرابطة العضوية بين اليهودي ووطنه القومي ، ومن ثم لابد على اليهودي أن يرفض عملية الانتظار السلبي للعودة التي فرضها عليه الحاخامات ، وبدلاً من ذلك عليه أن يحمل السلاح بطريقة علمانية عصرية حديثة لتحقيق العودة الاستيطانية المسلحة ؛ لابد من العودة إلى فلسطين واعتصامها ، والبقاء للأصلح بقوة السلاح على الطريقة الداروينية النيتشوية ، ولذا ففكرة السلاح هي المعيار النهائي .

وفي أثناء دراستي للدكتوراه قرأت بعض الأعمال النقدية في حقل الدراسات الرومانتيكية لكتاب يهود . وقد استخدم أحدهم (هارولد بلوم Harold Bloom) تراث القبالة الحلولي

الفنوصي لتفسير الشعر الرومانتيكي . وكان وليام بليك الشاعر الرومانتيكي ذاته غائصاً في تراث القَبْالَة المسيحي الذي يضرب بجذوره في القَبْالَة اليهودية . ثم قرأت دراسة لبوم عن الشاعر الرومانتيكي شللي بعنوان **شللي وإبداع الأسطورة** Shelley and Myth-Making استخدم فيها فلسفة مارتن بوبر Martin Buber (العضوية الحلولية الصهيونية) عن الأنا والأنث في مقابل الأنا والهو . وقد بين كل هؤلاء (بما في ذلك جفري هارتمان الذي عارضت أعماله في رسالتي للدكتوراه) أن الرومانسية تحاول تأسيس علاقة مباشرة بين الإنسان والطبيعة دون أي تدخل أو وساطة وخارج إطار المجتمع الإنساني والتاريخي ، أي أن جوهر الوجدان الرومانسي من وجهة نظرهم هو شكل من أشكال المباشرة الوثنية حيث يدرك الشاعر الطبيعة بحواسه مباشرة مثلما كان الإنسان الوثني الأول يفعل ، أي أنه يعيش في وحدة وجود مادية لا يوجد فيها مسافة بين الذات والموضوع أو بين الإنسان والطبيعة أو بين العقل والمادة (وهذا لا يختلف كثيراً عن علاقة اليهودي بصهيون في الرؤية الصهيونية ، إذ عليه أن يرفض تاريخ اليهود في المنفى بعده انحرافاً عن المسار الطبيعي للتاريخ اليهودي الذي لا يمكن أن يتحقق إلا في صهيون) . وقد وضع لي كل هذا الإطار المعرفي الذي تستند إليه رؤية كل هؤلاء . ويتسم المستوى المعرفي في خطابهم التحليلي بأنه على مستوى معقول من التجريد يسمح بأن يربط الدارس من خلاله بين حقل من المعرفة (الأدب) وحقل آخر (القَبْالَة والحلولية) ، هذا على عكس تناول السياسي والاقتصادي للقضايا ، والذي يتسم بالمباشرة ويميل نحو المعلوماتية .

وقد ألفت دراستي لما بعد الحداثة في الأدب الكثير من الضوء على مفاهيم مثل «لاهوت موت الإله» و«ما بعد الصهيونية» و«السوق الشرق أوسطية» ، بحُسانها كلها تعبيراً عن انتقال الصهيونية ومشروعها من عصر الحداثة (التي تؤمن بوجود مركز ولذا تجد الاستعمار الغربي والدولة الصهيونية يلجئون إلى القمع المباشر والمواجهة العسكرية) إلى عصر ما بعد الحداثة (حيث يسقط المركز وتعود النسبية ، ولذا تجد الاستعمار الغربي والدولة الصهيونية يلجآن إلى الإغواء الظاهر والحديث عن السلام وإلى القمع الباطن الذي تحول إلى بطش واضح بسبب انتفاضة الأقصى) .

ودراستي للأدب تطلبت دراسة تاريخ الفكر الغربي والمؤسسات الحضارية الغربية المختلفة ، وقد أفادني هذا كثيراً في دراسة تواريخ الجماعات اليهودية ، إذ إن كثيراً من سماتها ، التي يظن البعض أنها «يهودية» وتعبير عن الخصوصية اليهودية ، هي في جوهرها غربية ، ولا يمكن أن يعرف الدارس ذلك إلا بمعرفة التاريخ الغربي ، بكل تنوُّه وتعرجاته . وقد ساعدتني معرفتي باللاتينية (التي يجب أن يلم بها أي باحث في مجال الآداب الغربية) على دراسة يهود أوروبا في العصور الوسطى ، حيث بدأت تتشكل الرؤية الغربية للجماعات اليهودية . وأحيراً يسرت لي معرفتي باللغة الإنجليزية (لغة الغالبية الساحقة ليهود العالم) وبالولايات المتحدة (حيث يوجد

أكبر وأثرى جماعة يهودية في العالم) قراءة المراجع الأساسية عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل ، والتنقل بين مكتباتها المختلفة (مكتبة مدينة نيويورك - مكتبة مدرسة اللاهوت اليهودية التابعة لجامعة كولومبيا - مكتبة الكونغرس - مكتبات بيع الكتب اليهودية .. إلخ) . ومن الطريف أنني اكتشفت أن عدداً كبيراً ممن تأثرت بهم في دراستي للصهيونية (حبيب فهوري - بديعة أمين - أسعد رزوق) من دارسي الأدب . كما أن عدداً لا بأس به من المفكرين الصهاينة (هرتزل - نوردار - برنر - برديشكي - بوبر) ، إما أدباء وإما مهتمون بالأدب . بل إن هرتزل كان يريد أن يكتب كتاب الدولة اليهودية (كتاب الصهيونية المقدس) على هيئة رواية !

أحداث وأصدقاء وأعداء

من أهم الأحداث المرتبطة بالموسوعة ما حدث في أثناء الاجتياح العراقي للكويت . إذ اكتشفت أن كل مراجعي وأوراقي ونسخة الموسوعة الوحيدة هناك في الكويت ، ولم يكن من الممكن أن أبقي في القاهرة بعيداً عن كل هذا ، غير عارف بما يمكن أن يحدث لهذا الاستثمار الفكري . فقررت أن أذهب للكويت : إما أن أمكث بجوار أوراق الموسوعة ومراجعها ، وإما أن أحضرها معي إلى القاهرة ، وكنت أقدم زوجتي ضاحكاً قبل سفري باعتبارها "أرملتي" . ثم قمنا بالرحلة . وقد مكثت في الكويت في أثناء الاجتياح زهاء ثلاثة أسابيع (لم أتوقف أثناءها عن العمل في الموسوعة) . ثم اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على استئجار تريلا (عربة نقل ضخمة) وضمت فيها كل صناديق الأوراق التي تخصني (حوالي ثلاثين صندوقاً) وركب أصدقاؤني سياراتهم ، ونسيت أنا سيارتي من فرط فرحتي بالأوراق ، وذهبنا إلى بغداد ومنها إلى الرشيد فالعقة فنوبح فمصر الجديدة في القاهرة . وقمت بتفريغ السيارة واستأنفت العمل في الموسوعة .

وفي أثناء العودة حدث شيء يشبه المعجزة . ففي وسط الصحراء تعطل شكيان إحدى السيارات وكان مطلوباً إيجاد سلك لربطه حين الوصول إلى إحدى الورش . وبطبيعة الحال لم يكن معنا سلك في مثل هذه الرحلة ، فبدأت أسير على قدمي في الصحراء في اتجاه ما ، فضحك زملائي وسألوني ماذا أفعل . في هذه اللحظة وقعت عيناى على لغة سلك كاملة ، فأخذتها وأعطينتها إياهم وأكملنا الرحلة .

ومن القصص الطريفة المرتبطة بالموسوعة أن أحد ضباط قوات الطوارئ الدولية (التابعة لهيئة الأمم المتحدة) قدم للأمرأة هدية عبارة عن طائر أحضره من إسرائيل كان اسمه «هاجر» . فقرر أطفالي تغيير اسمه إلى «موسو» وهو اختصار موسوعة . وكان طائراً غريباً للغاية إذ إنه كان يرفص الطيران خارج المنزل ، وكان يحط على دعوسنا دون خوف أو وجل ، كما أنه كان يأتي

على المائدة ليأكل معنا إن دعوناه !

ولابد أن أذكر بعض الأصدقاء الذين ساهموا بجهودهم في الموسوعة ، وأولهم بطبيعة الحال محمد هشام (أول مدير للموسوعة) ، وهو الشخص الوحيد (باستثناء زوجتي) الذي صاحب الموسوعة منذ البداية حتى يوم النشر . ومن الطريف أن محمد هشام حضر اجتماع عام ١٩٨٢ الذي عقدته في منزلي ، وكان معه خطيبته ماجدة (الدكتورة ماجدة الآن) ، وهما الآن متزوجان وعندهما يارا وست ، وتبلغ يارا الآن إثني عشر عاماً ، أي أن عمرها أقل من نصف عمر الموسوعة .

كما لابد أن أذكر هاني جابر ، خبير المعلومات بمؤسسة البهان في الإمارات ، وفتحي أبو ربيعة ، في الولايات المتحدة في نيويورك (الذي أشرف على الباحثين الأمريكيين في نيويورك) ، وياسر علوي ، بوزارة الخارجية ، ونادية رفعت ، الباحثة في شئون السياسة . فقد استمروا في التعاون معي عبر تاريخ الموسوعة الطويل ، بشكل تطوعي أو مقابل أجر هو أقرب إلى التطوع منها إلى الأجر (وغيرهم كثيرون ، ممن عملوا معي في الموسوعة مثل صديقي الأستاذ عبد الوهاب فتاية بالإذاعة المصرية الذي قام بقراءة أجزاء طويلة من الموسوعة ، تماماً مثلما تكفل بمراجعة موسوعة ١٩٧٥ وأصر على ألا يتقاضى أي مكافأة مالية كبيرة كانت أم صغيرة) ، ولولا دعم هؤلاء الأصدقاء لما كان يمكن لهذا العمل أن ينتهي . وكان الصديق الدكتور مجدي زعبل هو أول من فاعني عام ١٩٨٠ أن أسأل الموسوعة إلى جهد جماعي بحيث تصدر في أسرع وقت .

كما لابد أن أشير إلى الصديقين عز الدين شوكت والدكتور أسعد عبد الرحمن فكلاهما يسر وصول المراجع والمعلومات لي بشأن إقامتي في السعودية . ويمكن أن أذكر هنا الصديق توفيق عبد الرحمن الذي لم يكن يكف عن محاورتي ، بل إنه استضافني مرة لمدة نصف ساعة (حينما كان يعمل في البرنامج الثاني) لأعرض أفكار الفلسفية . وكانت هذه هي أول مرة في حياتي نتاح لي مثل هذه الفرصة . أما صديقي د. عزام الصميمي القيم في لندن ، فقد قرأ الموسوعة قبل صدورها وحاورني بخصوص ما جاء فيها موضعاً حدة بعض الأفكار منها إياي أنها قد تصدم بعض الناس (كما ساعدني من الناحية المالية حينما قام ببيع بعض النسخ الفاخرة قبل النشر) .

وهناك صديقان لا علاقة مباشرة لهما بالموسوعة ، ولكنهما نجحا في حمايتي من كثير من تفاصيل حياتي اليومية : أولهما هو صديقي الأستاذ أسامة يوسف المحامي ، الذي أحيل له كل ما يصلني من أوراق "حكومية" أولاً بأول ، فيتكفل بها وأنساها تماماً وأتقنع بالصماء اللازم لعملية التأليف . أما الصديق الثاني ، فهو المهندس عادل عبدالرحيم الذي يتكفل دائماً بتنفيذ أي أعمال هندسية (وغير هندسية) في عمارتي ، مما يتيح لي شيئاً من صفاء البال .

وقد بدأت كتابة الموسوعة في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات . وحينذاك لم يكن الكمبيوتر شيئاً متاحاً ، وإنما كان شيئاً نادراً ومكلفاً ، ولذا كانت المداخل تُكتب على الآلة

الكاتبة . وقد كُتبت كل صفحة عشرات المرات ، وحررت أربع مرات . وكان الأستاذ سيد طه نعم العون في عملية نسخ النص ، خاصة وأن خطي لا يُقرأ ، وكانت عملية التصحيح تتبع نظاماً إشارياً خاصاً ، تفهّمه حق الفهم حتى أصبح بوسعهُ أن يحوّل ما أعطيه من ركام ورقي كُتب بخطٍ غريب (يهدد بأن يصبح هيروغليفيّاً) على حد قول أستاذه في الولايات المتحدة) وبنظام إشاري فريد ، يُحوّل كل هذا إلى صفحات منسقة نظيفة . كما أنه احتفظ في عقله بهيكل المصطلحات بل والتواريخ ، بحيث إنه إذا حدث عدم اتساق ("بالفور" أحياناً و "بلفور" أحياناً أخرى) كان يقوم هو بتصحيحه بنفسه أو ينبهني إليه .

وهنا لابد أن أذكر قصة مؤثرة للغاية ، وهي قصتي مع الأستاذ الشوافي الذي نشأت بيني وبينه صداقة بدأت عام ١٩٦٨ واستمرت حتى وفاته عام ١٩٨٨ . كان الأستاذ الشوافي يكتب لي أبحاثي ، ثم أخذ منذ عام ١٩٧١ ينسخ موسوعة ١٩٧٥ على الآلة الكاتبة (فكانت هذه هي الطريقة الوحيدة المتاحة حينذاك) ، ثم نسخ النسخ الأولى من الموسوعة . ولا أدري كيف سمعت كلمة "الشرقاوي" بدلاً من "الشوافي" حين سألت عن اسمه . فكنت أناديه باسم الأستاذ الشرقاوي ، فكان يرد عليّ ولم يصحح لي الاسم (ربما خجلاً وحياءً) . والأدهى من هذا أنني كتبت أشكره في كثير من مقدمات كتبي تحت اسم "الشرقاوي" . فكان يأخذ كتبي ويخبر الناس أنه المعني بذلك ، ولم يشأ أن يصحح لي الاسم طيلة هذه الأعوام إلى أن توفاه الله وهو بعد شاب ، وحينذاك فقط عرفت أنه الشوافي وليس الشرقاوي . ساعته عاهدت نفسي أن أذكر هذه الواقعة في أول مناسبة وأن أصحح الخطأ .

ولابد أن أنهو بمساعدات الباحث في الولايات المتحدة (اللاتي طلبن ألا أذكر أسماءهن) . كانت إحداهن (وأكثرهن دقة) حاصلة على الدكتوراه وتعمل أُمينة مكتبة وتحمل اسماً مجهولاً ساكسونيا . فكانت نعم العون لي ، لأنها تمكنت من الذهاب لكل المكتبات الأمريكية ، بما في ذلك مكتبات المنظمات الصهيونية ، وحصلت لي على ما أريد من مراجع ومعلومات . وكانت هذه المساعدة ، "مساعدة" بالفعل . أذكر أنني ذهبت إلى الولايات المتحدة في شهر أغسطس ومع زوجتي وأردت أن أوفر لنفسني بعض الوقت حتى أذهب لبعث التاحف والسارح . فاتصلت بها وأخبرتها برغبتي في زيارة بعض المكتبات التي تشخص في بيع الكتب اليسارية ، حتى أرى ماذا يقول اليسار الغربي عن الصراع العربي الصهيوني في أواخر الثمانينيات بعد أن أصبح الحديث عن إسرائيل "لاشترابية" مسألة مستحيلة . اتصلت بي المساعدة في اليوم التالي وكانت قد أحصرت بيبليوجرافيا بالمكتبات في مانهاتن واختارت أهمها واتصلت بها للتأكد من مواعيدها (ف أغسطس هو شهر العطلة الصيفية) وأعدت لي خريطة بكيفية الوصول إليها وجهزت لي خريطة السبواي (مترو الأنفاق) . ثم قالت إنني بعد الانتهاء من شراء الكتب لابد أنني سأحس بالعطش وأشارت إلى أنه بجوار المكتبة الثانية المقترحة يوجد محل للعصير (ساجده

على يعني !) ، وأخبرتني بأن أحسن أنواع العصور في هذا الخلل هو كذا ! كانت كفاءتها أحياناً منطرفة . فحينما كانت الموسوعة على وشك الصدور وأردت التأكد من أن بعض الشخصيات لا تزال على قيد الحياة ، قامت باستشارة المراجع المختلفة ، وحينما فشلت حصلت على أرقام تليمرات بعض هؤلاء الأشخاص واتصلت بهم لتسأل عما إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة أم لا !

وكان هناك أحياناً عملية النشر ، وكنت قد أرهقت مالياً ، ولم يعد بوسعي طباعة هذا العمل الضخم ، ولم يكن عندي الطاقة أو الكفاءة للقيام بعملية توزيعه . وكان الناشرون يجمعون عن نشره ويخافون منه ، إلى أن قابلت الأستاذ إبراهيم المعلم ، أحد أصحاب دار الشروق ، وفوجئت به لا يكتفي بالموافقة وحسب ، وإنما يرحب بنشر هذا العمل ، برغم ما يعنف هذه العملية من مخاطر مالية (استثمار مبلغ ضخم من المال في عمل ربما لا يباع إلا في خلال بضعة أعوام) .

وقد تم إنجاز هذا المشروع بمجهود وتحويل فردي ، وفي حرية بالغة ، فلم يكن هناك من يفرغ على بابي يطلب مني الانتهاء ! مما أتاح لي فرصة ربط العناصر بعضها ببعض ، ثم ربط النماذج الأساسية الثلاثة في الموسوعة (الحلولية - العلمانية الشاملة - الجماعات الوظيفية) . وأحياناً يُخيل إليّ أن فشلي في الحصول على تمويل للموسوعة واضطراري إلى أن أعمل بفردي كان نعمة متخفية ، إذ إن عملية ربط العناصر وربط النماذج ربما كان من الصعب أن يتم من خلال جهود فريق عمل ، إذ كان لابد أن تصب كل المعلومات والنماذج في عقل واحد .

ومع هذا يجب أن أثير قضية المنح البحثية . فهي عادة لا تتجاوز عاماً أو عامين . ولكن توليد الفكر التأسيسي يتطلب وقتاً طويلاً . وقد وقمنا (مع دخول الاستعمار بلادنا) في قبضة ما سماه أحد علماء الاجتماع الأمريكيين "إمبريالية المقولات" ، أي أن مقولاتنا التحليلية نفسها مستوردة من الغرب . قد تختلف في التطبيقات والآراء ، لكن تظل المقولة النهائية غربية . خذ على سبيل المثال مصطلح / مفهوم مثل "قومية" . عرّف هذا المصطلح / المفهوم في المعجم اللغوي والحضاري الغربي عن طريق استقراء الواقع الحضاري الغربي ، ومن ثم يمكن تطبيقه على بعض القوميات الغربية (لا كلها) . ثم يقضي بعضنا سحابة يومه في إثبات أن هذه التعريفات تنطبق علينا أيضاً ، ويذهب البعض الآخر إلى أنها لا تنطبق . وكلا الفريقين قد حول المقولة الغربية إلى إطاره المرجعي الوحيد الذي يتحرك من خلاله . ولكي نتحرر من وضع التبعية الفكرية المزري هذا ، يتطلب الأمر بحثاً طويلاً وإعادة قراءة للواقع والتاريخ (واقعا وواقعهم ، وتاريخنا وتاريخهم) حتى يمكننا طرح بدائل ، أي حتى يمكننا التأسيس . ولذا فالمنح البحثية (وهي قليلة للغاية) والتي لا تتجاوز العامين في أحسن تقدير لا تصلح لتوليد الفكر التأسيسي ولطرح النماذج البديلة . وكما قال لي مدير أحد مراكز البحوث إنه لا يمكن للمركز أن يعطي منحة أكثر من

عامين ، فما بالك بستة وعشرين عاماً ؟

وهنا لا بد أن أذكر حدثاً مهماً في حياتي الفكرية له صلة كبيرة بالموسوعة ، فقد انتقلت إلى الكويت لفترة وجيزة ، وقابلت الأستاذ سعيد الحسن (ابن الأستاذ خالد [أبي سعيد] الحسن) وتوثقت عرى الصداقة بيننا على الفور بشكل أدهشني. ففي مثل سني ، ومع انشغالي المتوحش ساعتها بالموسوعة ، لم يعد من السهل أن تنشأ صداقات جديدة في حياتي . وقد تعرفت على الكثير من أصدقاء سعيد ، ولعل من أقربهم إليّ في الوقت الحاضر الأستاذ سامي عبده ، الذي يعمل في أحد المصارف في المملكة العربية السعودية . ولكن لماذا أخص سعيد الحسن وسامي عبده بالذكر في سيرتي غير الذاتية غير الموحوعية هذه ، وفي الجزء الخاص بالموسوعة ؟ أفعل ذلك بسبب أهميتهما الموقرة في عملية كتابتها . فكلاهما بذل مجهوداً غير عادي لتفريغ تماماً للعمل الفكري (وهذا أقصى ما يطمح إليه مؤلف في عصر الانشغال اليومي والقلق الدائم) عن طريق بيع نسخ من الطبعة الفاخرة للموسوعة لبعض أصدقائهم من الأثرياء قبل النشر ، وقد ساهم هذا في تحقيق التفريغ اللازم . كما أنهما لم يكفيا عن تشجيعي والاتصال بي ، بما كان يؤنس وحدتي ويدعمني ويجعلني أتمسك في لحظات الوحدة الكثيرة التي مارستها .

وكانت جامعة الملك سعود في غاية الكرم ، إذ اعتمدت مبلغاً من المال لشراء بعض الكتب (التي توجد الآن في مكتبتها) ولتغطية بعض بنود التكاليف الأخرى . كما خصصت لي المكتبة غرفة خاصة احتفظ فيها بكتبي ، كنت أقضي فيها الساعات الطوال . كما أن الجهد الفكري الذي وفّره لي قسم اللغة الإنجليزية ، كان شيئاً فريداً . فحواراتي المستمرة مع زملاء في القسم ، خاصة د. عزت خطاب ود. سعد البازعي كانت حوارات خصبة خلّاقة ، ساعدتني على تطوير أفكارتي وعلى تدعيم إحساسي بأن ما أقوم به له معنى . وقد أدرك الدكتور عزت خطاب (رئيسي المباشر) أهمية الموسوعة ، فكان لا يוכל لي أي أمور إدارية ، مما جعل إقامتي في السعودية تشبه التفريغ الكامل للتأليف .

ولكن الفضل الأكبر في عملية التمويل يعود إلى زوجتي التي أصبحت بالجنون المقدس الذي أصابني ، فكانت لا تمنع في إنفاق كل ما تملك وما لا تملك على الموسوعة (كنت أحياناً أتعاقد مع بعض مساعدي الباحث لأداء بعض المهام نظير أجر ما ، يتجاوز بمراحل الاعتمادات المخصصة للموسوعة أو رصيدنا في البنك) . أذكر أنني عندما عدت من الكويت عام ١٩٩٠ كان أمامي فرصة للعودة للجامعة ، ولكنني كنت أود التفريغ لكتابة الموسوعة (بعد السنوات التي تشبه التفريغ التي قضيتها في السعودية) . ولذا فاعتقتها في الموضوع وأخبرتني أنني لن أعود للجامعة (مما يعني عدم وجود دخل ثابت) فوافقت في دقائق . وقد اتخذت ابتداءً الموقف نفسه . ولكن إلى جانب هذا لا بد أن أذكر "عمليات السطو" التي تعرضت لها (فأنا في نهاية الأمر

لست مؤسسة وإنما فرد أعزل من السلاح والمقدرة على الردع) . ففي عام ١٩٨٠ حين كلفت بعض الباحثين بكتابة مداخل ، كان بعضهم يكتب كلاً ما معلوماتياً غثاً لا يزيد المرء معرفة أو حكمة ، ثم يطالبون بمكافأتهم كاملة ، وكنت أضطر لدفعها . ومن الطريف أن أحدهم نقل مدحلاً عن الكنيسة من موسوعة ١٩٧٥ وقدمه على أنه من تأليفه ، وهذه أعرب عملية سرقة فكرية في التاريخ . وكان هناك مساعد باحث أمريكي في الولايات المتحدة طلبت منه أن يعد لي مادة بحثية عن المنظمات اليهودية المعادية للصهيونية ، فأرسل لي بكلمات خطابية طنانة ، إذ يبدو أنه تصور أن مثل هذا الكلام سيعجب "العرب" . ولحسن الحظ لم أكن قد دفعت له أتعابه ، فأرجعتها له وعنفته وأخبرته أن الموسوعة مشروع علمي وأن مثل هذا الهراء لا يفيد كثيراً . فأرسل بمادة بحثية حقيقية هذه المرة ، مع اعتذاره . وكلفت أحد الرمايين بالإشراف الفني على الموسوعة وتقاضي نصف أتعابه ، ولكنه لم يفعل شيئاً ولم يرد لي ما دُفع له (هذا على عكس الأستاذ حلمي الترنوي ، الذي قبل أن يشرف على الموسوعة فنبأ بلا مقابل ، قبل أن تقوم دار الشروق بنشرها) . وهناك مدير الموسوعة الذي كان يتقاضى راتباً شهرياً ويترفع عن أن يقوم بأي مهمة . وهناك أخيراً السيد المحرر الذي تلقى أتعابه كاملة مقدماً عام ١٩٨٦ (حينما تصورت أنني انتهيت من الموسوعة) ، واختلفت معه في أسلوب تحريره ، وقررنا عدم التعاون . ولكنه لم يرجع لي ما أخذ حتى الآن . وهناك الناشر الذي تقاضي بضعة آلاف من الجنيهات مقدماً ، وحينما قررنا نشر الموسوعة في دار الشروق ، قرر عدم إرجاع ما دفعت له . وبطبيعة الحال هناك عشرات الآلاف من الجنيهات التي دفعتها للسادة الباحثين الذين كتبوا دراسات جيدة من منظور معلوماتي ولكن ليس لها قيمة كبيرة بعد أن انتقلت من التراكم المعلوماتي والتفكيك إلى التركيب والتأسيس .

المؤامرة اليهودية ضدي

قد يكون من المفيد أن أتوقف هنا لأتناول المسألة التي نطرح دائماً عليّ ، وهي : هل تعرض لك "اليهود" بشر ؟ ماذا فعل بك الصهاينة ؟

ابتداءً يجب أن أؤكد التمييز (الذي ورد عدة مرات في هذه السيرة) بين اليهود والصهاينة . وكما أشرت من قبل ، لي كثير من الأصدقاء من أعضاء الجماعات اليهودية . ولكن يجب أن أضيف أن كبار المثقفين اليهود أصبحوا جزءاً من حضارتهم الأمريكية بخيرها وشرها ، وهذا يعني أن قيادة الجماعات اليهودية قد وقعت في يد الصهاينة ، ومعظمهم محدودو الدكاء ومثقفون من الدرجة الثالثة . وهذه من أكبر المشكلات التي يواجهها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، إذ إن قيادتهم براجماتية قصيرة النظر تحل المشكلات الآتية ، دون أن تفكر في المشكلات بعيدة المدى .

أما ماذا فعل بي الصهاينة ، فهذه قصة طويلة . وقد أشرت من قبل إلى طلب الإسرائيليين عدم توزيع موسوعة ١٩٧٥ . وليس عندي وثائق تثبت ذلك ، ولكن هذا ما أخبرني به أحد كبار المسؤولين . ولكن هناك وقائع أخرى محددة تبين أن يد الصهيونية كانت وراءها . وأولى هذه الوقائع حدث في الولايات المتحدة حينما كنت أعمل مستشاراً ثقافياً للوفد الدائم للجامعة العربية لدى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك في منتصف السبعينيات . وقد لوحظ أن بيوت أعضاء الوفد تعرضت إلى سرقات أو حرائق الواحد بعد الآخر . وكان بيتي أنا في نيو جيرسي في المدينة الجامعية التابعة لجامعة ريجرز (حيث كانت زوجتي تدرس) وكان كل شيء باسمها ، بما في ذلك التليفون . مما جعل من الصعب التوصل لعنواني . ولكن حين وقعت اتفاقية كامب ديفيد ، كتب الطلبة العرب رسالة احتجاج على الاتفاقية نشرت في مجلة الجامعة بتوقيع د. هدى حجازي (زوجتي) ، بصفتها رئيسة النادي العربي ، نيابة عن كل الطلبة (كما تتطلب لوائح الجامعة) . وكان هذا هو بداية الوصول إليّ ، ولم يمر ستة أشهر إلا وقد سُرق من منزلي كل شيء ، كل ما أملك من متاع الدنيا ، بما في ذلك مكتبي الخاصة ، ومسودات الكتب والمقالات التي كنت أعدها للنشر ، وكل ملابسنا وأوراقنا الخاصة والأجهزة الكهربائية وبعض الأثاث ، ونسخة الدكتوراه الوحيدة التي كتبها زوجتي (وكانت قد خبأتها في الموسوعة البريطانية) .

كنا نقوم في ذلك الوقت بالرحلة الطويلة التي أشرت إليها من قبل (إلى بعض مدن أمريكا الأساسية وبوئنوبكو والمكسيك) التي تستغرق ثلاثة أسابيع . فجاءت عربية نقل ووقفت أمام منزلنا مدة يومين وحملت كل شيء تحت سمع وبصر قوات الأمن الخاص بالجامعة . وأبلغنا الشرطة ولكن لم يحدث شيء . إذ جاء الخبر ولوح لنا من طرف خفي بأننا لو ادعينا سرقة جواهر زوجتي (التي لم يكن لها وجود) فإنهم سيحاوون معنا ، حين غملاً استمارة التأمين . ويبدو أن هذا كان إجراءً روتينياً ، الهدف منه رشوة الضحايا ، حتى يلزموا الصمت ولا يتعب رجال الشرطة أنفسهم . وهذا منطق فاسد ، علاوة على أن منزلنا (على أي حال) لم يكن مؤمناً عليه ، وحتى التأمين نفسه لم يكن مغامرة مضمونة ، فلي أصدقاء كانوا يؤمنون على منازلهم ، وحينما كانت تتعرض لسرقة أو حريق ، فإن شركات التأمين كانت تجد دائماً عندها من الوسائل والخيال ما يجعلها تتصلص من دفع التعويضات .

آلنتا عملية السرقة هذه ومسببت لنا كثيراً من الدهشة ، فبيتنا لم يكن يحتوي نفائس تستحق السرقة . فأخبرنا بعض الإخوة العرب ، ممن تمسوا في هذه الأمور ، بأن من قام بها هم في غالب الأمر عملاء صهاينة . ومثل هذه العمليات الإجرامية الصغيرة (التي تأخذ شكل سرقة منزل عادية ، ويسرق معها كل شيء ، بما في ذلك الأوراق والكتب ذات الأهمية السياسية) تغطي هدفاً سياسياً أكبر هو الإرهاب النفسي وإفقاد التوازن . وقد نجحت هذه الجريمة في تحقيق عرصها . فقد أفقدتنا توازننا بعض الوقت - ولكن ، بعض الوقت وحسب ، والحمد لله .

أما الواقعة الثانية ، فكانت مع ماثير كاهانا . فبعد وصولي إلى الرياض بعدة أشهر للتدريس في جامعة الملك سعود (ابتداءً من سبتمبر عام ١٩٨٣) بدأت في تلقي سيل من الخطابات من جماعة كاخ الإرهابية الصهيونية التي يتزعمها ماثير كاهانا تطلب مني التوقف عن نشاطاتي المعادية للصهيونية وإلا قاموا بقتلي . وكانت الخطابات مكتوبة بالإنجليزية رديئة . وقد أرسلت لي الجماعة ٦ رسائل على عنواني في القاهرة ثم ستة أخرى على عنواني في الرياض ، كما أرسلوا بضع رسائل لمدير الموسوعة الأول الأستاذ محمد هشام (ولبعض المثقفين المصريين) . ولم أكن مصدقاً تماماً لما يحدث ، بل وقابلت الموضوع برمته بشيء من الاستخفاف في بادئ الأمر . ولكنني ، مع هذا ، أبلغت مباحث أمن الدولة في مصر ووزير الداخلية السعودي .

وحين وصلي الخطاب الثالث عشر بعد وصولي إلى القاهرة يومين يخبرني بأنهم قد أعدوا لي مقبرة بهذه المناسبة ، عرفت أن الأمر لا يحتمل الاستخفاف . وقد فوجئت بأن مباحث أمن الدولة كانت تشك في أنني أرسلت الخطابات لنفسي ومن أجل الشهرة (حسبما أخبرهم أحد أساتذة اللغة العبرية) ، ولم ينقذني من هذه الورطة سوى وصول خطابات مماثلة إلى بعض المثقفين المصريين . كما أن ماثير كاهانا نفسه صرح لجريدة يدهعوت أحرونوت (٢١ من فبراير عام ١٩٨٤) بأنه هو الذي قام بإرسال الخطابات لي وللأستاذ محمد هشام . فرودتني الحكومة المصرية بالحراسة اللازمة ، وكان من ضمنها شرطيان يجلسان على مدخل منزلي (وكانا في حالة ملل دائمة) . ولكن مناظر الأبهة جعلت البعض يتصور أنني عُينت وزيراً وبدأت التهاني تنهال على زوجتي !

وفي أثناء كتابة الموسوعة ، كنا نصور من كل مدخل صورتين واحدة تُرسل بالبريد إلى المحرر أو الذي يقوم بكتابتها ، والأخرى أحفظ بها في مكان ما . وحسبما أوشكت على الانتهاء كنت دائماً أطلب عدة نسخ من الديسكات وأرسل بها إلى أماكن شتى داخل مصر وخارجها وأعلن هذا في التليفون حتى يعرف الجميع أن الموسوعة قد أصبحت عملاً منتهياً مستقلاً عني كمؤلف ومحرر .

وإذا كانت الواقعتان السابقتان من فعل "متطرفين" ، فالواقعة التالية من فعل المؤسسة . فقد كشفت جريدة العربي (القاهرة) في عددها الصادر في ١١ من أكتوبر عام ١٩٩٣ أنها حصلت على وثيقة من داخل السفارة الأمريكية بالقاهرة عبارة عن خطاب موجه من جامعة بار إيلان الإسرائيلية إلى السفير الأمريكي بالقاهرة (وهي تبين أنه كان يوجد مشاور مستمر بين روبرت بيلترو ، السفير الأمريكي في القاهرة آنذاك ، والمركز الأكاديمي الإسرائيلي ، وأن ثمة تعاوناً أمريكياً إسرائيلياً لتنسيق التطبيع وتسهيل مهام إسرائيل في مصر) . وقد جاء في الخطاب .

"لقد سُررنا للغاية بخطابكم الرقيق ، ويسعدنا أنكم تفهمتم حقيقة موقفنا . ونحن من المؤسف أنه رغم الفترة الطويلة التي عملنا فيها لتحقيق أهدافنا ، ورغم المساعدات التي أتاحتها

لنا أصدقاءنا في مصر ، إلا أن دراستين متتابعتين أجراهما مركز أبحاث ومعلومات الشرق الأوسط التابع لجامعتنا أكدت أن نسبة نجاح أهدافنا داخل مصر متواضعة جداً ، وتشبه الخطرات القليلة على طريق الألف ميل ، ونأسف إذ نعتقد أن هذه الخطوات تضيع هباءً وبلا عائد في أعلى الأحياد .

وتضيف الرسالة : "إننا كإسرائيليين نجد أنفسنا الآن في موقف حرج ، وقد أكد لنا د. يوسف حينات ، المدير السابق للمركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة ، أن بعض الصحف والكتّاب المصريين يعمدون إلى تشويه كل نشاطات المركز ويتهمونهم بالتجسس ويصممون المتعاملين معه بالعمالة والخيانة بما يؤثر على صورتنا لدى الرأي العام في مصر " .

وتفتتح الرسالة تجاوز المأزق الإسرائيلي بقولها : "أعلم - يا سعادة السفير الأمريكي - أن ماركس [الملحق الثقافي الإسرائيلي] أبلغكم بكل التفاصيل ولدينا رؤية لحل الإشكالية ، ونود أن نطرحها عليكم قبل البدء في التنفيذ . وأعترف في البداية بأن خطتنا بسيطة وساكرة ، ولكنني متأكد من أنها ستعطي نتائج إيجابية . كما أن مدير الأكاديمية الشرقية للعلوم والآداب في إسرائيل والذي يتبعه المركز الأكاديمي متفائل أيضاً . فقد فكرنا في أن يقوم ماركس بإعداد بعض الأوراق تثبت أن هناك علاقة بين المركز الأكاديمي الإسرائيلي وبين عدد من رموز القوى السياسية في مصر التي تعادي السلام مثل د. رفعت السعيد القيادي البارز بحزب التجمع المصري أو الدكتور عبد الوهاب المسيري أو أحد رموز علماء الأزهر (الشريف) أو أحد رموز جماعة الإخوان المسلمين . هذا على سبيل المثال . إن تسريب معلومة كهذه سوف يثير جدلاً ولكنه في الوقت نفسه سوف يثبت الشكوك حول مواقفهم . وحتى لو أخطأوا في تكذيب هذه المعلومات ، فإنها بلا شك سوف تبعث كثيراً من الثقة في نفوس المتعاونين معنا حقاً ، خاصة إذا تم الكشف عن هذه المعلومات بنفس الطريقة التي يكشف بها عن أسماء المتعاونين معنا بالفعل . " وأحب ألا تنظر إلى هذه الفكرة بحسبانها ساذجة أو بدائية ، وأريدك أن تفكر فيها أكثر .

كما أن المناقشة مع ماركس ، وهو لديه المزيد من التفاصيل ، سوف تكون مفيدة في انحيازكم للقرار الصحيح ، كماؤكد لك أن المركز الأكاديمي لن يعورط في أي مواقف إلا بعد الاطمئنان لرؤيتكم الكاملة . (وقد حدث ساعتها أن أشيع أنني سأذهب إلى إسرائيل على رأس وفد ثقافي مصري ، وقد ماتت الإشاعة عند ولادتها ولم أنفق وقتاً في تكذيبها ، كما حاول الملحق الثقافي الإسرائيلي استتعار شقة في عمارتي من خلال وسيط ، ولكنني رفضت حينما اكتشفت الأمر) .

وبعد صدور الموسوعة وصفها بعض المعلقين السياسيين في إسرائيل بأنها معادية للسامية لأنها تفرق بين العقيدة اليهودية والإثنية (أو ما يسمّى بالقومية) اليهودية . وفي الجهر وساليم بوست (عدد ١٩٩٩/٧/٢٥) قال ديفيد واينبرج : "إن عداة الدولة المصرية تبدى في منح جائزة معرض الكتاب الدولي لعام ١٩٩٩ لموسوعة معادية للسامية من ثمانية مجلدات" . واعتقد

أن الصهاينة يفعلون ذلك حتى لا يواجهوا الواقع ، وحتى لا يشتبكوا فكرياً مع أطروحات تقرض رؤيتهم وتبين مدى أسطوريتها وزيفها . وأنا أشك كثيراً في أن أيًا من المتحدثين الصهاينة قرأ الموسوعة واستوعب ما فيها . فبعض التصريحات تم الإدلاء بها بعد صدور الموسوعة بعدة أيام ، أي أنهم استخدموا قوالب لفظية جاهزة ، يبرزونها في كل المناسبات وتحت أي ظروف .

وقد أجرى معي مراسل مجلة *لنجوا فرانكا* Lingua Franca ، وهي مجلة علمية شهيرة تصدر في الولايات المتحدة ، حواراً بخصوص الموسوعة ، وحينما لم ينشر الحوار اتصلت به لأسأله عن السبب . فقال لي إن من شروط نشر الحوار أن تنشر وجهة النظر الإسرائيلية في الموسوعة ، وإنه لم يجد مثقفاً إسرائيلياً واحداً على استعداد لأن يدلي برأيه في الموسوعة . هل هذا نتيجة جهلهم باللغة العربية ، أم عدم اهتمامهم بالرؤية العربية للصهيونية ؟ لا يمكنني أن أجزم بشيء ، ومع هذا أخبرني أحد أصدقائي الفلسطينيين ممن يعيشون في الأرض المحتلة ، بأن صحيفة إسرائيلية أعطته أربع مقالات عن الجماعة الوظيفية كنت قد كتبتها بالإنجليزية في الأهرام ويكلي وعُبرت له عن سطحها الشديد على المقالات . والأرجح أن الإسرائيليين قد قرروا تجاهل الموسوعة والالتزام بمؤامرة الصمت .

وكل هذه الأفعال والمكاييد التي تدبر ضدي ليست جزءاً من مخطط سري يهودي رهيب ، أو جزء من عداوة اليهود الأزلي للأغيار ، بل هي أفعال تقوم بها كثير من الدول ضد من يعادونها . وتاريخ الظواهر الأمريكية - على سبيل المثال - مليء بمثل هذه الرقائع . والمهم هو أن يدرك الإنسان أن العالم ليس بريئاً كما قد يتصور ، وأن يحترس حتى لا يقع في يد من يعاديه .

تلقي النقاد للموسوعة

أما بخصوص تلقي النقاد لدراساتي المختلفة ، فلأسف الشديد قام كثير من النقاد ولعهد طويل بحصري داخل إطار المعلومات الضيق والمستوى التحليلي السياسي . وعلى سبيل المثال حينما صدر كتاب *نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني* (١٩٧٣) اشترك في مناقشته بعض كبار المفكرين المصريين ، وظل التركيز بشكل كامل على البعد السياسي (ربما باستثناء تعليقات الدكتور قدرى حفني في البرنامج الثاني) . وقد ظل الشكل الأساسي لمناقشة كل ما أكتب هو البعد السياسي المعلوماتي ، مع إهمال البعد الفلسفي المعرفي . وحينما نشر فوكوياما كتاب *نهاية التاريخ* عام ١٩٨٨ ، أي بعد مرور ١٥ عاماً على نشر كتابي ، وقام بعض هؤلاء المفكرين أنفسهم بمناقشة كتابه ، لم يذكر أحد منهم كتابي بالخير أو بالشر . ولم يقارن أي منهم بين رؤيتي للتاريخ ورؤية فوكوياما : فال تصنيف في عالمنا العربي يتم من خلال المضمون (وهذا ما سميت به الفكر المضموني ، أي الذي يرمد ويصنف من الخارج دون أن يصل إلى الوحدة الداخلية) ، وقد صنّف كتابي على أنه كتاب عن "الصهيونية" (أي كتاب يتناول عالم السياسة)

أما كتابه هو فمن "التاريخ" (فهو تاريخ) . أما الفكر الكامن وراء المضامين والنماذج والفاهيم الكامنة وراء الفكر ، فهو أمر تم تجاهله . كما أن ثمة هزيمة داخلية في الفكر العربي تجعل من الغرب المرجعية الوحيدة ومصدر المعرفة الأوحـد ، ولذا لم يتصور أحد أن كتابي ربما يكون قد طرح أفكار فـركرياً ما قبله بعدة سنوات ، وربما بطريقة مغايرة تماماً ، ولكنه يتناول الإشكالية نفسها .

وحاولت أن أدعو النقاد إلى رؤية ما أكتب في إطار معرفي تحليلي يتجاوز الإطار المعلوماتي التراكمي ، ولذا أعطي عنواناً فرعياً لمعظم كُتبي : الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة ، الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الإدراك والكرامة ، وأخيراً هجرة اليهود السوفيت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات الذي كتبت في مقدمته :

"أرجو ألا يقال : «هذا كتاب جيد لأنه اعتمد على آخر المراجع والدراسات ويحوي معلومات قيمة وحقائق كثيرة عن هجرة اليهود السوفيت» ، أو : «هذا كتاب سيئ لأنه لم يعتمد على آخر المراجع والدراسات ولا يضم كل المعلومات والحقائق أو حتى معظمها» ، فالخاسـوب ، هذه الآلة المادية الصماء ، هو الذي يضم كل المعلومات والحقائق أو معظمها ، ولكنه مع هذا عاجز تماماً عن ربطها أو تفسيرها أو صياغة نماذج تفسيرية ومتتاليات احتمالية - فعقل الإنسان وحده هو القادر على ذلك . ونحن قد كتبنا هذه الدراسة آمليـن ألا نقدم الحقائق والمعلومات وحسب ، وإنما لنطرح كذلك ، وبالدرجة الأولى ، منهجاً في رصد الواقع وطريقة في التفكير ، إذ ما يهم ليس كم الحقائق الذي يُحشد وإنما طريقة النظر فيه ، وتحليلها" .

ورغم هذا التحذير قام كثير من الكتاب بمدح وتكريـض هذا الكتاب بسبب ما يحوي من "معلومات قيمة" ، فالآلة الإعلامية قادرة على فرم الكاذب ، وإعادة إنتاجه داخل النموذج المعلوماتي وكأنه مجرد كومبيوتر ممتاز ، لا إنسان يحلل ويفسر . الطريف في الموضوع أن هناك البعض ممن ينظرون إلى دراساتي من هذا المنظور فلا يجدون فيها معلومات صلبة كافية ولا الجداول التي يتوقعون لها ولا الإحصاءات التي تشفي غليلهم المعلوماتي ، ومن ثم فهم يرون أن أعمالي لا قيمة لها . وقد دعيت مرة لحضور مؤتمر عن الصهيونية ، وقد سمعت أن أحد كبار المسؤولين عنه اعترض على اسمي ، فسألت عن السبب ، فقيل لي إنه حسب أعمالي بأنها نظرية وحسب ، والنظرية عند البعض هي مجرد أي كلام (وبالفعل هناك دراسات من هذا النوع) وليس إطاراً فكرياً يستحيل العمل المنهجي والنظم دونه .

وأعاني كثيراً من صغار الصحفيين الذين يأتون للحصول على تصريح أو حوار ولكنهم يسجلون ما يعرفونه وحسب ، فإذا وضعنا في الحسبان فقرهم الثقافي والفكري الشديد ، وعجزهم عن التعامل مع غير المألوف أمكننا تخيل حجم الكارثة . وكثيراً ما أصرح بشيء وأجد عكسه منشوراً ، وكم من مرة صححت هذا الخلل ! وكم من مرات سئمت مما يكتبون ،

واستغفرت الله لي ولهم ! ومع هذا لابد أن أذكر أن هناك قلة من الصحفيين تأتي لتقابلني بعد أن تكون قد اطلعت على بعض كتاباتي وبلورت بعض الأسئلة الأساسية ، ومن ثم يكون الحديث معهم متعة حقيقية .

وقد تمت قراءة كتاب الفرحوس الأرحي بطريقة سياسية محضة ، مع أنه كتاب يتعامل مع الأبعاد المعرفية والحضارية للواقع الأمريكي . ومع هذا لابد أن أشير إلى مقال نُشر في جريدة الشرق الأوسط ، وهو للأسف بلا توقيع ، كتبه ماركسي مهموم بفلسفة التاريخ ، ولذا نحدى كل مقولاتي بكاء شديد ، وحاول أن يبين أنها مقولات فكرية ليس لها علاقة بالتاريخ الحقيقي (الذي نمركه ، حسب تصوره ، وسائل الإنتاج) ، ولكنه مع هذا اعترف بالمقدرة التفسيرية للمقولات التي أ طرحها .

وقد اختتم فريدريك معتوق في تعليقه على كتاب الأيديولوجية الصهيونية المدخل الذي كتبه في الموسوعة الفلسفية العربية عن "علم اجتماع المعرفة عند العرب" بالعبارة التالية : "وصعوبة المشروع ، ككل ، [مشروع ظهور علم اجتماع معرفة عند العرب] تكمن في أن بروز الوعي الاجتماعي الجديد يترافق مع وجود عدو مفتصب يحارب هذا الوعي على كل الأصعدة . وليس صدفة ، على أي حال ، أن تتمحور أول دراسة متكاملة في علم اجتماع المعرفة ، عندنا ، حول موضوع الأيديولوجيا الصهيونية" . ولعل هذه من الإشارات النادرة في الأدبيات العربية (حتى منتصف التسعينيات) إلى أحد أعماله وتعدّه جهداً فكرياً وطرحاً لقضايا فلسفية تتجاوز مرضع اليهود واليهودية والصهيونية .

أما باللغة الإنجليزية ، فقد نشرت باربرا هارلو Barbra Harlowe كتاباً عن شعر المقاومة في العالم وتعرضت فيه لرؤيتي في جماليات شعر المقاومة (التي وردت في مقدمة العرس الفلسطيني) ، والإشكالية الفلسفية الكامنة فيه : شعر يُعبّر عن الرغبة في تغيير الواقع (الشكل القائم) ولكن عليه أن يُعبّر عن هذه الرغبة الثورية من خلال شكل محدد .

كما قدمت د . فريال غزول (الأستاذة بالجامعة الأمريكية) عرضاً متميزاً لكتابي الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية في مقال لها كتبه بناء على طلب مجلة مريب غزولاً اليسارية ثم رفضت مجلة نشره دون إبداء الأسباب . ومن ثم نُشر في مجلة عربية أمريكية . لم تتعامل د . فريال مع كتابي بحسبانه كتاباً يحوي "معلومات قيمة" و"كثيرة" ، وإنما بحسبانه دراسة في التماذج المعرفية ، ووصفت الكتاب بأنه "عمل كلاسيكي جديد" يمزج بين السياسة الثورية وتحليل الخطاب والسيميوطيقا ويشبه كتاب فرانز فانون بؤساء الأرض . وفي معجم دليل الناقد الأدبي (للدكتور ميجان الرويلي وسعد البازعي) أقرّد المؤلفان صفحة للحدث عن المحاولة التي أقوم بها في التحليل من خلال نماذج معرفية سواءاً في دراسة الصهيونية كجزء من الحضارة الغربية، أم حركة التمركز حول الأنثى كتعبير عن نموذج الحلولية.

أما بالنسبة لكتبي التي صدرت في النصف الثاني من التسعينيات (أسرار العقل الصهيوني [١٩٩٦] - الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ : رؤية حضارية جديدة [١٩٩٧] - الهد الخفية : دراسة في الحركات اليهودية الهمدية والسرية [١٩٩٨]) فقد كتب عنها كثير من المعلقين السياسيين بطريقة معرفية ، وتناولوا الجوانب الحضارية والفلسفية المختلفة التي تطرحها هذه الكتب (العلم المنفصل عن القيمة - نهاية التاريخ واليوتوبيا التكنولوجية - علاقة الإبادة بعمليات الترشيد في الإطار المادي - فكر المؤامرة ... إلخ) . ولعل كتابات الأستاذ سلامة أحمد سلامة من أهم ما كتب عن مؤلفاتي ، فهو يبذل جهداً غير عادي في فهم ما يقرأ بعمق ، ثم يقوم بعملية التحليل والعرض استناداً إلى هذه القراءة المتعمقة .

ثم صدرت الموسوعة . وقد فاق التلقي الإعلامي كل توقعاتي . كنت أنصوّر أنها ستُعرف كأداة بحثية خلال عامين أو ثلاثة . ولكن ما حدث أنني خلال شهر واحد وجدت نفسي محط اهتمام الإعلام ، فدعاني تلفزيون الجزيرة (قطر) وأبو ظبي ودبي والشارقة (الإمارات) والمستقبل والنار (لبنان) و ANN و MBC (لندن) للحدث عنها ، وكتب عنها الكثير من الصحف . وجعلت جريدة الحياة صدورها خبراً رئيسياً في الصفحة الأولى ، ونشرت حوارات معي بشأنها في أهم الصحف العربية . وهذا الاهتمام الإعلامي لم يكن أمراً مألوفاً لدي ، فاعتدني تماماً ، وتوقفت - لأول مرة في حياتي - عن التفكير والتأمل والقراءة والكتابة ، لأن الجهد الذي كنت أبذله في الإجابة عن الأسئلة والظهور في البرامج كان يستنفد كل طاقتي ، ووجدت أن الاهتمام الإعلامي أصبح يتهدد حياتي الفكرية بالخطر ، ولذا فكرت في شعار طريف أطرحه على الإعلاميين حين قررت الاختفاء والعودة لعالمي الهادئ : "أنا أفكر إذن أنا غير موجود" ، بمعنى أنني حينما أستغرق في حياة الفكر ، فلن أكون موجوداً أجيب عن أسئلة الصحفيين . وكان الأستاذ هيكل من أوائل من تلقوا نسخة من الموسوعة ، قبل طبعها النهائية بعدة سنوات . وبعد صدورها ، وفي مناسبات عديدة (من بينها ندوة في جامعة القاهرة ومقدمة للكتاب التذكاري عتي) أدلى برأيه فيها فقال :

"إن مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أعطى أحلى سنوات عمره حاملاً لعبء علمي وبحشي وتنظيمي ومالي إقتصض ضرائبه من شبابه ومن صحته ، ومن اهتماماته الثقافية المتنوعة ، ثم جاء هذا العمل الموسوعي يطغى ويزيح ويفرض نظامه الحديدية على رجل أقبل عليه ورضي بمسئوليته بحماسة شديدة وبهيب" .

"والموسوعة عمل أظنه نادراً في نوعه وفريداً . وهو عمل أقبل عليه وتحمل مسئوليته صديقنا العزيز والمقتدر الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي وضعنا جميعاً أمام جهد معرفي وسياسي بالغ الأهمية جليل الأثر يستحق أن نقف معه بكل الاهتمام وبكل الاحترام كما يتناسب مع جهد صاحبه" .

وأفرد الأستاذ عادل حسين نصف صفحة من مقاله الأسبوعي في جريدة الشعب (٢٦ من مارس عام ١٩٩٩) ، للموسوعة ، وكان قد قرأ أجزاء كبيرة منها حين كان في السجن منذ عامين (إذ أرسل لي برسالة شفوية قال فيها إن وجوده في السجن هو فرصة نادرة لي أن يقرأ ما كتبت وأن مثل هذه الفرصة لا تفتح له بعد خروجه واشغاله بأمور حزب العمل وكتابة مقاله الأسبوعي) . ولعل أهم ما جاء في هذا المقال من وجهة نظري - تركيزه على الجانب التنظيري .

"... فموسوعة عبد الوهاب المسيري إذا كانت في جانب منها تقوم على جيل أشم من المعلومات المدققة ، فإن الجانب الآخر الأهم هو قدراته النظرية الجبارة ، فهذه القدرات هي التي أعطت موسوعته مغزاها المعرفي المتميز .

"فكل مراجع الموضوع (تقريباً) غربية ويهودية ، ولو اقتصر جهد عبد الوهاب على مجرد النقل والترجمة (كما هو حال غالبية الدراسات العربية المعاصرة) لظل إنجازاه مشكوراً وإن كانت فائدته محدودة . ولكن زادت قيمة العمل أضعافاً مضاعفة ، لأن عبد الوهاب بفضل الله صاحب عقلية نقادة قادرة على النفاذ إلى أعماق ما يقرأ ، وقادرة على كشف الزيغ والتناقضات فيما يقرأ داخل المراجع الغربية واليهودية ، وقادرة بالتالي على تحليل المعلومات المشورة ، وإعادة تفسيرها وتركيبها على نحو يجعلنا أقدر على فهم اليهود ، وعلى فهم واقعهم الحالي ، وما جرى لهم في التاريخ . وقد ابتكر في ذلك مفاهيم نظرية جديدة ، وسك لها مصطلحات ملائمة ، وبعد هذا إضافة مقدرة للفكر العربي والعالمي في المجالات المختلفة للعلوم الإنسانية والاجتماعية .

"لا شك في أن تطبيق هذه المفاهيم والمناهج على دراسة اليهودية والصهيونية قد ضاعف - كما قلت - قيمة الموسوعة وفائدتها ، وهي الآن سلاح معرفي إستراتيجي بقرار في مواجهتنا مع إسرائيل ، ومع الحلف الصهيوني الأمريكي . فالشرط الأول لهزيمة العدو ، هو أن نعرفه حق المعرفة ..."

وقد تناول عادل حسين في المقال نفسه كتاب إشكالية التعميز وعده من أهم المؤلفات التي صدرت في الأعوام الأخيرة (على مستوى العالم) ، وهو حافز للإبداع العربي في مواجهة المقلدين لنظريات الغرب دون وعي أو بصيرة .

ثم توالى بعد ذلك الدراسات والمقالات عن الموسوعة ، فكتب جمال الميطاني في الأخبار وصلاح منتصر في الأهرام ("أهم إصدار ثقافي في النصف الثاني من القرن العشرين") ، وأحمد رجب في الأخبار ووجيه أبو ذكري في الوفد وأحمد ثابت في السياسة الدولية وعبد العال الباقوري في العربي (القاهرة) ("نستطيع أن نقول - دون مبالغة - بدأت مرحلة ما بعد الموسوعة") ، ود. أنيس صايغ في السفير (لبنان) ("رجل في مؤسسة ومؤسسة في رجل") ،

وغيرهم كثيرون .

وقد عقد مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية على مدى يومين ندوة بإشراف د. نازلي معوض ود. أحمد ثابت عن الموسوعة تحدث فيها الأستاذ أمين العالم والأستاذ محمد سيد أحمد ود. رمزي يونان ود. محمد عبد العليم ود. محمد عبد الفضيل وغيرهم وقدموا دراسات مهمة متحاول إصدار بعضها في كتاب .

الموسوعة : الموضوعات الأساسية

الجماعات الوظيفية

ذكرت من قبل رفضي لوهم الموضوعية المتلقية ، والاتجاه نحو التراكم المعلوماتي ، ونصير أنه يمكن للدارس أن يرصد الواقع بشكل سلبي . بدلاً من ذلك طرحت فكرة النموذج كأداة تحليلية أساسية . وكما أسلفت ، استخدمت في الموسوعة ثلاثة نماذج ، النموذج الأول والثاني مترابطان هما الحلولية والعلمانية الشاملة ، تعاملت من خلالهما مع المستوى العام للظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية . وقد سبق تناولهما . أما النموذج الثالث ، نموذج الجماعات الوظيفية ، فقد استخدمته للتعامل مع مستويات أكثر تخصصاً .

والجماعات الوظيفية هي جماعة يستجلبها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله (من بين الأقليات الإثنية والدينية أو حتى من بعض القرى أو العائلات) ، ويوكل لها وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة من بينها رغبة المجتمع في الحفاظ على تراثهم وقداسته . فقد تكون هذه الوظائف مشينة (البغاء - الربا - الرقص - العميل أحياناً) أو متميزة وتتطلب خبرة خاصة (الطب والترجمة) أو أمنية وعسكرية (الحصان - المماليك) أو لأنها تتطلب الجهاد الكامل (التجارة وجمع الضرائب) . وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لحل فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية ، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى (الحاجة لمستوطنين جدد لتوطينهم في المناطق النائية - الحاجة إلى فتيات يقمن بوظائف جديدة في المجتمع لا يعدّها المجتمع في بداية الأمر "محترمة" مثل العمل في السينما والملاهي الليلية) . كما أن المهاجرين عادة ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد) ، ذلك لأن الوظائف الأساسية (في الزراعة والصناعة) في وطنهم الجديد عادة ما يكون قد تم شغلها من قبل أعضاء الأغلبية .

وينتم أعضاء الجماعة الوظيفية بأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية ، إذ يُنظر لهم باعتبارهم وسيلة لا غاية ؛ دوراً يؤدي أو وظيفة تؤدي . وهم يُعرفون في ضوء الوظيفة التي يضطلعون بها لا في ضوء إنسانيتهم التكاملة . وأعضاء الجماعة الوظيفية عادةً ما يكونون عناصر حركية لا ارتباط لها ولا انتماء ، تعيش على هامش المجتمع ، ويقوم المجتمع في الوقت نفسه بعزلهم عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعي ، ولذا فهم يعيشون في جيتو خاص بهم في حالة اغتراب . وهم بسبب عزلتهم وعدم انتمائهم وعدم وجود جذور لهم بين الجماهير أو المجتمع عادةً ما يشعرون بعدم الأمن . لهذا نجد في كثير من الأحيان أنهم يكونون على مقربة من النخبة الحاكمة يقومون على خدمتها (والنخبة الحاكمة ، على أي حال ، هي التي استوردتهم في غالب الأمر) . وتعبيراً عن نفس عدم الإحساس بالأمن ، يقوم أعضاء الجماعة الوظيفية بالادخار ومراكمة الثروة (التي تدخل على قلوبهم شيئاً من الطمأنينة) . كما أنهم عادةً ما يحلمون بوطنهم الأصلي ، الذي يتحول إلى بقعة مثالية (صهيون) يحلمون بالعودة إليها ، ولكنهم في واقع الأمر لا يفعلون . وهم عادةً ما يقولون إنهم سينفقون مدخراتهم في بلدهم الأصلي ، حيث سيحيون حياة حقيقية ، وحيث يمكنهم تحقيق ذواتهم التي ينكرونها . ولهذا تصبح علاقتهم بالزمان والمكان اللذين يوجدون فيهما واهية للغاية ، إذ يحل محلها مكان وزمان مثاليان وهميان .

ولتوضيح أسباب ظهور الجماعات الوظيفية ، ذكرت ما يلي في الموسوعة : " من الأسر على الإنسان أن يتعامل بحياد مع بشر لا يكثرث بهم ، إذ يمكن أن تسري عليهم الحسابات المالية الصارمة التي لا تعرف الضحك أو البكاء ، الخبر أو الشر ، حسابات المكسب والخسارة التي لا قلب لها . وتصبح العملية التجارية والمالية حينذاك مفرغة تماماً من أي مضمون اجتماعي أو إنساني أو أخلاقي أو عاطفي . أما إذا كانت هناك اعتبارات عاطفية أو أخلاقية (كأن يُقرض الإنسان أخته الصغيرة التي يحبها ، أو عمه العجوز الذي استولى على ثروة أبيه ، أو حتى جاره المسكين الذي يسأل في المساء) ، فإن عملية التبادل المهاد ستكون مرهقة للغاية من الناحية العصبية والنفسية ، وستؤدي إلى أن يفقد المجتمع إحساسه بقديسيته وطهارته ونقاته ، وإلى تصميده التنافس داخله وزيادة حرارته وهو ما يهدد تماسكه . لكل هذا ، كان المجتمع يكل وظائف معينة (مثل وظيفة التاجر أو المرابي أو جامع الضرائب) تتطلب الموضوعية والحياد والقسوة ، إلى متعاقدين وافدين يتم عزلهم عن المجتمع والاستفادة منهم في أداء هذه الوظائف .

"ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن العنصر الوظيفي القتالي (المرتزقة) ، فهذا العنصر كي يؤدي وظيفته ، وهي قتل أعداء سيده الذي يدفع أجره ، عليه أن يتسم بالحياد والموضوعية والقسوة ، وعليه ألا يمارس تجاههم أي إحساس بقديسيته وحرمتهم حتى يمكن له أن يقتلهم بشكل آلي ، محايد بارد . فهو إن مارس تجاه ضحيته بعض مشاعر الحب أو البغض وأحس بأنها

تقع داخل نطاق الخرم وتتمتع بشيء من القداسة ، فإنه لن يقوم بعمله بشكل آلي وهو ما قد يؤدي إلى تدمير جهازه العصبي إما لأنه سيحاول أن يكبح مشاعر الحب والشفقة وإما لأنه سينغمس في مشاعر الكره والانتقام . كما أن المرتزق ، لو كان عضواً في المجتمع ، سيؤدي إلى تفككه لأنه سيكون موضع حب من يكرهون الضحية وموضع كره من يحبونها ، وهي درجة من الحرارة لا يمكن للمجتمع أن يحتفظ بتماسكه معها .

ويسري نفس المنطق على المهن المشينة ، مثل مهنة البغاء . فمهنة ، كهذه ، تتطلب ولا شك قدراً كبيراً من الموضوعية والحياد والانفصال عن المجتمع حتى يتمكن الإنسان من تحويل جسد إنسان آخر إلى مجرد آلة أو أداة ، وهذا أمر عسير للغاية في إطار الترابط الاجتماعي والألفة والإيمان بقداسة الجماعة التي ينتمي إليها المرء ، فالآلة لابد أن تكون الغريب الذي لا حرمة له ولا قداسة حتى يمكن استخدامها واستعمالها والانتفاع بها (أي حوسلتها) . كما أن البغي إن مارست عواطف الحب والكره أثناء ممارستها وظيفتها فإنها تستهلك تماماً ، ومن ثم كانت البغايا في معظم المجتمعات التقليدية يتم استيرادهن من الخارج (الإثيوبيات في معظم بلاد إفريقيا - اليونانيات والإيطاليات في مصر - اليهوديات من منطقة الاستيطان في روسيا القيصرية) . وحتى حين كانت البغايا يجندن من العنصر السكاني المحلي ، فإنهن عادة ما كن يرتهن أزواء خاصة ويقطن في أحياء خاصة حتى يتم الحفاظ على المسافة بينهما وبين المجتمع ككل . بل ومن الطريف أن البغايا في السودان مثلاً ، حتى وإن كن من أصل سوداني ، عادة ما يدعين أنهن إثيوبيات ، وذلك حتى تظل المسافة اللازمة لأداء الوظيفة قائمة . وأصبحت كلمة «إثيوبية» تعني «بغايا» ، فالكلمة ذاتها تخلق المسافة النفسية وتضمن الحوسلة ، تماماً كما حدث في أوروبا حين أصبحت كلمتا «تاجر» و«مرايبي» مرادفتين لكلمة «يهودي» (وأحياناً «يوناني») ، في فترات تاريخية مختلفة ، وكما حدث في الدولة العثمانية حين أصبحت كلمة «تاجر» مرادفة لكلمة «أرمني» ، وكما حدث في أمريكا اللاتينية حين أصبحت كلمة «توركوس» (أي «تركي» ، والتي كانت تشير إلى كل من اليهود والعرب) مرادفة لكلمة «تاجر» .

ومن أهم الأمثلة التي تشرح هذه الفكرة ما حدث للقوات البريطانية في الهند في نهاية القرن التاسع عشر ، إذ اجتذبت هذه القوات عدداً من البغايا البريطانيات ، ويبدو أن هذا قد أنقص من هيبة هذه القوات أمام نفسها وربما أمام السكان المحليين . كما بدأ بعض الجنود البريطانيين يرتبطون عاطفياً بالبغايا من بنات جلدتهم وهو ما أدى إلى حالة من التنافس بين الذكور وزيادة حرارة هذه الجماعة العسكرية . وقد أخلّ هذا بالضبط والربط ، فتم إرجاع البغايا البريطانيات واستيراد بعض البغايا اليهوديات الروسيات من منطقة الاستيطان في روسيا القيصرية ، وبالتالي تم التخلص من فائض الطاقة الجنسية بطريقة محايدة وشديدة لا تدخل فيها أي عواطف حب أو كره ، وذلك دون الإخلال بالتماسك الداخلي للمجتمع ودون تصعيد للترتر

"والأمر نفسه يسري على المشتغلين بمهن متميزة ، فالإنسان المتميز يتمتع برهبة غير عادية تحيط به الهالات . والخبرات النادرة التي يمتلكها الإنسان المتميز تجعله يقترب من السحرة والكهنة الذين يقفون على حدود الطبيعة على علاقة بعالم الغيب وما وراء الطبيعة ، يحاولون الحصول على المعرفة من خلال هذه العلاقة للسيطرة على الطبيعة . وإن تحول المشتغلون بمثل هذه الوظائف إلى مثل يحتذى ، فإنهم سيولدون قدراً عالياً من التوتر في المجتمع ، الذي يتطلب دوراه اليومي وجود عدد من الناس يدخلون في علاقة تتسم بحد أدنى من التراحم والمساواة . ولذا لا بد من عزلهم . والإنسان المتميز (الطبيب - الكاهن - الساحر) ، إن أصبح إنساناً عادياً مساوياً للآخر ، لن يحتفظ بهيبته ولن يتمكن من أداء وظيفته التي تتطلب قدراً من الانفصال عن مجتمع الأغلبية والتعالي عليه ...

"ومن أطرف الأمثلة على الجماعات الوظيفية المهنية المتميزة لجوء بعض المدن الإيطالية لاستجلاب قضاة غرباء لضمان حيادهم وموضوعيتهم . ولعل استمرار رجال القضاء في إنجلترا (وغيرها من الدول) في ارتداء الشعر المستعار هو محاولة من جانبهم لأن يحتفظوا بمتسافة بينهم وبين المجتمع فيكونوا مثل الجماعة الوظيفية التي تمتنع بالحياد والتجرد والموضوعية . ولا يزال حكام مباراة كرة القدم غرباء متعاقدين ، فالحكم لا بد وأن يكون محايداً ؛ أداة أساسية لا يمكن للمباراة أن تتم بدونها ، مع أنه هامشي إذ لا تمس قدماه الكرة .

"وباختصار شديد ، يمكن القول بأن تركّز الحمياء والدنس والتعاقف في جماعة بشرية هامشية يعني أن بقية أعضاء المجتمع المضيف يمكنهم التمتع بالدفاع والعراحم ، وأن تركّز التميز في مجموعة هامشية أخرى يعني خفض حدة التوتر الاجتماعي ، وأن تركّز الشين في مجموعة ثالثة يعني أن المجتمع سيتمتع بظهوره الأخلاقي والفعلية المادي .

"ومن أهم الأسباب الأخرى لظهور الجماعات الوظيفية حاجرة أعضاء النخبة الحاكمة إلى جماعة بشرية ليست لها قاعدة من القوة (بسبب عزلتها عن الجماهير) يمكن استخدامها (لتنفيذ مخططاتها ولخدمة مصالحها) دون أن يكون لهذه الجماعة المقدرة على المشاركة في السلطة بسبب افتقارها للقاعدة الجماهيرية ، وهي لهذا السبب سلتصق تماماً بالنخبة الحاكمة وستقوم على خدمتها بولاء أعمى ، إذ إن بقاءها الجسدي ذاته منوط بمدى رضا النخبة الحاكمة . وعادة ما تكون قوات الحرم الملكي (وأحياناً كل من يعمل داخل البلاط الملكي) من المتعاقدين العرباء . بل ويلاحظ أن النخبة الحاكمة قد تستجلب جماعة وظيفية لضرب طبقة صاعدة . ففي بولندا ، لاحظت النخبة الحاكمة الإقطاعية (شلاختا) أن ظهور بورجوازية محلية قد يهدد سلطتها وقد يسرّب كثيراً من فائض القيمة (التي تود أن تحتكره لنفسها) إلى أعضاء هذه الطبقة الجديدة المافسة . كما أن ضمها لأوكرانيا كان يعني أنها في حاجة إلى وسطاء تجارين يقومون

بإدارة ضياعهم هناك . فاستجلبت الطبقة الإقطاعية عدداً من التجار الألمان (من بينهم اليهود) ووطنهم في مدن خاصة بهم (الشتتل) وقامت بحمايتهم بالقوة العسكرية البولندية . وقامت هذه الجماعة الوظيفية الجديدة بتنشيط التجارة في إطار خطة النخبة والخاصة بضرب العناصر التجارية المحلية ومنعها من مشاركتها السلطة .

وقد ذكرت أسباباً أخرى في الموسوعة ، لكنني اقتبست الأسباب السابقة بالذات لعلاقتها بتحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية .

وأعضاء الجماعة الوظيفية عادة من حملة الفكر الحلولي والعلماني الشامل (وهكذا تلتقي النماذج الثلاثة) . فهم يتحولون إلى شعب مختار لا علاقة له بالآخر ، بل إنه يقوم بحوسلته ، فالآخر إن هو إلا مصدر للربح والنفع لعضو الجماعة الوظيفية . ولذا نجد أن عضو الجماعة الوظيفية ينسم بازدواجية المعايير : فهو يحكم على جماعته بمقيار وعلى الآخر بمقيار آخر . كما أن علاقته بأعضاء جماعته قوية للغاية ، فهو يعتمد على الجماعة لبقائه واستمراره ، بينما تنسم علاقته بأعضاء المجتمع المضيف بالبرود والتعاقدية .

وكما بينت في الموسوعة ، فإن الجماعات الوظيفية تظل قائمة ، تضطلع بوظيفتها ، إلى أن تظهر جماعات محلية قادرة على الاضطلاع بهذه الوظائف ، فيتم الاستغناء عن الجماعة الوظيفية وتصفيتها ، وتصبح وظائفها وظائف عادية يقوم بها أي عضو كفاء في المجتمع . (وهذا ما حدث للجماعات اليهودية في الغرب ، إذ أصبحت جماعات وظيفية دون وظيفة ، وهذا هو جوهر المسألة اليهودية في تصوري) .

ومن أهم الجماعات الوظيفية :

١ - الجماعات الوظيفية المالية (ويُطلق عليها عادة في المصطلح الغربي «الجماعات الوسيطة»)، التي يقوم أعضاؤها بالتجارة وأعمال الربا وجميع الضرائب ، وبنشاطات مالية مختلفة أخرى مثل السمسرة والبورصة وتغيير العملة والمرادات (الأرمن في الدولة العثمانية - اليونانيون في مصر - الصيغون في جنوب شرقي آسيا [إندونيسيا وماليزيا والفلبين وغيرها من الدول] - اللبنانيون والهنود في شرقي إفريقيا) .

٢ - الجماعات الوظيفية القتالية . التي يضطلع أعضاؤها بدور القتال ، مثل المماليك والإنكشارية والساموراي والجنود السويسريين (الحرس السويسري) .

٣ - الجماعات الوظيفية الاستيطانية . وهي جماعات بشرية تُوطئها الإمبراطوريات في مناطق نائية أو إستراتيجية بهدف تعميرها أو التحكم فيها أو قمع سكانها ، مثل بعض سكان كريت واليونان الذين وُطئوا في الشرق في العصر الهليني .

ويمكن عدّ أعضاء الجماعة اليهودية في أوكرانيا (بمثلي النخبة الحاكمة الإقطاعية في بولندا) جماعة وظيفية مالية استيطانية ، وهي أهم الجماعات الوظيفية من منظور الموسوعة .

٤ - ثمة جماعات وظيفية أخرى مثل الجماعات الوظيفية الحرفية والمهنية المتميزة التي يتطلب العمل فيها مهارة خاصة ، مثل الطب وقطع الماس وصنع التحف والانهار فيها . والجماعات الوظيفية التي يعمل أعضاؤها في وظائف يرى المجتمع لسبب أو لآخر أنها مشينة ، مثل نزح المجاري ودباغة الجلود والجزارة وجمع القمامة ودفن الموتى والبغاء وتنفيذ أحكام الإعدام . وهناك الجماعات الوظيفية الأمنية التي يعمل أعضاؤها في وظائف حساسة بسبب طابعها الأمني أو بسبب قربها من الحاكم وحياته الخاصة (الوزراء والأقزام والخصيان والمواسيس والطهاة) .

وقد ولدت من غودج الجماعة الوظيفية غودج الدولة الصهيونية الوظيفية التي أسسها الغرب لتضطلع بوظيفة محددة . وتتسم هذه الدولة الوظيفية بمعظم (إن لم يكن كل) سمات الجماعة الوظيفية (ومن هنا التسمية) ، فقد استورد الاستعمار الغربي سكانها من خارج المنطقة وغرسهم غرساً في العالم العربي ، ثم عرفها في ضوء وظيفتها الاستيطانية والقتالية . وهي تدّين بالولاء لراعيها الإمبريالي ، تدافع عن مصالحه نظير أن يدافع هو عن بقائها وأمنها ويضمن لستوطناتها مستوى معيشياً مرتفعاً . وعلاقة الدولة الوظيفية بالإمبرالية علاقة نفعية ، فالراعي الإمبريالي يدعمها طالما لعبت دورها الاستيطاني وأدت وظيفتها القتالية . وهي دولة منعزلة عن وسطها العربي ، غير متجذرة في المنطقة ، فهي في الشرق العربي وليست منه ، منعزلة عن الزمان والمكان . وحيث إن السكان الأصليين يقاومون وجودها - كما هو متوقع منهم - تحولت إلى جيتو مسلح يتسم بكثير من الحركية والدينامية . وتستخدم هذه الدولة الوظيفية معايير مزدوجة : أحدها لليهود والآخر للعرب . وهي ذات نزعة حلولية واضحة ، فاليهود وحدهم على علاقة أزلية بأرض فلسطين ، أما الفلسطينيون أنفسهم فملائقهم بها هامشية ، وإسرائيل تعدّ نفسها موضعاً للحلول ، واحة للديموقراطية ونوراً للأمم . لكل هذا يمكن القول بأن الدولة الصهيونية هي إعادة إنتاج لمفهوم الجماعة الوظيفية في العصر الحديث وفي الشرق العربي على هيئة دولة وظيفية .

وقد أدلى الصهاينة بعدد من الصمريجات تبين أنهم أدركوا الطبيعة الوظيفية للدولة الصهيونية ولسكانها الذين تم حوسلتهم قماماً (أي تحويلهم إلى وسيلة ليس لها أهمية في حد ذاتها) لصالح الغرب . وأهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق (حتى عهد قريب) هي الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) ، فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد إستراتيجي ، والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال : القتال مقابل المال ، أي أنها وظيفة ملوكية بالدرجة الأولى . وفيما عدا ذلك ، فإنها ديباجات اعتذارية وتفصيل فرعية .

أصول نموذج الجماعة الوظيفية

نموذج الجماعة الوظيفية ، شأنه شأن كثير من المفاهيم التحليلية ، يعود بالدرجة الأولى إلى تجريبيتي الحيائية ، فإدراك الفرق بين التعاقد والترحام الذي أشرت إليه من قبل ساهم أيضاً في تطوير هذا المفهوم (فالجماعة الوظيفية جماعة تعاقدية لا تدخل في علاقة تراحمية مع المجتمع) . وقد لاحظت - كما أسلفت - الفروق الواضحة بين البورجوازية الريفية والبورجوازية الحضرية (بورجوازية أهل القاهرة والإسكندرية) مما جعلني أتوصل إلى أن موقع الإنسان الطبقي وحده لا يحدد موقعه ، وأن هناك عناصر غير اقتصادية (مثل الانتماء والثقافة) تمتزج مع العناصر الاقتصادية ، بحيث لا يمكن فصل الواحد عن الآخر .

وقد نشأت في دمنهور التي كان أهلها يتباهون بأنه لا يوجد فيها أي تاجر أجنبي ، وأن التاجر الأجنبي الوحيد ذبح منذ زمن بعيد ! وقد حكى لي والذي قصة مصنع الكبريت الموجود في دمنهور . فقد قرر أحد الرأسماليين الدماهرة أن يؤسس هذا المصنع ، فاستدعى خبيراً أجنبياً حتى يصنع خلطة الكبريت ، وحينما طلب منه أن يعلمه أسرار المهنة رفض (لأنه كان يعرف أن صاحب المصنع سيقوم بطرده بعد ذلك) . فأخبر الرأسمالي الدمنهوري خبره الأجنبي بأنه سيقوم بعدة إصلاحات معمارية . وبالفعل قام بإعادة تشييد السقف حينما كان الخبير يقضي إجازته السنوية ، ولكنه بنى كوة سرية في السقف يمكنه من خلالها مراقبة الخبير وهو يعد خلطة الكبريت . فكان صاحب المصنع يتظاهر بأنه عائد لمنزله ثم يصعد إلى سقف المصنع وينام على بطنه ليراقب السيد الخبير ، ويعود إلى منزله ويقلده إلى أن توصل إلى سر الخلطة فطرده (وليستارن هذا بتكاليفه الحالي على السلع المستوردة وعلى الملكية العقارية وعلى مظاهر الاستهلاك السخيفة) .

وقد عشت في الإسكندرية منذ عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٦٣ ، وكانت الإسكندرية مدينة تهيم عليها جماعات اليونانيين والإيطاليين وغيرهم إلى أن كان عام ١٩٥٦ (مع العدوان الثلاثي) وحل محلهم مصريون . ولاحظت أن هناك بعض الصناعات (مثل صناعة السينما وقطاعات الفن [الغناء - الرقص - بل والرسم والنحت أحياناً]) يتركز فيها الأجانب وبعض يهود مصر (تماماً مثلما لاحظت أن كثيراً من مضارب الأرز في الإسكندرية يمتلكها يونانيون) وأن هذه الصناعات والقطاعات يتم تمصيرها (أي تصفية الجماعات الوظيفية التي تتركز فيها) بظهور عناصر مصرية محلية . وقد رأيت أبي داخل هذا النمط : تاجر من دمنهور يتحول إلى أحد رجالات الصناعة حينما يرحل أصحاب المصانع الأجانب الذين كان يشتري منهم البضائع . وقد لاحظت ضعف الانتماء الوطني عند أبناء الأجانب الذين زاملتهم في جامعة الإسكندرية ، فمصر بالنسبة لهم هي مجرد مكان يستمتعون به (أخبرني أحد طلبتي المصريين من أبناء المتعاقدين في إحدى الهلاد العربية أنه حينما سأل أبويه عن السبب في أنهم لا يعيشون في مصر

أجبراه بأنهما لو عاشا في مصر فإنه لن يستطيعا أن يقضيا عطلتين : واحدة في مصر والأخرى في أوروبا ، وسيضطر إلى قضاء عطلة واحدة لاغير ! .

وبما استرعى انتباهي ، أن بعض الوظائف التي كانت هامشية يضطلع بها الأجانب وحدهم تصبح وظائف محترمة تحلم بها بنات الناس الطيبين . خذ على سبيل المثال وظيفة المصيفة ؛ حتى الستينيات وبداية السبعينيات ، كان أحد لا يذكر أن أخته أو إحدى قريباته تعمل مصيفة ، وكانت المضيفات يقلن دائما إنهن سيعملن لعدة سنوات ثم يستقلن ؛ أي أن عملهن بهذه الوظيفة ليس هو نهاية المطاف . وكان نفس الوضع ينطبق على المثلثات . أذكر أن إحدى طالباتي كانت ممثلة ، وتصادف أن قابلتها في مبنى التليفزيون ، فاختبأت وراء أحد الأعمدة الضخمة في مدخل مبنى التليفزيون حتى لا أراها ، ولا أتفقد من هويتها كممثلة . وقد اختلف الأمر الآن تماما ، فقد أصبحت وظيفة المصيفة أو الممثلة هي حلم كل بنات الطبقة المتوسطة ، وسمعت أن هناك راقصات جامعات يعلن عن أنفسهن بهذه الصفة ويفتخرن بها . بل وسمعت أن واحدة منهن خريجة كلية الطب ! فمثل هذه المهنة أصبحت مهنة محترمة لا يُعهد للفرباء أو للجماعات الهامشية بالقيام بها (بسبب تزايد علمنة المجتمع وحداثته) .

كان يمكن لكل هذه التجارب أن تظل مجرد تجارب شخصية ، لولا قراءتي لكتاب ماركس المسألة اليهودية الذي يتحدث فيه عن سيادة العلاقات التعاقدية في المجتمع بحسبانه "تهويداً" للمجتمع . وكذلك كتاب المفكر الماركسي (التروتسكي) أبراهام ليون Abraham Leon المسألة اليهودية ، ويتبدى أثره بشكل واضح في مدخل «التجارة» حيث طورت مفهومه للأمة / الطبقة : "ويُعدُّ اشتغال اليهود بالتجارة سبباً في استمراريتهم وفي احتفاظهم بنوع من الاستقلال «العنصري» و«القومي» . فقد ذابت وانصهرت كل شعوب الإمبراطورية الرومانية إلا اليهود ، لأنهم كانوا يقومون بوظيفة محددة واستمروا في القيام بها بعد سقوط الإمبراطورية . وقد استمر هذا الوضع في المجتمع الإقطاعي الأوروبي لأنه مجتمع كان يقوم على التفريق بين الطبقات والجماعات ، كما كان مجتمعاً تصطبغ فيه العلاقات الإنتاجية بصيغة دينية ، أي أن المجتمع الإقطاعي الأوروبي كان يعزل اليهود على مستويين اقتصادي وديني / حضاري - أي على جميع المستويات تقريبا . ولكل هذا ، احتفظ اليهود باستقلالهم وقوانينهم ومحاكمهم ، مما حولهم إلى ما يمكن تسميته بالأمة / الطبقة ، أو مجتمع شبه قومي في استقلاله الاقتصادي والحضاري ، وإن كان استقلاله يعود لا تميزه القومي وإنما تميزه الطبقي . ويمكن تخيل المجتمع الإقطاعي الأوروبي بشيء من التبسيط على أنه مجتمع زراعي / مسيحي داخله مجتمع آخر تجاري / يهودي ، وتكون اليهودية هي بمنزلة «بورجوازية مجمدة» في المجتمع الزراعي ، أو «بناء فرعي تجاري / رأسمالي في «البناء الأساسي» الزراعي الإقطاعي» .

وتم طرح هذه الرؤية بشكل أكثر ترابطا في كتاب الأقليات اليهودية بين التجارة والادعاء

وقد ازداد نموذج الجماعات الوظيفية تبلوراً في الرياض ، إذ يُشار إلى الأجانب أمثالي من العاملين في البلاد الخليجية باسم «الوافدين» وأحياناً «المتعاقدين» . وقد كان اصطلاح «متعاقدين» يصف موقف العاملين في دول الخليج ورؤيتهم بدقة . فهم موجودون في هذه الدول لأنها في حاجة إلى خبراتهم . وحينما يُكتسب أهل البلد هذه الخبرات ، فعلى المتعاقدين أن يعودوا إلى بلادهم . فالعلاقة بين البلد المضيف والمتعاقد علاقة تعاقدية نفعية . وكانت بعض الجهات ممن يعمل فيها المتعاقدون لا تخبرهم بتجديد عقودهم أو إلغائها إلا في آخر لحظة ، وقيل إن الهدف هو ضمان كفاءة المتعاقد وولائه ، اللذين لا أساس لهما سوى العقد ، وينتهيان فور إلغائه ! كما كان يُستغنى أحياناً عن المهنيين ذوي الخبرة الذين يتقاضون مرتبات عالية (الأساتذة الجامعيين مثلاً) ويُستبدل بهم مهنيون حديثو التخرج : بهدف التوفير ، «لذلك الواحد بائس» ، كما يقال ، وهذه العبارة هي حوسلة كاملة للمتعاقد ، أي تحويله إلى وسيلة ، وتحويله من كيف إلى كم .

وبالفعل يعيش كثير من المتعاقدين في عزلة لا يشعرون بأي عاطفة نحو الوطن المضيف . علاقتهم به تنتهي مع انتهاء العقد (أخبرني أحد الزملاء الأمريكيين أنه سيبقى في السعودية حتى آخر قطرة بترول) ، ويتحدث كثير منهم عن العودة إلى بلاده الأصلية ، ولكنها في واقع الأمر تتحول في ذهنهم إلى أرض الميعاد يتحدثون عن العودة إليها ولا يعودون إلا عند انتهاء العقد ، فالوطن الأصلي ليس سوى النقطة المرجعية الصامتة التي تقوض العلاقة بين الزمان والمكان اللذين يعيش فيهما (فهو مقيم مؤقت) ، بما يجعله شخصية حركية ، وكياناً غير متجذر في أي شيء ، ويجعله يتحمل وضعه لأنه وضع مؤقت وحسب .

وكان كثير من المتعاقدين يعيش في ظروف معيشية مزرية لا يمكنه هو نفسه أن يرضى بها في بلده ، ولكنه قبل ذلك حتى يحقق التراكم . وينتج عن هذا تقشير شديد على النفس إلى درجة متطرفة أحياناً . كنت أعرف متعاقداً يعمل طبيباً في السعودية ، وهذا يعني أنه يتقاضى راتباً لا بأس به . ومع هذا كان لا يسافر إلى مصر إلا في الأتوبيس ليوفر على نفسه بضعة ريالات . والسفر بالأتوبيس شاق للغاية ويستهلك جزءاً لا بأس به من الإجازة . والأدهى من ذلك أنه كان يسكن في شقة مع بعض زملائه ، ولكن لأن غرفته كانت أضيق الغرف ، طلب أن تُقاس الشقة (تُمنر) ويدفع كل شخص الإيجار بمقدار ما يستغل من أمتار ، أي تحولت حياته إلى كم مطلق ، فهو يُعدُّ نفسه وسيلة لا غاية . وطبعاً التقشير على النفس هو أساس التراكم ، وكل هذا يتم باسم أنه لا يتفق في مكان إقامته المؤقت ، حتى يمكنه أن يتفق عن سعة في بلده الأصلي ، فداته التي ينكرها في مكان عمله ، لا يمكن تحقيقها إلا في وطنه الأصلي . ويعيش المتعاقدون عادةً في جيتو خاص بهم ، إما في معسكرات عمال (إن كانوا عمال

النظافة مثلاً) وإما في شقق مكيفة الهواء (إن كانوا من المهنيين) . ولكن سواء أكانت معسكرات بسيطة أم شققاً مكيفة فإنها بعيدة عن أصحاب البلد . والمتعاقدون لا علاقة لهم بالأوضاع السياسية ولا بعامة الشعب في بلدهم المضيف . فهم يتبعون الحكومة أو الكفيل . أما الحلولية فهي تظهر في تباهي المتعاقدين ببلدهم وكأنهم شعب الله المختار (وقد لاحظت من قبل علاقة التصرف بالتجارة) .

وقد أحببت السعوديين إلى درجة كبيرة ، إذ وجدت بين طلبتي وفاءً وطيبة ودكاءً خارقاً . وفكرت مرة في أن أرتدي الزي السعودي حتى لا يشعر طلبتي بأن أسأذهنهم مختلف عنهم ، فنحن كلنا عرب ومسلمون (خاصةً وأن ابني كان يرتدي "الثوب" السعودي ، لأن هذا هو الزي المدرسي) . ولكنه أحبه وقضى السنوات الثلاث التي قضاها في السعودية مرتدياً الثوب . وكنت أشجعه على ذلك بسبب الإحساس بالمساواة الذي يولده الثوب ، فهو لا يفرق بين الخفير والأمير) . وكنت أتحدث مع صديقي سعودي عن عزمي هذا ، فعذرني من أن أفعل ، إذ سيُعدُّ هذا محاولة للتقرب من السعوديين وشكلاً من أشكال النفاق . وحينما تعمقت في موضوع الرداء هذا ، اكتشفت أنه ليس مجرد زي محلي وإنما هو في واقع الأمر حاجز نفسي أقامه المجتمع (بشكل واع أو غير واع) حتى يظل هناك حد واضح بينه وبين "المتعاقدين الغرباء" (وهذا هو الاسم الذي اخترته في البداية لأعضاء الجماعات الوظيفية) ، وهو أمر مفهوم تماماً . ففي بعض البلاد الخليجية يزيد عدد المتعاقدين على أهل البلاد ، ولذا يمكن أن تدوب هوية أهل البلد إن هم اختلطوا بالوافدين . واكتشفت أن هناك حواجز غير الرداء (علاقات التزاوج - العلاقات بين الذكور والإناث) ، أي اكتشفت لغة كاملة من الرموز لتفريق أهل البلد عن الغرباء المتعاقدين ، ووجدت شهاً كبيراً بين وضع اليهود في الحضارة الغربية (يعيشون في البلد ولكنهم ليسوا منه) والمتعاقدين الغرباء . (ومع هذا لا بد أن أذكر أن صلاة الجماعة في السعودية (وباقى الشعائر الإسلامية) التي تجمع بين المتعاقدين والسعوديين نجحت في إزالة الفوارق ولو لبضع لحظات يمارس أثناءها الجميع إنسانيتهم المشتركة ، مما كان له أعمق الأثر على العلاقة بين الفريقين) .

وقد بُيئت أن نموذج الجماعة الوظيفية بدأ في الظهور في موسوعة ١٩٧٥ ، فتمعق واتسع في السعودية ثم الكويت ، وخرج من عالم التجارة إلى عالم النشاط الإنساني ككل ، ووضع الغريب في المجتمعات الإنسانية ، بل والطبيعة البشرية ذاتها (أو الإنسانية المشتركة ، كما أفضل القول الآن) . ودرست بعض أعمال زيميل Zimmel ، عالم الاجتماع الألماني الذي كتب عن سوسيولوجيا الغريب . وبطبيعة الحال قرأت بعض أعمال كارل ماركس وماكس فيبر وفرنر سومبارت Werner Sombart الذين يتناولون إشكالية أصول الرأسمالية وعلاقتها باليهود واليهودية (رأسمالية اليهود النبوذة ، كما يسميها فيبر) . كما درست بعض الأدبيات الخاصة بالجماعات (التجارية) الوسيطة والجماعات التجارية الهامشية في علم الاجتماع الغربي .

ومن أطرف مصادر نموذج الجماعة الوظيفية ما ذكرته في اللوسوعة أنني قرأت في إحدى الصحف عن "أن بعض تجار الخدرات في مصر استحدثوا أسلوباً جديداً لتقديم الخدرات في "الغرفة" (أي المكان الذي يجتمع فيه جماعة من مدخني الخدرات ليمارسوا فيه هوايتهم) . فالأسلوب التقليدي هو أن يمر الغرزجي (أي الشخص الذي يخضع داخل الغرفة) "بالجوزة" على جماعة المدمنين . وقد وجدت أن الغرزجية جماعة وظيفية لها شعائرها وسماتها المحددة ، فهم يقضون معظم ساعات اليوم في محل عملهم ، أي أن الجيتو الخاص بهم هو مكان الإقامة والعمل في آن واحد . وتأخذ عملية العزل في حالتهم وضعاً بيولوجياً متطرفاً ، إذ إنهم لابد أن يتناولوا طاجناً يحتوي على قطع كبيرة من اللحوم مخلوطة بالخضار في مزيج من بقايا الخشيش . ومهمة هذا الطاجن هو إغاثتهم ، مثلهم في ذلك مثل البشر كافة ، إلا أنه يزودهم بما يكفيهم من الخدرة حتى لا يكونوا في حاجة إلى المشاركة في التدخين . علاوة على هذا ، فالطعام الذي يتناولونه له جانبه الفسيولوجي الواضح ، ولكنه إلى جانب هذا يرمز إلى ناحية شعائرية ورمزية . فالطاجن يعني التضامن (وأكل العيش والملح) ويُقوِّى الأواصر بين أعضاء الجماعة الوظيفية . وهو يعني أيضاً إدمانهم لهذا الطعام واعتمادهم الكامل عليه وضمان استمرارهم كجماعة وظيفية . فالطعام هنا هو بديل الوطن الأصلي (أو صهيون) ، فهو يفيكك من الأواصر التي تربط عضو الجماعة الوظيفية مع المجتمع المضيق ويُقوِّى صلاته بأعضاء جماعته .

"وهو يشبه الطعام الشرعي عند اليهود الذي يجعل من تناول الطعام مع الآخر أمراً شبه مستحيل تقريباً ، ولذا تزداد غربة اليهودي عن المجتمع ويزداد ارتباطه بجماعته . والطاجن يشبه أيضاً عملية الخصى والمرتبات المرتفعة التي يتقاضاها بعض مشغقي العالم الثالث من المنظمات الدولية أو الدول الأجنبية أو النظم الحاكمة ، فهذه المرتبات تمكنهم من العيش حسب أسلوب حياة معينة لا يمكنهم الاستغناء عنه (فهو كالطاجن الذي يمدنه الغرزجي) وبعد قليل يفقد هؤلاء الإرادة الحرة المستقلة (أي أنها عملية تشبه الخصى تماماً) فيعتمدون اعتماداً كاملاً على ولي نعمتهم وينفذون أوامره دون تساؤل . إن الطاجن ، مثله مثل الخصى أو صهيون أو المرتبات المرتفعة ، كلها آليات للعزل عن المجتمع ولتقوية التضامن من الداخل .

"ولكن . وبرغم كل محاولات العزل الكاملة هذه ، فإن الغرزجية يستيطنون أسلوب مرتادي الفرر تماماً ويتوحدون بهم ، ولذا فإن أجورهم المرتفعة تغريهم باقتفاء أثر المدخنين فيمدنون أنواعاً أخرى من الخدرات ويتركون أعمالهم أياً ما لينفقوا فيها مدخراتهم مقلدين الزبائن في منح البقشيش ودعوة الآخرين للتدخين على نفقتهم ، أي أن عملية العزل الكاملة تؤدي إلى الانصهار الكامل في نمط حياة المدمنين ، فيتحول الغرزجي إلى مدمن ويبدد نفسه ، رغم أن المفترض فيه أنه هو نفسه أداة التبدد" .

بعد أن وصفت هذه الجماعة الوظيفية ، رأيت جماعة وظيفية أخرى أكثر تبلوراً . فقد قام

بعض تجار المخدرات من أصحاب الغرز بتدريب القروء على وظيفة الغرزجية بدلاً من البشر ، وهم بهذا قد توصلوا إلى أداة كاملة ليست لها أي تطلعات إنسانية أو نقائص بشرية ، فالقروء (عادةً) لا يدخنون الحشيش ولا يدمنون ، كما أنهم ليسوا في حاجة إلى الطاجن الخاص ولا يتقاضون أجوراً ، ومن ثم فإن تكاليفهم بسيطة . وإلى جانب كل هذا ، نجد أن القردة تلزم نفس المكان / الجيتو بطبيعتها ولا تُوجد عندها رغبة في مغادرته لإنفاق مدخراتها وتبديد ذاتها . بل وتم تدريبها على القيام بأعمال الري في زراعة المخدرات ، بينما يتفرغ العنصر البشري لأعمال الحراسة التي قد تتطلب قدراً أعلى من الذكاء . واستخدام القروء كجماعة وظيفية يبين مدى ذكاء تجار المخدرات وإدراكهم الغريزي لقانون الجماعة الوظيفية إذ إن القرد كائن ذو بُعد واحد ، يمكن توظيفه من أجل المنفعة الاقتصادية (وهو يتجاوز تماماً مبدأ اللذة الذي يسبب التوترات في المجتمعات العلمانية ويضعف من تماسكها) . والقرد "إنسان" وظيفي طبيعي ومادة محايدة تماماً ولا تؤرقه تطلعات أو محاولة لتجاوز ذاته المادية أو الطبيعة / المادة ، فهو يعيش في المادة وبها وعليها .

ولكن لعل العنصر الحاسم في تطوير نموذج الجماعة الوظيفية هو كتابة الموسوعة ذاتها ، فمن خلال عمليات الرصد المستمرة لوظائف اليهود بدأ غط محدد يظهر ويتكرر ، حاولت في بداية الأمر تفسيره من خلال الأطروحات التي استخدمتها في موسوعة ١٩٧٥ . ولكن ضاق نطاق النمط السائد عن التفاصيل المتزايدة ، فاضطرت إلى توسيع حدوده وإعادة تسميته عدة مرات إلى أن انتهى بي الأمر بمصطلح «جماعات وظيفية» .

معاداة اليهود والجماعة الوظيفية

استخدمت في الموسوعة مفهوم الجماعة الوظيفية في ثلث جبر طواهر عديدة من بينها : ظاهرة الجيتو ، وظاهرة الدولة الصهيونية (كما بينت من قبل) ، وتساعد معدلات الحلولية بين أعضاء الجماعة اليهودية . ولكن من أهم استخدامات مفهوم الجماعة الوظيفية كنموذج تحليلي كان استخدامه في تفسير ظاهرة «العداء لليهود» («العداء للسامية» كما تسمى) ، فبينت أن العداء لليهود ، بوصفه شكلاً من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب (وه الآخر) على وجه العموم) ، هو إمكانية كامنة في النفس البشرية التي تنفجر من كل ما هو غير مألوف ، وبالتالي فهو إمكانية كامنة في كل المجتمعات . كما أن هناك بشراً في كل مجتمع لا يقنعون بما لديهم من ثروة أو رزق ، ويرغبون دائماً في الاستيلاء على ما يملكه الآخرون ، وبخاصة ما يملكه أعضاء الأقلية الذين لا يتمتعون عادةً بنفس الحصانة ونفس الاستقرار اللذين يتمتع بهما أعضاء الأغلبية . ومع هذا ، تظل هذه الأفكار والدوافع في جالة كمون ولا تعبر عن نفسها إلا من خلال أفعال عنف وكره فردية متفرقة أو من خلال أشكال من التحايل على أعضاء الأقلية أو من

خلال أعمال أدبية أو قصص أو أساطير ، ما دام المجتمع مستقراً ولكل عضو فيه وظيفته .
ولكن نمة عناصر تؤدي إلى تحول هذه الدوافع النفعية من حالة الكمون إلى حالة التحقق
حيث تتعدد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية . ومن أهم تطبيقات نموذج الجماعات
الوظيفية استخدامه في تفسير الأسباب التي تؤدي إلى ظهور معاداة اليهود وانتقالها من حالة
الكمون إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية . وقد بينت في الموسوعة أن معظم الجماعات اليهودية
كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية في المجتمعات القديمة ، وخاصة في المجتمع الغربي
من العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر . وقد كانت الجماعات الوظيفية تتكون دائماً من
عناصر بشرية غريبة عن المجتمع حتى يمكنها أن تضطلع بوظائف كريهة أو مشبوهة أو متميزة
تتطلب الموضوعية والحياد وعدم الانتماء ، وعادة ما يحقق أعضاء الجماعة الوظيفية ثروات
ضخمة تجعلهم موضع حقد من أعضاء الأغلبية .

ولكن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، برغم غربتهم وتميزهم ، كانوا يجدون
أنفسهم في قلب الصراعات المختلفة في المجتمع ، وبخاصة الصراعات الناشئة بين أعضاء النخبة
الحاكمة وبين الطبقات الأخرى للمجتمع ، خصوصاً الطبقات الشعبية ، إذ إن قطاعات من النخبة
الحاكمة كانت تستخدم أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة لضرب بعض طبقات المجتمع
لاستغلالها أو كبح جماحها . فأعضاء الجماعة هم سوط في يد الحاكم ، أو هكذا كان يراه
المحكومون ، ولكنهم أيضاً كبش الفداء الذي يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات
الشعبية ، فالأداة ليست غاية في ذاتها . وبرغم أن هذه الهجمات على الجماعات اليهودية
(الوظيفية) في الغرب تعدّ هجمات عنصرية ، فإنه يجب ألا نهمل الجانب الشمسي فيها وأنها
تمثل جزءاً من نمط الجماهير على عملية الاستغلال ، وإن كان نمطاً قصير النظر ، كما هو الحال
عادة مع الهبات الشعبية . ولم تكن هذه الثورات ثمرة إدراك عميق لحركات الاستغلال ، ولذا
اقتصرت على تحطيم الأداة الواضحة أمامهم والمباحة لهم .

لكن هذا الوضع ليس وضعاً عاماً ولا عالمياً ينطبق على كل اليهود في كل زمان ومكان ، فهو
ينطبق بالأساس على الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، وبالأذات منذ بداية العصور الوسطى
وحتى القرن الخامس عشر ، كما ينطبق على كثير من الأقليات الأخرى . ولذا ، فهو يصلح إطاراً
تفسيرياً لمعظم جوانب ظاهرة معاداة اليهود بما أن أغلبية يهود العالم كانوا يوجدون في أوروبا مع
نهاية القرن الثامن عشر ، وفي بولندا على وجه الخصوص .

والجماعة الوظيفية الوسيطة كما أسلفنا تضطلع بوظيفة مهمة في المجتمع . وبالتالي ،
فإن وجودها في حد ذاته لا يؤدي بالضرورة إلى تحول العداء الكامن إلى هجوم شعبي . لكن مثل
هذا التحول يحدث حينما تحمل طبقة جديدة محلية أو عالمية محل الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أو
حينما تطور الدولة أجهزة مركزية تضطلع بوظائف هذه الجماعة ، أو حينما يزداد نصيب

الجماعة الوظيفية الوسيطة من الثروة مع تزايد الفقر في المجتمع أو في بعض شرائحه . كما أن وجود تميز ثقافي أو ديني أو عرقي أو اجتماعي يساهم في عزل الأقلية عن الأغلبية ، وإذا كان التميز مركباً على أكثر من مستوى ، فإن العزلة تزداد عمقا .

وحتى أبين للقارئ أن تحول كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية مرتبط بحركات اجتماعية وتاريخية ، بالدرجة الأولى ، وليس بالجوهر اليهودي ، وحتى لا أحلج صفة الإطلاق على صفات اليهود ، فكتسب بعداً نهائياً وتبدو وكأنها مقصورة عليهم دون سواهم ، أشرت إلى وضع الصينيين في إندونيسيا ، والهنود في جنوب إفريقيا ، ويهود اليديشية في أوكرانيا حينما كانت تابعة لبولندا . فالتخبة الحاكمة كانت هولندية مسيحية في إندونيسيا ، إنجليزية مسيحية في جنوب إفريقيا ، بولندية كاثوليكية في بولندا . وكانت الجماهير إندونيسية (جاوية) مسلمة أو وثنية في إندونيسيا ، سوداء وثنية في جنوب إفريقيا ، وأوكرانية أرثوذكسية في أوكرانيا . أما الجماعة الوظيفية الوسيطة التجارية ، فكانت صينية كونفوشيوسية في إندونيسيا ، هندية (هندوكية أو مسيحية أو مسلمة) في جنوب إفريقيا ، يهودية في أوكرانيا . كما كانت عدة سمات أخرى (لقوية وثقافية) تفصل الجماعة الوظيفية الوسيطة عن التخبة وعن الجماهير . وحينما يصل التدرج إلى هذه الدرجة من التبلور ، وحينما تدعم الاختلافات الدينية والثقافية والعرقية الاختلافات الطبقية ، تصبح التربة مهيأة لانفجارات اجتماعية هائلة ذات أبعاد عرقية كما حدث بالفعل في انتفاضة شميلنكي .

وقد كان يهود بولندا هم أغلبية يهود العالم في أواخر القرن الثامن عشر . وفي هذه المرحلة التاريخية ، حدث بينهم أيضاً انفجار سكاني أدى إلى تزايد عددهم خمسة أو ستة أضعاف ، ومن ثم زاد بروزهم العددي والاقتصادي . كما شهد المجتمع البولندي آنذاك بداية ظهور طبقات محلية بديلة وأجهزة قومية تحمل محل الجماعة الوظيفية الوسيطة . وتزايد في هذه المرحلة فقر قطاعات كثيرة من المجتمع البولندي . فضلاً عن ذلك ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون اليديشية ويدينون بشيء من الولاء للثقافة الألمانية ، بينما كان الألمان هم الأعداء التقليديين للسلاف والبولنديين . كما أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يشاركوا بشكل فعال في الحركة الوطنية البولندية التي كانت ذات توجه معاد لليهود لأسباب تاريخية مركبة (من أهمها اضطلاح اليهود بوظيفة جمع الضرائب وعوائد الضياع فيما يسمى بنظام «الأرناء») . لكل هذا ، تفجرت معاداة اليهودية في بولندا وروسيا بشكل حاد (خاصة بسبب تعثر التحديث في هذه البلاد) .

إن تناولي لطاهرة معاداة اليهود واليهودية لم يلجأ لفكرة الجوهر الثابت ولا رعية اليهود المناصلة في كذا أو كذا ، وإنما حاول أن يقدم قراءة مركبة لهذه الظاهرة لا تتجاهل الخاص والداحل ولا تهمل العام والخارج ، وتحاول قدر استطاعتها ألا تسقط في أي تعميمات اختزالية عنصرية .

"اكتشاف" اليهود من جديد

مع اتساع الرؤية وترباط الأفكار وظهور النماذج التحليلية (التي تربط الخاص بالعام والماضي بالحاضر) والانتقال من التفكير إلى التأسيس ، بدأت في مراجعة كثير من المقولات والنماذج التحليلية السائدة . فوجدت أن الخطاب التحليلي العربي ينحو منحنيين متناقضين ، فهو إما أن يميل إلى التعميم (العلمي) الشديد ("الصهيانية إن هم إلا عملاء للاستعمار" - "إسرائيل إن هي إلا كذا") وإما إلى التخصيص التأمري الشديد ("اليهود مختلفون عن البشر" - "اليهود هم كذا بطبيعتهم عبر الزمان والمكان") .

ومراجعة المفاهيم والنماذج التحليلية تتطلب مراجعة المصطلحات . فعلى سبيل المثال ، يتصور كثير من الباحثين في الظواهر اليهودية والصهيونية أن مصطلحاً رئيساً مثل «يهودي» ، مصطلح محدد المعنى واضح الدلالة يشبه في وضوحه وتحدده مصطلحاً مثل «ألماني» . ويبدو أن هذا هو الوهم العام . أخبرني أحد مندوبي البيعات لدار الشروق أن بعض مرتادي معارض الكتب من العرب يسكون بكتابي المعنون من هو اليهودي؟ ثم ينحونه جانباً قائلين : "نحن نعرفه، هو ابن ... " وخلص ، كان المسألة محسومة تماماً بالنسبة لهم ، مع أنهم في إسرائيل ذاتها لا يزالون يحاولون الإجابة عن هذا السؤال . ويلاحظ أنه ظهرت في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة أحزاب ذات طابع إثني ، تعبر عن هويات أصحابها ومصالحهم ، وهي هويات مختلفة ، بسبب اختلاف أصولها الحضارية والعرقية (مغاربة - روس - مغاربة متدينون - فلاشا ... إلخ) .

ومثل هؤلاء العارفين يتحدثون عن "اليهود" وكأنهم كتلة واحدة متماسكة ومتجانسة فعلاً . ويصبح الفراض الرحدة والتماسك والتجانس أقل كموتاً وأكثر وضوحاً حينما يتحدث الباحث عن اليهود بصفتهم «الشعب اليهودي» الذي يعيش في «المنفى» ، وهو ما يعني أن اليهود ينتمون إلى تشكيل حضاري واحد ، وأن لهم مصيراً واحداً ، ومستقبلاً واحداً ، وربما عرقاً واحداً ، وانتماءً ثقافياً واحداً ، وتاريخاً واحداً ، وهذا هو جوهر النموذج الإدراكي والتحليلي الصهيوني . ولكنني وجدت أن مقدرة هذا النموذج التفسيرية محدودة للغاية . ولذا بيئت من خلال الدراسة المتأنية عدم نجاس «اليهود» ، ومن ثم فكما قلت هم ليسوا بشعب واحد (شعب بلا أرض) وإنما هم أقبليات بعضها حقق الاندماج ، وبعضها انصهر تماماً ، وبعضها يعاني من مسألة يهودية ما (فهناك مسائل يهودية عديدة تختلف باختلاف الزمان والمكان) . والجماعات التي لا تكون شعباً واحداً ، لا يقال عنها إنها تعيش في المنفى "مشتتة" (كما يدعي المصطلح الصهيوني) . قد يكونون منفيين بالمعنى الديني ، وهذا يعني أن هذه إرادة الله ، ولذا يجد أن اليهودية الحاخامية تحرّم العودة إلى فلسطين إلا بعد عودة الماشيح ، ويجب الانتظار في صبر وأناة إلى أن يأذن الله . ومحاولة العودة من خلال الإرادة الإنسانية الزمنية ومن خلال الإمبريالية (كما يفعل الصهيانية) هي - من منظور ديني يهودي - من قبيل إرغام الإله وفرض الإرادة البشرية عليه

، ومن يفعل ذلك يرتكب خطيئة «دحيكات هاكس» والتي تعني «التعجيل بالنهاية» (كما أخبرني صديقي الحاخام يوسف بيغر الذي يحارب الصهيونية بكل جوارحه دفاعاً عن اليهودية ، وكما ورد في كثير من المراجع) . كل هذا يعني أنه يجب عدم الخلط بين الإيمان الديني والحقيقة الزمنية (كما يفعل الصهاينة وأعداء اليهود) . فأعضاء الجماعات اليهودية يوجدون في كل أنحاء العالم بكامل إرادتهم دون قسر أو إرغام ، وإلا فبم نقسر أن غالبية يهود العالم لا تزال خارج إسرائيل ، وأنه لا يقطن في إسرائيل سوى حوالي ربع يهود العالم ؟ وقد صدرت بالفعل كتابات بعنوان الدياسبورا (أي الشتات) لا تضم فصولاً عن الولايات المتحدة أو كندا بحسبان أنهما وطن قومي ثان ! بل إن يهود أمريكا قد جعلوا من إسرائيل وطناً أصلياً ، فأصبحوا يهوداً / أمريكيين (شأنهم شأن الأيرلنديين / الأمريكيين ، والألمان / الأمريكيين ... إلخ) . لكن الوطن الأصلي هو البلد الذي تهاجر منه لا إليه . وقد بُنيت في الموسوعة تطور الهويات (لا الهوية) اليهودية من هوية عبرانية إلى هوية عبرانية / يهودية ثم نشعبها إلى هويات مختلفة باختلاف الحضارات التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد بُنيت في الموسوعة كذلك ما يعرفه الجميع ، وهو أن ثمة فارقاً بين اليهودية واليهود . فاليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة ، واليهود هم من يؤمنون (أو يدعون الإيمان) بها . ولا يوجد مجال لتراصف الواحد بالآخر (هل يوجد تداصف بين الإسلام والمسلمين أو بين المسيحية والمسيحيين؟) . وبنت أن عدم التداصف هذا يزداد عمقاً في حالة اليهودية التي عرّفت اليهودي بطريقة عقائدية ، كما تفعل كل الأديان (اليهودي هو من يؤمن باليهودية) ، ولكنها عرّفته أيضاً بطريقة عرقية ، كما تفعل العقائد البيولوجية الخنسية (اليهودي هو من يولد لأُم يهودية) . وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى عدة أقسام أساسية : إشكناز وسفارد ويهود البلاد الإسلامية . ولكن إلى جانب ذلك بُنيت أن هناك جماعات يهودية هامشية لا حصر لها ولا عدد . فهناك على سبيل المثال لا الحصر السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم ، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساساً ولكن النص الذي يتداولونه مختلف عن ذلك المتداول بين اليهود كافة ، ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس ، لا جبل صهيون ، وهم لا يؤمنون بمجيء الماشيح . وهناك أيضاً القرأعون الذين تمردوا على التلمود «بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي» ، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها ، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل . وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين ، يعبدون يهوه الذي يسمونه تين (السماء) ويعتقدون في معبدين يهوديين ، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف ، وملاحمهم صينية تماماً ، ويقدمون لأسلافهم قربانين من لحم الضأن . أما هم فلا يمانعون في أكل لحم الخنزير . ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية (تماماً مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية) . وهناك عشرات من الجماعات

لهذا كله ، وجدت أن مصطلح «يهودي» مصطلح عام للغاية ، ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعومة بسبب عموميته وإطلاقه . ولعل عدم تحديد مصطلح «يهودي» يظهر في عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يصنفون على أنهم «يهود» ولكنهم ليسوا يهوداً حسب أي من التعريفات القائمة ، ولذا يُشار إليهم على أنهم «يهود بشكل ما» (بالإنجليزية : جويش سام هار Jewish somehow) .

لكل ما تقدم أسقطت من معجمي تماماً كلمة «اليهود» على عمومها وإطلاقها ، وأتحدث عنهم «كجماعات يهودية» . ويتميز نموذج الجماعات اليهودية بأنه ينظر لليهود من الخارج ، داخل سياقهم الحضاري والاجتماعي العام بصفتهم أقليات دينية وإثنية ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الأقليات ، كما أنه ينظر إليهم من الداخل بصفتهم جماعات يهودية لها رؤيتها الخاصة ومنظورها الخاص اللذين يختلفان (في بعض النواحي) عن رؤية مجتمع الأغلبية ، ولها دوافعها التي تحركها ، والمعنى الداخلي الذي تسقطه على ما تقوم به من أفعال . وهذا الداخل والخارج والخاص والعام متفاعلان متداخلان .

والتفاعل بين الداخل والخارج والخاص والعام يظهر في دراستي لإشكالية الإبادة النازية لليهود أوروبا ، فقد بدأت بأن وضعتها في السياق (العالم) للحضارة الغربية بحسبانها حضارة تمجد القوة وتجعل مصلحتها معياراً وحيداً أوحد للحكم على الظواهر ، وبعدها حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلا بصفته مادة تستخدم .

وفي مجال دفاعه عن نفسه ، أثناء محاكمته في نورمبرج ، بين ألفريد روزنبرج ، أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين ، أن نظرية التفاوت بين الأعراق هي جزء لا يتجزأ من الفكر الغربي . فأشار إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر ، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانث والعالم الفرنسي لابوج ، وأن رؤيته العرقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية . ومن المعروف تاريخياً أن هتلر تشرب كثيراً من آرائه من الدراسات الإسرائيلية / المنصرية التي انتشرت في أوروبا آنذاك كالميكروب لتبرير المشروع الإمبريالي الغربي . والرؤية الصهيونية الخاصة بالشعب اليهودي باعتباره شعباً مختاراً أو شعباً له حقوق مطلقة تنبع من هذه الرؤية الغربية .

ولكن الأهم من هذا أنه تم وضع الإبادة النازية في سياق الحضارة الغربية بحسبانها حضارة إبادة لا تتردد في إزالة الآخر من طريقها (فهو من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى ، ولذا لا يستحق الحياة) . فأشرت إلى وقائع الإبادة المختلفة في التاريخ الغربي الحديث ابتداءً من إبادة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية (في القرن السادس عشر) حتى فيتنام والبوسنة في القرن

العشرين . وهتلر نفسه ، كان في أحاديثه الخاصة كثيراً ما كان يبدى إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة "معالجتهم" لقضية الهنود الحمر . وقد صرح هتلر في إحدى خطبه أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرقي أوروبا لا تختلف كثيراً عن كجاج البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر . ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوروبا الشرقية بحسابها «أرضاً عذراء» أو «صحراء مهجورة» ، تماماً كما كان الصهاينة يتحدثون عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين بحسابها «صحراء ومستنقعات» . وقد بينت في الموسوعة علاقة الاتجاه الإباضي ببعض الاتجاهات الفكرية الأسامية في الحضارة الغربية مثل العلم المنفصل عن القيمة الفلسفات المادية والداروينية والنييتشوية - الميثيقانية العلمية (أي ادعاء العلم أنه قادر على حل المشكلات) . المهم في كل هذا أن النظر لظاهرة الإبادة من الداخل ومن الخارج يعمق من رؤيتها لها ويعطيها بُعداً تاريخياً وحضارياً يتجاوز الأحداث المباشرة ، ويحررها من التفاصيل والمناسبة المباشرة ، كما يجعلنا نراها داخل غطاء عام (نمذجة) بحيث تتحول من الإبادة النازية لليهود ، أي جريمة ارتكبتها النازيون ، والنازيون وحدهم ، ضد اليهود ، إلى الإبادة النازية بحسابها تدياً لنمط عام في الحضارة الغربية الحديثة .

بعد أن وضعت الإبادة النازية ليهود أوروبا في سياقها الحضاري الغربي العريض ، وضعتها في سياق أقل عمومية وهو السياق الألماني (تدهور الاقتصاد الألماني - الاتجاهات العامة للثقافة الألمانية آنذاك) ، وبينت أن الإبادة لم تطل اليهود وحدهم وإنما طالت العجزة والأطفال والمعوقين والشيوخ والفقر وأعضاء النخبة البولندية وأسرى الحرب ، بل وأحياناً الجرحى الألمان ، أي أنها جزء من موقف نازي عام ، ليس موجهاً ضد اليهود ، واليهود وحدهم ، وإنما كان موجهاً ضد الآخر (أي آخر) الذي قد يقف في طريق النازيين . وهذا يسقط احتكار اليهود للإبادة .

ثم أخيراً وضعت الإبادة النازية لليهود أوروبا في سياق ألماني يهودي : رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها - التعاون بين الصهاينة والنازيين - الصهيونية في علاقتها النظرية والعملية مع النازية ! فكشفت عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة . فاشترت إلى وقائع كثيرة من أهمها معاهدة الهعفراف بين النازيين والصهاينة التي أنقذت الجيب الصهيوني من الهلاك ، إذ إنه كان يعاني من توقف الهجرة الاستيطانية ومن تدفق رؤوس الأموال ، الأمر الذي تكفل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طوق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية) . ولهذا قال أحد المعلقين ، إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أي منظرها) ، فإن هتلر هو لينينها (أي من حول النظرية إلى واقع سياسي) .

إن محاولة النظر لإشكالية الإبادة من الداخل والخارج ، والمزج بين الخاص والعام ، تغيير الرؤية وتضع قضية الإبادة على مستوى تحليلي جديد تماماً ، يولد أسئلة مختلفة عن تلك التي يطرحها الصهاينة ، والتي تحدد الأجندة البحثية والأجوبة التي ستوصل إليها . فقضية ستة

الملايين ، وهل هو رقم صحيح أو لا ، تصبح قضية ثانوية ، إذ إن ثمة غمطاً إبادياً عربياً عاماً موجهاً ضد الآخر المعوق . بل إن الرقم ستة ملايين من خلال وضعه في سياق عريض يمكن الحوار بشأنه بطريقة مركبة ، إذ تتحول القضية من مجرد إثبات وإنكار إلى بحث في أسباب اختفاء ستة ملايين يهودي (إن صدق الرقم) . فهل من اختفى اختفى من خلال أفران الغاز أو أن هناك أسباباً أخرى مثل تناقص عدد اليهود منذ بداية القرن الحالي من خلال الزواج المختلط والتنصر والإحجام عن الزواج والنسل ؟ وماذا عن الأويمة والجماعات والفترات أثناء الحرب ؟ وماذا عن هؤلاء الذين حصروا على شهادات تصعيد من الكنيسة حتى يمكنهم الهروب من النازي ، وبعد الحرب آثروا عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية السابقة ؟ كل هؤلاء اختفوا ، حذفت أعدادهم ، ولكن ليس من خلال أفران الغاز .

ولعل من أهم الأفكار السائدة في حقل الدراسات الخاصة باليهود واليهودية العنصرية نموذج «التاريخ اليهودي» الواحد ، وهو إفراز لعملية النظر لليهود من الداخل وحسب . وفكرة «التاريخ اليهودي» تفترض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تاريخ جميع الشعوب والأمم ، وهو نموذج تنفر عنه وتستند إليه جميع مفاهيم الاستقلال اليهودي الأخرى . وهذا النموذج يثير كثيراً من الشكوك في نفس الباحث الذي لا يتقبل نقطة الانطلاق الصهيونية (المعادية لليهود) الخاصة بوحدهم في كل زمان ومكان . لو نظرنا إلى الظاهرة نفسها ، أي ما يسمى «التاريخ اليهودي» ، من الخارج أيضاً لوجدنا أنه من الثابت تاريخياً أن الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم كانت توجد في مجتمعات مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وبني حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان . فيهود اليمن كانوا يعيشون في القرن التاسع في مجتمع صحراوي قبلي عربي ، أما يهود بولندا فكانوا ، ولا يزالون ، يعيشون في مجتمع حضري رأسمالي غربي ، أي أنهما كانا يعيشان في تشكيلين حضاريين مختلفين ، يتأثران بهما ويتفاعلان معهما وتتحدد هويتهما من خلالهما .

والآن ، إذا افترضنا وجود تاريخ يهودي فعلاً . فما أحداث هذا التاريخ ؟ هل الثورة الصناعية ، على سبيل المثال ، من أحداث هذا التاريخ ، أو أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي ؟ في الواقع سنكتشف أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ العربي ، ترك أعماق الأثر في يهود العالم الغربي ، وأحدث انقلاباً في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر ، أي بعد حدوث الانقلاب بفترة وجيزة . لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم بصفتهم يهوداً ، وإنما بصفتهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي ، إذ إننا سنجد أن هذا الانقلاب في طرق الحياة والرؤية قد حدث أيضاً لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية . وفي الوقت نفسه ، لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها وفي التوقيت نفسه ، لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عنها في بداية الأمر .

لكن بعد بحر قرن من الزمان ، بدأ هذا التشكيل يتأثر هو الآخر بالثورة الصناعية ، وبالتالي بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبيتها وأقلياتها . أما يهود إثيوبيا ، فلم يتأثروا به إلا على بحر سطحي ، لأن المناطق التي كانوا يعيشون فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى ، وبقيت ذات طابع قبلي حتى الوقت الحاضر . لذا ، يمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء في مجتمع ما ، فإذا تأثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته . ولذا ، فالإطار المرجعي للدراسة لا يمكن أن يكون «التاريخ اليهودي» الواحد الوهمي . ولو جعل الباحث هذا التاريخ مرجعيته ليجز عن تفسير كثير من عناصر عدم التجانس والتفاوت في هذا التاريخ ، ولاضطر إلى لي عنق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها ، بينما لم يتأثر بها بعض يهود إثيوبيا حتى الآن !

ستختلف الرؤية تماماً إذا لم نحصر أنفسنا في رؤية اليهود من الداخل ، بل خرجنا من هذا المحيط ونظرنا لهم من الخارج . إن فعلنا ذلك وجدنا أن هناك «تواريخ» للجماعات اليهودية لا تاريخاً يهودياً واحداً .

وقد أدى كل هذا إلى اكتشاف واحدة من أطرف الظواهر في تاريخ يهود بولندا / أوكرانيا ، ولكنها هُمشت تماماً في الدراسات الصهيونية ، وهي ظاهرة المعبد / القلعة . وهي ظاهرة فريدة في تاريخ الطرز المعمارية لأساكن العبادة ، إذ من المحتمل ألا يكون له أي نظير . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون بالعبادة والدراسة في مثل هذه المعابد ، التي كانت مصممة بطريقة يمكن استخدامها كحصون وقلاع عسكرية في آن واحد .

ونشأت الحاجة لمثل هذا الطراز من المعابد في إطار الإنقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا . فقد وظف النبلاء البولنديون (شلاختا) بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عملية اعتصار أكبر قدر ممكن من الأرباح من الفلاحين الأوكرانيين . فأصبحت الجماعة اليهودية جماعة وظيفية من الوكلاء الماليين (أرنداتور Arendator) يعيشون في مدن خاصة بهم (شتتلات) منزلين لغوياً ودينياً واجتماعياً وثقافياً عن جماهير الفلاحين . وكانت الجماعة اليهودية محل سخط الجماهير وعصبها ، ولذا كانت القوات العسكرية البولندية تقوم بحمايتها من الجماهير ومن الانتفاضات الشعبية المحتملة . ومع هذا كان أعضاء الجماعة اليهودية يتدربون على السلاح ، وكان عليهم الاحتفاظ بأسلحة بعدد الذكور القادرين على حملها ، ومكسية معينة من البارود (حسما كانت تنص العقود المبرمة بين النبلاء البولنديين ووكلائهم اليهود) . وبنوا معابدهم على هيئة قلاع يتعدون ويتدارسون فيها ويطلقون الرصاص على الفلاحين الأوكرانيين منها .

ونقاط التشابه بين المعبد / القلعة والدولة الصهيونية أمر مثير للغاية ، يستحق التأمل لدلالته وطرافته . فكلٌّ من المعبد / القلعة والدولة الصهيونية يحوي عنصراً بشرياً غريباً قامت

قوة خارجية (النبله البولنديون والإمبريالية) بتزويده بالسلاح وبغمره في منطقة حدودية (أوكرانيا فلسطين) لخدمة مصالح هذه القوة ولقمع السكان الأصليين . هذا العنصر العربي تحول إلى جماعة وظيفية عميلة قام السكان الأصليون بمقاومتها والحرب ضدها في انتفاضات متكررة .

لكل هذا فإننا نرى المعبد / القلعة هو خير رمز للدولة / القلعة ، أي الدولة الصهيونية . وقد نشرت صورة المعبد / القلعة في كل أجزاء اللوموعة باعتبارها النموذج القتالي الوظيفي الصهيوني في حالة كمون . ولعل الفارق الوحيد بين المعبد / القلعة والدولة / القلعة ، أن سكان أوكرانيا تخلصوا في نهاية الأمر من الجيب الاستيطاني اليهودي ، على حين لا تزال المقاومة الفلسطينية ضد الجيب الصهيوني مستمرة .

وإذا كان من الصعب قبول نموذج التاريخ اليهودي، نظراً لضعفه التفسيري وقصوره عن الإحاطة بكل جوانب الواقع ، فإنه يصبح من الصعب بالتالي قبول نماذج ومفاهيم (صهيونية) شائعة أخرى مثل الهوية اليهودية، والشخصية اليهودية، لا تقل عنه في ضعفها التفسيري . والحديث في إطار مثل هذه المفاهيم هو حديث صهيوني / عنصري (معاد لليهود) في نفس الوقت ، إذ إنه يسقط عنصر الزمان والتاريخ ، ومن ثم ينزع عن اليهود إنسانيتهم ويحولهم إلى عباقرة فريدة أو شياطين رجيمة . وقد قمنا بتفكيك هذه المفاهيم ، وبيننا من خلال كثير من المؤشرات والإحصاءات التي تخرص المراجع الصهيونية على إخفائها أو تهميشها أو تفسيرها داخل النموذج الصهيوني ، أن اليهود في أنحاء العالم ليسوا كتلة متماسكة ، وأنهم في حالة صراع ، وأن لهم مصالح متضاربة ، وأنهم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التي يعيشون في كنفها ، يتفاعلون معها تأثيراً وتأثراً ، شأنهم في هذا شأن أعضاء الأغلبية والأقليات . فمجتمع الأغلبية يقوم بتشكيل رؤيتهم وتحديد سلوكهم ، بل وصياغة لغتهم وفنونهم وراثتهم نفسه . هذه هي مرحلة التفكير ، ثم انتقلنا بعدها إلى مرحلة التأسيس وطرحنا نموذج «الجماعات اليهودية» بكل خصوصياتها وتوجهاتها ، بدلاً من مصطلح «اليهود» المطلق العام .

انطلاقاً من هذا النموذج التفسيري الجديد يكمن القول بأن الحديث عن «العرقية اليهودية» فيه شطط ، وأن الحديث عن «الجرعة اليهودية» لا يقل عنه شططاً . فكلتا المفهومين يكتفي بالنظر لليهود من الداخل ، ويمرهم بحسبانهم كلاً منعزلاً عن محيطه الحضاري ، ويرى أن «يهودية» عضو الجماعة اليهودية هي المسئولة عن سلوكه ، عبقرياً كان أم إجريماً . وهنا يحق لنا أن نسأل إن كانت يهودية اليهودي هي المسئولة عن «عبقريته» ، فلم لم يظهر كافكا أو أينشتاين بين يهود الفلاشاه ؟ وإذا كانت يهودية اليهودي مسئولة عن «إجرامه» فلم لم يظهر تنظيم صافيا يهودي في اليمن (كما حدث بين يهود الولايات المتحدة في الثلاثينيات ؟) إن دراسة المؤسسات والظواهر اليهودية يجب أن تبدأ بدراسة المجتمع الذي يعيش أعضاء الجماعات

اليهودية بين ظهرانيه (بدلاً من النظر لهم من الداخل وكأنهم كيان سياسي وحضاري مستقل) . إن فعل الباحث ذلك فإنه سيكتشف في أغلب الأحيان أن كثيراً من الظواهر والمؤسسات "اليهودية" (والتي كان يظن أنها "يهودية خالصة") إن هي إلا صدى للظواهر السائدة في مجتمع الأغلبية وإعادة إنتاج لمؤسساته . فعبرية أينشتاين ليست نتاج يهوديته ، وإنما هي نتاج التراكم المعرفي والتقدم العلمي في العالم الغربي الذي ينتمي إليه هذا العالم الرياضي ، تماماً كما أن تنظيم المافيا اليهودي ليس نتاج الانتماء اليهودي ، وإنما هو صدى لظاهرة الجريمة المنظمة التي يعرفها المجتمع الأمريكي .

"اكتشاف" اليهودية من جديد

ومن "اكتشافاتي" الأخرى في الموسوعة (نتيجة لصياغة نماذج تحليلية جديدة) أن اليهودية منذ بداياتها تحوي داخلها تناقضات عميقة بخصوص بعض القضايا الجوهرية . فرؤية الإله في العهد القديم تختلف من جزء إلى جزء (حسب مصدرها) ومن سفر إلى سفر . وأسفار موسى الخمس التي تُعدُّ أهم كتب التوراة لا توجد فيها أي إشارات للبعث أو اليوم الآخر ، بينما نجد أن هناك إشارات محددة لهذه العقائد في الأسفار الأخرى . وقد تعمقت هذه الاختلافات والتناقضات مع اختفاء المركز الديني أو المدني لليهودية . وبما أنه لم يتم تحديد أصول الدين اليهودي بدقة منذ البداية ، فإننا نجد أن كل جماعة يهودية قد تطورت على نحو مستقل عن بقية الجماعات اليهودية ، سواء من الناحية الثقافية أم الناحية الدينية ، وأصبح لكل جماعة آراؤها ، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل عن شرعية ما يُسمَّى بالتيار الأساسي في اليهودية ، وأصبحت الهرطقة أحياناً هي التفسير المعياري . ولذا عندما تم تعريف أصول الدين اليهودي في مرحلة متأخرة (على يد موسى بن ميمون تحت تأثير الحضارة الإسلامية) كان أمراً عديم الجدوى لأن اللامعيارية كانت قد أصبحت جزءاً أساسياً من اليهودية .

لكل هذا نجد أن ثمة صراع عميق يدور بين رؤيتين مختلفتين : الرؤية التوحيدية والرؤية الحلولية ، وقد تصاعد هذا الصراع وصُلِّي بالتدرج لصالح الحلولية . ولذا بُنيت في الموسوعة دور ما يسمَّى بالشرعية الشفوية (تفسيرات الأحكامات والتلمود) وكيف حلت محل الشريعة المكتوبة ، وأشارت إلى الدور المتزايد الذي لعبته القبالة اللوربانية (أي الصوفية اليهودية الحلولية على طريقة إسحق لوريا) في تفويض دعائم التلمود حتى حلت كتب القبالة محلّه (بما أعطى مركزية لنموذج الحلولية الذي كنت قد طبقته على الفكر الصهيوني في كتابي نهاية التاريخ) . كما بُنيت التمرعات الكثيرة في اليهودية عبر التاريخ والتي تجعل من الصعب على الباحث أن يتحدث عن (يهودية معيارية) . فميزت بين العبادة القرآنية (اليسرائيلية) القديمة التي تدور حول الهيكل وطبقة الكهنة ، واليهودية الحاخامية التي نشأت بعد سقوط الهيكل ، ويهودية

عصر ما بعد الاستنارة (القرن الثامن عشر) حين حاول البعض إصلاح اليهودية فقاموا بعلمنتها (واستيلاء الصهيونية على اليهودية جزء من هذه العملية) . ثم أخيراً أدى كل هذا إلى ظهور اليهودية الإلحادية ويهودية عصر ما بعد الحداثة ولاهوت موت الإله ، والانتصار النهائي للحلولية والرثنية والحراس الخمس .

وذلك كله سمح بظهور ما يمكن تسميته «الخاصية الجيولوجية التراكمية» لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توحى الدقة) ، وهي أن هذه العقائد والهويات والطقوس والأعياد تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكون من طبقات مختلفة ، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة ، ولكنها غير ملتزمة أو متفاعلة ، كما أنها لا تحصع لأي معيارية مركزية . ومع هذا ، فإن هذه العقائد والمذاهب كافة سُميت «يهودية» ، وسُمي أتباعها «يهوداً» ، (بذكر أحد النقاد الأدبيين الأمريكيين اليهود أن لا معيارية اليهودية تفسر وجود عدد كبير من المفكرين اليهود ممن طوروا الفكر التفكيكي وما بعد الحداثي) .

كل هذا يعني أنني أسقطت النموذج التحليلي العضوي ، الذي يمد العقيدة اليهودية كلاً عضوياً متسقاً مع نفسه ، وأن اليهود يشكلون كتلة بشرية عضوية متجانسة (شعب عضوي) وأحللت محلها نموذجاً جيولوجياً تراكمياً . وقد استخدمت هذا النموذج في تحليل كل من اليهود واليهودية في الوقت نفسه . فتم تقسيم يهود العالم من الناحية الدينية في الوقت الحاضر إلى قسمين أساسيين : يهود إثنيون ، وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الديني ، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن في إتيثتهم ، أي في أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافي . ويهود متدينون ، وهؤلاء يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية ، وهي صيغ عديدة غير متجانسة (يهودية إصلاحية - يهودية محافظة - يهودية تجديدية - يهودية أرثوذكسية) .

والخلافات بين هذه المذاهب من العمق بحيث أن أحد المحاضرات الأرثوذكس قد صرح عن حق بأن هناك يهوديتين ، وأن يهودية الإصلاحيين والمحافظين لا علاقة لها باليهودية الأرثوذكسية . وبالفعل فلتسجيل حاضراً أرثوذكسياً يعرف أن الصورة تُحرم الشذوذ الجنسي ثم يسمع أن اليهودية الإصلاحية لا تبجحه وحسب ، بل وتقبل تعدد زيجات يهودية شرعية بين أفراد من نفس الجنس ، وأنه تم عقد زواج بين رجلين يهوديين أمام حائط المبكى .

وحالة عدم التجانس هذه كان من الممكن تجاهلها قبل تأسيس الدولة الصهيونية ، لكن بعد عام ١٩٤٨ ، وبعد تجميع أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة ، من ذوي الانتماءات والإتنية المختلفة ، حدثت مواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات . ومن ثم تفجرت أسئلة عديدة ، لم تُفجر من قبل ، وهي أسئلة لا تزال تبحث عن أسئلة : من هو اليهودي؟ ما هي اليهودية؟ ما هوية الدولة التي تسمى نفسها «يهودية»؟ هل هي دينية أم علمانية؟ وإن كانت دينية ، هل هي إصلاحية ، أم محافظة أم تجديدية أم أرثوذكسية؟

وقد طبقت نموذج الحلولية (وحدة الوجود المادية) والعلمانية الشاملة على الصهيونية وإسرائيل . فبينت أن الصهيونية تدور حول ثلاث حلولي يتكون من الأرض (اليهودية) والشعب (اليهودي) أما العنصر الثالث فأشرت إليه بأنه المبدأ الواحد ، قد يسمى «الإله» (اليهودي) أو «روح الشعب» أو «العرق اليهودي» أو «التوراة كتعبير عن روح الشعب» ، وهو عنصر ، رغم إطلاقه ، غير مفارق للأرض والشعب ، بل متحد بهما عضوياً . والحلولية اليهودية هي الإطار الذي يتحرك فيه الصهاينة العلمانيون والدينيون والأرثوذكس . فقد نجم عن حلول الإله في الشعب والأرض أن أصبح الشعب مقدساً وأصبحت الأرض هي الأخرى مقدسة ، يختلف الفريقان العلماني والديني في تسمية مصدر القداسة ولكنهما لا يختلفان البتة في أن القداسة هناك ، تسري في الشعب والأرض . وتسمية مصدر القداسة في المنظومات الحلولية ليست أمراً مهماً إذ إن الحلول يجعل المادة المقدسة أكثر أهمية من مصدر القداسة ، ويمكن للعلمانيين والدينيين أن يقولوا "أرض إسرائيل لشعب إسرائيل حسب تورا إسرائيل" ، والتوراة هنا كتاب مقدس بالنسبة للمتعدين ، وهي كتاب فلكلور (مقدس أيضاً) يعبر عن روح الشعب وإرادته .

ويتحرك الحاخام كوك (الأب الروحي والفكري لجماعة جوش إيجونيم) ، في الإطار نفسه ، فيقول إن روح الإله وروح إسرائيل شيء واحد ، أي أن الشعب في قداسة الرب ، وهذا لا يختلف كثيراً عن قول فلاديمير جابوتنسكي (العلماني الملحد) إن الشعب اليهودي هو ربه ، أو قول موشيه ديان إن الأرض هي ربه . وصياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكي وديان الإحادية متشابهتان تماماً في بنيتهما ، فكلاهما تنتهي إلى شعب مقدس له حقوق مطلقة في أرضه المقدسة ، فهو شعب حل الإله فيه وفي أرضه ، حسب صياغة كوك ، وهو شعب / إله وأرض / إله في صياغة الملحدين ، والفارق بين الصياغتين أمر شكلي .

وتعجلى الحلولية في موقف كل من الدينيين والملحدين من الجيش الإسرائيلي . فقد ذهب الحاخام تسلي كوك ، حفيد الحاخام إسحق كوك ، إلى أن الجيش الإسرائيلي هو القداسة الكاملة ، وهو الذي يمثل حكم شعب الإله فوق أرضه . ولا يختلف الملحدون الحلوليون عنه في موقفهم من الجيش ، فهم ، عند احتفالهم بعيد الاستقلال على سبيل المثال ، يغيرون منطوق المزمور ١١٨ / ٢٤ الذي يقول : "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب" بحيث يصبح : "هذا هو اليوم الذي صنعه تسهال" ، أي الجيش الإسرائيلي (مصادر التماسك والوحدة العضوية) . وقد أسس الصهاينة دولتهم الصهيونية ، بحيث تكون الإطار الشعائري (الحلولي الروحي أو المادي) الذي يعزل اليهودي عن العالم ، فهي الدولة الخيتو التي تحيط المواطن برموز وشعارات يهودية ، وهي الأداة التي يتحقق من خلالها الثلاث الحلولي المقدس .

"اكتشاف" الصهيونية وإسرائيل من جديد

اتبعت في دراسة الصهيونية وإسرائيل نفس النهج الذي اتبعته في دراسة اليهود واليهودية . البعد عن الموضوعية التلقية واستخدام النماذج كأداة تحليلية ، والنظر للصهيونية من الداخل والخارج .

وموقفي من الصهيونية لا يستند إلى قوالب اختزالية جاهزة (تكفي صاحبها مؤنة التفكير) وإنما يستند إلى تحليل مفصل لبنية الكيان الصهيوني تتجاوز النوايا الحسنة والسيئة ، وأنا لا أعنى كثيراً بالسياسات المتغيرة (هدنة - اتفاقيات سلام - تصريحات كبار المسؤولين) ، ولا أتعامل مع المتغيرات إلا في ضوء الثوابت . هذا التحليل يستند بدوره إلى تعريف مركب متعدد الأبعاد يأخذ العام والخاص والخارج والداخل في الحسبان .

فالصهيونية - في تصوري - ليست جزءاً من العقيدة اليهودية ، وإنما هي تحملُ إمبريالي للعلمانية الشاملة . فالصهاينة ينزعون القداسة عن كل شيء ويلغون تاريخ فلسطين والفلسطينيين ويهود العالم ويوظفونهم (بحسولونهم) . ولكن الصهيونية ليست مجرد تبدل عام للإمبريالية الغربية وإنما هي حركة استيطانية إحلالية تمت في كنف الإمبريالية الغربية وتحت مظلتها ، وبدون هذه الإمبريالية ما أمكن وضع الصهيونية موضع التنفيذ . وقد قامت هذه الإمبريالية بنقل كتلة بشرية من أوربا لتوطنها في فلسطين لتحل محل سكانها الأصليين (كما فعلت ببعض الكتل البشرية الأخرى التي تم نقلها إلى جنوب إفريقيا والجزائر والأمريكتين من قبل) . وتذهب الموسوعة إلى أنه لا يوجد تاريخ مستقل للحركة الصهيونية عن الفكر الغربي أو الإمبريالية الغربية ، وأنه يمكن فهم الفكر الصهيوني بشكل أعمق إن رأينا جزءاً من الفكر الغربي (خصوصاً المادي) .

والصهيونية بطبيعتها تكوينها ذات ميل توسعية (وطن اليهود القومي - إرث إسرائيل - من النيل إلى الفرات) . وهي بطبيعتها الحال حركة عنصرية تعطي كل الحقوق لأعضاء الكتلة البشرية الوافدة وتتركها على السكان الأصليين . وهي في المقام الأول حركة إبادة تدعي أن أرض فلسطين أرض بلا شعب (وهي في هذا لا تختلف عن تجارب الاستيطان الإحلالي الأخرى) . والإطار المعرفي للصهيونية هو الإطار المعرفي الإمبريالي الغربي : الداروينية وعبء الرجل الأبيض ، وتحويل العالم كله بمن فيه من بشر إلى مادة استعمالية .

إلى جانب هذه الخصوصية غير اليهودية (إن صح التعبير) توجد خصوصية يهودية (فهي نتاج طريقة إدراك الصهاينة لأنفسهم ونتاج الدليجات اليهودية التي يسقطونها على فعلهم الاستيطاني الإحلالي) . ويمكن القول بأن الصهيونية نجحت في تطوير خطاب مراوغ ، بحيث أرسلت الإشارات إلى يهود العالم تخبرهم بأنها حركة لتهجير لا كل اليهود وإنما بعضهم وحسب (على أن يبقى الآخرون ، الأثرياء والمندمجون ، في بلادهم) . ويلاحظ أن الكتلة

البشرية اليهودية التي نقلت إلى فلسطين ليست من بلد واحد وإنما من عدة بلاد ، وهي في هذا تختلف عن الكتل البشرية التي نقلها الاستعمار إلى الجزائر على سبيل المثال . ولذا نجد أن علاقة الإمبريالية بهذه الكتلة ليست علاقة عضوية ، وإنما شبه عضوية (بل هي علاقة وطيفية تعاقدية كما يست من قبل) . وتكمن واحدة من أهم ملامح خصوصية الصهيونية في ديباجاتها "اليهودية" . فنقل الكتلة البشرية يصبح "عودة اليهود إلى أرض أجدادهم" ، فلهم حقوق مطلقة فيها ، وهم مرتبطون بها برباط عضوي (مقدس) لا تنفصم عراه رغم تغير الزمان والمكان . أي أن الحلولة اليهودية التي تخلع القداسة على اليهود وعلى أرضهم هي الإطار العام الذي يتحرك من خلاله كل الصهاينة ، وما يتغير هو الديباجات . فالعودة هي عودة لإقامة حكومة العمال والفلاحين (بالنسبة للاشتراكيين الثوريين) أو لإقامة دولة ديموقراطية (بالنسبة للديموقراطيين) أو تحقيقاً للوعد الإلهي (بالنسبة للمعتدين) . الديباجات وحدها تتغير ، أما فعل النقل الاستعماري الاستيطاني الإحلالي ، وهو الفعل المشترك بين الصهيونية وحركات الاستيطان والإحلال الأخرى ، فهذا ثابت لا يتغير ، كما أن الإطار الحلولي للديباجات هو الآخر ثابت لا يتغير . هذا هو التعريف المركب الذي يفسر معظم جوانب الظاهرة والذي يجعل التعامل مع واقع الصهيونية ممكناً .

وقد قدمت الموسوعة نظاماً تصنيفياً جديداً للمذاهب الصهيونية المختلفة ، وحاولت أن تبين الصجاس خلف التنوع . كما حاولت التفريق بين ما سمجته «الصهيونية الوطنية» (في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية) في مقابل الصهيونية الاستيطانية (في أوروبا الشرقية) . فالصهيونية الوطنية تعطي الحركة الصهيونية تبرعات ودعمًا سياسيًا ولكنها لا ترسل قط بمستوطنين (لأن يهود الغرب مندمجون في مجتمعاتهم مستريحون تمامًا فيها) ، أما الثانية فهي المصدر الأساسي والوحيد للمادة البشرية الاستيطانية . ولا شك في أن هذا التمييز ، وغيره ، يحسن من قدرتنا على التنبؤ بخصوص الاستيطان في الضفة الغربية ومن ثم يحسن أداءنا النضالي ، إذ يبدو أن معين المادة البشرية الاستيطانية (في أوروبا الشرقية) قد نضب ، ولم يعد هناك المزيد . (لأول مرة في التاريخ يفوق عدد يهود عربي أوروبا يهود شرقها) . فإذا أضفنا إلى هذا الكتلة البشرية اليهودية الكبيرة المستقرة في الولايات المتحدة ، وأن يهود شرقي أوروبا أصبحوا جماعة مسنة ، إذا وضعنا هذه الحقائق في الحسبان أمكننا قراءة الواقع بدقة ، بحيث لا نصبح دعوة شارون للمستوطنين إلى الاستيلاء على أعالي التلال مجرد جزء من المؤامرة اليهودية ، بل تكون تعبيراً عن إدراكه الكامن (غير المعلن) أنه لا يوجد عدد كاف من المستوطنين يمكنهم تعمير الأرض الفلسطينية بعد تفريفها من سكانها . فعبارة شارون قد تكون تعبيراً عن الصلف الصهيوني ، ولكنها في الوقت ذاته تعبير عن الأزمة الصهيونية السكانية الاستيطانية .

وقد بنينا العلاقة المتوترة بين الدولة الصهيونية ويهود العالم ، فالدولة الصهيونية تود

توظيفهم لحسابها ، وهم قد يخشونها ولكنهم يودون أن تظل حياتهم في أوطانهم حياة كاملة غير منقوصة ، وبينا أنه إذا كان الرفض اليهودي للصهيونية ضعيفاً للغاية ويكاد يكون منعداً أحياناً ، فإن هناك شكلاً آخر ، أقل وضوحاً ولكنه أكثر شيوعاً ، سميناها « التملص اليهودي من الصهيونية » ، وهو أن يعلن اليهودي ولائه الكامل للصهيونية ودولتها ، ولكن سلوكه يبين أنه أبعد ما يكون عن مثل هذا الولاء .

ثم تناولت الموسوعة إحدى الأفكار / الأساطير الأساسية المسيطرة على الخطاب السياسي ، أسطورة أن الصهاينة ، من خلال اللوبي الصهيوني ، يسيطرون على صنع القرار في الولايات المتحدة ، وأن الولايات المتحدة ، بالتالي ، ضحية مسكينة يتلاعب بها الصهاينة اليهود . فأبين في الموسوعة (وكتاب اليد الخفية وغيره من دراسات) أن الكثيرين ينسبون أن الدولة الصهيونية استثمار إستراتيجي مهم بالنسبة للولايات المتحدة ، وهي قوة إمبريالية عظمى ، لها مصالحها التي تحاول تحقيقها وحمايتها بأي ثمن ، وأنها لا تدخر وسعاً في ضرب كل من يقف في طريقها . وتنبع إستراتيجية الولايات المتحدة من الإستراتيجية الغربية العامة التي تعددت منذ منتصف القرن التاسع عشر (قبل أن يصبح أعضاء الجماعات اليهودية لاعبين أساسيين في كواليس السياسة الغربية) . وقد قررت هذه الإستراتيجية المواجهة المستمرة مع العالم الإسلامي بدلاً من التصالح أو التعاون معه (وإلا لما قضت أوروبا على محمد علي ، ولما تم وضع اتفاقية مايبس بـيكو لتقسيم العالم العربي) . وهو فراو قد يكون لا عقلانياً من وجهة نظرنا ، ولكن من قال إن القرارات الإستراتيجية العليا "عقلانية" . فعلى حسب علمنا ، تستند الإستراتيجية إلى مقولات قبلية (مرتبطة برؤية الذات والآخر والكون) لا يتم التساؤل بخصوصها (ولا يمكن تغييرها مثل الأسطورة النازية والأسطورة الصهيونية إلا بجعل صاحبها يدفع ثمناً فادحاً للأسطورة) . ومن ثم فإنني أرى قوة اللوبي الصهيوني نابعة من تبعيته للإستراتيجية الغربية وليس العكس .

إن المدافعين عن نظرية اللوبي يهملون العلاقة الإستراتيجية القوية بين الغرب وإسرائيل . ولا يدركون أن نجاح هرتزل لا يكمن في أنه جند اليهود (فمعظم أعضاء الجماعات اليهودية كانوا ضده) ، وإنما لأنه اكتشف الإمبريالية كآلية لتنفيذ المشروع الصهيوني (ومن هنا توجهه لسير سيسل روديس ولغيره من الاستعماريين يطلب منهم النصح . ولهذا طلب من جوزيف تشامبرلين ، وزير المستعمرات البريطاني ، قطعة أرض لا يقطنها الإنسان الأبيض [لا بهم بطبيعة الحال إن كانت مأهولة بالسكان الأصليين] لتكون مكاناً لإنشاء الدولة الصهيونية !) .

وقد طرحت بعض الأسئلة لتدعيم وجهة نظري : لم صدر وعد بلفور من إنجلترا وليس من ألمانيا ، رغم قوة الجماعة اليهودية في ألمانيا (وضعتها في إنجلترا) ؟ هل صدرت قرارات أمريكية لدعم إسرائيل بدون ضغط من اللوبي الصهيوني ، أو أن القرارات لا تصدر إلا من حلال الضغط الذي يمارسه هذا اللوبي ؟ هل حينما تريد الأصوات اليهودية التي تُعطى لرئيس أمريكي ما ،

تزداد درجة دعمه لإسرائيل ، أو أن متحني التأييد الأمريكي لإسرائيل آخذ في التصاعد بعض النظر عن حجم الأصوات ؟ وهل حينما يزيد عدد اليهود الموجودين في قطاع الإعلام تزيد درجة تحيزه لإسرائيل . أو أن تحيزه لا علاقة له بعدد اليهود ، ولذا يتزايد تحيز الإعلام الأمريكي لإسرائيل رغم تزايد العناصر غير اليهودية فيه ؟ هل أيدت الولايات المتحدة ديكتاتوراً إبدياً مثل بينوشيه بسبب اللوبي الشيلي أو بسبب موقفها الإستراتيجي الثابت ؟

وقد سألت مرة السناتور جيمس أبو رزق السؤال التالي : لو اختفى اليهود وإسرائيل من على وجه الأرض ، هل يغير هذا من إستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ؟ فقال : " لا يمكنني تخيل العالم دون اليهود ودون إسرائيل ! " وهي إجابة مراوغة لا تجيب عن السؤال ، وإنما تنهرب منه إذ أنني لا أعتقد أن سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط ، كانت ستغير بشكل جوهري ، لو اختفى اللوبي الصهيوني (والحركة والدولة الصهيونيتان) . أما المحدث الرسمي التركي فكان واضحاً ، إذ إنه سئل - في أثناء حملة دو كاكيس الانتخابية - عن موقف تركيا لو تم انتخاب رئيس أمريكي من أصل يوناني ، فقال ، دون أي تردد من جانبه ، إن مصالح أمريكا الإستراتيجية ثابتة لا تؤثر فيها الخلفية الإثنية للرئيس الأمريكي (في الوقت الذي كان فيه بعض العرب يرتعدون خوفاً من أن كيتي دو كاكيس - زوجة المرشح الديمقراطي - " يهودية والسلام ") .

ومع هذا يمكن القول بأن قرار الولايات المتحدة بدعم إسرائيل يستند إلى حسابات دقيقة داخل إطار خيارها الإستراتيجي المبدئي . فالولايات المتحدة تعطي الدولة الصهيونية ما يقرب من عشرة بلايين دولار سنوياً ، لحماية المصالح الغربية الأمريكية والأمن الأمريكي . ولنتخيل الشرق الأوسط دون الدولة الصهيونية ، ولنتخيل الولايات المتحدة وقد اضطرت لأن تقوم بهذه المهمة بنفسها دون اللجوء لوسط . لو حدث هذا ، لوجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة إلى أن تبقي خمس حاملات طائرات في حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل دائم ، وهي تكلف حوالي خمسين بليون دولار . إن الدولة الصهيونية صفقة إستراتيجية رابحة بالنسبة للولايات المتحدة ، قاعدة عسكرية منخفضة التكاليف ، الأمر الذي يحرص المتحدثون الإسرائيليون على إظهاره ، ولا يملكون من تكراره للحصول على المزيد من الدعم .

هذا لا يعني بطبيعة الحال إنكار دور اللوبي الصهيوني ، فهو لوبي منظم وقوي ، والنظام السياسي في الولايات المتحدة يسمى ديموقراطية جماعات الضغط ، وهو يمارس دوراً كبيراً في توجيه سياسات الولايات المتحدة ، ولكنه يظل يتحرك في إطار الإستراتيجية العامة المسبقة ، ويستمد كما أسلفت - نجاحه من تحركه داخل هذه الإستراتيجية لا ضدها . ومن ثم لا يمكن الحديث عنه بحسبانه السبب ، وإنما هو عنصر مساعد داخل إطار قد تتحدد من قبل .

معاداة اليهود واليهودية

ابتعدت الموسوعة تماماً عن عمليات القذح والتشهير ، بل إنها ابتعدت أيضاً عن محاولات التبعث "والدفاع عن الحق العربي" ... إلخ . وبدلاً من ذلك ، حاولت تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية من خلال عمليتي تفكيك وتركيب وتطوير نماذج تفسيرية قادرة على الإحاطة بالظواهر اليهودية والصهيونية في عموميتها وخصوصيتها . وبذلك حاولت الموسوعة ألا تسقط في التعميمات الاختزالية السهلة أو في القوالب الإدراكية واللفظية الشائعة التي تهيمن على كثير من الدراسات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية .

ومعظم هذه القوالب - في تصوري - تخيبي داخلها رؤية صهيونية ، هي ذاتها رؤية معاداة لليهودية . فالنموذج الكامن وراء الكتابات المعادية لليهود لا يختلف في أساسياته مطلقاً عن النموذج الصهيوني . خذ على سبيل المثال مفهوم «الوحدة اليهودية» ، وهو مفهوم يفترض أن اليهود (أي أعضاء الجماعات اليهودية) يكونون كلاً واحداً متجانساً وأنهم أبناء وجدوا ، في أي مكان وزمان ، يشكلون وحدة مستقلة عما حولهم ، ويتمتعون باستمرارية في حياتهم ، تسري عليهم قوانين لا تسري على مجتمع الأغلبية ، ومن ثم فهم لهم خصوصيتهم اليهودية (التي تبدي في طعامهم وشرابهم وزيجهم ولغتهم ومؤسساتهم السياسية ... إلخ) . كما يفترض مفهوم الوحدة اليهودية أن ثمة جوهرًا يهوديًا واحدًا ثابتاً لا يتحول ، وإن تحول فهو يتحول حسب قوانينه الخاصة الكامنة فيه . والنموذج الكامن وراء كل من الفكر الصهيوني والمعادي لليهود ، يفترض أن الدولة الصهيونية دولة يهودية نجت من التوراة والتلمود ، ومن هنا تُحجب مجموعة كبيرة من التفاصيل والمعلومات والحقائق .

ولكن من المعروف أن مؤسسي الحركة الصهيونية كانوا ملاحدة ، يدورون في إطار الداروينية والنيتشوية ، أي الفلسفات الحاكمة في أوروبا آنذاك . وهرتزل ، على سبيل المثال ، كان لا يعرف الشعائر اليهودية ، والحاخام الذي جاء لعقد زواجه غافردون أن يكمل مهمته لأنه وجد أنه لا يمكن عدُّ هرتزل يهوديًا . أما صديقه ماكس نورداو ، فكان يرى أنه سيأتي يوم سيحل فيه كتاب هرتزل الدولة اليهودية محل التوراة . وكان السعوطيون الصهاينة في الفلاشبات يقومون بمظاهرة في يوم كيبور (أكثر الأيام قداسة في التقويم اليهودي) ويسيرون أمام حائط المبكى (أكثر الأماكن قداسة) ليأكلوا ساندويتشاً من لحم الخنزير ، إعلاناً عن نجاحهم في التخلص من موروثهم اليهودي . بل إن «الدولة اليهودية» ذاتها كانت ستسمى «الدولة العبرية» حتى يتم الابتعاد عن كلمة «يهودية» الكريهة (في تصور مؤسسي هذه الدولة) ، وبعد قيام الدولة الصهيونية نجد أن غالبية السكان من اللادينيين ، الشرسين في موقعهم العدائي للدين والأخلاق .

وثمة صراع شرس بين الأغلبية العلمانية في إسرائيل والأقلية التي لا تزال تستخدم الخطاب

الديني . أما بالنسبة لليهود العالم (وغالبيتهم توجد في العالم الغربي) فقد اكتسحتهم العلمانية (وهو أمر متوقع) وتزايد انصرافهم عن العقيدة اليهودية ، بل وبدأت هويتهم (أو بقاياها) تختفي من خلال تصاعد معدلات الاندماج والزواج المختلط . وقد شكّا أحد المحاضرات في أمريكا اللاتينية من أن اليهود منصرفون عن التردد على دور العبادة اليهودية ، وأن الفتيات اليهوديات يوم السبت لا يقمن شعائره ، بل يذهبن بدلاً من ذلك إلى الألبلاج مع أصدقائهن من الأغيار . مرتديات مايوهات تكشف من جسدن أكثر مما تغطي (سماها الحاخام مازحاً : مايوهات ما بعد البيكني post-bikini [على وزن ما بعد الحداثة] نظراً لأنها أصغر من أي مايوهات شاهدها في حياتها) .

أما نصريحات بن جوريون (ورابين وغيرهما) التي تسمح بالعقيدة اليهودية ، فيجب أن ندرك أن بن جوريون يرى أن التوراة ليست أحد كتب اليهود المقدسة بالمعنى الديني ، وإنما هي كتاب فلكلور الشعب اليهودي (شأنها شأن السيرة الهلالية وألف ليلة وليلة بالنسبة للعرب) ، وبالتالي فهي ليست ملزمة أخلاقياً ، فهي بمنزلة رباط إثني يربط أعضاء الشعب (الفولك) بعضهم بعض ، وهي تعبير عن «روح الشعب» . والتوراة مقدسة في هذا السياق بمقدار ما تعبر عن قداسة الشعب اليهودي ، وليس عن أي قداسة متجاوزة لعالم المادة بأي شكل . ومن هذا المنظور ، صرح بن جوريون بأن خير مفسر للتوراة هو الجيش الإسرائيلي ! فالمسألة علمانية داروينية محضة ، مسألة قوة عسكرية شرسة تساند ادعاءات توراتية فلكلورية لا علاقة لها بخالق أو عقيدة .

يتجاهل المعادون لليهود واليهودية كل هذه الحقائق ، ويكررون أنه مهما قال اليهودي عن نفسه من أنه انسلخ عن اليهودية ، فهو يظل في أعماق أعماقه يهودياً ، بل صهيونياً ، فمن وُلد يهودياً يظل يهودياً ومن ثم صهيونياً طيلة حياته . -

ويستلزم نموذج العداء لليهود في الرؤية الصهيونية بشكل عملي أعمق حين يخيف الناس من اليهود بشكل عام بحيث يهابون الحرب قبل دخول المعركة ، وكلما زاد الرعب من إسرائيل واليهود ، ازدادت صورة اليهودي سوءاً . ونحن نعرف أسلحة الرعب التي تشيدها الدول الكبرى وهي تعلم مسبقاً أنها لن تستخدمها ، ولكنها مع هذا تستمر في تشيدها لتبث الرعب في قلب عدوها دون أن تدخل في حرب ساخنة . والمعادون لليهود واليهودية ينجزون هذا للصهيانية مجاناً . وكما قال يوثيل ماركوس في جريدة هآرتس (٣١ من ديسمبر عام ١٩٩٣) "إن البروتوكولات [بسبب أثرها على أعداء اليهود] تبدو كأن الذي كتبها لم يكن شخصاً معادياً لليهود ، بل يهودياً [أي صهيونياً] ذكياً يتسم ببعد النظر" .

وفي الأدبيات الصهيونية يوجد إدراك عميق لهذا التلاقي بين الفريقين . فهرتزل يتحدث عن أصدقائنا وأعداء اليهود ، وبلغور أدرك أن تحيزه للمشروع الصهيوني يضرب بجذوره في

عدائه لليهود ورغبته في تخليص أوروبا من اليهود ، حلاً للمسألة اليهودية . وتخليص أوروبا من اليهود ، بحسبانها مقولة صهيونية / معادية لليهود أساسية كانت تتبدى في شخصية مهمة في تاريخ الحركة الصهيونية ، ثم إحقاقها تماماً ، وتندر الإشارة إليها وهو ألفريد نوسيج . ونوسيج هذا شارك في تأسيس المنظمة الصهيونية مع هرتزل وابتعد عنه بالتدريج . وكان فناناً ومتخصصاً في الديموجرافيا اليهودية ، يعرف أعداد أعضاء الجماعات اليهودية وأماكن تركيزهم في أوروبا . وقد امتد به العمر حتى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن ، فتعاون مع الجستابو في وضع مخطط لتخليص أوروبا من اليهود عن طريق إبادةهم . فرؤية نوسيج وموقفه هما لحظة تبلور نمادجية للرؤية العربية الصهيونية . وقد قبض عليه اليهود المحاصرون في جيتر وارسو وحاكموه فحكم عليه بالإعدام ثم نفذ الحكم !

ومقولة تخليص أوروبا من اليهود " تمكنا من ملاحظة أوجه الشبه بين آرثر بلفور وأدولف هتلر ، فكلاهما يود تحقيق هذا الهدف . ولكن على حين حاول بلفور التخليص منهم من خلال إرسالهم إلى مستعمرات الإمبراطورية الإنجليزية ، حاول هتلر التخليص منهم بطريقة غير البلفورية ، بأن أرسلهم إلى معسكرات الاعتقال والغاز . وقد اضطر هتلر للجوء لهذه الطريقة لأن أوروبا كانت قد صادرت كل ممتلكات ألمانيا الاستعمارية وأجهضت مشروعاتها الاستعمارية . وإن كان والحق يقال إن هتلر لم يكن يمانع قط في الطريقة البلفورية ، ولذا تبنى عدة مشروعات صهيونية مثل مشروع موزاسيقي ، ولكن لم يقدر لها النجاح .

إن نموذج معاداة اليهود بسقوطه في التعميم الاختزالي يشكل فشلاً أخلاقياً ، فهو لا يحاول التمييز بين الطيب والخبيث ، فالآخر هو الشر متجسداً ، بغض النظر عن سلوك بعض أفرادهِ . وهذا تزيف للحقيقة وإدعاء بالباطل ، وغرق في العنصرية التي تنمط كل البشر مسبقاً ، وغرق لكل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية .

ولكن الأدهى والأمر ، أن هذا النموذج لا يفيد كثيراً من الناحية العملية . فابتداءً يرى أصحابه أن الصهيونية ، ومن ثم عدائنا لإسرائيل ، مصدره هو نزعة اليهود الشيطانية . واستناداً إلى هذه الرؤية الخفيفة ، قد ينجح نموذج المؤامرة في مراحله الأولى في تخويف الجماهير وتوليد العداء للعدو الصهيوني ، بل وفي تجنيدها ضده . ولكنه بعد قليل سيواجه الحقيقة المرة وهي أن الناس قد يصدقون ما يبشر به هو نفسه ، وهو أن اليهود شياطين ، قوة لا تفهر (مثل جيش الدفاع الإسرائيلي) . وأنهم يحكمون العالم ، وأن أيديهم الخفية موجودة حقاً في كل مكان ، ومن ذا الذي يريد التصدي لقوة هائلة مثل هذه تشبه القضاء والقدر ، وتحكم العالم بأسره وتمتد أيديها الخفية لكل مكان ؟

إن مثل هذه الرؤية تحول اليهود إلى عابرة وشياطين ، أي قوة عجائية . فأما إن كانوا شياطين فنحن لا نملك إلا الاستعاضة بالله أو الفراز أو الاستسلام ، وأما إن كانوا شعباً من

العابرة، يدهم الحقية متحركة في العالم بأسره ، فبطبيعة الحال لا قبل لنا بالحرب ضدهم ، فهذا ، يقيناً ، فوق طاقة البشر ، أليس كذلك ؟ وبذا يكون نموذج العداء لليهود تعبيراً عن فكر السلبية والاستسلام والهزيمة الذي يخرج بعدونا من سياق ما هو إنساني وتاريخي وزمني ، ويجعل منه كائناتاً يضرب بجنونه في أسباب مفارقة للتاريخ والفعل التاريخي ، ويقذف بنا في خندق مظلم . ويحيل لي أن إدمان بعض العرب لهذا النموذج هو محاولة غير واعية منهم لأن يستعيدوا شيئاً من التوازن النفسي أمام عدو استولى على أرضنا ثم ألحق بنا الهزائم ونحن نسب له قوة خارقة ، حتى يتم تسوية الهزيمة ، لأنه لو كان عادياً يمكن إلحاق الهزيمة به ، فيظهر ضعفنا وهواننا أمام أنفسنا .

ويمكن القول بأن جميع من يتحرك في أرض الممارسة الحقيقية (سواء أكان من المفاوضين أم المجاهدين الفلسطينيين) يرفضون نموذج العداء لليهود واليهودية في ممارساتهم ، لأنهم لو نظروا لليهود بحسبانهم شياطين لأصبح التفاوض مستحيلاً (إلا من منظور الاستسلام ، بطبيعة الحال) ولأصبح الجهاد أكثر استحالة . فالمفاوضون والمجاهدون يقومون بأنسة اليهود ، أي تحويلهم إلى بشر لهم خصوصياتهم التاريخية ، وخاضعين لعوامل الزمان والمكان . هذا على عكس بعض أعضاء النخبة الحاكمة العربية الذين يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن "اليهود" قوة عظمى تمسك بمقاييد الأمور ، وأنه لا بد من "التفاهم" معهم ، إذ لا قبل لنا بهم . أخبرني أحد أعضاء النخب الحاكمة العربية متباهياً ، وكان سفيراً لبلده في إحدى العواصم الأوربية المهمة : "حينما عيّنت سفيراً لبلدي قبل لي إن سر النجاح يكمن في ألا أتحدث عن النساء أو عن اليهود ، وقد فعلت ، وأمنت شرهما ! " . وهكذا لجأ صاحبنا من مؤامرين دفعة واحدة . مؤامرة الإناث على الذكور ، واليهود على العالم !

ويتصور البعض أنه "أتسنة اليهود تعني" "تبرئة ساحتهم" والتعاطف معهم (كما يقولون) . وفي هذا خلل ما بعده خلل . أما بخصوص تبرئة ساحتهم ، فهذا يفترض أن الصراع عبارة عن مرافعات ، وأنا نحاكم الصهاينة لا نقاتلهم ، وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة . أما التعاطف مع اليهود فهذا ناجم عن سوء فهم لمصطلح "أتسنة" ، فقد جاء في الذكر الحكيم (ولا تهنوا في ابغواء القوم إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً) (النساء ١٠٤) . ولعل ما قاله مارك توين عن اليهود يلخص موقفي وبدقة بالغة

Jews are members of the human race, worse than that I cannot say of them اليهود بشر ، ولا يمكنني أن أقول ما هو أسوأ من ذلك عنهم" . فالاستعمار ظاهرة إنسانية ، والعنصرية ظاهرة إنسانية ، والاستغلال هو الآخر ظاهرة إنسانية ، والشر ظاهرة إنسانية ، بمعنى أنها كلها ظواهر من صميم وجودنا الإنساني ، ولذا يمكن رصدها وتفسير معظم جوانبها . والتفسير والفهم يختلفان عن التعاطف والتقبل ، وهما ضروريان للتعامل مع الواقع وتغييره ،

أي أن الاجتهاد ضروري للجهاد ، فبدون الاجتهاد يصبح الجهاد انتحاراً لأنه سيعني أننا نقذف بأنفسنا في بران عجائية غامضة دون سابق معرفة .

ويمكن أن نعرف للموسوعة بأنها دراسة حالة محدّدة هي اليهود واليهودية والصهيونية في الحضارة الغربية أساساً ، وهي دراسة تاريخية اجتماعية مقارنة تركز على العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء الجماعات اليهودية (بما في ذلك أعضاء الجماعات اليهودية في المستوطن الصهيوني) من جهة وأعضاء المجتمعات المختلفة من جهة أخرى ، كما تركز على الأبعاد المعرفية لهذه العلاقات . لكن هذه الدراسة ، رغم أنها دراسة حالة ، إلا أنها دراسة لنماذج تحليلية مركبة ذات مقدرة تفسيرية تتجاوز الحالة موضع الدراسة ، فهذه النماذج تترجمه لقصايا عامة مثل : علاقة الأقليات (خاصة أعضاء الجماعات الوظيفية) بالأغلبية ، وعلاقة الأقليات بالدولة القومية المركزية ، وطبيعة الحضارة الغربية الحديثة ، وعلاقة الإنسان بالطبيعة ، وعلاقة الحلولية بالتوحيد ، وعلاقة الفكر بالمادة ، وعلاقة الذات بالموضوع .

وأول هذه النماذج هو نموذج الجماعات الوظيفية ، حيث درسنا من خلاله الجماعات اليهودية في إطار علم اجتماع الأقليات والجماعات التجارية الهامشية والجماعات الإثنية . وهنا يظهر اليهودي باعتباره عضو أقلية أو جماعة وظيفية ، وما يحدث له يحدث لكل أعضاء الأقليات (والجماعات الوظيفية) الأخرى ، أي أن اليهودي يظهر باعتباره الإنسان عضو الأقلية الدينية أو الإثنية أو الوظيفية .

أما النموذج الثاني فهو نموذج العلمانية الشاملة (الإمبريالية) ، وهو نموذج أكثر اتساعاً من نموذج الجماعات الوظيفية وأكثر عمومية إذ لا يضع اليهود في سياق الأقليات وحسب وإنما في سياق التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي ، وهو التشكيل الذي هيمن على العالم بأسره ، وضمنه أعضاء الجماعات اليهودية . وهنا يظهر اليهودي باعتباره الإنسان الغربي الحديث ، وما يحدث له (من اندماج ودمج وتدجين وتوظيف وتسيط وعلمنة وإبادة) هو ما يحدث للملايين من البشر في العصر الحديث . وهو إنسان يعيش في عصر أزمة الحداثة (ما بعد الحداثة) .

أما النموذج الثالث فهو نموذج الحلولية الكمونية الواحدة مقابل نموذج التوحيد والتجاوز ، وبما أن الصراع بين النموذجين يشكل التوتر الأساسي في اليهودية (وفي كل الأديان) . فهو تعبير عن تناقض إنساني أساسي يسم إنسانيتنا المشتركة ، يأخذ شكل النزعة الجينية (والرعية في فقدان الهوية والالتحام بالكل والتخلي عن الوعي وعن المسؤولية الخلقية) في مقابل النزعة الإنسانية والريانية (وهي أن يؤكد الإنسان هويته الإنسانية المستقلة عن الطبيعة ويتحمل المسؤولية الخلقية عن هذا الوضع) .

والجماعات اليهودية تشكل جماعات وظيفية مثل كل الجماعات الوظيفية الأخرى ، لكن وحدها داخل الحضارة الغربية أعطاها تفرّداً معيناً . وهي تتفاعل مع المجتمعات العلمانية ومع

التشكيل الإمبريالي تفاعل الجماعات البشرية الأخرى ، ولكنها نظراً لوضعها الخاص فإن تفاعلها مع العلنانية يأخذ شكلاً أكثر حدة . وهي جماعات تتنازعها النزعات الجنينية والربانية شأنها شأن كل البشر في كل زمان ومكان ، لكن اليهودي هو الإنسان في حالة ضيق متبلورة . وبسبب حالة الضيق هذه ، تظهر كثير من أبعاد الظاهرة الإنسانية بشكل نمذجي متبلور من خلاله . وخصوصية الجماعات اليهودية ، أو خصوصياتهم التي تتنوع في كل زمان ومكان ، هي خصوصيات لا تختلف عن خصوصيات الآخرين ، وإن كان هناك شيء فريد بالفعل وربما يكون متمثلاً في نوعية العناصر الإنسانية العامة التي تدخل في تشكيل الموضوع اليهودي وطريقة ترابطها . وهي عناصر تدخل في تشكيل كثير من الظواهر الإنسانية الأخرى وتترابط بطرق فريدة مختلفة ١

ويمكن القول بأن الموسوعة ككل هي موسوعة كتبها مؤلف يشعر أن الحداثة (في إطار العقلانية واللاعقلانية المادية والعلمانية الشاملة) قد أدخلت الجنس البشري بأسره في طريق مسدود . وتطرح الموسوعة أسئلة معرفية (كلية ونهائية) - ماذا يحدث للإنسان في عالم بدون إله ؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم نسبي لا توجد فيه ثوابت ولا مطلقات ولا قيم عالمية ؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم توجد فيه حقائق بلا حقيقة ولا حق ؟ وما هو مصير الإنسان في عالم انفصل فيه العلم عن القيمة وعن الغائية الإنسانية ؟ واليهودي الذي تم اقتلعه عن وطنه وتهجيرته إلى إسرائيل تحت مظلة الإمبريالية الغربية بحسبانه مادة استعمالية ، وتم تحويله إلى شخصية داروينية شرسة حتى يتسنى توظيفه في خدمتها ، والذي تمت إبادته في ألمانيا النازية بطريقة منهجية ، وتم دمجه في الحضارة الاستهلاكية حتى لم يبق من ماضيه وهويته سوى القشور ، وتم قمعه وترشيده من الداخل والخارج : أليس هذا اليهودي مثلاً صارخاً لما يحدث للإنسان في عصر الحداثة والعقلانية واللاعقلانية المادية ؟ ومن هنا ، فإن الموسوعة تطالب بالبحث عن حداثة جديدة بدلاً من الحداثة الغربية (المرتبطة بالإمبريالية والاستهلاكية) والتي انتهت إلى إعلان موت الإنسان والطبيعة بعد أن أعلنت موت الإله .

النصوصية والمؤامرة اليهودية

من أهم تبدييات نموذج العداء لليهود واليهودية ما سميت «النصوصية» . والنصوصية هي محاولة تفسير سلوك اليهود في ضوء ما جاء في العهد القديم والكتب المقدسة اليهودية الأخرى (التلمود - كتب القَبَالَة - وبعض الجهابذة يضمنون لذلك بروتوكولات حكماء صهيون بحسبانه كتاباً مقدساً باطنياً عند اليهود) . وتنطلق محاولة التفسير من تصور مفاده أن سلوك اليهودي هو تعبير عضوي مباشر عن بعض نصوص العهد القديم والتلمود . وكان واقع الصهاينة ويهود العصر الحديث سواء أكانوا في أمريكا أم جنوب إفريقيا أم إثيوبيا لا يختلف عن واقع

العبرانيين القدامى أو يهود الصين في القرن الخامس عشر . وكان ما ورد في العهد القديم والتلمود إن هو إلا مخطط يهودي قديم ، يعبر عن جوهر يهودي ثابت ، وأن من يريد أن يفهم اليهود والصهيونية ويتصدى لهما عليه ألا يضيّع وقته في قراءة الواقع وتفصيله ، وإنما عليه أن يذهب إلى أحد هذه الكتب (خصوصاً البروتوكولات ، فهي قصيرة وواضحة ومسهلة وتأخذ شكل مخطط واضح) وسيجد فيها تفسيراً لكل شيء بل تنبؤاً بكل شيء .

ومثل هذا النموذج الاختزالي لا يتنبه إلى أن علاقة الإنسان بالكتب المقدسة التي يؤمن بها علاقة مركبة إلى أقصى حد ، فهي ليست علاقة سبب ونتيجة . كما أن مسألة التفسير مسألة حيوية في تحديد هذه العلاقة ، فيمكن أن يكون التفسير حرفياً مغلفاً ، ويمكن أن يكون مجازياً منفصلاً . فتفسير الصهاينة لنص ما يختلف عن تفسير اليهود الإصلاحيين له . وأحيراً لا يدرك هؤلاء التآمريون أن غالبية اليهود في العصر الحديث لا تؤمن بهذه الكتب أساساً ولا تقرؤها .

وقد استشرى مرض النصوصية وانتقل من اقتباس العهد القديم إلى اقتباس أي نص يريح صهيوني وتصديقه والإشارة إليه بشكل يحدّد جزءاً من المخطط القديم ومن الواقع الذي يتشكل في الحاضر ، دون أي محاولة لتجاوز هذه الادعاءات بالدراسة والتأمل . فعلى سبيل المثال ، حينما صرح أحد الصهاينة عام ١٩٨٣ بأنه سيتم توطين مليون يهودي في الضفة الغربية قبل نهاية القرن الحالي ، ارتجف الجميع واقتبسوا هذا القول بموضوعة متلقية بلهاء ، دون أن يخضعوه للاختبار ، ودون أن يسألوا بعض الأسئلة البديهية : من أين سيأتي هذا الصهيوني بكل هؤلاء المستوطنين ؟ وبحلول عام ١٩٨٨ كان عدد المستوطنين لا يزال لا يتجاوز ١٣٠ ألفاً ، وأدلى المسئول الصهيوني نفسه بتصريح مليوني آخر ، ومرة أخرى ارتجف الجميع واقتبسوا أقواله ببغائية مذهلة . ولعل هجرة اليهود السوفيت من أهم الشواهد على ظاهر القضية . إذ كانت الصحف العربية تقتبس "توقعات" الصهاينة بهجرة الملايين ، وكأنها حقائق ، في الوقت الذي كان عدد يهود الاتحاد السوفيتي لا يتجاوز مليوناً ونصف المليون !

والمطلوب هو أن نخضع مقولات الصهاينة للشحيص والسؤال ، فلا نهرون ولا نهزل ولا نكتفي بالتلقّي السلبي والرصد الآلي . فبين أن بعض هذه التوقعات الصهيونية الوردية قد أطلق حتى يمكن لإسرائيل الحصول على بلايين الدولارات من الولايات المتحدة ، وأن كثيراً من المهاجرين "اليهود" ليسوا بيهود ، بل مواطنين عاديين أرادوا أن يجدوا طريقة للخروج من الاتحاد السوفيتي (أخبرني أحد الأصدقاء الفلسطينيين أنه رأى بنفسه وفداً من المهاجرين "اليهود" السوفيت في زيارة لحائط المبكى ، وحينما سمعوا الأذان انسلخ من صفوفهم ثلاثة أو أربعة منهم ذهبوا إلى المسجد لأداء الصلاة !) .

وثمة تيّد آخر متطرف لنموذج العداء لليهود واليهودية ، وهو نظرية المؤامرة اليهودية . وهو نموذج تفسيري يضح اليهود ، كل اليهود ، في سلة واحدة . ولذا فكل الطواهر اليهودية

والصهيونية والإسرائيلية شيء واحد. ويتم اختزال الإسرائيلي في الصهيوني والصهيوني في اليهودي. لأن الجميع «يهود والسلام». كما يتم اختزال اليهود (بل الواقع بأسره) في قوالب جاهزة وأنماط سابقة. فاليهود - حسب تصور هؤلاء الكتاب - شخصيات محربة هدامة دائماً وأبداً، تتآمر بطبيعتها ضد كل ما هو خير ونبيل (فهذا - حسب تصورهم - مكون أساسي وثابت في طبيعة اليهود). وهم مسئولون عن كل الشرور (أو على الأقل معظمها)، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط حبار وضعه العقل اليهودي (أو حاخامات اليهود) لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل شعوب العالم ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة وبأساً، وذلك بهدف السيطرة على العالم. والعالم كله - حسب هذا التصور - إن هو إلا رقعة شطرنج، وكل البشر إن هم إلا أحجار عليه يحركها اليهود بكل بساطة لإنجاز مخططهم، فهم أصحاب قوة خارقة لا تضاهيها قوة، ونفوذ كبير ليس مثله نفوذ. والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج الثابت، وهذه المؤامرة التي لا تتغير.

. وقد تلفف التأميريون قصة مونكا لوينسكي لتشجروا إلى أنها «يهودية»، ومن ثم فهي بلا شك جزء من هذا المخطط (وكان كلينتون ليس رجلاً منفلت العيار مثل الملايين غيره، وكأنه لا يوجد ضمن سكرتاريته امرأة يهودية حاولت قدر وسعها، ودون جدوى، أن توقف هذه الفتاة اللعوب وتصرفها عن هذا الرجل المنفلت، لتحتمي مؤسسة الرئاسة الأمريكية منها ومن نزواته). والصهيونية - في تصور التأميريين - ليست ظاهرة مرتبطة بحركات التاريخ والفكر الغربي، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية، ذلك الشر الذي يبدى في الغزو الصهيوني لفلسطين، وضرب المفاعل الذري العراقي، وغزو لبنان، وقمع الانتفاضة، والهجرة اليهودية السوفيتية إلى فلسطين، وسقوط الاتحاد السوفيتي ... إلخ.

وابتداءً، يجب الإشارة إلى أن البعض يخلط بين المؤامرة والمخطط. فالمخطط هو خطة أو إستراتيجية تعبر عن مصالح دولة ما أو مجموعة من الدول (كما يتصورها أصحابها). وهي تتبدى من خلال أنماط متكررة لها مسار يعبر عن منطق داخلي يمكن فهمه والتصدي له بمخطط مضاد، فأصحاب المخطط المعادي لنا بشر، ونحن بشر، والحرب بيننا سجال، إلى أن ينصر الله من ينصره.

أما المؤامرة فهي خطة سرية وضعها في الظلام بضعة أفراد دوافعهم حسيسة شريرة، يحاولون قدر طاقتهم الحفاظ عليها طي الكتمان ويقومون على تنفيذها. ولأن المؤامرة ليست جزءاً من نط، فإنها لا تتبع مساراً مفهوماً وليس لها قوانينها الداخلية الخاصة والخارجية العامة. ويتصور أصحاب نموذج المؤامرة أن المؤامرة التي تحاك ضدهم موجودة في وثيقة بعينها، تتضمن كل أو معظم البنود. وبدلاً من فهم الواقع وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه، تصبح مهمتنا هي ضرورة البحث عن مثل هذه الوثائق وأن ندرسها بعناية. ونموذج المؤامرة يشبه من بعض الوجوه

النموذج المعلوماتي ، فهذا النموذج الأخير يعطي القارئ معلومة بجوار معلومة ، دون أن ينتظمها إطار . وهذا لا يختلف كثيراً عن نموذج المؤامرة ، الذي ينظر إلى الواقع فيحوله إلى شظايا متناثرة ، فيهدف منه الجوانب التي تتحداه ويؤكد الجوانب التي تروق له ، ويفرض عليها المعنى الذي يريده . فنموذج المؤامرة ونموذج المعلوماتية متنوان يعبران عن نفس العقلية وطريقة النظر .

إن نموذج المؤامرة ، كما خصه أحدهم ، نموذج قد يدعو لعدم الاستسلام ، ولكن مقولاته تنطوي على دعوة لعدم الجهاد في الوقت نفسه ، لأنه نموذج يؤدي إلى الشلل التام . كنت في إحدى الندوات أعرض وجهة نظري ، فقام أحدهم وصرخ في بصوت عالٍ : "إن حربنا مع اليهود إلى يوم قيام الساعة" . قالها بحماسة شديدة جعلت الجمهور كله يصفق له بحماسة أشد . فانتظرت حتى انتهت الحماسة والتصفيق وقلت لهم : إن هذا القول يعني أن قيام دولة إسرائيل جزء من مخطط إلهي ، وأن انتصاراتها علينا "أمر مكتوب" علينا تقبله إلى أن نحين الساعة !

ويدلل التأمريون على وجود المؤامرة اليهودية بالإشارة إلى أن النبوءات الصهيونية قد تحققت كلها . ويشيرون إلى مدكرات هرتزل حيث تنبأ بتأسيس الدولة الصهيونية في غضون خمسين عامًا ، وقد حدث هذا بالفعل . ولكن يمكن أن نطرح السؤال التالي : قل قام أحدهم بحساب عدد النبوءات التي أطلقها بثقة ولكنها خابت ؟ وما قولهم في نبوءة بخصوص ألمانيا القوية التي ستأخذ اليهود تحت جناحها ، وتساعدهم في مشروعهم الصهيوني ؟ ألم تأخذ ألمانيا اليهود تحت جناحها بعد أقل من ثلاثين عامًا من إطلاق النبوءة بمعنى مختلف تمامًا عما كان يقصد إليه هرتزل ؟ وما قولهم عن نبوءات الصهاينة عن تدفق يهود العالم على الوطن القومي اليهودي حيث يتم سهرهم في بوتقة الصهر الصهيونية ليخرج منها العبراني الجديد ؟ ألا يمكن القول بأن الأزمة الاستيطانية وأزمة الهوية التي يعاني منها الكيان الصهيوني هما دليل ناصح على فشل النبوءات الصهيونية .

إن رفض نموذج المؤامرة يعني عدم تقبل الواقع السطحي كما هو ، ورفض المقولات اللفظية الشائعة والصور النمطية السائدة والصيغ المسبقة الجاهزة . كما يعني عدم تقبل ادعاءات الصهاينة عن أنفسهم وإخضاعها للنقد والبحث والتدقيق ، وتفكيك الظواهر اليهودية الصهيونية والإسرائيلية وإعادة تركيبها بطريقة تجعلها مفهومة ، ووضعها في حدود الزمان والمكان ، وفي سياقها الحضاري والتاريخي والإنساني ، والنظر لها بحسبانها ظواهر تاريخية إنسانية ومن ثم يمكن التعامل معها إن حرباً أو سلباً . فاليهود جماعات يهودية تتغير بتغير الزمان والمكان ، والصهيونية حركة سياسية نشأت في القرن التاسع عشر في أحضان الإمبريالية الغربية التي وضعتها موضع التنفيذ ، ولولا دعمها لأصبحت الصهيونية عبارة عن شعارات حالة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، يطلقها مجموعة من صغار مثققي يهود شرقي أوروبا ووسطها .

يفعل كل ذلك دون إهمال الادعاءات التوراتية والتلمودية بحُسانها ديباجات تمبوية مهمة ،
وديباحات تسربعية تُطرح أمام الرأي العام العالمي (أي الغربي) لتجنيد راء الإمبريالية
ومشروعها الصهيوني ، ولكنها لا ترقى أبداً إلى مستوى البنية الواقعية .

ونموذج المؤامرة شائع في الخطاب الإسلامي المناهض لإسرائيل . وهو يفترض وجود
"استمرارية" بين يهود الماضي والحاضر والمستقبل ، وهذا هو جوهر الرؤية الصهيونية . في إحدى
المحاضرات ، قام أحد حملة هذا الخطاب ويّس لي أن "اليهود هم قتلّة الأسياء" . فأخبرته أن
المستوطنين الصهاينة لا يقتلون الأسياء ، لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد أسياء هذه الأيام . كما
أنهم يقومون بقتل كل من يتصدى لهم ، دون تمييز بين مسلم ومسيحي . وكنت مرة أجلس مع
بعض صاع القرار في العالم العربي (من ذوي الاتجاهات الإسلامية) وتطرق الحديث إلى
"اليهود" ، وبدأ بعضهم في عملية السب نفسها (التي هي في جوهرها عملية شيطنة للآخر ،
لتحقيق بعض التوازن للذات) . وتطرق الحديث إلى يهود المدينة وخيبر "وتأمرهم" ... إلخ .
وكيف أن نفس التآمر اليهودي مستمر . فسألتهم : هل كان هؤلاء اليهود يعرفون التلمود ؟ وبأي
لغة كانوا يتمبدون ؟ وما معنى أن بني قريظة وبني النضير من الكوهانيم (أي الكهنة من نسل
هارون) ، مع أن نظام الكهنوت اختفى في اليهودية بعد سقوط الهيكل في ٧٠ ميلادية ؟ ثم
أضفت سؤالاً عن موقف يهود العالم آنذاك من يهود المدينة ؟ وهل كانوا على صلة بهم أو لا ؟
وهل كانوا يعترفون بهم يهوداً ؟ وهذا يثير قضية : هل مصطلح "يهودي" في القرآن يشير إلى
يهود المدينة ، أو إلى يهود العالم المعاصرين للبعثة الخمدية أو ليهود العالم في الماضي والحاضر
والمستقبل ؟ أي أنني أثرت تساؤلات بخصوص الاستمرارية التي يفترضونها .

ثم تساءلت هل المسلم ملزم بالتعريف الإسلامي لليهودي (من أهل الكتاب ، يؤمن بكتاب
مقدس ومن ثم بالله وباليوم الآخر) أو بالتعريف اليهودي (من يؤمن باليهودية ومن ولد لأُم
يهودية) ؟ والسؤال طبعاً خطابي ، فالمسلم ملزم بالتعريف الإسلامي وحده ، ومن ثم فالغالبية
الباسقة ليهود العالم لا ينطبق عليها التعريف الإسلامي لليهود !

وأخيراً أشرت إلى أن التاريخ الإسلامي قد عامل أعضاء الجماعات اليهودية من خلال مفهوم
أهل الذمة هذا ، وأن تاريخ المسلمين لم يشهد عمليات هجوم أو إبادة أو طرد لليهود ، وأن هناك
أعداداً كبيرة من اليهود دخلت الإسلام وحسن إسلامها وانصهرت في صفوف المسلمين (وإلا
فبم يفسر أن اليهودية كانت بالأساس ظاهرة شرقية إسلامية ، توجد داخل العالم الإسلامي . ثم
تحولت بالتدريج إلى ظاهرة مسيحية؟) . بل إن عمليات الطرد التي تمت في بداية الحكم
الإسلامي كانت نتيجة خرق المواثيق مع المسلمين ، وكانت تهدف إلى تأمين قلب الأمة الإسلامية
كأن عقاب الطرد لجماعة بدوية كان عقاباً مقبولاً لدى الجميع ، وكان يعني إعادة التوطين
في منطقة أخرى .

وأخيراً أكدت مفهوم الفطرة الإسلامي وأن الإنسان يولد على الفطرة الإنسانية ، بكل ما فيها من خير وشر ، وأن أبويه يهودانه أو ينصرانه ، ومن ثم فمفهوم الهوية كنتاج للوراثة ، أمر غير معروف في الإسلام ، وحينما يتبناه التأميريون فإنهم يتبعون مفهوماً غير إسلامي . فمن منظور إسلامي ، لا يمكن أن يؤخذ يهود هذه الأيام بجريرة يهود الماضي ، فالخطيئة مثل الاستقامة لا تورث . ولهذا نجد أن الخطاب القرآني لا يتحدث عن اليهود في عموميتهم وإنما دائماً يخص ("ومن أهل الكتاب ...") .

فوجئت عند هذه النقطة بأن أحد الحاضرين يخبرني بأن ما أقوله مقنع للغاية ، لكن رجاسي ألا أذكره خارج هذه الجلسة . فضحكت وقلت : "أنت إذن تفضل الحكمة البراجماتية على الحكمة الإلهية" . وانفض المجلس .

ثم طرحت اجتهادي الأولي (والذي وافقني عليه كثير من الفقهاء) وهو أن مصطلحات مثل «يهودي» و«بني إسرائيل» تشير إلى شخص تتوفر فيه بعض السمات التي إن توافرت في أي شخص (مليحداً كان أم يودياً) فإنه يصبح يهودياً (ولفظه «يهودي» بهذا المعنى لا تختلف في استعمالها عن لفظة «فرعون» ، والتي لا تعني «حاكم مصر» وإنما أي شخص تتوفر فيه سمات «الفرعون») . وعلى كل هذا اجتهاد أولي أطرحه كسؤال على الفقهاء ، حتى يفتح باب الاجتهاد مرة أخرى بخصوص هذه القضية . فالفقه الإسلامي نظراً لاستقرار وضع اليهود (كأهل كتاب داخل المجتمع الإسلامي) ، ونظراً لعدم أهميتهم ، ونظراً لعدم توفر المعرفة الكافية بتطور اليهودية واليهود ، لم يتعمق في الموضوع بما فيه الكفاية . والفقهاء كانوا على حق في ذلك . فكل مجتمع يحاول أن يجيب على الأسئلة التي تهمة . لكن الوضع اختلف تماماً الآن ، فإشكالية اليهود أصبحت إشكالية مركزية .

وإنكار المؤامرة لا يعني بأي حال إنكار أن أصحاب المخططات أو الإستراتيجية يبذلون قصارى جهدهم أن ينقدوه بأي طريقة (أخلاقية أو غير أخلاقية) متاحة . ولذا كثيراً ما نجدهم يلجأون إلى المؤامرات ، وهذا ينطبق على أشياء ضخمة مثل تقسيم العالم العربي واستعمار فلسطين (واتفاقية سايبكس - بيكو هي مثل جيد على مؤامرة تمت في الخفاء في إطار الإستراتيجية الغربية الإمبريالية العامة تجاه العالم العربي والإسلامي ، وهي لا تختلف في توجهها وهدفها عن وعد بلفور ، سوى أن الاتفاقية تمت في الخفاء ، أما وعد بلفور فقد صرح به علناً) . وتآمر أصحاب المخططات يظهر أيضاً في أشياء ليست بنفس الضخامة مثل محاولات الاعتتيال السياسي والتجسس وتقديم رشاي لبعض أعضاء النخب الثقافية والسياسية وتحريك الأقليات بهدف إثارة القلاقل ضد بعض النخب الحاكمة والضغط عليها . وإلا ماذا تفعل مخابرات و جواسيس دولة (مثل إسرائيل) في الدول الأخرى ؟ (اعترف الإسرائيليون بأنهم كان لديهم ٢٠٠٠ عميل في لبنان . ويقال إن عدد عملياتهم في أثناء الانتفاضة هو ١٠٠ ألف) . ومحاولات التجسس

الإسرائيلية ضد العرب ومحاولات التجسس العربية ضد إسرائيل مسألة مستمرة . ومن المعروف أن ميزانية المخابرات الأمريكية تزيد عن ميزانية كثير من دول العالم الثالث ، ويخصص جزء كبير من هذه الميزانية لعمليات سرية ، بعضوها لا يعرف عنها الكونغرس شيئاً ولا حتى رئيس الجمهورية في بعض الأحيان .

ويعيب عليّ البعض أنني برؤيتي هذه للصهيونية ، أخرج بها من إطار الصراع الديني الثابت ، وأدخل بها في إطار الصراع السياسي المتغير ، ومن ثم فإن الدافع الديني للحرب ضد العدو يتم تحييده بهذه الطريقة . وأرد على هؤلاء بقولي : من قال إن الجهاد الديني لا يكون إلا ضد اليهود ، واليهود وحدهم ، واليهود دون سواهم ؟ ! ألم يعيش اليهود في مجتمعاتهم الإسلامية مئات السنين دون مذابح أو اضطهاد ؟ ألا تتحدث كتب التاريخ الإسلامي (وغيرها) عن " عصرهم الذهبي " في إسبانيا الإسلامية ؟ ألا نفتخر بذلك ، وبأن العدل هو القيمة القطب في الإسلام ؟ ألا يجب الجهاد ضد من اغتصب الأرض وطرد أهلها كانت ملته وديانته ، يهودياً كان ، أم مسيحياً ، أم ملحداً ، أو حتى مسلماً ؟ ألا يجب الجهاد ضد نظام عالمي جديد يريد أن يمسك العالم بقبضة حديدية ويفرض إرادته الفاشية ؟ أليس من الواجب أن نعرف عدونا : نعرف هويته وسماته الخاصة والقوانين المتحركة في حركته ، دون أن نخلد إلى الصيغ العامة التي لا تفني ولا تسمن من جوع في الصراع اليومي ، والتي تريحنا نفسياً دون أن تحسن أداءنا الجهادي ؟

وأحب أن أضيف ما بينته سالفاً ، وهو أنني لا أنظر للأشياء نظرة سياسية مطلقاً ، بل أنظر لها نظرة تاريخية معرفية مستخدماً عدداً من النماذج التحليلية المشابهة . فالصهيونية - في تصوري - ليست مجرد تعبير عن المؤامرة اليهودية ، أو حتى " السياسة " الغربية أو الصهيونية ، بل هي أمر أكثر تركباً . فهي أولاً شكل من أشكال الحلولية ، (إذ يصبح اليهود مرجعية ذاتهم . وهي ثانياً شكل من أشكال العلمانية الشاملة (أي فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الحياة) ، إذ هي تنزع القداسة عن كل الأشياء ، عن كل من اليهود والعرب وعن أرض فلسطين ، فيصبح الجميع مادة استعمالية . وهي ، في نهاية الأمر ، بتوجهها العرقي وشراستها الداروينية ، تعبير عن التشكيل الإمبريالي . ولكنها تعبير خاصي للعامة ، إذ إن الدولة الصهيونية ليست جزءاً لا يتجزأ من الإمبريالية ، وإنما هي دولة وظيفية أسست لخدمة مصالح الغرب ، ولذا فالعلاقة بينها وبين الغرب علاقة نفعية تعاقدية ، ومن هنا نجد أن الغرب يؤيدها بكل قوة في الوقت الحالي . ولكن ماذا لو أصبحت إسرائيل عبئاً عليه ؟ هل التزامه بها التزام أخلاقي مبني كما يدعي ، أو هو نفعي عملي ، كما هو دأب الغرب وديدنه ؟ في ضوء هذا فإنني أذهب إلى أن أصنف الإسرائيليين والصهاينة واليهود على أنهم بشر يمكن الحوار معهم على مائدة المفاوضات ، كما يمكن الحوار المسلح معهم في أرض المعركة ، فيولون الأديار ، كما فعلوا في جنوب لبنان .

الفصل السادس : في عالم الأدب والفن

حياتي في الجامعة

برغم أن حياتي في الجامعة تشكل "مهنتي" الأساسية (إذ لم أستقل من التدريس إلا عام ١٩٨٨) فإنني مع هذا أجدني في سيرة فكرية كهذه لا أقبض في الحديث عنها ، بل ويندر من الناس من يعرف أنني كنت حتى تاريخ استقالاتي أشغل وظيفة أستاذ النظرية النقدية والشعر الإنجليزي في القرن التاسع عشر . وهذا يعود ولا شك إلي أن معظم مؤلفاتي منذ أن حصلت على الدكتوراه تدور حول موضوع الصهيونية . كما أن له أسباباً أخرى .

ولا يمكنني أن أنكر استفادتي الإنسانية من تجربتي في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها في كلية البنات جامعة عين شمس . فبرغم وجود عدد من المنتدين من الرجال ، إلا أنني كنت عضو هيئة التدريس الوحيد الرجل فيها (وذلك لأنني عيّنت فيها عن طريق الخطأ ، فقد نسوا - كما أسلفت - أن يكتبوا في الإعلان عن البعثة أنها "مقصورة على الإناث فقط") . ولا شك في أن وضعي هذا قد زاد من إحساسي بنفسي وزاد من مقدرتي على النظر إلى نفسي من الخارج ، وكنت أقول ساخراً إنني الرجل الوحيد الذي يلقى التهنة في عيد الأمهات . كما أن التدريس في كلية البنات جعلني أفهم الكثير عن المرأة ، ولم تعد أحلام التسوية بين الرجل والمرأة ، التي كانت تراودني من قبل ، لها أي مكان في رؤيتي ، إذ أدركت أن المرأة مختلفة عن الرجل وأن المساواة بينهما لا تعني التسوية بأي حال .

ولابد أن أنوه بالجو الإنساني العام الذي كان يسود القسم . ففي الفترة التي قضيتها فيه ، لم يكن هناك صراعات صغيرة (أو كبيرة) من النوع الذي يسود الآن في الجامعة . فلم يكن هناك معارك بخصوص المحاضرات الإضافية (التي لم يوجد تكاليف عليها ، بل كان الأساتذة يقبلونها من قبيل الإحساس بالواجب ، وإن وضعنا المقابل المادي في الحسبان وهو بضعة قروش عرفنا أنه كان تضحية حقيقية بالذات) . كما أن حرب المذكرات لم تكن دائرة ، لأن الأساتذة لم يورعوا مذكرات قط . وقد نجح بعضهم (من الجيل القديم) في تجاوز داء الإملاء اللعين فكان

يلقن بمحاضرات حقيقية . ولا شك في أن الأعداد الغفيرة المتزايدة من الطلبة (والتي تفرض سئراً على القسم) مسئلة عن ظهور كثير من الظواهر المرضية .

وكنيت أحب التدريس وأساهم في النشاط الجامعي . فكنت أصحب الطالبات لرحلات إلى الإسماعيلية والقناطر الخيرية ، كما كنا نقوم بجولات في متاحف القاهرة المختلفة . وأذكر أنني اصطحبتهن مرة إلى متحف الفن الحديث (قبل أن ينتقل إلى مقره الحالي بجوار مبنى الأوبرا) وكانت مفاجأة للطالبات أن يعرفن أن هناك فناً مصرياً حديثاً ، وأن هناك فنانين مصريين يعيشون معهم في نفس المدينة وفي نفس الزمان يحاولون أن "يرسموا" هذا الواقع ، كل بطريقته . وكنيت أعرض على الطالبات أفلاماً عن موضوعات مختلفة (تاريخ المعمار في إنجلترا - حياة الشعراء - أفلام عن الروايات الإنجليزية الشهيرة) نستعيرها من المعهد البريطاني .

ومن المقررات الأثيرة لدي مقرر الحضارة في السنة الرابعة (سنة التخرج) . فقد كنت أحاول أن أدرّس فيه الحضارة الغربية بكل تديباتها المتشابكة . فكنت على سبيل المثال أعطيهم محاضرات عن طرز الأثاث المختلفة ، وأبين علاقتها بفنون عصرها سواء في الموسيقى أو الأدب . كما كنت أدرّس لهن بعض المدارس الفنية الحديثة وأشرح لهن بعض المفاهيم الأساسية في عصرنا الحديث (الماركسية - الفرويدية - البراجماتية) . وكنيت أقول لهن مازحاً إن الهدف من هذا المقرر هو إعدادهن للزواج ، وتحسين موازين القوى لصالحهن ، إذ يوسعهن إرهاب الزوج فكرياً عن طريق إظهار أن معرفتهن بالمعصر الحديث (أفكاره - فنونه - موسيقاه) تفوق معرفته . وكنيت أخبر الطالبات أن جميعهن سينجحن في هذا المقرر إن أثبتن لي أنهن يشاركن في المناقشات التي تنل كل محاضرة . وكان هذا بمنزلة عقد غير مكتوب بيني وبينهن ، استطعن أن نفني به في معظم الأحيان . ولا أنسى البتة تلك الطالبة التي جاءتني في نهاية العام لتخبرني أن هذا المقرر قد غير حياتها ، فقبل هذا المقرر كانت الحياة بالنسبة لها بوتاجاز وثلاجة ١٦ قدم ... إلخ (كما قالت) ، أما الآن فقد دخلت الموسيقى والألوان حياتها !

وكنيت بطبيعة الحال أحضر حفلات الطالبات وأشارك فيها . أذكر مرة أن طالبة قامت بتقليدي (كما يفعلون دائماً في الحفلات الجامعية) ، فتصورت منظرأ كاملاً في منزلي : أنا أجلس إلى مكتبي أقرأ أحد الكتب ، فتجيء زوجتي تخبرني بأن هناك صابون غسيل في الجمعية ، وعلي أن أسرع لشراء بعض منه . فاقف في منتصف الهدوء وأخبرها بأنه لا داعي لذلك على الإطلاق ، لأننا بعد أن نغسل الملابس ستستخ مرة أخرى . وكان تعليق زوجتي أن هذه الفتاة تتسم بحيال واسع ، فقد استشفت جوهر شخصيتي وحولته إلى منظر واقعي ، برغم أنه لم يحدث قط .

وقد تعرفت في الكلية إلى نماذج إنسانية مختلفة . فهناك لفيث من الأساتذة يدل الكثير من جهده ووقته دون مقابل (وعلى سواعد هؤلاء لا تزال مصر المحروسة مستمرة، برغم كل ما

فيها من فساد وعدم اكتراث) . وهناك بطبيعة الحال الطالبات اللاتي يأتين من الريف ، وكنت أجد نفسي متحيزاً لهن بسبب خلفيتنا المشتركة ، وبسبب تعاطفي معهن ، إذ قُذِفَ بهن في القاهرة التي لا ترحم (كما قُذِفَ بي من قبل في الإسكندرية الكوزموبوليتانية) . كما كان هناك الطالبات القاهريات بنماذجهن المختلفة . وكان هناك الطالبات اللاتي كن يبحن عن نوع ما من المعرفة ، وأولئك اللاتي كن مهومات بقضايا فكرية مختلفة . كما كان هناك من التحقن بقسم اللغة الإنجليزية حتى يتعلمن "لغة" (كما يقول المصطلح الشائع الآن) أو للحصول على شهادة تُعلق في الصالون (مما يحسن من قرص الزواج أمامهن ويُعلي من مكانتهن الاجتماعية) . وكانت هذه ظاهرة مقصورة على طالبات اللسان وحسب في الماضي ، ولكنها بدأت تظهر أيضاً في الدراسات العليا .

ومع هذا ، لا يسعني إلا أن أقول إن تجربتي الفكرية في كلية البنات كانت محدودة بالفعل . فلم يكن هناك شيء فكري مثير . ولعل هذا يعود إلى أنه لم يمد القسم أي جو ثقافي ولم تسر فيه أي تيارات فكرية . ولعل الإثارة الوحيدة حدثت حين عُيِّنَت الدكتوراة لطيفه عاشور رئيسة للقسم . وكان ههما أن تشير المشكلات الصغيرة ، الواحدة تلو الأخرى . فعلى سبيل المثال ، كانت تطلب مني في الصباح تدريس مادة ما وأبدأ بالفعل في ذلك لأكتشف أنها طلبت من أستاذ آخر تدريس نفس المادة ، حتى نبدأ في التشاجر ، وهو لم يحدث قط والحمد لله ، فالقسم والحق يُقال ، تسوده روح التفاهم بين أعضائه .

وأذكر أنها كانت رئيسة للقسم عند وفاة الرئيس جمال عبد الناصر - رحمه الله . فاقترحت ألا نقف دقيقة حداداً عليه في اجتماع القسم ، كما يفعل الجميع ، على أن ندرس بعض المراثيات الشعرية التي كُتبت بمناسبة وفاته في أول محاضرة ، أي أنني طلبت أن نتذكر اللحظة بطريقة تليق بأساتذة الأدب (فانا مهوم بالخصوصية والتفرد ، كما قلت) . وهذا ما فعلته ، إذ كنت أدرُس قصيدة نزار قباني في رثاء الرئيس عبدالناصر . المهم فوجئت بعد شهرين أن كل أعضاء القسم قُدموا للتحقيق (لأمر يعلم الله أنني لا أتذكره الآن) ، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع المحقق ، وكان أستاذاً للقانون المدني في جامعة عين شمس . وقد اكتشف الرجل في التو مدى براعتي وبراءة الآخرين من القسم ، بل ومدى سذاجتنا ، مقارنةً بالدكتوراة المذكورة التي كانت تعرف القوانين واللوائح أكثر من أي شيء آخر في العالم . وذكر لي أنه من ضمن ما ذكرته ضدي مسألة أنني اقترحت عدم الوقوف حداداً على الرئيس عبد الناصر ، ولم تذكر بقية الاقتراح . وطلب مني السيد المحقق ألا أقول شيئاً ، وبدأ هو في كتابة الأسئلة والأجوبة ، وانتهى التحقيق بنقل السيدة المذكورة . ولكنها كان لديها المقدرة على العودة ، لا أدري كيف . لتبدأ المتاعب من جديد ، فهي - والحق يُقال - لا تكل ولا تتعب . ومن فرط غيظي ، اقترحت عليهم مرة في القسم أن ننشر نعيها في جريدة الأهرام ، حتى تشغل عنا بعض الوقت في محاولة تكذيب خبر وفاتها !

كان هذا هو عنصر الإثارة الأساسي . ولم تتغير الأمور كثيراً بعد تعيين الدكتوراة لطيفة الزيات - رحمها الله - فقد كانت سيدة فاضلة ، لم تثر أي مشكلات من أي نوع ، وجعلت حياتنا من الناحية الإدارية نعيماً مستمراً . ولكنها أثرت أن تفصل حياتها الفكرية العامة عن حياتها كأستاذة في الجامعة . فكانت محاضراتها والرسائل التي تشرف عليها نغمة للغاية لا تختلف عما هو مألوف الآن من إملاء وتجميع للمعلومات ، مما جعل القسم مفرغاً تماماً من الهموم الفكرية . ولم أفهم تماماً موقفها هذا . وفي حفل رثائها أشارت العميدة إلى أنها كانت تترك العكر عند بوابة الكلية . كنا أحياناً نتحدث في الفكر ، ولكن في غياب الآخرين ، بل دعيتي مرة لمناقشة أفكارني في ندوة تديرها في حزب التجمع ، ولم يحضر أحد من القسم بطبيعة الحال ، فهذه نقرة وتلك نقرة .

وحتى أعطي القارئ فكرة عن جو الجمود والموت الفكري الذي كنا نعيش فيه . سألت مرة إحدى طالبات الدراسات العليا عن الموضوع الذي ستختاره لتكتب رسالتها للماجستير عنه ، فقلت : "الدفاع عن الشعر" لشعالي ، سألتها : "لم ؟" فأجبت : "لأنني أحفظها عن ظهر قلب" . ومرة أخرى اقترحت على طالبة أن تكتب رسالتها عن قصيدة ألكسندر بوب (مقال في الإنسان ، وقصيدة إليوت ، الأرض الخراب ، لتقارن بين الموقف من الإنسان في كل من القرن الثامن عشر والقرن العشرين ، ففكرت بالاقتراح . وحينما عدت من الولايات المتحدة سألتها عما حدث فقالت : "لقد نفذنا اقتراحك بعد تعديل طفيف . ففي القسم قالوا إن تناول النبي من الشعراء سيكون كثيراً بالنسبة للماجستير ، ولذا قررنا الاكتفاء بأشعار ألكسندر بوب" . وهكذا تحول الكيف إلى كم .

ويتم تصنيف التخصص على أسس ضيقة للغاية ، وهداداً ما تكون الأنواع الأدبية هي الأساس ، حتى بعد الحصول على الدكتوراه . ففلان "بتاع شعر" . إعلان "بتاع مسرح" وهكذا . أما أن يكون التصنيف على أساس الحقبة التاريخية على سبيل المثال ، أو على أساس الموضوع الأساسي الكامن theme أو على أساس النمط الشكلي المتكرر فهذا أمر غير مطروح . وقد بلغ من ضيق التصنيف أنني حاولت مرة أن أشرح ما سأقوم به في الدراسات العليا لإحدى الأستاذات ، وأخبرتها بأنني لن أدرس للطالبات شعراء معينين ، وإنما مجموعة من المقائيد بهدف تدريبهن على قراءة النصوص قراءة نقدية تفصيلية ، وخصصت لها ما سأفعله بأنه (تحليل خطاب ، بالإنجليزية ديسكورس أناليسيس discourse analysis) . فقالت لي إن تحليل الخطاب جزء من اللغويات وليس جزءاً من الدراسة الأدبية" . وقد بيتت لي أستاذة أخرى (كانت تلبس مصوغات ينوء بحملها الإنسان العادي) الفرق بين اللغويات وتدریس الأدب على النحو التالي : "مدرس اللغويات يمكنه تدريس كل من اللغويات والأدب ، أما أستاذ الأدب فيمكنه تدريس الأدب وحده !" .

و يتم احتياد موضوعات الرسائل بطريقة تعسفية للغاية لا علاقة لها بميول الطالبة أو توجهاتها أو الإشكاليات الفكرية التي تواجهها (إذ إن الغالبية الساحقة للمطالبات - والحق يقال - في أغلب الأحيان كن بلا ميول ولا يواجهن - والحمد لله - أي إشكاليات - فمعظم الطالبات التحقن بفسم اللغة الإنجليزية ، لأنهن يرغبن في دراسة اللغة الإنجليزية [لا الأدب الإنجليزي] حتى يعملن في نهاية المطاف مضيقات أو في السلك الدبلوماسي . وهذه مشكلة تواجهها أقسام الآداب الأجنبية في بلادنا ، إذ يخلط الناس بينها وبين أقسام اللغات) . وعادة ما تذهب هذه الطالبة الديثة من القلق الفكري وتطلب من الأستاذة تحديد موضوع لرسالتها ، ولا تحدد أي إطار سوى أنها تحب الشعر أو المسرحية مثلاً . فتختار لها الأستاذة المشرفة أي أديب لتكتب عنه رسالتها ، ثم تدخل الطالبة ورسالتها معمل التراكم وحشد المعلومات والمراجع .

وهذا الاتجاه نحو عدم الاكتراث بالدارس والإشكاليات الفكرية التي يطرحها والقضايا الفكرية التي يواجهها ليس مقصوداً على قسم اللغة الإنجليزية بكلية البنات ، بل شاهدة مثل هذا الوضع في الخارج . أخبرني صديقي الأستاذ ديفيد كارول أنه حينما التحق بقسم الدراسات العليا في جامعة لندن ، كان عليه أن يتوجه إلى الأستاذ المعروف سذرلاند Sutherland ليناقلش معه الموضوع الذي سيكتب عنه . فدخل ديفيد كارول مكتبه وأخبره عن الهدف من زيارته ، فأخرج البروفيسر سذرلاند كتاباً ضخماً وقلب عدة صفحات إلى أن وصل إلى صفحة بعينها ومر بإصبعه على عدة سطور ثم توقف وقال : " لم لا تكتب رسالتك عن مسز ثاكري Mrs Thackeray " (وهي أخت الروائي البريطاني الشهير ثاكري) . فرفض ديفيد كارول وأخبره بأنه مهتم ببعض القضايا الخاصة بروايات جورج إليوت . فنظر له الأستاذ المشرف بهدشة مشربة بالغضب ، ولكنه والى على موضوعه . وبعد عدة سنوات كان ديفيد كارول يزور الهند ، وقابل سيدة هندية كانت تدرس معه في نفس الجامعة التي حصل منها على شهادة الدكتوراه ، وكانت قد دخلت بعده مكتب سذرلاند . وعرف منها ديفيد كارول أنها كتبت رسالتها عن مسز ثاكري . فالمسألة " بالدور " ، لا علاقة لها بذات الطالب أو بالقضايا الفكرية التي يواجهها .

وقد حدث لي شيء مماثل حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا ، إذ قالوا لي إنني يمكن أن أكتب عن الأثر العربي أو الإسلامي على أحد الشعراء الرومانسيكيين الإنجليز أو الأمريكيين ، حيث إنني - في تصورهم - طالب من العالم الثالث لا يعرف الأدب الإنجليزي أو الأمريكي بما فيه الكفاية ، ولا يمكن أن يتأتى له أن يعرفه ، ولكنه مع هذا يعرف لغة غريبة تسمى العربية يمكنه أن يستند إليها في دراسة هذا الموضوع المحدود (كان هناك من أساتذتي من بلغ به الجهل أنه كان يفترض أنني أتحدث اللغة المصرية إيجيبتيان Egyptian ، على حد قولهم) . وما لم يصرحوا به هو أنني بعد كتابتي رسالتي للدكتوراه سأخذوا نتائج بحثي الأرشيفي المعلوماتي ليقوموا هم بعد ذلك بالدراسة النقدية الحقيقية ، وهكذا أقول من كاتب إلى باسكاتب !

فأخبرتهم أن الموضوع لا يعني كثيراً ولا يثير قلقى ، ومن هنا قلن أكتب عنه . والشئ نفسه تكرر في جامعة ربحرز حينما طلب منى أن أحقق مخطوطة لاتينية هي ترجمة لشرح ابن رشد لفن الشعر لأرسطو . ومرة أخرى رفضت الموضوع وكتبت عن شئ في صميم الحضارة العربية . (وكان تحقيق المخطوطة من نصيب غيرى ، كما أشرت من قبل) .

إن موقفى من الإشراف على الرسائل الجامعية يتسم بشئ من التطرف ، فهو يفترض ضرورة تفاعل المشرف مع موضوع الرسالة ومع الباحث ، وأن يكون ملماً بالأدبيات التي كُتبت عن الموضوع والإشكاليات الأساسية المطروحة بخصوصه ، حتى يمكنه أن يتحاور مع الباحث تحاوراً مشمراً بخصوص رؤيته ومنهجه وبينة عمله . وهي طريقة شاقة للإشراف ، لكن هذا هو ما تعلمته من أساتذتى في الإسكندرية ومن المشرف عليّ في الولايات المتحدة . كان أساتذتى يشرف على عدد محدود للغاية من الباحثين ، ولذا كان يوسعهم أن "يشرف" عليهم بمعنى الكلمة . كان يتلقى فصول الرسائل من الباحث فيقرأها أولاً بأول بعناية شديدة ، ويعلق عليها بالتفصيل ، ويعطي ملاحظات عامة في النهاية . وإن ظهر مرجع جديد في الموضوع قرأه وأشار على الباحث بقراءته ، وإن طرحت إشكاليات جديدة نبهه لها ، ولم يكن يكف عن الحوار معه . (كنت استثناءً وحيداً ، إذ إننى كتبت رسالتى دفعة واحدة وأعطيناها له . ولكننا كنا نلتقي في الأسبوع مرتين على الأقل ، فكان يعرف مسار الرسالة شفويّاً منى) .

ويقف هذا على طرف النقيض من الوضع عندنا ، حيث نجد الأستاذ يشرف على عدد هائل من الرسائل قد يجد نفسه مضطراً لقبوله . ومع هذا لاحظت التفاضل غير المفهوم بين الأساتذة على المزيد من الرسائل . عندما حاولت زوجتى تسجيل موضوع رسالة الماجستير في مصر ، أخبرتها إحدى الزميلات بأن اسم الأستاذة فلانة لابد أن يوضع على اقتراح الرسالة بصفتها إحدى المشرفات ، وإلا أوقفت الموضوع في مجلس الكلية . وحينما استشارتني زوجتى في الأمر أخبرتها بأن الأستاذة فلانة غير متخصصة ، ووضع اسمها سيكون في واقع الأمر إهانة لها . ولكننا فوجئنا بأنها بالفعل أوقفت الموضوع في مجلس الكلية . (يبدو أننى لم أفهم الواقع الأكاديمي في مصر حق الفهم ، ومن ثم كنت دائماً المصاح الأمين لزوجتى الذي يودى بها إلى التهلكة) .

نتيجة موقفى هذا من الإشراف ، لم أشرف قط على أي رسالة للماجستير أو الدكتوراه ، كما لم أدع لمناقشة أي رسالة جامعية (إلا مرتين) غير حياتي الجامعية . ولكن أخيراً (١٩٩٥) جاءتني طالبة تسمى جيهان فاروق فؤاد ، تطرح قضايا فكرية حقيقية ، فوافقت على أن أشرف على رسالتها . وفكرنا معاً في الموضوع ، واستقر الأمر على أن تكتب رسالتها عن القراءات النقدية المختلفة لقصيدة "الملاح القديم" لكوليردج (فهي دراسة مقارنة في النماذج التحليلية) . وقد أشرفت على رسالتها بالطريقة التي أشرت إليها ، أي الطريقة التي أشرف بها أساتذتى عليّ

. وحينما انتهت منها كانت قد أتمت عملاً فكرياً من الطراز الأول ، أزعج أنني تعلمت منه كما تعلمت هي منه ، فقد كان "بعثاً" وليس مجرد توثيق أفقي ، لا تنتج عنه أي تحولات .

وقد شكلت لجنة المناقشة متني رئيساً والدكتورة فضيلة فتوح (التي شاركت في الإشراف على الرسالة بشكل جدي ، وأسدت كثيراً من النصائح المهمة لجيهان) ، والدكتور محمد عناني والدكتور أيمن بخيت أعضاء . وكانت المناقشة متعة فكرية حقيقية هيأت لي فرصة كي أشرح بعض آرائني بخصوص رسائل الماجستير . فقلت فيما قلت : إن المفروض أن تتم المناقشة باللغة العربية ، أي اللغة الأم ، كما يحدث في بقية العالم حتى يدرك الدارسون أن رسالتهم عمل نقدي ، وأن إسهامهم يجب أن يصب في نهاية الأمر في رؤيتهم النقدية الخاصة ، لا أن تظل جزءاً من عالم مستقل منفصل (أما المقدرة اللغوية فيمكن التأكد منها من خلال امتحانات خاصة) . وقد أشرت إلى خلل أساسي في تصورنا لأقسام الأدب الإنجليزي بحساباتها نسخة (مشوهة بطبيعة الحال) من أقسام الأدب الإنجليزي في إنجلترا . فنحن نرى أننا لا نقل عنهم في شيء ولا بد أن نلحق بهم ، وأصبح هذا هو شعارنا وهدفنا . ولكن الواقع هو أننا نحاول أن نكون صورة كربونية منهم ، ولذا فنحن ننقل عنهم مقررات أقسام الأدب الإنجليزي ، ثم نقوم بحذف بعض المقررات لنيسر على طلبتنا . ولكن ما ننساه هو أن ما يقابل قسم الأدب الإنجليزي عندنا ليس قسم الأدب الإنجليزي عندهم وإنما قسم الأدب العربي عندهم ، أي أن الأدب الإنجليزي بالنسبة لنا أدب أجنبي (أدب ثان) كما يقولون لغة ثانية) غاماً كما أن الأدب العربي بالنسبة لهم أدب أجنبي . وهذا التصور الجديد يتطلب منا أن نعمل فكرنا لنخرج بتصوير جديد للمناهج والامتحانات في أقسام الآداب الأجنبية . وقد كانت المناقشة مناقشة فكرية حقة ، لا حذلق فيها ، ولا سقوط في الأكاديمية بالمعنى السلبي للكلمة .

وبعد أن قمت بالتدريس بعض الوقت في القاهرة (١٩٦٩ - ١٩٧٥ ، ١٩٧٩ - ١٩٨٣) انتقلت إلى الرياض عام ١٩٨٣ وأقيمت فيها لمدة ستة أعوام ، حيث وجدت نفسي في جو ثقافي متميز . فجامعة الملك سعود كانت جامعة عربية بمعنى الكلمة . فهيئة التدريس فيها كانت تضم أساتذة من كل أنحاء العالم العربي ، مما أتاح لي فرصة التعامل مع هذا التنوع العربي العظيم . والجو الثقافي في الرياض فريد . فمعظم المثقفين هناك ليس عندهم هموم اقتصادية كبيرة . وتفاصيل حياتهم قليلة ، وكنا كإساتذة ضيوف (متعاقدين" كما كنا نُسَمَّى) عندنا من الهموم والتفاصيل ما هو أقل . ونظراً لتفرغنا شبه الكامل هذا ، وجدت نفسي أحضر عدداً لا حصر له من الندوات والجمعيات الثقافية . فعلى سبيل المثال ، كانت هناك ندوة الأدب المقارن التي تُعقد مرة كل أسبوع في كلية الآداب ويحضرها أساتذة من قسمي اللغة العربية واللغة الإنجليزية ، حيث كنا نتناقل في كل الموضوعات في جو أخوي (لا يختلف كثيراً عن الجو في قهوة المسيري في دمنهور) . وهناك ندوة إشكالية التحيز التي أشرت إليها .

كما كنت أحضر ندوة فلسفية باللغة الإنجليزية تجتمع مرة كل شهر ، وتضم الأساتذة الأجانب من لا يجيدون العربية . وقد فتح لي المجتمع السعودي أبوابه ، فكنا نتزاور أنا وزوجتي مع بعض الأسر السعودية ، وهو أمر نادر ، حسبما سمعت .

وقد توطلدت أواصر الصداقة بيني وبين الدكتور عزت خطاب رئيس القسم ، الذي كان حليطاً أصيلاً وفريداً من التقوى والحدائق ، يتحدث عن المنولوج الدرامي وهو يحلج عليه استعداداً للوضوء لإقامة الصلاة . الابتسامة لا تفارق وجهه ، حتى في أحلك اللحظات . كما تعرفت إلى الدكتور سعد البازعي (الذي عاد إلى السعودية من الخارج في نفس العام الذي حضرت فيه) . ونشأت بيننا صداقة فكرية تركت في أعماق الأثر ، ولا يزال نبادل الرسائل والزيارات . لقد كانت الأيام التي قضيتها في السعودية عن حق من أسعد أيام حياتي وأكثرها ثراءً من الناحية الفكرية .

وطيلة هذه المدة (١٩٦٩ - ١٩٩٠) كنت أدرّس الأدب الإنجليزي ، سواء في كلية البنات ، أم كليات الآداب في جامعة عين شمس وجامعة الملك سعود وجامعة الكويت أم في بعض الجامعات في الولايات المتحدة : شعر القرن الفاضل - شعر القرن التاسع عشر (الرومانتيكي - الفيكثوري) - شعر القرن العشرين - النظرية النقدية من أرسطو إلى ما بعد الحدائق - فن القصة - فن الترجمة ... إلخ . وكما أسلفت كنت أدرّس المقررات من خلال موضوعات وفماذج لا من خلال السرد التاريخي المباشر .

وكما أسلفت ، كانت الحياة داخل كلية البنات بوجه عام خالية من الهموم الفكرية . ومع هذا هبّرت عن نفسها من خلال شرعي للنصوص التي كنت أدرّسها ، وفي محاضراتي بشكل عام . وكنت أشعر أحياناً بأنني أثقل كاهل النصوص (والطالبات) بإشكالياتي الفكرية ، وخاصة أنني كنت أحمس طريقي نحو النماذج الأساسية الحاكمة في الموسوعة . وقد وسع هذا من خطابي التحليلي من جهة ، ووضع حدوداً عليه من جهة أخرى . وأخذت الفجوة بيني وبين الطالبات تزداد اتساعاً . وكانت قلة منهن ينتظرن محاضراتي بصبر نافذ ، ولكن الأغلبية كن ينظرن لي شذراً لأنني أتحدث عن أشياء "خارج المقرر" ، وأصبح وجودي في كلية البنات عبئاً ثقيلاً علي وعلى غالبية الطالبات . لذا لم يكن هناك مناس من الاستقالة ، خاصة وأن الموسوعة كانت قد بدأت تحكم قبضتها علي وتطلب مني الولاء الكامل لها .

الأدب ، حبي الأول والقديم

عبر هذه الرحلة الفكرية ، ظل حبي الأول والقديم للشعر والأدب والنقد قائماً ، فأكتب القصائد الشعرية من آونة لأخرى ، ولا أنشرها ، ولا أطلع عليها إلا أقرب الأصدقاء ، فهي قصائد خاصة للعناية ، ذات طابع فلسفي متطرف ولا أعتقد أنها محتاجة (وإن نشرتها فهي ستكون

جزءاً من سيرتي غير الذاتية غير الموضوعية) . كما لم أتوقف قط عن الدراسة الأدبية التي لم تكن خارج نطاق اهتماماتي الفكرية الأخرى . بل إن دراستي الأدبية - كما أسلفت - هي التي عززت اهتمامي بالخصوصية وقضية التحليل من خلال النماذج ، وأهمية الشكل والصور المجازية ، كما أن هذه الدراسة كانت بمثابة تدريب على قراءة النصوص وعلى كيفية تحليل الشكل لنصل إلى الموضوع الأساسي الكامن . كما أن طريقة عرضي لأفكاري قد تأثر ولا شك بدراساتي الأدبية .

والأدب العظيم يتعامل مع الإنسان في أقصى تركيبته ، ولذا فهو يمكن أن يصبح معياراً يكشف من خلاله الباحث اختزالية ما أمامه من نصوص أدبية وغير أدبية . فإذا قرأ نصاً عنصرياً ، فهو سرعان ما سيكتشف أنه يعبر عن فكر اختزالي كسول ، لا يكبد ولا يتعب كي يحيط بتركيبية الواقع وتعدد مستوياته ، وأنه يفتح بإدراك هذا الواقع إما على مستوى واحد وإما من خلال صورة إدراكية واحدة بسيطة أو صورة مجازية اختزالية ساذجة . فالعالم كله - بالنسبة له - بُعد واحد ، يشبه الساعة أو النبات الذي يتبع دورات طبيعية منتظمة ، وهناك منهج واحد لإدراك كل الظواهر ، إنسانية كانت أم مادية ، والبشر دوافعهم كلها مفهومة ويمكن تفسيرها من خلال عامل أو أكثر من العوامل المادية ، وكأن العالم (الطبيعة والإنسان) كيان أحادي مكون من ذرات وأرقام ، كما يتصور بعض الماديين السذج والعلماء البسطاء .

هذا على عكس الأدب العظيم الذي يتسم بأنه يرفض هذه الاختزالية ويحاول أن يعود بالإنسان إلى ذاته ليدركها وليقدرها حق تقديرها ، ولذا فهو يقدم صورة للنفس البشرية بحسبانها كياناً مركباً إلى أقصى حد يستعصي على التفسيرات المادية البسيطة ولا يمكن أن ينضوي تحت القوانين العلمية الرتيبة ، فالعالم بالنسبة للأدب العظيم لا يمكن أن يختزل في بُعد واحد أو أن يُرد إلى مستوى مادي واحد أو أن يسقط في صورة مجازية واحدة ساذجة .

واللغة الأدبية المجازية تنفر من لغة الجبر والقوانين الهندسية ، لأنها تتعامل مع ظاهرة مركبة . ولذا إذا كانت لغة الجبر لغة بسيطة لا تتحمل الإبهام ، وتهدف لوصف الأشكال الهندسية وحركة الكواكب وعلاقة الأرقام والذرات ، وكل ما هو محسوس ويُقاس ، فإن لغة الأدب ، لأنها تتعامل مع الإنسان في أفراده وأتراحه ، هي لغة مجازية تحاول الإفصاح عن المفارقات والتعابير عن الشيء وعكسه في ذات الوقت ، وأن تتعامل مع المحدود واللامحدود والمتناهي واللامتناهي وما يُقاس وما يستعصي على القياس .

إن استخدام المجاز هو في صميمه مؤشر على وجود المجهول في حياة الإنسان (الذي يشير إليه المتدينون على أنه الغيب) ، وعلى أن العقل البشري محدود ، ولكنه مؤشر أيضاً على أن هذا العقل مبدع فعال يتطلع إلى استشراف هذا المجهول وإلى إنشاء علاقة معه ، ولذا فهو يبحث أدوات وآليات يمكنه عن طريقها الإفصاح عن عالم الغيب واللامحدود واللامتناهي .

وفي دراستي عن جمال حمدان ، استخدمت منهج دراسة الصور المجازية ، محاولاً الوصول إلى إحدى جوانب رؤيته التي يصعب الوصول إليها عن طريق منهج آخر . فاشرت إلى أن اللغة المجازية (كما أسلفت) ليست زخرفة كما يتصور البعض ، فالجهاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة البسيطة عن التعبير عنه . ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد ، فإنه كثيراً ما يلجأ للمجاز . وهذا في حد ذاته تعبير أيضاً عن رفضه لفكرة وحدة العلوم . فاللغة الرياضية العامة المجردة التي تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية ، لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية . ففي وصفه لتوزيع اليهود في العالم يقول إنه " ليس صحيحاً أن تحت كل حجر في العالم يهودياً " ، يأخذ صورة الحجر المجازية ويقترح صورة أخرى مشتقة منها ولكنها مع هذا تقف على طرف النقيض منها : " الأصح أن نقول إن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطائر في معظمه يتحول أحياناً إلى تراب رمزي بحث " . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى " رشاش متطائر " ، ثم إلى " تراب " . وفي مكان آخر يتحدث عن نفس الظاهرة فيقول " الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعة علمياً بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منشوراً من النوى والنويات السديمية هناك وهناك " . إن جمال حمدان استخدم نفس الآلية تقريباً التي استخدمها من قبل ، يأخذ صورة " نهر المجرة " ليحوّله إلى " منشور من النوى والنويات السديمية " ، وبدلاً من النور الذي له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز .

ثم طبقت نفس المنهج على مجموعة أخرى من الصور المجازية التي نشي بولائه العربي على حساب جذوره المصرية . فنحن نحب الجدد ونذكره ، أما الأب فنحن ننتمي إليه ، لا سيما إذا كان الأب العربي هو آخر انقطاع في الاستمرارية المصرية " ، خاصة وأن الجدد قد ابتعد كثيراً . فمصر الفرعونية (كما يبين جمال حمدان) لم تعد إلا مكدة في المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ، أما في الوادي فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر . ولهذا فنحن ننهي إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت في مجموعها ، دون أن ينفي ذلك الاستمرارية المحورية في حضارتنا المادية " . ولذا يحذر جمال حمدان دعاة " الفرعونية " (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنية الضيقة كالفينيقية والآشورية) ، فالمقصود من هذه الدعايات نفي القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة " . كما يحذر من دعاة الاستمرارية في الكيان المصري " لا ليعزز أصالة ما ، ولكن ليقفل من جانب الانقطاع ، وبالتالي ليضخم في البعد الفرعوني في تاريخنا فيبعدنا عن عروبنا ويطمس معالمها " .

وطبقت نفس المنهج (أي دراسة الصور المجازية) على تطور تاريخ الأفكار في الحضارة العربية الحديثة ، فبينت أن هذه الحضارة يسيطر عليها صورتان مجازيتان أساسيتان : الآلية (العالم كآلة) والتي سيطرت حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم المعنوية (العالم كنبات أو

حيوان) والتي سيطرت حتى منتصف القرن العشرين . ثم هيمنت ما بعد الحداثة وظهرت مجموعة من الصور التي تبين أن العالم لا مركز له أو أنه لا توجد أي حقيقة .

وفي دراسة أخرى حاولت أن أدرس التمرد على الجواز ورفضه كمؤشر على تغير جوهري وعميق في الحضارة الغربية . فبيئت أن تصاعد معدلات الحلولية والواحدية المادية لا بد أن يؤدي إلى تراجع التجاوز والجواز ، وهذا يتبدى في تزايد استخدام الأيروني «مفارقة ساخرة» أو «الإحساس الساخر بالمفارقة» . وتراجع استخدام الجواز . ولشرح ما هو الأيروني قلت إنه أن يقول المرء شيئاً وهو يعني عكسه . فعين تهب رياح الحماسين وتحمل الأتربة يمكن أن نقول : "يا له من يوم جميل" للتعبير عن الإحساس بالغيب والمرارة . ونحن نشعر بهذا الإحساس الساخر بالمفارقة حين يفرق أحد أبطال البحرية من المحاربين القدامى في حمام السباحة في منزله . يقول الحبيب الحبيبتة في ليلة مقمرة : "أحبك من أعماق قلبي من الساعة ٥،٤٠ حتى الساعة ٦،٣٥ ، وفي عطلة نهاية الأسبوع وفي الأجازات الرسمية وأجازات البنوك !". وهدف المفارقة ليس هو كشف علاقة إنسانية مركبة وإنما تقويض أحاسيس النبل والبطولة والحب وإظهار أنها كلها عبث . وإذا كان الجواز هو عملية تفكيك ثم تركيب ، فإن الأيروني هي عملية تفكيك وتقويض وهدم دون تركيب ، وهي عملية تحويل للعالم إلى ذرات متناثرة لا يوجد فيها هدف أو غاية . وتاريخ الفن الغربي هو تاريخ الصراع بين الأيقنة والحرفية والتفكيك ، مع محاولات متعثرة للمجاز أن يؤكد ذاته ، حتى نصل إلى عصر ما بعد الحداثة حيث يتكون العالم من كلمات لا علاقة لها بالواقع ومن أيقونات بلا إله ولا معنى ، ولذا فهي ذاتها ذرات متناثرة . وحينما ذهب إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ صدمني خوف الناس من التعبير عن عواطفهم ولجؤهم للأيروني ، لتعاشي التعبير عن العواطف .

وقد كتبت العديد من المقالات الأدبية ، وكان من أولى مقالاتي دراسة عن إبراهيم ناجي (الذي كنت أكتب عنه رسالة للماجستير) أتحدث فيها عن النقد بصفته عملية تفكيك وتركيب (متأثراً في ذلك بمحاضرات أستاذي د. محمد مصطفى بدوي وكتابات ت. س. إليوت) . وقد أرسلت بها إلى إحدى كبريات الصحف فوجدت طريقها إلى النشر بعد أن قام أحد كبار الكتاب (وهو لا يزال يكتب حتى يومنا هذا) بنشر المقال ، ولكن بعد أن نسبته لنفسه . وقد نُشر أول مقال أدبي باسمي عام ١٩٦١ ، وكان عرضاً لكتاب كتبه أحد النقاد عن إبراهيم ناجي ، وكان مقالاً تفكيكياً هجومياً . ثم نُشر أول مقال أدبي حقيقي في مجلة الشهر في العام نفسه بعنوان "بين التراجيديا والإحساس بالحزن" ، وهو دراسة في رواية نجيب محفوظ بداية ونهاية ومسرحية تنسي وليامز نزول أورفيموس . وحينما أنظر إلى هذه الدراسة بعد مرور كل هذه السنوات أرى أنها دراسة في النماذج المنفتحة (التراجيديا بما فيها من مقدرة على الاختيار المأساوي وعلى تجاوز الواقع المباشر) والنماذج المغلقة (الإحساس بالحزن الناجم عن الحتمية والخضوع للبيئة) .

وقد أشرت من قبل لسلسلة الألف كتاب التي نشرت الترجمة التي قمت بها لبعض النصوص الأساسية للرومانتيكية الإنجليزية بالاشتراك مع الأستاذ علي زيد . فاعدنا ترجمة النصوص ، وأضفنا بعض النصوص الأخرى ، وقمت بكتابة تعليق على كل نص وصدر بعنوان الرومانتيكية الإنجليزية: النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (١٩٧٩) . وهذا الكتاب محاولة لتقديم النصوص الأساسية للحركة الرومانتيكية (أكثر من مائة قصيدة) في الشعر الإنجليزي حتى يكون بوسع القارئ العربي الذي يجهل الإنجليزية أن يلم بهذه النصوص إلماماً تاماً . ويقدم الكتاب كذلك منهجاً لترجمة النصوص الشعرية ، وقد قمت بكتابة تعليق نقدي على كل القصائد ، كل قصيدة على حدة ، استخدمت فيه نموذج الحلولية والتجاوز ، والصراع داخل الذات الإنسانية بين النزعة الإنسانية (الرومانسية) نحو التجاوز من جهة ، والنزعة الجنسية / الطبيعية نحو التوحد مع عالم الطبيعة / المادة والذوبان فيها من جهة أخرى ، أي أنني استخدم تاريخ الأفكار مدخلاً لفهم شكل العمل الفني وبنية .

كما كتبت مجموعة مقالات عن الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والرؤية الرومانتيكية للكون ، نشرت بشكل متفرق عبر الثلاثين عاماً الماضية . وكل مقال يدور حول قصيدة بعينها أحللها بصفتها بلورة للحظة تاريخية ، ومن ثم فهي تعبر عن نموذج معرفي كامن يتبدى في كل تفاصيل القصيدة ، وهو مصدر وحدتها وتماسكها . وكل مقال محاولة للوصول إلى الموضوع الأساسي الكامن في القصيدة (نموذجها المعرفي) وتعريفه ، ثم دراسة تديياته الجمالية ، أي أن النموذج كأداة تحليلية يحل إشكالية الانتقال من عالم المضمون إلى عالم الشكل (ومن البناء التحتي إلى البناء القومي ، إن أردنا استخدام المصطلح الماركسي) . وأقوم في الوقت الحالي بجمع هذه الدراسات في كتاب عن تاريخ الرومانتيكية الإنجليزية من خلال نصوص . كما أنوي إن شاء الله كتابة دراسة نقدية عن القصيدة القصصية " الملاح القديم " للشاعر كولبردج .

وكتبت أيضاً دراسة في شعر الهايكو الياباني Haiku ، وترجمت (بالاشتراك) مسرحية الفعاحيات الهادئ Pacific Overtures (تأليف ستيفن سوندايم وجون ويدمان) ، وهي مسرحية موسيقية غنائية تتناول تحديث اليابان ، فشير إلى أن اليابان القديمة في أيام حكم الشوجن (الإقطاع العسكري) ، جميلة وغير حقيقية ، أما اليابان الحديثة فهي حديثة وثرية وملوثة بيئياً . واستخدم الكاتب الأنواع الأدبية المسرحية والشعرية اليابانية المختلفة (النو - الكابوكي - الهايكو) في تقديم رؤيته المسرحية (وكان الأستاذ الشاعر صلاح عبد الصبور قد قبل نظم هذه المسرحية ، لولا أن وافته المنية) .

وكانت المسرحية قد نالت عدداً كبيراً من جوائز توني Tony Awards ، وهي أهم الجوائز المسرحية في بروودواي ، ولكنها مع هذا لم تجد إقبالاً جماهيرياً فتوقف العرض . فانصلت بالمؤلف سوندايم تليفونياً واقترحت عليه أن يكتب مسرحية غنائية عن سقوط الأندلس ،

بحسبان أن الأندلس كانت لحظة (ورقة) لقاء ومواجهة بين الشرق والغرب ، وأنها بهذا المعنى تشبه في كثير من النواحي اليابان في منتصف القرن التاسع عشر عند غزو الغرب لها . فمُعبر عن إعجابه بالفكرة ولكنه أضاف أنه لا يجب أن يكرر نفسه قط . وبعد أن قمت بدراسة مسرحياته الغنائية الأخرى ، وجدت أنه كان صادقاً فيما يقول . وهذا ما بينته في المقدمة الطويلة التي كتبتها ، والتي تناولت فيها الأنواع الأدبية اليابانية ، كما تناولت قضية تحديث اليابان وحسابات المكسب والخسارة الناجمة عن هذه العملية .

ومن دراساتي الأخرى دراسة مطولة في شعر نحمنا بياليك وشوشول تشرنخوفسكي ، وكلاهما شاعر روسي يهودي صهيوني ، ويُعدُّ شعرهما من أهم المداخل لفهم الصهيونية .

ومصدر لي عدة كتب في الأدب الفلسطيني أولها هو العرس الفلسطيني The Palestinian Wedding: A Bilingual Anthology of Contemporary Palestinian Resistance Poetry ، الذي صدر عام ١٩٨٣ ويضم مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطيني قمت باختيارها وكتابة مقدمة طويلة لها . وكنت قد أصدرت مختارات أخرى مزدوجة اللغة أيضاً في عام ١٩٧٢ بعنوان عاشق من فلسطين A Lover from Palestine . والكتاب الثاني منقسم إلى موضوعات : جماليات المقاومة - في المراثي - في حب فلسطين - الصمود والمقاومة - الانتصار ، على عكس الكتاب الأول الذي كان يقدم مختارات من شعر كل شاعر على حدة (أي أن نفس التحول الذي حدث في طريقة التدريس [بدلاً من تدريس قصائد كل شاعر على حدة ، ثم تدريسها من خلال موضوعات] قد حدث أيضاً في كتاب المختارات) .

أما الكتاب الثاني ، فهو أرض الحجر والزعر شمع فخر قس وإليخاز بن حنانيا ، ويضم مختارات من القصص القصيرة الفلسطينية قمت بترجمتها (بالاشتراك مع ابنتي الدكتور نور) وترتيبها حسب موضوعات . والقصص التي تضمها اختارات ليست بالضرورة قصص مقاومة ، فبعضها يتناول إشكاليات إنسانية عامة . وتلعب المختارات حول الموضوعات التالية : ظلال الفردوس المفقود - منفيون في الأرض - لاجئون في أرض معادية - بابل - الموت في الحياة والحياة في الموت - أحلام الفردوس والعودة له . وقد كتبت ابنتي مقدمة طويلة للمختارات .

وترجمة هذا الكتاب لها قصة تستحق أن تُروى بسبب دلالتها ، إذ تسلّمت يوماً خطاباً من الناشر الأمريكي المعروف فاير آند فاير Faber and Faber (في بوسطن ، الولايات المتحدة) يتوقع الآسة سرزان زاسلو Susan Zaslow تقترح فيه أن أقوم بترجمة قصص قصيرة فلسطينية إلى الإنجليزية لتُنشر في سلسلة القصص القصيرة التي تنشرها الدار . فاجبت بأنه ليس لدي متسع من الوقت (بسبب الموسوعة) ولكن يمكن أن أقترح اسم مترجم آخر . فأجاب الآسة المذكورة إن الناشر يصّر عليّ حيث إن اسمي أصبح معروفاً إلى حدٍّ ما بعد نشر مختارات الشعر

الفلسطيني . وحيث إنني لم أرد تضيق الفرصة (أن ينشر كتاب بالإنجليزية يضم قصصاً قصيرة فلسطينية تصدره دار نشر معروفة) ، وافقت شريطة أن تشترك ابنتي في الترجمة . فرحبت الآنسة زاسلو بالاقترح الأخير وأرسلنا لها عينة من الترجمة ، فكان ردّها مشجعاً لأقصى حد ، ومن هنا بدأنا نعمل ووضعنا جدولاً للنشر .

وكان العمل شاقاً ، خاصة وأن عدد كتاب القصة القصيرة بين الفلسطينيين كبير بالفعل ، فاستعنا ببعض مساعدي الباحث لإنجاز عملية الاختيار . (فكما أقول مازحاً إن معظم أبناء الشعب الفلسطيني مؤلفون وكتاب ، وليسوا كلهم - بطبيعة الحال - محمود درويش . بل إن بعض من يسمي نفسه كاتب قصة قصيرة ، وحقق ذبوعاً من خلال المؤسسات المهيمنة ، لا يستحق هذا اللقب ، لأن قصصه رديئة بأي معيار ، مهما كان هذا المعيار سمحاً ورخواً) . كما كانت الترجمة هي الأخرى مرهقة للغاية ، فطلبنا من بعض المترجمين أن يقدموا لنا ترجمة أولية ، على أن نقوم نحن بمراجعتها وصقلها . وكان هناك آلاف التفاصيل التي لا يعرفها إلا الفلسطينيون ، فاستعنا بالمعاجم ، وطلبنا العون من معارفنا الفلسطينيين (وبخاصة صديقي د . أحمد صدقي الدجاني) ، إلى أن اكتملت التراجم ، وأرسلنا بها للناسر ، الذي قام على الفور بإرسال بعضها ليتم تسويق الكتاب في مؤتمر Middle East Studies Association المعروف بـ MESA (مؤتمر جماعة دراسات الشرق الأوسط) . بل طلب منا الناشر صوراً فوتوغرافية ليّ أنا وابنتي لتوضع على ظهر الكتاب ، بعد أن تم تصميم الغلاف ، ونزل إعلان بالفعل عن الكتاب ضمن قائمة الكتب التي كانت على وشك الصدور عن دار فابر آند فابر .

ولكنني طوال الوقت كان السؤال التالي يراودني : كيف يمكن لدار نشر كبيرة مثل فابر آند فابر أن تنشر مختارات من القصص القصيرة الفلسطينية يرد فيها ذكر لاغتصاب الأرض الفلسطينية والكفاح الفلسطيني ضد الاستعمار الصهيوني ؟ جاءني الجواب بشكل غير مباشر ، حين ذهبت إلى بوسطن ودعوت الآنسة سوزان زاسلو إلى طعام الغداء ، واكتشفت أنها فتاة صغيرة للغاية (لا تتجاوز الخامسة والعشرين) ، وأنها من أصل يهودي ، ولكنها كانت يهودية مندمجة تماماً في المجتمع الأمريكي ، ورؤيتها للصراع العربي الإسرائيلي معتدلة للغاية ، فقد كانت ليبرالية بمعنى الكلمة . وأخبرتني بأن فكرة كتابة مختارات القصص القصيرة كانت من بنات أفكارها (" هذا طفلي This is my baby " على حد قولها ، فعرفت ، أنها مثل أستاذي ، لا تفهم نظرية الخطوط الحمراء) . ويبدو أنها حين وقع اختيارها على هذا الموضوع لم تفكر في بُعد السياسي وتصادف أنه لم يراجعه أحد في المؤسسة .

واختلف الأمر كثيراً حينما وصلنا للمراحل النهائية ، إذ اكتشفت المؤسسة طبيعة الكتاب ونوجهه . ورجاءاً وصلني خطاب رقيق للغاية من الآنسة سوزان زاسلو تخبرني فيه بأنها مستقيل من وظيفتها ، لأنها ستعمل محررة في مجلة علمية ، ولكنها في تصوري والله أعلم

- اضطرت للاستقالة . ومن ثم عهد بالكتاب إلى موظفة أخرى تسمى فيونا ماكراي (ويدل اسمها على أنها غير يهودية) . وحينما اتصلت بالسيدة المذكورة قيل لي إنها غير موجودة في المكتب ، فتوجست خيفةً ، وعرفت أنه سيحدث شيء ما . وبالفعل وصلني خطاب من فابر آند فابر (بتوقيع السيدة المذكورة) يقولون فيه إنه لن يمكنهم نشر الكتاب بسبب أسلوبه ، ولأن استجار محرر الكتاب سيكلفهم الكثير . فكتبنا لهم نخبرهم بأن أسلوب الكتاب كان اختياراً واعياً من جانبنا حتى يشعر من يقرأ الكتاب أنه يقرأ أدباً أجنبياً (وهذه هي رؤية ابنتي للترجمة ، مع العلم بأن لغتها الأم هي الإنجليزية رغم إجادتها العربية) . ولكننا أضفنا أنه مع هذا ، ونظراً لاهتمامنا بالكتاب ، لن نمانع في أن ينظر المحرر فيه ويستدفع نحن أتعابه . فلم يصلنا أي رد على خطابنا ، فعرفنا أن القرار بعدم النشر كان قراراً سياسياً وتم تغليفه بطريقة قانونية . ولم أتمكن من مقاضاتهم لأنني كنت ساذجاً عند توقيع العقد ، فلم أضع نصوصاً تقطع عليهم طريق العودة . وقد نشرت دار كوارتت الكتاب ، وتقوم بتوزيعه في أنحاء العالم . وستطبع من الكتاب طبعة أمريكية . المهم في هذه الحادثة أنها تؤكد نظرية الخطوط الحمراء ، وتهدم مسألة المأمرة اليهودية من أساسها ، فالمسألة هي مسألة حدود الإدراك الغربي ، وليست أصابع اليهود التي توجد في كل مكان .

وقد عبر اهتمامي بالأدب عن نفسه في اهتمامي بالثقافة الشعبية ، فكتب مقالاً عنوانه "تأملات في الواد الثقيل والقلب الكاروهات" (نشر في الأهرام) . وهو جزء من دراسة مطولة عن فيلم "خلي بالك من زوزو" الذي رأيناه عدة مرات . وقد لاحظت أن الفيلم يتناول نقطة التحول في الرؤية المصرية للفتاة نحو مزيد من التحرر في العلاقة بين الجنسين . وقمت بتحليل أغنية "يا واد يا ثقيل" . ولي دراسة أخرى عنوانها "أفراح عكاشة وأحزان فانت حمامة" (نشر في الطليعة) ، وهي دراسة في مسلسل تليفزيوني أبين فيها نفس عملية الانتقال هذه . و"فانت حمامة" هنا نموذج الفتاة البريئة في الأفلام المصرية القديمة ، هي دائماً ضحية ، ولا تفهم عقلية الذئاب الذين يردون انفراسها ، دائماً شاحبة الوجه (وكل هذا طبعاً دليل على رفقتها المتنامية وشفافية روحها) . هذا على عكس الفتيات اللاتي يتحركن حول المعلم عكاشة ، فهن جريئات ، يتحركن صوب ما يردن أخذه (أو كما قالت زوزو في الفيلم السابق ذكره : وما سيل المطالب بالتمني/ ولكن تأخذ الدنيا كدهه) . وفي إحدى مناظر المسلسل التليفزيوني يجلس المعلم عكاشة وعلى يمينه راقصة وعلى يساره طالبة جامعية ، "فيعتبر" (أي يُقبل) الواحدة تلو الأخرى بالعدل والقسط لا فرق بين الواحدة والأخرى . عند هذه النقطة أدركت أن كثيراً من الحوارات أو الحدود بين الراقصة والعذراء في مجتمعنا قد تآكلت وأنها في طريقها للزوال . (احتج أحد النقاد الماركسيين بأن التعامل مع الحب والجنس يتعد بنا عن الدراسة الواعية للشيء الحقيقي الوحيد : "الاقتصاد" . وكما قال لي : "لقد اتفقنا على أن المسألة ، في نهاية الأمر ، اقتصادية ،

فلم تضيق وقتك ، فأخبرته بأنني لم أوفق على مثل هذا الاتفاق) .

وحينما تقدمت لوظيفة أستاذ مساعد كانت هاتان الدراستان (إلى جانب دراستي عن مسلسل فرسي للأطفال كان يُذاع في رمضان باسم "وبي الحبوب") ضمن ما تقدمت به للترقية . ولكن لزمّت اللجنة التي قيّمت أعمالي الصمت ، فلجان الترقية الأكاديمية لم تتعود على مثل هذه الدراسات في الثقافة الشعبية ، وتطلب دائماً أن يتقدم المرء بدراسات "أكاديمية" بالمعنى السلبى للكلمة .

ومن الموضوعات التي أصبحت مركزية في فكري قضية ما بعد الحداثة . وكما أسلفت ، كان أول مقال كتبته عند عودتي إلى مصر عام ١٩٦٩ هو مقال عن حضارة الكامب ، وهو أساساً عرض لكتاب سوزان سونتاج ضد التفسير . وكل أفكار ما بعد الحداثة موجودة في هذا الكتاب ، دون تسميتها . ويؤرخ البعض لظهور ما بعد الحداثة بظهور هذا الكتاب . فالفرضية مطروحة في ذهني ، دون تسمية . ومع هذا أغلقت الملف نظراً لانشغالي بالموسوعة . وحين طلب مني صديقي د . عزت خطاب رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الملك سعود (عام ١٩٨٤) ، أن أقدم محاضرة عن موضوع ما بعد الحداثة هذا ، اعتذرت في بادئ الأمر ، ولكنه أصر . فاشترت بعض الكتب وقرأتها وذهلت بما رأيت وفهمت ، لذا لم أكتف بأحاضرة التي أقيمتها في النادي الأدبي في الرياض ، بل كتبت ونشرت عدة دراسات سأضمها إن شاء الله في كتاب عنوانه التعديت والحداثة وما بعد الحداثة أذهب فيها إلى أن ما بعد الحداثة لا تشكل انحرافاً عن الحضارة الغربية ، وإنما هي كائنة في نموذج الحداثة نفسها وما أسماه «نزعتها التفكيكية» لأنها جعلت من قوانين المادة الطبيعية معياراً لكل شيء ، بما في ذلك الظاهرة الإنسانية . ولكن القانون الطبيعي لا يعترف بأي مطلقات ، إذ إنه يقوم بتفكيك كل شيء بما في ذلك الإنسان . ومع تفكيك كل شيء نصل إلى العدمية الكاملة أو إنكار المركز ، إلهياً كان أم إنسانياً ، وإنكار القيمة ، بل الحقيقة ، ومن ثم القدرة على الحكم ، أي أننا وصلنا إلى مرحلة ما بعد الحداثة واللاعقلانية المادية .

وقد حدثت بعد ذلك احتكاكات مباشرة مع مفكري ما بعد الحداثة أو التفكيكية . ففي عام ١٩٨٨ ، رتبت السفارة الأمريكية في عمان حواراً تليفونياً بين مجموعة من أساتذة الأدب الإنجليزي والأستاذ هليس ميلر ، وهو من أهم دعاة التفكيكية ، بل ويضعه البعض في مرتبة چاك دريدا نفسه . وقد سألته عن سر اهتمام زميله هارولد بلوم بالخصومة والقبالة اليهودية اللوريبانية (وهي شكل من أشكال الحلولية التي تصل إلى مرحلة وحدة الوجود) ، فقال إنه لا يعرف عم أتحدث ؟ فأشرت إلى أن بلوم كتب ما سماه رواية غنوصية ، وأنه يستخدم مصطلحات من القبالة اللوريبانية في نقده الأدبي . فكان رده هو : فليسأله فهو أقدر على الإجابة !

أما ثالث احتكاك فكان مع تشارلز جنكز ، وهو مفكر معماري يُعد من مؤسسي تيار ما بعد

الحدث ، وكان قد حضر إلى القاهرة لحضور مؤتمر عن العمارة . وقد فوجئت بحديثه عن القيم المطلقة و"أخلاقيات ما بعد الحدث" وربطها بالوعي الكوني . وقد سأله : كيف يمكن توليد منظومة أخلاقية من الوعي الكوني ، وهي عبارة غامضة تعني الذوبان في حركة الكون ، بحيث يكون وعي الإنسان تعبيراً عن هذه الحركة ؟ فقال : إن هذا سؤال صعب للغاية . وبدأ يكرر ما قاله من قبل . وقد عدت لبعض المراجع المتوافرة عما بعد الحدث والتي أفردت أجزاء كبيرة للحديث عن جنكز ، فوجدت أن فكره لا يتسم بالعمدية الراديكالية التي تسم فكر دريدا ، فهو لا يزال يدور في إطار إنساني يفترض وجود الذات والموضوع ، والمبدع ومتلقي الإبداع .

ولكن أهم الاحتكاكات قاطبة كانت مع جنكز دريدا في القاهرة ، فقد زعم أن التفكيكية لا علاقة لها بما بعد الحدث ، وأنها ذات نزعة إنسانية (هومانية) . وقد طرحت عليه عدة أسئلة من بينها : هل يمكن تفكيك التفكير ؟ وأضفت قائلاً إننا إن فشلنا في ذلك فإن التفكير يصبح مطلقاً ، ونعود مرة أخرى للعالم المتمركز حول اللوجوس (الكلمة) التي يحاول دريدا أن يفككه ، ولكنه تمحاضى الإجابة عن هذا السؤال .

ويوقع دريدا بعض دراساته باسم الحاخام دريدا . وقد كتبت سوزان هاندلمان دراسة تبين فيها الدور التفكيكي للمنشقف اليهودي (فرويد - ماركس - دريدا) في الحضارة الغربية ، وهي رؤية صهيونية / معادية لليهود في الوقت نفسه ، إذ إنها ترى أن اليهودي شخصية فريدة ، مختلفة ، لا جذور لها ، تقوم بتفكيك الحضارة الغربية وكل نصوصها الأساسية (المقدسة والعلمانية) . ومثل هذا الحديث في الغرب ، حيث يجدون الاعتراب والعمدية والتفكيك ، مسألة إيجابية . ولكن في بلد مثل مصر فنحن لا نجد أي شيء إيجابي في أن يقوم المنشقف بتفكيك النصوص دون أن يطرح بديلاً ، والاعتراب بالنسبة لنا مرض وليس شيئاً نفتخر به .

سألت دريدا في البداية هل تعرف سوزان هاندلمان ؟ فأجاب بالإيجاب . ثم شرحت له وجهة نظرها بشيء من الإفاضة ، فإذا به يشيح بيديه ويقول : أسأل سوزان هاندلمان . وقد ضحك الحاضرون لأن كثيرين منهم كانوا يعرفون أنني كنت أنوي استغزازه ، لأنه مثل الجوكو ، يقوم بالسخرية من يسأله وي طرح وجهة نظر مغايرة . (وقد كتبت ثلاث مقالات مجلة وجهات نظر بعنوان دريدا في القاهرة ، أعرض فيها لرؤيته الفلسفية ، وجدورها الحضارية وعلاقتها باليهودية) .

كتابات أكاديمية أدبية

بطبيعة الحال كتبت بعض الدراسات الأكاديمية "الصالحة للنشر" في المجلات الأكاديمية والتي / يتقدم بها أساتذة الجامعات إلى لجان الترقية . وحيث إن مجال تخصصي هو الأدب الإنجليزي والأدب المقارن ، فهي كلها تدور حول هذا الموضوع . وقد حرصت على جسد المراجع في هذه

الدراسات ، ولذا نوهت بها اللجان التي فحّصت إنتاجي العلمي . فعلى سبيل المثال حينما تقدمت لشغل وظيفة أستاذ مساعد ضمت الأبحاث التي تقدمت بها دراسة بعنوان " النبات والتربة . مقارنة بين خلفيتي وردزورث وويتمان غير الأدبيتين " (أي الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية) ، وهي دراسة لا بأس بها ولكن مسنها الأساسية أنها تضم حشداً كبيراً من المعلومات . وقد عدت اللجنة التي فحّصت أعمالي للترقية هذه الدراسة أحسن ما تقدمت به . وكما قال لي أحدهم فيما بعد : " لقد أتيت بجديد " ، والجديد هنا هو المراجع الجديدة والمعلومات الكثيرة التي توجد فيها ، والتي قمت بحشدها . وقد حرصت على زيادة عدد المراجع بقدر الإمكان ، بل كنت في بعض الأحيان أنسب بعض أفكاري للمراجع إن حدث اتفاق بيني وبينها ، حتى أخلق نكاة لكتابة عنوان مرجع جديد وأرضي شهوة الأساتذة الذين قاموا بتقييم أعمالي لمزيد من " التوثيق " و " المراجع الجديدة " . وهذه الشهوة مردها وهم الموضوعية المتطرفة (الذي أشرت إليه بالتفصيل من قبل) وتصور أن المعرفة الإنسانية معرفة تراكمية ، وبالتالي تكون آخر المراجع ، التي أتت بآخر المعلومات ، هي أفضلها (وتظل هذه العملية مستمرة إلى أن يقول أحد الأجناب القول الفصل !) .

ويبدو أن هذا المرض ، أي مرض إحصاء عدد المراجع بحسابه معيار العلمية والجدية ، قد تجاوز أسوار الجامعة . أذكر أنني تقدمت مرة بمقال مجلة شهرية عن وولت ويتمان عبارة عن تحليل لبعض نصوصه الشعرية أبين من خلاله أن أحسن القصائد التي كتبها ويتمان تشبه من نواح كثيرة الفلسفة البراجماتية : فهي قصائد قصيرة لا تتوجه إلى أي قضايا كلية أو نهائية ، وتركز على الصورة أو الشيء المباشر الموجود أمام ناظري الشاعر . فرفضته المجلة بحجة أنه لا توجد فيه مراجع . وحاولت أن أشرح للمحرر أن المقال هو تحليل للنصوص من الداخل قمت به دون عودة لأي مرجع ، ومن هنا فإن قراءتي للقصائد جديدة تماماً . ثم أخبرته بأن المقال - في واقع الأمر - هو فصل من رسالتي للدكتوراه . ولكن دون جدوى ، فاضطرر لم يقتنع . واضطرت إلى نشره بعد عدة سنوات في مجلة تُعنى بالثقافة في لبنان .

ومع هذا ، كانت دراساتي الأكاديمية تُعبر عن بعض همومي الفكرية (كما حدث في رسالتي للدكتوراه) . فكتبت دراسة عنوانها « الورطة الترانسندنتالية - Transcendentalist Pre-dicament » درست فيه نموذج التمرّكز حول الذات الذي يؤدي إلى التمرّكز حول الموضوع (أحد أهم سمات المردج العلماني الشامل) في كتابات إمرمون وثورو وغيرهما من كتّاب الحركة الترانسندنتالية . وقد ذهبت في هذه الدراسة إلى أن مصدر هذا النموذج هو البحث عن حرية مطلقة للذات ، حرية مستحيلة التحقيق ، تؤدي إلى العكس تماماً ، فهي حرية تآكل نفسها بنفسها . كما حاولت في مقال آخر عنوانه " بنيات أخلاقية Moral Structures " (قراءة لفصل من رواية موبسي Moby Dick للمفيل Melvilles وقصة " ابنة رباتشيني Rappaccini's

Daughter' لهوثورن Hawthorne) أن أبين العلاقة بين التحليل الجمالي والتحليل الأخلاقي الأدبي . وفي دراسة لمسرحية إيسن بيت آل ووثرم درست نموذج الانتقال من البراءة إلى الخبرة أو من التبسيط والاختزال إلى التركيب ، وهو ما فعلته في عدة دراسات أخرى .

كما كتبت دراسة بعنوان "جدلية الإنسان والطبيعة في كتاب ثورو المعنون وولدن Waiden Dialectics of Man and Nature in Thoreau's حيث بينت أن ثورو بغلت من نموذج التراجع بين التمرکز حول الذات والتمرکز حول الموضوع ويصل إلى نموذج جدلي مركب لا يستسلم للطبيعة ولا يحاول غزوها وإنما يحاول الاتزان معها . وطورت مفهوم «الصراع الهادئ» (بالإنجليزية : gentle conflict) . (في المعجم الإسلامي «التدافع» ، وهو مصطلح لم يكن جزءاً من معجمي بعد) حيث نجد أن الإنسان ليس مجرد جزء من الطبيعة ولا قاهرها ، وإنما هو سيد لها ، طيب رحيم ، يستمد مقومات بقائه منها ، ولكنه مع هذا يحتفظ بعلاقة وثام معها .

ومن أهم الدراسات التي كتبها - في تصوري - ومن أكثرها قرباً إلى قلبي مقال "مواظف قصصية عن الضرورة والحربة" تأليف مخرج من قس همز زرقع خفسر همز كنزن نضف الذي يدور حول مقارنة بين حكاية الفرانكلين بنهمز همز فطع فم بنهمز من قصيدة حكايات كالفيري لتشوسر (بحسبها قصيدة قصيدة لا تزال على عتبات الحدائنة والعلمنة وحسب ، ومن هنا فهي قد تسقط في الختمية ولكنها تنهض مرة أخرى لتؤكد إمكانية التجاوز والتراحم وترفض الختمية) . ومسرحية برخت القاعدة والاستعفاء (بحسبها قمة الحدائنة والعلمانية الشاملة وهيمنة التعاقد والختمية) ، فهي دراسة بين نموذجين معرفيين إدراكيين (واحد متمركز حول الإنسان والآخر متمركز حول الشيء) يقفان على طرف النقيض (أي أنه دراسة في الصراع القديم بين الإنسان والطبيعة / المادة) .

والفرانكلين يقف بين عالمي البورجوازية (الشعائدي) والعالم الإقطاعي التقليدي (التراحمي) ، فهو من أصول طبقية متواضعة ولكنه اشترى بعض الأرض ، ومن ثم فهو رمز الانتقال ، تماماً مثل قصته التي تقع أحداثها في العصور الوسطى ، وموضوعها هو التناقض بين التعاقد والتراحم . تبدأ القصة بالفارس أرفيراجوس Arveragus يودع زوجته الحبيبة دوريجين Dorigen قبيل ذهابه في رحلة طويلة . وبعد رحيله يأتي الشاب أوريليوس Aurelius ليخبر عن حبه لها ، وعن رغبته فيها . وفي لحظة يأس تعدد دوريجين بأن تمنحه نفسها إن هو أزال صحر السحر الكريهة التي تهدد حياة زوجها . فيذهب أوريليوس إلى أخيه العالم ، الذي كان يعرف كتاباً عن السحر الطبيعي (والسحر هو سلف العلم ، وأيديولوجية الغزو والقوة والتحكم) . ثم يذهب الاثنان إلى أورليانز (في فرنسا) حيث يقابلان هناك ساحراً عظيماً ، يبين لهم مدى جبروته وقدرته على تنفيذ رغبات "زيائنه" نظير ما يطلبه من أتعاب . وحينما يتأكد

الساحر من أنه سيحصل على أتعابه كاملة يحضر جداوله الفلكية . ومن خلال الحسابات والمعادلات تحدث «المعجزة» . حينئذ يخر أوريليوس عند أقدام سيده الساحر ويذهب إلى دوريجين ليمتلكها كما أراد ، وكما وعدت .

عند هذه النقطة في القصة الشعرية ، تفقد كل الشخصيات حريتها بشكل أو بآخر ، وتدحل دائرة التعاقد التي لا فكاك منها . فدوريجين ملتزمة بوعدها لأوريليوس ، وأوريليوس مدين للساحر بدين ثقیل ، والساحر يطلب نقوده ، وأوفيراجوس ملتزم بوعده زوجته . وهنا تفكر دوريجين في الانتحار ، قمة الحتمية وإلغاء الذات .

ولكن مقدمة «قصة الفرانكلين» تختفي بعالم آخر ، عالم ليس فيه منتصر أو مهزوم ، حيث لا يوجد ديون تُدفع أو حسابات تُسوى ، فالحب هو الذي يجمع بين الفارس أرفيراجوس وزوجته دوريجين . ومن خلاله يحدث التحول في القصة القصصية ، إذ تقرر دوريجين أن تصارح زوجها بالأمر كله . فيرفض أرفيراجوس أن يخضع لقوانين التعاقد والضرورة الخارجية والمصلحة الأنانية - سواء أكان ذلك غيرته على زوجته أو حقه في السيادة الزوجية - ويقرر أن يسلك سلوكاً يتفق مع القوانين الأسمى . فعلى حد قوله : "إن الصدق هو أسمى الأشياء التي يمكن للإنسان الحفاظ عليها" . ولذا بدلاً من أن يصر على رطل اللحم ، ينفض عن نفسه شيطان شيلوك التعاقدي ويطلب من زوجته أن تفي بالوعد الذي قطعته على نفسها . وهكذا تفتح الدائرة المغلقة ، وتنحصر القوانين الداخلية للحب الإنساني على الضرورة الخارجية العمياء . وتختار كل الشخصيات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحرية . فالحب الإنساني الذي أظهره أرفيراجوس يغمر أوريليوس بالإعجاب ، فيتخذ قراره بأن يعيد دوريجين إلى زوجها وحسب ، ويقطع على نفسه عهداً "أن يقول الصدق وألا يكذب" . وعندئذ يذهب إلى الساحر ليخبره عن تلك الحرية الجديدة التي تنبع من التزامه الداخلي بالقانون الإنساني الذي يتجاوز كل الحتميات . فيغمر الساحر الإعجاب بهذا الموقف . ولذا بدلاً من أن يصر على حقه النقدي، يتعرف هو الآخر على الحرية التي تسم الوجود الإنساني الحق - حرية الانصياع للقانون الإنساني الداخلي ، وليس قانون الضرورة الخارجي . ولذا يقرر أن يحدد حذو هذا الفعل النبيل ويتنازل لأوريليوس عن الدين . وهكذا تنتقل من عالم التعاقد والصراع البراني إلى عالم الحب والتراحم الجرائي .

هذه باختصار أحداث القصة الشعرية التي تقع في العصور الوسطى وتحتفي بالحرية والحُب الإنسانيين ، أما أحداث مسرحية برخت القاعلة والاستثناء فتقع في العصر الحديث ، وموضوعها التعاقد والتنافس الاقتصادي . وتحكي قصة تاجر يود أن يغبر الصحراء ليصل إلى آبار النفط قبل غيره كي يستعلاها .

تتحرك معظم شخصيات المسرحية في إطار مفهوم الإنسان بوصفه فرداً منعزلاً أو وحدة مفصلة عن غيرها من بني البشر ، لا يدفعه ولا يحركه سوى المصلحة الاقتصادية الفردية .

ويتبدى هذا بشكل واضح في شخصية التاجر الذي يعومل الآخرين ويوظفهم لحسابه . فهو يستأجر مرشداً يذله على الطريق ، ثم يفصله لارتفاع أجره . ويستأجر بعد ذلك حملاً لحمل أمتعته وحسب ، فالتاجر إنسان اقتصادي يرد كل شيء إلى المستوى الاقتصادي ، ولا يمكنه الدخول في أي علاقات إنسانية ، فكل علاقاته علاقات تعاقدية نفعية صرفة .

ويقوم التاجر ، في إحدى لحظات جيشانه الغنائي الدارويني النيتشوي ، بالربط بين استغلاله "لأخيه" الإنسان ، واغتصابه "لأمة" الطبيعة :

لَمْ تَنْحَنِي الْأَرْضَ نَمَطَهَا ؟

وَلَمْ يَحْمِلِ الْحِمَالُ مَتَاعِي ؟

كَيْ نَحْصَلَ عَلَى النَّفْطِ لَا بُدَّ أَنْ نَتَصَارَعَ مَعَ الْأَرْضِ وَمَعَ الْحِمَالِ .

إن موقف السيطرة والتحكم هذا يصل إلى قمته الدرامية حينما يقوم التاجر بتصويب مسدسه إلى ظهر الحمال ، ويضطره إلى عبور النهر . ومرة أخرى يصعد التاجر أغنيته النيتشوية الداروينية :

هَكَذَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهَيِّمَ عَلَى الصَّحْرَاءِ وَعَلَى النِّهْرِ الْمُنْدَفِعِ ،

هَكَذَا يَهَيِّمُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْإِنْسَانِ .

النَّفْطُ ، النَّفْطُ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، هُوَ الْجَائِزَةُ .

إن الموضوع الأساسي الكامن في هذه المسرحية هو موضوع استعباد الإنسان والطبيعة ، الذي يتواتر في العمل كله ، وينتج منه تشيؤ الإنسان وتغوصه . فالتاجر على سبيل المثال ، يعلم جيداً أنه يتحرك في عالم لا توجد فيه أي قيم أخلاقية وتقطعه ذوات نهمة لا عدد لها ، ولهذا يصبح من الغباء بمكان ألا يأخذ الإنسان حذره دائماً فيقول : "في عالم عارٍ تماماً من الثقة ، لا يمكن للمرء أن يخلد إلى النوم" .

عند هذه النقطة في المسرحية تكتمل دائرة الغزو ، فالتاجر - بعد أن هزم المرشد والحمال والصحراء والنهر - يهزم نفسه أيضاً ، ويصبح هو الآخر مجرد أداة من أدوات الإنتاج ، غارقة في دوامة الدينامية العمياء التي لم يحدد أحد قط أهدافها الأخلاقية أو النفسية .

لكن في أثناء الرحلة في الصحراء تنفذ مياه التاجر فيقدم الحمال زجاجة الماء التي تخصه إلى التاجر . فيرديه هذا قتيلاً ظناً منه أن الزجاجة لم تكن سوى قطعة حجر ، وأن الحمال لم يكن يقدم له نصيبه من الماء وإنما كان ينوي قتله غداً . إن خطيئة الحمال الكبرى أنه حاول كسر دائرة الحتمية الاقتصادية والتعاقد المادي وسلك سلوكاً إنسانياً مبدئياً ، فالتزم بقانون التراحم الإنساني الجواني ولم ينصع لقانون التعاقد الآلي البراني . وقد عبر القاضي في المسرحية عن هذه الرؤية بقوله : "إن دوافع الحمال في تقديم زجاجة الماء للتاجر لم تكن دوافع اقتصادية محضة ، ولكن أي فعل لا يخدم مصالح الإنسان الاقتصادية الأنانية هو واستثناء ، في عالم الحتمية

الاقتصادية . ولذا لا يوجد مجال للسلوك الفردي الحق أو للاختيارات الحرة ، لأنه حتى لو افترضنا أن الحمال كان في الواقع يعطي زجاجة الماء للتاجر ، ولم يكن يحاول قتله بحجر كما كان يظن ، فإن الأخير حينما أوداه قتيلاً إنما كان في موقف "الدفاع عن النفس" ، لأنه ما كان يمكنه "أن يفترض أن الشيء الذي في يد الحمال إنما هو زجاجة وليس حجراً" ، إذ إنه - انطلاقاً من التصور السائد للطبيعة البشرية في عالم التعاقد والتقاتل - لم يكن عند هذا الرجل أي دوافع لإعطائه ماء .

إن عالم "قصة المفرائكين" التراجي يقف على طرف النقيض من عالم القاعدة والاستثناء التعاقدية . وقد كتبت هذا المقال عام ١٩٦٥ لمقرر تشوسر الذي كان البروفيسور كيلوج يدرسه ، وأعدت كتابته بالعربية عام ١٩٨٢ لمؤتمر الأدب المقارن في جامعة النجف ، ونشرته في مجلة فصول عام ١٩٨٣ ، ثم أعدت كتابته ونشرته بالإنجليزية عام ١٩٩٦ في مجلة AJISS المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية حيث أربط بين الحلولية والعلمنة والتعاقدية . وقد استغرقت كتابة هذا المقال ومراجعته وإعادة كتابته ما يزيد عن ثلاثين عاماً ، أي أنه استغرق وقتاً أطول مما استغرقت الموسوعة .

وبعد أن رُقيت لدرجة أستاذ قررت أن أنشر بعض الدراسات الأكاديمية التي تتسم بشيء من الجسارة الفكرية حتى أفتح آفاقاً جديدة وأضع معالم منهج جديد يساعد الباحثين العرب والمسلمين في مجال الأدب الإنجليزي . كانت الدراسة الأولى بعنوان "العودة إلى وولدن والوجدان الكالفيني البروتستانتي" The Retreat to Walden - Protestant the Calvinist and Imagination حاولت أن أبين فيها الأثر العميق ، على مستوى البنية الكامنة (أو النموذج الإدراكي) ، لرؤية كالفين البروتستانتي على وجدانه . وقد بُنيت في الدراسة أن البروتستانتي قد تكون لها علاقة بظهور الرأسمالية ولكنها يمكن أن تكون أيضاً معادية لها (وهذه أطروحة مختلفة عما هو شائع في أدبيات علم الاجتماع) .

أما الدراسة الثانية فعمنوانها "الظلة التي لا حدود لها والقوة التي لا ترحم" : دراسة في مجموعة سوناتات وردزورث لنهر دادون Duddon وخاتمها المزوجة The Boundless Canopy and the Ruthless Power - A Study in Wordsworth's Series of Sonnets and its Duplicate Conclusion وتتناول إشكالية حيرتني بعض الوقت وهي أن الشاعر وردزورث كتب قصيدة طويلة مكونة من سلسلة قصائد من طراز السونت عن رحلة قام بها على ضفاف نهر دادون Duddon في منطقة البحيرات في شمالي إنجلترا . وقد ختم الشاعر قصيدته الطويلة هذه بقصيدة سونت تُسمى "خاتمة" ، ولكن بعد ذلك أضاف قصيدة أخرى بعنوان "حاطرة لاحقة Af-terthought" . وهو أمر محير ، إذ كيف يمكن لشاعر رومانتيكي يؤمن بالوحدة العضوية أن يختم سلسلة من القصائد مرتين ، وخصوصاً أن الخاتمة الأولى تعبر عن موقف من الكون مختلف

درست سلسلة القصائد ووجدت أن الشاعر كان يتأرجح بين نموذجين متعارضين . نموذج حلولي يذهب إلى أن الإنسان جزء من الطبيعة ، يشبه النهر ، ونموذج إنساني ديني يذهب إلى أن الإنسان له وجود إنساني مستقل عن الطبيعة / المادة . ويبدو أن الشاعر أدرك هذه الازدواجية بعد الانتهاء من كتابة سلسلة القصائد . ولذا ففي الخاتمة الأولى نجد أنه يؤكد أن الإنسان مثل النهر يصب في البحر تماماً مثلما تنتهي حياة الإنسان ، ولذا لا يوجد أي إحساس بالمأساة ، فالمؤلف يدور في إطار الرؤية الحلولية التي تماوي بين الإنسان والطبيعة . أما في الخاتمة الثانية فهو يرفض هذا الموقف الحلولي ويؤكد أن الإنسان مختلف عن الطبيعة ، وأن النهر يصب في البحر ولكن الإنسان يموت . ثمة انقطاع في عالم الإنسان ليس لها ما يماثلها في عالم الطبيعة ، ولذا ثمة إحساس عميق بمأساة الوجود الإنساني . ولكن الشاعر يتجاوز هذا الإحساس المأساوي عن طريق إيمانه العميق بالفن والدين . وقد كتبت هذا المقال في منتصف الستينيات ، ثم راجعته ونشرته في كتاب صدر بالإنجليزية في الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ ، ثم أعدت كتابته ونُشر في حولية كلية الآداب جامعة الملك سعود عام ١٩٩١ .

أُرسلت بالدراستين الواحدة تلو الأخرى لحلوتين علميتين ، وفوجئت بأنهما رُفضتا بناء على قرار المحكمين (ففي المجلات الأكاديمية لا تُنشر الدراسات إلا بعد عرضها على محكمين) . وقررت أن أنسى الأمر برمته ، ولكنني فوجئت مرة أخرى بأن محرري المجلتين أصروا على أن أكتب رداً على المحكمين . ففعلت وبُيّن أن المحكمين في كلتا المجلتين لم يتعرضوا من قريب أو بعيد بالخير أو الشر للقضايا التي أطرحتها ، وأنهم لجعوا إلى صيغ جاهزة . ففي الدراسة الأولى قال السيد المحكم إنني لم أشر للدراسات الأخرى في نفس الموضوع . ولكن لسوء حظي ، كنت في الولايات المتحدة حيث أجريت بحثاً بالكمبيوتر واكتشفت أنه لم تُكتب أي دراسات عن الموضوع الذي أتناوله . ولم يكن الأمر مخطئاً كثيراً بالنسبة للبحث الثاني ، فأحد المحكمين قال إنني لم أتعرض لأعمال وردزورث الأخرى ، ولم أشر إلى يوميات دوروثي وردزورث (أخت الشاعر) ، والتي كانت معه حين قام برحلته على ضفاف نهر دادون . (كان هذا الحكم هو الطالب الذي قام د . إيان جاك بتخطيطه ، وكان المسكين لا يزال مصاباً بداء المعلوماتية) . وكان من السهل علي أن أبين أن ثلث البحث كان يتحدث عن أعمال وردزورث الأخرى وأن يوميات دوروثي ليس لها علاقة بالإشكالية التي أطرحتها ، فأنا لست مهتماً بما شاهده الشاعر بشكل مادي ، وإنما مهتم بهذه الازدواجية في الإدراك التي أدت إلى ازدواجية في الخاتمة . ولذا قررت المجلتان نشر الدراساتين (وأعتقد أن هذه مسألة نادرة) . ولعل هذه القصة (أو هاتين القصتين) تبينان مدى الجذب الذي أصيب به النشر الأكاديمي في أنحاء العالم .

كما كتبت دراسة عن تطور الجمال الدلالي لكلمة pleasure (بلجر) في الشعر الإنجليزي

الرومانتيكي وما قبل الرومانتيكي ، أي منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر . وكيف أن هذا المجال الدلالي للكلمة يعكس تاريخ الأفكار . فالكلمة في البداية كانت تعني لذة (عادة جنسية) وتعمل معنى الفرار من الألم والهروب من الحياة (متأثرة في هذا بعلم النفس الترابطي ، الذي يستند إلى رؤية اختزالية آلية للإنسان متسقة مع رؤية نيوتن للكون) . ولكن تدريجياً بدأت الكلمة تتخلص من دلالتها الجنسية وتبتعد عن فكرة الهروب من الحياة ، إذ تصبح اللذة مرتبطة بالألم وبالإحساس العميق بالحياة الإنسانية في كل تركيباتها (يصل هذا الاتجاه إلى ذروته في أغنية كيتس "أغنية إلى الحزن" حيث لا يصل إلى الفرح إلا من يدخل معبد آلهة الحزن ، والتي سبق الإشارة إليها) . وبينت أن هذا التحول هو جزء من الثورة على الرؤية النيوتنية ، الآلية المادية ، ومحاولة لتجاوز السطح المادي وصولاً إلى التركيب الإنساني . وقد نشرت هذه الدراسة في كتابي آنف الذكر الذي صدر في الولايات المتحدة . وأنوي ترجمة المقالات التي كتبها بالإنجليزية ، وأضمتها إلى كتاب يضم دراساتي الأدبية .

دراسات في اللغة

دارس الأدب لابد أن يكون دارساً للأسلوب والخطاب والشكل اللغوي . فالأدب في نهاية الأمر هو تعبير لغوي مكثف ، شكله اللغوي هو معناه . ولذا لا يمكن أن نصل إلى معنى منفصل عن الكلمات ، فالمعنى لا يمكن أن يوجد في بطن الشاعر ، وإن ظل هناك ، فعلمه عند ربي ، أو عند المحلل النفسي وليس عند الناقد الأدبي . ويجب أن أعترف بأن اهتمامي باللغة والأسلوب - حتى في أثناء دراستي الأدبية - كان ضعيفاً نظراً لاهتمامي الشديد بالفكر والقضايا الفلسفية . فكانت رسالتي للدكتوراه عن موضوع غير أدبي رغم أنه وثيق الصلة بالأدب (الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ) حاولت إلقاء الضوء عليه من خلال آليات تحليل النصوص الأدبية ، وكانت محاضراتي عن الأدب مثقلة بالتأملات الفلسفية . ومع هذا كنت أحذر طلبتي وطالباتي من التامل الفلسفي في النص الأدبي وأخبرهن بأن النص الأدبي إن تحول إلى نص فلسفي أو اجتماعي فقد مشروعيته . ومهمة الناقد الأدبي أن يبين كيف نجح (أو أخفق) النص الأدبي في التواصل مع القارئ من خلال آليات أدبية جمالية مثل اللغة والبنية والصور المجازية ، لأنه لو وصل أفكاراً وحسب ، فهو نص غير أدبي .

ولكن برغم ضعف اهتمامي باللغة ، فإن دراستي الأدبية عمقت من حساسيتي بها . ولعل اهتمامي بقضية المصطلح (والمفاهيم الكامنة وراءه) هو إحدى ثمار دراستي الأدبية . كما أن لي دراسات في تطور الحقل الدلالي لبعض الكلمات / المفاهيم الأساسية في الحضارة الغربية ، كانت إحداها عن تطور الحقل الدلالي لكلمتي «طبيعة» و«فن» من أرسطو حتى بريخت . كما كتبت دراسة (لم تنشر بعد) عن تطور الحقل الدلالي لكلمة «لذة» من القرن الثامن عشر إلى القرن

التاسع عشر ، وكيف أن التحول الذي طرأ على دلالة الكلمة يعكس التحول في مفهوم العقل ، فبدلاً من التحرك في إطار علم نفس القرائن وعلم النفس الترابطي (الآلي) بدأ يظهر مفهوم للعقل البشري بحُسابه كياناً توليدياً مبدعاً .

كما أنني حينما بدأت أدرس التفكيرية وما بعد الحدائث ، وجدت نفسي غارقاً في قضية أساسية هي قضية علاقة الدال بالمدلول التي تناولتها في مقال لي بعنوان «هاتان تماحنتان حمراوان» . دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول» . ولشرح القضية أشرت إلى أن المشروع الإنساني بأسره يستند إلى اللغة كوسيلة للتواصل بين البشر والاحتفاظ بثمرة تفاعلهم مع الطبيعة حتى لا تبدأ كل تجربة مع الطبيعة من نقطة الصفر . والتواصل اللغوي ، أي مقدرة فرد أن يتواصل مع إنسان آخر من خلال اللغة ، يعني أن ثمة إنسانية مشتركة ، وأن ثمة لغة بأنه يمكن توصيل المعنى ، وأن ثمة علاقة بين الذات والموضوع ، والفكر والواقع ، والدال (الاسم) والمدلول (المسمى) .

ويرى بعض دارسي اللغة ، كما يرى أنصار ما بعد الحدائث ، أن المفترض وجود مثل هذه العلاقة يدل على وجود معنى يسبق اللغة ، فمفاهيم مثل الإنسانية المشتركة والرغبة في التواصل والمقدرة عليه تبين أن ثمة عناصر ثابتة في العالم تهرب من قبضة النسبية والحركة والتغير ، ومن ثم فهي تسقط في الميتافيزيقا ، على حد قولهم .

ولأن دعاة ما بعد الحدائث يرون أن كل الأمور نسبية متغيرة ، وأنه لا يوجد ثوابت ، فإنهم يبذلون قصارى جهدهم في إثبات أن علاقة الدال بالمدلول واهية أو اعتباطية أو غير موجودة أساساً . وأنتني حينما أقول «قطعة» فهذه الكلمة لا علاقة لها بالخيران الصغير ذي الفراء الذي يسير على أربع والمعروف بهذا الاسم . وموقفهم الفلسفي هو تعبير عن شيء جوهري في الحضارة الغربية الحديثة ، فهي حضارة دوال دون مدلولات . فقد بدأت هذه الحضارة بتأكيد مركزية الإنسان وأنه العنصر الأهم في النظام الطبيعي ، فهو تجسد للمركز . ولكن هذا الإنسان إنسان طبيعي / مادي جزء لا يتجزأ من الطبيعة / المادة ، أي أنه إنسان فقد تركيبته وحرية ومقدرته على التجاوز ، أي فقد ما يميزه كإنسان . فهو قد يكون إنساناً اقتصادياً لا يُعرف في ضوء إنسانيته المتعينة وإنما في ضوء آليات البيع والشراء ، وحواسه الخمس وجهازه الهضمي ، أو إنساناً جسمانياً أو جسدياً يُعرف في ضوء غرائزه واحتياجاته الجسدية والجنسية ويُرد إلى جهازه التناسلي . وهو في جميع الأحوال إنسان داروين وماركس وفرويد ، جزء من سلسلة الوجود الطبيعية ، كائن طبيعي من الداخل ومن الخارج ، أي أن الإنسان فقد ما يميزه كإنسان وأصبحت كلمة «إنسان» دالاً دون مدلول .

والحضارة الغربية الحديثة جعلت من التقدم الدائم والمستمر (وإلى ما لا نهاية) مركز الكون الذي يمنح العالم تماسكاً وغاية . ولكن التقدم المادي الدائم والمستمر (وإلى ما لا نهاية)

والذي ليس له هدف إنساني محدد ، هو في واقع الأمر مجرد حركة ، فالتقدم لابد أن يكون نحو شيء ما ، يحدده الإنسان ، وإلا فهو حركة بلا هدف ولا غاية ، لا يمكن أن نسميها تقدم ، فكان كلمة «التقدم» أصبحت دالاً بلا مدلول ، وكأنها لم تعد قادرة على منح العالم التماسك .

وانفصال الدال عن المدلول يظهر في مصطلحات الاستعمار العالمي الجديد في المرحلة الحالية ، فهو يسمي نفسه في الوقت الحاضر «النظام العالمي الجديد» ، وهو يدعي أنه لا يعزو الشعوب أو ينهاها ، وإنما يعقد معها «اتفاقيات اقتصادية عادلة» ، وأنه لا يتحرك إلا في إطار الشرعية الدولية من خلال هيئة الأمم المتحدة ، ويدافع بحماسة عن حقوق الإنسان . ولكن هذا النظام العالمي الجديد هو في واقع الأمر امتداد للنظام الاستعماري القديم ، فهو يقوم بنهب الشعوب من خلال الاتفاقيات العادلة ، وإن عارضته بعض الحكومات الوطنية أو قوى المقاومة فإنه يستصدر قرارات من الأمم المتحدة «لتأديبها» باسم القانون الدولي ، وهو دائماً يدافع عن «حقوق الإنسان» بطريقة انتقائية تخدم صالحه .

وتصل المثبة إلى قمته في صناعة السلاح ، فقد أنتج العالم المتقدم أسلحة تكفي «لتدمير الكرة الأرضية مرات عديدة» ، وهي عبارة لا دلالة لها على الإطلاق إذ لا يمكن تدمير الكرة الأرضية أكثر من مرة ، كما أسلفت القول . وأهم صناعة «إنتاجية» في العالم الآن هي صناعة السلاح ، أي أن أهم أشكال الإنتاج هو إنتاج «أشكال الدمار» وهي عبارة لا دلالة لها أيضاً . لكل هذا يمكن القول بأن الحضارة الغربية دخلت في مرحلة السبولة الشاملة وأنها قنعت بأن تدور حول مجموعة من الدوال والمصطلحات التي ليس لها معنى محدد ، فهي حضارة دخلت في لعب الدوال وعالم النسبية ، وعالم الألعاب اللغوية ، عالم اختفت فيه كل المرجعيات والفوايت ، ولم يبق سوى أشياء متناثرة هي مرجعية ذاتها .

أصدقاء ومعارف من الأدباء

رغم اهتمامي بالأدب ، وتخصصي فيه ، وانشغالي بتدريسه ، لم يكن لي معارف كثيرة من الأدباء ، كما اكتشفت أنني لم أدخل قط في أي شل أو مجموعات أدبية . وحينما عدت من الولايات المتحدة ، كنت أسمع عن مَقْبَهِي ريش وإيزافييش ، بوصفهما المكانين اللذين يرتادهما الأدباء والفنانون ، ولكنني لم أكن من روادهما قط ، بل لا أعرف حتى الآن أين يقعان . ولا يمكن أن أعد نفسي إنساناً منعزلاً ، فأنا أحب الجلوس مع الأصدقاء ، وأستقبل الكثير منهم في منزلي وأفضل المدينة على القرية . لكن يبدو أن الوقت الذي قضيته في الإسكندرية علمني حب الهدوء . كما أنني تزوجت في سن مبكرة ، فكنت أقضي جزءاً كبيراً من وقت فراغي مع أعضاء أسرتي . وأعتقد أنه يوجد داخلي ما أسميه «ساعة سندرللا البيولوجية» ، ولذا عند منتصف الليل يغلبني سلطان النوم ، وعدد المرات التي تجاوزت فيها هذا الموعد يمكن

عدها على أصابع اليدين . والحياة مع الأدباء تبدأ عادةً بعد منتصف الليل . لكل هذا بعد أن استقر بي المقام في القاهرة قسمتها إلى جمهوريات مستقلة . أولها بطبيعة الحال "جمهورية مصر الجديدة" المستقلة، التي أتمرك فيها بكل بساطة ومصرعة ، خاصةً حتى أوائل التسعينيات ، حيث لم تكن بعد مكتظة بالناس أو بالسيارات . ولذا إذا ما دعيت لأي مناسبة في مصر الجديدة ، فإني ألي الدعوة . ونفس الشيء (وبدرجة أقل) ينطبق على جمهورية العباسية الصديقة أو المحايدة . أما جمهوريات المهندسين وشبرا والجيزة فقد أعلنتها جمهوريات معادية ، لا أذهب إليها إلا مضطراً .

ويبدو أنني قررت أن مشروع المعرفي أمر مهم بالنسبة لي . فنظمت وقتي بقبضة حديدية . وقد بدأت دراساتي في الحضارة الصهيونية في سن مبكرة للغاية ، الأمر الذي لم يتيح لي فرصة للتسكع والانطلاق ، كما فعل كثير من أقراني . وهو أمر يسبب لي الحزن أحياناً ، والسعادة أحياناً أخرى . فقد فقدت الكثير ، ولكنني كسبت الكثير أيضاً ، وكل حذف إضافة وكل إضافة حذف .

ولكن رغم عزلي النسبية هذه ، تعرفت على بعض الأدباء والمفكرين مثل الأستاذ صلاح عبد الصبور الذي قدّم في البرنامج الثاني عرضاً لترجمة التي قمت بها (بالاشتراك مع الأستاذ علي زيد) للنصوص الأساسية في الشعر الرومانتيكي والذي صدر في سلسلة الألف كتاب عام ١٩٦٥ . وقد قابلت الأستاذ صلاح عبد الصبور عدة مرات ، وكنت أجدّه حزناً تماماً مثل شعره ، وكان دائماً يحذّر مما سماه «الماليك الداخلية» ، أي نخب اقتصادية وسياسية وثقافية من أبناء البلد ولكنهم ينظرون له بحسبانة بقرة حلب . وحينما كان رئيساً للهيئة العامة للكتاب وافق على نشر طبعة جديدة من كتاب الشعر الرومانتيكي الإنجليزي وكان سيكتب مقدمة له ، ولكن توفاه الله . ثم جاء رئيس آخر قام بتصفية المجلات الثقافية وبعض الكتب التي لا يمكن أن تحقق الربح ، وكان منها بطبيعة الحال كتاب الرومانتيكية الإنجليزية ، إلى أن قام المرحوم د. عبد الوهاب الكيالي بنشره . كما ربطتني صلة قوية بالشاعر أحمد عبد المعطي حجازي وأسرت في الفترة التي سبقت سفره إلى فرنسا .

وقابلت المرحوم أمل دنقل عدة مرات ، وكان يرفض أن يحييني كلما تقابلنا فوئما سبب واضح ، إذ إنني لم أسئ إليه قط ، بل ولم أكن أعرفه . ولكنني فوجئت به ذات مرة يحييني بحرارة بالغة ، وقال إنه كان يظن أنني عميل أمريكي لأنني تعلمت في الولايات المتحدة . أما وقد شاركت في مظاهرات الطلبة عام ١٩٧١ ، وقمت أنا وزوجتي بتوقيع البيان الذي كتبه الدكتور فؤاد زكريا مؤيداً للطلبة ومطالباً بإنهاء حالة اللا حرب واللا سلم ، فقد انتفت عني صفة العمالة بالتالي . وقد تعجبت للغاية من سطحية هذا الموقف ، فلا التعليم في الولايات المتحدة يجعل من المرء عميلاً ولا الاشتراك في مظاهرات الطلبة ينفي عنه هذه الصفة .

وتربطني علاقة قوية بالشاعر بدر توفيق الذي كان ضمن تلاميذي في كلية الآداب جامعة عين شمس ، وقد كتبت دراسة عن شعره . أما صلاح جاهين فقد عرفته في أثناء عملي في مؤسسة الأهرام . وقد كتبت دراسة عن قصيدته "باليه" بالإنجليزية نُشرت في *Journal of Arabic Literature* عام ١٩٧٧ بعنوان «جاهين الصانع الماكر» Jahin · Cuning Master . وبعد أن قرأها وصفها بأنها أحسن ما قرأ من نقد له ، وكأنني دخلت في عقله (وهذا أقصى ما يطمح إليه ناقد) . وكان يصفني بأنني بمنزلة ملاكه الخارس (كان يستخدم العبارة الإنجليزية «جاردريان إنجيل» guardian angel) له ، ولعل هذا من قبيل التفكه ، وقد كان - رحمه الله - ابن نكتة ، مصرحاً حقيقياً .

ومن الأدباء الذين أعرفهم حق المعرفة الأستاذ أحمد بهجت ، الذي يقطن في عمارتي ، وهو ساكن ممتاز قد يكتب مقالات يُشهر فيها بي بصفتي صاحب العمارة ، ولكنها مقالات خفيفة الظل ، تجعلني أقبل ما فيها من حقائق مقبولة تماماً . فقد كتب عن أن صاحب العمارة (أي شخصي الضعيف) يكره العصفير ولم يذكر أن ساكن شقة ٩ في الدور الرابع (أي شخصه القوي) يقوم بإطعامها في شرفته وينجم عن ذلك أن فضلاتها تتساقط على الجميع ، وأن السكان الذين يسكنون تحته (وأنا ضمنهم) قد جأروا بالشكوى . ولم يذكر شيئاً عن القطط التي كان يربئها على سلم العمارة ويضع لها الطعام عليه ، أو عن كلبه سلطان (وهو كلب في حجم الأسد) الذي كان يؤكل الرعب في قلوب الجميع .

ومن أطرف القصص التي ذكرها لي الأستاذ أحمد بهجت ، أنه كان يربئ ماعزاً في منزله (فحبه للحيوانات شيء يتجاوز العقول) وبدأت الماعز تأكل صفحات الكتب . فكعب عنها مقالاً يتهمها فيه بمعادة الفكر والشفافة . فعصور أحد كبار المسئولين عن الثقافة في مصر الغروسة أن المقال موجه ضده ، واستدعى الدكتور رشاد رشدي (وهو خال أحمد بهجت) وحذره من أنه سيؤذي ابن أخته إن استمر في هجومه عليه !

ولم أقابل نجيب محفوظ سوى مرة واحدة في الإسكندرية عام ١٩٦٩ ، وكان أبهامها اشتراكياً ، بل مادياً جدلياً ، وعجبت لأقصى حد من فجاجة آرائه السياسية وسطحيها ، وكيف أن هذا الروائي العظيم الذي وصف خبايا النفس البشرية في ثلاثيته وغيرها من الروايات ، يتحدث عن الكهرباء والتخطيط بحُسنانهما حلاً وحيلاً وناجماً لكل مشكلات البشر ! (وكان توفيق الحكيم معنا وتحدث هو الآخر بإعجاب ووله عن العلم ، دون أي تحفظات أو مخاوف وكأنه أحد مفكري القرن التاسع عشر ، الذين لم يدركوا بعض الجوانب المظلمة للتصنيع والتحديث والعلم) .

وقد تكون آراء الفنان الفلسفية سطحية ، على حين نجد أدبه في غاية العمق ، لأنه حينما يتفلسف فهو يتفلسف بعقله وحب ومن خلال ما حصل بشكل واع من أفكار ، أما حينما يبدع

فهو يبدع من خلال كيانه ومن خلال ما مر به من تجارب لعله لم يفهمها هو نفسه عقلياً ، ولكنه أدرَكها واستوعبها بشكل وجودي مباشر وكلي .

و حين كنت طالباً في جامعة الإسكندرية قرأت بعض أعمال الدكتور إحسان عباس ، وأعجبت بها كثيراً وتأثرت بما جاء فيها من أفكار ، خاصة منهج القراءة . فالدكتور إحسان في كتاب فن الشعر الذي قرأته عدة مرات لم يكن يعرض لأفكار كل مدرسة على حدة ، بل كان يبين الأساس الفلسفي لها الذي يشكل الوحدة خلف تنوع الأفكار ، كما أنه وضع تاريخ النظرية النقدية في إطار تاريخ الأفكار . كتبت له رسالة وفوجئت به يرد عليّ ، فتراسلنا بعض الوقت ، وحينما كان يأتي للإسكندرية في الخميسات للاصطياف كنت أقابله .

ومن الوقائع الطريفة ، أنني حضرت عام ٢٠٠٠ حفلاً لتكريمه في بيروت ، وبدأ يتحدث عن صحته المعتلة ، فطلبت الكلمة ، وأخبرت الناس عن قصتي مع د. إحسان عباس ، ثم طلبت منهم ألا يصدقوا حكاية صحته المعتلة هذه ، فعندي منه خطابات تعود إلى الخميسات يتحدث فيها عن صحته المعتلة وعن بصره الآخذ في الضعف وهكذا . فتذكّر الدكتور إحسان وضحكنا جميعاً في هذه المناسبة السعيدة .

وقد أسعدني الحظ بمقابلة الشاعر محمود درويش عدة مرات في القاهرة وعمّان . وقد وجدته ثائراً مَرَكَباً ، تماماً مثل شعره . وكذلك الروائي جمال الغيطاني الذي قمت بقراءة بعض رواياته الأولى وألقيت محاضرات عنها في الولايات المتحدة (خاصةً عن مفهوم الزمان عنده) . وكنت مرة في مناظرة مع الجنرال الإسرائيلي متصياهو بيليد ، وكان من أكبر دعاة السلام في إسرائيل ، وكان من المتخصصين في روايات نجيب محفوظ . وحيث إنني أتصور - كما يتصور الكثيرون - أنهم يتابعون أخبارنا في مصر ، تحدثت معه عن الرواية المصرية الحديثة ، وفوجئت بأنه لا يعرف عنها شيئاً ، فأخبرته عن جمال الغيطاني وعن رواياته . وقد نشأت صداقة بيني وبين الروائي بهاء طاهر منذ السبعينيات ، توطدت بعد زواج ابنته دينا من ابني ياسر ، وبعد أن أصبح لنا حفلة مشتركون !

وقد تعرفت على شاعرين أمريكيين : أما الأول فهو جيرى سترن Jerry Stern الذي حاز على عدة جوائز ، وكان صديقاً لكافين وايلي ، أما الثاني ، فهو شاعر أمريكي من أصل عربي لبناني يسمى صموئيل هيزو Samuel Hazo (وحزوه بالعربية) . أخبرني هذا الشاعر بقصة طريفة للغاية تستحق أن تُروى ، وهي أنه في أوائل الستينيات بدأت تظهر تقليعة شراء المخطوطات الأصلية للأعمال الأدبية وكان يدفع فيها مبالغ خرافية . فلجأ بعض مشاهير الأدباء إلى كتابة مخطوطات أصلية لأعمالهم بأثر رجعي (أي بعد صدورهما) ، وبيعت لمكتبات الجامعات المتلهفة على الحصول على مثل هذه المخطوطات .

هذه هي قصتي مع الأدب ، وهي قصة لم ولن تكتمل ، لأنه كانت لدي منذ البداية

طموحات أدبية ، إبداعية ونقدية ، عريضة . فلم أكتب الدراسة التي كنت أعد نفسي لها عن تاريخ الشعر العربي الحديث . كما أنني كنت أجمع مادة لكتابة رواية توثيقية عن ربا وسكينة (لا أدري سر اهتمامي بهما) ، وكنت أنوي الذهاب إلى الإسكندرية للاطلاع على محاكمتها . وسبب الاختلاف بينهما في اللحظات الأخيرة (واحدة انهارت ، ولكن الأخرى أخذت موقفاً نيتشويّاً غير نادم على الجريمة ومرحاً بالموت) . وكان هناك مشروعات أخرى كثيرة ، لكن الفن طويل والحياة قصيرة ، كما يقول الشاعر الروماني .

قصص الأطفال

إلى جانب اهتمامي بالأدب ودراسته ، يوجد اهتمامي بأدب الأطفال . وهو اهتمام مصادره متعددة . كانت هناك قصص المربيات ، خصوصاً قصص خالة ستينة التي أخبروني عنها بأنني كنت أرفض النوم إلا بعد أن تحكي لي قصة من قصصها الشعبية الخرافية الجميلة (الشاطر حسن - ست الحسن والجمال - عقلة الإصبع ... إلخ) . أذكر بالذات قصة مخيفة عن جنية مسخت بعض البشر إلى سمك لا أذكره ، ولكن ما أذكره هو أن الجنية كانت تتحدث بالفصحى مع السمك وتساله : " يا سمك يا سمك هل أنت على العهد القديم مقيم ؟ " فيجيب : " نعم ! نعم ! " فتتركه سمكاً دون أن تعيده بشراً . وكما كنت أستمتع بقصص صندوق الدنيا . ويبدو أنني استمعت لبعض رواة السيرة الهلالية في طفولتي ، وكنت أرى المشاجرات بين المستمعين بخصوص مصير أبي زيد . كما كنت أرى الراوي وهو يغيّر الأحداث ويذكر بعض الأحداث المعاصرة وكأنها وقعت لأبي زيد . وحينما كنت في الولايات المتحدة كنت أقرأ كتب الأطفال ، خاصة كتب د. سوس Dr. Seuss ، وهو كاتب عبقرى يحطم حدود المؤلف (المادي) ويطوّر الأشياء والكلمات لإرادته ، ولكنه في الوقت ذاته يتعامل مع ثوابت النفس البشرية ، خاصة في قصتيه الشهيرتين القط ذو القبعة The Cat in the Hat وعودة القط ذي القبعة The Cat in the Hat Comes Back . وقد درست الأدب الروائي وفنونه كجزء من فواستي للأدب الإنجليزي والأمريكي ، كما درست النقد البنيوي وكتاب عالم الفلكلور الروسي بروب Propp ، مورفولوجيا الحكاية الشعبية Morphology of the Folktale وهو كتاب يدرس بنية القصة الشعبية وبين تماثل البنى الكامنة لكثير من هذه القصص . كما أن أستاذي ديفيد وايمر كان مهتماً بفن الرواية ، خاصة وأنه هو نفسه كتب رواية عن تاريخ عملة قديمة ، فكان يشرح لي بعض حبراته ومن بينها أن الروائي إن رسم شخصية ما ، فإنه يضعها في مواقف مختلفة ثم يتركها تتصرف حسبما تمليه سماتها وأبعادها . وقد صبت كل هذه العناصر في طريقة كتابتي لقصص الأطفال وفي اهتمامي بطريقة السرد ، والنهايات الجديدة والبديلة والمتنوعة . ويمكن أن أذكر عن نفسي أن البراءة تسحرني : كل ما هو بريء يملك علي شغاف قلبي ،

ومازلت أعشق الوجوه البريئة ، خاصةً التي بها مسحة من الحزن . ومن الموضوعات الأثيرة لدي في دراستي للأدب موضوع الانتقال من البراءة إلى الخبرة ثم العودة إلى البراءة الأولى ، ولعل هذا يفسر شغفي بأدب الأطفال . فأدب الأطفال العظيم ، رغم عدم خلوه من الصراع ورغم وجود قدر من الشر فيه ، إلا أنه أدب لا يزال على علاقة بما هو عظيم ونبييل في الإنسان (شأنه في هذا شأن السيرة الهلالية والقصص الخرافية التي أحببتها) . وهو لا يحطم البراءة ، ولذا وجدت فيه ملجأ . (ويقف هذا على طرف النقيض من الأدب الحديث وما بعد الحديث ، شأنه شأن النظرية النقدية التي تراكبه ، أدب تفكيكي معاد للإنسان ، ولذا تتواتر فيه مواضع مثل الاغتراب والانتحار والشذوذ) . وأحب أفلام الأطفال وأشاهدها المرة تلو المرة ، ومن أحبها إلى قلبي فيلم ماري بوبينز Mary Poppins † ، الذي يقدم لنا عالماً طفولياً ، بريئاً مريباً ، ولذا فهو شأنه شأن قصص الأطفال العظيمة ، لا يخلو من الصراع . وينتهي الفيلم بالكبار يطيرون طائرة من الورق بعد أن ينتصر عالم الطفولة والبراءة على الجميع .

كنت في طفولتي أخاف العماريت ، وهو أمر طبيعي في دمنهور . ولكن الأمر غير المألوف أنني كنت أخلق عفاريت جديدة ، فأصفها وصفاً دقيقاً وأعطيها أسماء مخيفة لأخيف بها الأطفال الآخرين ، خصوصاً أختي فادية ، لأشعرهم بمدى سطوتي وسلطاني (مما يدخل الطمأنينة على قلبي) . وكان هناك عفريتة خاصة مازلت أذكر اسمها وهي « الشجاعة » فكتبت في وصفها وفي تعداد سماتها المرعبة ، ونسبت إليها قدرات عجائبية كثيرة جعلت منها عفريتة مخيفة بالفعل . المشكلة أن هذه العفاريت بعد قليل كانت تنفصل عني تماماً وتصبح كياناتاً مستقلة له صفات محددة ، فتتصرف بحرية شديدة ، وتبدأ تظهر لي أنا فيصيني الرعب وترتعد فرائصي منها . وبدلاً من أن أخيف الأطفال الآخرين وأشعر أنا بالطمأنينة ، كان الأمر ينتهي بأن أخاف أنا من هذه العفاريت أكثر من بقية الأطفال ، إذ كنت أتخيلها أكثر منهم ، وأعرف أدق تفاصيل حياتها وملاحج وجهها .

ومن الطريف ، أنني لم أتغلب على خوفاي من العفاريت والأشباح إلا في سن متأخرة من حياتي (بعد الأربعين !) رغم الرؤية المادية الفلسفية التي كان من المفروض أنني أؤمن بها آنذاك . كنت أجلس مع نفسي وأنافئ المسألة بشكل علمي عقلاني هادئ ، ولكن هيبات ، فمع وصول الليل يبدأ خوفاي وهلمي ، فإن كنت بمفردي في شقة كنت أضيء كل الحجرات وأذهب إلى دورة المياه في حذر شديد . ولم أشف من هذا الهلع إلا عام ١٩٨٧ حين تركتني زوجتي في المملكة العربية السعودية لأعيش بمفردي لأول مرة في حياتي ، وكان حلول الليل هو العذاب بعينه . ولعل طول العذاب واستمراره كان يتهدد جهازني العصبي . وكدفاع عن النفس طردت العفاريت والأشباح من حياتي . المهم في كل هذا أن عالم العفاريت ، الذي ظل عالماً حقيقياً في حياتي لمدة طويلة ، شجعني على أعمال خيالي وعلى رؤية الواقع بحبانه عالماً قابلاً لإعادة التشكيل .

وأنا أحب عالم الأطفال ، أحب أن أدخله معهم ، فهو عالم مليء بالجمال والدهشة والبراءة ، عالم يمكن أن يحقق فيه الإنسان إنسانيته ، ويمكن أن يُخلق في سمائه ويسير على أرضه . وأنا دائماً أنشئ علاقة قوية مع أطفالى عند السن الرابعة تقريباً ، حين يصبح الحديث والحوار معهم ممكناً . ففي هذه الأيام على سبيل المثال ، أستيقظ في الصباح ويأتي لي حفيدي قبل الذهاب إلى المدرسة بنفسي سوياً مدة نصف ساعة ، نلج فيها عالمنا الخاص . فهناك على سبيل المثال شخصيات خيالية مثل جومتي وهو شبح صغير يذهب معه المدرسة ويمكن لنديم أن يسقط عليه كل مشاعره . فكثيراً ما يعبر جومتي عن رغبته في عدم الذهاب إلى المدرسة ، وأحياناً ، في أيام الامتحانات ، يقتلوه في المدرسة ، ولكن بالقوى السحرية يمكن استرجاعه إلى الحياة ، لبدأ مرة أخرى رحلة الأفراح والأحزان . وهناك الفيل الأصفر والكلب الأحمر والقط الأخضر والطائر الملون والجمل ظريف ، وما يرتبط بهم من أحداث . وأحياناً أقرأ له الشعر أو أكتب له افتتاحية قصيدة على أن يكملها هو ("شجرة خضراء جميلة غنت فقال" - "بالأمس جاءني لجمعة وابتسمت") . كما نلعب يومياً تقريباً لعبة طورتها لتشجعه على التفكير ، فأقول له أذكر خمسة أشياء جميلة ، ثم أذكر خمسة أشياء حزينة ، وأخيراً أذكر خمسة أشياء محايدة . بل إننا نحاول أن نرسم سوياً أحياناً ، وقد أنتجنا سوياً بعض روائع الفن المصري الحديث ، وفي عطلة نهاية الأسبوع قد نشاهد بعض الأفلام سوياً ، كما وعدته أن أحول إحدى قصص الأطفال إلى مسرحية حية يقوم بتثيلها هو وجدته : إن عالم الأطفال عالم جميل رائع ، كم أحبه وأحب أن أدخله وأعيش فيه بكل جوارحي .

هذه العناصر المعقدة ، الأدبية والحياتية ، خلقت ولا شك ثروة خصبة لكتابة أدب الأطفال . ولكن الذي دفعني للكتابة هو الهدية التي حباني الله بها ، طفلي نور ثم ياسر ، فقد كانت تنشئتهما مسألة موضع اهتمامي ، خاصة وأنهم قضوا جزءاً كبيراً من طفولتهم في الولايات المتحدة . وقد لاحظت - كما أشرت من قبل - أن أفلام الكارتون الأمريكية مليئة بالعنف والكرامة . وكنت في طريقي مرة لشراء لعبة لنور ، دُب صغير teddy bear . وفجأة اكتشفت أنني سأشتري لها إحدى رموز الحضارة الغربية . فالدب حيوان لا نعرفه ولا يوجد في بيئتنا ، ومن ثم فالعلاقة معه والتعلق به يولد إحساساً بالاعتراب لدى الطفل العربي .

ثم ظهرت باربي العروس السكسني (ذات المجاذبية الجنسية) الشقراء التي ليس لها من سمات الطفولة شيء . وباربي هذه لها منزل فاخر وملابس كثيرة وبوي فريند boy friend وأصدقاء كثيرون ، يدورون كلهم في الفضاء المادي الاستهلاكي ، الذي يدور فيه الإنسان الأمريكي . وإذا كان الدب teddy bear رمزاً للحضارة الغربية في عصر التحديث ومرحلة التقشف ، فباربي هي رمز لهذه الحضارة نفسها في عصر الحداثة وما بعد الحداثة والسيولة الفلسفية ، حضارة الهامبورجر والجينز والT. Shirt وهي حضارة لا جذور لها . وبرغم أنها

نشأت أساساً في الولايات المتحدة ، فإنها لا تعبّر عن الهوية الأمريكية أو الغربية وإنما هي تعبير عن رؤية مادية ، متطرفة في المادية ، تهدف إلى تحطيم الهوية والخصوصية وفي نهاية الأمر الإنسانية المركبة ، إذ تجعل من الإنسان كائنًا استهلاكيًا دوافعه اقتصادية وجنسية مادية وحسب . وقد اكتسحت باربي في طريقها كل العرائس الأخرى (بما في ذلك العرائس الأمريكية الغلبة مثل رجادي آن Raggadey Ann ورجادي آندي Raggadey Andy) ، وهي عرائس تشبه العرائس التي تُصنع في الريف المصري من القطن . حينما حدث ذلك عرفت أن هناك مؤامرة ضد أطفال العالم (بما في ذلك أطفال الولايات المتحدة) تهدف إلى تحويلهم إلى شخصيات استهلاكية لا هوية لها ، وإلى إفقادهم طفولتهم وبراءتهم .

أما بالنسبة لياسر ، فهو بوصفه ولداً كان من المفروض أن أشتري له أدوات الحرب والفتك والكرامية والدمار ، فرفضت ذلك كله تماماً . (عرفت من بعض أصدقائي في الولايات المتحدة أن سوق اللعب قد تضخم ، وأن اقتصاديات السوق قد غزت تماماً حياة الأطفال . وقد أدى التليفزيون دوراً كبيراً في ذلك . فهناك على سبيل المثال شركة بني بيبز beanie babies التي تنتج "مجموعات" من اللعب يحاول الطفل أن يفتنيها كلها حتى تكتمل المجموعة . كما أنها تصدر طبعات محددة limited edition من بعض اللعب ، أي أن الطفل يحاول "افتناء" العروس لا اللعب بها . وقد قرروا أن اللعبة التي لا تحمل علامة التكت عليها فلا قيمة لها ، ولذا يصبح الطفل ملزماً بشراء التكت إن فقدّه ، وتصبح الملكية أهم من اللعب ! وهذا لا يختلف كثيراً عن أحد محلات البلوجينز التي قررت أن تنتج نسخة محدودة من البنطلونات ، لا يتجاوز عددها مائة على أن تكون الماركة التي تُثبت على البنطلون مصنوعة من الذهب ، ويكلف البنطلون عدة آلاف من الدولارات فهو طبعة محدودة !) .

وكان لابد من أن أملاً الفراغ الذي خلقته في حياة أولادي نتيجةً لخوفي عليهم من اقتصاديات السوق ولرفضني للعب الأمريكية ، ومن هنا بدأت في تأليف القصص التي تنقل للطفل نماذج معرفية حضارية أكثر إنسانية ، وبدأت في نسج عالم أسطوري معاصر متكامل لطفلي ، فانا أؤمن بأن الذكريات والأساطير المشتركة بين الأزواج والأصدقاء وأعضاء الأسرة هي أهم العناصر التي توطن الصلة بينهم وتزودهم بعالم خاص بهم يتحركون داخله ويدركون العالم من خلاله فيزدادون ارتباطاً ومحبة . وقد وجدت أنه من خلال هذا العالم الخاص الذي نسجته ، يمكنني تفعيل مفهوم الهوية والخصوصية ، وهو مفهوم نتحدث عنه كثيراً دون أن نتحرك لتطبيقه .

كان هذا العالم الأسطوري القديم / الجديد يدور حول ثلاث شخصيات نور (ابنتي) وياسر (ابني) واسم لهما نديم (حفيدي) . وهناك أيضاً الديك حسن ، الذي يؤذن فترجع من عالم الخيال إلى عالم الواقع . ولكن الشخصية الأساسية هي الجمل ظريف ، وهو جمل إنساني ، أخ

لأولادي ، ود . هدى هي أمه (أما أنا ، صاحبه فليس لي مجال في عائله) . وظريف جمل غير مدرك لجمليته (إن صح التعبير) ، تماماً مثل جمل المدينة النورة الذي عرفته في طفولتي والذي سمعت قصته من للمسحراتي محمد الأعور . والذي فر من الجزار الذي كان يريد ذبحه ولجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وطلب منه الأمان وأل يحميه من الجزار فقبل . أي أنه فر من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان لعدم إدراكه للفرق بينهما . ولا شك في أن الجمل الذهبي المبارك في فاترينة محل مصوعات الجمل المجاور لخل والذي ، في دمنهور ، والجمال الكثيرة التي كنت ألقاها في شوارع دمنهور وفي السوق ، وجمل المحمل (حينما كانت مصر ترسل بالكسوة للكعبة كان يمر في شوارع دمنهور حمل مزين بقماش ملون وبعض المراتب يجلس على منحه رجل يدق على طبلتين كبيرتين فيصدران صوتاً كله هبة ووقار) . لا شك في أن كل هذه الجمال استقرت في وجداني ومخيلتي وتركت في أعماق الأثر ، ومن خلالها ظهر الجمل ظريف إلى الوجود . وفي عام ١٩٧٢ قام صديقي الفنان رحمي ، فنان العرائس ، بصنع جمل خشبي حتى يمكننا أن نقوم بممثل القصص في أثناء سردها .

وبذلك ، حاولت أن أخلق لطفلي حيزهما المستقل ، حتى يمكنهما التحرك والتنفس فيه خارج عالم الألعاب الداروينية والاستهلاكية الأمريكية . (من المؤسف أن أحد الأشخاص ، قد تقدم إلى إحدى المسابقات التي نظمتها المجلس العربي للطفولة لتطوير شخصية كرتونية للأطفال ، وكسب إحدى الجوائز باسم الجمل ظريف . ولكنه نظراً لانعدام خياله لم يدرك الأبعاد الحقيقية لشخصية ظريف ، ولذا جاء جملة كياناً مشوهاً . ولم يحتفظ من جملي إلا بأصداء بلهاء وبالاسم) .

حينما بدأت في كتابة قصص الأطفال ، كنت آخذ القصص التقليدية في بداية الأمر ، وأحور فيها بطريقة جوهرية ، بحيث أدخلها العصر الحديث ولكن دون أن أفقدها أسطوريتها . وأولى القصص كانت قصة ذات الرداء الأحمر . فكنت أحكي لنور القصة الأسطورية التقليدية . لم أحكي لها نفس القصة مغالية في الحداثة . " كان هناك فتاة تسمى ذات الرداء الأحمر ، قالت لها أمها أن تأخذ سلة مليئة بالطعام لجدتها ، فأخذت مشرو الأنفاق ووصلت لجدتها وأعطتها السلة . فشكرتها الجدة ، وعادت ذات الرداء الأحمر لمنزلها " . كنت أحكي لابنتي هذه القصة حينما أكون في عجلة من أمري وأود الخروج بسرعة للسهر خارج المنزل ، فكانت تخرج . ولكني كنت أخبرها بأنها قصة كاملة وأطلب منها أن تخبرني بما ينقصها لتصبح قصة كاملة . فكانت تعجز بطبيعة الحال ، فهي لم تكن تدرك بشكل نظري ما كانت تدركه بشكل فطري . وهو أن الصراع بين الخير والشر أساسي لكثير من الأعمال الأدبية ، وأن القصة يجب أن يكون لها حبكة مركبة بعض الشيء . كنت أحكي لها القصة نفسها بطريقة جديدة . وهي أن ذات الرداء الأحمر (وهي فتاة تسمى نور) كانت تتركب دراجة ، وحين يقابلها الذئب ويسألها إلى أين هي ذاهبة

تخبره بكل شجاعة بأنها في طريقها إلى جدتها ، فيصرح لأنه سيذهب قبلها ليستلج الجدة ثم يستلج نور بعدها . ولكن نور تعرف طريقاً جديداً فتسلكه وتصل قبله وتخبر جدتها بأن الذئب سيحضر ليحاول ابتلاعهما . إن نور تتحرك في عالم جديد ، على عكس الذئب الذي لا يزال يعيش في عالم الأسطورة التقليدية ويتحرك داخل نطاقها وهو لا يدرك التطورات التي تحدث من حوله . ثم يتنكر الذئب ، ويذهب إلى بيت الجدة ويطرق الباب ، ولكن بدلاً من الأحداث القديمة بعد الذئب في انتظاره علفة ساخنة ، إذ تنهال الجدة وتور عليه بالضرب . فيصرح من الألم ويعبر عن دهشته واستنكاره ، ويقول إنه حسب القصة القديمة لابد أن يصل قبل ذات الرداء الأحمر لا بعدها . ويظل في حيرة من أمره لا يفهم شيئاً . وكنت أحياناً أقص القصة نفسها بطريقة كوميدية . إذ ينكمش الذئب ليصبح ذئباً صغيراً ومن ثم تصبح ذات الرداء الأحمر بالنسبة له عملاقاً . وحينما نصل إلى لحظة المواجهة بين الذئب والفتاة يكتشف صغر حجمه فيولي الأديار .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى مرحلة تداخل القصص المعروفة . فكنت أبدأ القصة بذات الرداء الأحمر تطلب منها أمها أن تذهب ببعض الطعام إلى الجدة فتوافق وتسالها إن كان من الممكن أن تأخذ معها أخاها ياسراً فتوافق . فيركبان دراجتيهما وينطلقان إلى منزل الجدة . ولكنهما يقابلان سندريللا في الطريق ، التي تحكي لهما قصتها وكيف أنها اضطرت أن تجري عند منتصف الليل ، وليس معها سوى فردة حذاء واحدة ، فيخبرانها بأنها يمكنها أن تركب خلف منتصف الليل ، وليس معها سوى فردة حذاء واحدة ، فيخبرانها بأنها يمكنها أن تركب خلف نور على دراجتها ويذهبوا جميعهم إلى بيت الجدة لانتظار الذئب المكار . وكنت أضيف أحياناً قصة Snow white سنو وايت التي تحكي لهم حكاية زوجة الملك التي تفل عنها في الجمال والمرأة التي تقول الصدق ، فيدهونها للانضمام لهم ، فتفعل . ويمكن أن تنتهي القصة بأن يتم ضرب الذئب وحضور الأمير ومعه فردة الحذاء الأخرى ولكنه لا يقبسه على قدم سندريللا ، ويخبرها بأنه يريد الزواج منها لأنها مفققة وواسعة الخيال وأنه أعجب بحديتها للغاية . ثم يذهبون جميعاً إلى منزل الأمير الذي سيخروج من سنو وايت ويحكون له القصة ، فيذهب معهم إلى زوجة الملك الشريرة ليلومها على ما فعلت ، فبكي وتندم على خطئها (مثلاً) ويعقدون زفاف سنو وايت في نهاية القصة / القصص . وكنا نغير في النهايات حسبما يروق لنا ، فعملية القص خاضعة لنا تماماً .

وأحياناً كنت أستخدم القصص لمعاقبة طفلي عن ذنب اقترفاه . عدت مرة من عملي وأنا مرهق للغاية فأصرا على أن أحكي لهما قصة . فقررت أن أنتقم . وبدأت القصة بياسر ونور (والجمل ظريف) في سيارة في طريقهم إلى مدينة الآيس كريم ، وبعد أن سافروا عدة كيلو مترات في طريق طويل مترب شاهدوا عن بُعد أبواب المدينة : جميلة شاهقة منيرة . وحينما وصلوا طرقتوا البوابة عدة مرات ولم تفتح إلا بعد جهد جهيد . ولكن بعد أن فتحت البوابة

وجدوا باباً آخر معلقاً ، وبجواره صندوق وعليه لافتة تقول : "مفتاح الباب" ، ففتحوا الصندوق ليجدوا خريطة صغيرة ترشدكم إلى طريقة الوصول إلى المفتاح على بعد ١٠٠ متر . فتوجهوا حسب الخريطة وحفروا في الأرض وحصلوا على المفتاح وفتحوا الباب . ولكنهم بدلاً من أن يجدوا الآيس كريم الموعود وجدوا عمراً جميلاً مزيناً بالأزهار ولكنه طويل للغاية ، فساروا فيه ليجدوا عند بهائته صندوقاً مغلقاً ، فبدلوا جهداً خارقاً حتى نجحوا في فتحه ، وعندما فتحوه وجدوا ورقة تحبرهم بأن مدينة الآيس كريم مغلقة اليوم ولكن يمكنهم أن يذهبوا إلى محل الآيس كريم الذي يبعد ٢٠ كم عبر طريق صخري . وبعد أن قطعوا الطريق وصلوا إلى محل الآيس كريم فوجدوا صاحبه واقفاً مبتسماً . وبعد أن رحب بهم سألهم أي نوع من الآيس كريم يريدون ، فقالت نور آيس كريم بالفانيلا ، أما ياسر فكان يفضل طعم الشيكولاته والمانجو ، وقال ظريف إنه يحبه مشكلاً . فأخبرهم صاحب محل الآيس كريم أنه بوده أن يقدم لهم ما يريدون ، ولكن لا يوجد عنده لا فانيلا ولا شيكولاته ولا مانجو . فصاح الأطفال في صوت واحد "نريد أي نوع" ، فابتسم الرجل مرة ثانية وعبر عن أسفه لأن كل أنواع الآيس كريم قد نفذت . ثم فجأة قال انتظروا قد أجد لكم ما تريدون . وذهب إلى الخلاصة ولكنه وجدها مغلقة ، لأن زوجته أخذت المفتاح وذهبت إلى المنزل . ولذا أخبرهم بأنهم ليس أمامهم سوى الذهاب إلى مصنع الآيس كريم الذي يبعد ٣٠ كم . وكان ياسر ونور (وظريف) يطلبون مني إنهاء القصة ولكنني كنت أتمادى في صنف "العذاب القصصي" ، إلى أن أذعنت لطلبهم ، فأنهت القصة فجأة حين وجدوا أنفسهم في أسرتهم ، فحمدوا الله وخلدوا للنوم .

وكثيراً ما كنت أحاول أن أجعل عالم القصص جزءاً من حياة طفلي . ذات مرة كنا في الفيوم ، وقام أحد الفلاحين بإعطائهما كتكوتين جميلين ، فرحاً بهما كثيراً . ولكنني أعرف أن نسبة الموت عالية بين الكتاكيت ، خاصة وأنا نفعقد إلى الحيرة الائمة لرعايتها . ولذا اقترحت تحويل الكتكوتين إلى شخصيتين في قصة تسمى «أحزان الإنسان» ويسمى الكتكوت الأول «الحزن الأبدي» ويسمى الثاني «الحزن الأزلي» (تعبيراً للنهاية الحزينة ولجعلها أخف وطأة) ، ولكن طفلي اعترض . وبالفعل مات أحد الكتاكيت ، كما توقعت ، على الفور وبقي معنا الكتكوت الثاني . وحينما امتدت حياته بضعة أيام سماه الأطفال «هرقل» فحذرتهم لما قد يحدث له . وبالفعل مات هرقل بعد عدة أيام مخلقاً لنا الأحزان . وبكى ياسر ونور كثيراً بسبب موته .

كما كنت أحياناً أخذ تفاصيل من واقع طفلي وأدخلها في عالم القصص الخيالي سواء أكانت إحدى عاداتهما أم حديثاً دار مع يائع اللبن ، أم بعض الأصدقاء ، أم لعبهما . فكان عند ابنتي تمثال جندي يستخدم كساعة بندق (اشتريناه من دار الأوبرا في نيويورك بعد مشاهدة باليه كساعة البندق لتشايفرفسكي) ، وآخر لدون كيشوت ، وثالث لبسوي يعتطي صهرة جواده ،

و كنت أجعل الحياة تدب فيهم في المساء ، فيذهب الجميع مع نور ويمسر للدفاع عن المظلومين وللحرب ضد الظالمين الأشرار .

وفي إحدى القصص يذهبون إلى جزيرة الدويشة ، وهي جزيرة مسحورة تنكسر فيها القوانين لفترة مؤقتة . ويعد أن يجلس الأطفال يطلب أحدهم سفن آب seven up سبعة فوق ، فيطلب الثاني سيكس داون six down ستة تحت ، ويطلب الجمل ظريف فايف ميدل five mid- خمسة في الوسط وهكذا .

وقد استخدمت مفهوم البنية في قصصي وكتبت قصصاً لشرح هذا المفهوم للطفل . وإحدى خصائص البنية أنه لو تم تغيير عنصر فيها فإنها تتغير بشكل كامل . والتوقعات المختلفة على قصة ذات الرداء الأحمر هي تطبيق عملي لهذا . وكتبت قصة طريفة عن الصهيونية (دون ذكر للصهيونية) بطلها الجمل ظريف (الشعب اليهودي أو الجماعات اليهودية في أنحاء العالم والصهاينة على وجه التحديد) الذي يحن فجأة للحياة في الصحراء (أرض الميعاد) ويريد أن يعيش فيها . ويسير ظريف في المنزل يردد قصائد شعرية عن الصحراء والعيش فيها ، فيحاول الأطفال ثنيه عن عزمه ولكنه يصر . فيركبون الترو ويصلون إلى ميدان التحرير ، ويظن الجمل ظريف أن هذه هي الصحراء ، وتتهلل أساريره ويبدأ في إلقاء قصائده العصماء ، فيضحك الأطفال ويخبرونه أنهم لا يد أن يركبوا أتوبياً آخر ليصلوا إلى أطراف الجزيرة . وبعد قليل يصلون إلى الهرم ، ويجد ظريف بعض الجمال ، ويبدأ مرة أخرى في إلقاء قصائده الصحراوية ، فتضحك الجمال منه ويخبرونه بأن الصحراء على بُعد عدة كيلو مترات من الهرم ، وأنهم موظفون في وزارة السياحة ، يحبون الوظيفة الميري ولا يذهبون قط إلى الصحراء . ولكن الجمل ظريفاً يركب رأسه ويقرر الذهاب إلى الصحراء ، فيسير الأطفال معه عدة كيلو مترات ، وحينما يصلون إلى الصحراء يشعرون بالتمب . وحينما تبدأ الشمس في الغروب يدخل الخوف على قلب ظريف ويطلب العودة إلى المنزل ، فيضحك الأطفال ، ويلوحون إلى سيارة كانت في طريقها إلى الأهرامات فيركبون هم جميعهم ومن هناك يعودون إلى المنزل .

و حينما أنظر للقصص التي كتبتها ، أجد أنها تمبر عن نفس الأفكار والرؤى التي توجد في أعمالتي الأخرى (بما في ذلك الموسوعة بطبيعة الحال) . فابتداءً ، هناك فكرة النماذج المعرفية ، التي أعدها الأداة الأساسية في عمليتي الإدراك والتحليل . فتحة نموذج معرفي أساسي كامن وراء كل القصص ، وهو نفس النموذج الكامن وراء الموسوعة من رفض للموضوعية المتلقية والنصرسية البلهاء والمعلوماتية الفجة والسببية الصلبة (مثل الذنب في حكاية مور والذنب الشهير بالكار الذي سقط في الموقف المعلوماتي النصوسي دون تحليل أو تفسير أو إدراك لما يطرق على الواقع من تعبيرات) إلى إيمان بالعقل التوليدي والسببية الفضفاضة والنماذج المفتوحة (النهايات المتغيرة) وبالحيز الإنساني (اختلف عن الحيز الطبيعي / المادي) الذي يتحرك فيه

الإنسان ويحقق فيه إنسانيته ، فيؤكد إرادته وحرية ومقدرته على الاختيار . ومفهوم الطبيعة للبشرية السائد في قصصي ليس بسيطاً ولا اختزالياً ، فهناك خير وهناك شر ، وهناك شر داخلنا وشر خارجنا ، وخير داخلنا وخير خارجنا ، وهناك عالم الفوضى وعالم النظام والقانون . ويختلط الخير بالشر والداخل بالخارج والفوضى بالنظام ، دون إلغاء لفكرة المعيارية ، فيعرف الأطفال العالم بطريقة مركبة تؤهلهم للتعامل مع العالم الحقيقي .

وقد بدأت في كتابة القصص عام ١٩٧٠ ، وعرضتها على أحد الناشرين عام ١٩٧٤ ، فافتى حضرته بأنها «غير علمية، و«خيالية غير واقعية» ونحن نريد قصصاً واقعية تعلم الأطفال الارتباط بالواقع» (كتبت قصة تسمى «قصة واقعية جداً» أسخر فيها من مثل هذه الرؤية) . وأخذت ما كتبت من قصص واستمررت في كتابة القصص . وحينما كنت أطلب من أطفالنا تدوينها كانوا يرفضون ، ولعلمهم كانوا يشعرون بأن عالمهم الأسطوري عالم شفهي ليس له حدود ثابتة . وقد استمررت في تأليف القصص ، وبدأت في تدوين بعضها بنفسي ، إلى أن ظهرت دار الشروق في حياتي ، فنشروا للتوسعة كما أشرت من قبل . وطلبت الأستاذة أميرة أبو الهجد (المسئولة عن قسم الأطفال) أن تطلع على القصص ، فأعجبت بها لأنها خيالية واقعية ، وتعلم الأطفال الانطلاق وعدم التقيد بحدود الواقع ، أي أنها قبلت نشر القصص لنفس الأسباب التي رفضها من أجلها ناسر آخر عام ١٩٧٤ . وأعتقد أن هذه الحادثة لها دلالة عميقة ، فهي تبين مدى اختلاف موقفنا من الطفل الآن ومدى احترامنا لإنسانيته وحقوقه . ثم بدأت دار الشروق في نشر القصص في سلسلة بعنوان "حكايات هذا الزمان" وكانت القصة الأولى هي نور والذئب الشهير بالمكار وتبعها سعد ومللا وزينب هاتم خاتون ثم رحلة إلى جزيرة الذويشتر ومعركة كبيرة صغيرة و سر اختفاء الذئب الشهير بالمخار . والبقية تأتي بإذن الله .

وقد كتبت مقدمة لسلسلة القصص جاء فيها ما يلي :

"لما لا شك فيه أن الأساطير التقليدية ، مثل ذات الرداء الأحمر ، لا يزال لها جمالها البدائي المبدئي الذي لا يضاهى ، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها بحجة أنها خيالية أو خرافية أو غير واقعية . ومع هذا ، يجد الطفل ، في عصرنا الحديث ، نفسه غير قادر على دخول عالم الأسطورة التقليدية بسهولة ويسر . فكل شيء في هذه الأساطير قديم عتيق (من منزل الجدة إلى الذئب) . وهذه الأساطير ، علاوة على هذا ، هي نتاج عصور تاريخية لم يكن فيها الإنسان سيد بيئته ، ولذا فنحن نجد أن أبطال هذه الأساطير إما عناصر طبيعية (حيوانات - طيور) أو عناصر بشرية خاضعة لسيطرة الطبيعة ، مما يفقدها كثيراً من أهميتها وفعاليتها في العصر الحديث .

"انطلاقاً من هذا ، قمت بكتابة حكايات هذا الزمان ، وهي قصص للأطفال تدور أحداثها بشكل أسطوري ولكن في العالم الحديث . وقد استخدمت الأساطير القديمة بعد تطويرها ، كما قمت "بتأليف" بعض الأساطير الجديدة" .

وقد أكدت في هذه القصص أهمية ما هو متجعب ، وليس له بالضرورة فائدة محسوسة ومباشرة ، وأن القيمة الكبرى لهذه القصص هي تشجيع الخيال . "وأنا أذهب إلى أن تشجيع الخيال هو تشجيع للعقل الإنساني على أن يفكر ويبدع . فالإنسان الذي يعيش في عالم الحقائق المادية الواقعية وحسب ، يعيش في عالم صلب يبيت الوجدان والشعور ويجعل الإنسان شخصية متزمتة رجمية تدور في إطار ما هو قائم وموجود بالفعل بدلاً من أن يحاول تجاوزه وتغييره وتبديله .

"وحكايات هذا الزمان تحاول أن تعلم الأطفال كيف تولد القصة وتتطور وتشكل ، وأنواع القصص المختلفة ، فهي لا تكتفي بأن تعطي قصة ، أي ثمرة الفكر ، وإنما طريقة القصة (أي طريقة حكاية القصة) التي تؤدي إلى الثمرة . والطفل بهذه الطريقة يحقق قدراً كبيراً من الاستقلال عن القصة وعن بقصتها عليه . كما يتعلم حرية الإرادة ويدرك أن الواقع يمكن تغييره .

"وتلجأ حكايات هذا الزمان لعدة وسائل فنية لتوسيع هذه الأفكار . فعلى سبيل المثال تحاول القصص تحويل الواقع إلى مجرد مادة خام يوسع الطفل أن يعيد تشكيلها لينتج قصة من وحي خياله ، مستمدة مادتها من الواقع . والقص هنا هو تعبير عن الإفادة الإنسانية ، فالتحكم في النهايات وتغييرها ومقاطعة القصة للاستفسار أو الاستعجال أو الاحتجاج ، وإضافة شخصيات شبه إنسانية (مثل الجمل طريف) وعناصر خيالية (مثل البساط السحري) هي دليل على مقدرة الإنسان على التحكم في مدار الأحداث وعلى تغيير الواقع .

"وقد قمت بتجربة في فن القص مع بعض التلميذات (ما بين ١٠ - ١٣ سنة) . فطلبت منهن أن يتخيلن أنهن قابلن وقدأ من حديقة الحيوانات قد جاء إلى المدرسة ليطلب شيئاً . وسألتهن ماذا يمكن أن يحدث ؟ وطلبت من كل فتاة أن تحكي قصة ، وبدأت كل طالبة تحكي قصة مختلفة . وكانت النتيجة مفرحة ، إذ أطلقت كل طفلة العنان لخيالها وبدأت تروي قصة من بنات أفكارها مستخدمة عناصر من البيئة المحيطة . ويمكن تشجيع الطفل على اكتشاف موهبة القص داخله بأن يعطى بداية قصة ويطلب منه إكمالها ، على النحو التالي ، على سبيل المثال :

"كنا نجلس في المساء ، حينما جاء الجمل طريف وقال إن نجوم السماء تحدثت معه ..."

"وتحاول حكايات هذا الزمان أن تقدم عالماً مركباً فيه الخير وفيه الشر ، فيه النظام وفيه الفوضى ، فعالم الأطفال هو جزء من عالماً لا ينفصل عنه . والأطفال ليسوا ملائكة ، ولا هم بشر ناقصون ، بل هم بشر كاملون يجب أن نعترف بإنسانيتهم الكاملة ، فهذا الاعتراف هو تعبير عن احترامنا للأطفال ، وإدراكنا أن الطفل كائن ذكي وقادر على إدراك كل الأمور إن تم نقلها له بأسلوب مناسب . وقد حاولت بعض القصص أن تنقل فكرة الشر الكامن في النفس البشرية ، ولكن بطريقة طريفة ، حتى يدركه الأطفال ولا يظنون أن العالم بريء للعامة . وفي

معظم الأحيان يُهزم الشر وينتصر الخير (فيجب أن ينشأ الطفل وهو يعرف أن الخير إيجابي وأن الشر سلبي) . ولكن الشر برغم هذا له وجوده تتناول الحكايات قضية الشر الإنساني والأناية بطريقة مخففة ، وكيف أن العناد جزء من طبيعتنا وأنه موجود ، نعتز به ولكن لا نستسلم له . ولذا فالأطفال يرهقون من عنادهم ، بل ويعاقبون عليه في قصة «البحث عن الآيس كريم» . فالحداث القصصية هي ذاتها عقاب لهم . كما تؤكد إحدى القصص فكرة الفوضى ووجودها في حياتنا وجاذبيتها ... وأنتا قد نخرق القانون أحياناً ، ولكن لابد أن نعود لعالم القانون والنظام ، أي أن القصة لا تنكر الفوضى ولكن تضع حدوداً لها .

”ونفس الاتجاه يجمعنا نتناول الحزن والفقدان في القصص . والقصص بطبيعة الحال تبعد عن الواقع ، لأنه واضح ومباشر ومحل ومختزل الواقع في كلمتين أو جملة . ولذا لا يقبله الأطفال الأذكاء ، كما أنه يعلم الطفل السلبية والتلقي الأعمى لما حوله .

”وبلاحظ أن هناك مستويات مختلفة للقصص . فهناك المستوى الواقعي جداً ، الذي يحاول أن ينقل الواقع كما هو ، دون خيال أو حذف أو إضافة ، وهناك العكس من ذلك ، المستوى الخيالي للغاية ، المفقود في الخيال ، وهناك المستوى الذي يقف بينهما ، والطفل ذاته يتحرك بين عالم الواقع الصلب والتفاصيل المادية من جهة ، ومن جهة أخرى عالم الخيال والجمال والتحليق” .

وقد حالني الحظ ، إذ حصلت عام ١٩٩٩ على الجائزة الأولى للتأليف للأطفال من ضمن جوائز سوزان مبارك للطفل . وقد سعدت كثيراً بهذه الجائزة ، لا لأنها تشجعني على الاستمرار في الكتابة للطفل ، وإنما لأنها تخرجني من الجيوش الصهيوني ، وتنبه قرائي إلى أن هناك فكراً وراء ما أكتب وليس مجرد حشد للمعلومات .

الممارسات الداخلية

لا أدري مصدر اهتمامي العميق بالفنون التشكيلية . ففي دمنهور التي نشأت فيها لم يكن هناك اهتمام كبير بمثل هذه الفنون ، فلم تكن هناك معارض أو متاحف ، ولم يكن بمنزلة أي تحف أو حتى لوحات (وهي التي تسمى «مناظر طبيعية» من التي نجدتها في منازل الطبقة المتوسطة والتي عادةً ما تكون مناظر لشلالات أو بحيرات أو جبال يتوجها الجليل) . ومع هذا ، لابد أن أذكر الأستاذ بهاء الصاوي - رحمه الله - الذي كان يدرس لي مادة الرسم في دمنهور الثانوية ، وكان فناناً منزهياً (توجد بعض لوحاته في متحف الفن الحديث) . وقد اقتنيت بعضاً منها حينما التقيت به قبل رحيله عنا مبضع سنوات . كما أن بعض مباني دمنهور (التي أشرت إليها من قبل) ترك أثراً عميقاً في نفسي . وحينما تزوجت من د. هدى (وكانت تحب الرسم) حضر إلى منزلنا طالب من كلية الفنون الجميلة ليدرس معها بعض مبادئ الرسم ، وكان هو الفنان

رحمي (فنان المرائس) - ونشأت صداقة عميقة بيننا عمقت من اهتمامي بالفنون التشكيلية إذ عرفنا رحمي بعالم الفن التشكيلي ، وكثيراً ما كنت أذهب معه إلى كلية الفنون الجميلة . وكنا نذهب إلى بينالي الإسكندرية كل عامين . وحينما ذهبنا إلى الولايات المتحدة بدأت في زيارة المتاحف فيها (وهي كثيرة ومتنوعة) . كما كنا نأخذ جولات معمارية في نيويورك (بمعنى أن يصبحنا دليل لزيارة المعالم المعمارية في المدينة) .

ومع هذا ظل اهتمامي بالفنون الجميلة اهتماماً هامشياً إلى حد كبير ، إلى أن مررت بتجربة فجائية وعميقة في متحف الجوجنهايم في نيويورك ، إذ شعرت فجأة بكل العالم من حولي وهو يفيض بالألوان بل وسمعت أصواتها . ومتحف جوجنهايم يأخذ شكل قمع ، ويبدو أنني بدأت أصاب بدوار لم أفق منه إلا والحرس يسكون بي ، إذ إنني كنت على وشك السقوط . ومما يثير دهشتي أن الاهتمام بالتشكيل اللوني والمعماري ، أصبح منذ تلك اللحظة جزءاً من رؤيتي للعالم . ولولا أنني كنت آنذاك مشغولاً في رسالتي للدكتوراه ، ثم بدأت الدراسات الصهيونية في إحكام قبضتها عليّ لربما غيرت تخصصي وأصبحت ناقدًا فنيًا . وقد كان عندي مشروعات "فنية" كثيرة ، فكنت أنوي ، على سبيل المثال ، أن أتعلم التصوير الفوتوغرافي لأمر على القليلات والمعمارات القديمة الموجودة في طول القاهرة وعرضها وفي بقية مصر الهروسة وأصورها ، وربما لأنشر كتاباً عن الموضوع فيما بعد ، كما أنني من فرط حمي للفن الساذج naive فكرت في أن أتعلمه وأمارسه . ولكن يمكن أن يُدرج هذين المشروعين ضمن المشروعات العديدة التي لن أحققها .

وحينما عدت من الولايات المتحدة ، وبعد أن خضت التجربة التي أضرت إليها ، بدأ إحساسي بأهمية العمارة والفنون التشكيلية يتعمق ، بحسبانها الأشكال الفنية التي يعيش معها الإنسان وتشكل كيانه ورؤيته في كل لحظة دون أن يشعر . ولعله من خلال دراستي للشعر الرومانتيكي بدأت أدرك أن الجمال يصنع الانتماء بعكس الوظيفة . فالشيء الجميل يفترض أن الإنسان إنسان لا يعيش داخل المادة وحسب ، وإنما يعيش داخلها ويتجاوزها إلى ما وراءها في نفس الوقت (ومن هنا ، فأنا أربط بين الجواز والتجاوز ، بل وبين الجواز والإيمان بالله ، فالماضي محصور داخل المادة لا يمكنه تجاوزها إلى ما وراءها) .

ويستخدم الإنسان الكرسي - كما هو معروف - ليجلس عليه ويرميح حسده . ولكن الكرسي مخلوق حضاري صنعته يد الإنسان ، ولذا نجد الإنسان يصنع كرسيًا يتجاوز المنفعة المادية . ولذا فهو يتسم بالجمال ومُعلًى بزخارف ليست لها قيمة مادية محددة وليس لها "نفع" مادي مباشر ، ولكنها تعبر عن شيء ما في الإنسان يتجاوز سطح المادة . أما الشيء الوظيفي (المتجرد من الجمال والخصوصية) فهو يفترض شيئاً اسمه الإنسان الطبيعي (المادي) الذي هو عبارة عن مجموعة من الوظائف البيولوجية والاحتياجات الاقتصادية إن أشعنت انتهت القضية ،

وهو افتراض غير إنساني وخطأ . وقد أثبت علم الأنثروبولوجيا أن المكون الحضاري للإنسان (الذي يتجاوز المعطيات المادية) جزء عضوي من إنسانية الإنسان وليس مجرد زخرفة تُضاف إليه . فليس من الصحيح أن الإنسان يُشبع حاجاته المادية أولاً ثم حاجاته الجمالية بعد ذلك ، بل نجد أن الأول مرتبط تمام الارتباط بالثاني . وهناك قصة شهيرة في علم الأنثروبولوجيا عن امرأة من قبائل الإسكيمو اُفترقت عن أمرتها في أثناء إحدى العواصف . وحينما عثروا عليها بعد عام ، كانت قد حاكت لنفسها جلباباً ليدفئها ولكنه في الوقت نفسه كان موشى بالزخارف . فبالرغم من أن البقاء المادي بالنسبة لها كان ضرورة ملحة ، فإن هذه المرأة "البداية" لم تتخيل هذا البقاء دون الزخارف . والشيء نفسه نجده في الأواني الفخارية التي صنعها الإنسان في أقصى حالات البدائية ، فهي دائماً ليست مجرد أوانٍ تؤدي وظيفة ، وإنما أعمال فنية تُشبع النزعة الجمالية والحضارية في الإنسان . ولكن يبدو أن الوظيفة (المادية) هي إحدى سمات العصر ، فالإنسان الحديث إنسان (وظيفي) يعيش في بيت وظيفي لا انتماء له ولا خصوصية ولا جمال فيه ، كل ما فيه نافع . هذا الإنسان يلبس التي شيرت الذي لا شخصية له ، ويأكل الهامبرجر الذي لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، ويسمع الموسيقى التي يقال لها "شبابية" والتي لا تختلف عن الموسيقى التي يسمعونها أي شاب آخر في أي مكان وزمان آخر ، وكان المكان اختفى والزمان انعدم ، ولكن بدلاً من أن يعيش الإنسان في لحظة صفاء روحية أزلية ، فإنه يعيش في بقعة رمادية مادية متعذبة الطعم والشخصية !

وقد واكب تنامي الإحساس بأهمية المعمار والفنون التشكيلية تحولاً أعمق ، وهو التحول من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان ، وهو تحول واكبه بطبيعة الحال اهتمام بالخصوصية والفردية ، فالمادة عامة وكل وحدة مادية تشبه أخفها ، مجرد حركة ، وإذا افترض المرء وجود اتجاه ومعنى لها فهو قد سقط في الميتافيزيقا ، ومن من الماديين يرضى لنفسه بمثل هذا السقوط الربيع ؟ أما أنا فيبدو أنني قد سقطت ولا حول ولا قوة إلا بالله . وكما تمردت على الرؤية العامة للسياسة (الصراع الطبقي - الإنسان الأممي - تحالف العمال العرب واليهود ضد المستغلين العرب واليهود ... إلخ) بدأت أدرك كثيراً من القضايا الفكرية التي تشغلني مثل الهوية والنحو (والتي عبرت عن نفسها في بعض كتاباتي) والتي تعبّر عن الاتساع التدريجي عن العالم المادي (المكرر والمنطقي) ، ونسني الرؤية الإنسانية التي لا تعبّر عن نفسها إلا من خلال أشكال حضارية تاريخية محدودة ، ومنها المعمار الداخلي للمنزل .

كنت أنا وزوجتي قد أسسنا منزلنا في أواخر الستينيات بعد عودتنا من الولايات المتحدة المرة الأولى (عام ١٩٦٩) على الطراز الفرنسي . وكان المنزل - في تصوري - يتسم بالجمال ، بل كنا قد بدأنا نهتم بجمع الأشياء القديمة . أذكر أنني كنت أمر في شارع هدى شعراوي فوجدت سريراً قديماً لإحدى أميرات الأسرة الحاكمة مصنوع من النيكل يُباع بثمان زهيد

فاشتريته ، وقام صديقي المهندس فاروق محرم بتصميم غرفة نوم حوله مستخدماً نفس الموثقات ، كانت بالفعل تحفة رائعة . كما ساهم صديقي رحمي في تصميم غرفة الأطفال باستخدام الكولاج حيث صمم بعض لوحات في غاية الروعة ، مستخدماً أشكالاً قصصاً من الصحف والمجلات وأضاف لها بعض الأشكال التي رسمها بنفسه .

كان هناك إبداع ولا شك في تصميم الشقة ، ولكنه إبداع تم في إطار غربي بالدرجة الأولى ، تقسيم الشقة والطراز المستخدم كان غريباً (فرنسياً على وجه التحديد) ، أي أنه كان أثاثاً جميلاً ولكنه ينبع من تشكيل حضاري مغاير ، ويعبر عن نموذج حضاري لا ننتمي إليه ، ويعبر عن خصوصية الآخر لا خصوصيتنا .

كانت سكاننا عند عودتنا من الولايات المتحدة في مصر الجديدة (على مقربة من كلية البنات) . فكنت أرى العمران الإسلامي (البلجيكي) خاصة في الكرية ، فأتأمل كثيراً في واجهات وأبواب العمارات القديمة الجميلة فكان يسحرني (وربما كان يذكرني بمبني البلدية في دمنهور) . وكنت أقوم بزيارات أسبوعية أنا وأولادي إلى الآثار الإسلامية خصوصاً المساجد (وكنت أتردد بالذات على مسجد السليمان حسن وابن طولون وقد أقيمت بعض المحاضرات عن هذين المسجدين) . وكنا نزور كثيراً من البيوت المملوكية (بيت السناري - بيت الكرادلية ... إلخ) . وقد لاحظت أنه في مصر الجديدة يقف الطراز الإسلامي جنباً إلى جنب مع الطراز الغربية وبخاصة الآرنوفو .

وفي عام ١٩٧٤ ، بدأت في بناء العمارة التي أسكن فيها . وكنت قد لاحظت أنني حينما عشت أنا وزوجتي في الولايات المتحدة كنا نعيش في مساحة صغيرة للغاية (لا تزيد في بصوري على ٩٠ متراً) وسعداء بها ، ولكن حينما عدنا إلى مصر وجدنا أن أصغر شقة لأعضاء الطبقة المتوسطة المصرية تصل في المتوسط حوالي ١٥٠ متراً ، وأخذت أفكر في الأمر . واقترحت على المهندس المعماري الذي كان يصمم لي العمارة أمرين : أن يرسم الواجهة على الطراز العربي السائد في مصر الجديد ، وأن يحتوي كل دور على ثلاث شقق كل شقة ١٠٠ متر تكون عبارة عن غرفتي نوم وصالة واسعة ومطبخ صغير (تماماً مثل الشقة التي كنا نعيش فيها في الولايات المتحدة) ، على أن تبنى في كل غرفة بلاكار وثنى كذلك في المطبخ الدواليب اللازمة ، وبذلك يمكن لأي شاب وشابة أن يتزوجا بأن يشتريا مرتبة وثلاجة وبوتاجاز وبضعة أدوات للمطبخ ، ويبدأ حياتهما دون انتظار مئات السنين .

وقد ضحك المهندس من تأملاتي ، وقال : "أما عن الطراز العربي ، فأنا أرى أنه لا داعي لأن نصبح نقودك لأن لجنة تحديد القيمة الإيجارية لن تأخذ هذا في حُسبانها" (كان يتحدث عن ٨٠٠ جنيه الفرق بين المعمار الذي لا لون ولا طعم ولا رائحة له ، وبين المعمار الذي له روح وامتداد حضاري) . أما بخصوص اقتراحي الخاص بشقق للشباب فقد أخبرني بأن اللجنة ستقرر أنه

« مساكن شعبية » وأن إيجار الشقة بالتالي لن يزيد على ثمانية أو عشرة جنيهات ، مما يجعل العمارة كارتة اقتصادية بالنسبة لي . وأضاف قائلاً في سخريه : « نحن حضارة عمرها سبعة آلاف سنة ، ولا تتوقع أن تتغير الأذواق بهذه السرعة . فالأم / الحماة المصرية ستعترض على مثل هذه الشقة الاقتصادية التي لا يمكن أن تتسع لحجرة المذهب وحجرة السفرة والأنثريه ... إلخ وابتنتها لا تقل عن الأخريات ... إلخ » . وهكذا انتهت طموحاتي وتأملاتي ومشروعائي الشقافية (فلم أكن أتحكم في التمويل ، ولذا لم أكن صاحب الكلمة النهائية) .

و حينما تقدم المهندس بتصميم العمارة ، لاحظت أن شقة مساحتها ١٤٠ متراً بها شُرف من كل جانب . وكان بعض الشُرف طويلاً ورفيهاً لا يمكن استخدامه بأي شكل . فسألت المهندس عن سر هذه الشُرف الطويلة الكريهة ، فأخبرني بأن هذا سيزيد من القيمة الإيجارية للشقة لأن اللجنة ستصف الشقة حينئذ بأنها شقة لها « ثلاث » شُرف ، مما يعني أن مستواها سيرتفع من المتوسط إلى اللوكس ! فأصررت على إلغاء شُرفة جانبية طويلة لتتضمن مساحة الشقة ، وكان هذا هو التعديل الوحيد الذي استطعت إدخاله .

و كنت قد بدأت ألاحظ أنه ابتداءً من أواخر الخمسينيات بدأ ينتشر في مصر طراز معماري عملية نفعي في غاية القبح ؛ في حالة خصومة شديدة مع الجمال والخصوصية ، يتكون من حوائط تزخرف أحياناً بطريقة قبيحة (خطوط هندسية أو دوائر لا تتبع أي نسق واللوان فاقعة لا تتبع أي منطق فكري أو جمالي) . وقد سميت هذا الطراز « طراز العمورة » ، وهو تقليد لطراز قبيح آخر يسمى « الطراز الدولي » لأنها كانت بداية الكارثة ، فقد بنيت على هذا الطراز ، وحيث إنها كانت إحدى مراكز تجمع النخبة الحاكمة آنذاك (تماماً كما هو الحال مع مارينا الآن) ، وبعض (أو معظم) الناس على دين ملوكهم . فقد أصبح هذا الطراز هو حلم الناس ، وأسست عمارات مدينة نصر كلها بهذا الشكل القبيح ، وكذا كثير من عمارات القاهرة ، ومعظم العمارات في الأقاليم . وقد صاحب شيوع هذا الطراز المماري القبيح طراز للأثاث ، لا يقل عنه قبحاً ، سُمي « المودرن » ، وهي مجموع من الأخشاب التي تُطلى عادةً باللأكيه أو تُغطى بالفورمايكا ولها أرجل طويلة قبيحة . ولكن الطراز « المودرن » تماهى مع الطراز « السيل » ، وارد دمياط وغيرها ، وهو أثاث محلى بالنقوش الخفيفة التي تسمى « الأويمة » ، والتي كلما ازداد حجمها ازدادت قيمة (أي ثمن) الأثاث ، مما حوّل بيوت المصريين إلى ما يشبه محلات الموبيليا (أي الأثاث) ، فهي تفتقد إلى الروح والخصوصية والنسق . ولا تبين أي شيء سوى دخل صاحبها . وهذا الأثاث هو صورة مشوهة من الأثاث الأوربي الحقيقي (لذا كان الأجانب يسمونه طراز « لوي فاروك » ، نسبة إلى الملك فاروق بدلاً من « لوي سيز » نسبة إلى لويس السادس عشر مثلاً) .

وقد قمت بدراسة في مصانع القطاع العام للأثاث ، واكتشفت أن ما تنتجه من أثاث يتأرجح بين الأوربي الخالص وهذا الشيء المسمى المودرن . طبعاً يوجد كرسي أو أريكة قبيحة

الشكل ظهرها غير مريح بالمرّة (فهو مصنوع من الخرط ومطعم بالصدف) لا يمكن الجلوس عليها ، وقد تصور الكثيرون أن الأثاث العربي هو عادةً على هذه الشاكلة ونفروا منه . وقد أخبرني أحد أصدقائي بأنه حينما كانت حكومة ثورة ١٩٥٢ على وشك أن تبدأ في إنشاء المدارس والمستشفيات في الخمسينيات ، اقترح على صلاح سالم أن تطور الدولة طرازاً معمارياً خاصاً بمرحلة الثورة يمكن اتباعه في بناء الأبنية الجديدة وتُعرف به ، فهز صلاح سالم رأسه مستنكراً وقال "يا بني آدم إحنّا بتفكر في إيه وانت بتفكر في إيه" . إذ يبدو أنه قد سيطر عليه تفكير نفمي ، أسميه أيضاً مادياً لا يختلف كثيراً عما انتشر من معمار قبيح . (وعياب البعد الحضاري في مشروع ثورة يولية من أهم الأسباب التي أودت بها ، ومكّن بعض الناس ، الذين لا علاقة لهم بها ، من أن يعلنوا أنهم ورثتها واستمرار لها) .

وحينما عدت من الولايات المتحدة للمرة الثانية عام ١٩٧٩ ، كان قد تم بناء عمارتي وكانت قبيحة بشكل لا يمكن للعقل تصوره . كنت أرثجف من الغبط حينما أدخل العمارة . ففي المدخل استخدم المهندس مادة الجرانوليت : الحوائط سوداء ، والسقف برتقالي ، وواجهة العمارة شيء "مودرن" يبعث على الإشمئزاز . كنت أقول في نفسي هذه عمارة تليق بأحد كبار التجار أو صغارهم ، ولكنها لا تليق بأستاذ شعر مثلي . وما زاد الطين بلة أنني أخذت دوراً بأكمله (أي شقتين متقابلتين) لقم إزالة الحوائط الفاصلة بينهما ، فظهر عدد مخيف من الكمرات المتدلية من السقف المنخفض تشبه المقاصيل . كنت أحصي خمساً منها وأنا في طريقي إلى غرفة نومي ، وحينما أجلس في الصالة أحصي خمساً أخرى . إلى جانب أن معظم النوافذ كان مصنوعاً من الكريстал (أي الحديد) وهي مادة مزعجة من الناحية الجمالية وغير عملية بالمرّة إذ إن فتح شباك يتطلب مقدرة عضلية فائقة ، كما أنه كان غير محكم ، ولذا كان يسمح بمرور الهواء والتراب . وكانت هذه هي القشة (أو الشقة) التي قصمت ظهر البعير ، إذ لم يعد من الممكن بأي حال أمام كل هذا القبح تحمل العمارة أو الشقة بوضعهما القائم آنذاك . وقررنا إعادة صياغتهما بدءاً من مدخل العمارة مروراً بالسلم وانتهاءً بالشقة التي نقطن فيها . وأنا لا أختلف في ذلك عن ملايين المصريين الذين بدءوا يخافون من توحش مدنهم (خصوصاً القاهرة) وبدءوا في إعادة صياغة منازلهم لأنهم يقضون فيها وقتاً أطول عن ذي قبل (أنفس حمامك القديم" ، كانت هذه هي البداية) ، ومع هذا اعتقد أنني لا أجافي الحقيقة إن زعمت أن دوافعي كانت مختلفة من بعض الوجوه .

وقد تعرفت في هذه المرحلة إلى صديقين أولهما هو الصديق المهندس المعماري الداخلي محمد مهيب الذي تخصص في تصميم أثاث إسلامي عربي مصري (وعنده تحيز لما يسميه الطراز الهوسيني نسبة إلى السويس وللطراز المملوكي) ، والثاني هو الدكتور عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم الذي صمم بعض المباني في القاهرة ، تحاول أن تخرج بها من هوة القبح المعماري الذي

سقطت فيه . ومن خلال الحوارات الطويلة معهما ومن خلال شروحيهما لمشروعاتهما وإيجازاتهما المختلفة تعمق إدراكي لكثير من جوانب الطراز الإسلامي . وقد شجعني عبد الحليم على ألا أتردد في التفكير الفلسفي بخصوص المعمار . وقد ساعدني مهيب على تحويل كثير من أفكاره الفلسفية أو الجمالية المنجدة إلى معمار داخلي ، كما كان يقترح حلولاً لكل مانقابه من مشكلات معمارية داخلية تتسم بالجمال والبساطة ، وبدونه لما تحقق كثير من أحلامي وأفكاري .

ومن المفارقات أن الموسوعة التي أحكمت قبضتها عليّ ، ومنعتني من التخصص في الفنون التشكيلية ساهمت بشكل غير مباشر في زيادة شغفي بهذه الفنون ، إذ كنت أشعر أحياناً في أثناء كتابتها أنني أعيش في عالم رمادي مجرد مكون من كلمات وكلمات وكلمات ، والكلمات مكونة من حروف وحروف وحروف ، والحروف في نهاية الأمر أشياء مجردة متاثرة لا معنى لها . فنبشأت لدي حاجة للألوان والأشكال المتعينة . وكثيراً ما كنت أترك الموسوعة لأمر على قاعات الفنون لأشاهد اللوحات والتماثيل . كما كنت أقوم بتعديل وإدخال بعض التغييرات على منزلي كي أستخدم يدي أو أستخدم جزءاً من وجداني تعطل بسبب الشغالي بعالم الكلمات والحروف . فكنت أغير في الشبابيك . وأزعم أنني طورت طريقتين لصنع شبابيك الزجاج المعشق بطريقة رخيصة للغاية ، وقمت بتحويل كثير من نوافذ منزلي بهذه الطريقة . كما أنني أضفت أقواساً (أرشات) مصنوعة من الأبلكاش غيرت من هويتها ومنظرها ، بل إنني كنت أحياناً أغير في أرضية العمارة والمنزل . كنت مرة في إحدى محلات الرخام ، وأعجبني قطعة رخام مشغولة تسمى عند الحرفيين "سرة" ، وقررت أن أركبها في سلم المنزل . وحين حان وقت تركيبها ، أخبرني العمال بأنها لا يمكن أن تُركَّب إلا في صالة ضخمة ، وأشاروا إلى أن المساحة على السلم صغيرة للغاية . فجلست أتأمل فيها بعض الوقت ثم وجدت أنها لو وضعت في وسط بلاطات من الرخام ستحتاج إلى مساحة واسعة ، أما لو وضعناها في قطعة واحدة من الرخام فإنها يمكن وضعها في أي مكان لأن الرخام في هذه الحالة سيكون بمنزلة إطار ، أما البلاطات فهي تحتاج إلى امتداد . وشرحت الأمر للمصالح ، فانبهروا بالفكرة ووافقوني عليها . وبعد ساعة عادوا لتركيبها ولم أكن موجوداً . فأخبرتهم زوجتي أنهم يمكنهم أن يبدأوا العمل حين عودتي ، فأخبروها بأنهم يؤثرون الانتظار ، "لأن الدكتور عنده نظرية" . وبالفعل حينما عدت قمنا بتنفيذ "النظرية" ، وأعجب بها العمال أيما إعجاب لأنها جديدة . وفي أثناء تركيبها اكتشفت إمكانات الشبورة على الرخام ، إذ يمكن زخرفة الرخام به ، فطلبت منهم رسم بعض النقوش العربية الموجودة على باب شقتي على رخام السلم ، ففعلوا ذلك في بضع دقائق وازداد إعجابهم بي ، وأقلت أنا من قبضة الموسوعة والتجريد بضع لحظات ، وازداد السلم جمالاً !

وكانت زوجتي تضيق أحياناً بعمليات الهدم والبناء المستمرة . أما الأستاذ أحمد بهجت الذي يسكن عندي في العمارة ، فكان يقول لي لم لا تكتب رواية أو عملاً فنياً وتركنا وشأننا .

فقد كنت دائم التغيير ، فيما يوضع في السلم ، لكن في نهاية الأمر زُيِّنت سلم العمارة ومداخلها بسيراميك جميل أحضرته من تونس - كما أنني زُيِّنت سلم الدور الأول بمتحف صغير يضم بعض الأشياء التراثية يتمتع به السكان وزوارهم .

بدأت عملية إعادة صياغة العمارة والشقة باجتماعات مكثفة نعقدّها يومياً تقريباً أنا وأعضاء أسرتي نتفاهم بخصوص الخطوط العامة . كانت الاجتماعات « الجمالية » تعقد كل مساء بين أعضاء الأسرة ، وكانت المناقشات أحياناً حامية الوطيس نظراً لاختلاف الأذواق والفلسفة الجمالية ، فانا أميل إلى زيادة التفاصيل الجميلة في منزلي (لوحات - ثنائيل - قطع من الخلي القديمة - خنجر قديم ... إلخ) . على أن يكون المعيار الوحيد هو التناسق بينها ، بينما تميل زوجتي وأولادي إلى ما أسماه « جماليات الحد الأدنى » ، وهو الاستمتاع بالفراغ والصمت على أن يكون هناك الحد الأدنى من الزخارف والتحف . ويقول البعض إن عدد الصور والتحف التراثية في منزلي مُبالغ فيه بعض الشيء ، ولعله رد فعل للشقة التي نشأت فيها في دمنهور .

كنا نشاور بخصوص كل شيء ، وتم الاتفاق على الخطوط العامة ، وظلت هناك نقاط اختلاف بخصوص التفاصيل . كنا بطبيعة الحال محصورين بالهيكل المعماري الموجود بالفعل لا يمكننا تغييره (فهذا يتطلب هدم العمارة !) ، ومن هنا بدأنا نطلق على تجربتنا في إعادة صياغة المنزل "المعمار التحويلي" ، فهي محاولة للهروب من القبح المعماري المحيط بنا ، معمار وظيفي نفعي ، يعامل الإنسان كما لو كان كائنًا طبيعيًا بلا ذاكرة ، ولكننا لا يمكننا هدمه فهو ثروة مادية . لذا لم يبق أمامنا سوى التعامل مع الهيكل المادي القائم والتحرك داخل حدوده .

ثم ناقشنا مساحة الشقة ، فوافقنا جميعاً على أن الشقة المصرية قد قُسمت بطريقة عامة تصلح لاستقبال الضيوف ، ومن ثم توجد مساحة استقبال خارجية ضخمة مفتوحة (وقد أصبحت هذه هي آخر صيحة) ، وغرفتنا نوم صغيرتان ملحقتان بها وكان الإنسان يبنى بيته ليتحرك في رقعة الحياة العامة لا ليكون مأوى خاصاً له يعيش ويتحرك فيه . وانطلاقاً من إدراكنا هذا ، وافقنا على إلغاء فكرة غرفة الصالون ، فهي مساحة معطلة تؤدي إلى انكماش المساحة المتاحة للمعيشة ، وبطبيعة الحال كان هناك كره متواصل للصالون المذهب بالذات . ووافقنا جميعاً على إلغاء المساحة المفتوحة وأصبحت مكاناً للمعيشة . كما وجدنا (بالتجربة) أن غرفة الطعام هي أقل الغرف استخداماً ، ومن ثم قررنا أن يصغر حجمها وأن توضع في مكان غير مهم في الشقة . أما أهم الأماكن في الجزء الخارجي من الشقة ، فقد خصص للمعيشة اليومية ، أي أننا وسعنا وركزنا على رقعة الحياة الخاصة في الشقة .

ومن الأمور التي لم نناقشها ولم نتفق عليها صراحةً ، ولكنها كانت مفهومة ضمناً ، حب القديم . وظيفتي التي تميل إلى التجريد والتنظير سمت هذا « استعادة التاريخ » لمنى حاول أن ينهيه ، "استعادة الذاكرة" لمنى يحاول أن يغوص في النسيان . ومن هنا شراء الأشياء القديمة

واستخدامها في تزيين المنزل . حين عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ كنت أسير في رملة بولاق فوجدت محلاً فيه قطعة من الرخام مكتوباً عليها «ديوان المديرية» تباع على أنها رخام ، واكتشفت أنها كانت الرخامة المعلقة على البنى القديم بمديرية الحيزة ويعود تاريخها (كما هو مكتوب عليها) إلى عام ١٨٧٠ ميلادية و١٢٨٨ هجرية ، بمعنى أن تاريخها يعود إلى ما قبل دخول الاستعمار الإنجليزي مصر فاشتريتها ، وكانت أول شيء قديم أعلفه على عمارتي (التي أصبحت معروفة بهذا الاسم) وكان علامة على بداية التحويل ، ومحاولة استعادة التاريخ والزمان والإنساني . ويقول صديقي الدكتور عبدالحليم إنها محاولة لاستعادة القداسة والعودة عن علمنة الباني . وهو محق إلى حد كبير في هذا ، فالعلمنة الشاملة - كما قلت - هي تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا قداسة لها ، وهذا ما يحققه الطراز الذي يسمى "دولياً" ، فهو يهدف إلى تأسيس صالة مباني عملية خالية من الزخارف والهوية مكونة من كم من حوائط نمطية (يمكن أن تبني من الألواح الأسمنتية المجهزة سابقاً pre-fab) ، وكل مبنى يأخذ شكل وحدات صغيرة متكررة تشبه الصناديق المتراكمة الواحد فوق الآخر ، في نظام دقيق حتى تتحول إلى صندوق كبير هو العمارة السكنية ، ثم توضع الصناديق الكبيرة بجوار الأخرى لتصبح حياً أو صندوقاً ضخماً يتسع لعدد كبير من الناس ، ثم توضع الصناديق الضخمة الواحد بجوار الآخر لتصبح صندوقاً مهولاً يتسع لعدد هائل من الناس ثم يطلق على هذا اسم مدينة أو ضاحية ... إلخ . وهذا النوع من المعمار يصلح لسكنى أي شخص أو عائلة طالما أنه تم تحديد أحلامها وتوقعاتها وسلوكها مسبقاً وبشكل كمي (ولذا أسميه الهامبورجر أو البروتين الإنساني) .

ورغم حبنا للقديم ، إلا أننا رفضنا فكرة تحويل المنزل إلى متحف ، فأننا أؤمن بالفرق بين ما أسميه الماضي المتحفى والماضي الحي ، فالماضي المتحفى (مثل ماضي مصر الفرعوني) جميل ولا شك ، وبقاياه لا بد أن نحافظ عليها وندرسها من أجل جماله في ذاته ومن أجل الذاكرة التاريخية للإنسانية جمعاء . ولكننا بعد الفتح الإسلامي تغيرت الأنساق الرمزية واللغوية والدينية والحضارية بحيث صار امتداد هذا الماضي في حياتنا متعدياً تقريباً ، وإن وجد امتداد له فهو في بعض التفاصيل (مثل بعض الكلمات وأسماء بعض القرى والمدن وبعض العادات الشعبية مثل أكل الملائنة والمسيخ في شم النسيم) التي لا تغير بشكل جوهري من رؤيتنا العربية الإسلامية للكون ، وهي الرؤية المنبثقة من الماضي إلى الحاضر ، تعيش فينا وتشكل أساس خريبتنا المعرفية أو نماذجنا الإدراكية . ولذا اخترنا الطراز العربي أساساً ، وإن كان هناك بعض القطع الفرعونية في منزلها . ونحن لم نلجأ لتقليد الماضي وإنما لمحاكاته ، وثمة فرق بين التقليد والمحاكاة . فالتقليد هو أن نحاول أن نتقل شيئاً بحذافيره (وهذا ما يفعله بعض دعاة التعريب ممن يحاولون أن ينقلوا الحضارة العربية كما هي ، والمفارقة أنهم لا يختلفون كثيراً عن بعض السلفيين ممن يحاولون نقل «الماضي المجيد» بحذافيره) . أما المحاكاة فهي أن نحاول أن تصل إلى جوهر شيء

وتؤكد منه ما يتناسب مع وضعنا الحديث . فكنّا نزرور البيوت الملوكية القديمة ونتدارس ما فيها ونحاكيها من خلال ترجمة فلسفتها المعمارية الداخلية والخارجية إلى طراز حديث .

وكنّا متحمسين في البداية للطراز العربي الإسلامي الخالص ، ولكننا حضنا في المنزل مناقشات طويلة مع لجنة التخطيط العليا في منزلي المكونة من بقية أعضاء الأسرة (المعارضة الرشيدة لقيادتي الحكيمية !) . وقد حدث أننا أحضرنا مهندس ديكور مهتمًا بالطراز "العربي" ("العرايبسكا" كما يسمونه في محلات الأثاث الشعبية وهي كلمة منحوتة من كلمة أرابيسك الغربية و"العربي" العربية) . وجاء وقدم لنا رسمه الأولي ، وهو عبارة عن صيغة جاهزة لا شخصية لها (برعم أنها عرايبسكا !) . فكثير من مهندسي الديكور يواجهون أي مساحة بمجموعة من المخططات الجاهزة التي تتجاهل نوع المساحة التي أمامهم ، وطبيعة الأسرة التي ستسكن الشقة . وكان رسمه عبارة عن مجموعة هائلة من المشروبات المطعمة بالصفوف والدواليب المنقرشة . وحينما فكرنا في الأمر وجدنا أنه من المستحيل علينا أن نعلق بعض اللوحات التي نحبها ، إذ إن الطراز الذي اقترحه ينفر من اللوحات . ثم فوجئنا بالسيد المهندس يأتي لنا ببعض أغاني صالح عبد الحفي لتستمع إليها ، فكانه يريد أن يفرض علينا غطًا من الحياة بدلًا من أن يساعدنا على ترجمة منطلقاتنا النفعية والجمالية إلى حيز معماري داخلي نتحرك فيه . وحينما اقترح السيد المهندس أن ندعّن الحوائط باللون دافئة ومريحة (بني وبنفسجي) أدرنا أنه مسكين ، أسير بعض الأفكار الجاهزة . وقد أخبرته سائحًا بأنه صمم لنا « جارسونية إسلامية » ، (وبالفعل ظل الطراز العربي الإسلامي يستخدم بين المصريين أساسًا في أماكن الخلوة لأنه يستدعي عالم ألف ليلة وليلة ولحظات الفردوس الجنسي التي تتكرر فيه) . وقد اقترح كذلك أن تُبنى الأرائك ثم تُكسى بالسيراميك وتوضع عليها الشلّ ، فاعترضت زوجتي لأن مثل هذه الأرائك سيكون ثابتًا ، مما سيجعل من المستحيل علينا أن نغير ترتيب الشقة إن شعرنا بالحاجة إلى ذلك . ولسوء الحظ (أو طحسه) كان المهندس قد بدأ في تنفيذ بعض أفكاره النمطية وكنا نراها في نهاية اليوم بكل سلباتها ، فكنّا نهدمها أو نعدل فيها . فمثلًا قام ببناء كتفين (حائطين صغيرين ، بارزين من الحائط) في غرفة النوم عند حافة السرير بحيث يكون محاطًا بحوائط من جميع النواحي ، فقمنا بهدمهما ، لأنني أحسست أنني يمكن أن أختنق . كما أنه كمادة كثير من مهندسي الديكور ، يحب ما يسمى بال split level وهو أن تكون الشقة على مستويين ، حتى ترداد الأبهة (كما هو الحال في الأفلام المصرية القديمة) . ولكننا اكتشفنا أن حكاية المستويين هذه في الشقة تبعد المساحة تمامًا ، كما أن السلمة الوحيدة غير ملحوظة دائمًا ، فكان أصدقائنا يتساقطون ، وأصبحت مهمتنا هي تحذير الناس منها . وقد قمنا بإزالتها في نهاية الأمر والحمد لله . وانتهى الأمر بأن قام السيد المهندس بهدم كل ما في الشقة من نوافذ وأرضيات وعض الحوائط ، واستولى على الاعتمادات المخصصة لإعادة صياغة شقتي ، وفر وتركني وحيدًا بين

الأطلال". وكانت هذه لعنة تحولت إلى بركة إذ كان علينا أن نعيد صياغة الشقة أنا وأعضاء أسرتي من نقطة الصفر .

وقد وجدنا أنه لا بد من تطوير طراز عربي إسلامي حديث يحاكي القديم ولا يقلده ، بل انمنا ويربحنا ولا يسقط في قبضة تقليد القديم أو الغربي . هذا الطراز لا بد أن يكون منفطحاً قادراً على استيعاب الأساليب الأخرى ، شرقية كانت أم غربية ، وقد سميته الأسلوب الاستيعابي . ومن هنا برعنا أن معظم أثاث بيتي من الطراز العربي ، فإن غرفة المائدة من الطراز الإنجليزي الذي يقال له «إدواردي» . وقد اخترنا هذه الغرفة (التي وجدتها ملقاة أمام إحدى محلات الأثاث القديم في السيدة عائشة ، واشتريتها ببضعة جنيهات) ، أقول اخترناها لجمالها ولأنها يمكنها ، من خلال خطوطها المستقيمة ، أن تندمج ببساطة مع الطراز العربي الإسلامي .

ومن مظاهر هذا الأسلوب الاستيعابي أن أبواب الغرف ليست متعائلة ولا منحنية ، فكل باب له شخصيته ، ومختلف عن الأبواب الأخرى (لا ندرى سر إصرار الكثيرين على أن تكون كل الشبابيك والأبواب متعائلة ، سوى أنهم خضعوا للتنميط الذي تفرضه الصناعة الحديثة وفكرة خط التجميع) .

وكان من نقط الانطلاق الأساسية ، مفهوم التكلفة ، فقد قررنا ألا نتجاوز تكلفة الأثاث الذي نصممه تكلفة الأثاث المماثل (فرنسي أو حديث) الذي قد تشتريه الأسرة المصرية من أعضاء الطبقة المتوسطة . كانت ميزانيتنا محدودة ، ولكن لم يكن هذا هو العنصر الوحيد في قرارنا هذا ، إذ إننا أردنا أن نبين زيف الأسطورة القائلة بأن الأثاث العربي مكلف (لأنه متحفى) . وسبب ظهور هذه الأسطورة أنه لفكرة طويلة كان لا يطلب الأثاث العربي سوى الأجناب ، ومقدرتهم الشرائية عالية . كما أن عدد الحرفيين الذين كانوا ينتجون مثل هذا الأثاث محدود ، مما يجعل أجورهم مرتفعة . وقد نجحنا إلى حد كبير في حصر التكاليف . وكانت إحدى الحيل التي نلجأ إليها أن نصمم قطعة الأثاث التي نريدها ونسقط كل الزخارف العربية ، وبعد أن نتفق مع التجار على السعر نخبره بالزخارف والحشوات العربية التي نريدها ، وتكلفتها لا تذكر .

بدأت عملية التحويل بإزالة الجرانوليت ودهان المدخل واستبدل به اللون الفاتح . ثم بدأت أضع بعض مفتحاتي القديمة في المدخل : كرسي عربي - صندوق عروسية قديم - لوحة مصممة الفنان رحيمي من السيراميك التركي القديم - نوارج . ثم بدأت في تحويل الشقة ذاتها ، بحيث أقترب بها إلى حد ما من المفهوم الإسلامي والعربي للعمارة .

ثم عاملنا شقتنا معاملة مدخل العمارة ، فعلى سبيل المثال ، بجانب الأرائك العربية يوجد كرسي قوته قديم من الطراز الذي يسمّى «توني» ، وفي غرفة نومي يوجد قطعة معدنية كُتبت عليها بالفلوب "نام نوم العوافي يا جميل" وهي جزء من سرير قديم توجد على شباك السرير ناحية الرأس ، وتوجد مرآة على شباك السرير الأخرى بحيث حينما يذهب الإنسان إلى فراشه

لينام يجدها منعكسة على المرأة أمامه ويرأها لبعض لحظات . كما وضعنا في مدخل العمارة وبعض البلكنونات ذلك النورج والرجى (التي تُستخدم في طحن الليرة والقمح) وختامة الغلة (قطعة خشبية مستطيلة كُتب عليها بالمقلوب كتابة غائرة تحمل عبارات دُعائية ، كان الفلاح المصري يختم بها كؤوم الغلال الخاص به حتى لا يختلط مع أكوام غيره ، وحتى يعرف صباحاً إن كان أحد سرق بعضاً منه ليلاً أو لا) ، والكوز الذي يُستخدم في صنع الكنافة ، وهي أشياء إما اندثرت تماماً وإما في طريقها إلى الاندثار . وتوجد صفحات من مخطوطات فارسية وتركيبية وعربية قديمة وقطعة من الحرير القبطي وقرمان عثمانى وضعت داخل أطر وعُلقت على الحائط .

ومما استرعى انتباهنا الحوائط الحادة للحوائط والكمرات التي كانت تشبه السيوف المشرعة أو المقاصل الحادة ، فقمنا "بكسر السوكة" كما يقول المقاتلون ، أي بكسر حروف الكمر والحوائط لتميل إلى الاستدارة . أما في النقطة التي يلتقي فيها الحائط القائم بالسقف (في زاوية قائمة) فقد وضعت زخرفة من الجبس وطلبتها بلون الحائط حتى تبدو كما لو كانت عضوية . كما استخدمنا الشبك الممدد أحياناً لعمل الأقواس وتحويل الممرات في المنزل إلى أقبية . وقد لاحظت أن السقف منخفض للغاية فقمنا بوضع زخارف وعبارات من كتب الخط العربية على كل الأبواب وفوق معظم الكمرات بحيث يتوقف عندها النظر ولا يصل إلى السقف . (كنا أحياناً نصور العبارة بعد تكبيرها أو تصغيرها ثم نقصها ونلصقها ، ولا يلاحظ أحد هذه الطريقة البسيطة في الزخرفة) ، وزينا الجدران بما يسمى الشمسيات (المستطيلة) والقمرينات (الدائرية) من الجص المشقق بالزجاج الملون ، وهي نوافذ تظت في الحائط (لا تفتح ولا تغلق) . كما أنني لاحظت أن الشقق الحديثة مجموعة من الجدران الصلبة ، ووجدت أنني حينما أضع عليها قطع المصوغات القديمة (كردان فلاحى قديم) فإنه يعطيها جمالاً خاصاً ويقلل من حدة صلابة الجدران . وقل الشيء نفسه عن قطع السجاد أو الباتيك التي تعلق على الحائط ، فهي الأخرى تخفف من حدة صلابة الحوائط . ثم وضعت أثاثاً عربياً ليحل محل أثاثي الفرنسي ، وقد قام المهندس مهيب بتصميمه . وقد ابتعدنا قدر طاقتنا عن الخطر (المشربية) والصدف اللذين يتصور معظم الناس أنهما جوهر الأثاث العربي ، وبدلاً من ذلك استخدمنا الحشوات أي الزخارف بالخشب على جسم الأثاث نفسه (مما يخفف من ثمن الأثاث ويجعله في متناول الجميع) .

وقد حاولنا أن تكون هناك تحف من كل البلاد العربية (باب من نجد - كرسي من دمشق - مرآة من المغرب ... إلخ) ، ومن بلاد أخرى (لوحة من أمريكا اللاتينية - أخرى من جمهورية التشيك - أوانٍ ولوحات من إيران - تماثيل من ماليزيا) . ومن المعروف أن المنزل العربي ينظر للداخل وليس للخارج ؛ ولذا فالحديقة التي تقع في وسط المنزل عنصر معماري أساسي . وهذه الحديقة في تصويري تخبر من طرف خفي إلى الجنة التي يحلم بها الإنسان . ولكي أوحى بهذه الفكرة قمت بتحويل العنبر إلى حديقة وضعت فيها الأشجار ونافورة صغيرة وبلاطات الزليج

وبعض القطع الأثرية الفنية . وبدلاً من الشبائيك العادية قمت بعمل مشربية حديثة مكونة من الزجاج وشرائح الخرط ، وهي تشبه ال bay window الأمريكية (وهو شباك يتكون من ثلاثة أضلاع ، بارز من الحائط إلى الخارج) وتفتح في اتجاه البحري . وقد فضلنا الرخام الأسبوطي على الباركيه والخزف وفضلنا الشبائيك الخشبية على الألومنيال . وقد نجحنا في أن تبقى التكاليف في حدود إمكانيات أي أسرة من الطبقة المتوسطة . بل أزعج أن الأثاث العربي أجمل وأرخص من الأثاث الفرنسي ، إلى جانب أنه يشعر الإنسان بالدفع والانتماء .

وقد زينا الحوائط بلوحات من الفن المصري الحديث . وأنوي بإذن الله تغيير واجهة العمارة التي لا تزال على الأسلوب «الدولي» القديم ، كما أنوي إن شاء الله بناء سبيل ماء صغير لإحياء نوع من المعمار اندثر حالاً .

الفنون الأخرى

لم تكن إعادة صياغة المنزل إلا شكلاً واحداً من أشكال اهتمامي بالفنون التشكيلية . ولكن كان هناك تدييات أخرى ، من ضمنها اهتمامي بفكرة «المتحف» ، فكتبت مجموعة من المقالات عن معمار المتحف ، استخدمت فيه معمار متحف النيجر كنموذج يُحتذى . فمتحف النيجر (في العاصمة نيامي) ليس مجرد مبنى يضم أعمالاً فنية ، وإنما هو ثمرة تفكير عميق . ويصدر هذا المتحف عن تصور مفاده أن شعب النيجر مكون من عدة شعوب ، لكل لغتها وتراثها ، فإن ركز المتحف على شعب دون غيره فإنه ينتج عن هذا هيمنة وإمبريالية ، ولذا لابد من تشييد متحف لا يدور حول ذات قومية واضحة ، يحتسي بتراث النيجر دون أن يركز على شعب بعينه . وهذا ما حدث بالفعل في متحف النيجر ، فهو يبدأ من اتاريخ الطبيعي : شجرة من غابة حجرية وضعت على الأرض ، وإلى جوارها تقف شجرة تنسريه . حاركة التي نبتت في وسط الصحراء وكان ينبرك بها أهل النيجر ، إلى أن صدمها سائق عربي (للأسف) وحطمها ، فحمل رفاتها إلى هذا المتحف وتم تحنيطها وغرسها . ويضم المتحف حديقة للحيوان ، وقرية للمحرفين . وصلات العرض عبارة عن مباني مستقلة متناثرة على مجموعة من التلال وسط العاصمة . ولا يوجد للمتحف برابة واحدة إذ يمكن للمرء أن يدخله من عدة مداخل ، فهذه صالة لمرضى تاريخ النيجر من خلال ملابسها التقليدية ، وأخرى للخناجر وهكذا .

ومن أهم التجارب الفنية زياراتي المتكررة لمتحف المتروبوليتان . كنا نقطى - كما أسلفت - لبضعة أشهر بجوار متحف ال Cloisters الذي يعرض فنون العصور الوسطى في الغرب . فكان من اليسير علينا أن نتردد عليه باستمرار ، خاصة أنني كنت أدرس لاتينية وإنجليزية العصور الوسطى وأدائها في ذلك الوقت . ثم افتتح جناح الفن الإسلامي في متحف المتروبوليتان وذهبت لزيارته وذهلت لما رأيته من جمال وتقوى . وقد استرعى انتباهي الفن العثماني ، وبدأت بعض

اقتناعاتي عن التقدم والتخلف تهتز . كل هذا جعلني أنتبه إلى عظمة الحضارة الإسلامية التي كانت قد بعدت في وجداني بسبب تخصصي الأكاديمي ورؤيتي الفلسفية (الغربية المادية) . ثم استرعى انتباهي الفروق الواضحة بين فنون العصور الوسطى الغربية والفن الإسلامي ، ففي متحف الكلويسنر كانت الفنون كلها دينية : تماثيل العذراء والطفل - شبابيك كنائس - أيقونات كلها جميلة رائعة وتعبّر عن تقوى حقيقية أحترمها وأحترم أصحابها ، ولكنها مختلفة عن الفن الإسلامي . فقد لاحظت أن المقدّس والزمني في الفن الإسلامي يتداخلان بشكل فيه تناسق وتركيب ولكنهما لا يلتحمان أبداً ، فبدأت أشعر بأن محاولة الحكم على الفن الإسلامي والفنون العربية والذات العربية بمقاييس غربية تدّعي أنها عالمية أمر عجوج وخائب .

وقد عرفت فيما بعد أن كثيراً من الأجانب الذين دخلوا الإسلام دخلوه عن طريق الفنون الإسلامية . فالفنان بيجار ، واقص الباليه الفرنسي المعروف ، اعتنق الإسلام من خلال دراسة السجاد والرسومات المركبة داخله . كما أن روجيه جارودي كان له اهتمام خاص بالمعمار الإسلامي . ولعل هذا ينبه الداعين للإسلام إلى أهمية الفن الإسلامي والإسلام الحضاري (وإن كان معظمهم للأسف لا يعرف إلا الجانب العقلي في الإسلام ، وهم لا يعرفونه بطريقة فلسفية عميقة ، وإنما بطريقة تراكمية سريعة . فهم لا يدركون أن الإطار الفلسفي أو المنطق الفلسفي هو الوحيد الذي يمكن للإنسان من أن يحاور من خلاله الآخر ، باستخدام مقولات متقابلة وليس من خلال نصوص نؤمن بها نحن ولا يؤمن بها هو) .

وقد كان المتروبوليتان مدرسة حقّة لي ولأولادي . أذكر حينما ذهبت زوجتي إلى إنجلترا لتجمع بعض المادة العلمية لرسالتها للدكتوراه ، أنني كنت أعمل في مكتب الجامعة العربية في نيويورك . فكنت آخذ طفلي وأنا في طريقي إلى المتحف وأتركهما ليحضرنا فصولاً متنوعة (مجانية) طيلة اليوم ، ثم أحدهما في طريق العودة . فكانا يخبراني عن بعض الدروس التي تلقاها : درس في لوحات الفنان الفرنسي ديجا Degas (عن طريق فيلم) ، وثاني عن النحت الإيتروسكري ، وثالث عن الشطرنج في العصور الوسطى في الغرب (عن طريق لعبة يلعبانها يكون فيها الأطفال هم قطع الشطرنج) ، ورابع عن الفن العثماني ، وهكذا . كما كنت أحضر أنا وزوجتي الجولات المتخصصة في المتحف .

ومن القصص الطريفة التي تستحق أن تُروى حكايتي مع لوحة خوان دي باريجا Juan de Pareja للفنان الإسباني فيلاسكيز Velazquez ، إذ كنت أسير في متحف المتروبوليتان ووقعت عيائي على هذه اللوحة ، وعلى الفور رأيت ملامح إنسان عربي ذقنه طويلة ومرسلة دون نظام واضح وشعره موج ، فقررت دراسة اللوحة وكنت محظوظاً إذ وجدت كتيباً عنها . وعن طريقه اكتشفت أن خوان دي باريجا كان مساعداً لفيلاسكيز وأنه بالفعل موريسكي ، أي من أصل عربي ، وأن الفنان الإسباني الشهير أراد أن يبرز إثنيتيه العربية (على عكس الصورة التي رسمها

خوان دي باريخا لنفسه - وكان فناناً من الدرجة الثانية - إذ أبرز فيها ملامحه الإسبانية ، مثل اللحية المنمقة المدبة والرأس المستطيل) .

والفن الانطباعي وما بعد الانطباعي من أقرب الفنون إلى نفسي . وكلما سمحت لي الفرصة أن أشاهد لوحات مونييه Monet "زنايق الماء" (وهي عبارة عن سلسلة لوحات موزعة على متاحف العالم) فإنني أقبل ذلك . وكلما ذهبت إلى متحف ، فإنني عادةً ما أتوجه إلى القسم الذي يعرض الفن الانطباعي وما بعد الانطباعي فأبحث عن لوحات جوجان Gauguin وفان جوخ Van Gogh ورنوار Renoir وهنري روسو Henri Rousseau وفويار Vuillard . وبطبيعة الحال أذهب إلى القسم الذي يعرض فنون الآرنوفو (التي خلّبت لبي منذ طفولتي ، كما بيّنت من قبل) . وأحب بعض فناني المصور الوسطى والفنانين الهولنديين في القرن السادس عشر والسابع عشر (خاصةً فيرمير Vermeer وبروجيل Bruegel الأب والابن) .

أما بالنسبة للفن الحديث فإن غرامي به ليس بنفس الدرجة . فمثلاً أحب بعض أعمال بيكاسو Picasso وموندريان Mondrian وماتيس Matisse ، وإن كنت غير متحمس بهما . حينما كنت في برلين عام ٢٠٠٠ تصادف أن كان هناك معرض لبعض أعمال ماكس إرنست Max Ernst وإدوارد مونش Ed-ward Munch . فوجدت أن أعمال بيكاسو قد تتسم بالتوازن واتساق الألوان والجرأة في التعامل مع الخطوط ، لكن ثمة بعداً ما افتقده في أعمالهم (وبخاصة بيكاسو) أجده في أعمال الفنان السويسري بول كلي Paul Klee (عرفت أنه عاش بعض الوقت في حي بولكلي في الإسكندرية ، وأنه سمي باسمه) وبدرجة أكبر في أعمال فناني المدرسة الوحشية ، وخصوصاً دوفي Dufy (اكتشفت أن دينا بهاء طاهر ، زوجة ابني ، مشغوفة بهذا الفنان إلى حد كبير) وأعمال مدرسة الرواد الروس أمثال كاندينسكي . ورسومات الفنان مارك شاجال Marc Chagall لها مكانة خاصة في وجداني ، فهو فنان رومانسي لوحاته تنبض بالحياة ويتأكدها . واحتفاؤه بقرينته الروسية هو احتفاء بالحياة الريفية بشكل عام . وهو لا يكثر كثيراً بالحدود المادية للأشياء ولا ألوانها الواقعية وإنما بعيد صياغتها لتتفق مع رؤيته . فيرسم بقرراً يطير في السماء وعروساً وعريسها تحيط بهما الزرقاء العميقة يحومان على القرية بأسرها وهكذا . (أشار أحد النقاد إلى أن الزرقاء العميقة هذه واختفاء البعد الثالث الذي يجعل لوحاته تشبه المنحنيات ، تشي بأثر الحضارة التركية عليه ، وهذا بدوره ربما يشير إلى أصوله الخزرية) . وأشير دائماً إلى أن شاجال يهودي ولكن يهوديته هي رمز للإنسانية جمعاء (على عكس المفهوم الصهيوني لليهودية الذي يستبعد الآخرين ، ويقسم العالم إلى يهود وأغيار) .

أذكر مرة أنني حضرت جولة لمشاهدة اللوحات الرئيسية في متحف التيت Tate في لندن . وكان من بين اللوحات التي اختارتها المرشدة للتعليق عليها لوحتان : واحدة لشاجال والأخرى

لبيسارو Pissaro . وحينما وصلنا إلى شاجال أشارت المرشدة إلى كونه يهودياً ، ولكنها لم تشر إلى بيسارو بعفنه يهودياً . فبيئت لها أن بيسارو هو الآخر يهودي ، فأبدت دهشتها . وهنا سألتها أين توجد "يهودية" شاجال خارج إنسانيته ، كما أخبرتها عن أعماله "المسيحية" الكثيرة ، فلم تجد المرشدة رداً على سؤالي .

ذكرت أنني أحب بعض الفنانين المحدثين . ولكن سيلاحظ أنني أحب الفن الذي لا يتأكل فيه الشكل تماماً ، ولا تنفصل التجريد من عقالة (كما هو الحال في الفن المفرق في الحدائق) . وكنت أحرص أنا وصديقي كافين رايلي على أن نسير في صالات العرض في متحف الفن الحديث في نيويورك لتقطيع بعض اللوحات في مخيلتنا (حين لا يكون عندنا متسع من الوقت للتأمل في اللوحات المختلفة . أو لأننا نكون قد شاهدنا عرضاً خاصاً لأحد كبار الفنانين اسعغرق معظم وقتنا) . وقد لاحظنا أن معظم الناس يحبون الفن الانطباعي وما بعد الانطباعي ، ويجدون الفن الحديث بارداً إلى حد ما . ولعل هذا يعود إلى أن الفنانين المحدثين لا يهمهم التواصل ولذا أصبحوا مبدعين لأيقونات خاصة بهم ولغة فنية متغلقة على ذاتها ، وتجريبين بلا أي أعباء إنسانية أو أخلاقية .

ولعل هذا الانفلات التجريدي التجريبي يظهر في تلك اللوحة المصنوعة من الزجاج (الموجودة في متحف الفن الحديث) والتي تهشمت في أثناء نقلها ، فأعلن الفنان أنها مهشمة أجمل منها سليمة ، ويجب أن تظل على حالها ، وبالفعل تُعرض اللوحة المهشمة مع تعليق الفنان عليها ، كما لو كان كلام الفنان مقدساً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويوجد في المتحف نفسه مجموعة من بلاطات القنالتكس عددها ٣٦ (على ما أذكر) وعنوان اللوحة هو "٣٦ بلاطة" . وقد وضعت البلاطات على أرضية المتحف بحيث يمكن للمتفرجين أن يسيروا عليها (وينصحهم حارس الصالة بذلك) . وقد رسم بولاك مجموعة من اللوحات الضخمة عبارة عن مساحات سوداء لا أكثر ولا أقل ، سماها "مراثية للجمهورية الإسبانية" . ولكنه اعترف فيما بعد أن اختياره للاسم كان عشوائياً ، وأنه لا علاقة له باللوحات .

ويصل هذا التيار إلى قمته فيما يُسمى الشعر الموجود Vers trouve أو "شعر الصدفة" . ويعم "تأليف" هذا النوع من "القصائد" بأن يبحث "الشاعر" عن عبارات ولافتات في شارع أو عدة شوارع (على سبيل المثال) ويضعها جنباً إلى جنب على نفس الصفحة ، فتصبح بقدرة قادر "قصيدة" ، لا من خلال الجهد الإبداعي الإنساني ، وإنما من خلال الصدفة والتراكم العشوائي والحد الأدنى من التدخل الإنساني . وقد حضر إلى الجامعة الأمريكية شاعر فرنسي حديث (لا أذكر اسمه) وعرض علينا "ديوان" شعره . وكانت كل صفحة من صفحات "الديوان" مقسمة إلى ما يقرب من عشرة أقسام ، وكل قسم فيه بيت شعر واحد بحيث يمكن للقارئ أن "يركب" القصائد التي تعجبه بالطريقة التي تعجبه ، دون عناء كبير ، بأن يُقلب الصفحات . فأجبرت

هذا الشاعر بأن هذه لعبة لطيفة دون شك ، ولكنها ليست بشعر . فاتهمني بالرومانسية ، فأخبرته إذا كانت الرومانسية تعني الالتزام بالإبداع الإنساني وبقدرة الإنسان على صياغة واقعه ، فانا ولا شك رومانسي .

وقد وصل التجريب إلى حد أن أحد الشبان في هولندا قرر أن يقف على قاعدة تمثال ويعلن نفسه عملاً فنياً (ويطلب من الدولة أن تدفع له راتباً لتمويل وظيفته هذه) . ولعل هذا ما جعل بعض رواد متحف الفن الحديث الذين دربوا على تقبل التجريب والتجريد ، مهما كان اتجاههما ودرجتهم أن يتأملوا بعق في سجادة كانت تأخذ شكل مخروط ، وأخذوا يبدون إعجابهم الشديد بهذا العمل الفني الرائع ، إلى أن حضر أحد عمال النظافة في المتحف وحمل السجادة ثم فرشها على الأرض مع بقية السجاجيد الأخرى ، فلم تكن سوى سجادة عادية ، ولكنها كانت مكمومة بالصدفة بشكل هندسي جميل ولكنه لا اتجاه له ولا غرض ، ولا يختلف عن التجريب المستمر والتجريد المتطرف .

ولعله قد يكون من الطريف أن أذكر هذه الواقعة الشخصية التي لها علاقة قوية بهذا الموضوع . كان ابني في الجامعة الأمريكية يدرس مقرراً في الفن ، وكان مشروعه الذي تقدم به هو مجموعة من اللوحات التصويرية لقصيدة كنت قد كتبتها عنه . وكانت الصور ، في تقدير كل من شاهدها ، جيدة للغاية أو ، على الأقل ، مقبولة . ولكن أستاذته كانت من النوع التجريبي التجريدي ، فكانت على وشك أن تعطيه تقديرًا منخفضاً للغاية يفرض من تقديره العام المرتفع (تمتاز في كل المواد تقريباً في السنوات الأربع) ، مما كان يعرض فرصه للحصول على منحة دراسية في الخارج للخطر . وقد فهمت من ابني أنها تفعل ذلك دائماً مع من يخالفها في الرأي والاتجاه (أي أنها تؤمن بنوع من الغيبية التجريبية والنسبة المطلقة !) . بل "تخصصت" في أن تخسف بأولاد الأساتذة الأرض ، حتى يقال عنها إنها "نزهاء" . كما أخبرني بأن من حصل على أعلى تقدير في العام السابق طالب يحضر هذا النوع من الفن ، فأتى بالألوان وألقى بها كلها على قماش لوحه وقلبها ثم تركها إلى أن جفت ثم قدمها لها على أنها مشروعه الفني . فأعجبت بها هذه الأستاذة أيما إعجاب وأعطته درجة الامتياز .

اتصلت بالأستاذة وطلبت منها أن تعطي ابني فرصة ثانية حتى لا تفرض تقديره العام (وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أتدخل فيها في شئون أبنائي الدراسية وقد فعلت ذلك لأنني وجدت ابني ضحية لشكل من أشكال الدكتاتورية النسبية الجمالية !) ، فقبلت الأستاذة على مضض ، شريطة أن يرسم عدة صور لنفسه . وطلبت من ابني الانصياع لهذا التهريج ، فقبل في بادئ الأمر ، ولكن يبدو أنه حينما بدأ التجريب والتجريد اشمار من نفسه وأراد الانسحاب ولم يمانع في أن يأخذ التقدير المنخفض في هذه المادة . فأخبرته بأن كفاءة اجتياز الامتحانات لا علاقة لها بالفكر ، وأن حياتي مليئة بالأشخاص حادي الذكاء واسعي الثقافة ،

ولم يوفقوا في حياتهم لأنهم لم يملكوا ناصية فن اجتياز الامتحانات ، وأنني لا أحب أن أراه ينضم لهذا المريق . وأعطيت ابني درساً في التهريج التجريبي التجريدي ورسمت له مثلثين : واحداً يقف على قاعدته والآخر على رأسه وقلت : "هل تعرف أن هذا المثلث هو أبوك ، وأن المثلث المقلوب هو أيضاً أبوك ولكن في وضع آخر ؟" وبالفعل جلس ابني المسكين وتعلم مهارة اجتياز الامتحان ورسم صوراً "تجريدية" لنفسه ، وانتهى الأمر بأن أعطته الأستاذة تقديراً مرتفعاً نوعاً .

وأقنتي الآن الكثير من التماثيل التي اشتريتها في أثناء سفراتي . فعندي مستسحان لتمثالين من حضارة السيكلاد ، وهي حضارة ازدهرت في الجزر اليونانية قبل ظهور الحضارة الهيلينية ، ويبدو أنها تأثرت إلى حد كبير بالفن الفرعوني ، ولذا نجد أنها تنحدر نحو التجريد . كما أقنتني بعض التماثيل الإفريقية التي جمعتها من جنوب إفريقيا ونيجيريا والنيجر . وكما ذهبت إلى تركيا اشتري السيراميك الملون بالزخارف العثمانية الجميلة وأزّين بها منزلي ، كما أزّين منزلي بلوحات رسمها فنانون مصريون (التونسي - تحية حليم - حامد ندا - رباب عمر ... إلخ) ، باستثناء لوحة واحدة رسمها فنان أكوادوري يسمى جونا زولو أنديرا كراو Gonzalo Andera Crow . وقد رأيت عرضاً لأعماله في الأوبرا وذهلت من جمال لوحاته وفروث اقتناء واحدة منها ولكن الثمن كان مرتفعاً بالنسبة لي ، فاكتمت بالنظر إليها . ثم اتصلت بي السيدة مبرفت رجب ، صديقتنا العائلية منذ عشرات السنين وحماة ابني (وكان لها برنامج ثقافي أسبوعي باللغة الإنجليزية يُسمى كاليداسكوب Kaliedoscope) وطلبت مني الحديث عن لوحات السيد كراو . فرحمت كثيراً لأن هذا سيمطيني فرصة لرؤية لوحاته مرة أخرى . وبالفعل ذهبت للأوبرا وسجلت البرنامج وعُرض في التلفزيون . وعند انتهاء البرنامج اتصل بي سفير إكوادور وقال لي إنه شاهد البرنامج مع الفنان (الذي لا يعرف الإنجليزية) ولكنه ترجم له ما قيل . وأن الفنان سرّ كثيراً مما سمع ووصف ما قلته بأنه أحسن نقد سمعه عن نفسه وأنه قرر إهدائي إحدى لوحاته ، وكل ما طلبه مني هو أن أكتب ما قلت على هيئة مقال . فوافقت على التو ، ولكنني كنت مشغولاً بالموسوعة ، ولهذا كتبت المقال بعد حوالي ستة أشهر . وحين ذهبت لإعطائه للسيد السفير أخبرني بأن الفنان قد مات منذ شهر ! وكانت هذه من أكثر الأحداث حزناً في حياتي .

وهناك قصة أخرى ولكن نهايتها - والحمد لله - سعيدة وقعت لنا مع فنان مصري هو الدكتور مصطفى الرزاز . ففي عام ١٩٨٢ ذهبت أنا وابني لأخذ معارضه وكانت هناك صورة ضخمة مرتفعة (خمسة أمتار في عشرين متر على ما أتصور) وتُسمى "الخلص" وقّع ابني في هواها . ولكنها كانت ضخمة للغاية ، كما أنه لم يكن عندي من النقود ما يكفي لشراؤها له . فطلبت منه أن يصبر إلي أن واتنا الشجاعة المعنوية والمالية بعد عدة سنوات (بعد دهابي

للسعودية) وذهبنا إلى استوديو الدكتور الرزاز وأخبرناه بقصة اللوحة . فأخبرنا بأن اللوحة الضخمة كانت لوحة حائطية رسمها لإحدى شركات التأمين ولكنه لا يزال محتفظاً بالأصل ، أي باللوحة الصغيرة التي قام بتحويلها إلى لوحة حائطية . ثم فوجئنا بالدكتور يعطي الأصل لياسر بثمان رمزي اسمي ، فقد كان مبلغاً صغيراً للغاية لعله يغطي الختامات وحسب ! وقد قام ياسر بتعليق الصورة على سريره ، وبعد زواجه علّق اللوحة في مكان رئيسي في منزله .

ويظهر اهتمامي بالفنون التشكيلية في اهتمامي بأغلفة كتيبي وفي محاولة تطوير مفهوم ما يسمى «الكتب الفنية» (بالإنجليزية : آرت بوك art book) . وقد صدر لي كتاب عاشق من فلسطين و العرس الفلسطيني ، وقد صمّم غلافهما وزودهما ببعض اللوحات الفنان الفلسطيني كمال بلاطة . وفي الكتاب الثاني ، قام خطات عربي بكتابة النص العربي بخط جميل . وأبوي إن شاء الله إصدار طبعة مصورة من قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج ، ستضم الدراسة النقدية التي أشرت إليها ، وسيقوم أحد كبار الخطاطين بكتابة الترجمة بخطه ، وسنحاول توظيف الخطوط العربية المختلفة (نسخ - رقعة - فارسي - تاج ... إلخ) في توضيح المستويات المختلفة للقصيدة . كما ستقوم الفنانة رباب نمر برسم تسع لوحات تصور مراحل القصيدة المختلفة (وكما أقول خلقت رباب نمر لرسم هذه القصيدة ، فعملها الأسطوري الطفولي المركّب واهتمامها بعلاقة الإنسان بعالم الطير والحيوان ، يجعل معجمها الفني مهياً بشكل كامل للتعبير عن القصيدة تشكلياً) .

ويظهر اهتمامي بالفنون التشكيلية في اهتمامي بالأزياء ، فكثيراً ما أقرأ أخبارها وأتبع أخبار مصممي الأزياء وما تجرد به فريحتهم من أفكار مخيفة تدل على أن همهم هو «اللعب» الذي يصبر عن حساسية ما بعد الحداثة في الغرب وليس الإبداع . وقد صممت لنفسني قميصاً يتفق مع أوضاعنا البهية والثقافية ، فالقميص لا رقبة له (ما فائدة الرقبة في بلادنا سوى أننا ننظر لفلسلها وكيفا؟) وهو قميص مفتوح من الأمام مثل الجلابية وبه جييبان كبيران أسفل القميص وجيب صغير في النصف الأعلى .

ويرتبط الاهتمام بالفنون التشكيلية برغبتي الشديدة في شراء الأشياء القديمة . عند عودتي من الولايات المتحدة إلى القاهرة الانفتاح عام ١٩٧٩ أصبت بصدمة حضارية حقيقية ، وأخذت استجابتي (أر رد فعلي) شكل الاهتمام الحاد بالأشياء القديمة والرغبة شبه المرضية في اقتنائها (إلى درجة أنني كنت أقترح أحياناً لشراء إحدى الأشياء القديمة إن وقعت في هواها) ، فاقننت أشياء قديمة عديدة لا يربطها رابط (مكواة - طربوش - خوذة جندي ألماني نازي في العلمين .. إلخ) وقد احترت في تفسير ظاهرة شغفي الشديد بالأشياء القديمة ، فقرأت كتاباً في سوسولوجيا الأنتيكة وعرفت منه أن جامعي الأشياء القديمة هم عادةً أناس مشغولون بالتاريخ والرومان والتفرد . فالشيء القديم ، على عكس السلعة ، لا يتكرر ولا يوجد على نطاق

جماهيري ، بل هو يؤكد رقعة الخاص والفريد .

ومن الأشكال الفنية الأثيرة لنفسه (أنا وزوجتي) فن السينما . وكما ذكرت أناحت لنا إقامتنا في نيويورك (وهي عاصمة دور السينما في العالم دون منازع) فرصة رؤية أعظم الأفلام . فرأينا معظم أفلام إنجمار برجمان وأكيرا كوروساوا وفريدريكو فليليني Federico Fellini . واعتبر وودي آلين Woody Allen ، من أكثر المخرجين قرباً إلى نفسي . وأفلامه تدور حول مشكلة انفصال العقل عن الإيمان ، ويقف وودي آلين بين عالمي العلمانية والإيمان ، ولكنه يسخر من كليهما .

في أحد أفلام وودي آلين ، يسير في ردهة أحد متاحف الفن الحديث ويقف أمام لوحة تجريدية لجاكسون بولاك ويود أن يخطب ود الفتاة التي تقف أمام اللوحة ، فيقول لها : "ماذا تقول لك اللوحة ؟" فتجيبه : "إنها تؤكد مرة أخرى سلبية العالم ، فراغ الوجود الموحش المتوحش ، العدم ، حيرة الإنسان الذي فرض عليه أن يعيش في أزلية مجدية بلا إله ، وكأنه لسان لهب صغير يهتز في فراغ هائل لا يوجد فيه إلا الخراب والفرع والمذلة التي تصرخ للإنسان قيئاً كالحا لا جدوى من ورائه ، في كون أسود عتي" . فيسألها وودي آلين (وهو مستمر في عملية خطب الود) : "ماذا تفعلين يوم الأحد؟" تجيبه قائلة : "مأنتحر" . فيجيبها : "وماذا عن يوم السبت إذن ؟" .

ويتسم وودي آلين بأنه لا يحب شخصياته اليهودية داخل قوالب ضيقة ، بل يحولها إلى شخصيات حديثة لا تختلف عن أي إنسان حديث آخر ، رغم أنها تعبر عن إنسانيتها من خلال يهوديتها ، وعن يهوديتها من خلال إنسانيتها (وهو في هذا لا يختلف عن شاجال) . وقد كتب وودي آلين مقالاً رائعاً عن الانتفاضة يقول فيه إنه لا شأن له بالسياسة ، لكن كسر عظام الأطفال أمر يتجاوز الاهتمام بالسياسة . هذا وتضم الموسوعة أجزاء عن الفن التشكيلي وعن فن السينما بما في ذلك مدخلين طويلين عن وودي آلين وشاجال .

وهناك أخيراً الموسيقى الكلاسيكية الغربية والعربية وبعض الأغاني الغربية والعربية . فانا أهشق موسيقى الحجرة ، خصوصاً الموسيقى الباروك (وأعمال تليمان على وجه التحديد) . وحينما سألت صديقي (وأستاذي) سميد البسيوني عن أي أنواع الموسيقى يحب فوجئت بقوله إنها الباروك . وحينما سألته عن السبب ، قال : "كل أنواع الموسيقى محاولات متعشرة أن تكون موسيقى ، إلا الباروك ، فهي الموسيقى التي تحققت من خلالها حالة الموسيقى" . وفي هذا ولا شك شيء من المبالغة ، ومع هذا لقي قوله صدى في قلبي . وأحاول تفسير حبي للباروك ، فأذهب إلى أن الباروك هو آخر أنواع الموسيقى قبل عملية الترشيد التي أخضعت لها الموسيقى الغربية (وكل مناحي الحياة في العالم الغربي) . كما أتصور أن موسيقى الباروك لا ترال تتضمن فكرة المقدس (المفارق للمادة) وأنه بعد ذلك تظهر الموسيقى الرومانتيكية بما فيها من فردية

مطلقة ، بحيث يصبح الفرد هو موضع الحلول . وأستمع بكثرة لأعمال موزارت وتشايكوفسكي وبرامز وفيفالدي . ومن الآلات الأثيرة لدي الأوبو والفلوت (كم أحب أن أسمع إناس عبد الدائم) وآلة قديمة تسمى الريكورد . وقد ساعدني أبنائي على تذوق الغناء الغربي الحديث ، فعمقت غناء البيتلز .

وهناك قصة حدثت لي تستحق أن تذكر بسبب تفردھا . حينما كنا نقيم في السعودية قمنا منزلاً وكان من نصيبي الردهة الخارجية أجلس فيها لأقرأ أو أكتب ، وكانت زوجتي تقرأ وتعد محاضراتها في إحدى الغرف الداخلية ، ومن ثم كنت أستمع إلى السريو بمفردي . فاحتجت زوجتي على هذا الوضع ، فوضعت السريو في غرفة مكبھا . وفي أحد الأيام كانت نستمع إلى كونشيرتو الكمان ليفالدي ، وهو من أحب المقطوعات الموسيقية لدي ، وفجأة وجدت نفسي أذهب إلى مكان السريو لأؤكد عما إذا كنت هناك أم لا ! وقد فرغت من سلوكي هذا ، ولا أعرف له تفسيراً ، لأنه لم يقع لي مثل هذه الحادثة من قبل أو من بعد .

أما الموسيقى العربية الكلاسيكية فكنت أداوم على حضور حفلات الموسيقى العربية أيام عبد الحليم نويرة . أذكر أنه في إحدى الليالي كان متألّفاً ولعب الأوركسترا دور "كادني الهوى" محمد عثمان وغنت معه فرقة الموسيقى العربية ، فجَنّ الجمهور وظل يُصفق عند الانتهاء من الدور ، فأدى الفريق الدور مرة ثانية ثم ثالثة . وخرجنا حوالي الساعة الثانية صباحاً وقد أسكرنا الطرب . وفي الصباح ، كان عندي معاضرة في الشعر ، فأخبرت الطالبات عما حدث بالأمس وقلت لهن إنني سأدرس معهن نص "كادني الهوى" وتوزيع نويرة ، والإحساس المأساوي للمهاوي فيها ("للحسن ده بالطبع أميل / يللي تلوموا ده شيء بالحق") وكيف أن نويرة يوظف الصمت أحياناً والتماوج بين الصوت الأنثوي والصوت الذكوري . المهم بعد عشرة أعوام كنت في الأوبرا أحضر حفلة لفرقة الموسيقى العربية بقيادة سليم سحاب ، أدت فيها الفرقة أغنية "كادني الهوى" (حسب توزيع نويرة) . وفي أثناء انصرافي ، قابلت بعض طالباتي اللاتي أخبرني بأنهن حرصن دائماً على حضور حفلات فرقة الموسيقى العربية وعلى سماع دور "كادني الهوى" بعد أن استمعن لمحاضرتي (وتأكدت للمرة المليون من أهمية دور المدرس) .

وهناك أعان لها مكانة خاصة عندي مثل "تسلم أيدين اللي اشعري" لعبد المطلب ، و"يا غاليين علي" محمد قنديل ، و"لا تبكي يا عين على اللي قلبه حجر" لشفيق جلال . وهناك أغنية في غاية الجمال تلحن مدحت عاصم ومن كلمات أبي القاسم الشابي وغناء عبد العزيز محمود تسمى "الصباح الجديد" . وحينما أدعى لحديث إذاعي ويطلبون مني أن أذكر الأغنية التي أحب سماعها أذكر "الصباح الجديد" ، ولكنهم يعتبرون دائماً إذ يبدو أن هذه التحفة الفنية قد فُقدت . وأحب أغاني عبد الوهاب القديمة ومعظم أغاني عبد الحليم حافظ . وكما ذكرت من قبل أحب أغاني ماحدة الرومي وكاظم الساهر ، وبعض الأصوات الجديدة (لطيفة وغادة رجب) وإن

كنت أجد أن اختيارهم للنصوص غير موفق بالمرة مع أنه يوجد كُتّاب أغاني من الدرجة الأولى مثل صلاح جاهين - رحمه الله وسيد حجاب .

ولم يكن حب الطبيعة إحدى صفاتي ، ففي أثناء إقامتي في الولايات المتحدة ، وهي بلد غني بالمناظر الطبيعية ، كنت لا أزور إلا المتاحف والباني المهمة من الناحية المعمارية . وفي أثناء رحلتي الطويلة في أوروبا التي قمت بها بعد انتهائي من دراسة الدكتوراه والتي استغرقت أربعة شهور ، كنت لا أزور إلا المتاحف والمعالن الأثرية . ولعل هذا يعود إلى اهتمامي المتطرف بالإنسان وبالحضارة بحسبان أنها من صنع يد الإنسان . وقد دعم من هذا الموقف ثرائني الإسلامي (كما كنت ألسره لنفسي) ، فالحضارة العربية هي أساساً حضارة مدن (وليس حضارة بدو رحل كما يروج البعض) فهي قد بدأت في مكة والمدينة ثم توالى بعد ذلك المدن (دمشق - بغداد - القاهرة ... إلخ) . وقد جاء في الذكر الحكيم (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان) (الأحزاب ٧٢) . فالإنسان هو المركز ، والطبيعة هي الهامش . ومن نفس المنظور كنت أردد دائماً الآية الكريمة (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة ... وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم) (البقرة ٣١) . فآله سبحانه وتعالى بعد أن علم آدم الأسماء ، أي أكسبه الحالة الإنسانية (فانفصل عن الطبيعة) أصبح مركز الكون . كما كنت أردد قول سقراط : " أنا محب للمدينة ، وساكنو المدن هم أساذني ، وليس الفخور والشجر " . كما كنت أخبر الطالبات بقول الدكتور جونسون Dr. Johnson (حينما رأى أن صديقه بوزيل Boswell قد بدأ يعجب بالطبيعة في فرنسا) " إن النباتات إن هي إلا النباتات ، سواء في هذا البلد أو ذاك . ولهذا ننظر لنرى كيف يختلف أهل هذه البلاد (عمن تركناهم خلفنا) " . وقد كان كل هذا تعبير عن التمرکز حول الإنسان (الهيومانية) .

ولكنني مؤخراً لاحظت أنني بدأت أهتم بالطبيعة ، ولكن مع هذا يظل اهتمامي مركزاً على الحدائق ، وحينما أزور بلداً ما ، فإنني عادة ما أبحث عن حديقة النباتات فيها ، أو حدائق القصور ، فأزورها وأقضي فيها بعض الوقت . وأحب الحدائق اليابانية ، خاصة ما يسمى «حديقة الحجر» ، وهي عبارة عن مساحة تفرش بالأحجار والرمال وتُرتب بشكل معين ثم تحاط هذه المساحة بأشجار حضراء عميقة الخضرة . والفروض في هذه الحديقة أن تساعد على التأمل (وهي مرتبطة بالبرذية من طراز الزن) . ولعل اهتمامي بالحدائق هو تعبير عن إيماني بثنائية الوجود الإنساني (الجسد والروح الخير والشر ... إلخ) ، فالحديقة هي النقطة التي تتقاطع فيها الطبيعة مع الإنسان ، فهي ليست بشيء طبيعي / مادي ، ولا هي بعمل فني ، بل هي ثمرة التوازن بين الإنسان والطبيعة والتفاعل بينهما .

تأملات أخيرة في الذات/الموضوع

هذه الرحلة الطويلة غير الذاتية غير الموضوعية في البذور والجذور والثمر هي محاولة من جانبي أن أبين للشباب كيف تكونت أفكارى ، وكيف طورت أدواتي التحليلية حتى يمكنهم الدخول معها في حوار ، وقد يستفيد بعضهم منها فلا يبدأ من نقطة الصفر . وفي إبان الرحلة حاولت أن ألقى الضوء على بعض الجوانب في شخصيتي (الوعي بالمرض والموت - داء التأمل - طقوس الانفصال - الحرب ضد الذات الثلاث ... إلخ) التي لها علاقة برحلتى . ومع هذا أرى أنه لا يزال هناك في جمعيتي بضع كلمات أقولها عن ذاتي ، أنظر فيها وأحاول أن أوضح كيف أراها ، أي أن ذاتي تصبح موضوع تأملي ورؤيتي بشكل مباشر ومركز . ولا شك في أن مثل هذه الرؤية متحيزة (على أقل تقدير) ولكنها تتميز بأنها تحاول أن توضح بعض الدوافع الداخلية التي أسقطها على ما أقوم به من أفعال . وفهم الدوافع مسألة أساسية في فهم ما هو إنساني (أما ما هو طبيعي فلا يمكننا أن نفهمه إلا من الخارج) . لكل هذا فلأحاول ، فقد يكون في هذا بعض الفائدة .

حينما أتأمل حياتي ككل (الذاتية والموضوعية ، الخاصة والعامة) أجد أن أهم ما فيها هو وجود عناصر عديدة أدت إلى اكتشافي أن الحياة الإنسانية مركبة ومعقدة بالأسرار والثغرات والتنوع ، وليست بسيطة أو سطحية أو أحادية ، وأن الإنسان كائن فريد في العالم الطبيعي / المادي .

ولعل رفض الواحدية وإدراك ثنائية الإنسان والطبيعة / المادة (وما ينجم عنها من ثراء وتركيب وتعددية) هو مدخلي لفهم العالم من حولي وفهم الآخرين ، وفهم ذاتي . فانا أرفض الواحدية (الجوهر الواحد - البعد الواحد - الاختزالية) ، كما أرفض عبادة كل ما هو غير إنساني فأرفض عبادة الطبيعة أو عبادة التكنولوجيا ، أو عبادة العقل أو عبادة العاطفة أو عبادة المثالية الخالصة أو عبادة الروحية الخالصة ، كل على حدة ، بل أرى أن هذه كلها مكونات متكاملة متناقضة ، تكون هذا الكائن الفريد : الإنسان الإنسان الذي يقع في نقطة تقاطع بين كل هذه العناصر . والتقاطع هنا يعني التركيب كما يعني الحدود ، فالطبيعة تضع حدوداً على التكنولوجيا ، والمثالية على المادية ، والجسد على الروح ، والدنيا على الآخرة ، والسياسي والعرفي والتاريخي (والنسبي والزمني) على المطلق والثابت والمقدس ، والعكس ، فلا يفقد الإنسان ذاته الإنسانية في بعد واحد . ولعل فكرة التقاطع هذه تفسر تفضيلي لشعر وليام بتلر بيتس على شعر ت . س . إليوت . فالأول ينجح في أن يكتب قصائد عن النقطة التي تتقاطع فيها الأسطورة مع التاريخ ، أما إليوت فقد اقترب كثيراً من عالم الأسطورة وابتعد كثيراً عن عالم التاريخ . وأعتقد أن غرامي بشعر محمود درويش يمكن تفسيره في نفس الإطار (ومع هذا أعشق شعر صلاح عبد الصبور الذي يركز على نكبة الإنسان الكونية ، ولا تغلح أي إنجازات تاريخية

ويتبدى التقاطع هذا من ناحية في عدم إنكارى الدنيا وضرورة فهمها والتمتع بها . فهي المجال الذي يحقق فيه الإنسان حريته وإمكاناته (والإمكانات التي يحبو الله بها الإنسان هي نعمة تسعده إن اعترف بها الإنسان وحققها ، وهي نعمة تعذبه إن أنكرها وبددها) . كما يتبدى التقاطع من ناحية أخرى في محاولتي قدر استطاعتي ألا أستوعب فيها غمماً ، وألا أذوب في اللذة والاستهلاكية فهما يدمران حدود الإنسان . وهذا موضوع أساسي كامن في دراساتي عن جون كيتس وفي كتاب الفردوس الأرضي : رغبة الإنسان الأمريكي العارمة في أن يحقق الفردوس الآن وهنا ، فينكر التاريخ والماضي ، وينكر المستقبل ، ويعيش في اللحظة وحسب ، وينكر ما وراء حدود المادة (أي ينكر عناصر التقاطع والتركيب) ، فينقلب الفردوس إلى جحيم ، لأن الإنسان كائن مركب لا يمكنه أن يعيش إلا داخل حياة مركبة لا هي بالمادية الدنيوية ولا بالروحانية الأخروية .

كما تظهر الثنائية (وما ينبجم عنها من تقاطع) في ميلي نحو التنظير والتأمل والمجذابي نحو عالم الفكر ، ولكني مع هذا أحاول قدر استطاعتي أن يظل التنظير مفتوحاً على الحياة ، والتأمل على الواقع ، وعالم الفكر على عالم الممارسة . قد أقوم بنحت النماذج الإدراكية وأرى تفاصيل الواقع من خلالها ، ولكن أحاول قدر استطاعتي أن يظل النموذج مفتوحاً على التفاصيل ، حتى يمكن للتفاصيل أن تثريه وتعدله ، بل وقد تغيره (ومن هنا العلاقة الحلزونية بينهما) .

ولا شك في أنه توجد في شخصيتي نزعات إمبريالية (فاوستية بروميثية) تتضح في أنني عبر حياتي كان هناك هدف / مشروع في حياتي (هدف / مشروع كان أكبر من مقدراتي دائماً لا أعرف كامل أبعاده إلا بعد أن أدخله ، ولعل هذه إستراتيجية نفسية غير واعية لأخدع نفسي حتى لا أجن عن القيام بالمشروع : فهل في مقدور إنسان أن يبدأ مشروعاً ينتهي بعد أكثر من ربع قرن ، ويكلفه من الأموال ما لا يملك عندما يبدأ مشروعاً؟) . وأقوم دائماً بترتيب تفاصيل حياتي وتنظيم وقتي بشكل صارم في إطار هذا المشروع ، وأحدد مقدار المكسب والخسارة من خلاله .

ونفس النزعة الإمبريالية تتضح في مقدرتي على تجاهل الزمان أحياناً (بالمعنى المباشر والمعنى الفلسفي) ليصمت العالم بكل تفاصيله من حولي وليتحول من تفاصيل متناثرة إلى أنماط تاريخية متكررة (وأحياناً ساكنة) . بل إنني أتجاهل الآخرين أحياناً (ومن هنا ما أشرت إليه من قبل من عدم حضور جنازات وعدم زيارة المرضى) ، وعندى مقدرة على توطينهم (وتوطين ذاتي) لخدمة ما أنصوّر أنه القضية . والذئاب الثلاثة التي نهشتني وثقتي في نفسي هي تعبير عن هذه النزعة .

ولكن مع هذا يجب أن أذكر الجانب الآخر ، وهو أنني مدرك لهذه النزعة الإمبريالية ، بل

أفقتها ، ولعل وجودها داخلي ، ورؤيتي لجوانبها المظلمة ، هما اللذان دفعاني إلى الحرب ضدها سواء في البشر أم في السياسة . أما الذئاب الثلاثة فقد قضيت على اثنين منها وروضت الثالث . وثقتي بنفسي هي في نهاية الأمر ثقة بالإنسان وبمقدرته على تجاوز ذاته وعلى الإصلاح والتحول وعلى معرفة حدوده ، فهي ثقة لا ينتج عنها غرور وخيلاء وإنما اعتزاز بالإنسان ومقدراته ، وتفاؤل دائم بخصوص المستقبل . وتولد هذه الحالة العقلية والنفسية في نفسي مفدرة على المزيد من العمل من أجل إقامة العدل في الأرض وخلق مجتمع يليق بنا كبشر (أو هكذا أرى القصة) . ويمكن أن أقول الشيء نفسه عن مشروعني الفكري ، فهو لم يكن قط مشروعاً خاصاً للشهرة أو المدة أو تحقيق الذات على حساب الآخرين ، وإنما كان مشروعاً له بُعد إنساني عام ، سواء حين كتبت عن الصهيونية أم عن الأدب أم قصص الأطفال ، أم حتى حين غُيرت معمار منزلي وأثاثه ! وتوظيف الآخرين يمكن فهمه في إطار هذا ، فلم أكن أوظف الآخرين لصالحني الشخصي ، بل أرى أنني كنت أعاون معهم لإنجاز مشروع فكري أتصور أنه سيكون فيه الخير للجميع (ولعل هذا يفسر الحجم الضخم للعمل التطوعي الذي أسهم به الكثيرون في الموسوعة ، فقد أدركوها الطابع الإنساني العام لهذا المشروع) . وأحرص دائماً في مؤلفاتي أن أعطي كل ذي حق حقه حتى لا أنسب لنفسني شيئاً لم أقم به . كما أحاول قدر استطاعتي أن أعرض من يتعاون معي عما بذله من جهد بشكل أو بآخر (بخلاف ما قد أدفعه له من أجر زهيد) . فإن كان طالباً في الدراسات العليا مثلاً أحاول أن أناقشه في رسالته وأوفر له بعض المراجع وأشجعه (وعلى كل يسأل في هذا كل من تعاونت معه) . وقد سمّت طالبتني جيهان فاروق هذه النزعة بأنها «الهندسة الإنسانية» أو «الشبكة الإنسانية» ، وهي أنني أكون شبكة من العلاقات الإنسانية أمثل أنا مركزها ، الجميع يخدم فيها الجميع بطريقة تراحمية مبتكرة بحيث يحقق جميع الأطراف من خلالها المكاسب المباشرة (التي تفوق أحياناً ما تحققه العلاقات التعاقدية) ولا يشعر أفرادها بالوحدة واليتم الكروني .

ومشروعني المعرفي (خاصةً إبان كتابة الموسوعة) كان من بعض الوجوه يشبه الهوس (في حديث لي مع الأستاذ هيكل بعد إنجاز الموسوعة قلت له إنني لم أكن أشعر بضخامة المشروع ولا الهوس الذي أصابني ، فضحك وقال : هذه هي طبيعة الهوس) . ولكنني مع هذا لم أهمل حياتي العائلية والاجتماعية ، فرتبت لأولادي حياتهم ، ورغم أن زوجتي شاركتني الهوس (أو الجنون المقدس) إلا أنها لم تفقد حياتها في مشروعني ، فقد ساهمت في مشروعني كروحة وكأستاذة جامعية ، واستمرت في حياتها الجامعية وصادقاتها . ورغم إهمالي بعض جوانب حياتي الاجتماعية فإنني نجحت في جوانب أخرى كثيرة ، فلم أتوقف عن رؤية أصدقائي وأقاربي ، ولم أتوقف عن التمتع بكثير من جوانب الحياة الدنيا . باختصار شديد لم أتحول إلى راهب ينكر عالم الجسد والطبيعة ، رغم أن مشروعني المعرفي غمك على ذاتي وجوانحي .

وبرغم انغلاقي النسبي على ذاتي (وهو أمر أرى أنه ضروري أحياناً ليحمي الإنسان نفسه مما هو شائع ومألوف وليقي نفسه شر التفاصيل والتفاهات ولقو الحديث والأحداث اليومية) فإنني لم أتوقع قط . بل ظلمت منفحاً على ما هو أمامي ، وعلى من هم حولي ، أتفاعل معهم وأتعلم منهم . قد لا أقبل ما أرى ، ولكني أخضعه دائماً للتحليل وأستبطن ما أرى أنه خير ، وبعد مدة طويلة (بعد أن يكتمل النموذج الجديد !) أبداً في التحول (ألم أنتقل من ضيق المادية إلى رحابة الإيمان في ربع قرن ؟) .

وكثيراً ما تهاجمني لحظات يفقد الكون فيها معناه ، وتصبح الأمور مخيفة وسببية ، وأبدأ في الشعور بالرغبة في تحطيم ذاتي وتحطيم من حولي . حدث لي هذا عند توقيع اتفاقية كامب ديفيد ، كما حدث في عام ١٩٧٩ ، وأنا في الولايات المتحدة ، وكنت أقوم ساعتها بجولة في الكونغرس لأحدثهم عن علاقة إسرائيل بجنوب إفريقيا . وفجأة بدأت أشعر بسخافة ما أفعله وأتساءل عن جدواه . وكنت أسأل مرافقتي لم لا أتوقف عن كل هذا ، وأذهب إلي مطعم فرنسي أو صيني يطل على النهر فأجلس فيه وأتناول ما أريد من أطعمة ثم أدخن سيجاراً وأذهب بعدها للمسرح وأعود لمنزلي . وبذلك أكون قد أعطيت ظهري للتاريخ ، بل وأخرجت لساني له ؟ لماذا سأعود إلى مصر ، وأنا عندي عروض مغرية لوظائف عديدة ؟ أمكث في أمريكا ، بلد اللاتاريخ والآن وهنا ، فأعيش في اللحظة ولا أفكر لا في الماضي ولا في المستقبل ، فأفقد وعيي وأهنا بما تحس به حواسي الخمسة ، بحسبانه البداية والنهاية ، أليست هذه الذ طريقة للانتحار يعرفها المرء ؟

كانت مثل هذه اللحظات تهاجمني ، ولكني ، بفضل الله وبسبب إيماني به وبالإنسان ، أعود إلى عالم الوعي والحدود والمقدرة على التجاوز فأستمر . فأذهب إلى الكونغرس ، على سبيل المثال ، أقابل بعض أعضائه لأحدثهم عن تحيز الإعلام الأمريكي ومن ثم حرصه على عدم كشف العلاقة بين جيبين استيطانيين هنصريين ، أخرج الأدلة من حقيبي أعطيها إياهم ، عل الله أن ينير أبصارهم وحتى تتحول الحقيقة إلى عدل . ثم أعود بعد ذلك إلى مصر ، لأعلم في كلية البنات ولاكتب المرسوعة ولأعقد ندوة شهرية أتفاعل من خلالها مع الشباب .

لعله قد يكون من المناسب أن أنهي هذه الرحلة الفكرية ، هذه السيرة غير الذاتية غير الموضعية ، بقصة فنان مدينة كوو رو ، أهديتها لجمال حمدان . كما أهديتها لكل فنان أو مفكر يتفانى في عمله ويستوعب فيه حتى ينسى تماماً الزمان والمكان والطبيعة / المادة ، ليبدع عملاً فنياً جميلاً . خامته مستقاة من الطبيعة ، ولكنه في تناسقه وتركيبته وجماله يقف شاهداً على قوة النفس البشرية ومقدرتها على التجاوز ، والقصة من كتاب هنري ديفيد ثورر وولدن .

"كان هناك فنان يعيش في مدينة كوو رو ، دائب المحاولة للوصول إلى الكمال . مرة ، رأى له أن يصنع عصا وقد توصل هذا الفنان إلى أن الزمان عنصر مكون للعمل الفني الذي لم يسبل

بعد إلى الكمال ، أما العمل الكامل فلا يدخله الزمان أبداً . فقال لنفسه : سيكون عملي كاملاً من جميع النواحي ، حتى لو استلزم الأمر ألا أفعل شيئاً آخر في حياتي .

فذهب في التو إلى غابة باحثاً عن قطعة من الخشب ، لأن عمله الفني لا يمكن أن يُصنع من مادة غير ملائمة . وبينما كان يبحث عن قطعة الخشب ، ويستبعد العصا تلر الأخرى ، بدأ أصدقاؤه تدريجياً في التخلي عنه ، إذ نال منهم الهرم وقصراً ، أما هو فلم يتقدم به العمر لحظة واحدة ، فرفاؤه لغايته وإصراره وتقواه السامية أضقت عليه ، دون علمه ، شاباً أزلياً . ولأنه لم يهادن الزمن ، ابتعد الزمان عن طريقه ، ولم يسعه إلا أن يطلق الزفرات عن بُعد ، لأنه لم يمكنه التغلب عليه . وقبل أن يجد الفنان العصا المناسبة من جميع النواحي ، أضحت مدينة كورور أطلالاً عتيقة ، فجلس هو على أحد أكوامها لينزع لحاء العصا . وقبل أن يعطيها الشكل المناسب ، كانت أسرة كاندهار الحاكمة قد بلغت نهايتها ، فكتب اسم آخر أعضائها على الرمل بطرف العصا ، ثم استأنف عمله بعد ذلك . ومع انتهائه من تنعيم العصا وصلبها لم يعد النجم كالياً في الدب القطبي . وقبل أن يضع الحلقة المعدنية (في طرف العصا لوقايتها) ، وقبل أن يُزين رأسها بالأحجار النخبة كانت آلاف السنين قد مرت . وكان براهيم قد استيقظ وخلد إلى النوم عدة مرات .

وحينما وضع الفنان اللبسة الأخيرة على العصا ، اعتزته الدهشة حين تمددت العصا بفتة أمام ناظره لتصبح أجمل الخلوقات طراً . لقد صنع نسقاً جديداً بصنعه هذه العصا ، عالمًا نسبه كاملة وجميلة ، وقد زالت في أثناء صنعه مدن وأسر قديمة ، ولكن حل محلها مدن وأسر أكثر جلالاً . وقد رأى الفنان الآن وقد تكومت عند قدميه أكوام النجارة التي سقطت لتوها ، رأى أن مرور الوقت في السابق بالنسبة له ولعمله كان مجرد وهم ، وأنه لم يمر من الوقت إلا القليل . كانت مادة عمله نقية صافية ، وكان منه نقياً صافياً ، فكيف كان يمكن للنتيجة ألا تكون رائعة ؟ .

والله أعلم .

.....	مقدمة	٥
-------	-------	---

الجزء الأول : التكوين الفصل الأول : البذور الأولى

.....	دمهور : المجتمع التقليدي والإحساس بالتاريخ	١٣
.....	دمهور : المدينة / القرية	١٨
.....	رمضان في دمهوور	٢٩
.....	الأناشيد والألعاب	٣١
.....	التنوع والتسامح	٣٧
.....	من التراحم إلى التعاقد	٤٨
.....	البيع والشراء بين التراحم والتعاقد	٦٠
.....	حروبى الخاصة ضد المؤسسات	٦٦
.....	الرعى بالسوت والمرضى	٧٤

الفصل الثاني : بدايات الهوية

.....	حلقات الانفصال	٨٢
.....	الرموز والطقوس وداء التأمل	٨٦
.....	جامعة الإسكندرية	٩٢
.....	تجربتي المادية والماركسية	٩٨

الفصل الثالث : في الولايات المتحدة

.....	مواجهة فكرية أولى	١٠٥
.....	جامعة كولومبيا	١٠٦
.....	جامعة ريمرز	١١٠
.....	بعض من عرفت في الولايات المتحدة	١١٧
.....	الثورة في أمريكا	١٢٣
.....	المودة لمصر والذئاب الثلاثة	١٢٨

١٣٧	تآكل النموذج المادي
١٤١	الدين والهوية
١٤٣	الفردية والنسبية
١٦٠	العقلانية المادية ؟
١٧٢	الإمبريالية والعنصرية
١٧٩	الجنس والمجتمع الأمريكي
١٩٣	الاستهلاكية والإمبريالية النفسية
٢٠٢	العلم والتقدم
٢١٢	الروحي والمادي
٢١٥	بدايات الانتقال
٢٢٣	آلام الانتقال
٢٣٢	الإيمان ومقولة الإنسان

الجزء الثاني : عالم الفكر

الفصل الأول : النماذج الإدراكية والتحليلية

٢٤١	من الموضوعية المطلقة إلى الموضوعية الاجتهادية
٢٥١	الموضوعية المتلقية والجامعة
٢٦٣	العقل التوليدي
٢٦٧	تشومسكي في القاهرة
٢٧٢	النماذج كأداة تحليلية
٢٩١	الحلولية
٢٩٨	العلمانية الشاملة

الفصل الثاني : بعض الفترات الأولى

٣٠٥	الراسمالية وفكرة العودة للطبيعة
٣٠٨	رسالة الدكتوراه : تمهيد
٣١٢	الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ
٣١٨	الفرديوس الأرضي : التقدم والداروينية

٣٢٣	الفردوس الأرضي : صهيون الجديدة في إسرائيل والولايات المتحدة
٣٢٨	الفردوس الأرضي : عقد الزواج الشامل
٣٣٤	إشكالية التحيز : تجاربي الخاصة
٣٤٢	إشكالية التحيز : التعمير الحضاري
٣٤٦	إشكالية التحيز : المؤتمر والكتاب

الفصل الثالث : الصهيونية

٣٥١	علاقتي بعالم السياسة
٣٦١	علاقتي بالصهيونية
٣٦٨	الوحش الصهيوني من الداخل
٣٧٤	التخصص في الصهيونية
٣٧٧	نهاية التاريخ
٣٨٥	بعض المعارك الجانبية مع الصهيونية
٣٩٧	الأيدولوجية الصهيونية
٣٩٩	دراسات أخرى في الصهيونية

الفصل الرابع : الموسوعة : تاريخها

٤٠٧	متى بدأت كتابتها ؟
٤١١	من التفكير إلى التركيب والتأسيس
٤٢٣	الصهيونية والدراسة الأدبية
٤٣٢	أحداث وأصدقاء وأعداء
٤٣٧	المؤامرة اليهودية ضدي
٤٤١	تلقي النقد للموسوعة

الفصل الخامس

الموسوعة : الموضوعات الأساسية

٤٤٧	الجماعات الوظيفية
٤٥٣	أصول نموذج الجماعة الوظيفية
٤٥٨	معاداة اليهود والجماعة الوظيفية
٤٦١	'اكتشاف' اليهود من جديد

٤٦٨	اكتشاف اليهودية من جديد
٤٧١	اكتشاف الصهيونية وإسرائيل من جديد
٤٧٥	معاودة اليهود واليهودية
٤٨٠	النصرانية والمؤامرة اليهودية

الفصل السادس : في عالم الأدب والفن

٤٨٧	حياتي في الجامعة
٤٩٩	الأدب : حبي الأول والقديم
٥١٣	كتابات أكاديمية أدبية
٥١٥	دراسات في اللغة
٥١٦	أصدقاء ومعارف من الأدباء
٥١٦	قصص الأطفال
٥٢٦	المعمار الداخلي
٥٣٨	الفنون الأخرى
٥٤٨	تأملات أخيرة في الذات / الموضوع